شروح كتاب التوحيد



ومعه

القول السديد والقول المفيد

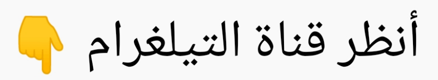
تأليف

عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
محمد بن صالح العثيمين

تعليق

الشيخ/ محمد حامد الفقي
الشيخ/ عبد العزيز بن عبد الله بن باز

قسم التحقيق والبحث العلمي
بالمكتبة الإسلامية



(تحميل كتب ورسائل علمية)





تحميل كتب و رسائل علمية

channel publik

Info

t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah

Tautan Undangan

بسم الله الرحمن الرحيم



الطبعة الأولى

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/٢٧٣٩

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م

● الإدارة والفرع الرئيسي:

٣٣ ش صعب صالح - عين شمس الشرقية - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت وفاكس: ٤٩٩١٢٥٤/٤٩٠٠٦٠٦/٤٩٠٠٨٠٨

● فرع الأزهر: ١ ش البيطار خلف جامع الأزهر - درب الأتراك - ت: ٥١٠٨٠٠٤

E-mail: islamya2005@hotmail.com

شروح كتاب التوحيد

فتح المجيد

ومعه

القول السديد

والقول المفيد

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الحقّ المبين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين وإمام المتقين، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن الله تعالى أرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق رحمة للعالمين وقدوة للعالمين وحجة على العباد أجمعين، بيّن به وبما أنزل عليه من الكتاب والحكمة كل ما فيه صلاح العباد واستقامة أحوالهم في دينهم ودنياهم، من العقائد الصحيحة والأعمال القويمة والأخلاق الفاضلة والآداب العالية، فترك الرسول ﷺ أمّته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فسار على ذلك أمته الذين استجابوا لله ورسوله، وهم خيرة الخلق من الصحابة والتابعين والذين اتبعوهم بإحسان، فقاموا بشريعته وتمسكوا بسنّته وعضّوا عليها بالنواجذ عقيدة وعبادة وخلقًا وأدبًا، فصاروا هم الطائفة الذين لا يزالون على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى وهم على ذلك.

ونحن لله الحمد على آثارهم سائرون وبسيرتهم المؤيّدة بالكتاب والسنّة مهتدون، نقول ذلك تحدُّثًا بنعمة الله تعالى وبيانًا لما يجب أن يكون عليه كل مؤمن، ونسأل الله تعالى أن يثبتنا وإخواننا المسلمين بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يهب لنا منه رحمة إنه هو الوهاب.

ولما اختلطت الأمور، واشتبهت، حتى صار الإنسان يكاد ألا يعرف الحق من الباطل، كان من سنة الله سبحانه وتعالى في هذه الأمة أن يبعث فيها على كل رأس مائة سنة من يجدد لها دينها، وحدثت الشركيات في هذه الأمة، من عبادة القبور، والاستغاثة بغير الله، والتوسل بالأولياء والصالحين من المقبورين.

ظهر رافع لواء السنة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله الذي هدم الله به الضلالات، والشركيات، ورفع به راية التوحيد والإسلام، إلى يوم الدين إن شاء الله، وكان من أهم ثمراته رحمه الله هذا الكتاب «كتاب التوحيد»، التوحيد الذي هو حق على العبيد، وقد ميزنا

الكلام في هذا الكتاب بأنه أول كلام في الصفحة تحت خط ميزناه باللون الأحمر وشكله هكذا [═══════].

ولقد اعتنى بالكتاب الكثير من العلماء منذ ألفه رحمه الله، فتمت طباعته مئات، بل آلاف المرات، وطبع بكل اللغات، وقام العلماء بشرحه.

وكان منهم على سبيل المثال حفيده الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فزاد الكتاب وضوحًا وسهولة، وقام بتسميته «فتح المجيد»، وقد ميزنا الكلام في هذا الكتاب بوضع خط فوق الكلام وشكله هكذا [═══════].

وكان منهم أيضًا العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله فقام بالتعليق على الكتاب، وشرحه شرحًا مختصرًا، وقام بذكر مقدمة تشتمل على صفوة عقيدة أهل السنة، وخلاصتها المستمدة من الكتاب والسنة، وسماه «القول السديد في مقاصد التوحيد»، وقد ميزنا الكلام في هذا الكتاب بوضع خط فوق الكلام وشكله هكذا [- - - - - - - -].

وقام العلامة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين بشرح الكتاب، وزاد فيه وأجاد، وسماه «القول المفيد»، وقد ميزنا الكلام في هذا الكتاب بوضع خط فوق الكلام وشكله هكذا [────────]، وهذا الخط ممتد من يمين الصفحة إلى شمالها.

وكعادة كتب الشيخ العثيمين رحمه الله فقد جاء كتابه سهل العبارة، واضح المقصد، قريبًا من القلوب.

وقام العلامة محمد حامد الفقي رحمه الله بوضع بعض التعليقات النافعة على «فتح المجيد»، وللإنصاف فقد أجاد الشيخ رحمه الله، في تعليقاته، وقام سماحة الأب الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله بالتنبيه على بعض الاستدراكات على كلام الشيخ الفقي، وقد ميزنا التعليقات في الحاشية بوضع خط فوق الكلام وشكله هكذا [────────]، وهو قصير من أقصى يمين الصفحة.

وإتمامًا للفائدة فقد قمنا بجمع شروح كتاب التوحيد في كتاب واحد، وسميناه «شروح كتاب التوحيد»، جمعنا فيه كتب «التوحيد»، و«فتح المجيد»، و«القول السديد في مقاصد التوحيد»، و«القول المفيد».

وقد كان عملنا في الكتاب؛ أن ذكرنا ترجمات لأعلام هذا الكتاب الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، والشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، والشيخ محمد بن صالح بن عثيمين، كما قمنا بتقديم متن كتاب التوحيد، ويليه كتاب فتح المجيد، ويليه كتاب القول السديد، ويليه كتاب القول المفيد، ولسهولة

الوصول للمراد قمنا بتمييز كلام الشيخ محمد حامد الفقي رحمه الله عن باقي الحواشي والهوامش، بوضع حرف (ق)في نهاية الكلام رمزاً للشيخ رحمه الله، وبتمييز تنبيهات الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله بوضع حرف (ز)في نهاية الكلام رمزاً للشيخ رحمه الله، وقد قمنا بتخريج أحاديث الكتاب، وفقًا للآتي: قمنا بعزو الحديث إلىٰ مكان الحديث في الصحيحين، أو أحدهما، إن كان فيهما وهو كاف في الإشارة إلىٰ صحة الحديث، وما لم يكن في الصحيحين قمنا بذكر حكم العلامة الألباني رحمه الله علىٰ الأحاديث صحة وضعفًا، وما لم يقم العلامة الألباني رحمه الله بالحكم عليه، فقد قمنا بعزوه إلىٰ موضعه مع ذكر الحكم عليه من الكتب المتقدمة إن وجد، مع ذكر معان بعض المفردات الغريبة والتي قد يصعب فهمها.

وأخيراً فما كان من توفيق فمن الله جل وعلا، وما كان من خطأ أو نسيان فمني ومن الشيطان والله ورسوله ﷺ منه بريئان، ونسأل الله أن يجعل عملنا هذا في ميزان حسناتنا وأن يجعله خالصًا لوجه وأن يتقبله بفضله ومنه إنه نعم المولىٰ ونعم النصير.

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وآله والتابعين لهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

❊ ❊ ❊

ترجمة شيخ الإسلام الإمام
محمد بن عبد الوهاب التميمي ـ رحمه الله ـ
١١١٥هـ - ١٢٠٦هـ

مولده: وُلِد الشيخ الإمام مُحمَّد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن مُحمد بن أحْمد بن راشد التميمي سنة ١١١٥ هجرية الموافق سنة ١٧٠٣ ميلادية في بلدة العيينة الواقعة شَمال الرياض.

نشأته: ونشأ الإمام فِي حجر أبيه عبد الوهاب فِي تلك البلدة فِي زمن إمارة عبد الله بن مُحمد بن حَمد بن معمَّر، وكان سبَّاقًا فِي عقله وفِي جسمه، حادَّ المزاج، فقد استظهر القرآن قبل بلوغه العشر.

درس علىٰ والده الفقه الحنبلي والتفسير والحديث، وكان فِي صغره مُكبًّا علىٰ كتب التفسير والحديث والعقائد، وكان يعتنِي بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحِمهما الله تعالَىٰ ويُكثر من مطالعة كتبهما.

ثُم غادر البلاد قاصداً حج بيت الله الحرام، وبعد أداء الفريضة أمَّ مدينة النبي ﷺ.

وصفه: كان الشيخ ـ رحمه الله ـ كثير الذكر لله، قلَّ ما يفتَر لسانُه مِن قول: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبَر).

وكان إذا جلس الناس ينتظرونه يعلمون إقباله إليهم قبل أن يروه من كثرة لَهجه بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير.

كان عطاؤه عطاء من وثِق بالله لا يَخشىٰ الفقر بِحيث إنه يَهب الزكاةَ والغنيمة فِي موضع واحدٍ لا يقوم ومعه منها شيءٌ.

ويتحمَّل الدَّينَ الكثير لأضيافه وسائله والوافدين، وعليه الهيبة العظيمة التِي اتفقت لغيره من العلماء والرُّؤساء وغيْرهم. وهذا شيء وضعه الله فِي قلبِه.

وكان ألْيَن وأخفض لطالب العلم أو سائل أو ذي حاجة أو مقتبس فائدة.

وكان له مَجالس عديدة فِي التدريس كل يوم وكل وقت فِي التوحيد والتفسير والفقه وغيْرها.

شيوخه:

بمدينة النبي ﷺ: وكان فيها إذ ذاك من العلماء العاملين الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف، من آل سيف النَّجدي، وكان رأسًا فِي بلد الجمعة.

فأخذ عنه الشيخ مُحمد بن عبد الوهاب كثيراً من العلم وأحبه الشيخ عبد الله، وكان به حفيًّا، وبذل جُهدًا كبيراً فِي تثقيفه وتعليمه، وكان من أكبَر عوامل توثيق الروابط بينهما وتَمكين المحبَّة توافق أفكاره ومبدئه مع تلميذه فِي عقيدة التوحيد، والتألُّم مِما عليه أهل نَجد وغيْرهم من عقائد باطلة وأعمال زائغة.

واستفاد الإمام من مصاحبته فوائد عظيمة وأجازه الشيخ عبد الله بالحديث المشهور المسلسل بالأولية: «**الراحمون يرحَمهم الرحْمن**» من طريقين:

إحداهُما: من طريق ابن مفلح عن شيخ الإسلام أحْمد ابن تيمية وينتهي إلَىٰ الإمام أحْمد.

والثاني: من طريق عبد الرحمن بن رجب عن العلامة ابن القيم عن شيخه شيخ الإسلام،

وينتهي أيضًا إلَىٰ الإمام أحْمد.

كما أجازه الشيخ بكل ما فِي ثبت الشيخ عبد الباقي الحنبلي شيخ مشايخ وقته قراءة وعلمًا وتعليمًا وصحيح البخاري بسنده إلَىٰ مؤلفه، وصحيح مسلم وشروح الصحيحين وسنن الترمذي والنسائي وأبِي داود وابن ماجه ومؤلفات الدارمي بسنده المتصل إلَىٰ المؤلف.

ومسند الإمام الشافعي، وموطأ الإمام مالك، ومسند الإمام أحْمد، إلَىٰ غيْر ذلك مِما ثبت فِي ثبت الشيخ عبد الباقِي.

ثُم وصل الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف حبل الشيخ مُحمد بِحبل الْمحدِّث مُحمد حيات السندي وعرَّفه به وبِما هو عليه من عقيدة صافية وبِما تَجيش به نفسه من مقت الأعمال الشائعة فِي كل مكان من البدع والشرك الأكبَر والأصغر وأنه إنَّما خرج من نَجد للرحلة فِي طلب العلم وسعيًا إلَىٰ الاستزادة من السلاح الدينِي القوي الذي يعينه علىٰ ما هو مُصممٌ عليه من القيام بالدعوة والْجهاد فِي سبيل الله.

ومِمن أخذ عنهم الشيخ وانتفع بِمصاحبته الشيخ علي أفندي الداغستانِي والشيخ إسْماعيل العجلونِي، والشيخ عبد اللطيف العفالقِي الإحسائي، والشيخ مُحمد العفالقي الإحسائي.

وقد أجازه الشيخان الداغستانِي والإحسائي بِمثل ما أجازه الشيخ عبد الله بن إبراهيم بِما فِي ثبت أبِي المواهب.

ثُم توجه إلَىٰ نَجد ثُم البصرة قاصدًا الشام ليستزيد من العلوم النافعة.

شيوخه بالبصرة: فأقام مدة بالبصرة درس العلم فيها علىٰ جَماعة من العلماء فمنهم الشيخ مُحمد المجموعي وقرأ الكثير من النحو واللغة والحديث كما كتب كثيرًا فِي تلك الإقامة من المباحث النافعة والكتب القيمة ونشر علمه وآراءه القيمة حول موضوع البدع والْخرافات وإنزال التضرُّع والحاجات بسكان القبور من عظام نَخرة وأوصال مُمزقة وعزز كلامه بالآيات الساطعات والبراهين الواضحات.

فقابلوه بالتكذيب والأذىٰ وأُخرج من البلاد وقت الهاجرة وأنزلوا بعض الأذىٰ بشيخه المجموعي.

فقصد الزبيْر فِي وقت الصيف وشدة الرمضاء وكان ماشيًا علىٰ رجليه وكاد يَهلك من شدة الظمأ. فساق الله إليه رجلاً من بلد الزبيْر يُسمَّىٰ أبا حُميدان، فرآه من أهل العلم والصلاح فَحمله علىٰ حِماره حتَّىٰ أوصله إلَىٰ بلد الزبيْر.

وتوجه إلَىٰ الشام راجلاً لينهل من مناهل العلم ويتغذَّىٰ من الثقافات الدينية مستزيدًا.

عودته لَى نَجد: غير أنه قلَّت نفقته فقفل راجعًا فأتَىٰ الإحساء فنَزل بِها عند الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف الشافعي وقرأ عنده ما شاء الله أن يقرأ.

ثُم توجه إلَىٰ حريْملا، قرية من نَجد، وذلك لأن والده الشيخ عبد الوهاب قد انتقل إليها.

ولَما آب الشيخ من رحلته الطويلة وراء العلم والتحصيل لازم أباه واشتغل عليه فِي علم التفسير والحديث وغيْرهما.

وعكف علىٰ كتب الشيخين، شيخ الإسلام ابن تيميَّة والعلامة ابن القيم رحِمهما الله فزادته تلك

الكتب القيِّمة علمًا ونورًا وبصيرة ونفخت فيه روح العزيمة.

ورأىٰ الشيخ بثاقب نظره ما بنجد وما بالأقطار التِي رحل إليها من العقائد الضالَّة والعادات الفاسدة، فصمَّم علىٰ القيام بالدعوة.

حالة الجزيرة العربية قبل دعوة الشيخ رحمه الله: إن الشيخ ـ رحمه الله ـ زار الحجاز والإحساء والبصرة والزبير ليروي ظمأه من مناهل العلوم النافعة ويتفهم أصول الدين وشرائعه القويمة، ويقف علىٰ أحوال أولئك الأقوام وعقائدهم وعلومهم بعد ما شاهد فِي نَجد من المنكرات الأثيمة والشركيات القبيحة الذميمة القاتلة لِمعنَىٰ الإنسانية.

وكان أيام تَحصيله يقرر لسامعيه ومُخالطيه ما فهمه من الدين والتوحيد، ويبيِّن قبائح ما تأتيه العامة وأشباه العامة من أدعياء العلم.

وعندما كان فِي المدينة يسمع الاستغاثات برسول الله ﷺ ودعاءه من دون الله، فكاد مرجل غيظه ينفجر فقال للشيخ مُحمد حيات السندي: (ما تقول يا شيخ فِي هؤلاء؟) فأجابه علىٰ الفور ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٩].

درس أحوال أهل البلدان التِي زارها ورأىٰ ما هم فيه من بُعد عن الدين ولاسيما نَجد.

رأىٰ نَجدًا كما يُحدثنا المؤرخون السالفون لنَجد كابن بشر، وابن غنام، والآلوسي، وحافظ وهبة، وغيرهم مرتعًا للخرافات والعقائد الفاسدة التِي تتنافَىٰ مع أصول الدين الصحيحة.

فقد كان فيها كثير من القبور تنسب إلَىٰ بعض الصحابة، يَحج الناس إليها ويطلبون منها حاجاتِهم ويستغيثون بها لدفع كروبِهم.

وفِي الدرعية كان غار يقصدونه بزعم أنه كان ملجأً لإحدىٰ بنات الأمير، التِي فرَّت هاربة من تعذيب بعض الطغاة.

وأغرب من ذلك توسلهم فِي بلد المنفوخة بفحل النخل، واعتقادهم أن من تؤمُّه من العوانس تتزوج، كانت من تقصده تقول: (يا فحل الفحول! أريد زوجًا قبل الحول).

وكانوا فِي الحبيلة يؤُمُّون قبْرَ زيد بن الخطاب رضي الله عنه يتضرعون لديه ويسألونه حاجاتِهم وكذلك فِي الدرعية كان قبْر لبعض الصحابة رضي الله عنهم كما يزعمون.

وفِي شعب عبيرا، قبْر ضرار بن الأزور رضي الله عنه، كانوا يأتون لديه من الشرك والمنكر ما لعل مثله لا يتصوَّر.

ورأىٰ فِي الحجاز من تقديس قبور الصحابة وأهل البيت والرسول ﷺ ما لا يسوغ إلا مع ربِّ الأرباب، كما رأىٰ فِي البصرة والزبير، وسَمع عن العراق والشام ومصر واليمن من الوثنية الجاهلية ما لا يستسيغه العقل ولا يقره الشرع كما سَمع عن العيدروس فِي عدن، والزيلعي فِي اليمن والبدوي في مصر الشيء الكثير.

رأىٰ ما رأىٰ وسَمع ما سَمع وتَحقق، ووازن تلك الأفعال المنكرة بِميزان الوحيين كتاب الله المبين وسيرة الرسول الأمين ﷺ وأصحابه المتقين، فرآهم فِي بُعد عن منهج الدين وروحه.

رآهم لَم يعرفوا لِماذا بَعث الله الرسل ولِماذا بعث الله مُحمدًا ﷺ للناس كافة ؛ ورأىٰ أنَّهم لَم يعرفوا حالة الْجاهلية وما كان فيها من الوثنية الممقوتة ، رآهم غيَّروا وبدَّلوا أصول الدين وفروعه إلا القليل . هذه حالتُهم فِي دينهم وعبادتِهم .

بداية دعوته لقومه: وبعد أن ثبت لدىٰ الإمام وتَحقق حالتَهم السيئة فِي دينهم ورأىٰ إقرار العلماء فِي الحجاز وفِي نَجد وسائر الأقطار علىٰ تلك المنكرات والمبتدعات إلا القليل منهم مِمن كان لا يتجاسر أن يبوح بِمقت ما فعلوا، وأيقن أنَّهم قد أدخلوا فِي أصول الإسلام ما يأباه القرآن وما تأباه السنة الْمحكمة ، وكان يقوي عقيدته بِخطئهم وركونِهم إلَىٰ البدع ما يقرؤه من الروايات القائلة بأن المسلمين لابد أن يُغيِّروا وأن يسلكوا مسالك الذين من قبلهم كالحديث الصحيح : «**لتتبعن سنَن من كان قبلكم حذو القُذَّة بالقذة**».

وكحديث : «**لا تقوم الساعة حتَّىٰ يعبد فئام من أمَّتِي الأوثان**» .

وكحديث : «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ**».

حينئذ صمم الشيخ ـ رحمه الله ـ أن يُعالن قومه بأنَّهم قد ضلُّوا الطريق السويّ وزاغوا عن منهج الصواب .

وابتدأ الإمام دعوته لقومه فِي بلدة حريْملا ، وبيَّن لَهم أن لا يُدعَىٰ إلا الله ، ولا يُذبَح إلا له ـ عز وجل ـ ، وأن عقيدتَهم فِي تلك القبور والأحجار والأشْجار من الاستغاثة بِها ، وصرف النذور إليْها ، واعتقاد النفع والضر منها ضلال وزور ، وبأنَّهم فِي حالة لا تُرضىٰ . وعزَّز كلامه بآي من كتاب الله المجيد وأقوال الرسول الكريم وأفعاله وسيرة أصحابه .

فوقع بينه وبين الناس نزاع وجدال حتَّىٰ مع والده العالم الجليل عبد الوهاب لأنه كان مغترًا بأقاويل المقلدين السالكين تلك الأفعال المنكرة فِي قوالب حُب الصالحين ، فاستمر الشيخ ـ رحمه الله ـ يُجاهد بلسانه وقلمه وإرشاده وتبعه الناس من أهل تلك البلدة ، حتَّىٰ انتقل أبوه عبد الوهاب إلَىٰ جوار ربِّ الأرباب سنة ١١٥٣ .

علم الشيخ وصفاته :كان إمام الدعوة السلفية ـ رحمه الله ـ علمًا من الأعلام ، ناصرًا للسنَّة ، قامعًا للبدع ، خبيرًا مطلعًا ، إمامًا فِي التفسير والحديث والفقه وأصوله وعلوم الآلة كالنحو والصرف والبيان ، عارفًا بأصول عقائد الإسلام وفروعها ، كشافًا للمشكلات ، حلاًّلاً للمعضلات ، فصيح اللسان ، قويّ الحجة ، مقتدرًا علىٰ إبراز الأدلة وواضح البراهين ، بأبلغ عبارة وأبينها ، تلوح علىٰ مُحياه علامات الصلاح وحسن السيرة وصفاء السريرة ، يُحب العباد ويغدق عليهم من كرمه ، ويصلهم ببِره وإحسانه ، ويُخلص لله فِي النصح والإرشاد ، كثير الاشتغال بالذكر والعبادة ، قلَّما يَفتر لسانه من ذكر الله .

وكان يُعطي عطاء الواثق بربه ، ويتحمل الدَّين الكثير لضيوفه ومن يسأله .

وكان يَخص طلبة العلم بالمحبة الشديدة وينفق عليهم من ماله ويرشدهم علىٰ حسب استعدادهم .

وكان عالِمًا بدقائق التفسير والحديث ، وله الْخبْرة التامة فِي علله ورجاله غيْر ملول ولا كسول من التقرير والتحرير والتأليف والتدريس .

ولا غرو إذا اتَّصف الشيخ بتلك السجايا الحميدة والأخلاق الكريمة فقد ورث تلك عن آبائه وأسلافه الأبرار لأنَّهم كانوا معروفين بالعلم والفضل والزهد .

مؤلفات الشيخ رحمه الله : ألَّف عدة كتب منها :

١- أحاديث في الفتن والحوادث.
٢- مبحث الاجتهاد والخلاف.
٣- الرد على الرافضة.
٤- فتاوىٰ ومسائل.
٥- تفسير آيات القرآن الكريم.
٦- تفسير كلمة التوحيد.
٧- تلقين أصول الدين للعامة.
٨- أحكام الصلاة.
٩- مختصر زاد المعاد.
١٠- هذه مسائل.
١١- بعض فوائد صلح الحديبية.
١٢- ستة مواضع من السيرة.
١٣- نواقض الإسلام.
١٤- أحكام تَمنِّي الموت.
١٥- كتاب الكبائر.
١٦- فضل الإسلام.
١٧- أربع قواعد تدور الأحكام عليها فقه.
١٨- مختصر الإنصاف والشرح الكبير فقه.
١٩- أصول الإيمان.
٢٠- مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد.
٢١- شروط الصلاة وأركانُها وواجباتُها.
٢٢- الحديث أربع مجلدات.
٢٣- الأصول الثلاثة.
٢٤- قواعد من قواعد الدين.
٢٥- ثلاث مسائل.
٢٦- معنَىٰ الطاغوت ورءوس أنواعه.
٢٧- مُختصر سيرة الرسول ﷺ.
٢٨- مختصر تفسير سورة الأنفال.
٢٩- الأصل الجامع لعبادة الله وحده.
٣٠- مسائل الجاهلية.
٣١- كشف الشبهات.
٣٢- نصيحة المسلمين.
٣٣- تفسير بعض سور القرآن.
٣٤- الرسائل الشخصية.
٣٥- كتاب الطهارة.
٣٦- الخطب المنبريَّة.
٣٧- فضائل القرآن.
٣٨- القواعد الأربع.
٣٩- ستة أصول عظيمة مفيدة.
٤٠- رسالة في توحيد العبادة.

وأجمع ما ضم مؤلفات وفتاوىٰ الشيخ - رحمه الله - كتاب «الدرر السنية».

ومن أكبَر كتب الإمام نفعًا وأوسعها بركةً ونفوذًا كتابه الفذّ كتاب التوحيد الذي أثار العقول وأنار الأذهان وغيَّر مَجرىٰ التاريخ ولعب دورًا هامًّا فِي تاريخ الإصلاح والتجديد، ونصر فيه السنة المحمدية ودعم فيه الطريقة السلفية بأوضح الأدلة وأبيَن الحجج، يتلىٰ فِي العالم الإسلامي كله مشارقه ومغاربه بكل شوق وتقدير.

وأودع فيه درر المعانِي المكنونة المخترعة وأخرجه فِي أسلوب قشيب جذاب حيث زاد إقبال الناس إليه، فيه من نصوص لامعة، والحديث وأقوال السلف زاهرة ما يضاعف الإيمان والثقة، ويُحطِّم أغلال الكفر والشرك بالله، ويَهدم أمر البدعات والظنون، بل فيه ما يشفي العليل ويروي الغليل، وما يكاد يقرؤه أحد حتَّىٰ تزيل عنه زيوف الفكر وتطرق إلَىٰ خلده أضواء وهاجة وآراء صافية مبرَّأة من كل لوث لا غبش فيها ولا غبار.

نبذة مختصرة من ترجمة العلامة الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ١١٩٣هـ - ١٢٨٥هـ

قال الشيخ ابن بشر فِي كتاب (عنوان المجد) فِي تاريخ نَجد فِي حوادث سنة١٢٤١ :

وفيها أقبل من مصر الشيخ العالِم النحرير، البحر الزاخر الغزير، مفيد الطالبين، المحفوف بعناية رب العالمين، جامع أنواع العلوم الشرعية، ومُحقق العلوم الدينية، والأحاديث النبوية، والآثار السلفية، وارث العلم كابراً عن كابر، الذي صارت الأصاغر بإفادته شيوخًا أكابر، قاضي قضاة الإسلام والمسلمين، ومفتِي الأنام الموحِّدين، وناصر سنة سيِّد المرسلين، الموفق للصواب فِي الجواب: الشيخ عبد الرحمن بن حسن ابن الشيخ مُحمد بن عبد الوهاب.

قدم علىٰ الإمام تركي بن عبد الله قدس الله روحه، ففرح به وأكرمه غاية الإكرام، واغتبط بطلعته خاص المسلمين والعام، فعظموه وقاموا بِما يستحقه من الإعظام وبذل نفسه للطالبين، وانتفع بعلمه كثير من المستفيدين، ثُم ذكر العلماء الأفاضل من آل الشيخ وغيْرهم الذين استفادوا من الشيخ وانتفعوا بعلمه وتَخرجوا عليه، وهُم جُملة كثيرة، ثُم قال: (فضربت إليه آباط الإبل من أقطار نَجد والإحساء، وظهرت آثار البركات من تعليمه وفشا، كيف لا، وهو من شَجرة مباركة أضاء نور طالعها للمسلمين وفشا، ولاح وميض برقه حين غشىٰ، فكاد سنا برقه يذهب بالأبصار، يَهدي الله بنوره من يشاء:

اللهم يا سَميع الدعاء، يا إله الأرض والسماء، نسألك بأسْمائك الحسنَىٰ:

أن تَجزيَهم عنا وعن المسلمين أحسن ما جزيت من دعا إلَىٰ توحيدك، وأن تَجعل العلم النافع فيهم وفِي عقبهم باقيًا إلَىٰ يوم لقائك وشُهودك).

وقد صنف الشيخ عبد الرحمن بن حسن مصنفات فِي الأصول والفروع أكثَرها ردًّا علىٰ أهل المقالات، ومن غلط منهم فِي الصفات، وله مصنَّفٌ فيما يَحل ويَحرم من الحرير، فمن طالعه دله علىٰ علمه الغزير، ردًّا علىٰ من أباح لبس المحرمة، الروغان التِي ابتلي الناس بلبسها فِي هذا الزمان، والرد النفيس علىٰ شبهات دواوين جرجيس، وكتاب المقامات، والمحجة، وبيان كلمة التوحيد، والرد علىٰ الكشميري عبد الْحميد، وفتح الْمجيد شرح كتاب التوحيد، وقرة عيون الموحدين فِي تَحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين، إلَىٰ غيْر ذلك من الرسائل النافعة.

وبعد وقعة الدرعية نقله إبراهيم باشا بن مُحمد علي باشا إلَىٰ مصر، وقدم سنة ١٢٢١ علىٰ الإمام تركي بن عبد الله فِي الرياض بعد أن مكث ثَمانِي سنين بِمصر.

* * *

ترجمة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

- هو الشيخ أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر آل سعدي من قبيلة بني تميم.

- ولد في بلدة عنيزة في القصيم، في ١٢ محرم عام ١٣٠٧ هـ وتوفيت أمه وله من العمر أربع سنوات، وتوفي والده وله من العمر سبع سنوات.

- أتقن حفظ القرآن وتجويده وله من العمر إحدىٰ عشرة سنة، ثم اشتغل بطلب العلم علىٰ علماء بلده، وعلىٰ من قدم إلىٰ بلده من العلماء حتىٰ نال الحظ الأوفر من كل فن من فنون العلم.

- من أشهر مشايخه: الشيخ إبراهيم بن حميد بن جاسر والشيخ محمد بن عبد الكريم الشبل والشيخ صالح بن عثمان القاضي (قاضي عنيزة) والشيخ محمد بن الشيخ عبد العزيز المحمد المانع والشيخ محمد الشنقيطي (نزيل الحجاز قديمًا ثم الزبير).

- كان علىٰ جانب كبير من الأخلاق الفاضلة متواضعًا، زاهدًا معرضًا عن مباهج الدنيا وزينتها. لا يشارك الناس فيما يهتمون به من المناصب والجاه والنفوذ.

- من أهم مصنفاته: تفسير القرآن الكريم المسمىٰ (تيسير الكريم الرحمن)، حاشية علىٰ الفقه - الدرة المختصرة في محاسن الإسلام - القواعد الحسان لتفسير القرآن، الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين، القول السديد في مقاصد التوحيد، مختصر في أصول الفقه، الرياض النضرة.

- توفي رحمه الله بمدينة عنيزة عام ١٣٧٦ هـ وله من العمر ما يناهز ٦٩ عامًا رحمه الله رحمة واسعة.

* * *

ترجمة موجزة لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى(*)

مولده ونشأته وحياته الأسرية :

ولد الشيخ العثيمين - رحمه الله تعالى - في مدينة (عُنَيزة)، إحدى مدن القصيم عام ١٣٤٧هـ في ٢٧ رمضان، في عائلة معروفة بالدين والاستقامة. تزوج الشيخ - رحمه الله تعالى - من امرأة واحدة، وله من الأولاد ثمانية، خمسة ذكور. وله من الإناث ثلاث.

طلبه للعلم وشيوخه :

لقد اتبع الشيخ - رحمه الله تعالى - طريق السلف الصالح في طلب العلم؛ فبدأ بحفظ القرآن الكريم وهو طفل صغير، فقرأه على جده لأمه الشيخ عبد الرحمن بن سليمان آل دامغ - رحمه الله - ثم لازم الشيخ العلامة المفسّر عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله تعالى - الذي يُعدَ شيخه الأول؛ فقرأ عليه التوحيد، والتفسير، والحديث، والفقه، . . . واستفاد منه قرابة إحدى عشرة سنة، فكان من أبرز طلابه. وفي أثناء مواصلة الشيخ العثيمين لدراسته النظامية في الرياض قرأ على العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله - صحيح البخاري، وبعض رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - وبعض الكتب الفقهية. ولما توفي الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله تعالى - تولى الشيخ ابن عثيمين إمامة الجامع الكبير بعنيزة، والتدريس في مكتبة عنيزة الوطنية، بالإضافة إلى التدريس في المعهد العلمي ثم انتقل إلى التدريس في كليتي الشريعة وأصول الدين بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم، إلى جانب عضوية هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية حتى توفاه الله تعالى. ومن شيوخه أيضًا : الشيخ محمد الأمين بن المختار الجكني الشنقيطي، والشيخ علي بن محمد الصالحي، والشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع.

تلامذته :

لقد كان الشيخ - رحمه الله تعالى - يعتني بطلابه عناية شديدة، فكان الطلاب يتوافدون عليه من كل أنحاء العالم؛ لثقتهم بقوة علمه، وبراعة تدريسه، وحنوّه على طلابه، وكأنهم جميعًا أبناؤه. وكان من حرصه - رحمه الله تعالى - على الطلاب أن أقام لهم سكنًا، يحتوي على صالة إعاشة، ومكتبة علمية زاخرة بالكتب والمخطوطات (المكتبة الوطنية)، وكان يتابع مستواهم الدراسي؛ بل أحيانًا يوقِّع على التقرير الشهري مكان توقيع ولي الأمر. وكان ينصح طلابه بالحرص على طاعة ولي الأمر في طاعة الله - تعالى - ومحبته، والدعاء له، وكان محكمًا لشريعة الله، مقيمًا لشعائر الله، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر.

أخلاقه:

كان رحمه الله صورة حية للعالم العابد المتمثل بأخلاق النبي ﷺ الذي كان خُلُقه القرآن. فقد

(*) من مجلة التوحيد عدد (ذي القعدة - ١٤٢١هـ) بعنوان: «تذكير المسلمين بترجمة الشيخ ابن عثيمين».

عُرِف ـ رحمه الله ـ بسجيته السمحة، وحلمه وسكينته ووقاره، وإن الناس ليجتمعون حوله أينما وُجد، يرهقونه بالأسئلة والطلبات والشفاعات.. وهو يصغي لكل واحد منهم في إقبال يُخيل إليه أنه المختص برعايته وعنايته.. كان يجاهد نفسه ويروضها على احتمال الناس وكظم الغيظ تأسيًا بقدوة سيد الخلق والأنام.

مذهبه العلمي:

كان رحمه الله متبعًا للدليل، وتمثل هذا جليًّا في شرحه الممتع على زاد المستقنع، وإن كانت كثيراً من ترجيحاته توافق ما ذهب إليه شيخ الإسلام وتلميذه ـ رحمهما الله ـ لكن كان أحيانًا يخالفهما لمقتضى الدليل؛ وأُثِر عنه قول شهير يساوي ذهبًا وهو: «استدل قبل أن تعتقد، ولا تعتقد ثم تستدل فتضل».

طريقته في التعليم:

كان الشيخ يركز كثيراً على حفظ المتون، ويطالب التلميذ بالحفظ ويتابعه في كل درس، وكان ـ رحمه الله ـ يستفرغ وسعه في الشرح وتحقيق المسائل، وبيان الراجح من أقوال أهل العلم، مع التجرد عن الهوى، وفي أثناء ذلك هو مستمع لزيادة من طالب أو استدراك من آخر، أو اعتراض من ثالث، وفي أثناء شرحه يميل إلى الحوار وإثارة الاستفهامات، والإجابة عنها بعد سماع أجوبة الطلاب ومحاوراتهم.

حصوله على جائزة الملك فيصل العالمية:

قررت لجنة الاختيار لجائزة الملك فيصل العالمية منح الجائزة لعام ١٤١٤هـ لفضيلة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين؛ لجهوده في خدمة قضايا الإسلام والمسلمين.

مرضه الأخير:

أصيب رحمه الله بمرض سرطان القولون، وأمام إلحاح ولاة الأمر بالمملكة سافر الشيخ بطائرة خاصة ـ بأمر من ولي العهد ـ إلى الولايات المتحدة الأمريكية لتشخيص المرض. ويذكر المقربون من الشيخ أنه حين عرض عليه الفريق الطبي الأمريكي العلاج بالإشعاع النووي ووضحوا له أنه يسبب تساقط الشعر، فسأل الشيخ: حتى شعر لحيتي؟ فقالوا: نعم، قال: لا أحب أن ألاقي ربي بلا لحية. ثم عاد رحمه الله إلى المملكة وأدخل مستشفى الملك فيصل ثم غادرها في التاسع من رمضان إلى الحرم المكي حيث يلقي درسه اليومي عبر مكبرات الصوت من غرفة خاصة له داخل الحرم بجوار باب العمرة، ويجيب على الأسئلة إلا أنه لم يكن يستقبل الزيارات. ثم غادر إلى المستشفى ودخل العناية المركزة، وتحسنت صحته إلا أنها ساءت مرة أخرى، حتى قضى أجله رحمه الله.

وفاته:

في الساعة السادسة من مغرب يوم الأربعاء ١٥/ ١٠/ ١٤٢١هـ وداخل مستشفى الملك فيصل التخصصي بجدة، استرد الله وديعته، وصعدت روح الشيخ ابن عثيمين إلى بارئها بعد حياة حافلة دامت (أربعة وسبعين) عامًا وثمانية عشر يومًا.

بسم الله الرحمن الرحيم

[الحمد لله، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم]

قال المصنِّف رحمه الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم:

ابتدأ كتابَهُ بالبسملة؛ اقتداءً بالكتاب العزيز، وعملاً بحديث: «**كلُّ أمر ذي بال لا يُبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقْطع**»[1]. أخرجه ابنُ حِبَّان من طريقين. قال ابنُ الصلاح: والحديثُ حسن. ولأبي داود، وابن ماجه: «**كلُّ أمر ذي بال لا يُبدأ فيه بالحمد لله ـ أو: بالحمد ـ فهو أقطع**»[2] ولأحمد «**كلُّ أمر ذي بال لا يفتتح بذكر الله فهو أبتر أو أقطع**» وللدارقطني، عن أبي هريرة مرفوعًا: «**كلُّ أمر ذي بال لا يبدأ فيه بذكرِ الله فهو أقطع**»[3].

والمصنفُ قد اقتصر في بعض نسخه على البسملة؛ لأنها من أبلغ الثناء والذكر، وللحديث المتقدِّم. وكان النبيُّ ﷺ يقتصر عليها في مُراسلاته؛ كما في كتابه لهِرَقْلَ عظيم الروم[4][5]. ووقع لي نسخةٌ بخطه رحمه الله تعالى، بدأ فيها بالبسملة، وثنَّى بالحمد والصلاة على النبي ﷺ وآله.

وعلى هذا: فالابتداءُ بالبسملة حقيقي، وبالحمدلة نسبيٌّ إضافي، أي: بالنسبة إلى ما بعدَ الحمد، ويكون مبدوءًا به.

والباء في (بسم الله) متعلقة بمحذوف، اختار كثيرٌ من المتأخرين كونه فعلاً خاصًا، متأخرًا.

أما كونه فعلاً، فلأن الأصل في العمل للأفعال. وأمَّا كونه خاصًا، فلأن كل مُبتديءٍ بالبسملة في أمر، يُضْمِرُ ما جَعل البسملة مَبدأ له وأمَّا كونه متأخرًا: فلدلالته على الاختصاص، وأدخل في التعظيم، وأوفق للوجود، ولأنَّ أهمَّ ما يُبدأ به ذِكْر الله تعالى.

وذكر العلاَّمةُ ابن القيم رحمه الله تعالى، لحذف العامل فوائد:

منها: أنَّه موطنٌ لا ينبغي أنْ يتقدَّم فيه غير ذكر الله.

ومنها: أن الفعل إذا حُذف صحَّ الابتداء بالبسملة، في كل عملٍ وقول وحركة. فكان الحذفُ أعمَّ. انتهى ملخصًا.

وباءُ (بسم الله)؛ للمصاحبة. وقيل: للاستعانة، فيكون التقدير: بسم الله أؤلِّف حالَ كوني مستعينًا بذكره، متبركًا به. وأمَّا ظهوره في ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**﴾ [العلق: ١] وفي ﴿**بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا**﴾ [هود: ٤١] فلأنَّ المقامَ يقتضي ذلك، كما لا يخفى.

والاسم: مشتقٌ من السُّمُوِّ، وهو العلو. وقيل: من الوَسْم، وهو العلامة؛ لأن كل ما سُمِّي فقد نُوِّه باسمه ووُسِم.

---

(١) ضعيف: ضعيف الجامع (٤٢١٧). (٢) ضعيف: ضعيف الجامع (٤٢١٦).

(٣) لا يصح من هذه الأحاديث شيء راجع الأحاديث الأولى من إرواء الغليل للعلامة الألباني رحمه الله.

(٤) صحيح: رواه البخاري (٧، ٢٩٤١)، وهو حديث طويل.

(٥) رواه البخاري في حديث أبي سفيان الطويل الذي رواه عن ابن عباس في كتاب بدء الوحي. (ق).

قوله: (الله). قال الكسائي والفَرّاء: أصله الإله، حذفوا الهمزة وأدغموا اللام في اللام، فصارتا لامًا واحدةً مشدَّدة مُفخَّمة.

قال ابنُ القيم رحمه الله: الصحيحُ أنَّه مشتق، وأنَّ أصله الإله، كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلاَّ من شذ. وهو الجامع لمعاني الأسماء الحُسنىٰ، والصفات العُلىٰ.

والذين قالوا بالاشتقاق، إنما أرادوا أنَّه دالٌّ علىٰ صفة له تعالىٰ، وهي الإلهية. كسائر أسمائه الحسنىٰ. كالعليم، والقدير، والسميع، والبصير، ونحو ذلك. فإنَّ هذه الأسماء مشتقةٌ من مصادرها بلا ريب، وهي قديمة. ونحن لا نعني بالاشتقاق إلاَّ أنَّها ملاقيةٌ لمصادرها في اللفظ والمعنىٰ، لا أنَّها متولِّدة منه تَولُّدَ الفرْع من أصله. وتسميةُ النحاة للمصدر، والمشتق منه: أصلاً وفرعًا، ليس معناه: أنَّ أحدهما متولِّدٌ من الآخر، وإنما هو باعتبار أنَّ أحدهما يتضمَّن الآخر وزيادة.

قال أبو جعفر بن جرير: الله. أصله الإله، أُسقطت الهمزةُ التي هي فاء الاسم، فالتقت اللام التي هي عين الاسم، واللام الزائدة وهي ساكنة فأُدغمت في الأخرىٰ، فصارتا في لفظ لامًا واحدة مشددة. انتهىٰ.

وقال: وأمَّا تأويل الله، فإنَّه علىٰ معنىٰ ما رُوي لنا، عن عبد الله بن عباس: هو الذي يَألَهه كلُّ شيء، ويعبده كل خلْقٍ. ـ وساق بسنده ـ عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: الله ذو الألوهية والعبودية علىٰ خلقه أجمعين.

فإنْ قال لنا قائل: وما دلَّ علىٰ أنَّ الألوهية هي العبادة، وأنَّ الإله هو المعبود، وأنَّ له أصلاً في فَعِل ويَفْعَل؟ قيل: لا تمانع بين العرب في الحكم ـ وذكرَ ـ بيتَ رؤبة بن العجَّاج[1]:

لله درُّ الغانيات المُدَّه سبَّحْنَ واسْتَرْجَعْنَ منْ تَألُّهي[2]

يعني: من تعبدي، وَطلبي الله بعلَمي. ولا شك أنَّ التألُّه التفعُّل، من أَلَهَ يَألَه. وقد جاء منه مصدرٌ، ويدلُّ علىٰ أن العرب قد نطقت منه بفَعِل يَفْعَل، بغير زيادة. وذلك ما حدَّثنا به سفيان بن وكيع ـ وساق السند إلىٰ ـ ابن عباس: أنَّه قرأ ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾[3] [الأعراف: ١٢٧] قال: عبادتك، ويقول: إنه كان يُعبد، ولا يَعبدُ». وساق بسندٍ آخرَ ـ عن ابن عباس ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ قال: إنما كان فرعونُ يُعبد، ولا يَعبُد. وذكر مثلَه عن مُجاهد. ثم قال: فقد بيَّن قولُ ابن عباس، ومجاهد هذا: أنَّ أَلِه عَبَدَ، وأنَّ الألهة مصدره ـ وساق حديثًا ـ عن أبي سعيد مرفوعًا: «**إنَّ عيسى أسلمته أُمُّه إلى الكتَّاب**

---

(١) كذا في الأصل. والعبارة ناقصة. ونصها: فإن قال لنا قائل فهل لذلك في فعل ويفعل أصل كان منه بناء هذا الاسم؟ قيل: أما سماعًا من العرب فلا. ولكن استدلالاً. فإن قال: وما دل على أن الألوهية هي العبادة وأن الإله هو المعبود، وأن له أصلاً في فعل يفعل؟ قيل: لا تمانع العرب في الحكم لقول القائل يصف رجلاً بعبادة الله ويطلب مما عند الله (تأله فلان) بالصحة ولا خلاف. ومن ذلك قول رؤبة. إلخ. (ق).

(٢) قال في اللسان: مدهه يمدهه مدهًا، مثل مدحه، والجمع: المده، أي: المستحقات المدح لحسنهن وجمالهن. والتأله: التنسك والتعبد. واسترجعن: قلن إنا لله وإنا إليه راجعون. (ق).

(٣) الآية ١٢٧ من سورة الأعراف ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾. (ق).

لِيُعَلِّمه. فقال له المعلم: اكتب بسم الله، فقال عيسى: **أتدري ما الله؟ الله إلهُ الآلهة»**[١].

قال العلاَّمة ابنُ القيم رحمه الله تعالى: لهذا الاسم الشريف عشرُ خصائص لفظية ـ ثم قال: وأمَّا خصائصُه المعنوية، فقد قال: أعلم الخلق به ﷺ **«لا أُحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»**[٢] وكيف نُحصي خصائص اسمٍ لمسمَّاه كلُّ كمال على الإطلاق، وكلُّ مدح وحمدٍ، وكل ثناءٍ وكل مجد، وكل إجلال وكل كمال، وكل عزٍّ وكل جمال. وكلُّ خير وإحسان، وجود وفضل وبرٍّ فله ومنه؟!

فما ذُكر هذا الاسمُ في قليل إلاَّ كثَّره، ولا عند خوف إلاَّ أزاله، ولا عند كرْبٍ إلاَّ كشفه، ولا عند همٍّ وغمٍّ إلاَّ فرَّجه، ولا عند ضيق إلاَّ وَسَّعه، ولا تعلق به ضعيفٌ إلاّ أفاده القوة، ولا ذليلٌ إلاَّ أناله العزّ، ولا فقيرٌ إلا أصاره غنيًا، ولا مستوحش إلاَّ آنسه، ولا مغلوبٌ إلاَّ أيَّده ونصره، ولا مضطر إلاَّ كشف ضُرَّه، ولا شريدٌ إلاَّ آواه. فهو الاسمُ الذي تُكشف به الكربات، وتُستنزل به البركات، وتُجاب به الدعوات، وتُقال به العثرات، وتُستدفع به السيئات، وتستجلب به الحسنات. وهو الاسم الذي قامت به السمواتُ والأرض، وبه أُنزلت الكتب، وبه أُرسلت الرسلُ، وبه شُرعت الشرائع، وبه قامت الحدود، وبه شُرِع الجهاد، وبه انقسمت الخليقةُ إلى السعداء والأشقياء، وبه حَقَّت الحاقة، ووقعت الواقعة، وبه وُضعت الموازين القِسْط ونُصب الصراط، وقام سوق الجنة والنار، وبه عُبد ربّ العالمين وحُمد، وبحقِّه بُعثت الرسل، وعنه السؤال في القبر ويوم البعث والنشور، وبه الخصام وإليه المحاكمة، وفيه الموالاة والمعاداة، وبه سَعِد من عرفه وقام بحقه، وبه شَقِيَ من جهله وترك حقه. فهو سرُّ الخلق والأمر، وبه قاما وثبتا، وإليه انتهيا. فالخلقُ به وإليه، ولأجله. فما وجد خلقٌ ولا أمر، ولا ثواب ولا عقاب إلاَّ مبتديًا منه منتهيًا إليه. وذلك موجبه ومقتضاه ﴿**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ [آل عمران: ١٩١] إلى آخر كلامه رحمه الله تعالى.

قوله: (الرحمن الرحيم). قال ابنُ جرير: حدَّثني السَّريُ بن يحيى، حدثنا عثمان ابنُ زُفَر، سمعتُ العزرمي يقول: الرحمن بجميع الخلق، والرحيم بالمؤمنين. وساق بسنده ـ عن أبي سعيد ـ يعني الخُدري ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«إنَّ عيسى ابن مريم قال: الرحمن؛ رَحمنُ الآخرة والدنيا، والرحيم: رحيمُ الآخرة»**[٣].

قال ابنُ القيم رحمه الله تعالى:[٤] واسمُه: الله تعالى. دالٌ على كونه مألوهًا معبودًا، يألهه الخلائق: محبةً وتعظيمًا وخضوعًا، ومفزعًا إليه في الحوائج والنوائب.

وذلك مستلزمٌ لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمّنتين لكمال المُلك والحمد. وإلهيتُه وربوبيته

---

(١) باطل: ذكره ابن حجر في لسان الميزان (١/ ٤٤١) في ترجمته لإسماعيل بن يحيى بن عبيد الله بن طلحة، وقال: قال ابن عدي: وهذا باطل، ثم ساق له سبعة وعشرين حديثًا وقال: عامة ما يرويه بواطيل، والحديث ذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٠٣، ٢٠٤).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٨٦).

(٣) باطل: ذكره ابن عدي في الكامل (١/ ٣٠٤) وقال: قال الشيخ: هذا الحديث باطل بهذا الإسناد.

(٤) في مدارج السالكين (ج١ص١٨). (ق).

ورحمانيته وملكه: مستلزمٌ لجميع صفات كماله؛ إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحيٍ، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعَّالٍ لما يُريد، ولا حكيمٍ في أقواله وأفعاله.

فصفاتُ الجلال والجمال: أخصُّ باسم الله، وصفاتُ الفعل والقدرة، والتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع، ونفوذِ المشيئة وكمال القوة، وتدبير أمر الخليقة: أخصُّ باسم الرب.

وصفاتُ الإحسان، والجود والبر والحنان، والرأفة واللطف: أخصُّ باسم الرحمن.

وقال رحمه الله، أيضًا: الرحمنُ: دالٌّ على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم: دالٌّ على تعلُّقها بالمرحوم. وإذا أردتَ فهم هذا، فتأمّل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧] ولم يجيء قطُّ رحمنٌ بهم.

وقال: إنَّ أسماء الرب تعالى، هي أسماءٌ ونعوت. فإنَّها دالةٌ على صفات كماله، فلا تَنَافي فيها بين العلميَّة والوصفية. فالرحمنُ: اسمُه تعالى، ووصفه.

فمن حيثُ هو صفةٌ، جرى تابعًا لاسم الله. ومن حيث هو اسم، ورد في القرآن غير تابع. بل ورُودَ الاسمِ العَلَم، كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] انتهى ملخصًا.

قال المصنفُ رحمه الله تعالى: الحمدُ لله:

ومعناه: الثناءُ بالكلام علَى الجميل، على وجه التعظيم.

فمورده: اللسان، والقلب. والشكرُ: يكون باللسان، والجَنان، والأركان.

فهو أعمُّ من الحمد مُتعلَّقًا، وأخص سببًا؛ لأنه يكون في مقابلة النعمة

والحمد: أعمُّ سببًا، وأخص موردًا؛ لأنه يكون في مقابلة النعمة وغيرها. فبينهما عمومٌ وخصوص وجهي، يجتمعان في مادة، وينفرد كلٌّ واحد عن الآخر في مادة.

قال المصنفُ رحمه الله تعالى: وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم[(١)]:

أصحُّ ما قيل في معنى صلاة الله على عبده: ما ذكره البخاريُّ رحمه الله تعالى، عن أبي العالية، قال: صلاةُ الله، ثناؤه عليه عند الملائكة.[(٢)] وقرَّره ابنُ القيم رحمه الله تعالى، ونصره في كتابه (جلاءُ الأفهام) و(بدائعُ الفوائد). قلتُ: وقد يُراد بها الدعاء؛ كما في (المسند) عن علي، مرفوعًا: «**الملائكةُ تصلي على أحدكم ما دام في مُصلاَّه: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه**»[(٣)].

قولهُ: (وعلى آله) أي: أتباعه على دينه. نصَّ عليه الإمامُ أحمد هنا.

وعليه أكثر الأصحاب. وعلى هذا: فيشمل الصحابة، وغيرهم من المؤمنين[(٤)].

---

(١) هذه الجملة في بعض النسخ دون بعض. (ق).

(٢) رواه البخاري معلقًا في كتاب تفسير القرآن باب قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٤٤٥، ٦٥٩)، ومسلم (٦٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أما حديث علي رضي الله عنه فإسناده فيه مقال.

(٤) انظر تفصيل ذلك في كتاب (جلاء الأفهام في الصلاة على خير الأنام) للعلامة المحقق ابن القيم رحمه الله، فإنه استوفى المذاهب في ذلك، وبين الحق فيها، وأن المراد من الآل أتباعه الذين آمنوا به. (ق).

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي وهي تشتمل على صفوة عقيدة أهل السنة وخلاصتها المستمدة من الكتاب والسنة.

الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهْدِ الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه.

أما بعدُ: فقد سبق أن كتبنا تعليقًا لطيفًا في موضوعات «كتاب التوحيد» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب قدَّس الله روحه، فحصل فيه نفع ومعونة للمشتغلين، ومساعدة للمعلِّمين، لما فيه من التفصيلات النافعة مع الوضوح التام. وطبع بمطبعة الإمام ثم نفدت نسخه مع كثرة الطلب عليه. ودعت الحاجة الشديدة إلى إعادة طبعه ونشره، وفي هذه المرة بَدَا لي أن أُقدِّمَ أمام ذلك مقدمة مختصرة تحتوي على مُجملات عقائدِ أهل السنة، في الأصول وتوابعها، فأقول مستعينًا بالله.

وذلك أنهم يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، فيشهدون أن الله هو الرب الإله المعبود، المتفرد بكل كمال، فيعبدونه وحده، مخلصين له الدين، فيقولون إن الله هو الخالق البارئ المصور الرزاق المعطي المانع المدبر لجميع الأمور، وأنه المألوه المعبود الموحَّد المقصود، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء، وأنه العلي الأعلى بكل معنى واعتبار، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، وأنه على العرش استوى، استواء يليق بعظمته وجلاله، ومع علوه المطلق وفوقيته، فعلمه محيط بالظواهر والبواطن، والعالم العلوي والسفلي، وهو مع العباد بعلمه، يعلم جميع أحوالهم، وهو القريب المجيب، وإنه الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، والكل إليه مفتقرون في إيجادهم وإيجاد ما يحتاجون إليه في جميع الأوقات، ولا غنى لأحد عنه طرفة عين، وهو الرحمن الرحيم، الذي ما بالعباد من نعمة دينية ولا دنيوية ولا دفع نقمة إلا من الله، فهو الجالب للنعم، الدافع للنقم، ومن رحمته أنه ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا يستعرض حاجات العباد حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: لا أسأل عن عبادي غيري، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له، من ذا الذي يسألني فأعطيه، من ذا الذي يستغفرني فأغفر له: حتى يطلع الفجر. فهو ينزل كما يشاء، ويفعل ما يريد، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير

ويعتقدون أنه الحكيم: الذي له الحكمة التامة في شرعه وفي قدره، فما خلق شيئًا عبثًا، ولا شرع الشرائع إلا للمصالح والحكم، وأنه التواب العفو الغفور، يقبل التوبة من عباده، ويعفو عن

السيئات: ويغفر الذنوب العظيمة للتائبين والمستغفرين والمنيبين، وهو الشكور الذي يشكر القليل من العمل، ويزيد الشاكرين من فضله.

ويصفونه بما وصف به نفسه ووصفه به رسول الله ﷺ من الصفات الذاتية، كالحياة الكاملة، والسمع والبصر، وكمال القدرة، والعظمة والكبرياء، والمجد والجلال والجمال، والحمد المطلق، ومن صفات الأفعال المتعلقة بمشيئته وقدرته كالرحمة والرضا، والسخط والكلام، وأنه يتكلم بما يشاء، كيف يشاء، وكلماته لا تنفد، ولا تبيد، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود، وأنه لم يزل ولا يزال موصوفًا بأنه يفعل ما يريد: ويتكلم بما يشاء، ويحكم على عباده بأحكامه القدرية، وأحكامه الشرعية، وأحكامه الجزائية، فهو الحاكم المالك، ومن سواه مملوك محكوم عليه، فلا خروج للعباد عن ملكه ولا عن حكمه.

ويؤمنون بما جاء به الكتاب، وتواترت به السنة. أن المؤمنين يرون ربهم تعالىٰ عيانًا جهرة، وأن نعيم رويته والفوز برضوانه أكبر النعيم واللذة، وأن من مات علىٰ غير الإيمان والتوحيد فهو مخلد في نار جهنم أبدًا؛ وأن أرباب الكبائر إذا ماتوا علىٰ غير توبة ولا حصل لهم مكفر لذنوبهم ولا شفاعة؛ فإنهم وإن دخلوا النار لا يخلدون فيها، ولا يبقىٰ في النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان إلا خرج منها، وإن الإيمان يشمل عقائد القلوب وأعمالها: وأعمال الجوارح وأقوال اللسان، فمن قام بها علىٰ الوجه الأكمل فهو المؤمن حقًا، الذي استحق الثواب وسلم من العقاب، ومن انتقص منها شيئًا نقص من إيمانه بقدر ذلك، ولذلك كان الإيمان يزيد بالطاعة وفعل الخير، وينقص بالمعصية والشر.

ومن أصولهم السعي والجد فيما ينفع من أمور الدين والدنيا مع الاستعانة بالله، فهم يحرصون علىٰ ما ينفعهم ويستعينون بالله. وكذلك يحققون الإخلاص لله في جميع حركاتهم، ويتبعون رسول الله، فالإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول، والنصيحة للمؤمنين طريقهم.

فصل

ويشهدون أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله الله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كله، وأنه أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم، وهو خاتم النبيين، أرسل إلىٰ الإنس والجن بشيرًا ونذيرا، وداعيًا إلىٰ الله بإذنه وسراجًا منيرًا، أرسله بصلاح الدين وصلاح الدنيا، وليقوم الخلق بعبادة الله، ويستعينوا برزقه علىٰ ذلك. ويعلمون أنه أعلم الخلق وأصدقهم وأنصحهم، وأعظمهم بيانًا، فيطيعونه ويحبونه، ويقدمون محبته علىٰ محبة الخلق كلهم، ويتبعونه في أصول دينهم وفروعه، ويقدمون قوله وهديه علىٰ قول كل أحد وهديه، ويعتقدون أن الله جمع له من الفضائل والخصائص والكمالات ما لم يجمعه لأحد، فهو أعلىٰ الخلق مقامًا، وأعظمهم جاهًا، وأكملهم في كل فضيلة: لم يبق خير إلا دل أمته عليه: ولا شر إلا حذرهم عنه.

وكذلك يؤمنون بكل كتاب أنزله الله، وكل رسول أرسله الله، لا يفرقون بين أحد من رسله.

ويؤمنون بالقدر كله، وأن جميع أعمال العباد خيرها وشرها قد أحاط بها علم الله، وجرىٰ بها

قلمه، ونفذت فيها مشيئته، وتعلقت بها حكمته، حيث خلق للعباد قدرة وإرادة، تقع بها أقوالهم وأفعالهم بحسب مشيئتهم، لم يجبرهم على شيء منها، بل جعلهم مختارين لها، وخص المؤمنين بأن حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من الراشدين بفضله ونعمته، وولى غيرهم ما تولوه ورضوه لأنفسهم من الكفر والفسوق والعصيان بعدله وحكمته.

ومن أصول أهل السنة: أنهم يدينون بالنصيحة لله ولكتابه ورسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة، ويأمرون ببر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجيران والمماليك والمعاملين، ومن له حق، وبالإحسان إلى الخلق أجمعين.

ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسنها، وينهون عن مساوئ الأخلاق وأرذلها، ويعتقدون أن أكمل المؤمنين إيمانًا، أعظمهم إيمانًا ويقينًا، وأحسنهم أعمالاً وأخلاقًا، وأصدقهم أقوالاً، وأهداهم إلى كل خير وفضيلة: وأبعدهم من كل رذيلة. ويأمرون بالقيام بشرائع الدين، على ما جاء عن نبيهم فيها وفي صفاتها ومكملاتها، والتحذير عن مفسداتها ومنقصاتها، ويرون الجهاد في سبيل الله ماضيًا مع البر والفاجر، وأنه ذروة سنام الدين، جهاد العلم والحجة، وجهاد السلاح، وأنه فرض على كل مسلم أن يدافع عن الدين بكل ممكن ومستطاع.

ومن أصولهم: الحث على جمع كلمة المسلمين، والسعي في تقريب قلوبهم وتأليفها، والتحذير من التفرق والتعادي والتباغض، والعمل بكل وسيلة توصل إلى هذا.

ومن أصولهم: النهي عن أذية الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم، والأمر بالعدل والإنصاف في جميع المعاملات، والندب إلى الإحسان والفضل فيها. ويؤمنون بأن أفضل الأمم أمة محمد ﷺ وأفضلهم أصحاب رسول الله ﷺ، خصوصًا الخلفاء الراشدون، والعشرة المشهود لهم بالجنة، وأهل بدر، وبيعة الرضوان والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، فيحبون الصحابة ويدينون لله بذلك، وينشرون محاسنهم ويسكتون عما قيل عن مساوئهم، ويدينون لله باحترام العلماء الهداة وأئمة العدل ومن لهم المقامات العالية في الدين والفضل المتنوع على المسلمين، ويسألون الله أن يعيذهم من الشك والشرك والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق وأن يثبتهم على دين نبيهم إلى الممات. فهذه الأصول الكلية بها يؤمنون ولها يعتقدون وإليها يدعون.

❊ ❊ ❊

كتاب التوحيد

قال المصنفُ رحمه الله تعالى: كتابُ التوحيد:
كتاب: مصدر: كَتَبَ يكتُب كتابًا، وكتابةً وكتْبًا. ومدارُ المادة على الجمع، ومنه: تكتَّب بنو فلان، إذا اجتمعوا. والكتيبة: لجماعة الخيل. والكتابة بالقلم: لاجتماع الكلمات والحروف. وسُمِّي الكتابُ كتاب: لجمعه ما وُضع له.

والتوحيد، نوعان: توحيدٌ في المعرفة، والإثبات. وهو توحيد الربوبية، والأسماء، والصفات. وتوحيدٌ في الطلب والقصد. وهو توحيد الإلهية والعبادة.

قال العلاَّمة ابن القيم رحمه الله تعالى: وأمَّا التوحيد الذي دعت إليه الرسلُ، ونزلت به الكتب، فهو نوعان: توحيدٌ في المعرفة والإثبات، وتوحيدٌ في الطلب والقصد.

كتاب التوحيد

قال المصنف رحمه الله: (كتاب التوحيد) هذه الترجمة تدل على مقصود هذا الكتاب من أوله إلى آخره، ولهذا استغنى بها عن الخطبة أي: أن هذا الكتاب يشتمل على توحيد الإلهية والعبادة بذكر أحكامه وحدوده وشروطه، وفضله وبراهينه، وأصوله وتفاصيله، وأسبابه وثمراته ومقتضياته، وما يزداد به ويقويه، أو يضعفه ويوهيه وما به يتم أويكمل.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين، وعليه أتوكل

تعريف التوحيد:
في اللغة: مشتق من وحّد الشيءَ إذا جعله واحداً؛ فهو مصدر وحَّد يوحِّد؛ أي: جعل الشيء واحداً.
وفي الشرع: إفراد اللَّه ـ سبحانه ـ بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

أقسامه: ينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ توحيد الربوبية. ٢ ـ توحيد الألوهية. ٣ ـ توحيد الأسماء والصفات.

وقد اجتمعت في قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾.

القسم الأول: توحيد الربوبية.
هو إفراد اللَّه ـ عز وجل ـ بالخلق، والملك، والتدبير.

فإفراده بالخلق: أن يعتقد الإنسان أنه لا خالق إلا اللَّه.
قال تعالى: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ فهذه الجملة تفيد الحصر لتقديم الخبر؛ إذ أن تقديم

. . . .

فالأوَّلُ: هو إثباتُ حقيقة ذاتِ الرب تعالى، وصفاته وأفعاله وأسمائه وتكلُّمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمته. وقد أفصح القرآنُ عن هذا النوع جدَّ الإفصاح، كما في أوّل سورة الحديد، وسورة طه، وآخر الحشر، وأوَّلِ تنزيل السجدة، وأوَّل آل عمران، وسورة الإخلاص بكمالها، وغير ذلك.

النوع الثاني: ما تضمنته سورةُ قُل يا أيها الكافرون، وقوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٦٤].

وأوَّلُ سورةِ تنزيل الكتاب، وآخرُها. وأوَّل سورة المؤمن ووسطُها، وآخرها.

وأوَّل سورة الأعراف، وآخرها. وجملةُ سورة الأنعام، وغالبُ سور القرآن. بل كلُّ سورة في القرآن، فهي متضمنةٌ لنوعيِّ التوحيد، شاهدةٌ به داعية إليه.

فإنَّ القرآن: إمَّا خبرٌ عن الله تعالى، وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله. فهو التوحيدُ العلميُّ الخبري. وإمَّا: دعوةٌ إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلْع ما يُعبد من دونه. فهو التوحيد الإراديُّ الطلبي. وإمَّا: أمرٌ ونهيٌ، وإلزامٌ بطاعته وأمره ونهيه. فهو حقوق التوحيد ومكمِّلاتُه. وإمَّا: خبرٌ عن إكرام أهل التوحيد، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة. فهو جزاءُ توحيده.

ما حقه التأخير يفيد الحصر. وقال تعالى: ﴿**هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾ [فاطر: ٣]، فهذه الآية تفيد اختصاص الخلق بالله.

أما ما ورد من إثبات خالق غير الله؛ كقوله تعالى: ﴿**فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾ [المؤمنون: ١٤]، وكقوله ﷺ في المصورين: «**يقال لهم: أحيوا ما خلقتم**»(١).

فهذا ليس خلقًا حقيقةً، وليس إيجاداً بعد عدم، بل هو تحويل للشيء من حال إلى حال، وأيضًا ليس شاملاً، بل محصور بما يتمكن الإنسان منه، ومحصور بدائرة ضيقة؛ فلا ينافي قولنا: إفراد الله بالخلق.

وأما إفراد الله بالملك: فأن يعتقد أنه لا يملك الخلق إلا خالقهم؛ كما قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [آل عمران: ١٨٩]. وقال تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [المؤمنون: ٨٨].

وأما ما ورد من إثبات الملكية لغير الله؛ كقوله تعالى: ﴿**إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ**﴾ [المؤمنون: ٦]، وقال تعالى: ﴿**أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ**﴾ [النور: ٦١]؛ فهو ملك محدد لا يشمل إلا شيئًا يسيراً من هذه المخلوقات؛ فالإنسان يملك ما تحت يده، ولا يملك ما تحت يد غيره، وكذا هو ملك قاصر من حيث الوصف؛ فالإنسان لا يملك ما عنده تمام الملك، ولهذا لا يتصرف فيه إلا على حسب ما أذن له

---

(١) **متفق عليه:** رواه البخاري (٢١٠٥) ومواضع، ومسلم (٢١٠٧) من حديث عائشة ﵂، ورواه البخاري (٥٩٥١، ٧٥٥٨)، ومسلم (٢١٠٨).

. . . .

وإمَّا: خبرٌ عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يَحُلّ بهم في العُقبىٰ من العذاب. فهو جزاءُ من خرج عن حُكم التوحيد.

فالقرآنُ كله: في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم. انتهىٰ.

قال شيخُ الإسلام: التوحيدُ الذي جاءت به الرسلُ، إنما يتضمَّن إثباتَ الإلهية لله وحده، بأنْ يشهدَ أنْ لا إله إلاَّ هو. لا يَعبُدُ إلاَّ إياه، ولا يتوكلُ إلاَّ عليه، ولا يوالي إلاَّ له، ولا يُعادي إلاَّ فيه، ولا يعمل إلاَّ لأجله. وذلك يتضمن، إثباتَ ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] وقال تعالىٰ: ﴿لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧] وقال تعالىٰ: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

وأخبر عن كل نبيٍ من الأنبياء، أنهم دعوا الناسَ إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، وقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]. وقال عن المشركين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦]، وهذا في القرآن كثير.

وليس المرادُ بالتوحيد: مجرَّدَ توحيد الربوبية، وهو اعتقادُ أنَّ الله وحده خَلَق العالَم، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف! . ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل، فقد أثبتوا غاية التوحيد. وأنهم إذا شهدوا هذا وفنوا فيه، فقد فنوا في غاية التوحيد! فإنَّ الرجلَ لو أقرَّ بما يستحقه

فيه شرعًا. فمثلاً: لو أراد أن يحرق ماله، أو يعذب حيوانه؛ قلنا: لا يجوز، أما اللّه ـ سبحانه ـ فهو يملك ذلك كله ملكًا عامًا شاملاً.

وأما إفراد اللّه بالتدبير: فهو أن يعتقد الإنسان أنه لا مدبر إلا اللّه وحده؛ كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١-٣٢].

وأما تدبير الإنسان؛ فمحصور بما تحت يده، ومحصور بما أذن له فيه شرعًا.

وهذا القسم من التوحيد لم يعارض فيه المشركون الذين بُعث فيهم الرسول ﷺ بل كانوا مقرين به، قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]. فهم يقرون بأن اللّه هو الذي يدبر الأمر، وهو الذي بيده ملكوت السموات والأرض. ولم ينكره أحد

. . . .

الربُّ تعالىٰ من الصفات، ونزَّهه عن كل ما يُنزه عنه، وأقرَّ بأنه وحده خالقُ كل شيء: لم يكن موحِّدًا، حتىٰ يَشهدَ أنْ لا إله إلاَّ الله. فيقرُّ بأنَّ الله وحده هو الإله المستحق للعبادة، ويلتزمُ بعبادة الله وحده لا شريك له. والإلهُ: هو المألوهُ المعبود، الذي يستحقُّ العبادة.

وليس هو الإله بمعنىٰ القادر علىٰ الخلق؛ فإذا فسَّر المُفسِّرُ الإله بمعنىٰ القادر علىٰ الاختراع، واعتقد أنَّ هذا هو أخصُّ وصف الإله، وجعل إثبات هذا هو الغايةَ في التوحيد - كما يفعل ذلك من يفعله من متكلِّمة الصفاتية، وهو الذي يقولونه عن أبي الحسن وأتباعه - لم يعرف حقيقةَ التوحيد الذي بعث الله به رسوله ﷺ؛ فإنَّ مشركي العرب كانوا مُقرِّين بأن الله وحده خالقُ كل شيء، وكانوا مع هذا مشركين، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

قالت طائفةٌ من السلف: تسألهم، من خلق السموات والأرض؟ فيقولون: الله. وهم مع هذا يعبدون غيره[1].

معلوم من بني آدم؛ فلم يقل أحد من المخلوقين: إن للعالم خالقين متساويين. فلم يجحد أحد توحيد الربوبية، لا علىٰ سبيل التعطيل ولا علىٰ سبيل التشريك، إلا ما حصل من فرعون؛ فإنه أنكره علىٰ سبيل التعطيل مكابرةً؛ فإنه عطل اللّه من ربوبيته وأنكر وجوده. قال تعالىٰ حكاية عنه: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]. وهذا مكابرة منه؛ لأنه يعلم أن الرب غيره؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. وقال تعالىٰ حكاية عن موسىٰ وهو يناظره: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢]؛ فهو في نفسه مقر بأن الرب هو اللّه عز وجل.

وأنكر توحيد الربوبية علىٰ سبيل التشريك المجوس، حيث قالوا: إن للعالم خالقين هما الظلمة والنور، ومع ذلك لم يجعلوا هذين الخالقين متساويين. فهم يقولون: إن النور خير من الظلمة؛ لأنه يخلق الخير، والظلمة تخلق الشر والذي يخلق الخير خير من الذي يخلق الشر.

وأيضًا: فإن الظلمة عدم لا يضيء، والنور وجود يضيء، فهو أكمل في ذاته.

ويقولون أيضًا بفرق ثالث، وهو: أن النور قديم علىٰ اصطلاح الفلاسفة، واختلفوا في الظلمة: هل هي قديمة، أو محدثة؟ علىٰ قولين.

دلالة العقل على أن الخالق للعالم واحد: قال اللّه تعالىٰ: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

إذ لو أثبتنا للعالم خالقين؛ لكان كل خالق يريد أن ينفرد بما خلق ويستقل به كعادة الملوك؛ إذ لا

---

(١) ذكره ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. (ق).

قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩] فليس كلُّ من أقرَّ بأن الله تعالى ربُّ كلِّ شيء وخالقُه، يكون عابدًا له دون ما سواه، داعيًا له دون ما سواه، راجيًا له خائفًا منه دون ما سواه، يُوالي فيه ويعادي فيه، ويطيع رُسلَه، ويأمر بما أمر به وينهى عمَّا نهى عنه.

وعامَّةُ المشركين أقرُّوا بأن الله خالقُ كل شيء، وأثبتوا الشفعاء الذين يشركونهم به، وجعلوا له أندادًا، قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ

يرضى أن يشاركه أحد. وإذا استقل به؛ فإنه يريد أيضًا أمرًا آخرًا، وهو أن يكون السلطان له لا يشاركه فيه أحد. وحينئذٍ إذا أراد السلطان؛ فإما أن يعجز كل واحد منهما عن الآخر، أو يسيطر أحدهما على الآخر؛ فإن سيطر أحدهما على الآخر ثبتت الربوبية له، وإن عجز كل منهما عن الآخر زالت الربوبية منهما جميعًا؛ لأن العاجز لا يصلح أن يكون ربًا.

القسم الثاني: توحيد الألوهية: ويقال له: توحيد العبادة باعتبارين؛ فباعتبار إضافته إلى الله يسمى: توحيد الألوهية، وباعتبار إضافته إلى الخلق يسمى: توحيد العبادة.

وهو إفراد اللَّه -عز وجل- بالعبادة.

فالمستحق للعبادة هو اللَّه تعالى، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾[لقمان: ٣٠].

والعبادة تطلق على شيئين:

الأول: التعبد بمعنى التذلل للَّه -عز وجل- بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ محبةً وتعظيمًا.

الثاني: المتعبد به؛ فمعناها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه: اسم جامع لكل ما يحبه اللَّه ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة [1].

مثال ذلك: الصلاة؛ ففعلها عبادة، وهو التعبد. ونفس الصلاة عبادة، وهو المتعبد به.

فإفراد اللَّه بهذا التوحيد: أن تكون عبداً للَّه وحده تفرده بالتذلل؛ محبةً وتعظيمًا، وتعبده بما شرع.

قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]؛ فوصفه سبحانه بأنه رب العالمين كالتعليل لثبوت الألوهية له؛ فهو الإله لأنه رب العالمين، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]؛ فالمنفرد بالخلق هو المستحق للعبادة.

إذ من السفه أن تجعل المخلوق الحادث الآيل للفناء إلهًا تعبده؛ فهو في الحقيقة لن ينفعك لا بإيجاد

---

(١) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى في إجابته عن سؤال عن العبادة وفروعها.

....

الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عندَ اللَّهِ ﴾ إلىٰ قوله ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ولا بإعداد ولا بإمداد، فمن السفه أن تأتي إلىٰ قبر إنسان صار رميمًا تدعوه وتعبده وهو بحاجة إلىٰ دعائك، وأنت لست بحاجة إلىٰ أن تدعوه؛ فهو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا؛ فكيف يملكه لغيره؟!

وهذا القسم كفر به وجحده أكثر الخلق، ومن أجل ذلك أرسل اللَّه الرسل، وأنزل عليهم الكتب، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ومع هذا؛ فأتباع الرسل قلة، قال عليه الصلاة والسلام: **«فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد»** (١).

تنبيه: من العجب أن أكثر المصنفين في علم التوحيد من المتأخرين يركزون علىٰ توحيد الربوبية، وكأنما يخاطبون أقوامًا ينكرون وجود الرب - وإن كان يوجد من ينكر الرب - لكن ما أكثر المسلمين الواقعين في شرك العبادة!!

ولهذا ينبغي أن يركز علىٰ هذا النوع من التوحيد حتىٰ نُخرج هؤلاء المسلمين الذين يقولون بأنهم مسلمون، وهم مشركون، ولا يعلمون.

القسم الثالث: توحيد الأسماء والصفات: وهو إفراد اللَّه - عز وجل - بما له من الأسماء والصفات. وهذا يتضمن شيئين:

الأول: الإثبات، وذلك بأن نثبت للَّه - عز وجل - جميع أسمائه وصفاته التي أثبتها لنفسه في كتابه أو سنة نبيه صلىٰ اللَّه عليه وعلىٰ آله وسلم.

الثاني: نفي المماثلة، وذلك بأن لا نجعل للَّه مثيلاً في أسمائه وصفاته؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ: ١١].

فدلت هذه الآية علىٰ أن جميع صفاته لا يماثله فيها أحد من المخلوقين؛ فهي وإن اشتركت في أصل المعنىٰ، لكن تختلف في حقيقة الحال، فمن لم يثبت ما أثبته اللَّه لنفسه فهو معطل، وتعطيله هذا يشبه تعطيل فرعون، ومن أثبتها مع التشبيه صار مشابهًا للمشركين الذين عبدوا مع اللَّه غيره، ومن أثبتها بدون مماثلة صار من الموحدين.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠)، والترمذي (٢٤٤٦)، وأحمد (٢٤٤٤، ٢٩٤٧).

. . . .

ولهذا كان من أتباع هؤلاء (١)، من يسجدُ للشمس والقمر والكواكب ويدعوها، ويصوم وينْسك لها. ويتقرب إليها (٢)، ثم يقول: إنَّ هذا ليس بشرك! إنَّما الشركُ إذا اعتقدتُ أنَّها المدبرةُ لي!! فإذا جعلتُها سببًا وواسطة لم أكن مشركًا!!.

وهذا القسم من التوحيد هو الذي ضلت فيه بعض الأمة الإسلامية وانقسموا فيه إلى فرق كثيرة؛ فمنهم من سلك مسلك التعطيل، فعطل، ونفى الصفات زاعمًا أنه منزه للَّه، وقد ضل؛ لأن المنزّه حقيقة هو الذي ينفي عنه صفات النقص والعيب، وينزه كلامه من أن يكون تعمية وتضليلاً، فإذا قال: بأن اللَّه ليس له سمع، ولا بصر، ولا علم، ولا قدرة؛ لم ينزه اللَّه، بل وصفه بأعيب العيوب، ووصم كلامه بالتعمية والتضليل؛ لأن اللَّه يكرر ذلك في كلامه ويثبته: ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فإذا أثبته في كلامه وهو خال منه؛ كان في غاية التعمية والتضليل والقدح في كلام اللَّه ـ عز وجل ـ.

ومنهم من سلك مسلك التمثيل زاعمًا بأنه محقق لما وصف اللَّه به نفسه، وقد ضلوا لأنهم لم يقدروا اللَّه حق قدره؛ إذ وصفوه بالعيب والنقص؛ لأنهم جعلوا الكامل من كل وجه كالناقص من كل وجه.

وإذا كان اقتران تفضيل الكامل على الناقص يحط من قدره؛ كما قيل:

ألم تر أن السيف ينقص قدره ... إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

فكيف بتمثيل الكامل بالناقص؟! هذا أعظم ما يكون جناية على اللَّه ـ عز وجل ـ وإن كان المعطلون أعظم جرمًا، لكن الكل لم يقدر اللَّه حق قدره.

فالواجب: أن نؤمن بما وصف اللَّه وسمى به نفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل.

هكذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من أهل العلم (٣).

فالتحريف في النصوص، والتعطيل في المعتقد، والتكييف في الصفة، والتمثيل في الصفة إلا أنه أخص من التكييف؛ فكل ممثل مكيف، ولا عكس.

فيجب أن تبرأ عقيدتنا من هذه الأمور الأربعة.

ونعني بالتحريف هنا: التأويل الذي سلكه المحرفون لنصوص الصفات؛ لأنهم سموا أنفسهم أهل

---

(١) أي ممن يزعمون معرفة التوحيد على هذا المعنى، ككثير ممن ينتسبون إلى الإسلام، ويشتغل بالسحر الذي هو عبادة الكواكب والشياطين بأنواع العزائم والبخور وذبح الحيوان الأسود أو الأحمر وغير ذلك مما سيأتي تفصيله. (ق).

(٢) أي يذبح لها الذبائح، ويصنع الأطعمة، كما يفعل الحاج لبيت الله من المناسك. (ق).

(٣) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية في جوابه لأحد قضاة واسط الذي طلب منه أن يكتب له عقيدة تكون عمدة له وأهل بيته انظر العقيدة الواسطية ص (١)، وبنحوه تكلم الذهبي في العلو انظر مختصر العلو للذهبي ص (٢٥) وما بعدها.

. . . .

ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام، أنَّ هذا شركٌ. انتهى كلامهُ رحمه الله تعالى.

التأويل؛ لأجل تلطيف المسلك الذي سلكوه؛ لأن النفوس تنفر من كلمة تحريف، لكن هذا من باب زخرفة القول وتزيينه للناس حتى لا ينفروا منه.

وحقيقة تأويلهم: التحريف، وهو صرف اللفظ عن ظاهره؛ فنقول: هذا الصرف إن دل عليه دليل صحيح؛ فليس تأويلاً بالمعنى الذي تريدون، لكنه تفسير.

وإن لم يدل عليه دليل؛ فهو تحريف وتغيير للكلم عن مواضعه؛ فهؤلاء الذين ضلوا بهذه الطريقة، فصاروا يثبتون الصفات لكن بتحريف؛ قد ضلوا، وصاروا في طريق معاكس لطريق أهل السنة والجماعة. وعليه؛ لا يمكن أن يوصفوا بأهل السنة والجماعة؛ لأن الإضافة تقتضي النسبة، فأهل السنة منتسبون للسنة؛ لأنهم متمسكون بها، وهؤلاء ليسوا متمسكين بالسنة فيما ذهبوا إليه من التحريف.

وأيضًا الجماعة في الأصل: الاجتماع، وهم غير مجتمعين في آرائهم؛ ففي كتبهم التداخل، والتناقض، والاضطراب، حتى إن بعضهم يضلل بعضًا، ويتناقض هو بنفسه.

وقد نقل شارح «الطحاوية» [1] عن الغزالي ـ وهو ممن بلغ ذروةَ علم الكلام ـ كلامًا إذا قرأه الإنسان تبين له ما عليه أهل الكلام من الخطأ والزَّلل والخطل، وأنهم ليسوا على بينة من أمرهم.

وقال الرازي ـ وهو من رؤسائهم:

نهاية إقدام العقول عقال	وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا	وغاية دنيانا أذًى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا	سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ثم قال: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية؛ فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]؛ يعني: فأثبت، وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]؛ يعني: فأنفي المماثلة، وأنفي الإحاطة به علمًا، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

فتجدهم حيارى مضطربين، ليسوا على يقين من أمرهم، وتجد من هداه اللّه الصراط المستقيم مطمئنًا منشرح الصدر، هادئ البال، يقرأ في كتاب اللّه وفي سنة رسول اللّه ﷺ ما أثبته اللّه لنفسه من الأسماء والصفات، فيثبت؛ إذ لا أحد أعلم من اللّه باللّه، ولا أصدق خبرًا من خبر اللّه، ولا أصح بيانًا من بيان اللّه؛ كما قال اللّه تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن

---

(١) انظر شرح الطحاوية ص (١٤٨) وما بعدها.

. . . .

. . . .

تَضلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]، ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩]، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

فهذه الآيات وغيرها تدل على أن اللَّه يبين للخلق غاية البيان الطريق التي توصلهم إليه، وأعظم ما يحتاج الخلق إلى بيانه ما يتعلق باللَّه تعالى وبأسماء اللَّه وصفاته حتى يعبدوا اللَّه على بصيرة؛ لأن عبادة من لم نعلم صفاته، أو من ليس له صفة أمر لا يتحقق أبدًا؛ فلا بد أن تعلم من صفات المعبود ما تجعلك تلتجئ إليه وتعبده حقًا.

ولا يتجاوز الإنسان حدَّه إلى تكييف أو التمثيل؛ لأنه إذا كان عاجزًا عن تصور نفسه التي بين جنبيه؛ فمن باب أولى أن يكون عاجزًا عن تصور حقائق ما وصف اللَّه به نفسه، ولهذا يجب على الإنسان أن يمنع نفسه عن السؤال بـ«لِمَ»و«كيف» فيما يتعلق بأسماء اللَّه وصفاته.

وكذا يمنع نفسه من التفكير بالكيفية. وهذا الطريق إذا سلكه الإنسان استراح كثيرًا، وهذه حال السلف رحمهم اللَّه، ولهذا لما جاء رجل إلى الإمام مالك بن أنس رحمه اللَّه قال: يا أبا عبد اللَّه ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كيف استوى؟ فأطرق برأسه وقال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعًا»(١).

أما في عصرنا الحاضر؛ فنجد من يقول: إن اللَّه ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر كل ليلة، فيلزم من هذا أن يكون كل الليل في السماء الدنيا؛ لأن الليل يمشي على جميع الأرض؛ فالثلث ينتقل من هذا المكان إلى المكان الآخر، وهذا لم يقله الصحابة رضوان اللَّه عليهم، ولو كان هذا يرد على قلب المؤمن؛ لبينه اللَّه إما ابتداءً أو على لسان رسوله ﷺ، أو يقيض من يسأله عنه فيجاب، كما سأل الصحابة رسول اللَّه ﷺ: أين كان اللَّه قبل أن يخلق السموات والأرض؟ فأجابهم(٢).

فهذا السؤال العظيم يدل على أن كل ما يحتاج إليه الناس فإن اللَّه يبينه بأحد الطرق الثلاثة.

والجواب عن الإشكال في حديث النزول(٣) أن يقال: ما دام ثلث الليل الأخير في هذه الجهة باقيًا؛ فالنزول فيها محقق، وفي غيرها لا يكون نزول قبل ثلث الليل الأخير أو النصف، واللَّه ـ عز وجل ـ ليس كمثله شيء، والحديث يدل على أن وقت النزول ينتهي بطلوع الفجر.

وعلينا أن نستسلم، وأن نقول: سمعنا، وأطعنا، واتبعنا، وآمنا؛ فهذه وظيفتنا لا نتجاوز القرآن والحديث.

---

(١) ذكره ابن حجر في اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٨)، والفتح (١٣/ ٤٠٧)، والبيهقي في الاعتقاد (١/ ١١٦)، وابن القيم في حاشيته (١٣/ ٢٥).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (٣١٩٢)، والترمذي (٣٩٥١)، وأحمد (١٩٣٢١) ومواضع.

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

وقول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]

قال المصنِّف رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]

بالجر، عطفٌ على التوحيد. ويجوز الرفع، على الابتداء.

قال شيخُ الإسلام: العبادةُ هي طاعةُ الله، بامتثال ما أمر الله به على ألسِنَة الرسل.

وقال أيضًا: العبادةُ اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

قال ابنُ القيم: مدارها على خمسَ عشرَة قاعدة، من كمَّلها كمَّل مراتب العبودية.

وبيانُ ذلك: أنَّ العبادة منقسمةٌ، على القلب واللسان والجوارح. والأحكامُ التي للعبودية خمسة: واجبٌ، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح، وهنَّ لكل واحدٍ من القلب، واللسان، والجوارح.

قال القُرطُبيُّ: أصلُ العبادة: التذللُ، والخضوع.

وسُمِّيت وظائفُ الشرع على المكلفين: عبادات؛ لأنهم يلتزمونها ويفعلونها، خاضعين متذللين لله تعالى. ومعنى الآية: أنَّ الله تعالى، أخبر أنَّه ما خلق الجن والإنس إلاَّ لعبادته. فهذا هو الحكمةُ في خلقهم.

قلتُ: وهي الحكمةُ الشرعية الدينية.

سبق تعريف التوحيد.

والكتاب بمعنى مكتوب، وقد ذكر الشيخ رحمه اللّه في هذا الكتاب عدة آيات.

لم يأت المؤلف رحمه الله بخطبة ومقدمة للكتاب، واكتفى بالترجمة؛ لأنك بمجرد أن تقرأ عنوان الكتاب تعرف أن موضوعه هو التوحيد.

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قوله: ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال؛ أي: ما خلقت الجن والإنس لأي شيء إلا للعبادة.

واللام في قوله: ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ للتعليل، وهذا التعليل لبيان الحكمة من الخلق، وليس التعليل الملازم للمعلول؛ إذ لو كان كذلك للزم أن يكون الخلق كلهم عبادًا للّه يتعبدون له، وليس الأمر كذلك. فهذه العلة غائية، وليست موجبة.

فالعلة الغائية لبيان الغاية والمقصود من هذا الفعل، لكنها قد تقع، وقد لا تقع.

مثل: بريت القلم لأكتب به؛ فقد تكتب، وقد لا تكتب.

....

قال العمادُ ابن كثير: وعبادتُه: هي طاعتُه بفعل المأمور، وترك المحظور. وذلك هو حقيقة دين الإسلام؛ لأن معنى الإسلام: الاستسلامُ لله تعالى، المتضمِّن غاية الانقياد والذل والخضوع. انتهى.

وقال أيضـًا ـ في تفسيـر هذه الآية ـ ومعنى الآية: الله تعالى خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتمَّ الجزاء، ومن عصاه عذَّبه أشد العذاب.

وأخبر أنَّه غيرُ محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، وهو خالقهم ورازقهم.

قال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه ـ في الآية ـ: إلاَّ لآمُرهم أنْ يعبدوني وأدعوهم إلى عبادتي.

وقال مجاهد: إلاَّ لآمُرَهم وأنهاهم. اختاره الزجَّاج، وشيخُ الإسلام.

قال: ويدلُّ على هذا، قولُه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] قال الشافعي: لا يُؤمر ولا يُنهى.

وقال في القرآن، في غير موضع ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ [الحج: ١] فقد أمرهم بما خُلقـوا له، وأرسل الرسل بذلك. وهذا المعنى، هو الذي قُصد بالآية قطعًا، وهو الذي يفهمه جماهيرُ المسلمين، ويحتجُّون بالآية عليه.

قال: وهذه الآيةُ، تُشبه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

ثم قد يُطاع وقد يُعصى، وكذلك ما خلقهم إلاَّ لعبادته، ثم قد يعبدون وقد لا يعبدون.

وهو سبحانه، لم يقُل: إنَّه فعلَ الأول: وهو خلْقهم؛ ليَفعلَ بهم كلِّهم، الثاني وهو عبادته. ولكن ذكر الأوّل، ليفعلوا هم الثاني، فيكونوا هم الفاعلين له. فيحصل لهم بفعله سعادتُهم، ويحصل ما يحبُّه ويرضاه منه ولهم. انتهى.

والعلة الموجبة معناها: أن المعلول مبني عليها؛ فلا بد أن تقع، وتكون سابقة للمعلول، وملازمة له. مثل: انكسر الزجاج لشدة الحرِّ.

قوله: ﴿خَلَقْتُ﴾؛ أي: أوجدت، وهذا الإيجاد مسبوق بتقدير، وأصل الخلق التقدير.

قال الشاعر:

ولأنـت تـفـري مـا خـلـقت   وبعض الناس يخلق ثم لا يفـري

قوله: ﴿الْجِنَّ﴾: هم عالم غيبي مخفيٌّ عنا، ولهذا جاءت المادة من الجيم والنون، وهما يدلان على الخفاء والاستتار.

ومنه: الجَنَّة، والجِنَّة، والجُنَّة.

قوله: ﴿وَالإِنسَ﴾: سُمُّوا بذلك؛ لأنهم لا يعيشون بدون إيناس؛ فهم يأنس بعضهم ببعض، ويتحرك بعضهم إلى بعض.

وقـولـه: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]

ويشهدُ لهذا المعنىٰ: ما تواترت به الأحاديث.

فمنها: ما أخرجه مسلمٌ في (صحيحه)، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «**يقولُ الله تعالى لأهْون أهلِ النار عذابًا: لو كانت لك الدنيا وما فيها، أكنت مفتديًا بها؟ فيقول: نعم. فيقول: قد أردتُ منك ما هو أهونُ من هذا، وأنت في صلب آدم: أنْ لا تُشرك بي ـ أحسبه قال: ولا أدخلك النار ـ فأبيت إلاَّ الشرك**»[(١)(٢)]. فهذا المشركُ، قد خالف ما أراده الله تعالىٰ: من توحيده، وأنْ لا يُشرك به شيئًا. فخالف ما أراده الله منه، فأشرك به غيره. وهذه هي الإرادةُ الشرعيةُ الدينية، كما تقدَّم. فبَيْن الإرادة الشرعية الدينية، والإرادة الكونية القدرية عمومٌ وخصوص مُطلق. يجتمعان في حق المُخلص المطيع، وتنفرد الإرادة الكونية القدرية في حق العاصي! فافهم ذلك، تنجُ به من جهالات أرباب الكلام وتابعيهم.

قال المصنفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

قوله: ﴿ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ فُسِّر: إلا ليوحدون، وهذا حق، وفسر: بمعنىٰ يتذلَّلون لي بالطاعة فعلاً للمأمور، وتركًا للمحظور، ومن طاعته أن يوحد سبحانه وتعالىٰ؛ فهذه هي الحكمة من خلق الجن والإنس. ولهذا أعطىٰ اللّه البشر عقولاً، وأرسل إليهم رسلاً، وأنزل عليهم كتبًا، ولو كان الغرض من خلقهم كالغرض من خلق البهائم، لضاعت الحكمة من إرسال الرسل، وإنزال الكتب؛ لأنه في النهاية يكون كشجرة نبتت، ونمت، وتحطمت. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ **إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ** ﴾ [القصص: ٨٥]؛ فلا بد أن يردك إلىٰ معادٍ تجُازىٰ علىٰ عملك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وليست الحكمة من خلقهم نفع اللّه، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ **مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٧].

وأما قوله تعالىٰ: ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ** ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

فهذا ليس إقراضًا للّه سبحانه، بل هو غنيٌّ عنه، لكنه سبحانه شبَّه معاملة عبده له بالقرض؛ لأنه لا بد من وفائه، فكأنه التزام من اللّه سبحانه أن يوفي العامل أجر عمله كما يوفِّي المقترض من أقرضه.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]

قوله: ﴿ وَلَقَدْ ﴾: اللام موطئة لقسم مقدر.

---

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري. (ق).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (٣٣٣٤)، ومسلم (٢٨٠٥).

. . . .

الطاغوت: مشتقٌ من الطغيان، وهو مُجاوزة الحد. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الطاغوت: الشيطان[(١)(٢)].

وقال جابر رضي الله عنه: الطواغيت، كُهَّانٌ كانت تنزل عليهم الشياطين رواهما ابنُ أبي حاتم.

وقال مالك: الطاغوت: كلُّ ما عُبد من دون الله.

قال العمادُ ابن كثير: الطاغوت: الشيطان، ومازيَّنه من عبادة غير الله.

قلتُ: وذلك المذكور، بعضُ أفراده. وقد حدَّه العلاَّمةُ ابن القيم رحمه الله تعالىٰ، حدًّا جامعًا: الطاغوتُ، ما تجاوز به العبدُ حدَّه: من معبودٍ، أو متبوع، أو مُطاع، فطاغوتُ كل من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتَّبعونه علىٰ غير بصيرة من الله، أو يُطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله.

فهذه طواغيتُ العالم. إذا تأملتها وتأمَّلت أحوال الناس معها، رأيت أكثرهم أعرض عن عبادة الله تعالىٰ إلىٰ عبادة الطاغوت، وعن طاعة الله ورسوله ﷺ إلىٰ طاعة الطاغوت ومتابعته. وأمَّا معنىٰ الآية: فأخبر تعالىٰ، أنَّه بعث في كلّ طائفة من الناس رسولاً بهذه الكلمة ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

وقد: للتحقيق.

وعليه؛ فالجملة مؤكدة بالقسم المقدر، واللام، وقد.

قوله: ﴿بَعَثْنَا﴾؛ أي أخرجنا، وأرسلنا في كل أمة.

والأمة هنا: الطائفة من الناس.

وتطلق الأمة في القرآن علىٰ أربعة معان:

أ ـ الطائفة: كما في هذه الآية.

ب ـ الإمام، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ١٢٠].

ج ـ الملة: ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٣].

د ـ الزمن: ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف: ٤٥].

فكل أمة بعث فيها رسول من عهد نوح إلىٰ عهد نبينا محمد ﷺ.

---

(١) ذكره ابن كثير عن حسان بن قائد العبيسي عن عمر قال: «إن الجبت السحر والطاغوت الشيطان، وأن الشجاعة والجبن تكون غرائز في الرجال» إلخ ثم قال الحافظ ومعنى قوله: في الطاغوت (إنه الشيطان) قوي جداً، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية. من عبادة الأوثان، والتحاكم إليها، والاستنصار بها. وكذلك رواه ابن جرير. (ق).

(٢) ذكره النووي في شرح مسلم (١٨/٣) عن ابن عباس ومقاتل والكلبي وغيرهم.

. . . .

الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] أي: اعبدوا الله وحده، واتركوا عبادة ما سواه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦] وهذا معنىٰ: لا إله إلاَّ الله؛ فإنها هي العروةُ الوُثقىٰ.

قال العمادُ ابن كثير - في هذه الآية -: وكلُّهم يدعو إلىٰ عبادة الله، وينهىٰ عن عبادة ما سواه. فلم يزل تعالىٰ يُرسل الرسل بذلك، منذ حدث الشركُ في قوم نوح الذي أُرسل إليهم.

والحكمة من إرسال الرسل:

أ - إقامة الحُجّة: قال تعالىٰ: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]

ب - الرحمة: لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ج - بيان الطريق الموصل إلىٰ اللَّه تعالىٰ؛ لأن الإنسان لا يعرف ما يجب للَّه علىٰ وجه التفصيل إلا عن طريق الرسل.

قوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: «أن»: قيل: تفسيرية، وهي التي سبقت بما يدل علىٰ القول بدون حروفه؛ كقوله تعالىٰ: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، والوحي فيه معنىٰ القول دون حروفه، والبعث متضمن معنىٰ التوحيد؛ لأن كل رسول موحىً إليه.

وقيل: إنها مصدرية علىٰ تقدير الباء أي: بأن اعبدوا، والراجح: الأول؛ لعدم التقدير.

قوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: أي: تذللوا له بالعبادة. وسبق تعريف العبادة.

قوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾: أي: ابتعدوا عنه بأن تكونوا في جانب، وهو في جانب.

والطاغوت: مشتق من الطغيان، وهو صفة مشبَّهة.

والطغيان: مجاوزة الحد؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١٢]؛ أي: تجاوز حدَّه. وأجمع ما قيل في تعريفه هو ما ذكره ابن القيم رحمه اللَّه بأنه: ما تجاوز به العبد حده من متبوع، أو معبود، أو مطاع.

ومراده من كان راضياً بذلك، أو يقال: هو طاغوت باعتبار عابده، وتابعه، ومُطيعه؛ لأنه تجاوز به حده حيث نزله فوق منزلته التي جعلها اللَّه له، فتكون عبادته لهذا المعبود، واتباعه لمتبوعه، وطاعته لمطاعه طغيانًا لمجاوزته الحدَّ بذلك.

فالمتبوع مثل: الكهان، والسحرة، وعلماء السوء.

. . . .

وكان أوَّلَ رسولٍ بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض، إلى أنْ ختمهم بمحمد ﷺ. الذي طبَّقت دعوتُه الإنس والجن، في المشارق والمغارب. وكلُّهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]

فكيف يسوغُ لأحدٍ من المشركين ـ بعد هذا ـ أنْ يقول: لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء؟!!

فمشيئةُ الله تعالى الشرعية عنهم منفية؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسُن رُسله. وأمَّا مشيئتُه الكونية ـ وهي تمكينهم من ذلك قَدَرًا ـ فلا حُجَّة لهم فيه؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر.

وله في ذلك حجةٌ بالغة، وحكمة قاطعة؛ ولهذا قال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ [النحل: ٣٦] انتهى.

قلتُ: وهذه الآيةُ تُفسِّر الآية قبلها، وذلك قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾، فتدبر!

والمعبود مثل: الأصنام.

والمطاع مثل: الأمراء الخارجين عن طاعة اللَّه، فإذا اتخذهم الإنسان أربابًا يحل ما حرم اللَّه من أجل تحليلهم له، ويحرِّم ما أحل اللَّه من أجل تحريمهم له؛ فهؤلاء طواغيت، والفاعل تابع للطاغوت. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]. ولم يقل: إنهم طواغيت.

ودلالة الآية على التوحيد: أن الأصنام من الطواغيت التي تعبد من دون اللَّه.

والتوحيد لا يتم إلا بركنين، هما:

١ ـ الإثبات.　　　　٢ ـ النفي.

إذ النفي المحض تعطيل محض، والإثبات المحض لا يمنع المشاركة.

مثال ذلك: زيد قائم، يدل على ثبوت القيام لزيد، لكن لا يدل على انفراده به.

ولم يقم أحد، هذا نفي محض.

ولم يقم إلا زيد، هذا توحيد له بالقيام؛ لأنه اشتمل على إثبات ونفي.

وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]

ودلَّت هذه الآيةُ على أنَّ الحكمة في إرسال الرسل: دعوتُهم أُمَمَهم إلى عبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وأنَّ هذا هو دينُ الأنبياء والمرسلين، وإنْ اختلفت شريعتهم؛ كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] وأنّه لابُدَّ في الإيمان من العمل، من القلب والجوارح.

قال المصنِّف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

قال مجاهد: قضى، يعني: وصَّى. وكذا قرأ أُبيُّ بن كعب، وابن مسعود، وغيرُهم.

ولابن جرير، عن ابن عباس: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ يعني: أمر.

وقوله: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ المعنى: أن تعبدوه وحده دون ما سواه، وهذا معنى: لا إله إلاَّ الله.

قوله «الآية»: أي: إلى آخر الآية، وتقرأ بالنصب، إما على أنها مفعول به لفعل محذوف تقديره أكمل الآية، أو أنها منصوبة بنزع الخافض؛ أي: إلى آخر الآية.

ووجه الاستشهاد بهذه الآية لكتاب التوحيد: أنها دالة على إجماع الرسل عليهم الصلاة والسلام على الدعوة إلى التوحيد، وأنهم أرسلوا به؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ...﴾ [الإسراء: ٢٣] الآية:

قوله: ﴿قَضَىٰ﴾ قضاء اللَّه ـ عز وجل ـ ينقسم إلى قسمين:

١ ـ قضاء شرعي. ٢ ـ قضاء كوني.

فالقضاء الشرعي: يجوز وقوعه من المقتضي عليه وعدمه، ولا يكون إلا فيما يحبه اللَّه.

مثال ذلك: هذه الآية: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]. فتكون قضى بمعنى: شرع، أو بمعنى: وصى، وما أشبههما.

والقضاء الكوني: لا بدَّ من وقوعه، ويكون فيما أحبه اللَّه، وفيما لا يحبه.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤].

. . . .

قال العلاَّمة ابن القيم رحمه الله تعالى: والنفيُ المحض ليس توحيدًا، وكذلك الإثبات بدون النفي. فلا يكون التوحيد إلاَّ متضمنًا للنفي والإثبات، وهذا هو حقيقة التوحيد.

قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: وقضى أنْ تُحسنوا بالوالدين إحسانًا، كما قضى بعبادته وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى في الآية الأُخرى ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

فالقضاء هنا كوني؛ لأن اللَّه لا يشرع الفساد في الأرض، ولا يحبه.

قوله: ﴿أن لا تعبدوا﴾:

﴿أن﴾ هنا مصدرية بدليل حذف النون من تعبدوا، والاستثناء هنا مفرغ؛ لأن الفعل لم يأخذ مفعوله؛ فمفعوله ما بعد إلا.

قوله: ﴿إلاَّ إيَّاهُ﴾ ضمير نصب منفصل واجب الانفصال؛ لأن المتصل لا يقع بعد إلا، قال ابن مالك:

وذو اتصال منه ما لا يبتدا ... ولا يلي «إلا» اختيارًا أبدًا

إشكال وجوابه:

إذا قيل: ثبت أن اللَّه قضى كونًا ما لا يحبه؛ فكيف يقضي اللَّه ما لا يحبه؟

والجواب: أن المحبوب قسمان:

١ ـ محبوب لذاته. ٢ ـ محبوب لغيره.

فالمحبوب لغيره قد يكون مكروهًا لذاته، ولكن يُحَبُّ لما فيه من الحكمة والمصلحة؛ فيكون حينئذ محبوبًا من وجه، مكروهًا من وجه آخر.

مثال ذلك: الفساد في الأرض من بني إسرائيل في حد ذاته مكروه إلى الله؛ لأن الله لا يحب الفساد ولا المفسدين، ولكن للحكمة التي يتضمنها يكون بها محبوبًا إلى الله ـ عز وجل ـ من وجه آخر. ومن ذلك: القحط، والجدب، والمرض، والفقر؛ لأن اللَّه رحيم لا يحب أن يؤذي عباده بشيء من ذلك، بل يريد بعباده اليسر، لكن يقدره للحكم المترتبة عليه؛ فيكون محبوبًا إلى اللَّه من وجه، مكروهًا من وجه آخر.

قال اللَّه تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

فإن قيل: كيف يتصور أن يكون الشيء محبوبًا من وجه مكروهًا من وجه آخر؟

فيقال: هذا الإنسان المريض يعطى جرعة من الدواء مُرَّة كريهة الرائحة واللون، فيشربها، وهو يكرهها لما فيها من المرارة واللون والرائحة، ويحبها لما فيها من الشفاء، وكذا الطبيب يكوي المريض بالحديدة المحمَّاة على النار، ويتألم منها؛ فهذا الألم مكروه له من وجه، محبوب له من وجه آخر.

. . . .

وقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: لا تُسمعهما قولاً سيئًا، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيء.

﴿وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: لا يصدر منك إليهما فعلٌ قبيح، كما قال عطاءُ بن أبي رباح: لا تنفض يديك على والديك.

ولمّا نهاه عن الفعل القبيح والقول القبيح، أمره بالفعل الحسن والقول الحسن، فقال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ أي لينًا طيبًا، بأدب وتوقير وقوله: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي: تواضع لهما.

فإن قيل: لماذا لم يكن قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ من باب القضاء القدري؟

أجيب: بأنه لا يمكن؛ إذ لو كان قضاءً قدريًا لعبد الناس كلهم ربهم، لكنه قضاء شرعي قد يقع وقد لا يقع.

والخطاب في الآية للنبي ﷺ، لكن قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾، ولم يقل: «أن لا تعبد»، ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١]؛ فالخطاب الأول للرسول ﷺ، والثاني عام؛ فما الفائدة من تغيير الأسلوب؟

أجيب: إن الفائدة من ذلك:

١ - التنبيه؛ إذ تنبيه المخاطب أمر مطلوب للمتكلِّم، وهذا حاصل هنا بتغيير الأسلوب.

٢ - أن النبي ﷺ زعيم أمته، والخطاب الموجه إليه موجه لجميع الأمة.

٣ - الإشارة إلى أن ما خوطب به الرسول ﷺ فهو له ولأمته؛ إلا ما دل الدليل على أنه مختص به.

٤ - وفي هذه الآية خاصة الإشارة إلى أن النبي ﷺ مربوب لا رب، عابد لا معبود؛ فهو داخل في قوله: ﴿تَعْبُدُوا﴾، وكفى به شرفًا أن يكون عبدًا لله - عز وجل - ولهذا يصفه الله تعالى بالعبودية في أعلى مقاماته، فقال في مقام التحدي والدفاع عنه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال في مقام إثبات نبوته ورسالته إلى الخلق: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١].

وقال في مقام الإسراء والمعراج: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

أقسام العبودية:

تنقسم العبودية إلى ثلاثة أقسام:

١ - عامة، وهي عبودية الربوبية، وهي لكل الخلق، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]. ويدخل في ذلك الكفار.

. . . .

﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ أي: في كبرهما، وعند وفاتهما؛ ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ ، وقد ورد في برِّ الوالدين أحاديثُ كثيرة.

منها: الحديثُ المروي من طُرقٍ، عن أنس، وغيره، أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا صعد المنبر، قال: «آمين آمين آمين» فقالوا: يا رسول الله، على ما أمَّنت؟ فقال: «أتاني جبريلُ، فقال: يا محمد؛ رَغِم أنف امرىء دخل عليه شهرُ رمضان، ثم خرج ولم يُغفر له. قُل: آمين. فقلتُ: آمين. ثم قال: رغِم أنفُ امرىءٍ أدرك أبويه أو أحدَهما فلم يُدخلاه الجنة. قل: آمين. فقلتُ: آمين»[(١)(٢)].

---

٢ - عبودية خاصة، وهي عبودية الطاعة العامة، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾ [الفرقان: ٦٣]. وهذه تعم كل من تعبَّد للَّه بشرعه.

٣ - خاصة الخاصة، وهي عبودية الرسل عليهم الصلاة والسلام، قال تعالىٰ عن نوح: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾[الإسراء: ٣]، وقال عن محمد: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال في آخرين من الرسل: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥]. فهذه العبودية المضافة إلىٰ الرسل خاصة؛ لأنه لا يباري أحد هؤلاء الرسل في العبودية.

قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾: أي: قضىٰ ربك أن نحسن بالوالدين إحساناً.

والوالدان: يشمل الأم، والأب، ومن فوقهما، لكنه في الأم والأب أبلغ، وكلما قربا منك كانا أولىٰ بالإحسان، والإحسان بذل المعروف، وفي قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ بعد قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ دليل علىٰ أن حق الوالدين بعد حق اللَّه عز وجل.

فإن قيل: فأين حق الرسول ﷺ؟

---

(١) أخرجه عن أنس: ابن أبي شيبة والبزار في مسنديهما من طريق سلمة بن وردان عنه، وسلمة ضعيف، ورواه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد. وابن حبان في ثقاته وصحيحه، والطبراني في الكبير، والبخاري في بر الوالدين، والبيهقي في شعب الإيمان، والضياء المقدسي في المختارة، كلهم عن كعب بن عجرة، ورجاله ثقات. وأخرجه ابن حبان في الصحيح والثقات والطبراني ورجاله ثقات عن مالك بن الحويرث، ورواه البخاري في الأدب المفرد والطبراني في تهذيبه والدارقطني في الأفراد. وأشار إليه الترمذي وأخرجه النسائي وابن السني في اليوم والليلة والضياء المقدسي في المختارة، كلهم عن جابر بن عبد الله. وأخرجه البزار والطبراني عن عمار ابن ياسر. وأخرجه البزار عن ابن مسعود وأخرجه الطبراني عن ابن عباس وأبي ذر. وأخرجه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما عن أبي هريرة وهو عند البيهقي في الدعوات مختصراً. وعند الترمذي وأحمد وقال الترمذي: حسن غريب. وأخرجه الدارقطني في الأفراد والبزار في مسنده والطبراني في الكبير عن جابر بن سمرة، وأخرجه البزار والطبراني وابن أبي عاصم عن عبد الله بن الحارث ابن جزء الزبيدي. (ق).

(٢) حسن صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٩٢٧)، والتعليق الرغيب (٢/ ٢٨٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

وروىٰ الإمامُ أحمد، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: **«رغم أنفُ، ثم رغِم أنفُ، ثم رغم أنف رجلٍ أدرك والديه، أو أحدهما، ولم يدخل الجنة»** قال العمادُ ابن كثير: صحيحٌ من هذا الوجه.

وعن أبي بكرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«ألا أُنبئكم بأكبر الكبائر؟»** قلنا: بلىٰ يا رسول الله. قال: **«الإشراكُ بالله، وعقوق الوالدين»** وكان مُتكئًا فجلس، فقال: **«ألا وقولُ الزور، ألا وشهادة الزور»** فمازال يكررها حتىٰ قلنا: ليتهُ سكت[1]. رواه البخاري، ومسلم.

وعن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«رضَا الربِّ في رضا الوالدين، وسخطُه في سخط الوالدين»**[2] رواه الترمذي، وصححه ابنُ حبان والحاكم.

وعن أبي أُسيد السَّاعدي، قال: بينا نحن جلوسٌ عند النبي ﷺ، إذْ جاء رجلٌ من بني سَلِمة، فقال: يا رسول الله! هل بقي من برِّ أبَويَّ شيءٌ أبرُّهما به بعد موتهما؟ فقال: **«نعم؛ الصلاةُ عليهما والاستغفار لهما، وإنفاذُ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا تُوصل إلاَّ بهما، وإكرام صديقهما»**[3] رواه أبو داود، وابن ماجه. والأحاديثُ في هذا المعنىٰ كثيرةٌ جداً.

أجيب: بأن حق اللّه متضمن لحق الرسول ﷺ؛ لأن اللّه لايعبد إلا بما شرع الرسول ﷺ.

وقوله: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ ﴾: أي: كُفَّ الأذىٰ عنهما؛ ففي قوله: ﴿ إِحْسَانًا﴾: بذل المعروف، وفي قوله: ﴿فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾: كف الأذىٰ، ومعنىٰ« أف»: أتضجر؛ لأنك إذا قلته؛ فقد يتأذيان بذلك.

وفي الآية إشارة إلىٰ أنهما إذا بلغا الكبر صارا عبئًا علىٰ ولدهما؛ فلا يتضجر من الحال، ولا ينهرهما في المقال إذا أساءا في الفعل أو القول.

قوله: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾: أي لينًا حسنًا بهدوء وطمأنينة؛ كقولك: أعظم اللّه أجرك، أبشري يا أمي، أبشر يا أبي، وما أشبه ذلك؛ فالقول الكريم في صيغته، وأدائه، والخطاب به؛ فلا يكون مزعجًا كرفع الصوت مثلاً، بل يتضمن الدعاء والإيناس لهما.

والشاهد من هذه الآية: قوله تعالىٰ: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾؛ فهذا هو التوحيد لتضمنه للنفي والإثبات.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٦٥٤) ومواضع، ومسلم (٨٧).

(٢) حسن: حسنه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٥١٦).

(٣) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٤٩٣٦)، وضعيف أبي داود (١١٠١).

وقوله: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾[١][النساء: ٣٦].

قال المصنِّف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء: ٣٦]

قال العمادُ ابن كثير رحمه الله تعالى: في هذه الآية: يأمرُ تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له؛ فإنه الخالقُ الرازق، المُنعم المتفضِّلُ على خلقه في جميع الحالات، وهو المستحق منهم أنْ يوحِّدوه ولا يُشركوا به شيئًا من مخلوقاته انتهى.

وهذه الآيةُ، هي التي تُسمَّى: آيةُ الحقوق العشرة: وفي بعض النسخ المُعتمدة من نُسخ هذا الكتاب: تقديمُ هذه الآية على آية الأنعام. ولهذا قدَّمتُها؛ لمناسبة كلام ابن مسعود الآتي لآية الأنعام، ليكون ذكرُه بعدها أنسب.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾الآية.

﴿ وَلا تُشْرِكُوا﴾ في مقابل« لا إله»؛ لأنها نفي.

وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا ﴾ في مقابل« إلا اللّه»؛ لأنها إثبات.

وقوله: ﴿شَيْئًا﴾ نكرة في سياق النهي؛ فتعم كل شيء: لا نبيًا، ولا ملكًا، ولا وليًّا، بل ولا أمرًا من أمور الدنيا؛ فلا تجعل الدنيا شريكًا مع اللّه، والإنسان إذا كان همه الدنيا كان عابدًا لها؛ كما قال ﷺ: **«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميلة، تعس عبد الخميصة»**[٢].

قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾: يقال فيها ما قيل في الآية السابقة.

قوله: ﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾؛ أي: إحسانًا.

وذو القربى: هم من يجتمعون بالشخص في الجد الرابع.

واليتامى: جمع يتيم، وهو الذي مات أبوه، ولم يبلغ.

---

(١) قال في قرة العيون: وهذه الآية تبين العبادة التي خلقوا لها أيضًا. فإنه تعالى قرن الأمر بالعبادة التي فرضها بالنهي عن الشرك الذي حرمه وهو الشرك في العبادة فدلت هذه الآية على أن اجتناب الشرك شرط في صحة العبادة فلا تصح بدونه أصلاً كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦] فتقديم المعمول يفيد الحصر أي: بل الله فاعبده وحده لا غيره كما في فاتحة الكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وقرر تعالى هذا التوحيد بقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١] والدين هو العبادة بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى:

والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثاني

وتقدم أن أصله وأساسه توحيد العبادة فلا تغفل عما تقدم. (ق).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٨٨٧، ٦٤٣٥)، وابن ماجه (٤١٣٥، ٤١٣٦).

وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ

قال المصنِّف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [١] الآيات [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

قال العمادُ ابن كثير: يقول تعالى لنبيّه ورسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المُشركين الذين عبدوا غير الله، وحرَّموا ما رزقهم الله: ﴿تَعَالَوْا﴾ أي: هلمُّوا وأقبلوا ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أقصُّ عليكم ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حقًا، لا تخرُّصًا ولا ظنًا، بل وحيًا منه وأمرًا من عنده

والمساكين: هم الذين عدموا المال فأسكنهم الفقر.

وابن السبيل: هو المسافر الذي انقطعت به النفقة.

---

(١) في قرة العيون: وقد وقع الأكثر من متأخري هذه الأمة في هذا الشرك الذي هو أعظم المحرمات؛ كما وقع فيه أهل الجاهلية قبل مبعث النبي ﷺ، عبدوا القبور والمشاهد والأشجار والأحجار والطواغيت والجن، كما عبد أولئك اللات والعزى ومناة وهبل وغيرها من الأصنام والأوثان، واتخذوا هذا الشرك دينًا؛ ونفروا إذا دعوا إلى التوحيد أشد نفرة؛ واشتد غضبهم لمعبوداتهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦] علموا أن لا إله إلا الله تنفي الشرك الذي وقعوا فيه، وأنكروا التوحيد الذي دلت عليه. فصار أولئك المشركون أعلم بمعنى هذه الكلمة (لا إله إلا الله) من أكثر متأخري هذه الأمة لا سيما أهل العلم منهم الذين لهم دراية في بعض الأحكام وعلم الكلام؛ فجهلوا توحيد العبادة فوقعوا في الشرك المنافي له وزينوه، وجهلوا توحيد الأسماء والصفات وأنكروه؛ فوقعوا في نفيه أيضًا. وصنفوا فيه الكتب، لاعتقادهم أن ذلك حق وهو باطل، وقد اشتدت غربة الإسلام حتى عاد المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، فنشأ على هذا الصغير، وهرم عليه الكبير. وقد قال النبي ﷺ: **«بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ»** وقد قال ﷺ: **«افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة»**. قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: **«من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي»** وهذا الحديث قد صح من طرق كما ذكره العماد ابن كثير وغيره من الحفاظ وهو في السنن وغيرها. ورواه محمد بن نصر في كتاب الاعتصام، وقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ بعد القرون الثلاثة.

فلهذا عم الجهل بالتوحيد الذي هو أصل دين الإسلام؛ فإن أصله أن لا يعبد إلا الله وأن لا يعبد إلا بما شرع، وقد ترك هذا وصارت عبادة الأكثرين مشوبة بالشرك والبدع، ولكن الله تعالى وله الحمد لم يخل الأرض من قائم له بحججه، وداع إليه على بصيرة، لكيلا تبطل حجج الله وبيناته التي أنزلها على أنبيائه ورسله؛ فله الحمد والشكر على ذلك. (ق).

أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١ـ ١٥٣].

﴿ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ وكأنَّ في الكلام محذوفًا، دلَّ عليه السياق. تقديرهُ: وصَّاكم أن لا تشركوا به شيئًا؛ ولهذا قال في آخر الآية ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم ﴾ انتهىٰ.

قلتُ: فيكون المعنىٰ: حرَّم عليكم ما وصَّاكم بتركه، من الإشراك به.

وفي (المُغني) لابن هشام، في قوله تعالىٰ: ﴿ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ سبعةُ أقوال. أحسنها: هذا الذي ذكره ابنُ كثير. ويليه: أُبيِّنُ لكم ذلك لئلا تُشركوا. فحُذِفَت الجملةُ من أحدهما ـ وهي ﴿ وَصَّاكُم ﴾ ـ وحرفُ الجر وما قبله من الأخرىٰ.

قوله: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾: الجار: الملاصق للبيت، أو من حوله.

وذي القربىٰ؛ أي: القريب، والجار الجنب، أي: الجار البعيد.

قوله: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾: قيل: إنه الزوجة، وقيل: صاحبك في السفر؛ لأنه يكون إلىٰ جنبك، ولكل منهما حق؛ فالآية صالحة لهما.

قوله: ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: هذا يشمل الإحسان إلىٰ الأرقاء والبهائم؛ لأن الجميع ملك اليمين.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾: المختال: في هيئته.

والفخور: في قوله، والله لا يحب هذا ولا هذا.

الآية الخامسة إلى التاسعة: قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾: الخطاب للنبي ﷺ، أمره الله أن يقول للناس: ﴿تَعَالَوْا ﴾؛ أي: أقبلوا، وهلموا، وأصله من العلو كأن المنادي يناديك أن تعلو إلىٰ مكانه، فيقول: تعال؛ أي: ارتفع إلي.

وقوله: ﴿ أَتْلُ﴾: بالجزم جوابًا للأمر في قوله: ﴿تَعَالَوْا ﴾.

وقوله: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾: «ما» اسم موصول مفعول لـ ﴿أتل﴾، والعائد محذوف، والتقدير: ما حرمه ربكم عليكم.

وقال: ﴿رَبُّكُمْ﴾ ولم يقل: ما حرم الله؛ لأن الرب هنا أنسب، حيث إن الرب له مطلق التصرف في المربوب، والحكم عليه بما تقتضيه حكمته.

. . . .

ولهذا إذا سُئلوا عمَّا يقول لهم رسولُ الله ﷺ، قالوا: يقول: «اعبدوا الله ولا تُشركوا به شيئًا واتركوا ما يقول آباؤكم» كما قال أبو سفيان، لهِرقل[1][2].

وهذا هو الذي فهم أبو سفيان وغيرُه، من قول رسول الله ﷺ لهم: «قولوا: لا إله إلا الله تُفلحوا».

قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾: قال القُرطبي: الإحسانُ إلى الوالدين: بِرُّهما وحفظُهما وصيانتُهما، وامتثال أمرهما، وإزالة الرِّق عنهما، وتركُ السَّلطنة عليهما.

و ﴿إِحْسَانًا﴾ نُصِب على المصدريَّة، وناصبَه فعلٌ مضمر من لفظه، تقديره: وأحسنوا بالوالدين إحسانًا.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾: الإملاقُ: الفقرُ. أي: لا تئِدوا

قوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾:

«أن»: تفسيرية، تفسر «أتل ما حرم»؛ أي: أتلو عليكم ألا تشركوا به شيئًا، وليست مصدرية، وقد قيل به، وعلى هذا القول تكون «لا» زائدة، ولكن القول الأول أصح؛ أي: أتل عليكم عدم الإشراك؛ لأن الله لم يحرم علينا أن لا نشرك به، بل حرم علينا أن نشرك به، ومما يؤيد أن «أن» تفسيرية أن «لا» هنا ناهية لتتناسب الجُمل؛ فتكون كلها طلبية.

قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾: أي: أتل عليكم الأمر بالإحسان إلى الوالدين.

قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم﴾: بعد أن ذكر حق الأصول ذكر حق الفروع.

والأولاد في اللغة العربية: يشمل الذكر والأنثى، قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

قوله: ﴿مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾: الإملاق: الفقر، و﴿مِنْ﴾ للسببية والتعليل؛ أي: بسبب الأملاق.

قوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾: أي إذا أبقيتموهم؛ فإن الرزق لن يضيق عليكم بإبقائهم؛ لأن الذي يقوم بالرزق هو الله.

وبدأ هنا برزق الوالدين، وفي سورة الإسراء بدأ برزق الأولاد، والحكمة في ذلك أنه قال هنا: ﴿مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾؛ فالإملاق حاصل، فبدأ بذكر الوالدين اللذين أملقا، وهناك قال: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]؛ فهما غنيان، لكن يخشيان الفقر، فبدأ برزق الأولاد قبل رزق الوالدين.

وتقييد النهي عن قتل الأولاد بخشية الإملاق بناءً على واقع المشركين غالبًا فلا مفهوم له.

قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾: لم يقل: لا تأتوا؛ لأن النهي عن القرب أبلغ من النهي عن

---

(١) رواه البخاري في بدء الوحي، في حديث أبي سفيان الطويل. (ق).

(٢) صحيح: وقد تقدم تخريجه.

. . . .

بناتكم خشية العَيلة والفقر؛ فإني رازقُكم وإياهم. وكان منهم من يفعل ذلك بالإناث والذكور، خشيةَ الفقر. ذكره القرطبي.

وفي (الصحيحين)، عن ابن مسعود، قلتُ: يا رسول الله! أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «**أنْ تجعل لله ندًا وهو خلقك**» قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «**أنْ تقتل ولدك خشية أنْ يطعم معك**» قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «**أن تُزاني بحليلة جارك**» ثم تلا رسولُ الله ﷺ ﴿**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾[(١)] [الفرقان: ٦٨-٧٠].

وقوله: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ قال ابنُ عطية: نَهيٌ عامٌ عن جميع أنواع الفواحش، وهي المعاصي و (ظهر) و (بطن) حالتان تستوفيان أقسام ما جعلتا له من الأشياء. انتهى.

قوله: ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ في (الصحيحين) عن ابن مسعود رضي الله عنه، مرفوعًا: «**لا يحلُّ دمُ امرئٍ مسلم يشهد أنْ لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمدًا رسول الله إلاَّ بإحدى ثلاث: الثَّيبُ الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[(٢)].

قوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قال ابنُ عطية: (ذلكم) إشارةٌ إلى هذه المحرمات،

الإتيان؛ لأن النهي عن القرب نهي عنها، وعما يكون ذريعة إليها، ولذلك حرم على الرجل أن ينظر إلى المرأة الأجنبية، وأن يخلو بها، وأن تسافر المرأة بلا محرم؛ لأن ذلك يقرب من الفواحش.

قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾: قيل: ما ظهر فحشه وما خفي؛ لأن الفواحش منها شيء مستفحش في نفوس جميع الناس، ومنها شيء فيه خفاء.

وقيل: ما أظهرتموه، وما أسررتموه؛ فالإظهار: فعل الزنا ـ والعياذ بالله ـ مجاهرة، والإبطان فعله سرًا.

وقيل: ما عظم فحشه، وما كان دون ذلك؛ لأن الفواحش ليست على حد سواء، ولهذا جاء في الحديث: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**»[(٣)]، وهذا يدل على أن الكبائر فيها أكبر وفيها ما دون ذلك.

قوله: ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾: النفس التي حرم الله: هي النفس المعصومة، وهي نفس المسلم، والذمي، والمعاهد والمستأمِن؛ بكسر الميم.

والحق: ما أثبته الشرع. والباطل: ما نفاه الشرع.

فمن الحق الذي أثبته الشرع في قتل النفس المعصومة أن يزني المحصن فيرجم حتى يموت، أو يقتل مكافئه، أويخرج على الجماعة، أو يقطع الطريق، فإنه يقتل، قال ﷺ: «**لا يحلُّ دم امرئ مسلم إلا**

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٧٦١، ٦٨٦١، ٧٥٢٠)، ومسلم (٨٦).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٥٤، ٥٩٧٦، ٥٩٧٧)، ومسلم (٨٧، ٨٨).

. . . .

والوصية: الأمر المؤكَّد المقرر.

وقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (لعل) للتعليل: أي إنَّ الله تعالىٰ وصَّانا بهذه الوصايا؛ لنعقلها عنه ونعمل بها. وفي (تفسير) الطبري الحنفي: ذكر أوّلاً ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ثم ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ ثم ﴿تَتَّقُونَ﴾؛ لأنهم إذا عقلوا تذكروا، فإذا تذكَّروا خافوا واتقوا.

قوله: ﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ قال ابن عطية: هذا نهيٌ عام عن القرب الذي يعمّ وجوه التصرف، وفيه سدُّ الذريعة، ثم استثنىٰ ما يحسُنُ: وهو السعي في نمائه. قال مجاهد: التي هي أحسن: التجارة فيه.

بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[1] .

وقال هنا: ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾، وقال قبلها: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم﴾، فيكون النهي عن قتل الأولاد مكرراً مرتين، مرة بذكر الخصوص، ومرة بذكر العموم.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ ﴾: المشار إليه ما سبق، والوصية بالشيء هي العهد به علىٰ وجه الاهتمام، ولهذا يقال: وصيته علىٰ فلان، أي: عهدت به إليه ليهتم به.

قوله: ﴿تَعْقِلُونَ﴾: العقل هنا: حسن التصرف، وأما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]. فمعناه: تفهمون. وفي هذا دليل علىٰ أن هذه الأمور إذا التزم بها الإنسان، فهو عاقل رشيد، وإذا خالفها، فهو سفيه ليس بعاقل.

وقد تضمنت هذه الآية خمس وصايا:

الأولى: توحيد اللّه. الثانية: الإحسان بالوالدين.

الثالثة: أن لا نقتل أولادنا. الرابعة: أن لا نقرب الفواحش.

الخامسة: أن لا نقتل النفس التي حرم اللّه إلا بالحق.

قوله: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾:

قوله: ﴿وَلا تَقْرَبُوا﴾: هذا حماية لأموال اليتامىٰ أن لا نقربها إلا بالخصلة التي هي أحسن؛ فلا نقربها بأي تصرف إلا بما نرىٰ أنه أحسن. والحسن هنا يشمل: الحسن الدنيوي والحسن الديني، فإذا لاح للولي تصرفان أحدهما أكثر ربحًا وفيه ربًا، والآخر أقل ربحًا وهو أسلم من الربا، فنقدم الأخير؛ لأن الحسن الشرعي مقدم علىٰ الحسن الدنيوي المادي.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦)، وأبو داود (٤٣٥٢)، والترمذي (١٤٠٢)، وابن ماجه (٢٥٣٤).

. . . .

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قال مالكُ وغيره: هو الرشد وزوال السفه، مع البلوغ. روي نحو هذا: عن زيد بن أسْلم، والشَّعْبي، وربيعة وغيرهم.

قوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ قال ابن كثير: يأمر تعالىٰ بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ أي: من اجتهد بأداء الحق وأخذه، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه، وبذل جهده فلا حرج عليه.

قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ هذا أمرٌ بالعدل في القول والفعل، علىٰ القريب والبعيد.

قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾:

﴿حَتَّىٰ﴾ هنا: حرف غاية؛ فما بعدها مخالف لما قبلها. أي: إذا بلغ أشده؛ فإننا ندفعه إليه بعد أن نختبره، وننظر في حسن تصرفه، ولا يجوز لنا أن نبقيه عندنا. ومعنىٰ أشده: قوته العقلية والبدنية، والخطاب هنا لأولياء اليتامىٰ أو للحاكم علىٰ قول بعض أهل العلم، وبلوغ الأشد يختلف، والمراد به هنا الأشد الذي يكون به التكليف، وهو تمام خمس عشرة السنة أو إنبات العانة أو الإنزال.

قوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾: أي: أوفوا الكيل إذا كلتم فيما يكال من الأطعمة والحبوب. وأوفوا الميزان: إذا وزنتم فيما يوزن؛ كاللحوم مثلاً. والأمر بالإيفاء شامل لجميع ما تتعامل به مع غيرك؛ فيجب عليك أن توفي الكيل والوزن وغيرهما في التعامل.

قوله: ﴿بِالْقِسْطِ﴾: أي: بالعدل، ولما كان قوله: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ قد يشق بعض الأحيان؛ لأن الإنسان قد يفوته أن يوفي الكيل أو الوزن أحيانًا، أعقب ذلك بقوله: ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾؛ أي: طاقتها، فإذا بذل جهده وطاقته، وحصل النقص؛ فلا يعد مخالفًا؛ لأن ما خرج عن الطاقة معفو عنه فيه، وكما أن هذه الجملة تفيد العفو من وجه، وهو ما خرج عن الوسع، فإنها تفيد التغليظ من وجه، وهو أن علىٰ المرء أن يبذل وسعه في الإيفاء بالقسط، ولكن متىٰ تبين الخطأ وجب تلافيه لأنه داخل في الوسع.

قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾: معناه: أي قول تقوله: فإنه يجب عليك أن تعدل فيه، سواء كان ذلك لنفسك علىٰ غيرك، أو لغيرك علىٰ نفسك، أو لغيرك علىٰ غيرك، أو لتحكم بين اثنين؛ فالواجب العدل؛ إذ العدل في اللغة الاستقامة، وضدُّه الجور والميل؛ فلا تمل يمينًا ولا شمالاً، ولم يقل هنا: ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾؛ لأن القول لا يشق فيه العدل غالبًا.

قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾: أي: المقول له ذا قربة، أي: صاحب قرابة؛ فلا تحابيه لقرابته، فتميل معه علىٰ غيره من أجله، فاجعل أمرك إلىٰ اللَّه - عز وجل - الذي خلقك وأمرك بهذا، وإليه سترجع ويسألك عز وجل: ماذا فعلت في هذه الأمانة ؟

....

قال الحنفي: العدلُ في القول في حق الولي والعدوِّ، ولا يتغيَّر في الرضىٰ والغضب. بل يكون علىٰ الحق وإن كان ذا قُربىٰ، فلا يميلُ إلىٰ الحبيب والقريب ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

قوله: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ قال ابنُ جرير: وبوصية الله تعالىٰ التي وصَّاكم بها فأوفوا، وانقادوا لذلك. بأنْ تُطيعوه فيما أمركم به ونهاكم عنه، وتعملوا بكتابه وسُنَّة رسولهﷺ، وذلك هو الوفاءُ بعهد الله. وكذا قال غيرُه.

قوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تتعظون، وتنتهون عمَّا كنتم فيه.

قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾: قال القُرطبي: هذه آيةٌ عظيمةٌ، عطفها علىٰ ما تقدم؛ فإنه لمَّا نهىٰ وأمر، حذَّر عن اتباع غير سبيله، علىٰ ما

وقد أقسم أشرف الخلق، وسيد ولد آدم، وأعدل البشر: محمدﷺ وقال: «وايم اللَّه؛ لو أن فاطمة بنت محمد سرقت؛ لقطعت يدها»[1].

قوله: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾: قدم المتعلق؛ للاهتمام به.

«وعهد اللَّه»: ما عهد به إلىٰ عباده، وهي عبادته سبحانه وتعالىٰ والقيام بأمره؛ كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ [المائدة: ١٢].

هذا ميثاق من جانب المخلوق، وقوله تعالىٰ: ﴿لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [المائدة: ١٢]. هذا من جانب اللَّه ـ عز وجل.

قوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾: هذه الآية الكريمة فيها أربع وصايا من الخالق عز وجل:

الأولى: أن لا نقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن.

الثانية: أن نوفي الكيل والميزان بالقسط.

الثالثة: أن نعدل إذا قلنا. الرابعة: أن نوفي بعهد اللَّه.

والآية الأولىٰ فيها خمس وصايا. فصار الجميع تسع وصايا.

ثم قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾:

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٧٥، ٦٧٨٨)، ومسلم (١٦٨٨)، وأبو داود (٤٣٧٣)، والترمذي (١٤٣٠)، والنسائي (٤٨٩٩)، وابن ماجه (٢٥٤٧).

. . . .

بيَّنته الأحاديثُ الصحيحة، وأقاويلُ السَّلف. وأنَّ: في موضع نصب، أي: وأتلُ أنَّ هذا صراطي. عن الفرَّاء، والكسائي. قال الفراء: ويجوز أنْ يكون خفضًا: أي وصَّاكم به، وبأنَّ هذا صراطي. قال: والصراط: الطريقُ، الذي هو دين الإسلام. مُسْتقيمًا: نُصب على الحال، ومعناه: مستويًا قويمًا، لا اعوجاج فيه. فأمر باتباع طريقه الذي طرقه على لسان محمد ﷺ وشرعه، ونهايتُه الجنة. وتشعَّبت منه طرقٌ، فمن سلك الجادَّة نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضتْ به إلى النار؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ أي: تميل. انتهى. وروى أحمدُ، والنسائي، والدَّارمي، وابن أبي حاتم، والحاكم وصحَّحه ورواه محمد بن نصر المروزي في (كتاب الاعتصام) بسند صحيح، عن ابن مسعود قال: «**خطَّ رسولُ الله ﷺ خطًا بيده. ثم قال: هذا سبيل الله مستقيمًا، ثم خطَّ خطوطًا عن يمين ذلك الخط وعن شماله، ثم قال: وهذه السُّبل ليس منها سبيلٌ إلاّ وعليه شيطانٌ يدعو إليه، ـ ثم قرأ ـ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾**»[1].

هذه هي الوصية العاشرة؛ فقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي﴾: يحتمل أن المشار إليه ما سبق؛ لأنك لو تأملته وجدته محيطًا بالشرع كله؛ إما نصًا، وإما إيماءً، ويحتمل أن المراد به ما علم من دين اللَّه؛ أي: هذا الذي جاءكم به الرسول ﷺ هو صراطي؛ أي: الطريق الموصل إليه سبحانه وتعالى. والصراط يضاف إلى اللَّه عز وجل، ويضاف إلى سالكه؛ ففي قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]. هنا أضيف إلى سالكه، وفي قوله تعالى: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣]، هنا أضيف إلى اللَّه عز وجل. فإضافته إلى اللَّه عز وجل لأنه موصل إليه، ولأنه هو الذي وضعه لعباده ـ جل وعلا ـ وإضافته إلى سالكه لأنهم هم الذين سلكوه.

قوله: ﴿مُسْتَقِيمًا﴾: هذه حال من «صراط»، أي: حال كونه مستقيمًا لا اعوجاج فيه فاتبعوه.

قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾: السبل؛ أي: الطرق الملتوية الخارجة عنه.
و﴿تفرق﴾: فعل مضارع منصوب بأن بعد فاء السببية، لكن حذفت منه تاء المضارعة، وأصلها: «تتفرق»، أي أنكم إذا اتبعتم السبل تفرقت بكم عن سبيله، وتشتَّتتْ بكم الأهواء وبعدت.

وهنا قال: ﴿السُّبُل﴾: جمع سبيل، وفي الطريق التي أضافها اللَّه إلى نفسه قال: ﴿سَبِيلِهِ﴾ سبيل واحد؛ لأن سبيل اللَّه ـ عز وجل ـ واحد، وأما ما عداه؛ فسبل متعددة، ولهذا قال النبي ﷺ: «**وستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار؛ إلا واحدة**»[2] فالسبيل المنجي

---

(١) صحيح: رواه أحمد في المسند (١/ ٤٣٥)، والدارمي في سننه (١/ ٧٨)، والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ٣٤٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٢): رواه أحمد والبزار وفيه عاصم بن بهدلة وهو ثقة وفيه ضعف.

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه (٣٩٩٣)، وأحمد (١١٧٩٨، ١٢٠٧٠)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢٠٤٢).

وعن مُجاهد: ﴿ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ قال: البدع، والشبهات.

قال العلاَّمة ابنُ القيم رحمه الله تعالى: ولنذكر في الصراط المستقيم قولاً وجيزاً، فإنَّ الناس قد تنوَّعت عباراتُهم عنه بحسب صفاته ومتعلَّقاته. وحقيقتهُ شيءٌ واحد، وهو طريق الله الذي نصبه لعباده موصلاً لهم إليه، ولا طريق إليه سواه، بل الطرقُ كلُّها مسدودةٌ على الخلق إلاَّ طريقه، الذي نصبه على ألسُن رسله، وجعله موصلاً لعباده إليه. وهو إفرادُه بالعبودية، وإفراد رسوله بالطاعة، فلا يُشرِك به أحداً في عبوديته ولا يُشْرِك برسوله ﷺ أحداً في طاعته. فيجرِّدُ التوحيد، ويجرِّدُ متابعة الرسول ﷺ. وهذا كلُّه مضمون شهادة أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله. فأي شيءٍ فُسِّر به الصراطُ المستقيم، فهو داخلٌ في هذين الأصلين. ونكتة ذلك: أنْ تُحبَّه بقلبك، وتُرضيه بجهدك كله فلا يكون في قلبك موضعٌ إلاَّ معموراً بحبه، ولا يكون لك إرادةٌ إلاَّ متعلقةً بمرضاته.

فالأوَّلُ: يحصل بتحقيق شهادة أنْ لا إلا إلا الله.

والثاني: يحصل بتحقيق شهادة أنَّ محمداً رسول الله. وهذا هو الهُدى ودين الحق، وهو معرفةُ الحق والعمل به، وهو معرفةُ ما بعث الله به رسوله والقيام به. فقل ما شئتَ من العبارات، التي هذا آخِيَّتها [1] وقطبُ رحاها.

اعلم أن التوحيد المطلق العلم والاعتراف بتفرد الرب بصفات الكمال والإقرار بتوحده بصفات العظمة والجلال، وإفراده وحده بالعبادة، وهو ثلاثة أقسام:

أحدها: توحيد الأسماء والصفات، وهو اعتقاد انفراد الرب جل جلاله بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة والجلال والجمال التي لا يشاركه فيها مشارك بوجه من الوجوه، وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من جميع الأسماء والصفات ومعانيها وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة على الوجه اللائق بعظمته وجلاله، من غير نفي لشيء منها ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل، ونفي ما نفاه عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ من النقائص والعيوب، وعن كل ما ينافي كماله.

واحد، والباقية متشعبة متفرقة، ولا يرد على هذا قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ﴾ [المائدة: ١٦]؛ لأن «سبل» في الآية الكريمة - وإن كانت مجموعة؛ لكن أضيفت إلى السلام فكانت منجية، ويكون المراد بها شرائع الإسلام.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: أي: ذلك المذكور وصاكم لتنالوا به درجة التقوى، والالتزام بما أمر اللَّه به ورسوله ﷺ.

---

(١) الآخية - بالمد والتشديد - حبيل، أو عويد يعرض في الحائط ويدفن طرفاه فيه ويصير طرفه كالعروة تشد فيها الدابة، وجمعها: الأواخي. (ق).

التي عليها خاتمُه، فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية(١).

قال: وقال سهلُ بن عبد الله: عليكم بالأثر والسنة، فإني أخافُ أنَّه سيأتي عن قليلٍ زمانٌ، إذا ذَكرَ إنسانٌ النبيَّ ﷺ والاقتداءَ به في جميع أحواله، ذمُّوه ونفَّروا عنه وتبرؤوا منه، وأذلُّوه وأهانوه.

قال المصنفُ رحمه الله تعالى قال ابنُ مسعود: من أراد أنْ ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمُه، فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية.

قولـه: (ابن مسعود). هو عبد الله بن مسعود بن غافل ـ بمعجمةٍ وفاءٍ ـ ابن حبيب الهُذَلي، أبوعبد الرحمن، صحابيٌّ جليل من السابقين الأولين. من أهل بدر، وأُحد، والخندق، وبيعة الرِّضوان، ومن كبار علماء الصحابة. أمَّره عُمرُ على الكوفة، ومات سنة اثنتين وثلاثين، رضي الله عنه. وهذا الأثر، رواه الترمذيُّ وحسَّنه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني بنحوه.

وسببُ هذا القول ـ والله أعلم ـ ما رواه البخاريُّ في (صحيحه)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما اشتدَّ بالنبي ﷺ وجعه، قال: «**ائتوني بكتاب أكْتُبْ لكم كتبًا لا تختلفوا بعده**» قال عمر: إنَّ النبي ﷺ غَلَبهُ الوجع! وعندنا كتابُ الله حَسْبُنا. فاختلفوا، وكثُرَ اللَّغط، قال: «**قوموا عنِّي ولا ينبغي عندي التَّنازع**» فخرج ابنُ عباسٍ يقول: إنَّ الرَّزيَّة كلَّ الرزية، ما حال بين رسول الله وبين كتابه(٢). فقال ابن مسعود: من أراد أنْ ينظر إلى وصية محمدٍ ﷺ التي عليها خاتمه... الحديث.

قال بعضُهم: معناه: من أراد أنْ ينظر إلى الوصية التي كأنها كُتبت، وختُم عليها فلم تُغيَّر ولم

قوله: قال ابن مسعود: «من أراد...» إلخ:
الاستفهام هنا للحث والتشويق، واللام في قوله: «**فليقرأ**» للإرشاد.

قوله: «وصية محمد»: الوصية بمعنى العهد، ولا يكون العهد وصية إلا إذا كان في أمر هام.

وقوله: «محمد ﷺ». أي: رسول اللَّه محمد بن عبد اللَّه الهاشمي القرشي ﷺ، وهذا التعبير من ابن مسعود يدل على جواز مثله، مثل: قال محمد رسول اللَّه ﷺ، ووصية محمد ﷺ، ولا ينافي قوله تعالى: ﴿**لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا**﴾ [النور: ٦٣]؛ لأن دعاء الرسول هنا أي: مناداته؛ فلا تقولوا عند المناداة: يا محمد! ولكن قولوا: يا رسول اللَّه! أما الخبر؛ فهو أوسع من باب الطلب، ولهذا يجوز أن تقول: أنا تابع لمحمد ﷺ، أو اللَّهم صلِّ على محمد، وما أشبه ذلك.

قوله: «التي عليها خاتمه». الخاتم بمعنى التوقيع.

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٢٠٧). (٢) صحيح: رواه البخاري (١١٤) ومسلم (١٦٣٧).

عن مُعاذ بن جبل، قال: كنتُ رديفَ النبيِّ ﷺ على حمار، فقال لي: «يا معاذ، أتدري ما حقُّ الله على العباد؟ وما حقُّ العباد على الله» قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: «حقُّ الله على العباد: أنْ يعبدوه ولا يُشركوا به شيئًا،

تُبدَّل، فليقرأ ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ إلى آخر الآيات. شبهها بالكتاب الذي كُتب، ثم خُتم فلم يُزد فيه ولم ينقص. فإنَّ النبي ﷺ لم يوص إلاَّ بكتاب الله تعالى[1].

كما قال فيما رواه مسلم: «**وإني تاركٌ فيكم ما إن تمسَّكتم به لن تضلُّوا؛ كتاب الله**».

وقد روى عُبادة بن الصامت، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيُّكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث؟**» ثم تلا قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حتى فرغ من ثلاث الآيات، ثم قال: «**من وفَّى بهن فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئًا فأدركه الله في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخَّره إلى الآخرة كان أمره إلى الله. إن شاء آخذه وإن شاء عفا عنه**»[2] رواه ابنُ أبي حاتم، والحاكم وصححه، ومحمد بن نصر في (الاعتصام).

قلتُ: ولأنَّ النبي ﷺ لم يوص أُمَّته إلاَّ بما وصَّاهم به الله تعالى، على لسانه وفي كتابه الذي نزَّله ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩] وهذه الآياتُ وصيةُ الله تعالى، ووصيةُ رسوله ﷺ.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن مُعاذ بن جبل، قال: كنتُ رديفَ النبيِّ ﷺ على

وقوله: «وصية محمد ﷺ» ليست وصية مكتوبة مختومًا عليها؛ لأن النبي ﷺ لم يوص بشيء، ويدل لذلك: أن أبا جحيفة سأل علي بن أبي طالب: هل عهد إليكم النبي ﷺ بشيء؟ فقال: لا. والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهمًا يؤتيه اللَّه تعالى في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قيل: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر[3]. فلا يظن أن النبي ﷺ أوصى بهذه الآيات وصية خاصة مكتوبة، لكن ابن مسعود رضي اللَّه عنه يرى أن هذه الآيات قد شملت الدين كله؛ فكأنها الوصية التي ختم عليها رسول اللَّه ﷺ وأبقاها لأمته. وهي آيات عظيمة، إذا تدبرها الإنسان وعمل بها؛ حصلت له الأوصاف الثلاثة الكاملة: العقل، والتذكر، والتقوى.

وقوله: «فليقرأ قوله تعالى...» إلخ الآيات سبق الكلام عليها.

قوله: «رديف». بمعنى رادف؛ أي: راكب معه خلفه؛ فهو فعيل بمعنى فاعل، مثل: رحيم بمعنى راحم، وسميع بمعنى سامع.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٢١٨).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢/٣٤٨) وصححه وفي إسناده سفيان بن حسين ذكره ابن الجوزي في الضعفاء والمتروكين (٢/٣) وقال: يروي عن الزهري وابن المنكدر روى عنه يزيد بن هارون، قال يحيى: لم يكن بالقوي، وقال ابن حبان: يروي عن الزهري المقلوبات، وإذا روى عن غيره أشبه حديث الأثبات. انتهى.

(٣) صحيح: رواه البخاري (١١١، ٣٠٤٧، ٦٩٠٣، ٦٩١٥)، والنسائي (٤٧٤٤)، وابن ماجه (٢٦٥٨).

وحقُّ العباد على الله: أنْ لا يُعذِّبَ من لا يشركَ به شيئًا» قلتُ: يا رسول الله. أفلا أُبشِّر الناس؟ قال: «لا تُبشِّرْهم فيتَّكلوا»(١) أخرجاه في (الصحيحين).

حمار، فقال لي: « يا معاذ، أتدري ما حقُّ الله على العباد؟ وما حقُّ العباد على الله» قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: «حقُّ الله على العباد: أنْ يعبدوه ولا يُشركوا به شيئًا، وحقُّ العباد على الله: أنْ لا يُعذِّبَ من لا يشركَ به شيئًا» قلتُ: يا رسول الله. أفلا أُبشِّر الناس؟ قال: «لا تُبشِّرْهم فيتَّكلوا» أخرجاه في (الصحيحين).

هذا الحديثُ في (الصحيحين) من طُرق، وفي بعض رواياته نحوٌ مما ذكره المصنف.

ومُعاذ: هو ابن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الرحمن، صحابيٌّ مشهور من أعيان الصحابة، شهد بدراً وما بعدها. وكان إليه المُنتهىٰ، في العلم والأحكام والقرآن، رضي الله عنه.

وقال النبي ﷺ: «**معاذٌ يُحشر يوم القيامة أمام العُلماء برَتوة**»(٢)(٣) أي بخطوة.

قال في (القاموس): والرَّتوَةُ: الخطوَةُ، وشَرَفٌ من الأرض، وسُوَيعةٌ من الزمان، والدَّعوةُ، والقَطرة، ورميةٌ بسَهم، أو نحوُ ميلٍ أو مَدَىٰ البَصَر. والرَّاتي: العالمُ الرَّبانيُّ. انتهىٰ.

وقال في (النهاية): أنه يتقدَّم العُلماء برَتْوة. أي: برَمْية سَهْم. وقيل: بميل.

وقيل: مدىٰ البصر. وهذه الثلاثةُ، أشبهُ بمعنىٰ الحديث.

مات سنة ثماني عشرة بالشام، في طاعون عَمواس. واستخلفه النبيُّ ﷺ علىٰ أهل مكة يوم الفتح، يعلمهم دينهم.

قوله: «على حمار»: أي: أهليٌّ؛ لأن الوحشيّ لا يركب.

قوله: «أتدري». أيّ: أتعلم.

قوله: «ما حق اللَّه على العباد؟». أي: ما أوجبه عليهم، وما يجب أن يعاملوه به، وألقاه علىٰ معاذ بصيغة السؤال؛ ليكون أشد حضوراً لقلبه حتىٰ يفهم ما يقوله ﷺ.

قوله: «وما حق العباد على اللَّه؟»: أي: ما يجب أن يعاملهم به، والعباد لم يوجبوا شيئًا، بل اللَّه أوجبه علىٰ نفسه فضلاً منه علىٰ عباده، قال تعالىٰ: ﴿**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الأنعام: ٥٤]. فأوجب سبحانه علىٰ نفسه أن يرحم من عمل سوءاً بجهالة ـ أي: بسفه وعدم حسن تصرف ثم تاب من بعد ذلك وأصلح. ومعنىٰ كتب؛ أي: أوجب.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٨٥٦) ومواضع، ومسلم (٣٠).

(٢) قال الحافظ ابن حجر في الإصابة: أخرجه محمد بن عثمان بن أبي شيبة في تاريخه من مرسل أبي عون الثقفي وأورده ابن عساكر في تاريخ دمشق من طرق عن محمد بن الخطاب. (ق).

(٣) صحيح: صحيح الجامع (٥٨٨٠).

. . . .

قوله: (كنتُ رديفَ النبي ﷺ). فيه: جوازُ الإردافِ على الدابة، وفضيلةُ معاذ. قوله: (على حمار). في رواية اسمه: عُفير.

قلت: أهداه إليه المُقَوقِسُ، صاحب مصر. وفيه: تواضُعه ﷺ لركوب الحمار والإرداف عليه، خلافًا لما عليه أهلُ الكِبر.

قوله: «أتدري ما حقُّ الله على العباد؟» أخرج السؤالَ بصيغة الاستفهام؛ ليكون أوقعَ في النفس، وأبلغ في فهم المُتعلِّم. وحقُّ الله على العباد: هو ما يستحِقُّه عليهم.

وحقّ العباد على الله: معناه أنه مُتحقِّقٌ لا محالة؛ لأنه قد وعدهم ذلك جزاءً لهم على توحيده ﴿وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم: ٦].

قال شيخُ الإسلام: كونُ المطيع يستحق الجزاءَ، هو استحقاق إنعامٍ وفضلٍ. ليس هو استحقاق مقابلة، كما يستحق المخلوقُ على المخلوق. فمن الناس، من يقول: لا معنى للاستحقاق إلاَّ أنَّه أخبر بذلك ووعْده صدقٌ. ولكنّ أكثرَ الناس يُثبتون استحقاقًا زائدًا على هذا؛ كما دلَّ عليه الكتابُ والسنة؛ قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، لكن أهلُ السنة يقولون: هو الذي كتب على نفسه الرحمة، وأوجب على نفسه الحقَّ، لم يوجبه عليه مخلوق. والمعتزلةُ يدَّعون أنَّه واجبٌ عليه بالقياس على المخلوق، وأنَّ العبادَ همُ الذين أطاعوه بدون أنْ يجعلهم مُطيعين له، وأنَّهم يستحقون الجزاء بدون أنْ يكون هو الموجب، وغلطوا في ذلك. هذا البابُ غَلِطت فيه الجبريةُ القدرية

قوله: «قلت: اللَّه ورسوله أعلم»: اللَّه: مبتدأ، والرسول: معطوف عليه، وأعلم: خبر المبتدأ، وأفرد الخبر هنا مع أنه لاثنين؛ لأنه على تقدير «من» واسم التفضيل إذا كان على تقدير «من»؛ فإن الأشهر فيها الإفراد والتذكير. والمعنى: أعلم من غيرهما، وأعلم مني أيضًا.

قوله: «يعبدوه»: أي: يتذللوا له بالطاعة.

قوله: «ولا يشركوا به شيئًا»: أي: في عبادته وما يختص به، و(شيئًا) نكرة في سياق النفي، فتعم كل شيء؛ لا رسولاً ولا ملكًا ولا وليًّا ولا غيرهم.

وقوله: «وحق العباد على اللَّه أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا». وهذا الحق تفضل اللَّه به على عباده، ولم يوجبه عليه أحد، ولا تظن أن قوله: «**من لا يشرك به شيئًا**»: أنه مجرد عن العبادة؛ لأن التقدير: من يعبده ولا يشرك به شيئًا، ولم يذكر قوله: «**من يعبده**»؛ لأنه مفهوم من قوله: «**وحق العباد**» ومن كان وصفه العبودية؛ فلا بد أن يكون عابدًا. ومن لم يعبد اللَّه ولم يشرك به شيئًا؛ هل يعذب؟

الجواب: نعم، يعذب؛ لأن الكلام فيه حذف، وتقديره: من يعبده ولا يشرك به شيئًا، ويدل لهذا أمران:

الأول: قوله: «حق العباد» ومن كان وصفه العبودية؛ فلا بد أن يكون عابدًا.

أتباع جهم، والقدرية النافية. قوله: (قلتُ: الله ورسوله أعلم). فيه: حُسن الأدب من المتعلم، وأنَّه ينبغي لمن سُئل عمّا لا يعلم أنْ يقول ذلك، بخلاف أكثر المتكلِّفين.

قوله: «أنهم يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا» أي: يوحِّدوه بالعبادة. ولقد أحسن العلاَّمةُ ابن القيم، حيث عرَّف العبادة بتعريفٍ جامع، فقال:

وعبادةُ الرحمن غايةُ حُبِّه ... مع ذُلِّ عابده هما قُطبان

وعليهما فلكُ العبادة دائرُ ... ما دار حتى قامت القطبان

ومدارُه بالأمرِ أمرِ رسوله ... لا بالهوى والنفسِ والشيطان[1]

قوله: «ولا يُشركوا به شيئًا» أي: يوحِّدوه بالعبادة، فلابُدَّ من التجرُّد من الشرك في العبادة. ومَن لم يتجرَّد من الشرك، لم يكن آتيًا بعبادة الله وحده، بل هو مشركٌ، قد جعل لله نداًّ.

وهذا معنى قول المصنف رحمه الله تعالى: وفيه: أنَّ العبادةَ هي التوحيدُ؛ لأنَّ الخصومَة فيه.

وفي بعض الآثار الإلهية: «إني والجنُّ والإنس في نبأٍ عظيم، أخلقُ ويُعبد غيري، وأرزقُ ويُشكر سواي. خيري إلى العباد نازل، وشرُّهم إليَّ صاعد، أتحبَّبُ إليهم بالنعم، ويتبغَّضون إليَّ بالمعاصي»[2].

قوله: «وحقُّ العباد على الله أنْ لا يُعذِّب من لا يُشرك به شيئًا». قال الحافظ: اقتصر على نفي الإشراك؛ لأنه يستدعي التوحيد بالاقتضاء، ويستدعي إثباتَ الرسالة باللزوم. إذ من كذَّب

الثاني: أن هذا في مقابل قوله فيما تقدم: «أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا» فعلم أن المراد بقوله: «لا يشركوا به شيئًا» أي: في العبادة.

قوله: «أفلا أبشر الناس» أي: أأسكت فلا أبشر الناس؟ ومثل هذا التركيب: الهمزة ثم حرف العطف ثم الجملة لعلماء النحو فيه قولان:

---

(١) في قرة العيون:

حق الإله عبادة بالأمر لا ... بهوى النفوس فذاك للشيطان

من غير إشراك به شيئًا هما ... سببا النجاة فحبذا السببان

لم ينج من غضب الله وناره ... إلا الذي قامت به الأصلان

والناس بعده فمشرك بإلهه ... أو ذو ابتداع أو له الوصفان

وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا. ليس على الله حق واجب بالعقل كما تزعم المعتزلة. لكن هو سبحانه جعل ذلك على نفسه تفضلاً وإحسانًا على الموحدين المخلصين الذين لم يلتفتوا في إرادتهم. ومهلتهم ورغباتهم ورهباتهم إلى أحد سواه، ولم يقربوا بابًا يقولونه ويعملونه من الطاعات إلا إليه وحده والله أعلم. (ق)

(٢) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (٢٣٧١).

. . . .

رسولَ الله ﷺ فقد كذَّب الله، ومن كذّب الله فهو مشرك. أو هو مثلُ قولِ القائل: من توضأ صحَّت صلاتُه، أي: مع سائر الشروط. انتهىٰ.

قوله: «أفلا أبشِّرُ الناس». فيه: استحبابُ بشارة المُسلم بما يَسرُّه، وفيه: ما كان عليه الصحابةُ من الاستبشار بمثل هذا. قاله المصنِّفُ رحمه الله تعالىٰ.

قوله: «لا تُبشرهم فيتَّكلوا». أي: يعتمدوا علىٰ ذلك، فيتركوا التنافس في الأعمال.

وفي رواية: فأخبر بها مُعاذٌ عند موته تأثمًا [(١)]. أي: تخرُّجًا من الإثم.

قال الوزير أبو المظفَّر: لم يكن يكتمها إلاَّ عن جاهلٍ يحمله جهلُه علىٰ سُوء الأدب بترك الخدمة في الطاعة. فأمَّا الأكياسُ، الذين إذا سمعوا بمثل هذا زادوا في الطاعة، ورأوا أنَّ زيادة النعم تستدعي زيادةَ الطاعة، فلا وجه لكتمانها عنهم.

وفي الباب من الفوائد، غيرُ ما تقدَّم: الحثُّ علىٰ إخلاص العبادة لله تعالىٰ، وأنها لا تنفع مع الشرك بل لا تُسمَّىٰ عبادة. والتنبيهُ علىٰ عَظمة حق الوالدين، وتحريم عقوقهما. والتنبيهُ علىٰ عظمة الآيات المحكمات في سُورة الأنعام. وجوازُ كِتمان العلم للمصلحة.

قوله: (أخرجاه). أي: البخاريُّ، ومسلم.

والبخاري: هو الإمام، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بَرِدزْبَه الجُعفي مولاهم، الحافظ الكبير، صاحب (الصحيح) و(التأريخ) و(الأدب المُفرد)، وغيرِ ذلك من مصنفاته.

روىٰ عن: الإمام أحمد بن حنبل، والحُمَيدي، وابن المَديني، وطبقتهم.

وروىٰ عنه: مسلمٌ، والنسائي، والترمذي، والفِرَبري راوي (الصحيح). ولد سنة أربعٍ وتسعين ومائة، ومات سنة ستٍ وخمسين ومائتين.

الأول: أن بين الهمزة وحرف العطف محذوفًا يقدر بما يناسب المقام وتقديره هنا: أأسكت فلا أبشر الناس؟

الثاني: أنه لا شيء محذوف، لكن هنا تقديم وتأخير، وتقديره: فألا أبشر؟ فالجملة معطوفة علىٰ ما سبق، وموضع الفاء سابق علىٰ الهمزة؛ فالأصل: فألا أبشر الناس؟ لكن لما كان مثل هذا التركيب ركيكًا، وهمزة الاستفهام لها الصدارة، قدمت علىٰ حرف العطف.

ومثل ذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧].

---

(١) صحيح: رواه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢).

وفيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق الجنِّ والإنس.

الثانية: أنَّ العبادة هي التوحيد؛ لأن الخصومة فيه[(١)].

الثالثة: أن من لَمْ يأت به لَمْ يعبد الله، ففيه معنى قوله: ﴿وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

الرابعة: الحكمة في إرسال الرسل.

ومسلم: هو ابن الحجاج بن مسلم، أبو الحسين، القُشيري النيسابوري، صاحب (الصحيح) و(العلل) و (الوحدان)، وغير ذلك. روىٰ عن: أحمد بن حنبل، ويحيىٰ بن مَعين، وأبي خيثمة، وابن أبي شيبة وطبقتهم، وروىٰ عن البخاري (صحيحه).

وروىٰ عنه: الترمذي، وإبراهيم بن محمد بن سفيان راوي (الصحيح) وغيرهما.

ولد سنة أربعٍ ومائتين، ومات سنة إحدىٰ وستين ومائتين بنيسابور، رحمهما الله تعالىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧]. وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ [الحج: ٤٦]. والبشارة هي الإخبار بما يسر. وقد تستعمل في الإخبار بما يضر، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤]. لكن الأكثر الأول.

قوله: «لا تبشرهم». أي: لا تخبرهم، و«لا» ناهية.

ومعنىٰ الحديث أن اللَّه لا يعذب من لا يشرك به شيئًا، وأن المعاصي تكون مغفورة بتحقيق التوحيد، ونهىٰ ﷺ عن إخبارهم؛ لئلا يعتمدوا علىٰ هذه البشرىٰ، دون تحقيق مقتضاها؛ لأن تحقيق التوحيد يستلزم اجتناب المعاصي؛ لأن المعاصي صادرة عن الهوىٰ، وهذا نوع من الشرك، قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]

ومناسبة الحديث للترجمة: فضيلة التوحيد، وأنه مانع من عذاب اللَّه.

المسائل:

الأولىٰ: الحكمة من خلق الجن والإنس: أخذها رحمه اللَّه من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فالحكمة هي عبادة اللَّه لا أن يتمتعوا بالمآكل والمشارب والمناكح.

الثانية: أن العبادة هي التوحيد: أي: أن العبادة مبنية علىٰ التوحيد؛ فكل عبادة لا توحيد فيها ليست بعبادة، لا سيما أن بعض السلف فسروا قوله تعالىٰ: ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾: إلا ليوحدون.

---

(١) يعني أن الخصومة إنما وقعت بين النبي ﷺ وبين المشركين في تحقيق (لا إله إلا الله) المكونة من جملتين إحداهما نفي والثانية إثبات. فالأولى: تنفي كل الآلهة التي يدعيها الناس، والثانية: تثبت الإلهية لله وحده. يعني ينبغي أن يكفر بكل معبود لتخلص العبادة لله. (ق).

الخامسة: أنَّ الرسالة عمَّت كلَّ أمة.

السادسة: أنَّ دين الأنبياء واحد.

السابعة: المسألة الكبيرة أن عبادة الله لا تحصُل إلا بالكفر بالطاغوت؛ ففيه معنى قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ الآية.

....

وهذا مطابق تمامًا لما استنبطه المؤلف رحمه الله من أن العبادة هي التوحيد؛ فكل عبادة لا تبنى على التوحيد فهي باطلة، قال ﷺ: « **قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري؛ تركته وشركه**»[1].

وقوله: « لأن الخصومة فيه»: أي: في التوحيد بين الرسول ﷺ وقريش؛ فقريش يعبدون الله يطوفون له ويصلون، ولكن على غير الإخلاص والوجه الشرعي؛ فهي كالعدم لعدم الإتيان بالتوحيد، قال تعالى: **﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾** [التوبة: ٥٤].

وقوله في الثالثة: ففيه معنى قوله: ﴿وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾: لستم عابدين عبادتي؛ لأن عبادتكم مبنية على الشرك، فليست بعبادة لله تعالى.

الرابعة: الحكمة في إرسال الرسل: أخذها رحمه الله تعالى من قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾** [النحل: ٣٦].

فالحكمة هي: الدعوة إلى عبادة الله وحده واجتناب عبادة الطاغوت.

الخامسة: أن الرسالة عمت كل أمة: أخذها من قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً﴾** [النحل: ٣٦]

السادسة: أن دين الأنبياء واحد: أخذها من قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾** ومثله قوله تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾** [الأنبياء: ٢٥]. وهذا لا ينافي قوله تعالى: **﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾** [المائدة: ٤٨]؛ لأن الشرعة العملية تختلف باختلاف الأمم والأماكن والأزمنة، وأما أصل الدين؛ فواحد قال تعالى: **﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾** [الشورى: ١٣].

السابعة: المسألة الكبيرة؛ أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت: ودليله قوله تعالى: **﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾**، فمن عبد الله ولم يكفر بالطاغوت؛ فليس بموحد، ولهذا جعل المؤلف رحمه الله هذه المسألة كبيرة؛ لأن كثيراً من المسلمين جهلها في زمانه وفي زماننا الآن.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجه (٤٢٠٢)، وأحمد (٧٩٣٩، ٩٣٣٦).

الثامنة: أنَّ الطاغوت عام في كل ما عُبد من دون الله.

التاسعة: عظم شأن ثلاث الآيات المحكمات في سورة الأنعام عند السلف وفيها عشر مسائل[١] أولها: النهي عن الشرك.

العاشرة: الآيات المحكمات في سورة الإسراء، وفيها ثمانية عشرة مسألة، بدأها الله بقوله: ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً﴾؛ وختمها بقوله: ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ ونبهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾.

. . . .

الثاني :توحيد الربوبية بأن يعتقد العبد أن الله هو الرب المتفرد بالخلق والرزق والتدبير الذي ربى جميع الخلق بالنعم وربى خواص خلقه وهم الأنبياء وأتباعهم بالعقائد الصحيحة والأخلاق الجميلة والعلوم النافعة والأعمال الصالحة، وهذه التربية النافعة للقلوب والأرواح المثمرة لسعادة الدارين.

تنبيه: لا يجوز إطلاق الشرك أو الكفر أو اللعن على من فعل شيئًا من ذلك؛ لأن الحكم بذلك في هذه وغيرها له أسباب وله موانع؛ فلا نقول لمن أكل الربا: ملعون؛ لأنه قد يوجد مانع يمنع من حلول اللعنة عليه؛ كالجهل مثلاً، أو الشبهة، وما أشبه ذلك، وكذا الشرك لا نطلقه على من فعل شركًا؛ فقد تكون الحجة ما قامت عليه بسبب تفريط علمائهم. وكذا نقول: من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا؛ غفر له ما تقدم من ذنبه ولكن لا نحكم بهذا لشخص معين. إذ أن الحكم المعلق على الأوصاف لا ينطبق على الأشخاص إلا بتحقيق شروط انطباقه وانتفاء موانعه. فإذا رأينا شخصًا يتبرز في الطريق؛ فهل نقول له: لعنك الله؟

الجواب: لا، إلا إذا أريد باللعن في قوله: «اتقوا الملاعن»[٢] أن الناس أنفسهم يلعنون هذا الشخص ويكرهونه، ويرونه مخلاً بالأدب مؤذيًا للمسلمين؛ فهذا شيء آخر. فدعاء القبر شرك، لكن لا يمكن أن نقول لشخص معين فعله: هذا مشرك؛ حتى نعرف قيام الحجة عليه، أو نقول: هذا مشرك باعتبار ظاهر حاله.

الثامنة: أن الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله :فكل ما عبد من دون الله؛ فهو طاغوت، وقد عرفه ابن القيم: بأنه كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع.

فالمعبود كالصنم، والمتبوع كالعالم، والمطاع كالأمير.

التاسعة: عظم شأن الثلاث آيات المحكمات في سورة الأنعام: المحكمات؛ أي: التي ليس فيها نسخ، أخذ ذلك من قول ابن مسعود رضي الله عنه.

---

(١) التي هي الوصايا العشر. وأولها وأهمها (أن لا تشركوا بالله شيئًا). (ق)

(٢) حسن :رواه أبو داود (٢٦)، وابن ماجه (٣٢٨)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في الإرواء (٦٢).

الحادية عشر: آية سورة النساء التي تسمى آية الحقوق العشرة، بدأها الله تعالى بقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.

الثانية عشرة: التنبيه على وصية رسول الله ﷺ عند موته.

الثالثة عشرة: معرفة حق الله تعالى علينا.

الرابعة عشرة: معرفة حق العباد عليه إذا أدوا حقه.

العاشرة: الآيات المحكمات في سورة الإسراء: وهي قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وفيها ثماني عشرة مسألة بدأها بقوله تعالى: ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً﴾، وختمها بقوله تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩]

وقد نبهنا اللَّه ـ سبحانه ـ على عظم شأن هذه المسائل بقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾. فبدأها اللَّه بالنهي عن الشرك بقوله تعالى: ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً﴾ والقاعدُ ليس قائمًا؛ لأنه لا خير لمن أشرك باللَّه، مذمومًا عند اللَّه وعند أوليائه، مخذولاً لا ينتصر في الدنيا ولا في الآخرة. وختمها بقوله: ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩]؛ فهذه عقوبته عندما يلقى في النار كلٌّ يلومه ويدحره فيندحر والعياذ باللَّه.

الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تسمى «آية الحقوق العشرة» بدأها بقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾: فأحق الحقوق حق اللَّه، ولا تنفع الحقوق إلا به، فُبدِئت هذه الحقوق به، ولهذا لما سأل النبيَّ ﷺ حكيمُ بنُ حزام عمن كان يتصدق ويعتق ويصل رحمه في الجاهلية هل له من أجر؟ فقال النبي ﷺ: «**أسلمت على ما أسلفت من الخير**»[1]؛ فدل على أنه إذا لم يسلم لم يكن له أجر، فصارت الحقوق كلها لا تنفع إلا بتحقيق حق اللَّه.

الثانية عشرة: التنبيه على وصية رسول اللَّه ﷺ عند موته: وذلك من حديث ابن مسعود رضي اللَّه عنه، ولكن النبي ﷺ لم يوص بها حقيقة، بل أشار إلى أننا إذا تمسكنا بكتاب اللَّه؛ فلن نضل بعده، ومن أعظم ما جاء به كتاب اللَّه قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

الثالثة عشرة: معرفة حق اللَّه علينا: وذلك بأن نعبده ولا نشرك به شيئًا.

الرابعة عشرة: معرفة حق العباد عليه إذا أدوا حقه: وذلك بأن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا، أما من أشرك؛ فإنه حقيق أن يعذَّب.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٣٦)، ومسلم (١٢٣)، وأحمد (١٤٨٩٤، ١٥١٤٧).

الخامسة عشرة: أن هذه المسألة لا يعرفها [(١)] أكثر الصحابة.

السادسة عشرة: جواز كتمان العلم للمصلحة.

السابعة عشرة: استحباب بشارة المسلم بِمَا يسره.

الثالث: توحيد الإلهية ويقال له: توحيد العبادة وهو العلم والاعتراف بأن الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين وإفراده وحده بالعبادة كلها وإخلاص الدين لله وحده وهذا الأخير يستلزم القسمين الأولين ويتضمنهما؛ لأن الألوهية التي هي وصفه تعم جميع أوصاف الكمال وجميع أوصاف الربوبية والعظمة، فإنه المألوه المعبود لما له من أوصاف العظمة والجلال ولما أسداه إلى خلقه من الفواضل والأفضال، فتوحده تعالى بصفات الكمال وتفرده بالربوبية يلزم منه أن لا يستحق

الخامسة عشرة: أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة: وذلك أن معاذًا أخبر بها تأثمًا، أي خروجًا من إثم الكتمان عند موته بعد أن مات كثير من الصحابة.

السادسة عشرة: جواز كتمان العلم للمصلحة: هذه ليست على إطلاقها؛ إذ أن كتمان العلم على سبيل الإطلاق لا يجوز لأنه ليس بمصلحة، ولهذا أخبر النبي ﷺ معاذًا ولم يكتم ذلك مطلقًا، وأما كتمان العلم في بعض الأحوال، أو عن بعض الأشخاص لا على سبيل الإطلاق، فجائز للمصلحة؛ كما كتم النبي ﷺ ذلك عن بقية الصحابة خشية أن يتكلوا عليه، وقال لمعاذ: «**لا تبشرهم فيتكلوا**»[(٢)].

ونظير هذا الحديث قوله ﷺ لأبي هريرة: «**بشر الناس أن من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه دخل الجنة**»[(٣)]. بل قد تقتضي المصلحة ترك العمل، وإن كان فيه مصلحة لرجحان مصلحة الترك، كما همَّ النبي ﷺ أن يهدم الكعبة ويبنيها على قواعد إبراهيم ولكن ترك ذلك خشية افتتان الناس؛ لأنهم حديثو عهد بكفر[(٤)].

السابعة عشرة: استحباب بشارة المسلم بما يسرُّه:

لقوله: «أفلا أبشر الناس؟»؛ وهذه من أحسن الفوائد.

الثامنة عشرة: الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله: وذلك لقوله: «**لا تبشرهم فيتكلوا**»؛ لأن الاتكال على رحمة الله يسبب مفسدة عظيمة هي الأمن من مكر الله. وكذلك القنوط

(١) لا يعرفها أكثر الصحابة لأن النبي أمر معاذًا أن يكتمها عن الناس مخافة أن يتكلوا على سعة رحمة الله ويتركوا العمل فلم يخبر بها إلا عند موته تأثمًا. فلذلك لم يعرفها أكثر الصحابة في حياة معاذ. (ق).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٣١) ولفظه: «**فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة**».

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٥٨٦)، ومسلم (١٣٣٣)، والترمذي (٨٧٥)، والنسائي (٢٩٠٠) ومواضع، وابن ماجه (٢٩٥٥).

الثامنة عشرة: الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله.

التاسعة عشرة: قول المسئول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم.

....

العبادة أحد سواه. ومقصود دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم الدعوة إلى هذا التوحيد.

فذكر المصنف في هذه الترجمة من النصوص ما يدل على أن الله خلق الخلق لعبادته والإخلاص له، وأن ذلك حقه الواجب المفروض عليهم، فجميع الكتب السماوية وجميع الرسل دعوا إلى هذا التوحيد، ونهوا عن ضده من الشرك والتنديد، وخصوصًا محمدﷺ. وهذا القرآن الكريم فإنه أمر به، وفرضه وقرره أعظم تقرير، وبينه أعظم بيان، وأخبر أنه لا نجاة ولا فلاح ولا سعادة إلا بهذا التوحيد، وأن جميع الأدلة

من رحمة اللَّه يبعد الإنسان من التوبة ويسبب اليأس من رحمة اللَّه، ولهذا قال الإمام أحمد: «ينبغي أن يكون سائرًا إلى اللَّه بين الخوف والرجاء، فأيهما غلب هلك صاحبه»، فإذا غلب الرجاء أدى ذلك إلى الأمن من مكر اللَّه، وإذا غلب الخوف أدى ذلك إلى القنوط من رحمة اللَّه.

وقال بعض العلماء: إن كان مريضًا غَلَّب جانب الرجاء، وإن كان صحيحًا غلب جانب الخوف. وقال بعض العلماء: إذا نظر إلى رحمة اللَّه وفضله غلب جانب الرجاء، وإذا نظر إلى فعله وعمله غلَّب جانب الخوف لتحصل التوبة. ويستدلون بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. أي: خائفة أن لايكون تقبل منهم لتقصير أو قصور، وهذا القول جيد، وقيل: يغلب الرجاء عند فعل الطاعة ليحسن الظن باللَّه، ويغلب جانب الخوف إذا هم بالمعصية لئلا ينتهك حرمات اللَّه.

وفي قوله: «أفلا أبشر الناس؟» دليل على أن التبشير مطلوب فيما يسُرُّ من أمر الدين والدنيا، ولذلك بشرت الملائكة إبراهيم، قال تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]. وهو إسحاق، والحليم إسماعيل، وبشر النبي ﷺ أهله بابنه إبراهيم، فقال: «**ولد لي الليلة ولد سميته باسم أبي إبراهيم**»[١]، فيؤخذ منه أنه ينبغي للإنسان إدخال السرور على إخوانه المسلمين ما أمكن بالقول أو بالفعل؛ ليحصل له بذلك خير كثير وراحة وطمأنينة قلب وانشراح صدر.

وعليه؛ فلا ينبغي أن يدخل السوء على المسلم، ولهذا يروى عن النبي ﷺ: «**لا يحدثني أحد عن أحد بشيء؛ فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**»[٢].

وهذا الحديث فيه ضعف، لكن معناه صحيح؛ لأنه إذا ذكر عندك رجل بسوء، فسيكون في قلبك عليه شيء ولو أحسن معاملتك، لكن إذا كنت تعامله وأنت لا تعلم عن سيئاته، ولا محذور في أن تتعامل معه؛ كان هذا طيبًا، وربما يقبل منك النصيحة أكثر، والنفوس ينفر بعضها من بعض، قبل

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٢٣١٥).

(٢) **ضعيف**: رواه أبو داود (٤٨٦٠)، والترمذي (٣٨٩٦)، وضعفه العلامة الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٦٣٢٢).

العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم[1] دون بعض.

الحادية والعشرون: تواضعه ﷺ لركوب الحمار مع الإرداف عليه.

الثانية والعشرون: جواز الإرداف على الدابة.

....

العقلية والنقلية والأفقية والنفسية أدلة وبراهين على الأمر بهذا التوحيد ووجوبه، فالتوحيد هو حق الله الواجب على العبيد، وهو أعظم أوامر الدين، وأصل الأصول كلها، وأساس الأعمال.

الأجسام، وهذه مسائل دقيقة تظهر للعاقل بالتأمل.

التاسعة عشرة: قول المسئول عما لا يعلم: اللَّه ورسوله أعلم: وذلك لإقرار النبي ﷺ معاذًا لما قالها، ولم ينكر النبي ﷺ على معاذ، حيث عطف رسول اللَّه ﷺ على اللَّه بالواو، وأنكر على من قال: «ما شاء اللَّه وشئت» وقال: «أجعلتني للَّه ندًا؟! بل ما شاء اللَّه وحده»[2]. فيقال: إن الرسول ﷺ عنده من العلوم الشرعية ما ليس عند القائل، ولهذا لم ينكر الرسول ﷺ على معاذ. بخلاف العلوم الكونية القدرية، فالرسول ﷺ ليس عنده علم منها. فلو قيل: هل يحرم صوم العيدين؟ جاز أن نقول: اللَّه ورسوله أعلم، ولهذا كان الصحابة إذا أشكلت عليهم المسائل ذهبوا إلى رسول اللَّه ﷺ فيبينها لهم، ولو قيل: هل يتوقع نزول مطر في هذا الشهر؟ لم يجز أن نقول: اللَّه ورسوله أعلم؛ لأنه من العلوم الكونية.

العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض: وذلك أن النبي ﷺ خص هذا العلم بمعاذ دون أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ فيجوز أن نخصص بعض الناس بالعلم دون بعض حيث إن بعض الناس لو أخبرته بشيء من العلم افتتن، قال ابن مسعود: «إنك لن تحدث قومًا بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[3] وقال علي: «حدثوا الناس بما يعرفون»[4]. فيُحَدَّثُ كلُّ أحدٍ حسب مقدرته وفهمه وعقله.

الحادية والعشرون: تواضعه ﷺ لركوب الحمار مع الإرداف عليه: النبي ﷺ أشرف الخلق جاهًا، ومع ذلك هو أشد الناس تواضعًا، حيث ركب الحمار وأردف عليه، وهذا في غاية التواضع، إذ أن عادة الكبراء عدم الإرداف، وركب ﷺ الحمار، ولو شاء لركب ما أراد، ولا منقصة في ذلك؛

---

(١) يعني العلم الزائد على القدر المحتاج إليه في إقامة الدين، وإلا لم يجز بدليل وعيد الله الشديد على كتمان العلم في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠] وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وقول النبي ﷺ: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب». (ق).

(٢) صحيح: رواه أحمد (١٨٤٢، ١٩٦٥، ٢٥٥٧)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٤٤)، والبيهقي في سننه الكبرى (٣/ ٢١٧)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٣٩).

(٣) رواه مسلم معلقًا في مقدمته. (٤) صحيح: رواه البخاري (١٢٧).

الثالثة والعشرون: عِظَمُ شأنِ هذه المسألة.

الرابعة والعشرون: فضيلة معاذ بن جبل.

بــاب
فضل التوحيد[1] وما يكفر من الذنوب

قال المصنِّف رحمه الله تعالى: بابُ بيان فضلِ التوحيد وما يكفِّر من الذنوب.
(باب): خبرُ مبتدأ محذوف، تقديرُه: هذا.

إذ أن من تواضع للَّه ـ عز وجل ـ رفعه.

الثانية والعشرون: جواز الإرداف على الدابة: وذلك أن النبي ﷺ أردف معاذًا، لكن يشترط للإرداف أن لا يشق على الدابة، فإن شق؛ لم يجز ذلك.

الثالثة والعشرون: عظم شأن هذه المسألة: حيث أخبر النبي ﷺ معاذًا، وجعلها من الأمور التي يبشر بها.

الرابعة والعشرون: فضيلة معاذ رضي اللَّه عنه: وذلك أن النبي ﷺ خصه بهذا العلم، وأردفه معه على الحمار.

سبق أن ذكر المؤلف كتاب التوحيد؛ أي: وجوب التوحيد، وأنه لا بد منه. وأن معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. أن العبادة لا تصح إلا بالتوحيد. وهنا ذكر المؤلف فضل التوحيد، ولا يلزم من ثبوت الفضل للشيء أن يكون غير واجب. بل الفضل من نتائجه وآثاره. ومن ذلك صلاة الجماعة؛ ثبت فضلها بقوله ﷺ: «صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»[2]. متفق عليه. ولا يلزم من ثبوت الفضل فيها أن تكون غير واجبة؛ إذ أن التوحيد أوجب الواجبات ولا تقبل الأعمال إلا به، ولا يتقرب العبد إلى ربه إلا به، ومع ذلك؛ ففيه فضل.

قوله: «وما يكفر من الذنوب»: معطوف على «فضل»؛ فيكون المعنى: باب فضل التوحيد، وباب ما يكفر من الذنوب، وعلى هذا؛ فالعائد محذوف والتقدير: ما يكفره من الذنوب، وعقد هذا الباب لأمرين:

الأول: بيان فضل التوحيد.

الثاني: بيان ما يكفره من الذنوب؛ لأن من آثار فضل التوحيد تكفير الذنوب.

---

(١) في قرة العيون: والمراد بالتوحيد توحيد العبادة وهو إفراد الله تعالى بأنواع العبادة الباطنة والظاهرة كالدعاء والذبح والنذر ونحوه كما قال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥]. (ق).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٥)، ومسلم (٦٥٠)، والترمذي (٢١٥)، والنسائي (٨٣٧)، وابن ماجه (٧٨٩)، وأحمد (٥٣١٠، ٥٧٤٥، ٥٨٨٥).

وقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قلتُ: ويجوز أنْ يكون مبتدأ خبرُه محذوف، تقديره: هذا.

و: (ما). يجوز أنْ تكون موصولة، والعائد محذوفٌ. أي: وبيانُ الذي يكفِّرهُ من الذنوب. ويجوز أنْ تكون مصدرية، أي: وتكفيره الذنوب، وهذا الثاني أظهر.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قال ابنُ جرير: حدَّثني المُثنَّى وساق بسنده عن الربيع بن أنس، قال: الإيمان: الإخلاصُ لله وحده.

وقال ابنُ كثير ـ في الآية ـ: أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده، ولم يُشركوا به شيئًا: هم الآمنون يوم القيامة، المُهتدون في الدنيا والآخرة.

وقال ابنُ زيد، وابنُ إسحاق: هذا من الله على فَصل القضاء، بين إبراهيم وقومه.

وعن ابن مسعود: لمَّا نزلت هذه الآيةُ، قالوا: فأيُّنا لم يظلم نفسه؟

قال عليه السلام: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وساقه البخاريُّ[1] بسنده، فقال: حدَّثنا عُمرُ بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمشُ، حدثني إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله رضي الله عنه، قال: لمَّا نزلت ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ قلنا: يا رسول الله أيُّنا لا يظلم نفسه؟ قال: **«ليس كما تقولون، لم يلبسوا إيمانهم بظلم: بشرك. أولَم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»**[2]. وهذا الحديثُ في (الصحيح) و(المُستدرك) وغيرهما.

فمن فوائد التوحيد:

١ ـ أنه أكبر دعامة للرغبة في الطاعة؛ لأن الموحد يعمل للَّه ـ سبحانه وتعالى ـ وعليه فهو يعمل سرًّا وعلانية، أما غير الموحد؛ كالمرائي مثلاً؛ فإنه يتصدق ويصلي ويذكر اللَّه إذا كان عنده من يراه فقط، ولهذا قال بعض السلف: «إني لأود أن أتقرب إلى اللَّه بطاعة لا يعلمها إلا هو».

٢ ـ أن الموحدين لهم الأمن وهم مهتدون؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا﴾: أي: يخلطوا.

قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾: الظلم هنا ما يقابل الإيمان، وهو الشرك، ولما نزلت هذه الآية شق ذلك على الصحابة، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ: **«ليس الأمر كما تظنون، إنما المراد به الشرك، ألم**

---

(١) في قصة إبراهيم عليه السلام من أحاديث الأنبياء. (ق). (٢) صحيح: رواه البخاري (٣٢) ومواضع، ومسلم (١٢٤).

. . . .

ولأحمد بنحوه، عن عبد الله، قال: لمَّا نزلت: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، فأيُّنا لا يظلم نفسه؟ قال: «**إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبدُ الصالح: ﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾، إنما هو الشرك**»[1].

وعن عُمر: أنَّه فسَّره بالذنب. فيكون المعنى: الأمنُ من كلِّ عذاب.

وقال الحسن، والكلبي: أولئك لهم الأمنُ في الآخرة، وهم مُهتدون في الدنيا.

قال شيخُ الإسلام: والذين شَقَّ عليهم، ظنوا أنَّ الظلم المشروط هو ظُلمُ العبدِ نفسه، وأنه لا أمن ولا اهتداء إلاَّ لمن لم يظلم نفسه.

فبيَّن لهم النبيُّ ﷺ ما دلَّهم على أنَّ الشرك ظلمٌ في كتاب الله، فلا يحصل الأمنُ والاهتداء إلاَّ لمن لم يَلْبِس إيمانه بظلم، فإنَّ من لم يلبس إيمانه بهذا الظلم، كان من أهل الأمن والاهتداء، كما كان من أهل الإصطفاء، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

و هذا لا ينفي أن يؤاخذ أحدُهم بظلمه لنفسه، بذنب إذا لم يتب؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ

تسمعوا إلى قول الرجل الصالح ـ يعني لقمان ـ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟»[2].

والظلم أنواع:

١ ـ أظلم الظلم، وهو الشرك في حق اللَّه.

٢ ـ ظلم الإنسان نفسه؛ فلا يعطيها حقها، مثل أن يصوم فلا يفطر، ويقوم فلا ينام.

٣ ـ ظلم الإنسان غيره، مثل أن يتعدى على شخص بالضرب، أو القتل، أو أخذ مال، أو ما أشبه ذلك. وإذا انتفى الظلم، حصل الأمن، لكن هل هو أمنٌ كامل؟

الجواب: إنه إن كان الإيمان كاملاً لم يخالطه معصية؛ فالأمن أمن مطلق، أي كامل، وإذا كان الإيمان مطلق إيمانٍ ـ غير كامل؛ فله مطلق الأمن؛ أي: أمن ناقص. مثال ذلك: مرتكب الكبيرة، آمن من الخلود في النار، وغير آمن من العذاب، بل هو تحت المشيئة، قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦]. وهذه الآية قالها اللَّه تعالى حكمًا بين إبراهيم وقومه حين قال لهم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الانعام: ٨١، ٨٢] فقال اللَّه تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الانعام: ٨٢] الآية، على أنه قد يقول قائل: إنها من كلام إبراهيم ليبين لقومه، ولهذا قال بعدها: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الانعام: ٨٣].

قوله: ﴿الأَمْنُ﴾: «ال» فيها للجنس، ولهذا فسرنا الأمن بأنه إمّا أمن مطلق، وإما مطلقُ أمنٍ

---

(١) صحيح: رواه أحمد في المسند (١/ ٣٧٨). (٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٩٣٧)، ومسلم (١٢٤) بنحوه.

....

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وقد سأل أبو بكر الصديق رضي الله عنه النبيَّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، أيُّنا لم يعمل سوءًا؟ فقال: **يا أبا بكر ألست تنصَب؟ ألست تحزن؟ أليس يصيبك اللأواء؟! فذلك ما تُجزون به**»[1].

حسب الظلم الذي تلبس به.

قوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾: أي: في الدنيا إلى شرع الله بالعلم والعمل؛ فالاهتداء بالعلم هداية الإرشاد.

والاهتداء بالعمل: هداية التوفيق، وهم مهتدون في الآخرة إلى الجنة.

هذه هداية الآخرة، وهي للذين ظلموا إلى صراط الجحيم؛ فيكون مقابلها أن الذين آمنوا ولم يظلموا يهدون إلى صراط النعيم.

وقال كثير من المفسرين في قوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ﴾ إن الأمن في الآخرة، والهداية في الدنيا، والصواب أنها عامة بالنسبة للأمن والهداية في الدنيا والآخرة.

مناسبة الآية للترجمة:

أن الله أثبت الأمن لمن لم يشرك، والذي لم يشرك يكون موحدًا؛ فدل على أن من فضائل التوحيد استقرار الأمن.

قوله: «**من شهد أن لا إله إلا الله**»:

الشهادة لا تكون إلا من علم سابق، قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

وهذا العلم قد يكون مكتسبًا، وقد يكون غريزيا. فالعلم بأنه لا إله إلا الله غريزي، قال ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة**»[2]. وقد يكون مكتسبًا، وذلك بتدبر آيات الله، والتفكر فيها.

ولا بد أن يوجد العلم بلا إله إلا الله، ثم الشهادة بها.

قوله: «**أن**»: مخففة من الثقيلة، والنطق بأن مشددة خطأ؛ لأن المشددة لا يمكن حذف اسمها، والمخففة يمكن حذفه.

قوله «**لا إله**»: أي: لا مألوه، وليس بمعنى لا آله، والمألوه: هو المعبود محبة وتعظيمًا، تحبه وتعظمه لما تعلم من صفاته العظيمة وأفعاله الجليلة.

قوله: «**إلا الله**»: أي: لا مألوه إلا الله، ولهذا حكي عن قريش قولهم: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا

---

(١) رواه أحمد في المسند (١/ ١١)، وابن حبان في صحيحه (٧/ ١٧٠) وصححه.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨)، وأبو داود (٤٧١٤، ٤٧١٦)، والترمذي (٢١٣٨)، وأحمد (٧١٤١) ومواضع.

. . . .

فبيَّن: أنَّ المؤمن الذي إذا مات دخل الجنة، قد يُجزىٰ بسيئاته في الدنيا بالمصائب.

قال: فمن سَلِم من أجناس الظلم الثلاثة: الشرك، وظلم العباد، وظلمه لنفسه بما دون الشرك، كان له الأمنُ التام والاهتداء التام. ومن لم يْسلَم من ظلمه لنفسه، كان له الأمنُ والاهتداء مطلقًا.

بمعنىٰ: أنَّه لابُدَّ أنْ يدخل الجنة، كما وُعد بذلك في الآية الأخرىٰ وقد هداه الله إلىٰ الصراط المستقيم، الذي تكون عاقبتُه فيه إلىٰ الجنة. ويحصل له من نقصِ الأمن والاهتداء، بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه لنفسه.

ليس مرادُ النبي ﷺ بقوله: «**إنما هو الشرك**» أنَّ من لم يُشرك الشرك الأكبر، يكونُ له الأمنُ التام والاهتداء التام. فإنَّ أحاديثه الكثيرة، مع نصوص القرآن: تبيِّنُ أنَّ أهل الكبائر مُعرَّضون للخوف، لم يحصل لهم الأمنُ التام والاهتداء التام الذي يكونون به مُهتدين إلىٰ الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، من غير عذاب يحصل لهم. بل معهم أصلُ الاهتداء إلىٰ هذا الصراط، ومعهم

إنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]. أما قوله تعالىٰ: **﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾** [هود:١٠١]. فهذا التأله باطل؛ لأنه بغير حق، فهو منفي شرعًا، وإذا انتفىٰ شرعًا، فهو كالمنتفي وقوعًا؛ فلا قرار له، **﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾** [إبراهيم:٢٦].

وبهذا يحصل الجمع بين قوله تعالىٰ: **﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ﴾**، وقوله تعالىٰ حكاية عن قريش: **﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾**، وبين قوله تعالىٰ: **﴿وما من إله إلا الله﴾**؛ فهذه الآلهة مجرد أسماء لا معاني لها ولا حقيقة؛ إذ هي باطلة شرعًا، لا تستحق أن تسمىٰ آلهة؛ لأنها لا تنفع ولا تضر، ولا تخلق ولا ترزق، كما قال تعالىٰ: **﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾** [يوسف:٤٠].

التوحيد عند المتكلمين: يقولون: إن معنىٰ إله: آله، والآله: القادر علىٰ الاختراع؛ فيكون معنىٰ لا إله إلا اللَّه: لا قادر علىٰ الاختراع إلا اللَّه.

والتوحيد عندهم: أن توحد اللَّه، فتقول: هو واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في أفعاله لا شريك له، وواحد في صفاته لا شبيه له، ولو كان هذا معنىٰ« لا إله إلا اللَّه»؛ لما أنكرت قريش علىٰ النبي ﷺ دعوته ولآمنت به وصدقت؛ لأن قريشًا تقول: لا خالق إلا اللَّه، و«لا خالق» أبلغ من كلمة «لا قادر»؛ لأن القادر قد يفعل وقد لا يفعل، أما الخالق؛ فقد فعل وحقق بقدرة منه، فصار فهم المشركين خيراً من فهم هؤلاء المتكلمين والمنتسبين للإسلام؛ فالتوحيد الذي جاءت به الرسل في قوله تعالىٰ: **﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾**[الأعراف:٥٩]. أيْ: من إله حقيقي يستحق أن يعبد، وهو اللَّه.

ومن المؤسف أنه يوجد كثير من الكتاب الآن الذين يكتبون في هذه الأبواب تجدهم عندما يتكلمون علىٰ التوحيد لا يقررون أكثر من توحيد الربوبية، وهذا غلط ونقص عظيم، ويجب أن نغرس في قلوب المسلمين توحيد الألوهية أكثر من توحيد الربوبية؛ لأن توحيد الربوبية لم ينكره أحد إنكارًا حقيقًا، فكوننا لا نقرر إلا هذا الأمر الفطري المعلوم بالعقل، ونسكت عن الأمر الذي يغلب فيه الهوىٰ هو نقص عظيم، فعبادة غير اللَّه هي التي يسيطر فيها هوىٰ الإنسان علىٰ نفسه حتىٰ يصرفه عن عبادة اللَّه وحده، فيعبد الأولياء ويعبد هواه، حتىٰ جعل

أصل نعمة الله تعالى عليهم، ولابُدَّ لهم من دخول الجنة.

وقوله: «إنما هو الشرك» إنْ أراد الأكبر، فمقصودُه: أنَّ من لم يكن من أهله فهو آمنٌ مما وُعِدَ به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة. وإنْ كان مرادُه جنس الشرك، فيقال: ظُلمُ العبد لنفسه، كبُخله ـ بحُب المال ـ ببعض الواجب هو شِركٌ أصغر. وحُبِّهِ ما يبغضه الله تعالى، حتى يقدِّم هواه على محبة الله شركٌ أصغر، ونحو ذلك. فهذا فاته من الأمن والاهتداء، بحسبه. ولهذا كان السلفُ يُدخلون الذنبَ في هذا الشرك، بهذا الاعتبار[1]. انتهى مُلخصًا.

وقال ابنُ القيم رحمه الله تعالى: قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ [الأنعام: ٨٢]. قال الصحابة: وأيُّنا يا رسول الله لم يَلْبِس إيمانه بظلم؟. قال: «**ذلك الشرك. ألم تسمعوا قول العبد الصالح** ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾» فلما أشكل عليهم المرادَ بالظلم، فظنُّوا أنَّ ظلم النفس داخلٌ فيه، وأنَّ من ظلم نفسه ـ أيَّ ظلم كان ـ لم يكن آمنًا ولا مهتديًا. أجابهم صلوات الله وسلامه عليه: بأنَّ الظلم الرَّافع للأمن والهداية على الإطلاق، هو الشرك.

وهذا والله، هو الجوابُ الذي يشْفي العليلَ ويروي الغليل؛ فإنَّ الظلم المطلق التام: هو الشرك،

النبي ﷺ الذي همه الدرهم والدينار ونحوهما عابدًا، وقال اللّه ـ عز وجل ـ: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ**﴾ [الجاثية: ٢٣].

فالمعاصي من حيث المعنى العام أو الجنس العام يمكن أن نعتبرها من الشرك.

وأما المعنى الأخص؛ فتنقسم إلى أنواع:

١ ـ شرك أكبر. ٢ ـ شرك أصغر.

٣ ـ معصية كبيرة. ٤ ـ معصية صغيرة.

وهذه المعاصي منها ما يتعلق بحق اللّه، ومنها ما يتعلق بحق الإنسان نفسه، ومنها ما يتعلق بحق الخلق.

وتحقيق «لا إله إلا اللّه» أمر في غاية الصعوبة، ولهذا قال بعض السلف: «كل معصية؛ فهي نوع من الشرك».

وقال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص»، ولا يعرف هذا إلا المؤمن، أما غير المؤمن؛ فلا يجاهد نفسه على الإخلاص، ولهذا قيل لابن عباس: «إن اليهود يقولون: نحن لا نوسوس في الصلاة. قال: فما يصنع الشيطان بقلب خرب؟»؛ فالشيطان لا يأتي ليخرب المهدوم، ولكن يأتي ليخرب المعمور، ولهذا لما شكي إلى النبي ﷺ أن الرجل يجد في نفسه ما يستعظم أن يتكلم به؛ قال: «**وجدتم ذلك؟**». قالوا: نعم. قال: «**ذاك صريح الإيمان**»[2]؛ أي: إن ذاك هو العلامة البينة على أن إيمانكم صريح؛ لأنه ورد عليه، ولا يرد إلا على قلب صحيح خالص.

---

(١) من كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. (ق).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (١٣٢)، وأبو داود (٥١١١)، وأحمد (٨٩١١) ومواضع.

وعن عُبادةَ بن الصامت رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من شهد أنْ لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبدُه ورسوله، وأنَّ عيسى عبد الله ورسوله، وكلمَتُه ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه، والجنَّةَ حقٌّ والنارَ حقٌّ، أدخله الله الجنةَ على ما كان من العمل» أخرجاه[1].

الذي هو وضعُ العبادة في غير موضعها. والأمن والهُدىٰ المطلق: هو الأمن في الدنيا والآخرة، والهُدىٰ إلىٰ الصراط المستقيم.

فالظلمُ المطلق التام، رافعٌ للأمن والهُدىٰ المطلق التام. ولا يمنع ذلك أنْ يكون مطلقُ الظلم مانعًا من مطلق الأمن، ومطلق الهُدىٰ. فتأمَّله. فالمطلقُ للمطلق، والحصَّةُ للحصة. انتهىٰ ملخصًا[2].

قال المُصنِّف رحمه الله تعالى: وعن عُبادةَ بن الصامت رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من شهد أنْ لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبدُه ورسوله، وأنَّ عيسى عبد الله ورسوله، وكلمَتُه ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه، والجنَّةَ حقٌّ والنارَ حقٌّ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» أخرجاه.

قوله: **«من شهد أن لا إله إلا اللَّه»**: «من»: شرطية، وجواب الشرط: **« أدخله اللَّه الجنة على ما كان من العمل»**.

والشهادة: هي الاعتراف باللسان، والاعتقاد بالقلب، والتصديق بالجوارح، ولهذا لما قال المنافقون للرسول ﷺ: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ١]- وهذه جملة مؤكدة بثلاث مؤكدات: الشهادة، وإنَّ، واللام - كذبهم اللَّه بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]؛ فلم ينفع هذا الإقرار باللسان لأنه خال من الاعتقاد بالقلب، وخال من التصديق بالعمل، فلم ينفع؛ فلا تتحقق الشهادة إلا بعقيدة في القلب، واعتراف باللسان، وتصديق بالعمل.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨).

(٢) قال في قرة العيون: قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢] فالظالم لنفسه هو الذي خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا؛ فهو تحت مشيئة الله: إن شاء غفر له، وإن شاء أخذه بذنبه، ونجاه بتوحيده من الخلود في النار.

وأما المقتصد فهو الذي عمل بما أوجب الله عليه وترك ما حرم عليه فقط، وهذه حال الأبرار. وأما السابق فهو الذي حصل له كمال الإيمان باستفراغه وسعه في طاعة الله علمًا وعملاً. فهذان لهم الأمن التام والاهتداء التام في الدنيا والآخرة فالكل للكل، والحصة للحصة، لأن كمال الإيمان يمنع صاحبه من المعاصي وعقوباتها، فلم يلق ربه بذنب يعاقب به كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] وهذا الذي ذكرته في معنى الآية هو ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وابن القيم رحمه الله في معناها، وهو الذي دل عليه القرآن، وهو قول أهل السنة والجماعة خلافًا لأهل البدع من الخوارج والمعتزلة ونحوهم. (ق).

. . . .

عُبادة بن الصامت: ابن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد، أحد النقباء، بدريٌّ مشهور. مات بالرَّملة سنة أربع وثلاثين، وله اثنتان وسبعون سنة. وقيل: عاش إلى خلافة مُعاوية.

قوله: «من شهد أنْ لا إله إلاَّ الله» أي: من تكلَّم بها عارفًا لمعناها، عاملاً بمقتضاها باطنًا وظاهرًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] وقوله: ﴿إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

أمَّا النطق بها من غير معرفة بمعناها، ولا يقين ولا عمل بما تقتضيه، من نفي الشرك وإخلاص القول والعمل قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح - فغيرُ نافع بالإجماع[١].

وقوله: «لا إله إلا اللَّه»: أي: لا معبود على وجه يستحق أن يعبد إلا اللَّه، وهذه الأصنام التي تعبد لا تستحق العبادة؛ لأنه ليس فيها من خصائص الألوهية شيء.

قوله: «وحده لا شريك له»: وحده: توكيد للإثبات. لا شريك له: توكيد للنفي في كل ما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

ولهذا كان النبي ﷺ وغيره من المؤمنين يلجئون إلى اللَّه تعالى عند الشدائد؛ فقد جاء أعرابي إلى النبي ﷺ وعنده أصحابه، وقد علق سيفه على شجرة فاخترطه الأعرابي، وقال: من يمنعك مني؟

---

(١) قال في قرة العيون: وقد تضمنت هذه الكلمة العظيمة نفيًا وإثباتًا، فنفت الإلهية عن كل ما سوى الله بقولك: (لا إله) وأثبتت الإلهية لله بقولك (إلا الله) قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨] فكم ضل بسبب الجهل بمعناها من ضل وهم الأكثرون، فقلبوا حقيقة المعنى فأثبتوا الإلهية المنفية لمن نفيت عنه من المخلوقين أرباب القبور والمشاهد والطواغيت والأشجار والأحجار والجن وغير ذلك، واتخذوا ذلك دينًا وشبهوا وزخرفوا، واتخذوا التوحيد بدعة وأنكروه على من دعاهم إليه؛ فلم يعرفوا منها ما عرف أهل الجاهلية من كفار قريش ونحوهم(*) فإنهم عرفوا معناها وأنكروا ما دلت إليه؛ فلم يعرفوا منها ما دلت عليه من الإخلاص كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦] والمشركون من أواخر هذه الأمة أنكروا ما أنكره أولئك على من دعاهم إلى ترك عبادة ما كانوا يعبدونه من دون الله من الموتى والقبور والمشاهد والطواغيت ونحوها.

فأولئك عرفوا هذا المعنى وأنكروه؛ وهؤلاء جهلوا هذا المعنى وأنكروه؛ فلهذا تجده يقول: لا إله إلا الله، وهو يدعو مع الله غيره.

(*) سبب ذلك أن عرب الجاهلية هم أهل لغة القرآن الفصحاء فلا يجهلون شيئًا من معنى التوحيد الذي قرره. وأما هؤلاء الذين فشا فيهم اليوم شرك العبادة فليسوا من أهل ملكة هذه اللغة وإنما يدينون بالاصطلاحات التي تلقاها بعضهم من بعض من كلامية وعامية. وإذا كان مثل الفخر الرازي من أكبر أئمة متكلميهم وأصولييهم أخطأ في فهم معنى الإله في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فما الظن بمن دونه من علمائهم. دع عامتهم ودهمائهم؟ هل يستغرب منهم الجهل بأن من دعا ميتًا أو صالحًا حيًّا فيما لا يدعى فيه إلا الله، أو طاف بقبره ونذر له يكون عابدًا له ومتخذًا له إلهًا؟!!. (ق).

. . . .

قال القرطبي في (المُفهِم على صحيح مسلم): بابٌ لا يكفي مجرَّد التلفظ بالشهادتين، بل لابُدَّ من استيقان القلب.
هذه الترجمة تنبيهٌ على فساد مذهب المُرجِئة، القائلين بأنَّ التلفظ بالشهادتين كافٍ في الإيمان.
وأحاديثُ هذا الباب تدلُّ على فساده، بل هو مذهبٌ معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها. ولأنه يلزم منه تسويغُ النفاق، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح، وهو باطلٌ قطعًا. انتهى.

وفي هذا الحديث ما يدل على هذا، وهو قوله: «**من شهد**» فإنَّ الشهادة لا تصلح إلاَّ إذا كانت عن علم ويقين وإخلاص وصدق.

قال النووي: هذا حديثٌ عظيمٌ جليل الموقع، وهو - أجمعُ أو من أجمع - الأحاديث المشتملة على العقائد؛ فإنَّه ﷺ جمع فيه ما يُخرج من مِلل الكفر، على اختلاف عقائدهم وتباعُدها، فاقتصر ﷺ في هذه الأحرف على ما يُباين به جميعَهم. انتهى.

ومعنى: لا إله إلاَّ الله. أي: لا معبودَ حقٌّ إلا الله. وهو في مواضعَ من القرآن، ويأتيك في قول البَقَاعي صريحًا.

قولـه: «وحْدَه» تأكيدٌ للإثبات. «**لا شريك له**» تأكيدٌ للنفي. قاله الحافظ؛ كما قال تعالى:

قال: «**يمنعني الله**»(١) ولم يقل: أصحابي، وهذا هو تحقيق توحيد الربوبية؛ لأن الله هو الذي يملك النفع، والضر، والخلق، والتدبير، والتصرف في الملك؛ إذ لا شريك له فيما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

وقولنا فيما يختص به حتى نسلم من شبهات كثيرة، منها شبهات النافين للصفات؛ لأن النافية للصفات زعموا أن إثبات الصفات إشراك بالله - عز وجل - حيث قالوا: يلزم من ذلك التمثيل، لكننا نقول: للخالق صفات تختص به، وللمخلوق صفات تختص به.

قوله: «وأن محمدًا عبده ورسوله»: محمد: هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، القرشي، الهاشمي، خاتم النبيين.

وقوله: «عبده»؛ أي: ليس شريكًا مع الله.

وقوله: «ورسوله»: أي: المبعوث بما أوحي إليه؛ فليس كاذبًا على الله.

فالرسول ﷺ عبد مربوب، جميع خصائص البشرية تلحقه ما عدا شيئًا واحدًا، وهو ما يعود بأسافل الأخلاق؛ فهو ممنوع منه، قال تعالى: ﴿**قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ**﴾ [الأعراف:١٨٨]. وقال تعالى: ﴿**قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا**﴾ [الجن: ٢١، ٢٢].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩١٠، ٤١٣٧، ٤١٣٩)، ومسلم (٨٤٣)، وأحمد (١٣٩٢٥) ومواضع.

. . . .

﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٦٥]. فأجابوا ـ ردًا عليه ـ بقولهم: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ [الأعراف: ٧٠].

وقال تعالىٰ: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦٢]

فتضمَّن ذلك: نفي الإلهية عمَّا سوىٰ الله، وهي العبادة، وإثباتها لله وحده لا شريك له.

والقرآنُ من أوَّله إلىٰ آخره، يُبيِّنُ هذا ويقرِّرُهُ ويُرشد إليه. فالعبادةُ بجميع أنواعها، إنما تصدر عن تألُّهِ القلب بالحب والخضوع والتذلل، رَغَبًا ورَهَبًا. وهذا كلُّه لا يستحقه إلاَّ الله تعالىٰ، كما تقدم في

فهو بشر مثلنا؛ إلا أنه يوحىٰ إليه، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [فصلت: ٦].

ومن قال: إن الرسول ﷺ ليس له ظل، أو أن نوره يطفئ ظله إذا مشىٰ في الشمس، فكله كذب باطل، ولهذا قالت عائشة رضي اللَّه عنها: «كنت أمدّ رجلي بين يديه، وتعتذر بأن البيوت ليس فيها مصابيح»[١] فلو كان النبي ﷺ له نور؛ لم تعتذر رضي اللَّه عنها، ولكنه الغلوّ الذي أفسد الدين والدنيا، والعياذ باللَّه.

ومن الغلو قول البوصيري في «البردة» المشهورة:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به	سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن آخذًا يوم المعاد يدي	فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم
فإن من جودك الدنيا وضرتها	ومن علومك علم اللوح والقلم

قال ابن رجب وغيره: إنه لم يترك للَّه شيئًا ما دامت الدنيا والآخرة من جود الرسول ﷺ. ونشهد أن من يقول هذا؛ ما شهد أن محمدًا عبد اللَّه، بل شهد أن محمدًا فوق اللَّه! كيف يصل بهم الغلو إلىٰ هذا الحد؟! وهذا الغلو فوق غلو النصارىٰ الذين قالوا: إن المسيح ابن اللَّه، وقالوا: إن اللَّه ثالث ثلاثة. هم قالوا فوق ذلك، قالوا: إن اللَّه يقول: «**من ذكرني في ملاءٍ ذكرته في ملاءٍ خير منه، وأنا مع عبدي إذا ذكرني**»[٢]، والرسول معنا إذا ذكرناه.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٨٢، ٥١٣)، ومسلم (٥١٢)، والنسائي (١٦٨)، وابن ماجه (٣٩٨٩)، وأحمد (٢٤٦٢٤، ٢٥٣٥٦)، ومالك في موطئه (٢٥٨)، والدارمي (٢٥٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

. . . .

أدلة هذا الباب وما قبله .

فمن صرف من ذلك شيئًا لغير الله ، فقد جعله ندًا لله ، فلا ينفعه مع ذلك قولٌ ولا عمل .

ذِكرُ كلام العُلماء في معنى: «لا إله إلا الله»

قد تقدَّم كلامُ ابن عباس .

وقال الوزير ، أبو المظفر في (الإفصاح) : قوله : «شهادة أنْ لا إله إلاَّ الله» يقتضي أنْ يكون الشاهدُ عالمًا بأنْ لا إله إلاَّ الله ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ .

قال : واسم الله : مرتفعٌ بعد إلاَّ ؛ من حيثُ أنَّه الواجبُ له الإلهية ، فلا يستحقها غيرهُ سبحانه .
قال : وجملةُ الفائدة في ذلك : أنْ تعلم أنَّ هذه الكلمة مشتملةٌ علىٰ الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ، فإنَّك لَمَّا نفيت الإلهيةَ وأثبت الإيجاب لله تعالىٰ كُنت ممن كفر بالطاغوت وآمن بالله» .

ولهذا كان أولئك الغلاة ليلة المولد إذا تلىٰ التالي المخرف كلمة «المصطفىٰ» قاموا جميعًا قيام رجل واحد ، يقولون : لأن الرسول ﷺ حضر مجلسنا بنفسه ، فقمنا إجلالاً له ، والصحابة رضي اللّه عنهم أشد إجلالاً منهم ومنا ، ومع ذلك إذا دخل عليهم الرسول ﷺ وهو حي يكلمهم لا يقومون ، وهؤلاء يقومون إذا تخيلوا أو جاءهم شبح إن كانوا يشاهدون شيئًا ؛ فانظر كيف بلغت بهم عقولهم إلىٰ هذا الحد! فهؤلاء ما شهدوا أن محمداً عبد اللّه ورسوله ، وهؤلاء المخرفون مساكين ، إن نظرنا إليهم بعين القدر ؛ فنرقُّ لهم ، ونسأل اللّه لهم السلامة والعافية ، وإن نظرنا إليهم بعين الشرع ؛ فإننا يجب أن ننابذهم بالحجة حتىٰ يعودوا إلىٰ الصراط المستقيم ، والرسول ﷺ أشد الناس عبودية للّه ، وأخشاهم للّه ، وأتقاهم للّه ، قام يصلي حتىٰ تورَّمت قدماه وقيل له في ذلك فقال : «**أفلا أكون عبداً شكوراً؟!**»[1] ، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، هذا تحقيق العبادة العظيمة . أما الرسالة ؛ فهو رسول أرسله اللّه عز وجل ـ بأعظم شريعة إلىٰ جميع الخلق ، فبلغها غاية البلاغ ، مع أنه أوذي وقوتل ، حتىٰ إنهم جاءوا بسلا الجزور وهو ساجد عند الكعبة ووضعوه علىٰ ظهره ، كل ذلك كراهية له ولما جاء به ، ومع ذلك صبر ، يلقون الأذىٰ والأنتان والأقذار علىٰ عتبة بابه ، لكن هذا للنبي الكريم امتحان من اللّه ـ عز وجل ـ ؛ لأجل أن يتبين صبره وفضله ، يخرج ويقول : «**أي جوار هذا يا بني عبد مناف من قبل قريش؟**» ، فصبر ﷺ حتىٰ فتح اللّه عليه ، وأنذر أم القرىٰ ومن حولها ، ثم إنه حمل هذه الشريعة من بعده أشد الناس أمانة وأقواهم علىٰ الاتباع ؛ الصحابة رضي اللّه عنهم ، وأدوها إلىٰ الأمة نقية سليمة ، وللّه الحمد .

ونحب الرسول ﷺ للّه وفي اللّه ؛ فحبُّ الرسول ﷺ من حب اللّه ، ونقدمه علىٰ أنفسنا وأهلنا

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١١٣٠، ٤٨٣٦، ٦٤٧١)، ومسلم (٢٨١٩، ٢٨٢٠)، والترمذي (٤١٢)، والنسائي (١٦٤٤)، وابن ماجه (١٤١٩، ١٤٢٠)، وأحمد (١٧٧٧٩، ٢٤٣٢٣).

. . . .

وقال ابن القيم في (البدائع) [(١)] ردًّا لقول من قال: إنَّ المُستثنىٰ مُخرجٌ من المنفي قال: بل هو مخرجٌ المنفي وحُكمه، فلا يكون داخلاً في المنفيٰ. إذ لو كان كذلك، لم يدخل الرجلُ في الإسلام بقول: لا إله إلا الله؛ لأنه لم يُثبت الإلهية لله تعالىٰ. وهذه أعظمُ كلمة تضمَّنت نفي الإلهية عمَّا سوىٰ الله، وإثباتها له بوصف الاختصاص. فدلالتُها علىٰ إثبات إلهيته، أعظمُ من دلالة قولنا: الله إلهٌ، ولا يستريب أحدٌ في هذا البتَّة. انتهىٰ بمعناه.

وأولادنا والناس أجمعين، وأحببناه من أجل أنه رسول اللَّه ﷺ.

ونحقق شهادة أن محمداً رسول اللَّه، وذلك بأن نعتقد ذلك بقلوبنا، ونعترف به بألسنتنا، ونطبق ذلك في متابعته ﷺ بجوارحنا، فنعمل بهديه، ولا نعمل له.

أما ما ينقض تحقيق هذه الشهادة؛ فهو:

١ ـ فعل المعاصي؛ فالمعصية نقص في تحقيق هذه الشهادة؛ لأنك خرجت بمعصيتك من اتباع النبي ﷺ.

٢ ـ الابتداع في الدين ما ليس منه؛ لأنك تقربت إلىٰ اللَّه بما لم يشرعه اللَّه ولا رسوله ﷺ، والابتداع في الدين في الحقيقة من الاستهزاء باللَّه؛ لأنك تقربت إليه بشيء لم يشرعه.

فإن قال قائل: أنا نويت التقرب إلىٰ اللَّه بهذا العمل الذي أبتدعه.

قيل له: أنت أخطأت الطريق؛ فتعذر علىٰ نيتك، ولا تعذر علىٰ مخالفة الطريق متىٰ علمت الحق. فالمبتدعون قد يقال: إنهم يثابون علىٰ حسن نيتهم إذا كانوا لا يعلمون الحق، ولكننا نخطئهم فيما ذهبوا إليه، أما أئمتهم الذين علموا الحق، ولكن ردوه ليبقوا جاههم، ففيهم شبه بأبي جهل، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة، وغيرهم الذي قابلوا رسالة النبي ﷺ بالرد إبقاءً علىٰ رئاستهم وجاههم. أما بالنسبة لأتباع هؤلاء الأئمة، فينقسمون إلىٰ قسمين:

القسم الأول: الذين جهلوا الحق، فلم يعلموا عنه شيئًا، ولم يحصل منهم تقصير في طلبه، حيث ظنوا أن ما هم عليه هو الحق، فهؤلاء معذورون.

القسم الثاني: من علموا الحق، ولكنهم ردوه تعصبًا لأئمتهم؛ فهؤلاء لا يعذرون، وهم كمن قال اللَّه فيهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

قوله: «وأن عيسى عبد اللَّه ورسوله». الكلام فيها كالكلام في شهادة أن محمداً رسول اللَّه، إلا أننا نؤمن برسالة عيسىٰ، ولا يلزمنا اتباعه إذا خالفت شريعته شريعتنا.

فشريعة من قبلنا لها ثلاث حالات:

الأولى: أن تكون مخالفة لشريعتنا؛ فالعمل علىٰ شرعنا.

---

(١) بدائع الفوائد للعلامة ابن القيم (ج٣ص٥٦) وهو بحث قيم جدًّا في الاستثناء والمستثنى.(ق).

. . . .

قلتُ: ولا ريب أنّه لم يدخل في المنفي أصلاً؛ لأنَّ المراد من هذه الكلمة: إفرادُه تعالىٰ بالإلهية في قلب الموحِّد وقوله وعمله، كما دلَّت عليه الآيات المُحكمات، كما أخبر عن دعوة رُسله ﴿أن اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٣٢] فنفوا الإلهية عمَّا سوىٰ الله تعالىٰ، وأثبتوها لله وحده. فإنه تعالىٰ هو المتصفُ بتفرُّده بالإلهية، أزلاً وأبدًا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]. وأخبر تعالىٰ عن المُشركين، أنهم قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ [الأعراف: ٧٠]. أرادوا أنْ يُدخلوه في جُملة آلهتهم في العبادة، وأنكروا أنْ تكون العبادةُ له وحده، مع معرفتهم أنَّ: لا إله إلاَّ الله تبطلُ ذلك. وتسويةُ آلهتهم بالله في العبادة هو الشرك الأكبرُ، الذي يوجِب الخلود في النار. فالموحِّدُ مخالفٌ للمشرك في قوله وفعله ونيَّته. وهذا ظاهرٌ لا خفاءَ به، بحمد الله.

وقال أبو عبد الله، القُرطبي، في تفسير لا إله إلاَّ هو: أي: لا معبود إلاَّ هو.

وقال الزَّمخشري: الإله. من أسماء الأجناس، كالرجل والفَرس، يقع علىٰ كل معبودٍ بحق أو بباطل، ثم غلب علىٰ المعبود بحق.

الثانية: أن تكون موافقة لشريعتنا؛ فنحن متبعون لشريعتنا.

الثالثة: أن يكون مسكوتًا عنها في شريعتنا، وفي هذه الحال اختلف علماء الأصول: هل نعمل بها، أو ندعها؟

والصحيح أنها شرع لنا، ودليل ذلك:

١ ـ قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٢ ـ قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

وقد تطرف في عيسىٰ طائفتان:

الأولى: اليهود كذَّبوه، فقالوا: بأنه ولد زنا، وأن أمه من البغايا، وأنه ليس بنبي، وقتلوه شرعًا؛ أي: محكوم عليهم عند اللَّه أنهم قتلوه في حكم اللَّه الشرعي؛ لقوله تعالىٰ عنهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٥٧]. وأما بالنسبة لحكم اللَّه القدري، فقد كذبوا، وما قتلوه يقينًا، بل رفعه اللَّه إليه، ولكن شُبِّه لهم، فقتلوا المشبه لهم وصلبوه.

الثانية: النصارىٰ قالوا: إنه ابن اللَّه، وإنه ثالث ثلاثة، وجعلوه إلهًا مع اللَّه، وكذبوا فيما قالوا.

أما عقيدتنا نحن فيه: فنشهد أنه عبد اللَّه ورسوله، وأن أمه صديقة، كما أخبر اللَّه تعالىٰ بذلك، وأنها أحصنت فرجها، وأنها عذراء، ولكن مثله عند اللَّه كمثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له: كن؛ فيكون.

وفي قوله: «عبد اللَّه»: رد علىٰ النصارىٰ.

وفي قوله: «ورسوله»: رد علىٰ اليهود.

. . . .

قال شيخُ الإسلام: الإله. هو المعبودُ المُطاع؛ فإنَّ الإله هو المألُوه، والمألُوه: هو الذي يستحق أنْ يُعبد، وكونه يستحق أنْ يُعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أنْ يكون هو المحبوبُ غايةَ الحب، المخضُوع له غاية الخضوع.

وقال رحمه الله تعالى: فإنَّ الإله هو المحبُوب المعبود، الذي تألهُهُ القلوبُ بحبها، وتخضعُ له وتذلُّ له وتخافه وترجوه، وتُنيب إليه في شدائدها، وتدعوه في مهمَّاتها، وتتوكلُ عليه في مصالحها، وتلجأ إليه وتطمئنُّ بذكره، وتَسكُن إلىٰ حبه.

وليس ذلك إلاَّ لله وحده؛ ولهذا كانت: لا إله إلاَّ الله. أصدقَ الكلام، وكان أهلُها أهل الله وحزبَه، والمنكرون لها أعداءه وأهل غضبه ونقمته. فإذا صحَّت صحَّ بها كلُ مسألةٍ، وحالٍ، وذوق. وإذا لم يُصحِّحها العبدُ فالفسادُ لازمٌ له، في علومه وأعماله.

قوله: «**وكلمته ألقاها إلى مريم**»:

أطلق اللَّه عليه كلمة؛ لأنه خلق بالكلمة عليه السلام؛ فالحديث ليس علىٰ ظاهره؛ إذ عيسىٰ عليه السلام ليس كلمة؛ لأنه يأكل، ويشرب، ويبول، ويتغوط، وتجري عليه جميع الأحوال البشرية، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [آل عمران: ٥٩]. وعيسىٰ عليه السلام كلمة اللَّه، إذ أن كلام اللَّه وصف قائم به، لا بائن منه، أما عيسىٰ؛ فهو ذات بائنة عن اللَّه ـ سبحانه ـ، يذهب ويجيء، ويأكل الطعام ويشرب.

قوله: «**ألقاها إلى مريم**»: أي: وجَّهها إليها بقوله: ﴿**كُن فَيَكُونُ**﴾؛ كما قال تعالىٰ: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [آل عمران: ٥٩]. ومريم ابنة عمران ليست أخت موسىٰ وهارون عليهما السلام كما يظنه بعض الناس، ولكن كما قال الرسول ﷺ كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم[(١)]؛ فهارون أخو مريم، ليس هارون أخا موسىٰ، بل هو آخر يسمىٰ باسمه، وكذلك عمران سمِّي باسم أبي موسىٰ.

قوله: «**وروح منه**»: أي: صار جسده عليه السلام بالكلمة، فنفخت فيه هذه الروح التي هي من اللَّه؛ أي: خلق من مخلوقاته أضيف إليه تعالىٰ للتشريف والتكريم.

وعيسىٰ عليه السلام ليس روحًا، بل جسد ذو روح، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿**مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ**﴾ [المائدة: ٧٥]. فبالنفخ صار جسدًا، وبالروح صار جسدًا وروحًا.

قوله: «**منه**»: هذه هي التي أضلت النصارىٰ، فظنوا أنه جزء من اللَّه، فضلوا وأضلوا كثيرًا،

---

(١) **صحيح:** رواه مسلم (٢١٣٥)، والترمذي (٣١٥٥).

. . . .

قال ابنُ القيم: الإله. هو الذي تألهُه القلوبُ محبةً وإجلالاً، وإنابة وإكرامًا، وتعظيمًا وذُلاً، وخضوعًا وخوفًا، ورجاءً وتوكلاً.

وقال ابنُ رجب: الإله: هو الذي يُطاعُ فلا يُعصىٰ، هيبةً له وإجلالاً ومحبةً، وخوفًا ورجاءً وتوكلاً عليه، وسؤالاً منه ودعاءً له، ولا يصلح ذلك كلُّه إلاَّ لله عز وجل. فمن أشرك مخلوقًا في شيءٍ من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية، كان ذلك قدحًا في إخلاصه في قول: لا إله إلاَّ الله، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك.

وقال البِقَاعي: لا إله إلاَّ الله. أي: انتفىٰ انتفاءً عظيمًا أنْ يكون معبودٌ بحقٍ غير الملك الأعظم. فإنَّ هذا العِلْمَ هو أعظمُ الذِّكرىٰ المُنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون عِلْمًا إذا كان نافعًا، وإنما يكون نافعًا إذا كان مع الإذعان والعمل بما تقتضيه، وإلاَّ فهو جهلٌ صِرْف.

ولكننا نقول: إن اللَّه قد أعمىٰ بصائركم؛ فإنها لا تعمىٰ الأبصار ولكن تعمىٰ القلوب التي في الصدور؛ فمن المعلوم أن عيسىٰ عليه السلام كان يأكل الطعام، وهذا شيء معروف، ومن المعلوم أيضًا أن اليهود يقولون: إنهم صلبوه، وهل يمكن لمن كان جزءًا من الرب أن ينفصل عن الرب ويأكل ويشرب ويُدَّعَىٰ أنه قتل وصلب؟! وعلىٰ هذا تكون «من» للابتداء، وليست للتبعيض؛ فهي كقوله تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، فلا يمكن أن نقول الشمس والقمر والأنهار جزء من الله، وهذا لم يقل به أحد.

فقوله: «**منه**»؛ أي: روح صادرة من الله ـ عز وجل ـ وليست جزءًا من الله كما تزعم النصارىٰ.

واعلم أن ما أضافه الله إلىٰ نفسه ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

الأول: العين القائمة بنفسها وإضافتها إليه من باب إضافة المخلوق إلىٰ خالقه وهذه الإضافة قد تكون علىٰ سبيل عموم الخلق كقوله تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ [العنكبوت: ٥٦]. وقد تكون علىٰ سبيل الخصوص لشرفه؛ كقوله تعالىٰ: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ [البقرة: ١٢٥]. وكقوله تعالىٰ: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣]. وهذا القسم مخلوق.

الثاني: أن يكون شيئًا مضافًا إلىٰ عين مخلوقة يقوم بها، مثاله قوله تعالىٰ: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]. فإضافة هذه الروح إلىٰ اللَّه من باب إضافة المخلوق إلىٰ خالقه تشريفًا؛ فهي روح من الأرواح التي خلقها اللَّه، وليست جزءًا أو روحًا من اللَّه؛ إذ أن هذه الروح حلت في عيسىٰ عليه السلام، وهو عين منفصلة عن اللَّه، وهذا القسم مخلوق أيضًا.

الثالث: أن يكون وصفًا غير مضاف إلىٰ عين مخلوقة.

مثال ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]. فالرسالة والكلام أضيفا إلىٰ اللَّه من باب إضافة الصفة إلىٰ الموصوف، فإذا أضاف اللَّه لنفسه صفة؛ فهذه

وقال الطيبي: الإله: فعال بمعنى مفعول، كالكتاب بمعنى المكتوب، من أله إلهةً: أي: عَبَدَ عبادةً.

قال الشَّارحُ: وهذا كثيرٌ في كلام العلماء، وإجماعٌ منهم أنَّ الإلهَ هو المعبود، خلافًا لما يعتقدُه عُبَّادُ القبور وجهلةُ المتكلمين، من أنَّ معناه: هو الخالق والقادر على الاختراع، ونحو ذلك. ويظنون أنَّهم إذا قالوها فقد أتوا من التوحيد بالغاية القُصوى، ولو فعلوا ما فعلوا: من عبادة غير الله كدعوة الأموات، والاستغاثة بهم في الكربات والنذر لهم في المُلمَّات، إلى غير ذلك من أنواع العبادات. وما شعروا أنَّ مُشركي العرب وغيرهم يُشاركونهم في الإقرار بهذا المعنى، ويعتقدون أنَّ الله هو الخالقُ القادر على الاختراع، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]. فأخبر تعالى عنهم: أنَّهم اتخذوا الأولياء من دونه، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] فتبًّا لمن كان أبو جهلٍ ورؤوسُ الكفرِ من قريشٍ وغيرهم أعلَمَ منه بمعنى لا إله إلا الله!!

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦]. فعرفوا أنَّها تدلُّ على ترك عبادة معبوداتهم.

قلتُ: ودلالتُها على هذا دلالةُ تضمُّن، وأنَّ ذلك يقتضي إخلاص العبادة لله وحده. فدلالتُها على نفي الآلهة وعبادتها، وإفراد الله تعالى بالعبادة دلالةُ مُطابقةٍ.

فدلَّت لا إله إلاَّ الله على نفي العبادة عن كُلِّ ما سوى الله، كائنًا من كان، وإثبات الإلهية لله وحده، دون ما سواه: وهذا هو التوحيدُ الذي دعت إليه الرسلُ ودلَّ عليه القرآن من أوَّله إلى آخره؛ كما قال تعالى عن الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى

الصفة غير مخلوقة، وبهذا يتبين أن هذه الأقسام الثلاثة: قسمان منها مخلوقان، وقسم غير مخلوق. فالأعيان القائمة بنفسها والمتصلة بهذه الأعيان مخلوقة، والوصف الذي لم يذكر له عين يقوم بها غير مخلوق؛ لأنه يكون من صفات اللَّه، وصفات اللَّه غير مخلوقة.

وقد اجتمع القسمان في قوله: «كلمته، وروح منه»؛ فكلمته هذه وصف مضاف له، وعلى هذا؛ فتكون كلمته صفة من صفات اللَّه.

﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾: هذه أضيفت إلى عين؛ لأن الروح حلت في عيسى؛ فهي مخلوقة.

قوله: «أدخله اللَّه الجنة»: إدخاله الجنة ينقسم إلى قسمين:

الأول: إدخال كامل لم يسبق بعذاب لمن أتم العمل.

الثاني: إدخال ناقص مسبوق بعذاب لمن أنقص العمل.

فالمؤمن إذا غلبت سيئاته حسناته إن شاء اللَّه عذبه بقدر عمله، وإن شاء لم يعذبه، قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾.

الرُّشْد فَآمَنَّا به وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ [الجن: ١، ٢].

فلا إله إلاَّ الله: لا تنفع إلاَّ من عرف مدلولها نفيًا وإثباتًا، واعتقد ذلك، وقَبِلَه وعمل به.

وأمَّا من قالها عن غير علمٍ واعتقادٍ وعمل، فقد تقدَّم كلامُ العُلماء أنَّ هذا جهلٌ صِرْفٌ. فهو حجةٌ عليه، بلا ريب. فقوله في الحديث: «وحده لا شريك له». تأكيدٌ، وبيانٌ لمضمون معناها. وقد أوضح الله تعالىٰ ذلك، وبيَّنه في قصص الأنبياء والمرسلين في كتابه المُبين.

فما أجهل عُبَّادَ القُبور بحالهم!! وما أعظم ما وقعوا فيه. فإنَّ مُشركي العرب ونحوهم جحدوا لا إله إلاَّ الله، لفظًا ومعنىٰ، وهؤلاء المشركون أقرُّوا بها لفظًا، وجحدوها معنىٰ.

فتجد أحدَهم يقولُها وهو يألهُ غيرَ الله بأنواع العبادة، كالحُب والتعظيم، والخوف والرجاء، والتوكل والدعاء، وغير ذلك من أنواع العبادة. بل زاد شركُهم علىٰ شرك العرب بمراتب؛ فإنَّ أكثرهم إذا وقع في شدةٍ، أخلصَ الدعاءَ لغير الله تعالىٰ، ويعتقدون أنَّه أسرعُ فرجًا لهم. بخلاف حال المُشركين الأوَّلين، فإنهم يُشركون في الرخاء، وأمَّا في الشدائد فإنما يُخلصون لله وحده؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥] الآية. فبهذا تبيَّن: أنَّ مُشركي أهل هذه الأزمان، أجهلُ بالله وبتوحيده من مُشركي العرب، ومن قبلهم[١].

وقوله: «وأنَّ محمدًا عبده ورسوله» أي: وشهد بذلك، وهو معطوفٌ علىٰ ما قبله علىٰ نِيَّة تكرار العامل. ومعنىٰ: العبد، هنا: المملوكُ العابد. أي: أنَّه مملوكٌ لله تعالىٰ، والعبوديةُ الخاصة وصفُه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر: ٣٦] فأعلىٰ مراتب العبد، العبوديةُ الخاصة والرسالة. فالنبيُّ محمد ﷺ أكملُ الخلق في هاتين الصفتين الشريفتين. وأمَّا الربوبيةُ، والإلهية: فهما حقٌّ الله تعالىٰ، لا يُشاركه في شيءٍ منها مَلَكٌ مقرب، ولا نبيٌّ مرسل.

وقوله: «عبدُه ورسوله» أتىٰ بهاتين الصفتين، وجمعهما دفعًا للإفراط والتفريط.

فإنَّ كثيرًا ممَّن يدَّعي أنَّه من أُمَّته: أفرط بالغلو قولاً وفعلاً، وفرَّط بترك مُتابعته، واعتمد علىٰ

(١) في قرة العيون (قلت): وهؤلاء المتأخرون جهلوا معنى الإله وقلبوا حقيقة المعنى إلى معنى توحيد الربوبية وهو القدرة على الاختراع فأثبتوا ما نفته (لا إله إلا الله) من الشرك وأنكروا ما أثبتته من إخلاص العبادة لله جهلاً منهم؛ وقد قال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢] قال محيي الدين النووي: اعلم أن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد ضيع من أزمان متطاولة ولم يبق في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جدًا وهو باب عظيم، به قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح.

وقوله: في هذه الأزمان يعني القرن الخامس والسادس، وإذا كان كذلك فما الظن بالقرن العاشر وما بعده وقد استحكمت فيها الغربة. ولشيخنا محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في تفسير هذه الكلمة كلام بديع واضح لم يسبق إلى مثله فليراجع لمسيس الحاجة إليه. (ق).

الآراء المخالفة لما جاء به، وتعسَّف في تأويل أخباره وأحكامه، بصرفها عن مدلولها، والصَّدْف عن الانقياد لها مع اطِّراحها. فإنَّ شهادة أنَّ محمدًا عبدُه ورسوله تقتضي الإيمانَ به، وتصديقَه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاءَ عمَّا عنه زجر، وأنْ يُعظِّم أمرُه ونهيُه، ولا يُقدَّمَ عليه قولُ أحدٍ كائنًا من كان[1]. والواقعُ اليومَ وقبلَه خلاف ذلك! فالله المُستعان.

وروىٰ الدَّارميُّ في (مُسنده) عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه، أنه كان يقول: إنَّا لنجدُ صفةَ رسول الله ﷺ: إنَّا أرسلناك شاهدًا ومُبشرًا ونذيرًا وحِرزًا للأُمِّيين. أنت عبدي ورسولي، سمَّيتُه المتوكِّل، ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا سخَّابٍ بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلَها، ولكن يعفو ويتجاوز. لن أقبضه حتىٰ يُقيم الملَّة المتعوِّجة، بأن يشهدوا أن لا إله إلاَّ الله، يُفتح بها أعينًا عُميًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلفًا.

قال عطاءُ بن يَسار: وأخبرني أبو واقد الليثي، أنَّه سمع كعبًا يقول مثل ما قال ابنُ سلام[2][3].

قوله: «وأنَّ عيسى عبدُ الله ورسولُه» أي: خلافًا لما يعتقدُه النصارىٰ، أنَّه الله، أو ابنُ الله، أو ثالثُ ثلاثة[4]. تعالىٰ الله عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا ﴿**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ**﴾ [المؤمنون: ٩١]. فلابُدَّ أنْ يشهد أنَّ عيسىٰ عبدُ الله ورسوله. علىٰ علمٍ ويقين بأنه مملوكٌ لله، خلَقه من أُنثىٰ بلا ذكر؛ كما قال تعالىٰ: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [آل عمران: ٥٩]. فليس ربًّا ولا إلهًا، سبحان الله عما يشركون. قال تعالىٰ: ﴿**فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ**

---

(١) في قرة العيون: وأن لا تعارض بقول أحد لأن غيره ﷺ يجوز عليه الخطأ والنبي ﷺ قد عصمه الله تعالى، وأمرنا بطاعته والتأسي به وتوعدنا على ترك طاعته بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] الآية. وقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: (أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك؛ لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك). وقد وقع التفريط في المتابعة وتركها وتقديم أقوال من يجوز عليهم الخطأ على قوله ﷺ لا سيما من العلماء كما لا يخفى. (ق).

(٢) رواه الدارمي في سننه (٦).

(٣) آخر رواية الدارمي (ج١ص٥) وفي الرواية عن كعب (نجده مكتوبًا في التوراة). (ق).

(٤) في قرة العيون: فيه بيان الحق الذي يجب اعتقاده كما في الآيات المحكمات وما فيها من الرد على كفار النصارى وهم ثلاث طوائف: طائفة قالوا: إن عيسى هو الله؛ وطائفة قالوا: ابن الله؛ وطائفة قالوا: ثالث ثلاثة. يعنون عيسى وأمه. فبين الله تعالى في كتابه الحق وأبطل الباطل فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١] والآيات بعدها. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] في مواضع من سورة المائدة وأخبر تعالى عما قاله المسيح عليه السلام وهو في المهد. (ق).

. . . .

نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩، ٣٠].[1] وقال: ﴿لن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢]. ويشهدُ المؤمنُ أيضًا ببطلان قول أعدائه اليهود: أنَّه ولدُ بغيٍّ، لعنهم الله. فلا يصحُّ إسلامُ أحدٍ، حتى يتبرأَ من قول الطائفتين جميعًا في عيسى عليه السلام، ويعتقد ما قاله الله تعالى فيه: أنَّه عبدُ الله ورسوله.

قوله: «وكلمتُه» إنما سُمِّي عيسى عليه السلام كلمتَه؛ لوجوده بقوله: كُن كما قاله السلفُ من المُفسرين. قال الإمامُ أحمد في (الرَّد على الجهمية)[2]: الكلمةُ التي ألقاها إلى مريم حين قال له: كُن. فكان عيسى بكن، وليس عيسى هو: كن. ولكن كان بكُن. فكُن من الله تعالى قولاً، وليس: كُن. مخلوقًا. وكذبَ النصارى والجهميةُ على الله في أمر عيسى. انتهى.

وقوله: «ألقاها إلى مريم». قال ابنُ كثير: خلَقه بالكلمة التي أُرسل بها جبرائيلُ عليه السلام إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بأمر ربه عزَّ وجل، فكان عيسى بإذن الله عزَّ وجل. فهو ناشئٌ عن الكلمة - التي قالها له: كُن، فكان - والروح التي أُرسل بها جبرائيل عليه السلام.

قوله: «وروحٌ منه»[3] قال أُبيُّ بن كعب: عيسى روحٌ من الأرواح التي خلقها الله تعالى،

. . . .

(١) في قرة العيون: فبين تعالى الصراط المستقيم الذي من سلكه نجا ومن خرج منه هلك وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران: ٥٩] فبين تعالى الصراط المستقيم بيانًا شافيًا ووافيًا وأقام حججه على توحيده فأحق الحق وأبطل الباطل ولو كره المشركون. (ق).

(٢) صفحة ٢٠ طبعة عيسى الحلبي وأولاده في باب: ثم إن الجهمي ادعى أمرًا فقال: إنا وجدنا آية في كتاب الله تدل على أن القرآن مخلوق. فقلنا: أي آية؟ قال قول الله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١] وعيسى مخلوق. (ق).

(٣) الظاهر أن معنى (وروح منه) أنه كغيره من بني آدم الذي يقول الله فيه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[الحجر: ٢٩] كما مثل له في الآية الأخرى بأنه مثل آدم. والله أعلم.

وقال في قرة العيون: أي من الأرواح التي استخرجها من صلب آدم عليه السلام وأخذ عليها العهد أنه تعالى ربهم وإلههم كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾[الأعراف: ١٧٢] الآية. وروح عيسى من تلك الأرواح التي خلقها الله تعالى. وذكر ابن جرير عن وهب بن منبه قال: (نفخ جبريل في جيب درع مريم حتى وصلت النفخة إلى الرحم فاشتملت عليه) وعن السدي أن النفخة دخلت في صدرها فحملت، وقال ابن جريج: يقولون: إنما نفخ في جيب درعها وكمها انتهى مختصرًا. فجبريل نفخ والله خلق بقول: (كن) فكان. كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[الحجر: ٢٩] فسبحان من لا يخلق غيره ولا يُعبد سواه.

وقد أورد بعض النصارى على بعض علماء المسلمين قول الله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[النساء: ١٧١]. =

. . . .

واستنطقها بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] بعثه الله إلىٰ مريم، فدخل فيها. رواه عبدُ ابن حُميد، وعبد الله بن أحمد في زوائد (المسند)، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وغيرُهم.

قال الحافظ: ووصْفه بأنَّه منه، المعنىٰ: أنَّه كائنٌ منه؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] فالمعنىٰ: أنَّه كائنٌ منه؛ كما أنّ معنىٰ الآية الأُخرىٰ: أنَّه سخَّر هذه الأشياء كائنةً منه. أي: أنَّه مُكوِّنُ ذلك وموجِدُه بقَدَرِه وحكمته.

قال شيخ الإسلام: المضافُ إلىٰ الله تعالىٰ إذا كان معنىً لا يقوم بنفسه ولا بغيره من المخلوقات، وجب أنْ يكون صفةً لله تعالىٰ قائمةً به، وامتنع أنْ تكون إضافتها إضافةَ مخلوقٍ مربوب. فإذا كان المضافُ عينًا قائمةً بنفسها: كعيسىٰ، وجبرائيل عليهما السلام، وأرواح بني آدم، امتنع أنْ تكون صفةً لله تعالىٰ؛ لأن ما قام بنفسه لا يكون صفةً لغيره. لكنّ الأعيان المضافة إلىٰ الله علىٰ وجهين:

أحدُهما: أنْ تُضاف إليه؛ لكونه خلقَها وأبدعها. فهذا شاملٌ لجميع المخلوقات، كقولهم: سماءُ الله، وأرضُ الله. فجميع المخلوقين عبيدُ الله، وجميع المال مالُ الله.

الوجه الثاني: أنْ يُضاف إليه؛ لما خصَّهُ به من معنىً يُحبُّه ويأمر به ويرضاه، كما خصَّ البيتَ العتيق بعبادةٍ فيه لا تكون في غيره، وكما يُقال عن مال الفيءِ والخُمُسْ: هو مالُ الله ورسوله.

ومن هذا الوجه: فعبادُ الله هم الذين عبدوه وأطاعوا أمره، فهذه إضافةٌ تتضمن أُلوهيَّتَه وشرعه ودينه، وتلك إضافةٌ تتضمن ربوبيَّته وخلْقه. انتهىٰ ملخصًا.

قوله: «والجنَّة حقٌّ والنَّارَ حقٌّ». أي: وشهد أنَّ الجنة التي أخبر بها تعالىٰ في كتابه أنَّه أعدَّها للمُتقين حقٌّ ثابتةٌ لا شك فيها، وشهد أنَّ النار التي أخبر بها تعالىٰ في كتابه أنَّه أعدَّها للكافرين حقٌّ

. . . .

= فقال في الجواب: هذا ليس خاصًا بعيسى عليه السلام بل المخلوقات كذلك كلها. كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] أي خلقًا وإيجادًا وعيسى كذلك خلقه وأوجده كسائر مخلوقاته. وفي هذا الحديث الرد على اليهود أعداء الله وأعداء أنبيائه ورسله فإنهم كانوا هم والنصارى على طرفي نقيض فنسبوه إلى أنه ولد بغي، قاتلهم الله. فأكذبهم الله تعالى في كتابه وأبطل قولهم كما أبطل قول الغلاة من النصارى فيما تقدم من الآيات ونحوها.

فالنصارى غلوا في عيسى ابن مريم عليه السلام أعظم الغلو والكفر والضلال، واليهود جفوا في حقه غاية الجفاء، وكلاهما قد ضل ضلالاً بعيدًا، نبه الله تعالى في مواضع كثيرة من كتابه وبين تعالى الحق والصدق ورفع قدر المسيح عليه السلام وجعله من أولي العزم الخمسة المذكورين في سورة (الأحزاب: ٧ والشورى: ١٣) وأمر نبيه ﷺ أن يصبر كما صبروا فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] فهم أفضل الرسل على التحقيق والنبي ﷺ أفضلهم صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. (ق).

ولهما، في حديث عِتْبان: «فإنَّ الله حرّم على النار من قال: لا إله إلاَّ الله يبتغي بذلك وجهَ الله»(١).

كذلك ثابتةٌ كما قال تعالىٰ: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] وفي الآيتين ونظائرهما: دليلٌ علىٰ أنَّ الجنة والنار مخلوقتان الآن، خلافًا للمبتدعة(٢). وفيهما: الإيمانُ بالمعاد.

قوله: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل». هذه الجملةُ جوابُ الشرط، وفي رواية: «**أدخله الله الجنة من أي أبواب الجنة الثمانية شاء**».

قال الحافظ: ومعنىٰ قوله: «**على ما كان من العمل**» أي: من صلاحٍ أو فساد، لكنَّ أهلَ التوحيد لابُدَّ لهم من دخول الجنّة. ويحتملُ أنْ يكون معنىٰ قوله: «**على ما كان من العمل**» أي: يدخل أهلُ الجنة الجنة علىٰ حَسَب أعمال كلٍّ منهم في الدرجات. انتهىٰ.

قال القاضي عياض: ما ورد في حديث عُبادة يكون خصوصًا لمن قال ما ذكره النبيُّ ﷺ، وقَرَن بالشهادتين حقيقةَ الإيمان والتوحيد الذي ورد في حديثه، فيكون له من الأجر ما يرجحُ علىٰ سيئاته، ويوجبُ له المغفرة والرحمة، ودخول الجنة لأوَّل وهْلة.

قال العلاَّمةُ ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: والمقصود أنَّ كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمنُ عارفًا لمعناها وحقيقته نفيًا وإثباتًا، مُتصفًا بموجبها قائمًا قلبه ولسانُه وجوارحه بشهادته، فهذه الكلمةُ من هذا الشاهد. أصلُها ثابتٌ راسخ في قلبه، وفروعُها متصلةٌ في السماء، وهي مخرجةٌ لثمرتها كلَّ وقت. انتهىٰ.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالىٰ: ولهما، في حديث عِتْبان: «فإنَّ الله حرّم على النار من قال: لا إله إلاَّ الله يبتغي بذلك وجهَ الله».

قوله: (ولهما): أي: للبخاري، ومسلم في (صحيحيهما) بكماله.

قوله: «عتبان»: هو عتبان بن مالك الأنصاري رضي اللّه عنه، كان يصلي بقومه، فضعف بصره وشق عليه الذهاب إليهم، فطلب من النبي ﷺ أن يخرج إليه وأن يصلي في مكان من بيته ليتخذه مصلىٰ، فخرج إليه النبي ﷺ ومعه طائفة من أصحابه، منهم أبو بكر وعمر رضي اللّه عنهما، فلما دخل البيت، قال: «**أين تريد أن أصلي؟**». قال: صلِّ ها هنا، وأشار إلىٰ ناحية من

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٢٥، ١١٨٦، ٥٤٠١، ٦٤٢٢، ٦٩٣٨)، (ومسلم ٣٣).

(٢) في قرة العيون: ومن لم يؤمن بالجنة والنار فقد كفر بالقرآن والرسل فإن الله تعالى بين الجنة وما أعد فيها من النعيم المقيم، وذكر أنها دار المتقين، وذكر النار وما فيها من العذاب وأنه أعدها لمن كفر به وأشرك. (ق).

. . . .

وهذا طرفٌ من حديث طويل، أخرجه الشيخان(١).

و: عِتبان: بكسر المهملة، بعدها مُثنَّاة فوقية، ثم موحَّدة: ابنُ مالك بن عمرو بن العجلان الأنصاري، من بني سالم بن عوف، صحابيٌّ مشهور، مات في خلافة معاوية.

وأخرجه البخاريُّ في (صحيحه) بسنده، عن قتادة، قال: حدثنا أنس بن مالك، أنَّ النبي ﷺ ومُعاذٌ

البيت، فصلى بهم النبي ﷺ ركعتين، ثم جلس على طعام صنعوه له، فجعلوا يتذاكرون، فذكروا رجلاً يقال له: مالك بن الدُّخشُم، فقال بعضهم: هو منافق. فقال رسول اللّه ﷺ: «**لا تقل هكذا؛**

(١) في قرة العيون: اختصره المصنف وذكر منه ما يناسب الترجمة وهو قوله: (من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله) وهذا هو حقيقة معناها الذي دلت عليه هذه الكلمة من الإخلاص ونفي الشرك، والصدق والإخلاص متلازمان لا يوجد أحدهما بدون الآخر، فإن لم يكن مخلصًا فهو مشرك ومن لم يكن صادقًا فهو منافق، والمخلص أن يقولها مخلصًا الإلهية لمن لا يستحقها غيره وهو الله تعالى، وهذا التوحيد هو أساس الإسلام الذي قاله الخليل عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] وقال الخليل عليه السلام: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩] والحنيف هو الذي ترك الشرك رأسًا وتبرأ منه وفارق أهله وعاداهم وأخلص أعماله الباطنة والظاهرة لله وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢] فإسلام الوجه هو إخلاص العبادة المنافي للشرك والنفاق وهو معنى الآية ونحوها إجماعًا. فهذا هو الذي يعنيه قوله: (لا إله إلا الله) ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ وهذا بخلاف من يقولها وهو يدعو غير الله ويستغيث به من ميت أو غائب لا ينفع ولا يضر، كما ترى عليه أكثر الخلق، فهؤلاء وإن قالوها فقد تلبسوا بما يناقضها؛ فلا تنفع قائلها إلا بالعلم بمدلولها نفيًا وإثباتًا. والجاهل بمعناها وإن قالها لا تنفعه لجهله لما وضعت له الوضع العربي الذي أريد منها من نفي الشرك، وكذلك إذا عرف معناها بغير تيقن له، فإذا انتفى اليقين وقع الشك.

ومما قيدت به في الحديث قوله ﷺ: «غير شاك» فلا تنفع إلا من قالها بعلم ويقين لقوله: «صدقًا من قلبه، خالصًا من قلبه» وكذلك من قالها غير صادق في قوله. فإنها لا تنفعه لمخالفة القلب اللسان كحال المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم. وكذلك حال المشرك فلا تقبل من مشرك لمنافاة الشرك للإخلاص؛ ولما دلت عليه هذه الكلمة مطابقة فإنها دلت على نفي الشرك والبراءة منه والإخلاص لله وحده لا شريك له مطابقة. ومن لم يكن كذلك لم ينفعه قوله (لا إله إلا الله) كما هو حال كثير من عبدة الأوثان يقولون (لا إله إلا الله) وينكرون ما دلت عليه من الإخلاص ويعادون أهله وينصرون الشرك وأهله وقال الخليل عليه السلام لأبيه وقومه: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٦- ٢٨] وهي (لا إله إلا الله) وقد عبر عنها الخليل بمعناها الذي وضعت له ودلت عليه، وهو البراءة من الشرك وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له كما تقدم تقريره، وكذلك من قالها ولم يقبل ما دلت عليه من الإخلاص كان قوله لهذه الكلمة كذبًا منه بل قد عكس مدلولها فأثبت ما نفته من الشرك ونفي ما أثبتته من الإخلاص.

فهذا الذي ذكرناه هو حال الأكثرين من هذه الأمة بعد القرون الثلاثة، وسبب ذلك الجهل بمعناها واتباع الهوى فيصده عن اتباع الحق وما بعث الله به رسله من توحيده الذي شرعه لعباده ورضيه لهم. (ق).

. . . .

رديفُه علىٰ الرَّحْل ـ قال: «**يا مُعاذُ!**» قال: لبَّيك يا رسول الله وسَعْدَيْك، قال: «**يا معاذُ!**» قال: لبَّيك يا رسول الله وسعديك، قال: «**يا معاذ!**» قال: لبيك يا رسول الله وسعديك ـ ثلاثًا ـ قال: «**ما من أحد يشهدُ أنْ لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمداً رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرَّمه الله تعالى على النار**» قال: يا رسول الله، أفلا أُخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: «**إذًا يتَّكلوا**» فأخبر بها معاذٌ عند موته تأثُّمًا[1]. وساق بسند آخر: حدثنا معتمر، قال: سمعتُ أبي، قال: سمعتُ أنسًا، قال: ذُكر لي أنَّ النبيﷺ قال لمعاذ بن جبل: «**من لقي الله لا يُشرك به شيئًا دخل الجنة**» قال: أفلا أُبشِّرُ الناس؟ قال: «**لا؛ إني أخاف أن يتكلوا**»[2].

قلتُ: فتبينَّ بهذا السياق معنىٰ شهادةِ أنْ لا إله إلاَّ الله، وأنها تتضمن ترك الشرك لمن قالها بصدقٍ ويقين وإخلاص.

قال شيخُ الإسلام ـ وغيره ـ في هذا الحديث ونحوه: إنها فيمن قالها ومات عليها؛ كما جاءت مقيدةً بقوله: «خالصًا من قلبه غيرَ شاك فيها، بصدق ويقين».

فإنَّ حقيقة التوحيد انجذابُ الروح إلىٰ الله تعالىٰ جملةً، فمن شهد أنْ لا إله إلا الله خالصًا من قلبه دخل الجنة؛ لأنَّ الإخلاص هو انجذابُ القلب إلىٰ الله تعالىٰ بأن يتوبَ من الذنوب توبة نصوحًا. فإذا مات علىٰ تلك الحال نال ذلك؛ فإنه قد تواترت الأحاديثُ بأنه يخرجُ من النار من قال: لا إله إلاَّ الله، وكان في قلبه من الخير ما يزنُ شعيرةً، وما يزنُ خردلةً، وما يزن ذرَّةً[3]. وتواترت بأنَّ كثيراً ممن يقول: لا إله إلاَّ الله، يدخل ثم يخرج منها.

وتواترت بأن الله حرَّم علىٰ النار أنْ تأكل أثرَ السجود من ابن آدم؛ فهؤلاء كانوا يُصلّون، ويسجدون لله. وتواترت بأن الله يُحرِّمُ علىٰ النار من قال: لا إله إلاَّ الله وشهد أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، لكن جاءت مقيّدةً بالقيود الثِّقال. وأكثرُ من يقولها لا يعرف الإخلاص!، وأكثر من يقولها إنَّما يقولها تقليداً أو عادةً، ولم يخالط الإيمانُ بشاشةَ قلبه!

وغالبُ من يُفتنُ عند الموت وفي القبور أمثالُ هؤلاء؛ كما في الحديث: «**سمعتُ الناس يقولون شيئًا فقُلْتُه**»[4][5] وغالبُ أعمال هؤلاء إنَّما هو تقليدٌ واقتداءٌ بأمثالهم، وهم من أقرب الناس من قوله تعالىٰ:

أليس قال: لا إله إلا اللَّه يريد بذلك وجه اللَّه؟!». ثم قال: «**فإن اللَّه حرم على النار...**»[6] الحديث.

فنهاهم أن يقولوا هكذا؛ لأنهم لا يدرون عما في قلبه؛ لأنه يشهد أن لا إله إلا اللَّه، وهنا الرسول

---

(١) **صحيح:** وقد تقدم تخريجه. (٢) **صحيح:** رواه البخاري (١٢٩).

(٣) **صحيح:** رواه البخاري (٧٤١٠)، ومسلم (١٩٣).

(٤) في حديث البراء بن عازب الذي رواه أصحاب السنن وغيرهم في سؤال القبر. **(ق)**.

(٥) **صحيح:** رواه البخاري (٩٦) ومواضع، ومسلم (٩٠٥).

(٦) **متفق عليه:** رواه البخاري (٤٢٥، ٥٤٠١)، ومسلم (٣٣).

. . . .

﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] وحينئذٍ فلا مُنافاة بين الأحاديث.

فإنَّه إذا قالها بإخلاصٍ ويقين تام، لم يكن في هذه الحال مُصراً على ذنب أصلاً؛ فإنَّ كمال إخلاصه ويقينه يوجبُ أنْ يكون الله أحبَّ إليه من كل شيء، فإذن لا يبقىٰ في قلبه إرادةٌ لما حرَّم الله ولا كراهةٌ لما أمر الله. وهذا هو الذي يَحرُم علىٰ النار، وإنْ كانت له ذنوبٌ قبل ذلك. فإنَّ هذا الإيمان وهذا الإخلاص، وهذه التوبة وهذه المحبة وهذا اليقين، لا يتركون له ذنبًا إلاَّ مُحي عنه كما يمحو الليلُ النهار. فإذا قالها علىٰ وجه الكمال المانعِ من الشرك الأكبر والأصغر، فهذا غيرُ مصرٍّ علىٰ ذنبٍ أصلا، فيُغفر له ويحرم علىٰ النار. وإنْ قالها علىٰ وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر، ولم يأتِ بعدها بما يناقضُ ذلك، فهذه الحسنةُ لا يقاومها شيءٌ من السيئات. فيرجح بها ميزانُ الحسنات؛ كما في حديث البطاقة[1]، فيحرم علىٰ النار، ولكن تنقص درجتُه في الجنة بقدر ذنوبه. وهذا بخلاف من رجحت سيئاتُه بحسناته، ومات مُصرًّا علىٰ ذلك. فإنَّه يستوجب النار، وإنْ قال: لا إله إلاَّ الله، وخلص بها من الشرك الأكبر، لكنَّه لم يمت علىٰ ذلك، بل أتىٰ بعد ذلك بسيئاتٍ رجحت علىٰ حسنةِ توحيده. فإنه في حال قولها كان مُخلصًا، لكنه أتىٰ بذنوبٍ أوهنت ذلك التوحيد والإخلاص فأضعفته، وقويت نارُ الذنوب حتىٰ أحرقت ذلك. بخلاف المُخلص المستيقن؛ فإنَّ حسناته لا تكون

قال هكذا، ولم يبرئ الرجل، إنما أتىٰ بعبارة عامة بأن اللَّه حرم علىٰ النار من قال: لا إله إلا اللَّه يبتغي بذلك وجه اللَّه، ونهىٰ أن نطلق ألسنتنا في عباد اللَّه الذين ظاهرهم الصلاح، ونقول: هذا مراءٍ، هذا فاسق، وما أشبه ذلك؛ لأننا لو أخذنا بما نظن فسدت الدنيا والآخرة؛ فكثير من الناس نظن بهم سوءًا، ولكن لا يجوز أن نقول ذلك وظاهرهم الصلاح. ولهذا قال العلماء: يحرم ظن السوء بمسلم ظاهره العدالة.

قوله: «فإن اللَّه حرم على النار»: أي: منع من النار، أو منع النار أن تصيبه.

قوله: «من قال: **لا إله إلا اللَّه**»: أي: بشرط الإخلاص، بدليل قوله: «**يبتغي بذلك وجه اللَّه**»؛ أي: يطلب وجه اللَّه، ومن طلب وجهًا؛ فلا بد أن يعمل كل ما في وسعه للوصول إليه؛ لأن مبتغي الشيء يسعىٰ في الوصول إليه، وعليه؛ فلا نحتاج إلىٰ قول الزهري رحمه اللَّه بعد أن ساق الحديث؛ كما في «صحيح مسلم»؛ حيث قال: «ثم وجبت بعد ذلك أمور، وحرمت أمور؛ فلا يغتر مغتر بهذا»؛ فالحديث واضح الدلالة علىٰ شرطية العمل لمن قال: لا إله إلا اللَّه، حيث قال: «**يبتغي بذلك وجه اللَّه**»، ولذا قال بعض السلف عند قول النبي ﷺ: «**مفتاح الجنة: لا إله إلا اللَّه**»[2]: لكن من أتىٰ بمفتاح لا أسنان له لا يفتح له.

---

(١) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٣٥)، والمشكاة (٥٥٥٩)، والتعليق الرغيب (٢/ ٢٤٠-٢٤١).

(٢) رواه البخاري تعليقًا في كتاب الجنائز باب ما جاء في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله.

. . . .

إلاَّ راجحةً علىٰ سيئاته، ولا يكون مُصراً علىٰ سيئات، فإنْ مات علىٰ ذلك دخل الجنة.

وإنَّما يُخاف علىٰ المخلص أنْ يأتي بسيئةٍ راجحة، فيضعُف إيمانُه فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات. ويُخشىٰ عليه من الشرك الأكبر والأصغر، فإنْ سَلِم من الأكبر بقي معه من الأصغر، فيُضيف إلىٰ ذلك سيئاتٍ تنضمُّ إلىٰ هذا الشرك، فيرجح جانبُ السيئات.

فإنَّ السيئات تُضعف الإيمان واليقين، فيضعف قولُ: لا إله إلا الله، فيمتنع الإخلاصُ بالقلب، فيصير المتكلمُ بها كالهاذي أو النائم، أو من يُحسِّن صوته بآيةٍ من القرآن من غير ذوقٍ وحلاوةٍ. فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين، بل يأتون بعدها بسيئات تنقُض ذلك، بل يقولونها من غير يقينٍ وصدق، ويموتون علىٰ ذلك، ولهم سيئاتٌ كثيرة تمنعهم من دخول الجنة.

وإذا كثُرت الذنوبُ ثقُل علىٰ اللسان قولُها، وقسا القلب عن قولها، وكره العمل الصالح، وثقُل عليه سماعُ القرآن، واستبشر بذكر غيره، واطمأنَّ إلىٰ الباطل، واستحلىٰ الرَّفث، ومخالطة أهل الباطل، وكره مخالطة أهل الحق. فمثلُ هذا إذا قالها، قال بلسانه ما ليس في قلبه، وبفيه ما لا يصدِّقهُ عملهُ.

قال الحسن: ليس الإيمانُ بالتحلّي ولا بالتمني، ولكن ما وقَر في القلوب وصدَّقته الأعمال. فمن قال خيراً وعمل خيراً قُبل منه، ومن قال خيراً وعمل شراً لم يُقبل منه[1].

وقال بكرُ بن عبد الله المُزَنيُّ: ما سبقهم أبو بكرٍ رضي الله عنه بكثرة صيامٍ ولا صلاة، ولكن بشيءٍ وقَر في قلبه.

فمن قال: لا إله إلاَّ الله، ولم يقُم بموجَبها، بل اكتسب مع ذلك ذنوبًا، وكان صادقًا في قولها

قال شيخ الإسلام: إن المبتغي لا بد أن يُكمل وسائل البُغية، وإذا أكملها حرمت عليه النار تحريمًا مطلقًا، فإذا أتىٰ بالحسنات علىٰ الوجه الأكمل؛ فإن النار تحرم عليه تحريمًا مطلقًا، وإن أتىٰ بشيء ناقص فإن الابتغاء فيه نقص، فيكون تحريم النار عليه فيه نقص، لكن يمنعه ما معه من التوحيد من الخلود في النار، وكذا من زنىٰ، أو شرب الخمر، أو سرق، فإذا فعل شيئًا من ذلك ثم قال حين فعله: أشهد أن لا إله إلا اللَّه أبتغي بذلك وجه اللَّه؛ فهو كاذب في زعمه؛ لأن النبي ﷺ قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[2]، فضلاً عن أن يكون مبتغيًا وجه اللَّه. وفي الحديث رد علىٰ المرجئة الذين يقولون: يكفي قول: لا إله إلا اللَّه، دون ابتغاء وجه اللَّه.

وفيه ردٌّ علىٰ الخوارج والمعتزلة؛ لأن ظاهر الحديث أن من فعل هذه المحرمات لا يخلَّد في النار، لكنه مستحق للعقوبة، وهم يقولون: إن فاعل الكبيرة مخلد في النار.

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٨٠).

(٢) **متفق عليه:** رواه البخاري (٢٤٧٥) ومواضع، ومسلم (٥٧)، وأبو داود (٤٦٨٩)، والترمذي (٢٦٢٥)، والنسائي (٤٨٧٠) ومواضع، وابن ماجه (٣٩٣٦)، وأحمد (٨٦٧٨، ٩٨٥٩، ١٤٣٢١).

وعن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «قال موسى: يا ربِّ علِّمني شيئًا أذكُرك وأدعوك به. قال: قُل يا موسى:

موقنًا بها ـ لكن له ذنوبٌ أضعفت صدقه ويقينه ـ وانضاف إلى ذلك الشركُ الأصغر العملي: رجحت هذه السيئاتُ على هذه الحسنة، ومات مُصرًا على الذنوب.

بخلاف من يقولُها بيقين وصدق؛ فإنَّه: إمَّا أنْ لا يكون مُصرًا على سيئةٍ أصلا، أو يكون توحيدُه ـ المتضمِّن لصدقه ويقينه ـ رجَّح حسناته.

والذين يدخلون النار ممن يقولها: لم يقولوها بالصدق واليقين التامَّين المُنافيين للسيئات، أو لرُجحانها، أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئاتٍ رجحت على حسناتهم، ثم ضعُف لذلك صدقُهم ويقينهم، ثم لم يقولوها بعد ذلك بصدقٍ ويقين تام؛ لأنَّ الذنوب قد أضعفت ذلك الصدق واليقين من قلوبهم. فقولُها من مثل هؤلاء: لا يقوى على محو السيئات، فترجحُ سيئاتهم على حسناتهم. انتهى مُلخصًا.

وقد ذكر هذا كثيرٌ من العُلماء: كابن القيِّم، وابن رجب، وغيرهم.

قلتُ: وبما قرَّره شيخُ الإسلام رحمه الله تعالى، تجتمع الأحاديث. قال: وفي الحديث دليلٌ على أنَّه لا يكفي في الإيمان النطقُ من غير اعتقاد، وبالعكس. وفيه: تحريمُ النار على أهل التوحيد الكامل. وفيه: أنَّ العمل لا ينفعُ إلاَّ إذا كان خالصًا لله تعالى.

تنبيه: قال القُرطبي في (تذكرته): قولهُ في الحديث: «من إيمان» أي: من أعمال الإيمان التي هي من أعمال الجوارح، فيكون فيه دلالةٌ على أنَّ الأعمال الصالحة من الإيمان.

والدليلُ على أنَّه أراد بالإيمان ما قلناه ـ ولم يُرد مجرَّد الإيمان الذي هو التوحيدُ، ونفي الشركاء والإخلاص بقوله: لا إله إلا الله ـ ما في الحديث نفسه، من قوله: «أخرجوا». ثم بعد ذلك «يقبضُ سبحانه قبضةً فيُخرج قومًا

باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

لما ذكر في الترجمة السابقة وجوب التوحيد، وأنه الفرض الأعظم على جميع العبيد ذكر هنا فضله وهو آثاره الحميدة ونتائجه الجميلة، وليس شيء من الأشياء له من الآثار الحسنة والفضائل المتنوعة مثل التوحيد؛ فإن خير الدنيا والآخرة من ثمرات هذا التوحيد وفضائله.

فقول المؤلف رحمه الله: (وما يكفر من الذنوب) من باب عطف الخاص على العام فإن مغفرة الذنوب وتكفير الذنوب من بعض فضائله وآثاره كما ذكر شواهد ذلك في الترجمة.

ومن فضائله: أنه السبب الأعظم لتفريج كربات الدنيا والآخرة ودفع عقوباتهما.

قوله: «أذكرك وأدعوك به». صفة لشيء، وليست جواب الطلب؛ فموسى عليه السلام طلب شيئًا يحصل به أمران:

لا إله إلا الله. قال: كلُّ عبادك يقولـون هذا. قال: يا موسى لو أنَّ السموات السبع وعـامرهُنَّ غيـري، والأرضين السبع في كـفة، ولا إله إلاَّ الله في كفـة، مالت بهن لا إله إلا الله»(١) رواه ابنُ حبـان، والحاكم وصحـحه.

لم يعملوا خيراً قط»(٢) يُريد بذلك: إلاَّ التوحيد المجرَّد من الأعمال. انتهى ملخصًا من (شرح سنن ابن ماجه).

قال المُصنِّفُ رحـمه الله تعـالى: وعن أبي سعـيد الخُدريِّ رضي الله عنـه، عن رسول الله ﷺ، قال: «قـال موسى: يا ربِّ علِّمنـي شـيئًا أذكُـرك وأدعـوك به. قـال: قُـل يا مـوسـى: لا إله إلا الله. قال: كلُّ عـبادك يقولون هذا. قـال: يا موسى لو أنَّ السموات الـسبع وعامرهُنَّ غـيري، والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلاَّ الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله» رواه ابنُ حبان، والحاكم وصححه.

أبو سعيدٍ، اسمُه: سعد بن مالكٍ بن سنان بن عبيد الأنصاريُّ الخزرجي، صحابيٌّ جليل، وأبوه كذلك. استُصغِر أبو سعيدٍ بأُحد، وشهد ما بعدها. مات بالمدينة سنة ـ ثلاثٍ أو أربع أو خمس ـ وستين. وقيل: سنة أربع وسبعين.

قوله: «أذكرك» أي: أُثني عليك. «وأدعوك» أي: أسألك به.

قوله: «قُل يا مـوسى: لا إله إلاَّ الله»(٣) فيه: أنَّ الذاكر يقولُها كلَّها، ولا يقتصر على لفظ الجلالة، ولا على (هو)، كما يفعلُه غُلاة جهّالِ المتصوفة؛ فإنَّ ذلك بدعةٌ وضلالة.

---

١ ـ ذكر اللَّه. ٢ ـ دعاؤه.

فأجابه اللَّه بقوله: «قل لا إله إلا اللَّه»، وهذه الجملة ذكر متضمن للدعاء؛ لأن الذاكر يريد رضا اللَّه عنه، والوصول إلى دار كرامته، إذًا؛ فهو ذكر متضمن للدعاء، قال الشاعر:

أأذكر حـاجتي أم قـد كـفـاني حِـبـاؤك إن شـيـمتك الحِـبـاء

يعني: عطاؤك.

---

(١) رواه الحاكم (١/ ٧١٠)، وابن حبان في موارد الظمآن (١/ ٥٧٧)، وأبو يعلى (٢/ ٥٢٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٨٢): رواه أبو يعلى، ورجاله وثقوا، وفيهم ضعف.

(٢) صحيح: وقد تقدم تخريجه.

(٣) قال في قرة العيون: فلا نافية للجنس نفيًا عامًّا إلا ما استثنى وخبرها محذوف تقديره لا إله إلا الله. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢] فإلهيته تعالى هي الحق وكل ما سواه من الآلهة فإلهيته باطلة كما في هذه الآية ونظائرها. فهذه كلمة عظيمة هي العروة الوثقى وكلمة التقوى وكلمة الإخلاص، وهي التي قامت بها السموات والأرض، وشرعت لتكميلها السنة والفرض، ولأجلها جردت سيوف الجهاد، وبها ظهر الفرق بين المطيع والعاصي من العباد. فمن قالها وعمل بها صدقًا وإخلاصًا وقبولاً، ومحبة وانقيادًا أدخله الله الجنة على ما كان من العمل. (ق).

. . . .

قوله: «كلُّ عبادكِ يقولون هذا» ثبت بخط المُصنف بالجمع، والذي في الأصول «يقول» بالإفراد مراعاةً للفظة كُل. وهو في (المُسند) من حديث عبد الله بن عمرو، بلفظ الجمع؛ كما ذكره المصنِّفُ على معنى كُل.

ومعنى: «كلُّ عبادك يقولون هذا». إنما أُريد شيئًا تخُصّني به من بين عموم عبادك.

وفي رواية بعد قوله: «كلُّ عبادك يقولون هذا» «قل: لا إله إلاَّ الله، قال: لا إله إلاَّ أنت! يا ربِّ: إنما أُريد شيئًا تُخصّني به». ولمّا كان بالناس -بل بالعالم كلِّه- من الضرورة إلى لا إله إلاَّ الله ما لا نهاية له، كانت من أكثر الأذكار وجودًا، وأيسرها حُصولاً، وأعظمها معنىً. والعوامُّ والجُهَّال يعدلون عنها إلى الدعوات المُبتدعة، التي ليست في الكتاب ولا في السنة.

قوله: «وعامرِهنَّ غيري»[1]. هو بالنصب عطفٌ على السموات. أي: لو أنَّ السموات السبع

واستشهد ابن عباس على أن الذكر بمعنى الدعاء بقول الشاعر:

---

(١) قال في قرة العيون: أي كل من في السموات والأرض وقوله: (غيري) استثنى ممن في السموات نفسه لأنه العلي الأعلى تعالى وتقدس كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] علو القهر وعلو القدر وعلو الذات. فالثلاثة كلها صفته ودلت على كماله كما قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩] الآية. في سبعة مواضع من كتابه (الأعراف: ٥٤ و يونس: ٣ والرعد: ٢ والسجدة: ٤ والحديد: ٤) كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] وأمثال هذه الآيات. فمن سلب علو الله تعالى على خلقه فقد خالف صريح الكتاب والسنة وألحد في أسمائه وصفاته ومعنى هذه الكلمة: نفي الإلهية عن كل شيء سوى ما استثنى بها وهو الله تعالى. لكن هذه الكلمة العظيمة لا يحصل رجحانها إلا في حق من أتى بقيودها التي قيدت بها في الكتاب والسنة، وقد ذكر الله سبحانه في سورة براءة وغيرها كثيرًا ممن يقولها ولم ينفعهم قولها. كحال أهل الكتاب والمنافقين على كثرتهم وتنوعهم في نفاقهم فلم تنفعهم مع ما قام بهم من ترك تلك القيود. (فمنهم) من يقولها جاهلاً بما وضعت له وبما دلت عليه من نفي الشرك والبراءة منه والصدق والإخلاص وغيرها. كعدم القبول ممن دعى إليها علمًا وعملاً، وترك الانقياد بالعمل بما تقتضيه كحال أكثر من يقولها قديمًا وحديثًا، ولكن في أواخر هذه الأمة أكثر.

(ومنهم) من يمنعه من محبتها والعمل بها ما قام بقلبه من كبر أو هوى أو غير ذلك من الأسباب وهي كثيرة منها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

وأما أهل الإيمان الخالص فهم الذين أتوا بهذه الكلمة واجتمعت لهم قيودها التي قيدت بها علمًا ويقينًا وصدقًا وإخلاصًا ومحبة وقبولاً وانقيادًا وعادوا فيه ووالوا فيه وأحبوا فيه وأبغضوا فيه. وقد ذكرهم الله تعالى في مواضع من سورة براءة وغيرها وخصهم بالثناء عليهم، والعفو عنهم وأعد لهم جنته وأنجاهم من النار؛ كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠] فهؤلاء ومن اتبعهم هم أهل (لا إله إلا الله)، وغير هذه من الآيات في الثناء عليهم وما أعد لهم في الدار الآخرة. =

. . . .

ومن فيهنَّ من العُمَّار ـ غير الله تعالىٰ ـ والأرضين السبع ومن فيهن وُضعوا في كفة الميزان، ولا إله إلاَّ الله في الكِفَّة الأخرىٰ، مالت بهنَّ لا إله إلاَّ الله.

ورویٰ الإمامُ أحمد، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ «**أنَّ نوحًا قال لابنه عند موته: آمُرك بلا إله إلاَّ الله؛ فإنَّ السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفَّة ولا إله إلاَّ الله في كفة، رَجحتْ بهنَّ لا إله إلاَّ الله، ولو أنَّ السموات السبع والأرضين السَبع كُنَّ حَلْقةً مُبهمةً قصمتهن لا إله إلاَّ الله**»[1] قوله: «**في كفَّة**» هو بكسر الكاف وتشديد الفاء، أي: كِفَّة الميزان.

قوله: «مالت بهن» أي: رجحت؛ وذلك لما اشتملت عليه من نفي الشرك، وتوحيد الله: الذي هو أفضل الأعمال، وأساسُ الملة والدين.

فمن قالها بإخلاص ويقين، وعمل بمقتضاها ولوازمها وحقوقها، واستقام علىٰ ذلك، فهذه الحسنةُ لا يوازنها شيءٌ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [الأحقاف: ١٣].

ودلَّ الحديثُ علىٰ أنَّ: لا إله إلاَّ الله، أفضلُ الذكر؛ كحديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا:

إذا أثنى عليك العبد يومًا كفاه من تعرضه الثناء

قوله: «كل عبادك يقولون هذا»: ليس المعنىٰ أنها كلمة هينة كلٌّ يقولها؛ لأن موسىٰ عليه الصلاة والسلام يعلم عظم هذه الكلمة، ولكنه أراد شيئًا يختص به؛ لأن تخصيص الإنسان بالأمر يدل علىٰ منقبة له ورفعة؛ فبين اللَّه لموسىٰ أنه مهما أعطي فلن يعطىٰ أفضل من هذه الكلمة، وأن لا إله إلا اللَّه أعظم من السموات والأرض وما فيهن؛ لأنها تميل بهن وترجح، فدل ذلك علىٰ فضل لا إله إلا اللَّه وعظمها، لكن لا بد من الإتيان بشروطها، أما مجرد أن يقولها القائل بلسانه؛ فكم من إنسان يقولها لكنها عنده كالريشة لا تساوي شيئًا؛ لأنه لم يقلها علىٰ الوجه الذي تمت به الشروط وانتفت به لموانع.

قوله: «والأرضين السبع»: في بعض النسخ بالرفع، وهذا لا يصلح؛ لأنه إذا عطف علىٰ اسم «أنَّ» قبل استكمال الخبر وجب النصب.

= فمن تدبر القرآن وعرف تفاوت الخلق في محبة ربهم وتوحيده والعمل بطاعته والهرب من معصيته وإيثار ما يحبه تعالى رغبة وعملاً. وترك ما يكرهه خشية ورجاء، واعتبر الناس بأحوالهم وأقوالهم وأعمالهم ونياتهم وما هم فيه من التفاوت البعيد؛ تبين له خطأ المغرورين. كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**». (ق).

(١) رواه أحمد في المسند (٢/١٦٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/٢١٩): رواه كله أحمد ورواه الطبراني بنحوه وزاد في رواية وأوصيك بالتسبيح فإنها عبادة الخلق وبالتكبير رواه البزار من حديث ابن عمر فذكرته في الأذكار في باب لا إله إلا الله ورجال أحمد ثقات.

. . . .

«خيرُ الدعـاءِ دعـاءُ يومِ عرفـة، وخيرُ ما قلتُ أنا والنبيـون من قبلي: لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، له المُلك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»(١) رواه أحمد، والترمذي.

وعنه أيضًا، مرفوعًا: «يُصاح برجل من أُمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فيُنشر له تسعةٌ وتسعون سجلاًّ، كلُّ سجلٍ منها مدّ البصر، ثم يُقال: أتُنكرُ من هذا شيئًا؟ فيقول: لا يا رب. فيُقال: ألك عذرٌ أو حسنة؟ فيهاب الرجلُ، فيقول: لا. فيُقال: بلى إنَّ لك عندنا حسنةً، وإنه لا ظلم عليك، فيُخرجُ له بطاقةٌ فيها: أشهد أنْ لا إله إلاَّ الله، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، فيقول: يا رب ما هذه البطاقةُ مع هذه السجلات؟! فيقال: إنّك لا تُظلم، فتُوضع السجلاتُ في كفَّة والبطاقةُ في كفة، فطاشت السجلاتُ وثقلت البطاقة»(٢).

رواه الترمذيُّ وحسَّنه، والنسائي، وابنُ حبان، والحاكم وقال: صحيحٌ على شرط مسلم، وقال الذهبيُّ في (تلخيصه): صحيح.

قال ابنُ القيِّم رحمه الله تعالى: فالأعمالُ لا تتفاضلُ بصورها وعددها، وإنَّما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب. فتكون صورةُ العملين واحدةً، وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض.

قال: تأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة، ويقابلها تسعةٌ وتسعون سجلاًّ، كلُّ سجل منها مدُّ البصر، فتثقل البطاقةُ وتطيش السجلات، فلا يُعذَّب. ومعلومٌ أنَّ كلَّ موحِّدٍ له هذه البطاقة، وكثيرٌ منهم من يدخل النار بذنوبه.

قوله: (رواه ابنُ حبان، والحاكم): ابنُ حبان، اسمُه: محمَّد بن حِبَّان ـ بكسر المُهملة وتشديد الموحَّدة ـ ابنُ أحمد بن حبان بن مُعاذ، أبو حاتم التميمي، البُستي الحافظ، صاحبُ التصانيف: كـ (الصحيح)، و (التاريخ)، و (الضعفاء)، و(الثقات) وغير ذلك.

قوله: «مالت»: أي: رجحت حتى يملن.

قوله: «عامرهن»: أي: ساكنهن؛ فالعامر للشيء هو الذي عُمِّرَ به الشيء.

قوله: «غيري»: استثنى نفسه تبارك وتعالى؛ لأن قوله: لا إله إلا اللَّه ثناء عليه، والمثني عليه أعظم من الثناء، وهنا يجب أن تعرف أن كون اللَّه تعالى في السماء ليس ككون الملائكة في السماء، فكون الملائكة في السماء كون حاجي، فهم ساكنون في السماء لأنهم محتاجون إلى السماء، لكن الرب تبارك

---

(١) حسن: حسنه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٢٥٩٨)، والتعليق الرغيب (٢/ ٢٤٢) والسلسلة الصحيحة (١٥٠٣).

(٢) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٣٥)، والمشكاة (٥٥٥٩).

وللترمذي وحسَّنه، عن أنس: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا بن آدم! إنَّك لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تُشرك بي شيئًا، لأتيتك بقُرابها مغفرة»(١)(٢).

قال الحاكمُ: كان من أوعية العلم في الفقه، واللغة، والحديث، والوعظ، ومن عُقلاء الرجال. مات سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، بمدينة بُست ـ بالمهملة.

وأمّا الحاكمُ، فاسمُه: محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري، أبو عبد الله الحافظ، ويُعرف بابن البيِّع، وُلد سنة إحدىٰ وعشرين وثلاثمائة، وصنَّف التصانيف: كـ(المستدرك) و(تاريخ نيسابور) وغيرهما، ومات سنة خمس وأربعمائة.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وللترمذي وحسَّنه، عن أنس: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا بن آدم! إنَّك لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تُشرك بي شيئًا، لأتيتك بقُرابها مغفرة».

ذكر المصنف رحمه الله تعالى: الجملة الأخيرة من الحديث، وقد رواه الترمذيُّ بتمامه، فقال: عن أنس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قال الله تبارك وتعالى: يا بن آدم! إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أُبالي. يا بن آدم لو بلغت ذنُوبُك عَنَان السماء، ثم استغفرتني غفرتُ لك ولا أُبالي. يابن آدم إنَّك لو أتيتني..»**(٣) الحديث.

وتعالىٰ ليس محتاجًا إليها، بل إن السماء وغير السماء محتاج إلىٰ اللَّه تعالىٰ؛ فلا يظن ظان أن السماء تقل اللَّه أو تظله أو تحيط به، وعليه؛ فالسموات باعتبار الملائكة أمكنة مقلة للملائكة، وما فوقهم منها مظلٌ لهم، أما بالنسبة للَّه؛ فهي جهة لأن اللَّه تعالىٰ مستوٍ علىٰ عرشه، لا يُقلُّه شيء من خلقه.

قوله: « قال اللَّه تعالى: يا ابن آدم...» إلخ: هذا من الأحاديث القدسية، والحديث القدسي: ما رواه النبي ﷺ عن ربه، وقد أدخله المحدثون في الأحاديث النبوية؛ لأنه منسوب إلىٰ النبي ﷺ تبليغًا، وليس من القرآن بالإجماع، وإن كان كل واحد منهما قد بلغه النبي ﷺ أمته عن اللَّه عز وجل. وقد اختلف العلماء رحمهم اللَّه في لفظ الحديث القدسي: هل هو كلام اللَّه تعالىٰ، أو أن اللَّه تعالىٰ

---

(١) **صحيح**: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٢٧، ١٢٨)، والروض النضير (٤٣٢).

(٢) في قرة العيون: في هذا الحديث ما يبين معنى (لا إله إلا الله) التي رجحت بجميع المخلوقات، وجميع السيئات؛ وأن ذلك هو ترك الشك قليله وكثيره، وذلك يقتضي كمال التوحيد فلا يسلم من الشرك إلا من حقق توحيده وأتى بما تقتضيه كلمة الإخلاص من العلم واليقين والصدق والإخلاص والمحبة والقبول والانقياد وغير ذلك مما تقتضيه تلك الكلمة العظيمة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]. (ق).

(٣) تقدم تخريجه.

. . . .

الترمذي: اسمُه: محمد بن عيسى بن سَوْرة ـ بفتح المُهملة ـ ابن موسى بن الضحاك السُّلمي، أبوعيسى، صاحب (الجامع)، وأحد الحفاظ، كان ضرير البصر. روى عن قُتيبةَ، وهنَّادٍ، والبخاري، وخلق. مات سنة تسع وسبعين ومائتين.

وأنسٌ: هو ابن مالك بن النَّضْر الأنصاري الخزرجي، خادمُ رسول الله ﷺ: خدمه عشر سنين، وقال له: «اللهم أكثر ماله وولده، وأدخله الجنة»(١). مات سنة اثنتين ـ وقيل: ثلاث ـ وتسعين، وقد جاوز المائة.

وقد رواه الإمامُ أحمد، من حديث أبي ذرٍّ بمعناه، وهذا لفظُه: «**من عمل قُراب الأرض خطيئةً، ثم لقيني لا يُشرك بي شيئًا جعلتُ له مثلها مغفرة**»(٢).

ورواه مسلم، وأخرجه الطبراني، من حديث ابن عباس، عن النبي ﷺ.

قوله: «لو أتيتني بقُراب الأرض» بضم القاف، وقيل: بكسرها. والضم أشهر، وهو ملؤُها أو ما يُقارب ملأَها.

قوله: «ثم لقيتني لا تُشرك بي شيئًا» شرطٌ ثقيل في الوعد بحصول المغفرة، وهو السلامة من الشرك: كثيره وقليله، صغيره وكبيره. ولا يسلمُ من ذلك إلاَّ من سلَّم لله تعالى، وذلك هو القلبُ

أوحى إلى رسوله ﷺ معناه واللفظ لفظ رسول الله ﷺ؟

على قولين:

القول الأول: أن الحديث القدسي من عند الله لفظه ومعناه؛ لأن النبي ﷺ أضافه إلى الله تعالى، ومن المعلوم أن الأصل في القول المضاف أن يكون بلفظ قائله لا ناقله، لا سيما والنبي ﷺ أقوى الناس أمانة وأوثقهم رواية.

القول الثاني: أن الحديث معناه من عند الله ولفظه لفظ النبي ﷺ، وذلك لوجهين:

الوجه الأول: لو كان الحديث القدسي من عند الله لفظًا ومعنى؛ لكان أعلى سندًا من القرآن؛ لأن النبي ﷺ يرويه عن ربه تعالى بدون واسطة؛ كما هو ظاهر السياق، أما القرآن؛ فنزل على النبي ﷺ بواسطة جبريل؛ كما قال تعالى: ﴿**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ**﴾ [النحل: ١٠٢]، وقال: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

الوجه الثاني: أنه لو كان لفظ الحديث القدسي من عند الله، لم يكن بينه وبين القرآن فرق؛ لأن كليهما على هذا التقدير كلام الله تعالى، والحكمة تقتضي تساويهما في الحكم حين اتفقا في الأصل، ومن المعلوم أن بين القرآن والحديث القدسي فروقًا كثيرة:

منها: أن الحديث القدسي لا يتعبد بتلاوته، بمعنى أن الإنسان لا يتعبد لله تعالى بمجرد قراءته؛ فلا يثاب على كل حرف منه عشر حسنات، والقرآن يتعبد بتلاوته بكل حرف منه عشر حسنات.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٣٣٤) ومواضع، ومسلم (٦٦٠) ومواضع.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٨٧).

. . . .

السليم؛ كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

قال ابنُ رجب: من جاء مع التوحيد بقُراب الأرض خطايا، لقيه الله تعالى بقُرابها مغفرة.

إلى أنْ قال: فإنْ كمُل توحيدُ العبد وإخلاصُه لله تعالى فيه، وقام بشروطه بقلبه ولسانه وجوارحه، أو بقلبه وبلسانه عند الموت، أوجب ذلك مغفرةَ ما قد سلف من الذنوب كلِّها، ومنعه من دخول النار بالكلية. فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبُه، أخرجت منه كلَّ ما سوى الله تعالى: محبةً وتعظيمًا، وإجلالاً ومهابة، وخشية وتوكلاً. وحينئذٍ تُحرقُ ذنوبُه وخطاياه كلها، وإنْ كانت مثلَ زبد البحر. انتهى مُلخصًا.

قال العلاَّمةُ ابن القيم رحمه الله تعالى ـ في معنى الحديث ـ: ويُعفى لأهل التوحيد المحض ـ الذي لم يشوبوه بالشرك ـ ما لا يُعفى لمن ليس كذلك. ولو لقي الموحِّدُ ـ الذي لم يُشرك بالله شيئًا ألبتَّة ـ ربَّه بقُراب الأرض خطايا، أتاه بقُرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيدُه. فإنَّ التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك، لا يبقى معه ذنبٌ؛ لأنه يتضمَّنُ من محبة الله وإجلاله وتعظيمه وخوفه ورجائه، ما يوجبُ غسل الذنوب ولو كانت قرابَ الأرض. فالنجاسةُ عارضة. والدافع لها قوي. انتهى.

وفي هذا الحديث: كثرةُ ثواب التوحيد، وسعةُ كرم الله وجوده ورحمته، والردُّ على الخوارج:

ومنها: أن اللَّه تعالى تحدى أن يأتي الناس بمثل القرآن أو آية منه، ولم يرد مثل ذلك في الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن محفوظ من عند اللَّه تعالى، كما قاله سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، والأحاديث القدسية بخلاف ذلك؛ ففيها الصحيح والحسن، بل أضيف إليها ما كان ضعيفًا أو موضوعًا، وهذا ـ وإن لم يكن منها؛ لكن نسب إليها وفيها التقديم والتأخير والزيادة والنقص.

ومنها: أن القرآن لا تجوز قراءته بالمعنى بإجماع المسلمين، وأما الأحاديث القدسية؛ فعلى الخلاف في جواز نقل الحديث النبوي بالمعنى والأكثرون على جوازه.

ومنها: أن القرآن تشرع قراءته في الصلاة ومنه ما لا تصح الصلاة بدون قراءته، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن لا يمسه إلا طاهر على الأصح، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن لا يقرؤه الجنب حتى يغتسل على القول الراجح، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن ثبت بالتواتر القطعي المفيد للعلم اليقيني، فلو أنكر منه حرفًا أجمع القراء عليه؛ لكان كافرًا، بخلاف الأحاديث القدسية؛ فإنه لو أنكر شيئًا منه مدعيًا أنه لم يثبت؛ لم يكفر، أما لو أنكره مع علمه أن النبي ﷺ قاله؛ لكان كافرًا لتكذيبه النبي ﷺ.

وأجاب هؤلاء عن كون النبي ﷺ أضافه إلى اللَّه، والأصل في القول المضاف أن يكون لفظ قائله بالتسليم أن هذا هو الأصل، لكن قد يضاف إلى قائله معنىً لا لفظًا كما في القرآن الكريم؛ فإن اللَّه تعالى

. . . .

الذين يكفَّرون المسلم بالذنوب، وعلى المُعتزلة القائلين: بالمنزلة بين المنزلتين، وهي الفسوق، ويقولون: ليس بمؤمنٍ ولا كافر، ويُخلَّد في النار.

والصواب: قولُ أهل السنة: أنه لا يُسلب عنه اسمُ الإيمان، ولا يُعطاه على الإطلاق، بل يقال: هو مؤمنٌ عاصٍ، أو مؤمنٌ بإيمانه فاسق بكبيرته. وعلى هذا يدلُّ الكتاب، والسُّنة، وإجماعُ سلف الأمة.

وعن عبد الله بن مسعود، قال: لما أُسري برسول الله ﷺ، انتُهي به إلى سِدرةِ المُنتهى، فأعطي ثلاثًا: أُعطي

يضيف أقوالاً إلى قائليها، ونحن نعلم أنها أضيفت معنًى لا لفظًا، كما في قصص الأنبياء وغيرهم، وكلام الهدهد والنملة؛ فإنه بغير هذا اللفظ قطعًا. وبهذا يتبين رجحان هذا القول، وليس الخلاف في هذا كالخلاف بين الأشاعرة وأهل السنة في كلام اللّه تعالى؛ لأن الخلاف بين هؤلاء في أصل كلام اللّه تعالى؛ فأهل السنة يقولون: كلام اللّه تعالى كلام حقيقي مسموع، يتكلم سبحانه بصوت وحرف، والأشاعرة لا يثبتون ذلك، وإنما يقولون: كلام اللّه تعالى هو المعنى القائم بنفسه، وليس بحرف وصوت، ولكن اللّه تعالى يخلق صوتًا يعبر عن المعنى القائم بنفسه، ولا شك في بطلان قولهم، وهو في الحقيقة قول المعتزلة؛ لأن المعتزلة يقولون: القرآن مخلوق، وهو كلام اللّه، وهؤلاء يقولون: القرآن مخلوق، وهو عبارة عن كلام اللّه، فقد اتفق الجميع على أن ما بين دفتي المصحف مخلوق.

ثم لو قيل في مسألتنا ـ الكلام في الحديث القدسي ـ: إن الأولى ترك الخوض في هذا؛ خوفًا من أن يكون من التنطع الهالك فاعله، والاقتصار على القول بأن الحديث القدسي ما رواه النبي ﷺ عن ربه وكفى؛ لكان ذلك كافيًا، ولعله أسلم واللّه أعلم.

فائدة: إذا انتهى سند الحديث إلى اللّه تعالى سمي قدسيًا؛ لقدسيته وفضله، وإذا انتهى إلى الرسول ﷺ سمي مرفوعًا، وإذا انتهى إلى الصحابي سمِّي موقوفًا، وإذا انتهى إلى التابعي فمن بعده سمي مقطوعًا.

قوله: «**بقراب الأرض**». أي: ما يقاربها؛ إما ملئًا، أو ثقلاً، أو حجمًا.

قوله: «**خطايا**»: جمع خطيئة، وهي الذنب، والخطايا الذنوب، ولو كانت صغيرة؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ [البقرة: ٨١].

قوله: «**لا تشرك بي شيئًا**». جملة «لا تشرك» في موضع نصب على الحال من التاء؛ أي: لقيتني في حال لا تشرك بي شيئًا.

قوله: «**شيئًا**» نكرة في سياق النفي تفيد العموم؛ أي: لا شركًا أصغر ولا أكبر.

وهذا قد يتهاون به الإنسان، ويقول: أنا غير مشرك وهو لا يدري، فحب المال مثلاً بحيث يلهي عن طاعة اللّه من الإشراك، قال النبي ﷺ: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد**

فيه مسائل:

الأولى: سعة فضل الله.

الثانية: كثرة ثواب التوحيد عند الله.

الصلوات الخمس، وخواتيمَ سورة البقرة، وغُفر لمن لا يُشرك بالله من أُمَّته شيئًا المُقْحِماتُ[١]. رواه مسلم.

قال ابنُ كثير ـ في (تفسيره) ـ: وأخرج الإمامُ أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والنسائي، عن أنس بن مالك، قال: قرأ رسولُ الله ﷺ هذه الآية ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦].

وقال: **«قال ربكم: أنا أهلٌ أنْ أُتَّقى فلا يُجعل معي إلهٌ، فمن اتقى أنْ يَجعل معي إلهًا كان أهلا أن أغفرَ له»**[٢].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: تأمَّل الخمسَ اللواتي في حديث عُبادة، فإنك إذا جمعتَ بينه وبين حديثَ عِتبان: تبيّن لك معنى قول لا إله إلاّ الله، وتبيّن لك خطأ المغرورين.

ومن أجل فوائده أنه يمنع الخلود في النار إذا كان في القلب منه أدنى مثقال حبة خردل وأنه إذا كمل في القلب يمنع دخول النار بالكلية ومنها أنه يحصل لصاحبه الهدى الكامل والأمن التام في الدنيا والآخرة، ومنها أنه السبب الوحيد لنيل رضا الله وثوابه وأن أسعد الناس بشفاعة محمد ﷺ من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه.

ومن أعظم فضائله أن جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة في قبولها وفي كمالها وفي ترتب الثواب عليها على التوحيد. فكلما قوي التوحيد والإخلاص لله كملت هذه الأمور وتمت.

ومن فضائله أنه يسهل على العبد فعل الخير وترك المنكرات ويسليه عن المصيبات، فالمخلص لله في إيمانه وتوحيده تخف عليه الطاعات لما يرجو من ثواب ربه ورضوانه ويهون عليه ترك ما تهواه النفس من المعاصي لما يخشى من سخطه وعقابه.

الخميصة، تعس عبد الخميلة...»[٣] الحديث.

فسمى النبي ﷺ من كان هذا همه سماه: عبدًا له.

قوله: «أتيتك بقرابها مغفرة». أي: إن حسنة التوحيد عظيمة تكفر الخطايا الكبيرة إذا لقي اللَّه وهو لا يشرك به شيئًا، والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه.

مناسبة الحديث للترجمة: أن في هذا الحديث فضل التوحيد، وأنه سبب لتكفير الذنوب؛ فهو

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (١٧٣) ومعنى المقحمات: الذنوب العظام التي تدخل أصحابها النار.

(٢) **ضعيف**: ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٢٣٥١).

(٣) **صحيح**: رواه البخاري (٢٨٨٧، ٦٤٣٥)، وابن ماجه (٤١٣٥، ٤١٣٦).

الثالثة: تكفيره مع ذلك للذنوب.

الرابعة: تفسيرة الآية (٨٢) التي في سورة الأنعام.

الخامسة: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة.

السادسة: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده تبين لك معنى قول: «لا إله إلا الله» وتبين لك خطأ المغرورين[1].

وفيه: أنَّ الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلاَّ الله، والتنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أنَّ كثيرًا ممن يقولها يخفُّ ميزانه، وفيه: إثبات الصفات، خلافًا للمعطلة.

ومنها أن التوحيد إذا كمل في القلب حبب الله لصاحبه الإيمان وزينه في قلبه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان وجعله من الراشدين، ومنها أنه يخفف على العبد المكاره ويهون عليه الآلام، فبحسب تكميل العبد للتوحيد والإيمان يتلقى المكاره والآلام بقلب منشرح، ونفس مطمئنة، وتسليم ورضى بأقدار الله المؤلمة.

مطابق لقوله في الترجمة: «وما يكفر من الذنوب».

قوله: «فيه مسائل»:

الأولى: «سعة فضل اللَّه»: لقوله: «أدخله اللَّه الجنة على ما كان من العمل».

الثانية: كثرة ثواب التوحيد عند اللَّه: لقوله: «مالت بهن لا إله إلا اللَّه».

الثالثة: تكفيره مع ذلك للذنوب: لقوله: «لأتيتك بقرابها مغفرة» فالإنسان قد تغلبه نفسه أحيانًا؛ فيقع في الخطايا، لكنه مخلص للَّه في عبادته وطاعته؛ فحسنة التوحيد تكفر عنه الخطايا إذا لقي اللَّه بها.

الرابعة: تفسير الآية التي في سورة الأنعام: وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]؛ فالظلم هنا الشرك؛ لقوله ﷺ: «ألم تسمعوا إلى قول الرجل الصالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾» [لقمان: ١٣][2].

---

(١) كثير من الناس يخطئون في فهم أحاديث (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة) فيظنون بأن التلفظ بها يكفي وحده للنجاة من النار ودخول الجنة وليس كذلك فإن من يظن ذلك من المغرورين لم يفهم (لا إله إلا الله) لأنه لم يتدبرها. إذ أن حقيقة معناها: البراءة من كل معبود والتعهد بتجريد كل أنواع العبادة لله سبحانه وحده والقيام بها على الوجه الذي يحبه ويرضاه. فمن لم يقم بحقها من العبادة؛ أو قام ببعض أنواع العبادة ثم عبد مع الله غيره من دعاء الأولياء والصالحين والنذر لهم ونحو ذلك فإنه يكون هادمًا لها. فلا تنفعه دعواه ولا تغني عنه شيئًا. ولو كان مجرد قولها كافيًا لم يقع من المشركين ما وقع من محاربة الرسول ﷺ ومعادته. قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] وقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦] فمن لم يوف بها ويعمل بمقتضاها لا ينفعه التلفظ. وكل من جعل شيئًا من أنواع العبادة لغير الله فهو إما جاهل بمعناها أو كاذب في ادعائه الإيمان. وأولئك هم المغرورون ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤] (ق).

(٢) صحيح: وقد تقدم.

السابعة: التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان[1].

الثامنة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله.

وفيه: أنك إذا عرفت حديثَ أنس، عرفت أنَّ قوله في حديث عِتبان: «**إنَّ الله حرَّم على النار من قال: لا إله إلاَّ الله، يبتغي بذلك وجه الله**» أنَّه تركُ الشرك، ليس قولها باللسان. انتهى.

ومن أعظم فضائله أنه يحرر العبد من رق المخلوقين والتعلق بهم، وخوفهم ورجائهم، والعمل لأجلهم، وهذا هو العز الحقيقي، والشرف العالي، ويكون مع ذلك متألهًا متعبداً لله لا يرجو سواه ولا يخشى إلا إياه، ولا ينيب إلا إليه، وبذلك يتم فلاحه ويتحقق نجاحه.

ومن فضائله التي لا يلحقه فيها شيء أن التوحيد إذا تم وكمل في القلب وتحقق تحققًا كاملاً بالإخلاص التام؛ فإنه يُصَيِّر القليل من عمله كثيراً وتضاعف أعماله وأقواله بغير حصر ولا حساب، ورجحت كلمة الإخلاص في ميزان العبد بحيث لا تقابلها السماوات والأرض، وعمارها من جميع خلق الله كما في حديث أبي سعيد المذكور في الترجمة وفي حديث البطاقة التي فيها لا إله إلا الله التي وزنت تسعة وتسعين سجلاً من الذنوب، كل سجل يبلغ مد البصر، وذلك لكمال إخلاص قائلها، وكم ممن يقولها ولا تبلغ هذا المبلغ؛ لأنه لم يكن في قلبه من التوحيد والإخلاص الكامل مثل ولا قريب مما قام بقلب هذا العبد.

الخامسة: تأمل الخمس اللواتي في حديث عُبادة:

١، ٢ ـ الشهادتان. ٣ ـ أن عيسى عبد اللَّه، ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه.

٤ ـ أن الجنة حق. ٥ ـ أن النار حق.

السادسة: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان، وحديث أبي سعيد، وحديث أنس، تبين لك معنى قول: لا إله إلا اللَّه، وتبين لك خطأ المغرورين:

لأنه لا بد أن تبتغي بها وجه اللَّه، وإذا كان كذلك؛ فلا بد أن تحمل المرء على العمل الصالح.

السابعة: التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان:

وهو أن يبتغي بقولها وجه اللَّه، ولا يكفي مجرد القول؛ لأن المنافقين كانوا يقولونها ولم تنفعهم.

الثامنة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا اللَّه:

فغيرهم من باب أولى.

التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه:

فالبلاء من القائل لا من القول؛ لأنه قد يكون اختل شرط من الشروط، أو وُجد مانع من موانع؛ فإنها بحسب ما عنده، أما القول نفسه؛ فيرجح بجميع المخلوقات.

العاشرة: النص على أن الأرضين سبع كالسموات: لم يرد في القرآن تصريح بذلك، بل ورد صريحًا أن السموات سبع بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ﴾ [المؤمنون: ٨٦].

---

(١) هو قوله (يبتغي بها وجه الله) ومن قالها يبتغي بها وجه الله لا بد أن يعمل ويخلص عمله لله. (ق).

التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أنَّ كثيرًا ممن يقولها يخفُّ ميزانُه.

العاشرة: النص على أن الأرضين سبع كالسموات.

الحادية عشرة: أن لهن عماراً.

الثانية عشرة: إثبات الصفات، خلافًا للأشعرية.

الثالثة عشرة: أنك إذا عرفت حديث أنس، عرفت أن قوله في حديث عتبان: «فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله»[1] أنه

ومن فضائل التوحيد: أن الله تكفل لأهله بالفتح والنصر في الدنيا والعز والشرف وحصول الهداية والتيسير لليسرى، وإصلاح الأحوال، والتسديد في الأقوال والأفعال.

ومنها أن الله يدافع عن الموحدين أهل الإيمان شرور الدنيا والآخرة، ويمن عليهم بالحياة الطيبة والطمأنينة إليه والطمأنينة بذكره، وشواهد هذه الجمل من الكتاب والسنة كثيرة معروفة والله أعلم.

لكن بالنسبة للأرضين لم يرد إلا قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]؛ فالمثلية بالكيفية غير مراده لظهور الفرق بين السماء والأرض في الهيئة، والكيفية، والارتفاع، والحسن؛ فبقيت المثلية في العدد.

أما السُّنة؛ فهي صريحة جداً بأنها سبع؛ مثل قوله ﷺ: **«من اقتطع شبراً من الأرض؛ طوقه يوم القيامة من سبع أرضين»**[2].

وقد اختُلف في قوله ﷺ: « **من سبع أرضين**»؛ كيف تكون سبعًا؟

فقيل: المراد: القارات السبع، وهذا ليس بصحيح؛ لأن هذا يمتنع بالنسبة لقوله: «**طوقه من سبع أرضين**».

وقيل: المراد المجموعة الشمسية، لكن ظاهر النصوص أنها طباق كالسموات وليس لنا أن نقول إلا ما جاء في الكتاب والسنة عن هذه الأرضين؛ لأننا لا نعرفها.

الحادية عشرة: أن لهن عماراً: أي: السموات، وعمارهن الملائكة.

الثانية عشرة: إثبات الصفات خلافًا للأشعرية. وفي بعض النسخ: خلافًا للمعطلة، وهذه أحسن؛ لأنها أعم، بحيث تشمل الأشعرية: والمعتزلة والجهمية وغيرهم، ففيه إثبات الوجه للَّه سبحانه بقوله: «**يبتغي بذلك وجه اللَّه**»، وإثبات الكلام بقوله: «**وكلمته ألقاها**»، وإثبات القول في قوله: «**قل لا إله إلا اللَّه**».

الثالثة عشرة: أنك إذا عرفت حديث أنس؛ عرفت أن قوله في حديث عتبان: «فإن اللَّه حرم على

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٤٢٥، ١١٨٦، ٥٤٠١)، ومسلم (٣٣).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (١٦١٠)، وأحمد (٩٢٩٩).

ترك الشرك، ليس قولها باللسان.

الرابعة عشرة: تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد عبدَيْ الله ورسوليه.

الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله.

السادسة عشرة: معرفة كونه روحًا منه.

السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار.

النار من قال: لا إله إلا اللَّه يبتغي بذلك وجه اللَّه» أنّه ترْكُ الشرك. وفي بعض النسخ: إذا ترك الشرك:

أي: أن قوله: «حرَّم على النار من قال: لا إله إلا اللَّه يبتغي بذلك»(يعني: ترك الشرك)، وليس مجرد قولها باللسان؛ لأن من ابتغى وجه اللَّه في هذا القول لا يمكن أن يشرك أبدًا.

الرابعة عشرة: تأمل الجمع بين كون كلٍّ من عيسى ومحمد عبدَي اللَّه ورسولَيْه:

عبدي: منصوب على أنه خبر «كون»؛ لأن كون مصدر كان وتعمل عملها.

وعيسى ومحمد: اسم «كون». وتأمل الجمع من وجهين:

الأول: أنه جمع لكل منهما بين العبودية والرسالة.

الثاني: أنه جمع بين الرجلين؛ فتبين أن عيسى مثل محمد، وأنه عبد ورسول، وليس ربًّا، ولا ابنًا للرب سبحانه: وقول المؤلف: «تأمل»؛ لأن هذا يحتاج إلى تأمل.

الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة اللَّه: أي: أن عيسى انفرد عن محمد في أصل الخلقة، فقد كان بكلمة، أما محمد ﷺ؛ فقد خلق من ماء أبيه.

السادسة عشرة: معرفة كونه روحًا منه:

أي: أن عيسى روح من اللَّه، و«من» هنا بيانية أو للابتداء، وليست للتبعيض؛ أي: روح جاءت من قبل اللَّه وليست بعضًا من اللَّه، بل هي من جملة الأرواح المخلوقة.

السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار:

لقوله في حديث عبادة: «وأن الجنة حق، والنار حق»[1] والفضل أنه من أسباب دخول الجنة.

الثامنة عشرة: معرفة قوله:« على ما كان من العمل»: أي: على ما كان من العمل الصالح ولو قل، أو على ما كان من العمل السيئ ولو كثُرَ، بشرط أن لا يأتي بما ينافي التوحيد ويوجب الخلود في النار، لكن لا بد من العمل. ولا يلزم استكمال العمل الصالح كما قالت المعتزلة والخوارج، ولم تُذكر أركان الإسلام هنا؛ لأن منها ما يكفر الإنسان بتركه، ومنها ما لا يكفر؛ فإن الصحيح أنه لا يكفر إلا بترك الشهادتين والصلاة، وإن كان روي عن الإمام أحمد أن جميع أركان الإسلام يكفر بتركها؛ لكن الصحيح خلاف ذلك.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨)، والترمذي (٢٦٣٨)، وأحمد (٢٢١٦٧).

الثامنة عشرة: معرفة قوله: «على ما كان من العمل».

التاسعة عشرة: معرفة أن الميزان له كفتان.

العشرون: معرفة ذكر الوجه.

٢ ـ باب
من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

قال المصنفُ رحمه الله تعالى: بابُ من حقَّق التوحيدَ دخل الجنَّةَ بغير حساب.
أي: ولا عذاب. قلتُ: تحقيقه: تخليصُه وتصفيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي[1].

باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

وهذا الباب تكميل للباب الذي قبله وتابع له؛ فإن تحقيق التوحيد تهذيبه وتصفيته من الشرك الأكبر والأصغر، ومن البدع القولية الاعتقادية، والبدع الفعلية العملية، ومن المعاصي، وذلك بكمال الإخلاص لله في الأقوال والأفعال والإرادات، وبالسلامة من الشرك الأكبر المناقض لأصل التوحيد، ومن الشرك الأصغر المنافي لكماله، وبالسلامة من البدع والمعاصي التي تكدر التوحيد وتمنع كماله، وتعوقه عن حصول آثاره.

التاسعة عشرة: معرفة أن الميزان له كفتان:
أخذها المؤلف من قوله: «لو أن السموات..إلخ، وضعت في كفة ولا إله إلا اللّه في كفة».

والظاهر أن الذي في الحديث تمثيل، يعني أن قول: لا إله إلا اللّه أرجح من كل شيء، وليس في الحديث أن هذا الوزن في الآخرة، وكأن المؤلف رحمه اللّه حصل عنده انتقال ذهني؛ فانتقل ذهنه من هذا إلى ميزان الآخرة.

العشرون: معرفة ذكر الوجه: يعني: وجه اللّه تعالى، وهو صفة من صفاته الخبرية الذاتية التي

---

(١) في قرة العيون: وتحقيق التوحيد عزيز في الأمة لا يوجد أهل الإيمان الخالص الذين أخلصهم الله واصطفاهم من خلقه كما قال تعالى في يوسف عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] بفتح اللام، وفي قراءة (المخلِصين) بكسرها، وهم في صدر هذه الأمة كثيرون وفي آخرها هم الغرباء؛ وقد قلوا. وهم الأعظمون قدرًا عند الله. وقال تعالى عن خليله عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨، ٧٩] أي أخلصت ديني وأفردت عبادتي للذي فطر السموات والأرض أي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ﴿حَنِيفًا﴾ أي في حال كوني حنيفًا أي مائلاً عن الشرك إلى التوحيد. ولهذا قال: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ونظائر هذه الآية في القرآن كثير. كقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى في الآية: يقول تعالى مخبرًا عمن أسلم وجهه لله أي أخلص له العمل وانقاد لأوامره واتبع شرعه، ولهذا قال ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي في عمله واتباع ما أمر به وترك ما نهى عنه وزجر. فدلت هذه الآية العظيمة على أن كمال الإخلاص إنما يوجد بترك الشرك والبراءة منه وممن فعله كما تقدم في الباب قبل هذا.(ق).

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

وصف إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات، التي هي الغايةُ في تحقيق التوحيد:

الأولى: أنَّه كان أُمَّةً، أي: قدوةً، وإمامًا مُعلِّمًا للخير. وما ذاك إلاَّ لتكميله مقامَ الصبر واليقين، اللّذين تُنال بهما الإمامةُ في الدين.

الثانيةُ: قوله: ﴿قَانِتًا﴾ قال شيخُ الإسلام: القُنوتُ: دوامُ الطاعة، والمُصلي إذا طال قيامُه أو ركوعه أو سجوده فهو قانت. قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]. انتهى مُلخصًا.

الثالثةُ: أنه كان حنيفًا.

قلتُ: قال العلاَّمةُ ابن القيم رحمه الله تعالى: الحنيف: المُقبلُ على الله، المعرِضُ عن كل ما سواه. انتهى.

الرابعة: أنه ما كان من المشركين، أي: لصحة إخلاصه وكمالِ صدقه، وبُعدِه عن الشرك[1].

مسماها بالنسبة لنا أبعاض وأجزاء؛ لأن من صفات اللَّه تعالى ما هو معنى محض، ومنه ما مسماه بالنسبة

(١) قال العلامة ابن القيم -رحمه الله- في مفتاح دار السعادة في الوجه ١٤٧ من فضل العلم: إن الله أثنى على إبراهيم خليله بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] الآية. فهذه أربعة أنواع من الثناء؛ افتتحها بأنه (أمة) وهو القدوة الذي يؤتم به. قال ابن مسعود: (الأمة: المعلم للخير) وهي فعلة -بضم الفاء- من الائتمام كالقدوة، وهو الذي يقتدى به. والفرق بين (الأمة) و (الإمام) من وجهين.

أحدهما: أن الإمام كل ما يؤتم به، سواء كان بقصده وشعوره أو لا، ومنه سمي الطريق إمامًا. كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨، ٧٩] أي بطريق واضح لا يخفى على السالك. ولا يسمى الطريق أمة.

الثاني: أن (الأمة) فيه زيادة معنى. وهو الذي جمع صفات الكمال في العلم والعمل، وهو الذي بقى فيها فردًا وحده، فهو الجامع لخصال تفرقت في غيره، فكأنه باين غيره باجتماعها فيه؛ وتفرقها أو عدمها في غيره. ولفظ (الأمة) يشعر بهذا المعنى، لما فيه من الميم المضعفة الدالة على الضم بمخرجها وتكريرها، وكذلك ضم أوله. فإن الضمة من الواو، ومخرجها فيضم عند النطق بها. وأتى بالتاء الدالة على الوحدة كالغرفة واللقمة. ومنه الحديث: «إن زيداً بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده» فالضم والاجتماع لازم لمعنى الأمة. ومنه سميت الأمة التي هي آحاد الأمم، لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو في عصر واحد.

الثاني: قوله (قانتًا) قال ابن مسعود: (القانت): المطيع. والقنوت يفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة.

الثالث: قوله (حنيفًا) والحنيف: المقبل على الله. ويلزم من هذا المعنى ميله عما سواه، فالميل لازم معنى الحنيف؛ لا أنه موضوعه لغة.

الرابع: قوله (شاكرًا لأنعمه) والشكر للنعم مبني على ثلاثة أركان: الإقرار بالنعمة وإضافتها إلى المنعم بها؛ وصرفها في مرضاته والعمل فيها بما يجب. فلا يكون العبد شاكرًا إلا بهذه الثلاثة.

=

. . . .

قلتُ: يوضِّح هذا، قولُه تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ معهُ﴾ أي: على دينه من إخوانه المُرسلين، قاله ابنُ جرير رحمه الله تعالى. ﴿إِذْ قَالُوا لقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ منكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ من دُون اللَّه كَفَرْنَا بكُمْ وبَدَا بيننا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا باللَّه وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]. وذكر تعالى عن خليله عليه السلام، أنَّه قال لأبيه آزر: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ من دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي﴾ إلى

لنا أبعاض وأجزاء، ولا نقول بالنسبة للَّه أبعاض؛ لأننا نتحاشى كلمة التبعيض في جانب اللَّه تعالى.

هذا الباب كالمتمم للباب الذي قبله؛ لأن الذي قبله: «باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب»، فمن فضله هذا الفضل العظيم الذي يسعى إليه كل عاقل، وهو دخول الجنة بغير حساب.

قوله: «من». شرطية، وفعل الشرط: **«حقق»**، وجوابه: **«دخل»**.

قوله: «**بلا حساب**»؛ أي: لا يُحاسب لا على المعاصي ولا على غيرها.

وتحقيق التوحيد: تخليصه من الشرك، ولا يكون إلا بأمور ثلاثة:

الأول: العلم؛ فلا يمكن أن تحقق شيئًا قبل أن تعلمه، قال اللَّه تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

الثاني: الاعتقاد، فإذا علمت ولم تعتقد واستكبرت، لم تحقق التوحيد، قال اللَّه تعالى عن الكافرين: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]. فما اعتقدوا انفراد اللَّه بالألوهية.

= والمقصود: أنه سبحانه مدح خليله بأربع صفات كلها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره؛ فعاد الكمال كله إلى العلم والعمل بموجبه ودعوة الخلق إليه. اهـ.

وقال في قرة العيون: قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى: يمدح الله تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء: بتبرئته من المشركين ومن اليهودية والنصرانية والمجوسية. و(الأمة) هو الإمام الذي يقتدى به. و(القانت) هو الخاشع المطيع، والحنيف: المنحرف قصدًا عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] وقال مجاهد: كان إبراهيم أمة أي مؤمنًا وحده، والناس كلهم إذ ذاك كفار.

قلت: وكلا القولين حق. فقد كان الخليل عليه السلام كذلك. وقول مجاهد-والله أعلم- لما كان الخليل كذلك في ابتداء دعوته ونبوته ورسالته عليه السلام، فمدحه الله تعالى بتبرئته من المشركين؛ كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤١، ٤٢] والآيات [٤٣-٥٠] وقوله: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ ۝ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤] والآيات [٨٥-١١٣] فهذا والله أعلم كان في ابتداء دعوته عليه الصلاة والسلام ولم يكن إذ ذاك على وجه الأرض مسلم غيره. وبذلك جاء الحديث.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فقد فارق المشركين بالقلب واللسان والأركان، وأنكر ما كانوا عليه من الشرك بالله في عبادته وكسر الأصنام وصبر على ما أصابه في ذات الله. وهذا هو تحقيق التوحيد وهو أساس الدين ورأسه. كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] وأنت تجد أكثر من يقول (لا إله إلا الله) ويدعي الإسلام يفعل الشرك بالله في عبادته. بدعوة من لا يضر ولا ينفع من الأموات والغائبين والطواغيت والجن وغيرهم؛ ويحبهم ويواليهم، ويخافهم ويرجوهم، وينكر على من دعا إلى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، ويزعم أن ذلك بدعة وضلالة، ويعادي من عمل به وأحبه وأنكر الشرك وأبغضه، وبعضهم لا يعد التوحيد علمًا ولا يلتفت إليه لجهله به وعدم محبته فالله المستعان. (ق).

. . . .

قوله ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٨، ٤٩].

فهذا هو تحقيقُ التوحيد: وهو البراءة من الشرك وأهله واعتزالُهم، والكفرُ بهم وعداوتهم وبغضُهم. فالله المُستعان.

الثالث: الانقياد، فإذا علمت واعتقدت ولم تنقد؛ لم تحقق التوحيد، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦].

فإذا حصل هذا وحقق التوحيد؛ فإن الجنة مضمونة له بغير حساب، ولا يحتاج أن نقول: إن شاء الله؛ لأن هذا حكاية حكم ثابت شرعًا، ولهذا جزم المؤلف رحمه الله تعالىٰ بذلك في الترجمة دون أن يقول: إن شاء الله. أما بالنسبة للرجل المعيَّن؛ فإننا نقول: إن شاء الله.

وقد ذكر المؤلف في هذا الباب آيتين، ومناسبتهما للباب الإشارة إلىٰ تحقيق التوحيد، وأنه لا يكون إلا بانتفاء الشرك كله.

الآية الأولىٰ: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ الآية [النحل: ١٢٠].

قوله: ﴿أُمَّةً﴾: أي: إمامًا. وقد سبق أن أمة تأتي في القرآن علىٰ أربعة أوجه: إمام، ودهر، وجماعة، ودين.

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾: هذا ثناء من الله -سبحانه وتعالىٰ- علىٰ إبراهيم بأنه إمام متبوع؛ لأنه أحد الرسل الكرام من أولي العزم، ثم إنه ﷺ قدوة في أعماله وأفعاله وجهاده؛ فإنه جاهد قومه وحصل منهم عليه ما حصل، وألقي في النار فصبر. ثم ابتلاه الله -سبحانه وتعالىٰ- بالأمر بذبح ابنه وهو وحيده، وقد بلغ معه السعي (أي: شب وترعرع)؛ فليس كبيرًا قد طابت النفس منه، ولا صغيرًا لم تتعلق به النفس كثيرًا، فصار علىٰ منتهىٰ تعلق النفس به. ثم وفق إلىٰ ابن بار مطيع لله، قال الله تعالىٰ: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. لم يحنث والده ويتمرد ويهرب، بل أراد من والده أن يوافق أمر ربه، وهذا من بره بأبيه وطاعته لمولاه سبحانه وتعالىٰ، وانظر إلىٰ هذه القوة العظيمة مع الاعتماد علىٰ الله في قوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. فالسين في قوله: ﴿سَتَجِدُنِي﴾ تدل علىٰ التحقيق، وهو مع ذلك لم يعتمد علىٰ نفسه، بل استعان بالله في قوله: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾. وامتثلا جميعًا وأسلما، وانقادا لله -عز وجل- وتلَّه للجبين، أي: علىٰ الجبين، أي جبهته؛ لأجل أن يذبحه وهو لا يرىٰ وجهه، فجاء الفرج من الله تعالىٰ: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥]. ولا يصح ما ذكره بعضهم من أن السكين انقلبت، أو أن رقبته صارت حديدًا، ونحو ذلك.

قوله: ﴿قَانِتًا﴾: القنوت: دوام الطاعة، والاستمرار علىٰ كل حال؛ فهو مطيع لله، ثابت علىٰ طاعته، مديم لها في كل حال.

كما أن ابنه محمدًا ﷺ يذكر الله علىٰ كل أحيانه[1]: إن قام ذكر الله، وإن جلس ذكره، وإن نام،

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٧٣)، وأبو داود (١٨)، والترمذي (٣٣٨٤)، وابن ماجه (٣٠٢).

. . . .

قال المُصنِّفُ ـ رحمه الله تعالى ـ في هذه الآية: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ : لئلا يستوحش سالكُ الطريق من قلّة السالكين ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ لا للمُلوك ولا للتجار المُترفين! ﴿حَنِيفًا﴾لا يميلُ يمينًا ولا شمالاً، كفعل العُلماء المفتونين!! ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

وإن أكل، وإن قضىٰ حاجته ذكر اللَّه؛ فهو قانت آناء الليل والنهار.

قوله: ﴿ حَنِيفًا﴾: أي: مائلاً عن الشرك، مجانبًا لكل ما يخالف الطاعة؛ فوصف بالإثبات والنفي؛ أي: بالوصفين الإيجابي والسلبي.

قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: تأكيد، أي لم يكن مشركًا طول حياته، فقد كان عليه الصلاة والسلام معصومًا عن الشرك، مع أن قومه كانوا مشركين، فوصفه اللَّه بامتناعه عن الشرك استمرارًا في قوله: ﴿ حَنِيفًا﴾، وابتداءً في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. والدليل علىٰ ذلك: أن اللَّه جعله إمامًا، ولا يجعل اللَّه للناس إمامًا مَن لم يحقق التوحيد أبدًا. ومن تأمل حال إبراهيم عليه السلام وما جرىٰ عليه وجد أنه في غاية ما يكون من مراتب الصبر، وفي غاية ما يكون من مراتب اليقين؛ لأنه لا يصبر علىٰ هذه الأمور العظيمة إلا من أيقن بالثواب، فمن عنده شك أو تردد لا يصبر علىٰ هذ؛ لأن النفس لا تدع شيئًا إلا لما هو أحب إليها منه، ولا تحب شيئًا إلا ما ظنت فائدته، أو تيقنت. ويجب أن نعلم أن ثناء اللَّه علىٰ أحد من خلقه لا يقصد منه أن يصل إلينا الثناء فقط، لكن يقصد منه أمران هامان:

الأول: محبة هذا الذي أثنىٰ عليه خيرًا، كما أن من أثنىٰ اللَّه عليه شرًا، فإننا نبغضه ونكرهه، فنحب إبراهيم عليه السلام؛ لأنه كان إمامًا حنيفًا قانتًا للَّه ولم يكن من المشركين، ونكره قومه؛ لأنهم كانوا ضالين، ونحب الملائكة وإن كانوا من غير جنسنا؛ فإنهم قائمون بأمر اللَّه، ونكره الشياطين؛ لأنهم عاصون للَّه وأعداء لنا وللَّه، ونكره أتباع الشياطين؛ لأنهم عاصون للَّه أيضًا وأعداء للَّه ولنا.

الثاني: أن نقتدي به في هذه الصفات التي أثنىٰ اللَّه بها عليه؛ لأنها محل الثناء، ولنا من الثناء بقدر ما اقتدينا به فيها، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[يوسف: ١١١]، وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾[الممتحنة: ٦]. وهذه مسألة مهمة؛ لأن الإنسان أحيانًا يغيب عن باله الغرض الأول، وهو محبة هذا الذي أثنىٰ اللَّه عليه خيرًا، ولكن لا ينبغي أن يغيب؛ لأن الحب في اللَّه، والبغض في اللَّه من أوثق عرىٰ الإيمان.

فائدة: أبو إبراهيم مات علىٰ الكفر، والصواب الذي نعتقده أن اسمه آزر؛ كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾[الأنعام: ٧٤]. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]؛ لأنه قال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[التوبة: ١١٤]؛ وفي سورة إبراهيم قال: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[إبراهيم: ٤١]، ولكن فيما بعد تبرأ منه. أما نوح فقال: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[نوح: ٢٨]. وهذا يدل علىٰ أن أبوي نوح كانا مؤمنين.

فائدة أخرىٰ: قال الإمام أحمد: ثلاثة ليس لها أصل: المغازي، والملاحم، والتفسير؛ فهذه

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾.

خلافًا لمن كثَّر سوادَهم، وزعم أنَّه من المسلمين. انتهى.

وقد روىٰ ابنُ أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾: علىٰ الإسلام. ولم يكن في زمانه أحدٌ علىٰ الإسلام غيرُه.

قلتُ: ولا مُنافاة بين هذا وبين ما تقدَّم: من أنَّه كان إمامًا يُقتدىٰ به في الخير.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٩][1].

وصَفَ المؤمنين السابقين إلي الجنة، فأثنَىٰ عليهم بالصفات التي أعظمُها: أنهم بربهم لا يُشركون. ولما كان المرءُ قد يَعرض له ما يقدحُ في إسلامه: من شركٍ جَليٍّ أو خفي، نفىٰ ذلك عنهم. وهذا هو تحقيقُ التوحيد، الذي حسُنت به أعمالهم، وكمُلت ونفعَتْهم.

قلتُ: قوله: حسُنت وكمُلت. هذا باعتبار سلامتِهم من الشرك الأصغر. وأمَّا الشركُ الأكبر، فلا يُقال في تركه ذلك، فتدبر. ولو قال الشارح: صحَّت، لكان أقوم.

قال ابنُ كثير: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ أي: لا يعبدون مع الله غيره. بل يوحِّدونه، ويعلمون أنه: لا إله إلاَّ الله، أحدٌ صمد. لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا، وأنه لا نظير له[2].

الغالب فيها أنها تذكر بدون إسناد، ولهذا؛ فإن المفسرين يذكرون قصة آدم، ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ [الأعراف: ١٩٠]. وقليل منهم من ينكر القصة المكذوبة في ذلك.

فالقاعدة إذًا: أنه لا أحد يعلم عن الأمم السابقة شيئًا إلا من طريق الوحي، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ﴾[إبراهيم: ٩].

الآية الثانية: قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٩].

هذه الآية سبقها آية، وهي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧]. لكن المؤلف ذكر الشاهد، و﴿مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾؛ أي: من خوفهم منه علىٰ علم، و﴿مُّشْفِقُونَ﴾؛ أي: خائفون من عذابه إن خالفوه. فالمعاصي بالمعنىٰ الأعم ـ كما سبق ـ شرك؛ لأنها صادرة عن هوىٰ مخالف للشرع. وقد قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

أما بالنسبة للمعنىٰ الأخص؛ فيقسمها العلماء قسمين: ١ ـ شرك. ٢ ـ فسوق.

---

(١) في قرة العيون: قال العماد ابن كثير: أي مع إحسانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله وخائفون وجلون من مكره بهم؛ كما قال الحسن البصري: (المؤمن من جمع إحسانًا وشفقًا، والمنافق من جمع إساءة وأمنًا) ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٨] أي يؤمنون بآيات الله الكونية والشرعية لقوله تعالى عن مريم: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾[التحريم: ١٢] أي أيقنت أن ما كان فهو من قدر الله وقضائه، وما شرعه الله إن كان أمرًا فهو ما يحبه الله ويرضاه، وإن كان نهيًا فهو ما يكرهه ويأباه، وإن خيرًا فهو حق. (ق).

(٢) في قرة العيون: فترك الشرك يتضمن كمال التوحيد ومعرفته على الحقيقة ومحبته وقبوله والدعوة إليه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ [الرعد: ٣٦] وتضمنت هذه الآية كمال التوحيد وتحقيقه وبالله التوفيق. (ق).

عن حُصين بن عبد الرحمن، قال: كنتُ عند سعيد بن جُبير،فقال: أيُّكم رأى الكوكب الذي انقضَّ البارحة؟ فقلتُ: أنا! ثم قلتُ: أما إني لم أكُن في صلاة، ولكني لُدغتُ. قال: فماذا صنعت؟ قلتُ: ارتقيتُ. قال فما حملك على ذلك؟! قلتُ: حديثٌ حدَّثناه الشَّعبي، قال: وما حدثكم؟ قلتُ: حدَّثنا

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: عن حُصين بن عبد الرحمن، قال: كنتُ عند سعيد ابن جُبير،فقال: أيُّكم رأى الكوكب الذي انقضَّ[1] البارحة؟ فقلتُ: أنا! ثم قلتُ: أما إني لم أكُن في صلاة، ولكني لُدغتُ. قال: فماذا صنعت؟ قلتُ: ارتقيتُ. قال فما حملك على ذلك؟! قلتُ: حديثٌ حَدَّثناه الشَّعبي، قال: وما حدثكم؟ قلتُ: حدَّثنا عن بُريدة بن الحُصَيْب، أنه قال: «لا رُقْيَةَ إلاَّ من عين[2] أو حُمَة[3]»[4] قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدَّثنا ابنُ عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: «عُرِضَت عليَّ الأُمَمَ، فرأيتُ النبيَّ ومعه الرَّهَطُ، والنبيَّ ومعه الرجلُ والرجلان، والنبي وليس معه أحدٌ. إذ رُفع لي سوادٌ عظيم، فظننت أنهم أُمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه. فنظرتُ فإذا سوادٌ عظيم، فقيل لي: هذه أمَّتُك، ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنَّةَ بغير حساب ولا عذاب» ثم نَهضَ فدخل منزله، فخاض الناسُ في أولئك، فقال بعضُهم: فلعلَّهم الذين صحبُوا رسول الله ﷺ، وقال بعضُهم: فلعلَّهم الذين وُلدوا في الإسلام، فلم يُشركوا بالله شيئًا، وذكروا أشياءَ، فخرج عليهم رسولُ الله ﷺ فأخبروه. فقال: «هم الذين لا يستَرقُون ولا يَكْتَوُون

وقوله: ﴿لا يُشْرِكُونَ﴾: يراد به الشرك بالمعنى الأعم؛ إذ تحقق التوحيد لا يكون إلا باجتناب الشرك بالمعنى الأعم، ولكن ليس معنى هذا ألا تقع منهم المعاصي؛ لأن كل ابن آدم خطاء، وليس بمعصوم، ولكن إذا عصوا؛ فإنهم يتوبون ولا يستمرون عليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

قوله: «عن حصين بن عبد الرحمن؛ قال: كنت عند سعيد بن جبير»: وهما رجلان من التابعين ثقتان.

قوله: «انقضَّ البارحة»: أي: سقط البارحة: أقرب ليلة مضت، وقال بعض أهل اللغة: تقول: فعلنا الليلة كذا، إن قلته قبل الزوال، و: فعلنا البارحة كذا؛ إن قلته بعد الزوال.

وفي عرفنا؛ فمن طلوع الشمس إلى الغروب نقول: البارحة لليلة الماضية، ومن غروب الشمس إلى طلوعها نقول: الليلة التي نحن فيها.

(١) انقض: سقط. (٢) العين: الحسد وهو ما تصيب به العين من سوء وأذى بقدر الله. (٣) الحمة: السم.
(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم(٢٢٠)، والترمذي (٢٤٤٦)، وأحمد (٢٤٤٤).

عن بُريدة بن الحُصَيْب، أنه قال: «لا رُقْيَةَ إلاَّ من عين أو حُمَةٍ» قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع،

ولا يتطيَّرون وعلى ربهم يتوكَّلون». فقام عُكَّاشة بن مِحْصَن. فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أنْ يجعلني منهم، قال: «أنت منهم». ثم قام رجلٌ آخر، فقال: ادْعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عُكَّاشة»[1].

هكذا أورده المصنفُ غيرَ مَعزُوّ. وقد رواه البخاريُّ مختصرًا ومطولاً. ومسلم، واللفظ له، والترمذي، والنسائي.

قوله: (عن حُصين بن عبد الرحمن). هو السُّلَمي[2]، أبو الهُذيل الكوفي، ثقةٌ مات سنة ستٍ وثلاثين ومائة، وله ثلاثٌ وتسعون سنة.

وسعيد بن جُبير: هو الإمامُ الفقيه، من جلَّة أصحاب ابن عباس، روايتُه عن عائشة، وأبي موسىٰ مُرسلة. وهو كوفيٌّ، مولىٰ لبني أَسَد. قُتل بين يدي الحجاج سنة خمس وتسعين، ولم يُكمل الخمسين.

قوله: (انقضَّ). هو بالقاف والضَّاد المُعجمة، أي: سقط. والبارحَة هي: أقربُ ليلةٍ مضت. قال أبو العباس ثعلب يقال قبل الزوال: رأيتُ الليلة، وبعد الزوالُ: رأيتُ البارحة، وكذا قال غيرُه. وهي مُشتقّةٌ من بَرِح: إذا زال.

قوله: (أمَا إني لم أكن في صلاة)، قال في (مُغني اللبيب): أمَا. بالفتح والتخفيف، علىٰ

بل بعض العامة يتوسع متىٰ قام من الليل قال: البارحة؛ وإن كان في ليلته.

قوله: « فقلت أنا»: أي: حصين.

قوله: «أما إني لم أكن في صلاة». أما: أداة استفتاح، وقيل: إنها بمعنىٰ حقًا، وعلىٰ هذا؛ فتفتح همزة« إن»، فيقال: أما إني لم أكن في صلاة، أي: حقًا أني لم أكن في صلاة.

وقال هذا رحمه اللَّه لئلا يظن أنه قائم يصلي فيحمد بما لم يفعل، وهذا خلاف ما عليه بعضهم، يفرح أن الناس يتوهمون أنه يقوم يصلي، وهذا من نقص التوحيد.

وقول حصين رحمه اللَّه ليس من باب المراءاة، بل هو من باب الحسنات، وليس كمن يترك الطاعات خوفًا من الرياء؛ لأن الشيطان قد يلعب بالإنسان، ويزين له ترك الطاعة خشية الرياء، بل افعل الطاعة، ولكن لا يكن في قبلك أنك ترائي الناس.

قوله: «لدغت»: أي: لدغته عقرب أو غيرها، والظاهر أنها شديدة؛ لأنه لم ينم منها.

قوله: «ارتقيت»: أي: استرقيت؛ لأن افتعل مثل استفعل، وفي رواية مسلم: «استرقيت»؛

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٧٠٥، ٥٧٥٢، ٥٨١١، ٦٥٤١، ٦٥٤٢)، ومسلم (٢١٦، ٢١٨، ٢٢٠) واللفظ لمسلم.

(٢) في قرة العيون: الحارثي، من تابعي التابعين. عن الشعبي.(ق).

. . . .

وجهين: أحدُهما: أن تكون حرفَ استفتاح بمنزلة ألا، وإذا وقعت أنّ بعدها كُسرت. الثاني: أنْ تكون بمعنىٰ حقًا، أو أحقًا. وقال آخرون: هي كلمتان: الهمزةُ للاستفهام، وما اسمٌ بمعنىٰ شيء، ذلك الشيءُ حقٌّ. فالمعنىٰ أحقًا. وهذا هو الصواب. وموضعُ ما: النصب علىٰ الظرفية. وهذه تُفتح أنّ بعدها. انتهىٰ. والأنسبُ هنا هو الوجه الأوَّل.

القائلُ هو حُصين، خاف أنْ يظنَّ الحاضرون: أنَّه رآه وهو يُصلي، فنفىٰ عن نفسه إيهام العبادة. وهذا يدل علىٰ فضل السلف، وحرصِهم علىٰ الإخلاص، وإبتعادهم عن الرياء والتزيُّنِ بما ليس فيهم.

قوله: (ولكني لُدغت) بضم أوَّله، وكسر ثانيه. قال أهلُ اللغة: يُقال: لدغته العقربُ، وذواتُ السموم: إذا أصابته بسُمِّها، وذلك بأنْ تأبره بشوْكتها.

قوله: (قلتُ: ارتقيت). لفظُ مسلم: استرقيتُ. أي: طلبتُ من يرقيني.

قوله: (فما حملك على ذلك؟) فيه طلبُ الحجّةِ علىٰ صحة المذهب.

قوله: (حديثٌ حدثناه الشعبيُّ). اسمُه: عامر بن شَرَاحيل الهمداني. وُلد في خلافة عمر، وهو من ثقات التابعين وفقهائهم[1]، مات سنة ثلاثٍ ومائة.

أي: طلبت الرقية.

قوله: «فما حملك على ذلك». أي: قال سعيد: ما السبب أنك استرقيت.

قوله: «حديث حدثناه الشعبي». وهذا يدل علىٰ أن السلف رضي اللَّه عنهم يتحاورون حتىٰ يصلوا إلىٰ الحقيقة، فسعيد بن جبير لم يقصد الانتقاد علىٰ هذا الرجل، بل قصد أن يستفهم منه ويعرف مستنده.

قوله: «لا رقية». أي: لا قراءة أو لا استرقاء علىٰ مريض أو مصاب.

قوله: «إلا من عين». ويسميها العامة الآن: «النحاتة»، وبعضهم يسميها «النفس»، وبعضهم يسميها «الحسد».

قوله: «حُمَة». بضم الحاء، وفتح الميم مع تخفيفها، هي كل ذات سم، والمعنىٰ: لدغته إحدىٰ ذوات السموم، والعقرب من ذوات السموم.

فقال سعيد بن جبير: قد أحسن من انتهىٰ إلىٰ ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس... إلخ.

إذن؛ فحصين استند علىٰ حديث: «لا رقية إلا من عين أو حُمَة»، وهذا يدل علىٰ أن الرقية من العين أو الحمة مفيدة، وهذا أمر واقع؛ فإن الرقىٰ تنفع بإذن اللَّه من العين ومن الحمة أيضًا، وكثير من الناس يقرءون علىٰ الملدوغ فيبرأ حالاً، ويدل لهذا قصة الرجل الذي بعثه النبي ﷺ في سرية، فاستضافوا قومًا، فلم يضيِّفوهم، فلُدغ سيدهم لدغته عقرب، فقالوا: من يرقي؟ فقالوا: لعل هؤلاء الركب عندهم راق، فجاءوا إلىٰ السرية، قالوا: هل فيكم من راق؟ قالوا: نعم، ولكن لا نرقي لكم

---

(١) روى عن عمر وعلي وابن مسعود ولم يسمع منهم. وعن أبي هريرة وعائشة وجرير وابن عباس وخلق. قال الشعبي: ما كتبت سوداء في بيضاء. يعني أنه كان معتنيًا بالحفظ. (ق).

. . . .

قوله: (عن بُريدة) بضم أوّله وفتح ثانيه، تصغير بُرُدة (ابن الحُصَيب)-بضم الحاء وفتح الصاد المُهملتين-ابن الحارث الأسلمي، صحابيٌّ شهير. مات سنة ثلاثٍ وستين. قاله ابنُ سعد.

قوله: (لا رُقْيَة إلاَّ من عينٍ أو حُمَة) وقد رواه أحمدُ، وابن ماجه، عنه مرفوعًا. ورواه أحمدُ، وأبو داود، والترمذي، عن عِمران بن حُصين، به مرفوعًا. قال الهيثميُّ: رجالُ أحمد ثقات. و(العين): هي إصابةُ العائن غيره بعينه. و (الحُمة)-بضمِّ المهملة وتخفيف الميم-سمُّ العقرب، وشبهها.

قال الخطَّابي: ومعنى الحديث: لا رُقية أشفى وأولى من رُقيةِ العين والحُمة، وقد رَقى النبيُّ ﷺ ورُقي.

قوله: (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع). أي: مَن أخذ بما بلغه من العلم، وعمل به فقد أحسن. بخلاف من يعملُ بجهل، أوْلا يعمل بما يعلم؛ فإنّه مسيءٌ آثم. وفيه: فضيلةُ علم السَّلف، وحُسنُ أدبهم[1].

قوله: (ولكن حدّثنا ابنُ عباسٍ) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، ابنُ عم النبي ﷺ، دعا له، فقال: «اللَّهم فقِّههُ في الدين، وعلِّمه التأويل»[2][3] فكان كذلك، مات بالطائف سنة ثمانٍ وستين.

قال المُصنِّفُ رحمه الله: وفيه عُمقُ علم السلف؛ لقول: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن كذا وكذا. فعُلِم أن الحديث الأول لا يخالفُ الثاني.

إلا بشيء من الغنم. فقالوا: نعطيكم، فاقتطعوا لهم من الغنم، ثم ذهب أحدهم يقرأ عليه الفاتحة، قرأها ثلاثًا أو سبعًا، فقام كأنما نشط من عقال، فانتفع اللديغ بقراءتها، ولهذا قال ﷺ: **«وما يدريك أنها رقية؟»**[4] (يعني الفاتحة)، وكذا القراءة من العين مفيدة. ويستعمل للعين طريقة أخرى غير الرقية، وهو الاستغسال، وهي أن يؤتى بالعائن، ويطلب منه أن يتوضأ، ثم يؤخذ ما تناثر من الماء من أعضائه، ويصب على المصاب، ويشرب منه، ويبرأ بإذن اللّه. وهناك طريقة أخرى، ولا مانع منها أيضًا، وهي أن يؤخذ شيء من شعاره، أي: ما يلي جسمه من الثياب؛ كالثوب، والطاقية، والسروال، وغيرها، أو التراب إذا مشى عليه وهو رطب، ويصب على ذلك ماء يرش به المصاب أو يشربه، وهو مُجرَّب. وأما العائن: فينبغي إذا رأى ما يعجبه أن يبرك عليه؛ لقول النبي ﷺ لعامر بن ربيعة لما عان سهل بن حنيف: **«هلا برَّكت عليه؟»**؛ أي: قلت: بارك اللّه عليك.

---

(١) في قرة العيون: فيه حسن الأدب مع العلم وأهله وأن من فعل شيئًا سئل عن مستنده في فعله هل كان مقتديًا أم لا؟ ومن لم يكن معه حجة شرعية فلا عذر له بما فعله، ولهذا ذكر ابن عبد البر الإجماع على أن المقلد ليس من أهل العلم. فتفطن لهذا. (ق).

(٢) رواه البخاري في عدة مواضع من صحيحه. (ق).

(٣) صحيح: رواه أحمد في المسند (١/ ٢٦٦) ومواضع، وقال العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٢٢٠): قاله عليه الصلاة والسلام لابن عباس كما رواه أحمد والطبراني عنه؛ لكن قال الحافظ ابن حجر: اشتهرت هذه اللفظة حتى نسبها بعضهم للصحيحين ولم يصب. انتهى. كذا في النجم، وفيه أيضًا نعم أصل الحديث ثم البخاري والترمذي عن ابن عباس قال: ضمني النبي ﷺ إلى صدره وقال: **«اللهم علمه الحكمة»**، وفي رواية ثم البخاري عنه: **«اللهم علمه الكتاب»**. والحديث صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٢٥٨٩).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٢٢٧٦، ٥٧٤٩)، ومسلم (٢٢٠١).

ولكن حدَّثنا ابنُ عباسٍ، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «عُرضَت عليَّ الأُمَمَ، فرأيتُ النبيَّ ومعه الرَّهَطُ، والنبيَّ ومعه الرجلُ والرجلان، والنبي وليس معه أحدٌ. إذ رُفع لي سوادٌ عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه. فنظرت فإذا سوادٌ عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنَّةَ بغير حساب ولا عذاب» ثم نَهضَ فدخل منزله، فخاض الناسُ في أولئك، فقال بعضُهم: فلعلَّهم الذين صحِبُوا رسول الله ﷺ، وقال بعضُهم: فلعلَّهم الذين وُلدوا في الإسلام، فلم يُشركوا بالله شيئًا، وذكروا أشياءَ، فخرج عَليهم رسولُ الله ﷺ فأخبروه.

قوله: (عُرضت عليّ الأُمم) وفي الترمذي، والنسائي - من رواية عَبْثر بن القاسم، عن حُصين ابن عبد الرحمن -: أن ذلك كان ليلة الإسراء. قال الحافظ: فإنْ كان ذلك محفوظًا، كان فيه قوّةٌ لمن ذهب إلى تعدد الإسراء، وأنه وقع بالمدينة أيضًا [1].

فمن حقق توحيده بأن امتلأ قلبه من الإيمان والتوحيد والإخلاص، وصدقته الأعمال بأن انقادت لأوامر الله طائعة منيبة مخبتة إلى الله، ولم يجرح ذلك بالإصرار على شيء من المعاصي، فهذا الذي يدخل الجنة بغير حساب: ويكون من السابقين إلى دخولها وإلى تبوء المنازل منها.

ومن أخص ما يدل على تحقيقه كمال القنوت لله وقوة التوكل على الله: بحيث لا يلتفت القلب إلى المخلوقين في شأن من شئونه، ولا يستشرف إليهم بقلبه، ولا يسألهم بلسان مقاله أو حاله، بل يكون ظاهره وباطنه وأقواله وأفعاله وحبه وبغضه، وجميع أحواله كلها مقصود بها وجه الله متبعًا فيها رسول الله. والناس في هذا المقام العظيم درجات ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الانعام: ١٣٢].

قوله: «ولكن حدثنا». القائل: سعيد بن جبير.

قوله: «عُرِضَتْ علي الأممُ». العارض لها اللَّه - سبحانه وتعالى - وهذا في المنام فيما يظهر. وانظر: «فتح الباري» (١١/ ٤٠٧، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا، كتاب الرقاق)، والأمم: جمع أمة، وهي أمم الرسل.

قوله: «الرهط»: من الثلاثة إلى التسعة.

قوله: «والنبي ومعه الرجل والرجلان»: الظاهر أن الواو بمعنى أو؛ أي: ومعه الرجل أو الرجلان؛ لأنه لو كان معه الرجل والرجلان صار يغني أن يقول: ومعه ثلاثة، لكن المعنى: والنبي

---

(١) في قرة العيون: فالله أعلم متى عرضت، وعرضها أن الله تبارك وتعالى أراه مثالها إذا جاءت الأنبياء ومن تبعهم. فمن نجا بالإيمان بالله وما بعث به أنبياءه ورسله من دينه الذي شرعه لهم وهو عبادته وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه، والأخذ بما أمرهم به وترك ما نهاهم عنه كما قال تعالى عن قوم نوح: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٢، ٣] فعبادته وتوحيده وطاعته بامتثال ما أمرهم به، وترك ما نهاهم عنه، وطاعة رسوله. هذا هو الدين، أن لا يعبد إلا الله، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع؛ فعلاً وتركًا، وأن يقدم طاعة رسوله على ما يحبه ويهواه. (ق).

. . . .

قلتُ: وفي هذا نظر.

قوله: «فرأيتُ النبيَّ ومعه الرهط» الذي في (صحيح مُسلم): «الرُّهيط» بالتصغير لا غير، وهم الجماعةُ دون العشرة، قاله النووي.

قوله: «والنبيَّ ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد» فيه الردُّ على من احتج بالكثرة[1].

قوله: «إذا رُفع لي سوادٌ عظيم» المراد به هُنا: الشخصُ الذي يُرى من بعيد.

قوله: «فظننت أنهم أُمَّتي»؛ لأن الأشخاص التي تُرى في الأُفق لا يُدرك منها إلاَّ الصورة.

وفي (صحيح مسلم): «ولكن انظر إلى الأُفق» ولم يذكره المصنف. فلعلَّه سقط من الأصل الذي نقل الحديث منه. والله أعلم.

ومعه الرجل، والنبي الثاني ومعه الرجلان.

قوله: «والنبي وليس معه أحد». أي: يبعث ولا يكون معه أحد، لكن يبعثه اللَّه لإقامة الحجة، فإذا قامت الحجة حينئذ، يعذر اللَّه من الخلق، ويقيم عليهم الحجة.

قوله: «إذ رفع لي»: هذا على تقدير محذوف؛ أي: بينما أنا كذلك؛ إذ رفع لي.

قوله: «سواد عظيم»: المراد بالسواد هنا الظاهر أنه الأشخاص، ولهذا يقال: ما رأيت سواده؛ أي: شخصه، أي أشخاصًا عظيمة كانوا من كثرتهم سوادًا.

قوله: «فظننت أنهم أمتي»: لأن الأنبياء عرضوا عليه بأممهم؛ فظن هذا السواد أمته ـ عليه الصلاة والسلام.

قوله: «فقيل لي: هذا موسى وقومه»: وهذا يدل على كثرة أتباع موسى عليه السلام وقومه الذين أرسل إليهم.

قوله: «فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك»: وهذا أعظم من السواد الأول؛ لأن أمة النبي ﷺ أكثر بكثير من أمة موسى عليه السلام.

قوله: «بغير حساب ولا عذاب»: أي: لا يعذبون ولا يحاسبون كرامة لهم، وظاهره أنه لا في قبورهم ولا بعد قيام الساعة.

قوله: «فخاض الناس في أولئك»: هذا الخوض للوصول إلى الحقيقة نظريًا وعمليًا حتى يكونوا منهم.

---

(١) في قرة العيون: أي يبعث في قومه فلا يتبعه منهم أحد كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ ⑩ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الحجر: ١٠، ١١] وفيه دليل على أن الناجي من الأمم هم القليل والأكثرون غلبت عليهم الطبائع البشرية فعصوا الرسل فهلكوا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] وقال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢] وقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢] وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير، والناجون -وإن كانوا أقل القليل- فهم السواد الأعظم، فإنهم الأعظمون قدرًا عند الله. وإن قلوا. فليحذر المسلم أن يغتر بالكثرة وقد اغتر بهم كثيرون حتى بعض من يدعي العلم. اعتقدوا في دينهم ما يعتقده الجهال الضلال ولم يلتفتوا إلى ما قاله الله ورسوله. (ق).

فقال: «هم الذين لا يسْتَرقُون ولا يَكْتَوُون ولا يتطيَّرون وعلى ربهم يتوكَّلون». فقام عُكَّاشة بن مِحْصَن. فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أنْ يجعلني منهم، قال: «أنت منهم». ثم قام رجلٌ آخر، فقال: ادْعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عُكَّاشة».

قوله: «**فقيل لي: هذا موسى وقومه**» أي: موسىٰ بن عِمران، كليمُ الرحمن. وقومُه: أتباعهُ علىٰ دينه من بني إسرائيل[١].

قوله: «**فنظرتُ فإذا سوادٌ عظيم. فقيل لي: هذه أُمَّتكُ ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب**» أي: لتحقيقهم التوحيد. وفي رواية ابن فُضيل: «**ويدخل الجنة من هؤلاء من أُمتك سبعون ألفًا**». وفي حديث أبي هريرة ـ في (الصحيحين) ـ أنهم «**تُضيءُ وجوهُهم إضاءةَ القمر ليلة البدر**»[٢]. وروىٰ الإمامُ أحمد، والبيهقي ـ في حديث أبي هُريرة ـ «**فاستزدتُ ربي فزادني مع كلِّ ألف سبعين ألفًا**»[٣] قال الحافظُ: وسندُه جيد[٤].

قوله: «**الذين صحبوا رسول اللَّه**»: يحتمل أن المراد الصحبة المطلقة، ويؤيده ظاهر اللفظ. ويحتمل أن المراد الذين صحبوه في هجرته، ويؤيده أنه لو كان المراد الصحبة المطلقة؛ لقالوا: نحن؛ لأن المتكلم هم الصحابة، ويدل علىٰ هذا قول الرسول ﷺ لخالد بن الوليد: «**لا تسبوا أصحابي**»[٥] فإن المراد بهم الذين صحبوه في هجرته، لكن يمنع منه أن المهاجرين لا يبلغون سبعين ألفًا. ويمنع

---

(١) في قرة العيون: فيه فضيلة أتباع موسى من بني إسرائيل ممن آمن منهم بالرسل والكتب التي أنزلها الله: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان وغيرها. وكانت بنو إسرائيل قبل التفرق كثيرين وفيهم الأنبياء، ثم بعد ذلك حدث ما حدث من اليهود، وهذا الحديث يدل على أن التابع لموسى عليه السلام كثيرون جدًا، وقد قال تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦] أي في زمانهم. وذلك أن في زمانهم وقبله ممن كفر بالله خلق لا يحصون؛ كحزب جالوت وبختنصر وأمثالهم. ففضل الله بني إسرائيل بالإيمان فصاروا أفضل أهل زمانهم. وحدث فيهم ما ذكر الله في سورة البقرة وغيرها من معصيتهم لأنبيائهم واختلافهم في دينهم، وقد ذكره الله تعالى محتجًّا به على اليهود الذين كفروا بمحمد ﷺ. فتدبر ما ذكره الله تعالى من أحوالهم بعد الاختلاف. (ق).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٥٤٢)، ومسلم (٢١٦).

(٣) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٤٨٤).

(٤) في قرة العيون: فيه فضيلة هذه الأمة وأنهم أكثر الأمم تابعًا لنبيهم ﷺ وقد كثروا في عهد الصحابة ﷺ، وفي وقت الخلفاء الراشدين ومن بعدهم، فملأوا القرى والأمصار والقفار، وكثر فيهم العلم واجتمعت لهم الفنون في العلوم النافعة، فما زالت هذه الأمة على السنة في القرون الثلاثة المفضلة؛ وقد قلوا في آخر الزمان.

قال شيخنا رحمه الله تعالى في مسائله: وفيه فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية، فالكمية الكثرة والعدد، والكيفية فضيلتهم في صفاتهم. (ق).

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠)، وأبو داود (٤٦٥٨)، والترمذي (٣٨٦١)، وابن ماجه (١٦١)، وأحمد (١٠٦٩٥، ١١١٢٤، ١١٢١٤).

. . . .

قوله: (ثم نهض). أي: قام.

قوله: (فخاض الناسُ في أولئك) ـ هذا من العامِّ الذي أُريد به الخصوص ـ أي: جُملةُ الحاضرين. خاض: بالخاء والضاد المُعجمتين.

وفي هذا: إباحةُ المناظرة والمُباحثة في نصوص الشرع، علىٰ وجه الاستفادة وبيان الحق.

وفيه: عُمق علم السلف؛ لمعرفتهم أنَّهم لم ينالوا ذلك إلاَّ بعمل.

وفيه: حرصُهم علىٰ الخير. ذكره المصنف[١].

قوله: فقال: «هم الذين لا يَسترقون» هكذا ثبت في (الصحيحين)، وهو كذلك في حديث ابن مسعود، في «مُسند أحمد». وفي رواية لمسلم: **«لا يَرقُون»**.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ: هذه الزيادةُ وهمٌ من الراوي، لم يَقُل النبيُّ ﷺ: «لا يَرقون»؛ وقد قال النبيُّ ﷺ وقد سُئل عن الرُّقىٰ: **«من استطاع منكم أنْ ينفع أخاه فلينفعه»**[٢][٣]. وقال: **«لا بأس بالرُّقى ما لم تكن شركًا»**[٤][٥].

قال: وأيضًا، فقد رقىٰ جبريلُ النبيَّ ﷺ ورقىٰ النبيُّ ﷺ أصحابه[٦].

الاحتمال الأول: أن الصحابة أكثر من سبعين ألفًا، ويحتمل أن المراد من كان مع الرسول ﷺ إلىٰ فتح مكة؛ لأنه بعد فتح مكة دخل الناس في دين اللَّه أفواجًا. وهذه المسألة تحتاج إلىٰ مراجعة أكثر.

قوله: « الذين ولدوا في الإسلام»: أي: من ولد بعد البعثة وأسلم، وهؤلاء كثيرون، ولوقلنا: ولدوا في الإسلام من الصحابة ما بلغوا سبعين ألفًا.

قوله: «فخرج عليهم رسول اللَّه، فأخبروه»: أي: أخبروه بما قالوا وما جرىٰ بينهم.

قوله: «لا يسترقون»، في بعض روايات مسلم: **«لا يرقون»**[٧].

---

(١) في قرة العيون: وفيه أيضًا فضل الصحابة ﷺ في مذاكرتهم العلم وحرصهم على فهم ما حدثهم به نبيهم ﷺ حرصًا على العمل به، وفيه جواز الاجتهاد فيما لم يكن فيه دليل، لأنهم قالوا ما قالوا باجتهادهم، ولم ينكر ﷺ ذلك عليهم، لكن المجتهد إذا لم يكن معه دليل لا يجوز له أن يجزم بصواب نفسه، بل يقول لعل الحكم كذا وكذا كقول الصحابة ﷺ في هذا الحديث.(ق).

(٢) رواه مسلم والإمام أحمد وابن ماجه عن جابر ﷺ. (ق).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢١٩٩).

(٤) رواه مسلم وأبو داود عن عوف بن مالك.(ق).

(٥) صحيح: رواه مسلم (٢٢٠٠).

(٦) رقى جبريل النبي ﷺ من السحر؛ كما في البخاري من حديث عائشة. وقد ثبت في البخاري وغيره رقى كثيرة من قول النبي ﷺ عن عائشة وأنس وابن مسعود وغيرهم.(ق).

(٧) صحيح: رواه مسلم (٢٢٠).

. . . .

قال: والفرقُ بين الراقي والمُسترقي: أنَّ المُسترقي سائلٌ مستعطٍ ملتفتٌ إلىٰ غير الله بقلبه، والراقي مُحسن.

قال: وإنما المُراد: وصفُ السبعين ألفًا بتمام التوكل، فلا يسألون غيرَهم أنْ يرقيهم ولا يكويهم. وكذا قال ابنُ القيم[١].

قوله: «ولا يكتوون» أي: لا يسألون غَيرهم أنْ يكويهم، كما لا يسألون غيرهم أنْ يرقيهم؛ استسلامًا للقضاء، وتلذذًا بالبلاء.

قلتُ: والظاهر أنَّ قوله: «لا يكتوون» أعمُّ من أنْ يسألوا ذلك، أو يُفعل بهم ذلك باختيارهم.

أمَّا الكيُّ في نفسه فجائز؛ كما في (الصحيح) - عن جابر بن عبد الله - أنَّ النبي ﷺ بعث إلىٰ أُبي بن كعب طبيبًا فقطع له عِرقًا، وكواه[٢].

ولكن هذه الرواية خطأ؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية؛ لأن الرسول ﷺ كان يرقي[٣]، ورقاه جبريل[٤]، وعائشة[٥]، وكذلك الصحابة كانوا يرقون.

واستفعل بمعنىٰ طلب الفعل، مثل: استغفر؛ أي: طلب المغفرة، واستجار: طلب الجوار، وهنا استرقىٰ؛ أي: طلب الرقية، أي لا يطلبون من أحد أن يقرأ عليهم؛ لما يلي:

١ - لقوة اعتمادهم علىٰ اللَّه. ٢ - لعزَّة نفوسهم عن التذلل لغير اللَّه.

٣ - ولما في ذلك من التعلق بغير اللَّه.

قوله: «ولا يكتوون». أي: لا يطلبون من أحد أن يكويهم.

ومعنىٰ اكتوىٰ: طلب من يكويه، وهذا مثل قوله: «ولا يسترقون».

أما بالنسبة لمن أُعدّ للكي من قبل الحكومة، فطلب الكي منه ليس فيه ذلّ؛ لأنه معد من قبل الحكومة يأخذ الأجر علىٰ ذلك من الحكومة، ولأن هذا الطلب مجرد إخبار من الطالب بأنه محتاج إلىٰ الكي، وليس سؤال تذلل.

---

(١) في قرة العيون: فتركوا الشرك رأسًا، ولم ينزلوا حوائجهم بأحد فيسألونه الرقية فما فوقها، وتركوا الكي وإن كان يراد للشفاء، والحامل لهم على ذلك قوة توكلهم على الله؛ وتفويضهم أمورهم إليه، وأن لا تتعلق قلوبهم بشيء سواه في ضمن ما دبره وقضاه فلا يرغبون إلا إلى ربهم، ولا يرهبون إلا منه، ويعتقدون أن ما أصابهم بقدره واختياره لهم، فلا يفزعون إلا إليه وحده في كشف ضرهم. قال تعالى عن يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]. (ق).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٠٧). (٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٤٣، ٥٧٤٤)، ومسلم (٢١٩١).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢١٨٥)، وأحمد (٢٤٧٤٤).

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٣٥، ٥٧٥١)، ومسلم (٢١٩٢).

. . . .

وفي (صحيح البخاري) - عن أنس - أنه كُوي من ذات الجنب[١]، والنبيُّ ﷺ حيٌّ[٢] .

وروى الترمذي، وغيرهُ - عن أنس - أنَّ النبي ﷺ كوى أسعد بن زُرارة، من الشوكة[٣][٤] .

وفي (صحيح البخاري) - عن ابن عباس - مرفوعًا : «**الشِّفاءُ في ثلاث: شربة عسل، وشرطة محجم، وكيَّة نار. وأنا أنهى عن الكي**»[٥] وفي لفظ : «**وما أُحب أنْ أكتوي**»[٦] .

قوله: «ولا يتطيرون»: مأخوذ من الطير، والمصدر منه تطيُّر.

والطيرة اسم المصدر، وأصله: التشاؤم بالطير، ولكنه أعم من ذلك؛ فهو التشاؤم بمرئي، أو مسموع، أو زمان، أو مكان.

وكانت العرب معروفة بالتَّطيُّر، حتى لو أراد الإنسان منهم خيراً ثم رأى الطير سنحت يمينًا أو شمالاً حسب ما كان معروفًا عندهم، تجده يتأخر عن هذا الذي أراده.

ومنهم من إذا سمع صوتًا أو رأى شخصًا تشاءم. ومنهم من يتشاءم في شهر شوال بالنسبة للنكاح، ولذا قالت عائشة رضي اللَّه عنها: « عقد عليَّ رسول اللَّه ﷺ في شوال، وبنى بي في شوال؛ فأيكن كان أحظى عنده»[٧]. ومنهم من يتشاءم بيوم الأربعاء، أو بشهر صفر وهذا كله مما أبطله الشرع؛ لضرره على الإنسان عقلاً وتفكيراً وسلوكًا، وكون الإنسان لا يبالي بهذه الأمور هذا هو التوكل على اللَّه، ولهذا ختم المسألة بقوله: «**وعلى ربهم يتوكلون**»؛ فانتفاء هذه الأمور عنهم يدل على قوة توكلهم.

وهل هذه الأشياء تدل على أن من لم يتصف بها فهو مذموم، أو فاته الكمال؟

الجواب: أن الكمال فاته إلا بالنسبة للتطير؛ فإنه لا يجوز؛ لأنه ضرر وليس له حقيقة أصلاً. أما بالنسبة لطلب العلاج؛ فالظاهر أنه مثله لأنه عام، وقد يقال: إنه لولا قوله: «**ولا يسترقون**»؛ لقلت: إنه لا يدخل؛ لأن الاكتواء ضرر محقق: إحراق بالنار، وألم للإنسان، ونفعه مرتجى، لكن كلمة «**يسترقون**» مشكلة؛ فالرقية ليس فيها ضرر، إن لم تنفع لم تضر، وهنا نقول: الدواء مثلها؛ لأن الدواء إذا لم ينفع لم يضر، وقد يضر أيضًا؛ لأن الإنسان إذا تناول دواء وليس فيه مرض لهذا الدواء فقد يضره.

وهذه المسألة تحتاج إلى بحث، وهل نقول مثلاً: ما تؤكد منفعته إذا لم يكن في الإنسان إذلال

---

(١) قال في النهاية: ذات الجنب: الدمل الكبيرة التي تظهر في باطن الجنب وينفجر إلى داخل. وقلما يسلم صاحبها. اهـ. ولعلها: السل والله أعلم. (ق).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (٥٧٢١).

(٣) قال في النهاية: الشوكة: حمرة تعلو الوجه والجسد.

(٤) **صحيح**: صححه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٥٤٣٤).

(٥) **صحيح**: رواه البخاري (٥٦٨٠، ٥٦٨١).

(٦) **صحيح**: رواه البخاري (٥٦٨٣)، ومسلم (٢٢٠٥).

(٧) **صحيح**: رواه مسلم (١٤٢٣)، والترمذي (١٠٩٣)، والنسائي (٣٢٣٦)، وابن ماجه (١٩٩٠)، وأحمد (٢٣٧٥١، ٢٥١٨٨)، والدارمي (٢٢١١).

. . . .

قال ابنُ القيم رحمه الله تعالى: قد تضمنَّت أحاديثُ الكيِّ أربعةَ أنواع:
أحدُها: فِعْلُه. والثاني: عدمُ محبته، والثالث: الثناءُ على من تركه، والرابع: النهيُ عنه. ولا تعارُضَ بينها بحمد الله.

فإنَّ فعله له يدلُّ على جوازه، وعدم محبته لا يدلُّ على المنع منه: وأمَّا الثناءُ على تاركه، فيدلُّ على أنَّ تركه أولى وأفضل، وأمَّا النهيُ، فعلى سبيل الاختيار والكراهة.

قوله: «ولا يتطيّرون» أي: لا يتشاءمون بالطيور ونحوها. وسيأتي إنْ شاء الله تعالى بيانُ الطيرة، وما يتعلَّق بها في بابها.

قوله: «وعلى ربهم يتوكلون» ذكر الأصلَ الجامع الذي تفرَّعت عنه هذه الأفعالُ والخصال، وهو التوكلُ على الله، وصِدقُ الالتجاء إليه، والاعتمادُ بالقلب عليه. الذي هو نهايةُ تحقيق التوحيد، الذي

لنفسه؛ فهو لا يضر، أي: لا يفوت المرء الكمال به، مثل الكسر وقطع العضو مثلاً، أو كما يفعل الناس الآن في الزائدة وغيرها.

ولو قال قائل بالاقتصار على ما في هذا الحديث، وهو أنهم لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون، وأن ما عدا ذلك لا يمنع من دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب؛ للنصوص الواردة بالأمر بالتداوي والثناء على بعض الأدوية؛ كالعسل والحبة السوداء لكان له وجه.

وإذا طلب منك إنسان أن يرقيك؛ فهل يفوتك كمال إذا لم تمنعه؟

الجواب: لا يفوتك؛ لأن النبي ﷺ لم يمنع عائشة أن ترقيه، وهو أكمل الخلق توكلاً على اللّه وثقة به، ولأن هذا الحديث: **«لا يسترقون...»** إلخ. إنما كان في طلب هذه الأشياء، ولا يخفى الفرق بين أن تحصل هذه الأشياء بطلب وبين أن تحصل بغير طلب.

قوله: « فقال: أنت منهم»: وقول الرسول ﷺ هذا هل هو بوحي من اللّه إقراري، أو وحي إلهامي، أو وحي رسول؟ مثل هذه الأمور يحتمل أنها وحي إلهامي، أو بواسطة الرسول، أو وحي إقراري بمعنى أن الرسول يقولها، فإذا أقره اللّه عليه؛ صارت وحيًا إقراريًا. لكن رواية البخاري: **«اللّهم اجعله منهم»** تدل على أن الجملة: **«أنت منهم»** خبر بمعنى الدعاء.

قوله: «ثم قام رجل آخر: فقال: ادع اللّه أن يجعلني منهم. قال: سبقك بها عُكّاشة».

لم يرد النبي ﷺ أن يقول له: لا، ولكن قال: سبقك بها؛ أي: بهذه المنقبة والفضيلة، أو بهذه المسألة عكاشة بن محصن. وقد اختلف العلماء لماذا قال الرسول ﷺ هذا الكلام؟ فقيل: إنه كان منافقًا، فأراد الرسول ﷺ ألا يجابهه بما يكره تأليفًا.

وقيل: خاف أن ينفتح الباب فيطلبها من ليس منهم؛ فقال هذه الكلمة التي أصبحت مثلاً، وهذا أقرب.

فيه مسائل:

الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد.

الثانية: ما معنى تحقيقه.

الثالثة: ثناؤه سبحانه على إبراهيم بكونه لَمْ يكُ من المشركين.

الرابعة: ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك.

يُثمر كلَّ مقام شريف: من المحبة، والرجاء، والخوف، والرضىٰ به ربًا، وإلهًا، والرضىٰ بقضائه.

واعلم أنَّ الحديث لا يدلُّ علىٰ أنهم لا يُباشرون الأسباب أصلاً؛ فإنَّ مُباشرة الأسباب ـ في الجُملة ـ أمرٌ فطري ضروري، لا انفكاك لأحد عنه. بل نفسُ التوكل: مباشرةٌ لأعظم الأسباب؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] أي: كافيه.

وإنما المرادُ: أنهم يتركون الأمورَ المكرُوهة مع حاجتهم إليها، توكلاً علىٰ الله تعالىٰ، كالاكتواء والاسترقاء. فتركُهم له؛ لكونه سببًا مكروهًا، لا سيما والمريضُ يتشبَّث فيما يظنُّه سببًا لشفائه بخيط

قوله: «فيه مسائل»: أي: في هذا الباب مسائل:

المسألة الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد:

وهذه مأخوذة من قوله: «**يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب**». ثم قال: «**هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولايتطيرون**».

الثانية: ما معنى تحقيقه؟

أي: تحقيق التوحيد، وسبق لنا في أول الباب أن تحقيقه: تخليصه من الشرك.

الثالثة: ثناؤه ـ سبحانه ـ على إبراهيم بكونه لم يك من المشركين:

وهو ظاهر في الآية الكريمة: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]؛ فإن هذه الآية لا شك أنها سيقت للثناء علىٰ إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وإذا كان مناط الثناء انتفاء الشرك عنه؛ دل ذلك علىٰ أن كل من انتفىٰ عنه الشرك فهو محل ثناء من اللَّه سبحانه وتعالىٰ.

الرابعة: ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك: لقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٩] وهذه الآية في سياق آيات كثيرة ابتدأها اللَّه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ـ ٦١]. فهؤلاء هم سادات الأولياء، وكلام المؤلف من باب إضافة الصفة إلىٰ موصوفها، أي: الأولياء السادات، وليس يريد رحمه اللَّه السادات من الأولياء، بل يريد الأولياء الذين هم سادات الخلق.

الخامسة: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد.

السادسة: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل.

السابعة: عُمْقُ عِلم الصحابة لمعرفتهم أنَّهُم لَم ينالوا ذلك إلا بعمل.

الثامنة: حرصهم على الخير.

التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية.

العاشرة: فضيلة أصحاب موسى.

الحادية عشرة: عرض الأمم عليه، عليه الصلاة السلام.

العنكبوت. وأمَّا مباشرةُ الأسباب، والتداوي على وجهٍ لاكراهية فيه ـ فغيرُ قادح في التوكل، فلا يكون تركُه مشروعًا؛ لما في (الصحيحين) ـ عن أبي هريرة ـ مرفوعًا: «**ما أنزل الله من داءٍ إلاَّ أنزل له**

الخامسة: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد: لقوله: «**الذين لا يسترقون ولايكتوون**»؛ فالمراد بقول المؤلف: «الرقية والكي»: الاسترقاء والاكتواء.

السادسة: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل: الجامع لتلك الخصال، الخصال هي: ترك الاسترقاء، وترك الاكتواء، وترك التطير، يعني أن العامل لهذه الأشياء هو قوة التوكل على الله عز وجل.

السابعة: عمق علم الصحابة لمعرفة أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل: أي: لم ينل هؤلاء السبعون ألفًا هذا الثواب إلا بعمل، ووجهه أن الصحابة خاضوا فيمن يكون له هذا الثواب العظيم وذكروا أشياء.

الثامنة: حرصهم على الخير:

وجهه خوضهم في هذا الشيء؛ لأنهم يريدون أن يصلوا إلى نتيجة حتى يقوموا بها.

التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية:

أما الكمية: فلأن النبي ﷺ رأى سوادًا عظيمًا أعظم من السواد الذي كان مع موسى.

وأما الكيفية: فلأن معهم هؤلاء الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون.

العاشرة: فضيلة أصحاب موسى.

وهو مأخوذ من قوله: «**إذ رفع لي سواد عظيم**»، ولكن قد يقال: إن التعبير بقول: «كثرة أتباع موسى» أنسب لدلالة الحديث؛ لأن الحديث يقول: «**سواد عظيم فظننت أنهم أمتي**»[1]، وهذا يدل على الكثرة.

الحادية عشرة: عرض الأمم عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: وهذا له فائدتان:

الفائدة الأولى: تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام، حيث رأى من الأنبياء من ليس معه إلا

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠)، والترمذي (٢٤٤٦)، وأحمد (٢٤٤٤).

الثانية عشرة: أنَّ كل أُمَّة تحشر وحدها مع نبيها.

الثالثة عشرة: قلة من استجاب للأنبياء.

الرابعة عشرة: أن من لم يجبه أحد يأتي وحده.

الخامسة العشرة: ثمرة هذا العلم، وهو عدم الاغترار بالكثرة، وعدم الزهد في القلة.

شفاء. علمه من علمه، وجهله من جهله»[1].

وعن أُسامةَ بنِ شَريك، قال: كنتُ عند النبي ﷺ وجاءت الأعرابُ، فقالوا: يا رسول الله، أنتداوىٰ؟ قال: «**نعم ـ يا عباد الله ـ تداووا؛ فإنَّ الله عزَّ وجل لم يضع داءً إلاَّ وضع له شفاءً. غيرَ داءٍ واحد**» قالوا: وما هو؟ قال: «**الهرم**»[2] رواه أحمد.

الرجل والرجلان، ومن الأنبياء من ليس معه أحد؛ فيتسلىٰ بذلك عليه الصلاة والسلام، ويقول: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

الفائدة الثانية: بيان فضيلته عليه الصلاة والسلام وشرفه، حيث كان أكثرهم أتباعًا وأفضلهم؛ فصار في عرض الأمم عليه هاتان الفائدتان.

الثانية عشرة: أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها:

لقوله: «**رأيت النبي ومعه الرجل والرجلان**»، ولولا أن كل نبي متميز عن النبي الآخر؛ لاختلط بعضهم ببعض، ولم يعرف الأتباع من غير الأتباع، ويدل لذلك قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ [الجاثية: ٢٨]؛ فإنه يدل علىٰ أن كل أمة تكون وحدها.

الثالثة عشرة: قلة من استجاب للأنبياء:

وهو واضح من قوله: «**والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد**».

الرابعة عشرة: أن من لم يجبه أحد يأتي وحده:

لقوله: «**والنبي وليس معه أحد**».

الخامسة عشرة: ثمرة هذا العلم، وهو عدم الاغترار بالكثرة... إلخ:

فإن الكثرة قد تكون ضلالاً، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]. وأيضًا الكثرة من جهة أخرىٰ إذا اغتر الإنسان بكثرته وظن أنه لن يغلب أو أنه منصور؛ فهذا أيضًا سبب للخذلان، فالكثرة إن نظرنا إلىٰ أن أكثر أهل الأرض ضلال لا تغتر بهم، فلا تقل:

---

(١) **صحيح**: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٤٥١) ولفظ البخاري «**ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء**».

(٢) **صحيح**: صححه العلامة الألباني رحمه الله في غاية المرام (٢٩٢).

السادسة عشرة: الرخصة في الرقية من العين والحمة.

السابعة عشرة: عمق علم السلف لقوله: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن كذا وكذا، فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني.

قال ابنُ القيم رحمه الله تعالى: وقد تضمَّنت هذه الأحاديثُ إثباتَ الأسباب والمُسبِّبات. وإبطالَ قول من أنكرها، والأمرَ بالتداوي، وأنه لا ينافي التوكل؛ كما لا يُنافيه دفعُ ألم الجوع والعطش، والحرِّ والبرد، بأضدادها. بل لا تتم حقيقةُ التوحيد إلاَّ بمباشرة الأسباب التي نصبها الله تعالىٰ مقتضيةً لمسبَّباتها قَدَرًا وشرعًا، وأنَّ تعطيلها يقدَحُ في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة، ويضعفُه من حيثُ يظنَّ معطِّلُها أنَّ تركها أقوىٰ في التوكل.

فإنَّ تركَها عجزٌ يُنافي التوكل، الذي حقيقتُه اعتمادُ القلب علىٰ الله تعالىٰ في حصول ما ينفع العبدَ في دينه ودنياه، ودفع ما يضرُّه في دينه ودنياه. ولابُدَّ مع هذا الاعتماد من مُباشرة الأسباب، وإلاَّ كان مُعطِّلاً للحكمة والشرع، فلا يجعل العبدُ عجزه توكلاً، ولا توكُّلَه عجزًا.

وقد اختلف العُلماء في التداوي: هل هو مباحٌ، وتركُه أفضل، أو مُستحب أو واجب؟

إن الناس علىٰ هذا، كيف أنفر عنهم؟ كذلك أيضًا لا تغتر بالكثرة إذا كان معك أتباع كثيرون علىٰ الحق؛ فكلام المؤلف له وجهان:

الوجه الأول: أن لا نغتر بكثرة الهالكين فنهلك معهم.

الوجه الثاني: أن لا نغتر بكثرة الناجين فيلحقنا الإعجاب بالنفس وعدم الزهد في القلة، أي أن لا نزهد بالقلة؛ فقد تكون القلة خيرًا من الكثرة.

السادسة عشرة: الرخصة في الرقية من العين والحُمة:
مأخوذ من قوله: «لا رقية إلا من عين أو حمة».

السابعة عشرة: عمق علم السلف؛ لقوله: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن كذا وكذا»؛ فعُلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني. لأن قوله: «لا رقية إلا من عين أو حمة» لا يخالف الثاني؛ لأن الثاني إنما هو في الاسترقاء، والأول في الرقية؛ فالإنسان إذا أتاه من يرقيه ولم يمنعه؛ فإنه لا ينافي قوله: «ولا يسترقون»؛ لأن هناك ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: أن يطلب من يرقيه، وهذا قد فاته الكمال.

المرتبة الثانية: أن لا يمنع من يرقيه، وهذا لم يفته الكمال؛ لأنه لم يسترق ولم يطلب.

المرتبة الثالثة: أن يمنع من يرقيه، وهذا خلاف السنة، فإن النبي ﷺ لم يمنع عائشة أن ترقيه، وكذلك الصحابة لم يمنعوا أحدًا أن يرقيهم؛ لأن هذا لا يؤثر في التوكل.

الثامنة عشرة: بعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه.

التاسعة عشرة: قوله: «أنت منهم» علم من أعلام النبوة.

العشرون: فضيلة عكاشة.

الحادية والعشرون: استعمال المعاريض.

فالمشهورُ عن أحمد الأوَّل؛ لهذا الحديث وما في معناه. والمشهورُ عند الشافعية الثاني، حتى ذكر النوويُّ في (شرح مسلم): أنه مذهبُهم، ومذهب جمهور السلف وعامَّة الخلف.

واختاره الوزير، أبو المظفّر. قال: ومذهبُ أبي حنيفة: أنه مؤكد، حتى يُداني به الوجوب. قال: ومذهبُ مالك: أنه يستوي فعلُه وتركه، فإنه قال: لا بأس بالتداوي، ولا بأس بتركه.

وقال شيخُ الإسلام: ليس بواجبٍ عند جماهير الأئمة، وإنَّما أوجبه طائفةٌ قليلة من أصحاب الشافعي وأحمد.

وليس تحقيق التوحيد بالتمني ولا بالدعاوى الخالية من الحقائق، ولا بالحلى العاطلة، وإنما ذلك بما وقر في القلوب من عقائد الإيمان وحقائق الإحسان وصدقته الأخلاق الجميلة، والأعمال الصالحة الجليلة، فمن حقق التوحيد على هذا الوجه حصلت له جميع الفضائل المشار إليها في الباب السابق بأكملها والله أعلم.

الثامنة عشرة: بعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه:

يؤخذ من قوله: «أما إني لم أكن في صلاة ولكني لدغت»؛ لأنه إذا كان رأى الكوكب الذي انقض استلزم أن يكون يقظانًا، واليقظان: إما أن يصلي، وإما أن يكون له شغل آخر، وإما أن يكون لديه مانع من النوم.

التاسعة عشرة: قوله:«أنت منهم»علم من أعلام النبوة:

يعني: دليلٌ على نبوة الرسول ﷺ وذلك لأن عُكَّاشة بن محصن رضي الله عنه بقي محروسًا من الكفر حتى مات على الإسلام، فيكون في هذا علم، يعني: دليلٌ من دلائل نبوة الرسول ﷺ هذا إذا قلنا: إن الجملة خبرية وليست جملة دعائية، فإن قلنا: إنها جملة دعائية؛ فقد نقول أيضًا: فيه علم من أعلام النبوة، وهو أن الله استجاب دعوة الرسول ﷺ لكن استجابة الدعوة ليست من خصائص الأنبياء؛ فقد تجاب دعوة من ليس بنبي، وحينئذٍ لا يمكن أن تكون علمًا من أعلام النبوة إلا حيث جعلنا الجملة خبرية محضة.

العشرون: فضيلة عكاشة: بكونه ممن يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وهل نشهد له بذلك؟ نعم؛ لأن الرسول ﷺشهد له بها.

الحادية والعشرون: استعمال المعاريض: وفي المعاريض مندوحة عن الكذب، وذلك لقول الرسول ﷺ: «سبقك بها عكاشة»؛ فإن هذا في الحقيقة ليس هو المانع الحقيقي، بل المانع ما أشرنا إليه في الشرح: إما أن يكون هذا الرجل منافقًا فلم يرد النبي ﷺأن يجعله مع الذين يدخلون الجنة بغير

الثانية والعشرون: حسن خلقه ﷺ.

قوله: (فقام عكَّاشةُ بن محْصَن). هو: بضم العين وتشديد الكاف، ومحصن: بكسر الميم وسكون الحاء وفتح الصاد المُهملَتين، ابن حُرثان ـ بضم المهملة وسكون الراء بعدها مُثلّثة ـ الأسدي، من بني أسد بن خُزيمة. كان من السابقين إلى الإسلام، ـ ومن أجمل الرجال ـ هاجر، وشهد بدراً وقاتل فيها، واستُشهد في قتال الرِّدة مع خالد بيد طُليحة الأسدي سنة اثنتي عشرة، ثم أسلم طُليحةُ بعد ذلك، وجاهد الفُرس يوم القادسية مع سعد بن أبي وقاص، واستُشهد في وقعة الجسر المشهورة.

قوله: (فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أنْ يجعلني منهم، قال: «أنت منهم») وللبخاري في روايةٍ، فقال: «اللهم اجعله منهم» وفيه: طلبُ الدعاء من الفاضل[1].

قوله: (ثم قام رجلٌ آخر) ذكره مُبهمًا، فلا حاجةَ بنا إلى البحث عن اسمه[2].

قوله: فقال: «سبقك بها عكاشة» قال القُرطبي: لم يكن عند الثاني من الأحوال ما كان عند عُكَّاشة، فلذلك لم يُجبه، إذ لو أجابه لجاز أنْ يطلب ذلك كلٌّ من كان حاضراً، فيتسلسل الأمر، فسدَّ الباب بقوله ذلك. انتهى.

قال المُصنف رحمه الله تعالى: وفيه: استعمالُ المعاريض، وحسنُ خُلُقه ﷺ.

* * *

حساب ولا عذاب، وإما خوفًا من انفتاح الباب؛ فيسأل هذه المرتبة من ليس من أهلها.

الثانية والعشرون: حسن خلقه ﷺ:
وذلك لأنه رد هذا الرجل وسد الباب على وجه ليس فيه غضاضة على أحد ولا كراهة.

* * *

---

(١) في قرة العيون: فيه أن شفاعة الحي لمن سأله الدعاء إنما كانت بدعائه، وبعد الموت قد تعذر ذلك بأمور لا تخفى على من له بصيرة، فمن سأل ميتًا أو غائبًا فقد سأله ما لا يقدر عليه إلا الله، وكل من سأل أحدًا ما لا يقدر عليه إلا الله فقد جعله ندًّا لله كما كان المشركون كذلك وقال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] إنه ربكم وخالقكم ومن قبلكم، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة فلا ترغبوا عنه إلى غيره، بل أخلصوا له العبادة بجميع أنواعها فيما تطلبونه من قليل أو كثير. (ق).

وقوله: «أنت منهم» لما كان يعلمه ﷺ من إيمانه وفضله وجهاده كما في الحديث **«لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم»**. (ق).

(٢) في قرة العيون: والظاهر أنه أراد صلوات الله وسلامه عليه سد الذريعة لئلا يتتابع الناس بسؤال ذلك فيسأله من ليس أهلاً له. وذلك منه ﷺ تعريض كما لا يخفى. (ق).

٣ـ بـاب الخوف من الشرك

وقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

قال المُصنِّف رحمه الله تعالى: بابُ الخوف من الشرك.

وقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾

[النساء: ٤٨، ١١٦]

قال ابنُ كثير: أخبر تعالىٰ أنَّه: ﴿ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ أي: لا يغفر لعبدٍ لقيه وهو مشرك ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ أي: من الذنوب لمن يشاء من عباده. انتهىٰ.

فتبيَّن بهذه الآية: أنَّ الشرك أعظمُ الذنوب؛ لأن الله تعالىٰ أخبر أنَّه لا يغفره لمن لم يتب منه، وما دونه من الذنوب فهو داخلٌ تحت المشيئة: إنْ شاء غفره لمن لقيه به، وإنْ شاء عذَّبه.

وذلك يوجبُ للعبد شدَّة الخوف من الشرك الذي هذا شأنُه عند الله؛ لأنه أقبحُ القبيح، وأظلم الظلم، وتنقّصٌ لربِّ العالمين، وصرفُ خالص حقِّه لغيره. وعدلُ غيره به، كما قال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١].

ولأنه مناقضٌ للمقصود بالخلق والأمر، منافٍ له من كل وجه، وذلك غايةُ المُعاندة لربِّ العالمين،

مناسبة الباب للبابين قبله: في الباب الأول ذكر المؤلف رحمه اللَّه تحقيق التوحيد، وفي الباب الثاني ذكر أن من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، وثلث بهذا الباب رحمه اللَّه تعالىٰ؛ لأن الإنسان قد يرىٰ أنه قد حقق التوحيد وهو لم يحققه.

لهذا قال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي علىٰ شيء مجاهدتها علىٰ الإخلاص»، وذلك أن النفس متعلقة بالدنيا تريد حظوظها من مال أو جاه أو رئاسة، وقد تريد بعمل الآخرة الدنيا، وهذا نقص في الإخلاص، وقل من يكون غرضه الآخرة في كل عمله، ولهذا أعقب المؤلف رحمه اللَّه ما سبق من البابين بهذا الباب، وهو الخوف من الشرك، وذكر فيه آيتين.

الأولىٰ قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾: ﴿لا﴾: نافيه، ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾: فعل مضارع مقرون بأن المصدرية، فيحول إلىٰ مصدر تقديره: إن اللَّه لا يغفر الإشراك به، أو: لا يغفر إشراكًا به؛ فالشرك لا يغفره اللَّه أبدًا، لأنه جناية علىٰ حق اللَّه الخاص، وهو التوحيد.

أما المعاصي كالزنا والسرقة؛ فقد يكون للإنسان فيها حظ نفس بما نال من شهوة، أما الشرك؛ فهو اعتداء علىٰ حق اللَّه تعالىٰ، وليس للإنسان فيه حظ نفس، وليس شهوة يريد الإنسان أن ينال مراده، ولكنه ظلم، ولهذا قال اللَّه تعالىٰ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

. . . .

والاستكبارِ عن طاعته، والذّل له، والانقيادِ لأوامره، الذي لا صلاح للعالم إلاَّ بذلك. فمتىٰ خلا منه خرب، وقامت القيامة، كما قال ﷺ: **«لا تقوم الساعةُ حتى لا يقال في الأرض الله، الله»**[1] رواه مسلم.

ولأنَّ الشركَ تشبيهٌ للمخلوق بالخالق - تعالىٰ وتقدّس - في خصائص الإلهية: من مُلك الضر والنفع، والعطاءِ والمنع، الذي يوجب تعلُّقَ الدعاء، والخوف، والرجاء، والتوكل، وأنواعِ العبادة كلِّها بالله تعالىٰ وحده. فمن علّق ذلك بمخلوقٍ فقد شبّهه بالخالق، وجعل من لا يملكُ لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نُشوراً شبيهًا بمن له الحمدُ كلُّه، وله الخلق كله، وله المُلك كله، وبيده الخيرُ كله، وإليه يرجع الأمرُ كلُّه.

فأزمَّةُ الأمور كلُّها بيده سبحانه، ومرجعُها إليه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. لا مانع لما أعطىٰ، ولا مُعطي لما منع، الذي إذا فتح للناس رحمةً فلا مُمسك لها، وما يمسكُ فلا مُرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم. فأقبحُ التشبيه: تشبيه العاجز الفقيرِ بالذات، بالقادر الغني بالذات.

ومن خصائص الإلهية: الكمالُ المُطلق من جميع الوجوه، الذي لا نقص فيه بوجهٍ من الوجوه. وذلك يوجب أنْ تكون العبادةُ كلُّها له وحده، والتعظيم والإجلال، والخشيةُ والدعاء، والرجاء والإنابة، والتوكلُ والتوبة والاستعانة، وغايةُ الحبِّ مع غايةِ الذل. كلٌّ ذلك يجب - عقلاً وشرعًا وفطرة - أنْ يكون لله وحده، ويمتنع - عقلاً وشرعًا وفطرة - أنْ يكون لغيره.

فمن فعل شيئًا من ذلك بغيره، فقد شبَّه ذلك الغيرَ بمن لا شبيه له، ولا مِثل له، ولا نِدَّ له، وذلك أقبحُ التشبيه وأبطلُه.

فلهذه الأمور وغيرها: أخبر سُبحانه وتعالىٰ أنه لا يغفره، مع أنَّه كتب علىٰ نفسه الرحمة. هذا معنىٰ كلامِ ابن القيِّم رحمه الله تعالىٰ.

وهل المراد بالشرك هنا الأكبر، أم مطلق الشرك؟

قال بعض العلماء: إنه مطلق يشمل كل شرك ولو أصغر، كالحلف بغير اللَّه، فإن اللَّه لا يغفره، أما بالنسبة لكبائر الذنوب؛ كالسرقة، والخمر؛ فإنها تحت المشيئة، فقد يغفرها اللَّه، وشيخ الإسلام ابن تيمية المحقق في هذه المسائل اختلف كلامه في هذه المسألة؛ فمرة قال: الشرك لا يغفره اللَّه ولو كان أصغر، ومرة قال: الشرك الذي لا يغفره اللَّه هو الشرك الأكبر، وعلىٰ كل حال؛ فيجب الحذر من الشرك مطلقًا؛ لأن العموم يحتمل أن يكون داخلاً فيه الأصغر؛ لأن قوله: ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ «أن» وما بعدها في تأويل مصدر تقديره: إشراكًا به؛ فهو نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٤٨).

وقال الخليلُ عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وفي الآية ردٌّ على الخوارج المكفِّرين بالذنوب، وعلى المعْتزلة القائلين بأنَّ أصحاب الكبائر مخلَّدون في النار، وليسوا عندهم بمؤمنينَ ولا كفار.

ولا يجوز أنْ يُحمل قولُه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ على التائب؛ فإنَّ التائب من الشرك مغفورٌ له، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

فهُنا عمَّ وأطلق؛ لأن المُراد به التائب، وهناك خصَّ وعلّق؛ لأن المُراد به من لم يتب. هذا مُلخص قولِ شيخ الإسلام[1].

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقال الخليلُ عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]

الصَّنَم: ما كان منحوتًا على صورة. والوَثَنُ: ما كان منحوتًا على غير ذلك. ذكره الطبريُّ، عن مُجاهد.

قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾: المراد بالدون هنا: ما هو أقل من الشرك، وليس ما سوى الشرك.

الآية الثانية: قوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾: قيل: المراد ببنيه: بنوه لصلبه، ولا نعلم له من صلبه سوى إسماعيل وإسحاق، وقيل: المراد ذريته وما توالد من صلبه، وهو الأرجح، وذلك للآيات التي دلت على دعوته للناس من ذريته، ولكن كان من حكمة اللَّه أن لا تجاب دعوته في بعضهم، كما أن الرسول ﷺ دعا أن لا يجعل بأس أمته بينهم[2] فلم يجب اللَّه دعاءه.

وأيضًا منع من الأول أن الآية بصيغة الجمع، وليس لإبراهيم من الأبناء سوى إسحاق وإسماعيل.

---

(١) في قرة العيون: قال النووي رحمه الله تعالى: أما دخول المشرك النار فهو على عمومه فيدخلها ويخلد فيها، ولا فرق بين الكتابي اليهودي والنصراني، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عنادًا وغيره، ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره بجحده وغير ذلك، وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع به. لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مصرًا عليها ومات على ذلك، فهو تحت المشيئة فإن عفي عنه دخل الجنة أولاً وإلا عذب في النار ثم أخرج منها وأدخل الجنة. اهـ.

قلت: هذا قول أهل السنة والجماعة؛ لا اختلاف بينهم في ذلك. وهذه الآية من أعظم ما يوجب الخوف من الشرك، لأن الله تعالى قطع المغفرة عن المشرك وأوجب له الخلود في النار وأطلق ولم يقيد، ثم قال ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] فخصص وقيد فيما دون الشرك، فهذا الذنب الذي هذا شأنه لا يأمل أن يقع فيه فلا يرجى له معه نجاة، إن لم يتب منه قبل الوفاة. (ق).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٩٠)، وأحمد (١٥١٩، ١٥٧٨) من حديث سعد بن أبي وقاص بلفظ: «سألت ربي ثلاثًا فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها».

. . . .

قلتُ: وقد يُسمّىٰ الصنمُ وثَنًا؛ كما قال الخليل[١] عليه السلام: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧] ويُقال: إنَّ الوثَنَ أعمُّ؛ وهو قويٌّ. فالأصنامُ أوثانٌ، كما أنَّ القبور أوثان.

قوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ أي: اجعلني وبنيَّ في جانبٍ عن عبادة الأصنام، وباعد بيننا وبينها. وقد استجاب الله تعالىٰ دعاءَه، وجعل بنيه أنبياءَ وجنَّبهم عبادة الأصنام.

وقد بيَّن ما يوجب الخوفَ من ذلك؛ بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] فإنَّه هو الواقعُ في كلِّ زمان؛ فإذا عرف الإنسانُ أنَّ كثيراً وقعوا في الشرك الأكبر، وضلوا بعبادة الأصنام: أوجب ذلك خوفه من أنْ يقع فيما وقع فيه الكثير، من الشرك الذي لا يغفره الله.

قال إبراهيمُ التيميّ: ومن يأمنُ البلاءَ بعد إبراهيم؟ رواه ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم.

فلا يأمنُ الوقوعَ في الشرك إلاَّ من هو جاهلٌ به، وبما يُخلِّصه منه: من العلم بالله، وبما بعث به

ومعنىٰ :﴿واجْنُبْنِي﴾ ؛ أي: اجعلني في جانب والأصنام في جانب، وهذا أبلغ مما لو قال: امنعني وبنيَّ من عبادة الأصنام؛ لأنه إذا كان في جانب عنها كان أبعد.

فإبراهيم عليه السلام يخاف الشرك علىٰ نفسه، وهو خليل الرحمن وإمام الحنفاء؛ فما بالك بنا نحن إذن؟!

فلا تأمن الشرك، ولا تأمن النفاق؛ إذ لا يأمن النفاق إلا منافق، ولا يخاف النفاق إلا مؤمن، ولهذا قال ابن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبيﷺ، كلهم يخاف النفاق علىٰ نفسه»[٢].

وها هو عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه خاف علىٰ نفسه النفاق؛ فقال لحذيفة بن اليمان رضي اللَّه عنه الذي أسرَّ إليه النبيﷺ بأسماء أناس من المنافقين؛ فقال له عمر رضي اللَّه عنه: «أنشدك باللَّه؛ هل سماني لك رسول اللَّهﷺ مع من سمىٰ من المنافقين؟. فقال حذيفة رضي اللَّه عنه: لا، ولا أزكي بعدك أحدًا». أراد عمر بذلك زيادة الطمأنينة، وإلا؛ فقد شهد له النبيﷺ بالجنة.

ولا يقال: إن عمر رضي اللَّه عنه أراد حث الناس علىٰ الخوف من النفاق ولم يخفه علىٰ نفسه؛ لأن ذلك خلاف ظاهر اللفظ، والأصل حمل اللفظ علىٰ ظاهره، ومثل هذا القول يقوله بعض العلماء فيما يضيفه النبيﷺ إلىٰ نفسه في بعض الأشياء، يقولون: هذا قصد به التعليم، وقصد به أن يبين لغيره، كما قيل: إن الرسولﷺ لم يقل: رب اغفر لي لأن له ذنبًا، ولكن لأجل أن يعلم الناس الاستغفار، هذا خلاف الأصل، وقول بعضهم: إنه جهر بالذكر عقب الفريضة ليعلم الناس الذكر، لا لأن الجهر بذلك من السنة ونحو ذلك.

---

(١) الخلة: أخص من المحبة، ولذلك اختص الله بها الخليلين: إبراهيم ومحمدًا عليهما من الله أفضل الصلاة والسلام. ويقول النبيﷺ: «لو كنت متخذًا أحدًا خليلاً لاتخذت أبا بكر ولكن الله اتخذني خليلاً». رواه البخاري. (ق).

(٢) رواه البخاري تعليقًا في كتاب الإيمان باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

. . . .

رسولَه، من توحيده، والنهي عن الشرك به[1] .

قوله: ﴿أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾: نعبد: مفعول ثان لـ﴿وَاجْنُبْنِي﴾ .

والأصنام: جمع صنم، وهو ما جعل على صورة إنسان أو غيره يعبد من دون الله. أما الوثن؛ فهو ما عبد من دون الله على أي وجه كان، وفي الحديث: « **لا تجعل قبري وثنًا يعبد**»[2] ؛ فالوثن أعم من الصنم. ولا شك أن إبراهيم سأل ربه الثبات على التوحيد؛ لأنه إذا جنبه عبادة الأصنام صار باقيًا على التوحيد.

الشاهد من هذه الآية:

أن إبراهيم خاف الشرك، وهو إمام الحنفاء، وهو سيدهم ما عدا رسول الله ﷺ .

قوله: «وفي الحديث»: الحديث: ما أضيف إلى الرسول. والخبر: ما أضيف إليه وإلى غيره.

---

(١) في قرة العيون: فإذا كان الخليل إمام الحنفاء الذي جعله الله أمة وحده، وابتلاه بكلمات فأتمهن، وقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾[النجم: ٣٧] وأمر بذبح ولده فامتثل أمر ربه، وكسر الأصنام واشتد نكيره على أهل الشرك، ومع ذلك يخاف أن يقع في الشرك الذي هو عبادة الأصنام، لعلمه أنه لا يصرفه عنه الله إلا بهدايته وتوفيقه، لا بحوله هو وقوته.

فهذا أمر لا يؤمن الوقوع فيه؛ وقد وقع فيه الأذكياء من هذه الأمة بعد القرون المفضلة فاتخذت الأصنام وعبدت، فالذي خافه الخليل عليه السلام على نفسه وبنيه وقع فيه أكثر الأمة بعد القرون المفضلة، فبنيت المساجد والمشاهد على القبور؛ وصرفت لها العبادات بأنواعها، واتخذ ذلك دينًا، وهي أوثان وأصنام كأصنام قوم نوح واللات والعزى ومناة وأصنام العرب وغيرهم. فما أشبه ما وقع في آخر هذه الأمة بحال أهل الجاهلية من مشركي العرب وغيرهم، بل وقع ما هو أعظم من الشرك في الربوبية مما يطول عده(*) فذكر عليه السلام السبب الذي أوجب له الخوف عليه وعلى ذريته بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾[إبراهيم:٣٦] وقد ضلت الأمم بعبادة الأصنام في زمن الخليل وقبله وبعده. فمن تدبر القرآن عرف أحوال الخلق وما وقعوا فيه من الشرك العظيم الذي بعث الله أنبياءه ورسله بالنهي عنه والوعيد على فعله، والثواب على تركه. وقد هلك من هلك بإعراضه عن القرآن، وجهله بما أمر الله به ونهى عنه. نسأل الله الثبات على الإسلام والاستقامة على ذلك إلى أن نلقى الله على التوحيد إنه ولي ذلك والقادر عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؛ وقال تعالى عن عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[المائدة:١١٨] رد أمرهم إلى الله كما رده محمد عليه السلام، وقد بين الله تعالى فيما أنزله على نبيه محمد ﷺ حكمه في أهل الشرك بأنه لا يغفره لهم فلا معارضة؛ وقد بين حكمه فيهم في هذا الكتاب العزيز الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت: ٤٢] .(ق) .

(*) فإن أكثر الناس يعتقدون أن الأقطاب الأربعة وعلى رأسهم القطب الغوث يتصرفون في الكون بالإحياء والإماتة والرزق والضر والنفع: وأن مجلس أوليائهم تعرض عليه شئون العالم، اقرأ كتاب الشعراني، والإبريز للدباغ، وكتب التيجانية وغيرها من كتب أولئك الضالين المضلين؛ تجد الشرك الذي ما كان يخطر على بال أبي جهل وإخوانه، لأنهم لم يكونوا بوقاحة هؤلاء وفجورهم. (ز).

(٢) صحيح: رواه مالك في موطئه (٤١٦) مرسلاً عن عطاء بن يسار، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٧٥٠)، وفي غاية المرام (١٢٦).

في الحـديث: «أخوفُ ما أخـافُ عليكم الـشـركُ الأصـغـر»، فـسئل عنه؟ فـقـال: «الرياء».

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وفي الحديث: «أخوفُ ما أخافُ عليكم الشركُ الأصغر»، فسئل عنه؟ فقال: «الرياء»(١).

أورد المصنفُ هذا الحديثَ مختصرًا غير معزوّ. وقد رواه الإمامُ أحمد، والطبراني، والبيهقي.

وهذا لفظُ أحمد: حدَّثنا يُونس، حدَّثنا ليث، عن يزيد -يعني ابن الهاد- عن عمرو، عن محمود

باب الخوف من الشرك

الشرك في توحيد الإلهية والعبادة ينافي التوحيد كل المنافاة وهو نوعان: شرك أكبر جلي، وشرك أصغر خفي.

فأما الشرك الأكبر: فهو أن يجعل لله ندًّا يدعوه كما يدعو الله، أو يخافه أو يرجوه أو يحبه كحب الله، أو يصرف له نوعًا من أنواع العبادة، فهذا الشرك لا يبقى مع صاحبه من التوحيد شيء، وهذا المشرك الذي حرم الله عليه الجنة ومأواه النار، ولا فرق في هذا بين أن يسمي تلك العبادة التي

والأثر: ما أضيف إلى غير الرسول ﷺ؛ أي: إلى الصحابي فمن بعده إلا إذا قُيِّد فقيل: وفي الأثر عن رسول الله ﷺ؛ فيكون على ما قُيِّد به.

قوله: «أخوف ما أخاف عليكم»: الخطاب للمسلمين؛ إذ المسلم هو الذي يخاف عليه الشرك الأصغر وليس لجميع الناس.

قوله: «الرياء»: مشتق من الرؤية مصدر راءى يرائي، والمصدر رياء؛ كقاتل يقاتل قتالاً.

والرياء: أن يعبد الله ليراه الناس فيمدحوه على كونه عابدًا، وليس يريد أن تكون العبادة للناس؛ لأنه لو أراد ذلك؛ لكان شركًا أكبر، والظاهر أن هذا على سبيل التمثيل، وإلا؛ فقد يكون رياء، وقد يكون سماعًا، أي يقصد بعبادته أن يسمعه الناس فيثنوا عليه، فهذا داخل في الرياء، فالتعبير بالرياء من باب التعبير بالأغلب. أما إن أراد بعبادته أن يقتدي الناس به فيها، فليس هذا رياء، بل هذا من الدعوة إلى الله عز وجل، والرسول ﷺ يقول: «**فعلت هذا لتأتموا بي وتعلموا صلاتي**»(٢).

والرياء: ينقسم باعتبار إبطاله للعبادة إلى قسمين:

الأول: أن يكون في أصل العبادة، أي ما قام يتعبد إلا للرياء؛ فهذا عمله باطل مردود عليه لحديث أبي هريرة في الصحيح مرفوعًا، قال الله تعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(٣).

---

(١) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٩٥١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٥٤٤)، وأبو داود (١٠٨٠)، والنسائي (٧٣٩)، وأحمد (٢٢٣٦٤).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجه (٤٢٠٢)، وأحمد (٧٩٣٩، ٩٣٣٦).

. . . .

ابن لبيد: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ أخوفَ ما أخاف عليكم الشركُ الأصغر**» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «**الرياءُ. يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جزى الناسَ بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً**»؟

قال المُنذري: ومحمودُ بن لبيد رأى النبيَّ ﷺ، ولم يصح له منه سماعٌ فيما أرى. وذكر ابنُ أبي حاتم: أنَّ البخاريَّ قال: له صحبة، ورجَّحه ابنُ عبد البر والحافظ.

وقد رواه الطبرانيُّ بأسانيد جيِّدة عن محمود بن لبيد، عن رافع بن خَديج. مات محمود سنة ستٍ وتسعين. وقيل: سنة سبع وتسعين. وله تسع وتسعون سنة.

قوله: «**إنَّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**»: هذا من شفقته ﷺ بأمته، ورحمته ورأفته بهم، فلا خير إلاَّ دلَّهم عليه وأمرهم به، ولا شرَّ إلاَّ بيَّنه لهم وأخبرهم به ونهاهم عنه؛ كما قال ﷺ - فيما صحَّ عنه -: «**ما بعث الله من نبي إلاَّ كان حقًّا عليه أنْ يدل أُمته على خير ما يعلمه لهم**»[1] الحديث.

صرفها لغير الله عبادة، أو يسميها توسلاً أو يسميها بغير ذلك من الأسماء فكل ذلك شرك أكبر؛ لأن العبرة بحقائق الأشياء ومعانيها دون ألفاظها وعباراتها.

وأما الشرك الأصغر: فهو جميع الأقوال والأفعال التي يتوسل بها إلى الشرك كالغلو في المخلوق الذي لا يبلغ رتبة العبادة، كالحلف بغير الله ويسير الرياء ونحو ذلك.

الثاني: أن يكون الرياء طارئًا على العبادة، أي أصل العبادة للَّه، لكن طرأ عليها الرياء؛ فهذا ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يدافعه؛ فهذا لا يضره.

مثاله: رجل صلى ركعة، ثم جاء أناس في الركعة الثانية، فحصل في قلبه شيء بأن أطال الركوع أو السجود أو تباكى وما أشبه ذلك، فإن دافعه، فإنه لا يضره لأنه قام بالجهاد. وإن استرسل معه، فكل عمل ينشأ عن الرياء، فهو باطل؛ كما لو أطال القيام، أو الركوع، أو السجود، أو تباكى؛ فهذا كل عمله حابط، ولكن هذا البطلان يمتد إلى جميع العبادة أم لا؟ نقول: لا يخلو هذا من حالين:

الحال الأولى: أن يكون آخر العبادة مبنيًا على أولها، بحيث لا يصح أولها مع فساد آخرها؛ فهذه كلها فاسدة. وذلك مثل الصلاة؛ فالصلاة مثلاً لا يمكن أن يفسد آخرها ولا يفسد أولها؛ وحينئذٍ تبطل الصلاة كلها إذا طرأ الرياء في أثنائها ولم يدافعه.

الحال الثانية: أن يكون أول العبادة منفصلاً عن آخرها، بحيث يصح أولها دون آخرها، فما سبق الرياء؛ فهو صحيح، وما كان بعده؛ فهو باطل.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٤٤).

. . . .

فإذا كان الشركُ الأصغر مخوفًا على أصحاب رسول الله ﷺ مع كمال عملهم وقوَّة إيمانهم ـ فكيف لا يخافه ـ وما فوقه ـ ممن هو دونهم في العلم والإيمان بمراتب؟! خصوصًا إذا عُرف أنَّ أكثر عُلماء الأمصار اليوم لا يعرفون من التوحيد إلاَّ ما أقرَّ به المشركون!. وما عرفوا معنى الإلهية، التي نفتها كلمةُ الإخلاص عن كلِّ ما سوى الله [(١)].

وأخرج: أبو يعلى، وابنُ المنذر، عن حُذيفة بن اليمان، عن أبي بكر، عن النبي ﷺ قال: «**الشركُ فيكم أخفى من دبيب النمل**» قال أبو بكر: يا رسول الله، وهل الشركُ إلاَّ ما عُبد من دون الله، أو ما دُعي مع الله، قال: «**ثَكلتك أُمك! الشركُ فيكم أخفى من دبيب النمل**» الحديث. وفيه: «**أنْ تقول: أعطاني الله وفلان، والنِّدُّ: أنْ يقول الإنسان: لولا فلان قتلني فلان**» [(٢)] انتهى. من (الدُّر).

مثال ذلك: رجل عنده مائة ريال، فتصدق بخمسين بنية خالصة، ثم تصدق بخمسين بقصد الرياء؛ فالأولى مقبولة، الثانية غير مقبولة؛ لأن آخرها منفك عن أولها. فإن قيل: لو حدث الرياء في أثناء الوضوء؛ هل يلحق بالصلاة فيبطل كله، أو بالصدقة فيبطل ما حصل فيه الرياء فقط؟

فالجواب: يحتمل هذا وهذا؛ فيلحق بالصلاة لأن الوضوء عبادة واحدة ينبني بعضها على بعض، ليس تطهير كل عضو عبادة مستقلة، ويلحق بالصدقة لأنه ليس كالصلاة من كل وجه ولا الصدقة من كل وجه؛ لأننا إذا قلنا ببطلان ما حصل فيه الرياء، فأعاد تطهيره وحده لم يضر؛ لأن تكرار غسل العضو لا يبطل الوضوء ولو كان عمدًا، بخلاف الصلاة، فإنه إذا كرر جزءًا منها كركوع أو سجود، لغير سبب شرعي، بطلت صلاته، فلو أنه بعد أن غسل يديه رجع وغسل وجهه، لم يبطل وضوءه، ولو أنه بعد أن سجد رجع وركع، لبطلت صلاته، والترتيب موجود في هذا وهذا، لكن الزيادة في الصلاة تبطلها، والزيادة في الوضوء لا تبطله، والرجوع مثلاً إلى الأعضاء الأولى لا يبطله أيضًا، وإن كان الرجوع في الحقيقة لا يعتبر وضوءًا لأنه غير شرعي، وربما يكون بالأولى غسل

---

(١) في قرة العيون: فإذا كان يخافه ﷺ على أصحابه الذين وحدوا الله بالعبادة ورغبوا إليه وإلى ما أمرهم به من طاعته فهاجروا وجاهدوا من كفر به؛ وعرفوا ما دعاهم إليه نبيهم، وما أنزل الله في كتابه من الإخلاص والبراءة من الشرك؛ فكيف لا يخاف من لا نسبة له إليهم في علم ولا عمل مما هو أكبر من ذلك؟ وقد أخبر ﷺ عن أمته بوقوع الشرك الأكبر فيهم بقوله في حديث ثوبان الآتي ذكره: «**حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان**» وقد جرى ما أخبر به ﷺ وعمت به البلوى في أكثر الأقطار حتى اتخذوه دينًا مع ظهور الآيات المحكمات، والأحاديث الصحيحة في النهي عنه والتخويف منه كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢] وقال: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١] وهذا هو تحقيق التوحيد كما تقدم في الباب قبله. ثم قال تعالى محذرًا عباده من الشرك ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] ومن لم تخوفه هذه الآيات وتزجره عن الشرك في العبادة إذا تدبرها فلا حيلة فيه. (ق).

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده (١/ ٦٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٤): رواه أبو يعلى من رواية ليث ابن أبي سليم عن أبي محمد عن حذيفة، وليث مدلس، وأبو محمد إن كان هو الذي روى عن ابن مسعود، أو الذي روى عن عثمان بن عفان، فقد وثقه ابن حبان وإن كان غيرهما فلم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من مات وهو يدعو من دون الله ندًّا دخل النار»(١)(٢) رواه البخاري.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من مات وهو يدعو من دون الله ندًا دخل النار» رواه البخاري:

قال ابنُ القيم: النِّدُّ: الشَّبيه، يُقال: فلانٌ ندُّ فلان، ونديده، أي: مثله وشبهه. انتهى، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢].

قوله: «من مات وهو يدعو من دون الله ندًّا»: أي: يجعل لله ندًّا في العبادة، يدعوه ويسأله ويستغيث به، «دخل النار».

قال العلاَّمةُ ابنُ القيِّم رحمه الله تعالى:

والشركُ فاحذره، فشركٌ ظاهر	ذا القسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ الندِّ للرحمن أيًا	كان، من حجر ومن إنسانَ
يدعوه، أو يرجوه، ثم يخافه	ويحبه كمحبة الدَّيان

وجهه على أنه واحدة، ثم غسل يديه، ثم قال: الأحسن أن أكمل الثلاث في الوجه أفضل فغسل وجهه مرتين، وهو سيرتب أي سيغسل يديه ثم وجهه؛ فوضوءه صحيح. ولو ترك التسبيح ثلاث مرات في الركوع، وبعدما سجد قال: فوت على نفسي فضيلة، سأرجع لأجل أن أسبح ثلاث مرات، فتبطل صلاته، فالمهم أن هناك فرقًا بين الوضوء والصلاة، ومن أجل الفرق لا أبت فيها الآن حتى أراجع وأتأمل إن شاء اللَّه تعالى.

قوله: «من». هذه شرطية تفيد العموم للذكر والأنثى.

قوله: «يدعو من دون اللَّه ندًّا». أي: يتخذ للَّه ندًّا سواء دعاه دعاء عبادة أم دعاء مسألة؛ لأن الدعاء ينقسم إلى قسمين:

الأول: دعاء عبادة، مثاله: الصوم، والصلاة، وغير ذلك من العبادات، فإذا صلى الإنسان أو صام؛ فقد دعا ربه بلسان الحال أن يغفر له، وأن يجيره من عذابه، وأن يعطيه من نواله، وهذا في أصل الصلاة، كما أنها تتضمن الدعاء بلسان المقال. ويدل لهذا القسم قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠]. فجعل الدعاء عبادة، وهذا القسم كله شرك، فمن صرف شيئًا

---

(١) في قرة العيون: وهذا الحديث فيه التحذير من الشرك أيضًا والتخويف منه. والند: - المثل والشبيه، فمن دعا ميتًا أو غائبًا وأقبل عليه بوجهه وقلبه رغبة إليه ورهبة منه سواء سأله أو لم يسأله فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله، ولهذا حرم الله تعالى اتخاذ الشفعاء وأنكره على من فعل ذلك أشد الإنكار لكونه ينافي الإخلاص الذي هو إقبال القلب والوجه على الله في كل ما يخافه العبد ويرجوه ويتقرب به ويدين به. ومن المعلوم أنه إذا التفت للشفيع يسأله فقد أعرض بوجهه وقلبه عن الله تعالى وذلك ينافي الإخلاص. ويأتي بيان ذلك في باب الشفاعة إن شاء الله تعالى.(ق).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٤٤٩٧).

واعلم، أنَّ اتخاذ الندِّ على قسمين:

الأوَّل: أنَّه يجعله لله شريكًا في أنواع العبادة أو بعضها، كما تقدَّم. وهو شركٌ أكبر.

والثاني: ما كان من نوع الشرك الأصغر، كقول الرجل: ما شاء الله وشئت، ولولا اللَّه وأنت. وكيسير الرياء؛ فقد ثبت أنَّ النبي ﷺ لما قال له رجل: ما شاء الله وشئت، قال: «أجعلتني لله ندًّا؟ بل ما شاء الله وحده»[1] رواه أحمدُ، وابن أبي شيبة، والبخاري في (الأدب المفرد)، والنسائي، وابن ماجه. وقد تقدَّم حُكمُه في باب فضل التوحيد.

وفيه: بيانُ أنَّ دعوةَ غير الله فيما لا يقدرُ عليه إلاَّ الله شركٌ جلي، كطلب الشفاعة من الأموات. فإنَّها مُلكٌ لله تعالى وبيده، ليس بيد غيره منها شيء، وهو الذي يأذنُ للشفيع أنْ يشفع فيمن لاقى الله بالإخلاص والتوحيد من أهل الكبائر، كما يأتي تقريره في باب الشفاعة إنْ شاء الله تعالى.

من أنواع العبادة لغير اللَّه؛ فقد كفر كُفراً مخرجًا له عن الملة، فلو ركع لإنسان أو سجد لشيء يعظمه كتعظيم اللَّه في هذا الركوع أو السجود، لكان مشركًا، ولهذا منع النبي ﷺ من الانحناء عند الملاقاة لما سئل عن الرجل يلقى أخاه أن ينحني له؟ قال: «لا»[2]. خلافًا لما يفعله بعض الجهال إذا سلم عليك انحنى لك، فيجب على كل مؤمن باللَّه أن ينكره؛ لأنه عظَّمك على حساب دينه.

الثاني: دعاء المسألة؛ فهذا ليس كله شركًا، بل فيه تفصيل، فإن كان المخلوق قادراً على ذلك، فليس بشرك؛ كقولك: اسقني ماءً لمن يستطيع ذلك. قال ﷺ: «من دعاكم فأجيبوه»[3] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: ٨]. فإذا مدَّ الفقير يده، وقال: ارزقني، أي: أعطني؛ فهو جائز، كما قال تعالى: ﴿فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾، وأما إن دعا المخلوق بما لا يقدر عليه إلا اللَّه، فإن دعوته شرك مخرجة عن الملة. مثال ذلك: أن تدعو إنسانًا أن ينزل الغيث معتقداً أنه قادر على ذلك. والمراد بقول الرسول ﷺ «من مات وهو يدعو للَّه نداً» المراد الند في العبادة، أما الند في المسألة، ففيه التفصيل السابق.

ومع الأسف؛ ففي بعض البلاد الإسلامية من يعتقد أن فلانًا المقبور الذي بقي جثة أو أكلته الأرض ينفع أو يضر، أو يأتي بالنسل لمن لا يولد لها، وهذا ـ والعياذ باللَّه ـ شرك أكبر مخرج من الملة، وإقرار هذا أشد من إقرار شرب الخمر والزنا واللواط، لأنه إقرار على كفر، وليس إقراراً على فسوق فقط.

قوله: «دخل النار»: أي: خالداً، مع أن اللفظ لا يدل عليه؛ لأن دخل فعل، والفعل يدل على الإطلاق. وأيضًا قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]. وإذا حرمت الجنة؛ لزم أن يكون خالداً في النار أبداً، فيجب أن نخاف من الشرك

---

(١) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٣٩).

(٢) حسن: رواه الترمذي (٢٧٢٨)، وابن ماجه (٣٧٠٢)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٦٠).

(٣) صحيح: رواه أبو داود (١٦٧٢، ٥١٠٩)، وأحمد (٥٣٤٢) ومواضع، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٠٢١)، والسلسلة الصحيحة (٢٥٤).

ولمسلم، عن جابر: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من لقيَ الله لا يُشركُ به شيئًا دخل الجنة، ومن لَقيهُ يشركُ به شيئًا دخل النار»[١].

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولمسلم، عن جابر: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «من لقيَ الله لا يُشركُ به شيئًا دخل الجنة، ومن لَقيهُ يشركُ به شيئًا دخل النار»:

جابر: هو ابنُ عبد الله بن عمرو بن حَرام ـ بمُهملتين ـ الأنصاري، ثم السَّلَمي ـ بفتحتين ـ صحابيٌّ جليل، ولأبيه مناقبُ مشهورة[٢] رضي الله عنهما، مات بالمدينة بعد السبعين، وقد كُفَّ بصرهُ، وله أربعٌ وتسعون سنة.

قوله: «مَن لَقي الله لا يُشرك به شيئًا»:

قال القُرطبي: أي: لم يتخذ معه شريكًا في الإلهية، ولا في الخلق، ولا في العبادة. ومن المعلوم من الشرع، المجمع عليه عند أهل السُّنة: أنَّ من مات على ذلك فلا بُدَّ له من دخول الجنة، وإنْ جَرت عليه قبل ذلك أنواعٌ من العذاب والمحنة، وأنَّ من مات على الشرك لا يدخل الجنَّةَ، ولا يناله من الله رحمة، ويُخلَّد في النار أبد الآباد، من غير انقطاع عذابٍ، ولا تصرُّم آماد.

ما دامت هذه عقوبته؛ فالمشرك خسر الآخرة لأنه في النار خالدٌ، وخسر الدنيا أيضًا، لأنه لم يستفد منها شيئًا، وقامت عليه الحجة، وجاءه النذير، ولكنه خسر والعياذ بالله ما استفاد شيئًا من الدنيا، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧].

وقال الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ⑪ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ⑫ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١١-١٣]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ١٥]. فخسر نفسه؛ لأنه لم يستفد منها شيئًا، وخسر أهله، لأنهم إن كانوا من المؤمنين فهم في الجنة، فلا يتمتع بهم في الآخرة، وإن كانوا في النار فكذلك؛ لأنه كلما دخلت أمة لعنت أختها، والشرك خفي جدًّا؛ فقد يكون في الإنسان وهو لا يشعر إلا بعد المحاسبة الدقيقة، ولهذا قال بعض السلف «ما جاهدت نفسي على شيء ما جاهدتها على الإخلاص».

فالشرك أمره صعب جدًّا ليس بالهين، ولكن ييسر الله الإخلاص على العبد، وذلك بأن يجعله الله نصب عينيه، فيقصد بعمله وجه الله لا يقصد مدح الناس أو ذمهم أو ثناءهم عليه، فالناس لا ينفعونه أبدًا، حتى لو خرجوا معه لتشييع جنازته لم ينفعه إلا عمله، قال ﷺ: «**يخرج مع الميت أهله وماله وعمله؛ فيرجع اثنان: أهله وماله، ويبقى عمله**»[٣]. وكذلك أيضًا من المهم أن الإنسان لا يفرحه أن

---

(١) صحيح رواه مسلم (٩٣).

(٢) كان عبد الله والد جابر من الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة العقبة وجعله النبي ﷺ نقيب بني سلمة. ثم حضر بدرًا. وقتل يوم أحد، فأخذ يبكي عليه ولده جابر وأخته فاطمة بنت عمرو فقال رسول الله ﷺ: «**تبكيه أو لا تبكيه، لا زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه**».(ق).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦٠)، والترمذي (٢٣٧٩)، والنسائي (١٩٣٧)، وأحمد (١١٦٧٠).

وقال النووي: أمَّا دخولُ المشرك النارَ فهو على عُمومه، فيدخلها ويخلَّد فيها، ولا فرق فيه بين الكتابي ـ اليهودي والنصراني ـ وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عنادًا وغيره، ولا بين من خالف ملَّة الإسلام وبين من انتسب إليها ثم حُكم بكفره؛ بجحده ما يكفرُ بجحده وغير ذلك[1]. وأمَّا دخولُ من مات غيرَ مشركٍ الجنَّةَ، فهو مقطوعٌ له به. لكن إنْ لم يكن صاحبُ كبيرةٍ مات مُصرًّا عليها دخل الجنةَ أوَّلاً، وإنْ كان صاحب كبيرة مات مُصرًا عليها فهو تحت المشيئة: فإنْ عُفي عنه دخل الجنة أوَّلاً، وإلاَّ عُذِّب في النار، ثم أُخرج من النار وأُدخل الجنة.

وقال غيرُه: اقتصر على نفي الشرك؛ لاستدعائه التوحيد بالاقتضاء، واستدعائه إثبات الرسالة باللزوم. إذ من كذَّب رُسلَ الله فقد كذَّب الله، ومن كذَّب الله فهو مشرك. وهو كقولك: من توضأ

يقبل الناس قوله لأنه قوله، لكن يفرحه أن يقبل الناس قوله ـ إذا رأى أنه الحق ـ لأنه الحق، لا أنه قوله، وكذا لا يحزنه أن يرفض الناس قوله لأنه قوله؛ لأنه حينئذٍ يكون قد دعا لنفسه، لكن يحزنه أن يرفضوه لأنه الحق، وبهذا يتحقق الإخلاص. فالإخلاص صعب جدًّا، إلا أن الإنسان إذا كان متجهًا إلى الله اتجاهًا صادقًا سليمًا على صراط مستقيم، فإن الله يعينه عليه، وييسره له.

قوله: «من»: شرطية تفيد العموم، وفعل الشرط: «لقي»، وجوابه قوله: «دخل الجنة»، وهذا الدخول لا ينافي أن يُعذَّب بقدر ذنوبه إن كانت عليه ذنوب، لدلالة نصوص الوعيد على ذلك، وهذا إذا لم يغفر الله له؛ لأنه داخل تحت المشيئة.

قوله: «لا يشرك»: في محل نصب على الحال من فاعل «لقي».

قوله: «شيئًا»: نكرة في سياق الشرط فيعم أي شرك، حتى ولو أشرك مع الله أشرف الخلق ـ وهو الرسول ﷺ ـ دخل النار؛ فكيف بمن يجعل الرسول ﷺ أعظم من الله، فيلجأ إليه عند الشدائد، ولا يلجأ إلى الله، بل ربما يلجأ إلى ما دون الرسول ﷺ وهناك من لا يبالي بالحلف بالله صادقًا أم كاذبًا، ولكن لا يحلف بقوميته إلا صادقًا، ولهذا اختلف فيمن لا يبالي بالحلف بالله، ولكنه لا يحلف بملته أو بما يعظمه إلا صادقًا، فإن لزمته يمين، هل يحلف بالله أو يحلف بهذا؟

فقيل: يحلف بالله ولو كذب، ولا يُعان على الشرك، وهو الصحيح.

وقيل: يحلف بغير الله؛ لأن المقصود الوصول إلى بيان الحقيقة، وهو إذا كان كاذبًا لا يمكن أن يحلف، لكن نقول: إن كان صادقًا حلف وحصل الشرك.

مسألة: هل يلزم من دخول النار الخلود لمن أشرك؟

هذا بحسب الشرك، إن كان الشرك أصغر؛ فإنه لا يلزم من ذلك الخلود في النار، وإن كان أكبر؛ فإنه يلزم منه الخلود في النار. لكن لو حملنا الحديث على الشرك الأكبر في الموضعين في قوله: **«من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة»**.

---

(١) يعني أنهم مستوون في الخلود في النار، ولكنهم متفاوتون في دركاتهم. ولا يظلم ربك أحدًا مثقال ذرة. (ق).

فيه مسائل:

الأولى: الخوف من الشرك.

الثانية: أنَّ الرياء من الشرك.

الثالثة: أنَّه من الشرك الأصغر.

الرابعة: أنَّه أخوف ما يُخاف منه على الصالحين.

صحَّت صلاتُه، أي: مع سائر الشروط. فالمرادُ: من مات حال كونِه مؤمنًا بجميع ما يجب الإيمان به، إجمالاً في الإجمالي، وتفصيلاً في التفصيلي[1]. انتهى.

فإذا كان الشرك ينافي التوحيد ويوجب دخول النار والخلود فيها وحرمان الجنة إذا كان أكبر، وأنه لا تتحقق السعادة إلا بالسلامة منه كان حقًّا على العبد أن يخاف منه أعظم خوف وأن يسعى في الفرار منه ومن طرقه ووسائله وأسبابه ويسأل الله العافية منه؛ كما فعل ذلك الأنبياء والأصفياء وخيار الخلق.

وفي قوله: «ومن لقي الله يُشرك به شيئًا دخل النار»: قلنا: من لقي اللّه لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، وإن عذب قبل الدخول في النار بما يستحق، فيكون مآله إلى الجنة، ولا حاجة إلى أن نقول: ولننظر إلى النصوص الأخرى الدالة على أنه يُعذَّب؛ لأنه دخلها دخولاً مطلقًا مخلدًا، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار، ولا حاجة أن نُقَسِّم ونقول: دخولاً مطلقًا، أو مطلق دخول. أما إذا قسَّمنا الشرك إلى قسمين: أصغر وأكبر؛ فإننا أيضًا نُقسم الدخول إلى قسمين: دخول مطلق، ومطلق الدخول.

فيه مسائل:

الأولى: الخوف من الشرك: لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾، ولقوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾.

الثانية: أن الرياء من الشرك: لحديث: **«أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»** فسئل عنه فقال: **«الرياء»**، وقد سبق بيان أحكامه بالنسبة إلى إبطال العبادة.

الثالثة: أنه من الشرك الأصغر: لأن النبي ﷺ لما سئل عنه قال: **«الرياء»** فسماه شركًا أصغر. وهل يمكن أن يصل إلى الأكبر؟ ظاهر الحديث: لا يمكن؛ لأنه قال: **«الشرك الأصغر»** فسئل عنه؛ فقال: **«الرياء»**. لكن في عبارات ابن القيم رحمه اللّه أنه إذا ذكر الشرك الأصغر قال: كيسير الرياء؛ فهذا يدل على أن كثيره ليس من الأصغر، لكن إن أراد بالكمية فنعم؛ لأنه لو كان يرائي في كل عمل لكان مشركًا شركًا أكبر لعدم وجود الإخلاص في عمل يعمله، أما إذا أراد الكيفية؛ فظاهر الحديث أنه أصغر مطلقًا.

الرابعة: أنه أخوف ما يخاف منه على الصالحين: وتؤخذ من قوله: **«أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»**، ولأنه قد يدخل في قلب الإنسان من غير شعور لخفائه وتطلع النفس إليه، فإن كثيراً من النفوس تحب أن تمدح بالتعبد للّه.

---

(١) يعني خالطت حلاوة هذا الإيمان بشاشة قلبه فأثمرت الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة. وإلا فكم من مدع لهذا الإيمان الإجمالي والتفصيلي وهو عري عنه إجمالاً وتفصيلاً. (ق).

الخامسة: قرب الجنة والنار.
السادسة: الجمع بين قُربهما في حديث واحد.
السابعـة: أنَّه منْ لقيه لاَ يشرك به شـيئًا دخل الجنة، ومَن لقـيه يشرك به شيـئًا دخل النار ولو كان من أعبد الناس.
الثامنة: المسألة العظيمة: سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عـبادة الأصـنـام.
التاسعة: اعتباره بحال الأكثر، لقوله: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾.
العاشرة: فيه تفسير: «لا إله إلا الله» كما ذكره البخاري.
الحادية عشرة: فضيلة من سلم من الشرك.

الخامسة: قرب الجنة والنار: لقوله: «من لقي اللَّه لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار».

السادسة: الجمع بين قربهما في حديث واحد: «من لقي اللَّه لا يُشرك به شيئًا». الحديث.

السابعة: أن من لقـيه يشرك به شيئًا دخل النار، ولو كـان من أعبد الناس: تؤخذ من العموم في قوله: «من لقي اللَّه»؛ لأن «من» للعموم، لكن إن كان شركه أكبر، لم يدخل الجنة، وإن كـان أعبد الناس؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ﴾ [المائدة: ٧٢]، وإن كان أصغر عُذِّب بقدر ذنوبه ثم دخل الجنة.

الثـامنة: المسألة العظـيمـة سؤال الخليل له ولبـنيه وقـاية عبـادة الأصنام: تؤخـذ من قـوله تعالىٰ: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾.

التاسعة: اعتباره بحال الأكثر؛ لقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾: وفيه إشكال؛ إذ المؤلف يقول: بحال الأكثر والآية: ﴿ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾، وفرق بين كثير وأكثر، ولهذا قال تعالىٰ في بني آدم: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠]، فلم يقل علىٰ أكثر الخلق، ولا علىٰ الخلق؛ فالآدميون فضِّلوا علىٰ كثير ممن خلق اللَّه، وليسوا أكرم الخلق علىٰ اللَّه، ولكنه كرَّمهم.

العاشرة: فيه تفسير لا إله إلا اللَّه كما ذكره البخاري: الظاهر أنها تؤخذ من جميع الباب؛ لأن لا إله إلا اللَّه فيها نفي وإثبات.

الحادية عشرة: فضيلة من سلم من الشرك: لقوله: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾، وقوله: «من لقي اللَّه لا يشرك بـه شيئًـا دخل الجنة». هذا الترتيب الذي ذكره المؤلف من أحسن مـا يكون؛ لأنه لما ذكر توحيد الإنسان بنفسه ذكـر دعوة غيره إلىٰ ذلك؛ لأنه لا يتم الإيمان إلا إذا دعا إلىٰ التوحيد، قال تعالىٰ: ﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر].

فلابد مع التوحـيد من الدعـوة إليه، وإلا كـان ناقصًا، ولا ريب أن هذا الذي سلك سـبيل التوحيد لم يسلكه إلا وهو يرىٰ أنه أفضل سبيل، وإذا كان صادقًا في اعتقاده، فلابد أن يكون داعيًا

٤ ـ بـاب
الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ الدُّعاء إلى شهادة أنْ لا إله إلاَّ الله:

ذكر المُصنف رحمه الله تعالى: التوحيدَ وفضله، وما يُوجب الخوف من ضدِّه.

نبَّه بهذه الترجمة على أنَّه لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه، بل يجب عليه أنْ يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة؛ كما هو سبيل المُرسلين وأتباعهم، كما قال الحسنُ البصري لمَّا تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣] فقال: هذا حبيبُ الله، هذا وليُّ الله، هذا صفوةُ الله، هذا خيرةُ الله، هذا أحبُّ أهل الأرض إلى الله؛ أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحًا في إجابته، وقال: إنني من المسلمين، هذا خليفةُ الله[1].

وعلى العبد أن يجتهد في تنمية الإخلاص في قلبه وتقويته وذلك بكمال التعلق بالله تألهًا وإنابة وخوفًا ورجاء وطمعًا وقصداً لمرضاته وثوابه في كل ما يفعله وما يتركه من الأمور الظاهرة والباطنة فإن الإخلاص بطبيعته يدفع الشرك الأكبر والأصغر، وكل من وقع منه نوع من الشرك فلضعف إخلاصه.

باب الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله

وهذا الترتيب الذي صنعه المؤلف في هذه الأبواب في غاية المناسبة؛ فإنه ذكر في الأبواب السابقة وجوب التوحيد وفضله والحث عليه وعلى تكميله، والتحقق به ظاهراً وباطنًا، والخوف من ضده، وبذلك

إليه، والدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله من تمام التوحيد، ولا يتم التوحيد إلا به .

قوله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾: المشار إليه ما جاء به النبي ﷺ من الشرع عبادة ودعوة إلى اللّه. سبيلي: طريقي.

قوله: ﴿أَدْعُو﴾: حال من الياء في قوله: ﴿سَبِيلِي﴾، ويحتمل أن تكون استئنافًا لبيان تلك السبيل.

وقوله: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾: لأن الدعاة إلى اللّه ينقسمون إلى قسمين:

١ ـ داع إلى اللّه. ٢ ـ داع إلى غيره.

فالداعي إلى اللّه تعالى هو المخلص الذي يُريد أن يُوصل الناس إلى اللّه تعالى. والداعي إلى غيره

---

(١) ذكره العماد ابن كثير في تفسير الآية (٣٣) من سورة فصلت عن عبدالرزاق عن معمر عن الحسن البصري رحمه الله. ويعني الحسن بذلك: أن الصدق في حب الله وعبادته وطاعته يستلزم ولا بد الدعوة إلى ذلك والجهاد فيه. لأن من أحب كل ما أحبه الله وكل من أحب الله وكره كل ما كره ومن كره. وأحب أن يكون الناس كلهم معه في حب الله. (ق).

. . . .

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]:

قال أبو جعفر بن جرير: يقول تعالىٰ ذِكْره لنبيه محمدﷺ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَٰذِهِ﴾ الدعوة التي أدعو إليها، والطريقة التي أنا عليها: من الدعاء إلىٰ توحيد الله، وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان، والانتهاء إلىٰ طاعته وترك معصيته ﴿سَبِيلِي﴾ وطريقتي، ودعوتي ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ تعالىٰ وحده لا شريك له ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ بذلك ويقينِ علمٍ مني به ﴿أَنَا﴾ يدعو إليه علىٰ بصيرة أيضًا ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ وصدَّقني، وآمن بي. ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ يقول له تعالىٰ ذِكْره: وقل تنزيهًا لله تعالىٰ وتعظيمًا له مِن أن يكون له شريكٌ من ملكه أو معبود سواه في سلطانه: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يقول: وأنا بريءٌ من أهل الشرك به، لست منهم ولا هم منيّ. انتهىٰ.

قال في (شرح المنازل): يريدُ أنْ تصل باستدلالك إلىٰ أعلىٰ درجات العلم، وهي البصيرةُ التي يكون نسبة المعلوم فيها إلىٰ القلب كنسبة المرئي إلىٰ البصر، وهذه هي الخصيصة التي اختص بها الصحابة عن سائر الأمة، وهي أعلىٰ درجات العلماء.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ أي: أنا وأتباعي علىٰ بصيرة. وقيل: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ عطفٌ علىٰ المرفوع في ﴿أَدْعُو﴾ أي: أنا أدعو إلىٰ الله علىٰ بصيرة، ومن اتبعني كذلك يدعو إلىٰ

- -

يكمل العبد في نفسه. ثم ذكر في هذا الباب تكميله لغيره بالدعوة إلىٰ(شهادة أن لا إله إلا الله) فإنه لا يتم التوحيد حتىٰ يكمل العبد جميع مراتبه ثم يسعىٰ في تكميل غيره. وهذا هو طريق جميع الأنبياء..

قد يكون داعيًا إلىٰ نفسه، يدعو إلىٰ الحق لأجل أن يُعظَّم بين الناس ويُحترم، ولهذا تجده يغضب إذا لم يفعل الناس ما أمر به، ولا يغضب إذا ارتكبوا نهيًا أعظم منه، لكن لم يدعُ إلىٰ تركه. وقد يكون داعيًا إلىٰ رئيسه كما يوجد في كثير من الدول من علماء الضلال من علماء الدول، لا علماء الملل، يدعون إلىٰ رؤسائهم. من ذلك لما ظهرت الاشتراكية في البلاد العربية، قام بعض علماء الضلال بالاستدلال عليها بآيات وأحاديث بعيدة الدلالة، بل ليس فيها دلالة فهؤلاء دعوا إلىٰ غير اللّه.

ومن دعا إلىٰ اللّه ثم رأىٰ الناس فارِّين منه؛ فلا ييأس ويترك الدعوة، فإن الرسولﷺ قال لعلي: «انفذ على رسلك، فواللّه؛ لأن يهدي اللّه بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم»[1]. يعني: أن اهتداء رجل واحد من قبائل اليهود، خير لك من حمر النعم، فإذا دعا إلىٰ اللّه ولم يُجبْ، فليكن غضبه من أجل أن الحق لم يُتَّبع، لا لأنه لم يجب، فإذا كان يغضب لهذا، فمعناه أنه يدعو إلىٰ اللّه، فإذا استجاب واحد؛ كفىٰ، وإذا لم يستجب أحد؛ فقد أبرأ ذمته أيضًا، وفي الحديث: «والنبي وليس معه أحد»[2].

ثم إنه يكفي من الدعوة إلىٰ الحق والتحذير من الباطل أن يتبين للناس أن هذا حق وهذا باطل؛ لأن الناس إذا سكتوا عن بيان الحق، وأقرَّ الباطل مع طول الزمن؛ ينقلب الحق باطلاً، والباطل حقًّا.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٠٩، ٣٧٠١، ٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦)، وأحمد (٢٢٣١٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠)، والترمذي (٢٤٤٦)، وأحمد (٢٤٤٤، ٢٩٤٧).

. . . .

الله تعالىٰ علىٰ بصيرة. وعلىٰ القولين: فالآيةُ تدل علىٰ أن أتباعَه هم أهلُ البصائر الداعين إلىٰ الله تعالىٰ، ومن ليس منهم فليس من أتباعه علىٰ الحقيقة والموافقة. وإن كان من أتباعه علىٰ الانتساب والدَّعوىٰ.

قال المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ: فيه مسائل:

منها: التنبيه علىٰ الإخلاص لأن كثيراً من الناس لو دعا إلىٰ الحق فهو يدعو إلىٰ نفسه. ومنها: أن البصيرة من الفرائض. ومنها: أن من دلائل حسن التوحيد: أنه تنزيه لله تعالىٰ عن المسبة. ومنها: أن من قبح الشرك وكونه مسبة لله. ومنها: إبعاد المسلم عن المشركين لا يصير منهم ولو لم يشرك. انتهىٰ.

وقال العلاَّمةُ ابنُ القيِّم ـ رحمه الله تعالى ـ في معنى قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]: ذكر سبحانه مراتب الدعوة، وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو:

قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾: أي: علم؛ فتضمنت هذه الدعوة الإخلاص والعلم؛ لأن أكثر ما يفسد الدعوة عدم الإخلاص، أو عدم العلم، وليس المقصود بالعلم في قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ العلم بالشرع فقط، بل يشمل: العلم بالشرع، والعلم بحال المدعو، والعلم بالسبيل الموصل إلىٰ المقصود، وهو الحكمة. فيكون بصيراً بحكم الشرع، وبصيراً بحال المدعوّ، وبصيراً بالطريق الموصلة لتحقيق الدعوة، ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ: «إنك تأتي قوماً أهلَ كتاب»[1]. وهذه ليست كلها من العلم بالحكم الشرعي؛ لأن علمي أن هذا الرجل قابل للدعوة باللين، وهذا قابل للدعوة بالشدة، وهذا عنده علم يمكن أن يقابلني بالشبهات؛ أمر زائد علىٰ العلم بالحكم الشرعي.

وكذلك العلم بالطرق التي تجلب المدعوين كالترغيب بكذا والتشجيع، كقوله ﷺ: «من قتل قتيلاً، فله سلبه»[2]، أو بالتأليف، فالنبي ﷺ أعطىٰ المؤلفة قلوبهم في غزوة حنين إلىٰ مائة بعير.

فهذا كله من الحكمة؛ فالجاهل لا يصلح للدعوة، وليس محموداً، وليست طريقته طريقة الرسول ﷺ؛ لأن الجاهل يفسد أكثر مما يصلح.

قوله: ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾: ذكروا فيها رأيين:

الأول: «أنا» متبدأ، وخبرها «على بصيرة»، و«ومن اتبعني» معطوفة علىٰ «أنا»، أي: أنا ومن اتبعني علىٰ بصيرة، أي: في عبادتي ودعوتي.

الثاني: «أنا» توكيد للواو في قوله: «أدعو»؛ أي: أدعو أنا إلىٰ اللّه ومن اتبعني يدعو أيضاً، أي: قل هذه سبيلي أدعو إلىٰ اللّه ويدعو من اتبعني وكلانا علىٰ بصيرة.

قوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾: أي: وسبحان اللّه أن أكون أدعو علىٰ غير بصيرة!

وإعراب: «سبحان»: مفعول مطلق عامله محذوف تقديره أسبِّحُ.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣١٤٢، ٤٣٢٢)، ومسلم (١٧٥١)، وأبو داود (٢٧١٧، ٢٧٣٧)، والترمذي (١٥٦٢)، والنسائي (٤٧٥٠)، وأحمد (٢٢١٠١).

. . . .

فإنَّه إمَّا أنْ يكون طالبًا للحق محبًا له، مُؤثرًا له علىٰ غيره إذا عرفه. فهذا يُدعَىٰ بالحكمة، ولا يحتاج إلىٰ موعظةٍ وجدال. وإمَّا أنْ يكون مُشتغلاً بضد الحق، لكن لو عرفه آثره واتبعه. فهذا يحتاج إلىٰ الموعظة بالترغيب والترهيب. وإمَّا أن يكون مُعاندًا معارضًا، فهذا يُجادل بالتي هي أحسن. فإنْ رجع، وإلا انتقل معه إلىٰ الجلاد إنْ أمكن. انتهىٰ.

وقال أيضًا رحمه الله تعالى: والفرقُ بين حُبِّ الإمامة والدعوة إلىٰ الله، وحب الرياسة: هو الفرقُ بين تعظيم أمر الله والنصح له، وتعظيم النفس والسعي في حظِّها.

فإنَّ الناصح لله المحب له، يُحبُ أنْ يُطاع ربُّه فلا يُعصىٰ، وأن تكون كلمته هي العليا، وأن يكون الدينُ كلُّه لله، وأن يكون العباد ممتثلين أوامره مجتنبين نواهيه.

فقد ناصح الله في عبوديته، وناصح خلقه في الدعوة إلىٰ الله، فهو يحب الإمامة في الدين. بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إمامًا يقتدي به المقتدون، كما اقتدىٰ هو بالمتقين. فإذا أحب هذا العبدُ الداعي إلىٰ الله أن يكون في أعين الناس جليلاً، وفي قلوبهم مهيبًا، وإليهم حبيبًا، وأن يكون فيهم مطاعًا، لكي يأتموا به، ويقتفوا أثر الرسول ﷺ علىٰ يديه. لم يضره ذلك بل يُحمد عليه؛ لأنه داع إلىٰ الله، يُحب أنْ يطاع ويعبد ويوحَّد. فهو يُحب ما يكون عونًا علىٰ ذلك، موصلاً إليه.

ولهذا ذكر الله سبحانه عباده الذين اختصهم لنفسه، وأثنىٰ عليهم في تنزيله وأحسن جزاءهم يوم لقائه. فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] فسألوه أنْ يقر أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له سبحانه، وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين لهم علىٰ طاعته وعبوديته.

فإنَّ الإمام والمؤتم متعاونان علىٰ طاعته، وإنَّما سألوه ما يعاونون به المتقين علىٰ مرضاته وطاعته، وهو دعوتهم إلىٰ الله بالإمامة في الدين، التي أساسها الصبر واليقين، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]. فسؤالهمُ: أنْ يجعلهم أئمة للمتقين. هو سؤالٌ أنْ يهديهم ويوفقهم ويمنَّ عليهم بالعلوم النافعة، والأعمال الصالحة ظاهرًا وباطنًا، التي لا تتم الإمامةُ إلاَّ بها.

وتأمَّل كيف نسبهم في هذه الآيات إلىٰ اسم الرحمن جلَّ جلاله، ليعلم خلقُه أنَّ هذا إنما نالوه بفضله ورحمته، ومحض جوده ومنَّته.

وتأمل كيف جعل جزاؤهم في هذه الصورة الغرف؛ وهي المنازل العالية في الجنة.

وهذا لَمَّا كانت الإمامةُ في الدين من الرتب العالية - بل من أعلىٰ مراتب يُعطاها العبد في الدنيا - كان جزاؤه عليها الغرف العالية في الجنة.

وهذا بخلاف طلب الرياسة، فإنَّ طالبيها يسعون في تحصيلها لينالوا بها أغراضهم: من العلوِّ في الأرض، وتعبد القلوب لهم، وميلها إليهم، ومساعدتهم لهم علىٰ جميع أغراضهم، مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم.

فترتب علىٰ هذا الطلب من المفاسد ما لا يعلمه إلاَّ الله: من البغي والحسد، والطغيان والحقد،

قوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: محلها مما قبلها في المعنىٰ توكيد؛ لأن التوحيد معناه نفي الشرك.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ لما بعث مُعاذًا إلى اليمن، قال له: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أوَّلُ ما تدعوهم إليه: شهادةُ أنْ لا إله إلاَّ الله - وفي رواية: إلى أن يوحِّدوا الله - فإن هم أطاعوك لذلك،

والظلم، والحمية للنفس دون حق الله، وتعظيم من حقّر الله، واحتقار من أكرمه الله. ولا تتم الرياسةُ الدنيوية إلاَّ بذلك، ولا تُنال إلاَّ بأضعافه من المفاسد، والرؤساء في عمىً عن هذا.

فإذا كُشف الغطاء تبيَّن لهم فساد ما كانوا عليه، ولا سيما إذا حشروا في صِفة الذَّر، يطؤهم أهلُ الموقف بأرجلهم؛ إهانة لهم وتحقيراً وتصغيراً، كما صغَّروا أمر الله، وحقروا عباده. انتهىٰ كلامُه ـ رحمه الله تعالىٰ.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ لما بعث مُعاذًا إلى اليمن، قال له: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أوَّلُ ما تدعوهم إليه: شهادةُ أنْ لا إله إلاَّ الله - وفي رواية: إلى أن يوحِّدوا الله - فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإنْ هم أطاعوك لذلك. فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقةً تُؤخذ من أغنيائهم فتُرَدُّ على فقرائهم، فإنْ هم أطاعوك لذلك فإيَّاك وكرائم أموالهم، واتقِ دعوةَ المظلوم؛ فإنَّه ليس بينها وبين الله حجاب». أخرجاه[1].

فإنهم أول ما يدعون قومهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له وهي طريقة سيدهم وإمامهم ﷺ؛ لأنه قام بهذه الدعوة أعظم قيام، ودعا إلىٰ سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن. ـ لم يفتر ولم يضعف حتىٰ أقام الله به الدين وهدىٰ به الخلق العظيم، ووصل دينه ببركة دعوته إلىٰ مشارق الأرض ومغاربها ـ وكان يدعو بنفسه ويأمر رسله وأتباعه أن يدعوا إلىٰ الله وإلىٰ توحيده قبل كل شيء، لأن جميع الأعمال متوقفة في صحتها وقبولها علىٰ التوحيد.

فكما أن علىٰ العبد أن يقوم بتوحيد الله فعليه أن يدعو العباد إلىٰ الله بالتي هي أحسن، وكل من اهتدىٰ علىٰ يديه فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء.

قوله: (أي: قول ابن عباس): «بعث معاذًا»: أي: أرسله، وبعثه علىٰ صفة المعلم والحاكم والداعي، وبعثه في ربيع الأول سنة عشرة من الهجرة، وهذا هو المشهور، وبعثه هو وأبا موسىٰ الأشعري رضي الله عنهما، بعث معاذًا إلىٰ صنعاء وما حولها، وأبا موسىٰ إلىٰ عدن وما حولها، وأمرهما: «أن اجتمعا وتطاوعا ولا تفترقا، ويسِّرا ولا تعسِّرا، وذكِّرا ولا تنفرا»[2].

(١) صحيح: رواه البخاري (١٤٩٦، ٣٠٥٩، ٤٣٤٧)، ومسلم (١٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٣٨) ومواضع، ومسلم (١٧٣٣) بدون لفظ: «وذكرا».

فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإنْ هم أطاعوك لذلك. فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقةً تُؤخذ من أغنيائهم فتُرَدُّ على فقرائهم، فإنْ هم أطاعوك لذلك فإيَّاك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» أخرجاه.

قال الحافظ: كان بعثُ معاذٍ إلى اليمن سنة عشر، قبل حجِّ النبي ﷺ كما ذكره المصنف - يعني البخاري - في أواخر المغازي. وقيل: كان ذلك في آخر سنة تسع، عند مُنْصرَفه ﷺ من تبوك. رواه الواقدي بإسناده إلى كعب بن مالك. وأخرجه ابن سعد في (الطبقات) عنه. واتفقوا أنه لم يزل على اليمن، إلى أنْ قدم في خلافة أبي بكر رضي الله عنه. ثم توجَّه إلى الشام، فمات بها.

قال شيخُ الإسلام: ومن فضائل معاذ رضي الله تعالى عنه: أنَّه بعثه ﷺ إلى اليمن مبلِّغًا عنه، ومفقِّهًا ومعلمًا وحاكمًا.

قوله: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب» قال القُرطبي: يعني به اليهود والنصارى؛ لأنهم كانوا في اليمن أكثر من مشركي العرب أو أغلب. وإنَّما نبَّه على هذا ليتهيأ لمناظرتهم.

وقال الحافظ: هو كالتوطئة للوصية، ليجمع همَّته عليها.

قوله: «فليكن أوَّلَ ما تدعوهم إليه شهادةُ أن لا إله إلا الله»[1] شهادة: رُفع على أنه اسم يكن

قوله: «لما»: إعرابها شرطية، وهي حرف وجود لوجود، و«لو»: حرف امتناع لامتناع،

(١) في قرة العيون: وكانوا يقولونها لكنهم جهلوا معناها الذي دلت عليه من إخلاص العبادة لله وحده وترك عبادة ما سواه، فكان قولهم: (لا إله إلا الله) لا ينفعهم لجهلهم بمعنى هذه الكلمة كحال أكثر المتأخرين من هذه الأمة، فإنهم كانوا يقولونها مع ما كانوا يفعلونه من الشرك بعبادة الأموات والغائبين والطواغيت والمشاهد؛ فيأتون بما ينافيها فيثبتون ما نفته من الشرك باعتقادهم وقولهم وفعلهم، وينفون ما أثبتته من الإخلاص كذلك، وظنوا أن معناها القدرة على الاختراع تقليدًا للمتكلمين من الأشاعرة وغيرهم، وهذا هو توحيد الربوبية الذي أقر به المشركون؛ فلم يدخلهم في الإسلام كما قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤- ٨٩] وقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١] وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير. وهذا التوحيد قد أقر به مشركو الأمم؛ وأقر به أهل الجاهلية الذين بعث فيهم محمد ﷺ فلم يدخلهم في الإسلام، لأنهم قد جحدوا ما دلت عليه هذه الكلمة من توحيد الإلهية، وهو إخلاص العبادة ونفي الشرك والبراءة منه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] فهذا التوحيد هو أصل الإسلام. وقال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠] وقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢] وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢، ٣] وأمثال هذه الآيات في بيان التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب في القرآن كثير. وسنذكر بعض ذلك إن شاء الله في هذا التعليق. (ق)

. . . .

مؤخر. وأوَّل: خبرها مقدَّم، ويجوز العكس.

قوله: وفي رواية: «إلى أن يوحدوا اللهَ» هذه الرواية ثابتةٌ في كتاب التوحيد من (صحيح البخاري). وأشار المصنف بذكر هذه الرواية: إلى التنبيه على معنى شهادة أنْ لا إله إلا الله، فإنَّ معناها توحيدُ الله تعالى بالعبادة، ونفيُ عبادة ما سواه. وفي رواية: «فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادةُ الله» وذلك هو الكفرُ بالطاغوت، والإيمان بالله؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]، والعُروةُ الوثقى: هي لا إله إلاَّ الله.

وفي روايةٍ للبخاري، فقال: «ادعُهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله».

قلتُ: لابُدَّ في شهادة أنْ لا إله إلاَّ الله من سبعة شروط، لا تنفع قائلها إلاَّ باجتماعها:

أحدُها: العلمُ، المنافي للجهل. الثاني: اليقينُ، المنافي للشك.

الثالث: القبولُ، المنافي للرد. الرابع: الانقيادُ، المنافي للترك.

و«لولا»: حرف امتناع لوجود.

قوله: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب»: قال ذلك مرشدًا، وهذا دليل على معرفته ﷺ بأحوال الناس، وما يعلمه من أحوالهم؛ فله طريقان:

١ ـ الوحي. ٢ ـ العلم والتجربة.

قوله: «من»: بيانية، والمراد بالكتاب: التوارة والإنجيل؛ فيكون المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، وهم أكثر أهل اليمن في ذلك الوقت، وإن كان في اليمن مشركون، لكن الأكثر اليهود والنصارى، ولهذا اعتمد الأكثر. وأخبره النبي ﷺ بذلك؛ لأمرين:

الأول: أن يكون بصيرًا بأحوال من يدعو.

الثاني: أن يكون مستعدًا لهم؛ لأنهم أهل كتاب، وعندهم علم.

قوله: «فليكن»: الفاء للاستئناف أو عاطفة، واللام للأمر، و«أول»: اسم يكن، وخبرها «شهادة»، وقيل العكس، يعني «أول» خبر مقدم، و«شهادة» اسم يكن مؤخرًا.

والظاهر أنه يريد أن يبين أن أول ما يكون هي الشهادة وإذا كان كذلك؛ يكون «أول» مرفوعًا على أنه اسم يكن؛ أي: أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا اللَّه.

قوله: «شهادة»: الشهادة هنا من العلم، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]؛ فالشهادة هنا العلم والنطق باللسان؛ لأن الشاهد مخبر عن علم، وهذا المقام لا يكفي فيه مجرد الإخبار، بل لابد من علم وإخبار وقبول وإقرار وإذعان؛ أي: انقياد.

فلو اعتقد بقلبه، ولم يقل بلسانه: أشهد أن لا إله إلا اللَّه؛ فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٦٠) ومواضع، ومسلم (٢٤، ٢٥).

. . . .

الخامس: الإخلاصُ المنافي للشرك. السادس: الصدقُ، المنافي للكذب.

السابع: المحبةُ، المنافية لعدمها.

وفيه دليلٌ علي أنَّ التوحيد ـ الذي هو إخلاصُ العبادة لله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه هو أوَّلُ واجب؛ ولهذا كان أول ما دعت إليه الرسلُ عليهم السلام ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٣٢] وقول نوح: ﴿أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ﴾ [هود: ٢٦] وفيه معنى: لا إله إلا الله، مطابقة[1].

قال العلاَّمة ابنُ القيم رحمه الله تعالى: ولهذا خاطب الرسلُ أممهم، مخاطبة من لا شك عنده في الله، وإنَّما دَعوهم إلى عبادة الله وحده، لا إلى الإقرار به؛ فقالت لهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] فوجودُه سبحانه وربوبيتُه وقدرته، أظهرُ من كل شيء على الإطلاق.

فهو أظهرُ للبصائر من الشمس للأبصار، وأبين للعقول من كل ما تعقله وتقر بوجوده. فما يُنكره إلاّ مكابر بلسانه، وقلبُه وعقلُه وفطرته كلُّها تكذِّبه، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ

اللَّه: إنه ليس بمسلم بالإجماع حتى ينطق بها؛ لأن كلمة أشهد تدل على الإخبار، والإخبار متضمن للنطق، فلابد من النطق؛ فالنية فقط لا تجزئ، ولا تنفعه عند اللَّه حتى ينطق، والنبي ﷺ قال لعمه أبي طالب: «قل»[1]، ولم يقل: اعتقد أن لا إله إلا اللَّه.

قوله: «لا إله»: أي: لا معبود؛ فإله بمعنى مألوه؛ فهو فعال بمعنى مفعول، وعند المتكلمين: إله بمعنى آله؛ فهو اسم فاعل، وعليه يكون معنى لا إله؛ أي: لا قادر على الاختراع، وهذا باطل، ولو قيل بهذا المعنى؛ لكان المشركون الذين قاتلهم النبي ﷺ موحدين لأنهم يقرون به، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨].

---

(١) في قرة العيون: وأما قول المتكلمين ومن تبعهم: إن أول واجب معرفة الله بالنظر والاستدلال فذلك أمر فطري فطر الله عليه عباده، ولهذا كان مفتتح دعوة الرسل أممهم إلى توحيد العبادة ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٣٢] أي لا تعبدوا إلا الله. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى: هذا يحتمل شيئين (أحدهما) أفي وجوده شك؟ فإن الفطرة شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطرة السليمة.

(والمعنى الثاني) أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة لا شك؟ وهو الخالق لجميع الموجودات فلا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له. فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنون أنها تقربهم من الله زلفى. اهـ.

قلت: وهذا الاحتمال الثاني يتضمن الأول.

روى أبو جعفر ابن جرير بسنده عن عكرمة ومجاهد وعامر أنهم قالوا: ليس أحد إلا وهو يعلم أن الله خلقه وخلق السموات والأرض فهذا إيمانهم. وعن عكرمة أيضًا تسألهم من خلق السموات والأرض؟ فيقولون الله فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره.

وتقدم أن (لا إله إلا الله) قد قيدت بالكتاب والسنة بقيود ثقال. منها: العلم واليقين والإخلاص والصدق والمحبة والقبول والانقياد، والكفر بما يعبد من دون الله. فإذا اجتمعت هذه القيود لمن قالها نفعته هذه الكلمة؛ وإن لم تجتمع هذه لم تنفعه؛ والناس متفاوتون في العلم بها والعمل؛ فمنهم من ينفعه قولها ومنهم من لا ينفعه كما لا يخفى. (ق).

. . . .

ترونها ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢] إلى آخر الآيات.

قال شيخُ الإسلام: وقد عُلم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ، واتفقت عليه الأمةُ: أن أصل الإسلام، وأوّلَ ما يؤمر به الخلق: شهادةُ أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله. فبذلك يصير الكافر مسلمًا والعدوّ وليًا، والمباحُ دمه وماله معصوم الدم والمال، ثم إنْ كان ذلك من قلبه فقد دخل في الإيمان، وإنْ قاله بلسانه دون قلبه فهو في ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان. قال: وأمَّا إذا لم يتكلَّم بها مع القُدرة فهو كافرٌ باتفاق المسلمين باطنًا وظاهراً، عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير العلماء. انتهى.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: **وفيه: أنَّ الإنسان قد يكون عالمًا [١] وهو لا يعرف معنى لا إله إلاَّ الله، أو يعرفه ولا يعمل به:**

قلتُ: فما أكثر هؤلاء، لا كثَّرهم الله تعالى.

قوله: «**فإنْ هم أطاعوك لذلك**» أي: شهدوا، وانقادوا لذلك «**فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم خمسَ صلوات**» فيه: أنَّ الصلاة أعظمُ واجب بعد الشهادتين.

قال النووي ما معناه: أنه يدلُّ على أنَّ المطالبة بالفرائض في الدنيا لا يكون إلاَّ بعد الإسلام، ولا يلزم من ذلك أنْ لا يكونوا مُخاطبين بها، ويزاد في عذابهم بسببها في الآخرة. و الصحيح: أنَّ الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، المأمور به والمنهي عنه. وهذا قولُ الأكثرين. انتهى.

قوله: «**فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقةً تؤخذُ من أغنيائهم فتردُّ على فقرائهم**»[٢]: فيه:

فإن قيل: كيف يقال: لا معبود إلا اللّه، والمشركون يعبدون أصنامهم؟!

أجيب: بأنهم يعبدونها بغير حق، فهم ـ وإن سموها آلهة، فألوهيتها باطلة، وليست معبودات بحق، ولذلك إذا مسهم الضر؛ لجؤوا إلى اللّه تعالى، وأخلصوا له الدين، وعلى هذا لا تستحق أن تُسمَّى آلهة. فهم يعبدونها ويعترفون بأنهم لا يعبدونها إلا لأجل أن تقربهم إلى اللّه فقط؛ فجعلوها وسيلة وذريعة، وبهذا التقدير لا يرد علينا إشكال في قول الرسل لقومهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]؛ لأن هذه المعبوادت لا تستحق أن تعبد، بل الإله المعبود حقًا هو اللّه ـ سبحانه وتعالى.

وفي قوله: «لا إله إلا اللّه»: نفي الألوهية لغير اللّه، وإثباتها للّه، ولهذا جاءت بطريق الحصر.

---

(١) يعني عالمًا بعلوم الدنيا؛ أو عالمًا حافظًا لعلوم الدين ولكنها لا تمس قلبه ولا عقيدته لأنه تعلمها للدنيا وليقال: عالم. فهو محترف العلم؛ وقد يكون بارعًا حاذقًا في هذه الحرفة ولكنه لا ينتفع في نفسه بعلمه، لأن علمه في ناحية وعقيدته ودينه مع تقليد العوام والجمهور في ناحية أخرى وهذا حال أكثر العلماء الرسميين اليوم أصلحهم الله. (ق).

(٢) في قرة العيون: فيه أن الزكاة لا تنفع إلا من وحد الله وصلى الصلوات بشروطها وأركانها وواجباتها. والزكاة قرينة الصلوات في كتاب الله تعالى؛ ويدل على هذه الجملة قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥] فمن أتى بهذه الأمور أتى ببقية الأركان لقوة الداعي =

دليلٌ على أنَّ الزكاة أوجبُ الأركان بعد الصلاة، وأنها تؤخذ من الأغنياء وتصرف على الفقراء. وإنَّما خصَّ النبيُّ ﷺ الفقراء؛ لأن حقَّهم في الزكاة آكدُ من حق بقية الأصناف الثمانية.

وفيه: أنَّ الإمام هو الذي يتولَّى قبض الزكاة وصرفَها: إمَّا بنفسه أو نائبه، فمن امتنع من أدائها أُخذت قهراً منه. وفي الحديث: دليلٌ على أنه يكفي إخراج الزكاة في صنفٍ واحد، كما هو مذهب الإمام مالك، وأحمد.

وفيه: أنه لا يجوز دفعُها إلى غني، ولا إلى كافرٍ غيرِ المؤلَّف، وأنَّ الزكاة واجبةٌ في مال الصبي والمجنون، كما هو قولُ الجمهور؛ لعموم الحديث.

قلتُ: والفقير إذا أفرد في اللفظ تناول المسكين وبالعكس كنظائره. قرره شيخُ الإسلام.

قوله: «**فإيَّاك وكرائمَ أموالهم**»: بنصب كرائم؛ على التحذير. جمعُ كريمة، قال صاحبُ (المطالع): هي الجامعةُ للكمال الممكن في حقها: من غزارة لبن، وجمال صورة، وكثرة لحمٍ وصوف. ذكره النووي.

قلتُ: وهي خيارُ المال، وأنفسُه وأكثره ثمنًا.

وفيه: أنَّه يحرُم على العامل في الزكاة أخذُ كرائم المال، ويحرم على صاحب المال إخراجُ شرار المال. بل يُخرج الوسط، فإنْ طابت نفسه بالكريمة جاز[1].

قوله: «**واتق دعوة المظلوم**»[2] أي: اجعل بينك وبينها وقاية، بالعدل وترك الظلم.

وهذان الأمران يقيان من رُزقهما من جميع الشرور، دُنيا وأُخرى.

وفيه: تنبيهٌ على التحذير من جميع أنواع الظلم.

قوله: «**فإنه**» أي: الشأن «**ليس بينها وبين الله حجاب**» هذه الجملةُ مفسرة لضمير الشأن. أي: فإنَّها لا تُحجب عن الله تعالى، فيقبلها. وفي الحديث أيضًا: قبولُ خبر الواحد العدل، ووجوب

= إلى ذلك، لأن ذلك يقتضي الإتيان بها لزومًا. قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة:٥] قال أنس في الآية: (توبتهم: خلع الأوثان وعبادتهم ربهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) وعن ابن مسعود مرفوعًا «**أمرت بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن لم يزك فلا صلاة له**». (ق).

(١) في قرة العيون: تحذير له من أن يتجاوز ما شرعه الله ورسوله في الزكاة، وهو أخذها من أوساط المال، لأن ذلك سبب لإخراجها بطيب نفس ونية صحيحة. وكل ما زاد على المشروع فلا خير فيه. وهذا أصل ينبغي التفطن له.(ق).

(٢) في قرة العيون: يدل على أن العامل إذا زاد على المشروع صار ظالمًا لمن أخذ ذلك منه؛ ودعوة المظلوم مقبولة ليس بينها وبين الله حجاب يمنع قبولها.

فعلى العامل أن يتحرى العدل فيما استعمل فيه؛ فلا يظلم بأخذ زيادة على الحق؛ ولا يحابي بترك شيء منه، فعليه أن يقصد العدل من الطرفين، والله أعلم.(ق).

. . . .

العمل به، وبعثُ الإمام العُمَّالَ لجباية الزكاة، وأنه يعظ عُمَّاله وولاته، ويأمرُهم بتقوىٰ الله تعالىٰ، ويعلِّمهُم، وينهاهم عن الظلم، ويعرِّفهم سوء عاقبته. والتنبيهُ علىٰ التعليم بالتدريج. قاله المصنف.

قلتُ: ويبدأ بالأهم فالأهم.

واعلم أنه لم يذكر في الحديث الصومَ والحج، فأشكل ذلك علىٰ كثير من العلماء.

قال شيخُ الإسلام: أجاب بعضُ الناس: أنَّ بعض الرواة اختصر الحديث، وليس كذلك؛ فإنَّ هذا طعنٌ في الرواة؛ لأن ذلك إنما يقعُ في الحديث الواحد، مثل حديث وفد عبد القيس[1]، حيث ذكر بعضُهم الصيام، وبعضهم لم يذكره. فأما الحديثان المنفصلان فليس الأمرُ فيهما كذلك، ولكن عن هذا جوابان:

أحدُهما: أنَّ ذلك بحسب نزول الفرائض، وأوَّلُ ما فرض الله الشهادتين ثم الصلاة. فإنه أمر بالصلاة في أول أوقات الوحي؛ ولهذا لم يذكر وجوبَ الحج كعامة الأحاديث، إنَّما جاء في الأحاديث المتأخرة. قلتُ: وهذا من الأحاديث المتأخرة، ولم يُذكر فيها.

الجوابُ الثاني: أنه كان يذكرُ في كل مقامٍ ما يُناسبه. فيذكر تارةً الفرائض التي يُقاتل عليها كالصلاة والزكاة، ويذكرُ تارة الصلاة والصيام لمن لم يكن عليه زكاة، ويذكر تارة الصلاة والزكاة والصوم: فإمَّا أنْ يكون قبل فرض الحج، وإمَّا أنَّ يكون المخاطبُ بذلك لا حج عليه.

وأما الصلاةُ والزكاة فلهما شأنٌ ليس لسائر الفرائض؛ ولهذا ذكر تعالىٰ في كتابه القتالَ عليهما؛ لأنهما عبادتان ظاهرتان، بخلاف الصوم فإنَّه أمرٌ باطن من جنس الوضوء والاغتسال من الجنابة، ونحو ذلك مما يؤتمنُ عليه العبد. فإنَّ الإنسان يمكنه أنْ لا ينوي الصوم وأنْ يأكل سرًا، كما يمكنه أنْ يكتم حدثَه وجنابته. وهو ﷺ لم يذكره في الأعمال الظاهرة التي يُقاتل الناسُ عليها، ويصيرون مسلمين بفعلها. فلهذا علَّق ذلك بالصلاة والزكاة، دون الصوم. وإنْ كان واجبًا كما في آيتي براءة[2]، فإنَّ براءة نزلت بعد

. . . .

(١) روى البخاري ومسلم عن ابن عباس أن عبد القيس وفدوا على النبي ﷺ فقال: «ممن القوم؟» فقالوا: من ربيعة. قال: «مرحبًا بالوفد غير خزايا ولا ندامى». فقالوا: يا رسول الله إن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر؛ وإنا لا نصل إليك إلا في شهر حرام فمرنا بأمر فصل نأخذ به ونأمر به من وراءنا وندخل به الجنة. فقال: «آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع. آمركم بالإيمان بالله وحده. أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا الخمس من المغنم...» الحديث، وكان وفد عبد القيس في سنة تسع (*). (ق).

(*) (وكان وفد عبد القيس في سنة تسع) وفي هذا نظر والأظهر أنهم وفدوا قبل فتح مكة لقولهم: (إن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر) ومعلوم أن أهل مكة هم رءوس كفار مضر وقادتها وقد أسلموا عام الفتح وذلك سنة ثمان، وقد استنبط الحافظ ابن كثير رحمه الله في تاريخه البداية، هذا المعنى من هذا السياق والله أعلم. (ز).

(٢) هما قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥] الآية الخامسة. ومثلها الآية الحادية عشرة؛ وخاتمتها: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١]. (ق).

ولهما، عن سَهْل بن سعْد: أنَّ رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأُعطينَّ الراية غدًا رجلاً يُحبُّ الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه» فباتَ

فرض الصيام باتفاق الناس. وكذلك لما بعث معاذًا إلى اليمن لم يذكر في حديثه الصوم؛ لأنه تبعٌ وهو باطن، ولا ذكر الحجَّ؛ لأنَّ وجوبه خاصٌ ليس بعام، ولا يجب في العُمر إلا مرة. انتهى بمعناه[1].

قوله: (أخرجاه) أي: البخاري ومسلم، أخرجه أيضًا: أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولهما، عن سَهْل بن سعْد: أنَّ رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأُعطينَّ الرايةَ غدًا رجلاً يُحبُّ الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه» فباتَ الناسُ يَدوكون ليلتهم: أيُّهم يُعطاها. فلما أصبحوا، غدوا على رسول الله ﷺ كلُّهم يرجو أنْ يعطاها، فقال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه. فأُتي به، فبصق في عينيه ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجَع. فأعطاه الراية، فقال: «انفُذ على رِسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه؛ فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا، خيرٌ لك من حُمر النَّعم»[2] يدوكون: أي يخوضون.

قوله: (عن سَهل بن سعد)، أي: ابن مالك بن خالد الأنصاري الخَزرجي السَّاعدي، أبو العباس، صحابيٌ شهير، وأبوه صحابي أيضًا. مات سنة ثمانٍ وثمانين، وقد جاوز المائة.

قوله: «لأعطيَّن»: هذه جملة مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم المقدر، واللام، والنون، والتقدير: واللّه لأعطينَّ.

قوله: «الراية»: العلم، وسمي راية، لأنه يرى، وهو ما يتخذه أمير الجيش للعلامة على مكانه.

واللواء؛ قيل: إنه الراية، وقيل: ما لُوي أعلاه، أو لُوي كله؛ فيكون الفرق بينهما: أن الراية مفلولة لا تُطوى، واللواء يطوى إما أعلاه أو كله، والمقصود منهما الدلالة، ولهذا يسمى علمًا.

قوله: «غدًا»: يراد به ما بعد اليوم، والأمس يراد به ما قبله.

والأصل أنه يراد بالغد ما يلي يومك، ويُراد بالأمس الذي يليه يومك، وقد يُراد بالغد ما وراء ذلك، قال تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨]، أي: يوم القيامة. وكذلك بالأمس قد يُراد به ما وراء ذلك؛ أي: ما وراء اليوم الذي يليه يومك.

---

(١) ولعل الصواب ما أجاب به بعض العلماء من اختصار الراوي للحديث. وليس في ذلك طعن في الرواة، لأنهم كانوا يروون الحديث بحسب الظروف والمناسبات. فقد تكون المناسبة مقتضية لبعض الحديث فيقتصر على هذا البعض. وذلك كثير جدًا؛ كما تراه في البخاري وغيره؛ والله أعلم. (ق).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٣٠٠٩، ٣٧٠١، ٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦).

الناسُ يَدوكـون ليلتـهم: أيُّهم يُعطـاها. فلمـا أصبـحـوا، غـدوا على رسول الله ﷺ كلُّهم يرجو أنْ يعطاها، فقال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقـيل: هـو يشتكي عينيـه، فأرسلـوا إليه. فـأُتي به، فبصـق في عـينيه ودعا له، فبـرأ كأن لم يكن به وجَع. فأعطاه الراية، فـقال: «انفُذ على رِسلك حـتى تنزل بساحـتهم، ثم ادعُـهم إلى الإسلام، وأخبـرهم بما يجب عليهم من حق الله تعـالى فيه؛ فوالله لأن يهـدي الله بك رجلاً واحـدًا، خـيـرٌ لك من حُـمـر النَّعم». يدوكـون: أي يخــوضـون.

قوله: (قال يوم خيبر) أي: في غزوة خيبر وفي (الصحيحين) عن سَلَمة بن الأكوع، قال: كان عليٌّ رضي الله عنه قد تخلف عن النبي ﷺ في خيبر، وكان أرمدًا، فقال، أنا أتخلفُ عن رسول الله ﷺ؟ فخرج علي رضي الله عنه فلحق بالنبي ﷺ، فلما كان مساءَ الليلة التي فتحها الله عز وجل في صباحها، قال رسول الله ﷺ: «لأعطين الراية ـ أو: ليأخذن الراية ـ غدًا رجلاً يحبه الله ورسوله ـ أو قال ـ: يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه». فإذا نحن بعلي وما نرجوه، فقالوا: هذا علي، فأعطاه رسول الله ﷺ الراية ففتح الله عليه[(١)].

قـوله: «لأعـطينَّ الراية» قـال الحـافظ: في رواية بُريدة: «إني دافعٌ اللواءَ إلى رجلٍ يحـبـه الله ورسوله»[(٢)] وقد صرَّح جماعةٌ من أهل اللغة بترادفهما.

لكن روىٰ أحمد، والترمذيُّ، من حديث ابن عباسٍ: كانت رايةُ رسول الله ﷺ سوداء، ولواؤه أبيض[(٣)]. ومثله عند الطبراني، عن بُريدة. وعند ابن عَدي، عن أبي هريرة، وزاد: مكتوبٌ فيه: لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله[(٤)].

قوله: «يحب اللَّه ورسوله، ويحبه اللَّه ورسوله»: أثبت المحبة للَّه من الجانبين، أي أن اللَّه تعالىٰ يُحِبُّ ويُحَبُّ، وقد أنكر هذا أهل التعطيل، وقالوا: المراد بمحبة اللَّه للعبد إثابته أو إرادة إثابته، والمراد بمحبة العبد للَّه محبة ثوابه، وهذا تحريف للكلام عن ظاهره مخالف لإجماع السلف من الصحابة والتابعين وأئمة الهدىٰ من بعدهم، ومحبة اللَّه تعالىٰ ثابتة له حقيقة، وهي من صفاته الفعلية، وكل شيء من صفات اللَّه يكون له سبب؛ فهو من الصفات الفعلية، والمحبة لها سبب، فقد يبغض اللَّه إنسانًا في وقت ويحبه في وقت لسبب من الأسباب.

قوله: «على يديه»: أي: يفتح اللَّه خيبر علىٰ يديه، وفي ذلك بشارة بالنصر.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٧٠٢)، ومسلم (٢٤٠٧).
(٢) صحيح: رواه أحمد في المسند (٥/ ٣٥٣) ورجاله رجال الصحيح.
(٣) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٢١٠٠).
(٤) ذكره ابن عدي في الكامل (٢/ ٢٤٠).

. . . .

قوله: «يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسولُه» : فيه فضيلةٌ عظيمة لعلي رضي الله تعالىٰ عنه.

قال شيخ الإسلام: ليس هذا الوصفُ مختصًا بعلي ولا بالأئمة؛ فإنَّ الله ورسوله يحب كلَّ مؤمن تقي يحب الله ورسوله. لكن هذا الحديث من أحسن ما يُحتجُّ به على النواصب، الذين لا يتولَّونه، أو يكفرونه أو يفسقونه، كالخوارج. لكنَّ هذا الاحتجاج لا يتم على قول الرافضة، الذين يجعلون النصوص الدالة على فضائل الصحابة كانت قبل ردَّتهم. فإنّ الخوارج تقول في علي مثلَ ذلك، لكن هذا باطل؛ فإن الله تعالىٰ ورسوله لا يُطلق مثل هذا المدح على من يعلم الله أنه يموت كافراً.

وفيه: إثباتُ صفة المحبَّة لله، خلافًا للجهمية ومن أخذ عنهم[1] .

قوله: «يفتح الله على يديه»: صريحٌ في البشارة بحصول الفتح، فهو عَلَمٌ من أعلام النبوة.

قوله: (فبات الناسُ يدوكون ليلتهم): بنصب ليلتهم. ويدوكون، قال المصنف: يخوضون. أي: فيمن يدفعها إليه. وفيه: حرصُ الصحابة على الخير واهتمامُهم به، وعلوُّ مراتبهم في العلم والإيمان.

قوله: (أيُّهم يُعطاها): هو برفع أي، على البناء؛ لإضافتها وحذف صدر صلتها.

قوله: (فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلُّهم يرجو أنْ يُعطاها): وفي رواية أبي هريرة عند مُسلم، أنَّ عمر قال: ما أحببتُ الإمارة إلاَّ يومئذ[2] .

قوله: «يدوكون»: أي: يخوضون، وجملة « يدوكون» خبر«بات».

قوله: «غدوا على رسول اللَّه»: أي: ذهبوا إليه في الغَدوة مبكرين، كلهم يرجو أن يُعطاها لينال محبة اللَّه ورسوله.

قوله: «فقال:أين علي؟»: القائل: الرسولﷺ .

قوله: «يشتكي عينيه»: أي: يتألم منهما، ولكنه يشتكي إلى اللَّه؛ لأن عينيه مريضة.

وقوله: «فأرسلوا إليه»: بأمر الرسولﷺ .

قوله: «فأتي به»: كأنه رضي اللَّه عنه قد عمَّم على عينيه؛ لأن قوله: « أتيَ به»؛ أي: يقاد.

قوله: «كأن لم يكن به وجع»: أي: ليس بهما أثر حمرة ولا غيرها.

قوله: «فبرأ»: هذا من آيات اللَّه الدالة على قدرته وصدق رسولهﷺ ، وهذا من مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه: أنه يحب اللَّه ورسوله، ويحبه اللَّه ورسولهﷺ ، لتخصيص النبيﷺ له ذلك من بين سائر الصحابة.

---

(١) في قرة العيون: وفيه فضيلة لعلي رضي الله عنه بما خصه من إعطاء الراية، ودعوته أهل خيبر إلى الإسلام؛ وقتالهم إذا لم يقبلوا. وفيه مشروعية الدعوة إلى الإسلام(ق) .

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٤٠٥).

. . . .

قال شيخُ الإسلام: إنَّ في ذلك شهادةَ النبي ﷺ لعلي بإيمانه باطنًا وظاهرًا، وإثباتًا لموالاته لله تعالىٰ ورسوله، ووجوبَ موالاة المؤمنين له. وإذا شهد النبيُّ ﷺ لمعين بشهادة، أو دعا له أحبَّ كثيرٌ من الناس أنْ يكون له مثلُ تلك الشهادة، ومثل ذلك الدعاء، وأنْ كان النبي ﷺ يشهد بذلك لخلقٍ كثير، ويدعو لخلقٍ كثير. وهذا كالشهادة بالجنة لثابت بن قيس[١]، وعبد الله بن سلام[٢] ـ وإنْ كان قد شهد بالجنة لآخرين ـ والشهادة بمحبة الله ورسوله للذي ضُرب في الخمر[٣].

قوله: فقال: «أين علي بن أبي طالب؟» فيه سؤالُ الإمام عن رعيَّته؛ وتفقُّد أحوالهم.

قوله: (فقيل: هو يشتكي عينيه). أي: من الرمد، كما في (صحيح مسلم)، عن سعد بن أبي وقاص، فقال: «ادعوا لي عليًا» فأُتي به أرمد. الحديث[٤].

وفي نسخةٍ صحيحة بخط المصنف: فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسل إليه. مبنيٌّ للفاعل، وهو ضميرٌ مستتر في الفعل راجعٌ إلىٰ النبي ﷺ. ويحتمل أنْ يكون مبنيًا لما لم يُسمَّ فاعله. ولمسلم، من طريق إياس بن سلمة، عن أبيه، قال: فأرسلني إلىٰ علي، فجئتُ به أقوده أرمد[٥].

قوله: (فبصق). بفتح الصاد، أي: تفل.

قوله: «انفذ على رسلك»: أي: مهلك، مأخوذ من رِسل الناقة؛ أي: حليبها يحلب شيئًا فشيئًا، المعنىٰ: امش هوينًا هوينًا؛ لأن المقام خطير؛ لأنه يخشىٰ من كمين، واليهود خبثاء أهل غدر.

قوله: «حتى تنزل بساحتهم»: أي: ما يقرب منهم وما حولهم، والنبي ﷺ يقول: «إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[٦]. وهذا إذا كنَّا علىٰ الوصف الذي عليه الرسول ﷺ وأصحابه، أما إذا كنا علىٰ وصف القومية، فإننا لو نزلنا في أحضانهم؛ فمن الممكن أن يقوموا ونكون في الأسفل.

قوله: «ثم ادعهم»: أي: أهل خيبر «إلى الإسلام» أي: الاستسلام للَّه.

---

(١) قال له النبي ﷺ: «هو من أهل الجنة» في حديث طويل حين جلس في بيته حزينًا عند نزول: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢] وكان ثابت رفيع الصوت، فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي-الحديث رواه الإمام أحمد (ج٣ص١٣٧) ورواه مسلم في كتاب الإيمان حديث ١٨٧ (ق).

(٢) عن سعد بن أبي وقاص قال: «ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض أنه من أهل الجنة إلا لعبدالله بن سلام» رواه البخاري في مناقب الأنصار ورواه مسلم والترمذي وابن ماجه (ق).

(٣) روى البخاري عن عمر قال: «كان رجل يسمى عبد الله ويلقب حمارًا، وكان يُضحك رسول الله ﷺ وكان يشرب الخمر فيؤتى به فيقيم عليه الحد، فلعنه بعض الصحابة فقال ﷺ: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله» الحديث.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٤٠٤).

(٥) صحيح: رواه مسلم (١٨٠٧).

(٦) متفق عليه: رواه البخاري (٣٧١) ومواضع، ومسلم (١٣٦٥).

. . . .

قوله: (ودعا له فبرأ)هو بفتح الراء والهمزة، أي: عُوفي في الحال عافية كاملة، كأنْ لم يكن به وجعٌ من رمد، ولا ضعف بصر[١].

وعند الطبراني، من حديث علي: «فما رمدتُ ولا صُدِّعت منذ دفع النبيُّ ﷺ إليَّ الراية»[٢].

وفيه دليلٌ على الشهادتين.

قوله: (فأعطاه الراية). قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: فيه: الإيمانُ بالقدر؛ لحصولها لمن لم يَسْعَ، ومنعها عمَّن سعى.

وفيه: أنَّ فعل الأسباب المباحة أو الواجبة أو المستحبة لا يُنافي التوكل.

قوله: فقال: «انفذ على رسلك» ـ بضم الفاء ـ أي: امض. ورِسلك ـ بكسر الراء وسكون السين ـ أي: على رفقك من غير عجلة، وساحتهم: فناء أرضهم وهو ما حولها.

وفيه: الأدبُ عند القتال، وترك العجلة والطيش، والأصوات التي لا حاجة إليها.

وفيه: أمرُ الإمام عمَّاله بالرفق من غير ضعفٍ ولا انتقاض عزيمة، كما يُشير إليه قوله: «حتى تنزل بساحتهم».

قوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام»[٣]أي: الذي هو معنى: شهادة أنْ لا إله إلاَّ الله، وأنَّ محمداً رسول الله. وإن شئت قلت: الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله، وما اقتضته الشهادتان من إخلاص العبادة لله وحده وإخلاصِ الطاعة له ولرسوله ﷺ.

قوله: «وأخبرهم بما يجب عليهم»:أي: فلا تكفي الدعوة إلى الإسلام فقط، بل يخبرهم بما يجب عليهم فيه حتى يقتنعوا به ويلتزموا، لكن على الترتيب الذي في حديث بعث معاذ.

وهذه المسألة يتردد الإنسان فيها: هل يخبرهم بما يجب عليهم من حق اللّه في الإسلام قبل أن يسلموا أو بعده؟ فإذا نظرنا إلى ظاهر حديث معاذ وحديث سهل هذا؛ فإننا نقول: الأولى أن تدعوه للإسلام، وإذا أسلم تخبره.

وإذا نظرنا إلى واقع الناس الآن، وأنهم لا يسلمون عن اقتناع، فقد يسلم، وإذا أخبرته ربما رجع.

قلنا:يخبرون أولاً بما يجب عليهم من حق اللّه فيه؛ لئلا يرتدوا عن الإسلام بعد إخبارهم بما يجب عليهم، وحينئذٍ يجب قتلهم لأنهم مرتدون.

---

(١)في قرة العيون: وذلك بدعوة النبي ﷺ كما في الحديث فدعا فاستجيب له عليه الصلاة والسلام وفيه علم من أعلام النبوة أيضًا، وذلك كله بالله ومن الله وحده وهو الذي يملك الضر والنفع؛ والعطاء والمنع، لا إله غيره ولا رب سواه. (ق).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٤/١٣٣) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/١٢٣): رواه الطبراني وفيه أحمد بن سهل بن علي الباهلي ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات.

(٣)في قرة العيون: هذا هو شاهد الترجمة، وهكذا ينبغي لأهل الإسلام أن يكون قصدهم بجهادهم هداية الخلق إلى الإسلام والدخول فيه، وينبغي لولاة الأمر أن يكون هذا هو معتمدهم ومرادهم ونيتهم. (ق).

. . . .

ومن هنا طابق الحديثُ الترجمة؛ كما قال تعالىٰ لنبيه ورسوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

قال شيخُ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: والإسلامُ هو الاستسلام لله، وهو الخضوع له. والعبودية له. كذا قال أهلُ اللغة.

وقال رحمه الله تعالىٰ: ودينُ الإسلام الذي ارتضاه الله، وبعث به رُسله: هو الاستسلام له وحده. فأصله في القلب. والخضوعُ له وحده بعبادته وحده دون ما سواه. فمن عبده وعبد معه إلهًا آخر لم يكن مسلمًا. ومن استكبر عن عبادته لم يكن مسلمًا، وفي الأصل: هو من باب العمل، عمل القلب والجوارح. وأمَّا الإيمان، فأصله: تصديقُ القلب وإقراره ومعرفته، فهو من باب قول القلب المتضمِّن عمل القلب. انتهىٰ.

فتبيَّن أنَّ أصل الإسلام: هو التوحيد ونفيُ الشرك في العبادة، وهو دعوة جميع المرسلين. وهو الاستسلامُ لله تعالىٰ بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة فيما أمرهم به علىٰ ألسُن رسله؛ كما قال تعالىٰ عن أوَّل رسولٍ أرسله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٣].

وفيه: مشروعيةُ الدعوة قبل القتال، لكن إنْ كانوا قد بلغتهم الدعوة جاز قتالهم ابتداءً؛ لأن النبي ﷺ أغار علىٰ بني المصطلق وهم غارُّون[1]، وإنْ كانوا لم تبلغهم الدعوة وجبت دعوتُهم.

ويحتمل أن يقال: تترك هذه المسألة للواقع وما تقتضيه المصلحة من تقديم هذا أو هذا.

قوله: «لأن يهدي اللَّه»: اللام واقعة في جواب القسم، وأن الهمزة مصدرية، و«يهدي» مؤول بالمصدر مبتدأ، و«خير»: خبر، ونظيرها قوله تعالىٰ: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤].

قوله: «حمر النعم»: بتسكين الميم: جمع أحمر، وبالضم: جمع حمار، والمراد الأول.

و«حمر النعم»: هي الإبل الحمراء، وذكرها لأنها مرغوبة عند العرب، وهي أحسن وأنفس ما يكون من الإبل عندهم.

وقوله: «لأن يهدي اللَّه بك»: ولم يقل: لأن تهدي؛ لأن الذي يهدي هو اللَّه.

والمراد بالهداية هنا هداية التوفيق والدلالة.

---

(١) الغار: الغافل. وقال البخاري: غزوة بني المصطلق من خزاعة. وهي المريسيع: قال ابن إسحاق: وذلك سنة ست. وقال موسى بن عقبة: سنة أربع. وقال النعمان بن راشد عن الزهري «أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون، وأنعامهم تسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم. وأصاب يومئذ جويرية بنت الحارث» وبنو المصطلق بطن شهير من خزاعة. وسبب غزوهم: أن النبي ﷺ بلغه أن الحارث بن ضرار سيدهم أبا جويرية يجمع الناس ويستعد لقتاله. ففاجأهم رسول الله وهم غافلون، وأسر منهم أكثرهم وأسلم الحارث بن ضرار. (ق).

فيه مسائل:

الأولى: أنَّ الدعوة إلى الله طريق من اتَّبع رسول الله ﷺ.

قوله: «وأخبرهم بما يجبُ عليهم من حق الله تعالى فيه»[1] أي: الإسلام، إذا أجابوك إليه فأخبرهم بما يجب من حقوقه التي لا بُدَّ لهم من فعلها، كالصلوات والزكاة؛ كما في حديث

وهل المراد الهداية من الكفر إلىٰ الإسلام، أو يعم كل هداية؟

نقول: هو موجه إلىٰ قوم يدعوهم إلىٰ الإسلام، وهل نقول: إن القرينة الحالية تقتضي التخصيص، وأن من اهتدىٰ علىٰ يديه رجل في مسألة فرعية من مسائل الدين لا يحصل له هذا الثواب بقرينة المقام؛ لأن عليًا موجه إلىٰ قوم كفار يدعوهم إلىٰ الإسلام. واللَّه أعلم.

فيه مسائل:

الأولىٰ: أن الدعوة إلىٰ اللَّه طريق من اتبع رسول اللَّه ﷺ: وتؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[يوسف:١٠٨]. والأشمل من ذلك والأبلغ في مطابقة الآية أن يقال: إن الدعوة إلىٰ اللَّه طريق الرسل وأتباعهم.

---

(١) في قرة العيون: فيه مما أمر به وشرعه من حقوق (لا إله إلا الله) وهذا يدل على أن الأعمال من الإيمان خلافًا للأشاعرة والمرجئة في قولهم: إنه القول. وزعموا أن الإيمان هو مجرد التصديق، وتركوا ما دل عليه الكتاب والسنة. لأن الدين ما أمر الله به فعلاً وما نهى عنه تركًا.

وفيه الرد على المشركين المستدلين على الشرك بكرامات الأولياء لدلالتها على فضلهم. وأمير المؤمنين علي رضي الله عنه وقع له من الكرامات ما لم يقع لغيره. وقد خد الأخاديد وأضرمها بالنار وقذف فيها من غلا فيه أو اعتقد فيه بعض ما كان يعتقده هؤلاء المشركون مع أهل البيت وغيرهم فصار من أشد الصحابة رضي الله عنهم بعدًا عن الشرك؛ وشدة على من أشرك حتى أحرقهم بالنار مثل عبد الله بن سبأ اليهودي وشيعته. والقصة في البخاري.

وكذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع ما أعطى من الكرامات صار من أبعد الصحابة عن الشرك وذرائعه. وهؤلاء أفضل أهل الكرامات فما زادهم ذلك إلا قوة في التوحيد؛ وشدة على أهل الشرك والتنديد، كما جرى لعمر رضي الله عنه في الاستسقاء بالعباس وتعمية قبر دانيال لما وجده الصحابة في بيت مال الهرمزان، كما أن المعجزات إنما زادت الرسل قوة في الدعوة إلى التوحيد وشدة على أهل الشرك والإنكار عليهم وجهادهم، ولكن قد يقع من الأحوال الشيطانية لمن استحوذ عليه الشيطان فأنساه ذكر ربه ما قد يلتبس على الجهال الذين تلبسوا بالشرك؛ ويظنون أن ذلك كرامات، وهي من مكر الشيطان؛ وإغوائه لمن لم يعرف الحق من الباطل، وقد قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣] فكذلك يجب على كل أحد أن يطلب الحق من القرآن بتدبره فإنه الصراط المستقيم ولا يلتفت إلى ما زخرفته الشياطين كما اغتر به من اغتر في هذه الأمة من قبلهم.

وفيه من أداء الفرائض على الوجه الشرعي والنهي عن تعدي الحدود التي حدها الله بين الحلال والحرام؛ وذلك من الإيمان. فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله؛ والدين ما شرعه الله، فإذا أخذ بالإسلام الذي هو التوحيد والإخلاص، وأحل ما أحله الله تعالى وحرم ما حرم الله تعالى وأمر بذلك وجاهد عليه، فقد قام بما وجب. وبالله التوفيق. (ق).

الثانية: التنبيه على الإخلاص؛ لأنَّ كثيرًا لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه.

الثالثة: أن البصيرة من الفرائض.

الرابعة: من دلائل حسن التوحيد: أنَّه تنزيه الله تعالى عن المسبة.

الخامسة: أنَّ من قُبح الشرك كونه مَسَبَّةً لله.

أبي هريرة: «فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا دماءهم وأموالهم إلاَّ بحقِّها» (١)، ولما قال عمر لأبي بكر في قتاله مانعي الزكاة: كيف تُقاتل الناس، وقد قال رسولُ الله ﷺ: «أمرتُ أنْ أُقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها؟» قال أبو بكر: فإنَّ الزكاة حقُّ المال، والله لو منعوني عَنَاقًا (٢)كانوا يؤدّونها إلى رسول الله ﷺلقاتلتهم على منعها (٣).

وفيه: بعثُ الإمام الدعاةَ إلى الله تعالى، كما كان النبيُّ ﷺوخلفاؤه الراشدون يفعلون؛ كما في (المسند)، عن عُمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في خُطبته: ألا إني والله ما أُرسل عُمَّالي إليكم ليضربوا أبشَاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أُرسلهم إليكم ليعلِّموكم دينكم وسُنَنكم (٤).

الثانية: التنبيه على الإخلاص: وتؤخذ من قوله: ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾ ولهذا قال: «لأن كثيرًا من الناس لو دعا إلى الحق، فهو يدعو إلى نفسه»؛ فالذي يدعو إلى اللّه هو الذي لا يريد إلا أن يقوم دين اللّه، والذي يدعو إلى نفسه هو الذي يريد أن يكون قوله هو المقبول، حقًّا كان أم باطلاً.

الثالثة: أن البصيرة من الفرائض: وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾، ووجه كون البصيرة من الفرائض؛ لأنه لا بد للداعية من العلم بما يدعوا إليه، والدعوة فريضة، فيكون العلم بذلك فريضة.

الرابعة: من دلائل حسن التوحيد كونه تنزيهًا لله عن المسبة: وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ فسبحان اللّه دليل على أنه واحد لكماله. ومعنى عن المسبَّة؛ أي: وعن مماثلة الخالق للمخلوق؛ إذ تمثيل الكامل بالناقص يجعله ناقصًا.

قال الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره ... إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

الخامسة: أن من قبح الشرك كونه مسبة لله: وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بعد قوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾.

---

(١) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح أبي داود (٢٢٩٩)، وأصله في الصحيحين بلفظ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله».

(٢) العناق: الأنثى من المعز إذا قويت ما لم تستكمل سنة.

(٣) صحيح: رواه البخاري (١٤٠٠، ١٤٥٧، ٦٩٢٤)، ومسلم (٢٠).

(٤) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في ضعيف أبي داود (٩٨٠).

السادسة: وهي من أهمها - إبعاد المسلم عن المشركين لئلا يصير منهم ولو لَمْ يشرك.

السابعة: كون التوحيد أول واجب.

الثامنة: أن يبدأ به قبل كل شيء حتى الصلاة.

التاسعة: أنَّ معنى: «أن يوحدوا الله» معنى شهادة: أن لا إله إلا الله.

العاشرة: أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب، وهو لا يعرفها، أو يعرفها ولم يعمل بِهَا.

قوله: «فوالله لأنْ يهـدي الله بك رجلاً واحداً خيـرٌ لك من حُمر النَّعم» أنْ: مصدريةٌ واللام قبلها مفتوحة؛ لأنها لامُ القَسَم. وأن والفعلُ بعدها في تأويل مصدر، رُفع على الابتداء. والخبر: خير. وحُمْر - بضم المهملة وسكون الميم - جمْع أحمر، والنَّعم - بفتح النون والعين المهملة - أي: خيرٌ لك من الإبل الحمر، وهي أنفسُ أموال العرب.

قال النوويُّ: وتشبيه أُمور الآخرة بأمور الدنيا؛ إنما هو للتقرب إلى الأفهام. وإلاَّ فذرَّةٌ من الآخرة خيرٌ من الأرض بأسرها، وأمثالها معها.

وفيه: فضيلةُ من اهتدىٰ علىٰ يديه رجلٌ واحد، وجوازُ الحلفِ علىٰ الخبر والفُتيا ولو لم يُستحلف.

السادسة - وهي من أهمها -: إبعاد المسلم عن المشركين؛ لئلا يصير منهم، ولو لم يشرك: لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ولم يقل: «وما أنا مشرك»؛ لأنه إذا كان بينهم، ولو لم يكن مشركًا، فهو في ظاهره منهم، ولهذا لما قال اللَّه للملائكة: ﴿اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤]، توجه الخطاب له ولهم.

السابعة: كون التوحيد أول واجب: تؤخذ من قوله ﷺ: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا اللَّه**»، وفي رواية: «**أن يوحدوا اللَّه**».

وقال بعض العلماء: أول واجب النظر، لكن الصواب أن أول واجب هو التوحيد؛ لأن معرفة الخالق دلت عليها الفطرة.

الثامنة: أن يبدأ به قبل كل شيء: تؤخذ من قوله ﷺ: «**ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق اللَّه تعالى فيه**».

التاسعة: أن معنى أن يوحدوا اللَّه معنى شهادة أن لا إله إلا اللَّه: تؤخذ من تعبير الصحابي حيث عبَّر في رواية بقوله: «**شهادة أن لا إله إلا اللَّه**» وفي رواية عبر بقوله: «**أن يوحدوا اللَّه**».

العاشرة: أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها أو يعرفها ولا يعمل بها: وهو مراده بقوله: «لا يعرفها، أو يعرفها» شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وتؤخذ من قوله: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا اللَّه**»؛ إذ لو كانوا يعرفون لا إله إلا اللَّه ويعملون بها ما احتاجوا إلى الدعوة إليها.

الحادية عشرة: التنبيه على التعليم بالتدريج: تؤخذ من قوله ﷺ لمعاذ: «**ادعهم إلى أن يوحدوا اللَّه، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن اللَّه افترض عليهم**». إلخ الحديث.

الحادي عشرة: التنبيه على التعليم بالتدرج.

الثانية عشرة: البداءة بالأهم فالأهم.

الثالثة عشرة: مصرف الزكاة.

الرابعة عشرة: كشف العالِم الشُّبهَة عن المتعلم.

الخامسة عشرة: النهي عن كرائم الأموال.

السادسة عشرة: اتقاء دعوة المظلوم.

السابعة عشرة: الإخبار بأنَّهَا لا تحجب.

الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء.

وإذا كانت الدعوة إلى الله وإلى شهادة أن لا إله إلا الله فرضا على كل أحد كان الواجب على كل أحد بحسب مقدوره فعلى العالم من بيان ذلك والدعوة والإرشاد والهداية أعظم مما على غيره ممن ليس بعالم.

الثانية عشرة: البدء بالأهم فالأهم: تؤخذ من أمره ﷺ معاذًا بالتوحيد ليدعو إليه أولاً، ثم الصلاة، ثم الزكاة.

الثالثة عشرة: مصرف الزكاة: تؤخذ من قوله: «فترد على فقرائهم».

الرابعة عشرة: كشف العالِم الشبهة عن المتعلم: المراد بالشبهة هنا: شبهة العلم؛ أي: يكون عنده جهل. تؤخذ من قوله: «إن اللَّه افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم». فبين أن هذه الصدقة تؤخذ من الأغنياء، وأن مصرفها الفقراء.

الخامسة عشرة: النهي عن كرائم الأموال: تؤخذ من قوله: «فإياك وكرائم أموالهم»؛ إذ «إياك» تفيد التحذير، والتحذير يستلزم النهي.

السادسة عشرة: اتقاء دعوة المظلوم: تؤخذ من قوله: «واتق دعوة المظلوم».

السابعة عشرة: الإخبار بأنها لا تُحجب: تؤخذ من قوله: «فإنه ليس بينها وبين اللَّه حجاب»؛ فقرن الترغيب أو الترهيب بالأحكام، مما يحث النفس إن كان ترغيبًا، ويبعدها ويزجرها إن كان ترهيبًا؛ لقوله: «اتق دعوة المظلوم»؛ فالنفس قد لا تتقي، لكن إذا قيل: ليس بينها وبين اللَّه حجاب؛ خافت ونفرت من ذلك.

الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء: والظاهر أن المؤلف رحمه اللَّه يريد الإشارة إلى قصة خيبر؛ إذ وقع فيها في عهد النبي ﷺ جوع عظيم، حتى إنهم أكلوا الحمير والثوم، وأما الوباء فهو ما وقع في عهد علي رضي اللَّه

التاسعة عشرة: قوله: «لأُعطينَّ الرايةَ» إلخ، علم من أعلام النبوة.
العشرون: تَفلُه في عَينَيه علَمٌ من أعلامها أيضًا.
الحادية والعشرون: فضيلة علي رضي الله عنه.
الثانية والعشرون: فضل الصحابة في دَوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح.
الثالثة والعشرون: الإيمان بالقدر، لحصولها لمن لم يسعَ لها ومنعها عمن سعى.
الرابعة والعشرون: الأدب في قوله: «على رسلك».
الخامسة والعشرون: الدعوة إلى الإسلام قبل القتال.
السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دُعوا قبل ذلك وقُوتلوا.

وعلى القادر ببدنه ويده أو ماله أو جاهه وقوله أعظم مما على من ليست له تلك القدرة. قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] ورحم الله من أعان على الدين ولو بشطر كلمة، وإنما الهلاك في ترك ما يقدر عليه العبد من الدعوة إلى هذا الدين.

عنه، وأما المشقة فظاهرة. ووجه كون ذلك من أدلة التوحيد: أن الصبر والتحمل في مثل هذه الأمور يدل على إخلاص الإنسان في توحيده وأن قصده الله، ولذلك صبر على البلاء.

التاسعة عشرة: قوله: «لأعطين الراية» علم من أعلام النبوة: لأن هذا حصل، فعلي بن أبي طالب يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

العشرون: تفله في عينيه علم من أعلامها أيضًا: لأنه بصق في عينيه؛ فبرأ كأن لم يكن به وجع.

الحادية والعشرون: فضيلة علي بن أبي طالب رضي الله عنه: وهذا ظاهر؛ لأنه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

الثانية والعشرون: فضل الصحابة في دوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح: لأنهم انشغلوا عن بشارة الفتح بالتماسهم معرفة من يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

الثالثة والعشرون: الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع لها ومنعها عمن سعى: لأن الصحابة غدوا على رسول الله مبكرين، كلهم يرجو أن يُعطاها ولم يُعطوها، وعلي بن أبي طالب مريض ولم يسع لها، ومع ذلك أعطي الراية.

الرابعة والعشرون: الأدب في قوله: «على رسلك»: ووجهه: أنه أمره بالتمهل وعدم التسرع.

الخامسة والعشرون: الدعوة إلى الإسلام قبل القتال: لقوله: «انزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام».

السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا.

السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة، لقوله: «أخبرهم بما يجب عليهم».

الثامنةوالعشرون: المعرفة بحق الله تعالى في الإسلام.

التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدى على يده رجل واحد.

الثلاثون: الحَلِفُ على الفُتيا.

. . . .

السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة؛ لقوله: «أخبرهم بما يجب عليهم»: لأن من الحكمة أن تتم الدعوة وذلك بأن تأمره بالإسلام أولاً، ثم تخبره بما يجب عليه من حق اللّه، ولا يكفي أن تأمره بالإسلام؛ لأنه قد يطبق هذا الإسلام الذي أمرته به وقد لا يطبقه، بل لا بد من تعاهده حتى لا يرجع إلى الكفر.

الثامنة والعشرون: المعرفة بحق اللّه في الإسلام: تؤخذ من قوله: **«وأخبرهم بما يجب عليهم من حق اللّه تعالى فيه»**.

التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدى على يديه رجل واحد: لقوله: **«لأن يهدي اللّه بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم»** أي: خير لك من كل ما يستحسن في الدنيا، وليس المعنى كما قال بعضهم: خير لك من أن تتصدق بنعم حمر.

الثلاثون: الحلف على الفتيا: لقوله: **«فواللّه لأن يهدي...»** إلخ. فأقسم النبي ﷺ وهو لم يستقسم، والفائدة هي حثه على أن يهدي الله به والتوكيد عليه. ولكن لا ينبغي الحلف على الفتيا إلا لمصلحة وفائدة؛ لأنه قد يفهم السامع أن المفتي لم يحلف إلا لشك عنده. والإمام أحمد رحمه اللّه أحيانًا يقول في إجابته: إي واللّه، وقد أمر اللّه ورسوله بالحلف في ثلاثة مواضع من القرآن:

في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣].

وفي قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣]. فإذا كان في القسم مصلحة ابتداءً، أو جوابًا لسؤال؛ جاز وربما يكون مطلوبًا.

❊ ❊ ❊

بــاب
تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ تفسيرِ التوحيد وشهادة أن لا إله إلاَّ الله: أراد المصنِّفُ رحمه الله تعالى بهذه الترجمة، وما جاء بعدها من الآيات والحديث: أنْ يزيد هذا المقام بيانًا وإيضاحًا، وإلاَّ فقد تقدم في الآيات والأحاديث ما يفسِّرُ لا إله إلاَّ الله، وما دلَّت عليه من التوحيد ونفي الشرك والتنديد.

قلت: هذا من عطف الدال على المدلول[1].

فإن قيل: قد تقدم في أول الكتاب من الآيات ما يبين معنى «لا إله إلا الله» وما تضمنته من التوحيد كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] وسابقها ولاحقها، وكذلك ما ذكره في الأبواب بعدها. فما فائدة هذه الترجمة؟

قيل: هذه الآيات المذكورات في هذا الباب فيها مزيد بيان بخصوصها لمعنى كلمة الإخلاص وما دلت عليه: من توحيد العبادة. وفيها: الحجة على من تعلق من الأنبياء والصالحين يدعوهم ويسألهم، لأن ذلك هو سبب نزول بعض هذه الآيات، كالآية الأولى ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ﴾ [الإسراء: ٥٦] أكثر المفسرين على أنها نزلت فيمن يعبد المسيح وأمه والعُزيرَ والملائكة، وقد نهى الله عن ذلك أشد النهي، كما في الآية من التهديد والوعيد على ذلك، وهذا يدل على أن دعاءهم من دون الله شرك بالله، ينافي التوحيد، وينافي شهادة أن لا إله إلا الله، فإن التوحيد أن لا يُدعى إلا الله وحده، وكلمة الإخلاص نفت هذا الشرك، لأن دعوة غير الله تأليه وعبادة له. و«**الدعاء مخ العبادة**»[2][3].

وفي هذه الآية: أن المدعو لا يملك لداعيه كشف ضرر ولا تحويله من مكان إلى مكان، ولا من صفة إلى صفة،

التفسير معناه: الكشف والإيضاح، مأخوذ من قولهم: فسرت الثمرة قشرها، ومن قول الإنسان: فسرت ثوبي فاتضح ما وراءه، ومنه تفسير القرآن الكريم.

والتوحيد: تقدم تعريفه، والمراد به هنا: اعتقاد أن اللَّه واحد في ألوهيته.

---

(١) في قرة العيون: لأن التوحيد هو معنى هذه الكلمة العظيمة، وذلك يتبين بما ساقه من الآيات والحديث، لما فيها من زيادة البيان وكشف ما أشكل من ذلك، وإقامة الحجة على من غلط في معنى (لا إله إلا الله) من أهل الجهل والإلحاد. (ق).

(٢) رواه الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم. (ق).

(٣) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني في ضعيف الجامع (٣٠٠٣) وصح الحديث بلفظ: «**الدعاء هو العبادة**».

. . . .

ولو كان المدعو نبيًا أو ملكًا، وهذا يقرر بطلان دعوة كل مدعو من دون الله كائنًا من كان، لأن دعوته تكون داعية أحوج ما كان إليها، لأنه أشرك مع الله من لا ينفعه ولا يضره. وهذه الآية تقرر التوحيد، ومعنى لا إله إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾[1] يبين أن هذا سبيل الأنبياء والمرسلين

قوله: «وشهادة أن لا إله إلا اللَّه»: معطوف على التوحيد؛ أي: وتفسير شهادة أن لا إله إلا اللَّه. والعطف هنا من باب عطف المترادفين؛ لأن التوحيد حقيقة هو شهادة أن لا إله إلا اللَّه.

(١) في قرة العيون: أي أولئك الذين يدعوهم أهل الشرك ممن لا يملك كشف الضر ولا تحويله من الملائكة والأنبياء والصالحين كالمسيح وأمه والعزير. فهؤلاء دينهم التوحيد وهو بخلاف من دعاهم من دون الله وصفهم بقوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧] فيطلبون القرب من الله بالإخلاص له وطاعته فيما أمر، وترك ما نهاهم عنه. وأعظم القرب التوحيد الذي بعث الله به أنبياءه ورسله وأوجب عليهم العمل به والدعوة إليه؛ وهذا الذي يقربهم إلى الله أي إلى عفوه ورضاه ووصف ذلك بقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧] فلا يرجون أحدًا سواه ولا يخافون غيره، وذلك هو توحيده لأن ذلك يمنعهم من الشرك، ويوجب لهم الطمع في رحمة الله والهرب من عقابه، والداعي لهم - والحالة هذه - قد عكس الأمر، وطلب منهم ما كانوا ينكرون من الشرك بالله في دعائهم لمن كانوا يدعونه من دون الله. ففيه معنى قوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] وقوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦].

وفيه الرد على من ادعى أن شرك المشركين إنما هو بعبادة الأصنام وتبين بهذه الآية أن الله تعالى أنكر على من دعا معه غيره من الأنبياء والصالحين والملائكة ومن دونهم، وأن دعاء الأموات والغائبين لجلب نفع أو دفع ضر هو من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، وأن ذلك ينافي ما دلت عليه كلمة الإخلاص.

فتدبر هذه الآية العظيمة يتبين لك التوحيد، وما ينافيه من الشرك والتنديد؛ فإنها نزلت فيمن يعبد الملائكة والمسيح وأمه والعزير فهم المعنيون بقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦] ثم بين تعالى أن هؤلاء المشركين قد خالفوا من كانوا يدعونه في دينه فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧] وقدم المسئول لأنه يفيد الحصر. يعنى يبتغون إلى ربهم الوسيلة لا إلى غيره. وأعظم الوسائل إلى الله تعالى التوحيد الذي بعث به الله أنبياءه ورسله؛ وخلق الخلق لأجله. ومن التوسل إليه: التوسل بأسمائه وصفاته، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] وكما ورد في الأذكار المأثورة من التوسل بها في الدعوات كقوله ﷺ: **«اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام»** وقوله: **«اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد»** وغير ذلك من الأعمال الصالحة الخالصة التي لم يشبها شرك. فالتوسل إلى الله هو بما يحبه ويرضاه، لا بما يكرهه ويأباه من الشرك الذي نزه نفسه عنه بقوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٤٣] وقوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] وقوله في الإنكار على من اتخذ الشفعاء ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير يأمر عباده بإخلاص العبادة له؛ وينهاهم عن عبادة ما سواه، ويعظم عقوبته كما قد جرى على الأمم المكذبة للرسل فيما جاؤوهم به من التوحيد والنهي عن الشرك فأوقع الله تعالى بهم ما أوقع كقوم نوح وعاد وثمود ونحوهم فإنهم عصوا الرسل فيما أمروهم به من التوحيد وتمسكوا بالشرك وقالوا لنوح: ﴿مَا نَرَاكَ =

. . . .

ومن تبعهم من المؤمنين، قال قتادة: «تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه» وقرأ ابن زيد: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾[1] قال العماد ابن كثير: وهذا خلاف فيه بين المفسرين، وذكره عن عدة من أئمة التفسير.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: في هذه الآية ذكر المقامات الثلاث: الحب، وهو ابتغاء التقرب إليه، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة، والرجاء والخوف، وهذا هو حقيقة التوحيد وحقيقة دين الإسلام كما في المسند عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال للنبي ﷺ: «والله يا رسول الله ما أتيتك إلا بعد ما حلفتُ عدد أصابعي هذه: أن لا آتيك، فبالذي بعثك بالحق، ما بعثك به؟ قال: **«الإسلام»**، قال: وما الإسلام؟ قال: **أن تُسلم قلبك وأن تُوجه وجهك إلى الله، وأن تصلي الصلوات المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة**»[2]. وأخرج محمد بن نصر المروزي من حديث خالد بن معدان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن للإسلام صُوىً**[3] **ومناراً كمنار الطريق. من ذلك أن تعبد الله ولا تشرك به شيئًا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان؛ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**»[4].

وهذا الباب مهم؛ لأنه لما سبق الكلام على التوحيد وفضله، والدعوة إليه، كأن النفس الآن اشرأبّت إلى بيان ما هو هذا التوحيد الذي بوب له هذه الأبواب(وجوبه، وفضله، والدعوة إليه)؟

فيجاب بهذا الباب، وهو تفسير التوحيد، وقد ذكر المؤلف خمس آيات:

= ﴿إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧] وقالوا لهود: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣]الآيات. وقالوا لصالح: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢]وقالوا لشعيب: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٨٧].

فتدبر ما قص الله تعالى في كتابه مما دعت إليه الرسل وما أوقع بمن عصاهم. فإن الله تعالى أقام به الحجة على كل مشرك إلى يوم القيامة. وأما ما ورد في معنى الآية عن ابن مسعود قال: «كان ناس من الإنس يعبدون ناسًا من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم».

فإنه لا يخالف ما تقدم لأن هذه الآية حجة على كل من دعا مع الله وليًّا من الأولين والآخرين، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في هذه الآية: وهذه الأقوال كلها فإن الآية تعم من كان معبوده عابدًا لله سواء كان من الملائكة أو الجن أو من البشر. (ق).

(١) يعني أن جميع الصالحين الذين يدعوهم المشركون ويستغيثون بهم إما توسلاً إلى الله ليقضي حوائجهم، وإما استقلالاً بأن يطلبوا منهم قضاء الحاجة معتقدين بأن الله وهبهم التكوين والتصرف أولئك الصالحون مشتغلون بأنفسهم يدعون الله لها ويتوسلون إليه بعبادته مخلصين له الدين خائفين عذابه راجين رحمته، وإذا لم يملكوا لأنفسهم نفعًا ولا دفع ضر، فكيف يملكون لغيرهم ضرًّا أو نفعًا؟. (ق).

(٢) **صحيح**: رواه أحمد في المسند (٥/ ٣) وصححه العلامة الألباني رحمه الله.

(٣)الصوى: الأعلام المنصوبة من الحجارة في المفازة المجهولة يستدل بها على الطريق، واحدتها صوة - كقوة - أراد أن للإسلام طرائق وأعلامًا يهتدى بها. (ق).

(٤) **صحيح**: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٣٣٣).

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨]: أي: «لا إله إلا الله».

فتدبر كيف عبّر الخليل عليه السلام عن هذه الكلمة العظيمة بمعناها الذي دلت عليه ووضعت له[1] من البراءة من كل ما يعبد من دون الله من المعبودات الموجودة في الخارج: كالكواكب والهياكل والأصنام التي صورها قوم نوح على صور الصالحين: ودّ وسواع ويغوث ونسر، وغيرها من الأوثان والأنداد التي كان يعبدها المشركون بأعيانها، ولم يستثن من جميع المعبودات إلا الذي فطره، وهو الله وحده لا شريك له؛ فهذا هو الذي دلت عليه كلمة الإخلاص مطابقة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢] فكل عبادة يقصد بها غير الله: من دعاء وغيره فهي باطلة، وهي الشرك الذي لا يغفره الله، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ [غافر: ٧٣، ٧٤].

وقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ[2] وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾[3] [التوبة: ٣١].

---

(١) في قرة العيون: فعبر عن المنفي بها قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦] وعبر عما أثبته بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٨] فقصر العبادة على الله وحده ونفاها عن كل ما سواه ببراءته من ذلك. فما أحسن التفسير لهذه الكلمة وما أعظمه.

قال العماد ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨] أي هذه الكلمة وهي عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان وهي لا إله إلا الله؛ جعلها في ذريته يقتدى به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم عليه السلام ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي إليها. قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم في قوله ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ يعني (لا إله إلا الله) لا يزال في ذريته من يقولها. (ق).

(٢) الأحبار: هم العلماء، والرهبان: هم العباد. قال السدي: استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم. ولهذا قال تعالى في الآية: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] فصار ذلك عبادة لهم. وجعلوا أحبارهم ورهبانهم مشرعين في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله؛ فاتخذوهم بذلك أربابًا. لأن التشريع من خصائص الربوبية كما أن العبادة من مستحقات الربوبية. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠]. (ق).

(٣) في قرة العيون: أي اتخذوه ربًّا بعبادتهم له من دون الله وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧] فمن تدبر هذه الآيات تبين له معنى (لا إله إلا الله) وتبين له التوحيد الذي جحده أكثر من يدعي العلم في هذه القرون وما قبلها من متأخري هذه الأمة، وقد =

وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ تلا هذه الآية على عدي بن حاتم الطائي فقال: «يا رسول الله؛ لسنا نعبدهم. قال: **أليس يُحلُّون لكم ما حرم الله فتحلونه؛ ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟** قال: بلى. قال النبي ﷺ: **فتلك عبادتهم**»[1][2]. فصارت طاعتهم في المعصية عبادة لغير الله وبها اتخذوهم أربابًا، كما هو الواقع في هذه الأمة، وهذا من الشرك الأكبر المنافي للتوحيد الذي هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله. فتبين بهذه الآية أن كلمة الإخلاص نفت هذا كله لمنافاته لمدلول هذه الكلمة. فأثبتوا ما نفته من الشرك وتركوا ما أثبتته من التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ**﴾ [البقرة:١٦٥] فكل من اتخذ ندًا لله يدعوه من دون الله يرغب إليه ويرجوه لما يؤمله منه قضاء حاجاته وتفريج كرباته -كحال عُبّاد القبور والطواغيت والأصنام- فلا بد أن يعظموهم ويحبوهم لذلك؛ فإنهم أحبوهم مع الله وإن كانوا يحبون الله تعالى[3] ويقولون: «لا إله إلا الله» ويصلون ويصومون، فقد أشركوا بالله في المحبة بمحبة

= عمت البلوى بالجهل بعد القرون الثلاثة لما وقع الغلو في قبور أهل البيت وغيرهم وبنيت عليهم المساجد، وبنيت لهم المشاهد، فاتسع الأمر وعظمت الفتنة في الشرك المنافي للتوحيد لما حدث الغلو في الأموات وتعظيمهم بالعبادة. فبهذه الأمور التي وقع فيها الأكثر، وعاد المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، والبدعة سنة والسنة بدعة. نشأ على هذا الصغير وهرم عليه الكبير؛ وقد قال ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس**» وفي رواية: «**يصلحون ما أفسد الناس**».(ق).

(١) رواه أحمد والترمذي وحسنه ابن جرير مطولاً. (ق).

(٢) حسن: رواه الترمذي (٣٠٩٥)، والطبري (١٠/ ١١٤)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٦)، والطبراني في الكبير (١٧/ ١٢)، وقال الترمذي: وغطيف - أحد رواته - ليس بمعروف في الحديث، والحديث حسنه الألباني رحمه الله بشواهده.

(٣) هم في الواقع ما أحبوا الله حقيقة. لأن حب الله لا يكون إلا عن معرفة بالله؛ بأسمائه وصفاته. ومن أحب الله على الحقيقة لا يمكن أن يتخذ من دونه ندًا. وليس معنى (كحب الله) أي كحبهم لله. ولكن معناها والله أعلم: يحبونهم حبًا من جنس الحب الذي لا يكون إلا لله. وهو حب العبادة: غاية الحب في غاية الذل والتعظيم. فهذا هو الحب الذي ينشأ عنه الدعاء واللجأ والضراعة وطلب تفريج الكروب ونحوها. مما يجرده المؤمنون لله وحده وهم أشد حبًا لله. والمشركون يجردونه لأوليائهم أو يشركونهم مع الله؛ ولا يرجون لله وقارًا.

وقال في قرة العيون: الأنداد؛ الأمثال والنظراء، كما قال العماد ابن كثير وغيره من المفسرين فكل من صرف من العبادة شيئًا لغير الله رغبة إليه أو رهبة منه، فقد اتخذه ندًا لله. لأنه أشرك مع الله فيما لا يستحقه غيره.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: فتوحيد المحبوب أن لا يتعدد محبوبه أي مع الله بعبادته له، وتوحيد الحب أن لا يبقى في قلبه بقية حب حتى يبذلها له، فهذا الحب وإن سمي عشقًا فهو غاية صلاح العبد ونعيمه وقرة عينه؛ وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلا بأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن لا تكون محبته لغير الله، فلا يحب إلا الله؛ كما في الحديث الصحيح: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار**» ومحبة رسوله هي من محبته. ومحبة المرء إن كانت لله فهي من محبته، وإن كانت لغير الله فهي منقصة لمحبة الله مضعفة لها. =

. . . .

غيره وعبادة غيره، فاتخاذهم الأنداد يحبونهم كحب الله يبطل كل قول يقولونه وكل عمل يعملونه، لأن المشرك لا يقبل منه عمل، ولا يصح منه، وهؤلاء وإن قالوا: «لا إله إلا الله» فقد تركوا كل قيد قيِّدت به هذه الكلمة العظيمة: من العلم بمدلولها، لأن المشرك جاهل بمعناها، ومن جهله بمعناها جعل لله شريكًا في المحبة وغيرها، وهذا هو الجهل المنافي للعلم بما دلت عليه من الإخلاص: ولم يكن صادقًا في قولها. لأنه لم ينف ما نفته من الشرك، ولم يثبت ما أثبتته من الإخلاص، وترك اليقين أيضًا، لأنه لو عرف معناها وما دلت عليه لأنكره أو شكّ فيه، ولم يقبله وهو الحق. ولكن يكفر بما يعبد من دون الله، كما في الحديث. بل آمن بما يعبد من دون الله باتخاذه الندّ ومحبته له وعبادته إياه من دون الله، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ لأنهم أخلصوا له الحب فلم يحبوا إلا إياه، ويحبون من أحب ويخلصون أعمالهم جميعًا لله، ويكفرون بما عبد من دون الله، فبهذا يتبين لمن وفقه الله تعالى لمعرفة الحق وقبوله دلالة هذه الآيات العظيمة على معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وعلى التوحيد الذي هو معناها الذي دعا إليه جميع المرسلين. فتدبر.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

يتبين معنى هذه الآية بذكر ما قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦].

قال ابن كثير: يقول تعالى: ﴿قُلِ﴾ يا محمد[1] للمشركين الذين عبدوا غير الله ﴿ادْعُوا الَّذِينَ

الآية الأولى: قوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾: «أولاء»: مبتدأ.
﴿الَّذِينَ﴾: بدل منه. ﴿يَدْعُونَ﴾: صلة الموصولة.

= ويصدق هذه المحبة بأن يكون كراهته لأبغض الأشياء إلى محبوبه -وهو الكفر- بمنزلة كراهته لإلقائه في النار أو أشد. ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة. فإن الإنسان لا يقدم على محبة نفسه شيئًا، فإذا قدم محبة الإيمان بالله على نفسه بحيث لو خير بين الكفر وإلقائه في النار لاختار أن يلقى في النار ولا يكفر، كان أحب إليه من نفسه. وهذه المحبة هي فوق ما يجده العشاق من محبة محبوبيهم، بل لا نظير لهذه المحبة؛ كما لا مثيل لمن تعلقت به، وهي محبة تقتضي تقديم المحبوب فيها على النفس والمال والولد، وتقتضي كمال الذل والخضوع والتعظيم والإجلال والطاعة والانقياد ظاهرًا وباطنًا، وهذا لا نظير له في محبة مخلوق ولو كان المخلوق من كان، ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره في المحبة الخاصة كان شركًا لا يغفره الله كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة: ١٦٥] والصحيح أن معنى الآية: أن الذين آمنوا أشد حبًّا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم؛ كما تقدم أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصلاً، كما لا يماثل محبوبهم غيره. وكل أذى في محبة غيره فهو نعيم في محبته، وكل مكروه في محبة غيره فهو قرة عين محبته. (ق).

(١) يستعمل المفسرون هذا الخطاب كثيرًا؛ تفسيرًا لخطاب الله. ولكن يلاحظ أن الله لم يخاطب رسوله ولا مرة واحدة بهذا الخطاب (يا محمد) بل كل خطاب الله (يا أيها النبي، يا أيها الرسول) فينبغي أن يكون ذلك كذلك؛ والله أعلم. (ق).

. . . .

زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ﴾ من الأصنام و الأنداد، وارغبوا إليهم فإنَّهم ﴿فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ﴾ أي: بالكلية ﴿وَلا تَحْوِيلاً﴾ أي: ولا أنْ يحوِّلوه إلىٰ غيركم.

فإنَّ الذي يقدرُ علىٰ ذلك، هو الله وحده لا شَريك له، الذي له الخلق والأمر.

قال العَوْفي، عن ابن عباسٍ، في الآية: كان أهلُ الشرك يقولون: نعبدُ الملائكة والمسيح وعُزيراً، وهم الذين يُدعون. وروىٰ البخاريُّ - في الآية - عن ابن مسعود، قال: ناسٌ من الجن كانوا يُعبدون فأسلموا[1].

وفي رواية: كان ناسٌ من الإنس يَعبُدون ناسًا من الجن، فأسلم الجنُّ وتمسَّك هؤلاء بدينهم[2].

وقولُ ابن مسعود هذا، يدلُّ علىٰ أنَّ الوسيلة هي الإسلام، وهو كذلك علىٰ كلا القولين.

وقال السدي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في الآية، قال: عيسىٰ وأُمُّهُ وعُزير.

وقال مغيرة، عن إبراهيم: كان ابنُ عباس، يقول في هذه الآية هم عيسىٰ وعُزير، والشمس والقمر.

وقال مُجاهد: عيسىٰ وعُزير والملائكة.

قوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ لا تتم العبادةُ إلاَّ بالخوف والرجاء. فكل داعٍ دُعاءَ عبادةٍ أو استغاثة لابد له من ذلك: فإمَّا أن يكون خائفًا، وإما أن يكون راجيًا، وإما أن يجتمع فيه الوصفان.

قال شيخُ الإسلام رحمه الله تعالى - في هذه الآية لمَّا ذكر أقوال المفسرين -: وهذه الأقوال كلها حق؛ فإنَّ الآية تعمُّ من كان معبوده عابداً لله، سواء كان من الملائكة أو من الجنِ أو من البشر. والسلفُ في تفسيرهم: يذكرون جنسَ المراد بالآية علىٰ نوع التمثيل، كما يقول التُّرجُمان لمن سأله: ما معنىٰ الخُبز؟ فيريه رغيفًا، فيقول: هذا. فالإشارة إلىٰ نوعه لا إلىٰ عينه، وليس مرادهم بذلك تخصيص نوع دون نوع، مع شمول الآية.

فالآيةُ خطابٌ لكل من دعا من دون الله مدعواً، وذلك المدعو يبتغي إلىٰ الله الوسيلة ويرجو رحمته ويخاف عذابه. فكلُّ من دعا ميتًا أو غائبًا من الأنبياء والصالحين سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها، فقد تناولته هذه الآية، كما تتناول من دعا الملائكة والجن. فقد نهىٰ الله تعالىٰ عن دعائهم، وبيَّن أنهم لا يملكون كشف الضرِّ عن الداعين ولا تحويله. لا يرفعونه بالكلية ولا يحوِّلونه من موضع إلىٰ موضع، كتغيير صفته أو قدره، ولهذا قال: ﴿وَلا تَحْوِيلاً﴾ فذكر نكرة تعمُّ أنواع التحويل.

وجملة: ﴿يَبْتَغُونَ﴾: خبر المبتدأ؛ أي: هؤلاء الذين يدعون هؤلاء هم أنفسهم يبتغون إلىٰ ربهم الوسيلة أيهم أقرب، فكيف تدعونهم وهم محتاجون مفتقرون؟ فهذا سفه في الحقيقة، وهذا ينطبق علىٰ كل من دعي، وهو داعٍ؛ كعيسىٰ ابن مريم، والملائكة، والأولياء، والصالحين. وأما الشجر والحجر؛ فلا يدخل في الآية. فهؤلاء الذين زعمتم أنهم أولياء من دون الله لا يملكون كشف الضر ولا تحويله من مكان إلىٰ مكان؛ لأنهم هم بأنفسهم يدعون يبتغون إلىٰ ربهم الوسيلة أيهم أقرب، وقد قال تعالىٰ مبينًا حال هؤلاء المدعوين: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٧١٥).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٤٧١٤).

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ـ٢٨].

فكلُّ من دعا ميتًا أو غائبًا من الأنبياء والصالحين، أو دعا الملائكة فقد دعا من لا يُغيثه ولا يملك كشف الضر عنه ولا تحويله. انتهى.

وفي هذه الآية ردٌّ على من يدعو صالحًا، ويقول: أنا لا أشرك بالله شيئًا؛ الشركُ عبادة الأصنام.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ـ٢٨].

قال ابنُ كثير: يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله إمام الحُنفاء، ووالد من بُعث بعده من الأنبياء، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها: إنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان فقال: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧] ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨] أي: هذه الكلمة وهي عبادةُ الله وحده لا شريك له، وخلعُ ما سواه من

وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

قوله: ﴿يَدْعُونَ﴾؛ أي: دعاء مسألة، كمن يدعوا عليًّا عند وقوعهم في الشدائد، وكمن يدعو النبي ﷺ يقول:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العمم

وقد يكون دعاء عبادة؛ كمن يتذلل لهم بالتقرُّب، والنذر، والركوع، والسجود.

قوله: ﴿يَبْتَغُونَ﴾: يطلبون.

قوله: ﴿الْوَسِيلَةَ﴾: أي: الشيء الذي يوصلهم إلى الله؛ يعني: يطلبون ما يكون وسيلة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ أيهم أقرب إلى الله، وكذلك أيضًا يرجون رحمته ويخافون عذابه.

وجه مناسبة الآية للباب، باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله:

أن التوحيد يتضمن البراءة من الشرك، بحيث لا يدعو مع الله أحدًا؛ لا ملكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلاً، وهؤلاء الذين يدعون الأنبياء والملائكة لم يتبرؤوا من الشرك، بل هم واقعون فيه، ومن العجب أنهم يدعون من هم في حاجة إلى ما يقربهم إلى الله تعالى؛ فهم غير مستغنين عن الله بأنفسهم، فكيف يغنون غيرهم؟

الآية الثانية والثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ...﴾ الآية:

قوله: ﴿بَرَاءٌ﴾: على وزن فعال، وهي صفة مشبهة من التبرؤ، وهو التخلي، أي أنني متخل غاية التخلي عما يعبدون إلا الذي فطرني، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام قوي في ذات الله، فقال ذلك معلنًا به لأبيه وقومه، وأبوه هو آزر.

قوله: ﴿تَعْبُدُونَ﴾: العبادة هنا التذلل والخضوع؛ لأن في قومه من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر والكواكب.

. . . .

الأوثان، وهي لا إله إلاَّ الله[١] جعلها في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذُرية إبراهيم عليه السلام ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: إليها.

قال عكرمة، ومجاهدُ، والضَّحاك، وقتادة، والسدي، وغيرُهم، في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ يعني: لا إله إلاَّ الله، لا يزال في ذريته من يقولها.

وروىٰ ابنُ جرير، عن قتادة ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ قال: إنَّهم يقولون: إنَّ الله ربُّنا ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] فلم يبرأ من ربِّه، ورواه عبْد بن حُميد.

وروىٰ ابنُ جرير، وابن المنذر، عن قتادة ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ قال: الإخلاصُ والتوحيد، لا يزال في ذرِّيته من يعبد الله ويوحِّده.

قلتُ: فتبيَّن أنَّ معنىٰ لا إله إلاَّ الله، توحيدُ الله بإخلاص العبادة له والبراءةِ من كل ما سواه.

قال المصنِّفُ: وذكر سبحانه أنَّ هذه البراءة، وهذه الموالاة هي شهادةُ أنّ لا إله إلاَّ الله:

قوله: ﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾: جمع بين النفي والإثبات، فالنفي: ﴿بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾، والإثبات: ﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾، فدل على أن التوحيد لا يتم إلا بالكفر بما سوىٰ اللّٰه والإيمان باللّٰه وحده، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهؤلاء يعبدون اللّٰه ويعبدون غيره؛ لأنه قال: ﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾، والأصل في الاستثناء الاتصال إلا بدليل، ومع ذلك تبرأ منهم. وكذا يوجد في بعض البلدان الإسلامية من يصلي ويزكي ويصوم ويحج، ومع ذلك يذهبون إلىٰ القبور يسجدون لها ويركعون؛ فهم كفار غير موحدين، ولا يقبل منهم أي عمل، وهذا من أخطر ما يكون علىٰ الشعوب الإسلامية؛ لأن الكفر بما سوىٰ اللّٰه عندهم ليس بشيء، وهذا جهل منهم، وتفريط من علمائهم، لأن العامي لا يأخذ إلا من عالمه، لكن بعض الناس -والعياذ باللّٰه- عالم دولة لا عالم ملة.

وفي قول إبراهيم ﷺ: ﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾، ولم يقل إلا اللّٰه فائدتان:

الأولى: الإشارة إلىٰ علة إفراد اللّٰه بالعبادة؛ لأنه كما أنه منفرد بالخلق، فيجب أن يفرد بالعبادة.

الثانية: الإشارة إلىٰ بطلان عبادة الأصنام، لأنها لم تفطركم حتىٰ تعبدوها، ففيها تعليل للتوحيد الجامع بين النفي والإثبات، وهذه من البلاغة التامة في تعبير إبراهيم عليه السلام.

يستفاد من الآية أن التوحيد لا يحصل بعبادة اللّٰه مع غيره، بل لا بد من إخلاصه للّٰه، والناس في هذا المقام ثلاثة أقسام:

---

(١) فإن (لا إله إلا الله) مطابقة لقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧] لأن كلتاهما مركبة من جملتين: نفي؛ وهي (لا إله) و(إنني براءٌ مما تعبدون) وإثبات: وهي (إلا الله) و(الذي فطرني) فينبغي أن يلاحظ المسلم عند نطقه بكلمة الشهادة ذلك ويحققه علمًا وعملاً.(ق).

وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وفي هذا المعنىٰ، يقول العلاَّمةُ ابن القيم رحمه الله تعالىٰ في (الكافية الشافية):

وإذا تـولاَّه امــــرؤٌ دون الـورى طُـرًّا تـولاَّه الـعظيـمُ الـشـــان

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

الأحبارُ: هم العُلماء، والرُّهبان: هم العُبَّاد.

وهذه الآيةُ قد فسرَّها رسولُ الله ﷺ لعدي بن حاتم، وذلك أنه لما جاء مُسْلمًا، دخل علىٰ رسول الله ﷺ فقرأ عليه هذه الآية قال: فقلتُ: إنَّهم لم يعبدوهم، فقال: «**بلى، إنهم حرَّموا عليهم الحلال، وحللوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم**»[(١)] رواه أحمد، والترمذي وحسنه، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني، من طُرق.

قال السُّدي: استنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم.

باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

هما بمعنىٰ واحد، فهو من باب عطف المترادفين، وهذه المسألة أكبر المسائل وأهمها كما قال المصنف رحمه الله. وحقيقة تفسير التوحيد العلم والاعتراف بتفرد الرب بجميع صفات الكمال وإخلاص العبادة له.

وذلك يرجع إلى أمرين: نفي الألوهية كلها عن غير الله بأن يعلم ويعتقد أنه لا يستحق الإلهية ولا شيئًا من العبودية أحد من الخلق، لا نبي مرسل ولا ملك مقرب ولا غيرهما، وأنه ليس لأحد من الخلق في ذلك حظ ولا نصيب.

والأمر الثاني: إثبات الألوهية لله تعالىٰ وحده لا شريك له وتفرده بمعاني الألوهية كلها وهي نعوت الكمال كلها. ولا يكفي هذا الاعتقاد وحده حتىٰ يحققه العبد بإخلاص الدين كله لله فيقوم بالإسلام والإيمان والإحسان وبحقوق الله وحقوق خلقه قاصدًا بذلك وجه الله وطالبًا رضوانه وثوابه.

- قسم يعبد اللَّه وحده. - وقسم يعبد غيره فقط.
- وقسم يعبد اللَّه وغيره. - والأول فقط هو الموحد.

الآية الرابعة قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية.

قوله: ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾: المعطوف عليها المفعول الأول لاتخذوا، الثاني: «أربابًا»؛ أي: هؤلاء اليهود والنصارىٰ صيروا أحبارهم ورهبانهم أربابًا.

والأحبار: جمع حبر، وهو العالم، ويقال للعالم أيضًا بحر لكثرة علمه.

والحبر؛ بفتح الحاء، وكسرها يقال: حَبر، وحِبر.

---

(١) حسن: تقدم تخريجه.

. . . .

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، فإنَّ الحلال ما أحلَّه الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله تعالى.

فظهر بهذا، أنَّ الآية دلَّت: على أنَّ من أطاع غير الله ورسوله، وأعرض عن الأخذ بالكتاب والسنة في تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحله الله، وأطاعه في معصية الله، واتبعه فيما لم يأذن الله، فقد اتخذه ربًا ومعبودًا وجعله لله شريكًا. وذلك يُنافي التوحيد، الذي هو دينُ الله الذي دلَّت عليه كلمةُ الإخلاص لا إله إلاَّ الله. فإنَّ الإله هو المعبود، وقد سمَّى الله تعالى طاعتهم عبادةً لهم، وسمَّاهم أربابًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ أي: شركاء لله تعالى، في العبادة ﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠]، فكل معبودٍ ربٌّ، وكل مطاع ومتبع على غير ما شرعه الله تعالى ورسوله فقد اتخذه المطيع ربًّا ومعبودًا؛ كما قال تعالى في آية الأنعام ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١] وهذا هو وجه مطابقة الآية للترجمة. ويُشبه هذه الآية في المعنى، قول الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]. والله أعلم.

قال شيخُ الإسلام، في معنى قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾: وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارَهم ورهبانهم أربابًا ـ حيث أطاعوهم في تحليل ما حرَّم الله وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين.

أحدُهما: يعلمون أنهم بدَّلوا دينَ الله فيتبعونهم على التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرَّم الله وتحريمَ ما أحل الله، اتباعًا لرؤسائهم، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل. فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركًا، وإنْ لم يكونوا يُصلُّون لهم ويسجدون لهم. فكان من اتبع غيرَه في خلاف الدين ـ مع علمه أنه خلافٌ للدين ـ واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله، مشركًا مثل هؤلاء.

الثاني: أنْ يكون اعتقادُهم وإيمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتًا، لكنهم أطاعوهم في معصية الله، كما يفعلُ المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصي.

فهؤلاء لهم حُكم أمثالهم من أهل الذنوب؛ كما قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما الطاعةُ في المعروف»(١). ثم ذلك المُحرِّمُ للحلال والمحلل للحرام؛ إنْ كان مجتهدًا قصدُه اتباع الرسول لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر وقد اتقى الله

قوله: ﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾: أي: عبادهم.

قوله: ﴿أَرْبَابًا﴾: جمع رب، أي يجعلونهم أربابًا من دون اللّه؛ فجعلوا الأحبار أربابًا لأنهم يأتمرون بأمرهم في مخالفة أمر اللّه، فيطيعونهم في معصية اللّه.

وجعلوا الرهبان أربابًا باتخاذهم أولياء يعبدونهم من دون اللّه.

قوله: ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾: أي: من غير اللّه.

قوله: ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾: معطوف على أحبارهم؛ أي: اتخذوا المسيح ابن مريم أيضًا ربًّا

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٣٤٠، ٧١٤٥، ٧٢٥٧)، ومسلم (١٨٤٠).

. . . .

ما استطاع فهذا لا يُؤاخذه الله بخطئه، بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه. ولكن من علم أنَّ هذا أخطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه، وعدل عن قول الرسول، فهذا له نصيبٌ من هذا الشرك الذي ذمَّه الله، لا سيما إنْ اتبع في ذلك هواه ونصره باليد واللسان، مع علمه بأنه مخالفٌ للرسول، فهذا شركٌ يستحق صاحبه العقوبة عليه.

ولهذا اتفق العلماءُ على أنَّه إذا عُرف الحق، لا يجوز تقليد أحدٍ في خلافه، وإنَّما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال. وإنْ كان عاجزاً عن إظهار الحق الذي يعلمه، فهذا يكون كمن عرف أنَّ دين الإسلام حق وهو بين النصارى، فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق، لا يؤاخذ بما عجز عنه؛ وهؤلاء كالنجاشي وغيره. وقد أنزل الله في هؤلاء الآيات من كتابه، كقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ**﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وقوله: ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ**﴾ [المائدة: ٨٣]، وقوله: ﴿**وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وأمَّا إن كان المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل، وقد فعل ما قدر عليه مثلُه؛ من الاجتهاد في التقليد، فهذا لا يؤاخذ إنْ أخطأ؛ كما في القِبْلة. وأمَّا إنْ قلَّد شخصًا دون نظيره بمجرد هواه، ونصره بيده ولسانه من غير علم أنَّ معه الحق، فهذا من أهل الجاهلية. وإنْ كان متبوعُه مصيبًا لم يكن عمله صالحًا، وإنْ كان متبوعُه مخطئًا كان آثمًا؛ كمن قال في القرآن برأيه، فإنْ أصاب فقد أخطأ، وإنْ أخطأ فليتبوأ مقعده من النار.

وهؤلاء من جنس مانع الزكاة الذي تقدم فيه الوعيد، ومن جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة. فإنَّ ذلك لما أحبَّ المال منعه عن عبادة الله وطاعته صار عبداً له، وكذلك هؤلاء. فيكون فيه شركٌ أصغر، ولهم من الوعيد بحسب ذلك. وفي الحديث: «**إنّ يسير الرياء شرك**»[1] وهذا مبسوطٌ عند النصوص التي فيها إطلاقُ الكفر والشرك على كثير من الذنوب. انتهى.

حيث قالوا: إنه ثالث ثلاثة.

قوله: ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُوا﴾: أي: يتذللوا بالطاعة للّه وحده، الذي خلق المسيح والأحبار والرهبان والسموات والأرض.

قوله: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾: أي: لا معبود حق إلا هو.

قوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾: تنزيه للّه عما يشركون.

وجه كون هذه الآية تفسيراً للتوحيد وشهادة أن لا إله إلا اللّه: أن اللّه أنكر عليهم اتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا من دون اللّه، وهذه الآية سيأتي فيها ترجمة كاملة في كلام المؤلف رحمه اللّه، فهؤلاء جعلوا الأحبار شركاء في الطاعة، كلما أمروا بشيء أطاعوهم، سواء وافق أمر اللّه أم لا. إذًا فتفسير التوحيد أيضًا بلا إله إلا اللّه يستلزم أن تكون طاعتك للّه وحده ولهذا على الرغم من تأكيد النبي ﷺ لطاعة ولاة الأمر؛ قال: «**إنما الطاعة في المعروف**»[2].

---

(١) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (٢٩٧٥)، والمشكاة (٥٣٢٨)، والروض (٨٦٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧١٤٥، ٧٢٥٧)، ومسلم (١٨٤٠)، وأبو داود (٢٦٢٥)، والنسائي (٤٢٠٥)، وأحمد (٦٢٣، ٧٢٦، ١٠٢١).

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله، في معنى قول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ [فصلت: ٩] أي: وتجعلون لمن خلق ذلك الأنداد - وهم الأكفاء من الرجال - تُطيعونهم في معاصي الله. انتهى.

قلتُ: كما هو الواقع من كثير من عُبَّاد القبور!

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قال العمادُ ابن كثير رحمه الله تعالى: يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا ومآلهم في الدار الآخرَة، حيث جعلوا لله أنداداً؛ أي: أمثالاً ونُظراء يعبدونهم معه، ويُحبونه كحبه. وهو الله لا إله إلاّ هو، ولا ضد له ولا ند له، ولا شريك معه.

وفي (الصحيحين)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قلتُ: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أنْ تجعل لله نداً وهو خلقك»[1].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ ولحبهم لله، وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم لا يُشركون به شيئًا. بل يعبدونه وحده، ويتوكلُّون عليه، ويلجؤون في جميع أمورهم إليه. ثم توعَّد تعالى المشركين الظالمين لأنفسهم بذلك.

الآية الخامسة قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ الآية.

قوله: ﴿مَن يَتَّخِذُ﴾: أي: الذي يتخذ، وقال يتخذ مراعاة للفظ، ثم قال: ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ مراعاة للمعنى.

قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾: من للتبعيض، وعلامتها أن يصح أن يحل محلها «بعض»، والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و﴿مَن يَتَّخِذُ﴾ مبتدأ مؤخر.

قوله: ﴿يَتَّخِذُ﴾: يجعل، ومفعولها الأول: ﴿أَندَادًا﴾، والثاني: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

قوله: ﴿أَندَادًا﴾: جمع ند، وهو الشبيه والنظير، ولهذا قال النبي ﷺ لمن قال له: ما شاء الله وشئت: «أجعلتني للَّه نداً؟ بل ما شاء اللَّه وحده»[2].

قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾: هذا وجه المشابهة، أي: النِّدية في المحبة يحبونهم كحب اللَّه.

واختلف المفسرون في قوله: ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾: فقيل: يجعلون محبة الأصنام مساوية لمحبة اللَّه، فيكون في قلوبهم محبة للَّه ومحبة للأصنام ويجعلون محبة الأصنام كمحبة اللَّه، فيكون المصدر مضافًا إلى مفعوله.

وقيل: يحبون هذه الأصنام كمحبة المؤمنين للَّه. وسياق هذه الآية يؤيد الرأي الأول.

---

(١) صحيح: وقد تقدم تخريجه.

(٢) صحيح: رواه أحمد (١٨٤٢، ١٩٦٥، ٢٥٥٧)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٤٤)، والبيهقي في سننه الكبرى (٣/ ٢١٧)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٣٩).

. . . .

فقال تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ قال بعضهم: تقديرُ الكلام، لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذٍ أنَّ القوة لله جميعًا، أي: إنَّ الحكم لله وحده لا شريك له؛ فإنَّ جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥] كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦]، يقول: لو علموا ما يعاينون هناك، وما يحلُّ بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم، وكفرهم، لانتهوا عما هم فيه من الضلال. ثم أخبر عن كُفرهم بأوثانهم، وتبرُّءِ المتبوعين من التابعين، فقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦]، تبرأت منهم الملائكةُ الذين كانوا يزعمون أنهم كانوا يعبدونهم في الدنيا، فتقول الملائكة[1] ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣] ويقولون ﴿سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١]، والجن أيضًا يتبرؤون منهم، ويتنصلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦] انتهى كلامه.

وروى ابن جرير، عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ مباهاة ومضاهاة للحق بالأنداد ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من الكفار لأوثانهم.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾: على الرأي الأول يكون معناها: والذين آمنوا أشد حبًّا للَّه من هؤلاء لله؛ لأن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة هؤلاء فيها شرك بين اللَّه وبين أصنامهم.

وعلى الرأي الثاني معناها: والذين آمنوا أشدُّ حبًّا للَّه من هؤلاء لأصنامهم؛ لأن محبة المؤمنين ثابتة في السراء والضراء على برهان صحيح، بخلاف المشركين، فإن محبتهم لأصنامهم تتضاءل إذا مسهم الضر.

فما بالك برجل يحب غير اللَّه أكثر من محبته للَّه؟! وما بالك برجل يحب غير اللَّه ولا يحب اللَّه؟! فهذا أقبح وأعظم، وهذا موجود في كثير من المنتسبين للإسلام اليوم، فإنهم يحبون أولياءهم أكثر مما

---

(١) قال العماد ابن كثير في تفسير سورة القصص: وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ [القصص: ٦٣] يعني الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣] فشهدوا عليهم أنهم أغووهم؛ ثم تبرأوا من عبادتهم. اهـ. والدعاة إلى الكفر: هم من بني آدم ممن كانوا رؤساء وشيوخًا لأولئك الغاوين كأصحاب الطرق الصوفية. فإنهم الذين زينوا لمريديهم ومتبوعيهم الشرك والكفر بالله ورسوله. فإن أساس طرقهم الشيطانية: أن يعبد المريد شيخه بأنواع التعظيم والخوف واعتقاد أنه جاسوس قلبه يدخل ويخرج والمريد لا يشعر. وأنه قبل أن يذكر الله يستحضر الشيخ في قلبه. ويعظمونهم بأنواع الطاعة العمياء أحياء وأمواتًا-كما هو مدون في كتبهم-من شروط المريد وما يسمونه العهد الوثيق. وتجد أكثر هذا الكفر والضلال في كتب الشعراني. وأما آيات سورة الأحقاف فإنها صريحة في أن الذين يكفرون بشرك المشركين: هم من عباد الله الصالحين الذين اتخذهم الناس آلهة بعد موتهم، واتخذوا قبورهم أوثانًا؛ وما كانوا يحبون ذلك ولا يرضون به؛ من أمثال الحسين وإخوته وأبيه وأبنائهم والإمام الشافعي في مصر وأبي حنيفة وعبدالقادر في بغداد ونحوهم، فإنهم يتبرأون يوم القيامة من أولئك المشركين.(ق).

. . . .

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ومن الأمور المبيِّنة لتفسير التوحيد وشهادة أنْ لا إله إلاَّ الله: آيةُ البقرة في الكفار الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، ذكر أنَّهم يُحبُّون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون الله حبًا عظيمًا، فلم يُدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحبَّ الندَّ أكبر من حب الله؟ فكيف بمن لم يحب إلاَّ الند وحده؟ انتهى.

ففي الآية: بيانُ أنَّ من أشرك مع الله في المحبة فقد جعله شريكًا لله في العبادة، واتخذه ندًا من دون الله، وأنَّ ذلك هو الشركُ الذي لا يغفره الله، كما قال تعالىٰ في أولئك: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ المرادُ بالظلم هنا: الشرك؛ كقوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] كما تقدم. فمن أحب الله وحده، وأحب فيه وله فهو مخلص. ومن أحبه وأحب معه غيره، فهو مشرك؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

قال شيخُ الإسلام ما معناه: فمن رغب إلىٰ غير الله في قضاء حاجة أو تفريج كربة، لزم أنْ يكون محبًا له، ومحبَّتُه هي الأصل في ذلك. انتهىٰ. فكلمةُ الإخلاص: لا إله إلاَّ الله؛ تنفي كلَّ شرك في أي نوع كان من أنواع العبادة، وتُثبت العبادة بجميع أفرادها لله تعالىٰ. وقد تقدمَّ بيانُ أنَّ الإله: هو

يحبون اللَّه، ولهذا لو قيل له: احلف باللَّه؛ حلف صادقًا أو كاذبًا، أما الولي، فلا يحلف به إلا صادقًا.

وتجد كثيرًا منهم يأتون إلىٰ مكة والمدينة ويرون أن زيارة قبر الرسول ﷺ أعظم من زيارة البيت، لأنهم يجدون في نفوسهم حبًا لرسول اللَّه ﷺ كحب اللَّه أو أعظم، وهذا شرك؛ لأن اللَّه يعلم أننا ما أحببنا رسول اللَّه ﷺ إلا لحب اللَّه، ولأنه رسول اللَّه، ما أحببناه لأنه محمد بن عبد اللَّه، لكننا أحببناه لأنه رسول اللَّه ﷺ، فنحن نحبه بمحبة اللَّه، لكن هؤلاء يجعلون محبة اللَّه تابعة لمحبة الرسول ﷺ إن أحبوا اللَّه. فهذه الآية فيها محنة عظيمة لكثير من قلوب المسلمين اليوم الذين يجعلون غير اللَّه مثل اللَّه في المحبة، وفيه أناس أيضًا أشركوا باللَّه في محبة غيره لا علىٰ وجه العبادة الشرعية، لكن علىٰ وجه العبادة المذكورة في الحديث، وهي محبة الدرهم والدينار والخميصة والخميلة، يوجد أناس لو فتشت عن قلوبهم؛ لوجدت قلوبهم ملأىٰ من محبة متاع الدنيا، وحتىٰ هذا الذي جاء يصلي وهو في المسجد لكن قلبه مشغول بما يحبه من أمور الدنيا.

فهذا نوع من أنواع العبادة في الحقيقة، ولو حاسب الإنسان نفسه لماذا خُلق؟ لعَلِم أنه خلق لعبادة اللَّه، وأيضًا خُلق لدار أخرىٰ ليست هذه الدار؛ فهذه الدار مجاز يجوز الإنسان منها إلىٰ الدار الآخرة، الدار التي خلق لها والتي يجب أن يعتني بالعمل لها، يا ليت شعري متىٰ يومًا من الأيام فكر الإنسان ماذا عملت؟ وكم بقي لي في هذه الدنيا؟ وماذا كسبت؟ الأيام تمضي ولا أدري هل ازددت قربًا من اللَّه أو بعدًا من اللَّه؟ هل نحاسب أنفسنا عن هذا الأمر؟

. . . .

المألوه، الذي تألهه القلوب بالمحبة أو غيرها من أنواع العبادة. فلا إله إلا الله: نفت ذلك كلَّه عن غير الله، وأثبتته لله وحده، فهذا هو الذي دلت عليه كلمةُ الإخلاص مطابقة. فلابد من معرفة معناها واعتقاده، وقبوله، والعمل به باطنًا وظاهرًا، والله أعلم.

قال ابنُ القيم رحمه الله تعالىٰ: فتوحيدُ المحبوب: أنْ لا يتعدَّد محبوبه، أي: مع الله تعالىٰ بعبادته له. وتوحيد الحب: أنْ لا يبقىٰ في قلبه بقيةُ حب، حتىٰ يبذلها له. فهذا الحب وإن سُمِّي عشقًا فهو غايةُ صلاح العبد، ونعيمه وقرة عينه. وليس لقلبه صلاحٌ ولا نعيم، إلاَّ بأن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه من كل ما سواهما، وأن يكون محبته لغير الله تابعة لمحبة الله تعالىٰ، فلا يُحب إلاَّ لله؛ كما في الحديث الصحيح «**ثلاث من كن فيه**»[1] الحديث[2]. ومحبةُ رسول الله ﷺ هي من محبته، ومحبة المرء إنْ كانت لله فهي من محبته، وإن كانت لغير الله فهي مُنقصةٌ لمحبة الله، مضعفة لها.

ويُصدِّقُ هذه المحبة: بأنْ تكون كراهيته لأبغض الأشياء إلىٰ محبوبه وهو الكفر بمنزلة كراهته لإلقائه في النار أو أشد. ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة؛ فإنَّ الإنسان لا يقدم علىٰ محبة نفسه شيئًا، فإذا قدم محبة الإيمان بالله علىٰ نفسه بحيث لو خيِّر بين الكفر وإلقائه في النار لاختار أنْ يُلقىٰ في النار ولا يكفر كان أحبَّ إليه من نفسه. وهذه المحبة هي فوقَ ما يجده العشاق المحبون من محبة محبوبيهم، بل لا نظير لهذه المحبة، كمن لا مثل لمن تعلَّقت به، وهي محبةٌ تقتضي تقديمَ المحبوب فيها علىٰ النفس والمال والولد. وتقتضي كمال الذُّل والخضوع، والتعظيم والإجلال،

فلا بد لكل إنسان عاقل من غاية، فما هي غايته؟ نحن الآن نطلب العلم للتقرب إلىٰ اللّٰه بطلبه، وإعلام أنفسنا، وإعلام غيرنا، فهل نحن كلما علمنا مسألة من المسائل طبقناها؟ نحن علىٰ كل حال نجد في أنفسنا قصورًا كثيرًا وتقصيرًا، وهل نحن إذا علمنا مسألة ندعو عباد اللّٰه إليها؟ هذا أمر يحتاج إلىٰ محاسبة، ولذلك؛ فإن علىٰ طالب العلم ضريبة ليست هينة عليه أكثر من زكاة المال؛ فيجب أن يعمل ويتحرك ويبث العلم والوعي في الأمة الإسلامية، وإلا انحرفت عن شرع اللّٰه.

قال ابن القيم رحمه اللّٰه: كل الأمور تسير بالمحبة، فأنت مثلاً لا تتحرك لشيء إلا وأنت تحبه، حتىٰ اللقمة من الطعام لا تأكلها إلا لمحبتك لها.

ولهذا قيل: إن جميع الحركات مبناها علىٰ المحبة، فالمحبة أساس العمل، فالإشراك بالمحبة إشراك باللّٰه.

والمحبة أنواع:

الأول: المحبة للّٰه: وهذه لا تنافي التوحيد، بل هي من كماله، فأوثق عرىٰ الإيمان: الحب في

---

(١) رواه البخاري عن أنس بلفظ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله. وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**». (ق).

(٢) صحيح: رواه البخاري (١٦، ٢١، ٦٩٤١)، ومسلم (٤٣).

وفي الصحيح، عن النبي ﷺ، أنه قال: «من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبدُ من دون الله، حرُم ماله ودمُه، وحسابه على الله عز وجل»[١].

وشرح هذه الترجمة وما بعدها من الأبواب فيه مسائل:

والطاعة والانقياد ظاهراً وباطناً. وهذا لا نظير له في محبة مخلوق، ولو كان المخلوق من كان. ولهذا من شرَّك بين الله تعالى وبين غيره في المحبة الخاصة، كان مُشركًا شركًا لا يغفره الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. والصحيح: أنَّ معنى الآية: أنَّ الذين آمنوا أشدُّ حبًا لله من أهل الأنداد لأندادهم؛ كما تقدم أنَّ محبة المؤمنين لربهم لا يُماثلها محبة المخلوق أصلاً، كما لا يُماثل محبوبهم غيره. وكلُّ أذىً في محبة غيره فهو نعيمٌ في محبته، وكلُّ مكروهٍ في محبة غيره فهو قرة عين في محبته. ومن ضرب بمحبته الأمثال التي في محبة المخلوق للمخلوق كالوصل، والهجر والتجني بلا سبب من المُحب، وأمثال ذلك مما يتعالى الله عنه علواً كبيراً فهو مخطئٌ أقبح الخطأ وأفحشه، وهو حقيقٌ بالإبعاد والمقت. انتهى.

قال المُصنف رحمه الله تعالى: وفي (الصحيح)، عن النبي ﷺ، أنه قال: «من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبدُ من دون الله، حرُم ماله ودمُه، وحسابه على الله عز وجل»:

قوله: (وفي الصحيح). أي: (صحيح مسلم)، عن أبي مالك الأشجعي، عن أبيه، عن النبي ﷺ، فذكره. وأبو مالك، اسمه: سعْد بن طارق، كوفيٌّ ثقة، مات في حُدود الأربعين ومائة. وأبوه طارق بن أشْيَم ـ بالمعجمة والمُثنَّاة التحتية، وزن أحمر ـ ابن مسعود الأشجعي، صحابيٌّ له أحاديث: قال مسلم: لم يرو عنه غير ابنه. وفي (مسند الإمام أحمد)، عن أبي مالك، قال: وسمعته يقول للقوم **«من وحّد الله وكفر بما يُعبد من دون الله، حَرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل»**[٢]. رواه أحمد، من طريق يزيد

ويعلم أن من تمام تفسيرها وتحقيقها البراءة من عبادة غير الله وأن اتخاذ أنداد يحبهم كحب الله أو يطيعهم كطاعة الله أو يعمل لهم كما يعمل لله، ينافي معنى لا إله إلا الله أشد المنافاة، وبين المصنف ـ رحمه الله ـ أن من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله قوله ﷺ: **«من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم**

اللّه، والبغض في اللّه. والمحبة للّه هي أن تحب هذا الشيء؛ لأن اللّه يحبه، سواء كان شخصًا أو عملاً وهذا من تمام التوحيد. قال مجنون ليلى:

أمر على الديار ديار ليلى ... أُقَبّل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حُبُّ الديار شغفن قلبي ... ولكن حُب من سكن الديارا

الثاني: المحبة الطبيعية التي لا يؤثرها المرء على محبة اللّه: فهذه لا تنافي محبة اللّه، كمحبة الزوجة، والولد والمال، ولهذا لما سئل النبي ﷺ: من أحب الناس إليك؟ قال: «عائشة»، قيل: فمن الرجال؟ قال: «أبوها»[٣]. ومن ذلك محبة الطعام والشراب واللباس.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣).

(٢) رواه أحمد في المسند (٣/ ٤٧٢)، (٦/ ٣٩٤-٣٩٥).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤)، والترمذي (٣٨٨٦).

فيه أكبر المسائل وأهمها: وهي تفسير التوحيد، وتفسير الشهادة، وبيَّنها بأمور واضحة.

منها: آية الإسراء، بيَّن فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر.

ابن هارون، قال: أنبأنا أبو مالك الأشجعي، عن أبيه. ورواه الإمام أحمد، عن عبد الله بن إدريس، قال: سمعتُ أبا مالك قال: قلتُ لأبي... الحديث. ورواية الحديث بهذا اللَّفظ: يُفسِّر لا إله إلاَّ الله.

قوله: «من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبد من دون الله»: اعلم أنَّ النبيَّ ﷺ علَّق عصمة المال والدم في هذا الحديث بأمرين:

الأول: قولُ لا إله إلا الله. عن علمٍ ويقين، كما هو مُقيَّد في قولها في غير ما حديث، كما تقدم.

والثاني: الكفر بما يُعبد من دون الله، فلم يكتف باللَّفظ المجرد عن المعنىٰ، بل لابد من قولها والعمل بها[1].

قلتُ: وفيه معنىٰ ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

- - -

ماله ودمه وحسابه على الله»، فلم يجعل مجرد التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ولا دمه حتىٰ يضيف إلىٰ ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ولا دمه.

الثالث: المحبة مع اللَّه التي تنافي محبة اللَّه، وهي أن تكون محبة غير اللَّه كمحبة اللَّه أو أكثر من محبة اللَّه، بحيث إذا تعارضت محبة اللَّه ومحبة غيره قدم محبة غير اللَّه، وذلك إذا جعل هذه المحبة ندًا للَّه يقدمها علىٰ محبة اللَّه أو يساويها بها.

الشاهد من هذه الآية: أن اللَّه جعل هؤلاء الذين ساووا محبة اللَّه بمحبة غيره مشركين جاعلين للَّه أندادًا.

قوله: «وفي الصحيح»: لم يفصح المؤلف رحمه اللَّه بمراده بالصحيح، أهو «صحيح البخاري» أم «صحيح مسلم» أم أن المراد به الحديث الصحيح، فسواء كان في «الصحيحين» معًا أم في أحدهما أم في غيرهما، فليس له اصطلاح في ذلك يحمل عليه عند الإطلاق، وعلىٰ هذا فإنه يُبحث عن الحديث في مظانه، وقد ورد هذا التعبير في سياق المؤلف للحديث في مواضع أخرىٰ، والمراد به هنا «صحيح مسلم».

قوله: «إلا اللَّه»: بدل من الضمير المستتر في الخبر، ومن يرىٰ أن «لا» تعمل في المعرفة يقولون: «اللَّه» خبر.

قوله: «وكفر بما يعبد من دون اللَّه»: أي: بعبادة من يعبد من دون اللَّه، قلنا ذلك؛ لأن عيسىٰ ابن مريم كان يعبد من دون اللَّه، ونحن نؤمن به، لكن لا نؤمن بعبادته ولا بأنه مستحق للعبادة؛ كما

---

(١) في قرة العيون: فيه دليل أنه لا يحرم ماله ودمه إلا إذا قال (لا إله إلا الله) وكفر بما يعبد من دون الله، فإن قالها ولم يكفر بما يعبد من دون الله فدمه وماله حلال لكونه لم ينكر الشرك ويكفر به، ولم ينفه كما نفته لا إله إلا الله. فتأمل هذا الموضوع فإنه عظيم النفع. (ق).

ومنها: آية براءة، بيَّن فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، وبين أنَّهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلهًا واحدًا، مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه: طاعة العلماء والعبَّاد في المعصية، لا دُعاؤهم إياهم.

....

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ .

وفي قوله: «وكفر بما يعبد من دون اللَّه» دليل على أنه لا يكفي مجرد التلفظ بـ«لا إله إلا اللَّه»، بل لا بدّ أن تكفر بعبادة من يعبد من دون اللَّه، بل وتكفر أيضًا بكل كفر، فمن يقول: «لا إله الا اللَّه»، ويرى أن النصارى واليهود اليوم على دين صحيح، فليس بمسلم، ومن يرى الأديان أفكارًا يختار منها ما يريد، فليس بمسلم، بل الأديان عقائد مرسومة من قبل اللَّه عز وجل، يتمشى الناس عليها، ولهذا يُنكر على بعض الناس في تعبيره بقوله: «الفكر الإسلامي»، بل الواجب أن يقال: الدين الإسلامي أو العقيدة الإسلامية، ولا بأس بقول «المفكر الإسلامي»؛ لأنه وصف للشخص نفسه لا للدين الذي هو عليه.

قوله: «وشرح هذه الترجمة»: المراد بالشرح: هنا التفصيل، والترجمة: هي التعبير بلغة عن لغة أخرى، ولكنها تطلق باصطلاح المؤلفين على العناوين والأبواب، فيقال: ترجم على كذا؛ أي: بوَّب له.

قوله: «فيه أكبر المسائل وأهمها، وهي تفسير التوحيد»: فتفسير التوحيد أنه لا بد فيه من أمرين:

الأول: البراءة مما سوى اللَّه ـ عز وجل ـ والكفر بغيره.

الثاني: إثبات الألوهية للَّه وحده؛ فلا بد من النفي والإثبات لتحقيق التوحيد؛ لأن التوحيد جعل الشيء واحدًا بالعقيدة والعمل، وهذا لا بد فيه من النفي والإثبات.

فإذا قلت: زيد قائم، أثبت له القيام ولم توحده، لكن إذا قلت: لا قائم إلا زيد، أثبت له القيام ووحدته به.

وأيضًا إذا قلت: اللَّه إله؛ أثبتَّ له الأُلوهية، لكن لم تنفها عن غيره؛ فالتوحيد لم يتم.

قوله: «تفسير الشهادة»: الشهادة: هي التعبير عما تيقنه الإنسان بقلبه، فقول: أشهد أن لا إله إلا اللَّه؛ أي: أنطق بلساني معبرًا عما يكنه قلبي من اليقين، وهو أنه لا إله إلا اللَّه.

قوله: «منها آية الإسراء»: وهي قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الآية [الإسراء: ٥٧]، فبين فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، وبين أن هذا هو الشرك الأكبر، لأن الدعاء من العبادة.

قال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]؛ فدل على أن الدعاء عبادة، وإلا لكان أول الكلام مناقضًا لآخره، مع أن آخر الكلام تعليل لأوله، فكل من دعا أحدًا غير اللَّه حيًّا أو ميتًا؛ فهو مشرك شركًا أكبر.

ومنها قول الخليل عليه السلام للكفار: ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فاستثنى من المعبودين ربه، وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة: هي تفسير شهادة أن لاإله إلا الله فقال: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.
ومنها: آية البقرة: في الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنَّهم يحبون الله حبًا عظيمًا، ولم يدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحبّ الند أكبر من حب الله؟! فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده، ولم يحب الله؟!

فتبين بذلك أنه لا بد من اعتقاد وجوب عبادة الله وحده لا شريك له ومن الإقرار بذلك اعتقاداً ونطقًا، ولا بد من القيام بعبودية الله وحده طاعة لله وانقياداً، ولا بد من البراءة مما ينافي ذلك عقداً وقولاً وفعلاً، ولا يتم ذلك إلا بمحبة القائمين بتوحيد الله وموالاتهم ونصرتهم، وبغض أهل الكفر والشرك ومعاداتهم.

والدعاء ينقسم إلى ثلاثة أقسام:
الأول: جائز، وهو أن تدعو مخلوقًا بأمر من الأمور التي يمكن أن يدركها بأشياء محسوسة معلومة، فهذا ليس من دعاء العبادة، بل هو من الأمور الجائزة، قال ﷺ: «وإذا دعاك فأجبه»[1].
الثاني: أن تدعو مخلوقًا مطلقًا سواء كان حيًّا أو ميتًا فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه، فهذا شرك أكبر لأنك جعلته ندًّا للَّه فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه، مثل: يا فلان، اجعل ما في بطن امرأتي ذكرًا.
الثالث: أن تدعو مخلوقًا ميتًا لا يجيب بالوسائل الحسية المعلومة، فهذا شرك أكبر أيضًا؛ لأنه لا يدعو من كان هذه حاله حتى يعتقد أن له تصرفًا خفيًا في الكون.
قوله: «ومنها آية براءة؛ بيّن فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون اللَّه»: وهذا شرك الطاعة، وهو بتوحيد الربوبية ألصق من توحيد الألوهية؛ لأن الحكم - شرعيًا كان أو كونيًا - إلى اللَّه تعالى، فهو من تمام ربوبيته، قال تعالى: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠].
والشيخ رحمه اللَّه جعل شرك الطاعة من الأكبر، وهذا فيه تفصيل، وسيأتي إن شاء الله في باب من أطاع الأمراء والعلماء في تحليل ما حرم اللَّه أو بالعكس.
قوله: ومنها قول الخليل عليه السلام للكفار: ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾، فاستثنى من المعبودين ربه: فدل هذا على أن التوحيد لا بد فيه من نفي وإثبات: البراءة مما سوى اللَّه وإخلاص العبادة للَّه وحده. وذكر

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٦٢)، وأحمد (٨٦٢٨، ٩٠٨٠).

ومنها قوله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه على الله» وهذا من أعظم ما يبيِّن معنى (لا إله إلا الله) فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا الدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بمَا يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه، فيالها من مسألة ما أعظمها وأجلها، وياله من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وهذا من أعظم ما يُبيِّن معنى: لا إله إلاَّ الله، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفةَ معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلاَّ الله وحده لا شريك له. بل لا يحرُم مالُه ودمه حتى يُضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه. فيا لها من مسألة ما أجلَّها، ويا له من بيان ما أوضحه وحجة ما أقطعها للمنازع. انتهى.

قلتُ: وهذا هو الشرط المُصحِّحُ لقول: لا إله إلا الله. فلا يصحُّ قولُها بدون هذه الخمس التي ذكرها المصنف رحمه الله تعالى أصلاً؛ قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وقال: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي تفسير شهادة أن لا إله إلا اللّه، فقال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وهي لا إله إلا اللّه. فكان معنى قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾، هو معنى قول: لا إله إلا اللّه.

قوله: ومنها: آية البقرة في الكفار الذين قال اللّه فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾: فجعل اللّه المحبة شركًا إذا أحبَّ شيئًا سوى اللّه كمحبته للّه؛ فيكون مشركًا مع اللّه في المحبة، ولهذا يجب أن تكون محبة اللّه خالصة لا يشاركه فيها أحد حتى محبة الرسول ﷺ، فلولا أنه رسول ما وجبت طاعته ولا محبته إلا كما نحب أي مؤمن، ولا يمنع الإنسان من محبة غير اللّه، بل له أن يحب كل شيء تباح محبته؛ كالولد، والزوجة، ولكن لا يجعل ذلك كمحبة اللّه.

قال المؤلف: «فكيف بمن أحب الند أكبر من حب اللّه؟! وكيف لمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب اللّه؟!»

فالأقسام أربعة:

الأول: أن يحب اللّه أشد حبًا من غيره؛ فهذا هو التوحيد.

الثاني: أن يحب غير اللّه كمحبة اللّه، وهذا شرك.

الثالث: أن يحب غير اللّه أشد حبًا من اللّه، وهذا أعظم مما قبله.

الرابع: أن يحب غير اللّه وليس في قلبه محبة للّه تعالى، وهذا أعظم وأطَمُّ.

. . . .

أمر بقتالهم حتى يتوبوا من الشرك، ويخلصوا أعمالهم لله تعالى، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة. فإن أبوا عن ذلك أو بعضه قوتلوا إجماعًا.

وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى، في تفسير قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩] فقال: قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن أحمد، وساق بسنده عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾. قال: «من شهد أنْ لا إله إلاَّ الله، وخلع الأنداد وشهد أني رسول الله» الحديث.

وفي (صحيح مسلم)، عن أبي هريرة مرفوعًا «أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أنْ لا إله إلاَّ الله، ويؤمنوا بي، وبما جئتُ به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاَّ بحقها وحسابهم على الله تعالى»(١).

وفي (الصحيحين)، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمرتُ أنْ أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابُهم على الله»(٢). وهذان الحديثان تفسيرُ الآيتين: آية الأنفال، وآية براءة. وقد أجمع العلماءُ على أنَّ من قال: لا إله إلا الله. ولم يعتقد معناها ولم يعمل بمقتضاها، أنه يقاتل حتى يعمل بما دلَّت عليه من النفي والإثبات.

قال أبو سُليمان الخطَّابي رحمه الله تعالى في قوله: «أُمِرتُ أنْ أُقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله»: معلومٌ أن المراد بهذا: أهلُ عبادة الأوثان، دون أهل الكتاب؛ لأنهم يقولون: لا إله إلا الله. ثم يُقاتَلون، ولا يُرفع عنهم السيف.

والمحبة لها أسباب ومتعلقات، وتختلف باختلاف متعلقها، كما أن الفرح يختلف باختلاف متعلقه وأسبابه، فعندما يفرح بالطرب، فليس هذا كفرحه بذكر اللّه ونحوه. حتى نوع المحبة يختلف، يحب والده ويحب ولده وبينهما فرق، ويحب اللّه ويحب ولده، ولكن بين المحبتين فرق.

فجميع الأمور الباطنة في المحبة والفرح والحزن تختلف باختلاف متعلقها.

وسيأتي إن شاء اللّه لهذا البحث مزيد تفصيل عند قول المؤلف: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾.

قوله: ومنها قول النبي ﷺ: «من قال لا إله إلا اللّه...» إلخ: إذًا؛ فلا بد من الكفر بالطاغوت والإيمان باللّه، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قوله: «وكفر بما يعبد من دون اللّه»: أي: كفر بالأصنام، وأنكر أن تكون عبادتها حقًا؛ فلا يكفي أن يقول: لا إله إلا اللّه، ولا أعبد صنماً، بل لا بد أن يقول: الأصنام التي تعبد من دون اللّه أكفر بها وبعبادتها. فمثلاً لا يكفي أن يقول: لا إله إلا اللّه ولا أعبد اللات، ولكن لا بد أن يكفر بها ويقول: إن عبادتها ليست بحق، وإلا؛ كان مقرًا بالكفر. فمن رضي دين النصارى دينًا يدينون للّه به؛ فهو كافر لأنه إذا ساوى غير دين الإسلام مع الإسلام، فقد كذب قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٢١).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢).

وقال القاضي عياض: اختصاصُ عصمة المال والنفس بمن قال: لا إله إلا الله. تعبيرٌ عن الإجابة إلى الإيمان، وأنَّ المراد بذلك: مشركو العرب، وأهل الأوثان. فأما غيرُهم ممن يقرُّ بالتوحيد، فلا يُكتفى في عصمته بقول لا إله إلاَّ الله، إذ يقولها في كفره. انتهى ملخصًا.

وقال النووي: لابُدَّ مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به الرسول ﷺ؛ كما جاء في الرواية «ويؤمنوا بي وبما جئتُ به».

وقال شيخُ الإسلام لما سُئل عن قتال التتار، فقال: كلُّ طائفة ممتنعة عن التزام شرائع الإسلام الظاهرة من هؤلاء القوم أو غيرهم فإنه يجب قتالُهم حتى يلتزموا شرائعه، وإنْ كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه؛ كما قاتل أبو بكر والصحابةُ رضي الله عنهم مانعي الزكاة. وعلى هذا اتفق الفقهاءُ بعدهم.

قال: فأيما طائفة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات، أو الصيام، أو الحج، أو عن التزام تحريم الدماء، أو الأموال، أو الخمر أو الميسر، أو نكاح ذوات المحارم، أو عن التزام جهاد الكفار، أو غير ذلك من التزام واجبات الدين ومحرَّماته التي لا عُذر لأحد في جُحودها أو تركها، التي يكفر الواحد بجحودها، فإنَّ الطائفة الممتنعة تُقاتل عليها وإنْ كانت مقرَّةً بها، وهذا مما لا أعلم فيه خلافًا بين العلماء.

قال: وهؤلاء عند المحققين ليسوا بُغاةً، بل هم خارجون عن الإسلام. انتهى.

قوله: «**وحسابه على الله**» أي: الله تبارك وتعالى هو الذي يتولَّى حسابه؛ فإنْ كان صادقًا جازاه بجنات النعيم، وإنْ كان منافقًا عذَّبه العذاب الأليم. وأمَّا في الدنيا فالحكمُ على الظاهر، فمن أتى بالتوحيد ولم يأت بما يُنافيه ظاهرًا، والتزم شرائع الإسلام، وجب الكفُّ عنه.

قلتُ: وأفاد الحديث أنّ الإنسان قد يقول: لا إله إلاَّ الله، ولا يكفر بما يُعبد من دون الله، ولم يأت بما يعصمُ دمه وماله؛ كما دلَّ على ذلك الآياتُ المحكمات والأحاديث.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وشرحُ هذه الترجمة: ما بعدها من الأبواب[1].

وبهذا يكون كافرًا، وبهذا نعرف الخطر العظيم الذي أصاب المسلمين اليوم باختلاطهم مع النصارى، النصارى يدعون إلى دينهم صباحًا ومساءً، المسلمون لا يتحركون، بل بعض المسلمين الذين ما عرفوا الإسلام حقيقة يلينون لهؤلاء: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

وهذا من المحنة التي أصابت المسلمين الآن، وآلت بهم إلى هذا الذل الذي صاروا فيه.

---

(١) في قرة العيون: فقد ذكر فيها رحمه الله تعالى ما يبين التوحيد وما ينافيه، وما يقرب منه، وما يوصل إليه من الوسائل وبيان ما كان عليه السلف من بعدهم عن الشرك في العبادة وشدة إنكارهم له وجهادهم على ذلك؛ وقد جمع هذا الكتاب على اختصاره من بيان التوحيد ما لا يعذر أحد عن معرفته وطلبه بإقبال وتدبر. وكذلك الرد على أهل الأهواء جميعهم، فمن حفظه واستحضره وجد ذلك واستغنى به عن غيره في الرد على كل مبتدع، فتدبره تجد ذلك بينًا. وسيأتي التنبيه على ذلك إن شاء الله تعالى. (ق).

فيه أكبر المسائل وأهمها: وهي تفسير التوحيد، وتفسير الشهادة: وبيَّنها بأمور واضحة.

قلتُ: وذلك أنَّ ما بعدها من الأبواب: فيه ما يبينُ التوحيد، ويوضح معنى لا إله إلا الله. وفيه أيضًا: بيانُ أشياء كثيرة من الشرك الأصغر والأكبر، وما يوصِّل إلى ذلك من الغلو والبدع، مما تركُه من مضمون: لا إله إلا الله.

فمن عرف ذلك وتحقَّقه: تبين له معنى لا إله إلاَّ الله، وما دلت عليه من الإخلاص ونفي الشرك، وبضدها تتبين الأشياء. فبمعرفة الأصغر من الشرك يُعرف ما هو أعظم منه من الشرك الأكبر المنافي للتوحيد، وأما الأصغر فإنما ينافي كماله، فمن اجتنبه فهو الموحد حقًا.

وبمعرفة وسائل الشرك ـ والنهي عنها لتُجتنب ـ تُعرف الغايات التي نُهي عن الوسائل لأجلها، فإن اجتناب ذلك كله يستلزم التوحيد والإخلاص، بل يقتضيه.

وفيها أيضًا من أدلة التوحيد: إثباتُ الصفات، وتنزيه الرب تعالى عما لا يليق بجلاله. وكل ما يعرِّف بالله من صفات كماله وأدلة ربوبيته يدلُّ على أنه هو المعبود وحده، وأن العبادة لا تصلح إلا له، وهذا هو التوحيد، ومعنى شهادة أن لا إله إلاَّ الله.

ومنها: آيةُ الإسراء بيَّنَ فيها الردَّ على المشركين الذين يَدْعون الصالحين ففيها: بيانُ أنَّ هذا هو الشركُ الأكبر.

ومنها: آية براءة، بيَّنَ فيها أنَّ أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دُون الله، وبيَّنَ أنهم لم يُؤمروا إلا بأن يعبدوا إلهًا واحدًا، مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه: طاعةُ العلماء والعبَّادِ في المعصية، لا دُعاؤهم إياهم.

ومنها: قول الخليل عليه السلام للكفار: ﴿**إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي**﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧] فاستثنى من المعبودين ربَّهُ، وذكر سبحانه أنَّ هذه البراءَة وهذه الموالاة: هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله، فقال: ﴿**وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [الزخرف: ٢٨].

ومنه: آية البقرة في الكفار الذين قال فيهم: ﴿**وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**﴾ [البقرة: ١٦٧]، ذكر أنهم يُحبُّون أندادهم كحبِّ الله [1]، فدلَّ عَلَى أنهم يحبون الله حبًّا عظيمًا ولَم يُدخلهم في الإسلام،

(١) الظاهر أن المعنى: أنهم يحبون أندادهم من جنس حب الله الذي هو حب التعظيم والذل والخضوع. لأنه ليس كل حب يكون عبادة حتى يكون فيه تعظيم وخضوع. ولذلك قال (كحب الله) ولم يقل: كحبهم لله. فهم في الوقت الذي يحبونهم أعظم الحب، يخافونهم أشد الخوف؛ معتقدين أنهم يخلفون عليهم خيرًا مما يذدرونه لهم ويذبحونه لهم من طيب مالهم ويرجون منهم المساعدة والمعونة على كشف الضر ودفع البأساء، ويحذرون =

فكيف بمن أحبَّ [1] النِّدَّ أكبر من حُبِّ الله؟ فكيف بمن لم يُحِبَّ إلا النِّدَّ وحده ؟ ولم يُحِبَّ الله؟ .

ومنها: قوله ﷺ: **«من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه عَلَى الله»**، وهذا من أعظم ما يبين معنىٰ «لا إله إلا الله» فإنه لم يجعل التلفُّظَ بها عاصمًا للدَّم والمال، بل ولا معرفة معناه مع لَفْظها، بل ولا الإقرارُ بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يَحْرُمُ ماله ودمُه حتىٰ يُضِيفَ إلىٰ ذلك الكفرَ بما يُعْبَدُ من دون الله. فإن شَكَّ أو توقَّفَ لم يَحْرُمْ ماله ودمه.

فيا لها من مسألةٍ ما أعْظَمها وأجَلَّها، ويا لَهُ من بيانٍ ما أوْضَحَهُ، وحجَّةٍ ما أقطَعَهَا للمنازع.

* * *

ولا تغني في هذا المقام الألفاظ المجردة ولا الدعاوىٰ الخالية من الحقيقة، بل لا بد أن يتطابق العلم والاعتقاد والقول والعمل، فإن هذه الأشياء متلازمة متىٰ تخلف واحد منها تخلفت البقية والله أعلم.

= انتقامهم بحرق زرعهم وإهلاك أولادهم وأنفسهم، ويروون عن سدنتهم روايات مكذوبة في تأييد دعاويهم تهويلاً عليهم وتمكينًا للضلال والشرك من أنفسهم. فهم لا يرجون لله وقارًا كما يرجون لهم ولا يخشون الله كما يخشونهم. فتجود أنفسهم بسخاء في سبيل التقرب إلى أولئك الموتى من أوليائهم بما لا تجود بعشرة في سبيل الله؛ برًّا للوالدين أو صلة للأرحام أو إطعامًا لجار بائس، أو مسكين من أهل قريته. هذا شأن عباد القبور والموتى اليوم. دقق في أحوالهم وطبقها على آيات المشركين في القرآن تجدهم زادوا على مشركي الجاهلية الأولى. والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله. (ق)

(١) إن من تحقق محبة مشركي زماننا لآلهتهم التي يسمونها بالأولياء يعلم يقينًا أنهم يحبونها أكثر من محبتهم لله ويتصدقون لوجوهها بما لا يقدرون أن يتصدقوا بعشره لوجه الله. (ق)

٦ ـ بـاب
من الشرك: لبس الحلقة والخيط ونحوهما؛ لرفع البلاء أو دفعه

وقولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ من دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ﴾

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابٌ من الشرك: لبسُ الحلقة والخيط ونحوهما؛ لرفع البلاء أو دفعه.
رفْعه: إزالتُه بعد نزوله، ودفعُه: منعُه قبل نزوله.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تـعالى: وقولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ من دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]:

قال ابنُ كثير: أي: لا تستطيعُ شيئًا من الأمر.
﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: الله كافي من توكَّل عليه ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ كما قال هودٌ عليه السلام، حين قال له قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

قال مُقاتل في معنىٰ الآية: فسألهم النبيُّ فسكتوا. أي: لأنهم لا يعتقدون ذلك فيها [١].

باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

وهذا الباب يتوقف فهمه علىٰ معرفة أحكام الأسباب، وتفصيل القول فيها أنه يجب علىٰ العبد أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور: أحدها: أن لا يجعل منها سببًا إلا ما ثبت أنه سبب شرعًا أو قدرًا.

قوله: «من الشرك»: من هنا للتبعيض؛ أي: أن هذا بعض الشرك، وليس كل الشرك، والشرك: اسم جنس يشمل الأصغر والأكبر، ولبس هذه الأشياء قد يكون أصغر وقد يكون أكبر بحسب اعتقاد لابسها، وكان لبس هذه الأشياء من الشرك؛ لأن من أثبت سببًا لم يجعله اللَّه سببًا شرعيًا ولا قدريًا؛ فقد جعل نفسه شريكًا مع اللَّه.

---

(١) في قرة العيون: فإذا كان آلهتهم التي يدعون من دون الله لا قدرة لها على كشف ضر أراده الله بعبده؛ أو إمساك رحمة أنزلها عـلى عبده فيلزمهم بذلك أن يكون الله تعالى هو مـعبودهم وحده لزومًا لا محـيد لهم عنه. وذكر تعالى مثل هذا السؤال عن خليله إبراهيم لمن حاجه في الله فقال: ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فأقام الله تعالى الحجة على المشركين بما يبطل شـركهم بالله وتسويتهم غيـره به في العبادة بضرب الأمـثال وغير ذلك، وهذا في القرآن كـثير كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣] وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١] وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١]. ذكر العماد ابن كثير رحمه الله =

بضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

وإنَّما كانوا يدْعونها: على معنى أنها وسائط وشفعاء عند الله، لا أنهم يكشفون الضُّرَّ ويجيبون دعاء المضطر. فهم يعلمون أنَّ ذلك لله وحده، وكما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٥٣، ٥٤].

قلتُ: فهذه الآيةُ وأمثالُها: تبطل تعلُّقَ القلب بغير الله، في جلب نفع أو دفع ضر، وأنَّ ذلك شركٌ بالله.

وفي الآية: بيانُ أنَّ الله تعالى وَسَمَ أهلَ الشرك بدعوة غير الله، والرغبة إليه من دون الله. والتوحيدُ ضدُّ ذلك، وهو: أن لا يدعو إلاَّ الله، ولا يرغب إلاَّ إليه، ولا يتوكل إلاَّ عليه. وكذا جميعُ أنواع العبادة لا يصلُح منها شيءٌ لغير الله؛ كما دلَّ على ذلك الكتابُ والسنة، وإجماعُ سلف الأمة وأئمتها، كما تقدمَّ.

فمثلاً: قراءة الفاتحة سبب شرعي للشفاء. وأكل المسهل سبب حسي لانطلاق البطن، وهو قدري؛ لأنه يُعلم بالتجارب. والناس في الأسباب طرفان ووسط:

الأول: من ينكر الأسباب، وهم كل من قال بنفي حكمة اللَّه؛ كالجبرية، والأشعرية.

الثاني: من يغلو في إثبات الأسباب حتى يجعلوا ما ليس بسبب سببًا، وهؤلاء هم عامة الخرافيين من الصوفية ونحوهم.

الثالث: من يؤمن بالأسباب وتأثيراتها، ولكنهم لا يثبتون من الأسباب إلا ما أثبته اللَّه سبحانه ورسوله، سواء كان سببًا شرعيًا أو كونيًا. ولا شك أن هؤلاء هم الذين آمنوا باللَّه إيمانًا حقيقيًا، وآمنوا بحكمته؛ حيث ربطوا الأسباب بمسبباتها، والعلل بمعلولاتها، وهذا من تمام الحكمة.

ولبس الحلقة ونحوها إن اعتقد لابسها أنها مؤثرة بنفسها دون اللَّه؛ فهو مشرك شركًا أكبر في توحيد الربوبية؛ لأنه اعتقد أن مع اللَّه خالقًا غيره. وإن اعتقد أنها سبب، ولكنه ليس مؤثرًا بنفسه؛ فهو مشرك شركًا أصغر لأنه لما اعتقد أن ما ليس بسبب سببًا؛ فقد شارك اللَّه تعالى في الحكم لهذا الشيء بأنه سبب، واللَّه تعالى لم يجعله سببًا.

وطريق العلم بأن الشيء سبب: إما عن طريق الشرع، وذلك كالعسل: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩]. وكقراءة القرآن فيها شفاء للناس، قال اللَّه تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]. وإما عن طريق القدر؛ كما إذا جربنا هذا الشيء فوجدناه نافعًا في هذا الألم أو المرض، ولكن لا بد أن يكون أثره ظاهرًا مباشرًا كما لو اكتوى بالنار فبرئ بذلك مثلاً؛ فهذا سبب ظاهر بين، وإنما قلنا هذا لئلا يقول قائل: أنا

= تعالى في هذه الآية ما رواه ابن أبي حاتم عن قيس بن الحجاج عن حنش الصنعاني عن ابن عباس مرفوعًا «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله؛ وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك؛ ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، جفت الصحف ورفعت الأقلام؛ واعمل لله بالشكر في اليقين؛ واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا». (ق).

. . . .

. . . .

جربت هذا وانتفعت به، وهو لم يكن مباشرًا؛ كالحلقة، فقد يلبسها إنسان وهو يعتقد أنها نافعة، فينتفع لأن للانفعال النفسي للشيء أثرًا بينًا؛ فقد يقرأ إنسان على مريض فلا يرتاح له، ثم يأتي آخر يعتقد أن قراءته نافعة، فيقرأ عليه الآية نفسها فيرتاح له ويشعر بخفة الألم، كذلك الذين يلبسون الحلق ويربطون الخيوط، قد يحسون بخفة الألم أو اندفاعه أو ارتفاعه بناء على اعتقادهم نفعها. وخفة الألم لمن اعتقد نفع تلك الحلقة مجرد شعور نفسي، والشعور النفسي ليس طريقًا شرعيًا لإثبات الأسباب، كما أن الإلهام ليس سببًا للشرع.

قوله: « **لبس الحلقة والخيط** »: **الحلقة**: من حديد أو ذهب أو فضة أو ما أشبه ذلك.

والخيط: معروف.

قوله: « **ونحوهما** »: كالمرصَّعات، وكمن يصنع شكلاً معينًا من نحاس أو غيره لدفع البلاء، أو يعلق على نفسه شيئًا من أجزاء الحيوانات، والناس كانوا يعلقون القرب البالية على السيارات ونحوها لدفع العين، حتى إذا رآها الشخص نفرت فلا يعين.

قوله: «**لرفع البلاء، أو دفعه**»: الفرق بينهما: أن الرفع بعد نزول البلاء، والدفع قبل نزول البلاء.

وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب لا ينكر السبب الصحيح للرفع أو الدفع، وإنما السبب غير الصحيح.

قوله: ﴿**أَفَرَأَيْتُم**﴾: أي: أخبروني، وهذا تفسير باللازم؛ لأن من رأى أخبر، وإلا؛ فهي استفهام عن رؤية، قال تعالى: ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ**﴾ [الماعون: ١]؛ أي: أخبرني ما حال من كذب بالدين؟ وهي تنصب مفعولين: الأول مفرد، والثاني جملة استفهامية.

قوله: ﴿**ما**﴾: المفعول الأول لرأيتم، والمفعول الثاني جملة: « إن أرداني اللَّه بضر ».

قوله: ﴿**تَدْعُونَ**﴾: المراد بالدعاء دعاء العبادة ودعاء المسألة؛ فهم يدعون هذه الأصنام دعاء عبادة، فيتعبدون لها بالنذر والذبح والركوع والسجود، ويدعونها دعاء مسألة لدفع الضرر أو جلب النفع.

فاللَّه سبحانه إذا أراد بعبده ضرًا لا تستطيع الأصنام أن تكشفه، وإن أراده برحمة لا تستطيع أن تمسك الرحمة عنه؛ فهي لا تكشف الضر ولا تمنع النفع؛ فلماذا تُعبد؟!

قوله: ﴿**كَاشِفَاتُ**﴾: يشمل الدفع والرفع؛ فهي لا تكشف الضر بدفعه وإبعاده، ولا تكشفه برفعه وإزالته.

قوله: ﴿**قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ**﴾: أي: كافيني، والحسب: الكفاية. ومنه قوله تعالى: ﴿**جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا**﴾ [النبأ: ٣٦] من الحسب، وهو الكفاية، وحسبي: مبتدأ، واللَّه: خبر، وهذا أبلغ.

وقيل العكس، والراجح الأول؛ لوجهين:

الأول: أن الأصل عدم التقديم والتأخير.

الثاني: أن قولك: حسبي اللَّه فيه حصر الحسب في اللَّه؛ فهو كقولك: لا حسب لي إلا اللَّه، بخلاف قولك: اللَّه حسبي؛ فليس فيه الحصر المذكور؛ فهو كقولك: اللَّه حسبي أنا فقط.

قوله: ﴿**عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾: قدم الجار والمجرور لإفادة الحصر؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر. والمعنى أن المتوكل حقيقة هو المتوكل على اللَّه، أما الذي يتوكل على الأصنام والأولياء

عن عمران بن حُصَين رضي الله عنه، أنَّ النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حَلْقة من صُفْـر، فقـال: «ما هذه؟» قال: من الواهنـة. فقال: «انزَعـها؛ فإنَّـها لا تَزيدُك إلاَّ وهنًا؛ فإنك لو مِتّ وهي عليك ما أفلحتَ أبدًا»[(١)] رواه أحمدُ، بسند لا بأس به.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: عن عمران بن حُصَين رضي الله عنه، أنَّ النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حَلْقة من صُفْر، فقـال: «ما هذه؟» قال: من الواهنة. فقـال: «انزَعها؛ فـإنَّها لا تَزيدُك إلاَّ وهنًا؛ فإنك لو مِتّ وهي عليك ما أفلحت أبدًا» رواه أحمَدُ، بسند لا بأس به.

والأضرحة؛ فليس بمتوكل على اللّه تعالى. وهذا لا ينافي أن يوكل الإنسان إنسانًا في شيء ويعتمد عليه؛ لأن هناك فرقًا بين التوكل على الإنسان الذي يفعل لك شيئًا بأمرك، وبين توكلك على اللّه؛ لأن توكلك على اللّه اعتقادك أن بيده النفع والضر، وأنك متذلل، معتمد عليه مفتقر إليه، مفوض أمرك إليه.

والشاهد من هذه الآية: أن هذه الأصنام لا تنفع أصحابها؛ لا بجلب نفع ولا بدفع ضر، فليست أسبابًا لذلك، فيقاس عليها كل ما ليس بسبب شرعي أو قدري؛ فيعتبر اتخاذه سببًا إشراكًا باللّه.

وهذا يدل على حذق المؤلف رحمه اللّه وقوة استنباطه، وإلا؛ فالآية ـ بلا شك ـ في الشرك الأكبر الذي تعبد فيه الأصنام، ولكن القياس واضح جدًا؛ لأن هذه الأصنام ليست أسبابًا تنفع، فيقاس عليها كل ما ليس بسبب، فيعتبر إشراكًا باللّه.

وهناك شاهد آخر في قوله: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾؛ فإن فيه تفويض الكفاية إلى اللّه دون الأسباب الوهمية، وأما الأسباب الحقيقية؛ فلا ينافي تعاطيها توكل العبد على اللّه تعالى وتفويض الأمر إليه؛ لأنها من عنده.

قوله: «رأى رجلاً»: لم يبين اسمه؛ لأن المهم بيان القضية وحكمها، لكن ورد ما يدل على أنه عمران نفسه لكنه أبهم نفسه، الحلقة والصفر معروفان، وأما الواهنة؛ فوجع في الذراع أو العضد.

قوله: «ما أفلحت»: الفلاح هو النجاة من المرهوب وحصول المطلوب.

هذا الحديث مناسب للباب مناسبة تامة؛ لأن هذا الرجل لبس حلقة من صفر؛ إما لدفع البلاء أو لرفعه. والظاهر أنه لرفعه؛ لقوله: «**لا تزيدك إلا وهنًا**»، والزيادة تكون مبنية على أصل.

ففي هذا الحديث دليل على عدة فوائد:

١ ـ أنه ينبغي لمن أراد إنكار المنكر أن يسأل أولاً عن الحال؛ لأنه قد يظن ما ليس بمنكر منكرًا، ودليله أن الرسول ﷺ قال: «**ما هذه؟**».

والاستفهام هنا للاستعلام فيما يظهر وليس للإنكار، وقول الرجل: «من الواهنة»: من للسببية؛ أي: لبستها بسبب الوهانة، وهي مرض يوهن الإنسان ويضعفه، قد يكون في الجسم كله وقد يكون في بعض الأعضاء كما سبق.

٢ ـ وجوب إزالة المنكر؛ لقوله: «**انزعها**»، فأمره بنزعها؛ لأن لبسها منكر، وأيد ذلك بقوله:

---

(١) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (١٠٢٩) وغاية المرام (١٨١).

. . . .

قال الإمامُ أحمد: حدَّثنا خلفُ بن الوليد، حدَّثنا المباركُ، عن الحسن، قال: أخبرني عمران بن حُصين: أنَّ النبي ﷺ أبصر على عَضُد رجل حلْقة قال: أراه من صُفْر، فقال: «ويحك، ما هذه؟» قال: من الواهنة. قال: «أما إنها لا تزيدك إلاَّ وهنًا. انبذها عنك، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا» ورواه ابنُ حبَّان في (صحيحه)، فقال: «فإنَّك إنْ مت وُكلت إليها»[1]، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد. وأقرَّه الذهبي.

وقال الحاكم: أكثرُ مشايخنا على أنَّ الحسن سمع من عمران. وقوله في الإسناد: أخبرني عمران. يدلُّ على ذلك.

قوله: (عن عمران بن حُصين). أي: ابن عُبيد بن خَلَف الخُزاعي، أبو نُجَيْد ـ بنونٍ وجيم مصغَّر ـ صحابيٌّ، ابنُ صَحابي. أسلم عام خيبر. ومات سنة اثنتين وخمسين، بالبصرة.

قوله: (رأى رجلاً). في رواية الحاكم: دخلتُ على رسول الله ﷺ، وفي عضُدي حلْقة صُفر، فقال: «ما هذه؟» يُحتمل أنَّ الاستفهام للاستفصال عن سبب لُبسها، ويحتمل أنْ يكون للإنكار، وهو أظهر.

قوله: من (الواهنة). قال أبو السَّعادات[2]: الواهِنةُ: عِرقٌ يأخُذ في المنكِب، وفي اليد كلِّها،

«إنها لا تزيدك إلا وهنًا»؛ أي: وهنًا في النفس لا في الجسم، وربما تزيده وهنًا في الجسم، أما وهن النفس؛ فلأن الإنسان إذا تعلقت نفسه بهذه الأمور ضعفت واعتمدت عليها ونسيت الاعتماد على الله ـ عز وجل ـ والانفعال النفسي له أثر كبير في إضعاف الإنسان؛ فأحيانًا يتوهم الصحيح أنه مريض فيمرض، وأحيانًا يتناسى الإنسان المرض وهو مريض فيصبح صحيحًا؛ فانفعال النفس بالشيء له أثر بالغ، ولهذا تجد بعض الذين يصابون بالأمراض النفسية يكون أصل إصابتهم ضعف النفس من أول الأمر، حتى يظن الإنسان أنه مريض بكذا أو كذا؛ فيزداد عليه الوهن حتى يصبح الموهوم حقيقة.

فهذا الذي لبس الحلقة من الواهنة لا تزيده إلا وهنًا؛ لأنه سوف يعتقد أنها ما دامت عليه فهو سالم، فإذا نزعها عاد إليه الوهن، وهذا بلا شك ضعف في النفس.

٣ ـ أن الأسباب التي لا أثر لها بمقتضى الشرع أو العادة أو التجربة لا ينتفع بها الإنسان.

٤ ـ أن لبس الحلقة وشبهها لدفع البلاء أو رفعه من الشرك؛ لقوله: «لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا»، وانتفاء الفلاح دليل على الخيبة والخسران.

ولكن هل هذا شرك أكبر أو أصغر؟

سبق لنا عند الترجمة أنه يختلف بحسب اعتقاد صاحبه.

٥ ـ أن الأعمال بالخواتيم؛ لقوله: «لو مت وهي عليك»؛ فعرف أنه لو أقلع عنها قبل الموت لم تضره لأن الإنسان إذا تاب قبل أن يموت صار كمن لا ذنب له.

قوله: «فلا أتم اللَّه له»: الجملة خبرية بمعنى الدعاء، ويحتمل أن تكون خبرية محضة، وكلا الاحتمالين دال على أن التميمة محرمة، سواء نفى الرسول ﷺ أن يتم اللَّه له أو دعا بأن لا يتم اللَّه

---

(١) انظر التخريج السابق.

(٢) هو ابن الأثير، ولد سنة ٥٤٤ وتوفي سنة ٦٠٦هـ، له عدة تآليف. منها النهاية في غريب الحديث. (ق).

وله عن عُقْبَةَ بن عامر، مرفوعًا: «من تعلَّق تميمةً فلا أتمَّ الله له، ومنَ تعلَّق وَدْعةً فـلا ودَع الله له»[١] وفي رواية: «مَن تعلقَّ تميـمةً فـقد أشـرك»[٢][٣].

فُيرقىٰ منها. و قيل: هو مرضٌ يأخذ في العضدُ، وهي تأخذ الرجالَ دون النساء[٤]؛ وإنَّما نُهي عنها: لأنه إنما اتخذها علىٰ أنها تعصمُه من الألم، وفيه: اعتبارُ المقاصد[٥].

قوله: «انزعهـا؛ فإنَّها لا تزيدُك إلاَّ وهَـنًا» النزع: هو الجذبُ بقوة. أخبر أنَّها لا تنفعه، بل تضره، وتزيده ضعفًا. وكذلك كلُّ أمر نُهي عنه: فإنه لا ينفع غالبًا، وإنْ نفع بعضه فضرُّه أكبرُ من نفعه.

قوله: «فإنَّك لو متَّ وهي عليك ما أفلحت أبدًا»؛ لأنه شرك. والفلاح: هو الفوزُ والظفر والسعادة.

قال المُصنِّف رحمه الله تعـالىٰ: وله عن عُقْبَةَ بن عامر، مرفوعًـا: «من تعلَّق تميمةً فلا أتمَّ الله له، ومنَ تعلَّق وَدْعةً فلا ودَع الله له» وفي رواية: «مَن تعلقَّ تميمةً فقد أشرك».

ثانيها: أن لا يعتمد العبد عليها بل يعتمد علىٰ مسببها ومقدرها مع قيامه بالمشروع منها وحرصه علىٰ النافع منها.

ثالثها: أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره لا خروج لها عنه، والله تعالىٰ يتصرف فيها كيف يشاء: إن شاء أبقىٰ سببيتها جارية علىٰ مقتضىٰ حكمته؛ ليقوم بها العباد ويعرفوا بذلك تمام حكمته حيث ربط المسببات بأسبابها والمعلولات بعللها، وإن شاء غيرها

له؛ فإن كان الرسول ﷺ أراد به الخبر؛ فإننا نخبر بما أخبر به النبي ﷺ، وإلا: فإننا ندعو بما دعا به

---

(١) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (١٢٦٦).

(٢) في قرة العيون: وهذا الحديث فيه التصريح بأن تعليق التمائم شرك لما يقصده من علقها لدفع ما يضره أو جلب ما ينفعه؛ وهذا أيضًا ينافي كمال الإخلاص الذي هو معنى لا إله إلا الله لأن المخلص لا يلتفت قلبه لطلب نفع أو دفع ضر من سوى الله كما تقدم في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥] فكمال التوحيد لا يحصل إلا بترك ذلك وإن كان من الشرك الأصغر فهو عظيم، فإذا كان قد خفى على بعض الصحابة ﷺ في عهد النبوة فكيف لا يخفى على من هو دونهم في العلم والإيمان بمراتب بعد ما حدث من البدع والشرك؟ كما في الأحاديث الصحيحة وتقدمت الإشارة إلى ذلك. وهذا مما يبين معنى لا إله إلا الله أيضًا فإنها نفت كل الشرك قليله وكثيره كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]. (ق).

(٣) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٤٩٢).

(٤) ومن هذا الباب: ما يفعله الجاهليون اليوم من إلباس أولادهم خلاخيل الحديد وغيره يعتقدون أن ذلك يحفظهم من الموت الذي أخذ إخوتهم الذين ماتوا قبلهم. ومنه لبس حلقة الفضة للبركة أو لمنع البواسير، ولبس خواتيم لها فصوص مخصوصة للحفظ من الجن، وغيرها. (ق).

(٥) في قرة العيون: وإنما نهاه عنها لكونه أنها تمنع عنه هذا الداء أو ترفعه، فأمره ﷺ بنزعها لذلك وأخبر أنها لا تزيده إلا وهنًا؛ فإن المشرك يعامل بنقيض قصده لأنه علق قلبه بما لا ينفعه ولا يدفع عنه، فإذا كان هذا بحلقة صفر فما الظن بما هو أطم وأعظم؟ كما وقع من عبادة القبور والمشاهد وغيرها كما لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل. (ق).

ولابن أبي حاتم، عن حُذيفة: أنه رأى رجلاً في يده خَيطٌ من الحُمّى، فقطعه وتلا قولـه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

الحديثُ الأوَّل: رواه الإمامُ أحمد، كما قال المصنف، ورواه أبو يعلى، والحاكم، وقال: صحيحُ الإسناد، وأقرَّه الذهبي.

قوله: (وفي رواية). أي: من حديث آخر، رواه أحمد، فقال: حدَّثنا عبدُ الصَّمد بن عبدالوارث، حدَّثنا عبد العزيز بن مسلم، حدَّثنا يزيد بن أبي منصور، عن دُخين الحَجْري، عن عُقبة ابن عامر الجهني، أنَّ رسول الله ﷺ أقبل إليه رهط، فبايع تسعةً وأمسك عن واحد، فقالوا: يا رسول الله، بايعت تسعة وأمسكت عن هذا؟ فقال: «إنَّ عليه تميمة»، فأدخل يده فقطعها. فبايعه، وقال: «من تعلَّق تميمة فقد أشرك» ورواه الحاكم بنحوه، ورواته ثقات.

قوله: (عن عُقبة بن عامر). صحابيٌّ مشهور، فقيهٌ فاضل. وليَ إمرة مصر لمعاوية ثلاث سنين، ومات قريبًا من الستين.

قوله: «من تعلَّق تميمة» أي: علَّقها متعلِّقًا بها قلبُه، في طلب خير أو دفع شر.

قال المُنذري: خرزةٌ كانوا يُعلِّقونها، يرون أنَّها تدفع عنهم الآفات. وهذا جهلٌ وضلالة؛ إذ لا مانع، ولا دافع غير الله تعالى.

وقال أبو السعادات: التمائمُ: جمعُ تميمة، وهي خَرَزاتٌ كانت العربُ تعلِّقها على أولادهم؛ يتَّقون بها العين في زعمهم فأبطله الإسلام.

قوله: «فلا أتمَّ الله له» دعاءٌ عليه.

قوله: «ومن تعلَّق وَدْعَة» بفتح الواو وسكون المهملة. قال في (مُسند الفردوس): الوَدْع: شيءٌ يخرج من البحر شبه الصَّدف، يتَّقون به العين.

قوله: «فلا ودَع الله له» بتخفيف الدال. أي: لا جعله في دعَةٍ وسكون.

كيف يشاء لئلا يعتمد عليها العباد وليعلموا كمال قدرته وأن التصرف المطلق والإرادة المطلقة لله وحده. فهذا هو الواجب على العبد في نظره وعمله بجميع الأسباب.

الرسول ﷺ. ومثل ذلك قوله ﷺ: «ومن تعلق ودعة؛ فلا ودع اللَّه له».

والودعة: واحدة الودع، وهي أحجار تؤخذ من البحر يعلقونها لدفع العين، ويزعمون أن الإنسان إذا علق هذه الودعة لم تصبه العين، أو لا يصيبه الجن.

قوله: «لا ودع اللَّه له»: أي: لا تركه اللَّه في دعة وسكون، وضد الدعة والسكون القلق والألم. وقيل: لا ترك اللَّه له خيراً؛ فعومل بنقيض قصده.

وقوله: «فقد أشرك»: هذا الشرك يكون أكبر إن اعتقد أنها ترفع أو تدفع بذاتها دون أمر الله، وإلا فهو أصغر.

. . . .

قال أبو السعادات: وهذا دعاء عليه.

قوله: وفي رواية: «من تعلَّق تميمة فقد أشرك» قال أبو السعادات: إنَّما جعلها شركًا؛ لأنهم أرادوا دفعَ المقادير المكتوبة عليه، وطلبوا دفع الأذىٰ من غير الله الذي هو دافعهُ.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولابن أبي حاتم، عن حُذيفة: أنه رأى رجلاً في يده خَيطٌ من الحُمّى، فقطعه وتلا قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف: ١٠٦].

قال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن الحُسين بن إبراهيم بن إشكاب، حدَّثنا يونس بن محمد، حدثنا حمَّاد بن سلمة، عن عاصم الأحول، عن عُروة، قال: دخل حُذيفةُ على مريض، فرأىٰ في عضُده سيراً، فقطعه أو انتزعه، ثم قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

وابن أبي حاتم: هو الإمامُ أبو محمد، عبد الرحمن بن أبي حاتم، محمَّد بن إدريس الرازي، التميمي، الحنظلي، الحافظ، صاحبُ (الجرح والتعديل)، (والتفسير)، وغيرهما. مات سنة سبع وعشرين وثلاثمائة. وحُذيفة: هو ابن اليمان. واسم اليمان: حُسيل بمهملتين مصغَّرًا ويقال: حِسْلُ بكسر ثم سكون العبسي بالموحَّدة حليف الأنصار، صحابيٌّ جليل من السابقين، ويقال له: صاحبُ السِّر [1]، وأبوه أيضًا صحابي. مات حُذيفة في أوّل خلافة عليّ، سنة ستٍّ وثلاثين.

قوله: (رأى رجلاً في يده خيط من الحمَّى) أي: عن الحُمَّىٰ. وكان الجهال يعلِّقون التمائم والخُيوط ونحوهما لدفع الحمَّىٰ [2].

وقوله: «من الحمى» من هنا للسببية؛ أي: خيط لبسه من أجل الحمىٰ لتبرد عليه.

قوله: «فقطعه» أي: قطع الخيط، وفعله هذا من تغيير المنكر باليد، وهذا يدل علىٰ غيرة السلف الصالح وقوتهم في تغيير المنكر باليد وغيرها.

وقوله: وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

---

(١) لأن النبي ﷺ استصحبه في عودته من غزوة تبوك حين أخذ في طريق العقبة التي كان المنافقون كمنوا عندها لينفروا راحلة رسول الله ﷺ ليقع عنها فيموت. فأطلعه الله على ما بيتوا وأعلمه بأسمائهم. فأعلم رسول الله ﷺ حذيفة بأسمائهم إذ ناداهم بأسمائهم حين حاذاهم. ثم استكتم حذيفة أسماءهم اتقاء الفتنة. ولم يكن عند حذيفة سر في الدين، كما يدعي الضالون من الصوفية. لأن الإسلام علانية لا سر فيه؛ وإنما الأسرار في النصرانية وكنائسها وقسسها ورهبانيتها. (ق)

(٢) ولا يزال هذا معتقدًا عند أهل الجاهلية الثانية. يتخذون خيوطًا يعقدونها بأيدي من اسمه محمد، وبعض ذلك يعملونه يوم الجمعة، وبعض ذلك يعملونه على مقاس باب الكعبة ثم يعقدونه أربعين عقدة ممن أسماؤهم محمد، ويقرأون عند كل عقدة قل هو الله أحد. ويزعمون أن هذا الخيط نافع من العقم؛ فلا تلبسه عقيم في زعمهم إلا وتحمل. وهذا من أعظم الانحطاط إلى أحط دركات البكم والصم والعمى، بل إلى البهيمية أن يعتقد في خيوط. ومثله اتخاذ سبع من أنواع الحبوب تعلق في كيس مع سرة الطفل وأشباه ذلك كثير فاش فيمن يتسمون بأسماء إسلامية. وهم من أجهل المشركين للشرك الأكبر. ولا حول ولا قوة إلا بالله. (ق)

. . . .

وروى وكيع، عن حُذيفة: أنه دخل على مريض يعوده، فلمس عضُده، فإذا فيه خيط، فقال: ما هذا؟ قال: شيء رُقي لي فيه، فقطعه، وقال: لو متَّ وهو عليك ما صلَّيتُ عليك (١).

وفيه: إنكارُ مثل هذا، وإنْ كان يعتقد أنه سبب: فالأسباب لا يجوز منها إلاَّ ما أباحه الله تعالى ورسوله، مع عدم الاعتماد عليها. وأمَّا التمائم والخيوط والحروز والطلاسم ونحو ذلك مما يعلِّقه الجهال: فهو شركٌ، يجب إنكاره وإزالته بالقول والفعل، وإن لم يأذن فيه صاحبه.

قوله: وتلا قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾. استدل حذيفة رضي الله عنه بالآية أنَّ هذا شرك (٢).

ففيه: صحةُ الاستدلال على الشرك الأصغر بما أنزله الله في الشرك الأكبر؛ لشمول الآية، ودخوله في مسمَّى الشرك. وتقدَّم معنى هذه الآية عن ابن عباس، وغيره، والله أعلم.

وفي هذه الآثار عن الصحابة: ما يبيِّنُ كمالَ علمهم بالتوحيد وما ينافيه، أو ينافي كماله.

قال المصنفُ رحمه الله تعالى: فيه شاهدٌ لكلام الصحابة: أنَّ الشرك الأصغر أكبرُ من

وقوله: ﴿وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾: في محل نصب على الحال؛ أي: وهم متلبسون بالشرك، وفي هذا دليل على أن هذا الرجل مؤمن، وأن هذا الخيط الذي لبسه فيه نوع من الشرك وفيه دليل على أن الإنسان قد يجتمع فيه إيمان وشرك، ولكن ليس الشرك الأكبر؛ لأن الشرك الأكبر لا يجتمع مع الإيمان، ولكن المراد هنا الشرك الأصغر، وهذا أمر معلوم.

قوله: «فيه مسائل»: أي في هذا الباب مسائل.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣٥) وإسناده لا بأس به.

(٢) في قرة العيون: فإذا كان يقع مثل ذلك في تلك القرون المفضلة فكيف يؤمن أن يقع ما هو أعظم منه؟ لكن لغلبة الجهل له وقع منهم أعظم مما وقع من مشركي العرب وغيرهم في الجاهلية مما قد تقدم التنبيه عليه، حتى إن كثيراً من العلماء في هذه القرون اشتد نكيرهم على من أنكر الشرك الأكبر فصاروا هم والصحابة ﷺ على طرفي نقيض، فالصحابة ينكرون القليل من الشرك؛ وهؤلاء ينكرون على من أنكر الشرك الأكبر ويجعلون النهي عن هذا الشرك بدعة وضلالة؛ وكذلك كانت حال الأمم مع الأنبياء والرسل جميعهم فيما بعثوا به من توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له وحده، والنهي عن الشرك به؛ وقد بعث الله تعالى خاتم رسله محمداً ﷺ بذلك كما بعث به من قبله، فعكس هؤلاء المتأخرون ما دعا إليه رسول الله ﷺ مشركي العرب وغيرهم، فنصر هؤلاء ما نهى عنه من الشرك غاية النصرة؛ وأنكروا التوحيد الذي بعث به غاية الإنكار، فإنه ﷺ لما قال لقريش: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» عرفوا معناها الذي وضعت له وما أريد منها فقالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] الآية. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥] وفي صحيح البخاري وغيره في سؤال هرقل لأبي سفيان عن النبي ﷺ قال له: «فماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة». (ق).

وفيه مسائل:

الأولى: التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك.

الثانية: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح. فيه شاهد لكلام الصحابة: الشرك الأصغر أكبر من الكبائر.

الثالثة: أنه لم يعذر بالجهالة.

الكبائر، وأنه لم يُعذر بالجهالة. وفيه: الإنكارُ بالتغليظ على من فعل مثل ذلك.

قوله: (رواه أحمدُ بسند لا بأس به): هو الإمام أحمد بن محمد بن حَنْبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حَيَّان بنَ عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذُهَلْ ابن ثعلبة ابن عُكَابَة بن صَعْب بن علي بن بكْر بن وائل بن قاسط بن هِنْب بن أفْصَىَ بن دُعْميّ بن جَديلة بن أسد بن

إذا علم ذلك فمن لبس الحلقة أو الخيط ونحوهما قاصداً بذلك رفع البلاء بعد نزوله، أو دفعه قبل نزوله، فقد أشرك؛ لأنه إن اعتقد أنها هي الدافعة الرافعة فهذا الشرك الأكبر وهو شرك في الربوبية، حيث اعتقد شريكًا مع الله في الخلق والتدبير، وشرك في العبودية حيث تأله لذلك وعلق به قلبه طمعًا ورجاء لنفعه وإن اعتقد أن الله هو الدافع الرافع وحده ولكن اعتقدها سببًا يستدفع بها البلاء فقد جعل ما ليس سببًا شرعيًّا ولا قدريًّا سببًا وهذا محرم وكذب على الشرع وعلى القدر: أما الشرع فإنه ينهى عن ذلك أشد النهي وما نهى عنه فليس من الأسباب النافعة، وأما القدر فليس هذا من الأسباب المعهودة ولا غير المعهودة التي يحصل بها المقصود ولا من الأدوية المباحة النافعة.

الأولى: التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك:

لقوله ﷺ: «**انزعها ـ لا تزيدك إلا وهنًا ـ لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا**»، وهذا تغليظ عظيم في لبس هذه الأشياء والتعلق بها.

الثانية: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح: هذا هو الصحابي؛ فكيف بمن دون الصحابي؟! فهو أبعد عن الفلاح.

قال المؤلف: «فيه شاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر»:

قوله: «**لكلام الصحابة**»؛ أي: لقولهم، وهو كذلك؛ فالشرك الأصغر أكبر من الكبائر؛ قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقًا»[1]، وذلك لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكبيرة؛ لأن الشرك لا يغفر ولو كان أصغر، بخلاف الكبائر؛ فإنها تحت المشيئة.

---

(١) صحيح موقوف: رواه الطبراني في الكبير (٩/ ١٨٣)، وعبد الرزاق في مصنفه (٨/ ٤٦٩)، وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ١٧٧): رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح، والحديث صححه العلامة الألباني رحمه الله في الإرواء (٢٥٦٢)، وصحيح الترغيب والترهيب (٢٩٥٣)، وقال: صحيح موقوف.

الرابعة: أَنَّهَا لا تنفع في العاجلة بل تضر، لقوله: «لا تزيدك إلا وهنًا».

ربيعة بن بِزار بن مَعَدّ بن عدنان. الإمام العالم، أبو عبد الله، الذُّهلي، ثم الشيباني المُرْوزِي، ثم البغدادي. إمامُ أهل عصره، وأعلمُهم بالفقه والحديث، وأشدُّهم ورعًا ومتابعة للسنة، وهو الذي يقول فيه بعضُ أهل السُّنة: عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، أتته الدنيا فأباها، والشُّبَهُ فنفاها.

خُرِجَ به من مرو وهو حَمل، فوُلد ببغداد سنة أربع وستين ومائة، في شهر ربيع الأول. وطلب أحمدُ العلم سنة وفاة مالك، وهي سنة تسع وسبعين، فسمع من هُشيم، وجرير بن عبد الحميد، وسفيان بن عُيينة، ومُعتمر بن سليمان، ويحيىٰ بن سعيد القطان، ومحمَّد بن إدريس الشافعي، ويزيد بن هارون وعبد الرزاق، وعبد الرحمن بن مهدي، وخلائق بمكة، والبصرة، والكوفة، وبغداد، واليمن، وغيرها من البلاد. روىٰ عنه ابناه: صالح، وعبد الله، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، وإبراهيم الحربي، وأبو زَرْعة الرازي، وأبو زَرْعة الدمشقي، وعبد الله بن أبي الدنيا، وأبو بكر الأثرم وعُثمان بن سعيد الدارمي، وأبو القاسم البغوي، وهو آخر من حدَّث عنه، وخلائق. وروىٰ عنه من شيوخه:

الثالثة: أنه لم يعذر بالجهالة: هذا فيه نظر؛ لأن قوله ﷺ: **«لو متَّ وهي عليك ما أفلحت أبدًا»** ليس بصريح أنه لو مات قبل العلم، بل ظاهره: **«لو مت وهي عليكَ ما أفلحت أبدًا»**؛ أي: بعد أن علمت وأمرت بنزعها. وهذه المسألة تحتاج إلىٰ تفصيل؛ فنقول: الجهل نوعان:

جهل يعذر فيه الإنسان، وجهل لا يعذر فيه، فما كان ناشئًا عن تفريط وإهمال مع قيام المقتضي للتعلم؛ فإنه لا يعذر فيه، سواء في الكفر أو في المعاصي، وما كان ناشئًا عن خلاف ذلك، أي أنه لم يهمل ولم يفرط ولم يقم المقتضي للتعلم بأن كان لم يطرأ علىٰ باله أن هذا الشيء حرام؛ فإنه يعذر فيه، فإن كان منتسبًا إلىٰ الإسلام؛ لم يضره، وإن كان منتسبًا إلىٰ الكفر؛ فهو كافر في الدنيا، لكن في الآخرة أمره إلىٰ اللَّه علىٰ القول الراجح، يمتحن؛ فإن أطاع دخل الجنة، وإن عصىٰ دخل النار.

فعلىٰ هذا من نشأ ببادية بعيدة ليس عنده علماء ولم يخطر بباله أن هذا الشيء حرام، أو أن هذا الشيء واجب؛ فهذا يعذر، وله أمثلة:

منها: رجل بلغ وهو صغير وهو في بادية ليس عنده عالم، ولم يسمع عن العلم شيئًا، ويظن أن الإنسان لا تجب عليه العبادات إلا إذا بلغ خمس عشرة سنة، فبقي بعد بلوغه حتىٰ تم له خمس عشرة سنة وهو لا يصوم ولا يصلي ولا يتطهر من جنابة؛ فهذا لا نأمره بالقضاء لأنه معذور بجهله الذي لم يفرط فيه بالتعليم ولم يطرأ له علىٰ بال. وكذلك لو كانت أنثىٰ أتاها الحيض وهي صغيرة وليس عندها من تسأل ولم يطرأ علىٰ بالها أن هذا الشيء واجب إلا إذا تم لها خمس عشرة سنة؛ فإنها تعذر إذا كانت لا تصوم ولا تصلي. وأما[1] من كان بالعكس كالساكن في المدن يستطيع أن يسأل، لكن عنده تهاون وغفلة؛ فهذا لا يعذر؛ لأن الغالب في المدن أن هذه الأحكام لا تخفىٰ عليه، ويوجد فيها علماء يستطيع أن يسألهم بكل سهولة؛ فهو مفرط، فيلزمه القضاء ولا يعذر بالجهل.

(١) هذا هو النوع الثاني من الجهل.

الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك.

السادسة: التصريح بأن من تعلق شيئًا وكل إليه[1].

السابعة: التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك.

الثامنة: أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك.

التاسعة: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر، كما ذكر ابن عباس في آية البقرة.

عبدُ الرحمن بن مهدي، والأسودُ بن عامر، ومن أقرانه: عليُّ بن المديني، ويحيىٰ بن معين.

قال البخاري: مرض أحمد لليلتين خلتا من ربيع الأوَّل، ومات يوم الجمعة لاثنتي عشرة خلت منه. وقال حنبل: مات يوم الجمعة في ربيع الأول سنة إحدىٰ وأربعين ومائتين، وله سبعٌ وسبعون سنة. وقال ابنه عبدُ الله، والفضل بن زياد: مات في ثاني عشر ربيع الآخر رحمه الله تعالىٰ.

الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة، بل تضر؛ لقوله: «لا تزيدك إلا وهنًا»: والمؤلف استنبط المسألة وأتىٰ بوجه استنباطها.

الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك: أي: ينبغي أن ينكر إنكاراً مغلظًا علىٰ من فعل مثل هذا.

ووجه ذلك سياق الحديث الذي أشار إليه المؤلف، وأيضًا قوله: «**من تعلق تميمة فلا أتم اللَّه له**».

السادسة: التصريح بأن من تعلق شيئًا وكل إليه: تؤخذ من قوله: «**من تعلق تميمة؛ فلا أتم اللَّه له**» إذا جعلنا الجملة خبرية، وأن من تعلق تميمة؛ فإن اللَّه لا يتم له، فيكون موكولاً إلىٰ هذه التميمة، ومن وكل إلىٰ مخلوق؛ فقد خذل، ولكنها في الباب الذي بعده صريحة: «**من تعلق شيئًا وكل إليه**».

السابعة: التصريح بأن من تعلق تميمة؛ فقد أشرك: وهو إحدىٰ الروايتين في حديث عقبة بن عامر.

الثامنة: أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك: يؤخذ من فعل حذيفة أنه رأىٰ رجلاً في يده خيط من الحمىٰ فقطعه، وتلا قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾.

التاسعة: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر كما ذكر ابن عباس في آية البقرة: أي أن قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾. في الشرك الأكبر، لكنهم يستدلون بالآيات الواردة في الشرك الأكبر علىٰ الأصغر؛ لأن الأصغر شرك في الحقيقة وإن كان لا يخرج من الملة. ولهذا نقول: الشرك نوعان: أصغر وأكبر.

وقوله: «**كما ذكر ابن عباس في آية البقرة**»: وهي قوله تعالىٰ: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ**

---

(١) إنما وكله الله إليه لأنه أعرض عن رحمة ربه واستغنى عن الله وتمسك بالسبب الأضعف بل تمسك بلا شيء، فوكله إلى ما تمسك به فلم ينفعه شيئًا.

العاشرة: أن تعليق الودع عن العين من ذلك.

الحادية عشرة: الدعاء من تَعلق تميمة، أن الله لا يُتمُّ له، ومن تعلّق ودَعةً، فلا ودَعَ[1] الله له،أي لا ترك الله له.

....

وكذلك هو من جملة وسائل الشرك فإنه لا بد أن يتعلق قلب متعلقها بها وذلك نوع شرك ووسيلة إليه فإذا كانت هذه الأمور ليست من الأسباب الشرعية التي شرعها على لسان نبيه التي يتوسل بها إلى رضا الله وثوابه ولا من الأسباب القدرية التي قد علم أو جرب نفعها مثل الأدوية المباحة كان المتعلق بها متعلقا قلبه بها راجيا لنفعها فتعين على المؤمن تركها ليتم إيمانه وتوحيده فإنه لو تم توحيده لم يتعلق قلبه بما ينافيه وذلك أيضا نقص في العقل حيث تعلق بغير متعلق ولا نافع بوجه من الوجوه: بل هو ضرر محض.

والشرع مبناه على تكميل أديان الخلق بنبذ الوثنيات والتعلق بالمخلوقين، وعلى تكميل عقولهم بنبذ الخرافات والخزعبلات، والجد في الأمور النافعة المرقية للعقول، المزكية للنفوس، المصلحة للأحوال كلها دينيها ودنيويها والله أعلم.

اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ...﴾ [البقرة: ١٦٥] الآية. فجعل المحبة التي تكون كمحبة اللَّه من اتخاذ الند للَّه عز وجل.

العاشرة: أن تعليق الودع من العين من ذلك: وقوله: «من ذلك»؛ أي: من تعليق التمائم الشركية؛ لأنه لا أثر لها ثابت شرعًا ولا قدرًا.

الحادية عشرة: الدعاء على من تعلق تميمة أن اللَّه لا يتم له، ومن تعلق ودعة، فلا ودع اللَّه له؛أي: ترك اللَّه له: تؤخذ من دعاء النبي ﷺ على هؤلاء الذين اتخذوا تمائم وودعًا، وليس هذا بغريب أن نؤمر بالدعاء على من خالف وعصى؛ فقد قال النبي ﷺ: «**إذا سمعتم من ينشد الضالة في المسجد؛ فقولوا: لا ردها اللَّه عليك**»[2]، و«**وإذا سمعتم من يبيع أو يبتاع في المسجد؛ فقولوا: لا أربح اللَّه تجارتك**»[3].

فهنا أيضًا تقول له: لا أتم اللَّه لك، ولكن الحديث إنما قاله الرسول ﷺ على سبيل العموم؛ فلا نخاطب هذا بالتصريح ونقول لشخص رأينا عليه تميمة: لا أتم الله لك، وذلك لأن مخاطبتنا الفاعل بالتصريح والتعيين سوف يكون سببًا لنفوره، ولكن نقول: دع التمائم أو الودع؛ فإن النبي ﷺ يقول: «**من تعلق تميمة؛ فلا أتم اللَّه له، ومن تعلق ودعة؛ فلا ودع الله له**».

---

(١) ودع: فسره المصنف بترك أي فلا ترك الله له ما يحب وفسره غيره بأنه دعاء عليه ألا يجعله في دعة ولا سكون.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٥٦٨).

(٣) صحيح: رواه الترمذي (١٣٢١)، والدارمي (١٤٠١)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥٧٣)، والإرواء (١٢٩٥).

٧- بــاب
ما جاء في الرقى والتمائم

في الصحيح، عن أبي بشير الأنصاري ﵁: «أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً: أنْ لا يَبقينَّ في رقبة بعيرٍ قلادةٌ من وترٍ - أو قلادةٌ - إلا قُطعت»[1].

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ ما جاء في الرُّقى والتمائم: أي: من النهي، وما ورد عن السَّلف في ذلك.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: في الصحيح، عن أبي بشير الأنصاري: أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً: أنْ لا يَبقينَّ في رقبة بعيرٍ قلادةٌ من وترٍ - أو قلادةٌ - إلا قُطعت. هذا الحديث في (الصحيحين).

قوله: (عن أبي بشير): بفتح أوله وكسر المُعجمة، قيل: اسمُه قيس بن عُبيد، قاله ابن سعد. وقال ابن عبد البر: لا يوقف له على اسم صحيح، وهو صحابيٌّ، شهد الخندق، ومات بعد الستين. ويقال: إنه جاوز المائة.

قوله: (في بعض أسفاره). قال الحافظ: لم أقف على تعيينه.

قوله: (فأرسل رسولاً)، هو زيدُ بن حارثة، روى ذلك الحارثُ بن أبي أُسامة في (مسنده). قاله الحافظ.

لم يذكر المؤلف أن هذا الباب من الشرك؛ لأن الحكم فيه يختلف عن حكم لبس الحلقة والخيط، ولهذا جزم المؤلف في الباب الأول أنها من الشرك بدون استثناء، أما هذا الباب؛ فلم يذكر أنها شرك لأن من الرقى ما ليس بشرك، ولهذا قال: «**باب ما جاء في الرقى والتمام**».

قوله: «الرقى»: جمع رقية، وهي القراءة؛ فيقال: رقى عليه - بالألف - من القراءة، ورقي عليه - بالياء - من الصعود.

قوله: «التمائم»: جمع تميمة، وسميت تميمة؛ لأنهم يرون أنه يتم بها دفع العين.

قوله: «أسفاره»: السفر: مفارقة محل الإقامة، وسمي سفرًا؛ لأمرين:

الأول: حسي: وهو أنه يسفر ويظهر عن بلده لخروجه من البنيان.

الثاني: معنوي: وهو أنه يسفر عن أخلاق الرجال؛ أي: يكشف عنها، وكثير من الناس لا يعرف أخلاقهم وعادتهم وطبائعهم إلا بالأسفار.

قوله: «قلادة من وتر، أو قلادة»: شك من الراوي، والأولى أرجح؛ لأن القلائد كانت تتخذ من الأوتار، ويعتقدون أن ذلك يدفع العين عن البعير، وهذا اعتقاد فاسد؛ لأنه تعلق بما ليس بسبب، وقد سبق أن التعلق بما ليس بسبب شرعي أو حسي شرك؛ لأنه بتعلقه أثبت للأشياء سببًا لم يثبته اللّه لا بشرعه ولا بقدره، ولهذا أمر النبي ﷺ أن تقطع هذه القلائد.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٠٠٥)، ومسلم (٢١١٥).

. . . .

قوله: (أن لا يبقينَّ) بالمثناة التحتيَّة والقاف المفتوحتين، (وقلادة). مرفوعٌ على أنَّه فاعل. (والوتر)، بفتحتين: واحدُ أوتارالقوس. وكان أهلُ الجاهلية إذا اخلولق الوتر أبدلوه بغيره، وقلَّدوا به الدواب؛ اعتقاداً منهم أنه يدفع عن الدَّابة العين.

قوله: (أو قلادة[1]، إلاَّ قطعت). معناه: أنَّ الراوي شكَّ، هل قال شيخُه: قلادة من وتر، أو قال: قلادة. وأطلق ولم يُقيّد؟. ويؤيدُ الأول: ما روي عن مالك، أنه سُئل عن القلادة؟ فقال: ما سمعتُ بكراهتها إلاَّ في الوتر. ولأبي داود: ولا قلادة. بغير شك.

قال البغويُّ في (شرح السُّنة): تأوَّل مالكُ أمرَه عليه السلام بقطع القلائد، على أنَّه من أجل العين. وذلك أنهم كانوا يشدُّون تلك الأوتار والتمائم والقلائد، ويُعلِّقون عليها العُوذ؛ يظنون أنها تعصمهم من الآفات. فنهاهم النبيُّ ﷺ عنها، وأعلمهم أنها لا تردُّ من أمر الله شيئًا.

قال أبو عُبيد: كانوا يقلِّدون الإبل الأوتار، لئلا تصيبها العين. فأمرهم النبي ﷺ بإزالتها؛ إعلامًا لهم بأنَّ الأوتار لا تردُّ شيئًا. وكذا قال ابنُ الجوزي وغيره.

قال الحافظ: ويؤيِّدُه: حديثُ عُقبة بن عامر، رفعه: «**من تعلَّق تميمةً فلا أتمَّ الله له**»[2] رواه أبوداود. وهي ما عُلِّق من القلائد خشيةَ العين، ونحو ذلك. انتهى.

أما إذا كانت هذه القلادة من غير وتر، وإنما تستعمل للقيادة كالزمام؛ فهذا لا بأس به لعدم الاعتقاد الفاسد، وكان الناس يعملون ذلك كثيراً من الصوف أو غيره.

قوله: «في رقبة بعير»: ذكر البعير؛ لأن هذا هو الذي كان منتشراً حينذاك؛ فهذا القيد بناء على الواقع عندهم؛ فيكون كالتمثيل، وليس بمخصص.

يستفاد من الحديث:

١ ـ أنه ينبغي لكبير القوم أن يكون مراعيًا لأحوالهم؛ فيتفقدهم وينظر في أحوالهم.

٢ ـ أنه يجب عليه رعايتهم بما تقتضيه الشريعة؛ فإذا فعلوا محرمًا منعهم منه وإن تهاونوا في واجب حثهم عليه.

٣ ـ أنه لا يجوز أن تعلق في أعناق الإبل أشياء تُجعل سببًا في جلب منفعة أو دفع مضرة، وهي ليست كذلك لا شرعًا ولا قدراً؛ لأنه شرك، ولا يلزم أن تكون القلادة في الرقبة، بل لو جُعلت في اليد أو الرجل؛ فلها حكم الرقبة؛ لأن العلة هي هذه القلادة، وليس مكان وضعها؛ فالمكان لا يؤثر.

٤ ـ أنه يجب على من يستطيع تغيير المنكر باليد أن يغيره بيده.

---

(١) وأصل معنى القلادة: ما يوضع في العنق من الحلي والزينة للنساء؛ والحبل يوضع في عنق الدابة لتقاد به. ومثل ذلك ما يعلقه بعض الناس اليوم على السيارات من صورة قرد ونحوه وما يضعه بعضهم على أبواب البيوت والحوانيت من حدوة حمار أو حصان، وتعليق سنابل من الحنطة أو غير ذلك كله من عمل الجاهلية المنهي عنه أشد النهي وقد يصل إلى الشرك الأكبر عند بعضهم حين يعتقد فيه أنه هو الذي يدفع حقيقة الضر والسوء. (ق).

(٢) تقدم تخريجه.

وعن ابن مسعود: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الرُّقى والتمائمَ والتِّولَةَ شركٌ». رواه أحمد، وأبو داود.
«الرقى»: هي التي تُسمَّى العزائم، وخص منها الدليل ما خلا من الشرك؛ فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن ابن مسعود: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الرُّقى والتمائمَ والتِّولَةَ شرك»[1]. رواه أحمد، وأبو داود.

وفيه قصة، ولفظُ أبي داود: عن زينب، امرأة عبد الله بن مسعود: إن عبد الله رأىٰ في عُنقي خيطًا، فقال: ما هذا؟ قلتُ: خيطٌ رُقي لي فيه، قالت: فأخذه ثم قطعه، ثم قال: أنتم آل عبد الله لأغنياء عن الشرك[2]، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«إنَّ الرُّقى والتمائم والتِّولة شرك»** فقلت: لقد كانت عيني تقذف، وكنتُ أختلف إلىٰ فلان اليهودي، فإذا رقىٰ سكنت. فقال عبد الله: إنما ذلك عمل الشيطان، كان ينخسُها بيده، فإذا رقىٰ كفَّ عنها. إنما كان يكفيك، أنْ تقولي كما كان رسولُ الله ﷺ يقول: **«أذهب الباس، ربَّ الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلاَّ شفاؤك، شفاءً لا يغادر سُقمًا»**[3] ورواه ابنُ ماجه، وابن حبان، والحاكم، وقال: صحيح، وأقرَّه الذهبي.

قوله: (إنَّ الرقى) قال المُصنِّف: (هي التي تُسمَّى العزائم، وخصَّ منه الدليلُ ما خلا من الشرك. فقد رخَّص فيه رسول الله ﷺ، من العين والحُمَة):

يُشير إلىٰ أنَّ الرقىٰ الموصوفةَ بكونها شركًا، هي التي يُستعان فيها بغير الله. وأمَّا إذا لم يُذكر فيها إلاَّ أسماء الله وصفاته وآياته، والمأثور عن النبي ﷺ، فهذا حسن: جائزٌ، أو مُستحب.

باب ما جاء في الرقى والتمائم

أما التمائم: فهي تعاليق تتعلق بها قلوب متعلقيها والقول فيها كالقول في الحلقة والخيط كما تقدم فمنها ما هو شرك أكبر كالتي تشتمل علىٰ الاستغاثة بالشياطين أو غيرهم من المخلوقين فالاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك كما سيأتي إن شاء الله ومنها ما هو محرم كالتي فيها أسماء لا يفهم معناها؛ لأنها تجر إلىٰ الشرك.

وأما التعاليق التي فيها قرآن أو أحاديث نبوية أو أدعية طيبة محترمة فالأولىٰ تركها لعدم ورودها عن الشارع،

قوله: «إن الرقى»: جمع رقية، وهذه ليست علىٰ عمومها، بل هي عام أريد به خاص، وهو الرقىٰ بغير ما

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٣٨٨٣)، وابن حبان (٦٠٩٠)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٢١٣)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٦٣٢).

(٢) من أول الحديث إلى هنا ليس في سنن أبي داود في باب تعليق التمائم. وهو عند ابن ماجه بلفظ: «كانت عجوز تدخل علينا من الحمرة، وكان لنا سرير طويل القوائم وكان عبد الله إذا دخل تنحنح وصوت، فدخل يومًا، فلما سمعت صوته احتجبت منه؛ فجاء فجلس إلى جانبي فمسني فوجد مس خيط؛ فقال ما هذا؟ فقلت: رقى لي فيه من الحمى؛ فجذبه فقطعه فرمى به، ثم قال: لقد أصبح آل عبد الله أغنياء عن الشرك. سمعت رسول الله ﷺ ....إلخ».(ق).

(٣) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٣٣١).

و«التمائم»: شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين.
لكن إذا كان المعلق من القرآن، فرخص فيه بعض السلف، وبعض لم

قوله: «فقد رخَّص فيه رسولُ الله ﷺ من العين والحُمَة». كما تقدَّم، في باب من حقَّق التوحيد. وكذا رخَّص في الرقى من غيرها؛ كما في (صحيح مسلم)، عن عوف بن مالك: كُنَّا نَرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله، كيف ترى في ذلك؟ فقال: «اعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا»[1] وفي الباب أحاديثُ كثيرة.

قال الخطَّابي: وكان عليه السلام، قد رقَىٰ ورُقي، وأمر بها وأجازها. فإذا كانت بالقرآن وبأسماء الله تعالى فهي مباحةٌ أو مأمور بها. وإنما جاءت الكراهةُ والمنع، فيما كان منها بغير لسان العرب، فإنه ربما كان كفرًا أو قولاً يدخله الشرك.

قلت: من ذلك: ما كان على مذهب الجاهلية التي يتعاطونها، وأنها تدفع عنهم الآفات، ويعتقدون أنَّ ذلك من قِبل الجن ومعونتهم. وبنحوه هذا ذكر الخطَّابي.

وقال شيخُ الإسلام: كلُّ اسم مجهول فليس لأحد أنْ يرقي به، فضلاً أنْ يدعو به ولو عُرف معناه؛ لأنه يُكره الدعاء بغير العربية. وإنما يُرخَّص لمن لا يُحسن العربية، فأمَّا جعلُ الألفاظ العجمية شعارًا، فليس من دين الإسلام[2].

ولكونها يتوسل بها إلى غيرها من المحرم؛ ولأن الغالب على متعلقها أنه لا يحترمها ويدخل فيها المواضع القذرة.

ورد به الشرع، أما ما ورد به الشرع؛ فليست من الشرك، قال ﷺ في الفاتحة: «وما يدريك أنها رقية؟»[3].

وهل المراد بالرقى في الحديث ما لم يرد به الشرع ولو كانت مباحة، أو المراد ما كان فيه شرك؟

الجواب: الثاني؛ لأن كلام النبي ﷺ لا يناقض بعضه بعضًا؛ فالرقى المشروعة التي ورد بها الشرع جائزة. وكذا الرقى المباحة التي يرقي بها الإنسان المريض بدعاء من عنده ليس فيه شرك جائز أيضًا.

قوله: «التمائم»: فسرها المؤلف بقوله: «شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين»، وهي من الشرك؛ لأن الشارع لم يجعلها سببًا تُتَّقَى به العين. وإذا كان الإنسان يُلبس أبناءه ملابس رثة وبالية خوفًا من العين؛ فهل هذا جائز؟ الظاهر أنه لا بأس به؛ لأنه لم يفعل شيئًا، وإنما ترك شيئًا، وهو التحسين والتجميل، وقد ذكر ابن القيم في «زاد المعاد» أن عثمان رأى صبيًا مليحًا، فقال: دسّموا نونته، والنونة: هي التي تخرج في الوجه عندما يضحك الصبي كالنقرة، ومعنى دسّموا؛ أي: سودوا.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٢٠٠).

(٢) وذلك مثل قول أرباب الطرق الصوفية في أورادهم (كركدن كرددن دهده، أصباءوات أهيا شراهيا جلجلوت) وأمثالها مما يقولون عنه أنه ذكر الله، فهذا كله ليس من دين الإسلام في شيء لأن الإسلام عربي مبين، وهذا وغيره يدل على أن أصل هذه الطرق الصوفية خدعة يهودية هندية فارسية يونانية. كادوا بها للمسلمين ففرقوهم شيعًا وأحزابًا وملأوا قلوبهم من الشرك في الإلهية والشرك في الربوبية. فوصلوا من ذلك إلى ما يريدون من تقويض الدولة الإسلامية. (ق).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٢٧٦، ٥٧٤٩)، ومسلم (٢٢٠١).

يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه، منهم ابن مسعود رضي الله عنه.

وقال السيوطي: وأجمع العلماءُ على جواز الرقى، عند اجتماع ثلاثة شروط: أنْ يكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربي وبما يُعرف معناه. وأنْ يعتقد أنَّ الرقية لا تؤثِّر بذاتها، بل بتقدير الله تعالى.

قوله: «والتمائم» قال المصنف: (شيءٌ يُعلَّق على الأولاد، عن العين).

وقال الخلخالي: التمائم، جمعُ تميمة، وهي ما يُعلَّق بأعناق الصبيان من خرزاتٍ وعظام؛ لدفع العين. وهذا منهي عنه؛ لأنه لا دافع إلاَّ الله، ولا يُطلب دفعُ المؤذيات إلاَّ بالله وبأسمائه وصفاته.

قال المُصنِّف: (لكن إذا كان المعلَّق من القرآن، فرخص فيه بعضُ السلف. وبعضُهم لم يرخِّص فيه، ويجعلُه من المنهي عنه. منهم ابن مسعود): اعلم أنَّ العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم اختلفوا في جواز تعليق التمائم التي من القرآن، وأسماء الله وصفاته.

فقالت طائفة: يجوز ذلك، وهو قولُ عبد الله بن عمرو بن العاص[1]، وهو ظاهر ما روي عن عائشة. وبه قال أبو جعفر الباقر، وأحمدُ في رواية. وحملوا الحديثَ على التمائم، التي فيها شرك.

وقالت طائفة: لا يجوز ذلك، وبه قال ابنُ مسعود، وابنُ عباس. وهوظاهر قول حذيفة، وعقبة ابن عامر، وابن عُكَيم. وبه قال جماعةٌ من التابعين، ومنهم أصحابُ ابن مسعود، وأحمدُ في روايةٍ اختارها كثيرٌ من أصحابه. وجزم بها المتأخرون، واحتجوا بهذا الحديث وما في معناه[2].

قلتُ: وهذا هو الصحيح، لوجوهٍ ثلاثة تظهرُ للمتأمِّل.

الأوَّل: عمومُ النهي، ولا مُخصِّص للعموم.

الثاني: سدُّ الذريعة؛ فإنه يُفضي إلى تعليق ما ليس كذلك.

وأما الخط: وهي أوراق من القرآن تجمع في جلد ويخاط عليها، ويلبسها الطفل على يده أو رقبته؛ ففيها خلاف بين العلماء.

وظاهر الحديث: أنها ممنوعة، ولا تجوز. ومن ذلك أن بعضهم يكتب القرآن كله بحروف صغيرة في أوراق صغيرة، ويضعها في صندوق صغير، ويعلقها على الصبي، وهذا مع أنه محدث؛ فهو إهانة للقرآن الكريم؛ لأن هذا الصبي سوف يسيل عليه لعابه، وربما يتلوث بالنجاسة، ويدخل به الحمام

---

(١) الرواية بذلك ضعيفة. ولا تدل على هذا، لأن فيها أن ابن عمرو وكان يحفظه أولاده الكبار، ويكتبه في ألواح ويعلقه في عنق الصغار فالظاهر أنه كان يعلقه في اللوح ليحفظه الصغير لا على أنه تميمة والتميمة تكتب في ورقة لا في لوح. وبدليل تحفيظه الكبار. وكيفما كان فهو عمل فردي من عبد الله بن عمرو ولا يُترك به حديث رسول الله وعمل كبار الصحابة الذين لم يعملوا مثل عبد الله بن عمرو ﵄.

(٢) في قرة العيون: والمقصود بيان أن هذه الأمور الشركية وإن خفيت فقد نهى عنها رسول الله ﷺ وأصحابه لكمال علمهم بما دلت عليه لا إله إلا الله من نفي الشرك قليله وكثيره لتعلق القلب بغير الله في دفع الضر أو جلب نفع؛ وقد عمت البلوى بما هو أعظم من ذلك بأضعاف مضاعفة، فمن عرف هذه الأمور الشركية المذكورة في هذين البابين عرف ما وقع مما هو أعظم من ذلك كما تقدم بيانه، وفيه ما كان عليه رسول الله ﷺ من التحذير من الشرك والتغليظ في إنكاره وإن كان من الشرك الأصغر فهو أكبر من الكبائر.

و«التولة»: هي شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته.

الثالث: أنه إذا عُلِّق فلابُد أنْ يمتهنه المعلِّق، بحمله معه في حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك[1].

وتأمل هذه الأحاديث، وما كان عليه السلفُ رضي الله تعالى عنهم: يتبيّن لك بذلك غربة الإسلام. خصوصًا إنْ عرفت عظيم ما وقع فيه الكثيرُ بعد القرون المفضَّلة: من تعظيم القبور، واتخاذ المساجد عليها، والإقبال إليها بالقلب والوجه، وصرف جُلِّ الدعوات والرغبات والرهبات وأنواع العبادات التي هي حقٌّ الله تعالى إليها من دونه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٦، ١٠٧] ونظائرُها في القرآن، أكثر من أن تُحصر.

قوله: «والتِّولة شركٌ» قال المُصنِّف: (هو شيءٌ يصنعونه، يزعمون أنه يُحبِّبُ المرأةَ إلى زوجها والرجلَ إلى

وأما الرقى ففيها تفصيل: فإن كانت من القرآن أو السنة أو الكلام الحسن فإنها مندوبة في حق الراقي؛ لأنها من باب الإحسان، ولما فيها من النفع، وهي جائزة في حق المرقي إلا أنه لا ينبغي له أن يبتدئ بطلبها، فإن من كمال توكل العبد وقوة يقينه أن لا يسأل أحدًا من الخلق لا رقية ولا غيرها: بل ينبغي له إذا سأل أحدًا

والأماكن القذرة، وهذا كله إهانة للقرآن. ومع الأسف أن بعض الناس اتخذوا من العبادات نوعًا من التبرك فقط؛ مثل ما يشاهد من أن بعض الناس يمسح الركن اليماني، ويمسح به وجه الطفل وصدره، وهذا معناه أنهم جعلوا مسح الركن اليماني من باب التبرك لا التعبد، وهذا جهل، وقد قال عمر في الحَجَر: «إني أعلم إنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك»[2].

قوله: «التولة»: شيء يعلقونه على الزوج، يزعمون أنه يحبب الزوجة إلى زوجها والزوج إلى امرأته، وهذا شرك؛ لأنه ليس بسبب شرعي ولا قدري للمحبة. ومثل ذلك الدبلة.

---

(١) ولأن فعل ذلك استهزاء أشد استهزاء بآيات الله ومناقضة لما جاءت به(*) ومحادة لله ولرسوله، فإن الله أنزل القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وشفاء لما في الصدور ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا. وأنه لتذكرة للمتقين. وإنه لحسرة على الكافرين. وإنه لحق اليقين. ولم يتزل القرآن ليتخذ حجبًا وتمائم. ولا ليتلاعب به المتآكلون به الذين يشترون به ثمنًا قليلاً. والذين يقرءونه على المقابر وأمثال ذلك مما ذهب بحرمة القرآن وجرأ الرؤساء على ترك الحكم به. (ق).

(*) قوله: (ولأن فعل ذلك استهزاء أشد استهزاء بآيات الله ومناقضة لما جاءت به) إلخ. أقول هذه فيها نظر، والصواب: أن تعليق التمائم ليس من الاستهزاء بالدين بل من الشرك الأصغر، ومن التشبه بالجاهلية، وقد يكون شركًا أكبر على حسب ما يقوم بقلب صاحب التعليق من اعتقاد النفع فيها وأنها تنفع وتضر دون الله عز وجل، وما أشبه هذا الاعتقاد أما إذا اعتقد أنها سبب للسلامة من العين أو الجن ونحو ذلك فهذا من الشرك الأصغر، لأن الله سبحانه لم يجعلها سببًا، بل نهى عنها وحذر وبين أنها شرك على لسان رسوله ﷺ وما ذاك إلا لما يقوم بقلب صاحبها من الالتفات إليها والتعلق بها ولو كان تعليقها استهزاء بآيات الله سبحانه لكان ذلك كفرًا وردة عن الإسلام كما قال الله عز وجل: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦] الآية، ولا نعلم أحدًا من أهل العلم قال: إن تعليق التمائم استهزاء بآيات الله ولأن الواقع من المعلقين يخالف ذلك فإنهم إنما يعلقون التمائم من القرآن والسنة رجاء نفعها وبركتها، لا لقصد الاستهزاء بها، وهذا بين واضح لمن تأمل. والله المستعان. (ز).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٥٩٧، ١٦١٠)، ومسلم (١٢٧٠)، وأبو داود (١٨٧٣)، والنسائي (٢٩٣٧، ٢٩٣٨)، وابن ماجه (٢٩٤٣)، وأحمد (١٠٠) ومواضع.

وعن عبد الله بن عُكَيم، مرفوعًا «من تعلَّق شيئًا وُكِل إليه»(١) رواه أحمد، والترمذي.

امرأته): وبهذا فسَّره ابنُ مسعود راوي الحديث؛ كما في (صحيح ابن حبان)، والحاكم، قالوا: يا أبا عبد الرحمن، هذه الرقىٰ والتمائم، قد عرفناها. فما التولة؟ قال: شيءٌ يصنعه النساء، يتحببن إلىٰ أزواجهن.

قال الحافظ: التِّولة بكسر المُثنَّاة وفتح الواو واللام مخفَّفًا: شيءٌ كانت المرأةُ تجلب به محبَّةَ زوجها، وهو ضربٌ من السحر(٢)، والله أعلم. وكان من الشرك؛ لما يُراد به من دفع المضار، وجلب المنافع من غير الله تعالىٰ.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن عبد الله بن عُكَيم، مرفوعًا «من تعلَّق شيئًا وُكِل إليه» رواه أحمد، والترمذي: ورواه أبو داود، والحاكم. وعبد الله بن عُكيم: هو بضمِّ المهملة مُصغَّرًا. ويكنَّىٰ أبا معبد الجُهني الكوفي. قال البخاري: أدرك زمنَ النبيِّ ﷺ، ولا يُعرف له سماعٌ صحيح. وكذا قال أبو حاتم: قال الخطيب: سكن الكوفةَ، وقدم المدائن في حياة حُذيفة، وكان ثقة.

وذكر ابنُ سعد، عن غيره: أنه مات في ولاية الحجَّاج.

قوله: «من تعلَّق شيئًا وكل إليه»: التعلُّق يكون بالقلب، ويكون بالفعل، ويكون بهما(٣). أي: وكَلَه اللهُ إلىٰ

أن يدعو له أن يلحظ مصلحة الداعي والإحسان إليه بتسببه لهذه العبودية له مع مصلحة نفسه، وهذا من أسرار تحقيق التوحيد ومعانيه البديعة التي لا يوفق للتفقه فيها والعمل بها إلا الكمل من العباد. وإن كانت الرقية يدعىٰ بها غير الله ويطلب الشفاء من غيره فهذا هو الشرك الأكبر؛ لأنه دعاء واستغاثة بغير الله، فافهم هذا التفصيل، وإياك أن تحكم علىٰ الرقىٰ بحكم واحد مع تفاوتها في أسبابها وغاياتها.

والدبلة: خاتم يُشترىٰ عند الزواج يوضع في يد الزوج، وإذا ألقاه الزوج؛ قالت المرأة: إنه لا يحبها؛ فهم يعتقدون فيه النفع والضرر، يقولون: إنه ما دام في يد الزوج؛ فإنه يعني أن العلاقة بينهما ثابتة، والعكس بالعكس، فإذا وجدت هذه النية فإنه من الشرك الأصغر، وإن لم توجد هذه النية ـ وهي بعيدة ألا تصحبها ـ ففيه تشبه بالنصارىٰ، فإنها مأخوذة منهم. وإن كانت من الذهب؛ فهي

---

(١) حسن: حسنه العلامة الألباني رحمه الله في غاية المرام (٢٩٧).

(٢) وإن زعم الذين يصنعونها للنساء أنهم مسلمون ومتدينون، وأن ما يكتبونه من القرآن وأسماء الله، فإنهم يفعلون ذلك تضليلاً بالقرآن وإلحادًا فيه. لأنهم يكتبونه على طريقة اليهود حروفًا مقطعة وبمداد خاص؛ ويمزجونه بأدعية جاهلية وبخطوط يزعمونها على صورة خاتم سليمان الذي كان فيه سر ملكه كما يزعم اليهود الذين يعتقدون كفر سليمان؛ وأنه كان يسخر الجن بالسحر لا بمعجزة من الله. وعلى هذه العقيدة اليهودية الدجالون الذين يكتبون التمائم والتولات، ويزعمون أن للحروف والأسماء خدامًا يقومون بما يطلب منهم من الأعمال السحرية ويتخذون أنواعًا من البخور والأدوات المخصوصة التي يوحى بها شياطينهم. وكل ذلك من الكفر العظيم. (ق).

(٣) في قرة العيون: التعلق يكون بالقلب وينشأ عنه القول والفعل وهو التفات القلب عن الله إلى شيء يعتقد أنه ينفعه أو يدفع عنه كما تقدم بيانه في الأحاديث في هذا الباب والذي قبله وهو ينافي قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢] فإن كان من الشرك الأصغر فهو ينافي كمال التوحيد؛ وإن كان من الشرك الأكبر كعبادة أرباب القبور والمشاهد والطواغيت ونحو ذلك فهو كفر بالله، وخروج عن دين الإسلام، ولا يصح معه قول ولا عمل. (ق).

. . . .

ذلك الشيء الذي تعلّقه. فمن تعلّق بالله وأنزل حوائجَه به، والتجأ إليه وفوّض أمره إليه: كفاه، وقرَّب إليه كلَّ بعيد ويسَّر له كل عسير. ومن تعلّق بغيره، أو سكن إلىٰ رأيه وعقله ودوائه وتمائمه ونحو ذلك وكَلَه الله إلىٰ ذلك، وخذله. وهذا معروفٌ بالنصوص والتجارب؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا هشام بن القاسم، حدَّثنا أبو سعيد المؤدِّب، حدثنا من سمع عطاء الخراساني، قال: لقيتُ وهبَ بن منبِّه وهو يطوف بالبيت، فقلت: حدثني حديثًا أحفظه عنك في مقامي هذا، وأوجز. قال: نعم، أوحىٰ الله تبارك وتعالىٰ إلىٰ داود: يا داود، أمَا وعزتي وعظمتي، لا يعتصمُ بي عبدٌ من عبادي دون خلقي أعرف ذلك من نيته فتكيده السمواتُ السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن: إلاَّ جعلتُ له من بينهن مخرجًا. أمَا وعزَّتي وعظمتي، لا يعتصم عبدٌ من عبادي بمخلوقٍ دوني، أعرف ذلك من نيته: إلاَّ قطعتُ أسباب السماء من يده، وأسختُ الأرض من تحت قدميه، ثم لا أُبالي بأيِّ أوديتها هلك[1].

بالنسبة للرجال فيها محذور ثالث، وهو لبس الذهب، فهي إما من الشرك، أو مضاهاة للنصارىٰ، أو تحريم النوع إن كانت للرجال، فإن خلت من ذلك؛ فهي جائزة لأنها خاتم من الخواتم.

قوله: «شرك»: وهل هي شرك أصغر أو أكبر؟

نقول: بحسب ما يُريد الإنسان منها إن اتخذها معتقدًا أن المسبب للمحبة هو اللَّه فهي شرك أصغر، وإن اعتقد أنها تفعل بنفسها؛ فهي شرك أكبر.

قوله: «من تعلق شيئًا»: أي: اعتمد عليه وجعله همه ومبلغ علمه، وصار يُعلق رجاءه به وزوال خوفه به.

وشيئًا: نكرة في سياق الشرط؛ فتعم جميع الأشياء، فمن تعلق باللَّه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ، وجعل رغبته ورجاءه فيه وخوفه منه؛ فإن اللَّه تعالىٰ يقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]؛ أي: كافيه، ولهذا كان من دعاء الرسل وأتباعهم عند المصائب والشدائد: «حسبنا اللَّه ونعم الوكيل». قالها إبراهيم حين أُلقي في النار، وقالها محمد وأصحابه حين قيل لهم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾[2].

قوله: «وكل إليه». أي: أسند إليه، وفوِّض.

أقسام التعلق بغير اللَّه: الأول: ما ينافي التوحيد من أصله، وهو أن يتعلق بشيء لا يمكن أن يكون له تأثير، ويعتمد عليه اعتمادًا معرضًا عن اللَّه، مثل تعلق عُبَّاد القبور بمن فيها عند حلول المصائب، ولهذا إذا مسَّتهم الضراء الشديدة يقولون: يا فلان! انقذنا؛ فهذا لا شك أنه شرك أكبر مخرج من الملة.

الثاني: ما ينافي كمال التوحيد، وهو أن يعتمد علىٰ سبب شرعي صحيح مع الغفلة عن المسبب، وهو اللَّه ـ عز وجل ـ وعدم صرف قلبه إليه؛ فهذا نوع من الشرك، ولا نقول شرك أكبر؛ لأن هذا السبب جعله اللَّه سببًا.

---

(١) في إسناده مجهول وهو من روى عن عطاء الخرساني، ولعله مأخوذ من الإسرائيليات التي كان ينقلها وهب ابن منبه رحمه الله والخبر ساقه أبو نعيم في حلية الأولياء بإسناد ضعيف فيه فرج بن فضالة وهو ضعيف.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٤٥٦٣).

. . . .

. . . .

الثالث: أن يتعلق بالسبب تعلقًا مجردًا لكونه سببًا فقط، مع اعتماده الأصلي على الله، فيعتقد أن هذا السبب من الله، وأن الله لو شاء لأبطل أثره، ولو شاء لأبقاه، وأنه لا أثر للسبب إلا بمشيئة الله - عز وجل - فهذا لا ينافي التوحيد لا كمالاً ولا أصلاً، وعلى هذا لا إثم فيه.

ومع وجود الأسباب الشرعية الصحيحة ينبغي للإنسان أن لا يعلق نفسه بالسبب، بل يعلقها بالله. فالموظف الذي يتعلق قلبه بمرتبه تعلقًا كاملاً، مع الغفلة عن المسبب، وهو الله، قد وقع في نوع من الشرك، أما إذا اعتقد أن المرتب سبب، والمسبب هو الله - سبحانه وتعالى - وجعل الاعتماد على الله، وهو يشعر أن المرتب سبب؛ فهذا سبب لا ينافي التوكل. وقد كان الرسول ﷺ يأخذ بالأسباب مع اعتماده على المسبب، وهو الله عز وجل. وجاء في الحديث: «**من تعلق**»، ولم يقل: من علّق؛ لأنَّ المتعلق بالشيء يتعلق به بقلبه وبنفسه، بحيث ينزل خوفه ورجاءه وأمله به، وليس كذلك من علق.

قوله: «وإذا كان المُعلق من القرآن...» إلخ: إذا كان المُعلّق من القرآن أو الأدعية المباحة والأذكار الواردة؛ فهذه المسألة اختلف فيها السلف رحمهم الله؛ فمنهم من رخّص في ذلك لعموم قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، ولم يذكر الوسيلة التي تتوصل بها إلى الاستشفاء بهذا القرآن؛ فدلَّ على أن كل وسيلة يتوصل بها إلى ذلك فهي جائزة، كما لو كان القرآن دواءً حسيًا. ومنهم من منع ذلك وقال: لا يجوز تعليق القرآن للاستشفاء به؛ لأنَّ الاستشفاء بالقرآن ورد على صفة معينة، وهي القراءة به، بمعنى أنَّك تقرأ على المريض به، فلا تتجاوزها، فلو جعلنا الاستشفاء بالقرآن على صفة لم ترد؛ فمعنى ذلك أنَّنا فعلنا سببًا ليس مشروعًا، وقد نقله المؤلف رحمه الله عن ابن مسعود رضي الله عنه.

ولولا الشعور النفسي بأن تعليق القرآن سبب للشفاء؛ لكان انتفاء السببية على هذه الصورة أمرًا ظاهرًا؛ فإنَّ التعليق ليس له علاقة بالمرض، بخلاف النفث على مكان الألم؛ فإنَّه يتأثر بذلك.

ولهذا نقول: الأقرب أن يقال: إنه لا ينبغي أن تعلق الآيات للاستشفاء بها، لاسيما وأن هذا المعلق قد يفعل أشياء تنافي قدسية القرآن؛ كالغيبة مثلاً، ودخول بيت الخلاء، وأيضًا إذا علّق وشعر أن به شفاء استغنى به عن القراءة المشروعة؛ فمثلاً: علّق آية الكرسي على صدره. وقال: ما دام أنَّ آية الكرسي على صدري فلن أقرأها، فيستغني بغير المشروع عن المشروع، وقد يشعر بالاستغناء عن القراءة المشروعة إذا كان القرآن على صدره. وإن كان صبيًا؛ فربما بال ووصلت الرطوبة إلى هذا المعلّق، وأيضًا لم يرد عن النبي ﷺ فيه شيء. فالأقرب أن يُقال: إنَّه لا يفعل، أمَّا أن يصل إلى درجة التحريم؛ فأنا أتوقف فيه، لكن إذا تضمن محظورًا؛ فإنه يكون محرمًا بسبب ذلك المحظور.

قوله: «التي تُسمَّى العزائم»: أي: في عرف الناس. وعزم عليه: أي قرأ عليه. وهذه عزيمة: أي: قراءة.

. . . .

. . . .

قوله: «وخصّ منها الدليل ما خلا من الشرك»: أي: الأشياء الخالية من الشرك؛ فهي جائزة، سواء كان مما ورد بلفظه مثل: «اللهم رب الناس! أذهب الباس، اشف أنت الشافي...»[١] أو لم يرد بلفظه مثل: «اللهم عافه، اللهم اشفه»[٢]، وإن كان فيه شرك؛ فإنها غير جائزة، مثل: «يا جني! أنقذه، ويا فلان الميت! اشفه»، ونحو ذلك.

قوله: «من العين والحُمة»: سبق تعريفهما.

وظاهر كلام المؤلف: أنَّ الدليل لم يُرخص بجواز القراءة إلاَّ في هذين الأمرين: «العين، والحمة»:، لكن ورد بغيرهما؛ فقد كان النبي ﷺ ينفخ على يديه عند منامه بالمعوذات، ويمسح بهما ما استطاع من جسده[٣]، وهذا من الرقية، وليس عينًا ولا حُمة. ولهذا يرى بعض أهل العلم أن الترخيص في الرقية من القرآن للعين والحمة وغيرهما لمام، ويقول: إنَّ معنى قول النبي ﷺ: «لا رقية إلا من عين أو حمة»[٤] أي: لا استرقاء إلا من عين أو حمة، والاسترقاء: طلب الرقية؛ فالمصيب بالعين - وهو «العائن» - يطلب منه أن يقرأ على المعيون. وكذلك الحمة يطلب الإنسان من غيره أن يقرأ عليه؛ لأنَّه مفيد كما في حديث أبي سعيد في قصة السريَّة[٥].

شروط جواز الرقية:

الأول: أن لا يعتقد أنَّها تنفع بذاتها دون الله، فإن اعتقد أنَّها تنفع بذاتها من دون الله؛ فهو محرَّم، بل شرك، بل يعتقد أنَّها سبب لا تنفع إلا بإذن الله.

الثاني: أن لا تكون مما يخالف الشرع؛ كما إذا كانت متضمنة دعاء غير الله، أو استغاثة بالجن، وما أشبه ذلك؛ فإنَّها مُحرَّمة، بل شرك.

الثالث: أن تكون مفهومة معلومة، فإن كانت من جنس الطلاسم والشعوذة؛ فإنها لا تجوز.

أما بالنسبة للتمائم؛ فإن كانت من أمر محرم، أو اعتقد أنها نافعة لذاتها، أو كانت بكتابة لا تفهم؛ فإنَّها لا تجوز بكل حال. وإن تمَّت فيها الشروط الثلاثة السابقة في الرقية؛ فإنَّ أهل العلم اختلفوا فيها كما سبق.

قوله: «من عقد لحيته»: اللحية عند العرب كانت لا تقص ولا تحلق، كما أن ذلك هو السنَّة لكنهم كانوا يعقدون لحاهم لأسباب: منها: الافتخار والعظمة، فتجد أحدهم يعقد أطرافها، أو

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٤٣)، ومسلم (٢١٩١).

(٢) ضعيف: رواه أحمد (٦٣٨)، وضعفه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٦٠٩٨).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٥٠١٨)، وأبو داود (٥٠٥٦)، والترمذي (٣٤٠٢)، وأحمد (٢٤٣٣٢).

(٤) تقدم تخريجه في (باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب).

(٥) صحيح: وقد تقدم.

وروى الإمامُ أحمد، عن رُويفع، قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «يا رُويفع، لعلَّ الحياة ستطولُ بك، فأخبِر الناس: أنَّ من عقد لحيته، أو تقلَّد وترًا أو استنجى برجيع دابةٍ أو عظم، فإنَّ محمَّدًا بريء منه»(١).

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وروى الإمامُ أحمد، عن رُويفع، قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «يا رُويفع، لعلَّ الحياة ستطولُ بك، فأخبر الناس: أنَّ من عقد لحيته، أو تقلَّد وترًا أو استنجى برجيع دابة أو عظم، فإنَّ محمدًا بريء منه».

الحديث: رواه الإمام أحمد، عن يحيىٰ بن إسحاق، والحسن بن موسىٰ الأشيب، كلاهما عن ابن لهيعة. وفيه قصةٌ اختصرها المصنف. وهذا لفظ الحسن: حدَّثنا ابنُ لهيعة، حدثنا عياش بن عباس، عن شُيَيْم بن بيتان، قال: حدَّثنا رُويفع بن ثابت، قال: كان أحدنا في زمن رسول الله ﷺ يأخذ جمل أخيه، علىٰ أنْ يعطيه النصفَ مما يغنم وله النصف، حتىٰ إنَّ أحدنا ليَصير له النصلُ والريش، وللآخر القدح. ثم قال لي رسول الله ﷺ. الحديث. ثم رواه أحمد، عن يحيىٰ بن غيلان، حدثني المُفضَل، حدثنا عيَّاش بن عباس: أن شُييم بن بيتان أخبره، أنه سمع شيبان القِتْباني. الحديث(٢). ابن لهيعة، فيه مقال. وفي الإسناد الثاني: شيبان القتباني، قيل فيه: مجهول. وبقيَّةُ رجالهما ثقات.

قوله: «لعلَّ الحياة ستطول بك» فيه عَلَمٌ من أعلام النبوة، فإنَّ رُويفعًا طالت حياتُه إلىٰ سنة ستٍ

يعقدها من الوسط عقدة واحدة ليعلم أنه رجل عظيم، وأنه سيد في قومه.

الثاني: الخوف من العين؛ لأنَّها إذا كانت حسنة وجميلة ثم عقدت أصبحت قبيحة، فمن عقدها لذلك؛ فإنَّ الرسول ﷺ بريء منه. وبعض العامة إذا جاءهم طعام من السوق أخذوا شيئًا منه يرمونه في الأرض؛ دفعًا للعين، وهذا اعتقاد فاسد ومخالف لقول النبي ﷺ: **«إذا سقطت لقمة أحدكم؛ فليمط ما بها من الأذى، وليأكلها»**(٣).

قوله: «أو تقلَّد وترًا»: الوتر: سلك من العصب يؤخذ من الشاة، وتتخذ للقوس وترًا، ويستعملونها في أعناق إبلهم أو خيلهم، أو في أعناقهم، يزعمون أنه يمنع العين، وهذا من الشرك.

قوله: «أو استنجى برجيع دابة»: الاستنجاء: مأخوذ من النَّجو، وهو إزالة أثر الخارج من

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٣٦)، والنسائي (٥٠٦٧)، وأحمد (٤/١٠٨، ١٠٩)، والطبراني في الكبير (٥/٢٨)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧٩١٠).

(٢) الحديث رواه أبو داود في باب ما ينهى عنه أن يستنجى به: حدثنا يزيد بن خالد بن عبد الله بن موهب الهمداني أخبرنا المفضل يعني ابن فضالة المصري عن عياش بن عباس القتباني -بكسر القاف- أن شييم بن بيتان أخبره عن شيبان القتباني أن مسلمة بن مخلد استعمل رويفع بن ثابت على أسفل الأرض قال شيبان فسرنا معه -إلخ. ثم ساق له سندًا آخر: حدثنا يزيد بن خالد حدثنا مفضل عن عياش أن شييم بن بيتان أخبره بهذا الحديث أيضًا عن أبي سالم الجيشاني عن عبد الله بن عمرو. اهـ. وليس في أحدهما ابن لهيعة وقال المنذري: ورواه النسائي.(ق).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٠٣٤)، وأبو داود (٣٨٤٥)، والترمذي (١٨٠٣)، وأحمد (١٢٤٠٤).

. . . .

وخمسين. فمات ببرقة من أعمال مصر أميراً عليها، وهو من الأنصار، وقيل: مات سنة ثلاثٍ وخمسين.

قوله: «فأخبر الناس» دليلٌ على وجوب إخبار الناس، وليس هذا مُختصًا برُويفع. بل كلُّ من كان عنده علمٌ ليس عند غيره مما يحتاج إليه الناس، وجب إعلامهم به.

فإنْ اشترك هو وغيره في علم ذلك، فالتبليغُ فرض كفاية. قاله أبو زُرْعة في (شرح سُنن أبي داود).

قوله: «أنّ من عقد لحيته» بكسر اللام لا غير، والجمع لِحىً، بالكسر والضم. قاله الجوهري.

قال الخطَّابي: أمَّا نهيهُ عن عقد اللحية، فيفسَّرُ على وجهين:

أحدُهما: ما كانوا يفعلونه في الحرب، كانوا يعقدون لحاهم؛ وذلك من زيٍّ بعض الأعاجم، يفتلونها ويعقدونها. قال أبو السعادات: تكبراً وعُجبًا.

ثانيهما: أنَّ معناه معالجة الشعر ليتعقَّد ويتجعَّد، وذلك من فعل أهل التأنيث.

قال أبو زُرْعة بن العراقي: والأولى، حملُه على عقد اللحية في الصلاة، كما دلّت عليه روايةُ محمَّد بن الربيع. وفيه **«أنَّ من عقد لحيته في الصلاة»**(1).

قلت: وهذه الرواية، لا تدل على تخصيصه في الصلاة، بل تدلّ على أنَّ فعله في الصلاة أشد من فعله خارجها.

قوله: «أو تقلَّد وترًا» أي: جعله قلادة في عُنقه، أو عُنق دابته. وفي رواية محمد بن الربيع «أو تقلَّد وترًا ـ يريد: تميمة». فإذا كان هذا فيمن تقلَّد وترًا، فكيف بمن تعلَّق بالأموات، وسألهم قضاءَ الحاجات وتفريج الكربات وما يترتب على ذلك من العبادة، التي لا يستحقها إلاَّ رب الأرض والسموات، الذي جاء النهيُ عنه وتغليظه في الآياتِ المحكمات؟.

قوله: «أو استنجى برجيع دابة أو عظم فإنَّ محمداً بريء منه» قال النووي: أي: بريءٌ من فعله. وهذا خلاف الظاهر، والنووي كثيرًا ما يتأول الأحاديث بصرفها عن ظاهرها، فيغفر الله تعالى

السبيلين؛ لأن الإنسان الذي يتمسح بعد الخلاء يزيل أثره.

ورجيع الدابة: هو روثها.

قوله: «أو عظم»: العظم المعروف: وإنما تبرأ النبي ﷺ ممن استنجى بهما؛ لأن الروث علف بهائم الجن والعظم طعامهم، يجدونه أوفر ما يكون لحمًا.

وكل ذنب قرن بالبراءة من فاعله؛ فهو من كبائر الذنوب كما هو معروف عند أهل العلم. والشاهد من هذا الحديث قوله: **«من تقلَّد وترًا»**.

---

(1) في قرة العيون: قلت: ويشبه هذا ما يفعله كثير من فتل أطراف الشارب فيترك أطرافه لذلك وهي بعضه. وفي حديث زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: **«من لم يأخذ من شاربه فليس منا»** رواه أحمد والنسائي والترمذي وقال: صحيح وفي الصحيح: **«خالفوا المشركين احفوا الشوارب واعفوا اللحى»** وذلك يدل على الوجوب، وذكر ابن حزم الإجماع على أنه فرض فيتعين النهي عن ذلك. (ق).

وعن سعيد بن جُبير، قال: «مَن قطع تميمةً من إنسان، كان كعدل رقبة» رواه وكيع.
وله عن إبراهيم، قال: كانوا يكرهون التمائم كلَّهـا، من القرآن وغير القرآن.

له. بل هو بريءٌ من الفاعل، وفعله.

وفي (صحيح مسلم)، عن ابن مسعود رضي الله عنه، مرفوعًا «**لا تستنجوا بالروث، ولا العظام؛ فإنَّه زادُ إخوانكم من الجن**»[١].

وعليه لا يجزيءُ الاستنجاء بهما، كما هو ظاهرُ مذهب أحمد؛ لما روىٰ ابنُ خزيمة، والدارقطني، عن أبي هريرة، أنَّ النبي ﷺ: نهىٰ أنْ يُستنجىٰ بعظم أو روثٍ، وقال: «**إنهما لا يطهران**»[٢].

قال المُصنِّف رحمه الله تعالى: وعن سعيد بن جُبير، قال: «مَن قطع تميمةً من إنسان، كان كعدل رقبة». رواه وكيع.

هذا عند أهل العلم، له حكمُ الرفع؛ لأن مثل ذلك لا يُقال بالرأي. ويكون هذا مرسلاً؛ لأن سعيدًا تابعي[٣]. وفيه: فضلُ قطع التمائم لأنها شرك.

ووكيع: هو ابنُ الجرَّاح بن وكيع الكوفي، ثقةٌ إمام، صاحبُ تصانيف، منها (الجامع) وغيرُه. روىٰ عنه الإمامُ أحمد وطبقتُهُ. مات سنة سبع وتسعين ومائة.

قال المُصنِّف رحمه الله تعالى: وله عن إبراهيم، قال: كانوا يكرهون التمائم كلَّها، من القرآن وغير القرآن[٤].

إبراهيم، هو الإمام إبراهيم بن يزيد النخعي الكوفي، يكنَّىٰ أبا عمران، ثقةٌ من كبار الفقهاء. قال المِزّي: دخل علىٰ عائشة، ولم يثبت له سماعٌ منها. مات سنة ستٍ وتسعين، وله خمسون سنة أو نحوها.

قوله: وعن سعيد بن جبير؛ قال: «من قطع تميمة...» الحديث: وجه المشابهة بين قطع التميمة وعتق الرقبة: أنَّه إذا قطع التميمة من إنسان؛ فكأنه أعتقه من الشرك، ففكَّه من النار، ولكن يقطعها بالتي هي أحسن، لأنَّ العنف يؤدي إلىٰ المشاحنة والشقاق، إلاَّ إن كان ذا شأن؛ كالأمير، والقاضي، ونحوه ممن له سلطة؛ فله أن يقطعها مباشرة.

قوله: «كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن»: وقد سبق أنَّ هذا رأي ابن

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٥٠) نحوه، ورواه الترمذي (١٨، ٣٢٥٨)، وأحمد (١/ ٤٣٦).
(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٣٦).
(٣) في قرة العيون: فعلى هذا يجب النهي عن تعليق التمائم والترغيب في قطعها وأن ذلك مما يجب، وفيه مع ما تقدم أنه شرك، وبيان حال السلف ﷺ من تعظيم الشرك قليله وكثيره والنهي عنه، فلما اشتدت غربة الإسلام في أواخر هذه الأمة صار إنكار هذا وما هو أعظم منه أعظم المنكرات حتى عند من ينتسب إلى العلم كما لا يخفى. (ق).
(٤) ضعيف: رواه الإسماعيلي في معجم الشيوخ (٢/ ٦٦٩)، ونسبه الحافظ للدارقطني وأنه صححه كما في الفتح (١/ ٢٥٦)، وفي الكامل في الضعفاء (٣/ ٣٣١) قال: ولسلمة بن رجاء -أحد رواته- ما ذكرت من الحديث، وأحاديثه أفراد وغرائب، ويُحدث عن قوم بأحاديث لا يُتابع عليها.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الرقي والتمائم.

الثانية: تفسير التولة.

الثالثة: أن هذه الثلاثة كلها من الشرك من غير استثناء.

الرابعة: أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك.

الخامسة: أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء هل هي من ذلك أم لا؟

قوله: (كانوا يكرهون التمائم). إلى آخره، مرادُه بذلك: أصحاب عبد الله بن مسعود، كعلقمة، والأسود، وأبي وائل، والحارث بن سُويد، وعَبيدة السلماني، ومسروق، والربيع بن خُثيم، وسُويد بن غُفُلة، وغيرهم. وهم من سادات التابعين. وهذه الصيغةُ: يستعملها إبراهيمُ في حكاية أقوالهم، كما بيَّن ذلك الحفَّاظ، كالعراقي وغيره.

مسعود رضي اللَّه عنه؛ فأصحابه يرون ما يراه.

قوله: «وله عن إبراهيم»: وهو إبراهيم النخعي.

قوله: «كانوا»: الضمير يعود إلى أصحاب ابن مسعود؛ لأنَّهم هم قرناء إبراهيم النخعي.

قوله: «التمائم»: هي ما يعلق على المريض أو الصحيح، سواء من القرآن أو غيره للاستشفاء أو لاتقاء العين، أو ما يعلَّق على الحيوانات.

وفي هذا الوقت أصبح تعليق القرآن لا للاستشفاء، بل لمجرد التبرك والزينة؛ كالقلائد الذهبية، أو الحلي التي يكتب عليها لفظ الجلالة، أو آية الكرسي، أو القرآن كاملاً؛ فهذا كله من البدع.

فالقرآن ما نزل ليستشفى به على هذا الوجه، إنَّما يُستشفى به على ما جاء به الشرع.

قوله: الأولى: تفسير الرقى والتمائم: وقد سبق ذلك.

الثانية: تفسير التولة: وقد سبق ذلك.

وعندي أن منها ما يُسمَّى بالدبلة إن اعتقدوا أنها صلة بين المرء وزوجته.

الثالثة: أنَّ هذه الثلاثة كلها من الشرك من غير استثناء: ظاهر كلامه حتى الرقى، وهذا فيه نظر؛ لأن الرقى ثبت عن النبي ﷺ أنه يرقي ويُرقى[1]، ولكنه لا يسترقي؛ أي: لا يطلب الرقية؛ فإطلاقها بالنسبة للرقى فيه نظر، وقد سبق للمؤلف رحمه اللَّه أن الدليل خص منها ما خلا من الشرك، وبالنسبة للتمائم؛ فعلى رأي الجمهور فيه نظر أيضًا.

وأما على رأي ابن مسعود؛ فصحيح، وبالنسبة للتولة؛ فهي شرك بدون استثناء.

---

(١) صحيح: وقد تقدم.

السادسة: أن تعليق الأوتار على الدواب عن العين، من ذلك.

السابعة: الوعيد الشديد على من تعلق وتراً.

الثامنة: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان.

....

الرابعة: أن الرقية بالكلام الحق من العين أو الحُمة ليس من ذلك:
قوله: «**الكلام الحق**»: ضده الباطل، وكذا المجهول الذي لا يعلم أنه حق أو باطل.
والمؤلف رحمه الله تعالى خصص العين أو الحمة فقط استناداً لقول الرسول ﷺ: «**لا رقية إلا من عين أو حمة**»[١]، ولكن الصحيح أنَّه يشمل غيرهما؛ كالسحر.

الخامسة: أن التميمة إذا كانت من القرآن؛ فقد اختلف العلماء: هل هي من ذلك أم لا؟
قوله: «**ذلك**»: المشار إليه: التمائم المحرمة.
وقد سبق بيان هذا الخلاف، والأحوط مذهب ابن مسعود؛ لأنَّ الأصل عدم المشروعية حتى يتبين ذلك من السنة.

السادسة: أن تعليق الأوتار على الدواب عن العين من ذلك: أي: من الشرك.
تنبيه: ظهر في الأسواق في الآونة الأخيرة حلقة من النحاس يقولون: إنَّها تنفع من الروماتيزم، يزعمون أنَّ الإنسان إذا وضعها على عضده وفيه روماتيزم تنفعه من هذا الروماتيزم، ولا ندري هل هذا صحيح أم لا؟ لكن الأصل أنه ليس بصحيح؛ لأنه ليس عندنا دليل شرعي ولا حسي يدل على ذلك، وهي لا تؤثر على الجسم؛ فليس فيها مادة دهنية حتى نقول: إن الجسم يشرب هذه المادة وينتفع بها؛ فالأصل أنَّها ممنوعة حتى يثبت لنا بدليل صحيح صريح واضح أنَّ لها اتصالاً مباشراً بهذا الروماتيزم حتى ينتفع بها.

السابعة: الوعيد الشديد على من علَّق وتراً: وذلك لبراءة الرسول ﷺ ممن تعلق وتراً، بل ظاهره أنَّه كفر مُخرج من الملة، قال تعالى: ﴿**وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ**﴾ [التوبة: ٣]، لكن قال أهل العلم: إنَّ البراءة هنا براءة من هذا الفعل؛ كقوله ﷺ: «**من غشَّنا؛ فليس منا**»[٢].

الثامنة: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان: لقول سعيد بن جبير: «كان كعدل رقبة»، ولكن هل قوله حجة أم لا؟ إن قيل: ليس بحجة؛ فكيف يقول المؤلف: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان؟ فيقال: إنه إنَّما كان كذلك؛ لأنَّه انقاد له من رق الشرك؛ فهو كمن أعتقه، بل أبلغ.
فهو من باب القياس، فمن أنقذ نفساً من الشرك فهو كمن أنقذها من الرق لأنه أنقذه من رق الشيطان والهوى.

---

(١) صحيح: وقد تقدم..

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠١)، وابن ماجه (٢٥٧٥)، وأحمد (٨١٥٩، ٢٧٥٠٠).

التاسعة: أن كـلام إبراهيم لا يخالف ما تقدَّم من الاختـلاف، لأنَّ مراده أصحاب عبد الله بن مسعود.

. . . .

فائدة: إذا قال التابعي: من السنة كذا؛ فهل يعتبر موقوفًا متَّصلاً ويكون المراد من السنة أي سنة الصحابة، أو يكون مرفوعًا مرسلاً؟

اختلف أهل العلم في هذا؛ فبعضهم قال: إنه يكون موقوفًا.

وبعضهم قال: يكون مرفوعًا مرسلاً.

وتقدم لنا أنَّه ينبغي أن يفصل في هذا، وأنَّ التابعي إذا قاله محتجًا به؛ فإنَّه يكون مرفوعًا مرسلاً، أما إذا قاله في سياق غير الاحتجاج؛ فهذا قد يُقال: إنَّه من باب الموقوف الذي ينسب إلى الصحابي.

التاسعة: أن كلام إبراهيم النخعي لا يخالف ما تقدم من الاختلاف؛ لأن مراده أصحاب عبد اللَّه بن مسعود.

وليس مراده الصحابة، ولا التابعين عمومًا.

* * *

٨ ـ باب
من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما

وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٣].

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ من تبرَّك بشجرة أو حجر ونحوهما:
كبُقعة أو قبر، ونحو ذلك، أي: فهو مُشرك.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٣].

وكانت اللاَّتُ، لثقيف. والعُزَّىٰ، لقريش وبني كِنانة. ومناة لبني هلال. وقال ابنُ هشام: كانت لهُذيل وخُزاعة.

فأمَّا (اللاَّتُ): فقرأ الجمهورُ: بتخفيف التاء. وقرأ ابنُ عباس، وابن الزبير، ومُجاهد، وحُميد، وأبو صالح، ورُوَيْس عن يعقوب: بتشديد التاء.

فعلى الأُولىٰ: قال الأعمش: سمَّوا اللات، من الإله. والعُزَّىٰ، من العزيز. قال ابنُ جرير: وكانوا قد شقُّوا اسمَها من اسم الله تعالىٰ، فقالوا: اللاَّت، مؤنثة منه. تعالىٰ الله عمَّا يقولون، علوًّا كبيرًا. قال: وكذا العُزَّىٰ، من العزيز.

قوله: «تبرك»: تفعَّل من البركة، والبركة: هي كثرة الخير وثبوته، وهي مأخوذة من البِركة بالكسر، والبِركة: مجمع الماء، ومجمع الماء يتميز عن مجرىٰ الماء بأمرين:

١ ـ الكثرة.　　　　٢ ـ الثبوت.

والتبرك: طلب البركة، وطلب البركة لا يخلو من أمرين:

١ ـ أن يكون التبرك بأمر شرعي معلوم؛ مثل القرآن، قال تعالىٰ: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ [ص: ٢٩]. فمن بركته أنَّ من أخذ به حصل له الفتح، فأنقذ اللَّه بذلك أممًا كثيرة من الشرك.

ومن بركته أن الحرف الواحد بعشر حسنات، وهذا يوفر للإنسان الوقت والجهد... إلىٰ غير ذلك من بركاته الكثيرة.

٢ ـ أن يكون بأمر حسي معلوم؛ مثل: التعليم، والدعاء، ونحوه؛ فهذا الرجل يتبرك بعلمه ودعوته إلىٰ الخير؛ فيكون هذا بركة لأنَّنا نلنا منه خيرًا كثيرًا.

وقال أسيد بن حضير: «ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر»؛ فإنَّ اللَّه يجري علىٰ بعض الناس من أمور الخير ما لا يجريه علىٰ يد الآخر. وهناك بركات موهومة باطلة؛ مثل ما يزعمه الدجَّالون؛

. . . .

وقال ابنُ كـثير: اللاَّت، كانت صخرةً بيضاء منقوشة، عليها بيتٌ بالطائف، له أستار وسَدَنة. وحوله فِناءٌ معظَّمٌ عند أهل الطائف وهم ثقيف ومن تبعها يفتخرون به على من عداهم من أحياء العرب، بعد قريش. قال ابنُ هشام: فبعث رسولُ الله ﷺ المغيرةَ بن شُعبة، فهدمها وحرَّقها بالنار.

وعلى الثانية: قال ابنُ عباس: كان رجلاً يلُتُّ السويق للحاج، فلما مات عكفوا على قبره[1]. ذكره البخاريُّ.

قال ابن عباس: كان يبيع السويقَ والسَّمن عند صخرةٍ، ويسلوه عليها، فلمَّا مات ذلك الرجل، عبدت ثقيفُ تلك الصخرة إعظامًا لصاحب السويق[2]. وعن مُجاهد نحوه، وقال: فلما مات عبدوه. رواه سعيدُ بن منصور. وكذا، روى ابنُ أبي حاتم، عن ابن عباس: أنهم عبدوه. وبنحو هذا، قال جماعة من أهل العلم.

أنَّ فلانًا ـ الميت الذي يزعمون أنَّه ولي ـ أنزل عليكم من بركته وما أشبه ذلك؛ فهذه بركة باطلة، لا أثر لها، وقد يكون للشيطان أثر في هذا الأمر، لكنها لا تعدو أن تكون آثارًا حسية، بحيث إنَّ الشيطان يخدم هذا الشيخ؛ فيكون في ذلك فتنة. أما كيفية معرفة هل هذه من البركات الباطلة أو الصحيحة؟ فيعرف ذلك بحال الشخص، فإن كان من أولياء اللَّه المتقين المتبعين للسنة المبتعدين عن البدعة؛ فإن اللَّه قد يجعل على يديه من الخير والبركة ما لا يحصل لغيره. ومن ذلك ما جعل اللَّه على يد شيخ الإسلام ابن تيمية من البركة التي انتفع بها الناس في حياته وبعد موته. أما إن كان مخالفًا للكتاب والسنة، أو يدعو إلى باطل؛ فإنَّ بركته موهومة، وقد تضعها الشياطين له مساعدة على باطله، وذلك مثل ما يحصل لبعضهم أنه يقف مع الناس في عرفة ثم يأتي إلى بلده ويضحي مع أهل بلده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إنَّ الشياطين تحملهم لكي يغتر بهم الناس، وهؤلاء وقع منهم مخالفات.

ومنها: عدم إتمام الحج.

ومنها: أنهم يمرون بالميقات لا يُحرمون منه.

قوله: «شجر»: اسم جنس؛ فيشمل أي شجرة تكون، ومن حسنات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لَمَّا رأى الناس ينتابون الشجرة التي وقعت تحتها بيعة الرضوان أمر بقطعها.

قوله: «وحجر»: اسم جنس يشمل أي حجر كان حتى الصخرة التي في بيت المقدس؛ فلا يتبرك

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٨٥٩).

(٢) وفي النهاية: السلاء السمن. وفي فتح الباري (ج٨ص٤٣٣): وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس -ولفظه فيه زيادة- «كان يلت السويق على الحجر، فلا يشرب منه أحد إلا سمن، فعبدوه» واختلف في اسم هذا الرجل: فعن مجاهد «كان رجلاً في الجاهلية على صخرة بالطائف وعليها له غنم فكان يسلؤ من رسلها. ويأخذ من زبيب الطائف والأقط فيجعل منه حيسًا ويطعم من يمر به من الناس. فلما مات عبدوه. وزعم بعض الناس أنه عامر بن الظرب. اهـ. مختصرًا. (ق).

....

قلتُ: لا منافاة بين القولين؛ فإنَّهم عبدوا الصخرةَ والقبر، تألُّهًا وتعظيمًا.
ولمثل هذا بُنيت المشاهدُ والقباب على القبور، واتخذت أوثانًا. وفيه: بيانُ أنَّ أهل الجاهلية كانوا يعبدون الصالحين، والأصنام والأوثان. وأمَّا العُزَّىٰ.
فقال ابنُ جرير: كانت شجرةً عليها بناءٌ وأستار، بنخلة بين مكة والطائف كانت قريشُ يعظمونها؛ كما قال أبو سفيان، يوم أُحد: لنا العُزَّىٰ ولا عُزَّىٰ لكم، فقال رسولُ الله ﷺ قولوا: «الله مولانا ولا مولى لكم»[1].
وروىٰ النسائي، وابنُ مردويه، عن أبي الطفيل، قال: لما فتح رسولُ الله ﷺ مكة، بعث خالَد بن

بها، وكذا الحجر الأسود لا يتبرك به، وإنَّما يتعبد للَّه بمسحه وتقبيله؛ اتباعًا للرسول ﷺ وبذلك تحصل بركة الثواب. ولهذا قال عمر رضي اللَّه عنه: «إني أعلم أنَّك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول اللَّه ﷺ يقبلك؛ ما قبلتك»[2]. فتقبيله عبادة محضة خلافًا للعامة، يظنون أنَّ به بركة حسية، ولذلك إذا استلمه بعض هؤلاء مسح على جميع بدنه تبركًا بذلك.
قوله: «ونحوهما»: أي من البيوت، والقباب، والحجر؛ حتىٰ حجرة قبر النبي ﷺ فلا يتمسح بها تبركًا، لكن لو مسح الحديد لينظر هل هو أملس أو لا؛ فلا بأس، إلا إن خشي أن يُقتدىٰ به؛ فلا يمسحه.
قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩]: لما ذكر اللَّه ـ عز وجل ـ المعراج بقوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١، ٢]. قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١٨]؛ أي: رأىٰ النبي ﷺ من آيات اللَّه الكبرىٰ.
وقد اختلف العلماء في قوله: ﴿الْكُبْرَىٰ﴾: هل هي مفعول لـ: ﴿رَأَىٰ﴾، أو صفة لـ: ﴿آيَاتِ﴾؟
قوله: ﴿الْكُبْرَىٰ﴾ قيل: إنها مفعول لـ ﴿رَأَىٰ﴾، والتقدير: لقد رأىٰ ـ من آيات اللَّه ـ الكبرىٰ.
فعلىٰ الرأي الأول: يكون المعنىٰ: أنه رأىٰ الكبرىٰ من الآيات.
وعلىٰ الرأي الثاني: يكون المعنىٰ أنه رأىٰ بعض الآيات الكبرىٰ، وهذا هو الصحيح، أن الكبرىٰ صفة لـ ﴿آيَاتِ﴾، وليست مفعولاً لـ ﴿رَأَىٰ﴾؛ إذ إن ما رآه ليس أكبر آيات اللَّه.
وبعد أن ذكر اللَّه ما رأىٰ النبي ﷺ من هذه الآيات؛ قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ⑲ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]؛ أي: أخبروني ما شأنها، وما حالها بالنسبة إلىٰ هذه الآيات العظيمة، إنها ليست بشيء. والاستفهام: للاستخفاف والاستهجان بهذه الأصنام.
قول: ﴿اللَّاتَ﴾: تقرأ بتشديد التاء وتخفيفها، والتشديد قراءة ابن عباس؛ فعلىٰ قراءة التشديد تكون اسم فاعل من اللَّتِّ، وكان هذا الصنم أصله رجل يلتّ السويق للحجاج؛ أي: يجعل فيه السمن، ويطعمه الحجاج، فلما مات عكفوا علىٰ قبره وجعلوه صنمًا. وأما علىٰ قراءة التخفيف؛ فإن

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٠٣٩، ٤٠٤٣).
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٥٩٧، ١٦١٠)، ومسلم (١٢٧٠)، وأبو داود (١٨٧٣)، والنسائي (٢٩٣٧، ٢٩٣٨)، وابن ماجه (٢٩٤٣)، وأحمد (١٠٠) ومواضع.

. . . .

الوليد إلىٰ نخلة وكانت بها العُزَّىٰ، وكانت علىٰ ثلاث سَمُرات فقطع السَّمُرات، وهدم البيت الذي كان عليها. ثم أتىٰ النبي ﷺ فأخبره. فقال: «ارجع، فإنك لم تصنع شيئًا» فرجع خالد، فلما أبصرته السدنة أمعنوا في الجبل، وهم يقولون: يا عزَّىٰ يا عزَّىٰ. فأتاها خالد، فإذا امرأةٌ عُريانة، ناشرةٌ شعرها تحفن التراب علىٰ رأسها! فعمَّمها بالسيف، فقتلها. ثم رجع إلىٰ رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «تلك العزى»[1] قال أبو صالح: كانوا يُعلِّقون عليها السُّيور، والعُهن. رواه عبد بن حُميد، وابن جرير.

قلتُ: وكلُّ هذا، وما هو أعظمُ منه يقعُ في هذه الأزمنة عند ضرائح الأموات، وفي المشاهد.

اللات مشتقة من اللَّه، أو من الإله؛ فهم اشتقوا من أسماء اللَّه اسمًا لهذا الصنم، وسموه اللات، وهي لأهل الطائف ومن حولهم من العرب.

قوله: ﴿وَالْعُزَّىٰ﴾: مؤنث أعز، وهو صنم يعبده قريش وبنو كنانة مشتق من اسم اللَّه العزيز كان بنخلة بين مكة والطائف.

قوله: ﴿وَمَنَاةَ﴾: قيل: مشتقة من المنام، وقيل: من منىٰ؛ لكثرة ما يمنىٰ عنده من الدماء؛ بمعنىٰ يراق، ومنه سميت منىٰ؛ لكثرة ما يراق فيها من الدماء. وكان هذا الصنم بين مكة والمدينة لهذيل وخزاعة، وكان الأوس والخزرج يعظمونها ويهلون منها للحج.

قوله: ﴿الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾: إشارة إلىٰ أن التي تعظمونها، وتذبحون عندها، وتكثر إراقة الدماء حولها: أنها أخرىٰ بمعنىٰ متأخرة؛ أي: ذميمة حقيرة، مأخوذة من قولهم: فلان أخر؛ أي: ذميم، حقير، متأخر.

فهذه الأصنام الثلاثة المعبودة عند العرب ما حالها بالنسبة لما رأىٰ النبي ﷺ لا شيء، وإنما ذكر هذه الأصنام الثلاثة لأنها أشهر الأصنام وأعظمها عند العرب.

قوله: «الآيات»: أي: أكمل الآيات بعدها.

قوله: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾: هذا أيضًا استفهام إنكاري علىٰ المشركين الذين يجعلون للَّه البنات ولهم البنين؛ فإذا ولد لهم الولد الذكر فرحوا واستبشروا به، وإذا ولدت الأنثىٰ ظل وجه الإنسان منهم مسودًا وهو كظيم، ومع ذلك يقولون: الملائكة بنات اللَّه؛ فيجعلون البنات للَّه - والعياذ باللَّه - ولهم ما يشتهون.

قوله: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾: ضيزىٰ: جائرة؛ لأنه علىٰ الأقل إذا أردتم القسمة، فاجعلوا لكم من البنات نصيبًا، واجعلوا للَّه من البنين نصيبًا، أمَّا أن تجعلوا ما تختارونه لأنفسكم - وهم البنون - وتجعلون ما تكرهون للَّه؛ فهذه قسمة جائرة.

قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾: الضمير في ﴿هِيَ﴾ يعود إلىٰ الأصنام؛ أي: هذه الأصنام (اللات، والعزىٰ، ومناة) التي سميتموها آلهة واتخذتموها آلهة تعبدونها هي

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى (٦/ ٤٧٤)، وأبو يعلى في مسنده (٢/ ١٦٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٧٦): رواه الطبراني وفيه يحيى بن المنذر وهو ضعيف.

. . . .

وأمَّا مَناة: فكانت بالمشلَّل عند قُديد، بين مكة والمدينة. وكانت خُزاعةُ والأوس والخزرج يعظمونها، يهُلُّون منها للحج. وأصلُ اشتقاقها، من اسم الله المنَّان.

وقيل لكثرة ما يُمنىٰ - أي يُراق - عندها من الدماء، للتبرُّك بها. قال البخاريُّ رحمه الله تعالىٰ في حديث عُروة، عن عائشة رضي الله عنها: إنها صنمٌ بين مكة والمدينة [(١)].

قال ابنُ هشام: فبعث رسولُ الله ﷺ عليًّا، فهدمها عام الفتح [(٢)].

وقال العمادُ بن كثير: فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في غزوة بني المصطلق، فكسرها.

فمعنىٰ الآية، كما قال القرطبي: أنَّ فيها حذفًا، تقديره: أفرأيتم هذه الآلهة: أنفعتْ أو ضرَّت، حتىٰ تكون شركاء لله تعالىٰ؟

وقوله: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴾ قال ابنُ كثير: أتجعلون له ولدًا، وتجعلون ولده أنثىٰ وتختارون لكم الذكور؟

مجرد أسماء سميتموها، ولكن ما أنزل اللَّه بها من سلطان؛ أي: من حجة ودليل. بل أبطلها اللَّه - سبحانه - قال تعالىٰ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

وأصل السلطان في اللغة العربية: ما به سلطة، فإن كان في مقام العلم؛ فهو العلم، وإن كان في مقام القدرة؛ فهو القدرة، وإن كان في مقام الأمر والنهي؛ فهو من له الأمر والنهي؛ فمثلاً قوله تعالىٰ: ﴿لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣]؛ أي: بقدرة وقوة، ومثل قوله تعالىٰ: ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣]، أي: من حجة وبرهان [(٣)].

وفي الحديث: «السلطان ولي من لا ولي له»؛ أي: من له الأمر والنهي.

قوله: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ ﴾: ﴿إِن﴾ هنا بمعنىٰ «ما»، وعلامة «إن» التي بمعنىٰ «ما» أن تأتي بعدها «إلا»، قال تعالىٰ: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: ٣١]، يعني ما هذا إلا ملك كريم، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]؛ أي: ما هذا إلا قول البشر؛ وقال تعالىٰ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ [النجم: ٢٣]؛ أي: ما يتبعون إلا الظن.

والظن الذي يتبعونه هو أنها آلهة، وأنّ للَّه البنات ولهم البنين، والظن لا يغني من الحق شيئًا؛ كما قال تعالىٰ في آية أخرىٰ.

قوله: ﴿وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ﴾: كذلك أيضًا يتَّبعون ما تهوىٰ الأنفس، هذا أضر شيء علىٰ الإنسان أن يتبع ما يهوىٰ؛ فالإنسان الذي يعبد اللَّه بالهوىٰ؛ فإنه لا يعبد اللَّه حقًّا، إنما يعبد عقله وهواه، قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]، لكن الذي يعبد اللَّه بالهدىٰ لا بالهوىٰ هو الذي علىٰ الحق.

قوله: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾: أي: علىٰ يد النبي ﷺ؛ فكان الأجدر بهم أن يتبعوا

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٨٦١). (٢) ذكره الحافظ في الفتح (٨/ ٦١٢).

(٣) صحيح: رواه أبو داود (٢٠٨٣)، والترمذي (١١٠٢)، وابن ماجه (١٨٧٩، ١٨٨٠)، وأحمد (٢٣٦٨٥) ومواضع، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الإرواء (١٨٤٨)، والمشكاة (٣١٣١).

. . . .

قوله: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ أي: جورٌ، وباطلة. فكيف تُقاسمون ربكم هذه القسمة، التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهًا. فتنزِّهون أنفسكم عن الإناث، وتجعلونهن لله تعالىٰ.

وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ أي: من تلقاء أنفسكم ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ﴾ أي: ليس لهم مستندٌ إلاَّ حسن ظنهم بآبائهم، الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم[١]. وإلاَّ حظ أنفسهم، في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين.

قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾. قال ابنُ كثير: ولقد أرسل الله تعالىٰ إليهم الرسل بالحق المنير، والحجة القاطعة.

ومع هذا، ما اتبعوا ما جاءوهم به ولا انقادوا له. ومطابقةُ الآيات للترجمة: من جهة أنَّ عُبَّاد الأوثان، إنما كانوا يعتقدون حصول البركة منها: بتعظيمها، ودعائها، والاستعانة بها، والاعتماد عليها في حصول ما يرجونه منها ويؤمِّلونه ببركتها وشفاعتها، وغير ذلك.

فالتبركُ بقبور الصالحين كاللاَّت وبالأشجار والأحجار كالعُزَّىٰ ومَناة[٢]؛ من فِعل جملة أولئك المشركين مع تلك الأوثان.

فمن فعل مثل ذلك، أو اعتقد في قبرٍ أو حجر أو شجر، فقد ضاهىٰ عُبَّاد هذه الأوثان فيما يفعلونه معها من هذا الشرك. علىٰ أنَّ الواقع من هؤلاء المشركين مع معبوديهم، أعظم مما وقع من أولئك. فالله المُستعان.

الهدىٰ دون الهوىٰ.

مناسبة الآية للترجمة: أنهم يعتقدون أن هذه الأصنام تنفعهم وتضرهم، ولهذا يأتون إليها؛ يدعونها، ويذبحون لها، ويتقربون إليها، وقد يبتلي اللّه المرء فيحصل له ما يريد من اندفاع ضر أو جلب نفع بهذا الشرك؛ ابتلاءً من اللّه وامتحانًا، وهذا قد تقدم لنا له نظائر؛ أن اللّه يبتلي المرء بتيسير أسباب المعصية له حتىٰ يعلم سبحانه من يخافه بالغيب.

قوله: «خرجنا مع النبي ﷺ»: أي: بعد غزوة الفتح؛ لأن النبي ﷺ لما فتح مكة تجمعت له ثقيف

---

(١) الظن هنا: ظن المشركين بأوليائهم أنها تسمع الدعاء وتجيب، فإنهم ليس لهم علم بذلك لا من طريق حواسهم، ولا من خبر صادق؛ وإنما هو مما يشيعه السدنة ترويجًا لتجارتهم الخاسرة. ويزيد الجاهلين تعلقًا بأوليائهم من دون الله: ما تهوى أنفسهم من قضاء حاجاتهم بغير الأسباب الكونية؛ فهم يعظمون أولئك الموتى لهوى أنفسهم وقضاء وطرهم لا حبًا في الإيمان والمؤمنين. ولذلك تراهم يتنقلون من ميت إلى آخر إذا لم يجدوا مسألتهم قضيت عند الأول. وهكذا ترى السدنة إذا انتقلوا من وظيفة عند هذا الولي الذي كان في نظرهم كبيراً أصبح الولي الذي انتقلوا عند قبره أعظم بركة وأكثر كرامات. والله يقول: إن هؤلاء جميعًا لا يتبعون إلا هوى أنفسهم وهم كاذبون أعظم الكذب في دعواهم حب الأولياء والصالحين. (ق).

(٢) ما كانوا يتبركون بالعزى ومناة على أنها أحجار مجردة، وإنما كانوا يعتقدون فيها البركة من العزى التي كانت امرأة يزعمون أنها ولية ودفنت عند هذه الشجيرات. وكذلك مناة. ولذلك سموا الأشجار العزى والحجر مناة؛ كما يسمي الناس اليوم النحاس الذي يقام على القبر حسينًا وزينبًا وغيرهما من الصالحين، فهم يتبركون بها على هذه العقيدة الجاهلية. (ق).

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: عن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنين، ونحن حُدَثاءُ عهدٍ بكفر. وللمشركين سِدْرةٌ يَعكفُون عندها،

قال المُصنِّف رحمه الله تعالى: عن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنين، ونحن حُدَثاءُ عهدٍ بكفر. وللمشركين سِدْرةٌ يَعكفُون عندها، ويَنوطون بها أسلحتَهم، يقال لها: ذاتُ أنواط. فمررنا بسدْرة، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذاتُ أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، إنها السُّنن. قُلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنوإسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] «لتركبُنَّ سُنَن من كان قبلكم» رواه الترمذي وصححه[١].

أبو واقد: اسمُه الحارثُ بن عوف. وفي الباب: عن أبي سعيد، وأبي هريرة. قاله الترمذي.

وقد رواه أحمدُ، وأبو يعلى، وابنُ أبي شيبة، والنسائي، وابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، بنحوه.

قوله: (عن أبي واقد). تقدم اسمُه، في قول الترمذي. وهو صحابيٌّ مشهور، مات سنة ثمانٍ وستين، وله خمس وثمانون سنة.

قوله: (خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنين). وفي حديث عمرو بن عوف وهو عند ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والطبراني قال: غزونا مع رسول الله ﷺ يوم الفتح، ونحن ألفٌ ونيِّف. حتى إذا كنا بين حُنينٍ والطائف الحديث.

قوله: (ونحن حُدَثاءُ عهد بكفر). أي: قريبٌ عهدُنا بالكفر، ففيه: دليلٌ على أنَّ غيرهم ممن تقدم إسلامُه من الصحابة لا يجهل هذا، وأنَّ المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبُه، لا يأمن أنْ يكون في قلبه بقيةٌ من تلك العادة. ذكره المصنف.

قوله: (وللمشركين سدرةٌ يعكفون عندها). العكوف: هو الإقامةُ على الشيء في المكان،

وهوازن بجمع عظيم كثير جدًّا. فقصدهم ﷺ ومعه اثنا عشر ألفًا: ألفان من أهل مكة، وعشرة آلاف جاء بهم من المدينة، فلما توجهوا بهذه الكثرة العظيمة؛ قالوا: لن نغلب اليوم من قلة؛ فأعجبوا بكثرتهم، ولكن بين اللَّه أن النصر من عند اللَّه وليس بالكثرة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ...﴾ [التوبة: ٢٥] الآيتين. ثم لما انحدروا من وادي حنين وجدوا أن المشركين قد كمنوا لهم في الوادي؛ فحصل ما حصل، وتفرق المسلمون عن رسول اللَّه ﷺ، ولم يبق معه إلا نحو مائة رجل، وفي آخر الأمر كان النصر للنبي ﷺ، والحمد للَّه.

قوله: «حدثاء»: جمع حديث؛ أي: أننا قريبو عهد بكفر، وإنما ذكر ذلك رضي اللَّه عنه للاعتذار لطلبهم وسؤالهم، ولو وقر الإيمان في قلوبهم لم يسألوا هذا السؤال.

---

(١) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في ظلال الجنة (٧٦)، والمشكاة (٥٣٦٩).

وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذاتُ أنواط. فمررنا بسدرة، فقلنا:

ومنه قولُ الخليل عليه السلام: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] وكان عكوفُ المشركين عند تلك السدرة، تبرُّكًا بها وتعظيمًا لها(١). وفي حديث عمرو: كان يُناط بها السلاح؛ فسُمّيت ذاتُ أنواط. وكانت تُعبد من دون الله.

قوله: (وينوطون بها أسلحتهم). أي: يعلِّقونها عليها؛ للبركة.

قلت: ففي هذا، بيانُ أنَّ عبادتهم لها بالتعظيم والعكوف والتبرك. و بهذه الأمور الثلاثة، عُبدت الأشجار ونحوها.

قوله: (فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط). قال أبو السعادات: سألوه أنْ يجعل لهم، مثلَها، فنهاهم عن ذلك. وأنواط: جمع نَوْط، وهو مصدرٌ سُمِّي به المَنُوط. ظنوا أنَّ هذا محبوبٌ عند الله، وقصدوا التقرب به. وإلاَّ فهم أجلُّ قدرًا، من أنْ يقصدوا مخالفة النبي ﷺ.

قوله: فقال رسولُ الله ﷺ: «الله أكبر!» وفي رواية: «سبحان الله!». والمراد: تعظيم الله تعالىٰ، وتنزيهه عن هذا الشرك بأي نوع كان، مما لا يجوز أن يُطلب ويُقصد به غير الله.

قوله: «يعكفون عندها»: أي: يقيمون عليها، والعكوف: ملازمة الشيء، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

قوله: «ينوطون»: أي: يعلقون بها أسلحتهم تبركًا.

قوله: «يقال: لها ذات أنواط»: أي: أنها تلقب بهذا اللقب لأنها تناط فيها الأسلحة، وتعلق عليها رجاء بركتها؛ فالصحابة رضي الله عنهم قالوا للنبي ﷺ: «اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط»؛ أي: سدرة نعلق أسلحتنا عليها تبركًا بها، فقال النبي ﷺ: «اللَّه أكبر!» كبر تعظيمًا لهذا الطلب؛ أي: استعظامًا له، وتعجبًا لا فرحًا به، كيف يقولون هذا القول وهم آمنوا بأنه لا إله إلا اللَّه؟! لكن: «إنها السنن»؛ أي: الطرق التي يسلكها العباد.

«قلتم ـ والذي نفسي بيده ـ كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة».

أي: إن الرسول ﷺ قاس ما قاله الصحابة رضي اللَّه عنهم على ما قاله بنو إسرائيل لموسىٰ حين قالوا: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة؛ فأنتم طلبتم ذات أنواط كما أن لهؤلاء المشركين ذات أنواط.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده» المراد أن نفسه بيد اللَّه، لا من جهة إماتتها وإحيائها فحسب؛ بل من جهة تدبيرها وتصريفها أيضًا، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها سبحانه وتعالىٰ.

قوله: «لتركبن سنن من كان قبلكم»: أي: لتفعلن مثل فعلهم، ولتقولن مثل قولهم، وهذه الجملة لا يراد بها الإقرار، وإنما يراد بها التحذير؛ لأنه من المعلوم أن سنن من كان قبلنا مما جرىٰ تشبيهه سنن ضالة، حيث طلبوا آلهة مع اللَّه؛ فأراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يحذر أمته أن تركب

---

(١) كما يعكف اليوم عباد القبور عندها، ويجاورون، معتقدين أن لهم بذلك الزلفى والقربى ويعتقد الجاهلون لهم ذلك فيعاونونهم بالنذور لتلك القبور والصدقات قربة لأولئك الموتى. وكل ذلك من الشرك الأكبر. (ق).

يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذاتُ أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر! إنها السنن. قُلتم ـ والذي نفسي بيده ـ كما قالت بنوإسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] «لتركبُنَّ سُنَن من كان قبلكم» رواه الترمذي وصححه.

وكان النبي ﷺ يستعملُ التكبير والتسبيح في حال التعجُّب؛ تعظيمًا لله وتنزيهًا له. إذا سمع من أحدٍ ما لا يليق بالله مما فيه هَضْمٌ للربوبية والإلهية.

قوله: «إنها السُّنَن» بضم السين، أي: الطرق.

قوله: «قلتم والذي نفسي بيده، كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾»: شبَّه مقالتَهم هذه، بمقالة بني إسرائيل؛ بجامع أنَّ كلاً طلب أنْ يُجعل له ما يألهه ويعبُده من دون الله. وإن اختلف اللفظان، فالمعنى واحد. فتغيير الاسم، لا يُغير الحقيقة.

ففيه: الخوفُ من الشرك. وأنَّ الإنسان قد يستحسن شيئًا يظنه يقربه إلى الله، وهو أبعدُ ما يبعده من رحمته، ويقربه من سخطه. ولا يعرف هذا على الحقيقة إلاَّ من عرف ما وقع في هذه الأزمان، من كثير من العلماء والعُبَّاد مع أرباب القبور. من الغلوِّ فيها، وصرف جل العبادة لها. ويحسبون أنهم على شيء، وهو الذنبُ الذي لا يغفره الله.

قال الحافظُ أبو محمد، عبد الرحمن بن إسماعيل الشافعي، المعروف بأبي شامة في (كتاب البدع والحوداث): ومن هذا القسم، أيضًا: ما قد عَمَّ الابتلاءُ به، من تزيين الشيطان للعامة: تخليقُ الحيطان والعُمد، وسرْجُ مواضع مخصوصة، في كل بلد يحكي لهم حاكٍ أنه رأى في منامه بها أحداً ممن شُهر بالصلاح والولاية. فيفعلون ذلك، ويحافظون عليه، مع تضييعهم فرائضَ الله تعالى وسننه. ويظنون

باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما

أي: فإن ذلك من الشرك ومن أعمال المشركين، فإن العلماء اتفقوا على أنه لا يشرع التبرك بشيء من الأشجار والأحجار والبقع والمشاهد وغيرها؛ فإن هذا التبرك غلو فيها وذلك يتدرج به إلى دعائها وعبادتها وهذا هو الشرك الأكبر كما تقدم انطباق الحد عليه وهذا عام في كل شيء حتى مقام إبراهيم وحجرة النبي ﷺ وصخرة بيت المقدس وغيرها من البقع الفاضلة.

وأما استلام الحجر الأسود وتقبيله واستلام الركن اليماني من الكعبة المشرفة فهذا عبودية لله وتعظيم لله وخضوع لعظمته فهو روح التعبد فهذا تعظيم للخالق وتعبد له، وذاك تعظيم للمخلوق وتأله له فالفرق بين الأمرين كالفرق بين الدعاء لله الذي هو إخلاص وتوحيد والدعاء للمخلوق الذي هو شرك وتنديد.

سنن من كان قبلها من الضلال والغي.

الشاهد من هذا الحديث قولهم: «**اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط**»؛ فأنكر عليهم النبي ﷺ.

. . . .

أنهم متقربون بذلك ، ثم يتجاوزون هذا إلىٰ أن يَعظُمَ وقعُ تلك الأماكن في قلوبهم. فيعظمونها، ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لها، وهي من عيون وشجر وحائط وحجر.

وفي مدينة دِمَشق من ذلك مواضعُ متعددةٌ، كعوينة الحمَّىٰ خارج باب تُوما، والعمود المخلَّق داخل باب الصغير، والشجرة الملعونة خارج باب النصر في نفس قارعة الطريق. سَهَّل الله قطعها واجتثاثَها من أصلها؛ فما أشبهها بذات أنواط الواردة في الحديث[1]. انتهىٰ.

وذكر ابنُ القيم رحمه الله تعالى: نحو ما ذكره أبو شامة، ثم قال: فما أسرعَ أهل الشرك إلىٰ اتخاذ الأوثان من دون الله، ولو كانت ما كانت. ويقولون: إنَّ هذا الحجر وهذه الشجرة، وهذه العين تقبل النذر. أي: تقبل العبادة من دون الله؛ فإنَّ النذر عبادةٌ وقربة، يتقرب بها الناذرُ إلىٰ المنذور له. وسيأتي ما يتعلَّق بهذا الباب، عند قوله: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد**»[2].

وفي الجملة من الفوائد: أنَّ ما يفعلهُ من يعتقد في الأشجار والقبور والأحجار، من التبرك بها والعكوف عندها والذبح لها، هو الشرك. ولا يغتر بالعوام والطغام، ولا يستبعد كون الشرك بالله يقع في هذه الأمة. فإذا كان بعضُ الصحابة ظنوا ذلك حسنًا، وطلبوه من النبي ﷺ حتىٰ بيَّن لهم أنَّ ذلك كقول بني إسرائيل ﴿**اجْعَل لَّنَا إِلَهًا**﴾ [الأعراف: ١٣٨] فكيف لا يخفىٰ علىٰ من هو دونهم في العلم والفضل بأضعافٍ مضاعفة، مع غلبة الجهل وبُعد العهد بآثار النبوة؟! بل خفي عليهم عظائمُ الشرك في الإلهية والربوبية، فأكثروا فعله واتخذوه قُربة.

ومنها: أنَّ الاعتبار في الأحكام بالمعاني لا بالأسماء، ولهذا جعل النبيُّ ﷺ طلبهم كطلب بني إسرائيل، ولم يلتفت إلىٰ كونهم سمَّوها ذاتَ أنواط.

فالمشركُ وإنْ سمَّىٰ شركَه ما سماه كمن يُسمي دعاء الأموات، والذبح لهم والنذر ونحو ذلك تعظيمًا ومحبة فإنَّ ذلك هو الشرك، وإنْ سمَّاه ما سماه. وقس علىٰ ذلك.

قوله: «لتركبُن سُنَن من كان قبلكم»[3] بضمِّ الموحدَّة وضم السين، أي: طرقهم ومناهجهم. وقد يجوز فتحُ السين علىٰ الإفراد، أي: طريقهم.

. . . .

(١) وفي مصر كذلك من هذه القبور المنامية ونحوها كقبر الحسين وزينب ﵄؛ وكثير مما يسمى بالأربعين؛ بناء على عقيدة أخبث من عقيدة أهل الجاهلية الأولى، وهي عقيدة أن الولي يتشكل في أربعين جسمًا. وزعم الدباغ مبالغة في الوقاحة والضلال أنه يكون للولي ثلاثمائة وستون جسمًا. وكم في غير مصر من هذه المواضع الشركية من قبور وأشجار وأحجار. عجل الله بتطهير البلاد منها كما طهر الحجاز بيد جلالة الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله، ووفق أبناءه للقيام بمثل عمله الصالح وأعلى بهم منار الإسلام. (ق).

(٢) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في غاية المرام (١٢٦).

(٣) أي اليهود والنصارى، وقد وقع كما أخبر به ﷺ في هذه الأمور فركبوا طريق من كان قبلهم ممن ذكرنا كما هو في الأحاديث الصحيحة كحديث «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**» قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن؟**» وهو في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري ﵁؛ وفي رواية «**ومن الناس إلا أولئك؟**». (ق).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النجم.

الثانية: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا[١].

الثالثة: كونهم لم يفعلوا.

الرابعة: كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك، لظنهم أنه يحبه.

الخامسة: أنَّهُم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل.

وهذا خبرٌ صحيح، والواقع من كثيرٍ من هذه الأمة يشهدُ له.

وفيه: عَلَمٌ من أعلام النبوة؛ من حيثُ إنه وقع كما أخبر ﷺ. وفي الحديث: النهيُ عن التشبه بأهل الجاهلية وأهل الكتاب فيما كانوا يفعلونه، إلاَّ ما دلَّ الدليلُ على أنه من شريعة محمد ﷺ.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النجم: أي: قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ...﴾ الآيات، وسبق تفسيرها، وأن اللَّه تعالى أنكر على هؤلاء الذين يعبدون اللات والعزى، وأتى بصيغة الاستفهام الدالة على التحقير والتصغير لهذه الأصنام.

الثانية: معرفة الأمر الذي طلبوا: وهو أنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط كما أن للمشركين ذات أنواط، وهم إنما أرادوا أن يتبرَّكوا بهذه الشجرة لا أن يعبدوها؛ فدل ذلك على أن التبرك بالأشجار ممنوع، وأن هذا من سنن الضالين السابقين من الأمم.

الثالثة: كونهم لم يفعلوا: أي: لم يعلقوا أنواطًا على الشجرة، ويطلبوا من الرسول ﷺ أن يقرهم على هذا العمل، بل طلبوا من الرسول ﷺ أن يجعل لهم ذلك.

الرابعة: كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك لظنهم أنه يحبه:

«**بذلك**»: أي بتعليق الأسلحة ونحوها على الشجرة التي يعينها الرسول ﷺ، ولهذا طلبوا ذلك من الرسول لتكتسب بهذا معنى العبادة.

الخامسة: أنهم إذا جهلوا هذا؛ فغيرهم أولى بالجهل: لأن الصحابة - لا شك - أعلم الناس بدين اللَّه، فإذا كان الصحابة يجهلون أن التبرك بهذا نوع من اتخاذها إلهًا؛ فغيرهم من باب أولى،

---

(١) يعني أنهم لم يطلبوا منه أن يجعل لهم إلهًا يعبدونه من دون الله، لأنهم كانوا أجل وأعقل من ذلك، وإنما طلبوا شجرة يأذن لهم النبي فيها فيتبركون بها ويعلقون عليها أسلحتهم دون أن يصلوا أو يتصدقوا لها؛ فبين لهم أن ما طلبوا من التبرك ولو لم يكن صلاة ولا صيامًا ولا صدقة هو الشرك بعينه. وفيه إبطال لشبهة مشركي هذا الزمان وزعمهم أن ما يفعلونه تبرك وتعظيم لا بأس به.(ق).

السادسة: أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم.

السابعة: أن النبي ﷺ يعذرهم، بل رَدَّ عليهم بقوله: «الله أكبر! إنَّها السنن، لتَتَّبعنَّ سَنَنَ من كان قبلكم» فغلظ الأمر بهذه الثلاث.

الثامنة: الأمر الكبير، وهو المقصود: أنه أخبر أن طلبتهم كطلبة بني إسرائيل لما قالوا لموسى: اجعل لنا إلهًا.

التاسعة: أن نفي هذا من معنى لا إله إلا الله، مع دقته وخفائه على أولئك.

العاشرة: أنه حلف على الفتيا، وهو لا يحلف إلا لمصلحة.

. . . .

وقصد المؤلف رحمه اللّه بهذا أن لا نغتر بعمل الناس؛ لأن عمل الناس قد يكون عن جهل؛ فالعبرة بما دل عليه الشرع لا بعمل الناس.

السادسة: أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم: وهذا معلوم من الآيات، مثل قوله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠]؛ فالصحابة رضي اللّه عنهم لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة وأسباب المغفرة ما ليس لغيرهم، ومع ذلك لم يعذرهم النبي ﷺ بهذا الطلب.

السابعة: أن النبي ﷺ لم يعذرهم، بل رَدّ عليهم بقوله: «اللّه أكبر! إنها السنن، لتتبعن سنن من كان قبلكم»؛ فغلّظ الأمر بهذه الثلاث:

وهي قوله: «**اللّه أكبر!**»، وقوله: «**إنها سنن**»، وقوله: «**لتركبن سنن من كان قبلكم**»؛ فغلظ الأمر بهذا لأن التكبير استعظامًا للأمر الذي طلبوه، و «**إنها السنن**»: تحذير، و «**لتركبن سنن من كان قبلكم**» كذلك أيضًا تحذير.

الثامنة: الأمر الكبير وهو المقصود: أنه أخبر أن طلبتهم كطلبة بني إسرائيل لما قالوا لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾: فهؤلاء طلبوا سدرة يتبركون بها كما يتبرك المشركون بها، وأولئك طلبوا إلهًا كما لهم آلهة؛ فيكون في كلا الطلبين منافاة للتوحيد؛ لأن التبرك بالشجر نوع من الشرك، واتخاذه إلهًا شرك واضح.

التاسعة: أن نفي هذا من معنى: لا إله إلا اللّه، مع دقته وخفائه على أولئك: أي: أن نفي التبرك بالأشجار ونحوها من معنى لا إله إلا اللّه؛ فإن لا إله إلا اللّه تنفي كل إله سوى اللّه، وتنفي الألوهية عما سوى اللّه عز وجل؛ فكذلك البركة لا تكون من غير اللّه سبحانه وتعالى.

العاشرة: أنه حلف على الفتيا وهو لا يحلف إلا لمصلحة: أي: أن النبي ﷺ حلف على

الحادية عشرة: أن الشرك فيه أكبر وأصغر، لأنَّهُم لم يرتدوا بِهَذَا[١].

. . . .

الفتيا في قوله: «قلتم، والذي نفسي بيده»[٢]، والنبي ﷺ لا يحلف إلا لمصلحة، أو دفع مضرة ومفسدة؛ فليس ممن يحلف على أي سبب يكون، كما هي عادة بعض الناس.

الحادية عشرة: أن الشرك فيه أصغر وأكبر؛ لأنهم لم يرتدوا بهذا: حيث لم يطلبوا جعل ذات الأنواط لعبادتها، بل للتبرك بها، والشرك فيه أصغر وأكبر، وفيه خفي وجلي.

فالشرك الأكبر: ما يُخرج الإنسان من الملة.

والشرك الأصغر: ما دون ذلك. لكن كلمة (ما دون ذلك) ليست ميزانًا واضحًا، ولذلك اختلف العلماء في ضابط الشرك الأصغر على قولين:

القول الأول: أن الشرك الأصغر كل شيء أطلق الشارع عليه أنه شرك ودلت النصوص على أنه ليس من الأكبر، مثل: «**من حلف بغير الله؛ فقد أشرك**»[٣]، فالشرك هنا أصغر؛ لأنه دلت النصوص على أن مجرد الحلف بغير الله لا يخرج من الملة.

القول الثاني: أن الشرك الأصغر: ما كان وسيلة للأكبر، وإن لم يطلق الشارع عليه اسم الشرك، مثل: أن يعتمد الإنسان على شيء كاعتماده على الله، لكنه لم يتخذه إلهًا؛ فهذا شرك أصغر؛ لأن هذا الاعتماد الذي يكون كاعتماده على الله يؤدي به في النهاية إلى الشرك الأكبر، وهذا التعريف أوسع من الأول؛ لأن الأول يمنع أن تطلق على شيء أنه شرك إلا إذا كان لديك دليل، والثاني جعل كل ما كان وسيلة للشرك فهو شرك، وربما نقول على هذا التعريف: إن المعاصي كلها شرك أصغر؛ لأن الحامل عليها الهوى، وقد قال تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ**﴾ [الجاثية: ٢٣]، ولهذا أطلق النبي ﷺ الشرك على تارك الصلاة، مع أنه لم يشرك؛ فقال: «**بين الرجل وبين الشرك والكفر: ترك الصلاة**»[٤].

فالحاصل: أن المؤلف رحمه الله يقول: إنّ الشرك فيه أكبر وأصغر؛ لأنهم لم يرتدوا بهذا، وسبق وجه ذلك.

الجلي والخفي؛ فبعضهم قال: إن الجلي والخفي هو الأكبر والأصغر.

---

(١) ليس ما طلبوه من الشرك الأصغر؛ ولو كان منه لما جعله النبي ﷺ نظير قول بني إسرائيل ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا﴾ [الأعراف: ١٣٨] وأقسم على ذلك، بل هو من الشرك الأكبر كما أن ما طلبه بنو إسرائيل من الأكبر. وإنما لم يكفروا بطلبهم لأنهم حدثاء عهد بالإسلام؛ ولأنهم لم يفعلوا ما طلبوه ولم يقدموا عليه بل سألوا النبي ﷺ فتأمل. (ق).

(٢) رواه الترمذي (٢١٨٠)، وأحمد (٢١٣٩٠) من حديث أبي واقد الليثي.

(٣) **صحيح**: رواه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٤، ١٥٣٥)، وأحمد (٤٥٠٩)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٢٠٤٢).

(٤) **صحيح**: رواه مسلم (٨٢)، وأحمد (١٤٧٦٢).

الثانية عشرة: قولهم: ونحن حدثاء عهد بكفر، فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك.

الثالثة عشرة: التكبير عن التعجب، خلافًا لمن كرهه.

الرابعة عشرة: سد الذرائع.

....

وبعضهم قال: الجلي ما ظهر للناس من أصغر أو أكبر؛ كالحلف بغير اللَّه، والسجود للصنم.
والخفي: ما لا يعلمه الناس من أصغر أو أكبر؛ كالرياء، واعتقاد أن مع اللَّه إلهًا آخر.
وقد يقال: إن الجلي ما انجلى أمره وظهر كونه شركًا؛ ولو كان أصغر، والخفي ما سوى ذلك.
وأيهما الذي لا يغفر؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه: إن الشرك لا يغفره اللَّه ولو كان أصغر؛ لعموم قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ١١٦]، و﴿أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ مؤوَّل بمصدر تقديره: «شركًا به»، وهو نكرة في سياق النفي؛ فيفيد العموم.

وقال بعض العلماء: إن الشرك الأصغر داخل تحت المشيئة، وإن المراد بقوله: ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ الشرك الأكبر. وأما الشرك الأصغر؛ فإنه يغفر لأنه لا يخرج من الملة، وكل ذنب لا يخرج من الملة؛ فإنه تحت المشيئة، وعلى كلٍّ؛ فصاحب الشرك الأصغر على خطر، وهو أكبر من كبائر الذنوب، قال ابن مسعود رضي اللَّه عنه: «لأن أحلف باللَّه كاذبًا أحب إلي من أحلف بغير اللَّه صادقًا»(١).

الثانية عشرة: قوله: «ونحن حدثاء عهد بكفر...»: معناه: أنه يعتذر عما طلبوا، حيث طلبوا أن يجعل لهم ذات أنواط؛ فهم يعتذورن لجهلهم بكونهم حدثاء عهد بكفر، وأما غيرهم ممن سبق إسلامه؛ فلا يجهل ذلك. وعلى هذا؛ فنقول: إنه ينبغي للإنسان أن يقدم العذر عن قوله أو فعله حتى لا يعرِّض نفسه إلى القول أو الظن بما ليس فيه، ويدل لذلك حديث صفية حين شيعها الرسول ﷺ وهو معتكف، فمرَّ رجلان من الأنصار، فقال: «**إنها صفية بنت حييّ**»(٢).

الثالثة عشرة: التكبير عند التعجب...إلخ: تؤخذ من قوله: «**اللَّه أكبر**»؛ أي: اللَّه أكبر وأعظم من أن يشرك به، وفي رواية الترمذي أنه قال: «**سبحان اللَّه**»؛ أي: تنزيهًا للَّه عما لا يليق به.

الرابعة عشرة: سد الذرائع: الذرائع: الطرق الموصلة إلى الشيء، وذرائع الشيء: وسائله وطرقه. والذرائع نوعان:

أ- ذرائع إلى أمور مطلوبة؛ فهذه لا تسد، بل تفتح وتطلب.

ب- ذرائع إلى أمور مذمومة؛ فهذه تسد، وهو مراد المؤلف رحمه اللَّه تعالى.

---

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٣٨، ٣٢٨١)، ومسلم (٢١٧٥)، وأبو داود (٢٤٧٠، ٤٩٩٤)، وابن ماجه (١٧٧٩).

الخامسة عشرة: النهي عند التشبه بأهل الجاهلية.

السادسة عشرة: الغضب عند التعليم.

السابعة عشرة: القاعدة الكلية؛ لقوله: «إِنَّهَا السنن».

الثامنة عشرة: أن هذا علم من أعلام النبوة؛ لكونه وقع كما أخبر.

. . . .

وذات الأنواط وسيلة إلىٰ الشرك الأكبر، فإذا وضعوا عليها أسلحتهم وتبركوا بها؛ يتدرج بهم الشيطان إلىٰ عبادتها وسؤالهم حوائجهم منها مباشرة، فلهذا سد النبي ﷺ الذرائع.

الخامسة عشرة: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية: تؤخذ من قوله: «**قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل**»؛ فأنكر عليهم، وبهذا نعرف أن الجاهلية لا تختص بمن كان قبل زمن النبي ﷺ، بل كل من جهل الحق وعمل عمل الجاهلين؛ فهو من أهل الجاهلية.

السادسة عشرة: الغضب عند التعليم: والحديث ليس بصريح في ذلك، وربما يؤخذ من قرائن قوله: «اللَّه أكبر! إنها السنن..»؛ لأن قوة هذا الكلام تفيد الغضب

السابعة عشرة: القاعدة الكلية لقوله: «إنها السنن»: أي: الطرق، وأن هذه الأمة ستتبع طرق من كان قبلها، وهذا لا يعني الحل والإباحة، ولكنه للتحذير؛ كما قال الرسول ﷺ: «**ستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار؛ إلا واحدة**»[1]، وقال: «**ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير...**»[2] الحديث، وقال: «**إن الظعينة تذهب من كذا إلى كذا لا تخشى إلا اللَّه**»[3]، وما أشبه ذلك من الأمور التي أخبر النبي ﷺ عن وقوعها مع تحريمها.

الثامنة عشرة: أن هذا علم من أعلام النبوة لكونه وقع كما أخبر: يعني اتباع سنن من كان قبلنا. فإن قال قائل: إن النبي ﷺ قد خطب الناس بعرفة، وقال: «**إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب**»[4]؛ فكيف تقع عبادته؟

فالجواب: أن إخبار النبي ﷺ بيأسه لا يدل علىٰ عدم الوقوع، بل يجوز أن يقع، علىٰ خلاف ما توقعه الشيطان؛ لأن الشيطان لما حصلت الفتوحات، وقوي الإسلام، ودخل الناس في دين اللَّه أفواجًا؛ يئس أن يعبد سوىٰ اللَّه في هذه الجزيرة، ولكن حكمة اللَّه تأبىٰ إلا أن يكون ذلك، وهذا

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (٣٩٩٣)، وأحمد (١١٧٩٨، ١٢٠٧٠)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢٠٤٢).

(٢) صحيح: رواه البخاري تعليقًا في كتاب الأشربة باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٣٥٩٥)، والترمذي (٢٩٥٤)، وأحمد (١٧٧٩٦).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٨١٢)، والترمذي (١٩٣٧)، وأحمد (١٣٩٥٧) ومواضع.

التاسعة عشرة: أن ما ذمَّ الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا.

العشرون: أنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر، فصار فيه التنبيه على مسائل القبر. أما (من ربك؟) فواضح، وأما (من نبيك؟) فمن إخباره بأنباء الغيب، وأما (ما دينك؟) فمن قولهم: (اجعل لنا إلهًا) إلخ.

قال المُصنِّفُ: وفيه: التنبيهُ على مسائل القبر، أمَّا: مَن ربُّك؟ فواضح، وأمَّا: من نبيك؟ فمن إخباره بأنباء الغيب. وأمَّا: ما دينُك؟ فمن قولهم ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا﴾ إلى آخره:

نقوله ولا بد؛ لئلا يقال: إن جميع الأفعال التي تقع في الجزيرة العربية لا يمكن أن تكون شركًا، ومعلوم أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه اللَّه جدد التوحيد في الجزيرة العربية، وأن الناس كانوا في ذلك الوقت فيهم المشرك وغير المشرك. فالحديث أخبر عما وقع في نفس الشيطان ذلك الوقت، ولكنه لا يدل على عدم الوقوع، ولهذا فالرسول ﷺ يقول: «**لتركبن سنن من كان قبلكم**»، وهو يخاطب الصحابة وهم في جزيرة العرب.

التاسعة عشرة: أن ما ذم اللَّه به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا: هذا ليس على إطلاقه وظاهره، بل يحمل قوله: «**لنا**»؛ أي: لبعضنا، ويكون المراد به المجموع لا الجميع.

كما قال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ**﴾ [الأنعام: ١٣٠]، والرسل كانوا من الإنس فقط.

فقوله: «**إنه لنا**»؛ أي: قد يكون من بعضنا. فإذا وقع تشبه باليهود والنصارى؛ فإن الذم الذي يكون لهم يكون لنا، وما من أحد من الناس غالبًا إلا وفيه شبه باليهود أو النصارى؛ فالذي يعصي اللَّه على بصيرة فيه شبه من اليهود، والذي يعبد اللَّه على ضلالة فيه شبه من النصارى، والذي يحسد الناس على ما آتاهم اللَّه من فضله فيه شبه من اليهود، وَهَلُمَّ جرًا. وإن كان يقصد رحمه اللَّه أنه لا بد أن يكون في الأمة خصلة؛ فهذا على إطلاقه وظاهره؛ لأنه قل من يسلم. وإن أراد أن كل ما ذم به اليهود والنصارى؛ فهو لهذه الأمة على سبيل العموم؛ فلا.

العشرون: أنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر... إلخ: وهذا واضح؛ فالعبادات مبناها على الأمر، فما لم يثبت فيه أمر الشارع؛ فهو بدعة، قال ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا؛ فهو رد**»[1]، وقال: «**إياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة**»[2]. فمن تعبد بعبادة طولب

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧١٨، ٢٩٨٥)، ورواه البخاري تعليقًا في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ. . .، ورواه البخاري (٢٦٩٧) بلفظ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد».

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد (١٦٦٩٢)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الترغيب والترهيب (٣٧).

الحادية والعشرون: أن سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين.

الثانية والعشرون: أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يُؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة؛ لقولهم: ونحن حُدثَاءُ عهد بكفر.

وفيه: أنَّ الشرك لابُدَّ أنْ يقع في هذه الأمة، خلافًا لمن ادعىٰ خلاف ذلك، وفيه: الغضبُ عند التعليم، وأنَّ ما ذم الله به اليهود والنصارىٰ فإنه لنا لنحذره. قاله المصنف.

وأمَّا ما ادعاه بعضُ المتأخرين: من أنه يجوز التبركُ بآثار الصالحين، فممنوعٌ من وجوه:

منها: أنَّ السابقين الأولين من الصحابة ومَن بعدهم، لم يكونوا يفعلون ذلك مع غير النبي ﷺ؛ لا في حياته، ولا بعد موته. ولو كان خيرًا لسبقونا إليه. وأفضلُ الصحابة - أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي - وقد شهد لهم النبي ﷺ فيمن شهد له بالجنة وما فعله أحدٌ من الصحابة والتابعين مع أحدٍ من هؤلاء السادة، ولا فعله التابعون مع ساداتهم في العلم والدين، وهم الأسوة.

فلا يجوز أنْ يُقاس علىٰ رسول الله ﷺ أحدٌ من الأمة، وللنبي ﷺ في حال الحياة خصائصُ كثيرة لا يصلح أنْ يُشاركه فيها غيره.

ومنها: أنَّ في المنع عن ذلك سدًّا لذريعة الشرك، كما لا يخفىٰ.

بالدليل؛ لأن الأصل في العبادات الحظر والمنع، إلا إذا قام الدليل علىٰ مشروعيتها. وأما الأكل والمعاملات والآداب واللباس وغيرها؛ فالأصل فيها الإباحة؛ إلا ما قام الدليل علىٰ تحريمه.

وقوله: «**مسائل القبر التي يسأل فيها الإنسان في قبره: من ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟**»: ففي هذه القصة دليل علىٰ مسائل القبر الثلاث، وليس مراده أن فيها دليلاً علىٰ أن الإنسان يسأل في قبره، بل فيها دليل علىٰ إثبات الربوبية والنبوة والعبادة.

أما «**من ربك؟**» فواضح، يعني أنه لا رب إلا اللّه تعالىٰ.

وأما «**من نبيك**» فمن إخباره بالغيب قال ﷺ: «**لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة**»[1]؛ فوقع كما أخبر.

أما «**ما دينك**»؛ فمن قولهم: اجعل لنا إلهًا؛ أي: مألوهًا معبودًا، والعبادة هي الدين.

والمؤلف رحمه اللّه محمد بن عبد الوهاب فهمه دقيق جدًا لمعاني النصوص؛ فأحيانًا يصعب علىٰ الإنسان بيان وجه استنباط المسألة من الدليل.

الحادية والعشرون: أن سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين: تؤخذ من قوله: «**كما قالت بنو إسرائيل لموسى**»:

---

(١) صحيح: رواه أحمد (١٦٦٨٥)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٣٣١٢)، وللحديث أصل في الصحيحين بلفظ: «**لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم**» رواه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩).

بـــاب
ما جاء في الذبح لغير الله

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ ما جاء في الذَّبح لغير الله:

أي: من الوعيد، وأنه شرك.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي(١) وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

الثانية والعشرون: أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العبادة: وهذا صحيح؛ فالإنسان المنتقل من شيء، سواء باطلاً أو لا؛ لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية منه.

وهذه البقية لا تزول إلا بعد مدة؛ لقوله: «ونحن حدثاء عهد بكفر»؛ فكأنه يقول: ما سألناه إلا لأن عندنا بقية من بقايا الجاهلية، ولهذا كان من الحكمة تغريب الزاني بعد جلده عن مكان الجريمة؛ لئلا يعود إليها.

فالإنسان ينبغي أن يبتعد عن مواطن الكفر والشك والفسوق؛ حتىٰ لا يقع في قلبه شيء منها.

قوله: **«في الذبح»**: أي: ذبح البهائم.

قوله: **«لغير الله»**: اللام للتعليل، والقصد: أي قاصداً بذبحه غير الله، والذبح لغير الله ينقسم إلىٰ قسمين:

١ ـ أن يذبح لغير الله تقربًا وتعظيمًا؛ فهذا شرك أكبر مخرج من الملة.

٢ ـ أن يذبح لغير الله فرحًا وإكرامًا؛ فهذا لا يخرج من الملة، بل هو من الأمور العادية التي قد تكون مطلوبة أحيانًا وغير مطلوبة أحيانًا؛ فالأصل أنها مباحة.

ومراد المؤلف هنا القسم الأول. فلو قدم السلطان إلىٰ بلد، فذبحنا له، فإن كان تقربًا وتعظيمًا، فإنه شرك أكبر، وتحرم هذه الذبائح، وعلامة ذلك: أننا نذبحها في وجهه ثم ندعها. أما لو ذبحناها له إكرامًا وضيافة، وطبخت، وأكلت؛ فهذا من باب الإكرام، وليس بشرك.

---

(١) في قرة العيون: يشمل الفرائض والنوافل والصلوات كلها عبادة وقد اشتملت على نوعي الدعاء، دعاء المسألة ودعاء العبادة فما كان فيها من السؤال والطلب فهو دعاء مسألة وما كان فيها من الحمد والثناء والتسبيح والركوع والسجود وغير ذلك من الأركان والواجبات فهو دعاء عبادة وهذا هو التحقيق في تسميتها صلاة لأنها اشتملت على نوعي الدعاء الذي هو صلاة لغة وشرعًا (*) قرره شيخ الإسلام وابن القيم رحمهما الله.(ق).

(*) وهي مأخوذة من (الصلة) لأنها الصلة والمنحة التي وصل الله بها حبيبه محمداً ﷺ ومنحه إياها في ليلة الوصل الأعظم: ليلة المعراج. وهي أقوى صلة بين العبد وبين ربه، لأنه فيها يناجي ربه كما في الأحاديث، ومن ثم كانت قرة عين رسول الله ﷺ وكانت مفزعه عند كل أمر يهمه. وكانت الفارق بين المسلم والكافر. فمن تركها فلا حظ له في الإيمان بالله وحبه. ولا صلة بينه وبين ربه مهما حاول. (ز).

. . . .

قال ابن كثير: يأمرُه تعالىٰ، أن يُخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه: بأنه أخلص لله صلاته وذبيحتَه؛ لأن المشركين يعبدون الأصنام، ويذبحون لها. فأمره الله تعالىٰ بمخالفتهم، والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم علىٰ الإخلاص لله تعالىٰ.

قال مجاهد: النسك: الذبح، في الحج والعُمرة.

وقال الثوري، عن السُّدي، عن سعيد بن جُبير: ﴿وَنُسُكِي﴾: ذبحي. وكذا قال الضحاك.

وقال غيره: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ أي: وما آتيه في حياتي عليه من الإيمان والعمل الصالح ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خالصًا لوجهه ﴿لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ﴾ الإخلاص ﴿أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من هذه الأمة؛ لأن إسلام كل نبي متقدمٌ إسلام أمته. قال قتادة: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من هذه الأمة.

وقوله: «لغير اللَّه»: يشمل الأنبياء، والملائكة، والأولياء، وغيرهم، فكل من ذبح لغير اللَّه تقربًا وتعظيمًا؛ فإنه داخل في هذه الكلمة بأي شيء كان.

وقوله في الترجمة: «باب ما جاء في الذبح لغير اللَّه»: أشار إلىٰ الدليل دون الحكم، ومثل هذه الترجمة يترجم بها العلماء للأمور التي لا يجزمون بحكمها، أو التي فيها تفصيل، وأما الأمور التي يجزمون بها فإنهم يقولون بالجزم؛ مثل باب وجوب الصلاة، وباب تحريم الغيبة، ونحو ذلك.

والمؤلف رحمه اللَّه تعالىٰ لا شك أنه يرىٰ تحريم الذبح لغير اللَّه علىٰ سبيل التقرب والتعظيم، وأنه شرك أكبر، لكنه أراد أن يمرن الطالب علىٰ أخذ الحكم من الدليل، وهذا نوع من التربية العلمية، فإن المعلم أو المؤلف يدع الحكم مفتوحًا، ثم يأتي بالأدلة لأجل أن يكل الحكم إلىٰ الطالب؛ فيحكم به علىٰ حسب ما سيق له من هذه الأدلة، وقد ذكر المؤلف في هذا الباب ثلاث آيات:

الأولىٰ: قوله: ﴿قُلْ﴾: الخطاب للنبي ﷺ، أي: قل لهؤلاء المشركين معلنًا لهم قيامك بالتوحيد الخالص؛ لأن هذه السورة مكية.

قوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي﴾: الصلاة في اللغة: الدعاء، وفي الشرع: عبادة للَّه ذات أقوال وأفعال معلومة، مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم.

قوله: ﴿وَنُسُكِي﴾: النسك لغة: العبادة، وفي الشرع: ذبح القربان.

فهل تحمل هذه الآية علىٰ المعنىٰ اللغوي أو علىٰ المعنىٰ الشرعي؟

سبق أن ما جاء في لسان الشرع يحمل علىٰ الحقيقة الشرعية؛ كما أن ما جاء في لسان العرف؛ فهو محمول علىٰ الحقيقة العرفية، وفي لسان العرب علىٰ الحقيقة اللغوية.

فعندما أقول لشخص: عندك شاة؟ يفهم الأنثىٰ من الضأن، لكن في اللغة العربية الشاة تطلق علىٰ الواحدة من الضأن والمعز، ذكرًا كان أو أنثىٰ، وعلىٰ هذا، فيحمل النسك في الآية علىٰ المعنىٰ الشرعي.

وقيل: تحمل علىٰ المعنىٰ اللغوي؛ لأنه أعم؛ فالنسك العبادة، كأنه يقول: أنا لا أدعو إلا اللَّه، ولا أعبد إلا اللَّه، هذا عام للدعاء والتعبد. وإذا حملت علىٰ المعنىٰ الشرعي؛ صارت خاصة في نوع

....

قال ابنُ كـثير: وهو كما قال، فإنَّ جميع الأنبياء قبله، كانت دعوتُهم إلى الإسلام. وهو عبادة الله وحده لا شريك له. كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وذكر آيات في هذا المعنى. ووجه مُطابقة الآية للترجمة: أنَّ الله تعالى تعبَّد عباده، بأن يتقربوا إليه بالنّسك. كما تعبَّدهم بالصلاة، وغيرها من أنواع العبادة. فإنَّ الله تعالى أمرهم أن يُخلصوا جميع أنواع العبادة له، دون كلِّ ما سواه. فإذا تقرَّب إلى غير الله بالذبح، أو غيره من أنواع العبادة فقد جعل لله شريكًا في عبادته. وهو ظاهرٌ في قوله: ﴿لا شَرِيكَ لَهُ﴾ نفى أنْ يكون لله تعالى شريك في هذه العبادات، وهو بحمد الله واضح(١).

من العبادات، وهي: الصلاة والنسك، ويكون هذا كمثال، فإن الصلاة أعلى العبادات البدنية والذبح أعلى العبادات المالية؛ لأنه على سبيل التعظيم لا يقع إلا قربة، وهكذا قرر شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه المسألة. ويحتاج إلى مناقشة في مسألة أن القربان أعلى أنواع العبادات المالية، فإن الزكاة لا شك أنها أعظم، وهي عبادة مالية. وهناك رأي ثالث يقول: إن الصلاة هي الصلاة المعروفة شرعًا، والنسك: العبادة مطلقًا، ويكون ذلك من عطف العام على الخاص.

قوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾: أي: حياتي وموتي؛ أي: التصرف فيَّ وتدبير أمري حيًّا وميتًا لله.

وفي قوله: ﴿صَلاتِي وَنُسُكِي﴾: إثبات توحيد العبادة.

وفي قوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾: إثبات توحيد الربوبية.

قوله: ﴿لِلَّه﴾: خبر إن، والله: علم على الذات الإلهية، وأصله: الإله، فحذفت الهمزة، لكثرة الاستعمال تخفيفًا. وهو بمعنى مألوه، فهو فعال بمعنى مفعول، مثل غراس بمعنى مغروس، وفراش بمعنى مفروش، والمألوه: المحبوب المعظم.

قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: المراد بـ ﴿الْعَالَمِينَ﴾: ما سوى الله، وسمي بذلك؛ لأنه علم على خالقه. قال الشاعر:

فواعجبًا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

وهي تطلق على العالمين بهذا المعنى، وتطلق على العالمين في وقت معين، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]؛ يعني: عالمي زمانهم.

الرب هنا: المالك المتصرف، وهذه ربوبية مطلقة.

الآية الثانية: ﴿لا شَرِيكَ لَهُ﴾: الجملة الحالية من قوله: ﴿لِلَّهِ﴾؛ أي: حال كونه لا شريك له،

---

(١) في قرة العيون: والمقصود أن هذه الآية دلت على أن أقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة لا يجوز أن يصرف منها شيء لغير الله كائنًا من كان فمن صرف منها شيئًا لغير الله فقد وقع فيما نفاه تعالى من الشرك بقوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] والقرآن كله في تقرير هذا التوحيد في عبادته وبيانه ونفي الشرك والبراءة منه. (ق).

. . . .

. . . .

واللَّه ـ سبحانه ـ لا شريك له في عبادته ولا في ربوبيته ولا أسمائه وصفاته، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

وقد ضل من زعم أن للَّه شركاء كمن عبد الأصنام أو عيسىٰ ابن مريم عليه السلام، وكذلك بعض غلاة الشعراء الذين جعلوا المخلوق بمنزلة الخالق، كقول بعضهم يخاطب ممدوحًا له:

فكن كمن شئت يا من لا شبيه له ... وكيف شئت فما خلق يدانيك

وكقول البوصيري في قصيدته في مدح الرسول ﷺ:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن آخذًا يوم المعاد يدي ... فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

وهذا من أعظم الشرك؛ لأنه جعل الدنيا والآخرة من جود الرسول، ومقتضاه أن اللَّه جل ذكره ليس له فيهما شيء. وقال: «ومن علومك علم اللوح والقلم» يعني: وليس ذلك كل علومك، فما بقي للَّه علم ولا تدبير والعياذ باللَّه.

قوله: ﴿بِذَلِكَ﴾: الجار والمجرور متلق بـ ﴿أُمِرْتُ﴾؛ فيكون دالاً علىٰ الحصر والتخصيص، وإنما خص بذلك؛ لأنه أعظم المأمورات، وهو الإخلاص للَّه تعالىٰ ونفي الشرك، فكأنه ما أمر إلا بهذا، ومعلوم أن من أخلص للَّه تعالىٰ، فيقوم بعبادة اللَّه سبحانه وتعالىٰ في جميع الأمور.

قوله: ﴿أُمِرْتُ﴾: إيهام الفاعل هنا من باب التعظيم والتفخيم، وإلا؛ فمن المعلوم أن الأمر هو للَّه تعالىٰ.

قوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾: يحتمل أن المراد الأولية الزمنية، فيتعين أن تكون أولية إضافية ويكون المراد: أنا أول المسلمين من هذه الأمة، لأنه سبق في الزمن من أسلموا.

ويحتمل أن المراد الأولية المعنوية، فإن أعظم الناس إسلامًا وأتمهم انقيادًا هو الرسول ﷺ؛ فتكون الأولية أولية مطلقة.

ومثل هذا التعبير يقع كثيرًا؛ أن تقع الأولية أولية معنوية، مثل أن تقول: أنا أول من يُصدِّق بهذا الشيء، وإن كان غيرك قد صدق قبلك، لكن تريد أنك أسبق الناس تصديقًا بذلك، ولن يكون عندك إنكار أبدًا، ومثل قوله ﷺ: «**نحن أولى بالشك من إبراهيم حينما قال: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى﴾**»[1] فليس معناه أن إبراهيم شاك، لكن إن قُدِّر أن يحصل شك؛ فنحن أولىٰ بالشك منه، وإلا؛ فلسنا: نحن شاكين، وكذلك إبراهيم ليس شاكًا.

قوله: ﴿الْمُسْلِمِينَ﴾: الإسلام عند الإطلاق يشمل الإيمان؛ لأن المراد به الاستسلام للَّه ظاهرًا وباطنًا، ويدل لذلك قوله تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]، وهذا إسلام الباطن.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣٧٢، ٤٥٣٧)، ومسلم (١٥١)، وابن ماجه (٤٠٢٦).

وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

قال شيخُ الإسلام رحمه الله تعالى: أمره الله أنْ يجمع بين هاتين العبادتين، وهما الصلاة والنسك. الدالتان على القُرب والتواضع، والافتقار وحُسن الظن، وقوة اليقين، وطمأنينة القلب إلى الله وإلى عِدَته. عكسَ حال أهل الكِبر والنُّفرة، وأهل الغنى عن الله الذين لا حاجة لهم في صلاتهم إلى ربهم، والذين لا ينحرون له خوفًا من الفقر ولهذا جمع بينهما في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي﴾ الآية.

والنُّسك: الذبيحة لله تعالى، ابتغاء وجهه. فإنهما أجلُّ ما يُتقرب به إلى الله تعالى، فإنه أتى فيهما بالفاء الدالة على السبب؛ لأن فعل ذلك سببٌ للقيام بشكر ما أعطاه الله تعالى من الكوثر.

قوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: هذا إسلام الظاهر، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، يشمل الإسلام الباطن والظاهر، وإذا ذكر الإيمان دخل فيه الإسلام. قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ٧٢].

ومتى وجد الإيمان حقًّا لزم من وجوده الإسلام.

وأما إذا قُرنا جميعًا صار الإسلام في الظاهر والإيمان في الباطن، مثل حديث جبريل، وفيه: أخبرني عن الإسلام، فأخبره عن أعمال ظاهرة، وأخبرني عن الإيمان فأخبره عن أعمال باطنة.

وكذا قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]. والشاهد من الآية التي ذكرها المؤلف: أن الذبح لابد أن يكون خالصًا للَّه.

الآية الثالثة: قوله: ﴿فَصَلِّ﴾: الفاء للسببية عاطفة على قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾؛ أي: بسبب إعطائنا لك ذلك صل لربك وانحر شكرًا للَّه تعالى على هذه النعمة. والمراد بالصلاة هنا الصلاة المعروفة شرعًا.

قوله: ﴿وَانْحَرْ﴾: المراد بالنحر: الذبح، أي اجعل نحرك للَّه كما أن صلاتك له، فأفادت هذه الآية الكريمة أن النحر من العبادة، ولهذا أمر اللَّه به وقرنه بالصلاة.

قوله: ﴿وَانْحَرْ﴾: مطلق؛ فيدخل فيه كل ما ثبت في الشرع مشروعيته، وهي ثلاثة أشياء: الأضاحي، والهدايا، والعقائق، فهذه الثلاثة يطلب من الإنسان أن يفعلها.

أما الهدايا: فمنها واجب، ومنها مستحب، فالواجب كما في التمتع: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وكما في المُحصر: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وكما في حلق الرأس: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]، هذا إن صح أن نقول: إنها هدي، ولكن الأولى أن نسميها فدية كما سماها اللَّه عز وجل لأنها بمنزلة الكفارة.

وأما الأضاحي: فاختلف العلماء فيها: فمنهم من قال: إنها واجبة. ومنهم من قال: إنها مستحبة. وأكثر أهل العلم على أنها مستحبة، وأنه يكره للقادر تركها. ومذهب أبي حنيفة رحمه اللَّه

. . . .

وأجلُّ العبادات البدنية: الصلاة، وأجلُّ العبادات المالية: النحر. وما يجتمع للعبد في الصلاة، لا يجتمع له في غيرها؛ كما عرفه أربابُ القلوب الحية. وما يجتمع له في النحر إذا قارنه الإيمان والإخلاص من قوة اليقين وحُسن الظن: أمرٌ عجيب، وكان ﷺ، كثير الصلاة، كثير النحر. انتهىٰ.

قلتُ: وقد تضمَّنت الصلاةُ من أنواع العبادة كثيرًا، فمن ذلك: الدعاءُ والتكبير، والتسبيح والقراءة، والتسميع والثناء، والقيام والركوع، والسجودُ والاعتدال، وإقامة الوجه لله تعالىٰ، والإقبالُ عليه بالقلب، وغيرُ ذلك مما هو مشروع في الصلاة. وكل هذه الأمور من أنواع العبادة، التي لا يجوز أنْ يُصرف منها شيءٌ لغير الله. وكذلك النسك، يتضمن أمورًا من العبادة. كما تقدم في كلام شيخ الإسلام.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: **عن علي بن أبي طالب، قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: «لعنَ الله مَن ذبح لغير الله، لعن الله مَن لعنَ والديه، لعن الله من آوى مُحْدِثًا، لعن الله من غيَّر منار الأرض» رواه مسلم.** رواه مُسلم من طُرق، وفيه قصة.

ورواه الإمام أحمد كذلك، عن أبي الطفيل، قال: قُلنا لعلي: أخبرنا بشيءٍ أسرَّه إليك رسولُ الله ﷺ، فقال: ما أسرَّ إلي شيئًا كتمه الناس، ولكن سمعتُه يقول: **«لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله**

أنها واجبة علىٰ القادر، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية[١].

والأضحية ليست عن الأموات كما يفهمه العوام، بل هي للأحياء، وأما الأموات، فليس من المشروع أن يُضحَّىٰ لهم استقلالاً، إلا إن أوصوا به، فعلىٰ ما أوصوا به لأن ذلك لم يرد عن الرسول ﷺ.

وأما العقيقة: وهي التي تذبح عن المولود في يوم سابعه إن كان ذكرًا فاثنتان، وإن كان أنثىٰ فواحدة، وتجزئ الواحدة مع الإعسار في الذكور. وهي سنة عند أكثر أهل العلم.

وقال بعض أهل العلم: إنها واجبة؛ لأن النبي ﷺ قال: **«كل غلام مرتهن بعقيقته»**[٢].

قوله: «كلمات»: جمع كلمة، والكلمة في اصطلاح النحويين: القول المفرد.

أما في اللغة؛ فهي كل قول مفيد، قال الرسول ﷺ: **«أصدق كلمة قالها شاعر: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»**[٣]. وقال تعالىٰ: ﴿ **كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا** ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، وهي قوله: ﴿ **رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ** ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

---

(١) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في باب صلاة التطوع وقال: وأما الأضحية، فالأظهر وجوبها أيضًا فإنها من أعظم شعائر الإسلام وهي النسك العام في جميع الأمصار، والنسك مقرون بالصلاة. في قوله: ﴿**إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين**﴾.

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٢٨٣٧، ٢٨٣٨)، والترمذي (١٥٢٢)، والنسائي (٤٢٢٠)، وابن ماجه (٣١٦٥)، وأحمد (١٩٥٧٩) ومواضع، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٤٥٤١).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٣٨٤١، ٦١٤٧)، ومسلم (٢٢٥٦)، وابن ماجه (٣٧٥٧)، وأحمد (٨٨٦٦، ٩٧٢٤).

عـن علي بن أبي طالب، قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: «لعنَ الله مَن ذبـح لغيـر الله، لعن الله مَن لعنَ والديـه، لعن الله من آوى مُـحْـدِثًا، لعن اللـه من غـيَّـر منار الأرض»[١] رواه مسلم.

من آوى محدثًا، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من غيَّر تُخوم الأرض. يعني: المنار»[٢].

وعليٌّ بن أبي طالب: هو الإمام، أمير المؤمنين، أبو الحسن الهاشمي، ابنُ عم النبي ﷺ وزوج ابنته فاطمةُ الزهراء. وكان من أسبق السابقين الأوَّلين، ومن أهل بدر وبَيعة الرضوان، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، ورابع الخُلفاء الراشدين، ومناقبهُ مشهورة رضي الله تعالىٰ عنه. قتله ابنُ مُلْجم الخارجي، في رمضان سنة أربعين.

قوله: «لعن الله» اللعنة: البُعد عن مظان الرحمة، ومواطنها. قيل: واللعين والملعون: من حقّت عليه

باب ما جاء في الذبح لغير الله

أي: أنه شرك، فإن نصوص الكتاب والسنة صريحة في الأمر بالذبح لله، وإخلاص ذلك لوجهه، كما هي صريحة بذلك في الصلاة فقد قرن الله الذبح بالصلاة في عدة مواضع من كتابه، وإذا ثبت أن الذبح لله من أجل العبادات وأكبر الطاعات، فالذبح لغير الله شرك أكبر مخرج عن دائرة الإسلام؛ فإن حد الشرك الأكبر وتفسيره الذي يجمع أنواعه وأفراده أن يصرف العبد نوعًا أو فردًا من أفراد العبادة لغير الله.

قال شيخ الإسلام[٣]: لا تطلق الكلمة في اللغة العربية إلا علىٰ الجملة المفيدة.

قوله: «لعن الله»: اللعن من اللّه: الطرد والإبعاد عن رحمة اللّه، فإذا قيل: لعنه اللّه، فالمعنىٰ: طرده وأبعده عن رحمته، وإذا قيل: اللهم العن فلانًا، فالمعنىٰ أبعده عن رحمتك واطرده عنها.

قوله: «من ذبح لغير الله»: عام يشمل من ذبح بعيرًا، أو بقرة، أو دجاجة، أو غيرها.

قوله: «لغير الله»: يشمل كل من سوىٰ اللّه حتىٰ لو ذبح لنبي، أو ملك، أو جني، أو غيرهم.

قوله: «لعن»: يحتمل أن تكون الجملة خبرية، وأن الرسول ﷺ يخبر أن اللّه لعن من ذبح لغير اللّه. ويحتمل أن تكون إنشائية بلفظ الخبر؛ أي: اللهم العن من ذبح لغير اللّه، والخبر أبلغ، لأن الدعاء قد يُستجاب، وقد لا يستجاب.

قوله: «والديه»: يشمل الأب والأم، ومن فوقهما؛ لأن الجد أب، كما أن أولاد الابن والبنت أبناء في وجوب الاحترام لأصولهم. والمسألة هنا ليست مالية، بل هي من الحقوق، ولعن الأدنىٰ أشد من لعن الأعلىٰ، لأنه أولىٰ بالبر، ولعنه ينافي البر.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٧٨). (٢) صحيح: رواه أحمد في المسند (١/ ١٠٨، ١/ ٣١٧).

(٣) ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى في فصل في ذكر شبهة هؤلاء فقال: اسم الكلام لا يقال إلا على الجملة المفيدة كالمركبة من اسمين، أو اسم وفعل، وقد ذكر ذلك سيبويه حكيم لسان العرب في باب الحكاية بالقول، حيث ذكر أن القول يحكى به ما كان كلامًا، ولا يحكى به ما كان قولاً، والقول إنما تحكى به الجمل المفيدة، فعلم أنها هي الكلام في لغة العرب. اهـ.

. . . .

اللعنة، أو دُعي عليه بها. قال أبو السعادات: أصل اللعن: الطرد والإبعاد من الله، ومن الخلق: السب والدعاء.

قال شيخُ الإسلام: ما معناه: إنَّ الله تعالىٰ يلعن من استحق اللعنة بالقول؛ كما يصلي سبحانه علىٰ من استحق الصلاة من عباده، قال تعالىٰ: ﴿ **هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ** ﴾ [الأحزاب: ٤٣، ٤٤]، وقال ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا** ﴾ [الأحزاب: ٦٤] وقال: ﴿ **مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً** ﴾ [الأحزاب: ٦١] والقرآن كلامه تعالىٰ، أوحاه إلىٰ جبرائيل عليه السلام وبلَّغه رسوله محمداً ﷺ، وجبرائيل سمعه منه، كما سيأتي في الصلاة إنْ شاء الله تعالىٰ.

فالصلاةُ ثناءُ الله تعالىٰ، كما تقدَّم. فالله تعالىٰ هو المصلِّي وهو المُثيب، كما دل علىٰ ذلك الكتابُ والسنة، وعليه سلف الأمة. قال الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ: لم يزل الله متكلماً إذا شاء.

قوله: «من ذبح لغير الله» قال شيخُ الإسلام رحمه الله تعالىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿ **وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ**

قوله: «من لعن والديه»: أيْ: سبهما وشتمهما؛ فاللعن من الإنسان السب والشتم، فإذ سببت إنسانًا أو شتمته، فهذا لعنه لأن النبي ﷺ قيل له: كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «**يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»(١). وأخذ الفقهاء من هذا الحديث قاعدة. وهي: أن السبب بمنزلة المباشرة في الإثم، وإن كان يخالفه في الضمان علىٰ تفصيل في ذلك عند أهل العلم.

قوله: «من آوى محدثًا»: أي: ضمَّه إليه وحماه، والإحداث: يشمل الإحداث في الدين، كالبدع التي أحدثها الجهمية والمعتزلة، وغيرهم. والإحداث في الأمر: أي في شئون الأمة؛ كالجرائم وشبهها، فمن آوىٰ محدثًا فهو ملعون، وكذا من ناصره؛ لأن الإيواء أن تأويه لكف الأذىٰ عنه، فمن ناصره، فهو أشد وأعظم. والمحدث أشد منه؛ لأنه إذا كان إيواؤه سببًا للعنة؛ فإن نفس فعله جرم أعظم. ففيه التحذير من البدع والإحداث في الدين، قال النبي ﷺ «**إياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة**»(٢) وظاهر الحديث: ولو كان أمرًا يسيرًا.

قوله: «منار الأرض»: أي: علاماتها ومراسيمها التي تحدد بين الجيران، فمن غيّرها ظلمًا، فهو ملعون، وما أكثر الذي يغيرون منار الأرض لاسيما إذا زادت قيمتها، وما علموا أن الرسول ﷺ يقول: «**من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا؛ طُوِّقَهُ من سبع أرضين**»(٣).

فالأمر عظيم، مع أن هذا الذي يقتطع من الأرض، ويغير المنار، ويأخذ ما لا يستحق لا يدري: قد يستفيد منها في دنياه، وقد يموت قبل ذلك، وقد يُسلط عليه آفة تأخذ ما أخذ.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠)، وأبو داود (٥١٤١)، والترمذي (١٩٠٢)، وأحمد (٦٤٩٣) ومواضع.

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد (١٦٦٩٢)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الترغيب والترهيب (٣٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٥٢، ٣١٩٨)، ومسلم (١٦١٠).

. . . .

اللّه ﴾[(١)] [البقرة: ١٧٣]: ظاهرُه: أنه ما ذُبح لغير الله، مثلُ أن يُقال: هذا ذبيحةٌ لكذا.

وإذا كان هذا هو المقصود، فسواء لفظ به أو لم يلفظ. وتحريمُ هذا أظهر من تحريم ما ذبحه للحم وقال فيه: باسم المسيح ونحوه؛ كما أنّ ما ذبحناه متقرِّبين به إلى الله كان أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم وقلنا عليه: بسم الله. فإذا حرُم ما قيل فيه باسم المسيح أو الزُّهرة، فَلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح أو الزُّهرة أو قصد به ذلك أولى؛ فإن العبادة لغير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله.

وعلى هذا: فلو ذبح لغير الله متقربًا إليه لَحُرم[(٢)]، وإن قال فيه: باسم الله. كما قد يفعله طائفةٌ

فالحاصل: أن هذا دليل على أن تغيير منار الأرض من كبائر الذنوب، ولهذا قرنه النبي ﷺ بالشرك وبالعقوق وبالإحداث، مما يدل على أن أمره عظيم، وأنه يجب على المرء أن يحذر منه، وأن يخاف اللَّه سبحانه وتعالى حتى لا يقع فيه.

---

(١) وفي سورة المائدة الآية الثالثة. وسورة الأنعام الآية (١٤٥) وسورة النحل الآية (١١٥) ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ وأصل الإهلال: رفع الصوت والإعلام. فالمقصود بما أهل به لغير الله: ما أعلن عنه أنه منذور به لغير الله. سواء كان هذا الإهلال والإعلام قبل الذبح كأن يقال: هذه شاة السيدة فلانة والسيد فلان؛ فيعرف الناس ذلك، وأنها مهل بها لغير الله ولو سمى الذابح باسم الله. فإن هذه التسمية اللفظية لاغية. والعبرة بالإهلال الحقيقي بما انطوى عليه من قصد التقرب به لغير الله. (وكذلك أيضًا ما سمي من الطعام أو الشراب أو غيره نذرًا وقربة لغير الله. فكل طعام يصنع ليوزع على العاكفين عند هذه القبور والطواغيت)(*) باسمها وعلى بركتها هو مما أهل به لغير الله.(ق).

(*) قوله: (وكذلك أيضًا ما سمي من الطعام أو الشراب أو غيره نذرًا وقربة لغير الله. فكل طعام يصنع ليوزع على العاكفين عند هذه القبور والطواغيت)... إلخ. أقول هذا المقام فيه تفصيل فإن كان المراد من ذلك من أن هذا الشرك لكونه عبادة لغير الله وتقربًا إليه فهذا صحيح. لأنه لا يجوز لأحد أن يعبد غير الله بشيء من العبادات لا نبيًّا ولا غيره، ولا ريب أن تقديم الطعام والشراب والنقود وغير ذلك للأموات من الأنبياء والأولياء أو غيرهم أو للأصنام ونحوها رغبة ورهبة، داخل في عبادة غير الله لأن العبادة لله هي ما أمر الله به ورسوله، أما إن كان مراد الشيخ حامد أن النقود والطعام والشراب والحيوانات الحية التي قدمها ملاكها للأنبياء والأولياء وغيرهم يحرم أخذها والانتفاع بها فذلك غير صحيح لأنها أموال ينتفع بها قد رغب عنها أهلها وليست في حكم الميتة فوجب أن تكون مباحة لمن أخذها، كسائر الأموال التي تركها أهلها لمن أرادها، كالذي يتركه الزراع وجذاذ النخل من السنابل والتمر للفقراء، ويدل على ذلك أن النبي ﷺ أخذ الأموال التي في خزائن اللات، وقضى منها دين عروة بن مسعود الثقفي، ولم ير تقديمها للات مانعًا من أخذها عند القدرة عليها. ولكن يجب على من رأى من يفعل ذلك من الجهلة والمشركين أن ينكر عليه ويبين له أن ذلك من الشرك حتى لا يظن أن سكوته عن الإنكار أو أخذه لها إن أخذ منها شيئًا دليل على جوازها وإباحة التقرب بها إلى غير الله سبحانه، ولأن الشرك أعظم المنكرات فوجب إنكاره على من فعله لكن إذا كان الطعام مصنوعًا من لحوم ذبائح المشركين أو شحمها أو مرقها فإنه حرام، لأن ذبيحتهم في حكم الميتة فتحرم وينجس بها ما خالطته من الطعام، بخلاف الخبز ونحوه ما لم يخالطه شيء من ذبائح المشركين فإنه محل لمن أخذه، وهكذا النقود ونحوها كما تقدم والله أعلم. (ز).

(٢) بل يكون هذا الذبح شركًا أكبر. ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]. (ق).

. . . .

من منافقي هذه الأمة، الذين قد يتقرَّبون إلىٰ الكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك[(١)].

وإنْ كان هؤلاء مرتدين، لا تُباح ذبيحتهم بحال. لكن يجتمع في الذبيحة مانعان، الأول: أنه مما أُهلَّ به لغير الله. والثاني: أنها ذبيحة مُرتد.

قلتُ: هذا لا اختلاف فيه، بين العلماء. وأمَّا إذا ذُبح للحم وذُكر علىٰ الذبيحة اسمُ المسيح أو الزهرة ونحو ذلك، فهذا الذي فيه خلافُ العلماء. وكلامُ شيخُ الإسلام هذا: يدلُّ علىٰ أنَّه يقول بتحريمه، ووافقه علىٰ ذلك بعضُ العلماء.

وذكر القرطبيُّ في تفسير قوله تعالىٰ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]: ثم استثنىٰ قوله: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة: ٥]. يعني: ذبيحة اليهودي والنصراني، وإن كان النصراني يقول عند الذبح بسم المسيح. واليهودي يقول: بسم عُزير. وذكر قول عطاء: كُل من ذبيحة النصراني وإنْ قال: بسم المسيح؛ لأن الله تعالىٰ قد أباح ذبائحهم، وقد علم ما يقولون. وذكر مثله عن القاسم بن مُخيْمرة، وهو قول الزهري، وربيعة، والشعبي، ومكحول. وروي عن عُبادة بن الصَّامت وأبي الدرداء من الصحابة. انتهىٰ مُلخصًا.

ثم قال: ومن هذا الباب ما يفعُله الجاهلون بمكة من الذبح للجن[(٢)]. ولهذا رُوي عن النبي ﷺ: أنه نهىٰ عن ذبائح الجن[(٣)]. انتهىٰ.

قال الزمخشري: كانوا إذا اشتروا دارًا أو بنوها أو استخرجوا عينًا، ذبحوا ذبيحة خوفًا أنْ تُصيبهم الجن، فأضيفت إليهم الذبائح لذلك.

وذكر إبراهيم المروزي: أنَّ ما ذُبح عند استقبال السُّلطان تقربًا إليه، أفتىٰ أهلُ بُخارىٰ بتحريمه؛ لأنه مما أُهلَّ لغير الله.

قوله: «لعن الله من لعن والديه» يعني أباه وأُمَّه، وإن عَلَيا. وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «من الكبائر شَتْم الرجلِ والديه»، قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجلُ والديه؟ قال: «نعم، يَسبُّ أبا الرجل فيسب أباه، ويسبُّ أمَّه فيسب أمَّه»[(٤)].

قوله: «لعن الله من آوى مُحْدثًا». هو بفتح الهمزة، ممدودة: أي ضمَّه إليه، وحماه أنْ يُؤخذ

. . . .

(١) وهم الذين يكتبون الحجب والتمائم والتعاويذ ونحوها، فإنهم يتحرون بها يوم السبت في ساعة كذا أو غيره من الأيام والساعات. ويذبحون ويبخرون عند نزول الكوكب الفلاني في منزلة كذا ونحو كذا، وهم في البلاد الإسلامية كثير-لا كثرهم الله- ويعتقد العامة فيهم الصلاح والتقوى، مع أنهم مشركون مرتدون مفسدون للعقول بدجلهم بهذه التمائم والحجب ومتخذون آيات الله هزوًا، ومتقربون بهذه المناسك لغير الله. فيا الله ما أشد غربة الإسلام. وإنا لله وإنا إليه راجعون. (ق).

(٢) وفي غير مكة. باسم الزار وإخراج الجن المتلبس بالإنس. ويدقون لذلك الطبول. (ق).

(٣) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (١/ ٢٧٢).

(٤) صحيح: رواه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠).

. . . .

منه الحق الذي وجب عليه.

قال أبو السعادات: أويتُ إلىٰ المنزل، وأويت غيري، وآويته. وأنكر بعضهم المقصور المتعدي. وقال الأزهري: هي لغةٌ صحيحة. وأما مُحْدِثًا: فقال أبو السعادات: يُروىٰ بكسر الدال وفتحها، علىٰ الفاعل والمفعول. فمعنىٰ الكسر: من نَصَر جانيًا وآواه وأجاره من خصمه، وحال بينه وبين أن يُقتصَّ منه. والفتح: هو الأمر المُبتدَع نفسه، ويكون معنىٰ الإيواء فيه: الرضىٰ به والصبر عليه. فإنه إذا رضي بالبدعة، وأقرَّ فاعلها ولم يُنكر عليه فقد آواه.

قال ابنُ القيم رحمه الله تعالى: هذه الكبيرة، تختلف مراتبُها باختلاف مراتب الحَدَث بنفسه. فكُلَّما كان الحدثُ في نفسه أكبر، كانت الكبيرة أعظم.

قوله: «**لعن الله من غيَّر منار الأرض**»[1] بفتح الميم: علاماتُ حدودها. قال في (النهاية): أي: معالمها وحدودها، واحدُها تَخْم. قيل: أراد حدود الحرم خاصة، وقيل: هو عامٌّ في جميع الأرض، وأراد: المعالم التي يُهتدىٰ بها في الطريق. وقيل: هو أن يَدخل الرجلُ في مُلك غيره، فيقتطعه ظُلمًا. قال: وروي: تَخوم. بفتح التاء، علىٰ الإفراد. وجمعه تُخم، بضم التاء والخاء. انتهىٰ.

وتغييرُها: أنْ يُقدِّمها، أو يؤخرها. فيكون هذا من ظُلم الأرض، الذي قال فيه النبيُّ ﷺ: «**من ظلم شِبرًا من الأرض طُوِّقه يوم القيامة من سبع أرضين**»[2] ففيه: جوازُ لعن أهل الظلم، من غير تعين.

وأمَّا لعنُ الفاسق المعينَّ: ففيه قولان، أحدُهما: أنه جائز. اختاره ابنُ الجوزي، وغيره. والثاني: لا يجوز، اختاره أبو بكر عبدُ العزيز، وشيخ الإسلام.

وقال النووي رحمه الله تعالى: واتفق العلماءُ علىٰ تحريم اللعن؛ فإنَّه في اللغة: الإبعادُ، والطرد. وفي الشرع: الإبعادُ من رحمة الله. فلا يجوز أنْ يُبعد من رحمة الله من لا يُعرف حاله وخاتمة أمره معرفةً قطعية. فلهذا قالوا: لا يجوز لعن أحدٍ بعينه، مُسلمًا كان أو كافرًا أو دابة. إلاَّ من علمنا بنصٍّ شرعي أنه مات علىٰ الكفر، أو يموت عليه كأبي جهل وإبليس.

وأمَّا اللعنُ بالوصف، فليس بحرام. كلعن: الواصلة والمستوصلة، والواشمة والمستوشمة، وآكلِ الربا وموكله، والمصوِّرين، والظالمين، والفاسقين، والكافرين، ولعنِ من غيَّر منار الأرض، ومن تولّىٰ غير مواليه، ومن انتسب إلىٰ غير أبيه، ومن أحدَث في الإسلام حَدَثًا أو آوىٰ محدثًا. وغير ذلك، مما جاءت النصوص الشرعية بإطلاقه علىٰ الأوصاف لا علىٰ الاعيان والله أعلم.

. . . .

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم عن عائشة، وعن سعيد بن زيد ﷺ. (ق).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٤٥٢) ومواضع، ومسلم (١٦١٠).

وعن طارق بن شهاب: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنةَ رجلٌ في ذُباب، ودخل النارَ رجلٌ في ذُباب»، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «مرَّ رجلان على قوم لهم صنمٌ لا يجاوزُه أحدٌ حتى يُقرِّب له شيئًا. قالوا لأحدهما: قرِّب، قال: ليس عندي شيءٌ أُقرِّب، قالوا له: قرِّب ولو ذبابًا، فقرَّب ذُبابًا، فخلّوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرب، قال: ما كنتُ لأُقرِّب لأحد شيئًا دون الله عز وجل، فضربوا عنقه، فدخل الجنة»[1] رواه أحمد.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن طارق بن شهاب[2]: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنةَ رجلٌ في ذُباب، ودخل النارَ رجلٌ في ذُباب»، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «مرَّ رجلان على قوم لهم صنمٌ[3] لا يجاوزُه أحدٌ حتى يُقرِّب له شيئًا. قالوا لأحدهما: قرِّب، قال: ليس عندي شيءٌ أُقرب، قالوا له: قرِّب ولو ذبابًا، فقرب ذبابًا، فخلّوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرب، قال: ما كنتُ لأُقرِّب لأحد شيئًا دون الله عز وجل، فضربوا عنقه، فدخل الجنة» رواه أحمد.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن سُليمان بن ميسرة، عن طارق بن شهاب يرفعه، قال: «دخل الجنة رجلٌ في ذباب» الحديث.

قوله: «عن طارق بن شهاب»: في الحديث علتان:

الأولى: أن طارق بن شهاب، اتفقوا على أنه لم يسمع من النبي ﷺ، واختلفوا في صحبته، والأكثرون على أنه صحابي. لكن إذا قلنا: إنه صحابي، فلا يضر عدم سماعه من النبي ﷺ؛ لأن مرسل الصحابي حجة، وإن كان غير صحابي، فإنه مرسل غير صحابي، وهو من أقسام الضعيف[4].

الثانية: أن الحديث معنعن من قبل الأعمش، وهو من المدلسين وهذه آفة في الحديث؛ فالحديث في النفس منه شيء من أجل هاتين العلتين. ثم للحديث علة ثالثة. وهي: أن الإمام أحمد رواه عن طارق عن سلمان موقوفًا من قوله: وكذا أبو نعيم وابن أبي شيبة، فيحتمل أن سلمان أخذه عن بني إسرائيل.

قوله: «في ذباب»: «في»: للسببية، وليست للظرفية، أي: بسبب ذباب، ونظيره قول النبي ﷺ: «دخلت النار امرأة في هرة حبستها...» الحديث؛ أي: بسبب هرة.

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٤٧٣)، والبيهقي في الشعب (٥/ ٤٨٥)، وابن أبي عاصم في الزهد (١/ ١٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٠٣)، والحديث من رواية الأعمش وهو مدلس وقد عنعن، فسنده ضعيف، والحديث لم أقف عليه في مسند الإمام أحمد.

(٢) الحديث في كتاب الزهد (ص١٥ س١٨) وفي الحلية (ج١ ص٢٠٣) موقوفًا فيهما كليهما على سليمان في الزهد وعلى سلمان في الحلية. وهو خطأ في الحلية لأن الحافظ ابن حجر قال في تعجيل المنفعة: سليمان بن ميسرة الأحمسي عن طارق بن شهاب وعنه الأعمش وحبيب بن أبي ثابت، وثقه ابن معين. وقال ابن حبان في ثقات التابعين: روى عن طارق بن شهاب وله صحبة؛ وقال ابن خلفون في الثقات: وثقه العجلي ويحيى والنسائي. اهـ. (ق).

(٣) قال في النهاية: كل ما عبد من دون الله بل كل ما يشغل عن الله يقال له: صنم. (ق).

(٤) انظر ترجمته في تهذيب التهذيب (٥/ ٤) معجم الصحابة (٢/ ٤٥) الإصابة (٣/ ٥١٠).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي﴾.

الثانية: تفسير: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.

الثالثة: البداءة بلعنة من ذبح لغير الله.

الرابعة: لعْن من لعَن والديه، ومنه أن تلعن والدي الرجل فيلعن والديك.

الخامسة: لعْن من آوى محدِثًا؛ وهو الرجل يحدث شيئًا يجب فيه حق لله فيلتجئ

وطارق بنُ شهاب: هو البَجَلي الأحمُسي، أبو عبد الله. رأى النبيَّ ﷺ وهو رجل.
قال البغوي: ونزل الكوفة.
وقال أبو داود: رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه شيئًا. قال الحافظ: إذا ثبت أنه رأى النبي ﷺ فهو صحابي، وإذا ثبت أنه لم يسمع منه، فروايتُه عنه مُرسل صحابي، وهو مقبولٌ على الراجح. وكانت وفاتُه ـ على ما جزم به ابنُ حبان ـ سنة ثلاث وثمانين.

فكل اعتقاد أو قول أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشارع فصرفه لله وحده توحيد وإيمان وإخلاص، وصرفه لغيره شرك وكفر، فعليك بهذا الضابط للشرك الأكبر الذي لا يشذ عنه شيء، كما أن حد الشرك الأصغر هو كل وسيلة وذريعة يتطرق منها إلى الشرك الأكبر من الإرادات والأقوال والأفعال التي لم تبلغ رتبة العبادة، فعليك بهذين الضابطين للشرك الأكبر والأصغر؛ فإنه مما يعينك على فهم الأبواب السابقة واللاحقة من هذا الكتاب، وبه يحصل لك الفرقان بين الأمور التي يكثر اشتباهها والله المستعان.

قوله: «فدخل النار»: مع أنه ذبح شيئًا حقيرًا لا يؤكل، لكن لما نوى التقرب به إلى هذا الصنم؛ صار مشركًا، فدخل النار.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير ﴿قل إن صلاتي ونسكي﴾: وقد سبق ذلك في أول الباب.

الثانية: تفسير: ﴿فصل لربك وانحر﴾: قد سبق ذلك في أول الباب.

الثالثة: البداءة بلعنة من ذبح لغير الله: بدأ به؛ لأنه من الشرك، والله إذا ذكر الحقوق يبدأ أولاً بالتوحيد؛ لأن حق الله أعظم الحقوق، قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. وينبغي أن يبدأ في المناهي والعقوبات بالشرك وعقوبته.

الرابعة: لعن من لعن والديه: ولعن الرجل للرجل له معنيان:

الأول: الدعاء عليه باللعن.

الثاني: سبه وشتمه؛ لأن الرسول ﷺ فسره بقوله: «**يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»[1].

---

(١) **صحيح**: وقد تقدم.

إلى من يجيره من ذلك.
السادسة: لعن من غير منار الأرض، وهو المراسيم التي تفرق بين حقك في الأرض وحق جارك، فتغيرها بتقديم أو تأخير.
السابعة: الفرق بين لعن المعيّن، ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم.

قوله: «دخل الجنة رجلٌ في ذباب» أي: من أجله لأن «في» تأتي للتعليل.
قوله: (قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟) كأنهم تقالّوا ذلك، وتعجّبوا منه.
فبيَّن لهم النبيُّ ﷺ: ما صَيَّر لهم هذا الأمر الحقير عندهم عظيمًا، يستحق هذا عليه الجنة، ويستوجب الآخر عليه النار.
قوله: فقال: «مر رجلان على قوم لهم صنم» الصنم: ما كان منحوتًا على صورة.
قوله: «لا يُجاوزه» أي: لا يمرُّ به ولا يتعداه أحدٌ، حتى يقرِّب له شيئًا وإن قلّ.
قوله: «قالوا له: قرِّب ولو ذبابًا، فقرَّب ذُبابًا فخلّوا سبيله، فدخل النار»: وفي هذا: بيانُ عظمة الشرك، ولو في شيءٍ قليل، وأنه يوجب النار[1]؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ

الخامسة: لعن من آوى محدثًا: وقد سبق أنه يشمل الإحداث في الدين والجرائم، فمن آوى محدثًا ببدعة، فهو داخل في ذلك، ومن آوى محدثًا بجريمة، فهو داخل في ذلك.
السادسة: لعن من غير منار الأرض: وسواء كانت بينك وبين جارك، أو بينك وبين السوق مثلاً؛ لأن الحديث عام.
السابعة: الفرق بين لعن المعين ولعن المعاصي على سبيل العموم: فالأول ممنوع، والثاني جائز، فإذا رأيت من آوى محدثًا؛ فلا تقل: لعنك اللَّه، بل قل: لعن اللَّه من آوى محدثًا؛ على سبيل العموم، والدليل على ذلك أن النبي ﷺ لما صار يلعن أناسًا من المشركين من أهل الجاهلية بقوله: «اللهم العن فلانًا وفلانًا وفلانًا» فنُهي عن ذلك بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾[2] [آل عمران: ١٢٨]، فالمعين ليس لك أن تلعنه، وكم من إنسان صار على وصف يستحق به اللعنة ثم تاب فتاب اللَّه عليه، إذن يؤخذ هذا من دليل مفصل، وكأن المؤلف رحمه اللَّه، قال: الأصل عدم جواز إطلاق اللعن، فجاء هذا الحديث لاعنًا للعموم، فيبقى الخصوص على أصله؛ لأن المسلم ليس بالطعَّان ولا باللعَّان، والرسول ﷺ ليس طعَّانًا ولا

---

(١) في قرة العيون: لأنه قصد غير الله بقلبه أو انقاد بعمله فوجبت له النار، ففيه معنى حديث مسلم الذي تقدم في باب الخوف من الشرك عن جابر مرفوعًا «من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به دخل النار» فإذا كان هذا فيمن قرب للصنم ذبابًا فكيف بمن يستسمن الإبل والبقر والغنم ليتقرب بنحرها وذبحها لمن كان يعبده من دون الله، من ميت أو غائب، أو طاغوت أو مشهد أو شجر، أو حجر أو غير ذلك؟ وكان هؤلاء المشركون في أواخر هذه الأمة يعدون ذلك أفضل من الأضحية في وقتها الذي شرعت فيه، وربما اكتفى بعضهم بذلك عن أن يضحي لشدة رغبته وتعظيمه ورجائه لمن كان يعبده من دون الله؛ وقد عمت البلوى بهذا وما هو أعظم منه. (ق).
(٢) صحيح: رواه البخاري (٤٠٧٠) ومواضع، والترمذي (٣٠٠٥)، والنسائي (١٠٧٨)، وأحمد (٥٦٤١).

الثامنة: هذه القصة العظيمة، وهي قصة الذباب.

التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده، بل فعله تخلُّصًا من شرهم(١).

اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وفي هذا الحديث: الحذرُ من الوقوع في الشرك، وأنَّ الإنسان قد يقع فيه وهو لا يدري أنه من الشرك الذي يوجبُ النار.

وفيه: أنه دخل النار بسببٍ لم يقصده ابتداءً، وإنما فعله تخلُّصًا من شر أهل الصنم.

وفيه: أنَّ ذلك الرجل كان مسلمًا قبل ذلك، وإلاَّ فلو لم يكن مُسلمًا لم يقل: دخل النار في ذُباب.

وفيه: أنَّ عمل القلب هو المقصودُ الأعظم، حتى عند عبَدَة الأوثان. ذكره المصنفُ بمعناه.

قوله: «**وقالوا للآخر: قرِّب. قال: ما كنتُ لأقرِّب لأحد شيئًا دون الله عز وجل**» ففيه: بيانُ فضيلة التوحيد والإخلاص(٢)، والصلابة في الدين.

لعَّانًا، ولعل هذا وجه أخذ الحكم من الحديث، وإلا؛ فالحديث لا تفريق فيه.

الثامنة: هذه القصة العظيمة؛ وهي قصة الذباب: كأن المؤلف رحمه اللَّه يصحح الحديث، ولهذا بنى عليه حكمًا، والحكم المأخوذ من دليل فرع عن صحته، والقصة معروفة.

التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده، بل فعله تخلصًا من شرهم: هذه المسألة ليست مسلمة، فإن قوله: قرب ولو ذبابًا يقتضي أنه فعله قاصدًا التقرب، أما لو فعله تخلصًا من شرهم، فإنه لا يكفر لعدم قصد التقرب، ولهذا قال الفقهاء: لو أكره على طلاق امرأته فطلق تبعًا لقول المكره، لم يقع الطلاق، بخلاف ما لو نوى الطلاق، فإن الطلاق يقع، وإن طلق دفعًا للإكراه، لم يقع، وهذا حق لقوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»(٣).

وظاهر القصة أن الرجل ذبح بنية التقرب؛ لأن الأصل أن الفعل المبني على طلب يكون موافقًا لهذا الطلب.

ونحن نرى خلاف ما يرى المؤلف رحمه اللَّه، أي أنه لو فعله بقصد التخلص ولم ينو التقرب لهذا الصنم لا يكفر؛ لعموم قوله تعالى: ﴿**مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا**﴾ [النحل: ١٠٦].

وهذا الذي فعل ما يوجب الكفر تخلصًا مطمئن قلبه الإيمان.

---

(١) الظاهر أنه لم يكن متخلصًا وإلا لم يدخل النار؛ ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]. (ق).

(٢) في قرة العيون: ففيه معرفة قدر الشرك في قلوب أهل الإيمان ونفرتهم عنه وصلابتهم في الإخلاص، كما في حديث أنس الذي في البخاري وغيره الآتي إن شاء الله تعالى: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان**» وفيه: «**وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**».

وفيه: تفاوت الناس في الإيمان لأن هذا الرجل الذي قرب الذباب لم يكن له عمل يستحق به دخول النار قبل ما فعله مع هذا الصنم، كما هو ظاهر الحديث والله أعلم. (ق).

(٣) **متفق عليه:** رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

العاشرة: معـرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين، كيف صـبر ذلك على القتل، ولـم يوافقهم على طلبتهم، مع كونِهِم لـم يطلبوا منه إلا العمل الظاهر.

وفيه: معنىٰ قوله في الحديث: «وأنْ يكره أنْ يعود في الكفر بعد إذْ أنقـذه الله منه، كما يكره أنْ يُقذف في النار».

قـال المُصنِّفُ: وفيـه: مـعرفـةُ قدرِ الشـرك في قلوب المؤمنين، كـيف صـبر على القـتل ولـم يوافقهم، مع كونهم لـم يطلبوا منه إلاَّ العمل الظاهر.

والصواب أيضًا: أنه لا فرق بين القول المكره عليه والفعل، وإن كان بعض العلماء يفرق ويقول: إذا أكره على القول لم يكفر، وإذا أكره على الفعل كفر، ويستدل بقصة الذباب، وقصة الذباب فيها نظر من حيث صحتها، وفيها نظر من حيث الدلالة؛ لما سبق أن الفعل المبني على طلب يكون موافقًا لهذا الطلب. ولو فرض أن الرجل تقرب بالذباب تخلصًا من شرهم، فإن لدينا نصًا محكمًا في الموضوع، وهو قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ﴾ الآية [النحل: ١٠٦]، ولم يقل: بالقول، فما دام عندنا نص قرآني صريح، فإنه لو وردت السنة صحيحة على وجه مشتبه، فإنها تحمل على النص المحكم.

الخلاصة: أن من أكره على الكفر، لم يكن كافرًا ما دام قلبه مطمئنًا بالإيمان ولم يشرح بالكفر صدرًا.

العاشرة: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين... إلخ: قد بينها المؤلف رحمه الله تعالىٰ.

مسألة: هل الأولىٰ للإنسان إذا أكره على الكفر أن يصبر ولو قتل، أو يوافق ظاهرًا ويتأول؟

هذه المسألة فيها تفصيل:

أولاً: أن يوافق ظاهرًا وباطنًا، وهذا لا يجوز لأنه ردة.

ثانيًا: أن يوافق ظاهرًا لا باطنًا، ولكن يقصد التخلص من الإكراه؛ فهذا جائز.

ثالثًا: أن لا يوافق لا ظاهرًا ولا باطنًا ويقتل، وهذا جائز، وهو من الصبر.

لكن أيهما أولىٰ أن يصبر ولو قتل، أو أن يوافق ظاهرًا؟

فيه تفصيل: إذا كان موافقة الإكراه لا يترتب عليها ضرر في الدين للعامة؛ فإن الأولىٰ أن يوافق ظاهرًا لا باطنًا، لاسيما إذا كان بقاؤه فيه مصلحة للناس، مثل: صاحب المال الباذل فيما ينفع أو العلم النافع وما أشبه ذلك، حتىٰ وإن لم يكن فيه مصلحة، ففي بقائه على الإسلام زيادة عمل، وهو خير، وهو قد رُخص له أن يكفر ظاهرًا عند الإكراه، فالأولىٰ أن يتأول، ويوافق ظاهرًا لا باطنًا.

أما إذا كان في موافقته وعدم صبره ضرر على الإسلام، فإنه يصبر، وقد يجب الصبر؛ لأنه من باب الصبر على الجهاد في سبيل الله، وليس من باب إبقاء النفس، ولهذا لما شكىٰ الصحابة للنبي ﷺ ما يجدونه من مضايقة المشركين، قص عليهم قصة الرجل فيمن كان قبلنا بأن الإنسان كان يمشط ما بين لحمه وجلده بأمشاط الحديد[1]، ويصبر، فكأنه يقول لهم: اصبرو على الأذىٰ.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٦١٢، ٦٩٤٣)، وأبو داود (٢٦٤٩)، وأحمد (٢٠٥٥٣) ومواضع.

الحادية عشرة: أن الذي دخل النار مسلم؛ لأنه لو كان كافراً لم يقل: دخل النار في الذباب.

الثانية عشرة: فيه شاهد للحديث الصحيح: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك»[(١)].

الثالثة عشرة: معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان.

....

ولو حصل من الصحابة رضي الله عنهم في ذلك الوقت موافقة للمشركين وهم قلة؛ لحصل بذلك ضرر عظيم على الإسلام.

والإمام أحمد رحمه الله في المحنة المشهورة لو وافقهم ظاهراً؛ لحصل في ذلك مضرة على الإسلام.

الحادية عشرة: أن الذي دخل النار مسلم؛ لأنه لو كان كافراً لم يقل: دخل النار في ذباب: وهذا صحيح، أي أنه كان مسلماً ثم كفر بتقريبه للصنم؛ فكان تقريبه هو السبب في دخوله النار.

ولو كان كافراً قبل أن يقرِّب الذباب؛ لكان دخوله النار لكفره أولى، لا بتقريبه الذباب.

الثانية عشرة: فيه شاهد للحديث الصحيح: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك»: والغرض من هذا: الترغيب والترهيب، فإذا علم أن الجنة أقرب إليه من شراك النعل، فإنه ينشط على السعي، فيقول: ليست بعيدة، كقوله ﷺ لما سئل عما يدخل الجنة ويباعد من النار، فقال: **«لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه»**[(٢)]. والنار إذا قيل له: إنها أقرب من شراك النعل يخاف، ويتوقى في مشيه لئلا يزل فيهلك، ورب كلمة توصل الإنسان إلى أعلى عليين، وكلمة أخرى توصله إلى أسفل سافلين.

الثالثة عشرة: معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان: والحقيقة أن هذه المسألة مع التاسعة فيها شبه تناقض؛ لأنه في هذه المسألة أحال الحكم على عمل القلب، وفي التاسعة أحاله على الظاهر، فقال: بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده بل فعله خلاصاً من شرهم، ومقتضى ذلك أن باطنه سليم، وهنا يقول: إن العمل بعمل القلب، ولا شك أن ما قاله المؤلف رحمه الله حق بالنسبة إلى أن المدار على القلب. والحقيقة أن العمل مركب على القلب، والناس يختلفون في أعمال القلوب أكثر من اختلافهم في أعمال الأبدان، والفرقان بينهم قصداً وذلاً أعظم من الفرقان بين أعمالهم البدنية؛ لأن من الناس من يعبد الله لكن عنده من الاستكبار ما لا يذل معه ولا يذعن لكل حق، وبعضهم يكون عنده ذلك للحق، لكن عنده نقص في القصد، فتجد عنده

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٤٨٨).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٢١٥١١) ومواضع، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥١٣٦، ٣٩٧٣).

١٠ ـ باب
لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله(١)

وقولُ الله تعالى: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابٌ لا يُذبح لله بمكانٍ يُذبح فيه لغير الله:
لا: نافيةٌ، ويحتمل أنها للنهي، وهو أظهر.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]:
قال المُفسِّرون: إنَّ اللهَ تعالىٰ نهىٰ رسوله ﷺ عن الصلاةَ في مسجد الضرار، والأمةُ تبعٌ له في ذلك. ثم إنه تعالىٰ حثَّه علىٰ الصلاة في مسجد قُباء الذي أُسِّس من أوَّل يوم بُني علىٰ التقوىٰ، وهي طاعةُ الله ورسوله ﷺ، وجمعًا لكلمة المؤمنين، ومعقلاً ومنزلاً للإسلام وأهله؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح: أنَّ رسول الله ﷺ، قال: «صلاةٌ في مسجد قُباء كعمرة»(٢). وفي الصحيح: أنَّ رسول الله ﷺ كان يزور قُباء راكبًا وماشيًا(٣). وقد صرَّح أنَّ المسجد المذكور في الآية هو مسجدُ قُباء

باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

ما أحسن اتباع هذا الباب بالباب الذي قبله، فالذي قبله من المقاصد وهذا من الوسائل: ذاك من باب الشرك الأكبر، وهذا من وسائل الشرك القريبة، فإن المكان الذي يذبح فيه المشركون لآلهتهم تقربًا إليها وشركًا بالله قد صار مشعراً من مشاعر الشرك، فإذا ذبح فيه المسلم ذبيحة ولو قصدها لله فقد تشبه بالمشركين وشاركهم في مشعرهم، والموافقة الظاهرة تدعو إلىٰ الموافقة الباطنة والميل إليهم.

نوعًا من الرياء مثلاً. فأعمال القلب وأقواله لها أهمية عظيمة، فعلىٰ الإنسان أن يخلصها للّه.
وأقوال القلب هي اعتقاداته؛ كالإيمان باللّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره. وأعماله هي تحركاته؛ كالحب، والخوف، الرجاء، والتوكل، والاستعانة، وما أشبه ذلك.
والدواء لذلك: القرآن والسنة، والرجوع إلىٰ سيرة الرسول ﷺ بمعرفة أحواله وأقواله وجهاده ودعوته، هذا مما يعين علىٰ جهاد القلب، ومن أسباب صلاح القلب أن لا تشغل قلبك بالدنيا.

---

(١) في قرة العيون: أشار رحمه الله تعالى إلى ما كان الناس يفعلونه في نجد وغيرها قبل دعوتهم إلى التوحيد من ذبحهم للجن لطلب الشفاء منهم لمرضاهم ويتخذون للذبح لهم مكانًا مخصوصًا في دورهم. فنفى الله سبحانه الشرك بهذه الدعوة الإسلامية. فلله الحمد على زوال الشرك والبدع والفساد بطلعة الداعي إلى توحيد رب العالمين. (ق).

(٢) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في التعليق الرغيب (٢/١٣٨، ١٣٩)، وصحيح ابن ماجه (١١٥٩).

(٣) صحيح: رواه البخاري (١١٩٢، ١١٩٤)، ومسلم (١٣٩٩).

. . . .

جماعةٌ من السلف، منهم: ابنُ عباس. وعُروة، والشَّعبي، والحسن وغيرهم.

قلتُ: ويؤيدُه، قوله ﴿**فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا**﴾ الآية. وقيل: هو مسجُد رسول الله ﷺ؛ لحديث أبي سعيد، قال: تمارىٰ رجلان في المسجد الذي أُسِّس علىٰ التقوىٰ من أوَّل يوم، فقال رجل: هو مسجد قُباء، وقال الآخر: هو مسجدُ رسول الله ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**هو مسجدي هذا**»[1] رواه مسلم. وهو قولُ عمر، وابنه، وزيد بن ثابت، وغيرهم.

وقال ابنُ كثير: وهذا صحيح، ولا منافاة بين الآية والحديث؛ لأنه إذا كان مسجدُ قباء قد أُسِّس علىٰ التقوىٰ من أوَّل يوم، فمسجدُ رسول الله ﷺ بطريق الأولىٰ. وهذا بخلاف مسجد الضّرار الذي أُسس علىٰ معصية الله؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾ [التوبة: ١٠٧]. فلهذه الأمور، نهىٰ الله نبيَّه ﷺ عن القيام فيه للصلاة. وكان الذين بنوه جاءوا إلىٰ النبي ﷺ قبل خروجه إلىٰ غزوة تبوك، فسألوه أنْ يُصلي فيه، وأنهم إنما بنوه للضعفاء وأهل العلة في الليلة

هذا الانتقال من المؤلف من أحسن ما يكون؛ ففي الباب السابق ذكر الذبح لغير اللَّه؛ فنفس الفعل لغير اللَّه. وفي هذا الباب ذكر الذبح للَّه، ولكنه في مكان يذبح فيه لغيره، كمن يريد أن يضحي للَّه في مكان يذبح فيه للأصنام، فلا يجوز أن تذبح فيه، لأنه موافقة للمشركين في ظاهر الحال، وربما أدخل الشيطان في قلبك نية سيئة؛ فتعتقد أن الذبح في هذا المكان أفضل، وما أشبه ذلك، وهذا خطر.

قوله: ﴿ **لَا تَقُمْ فِيهِ**﴾: ضمير الغيبة يعود إلىٰ مسجد الضرار، حيثُ بنيَ علىٰ نية فاسدة، قال تعالىٰ: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾، والمتخذون هم المنافقون، وغرضهم من ذلك:

١ - مضارة مسجد قباء، ولهذا يسمىٰ مسجد الضرار.

٢ - الكفر باللَّه؛ لأنه يقرر فيه الكفر - والعياذ باللَّه - لأن الذين اتخذوه هم المنافقون.

٣ - التفريق بين المؤمنين؛ فبدلاً من أن يصلي في مسجد قباء صف أو صفان يصلي فيه نصف صف، والباقون في المسجد الآخر، والشرع له نظر في اجتماع المؤمنين.

٤ - الإرصاد لمن حارب اللَّه ورسوله يقال: إن رجلاً ذهب إلىٰ الشام، وهو فاسق، وكان بينه وبين المنافقين الذين اتخذوا المسجد مراسلات، فاتخذوا هذا المسجد بتوجيهات منه، فيجتمعون فيه لتقرير ما يريدونه من المكر والخديعة للرسول ﷺ وأصحابه، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿**وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ**﴾، فهذه سنة المنافقين: الأيمان الكاذبة.

﴿**إِنْ**﴾: نافية، بدليل وقوع الاستثناء بعدها، أي: ما أردنا إلا الحسنىٰ، والجواب عن هذا اليمين الكاذب: ﴿**وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾.

فشهد اللَّه تعالىٰ علىٰ كذبهم، لأن ما يسرونه في قلوبهم ولا يعلم ما في القلوب إلا علام الغيوب، فكأن هذا المضمر في قلوبهم بالنسبة إلىٰ اللَّه أمر مشهود يرىٰ بالعين، كما قال اللَّه تعالىٰ في

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٣٩٨).

. . . .

الشاتية. فقال: «**إنَّا على سفَر، ولكن إذا رجعنا إنْ شاء الله**» فلمَّا قفل عليه السلام راجعًا إلىٰ المدينة، ولم يبق بينه وبينها إلاَّ يومٌ أو بعضه نزل الوحيُ بخبر المسجد، فبُعث إليه فهدمه قبل قدومه إلىٰ المدينة[1]. ووجهُ مناسبة الآية للترجمة: أنَّ المواضع المعدَّة للذبح لغير الله يجب اجتنابُ الذبح فيها لله؛ كما أنَّ هذا المسجد لمَّا أُعد للمعصية صار محلَّ غضبٍ لأجل ذلك، فلا تجوز الصلاةُ فيه لله. وهذا قياسٌ صحيح، ويؤيده حديث ثابت بن الضحاك الآتي.

قوله: ﴿فيه رِجَالٌ يُحبُّونَ أَن يَتطَهَّرُوا﴾ روىٰ الإمام أحمد، وابنُ خزيمة، وغيرُهما، عن عُويم بن ساعدة الأنصاري: أنَّ النبي ﷺ أتاهم في مسجد قُباء، فقال: «**إنَّ الله قد أحسن عليكم الثناء بالطهور في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟**» فقالوا: يا رسول الله ما نعلم شيئًا، إلاَّ أنه كان لنا جيرانٌ من اليهود، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط، فغسلنا كما غسلوا. وفي رواية عن جابر، وأنس، «**هو ذاك فعليكموه**»[2] رواه ابنُ ماجه، وابن أبي حاتم، والدارقطني، والحاكم.

سورة «المنافقون»: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

قوله: ﴿لا تَقُمْ فيه أَبَدًا﴾: «لا»: ناهية، و«تقم»: مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه السكون، لكن حذفت الواو؛ لأنه سكن آخره، والواو ساكنة؛ فحذفت.

قوله: ﴿أَبَدًا﴾: إشارة إلىٰ أن هذا المسجد سيبقىٰ مسجد نفاق.

قوله: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾: اللام: للابتداء، ومسجد: مبتدأ، وخبره: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾، وفي هذا التنكير تعظيم للمسجد، بدليل قوله: ﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾ [التوبة: ١٠٩]؛ أي: جعلت التقوىٰ أساسًا له، فقام عليه.

وهذه الأحقية ليست علىٰ بابها، وهو أن اسم التفضيل يدل علىٰ مفضل ومفضل عليه اشتركا في أصل الوصف؛ لأنه هنا لا حق لمسجد الضرار أن يقام فيه، وهذا -أعني: كون الطرف المفضل عليه ليس فيه شيء من الأصل الذي وقع فيه التفضيل- موجود في القرآن كثيرًا، كقوله تعالىٰ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

قوله: ﴿فيه﴾: أي: في هذا المسجد المؤسس علىٰ التقوىٰ.

قوله: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾: بخلاف من كان في مسجد الضرار، فإنهم رجس؛ كما قال الله تعالىٰ في المنافقين: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ [التوبة: ٩٥].

قوله: ﴿يَتَطَهَّرُوا﴾: يشمل طهارة القلب من النفاق والحسد والغل وغير ذلك، وطهارة البدن من

---

(١) كان أبو عامر الفاسق الخزرجي قد ذهب إلى هرقل بعد غزوة أحد، يستعديه على رسول الله ﷺ فوعده هرقل ومناه؛ فأرسل جماعة من قومه من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصدًا له إذا قدم عليهم، فبنوا هذا المسجد؛ والذي هدمه بأمر النبي ﷺ وحرقه مالك بن الدخشم أخو بني سالم بن عوف ومعن بن عدي أو أخوه عامر بن عدي. (ق).

(٢) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (١٠٣١).

عن ثابت بن الضَّحاك، قال: نذر رجلٌ[1] أنْ ينحر إبلاً ببُوانة، فسأل النبي ﷺ، فقال: «هل كانَ فيها وَثَنٌ من أوثان الجاهلية يُعبد؟» قالوا: لا. قال: «فهل كان فيها عيدٌ من أعيادهم؟» قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: «أوْف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابنُ آدم»[2]. رواه أبو داود، وإسنادُه على شرطهما.

قوله: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ قال أبو العالية: إنَّ الطهور بالماء لحسن، ولكنَّهم المتطهرون من الذنوب. وفيه: إثباتُ صفةِ المحبة، خلافًا للأشاعرة ونحوهم.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: عن ثابت بن الضَّحاك، قال: نذر رجلٌ أنْ ينحر إبلاً ببُوانة، فسأل النبي ﷺ، فقال: «هل كان فيها وَثَنٌ من أوثان الجاهلية يُعبد؟» قالوا: لا. قال: «فهل كان فيها عيدٌ من أعيادهم؟» قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: «أوْف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في

ومن هذا السبب نهى الشارع عن مشابهة الكفار في شعارهم وأعيادهم وهيئاتهم ولباسهم وجميع ما يختص بهم إبعادًا للمسلمين عن الموافقة لهم في الظاهر التي هي وسيلة قريبة للميل والركون إليهم، حتى أنه نهى عن الصلاة النافلة في أوقات النهي التي يسجد المشركون فيها لغير الله خوفًا من التشبه المحذور.

الأقذار والنجاسات والأحداث.

قوله: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾: هذه محبة حقيقية ثابتة للَّه-عز وجل-تليق بجلاله وعظمته، ولا تماثل محبة المخلوقين، وأهل التعطيل يقولون: المراد بالمحبة: الثواب أو إرادته؛ فيفسرونها إما بالفعل أو إرادته، وهذا خطأ.

قوله: ﴿الْمُطَّهِّرِينَ﴾: أصله المتطهرين، وأدغمت التاء بالطاء لعلة تصريفية معروفة.

وجه المناسبة في الآية: أنه لما كان مسجد الضرار مما اتخذ للمعاصي ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين؛ نهى اللَّه رسوله أن يقوم فيه، مع أن صلاته فيه للَّه؛ فدل على أن كل مكان يُعصى الله فيه أنه لا يقام فيه، فهذا المسجد متخذ للصلاة، لكنه محل معصية، فلا تقام فيه الصلاة.

وكذا لو أراد إنسان أن يذبح في مكان يُذبح فيه لغير اللَّه كان حرامًا؛ لأنه يشبه الصلاة في مسجد الضرار. وقريب من ذلك النهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها؛ لأنهما وقتان يسجد فيهما الكفار للشمس، فهذا باعتبار الزمن والوقت، والحديث الذي ذكره المؤلف باعتبار المكان.

قوله: «**نذر**»: النذر في اللغة: الإلزام والعهد. واصطلاحًا: إلزام المكلف نفسه للَّه شيئًا غير واجب.

---

(١) روى أبو داود بعد هذا الحديث عن سارة بنت مقسم الثقفي أنها قالت: سمعت ميمونة بنت كردم قالت: «خرجت مع أبي في حجه فرأيت رسول الله ﷺ وسمعت الناس يقولون رسول الله ﷺ فجعلت أبده بصري، فدنا إليه أبي وهو على ناقة، ومعه درة كدرة الكتاب؛ فسمعت الأعراب والناس يقولون الطبطبية الطبطبية. فدنا إليه أبي فأخذ بقدمه، قالت فقرأ له ووقف فاستمع منه؛ فقال: يا رسول الله إني نذرت إن ولد لي ولد ذكر أن أنحر على رأس بوانة في عقبة من الثنايا عدة من الغنم - قال: لا أعلم إلا أنها قالت خمسين- فقال رسول الله: «**هل بها من الأوثان شيء؟**» قال: لا قال: «**فأوف بما نذرت لله....**» الحديث.(ق).

(٢) **صحيح**: رواه أبو داود (٣٣١٣)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢٥٥١).

. . . .

معصية الله، ولا فيما لا يملك ابنُ آدم». رواه أبو داود،وإسنادُه على شرطهما.

قوله: (عن ثابت بن الضحاك).أي: ابن خليفة الأشهَلي، صحابيٌّ مشهور. روىٰ عنه أبو قلابة وغيره، مات سنة أربع وستين.

قوله: (ببوانة).بضم الباء، وقيل: بفتحها. قال البغوي: موضعٌ في أسفل مكة، دون يَلَمْلَم. قال أبو السعادات: هضبةٌ من وراء يَنبُع.

قوله: «هل كان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية يُعبد؟»فيه: المنعُ من الوفاء بالنذر إذا كان في المكانِ وثن، ولو بعد زواله. قاله المصنف رحمه الله.

قوله: «فهل كان فيها عيدٌ من أعيادهم؟» قال شيخُ الإسلام [(١)]: العيد: اسمٌ لما يعود من الاجتماع العامِّ علىٰ وجهٍ مُعتاد، عائدٌ: إما بعود السنة، أو بعود الأسبوع، والشهر ونحو ذلك [(٢)].

وقال بعضهم: لا نحتاج أن نقيد بغير واجب، وأنه إذا نذر الواجب صح النذر وصار المنذور واجبًا من وجهين: من جهة النذر، ومن جهة الشرع، ويترتب علىٰ ذلك وجوب الكفارة إذا لم يحصل الوفاء.

والنذر في الأصل مكروه، بل إن بعض أهل العلم يميل إلىٰ تحريمه، لأن النبي ﷺنهىٰ عنه، وقال: «لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل» [(٣)]، ولأنه إلزام لنفس الإنسان بما جعله اللّٰه في حل منه، وفي ذلك زيادة تكليف علىٰ نفسه.

ولأن الغالب أن الذي ينذر يندم، وتجده يسأل العلماء يمينًا وشمالاً يريد الخلاص مما نذر لثقله

---

(١) في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم. (ق).

(٢) وهي التي يسميها الناس اليوم الموالد والذكريات التي ملأت البلاد باسم الأولياء؛ وهي نوع من العبادة لهم (*) وتعظيمهم. ولذلك لا يذكر الناس ويعرفون إلا من أقيمت له هذه الذكريات ولو كان أجهل الله وأفسقهم. فكلما كسدت سوق طاغوت من هؤلاء قام السدنة بهذا العيد لتحيا في نفوس العامة عبادته وتكثر الهدايا والقرابين باسمه. وقد امتلأت البلاد الإسلامية بهذه الذكريات، وعمت بها المصيبة وعادت بها الجاهلية إلى بلاد الإسلام ولا حول ولا قوة إلا بالله. ولم ينج منها إلا نجد والحجاز فيما نعلم بفضل الله ثم بفضل آل سعود الذين قاموا بحماية دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. (ق).

(*) قوله: (وهي نوع من العبادة لهم)...إلخ. أقول هذا فيه إجمال، والصواب التفصيل بأن يقال: من أقام المولد لقصد التقرب إلى صاحبه ورجاء نفعه وبركته، أو لكي يدفع عن مقيم الموالد بعض الضرر ونحو ذلك، فهذا تعتبر إقامته المولد عبادة لصاحبه فإن دعاه مع ذلك أو استغاث به أو نذر له أو ذبح له أو فعل معه شيئًا من بقية أنواع العبادة صار ذلك شركًا إلى شرك، وهذا هو الذي يفعله الكثيرون ممن يقيم الموالد للنبي ﷺ، أو للحسين ﷺ أو للبدوي أو غيرهم. أما من أقام المولد لقصد التقرب إلى الله سبحانه ظنًا منه أن ذلك من العبادات التي يحبها الله، فهذا لا يكون عابدًا لصاحب المولد إذا لم يقع منه شيء من الشرك في احتفال المولد، ولكنه قد أتى بدعة لم يشرعها الله سبحانه ولا رسول الله ﷺ، ولا فعلها السلف الصالح ﷺ ولوكان قصده حسنًا، لأن العبادات توقيفية لا يجوز الإتيان بشيء منها إلا بتشريع من الله ورسوله ﷺ، ولقد عظمت المصيبة بهذه الموالد وحصل بها من الشرك والفساد ما لا يحصيه إلا الله عز وجل، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ونسأل الله أن يصلح أحوال المسلمين ويمنحهم الفقه في الدين ويوفقهم لاتباع السنة وترك البدعة إنه سميع قريب. (ز)

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦٠٨، ٦٦٩٣)، ومسلم (١٦٣٩، ١٦٤٠).

. . . .

والمراد به هُنا: الاجتماع المعتاد، من اجتماع أهل الجاهلية. فالعيدُ يجمع أموراً منها: يومٌ عائد، كيوم الفطر ويوم الجمعة، ومنها: اجتماعٌ فيه، ومنها: أعمالٌ تتبع ذلك من العبادات والعادات. وقد يختص العيد بمكان بعينه، وقد يكون مطلقًا. وكلٌ من هذه الأمور يُسمَّىٰ عيدًا. فالزمان، كقول النبي ﷺ في يوم الجمعة: «إنَّ هذا يومٌ جعله الله للمسلمين عيدًا». والاجتماعُ والأعمال، كقول ابن عباس: شهدتُ العيد مع رسول الله ﷺ[1]. والمكان، كقوله ﷺ: «لا تتخذوا قبري عيدًا»[2] وقد يكون لفظُ العيد اسمًا لمجموع اليوم والعمل فيه، وهو الغالب؛ كقول النبي ﷺ: «دعهما يا أبا بكر؛ فإنَّ لكل قوم عيدًا»[3][4]. انتهىٰ.

قال المُصنِّفُ: وفيه: استفصالُ المفتي، والمنعُ من الوفاء بالنذر بمكان عيد الجاهلية، ولو بعد زواله.

ومشقته عليه، ولا سيما ما يفعله بعض العامة إذا مرض، أو تأخر له حاجة يريدها، تجده ينذر كأنه يقول: إن الله لا ينعم عليه بجلب خير أو دفع الضرر إلا بهذا النذر.

قوله: «إبلاً»: اسم جمع لا واحد له من لفظه، لكن له واحد من معناه، وهو البعير.

قوله: «ببوانة»: الباء بمعنىٰ «في»، وهي للظرفية، والمعنىٰ: بمكان يسمىٰ بوانة.

قوله: «هل كان فيها وثن؟»: الوثن: كل ما عبد من دون اللَّه، من شجر أو حجر، سواء نحت أو لم ينحت. والصنم يختص بما صنعه الآدمي.

قوله: «الجاهلية»: نسبة إلىٰ ما كان قبل الرسالة وسميت بذلك؛ لأنهم كانوا علىٰ جهل عظيم.

قوله: «يعبد»: صفة لقوله: «وثن»، وهو بيان للواقع؛ لأن الأوثان هي التي تعبد من دون اللَّه.

قوله: «قالوا لا»: السائل واحد، لكنه لما كان عنده ناس أجابوا النبي ﷺ ولا مانع أن يكون المجيب غير المسئول.

قوله: «عيد»: العيد: اسم لما يعود أو يتكرر، والعود بمعنىٰ الرجوع، أي: هل اعتاد أهل الجاهلية

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٩٦٢، ٥٨٨٠).

(٢) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح أبي داود (١٧٩٦).

(٣) في قرة العيون: وقد أحدث هؤلاء المشركون أعيادًا عند القبور التي تعبد من دون الله ويسمونها عيدًا كمولد البدوي بمصر وغيره بل هي أعظم لما يوجد فيها من الشرك والمعاصي العظيمة. قال المصنف رحمه الله تعالى: وفيه استفصال المفتي والمنع من الوفاء بالنذر بمكان عيد الجاهلية ولو بعد زواله.

قلت: وفيه المنع من اتخاذ آثار المشركين محلاً للعبادة لكونها صارت محلاً لما حرم الله من الشرك والمعاصي، والحديث وإن كان في النذر فيشمل كل ما كان عبادة لله فلا نفعل في هذه الأماكن الخبيثة التي اتخذت محلاً لما يسخط الله تعالى، فبهذا صار الحديث شاهدًا للترجمة والمصنف رحمه الله تعالى لم يرد التخصيص بالذبح وإنما ذكر الذبح كالمثال.

وقد استشكل جعل محل اللات بالطائف مسجدًا.

والجواب والله أعلم: أنه لو ترك هذا المحل في هذه البلدة لكان يخشى أن تفتتن به قلوب الجهال فيرجع إلى جعله وثنًا. كما كان يفعل فيه ويذهب به أثر الشرك بالكلية فاختص هذا المحل لهذه العلة وهي قوة المعارض والله أعلم.

(٤) صحيح: رواه البخاري (٩٨٨، ٣٥٣٠، ٣٩٣١)، ومسلم (٨٩٢).

. . . .

قلتُ: وفيه سدُّ الذريعة، وتركُ مشابهة المشركين، والمنعُ مما هو وسيلة إلى ذلك.

قوله: «أوف بنذرك» هذا يدلُّ على أنَّ الذبح لله في المكان الذي يَذبح فيه المشركون لغيره، أو في محل أعيادهم، معصية؛ لأن قوله: «فأوف بنذرك» تعقيب للوصف بالحكم بالوفاء، وذلك يدل على أنَّ الوصف سببُ الحكم، فيكون سببُ الأمر بالوفاء خلوَّه عن هذين الوصفين.

فلما قالوا: لا. قال: «فأوف بنذرك» وهذا يقتضي أنَّ كون البقعة مكانًا لعيدهم، أو بها وثنٌ من أوثانهم: مانعٌ من الذبح بها ولو نذره. قاله شيخُ الإسلام.

قوله: «فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله» دليلٌ على أنَّ هذا نذرُ معصيةٍ، لو قد وجد في المكان بعضُ الموانع. وما كان من نذر المعصية فلا يجوز الوفاء به، بإجماع العلماء.

واختلفوا: هل تجب كفارةُ يمين؟ على قولين، هما روايتان عن أحمد.

أحدُهما: تجبُ، وهو المذهب. وروي عن ابن مسعود، وابن عباس، وبه قال أبو حنيفة، وأصحابهُ، لحديث عائشة مرفوعًا: «لا نذر في معصية، وكفارته كفارةُ يمين»[1] رواه أحمد، وأهل السنن[2]. واحتج به أحمدُ، وإسحاق.

أن يأتوا إلى هذا المكان ويتخذوا هذا اليوم عيداً وإن لم يكن فيه وثن؟ قالوا: لا.

فسأل النبي ﷺ عن أمرين: عن الشرك، ووسائله.

فالشرك: «هل كان فيها وثن؟».

ووسائله: «هل كان فيها عيد من أعيادهم؟».

قوله: «أوف بنذرك»: فعل أمر مبني على حذف العلة الياء، والكسرة دليل عليها.

وهل المراد به المعنى الحقيقي أو المراد به الإباحة؟

الجواب: يحتمل أن يراد به الإباحة، ويحتمل أن يراد به المعنى الحقيقي، فبالنسبة لنحر الإبل به المعنى الحقيقي.

وبالنسبة للمكان المراد به الإباحة؛ لأنه لا يتعين أن يذبحها في ذلك المكان؛ إذ إنه لا يتعين أي مكان في الأرض إلا ما تميز بفضل، والمتميز بفضل المساجد الثلاثة؛ فالأمر هنا بالنسبة لنحر الإبل من حيث هو نحر واجب.

وبالنسبة للمكان؛ فالأمر للإباحة، بدليل أنه سأل هذين السؤالين، فلو أجيب بنعم؛ لقال: لا توف، فإذا كان المقام يحتمل النهي والترخيص؛ فالأمر للإباحة.

وقوله: «أوف بنذرك» علل ﷺ ذلك بانتفاء المانع؛ فقال: «فإنه لا وفاء لنذر في معصية اللَّه».

---

(١) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في الإرواء (٢٥٩٠)، والمشكاة (٣٤٣٥).

(٢) قال الترمذي: هذا حديث لا يصح. لأن الزهري لم يسمع هذا الحديث من أبي سلمة وقال غيره: لم يسمعه الزهري من أبي سلمة وإنما سمعه من سليمان بن أرقم وسليمان متروك. وقال: مثل هذا أبو داود بعد إخراجه إياه.(ق).

. . . .

الثاني: لا كفارة عليه. روي ذلك عن مسروق، والشعبي، والشافعي؛ لحديث الباب، ولم يذكر فيه كفارة. وجوابُه: أنه ذكر الكفارةَ في الحديث المتقدم، والمطلقُ يُحمل على المقيَّد.

قوله: «ولا فيما لا يملك ابن آدم» قال في «شرح المصابيح»: يعني إذا أضاف النذرَ إلى معيَّن لا يملكه، بأنْ قال: إنْ شفى الله مريضي، فلله عليَّ أنْ أعتق عبدَ فلانٍ ونحو ذلك. فأمَّا إذا التزم في الذِّمة شيئًا، بأن قال: إنْ شفى الله مريضي فلله عليَّ أنْ أُعتق رقبة، وهو في تلك الحال لا يملكها ولا قيمتها، فإذا شفى الله مريضه ثبت ذلك في ذمته.

قوله: «لا وفاء»: «لا»: نافية للجنس، «وفاء»: اسمها، «لنذر»: خبرها.

قوله: «في معصية اللَّه»: صفة لنذر؛ أي: لا يمكن أن توفي بنذر في معصية الله؛ لأنه لا يتقرب إلى اللَّه بمعصيته، وليست المعصية مباحة حتى يقال افعلها.

أقسام النذر: الأول: ما يجب الوفاء به، وهو نذر الطاعة؛ لقوله ﷺ: «من نذر أن يطيع اللَّه؛ فليطعه»[1].

الثاني: ما يحرم الوفاء به، وهو نذر المعصية؛ لقوله ﷺ: «ومن نذر أن يعصي اللَّه فلا يعصه» وقوله: «فإنه لا وفاء لنذر في معصية اللَّه».

الثالث: ما يجري مجرى اليمين، وهو نذر المباح، فيخير بين فعله وكفارة اليمين، مثل لو نذر أن يلبس هذا الثوب، فإن شاء لبسه وإن شاء لم يلبسه، وكفر كفارة يمين.

الرابع: نذر اللجاج والغضب، وسمي بهذا الاسم؛ لأن اللجاج والغضب يحملان عليه غالبًا، وليس بلازم أن يكون هناك لجاج وغضب، وهو الذي يقصد به معنى اليمين، الحث، أو المنع، أو التصديق، أو التكذيب.

مثل لو قال: حصل اليوم كذا وكذا، فقال الآخر: لم يحصل، فقال: إن كان حاصلاً، فعلي نذر للَّه أن أصوم سنة؛ فالغرض من هذا النذر التكذيب، فإذا تبين أنه حاصل؛ فالناذر مخير بين أن يصوم سنة، وبين أن يكفر كفارة يمين؛ لأنه إن صام فقد وفى بنذره، وإن لم يصم حنث، والحانث في اليمين يكفر كفارة يمين.

الخامس: نذر المكروه، فيكره الوفاء به، وعليه كفارة يمين.

السادس: النذر المطلق، وهو الذي ذكر فيه صيغة النذر؛ مثل أن يقول: للَّه علي نذر؛ فهذا كفارته كفارة يمين كما قال النبي ﷺ: «كفارة النذر إذا لم يسم كفارة يمين».

مسألة: هل ينعقد نذر المعصية؟

الجواب: نعم، ينعقد، ولهذا قال الرسول ﷺ: «من نذر أن يعصي اللَّه؛ فلا يعصه»، ولو قال: من نذر أن يعصي اللَّه فلا نذر له؛ لكان لا ينعقد؛ ففي قوله: «فلا يعصه» دليل على أنه ينعقد لكن لا ينفذ.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٦٩٦، ٦٧٠٠)، وأبو داود (٣٢٨٩)، والترمذي (١٥٢٦)، والنسائي (٣٨٠٦) ومواضع، وابن ماجه (٢١٢٦).

. . . .

قوله: (رواه أبو داود، وإسنادُه على شرطهما) أي: البخاري ومسلم.

وأبو داود: اسمُه سُليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شدَّاد الأزدي السجستاني، صاحبُ الإمام أحمد، ومصنف (السنن) و (المراسيل) وغيرهما، ثقةٌ إمام حافظ، من كبار العلماء، مات سنة خمسٍ وسبعين ومائتين.

وإذا انعقد: هل تلزمه كفارة أو لا؟

اختلف في ذلك أهل العلم، وفيها روايتان عن الإمام أحمد:

فقال بعض العلماء: إنه لا تلزمه الكفارة، واستدلوا بقول النبي ﷺ: **«لا وفاء لنذر في معصية اللَّه»**.

وبقوله ﷺ **«ومن نذر أن يعصي اللَّه فلا يعصه»**. ولم يذكر النبي ﷺ كفارة، ولو كانت واجبة، لذكرها.

القول الثاني: تجب الكفارة، وهو المشهور من المذهب، لأن الرسول ذكر في حديث آخر غير الحديثين أن كفارته كفارة يمين [1]، وكون الأمر لا يذكر في حديث لا يقتضي عدمه؛ فعدم الذكر ليس ذكرًا للعدم. نعم، لو قال الرسول: لا كفارة؛ صار في الحديثين تعارض، وحينئذٍ نطلب الترجيح، لكن الرسول لم ينف الكفارة، بل سكت، والسكوت لا ينافي المنطوق، فالسكوت وعدم الذكر يكون اعتمادًا على ما تقدم، فإن كان الرسول قاله قبل أن ينهى هذا الرجل، فاعتمادًا عليه لم يقله؛ لأنه ليس بلازم أن كل مسألة فيها قيد أو تخصيص يذكرها الرسول عند كل عموم، فلو كان يلزم هذا؛ لكانت تطول السنة، لكن الرسول ﷺ إذا ذكر حديثًا عامًا وله ما يخصصه في مكان آخر حمل عليه، وإن لم يذكره حين تكلم بالعموم.

وأيضًا من حيث القياس لو أن الإنسان أقسم ليفعلنَّ محرمًا، وقال: واللَّه؛ لأفعلن هذا الشيء - وهو محرم -: فلا يفعله، ويكفر كفارة يمين، مع أنه أقسم على فعل محرم، والنذر شبيه بالقسم، وعلى هذا، فكفارته كفارة يمين، وهذا القول أصح.

وقوله: « **ولا فيما لا يملك ابن آدم**»: الذي لا يملكه ابن آدم يحتمل معنيين:

الأول: ما لا يملك فعله شرعًا، كما لو قال: للَّه علي أن أعتق عبد فلان، فلا يصح لأنه لا يملك إعتاقه.

الثاني: ما لا يملك فعله قدرًا، كما لو قال: للَّه عليّ نذر أن أطير بيدي؛ فهذا لا يصح لأنه لا يملكه. والفقهاء رحمهم اللَّه يمثلون بمثل هذا للمستحيل.

ويستفاد من الحديث: أنه لا يُذبح بمكان يذبح فيه لغير اللَّه، وهو ما ساقه المؤلف من أجله، والحكمة من ذلك ما يلي:

الأول: أنه يؤدي إلى التشبه بالكفار.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٣٢٩٠، ٣٢٩٢)، والترمذي (١٥٢٤، ١٥٢٥)، والنسائي (٣٨٣٥) ومواضع، وابن ماجه (٢١٢٥)، وأحمد (١٩٤٥٣) ومواضع، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧٥٤٧).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله: ﴿لا تقم فيه أبدًا﴾.

الثانية: أن المعصية قد تُؤثر في الأرض، وكذلك الطاعة.

الثالثة: ردُّ المسألة المشكلة إلى المسألة البيِّنة ليزول الإشكال.

الرابعة: استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك.

. . . .

الثاني: أنه يؤدي إلى الاغترار بهذا الفعل؛ لأن من رآك تذبح بمكان يذبح فيه المشركون ظن أن فعل المشركين جائز.

الثالث: أن هؤلاء المشركين سوف يقوون على فعلهم إذا رأوا من يفعل مثلهم، ولا شك أن تقوية المشركين من الأمور المحظورة، وإغاظتهم من الأعمال الصالحة، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله تعالى: ﴿لا تقم فيه أبدا﴾: وقد سبق ذلك في أول الباب.

الثانية: أن المعصية قد تؤثر في الأرض، وكذلك الطاعة: أي: لما كانت هذه الأرض مكان شرك؛ حُرِّم أن يعمل الإنسان ما يشبه الشرك فيها لمشابهة المشركين. أما بالنسبة للصلاة في الكنيسة؛ فإن الصلاة تخالف صلاة أهل الكنيسة؛ لا يكون الإنسان متشبهًا بهذا العمل، بخلاف الذبح في مكان يذبح فيه لغير اللَّه، فإن الفعل واحد بنوعه وجنسه، ولهذا لو أراد إنسان أن يصلي في مكان يذبح فيه لغير اللَّه لجاز ذلك؛ لأنه ليس من نوع العبادة التي يفعلها المشركون في هذا المكان. وكذلك الطاعة تؤثر في الأرض، ولهذا؛ فإن المساجد أفضل من الأسواق، والقديم منها أفضل من الجديد.

الثالثة: رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينة ليزول الإشكال: فالمنع من الذبح في هذا المكان أمر مشكل، لكن الرسول ﷺ بين ذلك بالاستفصال.

الرابعة: استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك: لأن النبي ﷺ استفصل، لكن هل يجب الاستفصال على كل حال، أو إذا وجد الاحتمال؟

الجواب: لا يجب إلا إذا وجد الاحتمال؛ لأننا لو استفصلنا في كل مسألة لطال الأمر.

فمثلاً: لو سألنا سائل عن عقد بيع لم يلزم أن نستفصل عن الثمن: هل هو معلوم؟ وعن المثمن: هل هو معلوم؟ وهل وقع البيع معلقًا أو غير معلق؟ وهل كان ملكًا للبائع؟ وكيف ملكه؟ وهل انتفت موانعه أو لا؟ أما إذا وجد الاحتمال، فيجب الاستفصال، مثل: أن يسأل عن رجل مات عن بنت وأخ وعم شقيق، فيجب الاستفصال عن الأخ: هل هو شقيق أم لا؟ فإن كان لأم؛ سقط، وأخذ الباقي العم، وإلا سقط العم، وأخذ الباقي الأخ.

الخامسة: أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع.
السادسة: المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية ولو بعد زواله.
السابعة: المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زواله.
الثامنة: أنَّه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة؛ لأنه نذر معصية.
التاسعة: الحذر من مشابهة المشركِين في أعيادهم ولو لم يقصده.
العاشرة: لا نذر في معصية.
الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يَملك.

. . . .

الخامسة: أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع: لقوله: «**أوف بنذرك**»، وسواء كانت هذه الموانع واقعة أو متوقعة.

فالواقعة: أن يكون فيها وثن أو عيد من أعياد الجاهلية. والمتوقعة: أن يخشى من الذبح في هذا المكان تعظيمه، فإذا خشي، كان ممنوعًا، مثل: لو أراد أن يذبح عند جبل، فالأصل أنه جائز، لكن لو خشي أن العوام يعتقدون أن في هذا المكان مزية؛ كان ممنوعًا.

السادسة: المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية، ولو بعد زواله: لقوله: «**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية**»؟ لأن« كان» فعل ماض، والمحظور بعد زوال الوثن باق؛ لأنه ربما يعاد.

السابعة: المنع منه إذا كان فيها عيد من أعيادهم، ولو بعد زواله: لقوله: «**فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟**».

الثامنة: أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة؛ لأنه نذر معصية: لقوله: «**فإنه لا وفاء بنذر في معصية اللَّه**».

التاسعة: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده: وقد نص شيخ الإسلام ابن تيمية على أن حصول التشبه لا يشترط فيه القصد؛ فإنه يمنع منه ولو لم يقصده، لكن مع القصد يكون أشد إثمًا، ولهذا قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: ولو لم يقصده.

العاشرة: لا نذر في معصية الله: هكذا قال المؤلف، ولفظ الحديث المذكور: «**لا وفاء لنذر**»، وبينهما فرق. فإذا قيل: لا نذر في معصية، فالمعنى أن النذر لا ينعقد، وإذا قيل: لا وفاء؛ فالمعنى أن النذر ينعقد، لكن لا يوفى، وقد وردت السنة بهذا وبهذا. لكن: «**لا نذر**» يحمل على أن المراد: لا وفاء لنذر، لقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**ومن نذر أن يعصي اللَّه؛ فلا يعصه**»[1].

الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك: يقال فيه ما قيل في: لا نذر في معصية.
والمعنى: لا وفاء لنذر فيما لا يملك ابن آدم ويشمل ما لا يملكه شرعًا، وما لا يملكه قدرًا.

---

(١) **صحيح**: وقد تقدم.

١١ـ باب
من الشرك النذر لغير الله

وقولُ الله تعالى: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الإنسان: ٧].

وقوله: ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابٌ: من الشرك النذرُ لغير الله:

أي: لكونه عبادة يجب الوفاء به إذا نذره لله، فيكون النذر لغير الله شركًا في العبادة.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولُ الله تعالى: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الإنسان: ٧].

فالآية دلَّت على وجوب الوفاء بالنذر، ومدح من فعل ذلك طاعةً لله، ووفاءً بما تقرب به إليه.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

النذر لغير اللَّه مثل أن يقول: لفلان علي نذر، أو لهذا القبر علي نذر، أو لجبريل علي نذر، يريد بذلك التقرب إليهم، وما أشبه ذلك. والفرق بينه وبين نذر المعصية: أن النذر لغير اللَّه ليس للَّه أصلاً، ونذر المعصية للَّه، ولكنه على معصية من معاصيه، مثل أن يقول: للَّه علي نذر أن أفعل كذا وكذا من معاصي اللَّه، فيكون النذر للَّه والمنذور معصية، ونظير هذا الحلف باللَّه على شيء محرم، والحلف بغير اللَّه، فالحلف بغير اللَّه مثل: والنبي لأفعلن كذا وكذا، ونظيره النذر لغير اللَّه، والحلف باللَّه على محرم، مثل: واللَّه لأسرقن، ونظيره نذر المعصية، وحكم النذر لغير اللَّه أنه شرك بالله تعالى؛ لأنه عبادة للمنذور له، وإذا كان عبادة؛ فقد صرفها لغير اللَّه، فيكون مشركًا. وهذا النذر لغير اللَّه لا ينعقد إطلاقًا، ولا تجب فيه كفارة، بل هو شرك تجب التوبة منه، كالحلف بغير اللَّه، فلا ينعقد، وليس فيه كفارة. وأما نذر المعصية؛ فينعقد، لكن لا يجوز الوفاء به، وعليه كفارة يمين؛ كالحلف باللَّه على المحرم؛ ينعقد وفيه كفارة.

وقد ذكر المؤلف في هذا الباب آيتين:

الأولى: قوله: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾: هذه الآية سيقت لمدح الأبرار: ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾. ومدحهم بهذا يقتضي أن يكون عبادة؛ لأن الإنسان لا يمدح ولا يستحق دخول الجنة إلا بفعل شيء يكون عبادة. ولو أعقب المؤلف هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ [الحج: ٢٩]؛ لكان أوضح، لأن قوله: ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ أمر، والأمر بوفائه يدل على أنه عبادة؛ لأن العبادة ما أمر به شرعًا.

وجه استدلال المؤلف بالآية على أن النذر لغير اللَّه من الشرك: أن اللَّه تعالى أثنى عليهم بذلك، وجعله من الأسباب التي بها يدخلون الجنة، ولا يكون سببًا يدخلون به الجنة إلا وهو عبادة، فيقتضي أن صرفه لغير اللَّه شرك.

. . . .

قال ابنُ كثير: يخبر تعالىٰ بأنه عالمٌ بجميع ما يعمله العاملون من الخيرات، من النفقات والمنذورات، وتضمَّن ذلك مجازاته علىٰ ذلك أوفر الجزاء للعاملين به ابتغاء وجهه.

إذا علمت ذلك: فهذه النذورُ الواقعة من عُبَّاد القبور، تقربًا بها إليهم، ليقضوا لهم حوائجهم أو ليشفعوا لهم، هذا شركٌ في العبادة بلا ريب؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

قال شيخُ الإسلام: وأمَّا ما نُذر لغير الله، كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور ونحو ذلك، فهو بمنزلة أنْ يحلف بغير الله من المخلوقات.

والحالفُ بالمخلوقات لا وفاء عليه ولا كفَّارة، وكذلك الناذر للمخلوقات، فإنَّ كلاهما شرك، ليس له حُرمة. بل عليه أنْ يستغفر الله من هذا، ويقول ما قال النبي ﷺ: «**من حلف باللات والعزَّى، فليقل: لا إله إلا الله**»[(١)(٢)].

وقال فيمن نذر للقبور ونحوها دُهْنًا لتُنَوَّر به ويقول: إنها تقبل النذر كما يقوله بعضُ الضالين: وهذا النذر معصيةٌ باتفاق المسلمين، لا يجوز الوفاء به. وكذلك إذا نذر مالاً للسَّدنة أو المجاورين العاكفين بتلك البُقعة، فإنَّ فيهم شبهًا من السدنة التي كانت عند اللات والعزىٰ ومناة. يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدُّون عن سبيل الله.

والمجاورون هناك فيهم شبهٌ من الذين قال فيهم الخليلُ عليه السلام: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]، والذين اجتاز بهم موسىٰ وقومه: قال تعالىٰ: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فالنذرُ لأولئك السدنةِ والمجاورين في هذه البقاع

الآية الثانية قوله: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم﴾: ﴿مَا﴾ شرطية، و﴿أَنفَقْتُم﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾.

قوله: ﴿مِّن نَّفَقَةٍ﴾: بيان لـ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا أَنفَقْتُم﴾، والنفقة: بذل المال، وقد يكون في الخير، وقد يكون في غيره.

قوله: ﴿أَوْ نَذَرْتُم﴾: معطوف علىٰ قوله: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم﴾.

قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾: تعليق الشيء بعلم الله دليل علىٰ أنه محل جزاء؛ إذ لا يعلم فائدة لهذا الإخبار بالعلم إلا لترتب الجزاء عليه، وترتب الجزاء عليه يدل علىٰ أنه من العبادة التي يجازىٰ الإنسان عليها، وهذا وجه استدلال المؤلف بهذه الآية.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه. (ق).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٤٨٦٠) ومواضع، ومسلم (١٦٤٧).

. . . .

نذرُ معصية. وفيه شبهٌ من النذر لسدنة الصُّلبان والمجاورين عندها، أو لسدنة الأبداد[1] التي في الهند والمجاورين عندها.

وقال الأذرُعي في (شرح المنهاج): وأمَّا المشاهد التي على قبر وليّ أو شيخ، أو على اسم من حلّها من الأولياء، أو تردد في تلك البقعة من الأولياء والصالحين: فإنْ قصد الناذر بذلك - وهو الغالب أو الواقع من قصود العامة - تعظيمَ البقعة والمشهد، أو الزاوية، أو تعظيمَ من دُفن بها، أو نُسبت إليه، أو بنيت على اسمه، فهذا النذر باطلٌ غيرُ منعقد.

فإنَّ معتقدهم أنَّ لهذه الأماكن خصوصيات، ويرون أنها مما يُدفع به البلاء ويُستجلب به النعماء، ويُستشفى بالنذر لها من الأدواء. حتى إنهم ينذرون لبعض الأحجار؛ لَمَّا قيل: إنه استند إليها عبدٌ صالح، وينذرون لبعض القبور: السُّرُجَ والشموع والزيت.

ويقولون: القبرُ الفلاني، أو المكان الفلاني يقبلُ النذر، يعنون بذلك: أنه يحصل به الغرض المأمول: من شفاء مريض، أو قدوم غائب وسلامة مال، وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة. فهذا النذر على هذا الوجه باطل لا شك فيه، بل نذرُ الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطلٌ مطلقًا.

ومن ذلك: نذرُ الشموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر الخليل عليه السلام، ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء.

فإنَّ النذر لا يقصد بذلك إلا الإيقاد على القبر تبرُّكًا وتعظيمًا، ظانًا أنَّ ذلك قربة. فهذا مما لا ريب في بُطلانه، والإيقادُ المذكور محرَّم، سواء انتفع به هناك منتفعٌ أم لا[2].

وقال الشيخ قاسمُ الحنفي في (شرح دُرر البحار): النذرُ الذي ينذره أكثرُ العوام على ما هو مشاهدٌ: كأن يكون لإنسان غائبٌ أو مريض، أو له حاجة، فيأتي إلى قبر بعض الصُّلحاء ويجعل على رأسه سُترة، ويقول: يا سيدي فلان! إنْ ردَّ الله غائبي، أو عُوفي مريضي، أو قضيت حاجتي، فلك من الذهب كذا، أو من الفضة كذا، أو من الطعام كذا، أو من الماء كذا، أو من الشمع والزيت كذا.

فهذا النذرُ باطلٌ بالإجماع؛ لوجوه:

قوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾: من ناصرين ينصرونهم بمنع العذاب عنهم، إذا ظلموا بإنفاق المال أو النذر.

---

(١) في القاموس: البد - بضم الباء - الصنم؛ معرب، بد والجمع بددة -كقردة- وأبداد كخرج وأخراج. (ق).

(٢) في قرة العيون: وذلك لأن الناذر لله وحده علق رغبته به وحده لعلمه بأنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع: فتوحيد القصد هو توحيد العبادة، ولهذا ترتب عليه وجوب الوفاء فيما نذره طاعة لله، والعبادة إذا صرفت لغير الله صار ذلك شركًا بالله لالتفاته إلى غيره تعالى فيما يرغب فيه أو يرهب فقد جعله شريكًا لله في العبادة فيكون قد أثبت ما نفته (لا إله إلا الله) من إلهية غير الله ولم يثبت ما أثبتته من الإخلاص وكل هذه الأبواب التي ذكرها المصنف رحمه الله تعالى تدل عن أن من أشرك مع الله غيره بالقصد والطلب فقد خالف ما نفته (لا إله إلا الله) فعكس مدلولها فأثبت ما نفته ونفى ما أثبتته من التوحيد؛ وهذا معنى قول شيخنا. وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب. فكل شرك وقع أو قد يقع فهو ينافي كلمة الإخلاص وما تضمنته من التوحيد. (ق).

وفي الصحيح، عن عائشة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن نذر أنْ يُطيع الله فلْيُطعه، ومن نذر أنْ يَعصي الله فلا يعصه»(١).

منها: أنه نذرٌ لمخلوق، والنذرُ للمخلوق لا يجوز؛ لأنه عبادة، والعبادة لا تكون لمخلوق.

ومنها: أنَّ المنذور له ميتٌ، والميت لا يملك.

ومنها: أنه ظن أنَّ الميت يتصرفُ في الأمور دون الله، واعتقاد ذلك كفر.

إلىٰ أن قال: إذا علمت هذا، فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها ويُنقل إلىٰ ضرائح الأولياء، تقرّبًا إليهم: فحرامٌ بإجماع المسلمين.

نقله عنه ابنُ نُجيم في (البحر الرائق). ونقله المُرشديُّ في (تذكرته)، وغيرُهما عنه، وزاد: وقد ابتلي الناس بهذا، لا سيَّما في مولد البدوي(٢).

وقال الشيخ صُنع الله الحلبي الحنفي في الرّد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء: فهذا الذبح والنذر إن كان علىٰ اسم فلانٍ، فهو لغير الله، فيكون باطلاً.

وفي التنزيل: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] والنذرُ لغير الله إشراكٌ مع الله، كالذبح لغيره.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وفي الصحيح، عن عائشة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن نذر أنْ يُطيع الله فلْيُطعه، ومن نذر أنْ يَعصي الله فلا يعصه».

قوله: «وفي الصحيح»: سبق الكلام علىٰ مثل هذا التعبير في باب تفسير التوحيد.

قوله: «من نذر»: جملة شرطية تفيد العموم، وهل تشمل الصغير؟

قال بعض العلماء: تشمله، فينعقد النذر منه. وقيل: لا تشمله؛ لأن الصغير ليس أهلاً للإلزام ولا للالتزام، وبناءً علىٰ هذا يخرج الصغير من هذا العموم، لأنه ليس أهلاً للإلزام ولا للالتزام.

قوله: «أن يطيع الله»: الطاعة: هي موافقة الأمر؛ أن توافق اللّه فيما يريد منك إن أمرك؛ فالطاعة فعل المأمور به، وإن نهاك؛ فالطاعة ترك المنهي عنه، هذا معنىٰ الطاعة إذا جاءت مفردة.

أما إذا قيل: طاعة ومعصية؛ فالطاعة لفعل الأوامر، والمعصية لفعل النواهي.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٦٩٦، ٦٧٠٠).

(٢) أحمد البدوي: بطنطا لا يُعرف له تاريخ صحيح، واضطربت الأقوال فيه؛ والمشهور أنه كان جاسوسًا لدولة الملثمين. وكان داهيةً في المكر والخديعة. وقبره أكبر الأصنام في الديار المصرية؛ مثل هبل الأكبر أو اللات في الجاهلية. يؤتى عنده من أنواع الشرك الأكبر، وتقدم له النذور ويجعل له الفلاحون النصف والربع في أنعامهم وزروعهم، بل وأولادهم فيأتي الرجل بنصف مهر ابنته ويضعه في الصندوق قائلاً: هذا نصيبك يا بدوي ويقام له كل عام ثلاثة موالد يشد الرحال إليها الناس من أقصى القطر المصري؛ ويجتمع في المولد أكثر من ثلاثمائة ألف حاج إلى هذا الصنم الأكبر. عجل الله بهدمه وحرقه هو وغيره من كل صنم في مصر وغيرها. (ق).

. . . .

قوله: في (الصحيح). أي: (صحيحُ البخاري).

قوله: (عن عائشة): هي أم المؤمنين، زوجُ النبي ﷺ، وابنة الصديق رضي الله عنهما. تزوَّجها النبي ﷺ وهي ابنةُ سبع سنين، ودخل بها وهي ابنةُ تسع[١]. وهي أفقهُ النساء مطلقًا، وأفضل أزواج النبي ﷺ إلاّ خديجة، ففيها خلاف[٢]. ماتت سنة سبع وخمسين، على الصحيح.

قوله: «من نذر أن يطيع الله فليطعه» أي: فليفعل ما نذره من طاعة الله، وقد أجمع العلماءُ على أنَّ من نذر طاعةً بشرط يرجوه -كإنْ شفى الله مريضي فعلي أنْ أتصدَّق بكذا، -ونحو ذلك- وجب عليه، إن حصل على ما علّق نذره على حصوله.

وحُكي عن أبي حنيفة: أنَّه لا يلزمه الوفاء إلاّ بما جنسُه واجبٌ بأصل الشرع، كالصوم. وأمَّا ما ليس كذلك، كالاعتكاف فلا يوجب عليه الوفاء به.

قوله: «ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه» زاد الطحاوي «وليكفِّر عن يمينه»[٣] وقد أجمع العلماء: أنه لا يجوز الوفاء بنذر المعصية.

قال الحافظ: اتفقوا على تحريم النذر في المعصية، وتنازعوا: هل ينعقدُ موجبًا للكفارة، أم لا، وتقدم. وقد يُستدل بالحديث على صحة النذر في المباح، كما هو مذهب أحمد وغيره، يؤيده: ما رواه أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وأحمد، والترمذي، عن بُريدة: أنَّ امرأة قالت: يا رسول الله، إني نذرتُ أنْ أضرب على رأسك بالدُّف، فقال: «أوفي بنذرك».

وأمَّا نذرُ اللِّجاج والغضب: فهو يمينٌ عند أحمد، فيخيَّرُ بين فعله وكفارة يمين؛ لَحديث عمران بن

قوله: «فليطعه»: الفاء: واقعة في جواب الشرط؛ لأن الجملة إنشائية طلبية، واللام لام الأمر.

وظاهر الحديث: يشمل ما إذا كانت الطاعة المنذورة جنسها واجب، كالصلاة والحج وغيرهما، أو غير واجب، كتعليم العلم وغيره.

وقال بعض أهل العلم: لا يجب وفاء بالنذر إلاّ إذا كان جنس الطاعة واجبًا، وعموم الحديث يرد عليهم.

وظاهر الحديث أيضًا يشمل من نذر طاعة نذرًا مطلقًا ليس له سبب، مثل: «للَّه علي أن أصوم ثلاثة أيام». ومن نذر نذرًا معلقًا، مثل: إن نجحت، فللَّه علي أن أصوم ثلاثة أيام. ومن فرق بينهما؛ فليس بجيد لأن الحديث عام.

واعلم أن النذر لا يأتي بخير ولو كان نذر طاعة، وإنما يستخرج به من البخيل، ولهذا نهى عنه النبي ﷺ،

---

(١) عقد عليها قبل الهجرة بسنة. وبنى بها بعد الهجرة بسبعة أشهر تقريبًا. (ق).

(٢) في قرة العيون: بل لا يقال خديجة أفضل ولا عائشة أفضل. والتحقيق أن لخديجة من الفضائل في بدء الوحي ما ليس لعائشة من سبقها إلى الإيمان بالنبي ﷺ وتأييده في تلك الحال التي بدئ بالوحي فيها كما في صحيح البخاري وغيره، فما زالت كذلك حتى توفيت ﵂ قبل الهجرة، ولعائشة من العلم والأحاديث والأحكام ما ليس لخديجة لعلمها بأحوال النبي ﷺ ونزول القرآن وبيان الحلال والحرام، وكان الصحابة ﵃ بعد وفاته ﷺ يرجعون إليها فيما أشكل عليهم من أحوال النبي ﷺ وحديثه صلوات الله وسلامه عليه ورضي الله عن أصحابه وأزواجه.

(٣) قال ابن حجر في تلخيص الحبير (٤/ ١٧٥): وزاد الطحاوي في هذا الوجه: وليكفر عن يمينه قال ابن القطان: عندي شك في رفع هذه الزيادة.

فيه مسائل:

الأولى: وجوب الوفاء بالنذر.

الثانية: إذا ثبت كونه عبادة لله فصرفه إلى غيره شرك.

الثالثة: أنَ نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

حُصين مرفوعًا: «لا نذر في غضب، وكفارته كفارة يمين»[(١)] . رواه سعيد بن منصور، وأحمد، والنسائي. فإن نذر مَكروهًا كالطلاق استحب أنْ يكفِّر، ولا يفعله.

وبعض العلماء يحرمه، وإليه يميل شيخ الإسلام ابن تيمية[(٢)]؛ للنهي عنه، ولأنك تلزم نفسك بأمر أنت في عافية منه، وكم من إنسان نذر وأخيراً ندم، وربما لم يفعل. ويدل لقوة القول بتحريم النذر قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ [النور: ٥٣]؛ فهذا التزام مؤكد بالقسم، فيشبه النذر. قال اللّه تعالىٰ: ﴿ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ [النور: ٥٣] أي: عليكم طاعة معروفة بدون يمين، والإنسان الذي لا يفعل الطاعة إلا بنذر، أو حلف على نفسه يعني أن الطاعة ثقيلة عليه. ومما يدل على قوة القول بالتحريم أيضًا ـ خصوصًا النذر المعلق: أن الناذر كأنه غير واثق باللّه ـ عز وجل ـ فكأنه يعتقد أن اللّه لا يعطيه الشفاء إلا إذا أعطاه مقابله، ولهذا إذا أيسوا من البرء ذهبوا ينذرون، وفي هذا سوء ظن باللّه عز وجل؛ والقول بالتحريم قول مفيد.

فإن قيل: كيف تحرمون ما أثنىٰ اللّه علىٰ من وفَّىٰ به؟

فالجواب: أننا لا نقول: إن الوفاء هو المحرَّم حتىٰ يقال: إننا هدمنا النص، إنما نقول: المحرم أو المكروه كراهة شديدة هو عقد النذر، وفرق بين عقده ووفائه، فالعقد ابتدائي، والوفاء في ثاني الحال تنفيذ لما نذر.

قوله: «ومن نذر أن يعصي اللّه، فلا يعصه»: «لا»: ناهية، والنهي بحسب المعصية، فإن كانت المعصية حرامًا؛ فالوفاء بالنذر حرام، وإن كانت المعصية مكروهة، فالوفاء بالنذر مكروه، لأن المعصية الوقوع فيما نهي عنه، والمنهي عنه ينقسم عند أهل العلم إلىٰ قسمين: منهي عنه نهي تحريم، ومنهي عنه نهي تنزيه.

فيه مسائل:

الأولى: وجوب الوفاء بالنذر:

يعني: نذر الطاعة فقط؛ لقوله: «من نذر أن يطيع اللّه؛ فليطعه». ولقول المؤلف في المسألة الثالثة: إن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به:

الثانية: إذا ثبت كونه عبادة؛ فصرفه إلى غير اللّه شرك:

وهذه قاعدة في توحيد العبادة، فأي فعل كان عبادة، فصرفه لغير اللّه شرك.

الثالثة: أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به:

لقوله ﷺ: «من نذر أن يعصي اللّه؛ فلا يعصه».

---

(١) ضعيف: ضعيف الجامع (٦٣١١).

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى باب الأيمان والنذور: وأما النذر فهو نوعان: طاعة، ومعصية. فمن نذر صلاة أو صومًا أوصدقة فعليه أن يوفي به، وإن نذر ما ليس بطاعة مثل النذر لبعض المقابر =

١٢ـ باب
من الشرك الاستعاذة بغير الله

وقولُ الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابٌ من الشرك الاستعاذة بغير الله:

الاستعاذة: الالتجاءُ والاعتصام؛ ولهذا يُسمَّى المستعاذُ به: مَعاذًا ومَلجأ. فالعائذُ بالله قد هرب مما يؤذيه أو يُهلكه، إلى ربه ومالكه، واعتصم به واستجار، والتجأ إليه. وهذا تمثيل، وإلاَّ فما يقومُ بالقلب من الالتجاء إلى الله، والاعتصام به، والاطراح بين يدي الرب، والافتقار إليه، والتذلل له، أمرٌ لا تحيط به العبارة. قاله ابنُ القيم رحمه الله.

وقال ابنُ كثير: الاستعاذة: هي الالتجاء إلى الله، والالتصاقُ بجنابه من شرِّ كلِّ ذي شر. والعياذُ يكون لدفع الشر، واللياذ لطلب الخير. انتهى.

قلت: وهي من العبادات التي أمر الله تعالى عباده بها، كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦] وأمثالُ ذلك في القرآن كثير، كقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فما كان عبادة لله فصرْفُه لغير الله شرك.

فمن صرف شيئًا من هذه العبادات لغير الله فقد جعله لله شريكًا في عبادته، ونازع الرب في إلهيته؛ كما أنَّ من صلَّى لله وصلى لغيره يكون عابدًا لغير الله، ولا فرق، كما سيأتي تقريره قريبًا إن شاء الله.

باب من الشرك النذر لغير الله
باب من الشرك الاستعاذة بغير الله
باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

متى فهمت الضابط السابق في حد الشرك الأكبر، وهو أن من صرف شيئًا من العبادة لغير الله فهو مشرك، فهمت هذه الأبواب الثلاثة التي والى المصنف بيانها.

قوله: «من الشرك»: «من»: للتبعيض، وهذه الترجمة ليست على إطلاقها؛ لأنه إذا استعاذ بشخص مما يقدر عليه، فإنه جائز؛ كالاستعانة.

قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ﴾: الواو: حرف عطف، و﴿أَنَّ﴾: فتحت همزتها بسبب عطفها على قوله: ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾.

= والمشاهد وغيرها زيتا أو شمعًا أو نفقة أو غير ذلك، فهذا نذر معصية، وهو شبيه من بعض الوجوه بالنذر للأوثان، كاللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فهذا لا يجوز الوفاء به بالاتفاق، لكن من العلماء من يوجب كفارة يمين، كالإمام أحمد وغيره. ومنهم من لا يوجب شيئًا، وهو قول أبي حنيفة والشافعي. وإذا صرف الرجل ذلك المنذور في قربة مشروعة مثل أن يصرف الدهن في تنوير المساجد التي هي بيوت الله، ويصرف النفقة إلى صالحي الفقراء، كان هذا عملاً صالحًا يتقبله الله منه، مع أن أصل عقد النذر مكروه، فإن النبي ﷺ قد ثبت عنه أنه نهى عن النذر، وقال: إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل، والله أعلم.

. . . .

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولُ الله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ (١) [الجن: ٦]:

قال ابنُ كثير: أي: كنا نرىٰ أنَّ لنا فضلاً علىٰ الإنس، لأنهم كانوا يعوذون بنا. أي: إذا نزلوا واديًا أو مكانًا مُوحشًا من البراري وغيرها كما كانت عادةُ العرب في جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أنْ يصيبهم بشيء يسوءهم. كما كان أحدهم يدخل علىٰ بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقًا، أي خوفًا وإرهابًا وذعرًا، حتىٰ يبقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذًا بهم - إلىٰ أن قال: قال أبو العالية والربيع وزيد بن أسلم: «رهقًا» أي خوفًا. وقال العوفي عن ابن عباس: «فزادوهم رهقًا»: أي إثمًا، وكذا قال قتادة. اهـ. وذلك أنَّ الرجل من العرب كان إذا أمسىٰ بواد قفر، وخاف علىٰ نفسه، قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سُفهاء قومه. يريدُ كبير الجن!!

قال مجاهد: كانوا إذا هبطوا واديًا يقولون: نعوذ بعظيم هذا الوادي. ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾. قال: زادوا الكفار طغيانًا. رواه عبدُ بن حميد، وابنُ المنذر. كما قال السُّدي: كان الرجلُ يخرج بأهله، فيأتي الأرض فينزلها، فيقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن، أن أُضرَّ فيه أو مالي أو ولدي أو ماشيتي. قال: فإذا عاذ بهم من دون الله، رهقَتهم الجنُّ الأذىٰ عند ذلك.

وذكر عن ابن أبي حاتم بسندٍ إلىٰ عكرمة نحو ذلك. انتهىٰ.

قال ابن مالك:

وهمزٌ إنَّ افتح لسد مصدر مسدها وفي سوى ذاك اكسر

فيؤول بمصدر، أي: قل أوحي إليّ استماع نفر، وكونُ رجال من الأنس يعوذون برجال من الجن.

قوله: ﴿مِّنَ الإِنسِ﴾: صفة لرجال؛ لأن رجال نكرة، وما بعد النكرة صفة لها.

قوله: ﴿يَعُوذُونَ﴾: الجملة خبر كان، ويقال: عاذ به ولاذ به، فالعياذ مما يُخاف، واللياذ فيما يؤمل، وعليه قول الشاعر يخاطب ممدوحه، ولا يصلح ما قاله إلا للّه:

يا من أولوذ به فيما أأمله ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

قوله: ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾: أي: يلتجئون إليهم مما يحاذرونه، يظنون أنهم يعيذونهم، ولكن زادوهم رهقًا، أي: خوفًا وذعرًا، وكانت العرب في الجاهلية إذا نزلوا في واد نادوا بأعلىٰ أصواتهم: أعوذ بسيد هذا الوادي من سُفهاء قومه.

---

(١) في قرة العيون: قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى في تفسيره هذه الآية عن ابن عباس ﷺ قال: كان رجال من الإنس يبيت أحدهم بالوادي في الجاهلية فيقول: أعوذ بعزيز هذا الوادي فزادهم ذلك إثمًا، وقال بعضهم: فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بعزيزهم جراءة عليهم وازدادوا بذلك إثمًا، وقال مجاهد: فازداد الكفار طغيانًا، وقال ابن زيد: وزادهم الجن خوفًا. (ق).

وعن خولةَ بنت حكيم، قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلاً، فقال: أعوذُ بكلمات الله التامَّات من شرِّ ما خلق: لم يضرُّه شيءٌ حتى يرحل من منزله ذلك»[1] رواه مسلم.

وقد أجمع العلماء: على أنَّه لا يجوز الاستعاذة بغير الله.

وقال مُلاَّ علي قاري الحنفي: لا تجوز الاستعاذة بالجن، فقد ذمَّ الله الكافرين على ذلك وذكر الآية وقال تعالى: ﴿ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجنِّ قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربَّنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الَّذي أجَّلت لنا قال النَّار مثواكم خالدين فيها إلاَّ ما شاء اللَّهُ إنَّ ربَّك حكيمٌ عليمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

فاستمتاعُ الإنسي بالجني: في قضاء حوائجه، وامتثال أوامره، وإخباره بشيءٍ من المغيَّبات. واستمتاع الجنيُّ بالإنسي: تعظيمُه إياه، واستعاذته به وخضوعه له. انتهى ملخصًا.

قال المصنف: وفيه: أنَّ كون الشيء يحصل به منفعةٌ دنيوية، لا يدلُّ على أنه ليس من الشرك:

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن خولةَ بنت حكيم، قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلاً، فقال: أعوذُ بكلمات الله التامَّات من شرِّ ما خلق: لم يضرُّه شيءٌ حتى

قوله: ﴿رهقًا﴾: أي: ذعرًا وخوفًا، بل الرهق أشد من مجرد الذعر والخوف، فكأنهم مع ذعرهم وخوفهم أرهقهم وأضعفهم شيء، فالذعر والخوف في القلوب، والرهق في الأبدان.

وهذه الآية تدل على أن الاستعاذة بالجن حرام؛ لأنها لا تفيد المستعيذ، بل تزيده رهقًا، فعوقب بنقيض قصده، وهذا ظاهر فتكون الواو ضمير الجن والهاء ضمير الإنس.

وقيل: إن الإنس زادوا الجن رهقًا، أي: استكبارًا وعتوًّا، ولكن الصحيح الأول.

قوله: ﴿برجال من الجنِّ﴾: يستفاد منه أن للجن رجالاً، ولهم إناثًا، وربما يجامع الرجل من الجن الأنثى من بني آدم، وكذلك العكس الرجل من بني آدم قد يجامع الأنثى من الجن، وقد ذكر الفقهاء الخلاف في وجوب الغسل بهذا الجماع.

والفقهاء يقولون في باب الغسل: لو قالت: إن بها جنيًا يجامعها كالرجل، وجب عليها الغسل، وأما أن الرجل يجامع الأنثى من الجن، فقد قيل ذلك، لكن لم أره في كلام أهل العلم، وإنما أساطير تقال. واللَّه أعلم.

لكن علينا أن نصدق بوجودهم، وأنهم مكلفون، وبأن منهم الصالحين ومنهم دون ذلك، وبأن منهم المسلمين والقاسطين، وبأن منهم رجالاً ونساء.

وجه الاستشهاد بالآية: ذم المستعيذين بغير اللَّه، والمستعيذ بالشيء لا شك أنه قد علق رجاءه به، واعتمد عليه، وهذا نوع من الشرك.

قوله: «كلمات»: من جموع القلة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، وجموع القلة من ثلاثة إلى عشرة، والكثرة ما فوق ذلك. وقيل: جموع الكثرة من ثلاثة إلا ما لا نهاية له؛ فيكون جمع القلة والكثرة

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠٨).

. . . .

يرحل من منزله ذلك» رواه مسلم.

هي خولةُ بنتُ حكيم بن أمية السُّلمية، يقال لها: أم شَريك، ويقال: إنها هي الواهبة[1]، وكانت قبلُ تحتَ عثمان بن مَظْعون.

قال ابنُ عبد البر: وكانت صالحةً فاضلة.

قوله: «أعوذ بكلمات الله التامات»: شرع الله لأهل الإسلام أن يستعيذوا به، بدلاً عما يفعلُه أهلُ الجاهلية من الاستعاذة بالجن. فشرع الله للمسلمين أن يتعوَّذوا بأسمائه وصفاته.

قال القُرطبي: قيل: معناه: الكاملات التي لا يلحقها نقصٌ ولا عيب كما يلحق كلام البشر. وقيل: معناه: الشافيةُ الكافية. وقيل: الكلمات هنا هي القرآن، فإنَّ الله أخبر عنه بأنه ﴿هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، وهذا الأمر على جهة الإرشاد إلى ما يدفع به الأذى.

ولَمَّا كان ذلك استعاذةً بصفات الله تعالى، كان من باب المندوب إليه المرغَّب فيه. وعلى هذا، فحقٌّ المستعيذ بالله تعالى وبأسمائه وصفاته: أنْ يَصدق الله في التجائه إليه، ويتوكل في ذلك عليه، ويُحضر ذلك في قلبه. فمتى فعل ذلك، وصل إلى منتهى طلبه ومغفرة ذنبه.

قال شيخُ الإسلام: وقد نصَّ الأئمةُ كأحمد وغيره على أنَّه لا تجوز الاستعاذة بمخلوق. وهذا مما

يتفقان في الابتداء، ويختلفان في الانتهاء.

قال ابن مالك:

أفعِلَةٌ أفعُلُ ثم فِعْلَه ثُمَّت أفعالٌ جُموعُ قِلَّة
وبَعضُ ذي بكَثرة وضعًا يفي كأرجُلٍ والعكس جاءَ كالصفي

والراجح: أنَّ جمَوع القلّة تدل على الكثرة بالدليل.

و«كلمات» جمع قلة دال على الكثرة لوجود الدليل، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

وأبلغ من هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]. والمراد بالكلمات هنا: الكلمات الكونية والشرعية.

وقوله: «من نزل منزلاً»: يشمل من نزله على سبيل الإقامة الدائمة، أو الطارئة، بدليل أنه نكرة في سياق الشرط، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم.

وقوله: «أعوذ»: بمعنى: ألتجئ وأعتصم.

قوله: «التامات»: تمام الكلام بأمرين:

١ ـ الصدق في الأخبار. ٢ ـ العدل في الأحكام.

---

(١) التي وهبت نفسها للنبي ﷺ. (ق).

. . . .

استدلُّوا به علىٰ أنَّ كلامَ الله غيرُ مخلوق، قالوا: لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه استعاذ بكلمات الله وأمر بذلك، ولهذا نهىٰ العلماءُ عن التعازيم والتعاويذ التي لا يُعرف معناها، خشية أنْ يكون فيها شرك.

وقال ابنُ القيم: ومن ذبح للشيطان ودعاه، واستعاذ به، وتقرَّب إليه بما يُحب فقد عبده، وإنْ لم يسمِّ ذلك عبادة ويسميه استخدامًا. وصَدَقَ، هو استخدام من الشيطان له، فيصيرُ من خدم الشيطان وعابديه، وبذلك يخدمه الشيطان. لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة؛ فإنَّ الشيطان لا يخضعُ له، ولا يعبده كما يفعل هو به.

قوله: «من شر ما خلق» قال ابنُ القيم: أي: من كلِّ شرٍ، في أيِّ مخلوق قام به الشر: من حيوان أو غيره، إنسيًا أو جنيًا، أو هامَّة[1] أو دابة، أو ريحًا، أو صاعقة. أي نوعٍ كان من أنواع البلاء، في الدنيا والآخرة.

وما: ها هنا موصولة ليس إلاَّ. وليس المرادُ بها العمومَ الإطلاقي، بل المراد التقييد الوصفي، والمعنىٰ: من شرِ كلِّ مخلوقٍ فيه شر، لا من شر كل ما خلقه الله، فإنَّ الجنة والملائكة والأنبياء ليس فيهم شر. والشرُّ يقال علىٰ شيئين: علىٰ الألم، وعلىٰ ما يُفضي إليه.

قال اللّه تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥].

قوله: «من شر ما خلق»: أي: من شر الذي خلق؛ لأن اللّه خلق كل شيء: الخير والشر، ولكن الشر لا ينسب إليه؛ لأنه خلق الشر لحكمة، فعاد بهذه الحكمة خيرًا، فكان خيرًا.

وعلىٰ هذا نقول: الشر ليس في فعل اللّه، بل في مفعولاته؛ أي: مخلوقاته. وعلىٰ هذا تكون «ما» موصولة لا غير؛ أي: من شر الذي خلق؛ لأنك لو أولتها إلىٰ المصدرية وقلت: من شر خلقك، لكان الخلق هنا مصدرًا يجوز أن يراد به الفعل، ويجوز أيضًا المفعول، لكن لو جعلتها اسمًا موصولاً تعين أن يكون المراد بها المفعول، وهو المخلوق. وليس كل ما خلق اللّه فيه شر، لكن تستعيذ من شره إن كان فيه شر، لأن مخلوقات اللّه تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام هي:

١ ـ **شر محض**: كالنار وإبليس باعتبار ذاتيهما، أما باعتبار الحكمة التي خلقهما اللّه من أجلها، فهي خير.

٢ ـ **خير محض**: كالجنة، والرسل، والملائكة.

٣ ـ **فيه شر وخير**: كالإنس والجن، والحيوان. وأنت إنما تستعيذ من شر ما فيه شر.

قوله: «لم يضره شيء»: نكرة في سياق النفي فتفيد العموم من شياطين الإنس والجن والظاهر والخفي حتىٰ يرتحل من منزله، لأن هذا خبر لا يمكن أن يتخلف مخبره؛ لأنه كلام الصادق المصدوق، لكن إن تخلف؛ فهو لوجود مانع لا لقصور السبب أو تخلف الخبر. ونظير ذلك كل ما أخبر به النبي ﷺ من الأسباب الشرعية إذا فعلت ولم يحصل المسبب، فليس ذلك لخلل في السبب، ولكن لوجود

---

(١) الهامة: ما كان أهل الجاهلية يتوهمونه طائرًا أو شبهه تتصور فيه روح المقتول لا تزال تنادي على قبره بالأخذ بثأره. وهي خرافة من خرافاتهم أبطلها الإسلام، وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر**». (ق).

. . . .

قوله: «لم يضـرُّه شيءٌ حتى يرحل من منزله ذلك»: قـال القرطبي: هذا خبرٌ صحيحٌ وقـول صادق، علمنا صدقه؛ دليلاً وتجربة! فإني منذُ سمعتُ هذا الخبر عملت عليه، فلم يضرَّني شيءٌ إلى أنْ تركته، فلدغتني عقربٌ بالمهدية ليلاً. فتفكَّرتُ في نفسي، فإذا بي نسيتُ أنْ أتعوَّذ بتلك الكلمات.

مانع، مثل: قراءة الفاتحة على المرضى شفاء[1]، ويقرأها بعض الناس ولا يشفى المريض، وليس ذلك قصوراً في السبب، بل لوجود مانع بين السبب وأثره. ومنه: التسمية عند الجماع، فإنها تمنع ضرر الشيطان للولد[2]، وقد توجد التسمية ويضر الشيطان الولد، لوجود مانع يمنع من حصول أثر هذا السبب، فعليك أن تفتش ما هو المانع حتى تزيله فيحصل لك أثر السبب.

قال القرطبي: وقد جربت ذلك، حتى إني نسيت ذات يوم، فدخلت منزلي ولم أقل ذلك، فلدغتني عقرب. والشاهد من الحديث قوله: **«أعوذ بكلمات اللَّه»**.

والمؤلف يقول في الترجمة: الاستعاذة بغير اللَّه، وهنا استعاذة بالكلمات، ولم يستعذ باللَّه، فلماذا؟

أجيب: أن كلمات اللَّه صفة من صفاته، ولهذا استدل العلماء بهذا الحديث على أن كلام اللَّه من صفاته غير مخلوق، لأن الاستعاذة بالمخلوق لا تجوز في مثل هذا الأمر، ولو كانت الكلمات مخلوقة ما أرشد النبي ﷺ إلى الاستعاذة بها. ولهذا كان المراد من كلام المؤلف: الاستعاذة بغير اللَّه، أي: أو صفة من صفاته. وفي الحديث: **«أعوذ بعزة اللَّه وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»**[3]. وهنا استعاذ بعزة اللَّه وقدرته، ولم يستعذ باللَّه، والعزة والقدرة من صفات اللَّه، وهي ليست مخلوقة.

ولهذا يجوز القسم باللَّه وبصفاته، لأنها غير مخلوقة.

أما القسم بالآيات، فإن أراد الآيات الشرعية فجائز، وإن أراد الآيات الكونية فغير جائز.

أما الاستعاذة بالمخلوق، ففيها تفصيل، فإن كان المخلوق لا يقدر عليه؛ فهي من الشرك.

---

(١) ثبت ذلك من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه انطلق نفر من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها حتى نزلوا على حي من أحياء العرب فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم فلدغ سيد ذلك الحي فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شيء فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط إن سيدنا لدغ وسعينا له بكل شيء لا ينفعه فهل عند أحد منكم من شيء فقال بعضهم: نعم والله إني لأرقي ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جعلاً فصالحوهم على قطيع من الغنم فانطلق يتفل عليه ويقرأ الحمد لله رب العالمين فكأنما نشط من عقال فانطلق يمشي وما به قلبة قال: فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه فقال بعضهم: اقسموا فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي النبي ﷺ فنذكر له الذي كان فننظر ما يأمرنا فقدموا على رسول الله ﷺ فذكروا له فقال: وما يدريك أنها رقية ثم قال: قد أصبتم اقسموا واضربوا لي معكم سهمًا فضحك رسول الله ﷺ، والحديث رواه البخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٤١) ومواضع، ومسلم (١٤٣٤)، وأبو داود (٢١٦١)، والترمذي (١٠٩٢).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٢٠٢)، وابن ماجه (٣٥٢٢).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الجن. الثانية: كونه من الشرك.

الثالثة: الاستدلال على ذلك بالحديث؛ لأن العلماء استدلوا به على أن كلمات الله غير مخلوقة، قالوا: لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك.

....

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[(١)]: «لا يجوز الاستعاذة بالمخلوق عند أحد من الأئمة»، وهذا ليس على إطلاقه، بل مرادهم: مما لا يقدر عليه إلا الله، لأنه لا يعصمك من الشر الذي لا يقدر عليه إلا الله، إلا الله. ومن ذلك أيضًا الاستعاذة بأصحاب القبور؛ فإنهم لا ينفعون ولا يضرون، فالاستعاذة بهم شرك أكبر، سواء كان عند قبورهم أم بعيدًا عنهم. أما الاستعاذة بمخلوق فيما يقدر عليه، فهي جائزة، وقد أشار إلى ذلك الشارح الشيخ سلميان في «تيسير العزيز الحميد». وهو مقتضى الأحاديث الواردة في «صحيح مسلم» لما ذكر النبي ﷺ الفتن، قال: **«فمن وجد من ذلك ملجأ، فليعذ به»**[(٢)]. وكذلك في قصة المرأة التي عاذت بأم سلمة[(٣)]، والغلام الذي عاذ بالنبي ﷺ[(٤)]، وكذلك في قصة الذين يستعيذون بالحرم والكعبة، وما أشبه ذلك. وهذا هو مقتضى النظر، فإذا اعترضني قطّاع طريق، فعذت بإنسان يستطيع أن يخلصني منهم؛ فلا شيء فيه. لكن تعليق القلب بالمخلوق لا شك أنه من الشرك، فإذا علقت قلبك ورجاءك وخوفك وجميع أمورك بشخص معين، وجعلته ملجأ، فهذا شرك؛ لأن هذا لا يكون إلا لله. وعلى هذا، فكلام الشيخ رحمه الله في قوله: «إن الأئمة لا يجوزون الاستعاذة بمخلوق»، مقيد بما لا يقدر عليه إلا الله، ولولا أن النصوص وردت بالتفصيل لأخذنا الكلام على إطلاقه، وقلنا: لا يجوز الاستعاذة بغير الله مطلقًا.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الجن: وقد سبق ذلك في أول الباب.

الثانية: كونه من الشرك: أي: الاستعاذة بغير الله، وقد سبق التفصيل في ذلك.

الثالثة: الاستدلال على ذلك بالحديث؛ لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة؛ لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك. وجه الاستشهاد: أن الاستعاذة بكلمات الله لا

---

(١) ذكره شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى في باب مسألة حسن إرادة الله تعالى لخلق الخلق وإنشاء الأنام فقال: وقد استدل الإمام أحمد وغيره من أئمة السنة في جملة ما استدلوا على أن كلام الله غير مخلوق بقوله ـ عليه السلام ـ: «أعوذ بكلمات الله التامات» ونحو ذلك وقالوا: الاستعاذة لا تحصل بالمخلوق، ونظير هذا قول النبي ﷺ: **«اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك»**.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٠٢، ٧٠٨١، ٧٠٨٢)، ومسلم (٢٨٨٦)، وأحمد (٧٧٣٧، ٧٧٣٨).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٦٨٩)، والنسائي (٤٨٩١) ولفظه: «أن امرأة من بني مخزوم سرقت فأتى بها النبي ﷺ فعاذت بأم سلمة زوج النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: **«والله لو كانت فاطمة لقطعت يدها فقطعت»**.

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٦٥٩).

الرابعة: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره.

الخامسة: أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كفِّ شرٍّ أو جلبِ نفعٍ. لا يدل على أنه ليس من الشرك.

....

فإن النذر عبادة مدح الله الموفين به: وأمر ﷺ بالوفاء بنذر الطاعة، وكل أمر مدحه الشارع أو أثنى على من قام به أو أمر به فهو عبادة، فإن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة، والنذر من ذلك.

تخرج عن كونها استعاذة بالله، لأنها صفة من صفاته.

الرابعة: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره: أي: فائدته، وهي أنه لا يضرك شيء ما دمت في هذا المنزل.

الخامسة: أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع لا يدل على أنه ليس من الشرك: ومعنى كلامه: أنه قد يكون الشيء من الشرك، ولو حصل لك فيه منفعة، فلا يلزم من حصول النفع أن ينتفي الشرك، فالإنسان قد ينتفع بما هو شرك.

مثال ذلك: الجن؛ فقد يعيذوك؛ وهذا شرك مع أن فيه منفعة.

مثال آخر: قد يسجد إنسان لملك، فيهبه أموالاً وقصوراً، وهذا شرك مع أن فيه منفعة.

ومن ذلك ما يحصل لغلاة المداحين لملوكهم لأجل العطاء، فلا يخرجهم ذلك عن كونهم مشركين.

قال بعضهم:

فكن كما شئت يا من لا نظير له ... وكيف شئت فما خلق يدانيك

وفي الحديث فائدة.

وهي: أن الشر لا يبطل أمرًا من أمور الجاهلية إلا ذكر ما هو خير منه، ففي الجاهلية كانوا يستعيذون بالجن، فأبدل بهذه الكلمات، وهي: أن يستعيذ بكلمات الله التامات من شر من خلق.

وهذه الطريقة هي الطريقة السليمة التي ينبغي أن يكون عليها الداعية، أنه إذا سد عن الناس باب الشر، وجب عليه أن يفتح لهم باب الخير، ولا يقول: حرام، ويسكت، بل يقول: هذا حرام، وافعل كذا وكذا من المباح بدلاً عنه، وهذا له أمثلة في القرآن والسنة.

فمن القرآن: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]؛ فلما نهاهم عن قول: ﴿رَاعِنَا﴾ ذكر لهم ما يقوم مقامه وهو ﴿انظُرْنَا﴾.

ومن السنة: قوله ﷺ لمن نهاه عن بيع الصاع من التمر الطيب بالصاعين، والصاعين بالثلاثة: «بِعِ الجمع بالدراهم، واشتر بالدراهم جنيبًا[١]»[٢].

فلما منعه من المحذور، فتح له الباب السليم الذي لا محذور فيه.

قوله: «من الشرك»: من: للتبعيض، فيدل على أن الشرك ليس مختصًا بهذا الأمر.

---

(١) الجنيب: نوع من التمر الطيب.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٢٠٢، ٢٣٠٣، ٤٢٤٧)، ومسلم (١٥٩٣)، والنسائي (٤٥٥٣).

١٣ـ باب
من الشرك أن يستغيث بغير الله، أو يدعو غيره

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابٌ من الشرك أنْ يَستغيث بغير الله أو يدعو غيره:

قال شيخُ الإسلام: الاستغاثة: هي طلبُ الغَوث، وهو إزالة الشِّدة؛ كالاستنصار: طلبُ النصر. والاستعانة: طلب العون.

وقال غيره: الفرقُ بين الاستغاثة والدعاء: أنَّ الاستغاثة لا تكون إلاَّ من المكروب، والدعاءُ أعمُّ من الاستغاثة؛ لأنه يكون من المكروب وغيره. فعطفُ الدعاء على الاستغاثة، من عطف العامِّ على الخاص. فبينهما عمومٌ وخصوص مُطلق؛ يجتمعان في مادةٍ، وينفردُ الدعاء عنها في مادة. فكلُّ استغاثة دُعاء، وليس كلُّ دعاءٍ استغاثة.

وقوله: (أو يدعو غيره): اعلم أنَّ الدعاء نوعان: دعاءُ عبادة، ودعاءُ مسألة. ويُراد به في القرآن هذا تارة، وهذا تارة، ويُراد به مجموعهما.

فدعاءُ المسألة: هو طلبُ ما ينفع الداعي، من جلب نفع أو كشف ضر ولهذا أنكر الله على من يدعو أحدًا من دونه، ممن لا يملك ضرًا ولا نفعًا؛ كقوله: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [المائدة: ٧٦] وقوله: ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٧١].

وقال: ﴿ وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٦].

قال شيخ الإسلام: فكلُّ دعاء عبادة مستلزمٌ لدعاء المسألة، وكلُّ دعاء مسألة متضمنٌ لدعاء العبادة، قال الله تعالى: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٠، ٤١]، وقال: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ

والاستغاثة: طلب الغوث، وهو إزالة الشدة.

وكلام المؤلف ـ رحمه الله ـ ليس على إطلاقه، بل يقيد بما لا يقدر عليه المستغاث به، إما لكونه ميتًا، أو غائبًا، أو يكون الشيء مما لا يقدر على إزالته إلا الله تعالى، فلو استغاث بميت ليدافع عنه أو بغائب أو بحي حاضر لينزل المطر؛ فهذا كله من الشرك، ولو استغاث بحي حاضر فيما يقدر عليه كان جائزًا، قال الله تعالى: ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ [القصص: ١٥].

وإذا طلبت من أحد الغوث وهو قادر عليه؛ فإنه يجب عليك تصحيحًا لتوحيدك كأن تعتقد أنه مجرد سبب، وأنه لا تأثير له بذاته في إزالة الشدة؛ لأنك ربما تعتمد عليه وتنسى خالق السبب، وهذا قادح في كمال التوحيد.

أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨]، وقال: ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ ﴾ [الرعد: ١٤] وأمثالُ هذا في القرآن في دعاء المسألة أكثر من أنْ يُحصر، وهو يتضمَّن دعاء العبادة؛ لأن السائل أخلص سؤاله لله، وذلك من أفضل العبادات، وكذلك الذاكر لله. والتالي لكتابه ونحوه، طالبٌ من الله في المعنىٰ، فيكون داعيًا عابدًا. فتبيَّن بهذا قول شيخ الإسلام: أنَّ دعاء العبادة مستلزمٌ لدعاء المسألة، كما أنَّ دعاء المسألة متضمنٌ لدعاء العبادة.

وقد قال تعالىٰ عن خليله: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٤٨-٤٩] فصار الدعاءُ من أنواع العبادة؛ فإنَّ قوله: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٤].

وقد أمر الله تعالىٰ به في مواضع من كتابه، كقوله: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦] وهذا هو دعاءُ المسألة المتضمن للعبادة، فإنَّ الداعي يرغبُ إلىٰ المدعو، ويخضع له ويتذلل، وغير ذلك. وضابطُ هذا: أنَّ كل أمر شرعه الله لعباده وأمرهم به، ففعلُه لله عبادة. فإذا صرف من تلك العبادة شيئًا لغير الله فهو مشركٌ، مصادم لما بعث الله به رسوله من قوله ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴾ [الزمر: ١٤] وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالىٰ.

قال شيخُ الإسلام في (الرسالة السَّنية): فإذا كان علىٰ عهد رسول الله ﷺ ممن انتسب إلىٰ الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة، فليُعلم أنَّ المنتسب إلىٰ الإسلام والسنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضًا من الإسلام؛ لأسباب، منها: الغلو في بعض المشايخ، بل الغلو في علي بن أبي طالب، بل الغلو في المسيح عليه السلام. فكلُّ من غلا في نبي أو رجل صالح، وجعل فيه نوعًا من الإلهية، مثل أنْ يقول: يا سيدي فلان انصُرني، أو أغثني أو ارزقني، وأنا في حسبك، ونحو هذه الأقوال. فكلُّ هذا شركٌ وضلال، يُستتاب صاحبه، فإنْ تاب وإلاَّ قُتل. فإنَّ الله سبحانه وتعالىٰ إنما أرسل الرسل، وأنزل الكتُب، ليُعبد وحده لا شريك له، ولا يُدعَىٰ معه إلهٌ آخر. والذين يدعون مع الله آلهةً أُخرىٰ، مثل المسيح والملائكة والأصنام، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلُق الخلائق أو تُنزل المطر، أو تنبت النبات. وإنما كانوا يعبدونهم، أو يعبدون قبورهم، أو يعبدون صورهم، يقولون: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨] فبعث الله سبحانه رسله: تنهىٰ أنْ يُدْعىٰ أحدٌ من دونه، لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة. انتهىٰ.

وقال أيضًا: من جعل بينه وبين الله وسائط، يتوكَّلُ عليهم ويدعوهم ويسألهم، كفرَ إجماعًا.

نقله عنه صاحبُ (الفروع)، وصاحبُ (الإنصاف)، وصاحب (الإقناع)، وغيرهم. وذكره في (مسألة الوسائط)، ونقلتُه منه في (الرد على ابن جرجيس).

وقال ابنُ القيم رحمه الله: ومن أنواعه - أي الشرك - طلبُ الحوائج من الموتى، والاستغاثةُ بهم والتوجه إليهم. وهذا أصلُ شرك العالم؛ فإنَّ الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، فضلاً لمن استغاث به أو سأله أن يشفع له إلى الله، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده. وسيأتي تتمةُ كلامه في باب الشفاعة إنْ شاء الله تعالى.

وقال الحافظُ محمد بن عبد الهادي، في ردِّه على السبكي في قوله: إنَّ المبالغة في تعظيمه - أي: الرسول ﷺ - واجبة: إنْ أُريد بها المبالغة بحسب ما يراه كلُّ أحد تعظيمًا، حتى الحج إلى قبره، والسجود له والطواف به، واعتقاد أنه يعلم الغيب، وأنه يعطي ويمنع، ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع، وأنه يقضي حوائج السائلين ويفرج كربات المكروبين، وأنه يشفع فيمن يشاء، ويدخل الجنة من يشاء. فدعوى وجوب المبالغة في هذا التعظيم مبالغةٌ في الشرك، وانسلاخٌ من جُملة الدين.

وفي (الفتاوى البَزازية) من كُتب الحنفية: قال عُلماؤنا: من قال: أرواحُ المشايخ حاضرةٌ تَعْلَم: يكفر.

وقال الشيخ صُنع الله الحلبي الحنفي في كتابه في الرد على من ادَّعى أنَّ للأولياء تصرفات في الحياة وبعد الممات على سبيل الكرامة: هذا، وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين، جماعات يدَّعون أنَّ للأولياء تصرُّفات بحياتهم وبعد مماتهم، ويُستغاث بهم في الشدائد والبليات وبهممِهم تُكشف المهمات، فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات، مستدلين على أنَّ ذلك منهم كرامات، وقالوا: منهم أبدالٌ ونُقباء، وأوتادٌ ونُجباء، وسبعون وسبعة، وأربعون وأربعة، والقطبُ: هو الغوث للناس، وعليه المدار بلا التباس، وجوَّزوا لهم الذبائح والنذور، وأثبتوا لهم فيهما الأجور.

قال: وهذا كلامٌ فيه تفريطٌ وإفراط، بل فيه الهلاكُ الأبدي والعذاب السرَّمدي؛ لما فيه من روائح الشرك المحقق، ومُصادرة الكتاب العزيز المُصدَّق، ومخالفة لعقائد الأئمة، وما اجتمعت عليه الأمة، وفي التنزيل: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** ﴾ [النساء: ١١٥].

ثم قال: وأمَّا قولهم: إنَّ للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد الممات، فيردُّه قوله تعالى: ﴿ **أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ** ﴾ [النمل: ٦١]، ﴿ **أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ** ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿ **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ [الشورى: ٤٩]، ونحوه من الآيات الدالة على أنَّ المتفرِّدُ بالخلق والتدبير، والتصرف والتقدير، ولا شيء لغيره في شيء مّا بوجهٍ من الوجوه. فالكلُّ تحت مُلكه وقهره: تصرُّفًا وملكًا، وإحياءً وإماتة وخلقًا.

وتمدَّح الربُّ تبارك وتعالى بانفراده بملكه في آيات من كتابه، كقوله تعالى: ﴿ **هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ** ﴾ [فاطر: ٣]، ﴿ **وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ**

سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤]، وذكر آيات في هذا المعنى. ثم قال: فقولُه في الآيات كلها ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ أي: من غيره، فإنه عامٌّ يدخل فيه من اعتقدته، من وَلِيٍّ وشيطان تستمده؛ فإنَّ من لم يقدر على نصر نفسه كيف يمدُّ غيره؟ إلى أنْ قال: إنَّ هذا القول وخيمٌ، وشرك عظيم. إلى أن قال: وأمَّا القول بالتصرُّف بعد الممات، فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف في الحياة؛ قال جل ذكره: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]، ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٤٢] ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨] وفي الحديث: «إذا مات ابنُ آدم انقطع عملُه إلاَّ من ثلاث»(١)(٢)الحديث.

فجميعُ ذلك، وما هو نحوه: دالٌّ على انقطاع الحِس والحركة من الميت، وأنَّ أرواحهم مُمسكة، وأنَّ أعمالهم منقطعةٌ عن زيادة أو نقصان. فدلَّ ذلك: على أنَّ ليس للميت تصرفٌ في ذاته، فضلاً عن غيره. فإذا عجز عن حركة نفسه، فكيف يتصرَّف في غيره؟ فالله سبحانه يُخبر أنَّ الأرواح عنده، وهؤلاء الملحدون يقولون: إنَّ الأرواح مطلقة متصرِّفة! ﴿ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٤٠].

قال: وأمَّا اعتقادُهم أنَّ هذه التصرفات لهم من الكرامات، فهو من المغالطة؛ لأن الكرامة شيءٌ من عند الله يكرم بها أولياءه، لا قصد لهم فيه ولا تحدِّي، ولا قدرة ولا علم؛ كما في قصة مريم ابنة عمران، وأُسيد بن حُضير، وأبي مُسلم الخولاني.

قال: وأمَّا قولهم: فيستغاثُ بهم في الشدائد. فهذا أقبحُ مما قبله وأبدع؛ لمصادمته قوله جل ذكره: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤]، وذكر آياتٍ في هذا المعنى.

ثم قال: فإنه جل ذكره قرَّر أنه الكاشف للضر لا غيره، وأنه المتفرد بإجابة المضطرين، وأنه المستغاث لذلك كلِّه، وأنه القادر على دفع الضر، القادر على إيصال الخير، فهو المنفردُ بذلك، فإذا تعين هو جل ذكره خرج غيره من ملك ونبي وولي.

قال: والاستغاثَة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية، من الأمور الحسية: في قتال، أو إدراك عدو أو سبُع أو نحوه، كقولهم: يا لَزَيد، يا لَلمسلمين، بحسب الأسباب الظاهرة بالفعل.

وأمَّا الاستغاثَة بالقوة والتأثير، أو في الأمور المعنوية من الشدائد: كالمرض، وخوف الغرق والضيق والفقر، وطلب الرزق ونحوه: فمن خصائص الله، ولا يُطلب فيها غيره.

(١) رواه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة. (ق).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٦٣١).

....

قال: وأمَّا كونهم معتقدين التأثير منهم في قضاء حاجاتهم، كما تفعله جاهليةُ العرب والصوفية الجهال، وينادونهم ويستنجدون بهم: فهذا من المنكرات؛ فمن اعتقد أنَّ لغير الله من نبيٍ أو ولي أو روح، أو غير ذلك في كشف كُربةٍ أو قضاء حاجة تأثيراً: فقد وقع في وادي جهل خطير، فهو على شفا حُفرة من السعير. وأمَّا كونهم مستدلين على أنَّ ذلك منهم كرامات، فحاشا لله أنْ تكون أولياءُ الله بهذه المثابة؛ فهذا ظنُّ أهل الأوثان، كذا أخبر الرحمن: ﴿ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨].

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ ﴾ [يس: ٢٣].

فإنَّ ذكرَ ما ليس من شأنه النفعُ ولا دفع الضر من نبي وولي وغيره على وجه الإمداد منه: إشراكٌ مع الله؛ إذ لا قادر على الدفع غيره، ولا خير إلا خيره.

قال: وأمَّا ما قالوه: إنَّ منهم أبدالاً ونقباء، وأوتاداً ونجباء، وسبعين وسبعة، وأربعين وأربعة، والقطب هو الغوث للناس: فهذا من موضوعات إفكهم. كما ذكره القاضي المحدِّث أبو بكر بن العربي في (سراج المُريدين)، وابنُ الجوزي، وابن تيمية. انتهى باختصار.

والمقصود: أنَّ أهل العلم ما زالوا يُنكرون هذه الأمور الشركية، التي عمَّت بها البلوى، واعتقدها أهلُ الأهواء. فلو تتبعنا كلامَ العُلماء المنكرين لهذه الأمور الشركية، لطال الكتاب.

والبصيرُ النبيل، يُدرك الحق من أول دليل. ومن قال قولاً بلا بُرهان، فقولُه ظاهرُ البُطلان مخالفٌ ما عليه أهل الحق والإيمان، المتمسكون بمُحكم القرآن، المستجيبون لداعي الحق والإيمان. والله المستعان، وعليه التكلان.

قوله: «أو يدعو غيره»: معطوف على قوله: «أن يستغيث»؛ فيكون المعنى: من الشرك أن يدعو غير اللَّه، وذلك لأن الدعاء من العبادة، قال اللَّه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. ﴿عِبَادَتِي﴾: أي: دعائي، فسمى اللَّه الدعاء عبادة.

وقال ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة»[١].

والدعاء ينقسم إلى قسمين:

١ ـ ما يقع عبادة، وهذا صرفه لغير اللَّه شرك، وهو المقرون بالرهبة والرغبة، والحب والتضرع.

٢ ـ ما لا يقع عبادة، فهذا يجوز أن يوجه إلى المخلوق، قال النبي ﷺ: «من دعاكم فأجيبوه»[٢]، وقال: «إذا دعاك فأجبه»[٣]. وعلى هذا، فمراد المؤلف بقوله: «أو يدعو غيره» دعاء العبادة أو دعاء المسألة فيما لا يمكن للمسئول إجابته.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٣٧٢)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد (١٧٨٨٨) ومواضع، وصححه العلامة الألباني ـ رحمه الله ـ في تخريج الأدب المفرد (٧١٤)، وفي تلخيص أحكام الجنائز ص (٨٣).

(٢) صحيح: رواه أبو داود (١٦٧٢، ٥١٠٩)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٢٥٤).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢١٦٢).

وقولُ الله تعالى: ﴿ وَلا تَدْعُ من دُون اللَّه مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإن فَعَلْتَ فَإنَّكَ إذًا مِّنَ الظَّالمينَ (١٠٦) وَإن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بضُرٍّ فَلا كَاشفَ لَهُ إلاَّ هُوَ وَإن يُردْكَ بخَيْرٍ فَلا رَادَّ لفَضْله يُصيبُ به مَن يَشَاءُ منْ عبَاده وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحيمُ ﴾ [يونس: ١٠٦ ـ ١٠٧].

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولُ الله تعالى: ﴿ وَلا تَدْعُ من دُون اللَّه مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإن فَعَلْتَ فَإنَّكَ إذًا مِّنَ الظَّالمينَ (١٠٦) وَإن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بضُرٍّ فَلا كَاشفَ لَهُ إلاَّ هُوَ وَإن يُردْكَ بخَيْرٍ فَلا رَادَّ لفَضْله يُصيبُ به مَن يَشَاءُ منْ عبَاده وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحيمُ ﴾ [يونس: ١٠٦، ١٠٧].

قال ابنُ عطية: معناه: قيل لي ﴿وَلا تَدْعُ﴾ فهو معطوفٌ على ﴿أَقِمْ﴾. وهذا الأمرُ والمخاطبة للنبي ﷺ إذا كانت هكذا، فأحرى أنْ يتحرَّز من ذلك غيرُه. والخطابُ خرج مخرج الخصوص، وهو عام للأمة. قال أبو جعفر بن جرير في هذه الآية: يقول تعالى ذكره: ولاتدعُ، يا محمد، من دون معبودك وخالقك شيئًا لا ينفعُك في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يضرُّك في دين ولا دنيا، يعني بذلك: الآلهة والأصنام، يقول: لا تعبدها راجيًا نفعها أو خائفًا ضرَّها؛ فإنها لا تنفعُ ولا تضر. فإنْ فَعلت ذلك فدعوتها من دون الله ﴿ فَإنَّكَ إذًا مِّنَ الظَّالمينَ ﴾ يقول: من المشركين بالله[١].

قلت: وهذه الآية لها نظائر، كقوله: ﴿ فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّه إلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ منَ الْمُعَذَّبينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]، وقوله: ﴿وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّه إلَهًا آخَرَ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ﴾ [القصص: ٨٨].

قوله: «أن يستغيث»: أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مبتدأ مؤخر، وخبرها مقدم، وهو قوله: «من الشرك»، والتقدير: من الشرك الاستغاثة بغير اللَّه، والمبتدأ يكون صريحًا ومؤوَّلاً.

فالمبتدأ الصريح: مثل: زيد قائم.

والمؤول مثل: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤]. أي: وصومكم خير لكم.

قوله: «أو يدعو»: هذا من باب عطف العام على الخاص، لأن الاستغاثة دعاء بإزالة الشدة فقط، والدعاء عام لكونه لجلب منفعة، أو لدفع مضرة.

وقد ذكر المؤلف ـ رحمه اللَّه ـ في هذا الباب عدة آيات:

الآية الأولى قوله: ﴿ولاتدع مع الله إلها آخر﴾: ظاهر سياق الآية أن الخطاب للرسول ﷺ، وسواء كان خاصًا به أو عامًا له ولغيره فإن بعض العلماء قال: لا يصح أن يكون للرسول ﷺ؛ لأن الرسول ﷺ يستحيل أن يقع منه ذلك، والآية على تقدير «قل»، وهذا ضعيف جدًا، وإخراج للآيات عن سياقها.

والصواب: أنه إما خاص بالرسول ﷺ والحكم له ولغيره، وإما عام لكل من يصح خطابه ويدخل فيه الرسول ﷺ. وكونه يوجه إليه مثل هذا الخطاب لا يقتضي أن يكون ممكنًا منه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ

---

(١) فالظلم في هذه الآية هو الشرك كما قال تعالى على لسان لقمان وهو يعظ ابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ باللَّه إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظيمٌ﴾[لقمان: ١٣] بل هو أظلم الظلم كما في الحديث عن ابن مسعود «أظلم الظلم أن تجعل لله ندًا وهو خلقك» لأنه اغتصاب حق الربوبية من العبادة والدعاء والنذر ونحوه، وصرفه للعبد الذي لا يستحقه.(ق).

. . . .

ففي هذه الآيات: بيانُ أنَّ كلَّ مدعوٍّ يكون إلهًا، والإلهية حقٌّ لله لا يصلح منها شيء لغيره؛ ولهذا قال: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]. وهذا هو التوحيدُ الذي بعث الله به رُسلَه، وأنزل به كتبه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، والدِّين: كلُّ ما يُدان الله به، من العبادات الباطنة والظاهرة. وفسَّره ابنُ جرير في (تفسيره): بالدعاء، وهو فردٌ من أفراد العبادة، علىٰ عادة السَّلف في التفسير: يفسرون الآيةَ ببعض أفراد معناها.

فمن صرف منها شيئًا لقبر، أو صنم، أو وثن، أو غير ذلك: فقد اتخذه معبودًا، وجعله شريكًا لله في الإلهية التي لا يستحقُّها إلاَّ هو، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فتبيَّن بهذه الآية ونحوها: أنَّ دعوة غير الله شركٌ، وكفرٌ وضلال.

وقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[1] [يونس: ١٠٧]. فإنَّه المتفرِّدُ بالمُلك والقهر، والعطاء والمنع، والضر والنفع، دون كل ما سواه. فيلزمُ من ذلك أنْ يكون هو المدعوُّ وحده، المعبودُ وحده؛ فإنَّ العبادة لا تصلح إلاَّ لمالك النفع. ولا يملك ذلك ولا شيئًا منه غيره؛ فهو المستحقُّ للعبادة وحده، دون من لا ينفعُ ولا يضرُّ.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]، وقال: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]؛ فهذا ما أخبر به في كتابه، من تفرُّده بالإلهية والربوبية، ونصب الأدلة علىٰ ذلك.

أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فالخطاب له ولجميع الرسل، ولا يمكن أن يقع منه باعتبار كونه إنسانًا وبشرًا.

إذًا: فالحكمة من النهي أن يكون غيره متأسيًا به، فإذا كان النهي موجهًا إلىٰ من لا يمكن منه باعتبار حاله؛ فهو إلىٰ من يمكن منه من باب أولىٰ.

---

(١) في قرة العيون: هذا في حق المستغيث أخبر الله تعالى أنه هو الذي يتفضل على من سأله ولا يقدر أحد أن يمنعه شيئًا من فضل الله عليه. فهو المعطي والمانع، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع. وفي هذا المعنى ما في حديث ابن عباس.، وفيه: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك» فمن تدبر هذه الآية وما في معناها علم أن ما وقع فيه الأكثر من دعوة غير الله هو الظلم العظيم، والشرك الذي لا يغفر، وأنهم قد أثبتوا ما نفته (لا إله إلا الله) من الشرك في الإلهية؛ ونفوا ما أثبتته من الإخلاص كما قال الله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾[الزمر: ٢] والدين هو طاعة الله فيما أمر به وشرعه، ونهى عنه وحرمه. وأعظم ما أمر به التوحيد والإخلاص؛ وأن لا يقصد العبد بشيء من عمله سوى الله تعالى الذي خلقه لعبادته، وأرسل بذلك رسله، وأنزل به كتبه ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وأعظم ما نهى عنه: الشرك به في ربوبيته وإلهيته. (ق).

. . . .

فاعتقد عُبَّادُ القبور والمشاهد، نقيضَ ما أخبر به الله، واتخذوهم شركاء لله في استجلاب المنافع ودفع المكاره: بسؤالهم، والالتجاء إليهم بالرغبة والرهبة والتضرع، وغير ذلك من أنواع العبادة التي لا يستحقها إلاَّ الله، واتخذوهم شُركاء الله في ربوبيته، وإلهيته. وهذا فوقَ شرك كُفار العرب القائلين ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾، ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾، فإنَّ أولئك يدعونهم ليشفعوا لهم، ويقربوهم إلىٰ الله. وكانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك؛ لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك!. وأمَّا هؤلاء المشركون: فاعتقدوا في أهل القبور وفي المشاهد ما هو أعظمُ من ذلك، فجعلوا لهم نصيبًا من التصرف والتدبير، وجعلوهم معاذًا لهم وملاذًا في الرغبات والرَّهبات ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وقوله: ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ أي: لمن تاب إليه.

وقوله: ﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾: الدعاء: طلب ما ينفع، أو طلب دفع ما يضر، وهو نوعان كما قال أهل العلم:

الأول: دعاء عبادة، وهو أن يكون قائمًا بأمر اللَّه؛ لأن القائم بأمر اللَّه كالمصلي، والصائم، والمزكي، يريد بذلك الثواب والنجاة من العقاب، ففعله متضمن للدعاء بلسان الحال، وقد يصحب فعله هذا دعاء بلسان المقال.

الثاني: دعاء مسألة، وهو طلب ما ينفع، أو طلب دفع ما يضره.

فالأول لايجوز صرفه لغير اللَّه، والثاني فيه تفصيل سبق.

قوله: ﴿ مِن دُونِ اللَّهِ﴾: أي: سوىٰ اللَّه.

قوله: ﴿مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ ﴾:

قوله: ﴿مَا لا يَنفَعُكَ﴾: أي: ما لا يجلب لك النفع ولو عبدته.

﴿وَلا يَضُرُّكَ﴾: قيل: لا يدفع عنك الضر، وقيل: لو تركت عبادته لا يضرك، لأنه لا يستطيع الانتقام، وهو الظاهر من اللفظ.

وقوله: ﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾: أي: لأنه لا ينفعك ولا يضرك، وهذا القيد ليس شرطًا بحيث يكون له مفهوم؛ فيكون لك أن تدعو من ينفعك ويضرك، بل هو لبيان الواقع؛ لأن المدعو من دون اللَّه لا يحصل منه نفع ولا ضرر، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

ومن القيد الذي ليس بشرط، بل هو لبيان الواقع قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]. فإن قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ لبيان الواقع؛ إذ ليس هناك رب ثان لم يخلقنا والذين من قبلنا. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم﴾ [النساء: ٢٣]؛ فهذا بيان للواقع الأغلب.

. . . .

. . . .

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]؛ فهذا بيان للواقع؛ إذ دعاء الرسول ﷺ إيانا كلُّه لما يحيينا.

وكل قيد يراد به بيان الواقع؛ فإنه كالتعليل للحكم، فمثلاً قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] أي: اعبدوه لأنه خلقكم. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، أي: لأنه لا يدعوكم إلا لما يحييكم. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾؛ أي: لأنه لا ينفعك ولا يضرك؛ فعلى هذا لا يكون هذا القيد شرطًا، وهذه يسميها بعض الناس صفة كاشفة.

قوله: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾: أي: إن دعوت من دون اللَّه ما لا ينفعك ولا يضرك. والخطاب للرسول ﷺ. و﴿إِن﴾: شرطية، وجواب الشرط جملة: ﴿فَإِنَّكَ إِذًا﴾.

و﴿إِذًا﴾ أي: حال فعلك من الظالمين، وهو قيد؛ لأن﴿إِذًا﴾ للظرف الحاضر، أي: فإنك حال فعله من الظالمين، لكن قد تتوب منه فيزول عنك وصف الظلم، فالإنسان قبل الفعل ليس بظالم، وبعد التوبة ليس بظالم، لكن حين فعل المعصية يكون ظالمًا كما قال ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[1]. فنفى الإيمان عنه حال الفعل. ونوع الظلم هنا ظلم شرك، قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وعبر اللَّه بقوله: ﴿مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾، ولم يقل: من المشركين؛ لأجل أن يبين أن الشرك ظلم، لأن كون الداعي لغير اللَّه مشركًا أمر بيِّن، لكن كونه ظالمًا قد لا يكون بينًا من الآية.

الآية الثانية قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾: أي: يصبك بضر، كالمرض، والفقر، ونحوه.

قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾: ﴿لَا﴾: نافية للجنس، واسمها: ﴿كَاشِفَ﴾، وخبرها: ﴿لَهُ﴾، و﴿إِلَّا هُوَ﴾ بدل، وإن قلنا بجواز كون خبرها معرفة صار﴿هُوَ﴾ الخبر.

أي: ما أحد يكشفه أبدًا إذا مسك اللَّه بضر إلا اللَّه، وهذا كقول النبي ﷺ: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللَّه لك**»[2].

قوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾: هنا: قال: ﴿يُرِدْكَ﴾، وفي الضر قال: ﴿يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ فهل هذا من باب تنويع العبارة، أو هناك فرق معنوي؟

الجواب: هناك فرق معنوي، وهو أن الأشياء المكروهة لا تنسب إلى إرادة اللَّه، بل تنسب إلى فعله، أي: مفعوله. فالمس من فعل اللَّه، والضر من مفعولاته، فاللَّه لا يريد الضر لذاته، بل يريده لغيره، لما يترتب عليه من الخير، ولما وراء ذلك من الحكم البالغة، وفي الحديث القدسي: «إن من

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٧٥) ومواضع، ومسلم (٥٧).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٤) ومواضع، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧٩٥٧).

. . . .

. . . .

عبادي من لو أغنيته أفسده الغنى»[١]. أما الخير فهو مراد اللَّه لذاته، ومفعول له، ويقرب من هذا ما في سورة الجن: ﴿ **وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا** ﴾. فإذا أصيب الإنسان بمرض؛ فاللَّه لم يرد به الضرر لذاته، بل أراد المرض، وهو يضره، لكن لم يرد ضرره، بل أراد خيرًا من وراء ذلك، وقد تكون الحكمة ظاهرة في نفس المصاب، وقد تكون ظاهرة في غيره، كما قال تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [الأنفال: ٢٥]. فالمهم أنه ليس لنا أن نتحجر حكمة اللَّه؛ لأنها أوسع من عقولنا، لكننا نعلم علم اليقين أن اللَّه لا يريد الضرر لأنه ضرر؛ فالضرر عند اللَّه ليس مرادًا لذاته، بل لغيره، ولا يترتب عليه إلا الخير، أما الخير؛ فهو مراد لذاته ومفعول له، واللَّه أعلم بما أراد بكلامه، لكن هذا الذي يتبين لي.

قوله: ﴿ **فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ** ﴾: أي: لا يستطيع أحد أن يرد فضل اللَّه أبدًا، ولو اجتمعت الأمة على ذلك، وفي الحديث: «**اللَّهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت**»[٢].

وعليه: فنعتمد على اللَّه في جلب المنافع، ودفع المضار، وبقاء ما أنعم علينا به، ونعلم أن الأمة مهما بلغت من المكر والكيد والحيل لتمنع فضل اللَّه، فإنها لا تستطيع.

قوله: ﴿ **يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ** ﴾: الضمير إما أن يعود إلى الفضل؛ لأنه أقرب، أو إلى الخير؛ لأنه هو الذي يتحدث عنه، ولا يختلف المعنى بذلك.

قوله: ﴿ **مَن يَشَاءُ** ﴾: كل فعل مقيد بالمشيئة، فإنه مقيد بالحكمة، لأن مشيئة اللَّه ليست مجردة يفعل ما يشاء لمجرد أنه يفعله فقط؛ لأن من صفات اللَّه الحكمة، ومن أسمائه الحكيم، قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾ [الإنسان: ٣٠].

قوله: ﴿ **مِنْ عِبَادِهِ** ﴾: العبودية هنا عامة؛ لأن قوله: ﴿ **بِخَيْرٍ** ﴾ يشمل خير الدنيا والآخرة، وخير الدنيا يصيب الكفار.

قوله: ﴿ **وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾: أي: ذو المغفرة، والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، مأخوذة من المغفَر، وهو ما يتقى به السهام، والمغفرة فيها ستر ووقاية. والرحيم؛ أي: ذو الرحمة، وهي صفة تليق باللَّه عز وجل، تقتضي الإحسان والإنعام. الشاهد قوله: ﴿ **وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ** ﴾. فقد نبه اللَّه نبيه أن من يدعو أحدًا من دون اللَّه (أي: من سواه) لا ينفعه ولا يضره.

---

(١) ضعيف: رواه الحكيم الترمذي في نوادره (٢/ ٢٣٢)، والديلمي في مسند الفردوس (٥/ ٢٥٠، ٢٥١)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٩)، وضعفه العلامة الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٧٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٨٤٤) ومواضع، ومسلم (٤٧١، ٥٩٣).

وقوله: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[العنكبوت: ١٧].

قال المُصنف رحمه الله تعالى: وقولُه: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]:

يأمرُ عبادَه بابتغاء الرزق عنده وحده، دون ما سواه، ممن لا يملك لهم رزقًا من السموات والأرض شيئًا. فتقديمُ الظرف يُفيد الاختصاص.

وقوله: ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ من عطف العام على الخاص؛ فإنَّ ابتغاء الرزق عنده، من العبادة التي أمر بها.

قال العمادُ ابن كثير: ﴿فَابْتَغُوا﴾ أي: فاطلبوا ﴿عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ أي: لا عند غيره؛ لأنه المالكُ له، وغيرُه لا يملك شيئًا من ذلك ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ أي: أخلصوا له العبادة وحده لا شريك له، ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ أي: على ما أنعم عليكم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيُجازي كلَّ عامل بعمله.

الآية الثالثة: قوله: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾: لو أتى المؤلف بأول الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ لكان أولى؛ فهم يعبدون هذه الأوثان ـ من شجر وحجر وغيرها، وهي لا تملك لهم رزقًا أبدًا ـ لو دعوها إلى يوم القيامة ما أحضرت لهم ولا حبة بُرٍّ، ولا دفعت عنهم أدنى مرض أو فقر، فإذا كانت لا تملك الرزق، فالذي يملكه هو اللَّه، ولهذا قال: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾، أي: اطلبوا عند اللَّه الرزق؛ لأنه سبحانه هو الذي لا ينقضي ما عنده، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾[النحل: ٩٦]، والرزق هو العطاء كما قال تعالى: ﴿فارزقوهم منه﴾.

وقوله: ﴿عِندَ اللَّهِ﴾: عند اللَّه، حال من الرزق، وقدم الحال مع أن موضعها التأخير عن صاحبها لإفادة الحصر؛ إذ أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر؛ أي فابتغوا الرزق حال كونه عند اللَّه لا عند غيره.

قوله: ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾: أي: تذللوا بالطاعة؛ لأن العبادة مأخوذة من التعبيد، وهو التذليل، ومنه قولهم: طريق مُعَبَّد؛ أي: مذلل للسالكين، قد أزيل عنه الأحجار والأشجار المؤذية؛ لأنكم إذا تذللتم له بالطاعة؛ فهو من أسباب الرزق، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾[الطلاق: ٢، ٣]؛ فأمر أن نطلب الرزق عنده، ثم أعقبه بقوله: ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ إشارة إلى أن تحقيق العبادة من طلب الرزق؛ لأن العابد ما دام يؤمن أن من يتق اللَّه يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب؛ فعبادته تتضمن طلب الرزق بلسان الحال.

قوله: ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾: إذا أضاف اللَّه الشكر له متعديًا باللام؛ فهو إشارة إلى الإخلاص؛ أي: واشكروا نعمة اللَّه للَّه؛ فاللام هنا لإفادة الإخلاص؛ لأن الشاكر قد يشكر اللَّه لبقاء النعمة، وهذا لا بأس به، ولكن كونه يشكر للَّه وتأتي إرادة بقاء النعمة تبعًا؛ هذا هو الأكمل والأفضل.

والشكر فسروه بأنه: القيام بطاعة المنعم، وقالوا: إنه يكون في ثلاثة مواضع:

١ ـ **في القلب**: وهو أن يعترف بقلبه أن هذه النعمة من اللَّه، فيرى للَّه فضلاً عليه بها، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وأعظم نعمة هي نعمة الإسلام، قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ

وقولُه: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]

قال المُصنف رحمه الله تعالى: وقولُه: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]:

فنفى سبحانه أنْ يكون أحدٌ أضل ممن يدعو غيره. وأخبر أنه لا يستجيبُ له ما طلب منه إلى يوم القيامة. والآيةُ تعمُّ كلَّ من يُدعى من دون الله، كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا

عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ...﴾ [آل عمران: ١٦٤] الآية.

٢ - اللسان: وهو أن يتحدث بها على وجه الثناء على الله والاعتراف وعدم الجحود، لا على سبيل الفخر والخيلاء والترفع على عباد الله؛ فيتحدث بالغنى لا ليكسر خاطر الفقير، بل لأجل الثناء على الله، وهذا جائز كما في قصة الأعمى من بني إسرائيل لما ذكرهم الملك بنعمة الله، قال: «نعم كنت أعمى فرد الله علي بصري، وكنت فقيرًا فأعطاني الله المال»[(١)]؛ فهذا من باب التحدث بنعمة الله.

والنبي ﷺ تحدث بنعمة الله عليه بالسيادة المطلقة؛ فقال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة»[(٢)].

٣ - الجوارح: وهو أن يستعملها بطاعة المنعم، وعلى حسب ما يختص بهذه النعمة.

فمثلاً: شكر الله على نعمة العلم: أن تعمل به، وتعلِّمه الناس. وشكر الله على نعمة المال: أن تصرفه بطاعة الله، وتنفع الناس به. وشكر الله على نعمة الطعام: أن تستعمله فيما خُلق له، وهو تغذية البدن، فلا تبني من العجين قصرًا مثلاً؛ فهو لم يخلق لهذا الشيء.

قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: الجار والمجرور متعلق بـ﴿ تُرْجَعُونَ﴾، وتقديمه دل على الحصر، أي أن رجوعنا إلى الله -سبحانه- وهو الذي سيحاسبنا على ما حمَّلَنا إياه من الأمر بالعبادة، والأمر بالشكر، وطلب الرزق منه.

والشاهد من هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧]؛ فالفقير يستغيث بالله لكي ينجيه من الفقر، والله هو الذي يستحق الشكر، وإذا كانت هذه الأصنام لا تملك الرزق؛ فكيف تستغيث بها؟!

الآية الرابعة: قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾: ﴿وَمَنْ﴾: اسم استفهام مبتدأ، و﴿أَضَلُّ﴾: خبره، والاستفهام يراد به هنا النفي، أي: لا أحد أضل.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤). (٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٧٨)، وأحمد (١٠٥٨٩).

. . . .

يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً ﴾ [الإسراء: ٥٦]. وفي هذه الآية: أخبر أنه لا يستجيب، وأنه غافلٌ عن داعيه ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ فتناولت الآيةُ كلَّ داعٍ، وكلَّ مدعوٍّ من دون الله(١).

قال أبو جعفر بن جرير في قوله: ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ﴾: يقول تعالىٰ ذكره: وإذا جُمع الناسُ ليوم القيامة في موقف الحساب، كانت هذه الآلهةُ التي يدعونها في الدنيا لهم أعداءً؛ لأنهم يتبرؤون منهم. ﴿ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ يقول تعالىٰ ذكره: وكانت آلهتُهم التي يعبدونها في الدنيا، لعبادتهم جاحدين؛ لأنهم يقولون يوم القيامة: ما أمرنا بعبادتنا، ولا شعرنا بعبادتهم إيانا،

و﴿أَضَلُّ﴾: اسم تفضيل؛ أي: لا أحد أضل من هذا.

والضلال: أن يتيه الإنسان عن الطريق الصحيح.

وإذا كان الاستفهام مراداً به النفي كان أبلغ من النفي المجرد؛ لأنه يحوله من نفي إلىٰ تحدٍّ؛ أي: بيِّن لي عن أحد أضل ممن يدعو من دون اللَّه؟ فهو متضمن للتحدي، وهو أبلغ من قوله: «لا أضل ممن يدعو»؛ لأن هذا نفي مجرد، وذاك نفي مشرب معنىٰ التحدي.

قوله: ﴿ مِمَّن يَدْعُو ﴾: متعلق بأضل، ويراد بالدعاء هنا دعاء المسألة ودعاء العبادة.

قوله: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾: أي: سواه.

قوله: ﴿ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾: ﴿مَن﴾: مفعول يدعو؛ أي: لو بقي كل عمر

---

(١) في قرة العيون: وأخبر أن المدعو لا يستجيب لما طلب منه من ميت أو غائب، أو ممن لا يقدر على الاستجابة مطلقًا من طاغوت ووثن، فليس لمن دعا غير الله إلا الخيبة والخسران. ثم قال تعالى: ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥] كما قال في آية يونس ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس: ٢٨، ٢٩] وقال: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦] فلا يحصل للمشرك يوم القيامة إلا نقيض قصده، فيتبرأ منه ومن عبادته. وينكر ذلك عليه أشد الإنكار؛ وقد صار المدعو للداعي عدوًّا؛ ثم أخبر تعالى أن ذلك الدعاء عبادة بقوله: ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦] فدلت أيضًا على أن دعاء غير الله عبادة له وأن الداعي له في غاية الضلال.

وقد وقع من هذا الشرك في هذه الأمة ما عم وطم، حتى أظهر الله من يبينه بعد أن كان مجهولاً عند الخاصة والعامة إلا من شاء الله تعالى؛ وهو في الكتاب والسنة في غاية البيان؛ لكن القلوب انصرفت إلى ما زين لها الشيطان، كما جرى للأمم مع الأنبياء والمرسلين لما دعاهم إلى توحيد الله جرى لهم من شدة العداوة ما ذكره الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣] ويشبه هذه الآية في المعنى ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤] أخبر تعالى أن ذلك الدعاء شرك بالله وأنه لا يغفره لمن لقيه به؛ فتدبر هذه الآيات وما في معناها كقوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٠] وهو في القرآن أكثر من أن يستقصى. (ق).

. . . .

تبرأنا إليك منهم يا ربنا.

كما قال تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ [الفرقان: ١٧، ١٨].

قال ابن جرير: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الملائكة والإنس والجن(١)، وساق بسنده عن مجاهد، قال: عيسىٰ وعزيرٌ والملائكة. ثم قال: يقول تعالىٰ ذكره(٢): قالت الملائكة الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله وعيسىٰ: تنزيهًا لك يا ربنا وتبرئة مما أضاف إليك هؤلاء المشركون ﴿مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ نواليهم ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبأ: ٤١]. انتهىٰ.

قلتُ: وأكثرُ ما يُستعمل الدعاء في الكتاب والسنة، ولسان الصحابة ومن بعدهم من العلماء: في السؤال والطلب؛ كما قال العُلماء من أهل اللغة، وغيرهم: الصلاة لغة: الدُّعاء، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ

الدنيا يدعو ما استجاب له، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، والخبر هنا عن اللَّه تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، يعني: نفسه سبحانه وتعالىٰ.

قوله: ﴿مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ﴾: أتىٰ بـ﴿مَن﴾، وهي للعاقل، مع أنهم يعبدون الأصنام والأحجار والأشجار، وهي غير عاقلة؛ لأنهم لما عبدوها نزلوها منزلة العاقل، فخوطبوا بمقتضىٰ ما يدعون؛ لأنه أبلغ في إقامة الحجة عليهم في أنهم يدعون من يرونهم عقلاء، ومع ذلك لا يستجيبون لهم، وهذا من بلاغة القرآن؛ لأنه خاطبهم بما تقتضيه حالهم ليقيم الحجة عليهم؛ إذ لو قيل: ما لا يستجيب له؛ لقالوا: هناك عذر في عدم الاستجابة لأنهم غير عقلاء.

قوله: ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ﴾: الضمير في قوله: ﴿وَهُمْ﴾ يعود علىٰ ﴿مَن﴾ باعتبار المعنىٰ؛ لأنهم جماعة، وضمير ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ يعود علىٰ ﴿مَن﴾ باعتبار اللفظ؛ لأنه مفرد، فأفرد الضمير باعتبار لفظ ﴿مَن﴾، وجمعه باعتبار المعنىٰ؛ لأن ﴿مَن﴾ تعود علىٰ الأصنام، وهي جماعة، و﴿مَن﴾ قد يراعىٰ لفظها ومعناها في كلام واحد.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١]. فهنا راعىٰ اللفظ، ثم المعنىٰ، ثم اللفظ.

---

(١) سياق ابن جرير هكذا؛ يقول تعالى ذكره: ويوم نحشر هؤلاء المكذبين بالساعة العابدين الأوثان وما يعبدون من دون الله من الملائكة والإنس والجن. (ق).

(٢) أي عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨]. (ق).

....

الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤]، وقال: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأنعام: ٦٣]، وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ [يونس: ١٢]، وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]، وقال: ﴿لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٩]، وقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

وفي حديث أنس، مرفوعًا «الدعاءُ مُخُّ العبادة»(١).

وفي الحديث الصحيح «ادعوا الله وأنتم مُوقنون بالإجابة»(٢).

وفي آخر «من لم يسأل الله يغضب عليه»(٣).

وحديث «ليس شيءٌ أكرمَ على الله من الدعاء»(٤) رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وابنُ حبان، والحاكم وصححه.

وقوله: «الدعاءُ سلاحُ المؤمن، وعماد الدين ونور السموات والأرض»(٥) رواه الحاكم وصححه.

وقوله: «سلوا الله كلَّ شيء حتى الشِّسْع إذا انقطع»(٦) الحديث. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أفضلُ العبادة الدعاء، وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(٧) [غافر: ٦٠]. رواه ابنُ المنذر، والحاكم وصححه.

وحديث «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان»(٨) الحديث.

وحديث «اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد»(٩).

وأمثالُ هذا في الكتاب والسنة أكثرُ من أنْ يُحصىٰ في الدعاء، الذي هو السؤال والطلب.

فمن جحد كون السؤال والطلب عبادة: فقد صادم النصوص، وخالف اللغة واستعمال الأمة سلفًا وخلفًا. وأمَّا ما تقدمَّ من كلام شيخ الإسلام، وتبعه العلاَّمة ابن القيم: من أنَّ الدعاء نوعان: دعاءُ مسألة، ودعاء عبادة، وما ذكر بينهما من التلازم، وتضمُّن أحدهما للآخر: فذلك باعتبار كون الذاكر

....

(١) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٢٢٣٠).

(٢) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٥٩٤).

(٣) حسن: حسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (٢٦٨٦).

(٤) حسن: حسنه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٢٣٢).

(٥) موضوع: ذكره العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (١٧٩) وقال: موضوع.

(٦) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (١٣٦٢).

(٧) حسن: حسنه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٥٧٩).

(٨) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (٣٨٥٨).

(٩) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح أبي داود (١٣٢٤).

. . . .

والتالي والمصلي والمتقرب بالنسك وغيره طالبًا في المعنى، فيدخلُ في مسمَّى الدعاء بهذا الاعتبار.

وقد شرع الله تعالى في الصلاة الشرعية من دعاء المسألة ما لا تصح الصلاة إلاَّ به، كما في الفاتحة وبين السجدتين وفي التشهد، وذلك عبادةٌ كالركوع والسجود. فتدبَّر هذا المقام، يتبيَّن لك جهلُ الجاهلين بالتوحيد. ومما يُبيِّن هذا المقام، ويزيدُه إيضاحًا: قولُ العلاَّمة ابن القيم رحمه الله تعالى في معنى قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]. هذا الدعاءُ، المشهورُ أنه دعاء المسألة، قالوا: كان النبيُّ ﷺ يدعو ربه، مرة يقول: يا الله. ومرة: يا رحمن. فظن المشركون أنه يدعو إلهين، فأنزل الله هذه الآية. ذُكر هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقيل: إنَّ الدعاء هُنا بمعنى التسمية، والمعنى: أيُّ اسم سمَّيتموه به من أسماء الله تعالى: إمَّا الله، وإمَّا الرحمن، فله الأسماء الحسنى. وهذا هو من لوازم المعنى في الآية، وليس هو عينُ المراد. بل المراد بالدعاء: معناه المعهود المطَّردُ في القرآن. وهو دعاء السؤال، ودعاء الثناء.

ثم قال: إذا عُرف هذا، فقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]؛ يتناول نوعي الدعاء، لكنه ظاهر في دعاء المسألة، متضمنٌ لدعاء العبادة؛ ولهذا أُمر بإخفائه. قال الحسن: بين دعاء السر ودعاء العلانية سبعون ضعفًا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، ولم يُسمع لهم صوت، إنْ كان إلاَّ همسًا بينهم وبين ربهم.

وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]؛ يتناول نوعي الدعاء، وبكل منهما فُسرِّت الآية. قيل: أُعطيه إذا سألني، وقيل: أُثيبه إذا عبدني.

وليس هذا من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعماله في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعًا. وهذا يأتي في مسألة الصلاة، وأنها هل نُقلت عن مسمَّاها في اللغة وصارت حقيقة شرعية، أو استعملت في هذه العبادة مجازًا للعلاقة بينها وبين المُسمَّى اللغوي، أو هي باقيةٌ على الوضع اللغوي، وضُمَّ إليها أركانٌ وشرائط. وعلى ما قررناه: لا حاجة إلى شيء من ذلك؛ فإنَّ المصلي من أول صلاته إلى آخرها لا ينفكُّ عن دعاء: إما دعاء عبادة وثناء، أو دعاء طلب ومسألة، وهو في الحالين داع. انتهى من (البدائع).

قوله: ﴿عَن دُعَائِهِمْ﴾: الضمير في «دعائهم» يعود إلى المدعوين، وهل المعنى: ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: الأصنام، ﴿عَن دُعَائِهِمْ﴾؛ أي: دعاء الداعين إياهم، فيكون من باب إضافة المصدر إلى مفعوله، أو المعنى: و﴿هُمْ﴾ عن دعاء العابدين لهم؛ فيكون «دعاء» مضافًا إلى فاعله، والمفعول محذوف؟

الأول أبلغ، أي عن دعاء العابدين إياهم أبلغ من دعاء العابدين على سبيل الإطلاق، فإذا قلت: ﴿عَن دُعَائِهِمْ﴾؛ أي: عن دعاء العابدين إياهم، وجعلت الضمير هنا يعود على المدعوين؛ صار المعنى أن هذه الأصنام غافلة عن دعوة هؤلاء إياهم، ويكون هذا أبلغ في أن هذه الأصنام لا تفيدهم شيئًا في الدنيا ولا في الآخرة.

قوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾: أي: يوم القيامة.

﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾، هل المعنى: كان العابدون للمعبودين أعداء، أو كان المعبودون للعابدين أعداء؟

وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢].

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢]:

بين تعالى أنَّ المشركين من العرب ونحوهم، قد علموا أنه لا يُجيب المضطر ويكشف السوء إلا الله وحده[1]. فذكر ذلك سبحانه محتجًا عليهم في اتخاذهم الشفعاء من دونه؛ ولهذا قال: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ يعني يفعل ذلك. فإذا كانت آلهتُهم لا تُجيبهم في حال الاضطرار، فلا يصلح أنْ يجعلوها شركاء لله الذي يُجيب المضطر إذا دعاه ويشكف السوء وحده. وهذا أصح ما فُسرت به الآية؛ كسابقتها من قوله: ﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١]، لاحقتها إلى قوله: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ

وكذلك أمر الله بالاستعاذة به وحده من الشرور كلها وبالاستغاثة به في كل شدة ومشقة، فهذه إخلاصها لله إيمان وتوحيد، وصرفها لغير الله شرك وتنديد.

والفرق بين الدعاء والاستغاثة أن الدعاء عام في كل الأحوال، والاستغاثة هي الدعاء لله في حالة الشدائد، فكل ذلك يتعين إخلاصه لله وحده، وهو المجيب لدعاء الداعين المفرج لكربات المكروبين، ومن دعا غيره من نبي أو ملك أو ولي أو غيرهم، أو استغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك كافر.

الجواب: يشمل المعنيين، وهذا من بلاغة القرآن.

الشاهد: قوله: ﴿مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، فإذا كان من سوى اللَّه لا يستجيب إلى يوم القيامة؛ فكيف يليق بك أن تستغيث به دون اللَّه؟! فبطل تعلق هؤلاء العابدين بمعبوداتهم. فالذي للبدوي أو للدسوقي في مصر، فيقول: المدد! المدد! أو: أغثني؛ لا يغني عنه شيئًا، ولكن قد يبتلى فيأتيه المدد عند حصول هذا الشيء لا بهذا الشيء، وفرق بين ما يأتي بالشيء، وما يأتي عند الشيء.

مثال ذلك: امرأة دعت البدوي أن تحمل، فلما جامعها زوجها حملت، وكانت سابقًا لا تحمل؛ فنقول هنا: إن الحمل لم يحصل بدعاء البدوي، وإنما حصل عنده؛ لقوله تعالى: ﴿مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾. أو يأتي للجيلاني في العراق، أو ابن عربي في سوريا، فيستغيث به؛ فإنه لا ينتفع، ولو بقي الواحد منهم إلى يوم القيامة يدعو ما أجابه أحد. والعجب أنهم في العراق يقولون: عندنا الحسين، فيطوفون بقبره ويسألونه، وفي مصر كذلك، وفي سوريا كذلك، وهذا سفه في العقول، وضلال في الدين، والعامة قد لا يلامون في الواقع، لكن الذي يلام من عنده علم من العلماء ومن غير العلماء.

---

(١) في قرة العيون: وهذا مما أقر به مشركو العرب وغيرهم في جاهليتهم كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] أخبر تعالى أنهم يخلصون الدعاء له إذا وقعوا في شدة. (ق).

. . . .

يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٣، ٦٤].

فتأمَّل هذه الآيات، يتبيَّنْ لك: أنَّ الله تعالىٰ احتج علىٰ المشركين بما أقروا به علىٰ ما جحدوه، من قَصْر العبادة جميعها عليه؛ كما في فاتحة الكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. قال أبوجعفر بن جرير: قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]؛ يقول تعالىٰ ذكره: أم ما تُشركون بالله خير، أم الذي يُجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء النازل به عنه؟

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ يقول: يستخلف بعد أمواتكم في الأرض منكم خُلفاء، أحياء يخلفونهم.

وقوله: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ يقول: أإلهٌ سواه يفعل هذه الأشياء بكم، ويُنعم عليكم هذه النعم؟

وقوله: ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ يقول: تذكُّرًا قليلاً من عظمة الله وأياديه عندكم، تذكرون وتعتبرون حُجج الله عليكم يسيرًا؛ فلذلك أشركتم بالله غيره في عبادته.

الآية الخامسة قوله: ﴿أَمَّن﴾: «أم»: منقطعة، والفرق بين المنقطعة والمتصلة ما يلي:

١ - المنقطعة بمعنىٰ «بل»، والمتصلة بمعنىٰ «أو».

٢ - المتصلة لا بد فيها من ذكر المعادل، والمنقطعة لا يشترط فيها ذكر المعادل.

مثال ذلك: أعندك زيد أم عمرو؟ فهذه متصلة، وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] متصلة، وقوله تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ منقطعة؛ لأنه لم يُذكر لها معادل؛ فهي بمعنىٰ بل والهمزة.

قوله: ﴿الْمُضْطَرَّ﴾: أصلها: المضتر؛ أي: الذي أصابه الضرر، قال تعالىٰ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤]، فلا يجيب المضطر إلا اللَّه، لكن قيده بقوله: ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾، أما إذا لم يدعه؛ فقد يكشف اللَّه ضرّه، وقد لا يكشفه.

قوله: ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾: أي: يزيل السوء، والسوء: ما يسوء المرء، وهو دون الضرورة؛ لأن الإنسان قد يساء بما لا يضره، لكن كل ضرورة سوء.

وقوله: ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾: هل هي متعلقة بما قبلها في المعنىٰ، وأنه إذا أجابه كشف سوءه، أو هي مستقلة يجيب المضطر إذا دعاه ثم أمر آخر يكشف السوء؟

الجواب: المعنىٰ الأخير أعم؛ لأنها تشمل كشف سوء المضطر وغيره، ومن دعا اللَّه ومن لم يدعه، وعلىٰ التقدير الأول تكون خاصة بكشف سوء المضطر، ومعلوم أنه كلما كان المعنىٰ أعم كان أولىٰ، ويؤيد العموم قوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾.

قوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾: الذين يجعلهم اللَّه خلفاء الأرض هم عباد اللَّه الصالحون، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

وروى الطبـــراني، بإسناده: أنَّـه كـــان في زمن الـنبي ﷺ منافقٌ يؤذي المؤمنين، فقـال بعضـهم: قوموا بنا نستغيثُ برسـول الله من هذا المنافق، فــقــال الـنبي ﷺ: «إنه لا يُســتــغــاث بي، وإنما يُســتــغـــاث بالله».

قـال المُصنِّفُ رحمـه الله تعالى: روى الطبـرانِّي، بإسناده: أنَّه كـان في زمن النبي ﷺ منافقٌ يؤذي المؤمنين، فقـال بعضهم: قوموا بنا نستغيثُ برسول الله من هذا المنافـق، فقال النبي ﷺ: «إنه لا يُستغاث بي، وإنما يُستغاث بالله»[1].

الطبراني: هو الإمام الحافظ، سُليمان بن أحمـد بن أيوب اللَّخْمي الطبراني، صـاحبُ المعاجم الثلاثة وغيرهـا. روىٰ عن النسائي، وإسحاق بن إبراهيم الدَّبْري، وخلقٌ كثير. مـات سنة ستين وثلاثمائة. روىٰ هذا الحديث، عن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه.

قوله: «أنه كان في زمن النبي ﷺ منافقٌ يُؤذي المؤمنين»: لم أقف علىٰ اسم هذا المنافق.

قلتُ: هو عبد الله بن أُبيّ؛ كما صرَّح به ابن أُبي حاتم، في روايته.

وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

قـوله: ﴿ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾: الاستفـهام للإنكار، أو بمعنىٰ النفي، وهما متقاربان، أي: هل أحد مع اللَّه يفعل ذلك؟!

الجواب: لا، وإذا كـان كذلك؛ فيجبُ أن تصرف العبادة للَّه وحده، وكذلك الدعاء؛ فالواجب علىٰ العبد أن يوجه السؤال إلىٰ اللَّه تعالىٰ، ولا يطلب من أحد أن يزيل ضرورته ويكشف سوءه وهو لا يستطيع.

إشكال وجوابه: وهو أن الإنسان المضطر يسأل غير اللَّه ويُستجاب له، كمن اضطر إلىٰ طعام وطلب من صاحب الطعام أن يعطيه فأعطاه؛ فهل يجوز أم لا؟

الجواب: إن هذا جائز، لكن يجب أن نعتقد أن هذا مجرد سبب لا أنه مستقل؛ فاللَّه جعل لكل شيء سببًا، فيمكن أن يصرف اللَّه قلبه فلا يعطيك، ويمكن أن تأكل ولا تشبع فلا تزول ضرورتك، ويمكن أن يسخره اللَّه ويعطيك.

قوله: «بإسناده»: يشير إلىٰ أن هذا الإسناد ليس علىٰ شرط الصحيح، أو المتفق عليه بين الناس، بل هو إسناده الخاص، وعليه؛ فيجب أن يراجع هذا الإسناد، فليس كل إسناد مُحدِّث قد تمت فيه شروط القبول. وذكر الهيثمي في «مجمع الزوائد»: «إن رجاله رجال الصحيح؛ غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث، وابن لهيعة خلّط في آخر عمره لاحتراق كتبه»، ولم يذكر المؤلف الصحابي، وفي الشرح هو عبادة بن الصامت رضي اللَّه عنه.

قوله: «في زمن النبي»: أي: عهده، وكان الكافر أولاً يعلن كفره ولا يبالي، ولما قوي المسلمون بعد غزوة بدر خاف الكفار؛ فصاروا يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر.

---

(١) إسناده ضعيف: ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٥٩)، وذكر أن في سنده ابن لهيعة، وهو ضعيف، وفي إسناده مجهول.

. . . .

قوله: «فقال بعضهم» أي: الصحابة رضي الله عنهم؛ هو أبو بكر رضي الله عنه.

قوله: «قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق»: لأنه ﷺ كان يقدرُ على كف أذاه[١].

قوله: «إنه لا يُستغاث بي، وإنما يُستغاث بالله» فيه: النصُّ على أنَّه لا يُستغاث بالنبي ﷺ، ولا مَن دونه. كره ﷺ أنْ يُستعملَ هذا اللفظ في حقه، وإنْ كان فيما يقدر عليه في حياته: حمايةً لجناب التوحيد، وسداً لذرائع الشرك، وأدبًا وتواضعًا لربه، وتحذيرًا للأمة من وسائل الشرك، في الأقوال والأفعال. فإذا كان هذا فيما يقدر عليه ﷺ في حياته، فكيف يجوز أنْ يستغاث به بعد وفاته، ويُطلب منه أمورٌ لا يقدر عليها إلاَّ الله؟! كما جرىٰ علىٰ ألسنة كثير من الشعراء كالبُوصيري[٢]، والبُرَعي

قوله: «منافق»: المنافق: هو الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وهؤلاء ظهروا بعد غزوة بدر.

ولم يسم المنافق في هذا الحديث؛ فيحتمل أنه عبد اللّه بن أبيّ؛ لأنه مشهور بإيذاء المسلمين، ويُحتمل غيره.

واعلم أن أذية المنافقين للمسلمين ليست بالضرب أو القتل؛ لأنهم يتظاهرون بمحبة المسلمين، ولكن بالقول والتعرض كما صنعوا في قصة الإفك.

---

(١) في قرة العيون: فلعله أراد أن النبي ﷺ كان يترك المنافقين أن يفعل بهم ما يستحقونه مخافة أن يفتتن بعض المؤمنين من قبيلة المنافقين، وفي السنة ما يدل على ذلك، كما فعل مع ابن أبي وغيره. وقيل: إن النبي ﷺ كان يقدر أن يغيثهم من ذلك المنافق فيكون نهيه ﷺ عن الاستغاثة به حماية لجناب التوحيد، وسداً لذرائع الشرك، كنظائره مما للمستغاث به قدرة عليه مما كان يستعمل لغة وشرعًا مخافة أن يقع من أمته استغاثة بمن لا يضر ولا ينفع ولا يسمع ولا يستجيب من الأموات والغائبين، والطواغيت والشياطين والأصنام وغير ذلك. وقد وقع من هذا الشرك العظيم ما عمت به البلوى كما تقدم ذكره حتى أنهم أشركوهم مع الله في ربوبيته وتدبير أمر خلقه؛ كما أشركوهم معه في ألوهيته وعبوديته؛ والوسائل لها حكم الغايات في النهي عنها والله أعلم.

(٢) مثل قوله في البردة:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حدوث الحادث العمم

ويزعمون أن البوصيري أعظم من مدح النبي ﷺ ويذكرونه أكثر مما يذكرون حسان بن ثابت وغيره من الصحابة ﷺ؛ لأنهم في زعمهم لم يبلغوا من الغلو والإطراء ما بلغ البوصيري. وهذا هو الغلو الذي جر إلى الشرك والكفر برسول الله ﷺ كما كفرت النصارى بعيسى ابن مريم عليه السلام من طريق هذا الغلو.

وقد حذرنا الله منه في كتابه الكريم بقوله: ﴿**يا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ**﴾ [النساء:١٧١] وحذرنا النبي ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فأنا عبد الله ورسوله**». وإنما تعظيمه ﷺ وحبه باتباع سنته وإقامة ملته ودفع كل ما يلصقه الجاهلون بها من الخرافات. فقد ترك أكثر الناس هذا وشغلوا بهذا الغلو والإطراء الذي أوقعهم في هذا الشرك العظيم.

ونحمد الله أن عافانا بفضله وجعلنا مؤمنين برسول الله ﷺ معظمين له ومحبين بما يحبه الله ورسوله لنا على مثل ما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان. وقد عظمت المصيبة بهذا الشرك حتى اتخذ أعداء الرسول ﷺ -الزاعمون جهلاً وكذبًا حبه- هذه البردة وردًا كالقرآن وأعظم من القرآن، وكتبوها مجودة بماء الذهب كما كتبوا القرآن، وربما اشتدت عنايتهم بها أكثر من القرآن. فلا حول ولا قوة إلا بالله. (ق).

فيه مسائل:

الأولى: أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص.

الثانية: تفسير قوله: ﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾.

وغيرهم من الاستغاثة بمن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشوراً.

ويُعرضون عن الاستغاثة بالرب العظيم القادر على كل شيء، الذي له الخلق والأمر وحده، وله الملك وحده، لا إله غيره، ولا رب سواه؛ قال الله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، في مواضع من القرآن[1] ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١].

فأعرض هؤلاء عن القرآن، واعتقدوا نقيضَ ما دلَّت عليه هذه الآيات المحكمات. وتبعهم على ذلك الضلال الخلقُ الكثير، والجمُّ الغفير. فاعتقدوا الشرك بالله دينًا، والهدى ضلالاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون. فما أعظمها من مصيبة عمَّت بها البلوى. فعاندوا أهل التوحيد، وبدَّعوا أهل التجريد؛ فالله المستعان.

قوله: «فقال بعضهم»: أي: الصحابة.

قوله: «نستغيث»: أي: نطلب الغوث؛ وهو إزالة الشدة.

قوله: «من هذا المنافق»: إما بزجره، أو تعزيره، أو بما يناسب المقام. وفي الحديث إيجاز حذف دل عليه السياق؛ أي: فقاموا إلى رسول ﷺ، فقالوا: يا رسول الله! إنا نستغيث بك من هذا المنافق.

قوله: «إنه لا يستغاث بي»: ظاهر هذه الجملة النفي مطلقًا، ويحتمل أن المراد: لا يستغاث به في هذه القصة المعينة. فعلى الأول: يكون نفي الاستغاثة من باب سد الذرائع والتأدب في اللفظ، وليس من باب الحكم بالعموم؛ لأن نفي الاستغاثة بالرسول ﷺ ليس على إطلاقه، بل تجوز الاستغاثة به فيما يقدر عليه. أما إذا قلنا: إن النفي عائد إلى القضية المعينة التي استغاثوا بالنبي ﷺ منها؛ فإنه يكون على الحقيقة؛ أي: على النفي الحقيقي، أي: لا يستغاث بي في مثل هذه القضية؛ لأن النبي ﷺ كان يعامل المنافقين معاملة المسلمين، ولا يمكنه ـ حسب الحكم الظاهر للمنافقين ـ أن ينتقم من هذا المنافق انتقامًا ظاهرًا؛ إذ أن المنافقين يستترون، وعلى هذا فلا يستغاث للتخلص من المنافق إلا بالله.

فيه مسائل:

الأولى: أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص: يعني: حيث قال في الترجمة: باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره، ووجه ذلك أن الاستغاثة طلب إزالة الشدة والدعاء طلب ذلك وغيره، إذًا الاستغاثة نوع من الدعاء، والدعاء أعم؛ فهو من باب عطف العام على الخاص، وهذا سائغ في اللغة العربية فهو كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [الحج: ٧٧].

الثانية: تفسير قوله: ﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾: الخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ خاصة، بدليل الآيات التي قبلها، قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥].

---

(١) يعني ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] فبالجمع بين الآيتين يظهر أنه لا يقدر أحد من المدعوين أن يجيب الداعي إلا الله. (ق).

الثالثة: أنَّ هذا هو الشرك الأكبر.

الرابعة: أن أصلح الناس لو يفعله إرضاء لغيره صار من الظالمين.

الخامسة: تفسير الآية التي بعدها.

السادسة: كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفراً.

السابعة: تفسير الآية الثالثة[1].

الثامنة: أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله، كما أنَّ الجنة لا تطلب إلا منه.

التاسعة: تفسير الآية الرابعة.

. . . .

- -

وكما أنه خرج من الدين فقد تجرد أيضًا من العقل، فإن أحدًا من الخلق ليس عنده من النفع والدفع مثقال ذرة لا عن نفسه ولا عن غيره بل الكل فقراء إلىٰ الله في كل شئونهم.

فإن قيل: كيف ينهاه اللَّه عن أمر لا يمكن أن يقع منه شرعًا؟

أجيب: إن الغرض هو التنديد بمن فعل ذلك، كأنه يقول: لا تسلك هذا الطريق التي سلكها أهل الضلال، وإن كان الرسول لا يمكن أن يقع منه ذلك شرعًا.

الثالثة: أن هذا هو الشرك الأكبر: يؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾، مضافًا إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

الرابعة: أن أصلح الناس لو فعله إرضاءً لغيره؛ صار من الظالمين: تؤخذ من كون الخطاب للرسول ﷺ، وهو أصلح الناس، فلو فعل ذلك إرضاءً لغيره؛ صار من الظالمين، حتىٰ ولو فعله مجاملة لإنسان مشرك، فدعا صاحب قبر إرضاءً لذلك المشرك؛ فإنه يكون مشركًا؛ إذ لا تجوز المحاباة في دين اللَّه.

الخامسة: تفسير الآية التي بعدها: وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ...﴾ [الأنعام: ١٧] الآية، فإذا كان لا يكشف الضر إلا اللَّه؛ وجب أن تكون العبادة له وحده والاستغاثة به وحده.

السادسة: كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفراً: تؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾، فلم ينتفع من دعائه هذا؛ فخسر الدنيا بذلك، والآخرة بكفره.

السابعة: تفسير الآية الثالثة: وهي قوله تعالىٰ: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾:

وقوله: ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ حال من الرزق، وعليه يكون ابتغاء الرزق عند اللَّه وحده.

الثامنة: أنَّ طلب الرزق لا ينبغي إلا من اللَّه، كما أن الجنة لا تطلب إلا منه: تؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ لأن العبادة سبب لدخول الجنة، وقد أشار إلىٰ ذلك بقوله: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

التاسعة: تفسير الآية الرابعة: وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

---

(١) يعني: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]. (ق).

العاشرة: أنَّه لا أضل ممن دعا غير الله.

الحادية عشرة: أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه[1].

الثانية عشرة: أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له.

الثالثة عشرة: تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو.

الرابعة عشرة: كفر المدعو بتلك العبادة.

الخامسة عشرة: أن هذه الأمور سبب كونه أضل الناس.

السادسة عشرة: تفسير الآية الخامسة[2].

العاشرة: أنه لا أضل ممن دعا غير اللّه : تؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ؛ لأن الاستفهام هنا بمعنىٰ النفي .

الحادية عشرة: أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه: لقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ .

﴿وَهُمْ ﴾ ؛ أي: المدعوون، ﴿عَن دُعَائِهِمْ﴾ ؛ أي: دعاء الداعين، أو عن دعاء الداعين إياهم؛ فالاحتمال في الضمير الثاني وهو قوله: ﴿عَن دُعَائِهِمْ﴾ ، أما الضمير الأول؛ فإنه يعود إلىٰ المدعوين لا ريب، وقد سبق بيانه بالتفصيل .

الثانية عشرة: أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له: تؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ .

الثالثة عشرة: تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو: تؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ .

الرابعة عشرة: كفر المدعو بتلك العبادة : معنىٰ كفر المدعو: ردُّه وإنكاره، فإذا كان يوم القيامة تبرأ منه وأنكره؛ تؤخذ من قوله : ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ .

الخامسة عشرة: هي سبب كونه أضل الناس: وذلك لأمور، هي:

١ ـ أنه يدعو من دون اللّه من لا يستجيب له. ٢ ـ أن المدعوين غافلون عن دعائهم.

٣ ـ أنه إذا حشر الناس كانوا له أعداء. ٤ ـ أنه كافر بعبادتهم.

السادسة عشرة: تفسير الآية الخامسة: وهي قوله تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ ، وقد سبق ذلك.

---

(١) يعني: أن المدعو غافل عن دعاء الداعي بما هو مشغول به في قبر من نعيم، إن كان من المؤمنين الصالحين، كالحسين وأبيه ﷺ، أو من عذاب أليم، كالتيجاني المشرك الخبيث وابن عربي الحاتمي أكبر الدعاة إلى وحدة الوجود؛ وابن الفارض وأشباههم ممن اتخذه الناس وليًّا معبودًا لعظم ما بني عليه من القبة؛ أو بالظنون واتباع الأهواء؛ وهم كثير جدًّا، بل أكثر أولئك الطواغيت منهم ومن أرباب الطرق الدجالين. (ق).

(٢) يعني: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٤٩]. (ق).

السابعة عشرة: الأمر العجيب وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله؛ ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين.

الثامنة عشرة: حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد والتأدب مع الله.

....

السابعة عشرة: الأمر العجيب، وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا اللّه...إلخ: وهو كما قال رحمه اللّه: وهذا موجود الآن؛ فمن الناس من يسجد للأصنام التي صنعوها بأنفسهم تعظيمًا، فإذا وقعوا في الشدة دعوا اللّه مخلصين له الدين، وكان عليهم أن يلجؤوا للأصنام لو كانت عبادتها حقًا، إلا أن من المشركين اليوم من هو أشد شركًا من المشركين السابقين، فإذا وقعوا في الشدة دعوا أولياءهم؛ كعلي والحسين، وإذا كان الأمر سهلاً دعوا اللّه، وإذا حلفوا حلفًا هم فيه صادقون حلفوا بعلي أو غيره من أوليائهم، وإذا حلفوا حلفًا هم فيه كاذبون حلفوا باللّه ولم يبالوا.

الثامنة عشرة: حماية المصطفى حمَى التوحيد، والتأدب مع اللّه: اختار المؤلف أن قوله: «**لا يستغاث بي**» من باب التأدب بالألفاظ، والبعد عن التعلق بغير اللّه، وأن يكون تعلق الإنسان دائمًا باللّه وحده؛ فهو يعلم الأمة أن تلجأ إلى اللّه وحده إذا وقعت في الشدائد، ولا تستغيث إلا به وحده.

* * *

١٤ـ باب قول الله تعالى:

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾(١) [الأعراف: ١٩١، ١٩٢].

قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ أي: في العبادة.

قال المفسرون في هذه الآية: هذا توبيخٌ وتعنيف للمشركين، في عبادتهم مع الله تعالى ما لا يخلُق شيئًا وهو مخلوق. والمخلوق لا يكون شريكًا للخالق في العبادة التي خلقهم لها، وبيَّن أنهم لا يستطيعون لهم نصرًا ولا أنفسهم يَنصرُون، فكيف يُشركون به من لا يستطيع نَصْر عابديه ولا نصر نفسه؟ وهذا برهانٌ ظاهرٌ على بطلان ما كانوا يعبدونه من دون الله، وهذا وصف كلِّ مخلوق، حتى الملائكة والأنبياء والصالحين.

وأشرفُ الخلق محمد ﷺ وقد كان يستنصرُ ربه على المشركين، ويقول: «**اللهم أنت عَضُدي ونصيري، بك أحول، وبك أصول، وبك أقاتل**»(٢).

وهذه الآية، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

وقوله: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا

باب قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١]

قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ هذا شروع في براهين التوحيد وأدلته، فالتوحيد له من البراهين النقلية والعقلية ما ليس لغيره.

مناسبة الباب لما قبله:

لما ذكر رحمه اللَّه الاستعاذة والاستغاثة بغير اللَّه ـ عز وجل؛ ذكر البراهين الدالة على بطلان عبادة ما سوى اللَّه، ولهذا جعل الترجمة لهذا الباب نفس الدليل، وذكر رحمه اللَّه ثلاث آيات:

---

(١) في قرة العيون: وهذا مما احتج به تعالى على المشركين لما وقع منهم من اتخاذ الشفعاء والشركاء في العبادة لأنهم مخلوقون فلا يصلح أن يكونوا شركاء لمن هم خلقه وعبيده. وأخبر أنهم مع ذلك لا يستطعون لهم نصرًا، أي لمن سألهم النصرة ﴿وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف:١٩٢] فإذا كان المدعو لا يقدر على أن ينصر نفسه فلأن لا ينصر غيره من باب الأولى.
فبطل تعلق المشرك بغير الله بهذين الدليلين العظيمين، وهو كونهم عبيدًا لمن خلقهم لعبادته والعبد لا يكون معبودًا.
الدليل الثاني: أنه لا قدرة لهم على نفع أنفسهم فكيف يرجى منهم أن ينفعوا غيرهم.
فتدبر هذه الآية وأمثالها في القرآن العظيم. (ق).

(٢) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الكلم الطيب (١٢٥).

. . . .

مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقوله: ﴿ قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ ﴾ [الجن: ٢١-٢٣].

فكفىٰ بهذه الآيات برهانًا علىٰ بُطلان دعوة غير الله، كائنًا من كان. فإنْ كان نبيًا أو صالحًا: فقد شرَّفه الله تعالىٰ بإخلاص العبادة له، والرضىٰ به ربًا ومعبودًا.

فكيف يجوز أن يجعل العابد معبودًا، مع توجيه الخطاب إليه بالنهي عن هذا الشرك؟ كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٨٨] وقال: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [يوسف: ٤٠].

قد أمر عباده من الأنبياء والصالحين وغيرهم بإخلاص العبادة له وحده، ونهاهم أنْ يعبدوا معه غيره. وهذا هو دينُهُ الذي بعث به رسله، وأنزل به كتبه، ورضيه لعباده، وهو الإسلام؛ كما روىٰ البخاريُّ، عن أبي هريرة في سؤال جبرائيل عليه السلام، قال: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: «الإسلام أنْ تعبد الله ولا تُشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان»[1].

الآية الأولى والثانية قوله: ﴿ أَيُشْرِكُونَ﴾: الاستفهام للإنكار والتوبيخ؛ أي: يشركونه مع اللَّه.

قوله: ﴿مَا لا يَخْلُقُ﴾: هنا عبر بـ﴿مَا﴾ دون «من».

وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ [الأحقاف: ٥]، عبر بـ﴿من﴾.

والمناسبة ظاهرة؛ لأن الداعين هناك نزلوهم منزلة العاقل، أما هنا؛ فالمدعو جماد؛ لأن الذي لا يخلق شيئًا ولا يصنعه جماد لا يفيد.

قوله: ﴿شَيْئًا ﴾: نكرة في سياق النفي؛ فتفيد العموم.

قوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾: وصف هذه الأصنام بالعجز والنقص.

والرب المعبود لا يمكن أن يكون مخلوقًا، بل هو الخالق؛ فلا يجوز عليه الحدوث ولا الفناء.

والمخلوق: حادث، والحادث يجوز عليه العدم؛ لأن ما جاز انعدامه أولاً؛ جاز عقلاً انعدامه آخرًا.

فكيف يعبد هؤلاء من دون اللَّه؛ إذا المخلوق هو بنفسه مفتقر إلىٰ خالقه وهو حادث بعد أن لم يكن؛ فهو ناقص في إيجاده وبقائه؟!

إشكال وجوابه:

قوله: ﴿مَا لا يَخْلُقُ﴾: الضمير بالإفراد، وقوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾. الضمير بالجمع؛ فما الجواب؟

أجيب: بأن قوله: ﴿مَا لا يَخْلُقُ﴾ عاد الضمير علىٰ﴿مَا﴾ باعتبار اللفظ؛ لأن ﴿مَا﴾ اسم موصول، لفظها مفرد، لكن معناها الجمع؛ فهي صالحة بلفظها للمفرد، وبمعناها للجمع؛ كقوله: ﴿مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾.

وقوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾. عاد الضمير علىٰ ﴿مَا ﴾ باعتبار المعنىٰ؛ كقوله: ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم (٩، ١٠).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾(١) [فاطر: ١٣، ١٤].

قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾: أي: لا يقدرون على نصرهم لو هاجمهم عدو؛ لأن هؤلاء المعبودين قاصرون. والنصر: الدفع عن المخذول بحيث ينتصر على عدوه.

قوله: ﴿وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾: بنصب أنفسهم على أنه مفعول مقدم، وليس من باب الاشتغال؛ لأن العامل لم يشتغل بضمير السابق.

أي: زيادة على ذلك هم عاجزون عن الانتصار لأنفسهم؛ فكيف ينصرون غيرهم؟!

فبين الله عجز هذه الأصنام، وأنها لا تصلح أن تكون معبودة من أربعة وجوه، وهي:

١ - أنها لا تخلق، ومن لا يخلق لا يستحق أن يُعبد.

٢ - أنهم مخلوقون من العدم؛ فهم مفتقرون إلى غيرهم ابتداءً ودوامًا.

٣ - أنهم لا يستطيعون نصر الداعين لهم، وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾: أبلغ من قوله: «لا ينصرونهم»؛ لأنه لو قال: «لا ينصرونهم»؛ فقد يقول قائل: لكنهم يستطيعون، لكن لما قال: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ كان أبلغ لظهور عجزهم.

٤ - أنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم.

الآية الثالثة قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾: يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة، و﴿مِن دُونِهِ﴾. أي: سوى الله.

قوله: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾: ﴿مَا﴾: نافية، ﴿مِن﴾: حرف جر زائد لفظًا، وقيل: لا ينبغي أن يقال: حرف جر زائد في القرآن، بل يقال: من: حرف صلة. وهذا فيه نظر؛ لأن الحروف الزائدة لها معنى، وهو التوكيد، وإنما يقال: زائد من حيث الإعراب، وجملة ﴿مَا يَمْلِكُونَ﴾ خبر المبتدأ الذي هو: ﴿الَّذِينَ﴾.

---

(١) في قرة العيون: يخبر الخبير أن الملك له وحده والملوك وجميع الخلق تحت تصرفه وتدبيره، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣] فإن من كانت هذه صفته فلا يجوز أن يرغب في طلب نفع أو دفع ضر إلى أحد سواه تعالى وتقدس، بل يجب إخلاص الدعاء له الذي هو من أعظم أنواع العبادة، وأخبر تعالى أن ما يدعوه أهل الشرك لا يملك شيئًا وأنهم لا يسمعون دعاء من دعاهم. ولو فرض أنهم يسمعون فلا يستجيبون لداعيهم وأنهم يوم القيامة يكفرون بشركهم، أي: ينكرونه ويتبرأون ممن فعله معهم؛ ذلك الدعاء شرك به، وأنه لا يغفره لمن لقيه به، فأهل الشرك ما صدقوا الخبير ولا أطاعوه فيما حكم به وشرع، بل قالوا: إن الميت يسمع، ومع سماعه ينفع، فتركوا الإسلام والإيمان رأسًا كما ترى عليه الأكثرين من جهلة هذه الأمة. (ق).

. . . .

يخبرُ تعالىٰ عن حال المدعوِّين من دونه من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها بما يدلُّ علىٰ عجزهم وضعفهم، وأنهم قد انتفت عنهم الأسباب التي تكون في المدعو، وهي: المُلك، وسماع الدعاء، والقدرة علىٰ استجابته.

فمتىٰ لم توجد هذه الشروط تامة بطلت دعوتهُ، فكيف إذا عُدمت بالكلية؟

فنفىٰ عنهم الملك بقوله: ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ قال ابنُ عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، والحسن، وقتادة: القطمير: اللفافة التي تكون علىٰ نواة التمر. كما قال تعالىٰ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [النحل: ٧٣]، وقال: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

ونفىٰ عنهم سماع الدعاء، بقوله: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾، لأنهم ما بين ميتٍ، وغائب عنهم مشتغل بما خُلق له، مسخَّر بما أُمر به كالملائكة.

ثم قال: ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ لأن ذلك ليس إليهم؛ فإنَّ الله تعالىٰ لم يأذن لأحدٍ من عباده في دُعاء أحدٍ منهم، لا استقلالاً ولا واسطة، كما تقدَّم بعض أدلة ذلك.

وقوله: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ فتبيَّن بهذا، أنَّ دعوة غير الله شرك[1]. وقال تعالىٰ:

قوله: ﴿من قِطْمِيرٍ﴾: القطمير: سلب نواة التمرة. وفي النواة ثلاثة أشياء ذكرها اللَّه في القرآن لبيان حقارة الشيء. القطمير: وهو اللفافة الرقيقة التي علىٰ النواة. الفتيل: وهو سلك يكون في الشق الذي في النواة. النقير: وهي النقرة التي تكون علىٰ ظهر النواة. فهؤلاء لا يملكون من قطمير.

فإن قيل: أليس الإنسان يملك النخل كله كاملاً؟

أجيب: إنه يملكه، ولكنه ملك ناقص ليس حقيقيًا؛ فلا يتصرف فيه إلا علىٰ حسب ما جاء به الشرع، فلا يملك مثلاً إحراقه للنهي عن إضاعة المال.

قوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾: جملة شرطية، تدعو: فعل الشرط مجزوم بحذف النون، والواو فاعل، وأصلها: تدعونهم.

قوله: ﴿لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾: جواب الشرط مجزوم بحذف النون، والواو فاعل.

قوله: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾: أي: إن هذه الأصنام لو دعوتموهم ما سمعت، ولو فرض أنها سمعت ما استجابت؛ لأنها لا تقدر علىٰ ذلك، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢].

فإذا كانت كذلك؛ فأي شيء يدعو إلىٰ أن تُدعىٰ من دون اللَّه؟! بل هذا سفه، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن

---

(١) وتبين أنهم كانوا يدعون عبادًا صالحين يتبرأون من الشرك الذي هو دعاء غير الله ويتبرأون من أولئك المشركين الزاعمين حب أولئك الصالحين وأنهم محسوبون عليهم. (ق).

. . . .

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] وقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ قال ابنُ كثير: يتبرؤون منكم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

قال: وقوله: ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي: ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصيرُ إليه مثلُ خبير بها.

قال قتادة: يعني نفسه تبارك وتعالىٰ؛ فإنه أخبر بالواقع لا محالة.

قلتُ: والمشركون لم يُسلِّموا للعليم الخبير ما أخبر به عن معبوداتهم، فقالوا: تملك وتسمع، وتستجيب وتشفع لمن دعاها[(١)]، ولم يلتفتوا إلىٰ ما أخبر به الخبيرُ: من أنَّ كلَّ معبودٍ يعادي عابده يوم القيامة، ويتبرأ منه.

كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩)

يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠].

قوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾: هو كقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦]. فهؤلاء المعبودون إن كانوا يبعثون ويحشرون؛ فكفرهم بشركهم ظاهر كمن يعبد عزيراً والمسيح. وإن كانوا أحجاراً وأشجاراً ونحوها؛ فيحتمل أن يشملها ظاهر الآية، وهو أن اللّٰه يأتي بهذه الأحجار ونحوها؛ فتكفر بشرك من يشرك بها، ويؤيده قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، وما ثبت في «الصحيحين» عن النبي ﷺ: «**أنه عند بعث الناس يقال لكل أمة: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد من دون اللّٰه**»[(٢)]؛ فالحجر يكون أمامهم يوم القيامة، ويكون له كلام ينطق به، ويكفر بشركهم، فإذا كانت المعبودات تحضر وتحصب في النار إهانة لعابديها وتحضر لتُتْبع إلىٰ النار؛ فلا غرو أن تكفر بعابديها إذا أحضرت.

قوله: ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]: هذا مثال يضرب لمن أخبر ورأىٰ شكًّا عند من خاطبه به؛ فيقول: ولا ينبئك مثل خبير. ومعناه: إنه لا يخبرك بالخبر مثل خبير به، وهو اللّٰه؛ لأنه لا يعلم أحد ما يكون في يوم القيامة إلا اللّٰه، وخبره صدق؛ لأن اللّٰه تعالىٰ يقول: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء: ١٢٢]. والخبير: العالم ببواطن الأمور.

---

(١) يعني قالوا ذلك بلسان حالهم، لأنهم أصروا على دعائهم والاستغاثة بهم بعد أن وبخهم الله بأن الذي يستغاث به ويدعى لا بد أن يكون سميعًا بصيرًا بيده الخير. والذي يدل على أنهم لم يكونوا يقولون ذلك بصريح القول: ما حكى الله من جواب قوم إبراهيم وأبيه لما سألهم ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢، ٧٣] فإنهم أعرضوا عن الجواب الصريح عن السؤال. وقالوا﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤] فجوابهم هذا حيدة عن الجواب المطلق للسؤال. (ق).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٢).

وفي الصحيح، عن أنس، قال: شُجَّ النبيُّ ﷺ يوم أُحد، فقال: «كيف يُفلحُ قومٌ شجوا نبيَّهم؟» فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨-٣٠].

أخرج ابنُ جرير، عن ابن جُريج، قال: قال مجاهد: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ قال: يقول ذلك كل شيء كان يُعبد من دون الله.

فالكيِّس يستقبلُ هذه الآيات التي هي الحجةُ والنور والبرهان بالإيمان، والقبول والعمل. فيجرِّد أعماله لله وحده دون كلِّ ما سواه، ممن لا يملك لنفسه نفعًا ولا دفعًا، فضلاً عن غيره.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وفي الصحيح، عن أنس، قال: شُجَّ النبيُّ ﷺ يوم أُحد، فقال: «كيف يُفلحُ قومٌ شجَّوا نبيَّهم؟» فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾[1] [آل عمران: ١٢٨].

مسألة: هل يسمع الأموات السلام ويردونه على من سلم عليهم؟

اختُلف في ذلك على قولين:

القول الأول: أن الأموات لا يسمعون السلام، وأن قول النبي ﷺ حين زيارة القبور: «السلام عليكم» دعاء لا يقصد به المخاطبة، ثم على فرض أنهم يسمعون كما جاء في الحديث الذي صححه ابن عبد البر وأقره ابن القيم: بأن الإنسان إذا سَلّم على شخص يعرفه في الدنيا رد اللَّه عليه روحه فرد السلام، وعلى تقدير صحة هذا الحديث إذا كانوا يسمعون السلام ويردونه؛ فلا يلزم أن يسمعوا كل شيء، ثم لو فرض أنهم يسمعون غير السلام؛ فإن اللَّه صرح بأن المدعوين من دون اللَّه لا يسمعون دعاء من يدعوهم؛ فلا يمكن أن نقول: إنهم يسمعون دعاء من يدعوهم؛ لأن هذا كفر بالقرآن، فتبين بهذا أنه لا تعارض بين قوله ﷺ: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين»، وبين هذه الآية.

وأما قوله: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾؛ فمعناه: لو سمعوا فرضًا ما استجابوا لكم؛ لأنهم لا يستطيعون.

القول الثاني: أن الأموات يسمعون.

واستدلوا على ذلك بالخطاب الواقع في سلام الزائر لهم بالمقبرة.

وبما ثبت في «الصحيح» من أن المشيِّعين إذا انصرفوا سمع المشيَّع قرع نعالهم.

والجواب عن هذين الدليلين:

أما الأول: فإنه لا يلزم من السلام عليهم أن يسمعوا، ولهذا كان المسلمون يسلِّمون على النبي ﷺ في حياته في التشهد وهو لا يسمعهم قطعًا.

أما الثاني: فهو وارد في وقت خاص، وهو انصراف المشيعين بعد الدفن.

وعلى كل: فالقولان متكافئان، واللَّه أعلم بالحال.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧٩١)، ورواه البخاري معلقًا في كتاب المغازي باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

. . . .

قوله: في (الصحيح)، أي: (الصحيحين). علَّقه البخاري، عن حُميد، وعن ثابت: عن أنس ووصله أحمد، والترمذي، والنسائي، عن حُميد، عن أنس به. ووصله مسلمٌ، عن ثابت، عن أنس.

وقال ابنُ إسحاق في (المغازي): حدثني حُميد الطويل، عن أنس، قال: كُسِرت رَباعيَةُ النبي ﷺ يوم أُحد، وشُج وجهه، فجعل الدمُ يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم، وهو يقول: كيف يُفلح قومٌ خضبوا وجهَ نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟! فأنزل الله الآية.

قوله: (شُجَّ النبي ﷺ) قال أبو السعادات: الشجُّ في الرأس خاصة في الأصل، وهو أنْ يضربه بشيء فيجرَحه فيه ويشقه، ثم استُعمل في غيره من الأعضاء.

وذكر ابنُ هشام، من حديث أبي سعيد الخدري: أنَّ عُتْبة بن أبي وَقَّاص، هو الذي كسر رَباعية النبي ﷺ السفلى، وجرح شفته العليا[1]، وأنَّ عبد الله بن شهاب الزهري هو الذي شجه في وجهه، وأن عبد الله بن قَمِيئَة جرحه في وَجْنته، فدخلت حلقتان من حلَق المِغْفَر في وجنته[2]، وأنَّ مالك بن سنان مصَّ الدمَ من وجه رسول الله ﷺ، وازدرده. فقال له: «لن تمسك النار»[3].

قال القرطبي: والرباعية بفتح الراء وتخفيف الياء وهي كلُّ سنٍّ بعد ثنية.

قال النووي: وللإنسان أربعُ رَباعيات.

قال الحافظ: والمراد أنها كُسرت، فذهب منها فلقة، ولم تُقلع من أصلها.

قال النووي: وقوعُ الأسقام والابتلاء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم؛ لينالوا جزيل الأجر والثواب، ولتعرف أُممُهم ما أصابهم، ويأتسوا بهم.

قال القاضي: ليُعلم أنهم من البشر، تُصيبهم محنُ الدنيا، ويطرأ على أجسامهم ما يطرأ على أجسام البشر، ليتيقَّن أنهم مخلوقون مربوبون، ولا يفتتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات، ويُلبِّس الشيطانُ من أمرهم ما لبَّسه على النصارى وغيرهم. انتهى.

قلتُ: يعني: من الغلو، والعبادة.

قوله: «وفي الصحيح»: سبق الكلام على مثل هذا التعبير.

قوله: «أحد»: جبل معروف شمالي المدينة، ولا يقال: المنورة؛ لأن كل بلد دخله الإسلام فهو منور بالإسلام، ولأن ذلك لم يكن معروفًا عند السلف، وكذلك جاء اسمها في القرآن بالمدينة فقط. لكن لو قيل: المدينة النبوية لحاجة تمييزها؛ فلا بأس، وهذا الجبل حصلت فيه وقعة في السنة

---

(١) روى ابن إسحاق من حديث سعد بن أبي وقاص قال: «فما حرصت على قتل رجل قط حرصي على قتل أخي عتبة لما صنع برسول الله ﷺ يوم أحد». (ق).

(٢) في الطبراني من حديث أبي أمامة قال: رمى عبد الله بن قمئة رسول الله ﷺ يوم أحد فشج وجهه وكسرت رباعيته فقال: خذها وأنا ابن قمئة. فقال رسول الله ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه: **«ما لك أقمأك الله»**. فسلط الله عليه تيس جبل، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة. (ق).

(٣) ذكر هذه الروايات الحافظ ابن حجر في الفتح (٧/ ٣٦٦).

قوله: (يوم أُحد) هو شرقي المدينة. قال ﷺ: «أُحد جبل يحبنا ونحبه»[(١)(٢)].
هو جبلٌ معروف، كانت عنده الوقعة المشهورة فأُضيفت إليه.
قوله: «كيف يُفلح قومٌ شجّوا نبيَّهم؟» زاد مسلم: «وكسروا رَباعيتَهُ وأدموا وجهه؟».
قوله: فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ قال ابنُ عطية: كأنَّ النبي ﷺ لَحِقَه في تلك الحال يأسٌ من فلاح كفار قريش؛ فقيل له بسبب ذلك ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أي: عواقبُ الأمور بيد الله، فَامْضِ أنت لشأنك، ودُمْ على الدعاء لربك.

الثالثة من الهجرة في شوال هُزِمَ فيها المسلمون لسببٍ ما حصل منهم من مخالفة أمر النبي ﷺ، كما أشار الله إلى ذلك بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وجواب الشرط محذوف تقديره: حصل لكم ما تكرهون.
وقد حصلت هزيمة المسلمين لمعصية واحدة، ونحن الآن نريد الانتصار والمعاصي كثيرة عندنا، ولهذا لا يمكن أن نفرح بنصر ما دمنا على هذه الحال؛ إلا أن يرفق الله بنا ويصلحنا جميعًا.
قوله: «شج»: الشَّجَّة: الجرح في الرأس والوجه خاصة.
قوله: «وكسرت رباعيته»: السنان المتوسطان يسميان ثنايا، وما يليهما يسميان رباعيتين.
قوله: «فقال كيف يفلح قوم شجوا نبيهم»: الاستفهام يراد به الاستبعاد؛ أي: بعيد أن يفلح قوم شجوا نبيهم ﷺ.
قوله: «يفلح»: من الفلاح، وهو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.
قوله: فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]:
أي: نزلت هذه الآية، والخطاب فيها للرسول ﷺ.
و﴿شَيْءٌ﴾: نكرة في سياق النفي؛ فتعم.
قوله: ﴿الأَمْرِ﴾؛ أي: الشأن، المراد: شأن الخلق، فشأن الخلق إلى خالقهم، حتى النبي ﷺ ليس له فيهم شيء.
ففي الآية خطاب للرسول ﷺ وقد شُجَّ وجهه، كُسرت رباعيته، ومع ذلك ما عذره الله ـ سبحانه ـ في كلمة واحدة: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟»، فإذا كان الأمر كذلك، فما بالك بمن سواه؟ فليس لهم من الأمر شيء؛ كالأصنام، والأوثان، والأولياء، والأنبياء؛ فالأمر كله لله وحده، كما أنه الخالق وحده، والحمد لله الذي لم يجعل أمرنا إلى أحد سواه؛ لأن المخلوق لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا؛ فكيف يملك لغيره؟!
ونستفيد من هذا الحديث أنه يجب الحذر من إطلاق اللسان فيما إذا رأى الإنسان مبتلًى بالمعاصي؛ فلا يستبعد رحمة الله منه، فإن الله تعالى قد يتوب عليه.
فهؤلاء الذين شجوا نبيهم لما استبعد النبي ﷺ فلاحهم؛ قيل له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

---

(١) رواه البخاري في الصحيح عن أنس. (ق).
(٢) صحيح: رواه البخاري (١٤٨٢) ومواضع، ومسلم (١٣٩٢).

وفيه: عن ابن عمر، أنه سمعَ رسولَ الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر: «اللهم العن فُلانًا وفُلانًا»، بعد ما يقول: سمع الله لمن حـمـده، ربنا ولك الحمـد، فـأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وقال ابنُ إسحاق: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾[1] في عبادي، إلاَّ ما أمرتُك به فيهم.

قال المُصنِّفُ رحمـه الله تعالى: وفيه: عن ابن عمـر، أنه سمعَ رسولَ الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجـر: «اللهم العن فُلانًا وفُلانًا»، بعد ما يقول: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد»، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾[2].

والرجل المطيع الذي يمر بالعاصي من بني إسرائيل ويقول: «والله؛ لا يغفر الله لفلان. قال الله له: من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغـفر لفلان؟ قـد غفرت له وأحـبطت عملك»[3] فيجب على الإنسان أن يمسك اللسان لأن زلته عظيمة، ثم إننا نشاهد أو نسمع قومًا كانوا من أكفر عباد الله وأشدهم عداوة انقلبوا أولياء لله، فإذا كـان كذلك، فلماذا نستبعد رحمة الله من قوم كانوا عتاة؟ ومادام الإنسان لم يمت؛ فكل شيء ممكن، كما أن المسلم ـ نسأل الله الحماية ـ قد يزيغ قلبه لما كان فيه من سريرة فاسدة. فالمهم أن هذا الحديث يجب أن يتخذ عبرة للمعتبر في أنك لا تستبعد رحمة الله من أي إنسان كان عاصيًا.

قوله: «فنزلت»: الفاء للسببية، وعليه؛ فيكون سبب نزول هذه الآية هذا الكلام: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟».

قوله: «وفيه»: أي: الصحيح.

قوله: «إذا رفع رأسـه من الركوع في الركعـة الأخيرة من الفـجر»: قيَّد مكان الدعـاء من الصلوات بالفجر، ومكانه من الركعات بالأخيرة، ومكانه من الركعة بما بعد الرفع من الركوع.

قوله: «يقول: اللَّهم العن فلانًا وفلانًا»: اللعن: الطرد والإبعاد عن رحمة الله؛ أي: أبعدهم عن رحمتك، وطردهم منها. و «فلانًا وفلانًا»: بيَّنه في الرواية الثانية أنهم: صفوان بن أمية، وسهيل ابن عمرو، والحارث بن هشام.

قوله: «بعـدما يقول: سـمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحـمد»: أي: يقول: ذلك إذا رفع

---

(١) في قرة العيون: وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وقال تعالى: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] والآيات في هذا المعنى كثيـرة، والمقصود أن الذي له الأمر كله والملك كله لا يستـحق غيره شيئًا من العبادة، ولهذا المعنى قـال لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦] فالذي ليس له من الأمر شيء وهو خيرة الله من خلقه ما زال يدعو الناس أن يخلصوا العبادة للذي له الأمر كله وهو الله تعالى، فهذا دينه ﷺ الذي بعث به وأمر أن يبلغه أمته ويدعوهم إليه كما تقدم في باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله، فإياك أن تتبع سبيلاً غير سبيل المؤمنين الذي شرعه الله ورسوله لهم وخصهم به. (ق).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٤٠٧٠، ٤٥٥٩، ٧٣٤٦)، وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢١).

وفي رواية: يدعو على صَفوان بن أمية، وسُهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ .

وفي رواية: يدعو على صَفوان بن أمية، وسُهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾(١) .

قوله: (وفيه)، أي: في (صحيح البخاري)، ورواه النسائي.

قوله: (عن ابن عمر)، هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، صحابيٌ جليل: شهد له رسول الله ﷺ بالصلاح. مات سنة ثلاثٍ وسبعين في آخرها، أو أوّل التي تليها.

قوله: (أنه سمع رسول الله ﷺ): هذا القنوتُ على هؤلاء، بعد ما شُجَّ وكُسرت رباعيته يوم أُحد.

قوله: «اللهم العن فلانًا وفلانًا» قال أبو السعادات: أصلُ اللعن: الطردُ والإبعاد من الله.

فتقدم أن التوحيدين: توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات من أكبر براهينه وأضخمها. فالمتفرد بالخلق والتدبير، والمتوحد في الكمال المطلق من جميع الوجوه، هو الذي لا يستحق العبادة سواه.

وكذلك من براهين التوحيد معرفة أوصاف المخلوقين، ومن عبد مع الله، فإن جميع ما يعبد من دون الله من ملك وبشر، ومن شجر وحجر وغيرها كلهم فقراء إلى الله، عاجزون ليس بيدهم من النفع مثقال ذرة، ولا يخلقون شيئًا وهم يخلقون، ولا يملكون ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، والله تعالى هو الخالق لكل مخلوق، وهو الرازق لكل مرزوق، المدبر للأمور كلها، الضار النافع، المعطي المانع، الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه يرجع كل شيء وله يقصد ويصمد ويخضع كل شيء، فأي برهان أعظم من هذا البرهان الذي أعاده الله وأبداه في مواضع كثيرة من كتابه وعلى لسان رسوله، فهو دليل عقلي فطري كما أنه دليل سمعي نقلي على وجوب توحيد الله، وأنه الحق، ودليل كذلك وعلى بطلان الشرك.

رأسه وقال: سمع اللَّه لمن حمده، ربنا ولك الحمد.

قوله: فأنزل اللَّه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾: هنا قال: «**فأنزل**» وفي الحديث السابق قال: «**فنزلت**»، وكلها بالفاء، وعلى هذا يكون سبب نزول الآية دعوة النبي ﷺ على هؤلاء، وقوله: «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟**»، ولا مانع أن يكون لنزول الآية سببان. وقد أسلم هؤلاء الثلاثة وحسن إسلامهم رضي اللَّه عنهم؛ فتأمل الآن أن العداوة قد تنقلب ولاية؛ لأن القلوب بيد اللَّه - سبحانه وتعالى - ولو أن الأمر كان على ظن النبي ﷺ؛ لبقي هؤلاء على الكفر حتى الموت، إذ لو قبلت الدعوة عليهم، وطردوا عن الرحمة، لم يبق إلا العذاب.

ولكن النبي ﷺ ليس له من الأمر شيء؛ فالأمر كله للَّه، ولهذا هدى اللَّه هؤلاء القوم، وصاروا من أولياء اللَّه الذابين عن دينه، بعد أن كانوا من أعداء اللَّه القائمين ضده، واللَّه - سبحانه - يمنُّ على من يشاء من عباده.

وليس بعيدًا من ذلك قصة أصيرم بن عبد الأشهل الأنصاري، حيث كان معروفًا بالعداوة لما جاء به الرسول ﷺ، فلما جاءت وقعة أحد ألقى اللَّه الإسلام في قلبه دون أن يعلم به النبي ﷺ أو أحد من قومه،

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٠٧٠).

. . . .

ومن الخلق: السب والدعاء. وتقدم كلامُ شيخ الإسلام.

قوله: (فلانًا وفلانًا). يعني صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، كما بيَّنه في الرواية الآتية.

وفيه: جوازُ الدعاء على المشركين بأعيانهم في الصلاة، وأنَّ ذلك لا يضرُّ الصلاة.

قوله: (بعد ما يقول: سمع الله لمن حمده)، قال أبو السعادات: أي أجاب حمدَه وتقبَّله. وقال السُّهيلي: مفعولُ سمع محذوف؛ لأن السمع متعلقٌ بالأقوال والأصوات، دون غيرها. فاللام تُؤذِن بمعنى زائد، وهو الاستجابة للسمع. فاجتمع في الكلمة الإيجاز، والدلالة على الزائد، وهو الاستجابة لمن حمده.

وقال ابنُ القيم ما معناه: عُدِّي «سمع الله لمن حمده» باللام المتضمنة معنى: استجاب له. ولا حَذْف هناك، وإنما هو مضمَّن.

قوله: (ربَّنا ولك الحمد)، في بعض روايات البخاري، بإسقاط الواو. قال ابنُ دقيق العيد: كأنَّ إثباتها دالٌّ على معنى زائد؛ لأنه يكون التقدير: ربنا استجب ولك الحمد، فيشتمل على معنى الدعاء ومعنى الخبر.

قال شيخ الإسلام: والحمد ضدُّ الذم، والحمد يكون على محاسن المحمود مع المحبة له، كما أنَّ الذم يكون على مساوئه مع البغض له. وكذا قال ابنُ القيم، وفرَّق بينه وبين المدح: بأنَّ الإخبار عن محاسن الغير: إمَّا أنْ يكون إخباراً مجرَّداً عن حُبٍّ وإرادة، أو يكون مقروناً بحبه وإرادته. فإنْ كان الأول، فهو المدح. وإنْ كان الثاني، فهو الحمد. فالحمدُ: إخبارٌ عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه؛ ولهذا كان خبراً يتضمَّن الإنشاء، بخلاف المدح؛ فإنه خبرٌ مجرد. فالقائل، إذا قال: الحمدُ لله، أو قال: ربنا ولك الحمد. تضمنَّ كلامُه الخبرَ عن كلِّ ما يُحمد عليه تعالى، باسمٍ محيط متضمِّن لكلِّ فردٍ من أفراد الجملة المحقَّقة والمقدَّرة. وذلك يستلزم إثبات كلِّ كمال يُحمد عليه الرب تعالى؛ ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه، ولا تنبغي إلاَّ لمن هذا شأنه، وهو الحميد المجيد.

وفيه: التصريح بأنَّ الإمام يجمعُ بين التسميع والتحميد، وهو قول الشافعي وأحمد، وخالف في ذلك مالكُ وأبو حنيفة، فقالا: يقتصرُ على سمع الله لمن حمده.

قوله: (وفي رواية: يدعو على صفوان بن أُميَّة، وسُهيل بن عمرو، والحارث بن هشام). وذلك لأنهم رؤوسُ المشركين يوم أحد: هم وأبو سفيان بن حرب. فما استُجيب له ﷺ فيهم، بل أنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٨] فتاب عليهم، فأسلموا وحسُن إسلامهم. وفي هذا كله: معنى شهادة أنْ لا إله إلاَّ الله، الذي له الأمر كلُّه،

وخرج للجهاد وقتل شهيداً، فلما انتهت المعركة جعل الناس يتفقدون قتلاهم؛ فإذا هو في آخر رمق، فقالوا: ماجاء بك يا فلان؟ أحدب على قومك، أم رغبة في الإسلام؟ قال: بل رغبة في الإسلام، وإني أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأن محمداً رسول اللّه؛ فأخبروا عني رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال: «هو من أهل الجنة»[1]؛ فهذا الرجل لم يصلِّ للّه ركعة واحدة، ومع هذا جعله اللّه من أهل الجنة؛ فاللّه حكيم، يهدي

(١) رواه أحمد (٢٣١٢٣).

وفيه: عن أبي هريرة، قال: قام رسولُ الله ﷺ حين أنزل الله عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] فقال: «يا معشر قريش ـ أو كلمةً نحوها ـ اشتروا أنفسكم؛ لا أُغني عنكم من الله شيئًا، يا عباسُ بن عبد المطلب، لا أُغني عنك من الله شيئًا، يا صفيةُ عمةَ رسول الله، لا أُغني عنك من الله شيئًا. يا فاطمةُ بنت محمد، سَليني من مالي ما شئت، لا أُغني عنك من الله شيئًا»[1].

يهدي من يشاء بفضله ورحمته، ويضلُّ من يشاء بعدله وحكمته. فهو المستحق أنْ يُعبد وحده.

وفي هذا من الحجج والبراهين ما يُبيِّن بُطلان ما يعتقده عبَّادُ القبور، في الأولياء والصالحين بل في الطواغيت من أنهم ينفعون من دعاهم، ويمنعون من لاذ بحماهم. فسبحان من حال بينهم وبين فهم الكتاب. وذلك عدلُه سبحانه، وهو الذي يحول بين المرء وقلبه، وبه الحولُ والقوة.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وفيه: عن أبي هريرة، قال: قام رسولُ الله ﷺ حين أنزل الله عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] قال: «يا معشر قريش ـ أو كلمةً نحوها ـ اشتروا أنفسكم؛ لا أُغني عنكم من الله شيئًا، يا عباسُ بن عبد المطلب، لا أُغني عنك من الله شيئًا، يا صفيةُ عمةَ رسول الله، لا أُغني عنك من الله شيئًا. يا فاطمةُ بنت محمد، سَليني من مالي ما شئت، لا أُغني عنك من الله شيئًا».

قوله: (وَفيه)، أي: (صحيح البخاري).

قوله: (عن أبي هريرة). اختُلف في اسمه، وصحَّح النوويُّ أنَّ اسمه: عبد الرحمن بن صخر؛ كما رواه الحاكم في (المستدرك)، عن أبي هريرة، قال: كان اسمي في الجاهلية: عبد شمس بن صخر، فسُمِّيتُ في الإسلام عبد الرحمن.

وروىٰ الدُّولابي بإسناده، عن أبي هريرة، أنَّ النبي ﷺ سماه عبد الله[2].

من يشاء لحكمة، ويضل من يشاء لحكمة؛ فالمهم أننا لا نستبعد رحمة اللَّه ـ عز وجل ـ من أي إنسان.

قوله: «قام»: أي: خطيبًا.

قوله: «أنزل عليه»: أي: أنزل عليه بواسطة جبريل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

قوله: ﴿أَنذِرْ﴾: أي: حذِّر وخوِّف، والإنذار: الإعلام المقرون بتخويف.

قوله: ﴿عَشِيرَتَكَ﴾: العشيرة: قبيلة الرجل من الجد الرابع فما دون.

قوله: ﴿الأَقْرَبِينَ﴾: أي: الأقرب فالأقرب؛ فأول من يدخل في عشيرة الرجل أولاده، ثم آباؤه، ثم إخوانه، ثم أعمامه، وهكذا.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٧٥٣، ٣٥٢٧، ٤٧٧١)، ومسلم (٢٠٦).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٨٠)، والحافظ في تهذيب التهذيب (١٢/ ٢٩١)، والإصابة (٧/ ٤٢٦)، والسيوطي في تدريب الراوي (٢/ ٢٨٤)، وانظر ترجمته مفصلة في الإصابة (١٢/ ٦٣).

. . . .

وهو دَوْسيٌّ، من فُضلاء الصحابة وحفّاظهم. حفظ عن النبي ﷺ أكثر مما حفظه غيرُه[1]، مات سنة سبعٍ أو ثمان، أو تسع وخمسين، وهو ابنُ ثمانٍ وسبعين سنة.

قوله: (قام رسول الله ﷺ) في الصحيح من رواية ابن عباس: صعد رسولُ الله ﷺ على الصفا[2]. قوله: حين أنزل الله عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾. عشيرةُ الرجل: هم بنو أبيه الأدنون أو قبيلته؛ لأنهم أحق الناس ببرِّك وإحسانك الديني والدنيوي؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]. وقد أمره الله تعالى أيضًا بالنِّذارة العامة، كما قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس: ٦] ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

قوله: «يا معشرَ قريش»: المعشر: الجماعة.

قوله: «أو كلمة نحوها»: هو بنصب كلمة؛ عطفًا على ما قبله.

قوله: «اشتروا أنفسكم»: أي: بتوحيد الله، وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له، وطاعته فيما أمر به والانتهاء عما نهى عنه؛ فإنَّ ذلك هو الذي يُنجي من عذاب الله. لا الاعتماد على الأنساب والأحساب؛ فإنَّ ذلك غيرُ نافع عند رب الأرباب.

ويؤخذ من هذا أن الأقرب فالأقرب أولى بالإنذار؛ لأن الحكم المعلق على وصف يقوى بقوة هذا الوصف، وذلك أن الوصف الموجب للحكم كلما كان أظهر وأبين؛ كان الحكم فيه أظهر وأبين.

وقوله: «حين أُنزل عليه»: يفيد أنه لم يتأخر ﷺ، بل قام، فقال: «يا معشر قريش!» أي: يا جماعة قريش. وقريش: هو فهر بن النضر بن مالك، أحد أجداد الرسول ﷺ.

قوله: «أو كلمة نحوها»: أي: أو قال كلمة نحوها، أي شبهها، وهذا من احتراز الرواة أنهم إذا شكُّوا أدنى شك. قالوا: أو كما قال، أو كلمة نحوها، وما أشبه ذلك! وعليه فـ «أو»: للشك والتردد.

قوله: «اشتروا أنفسكم»: أي: أنقذوها؛ لأن المشتري نفسه كأنه أنقذها من هلاك، والمشتري راغب، ولهذا عبر بالاشتراء كأنه يقول: اشتروا أنفسكم راغبين. وفي قوله: «اشتروا أنفسكم» من الحض على هذا الأمر ما هو ظاهر؛ لأن المشتري يكون راغبًا.

قوله: «لا أغني عنكم من اللَّه شيئًا»: هذا هو الشاهد؛ أي: لا أدفع أو لا أنفع، أي: لا

---

(١) روى البخاري في أول البيوع عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: «إنكم تقولون: أن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ وتقولون: ما بال المهاجرين والأنصار لا يحدثون عن رسول الله ﷺ بمثل حديث أبي هريرة؟ وإن إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق. وكنت ألزم رسول الله على ملء بطني؛ فأشهد إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا، وكان يشغل إخواني من الأنصار عمل أموالهم. وكنت امرءًا مسكينًا من مساكين الصفة أعي حين ينسون. وقد قال رسول الله ﷺ في حديث يحدثه: «إنه لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضي مقالتي هذه ثم يجمع إليه ثوبه إلا وعى ما أقول». فبسطت نمرة عليَّ حتى إذا قضى رسول الله مقالته جمعتها إلى صدري. فما نسيت من مقالة رسول الله ﷺ تلك من شيء». (ق).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٥).

. . . .

قوله: «لا أُغني عنكم من الله شيئًا»[١]: فيه حجةٌ على من تعلّق على الأنبياء والصالحين، ورغب إليهم ليشفعوا له وينفعوه، أو يدفعوا عنه.

فإنَّ ذلك هو الشركُ الذي حرَّمه الله تعالى، وأقام نبيه ﷺ بالإنذار عنه؛ كما أخبر تعالى عن المشركين، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. فأبطل الله ذلك، ونزّه نفسه عن هذا الشرك. وسيأتي تقريرُ هذا المقام إن شاء الله تعالى.

وفي (صحيح البخاري): «يا بني عبد مناف، لا أُغني عنكم من الله شيئًا».

قوله: «يا عباسُ بنَ عبد المطلب» بنصب ابن، ويجوز في عباس الرفعُ والنصب، وكذا في قوله: «يا صفيةُ عمةَ رسول الله»، و«يا فاطمة بنتَ محمد».

قوله: «سَليني من مالي ما شئت»[٢]. بيَّن ﷺ أنه لا يُنجي من عذاب الله إلاَّ الإيمان، والعمل

أنفعكم بدفع شيء عنكم دون اللَّه، ولا أمنعكم من شيء أراده اللَّه لكم؛ لأن الأمر بيد اللَّه، ولهذا أمر اللَّه نبيه بذلك؛ فقال: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢١، ٢٢].

قوله: «يا عباس بن عبد المطلب»: هو عم النبي ﷺ، وعبد المطلب جد النبي ﷺ، وعباس؛ بالضم؛ لأن المنادي إذا كان معرفة يبنى على الضم، ونعته إذا كان مضافًا ينصب، وهنا ابن عبد المطلب مضاف، ولهذا نصب.

---

(١) في قرة العيون: هذا هو معنى ما تقدم من أنه تعالى هو المتصرف في خلقه بما شاء مما اقتضته حكمته في خلقه وعلمه بهم، والعبد لا يعلم إلا ما علمه الله، ولا ينجو أحد من عذابه وعقابه إلا بإخلاص العبادة له وحده والبراءة من عبادة ما سواه. كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢] والنبي ﷺ في هذا الحديث أنذر الأقربين نذارة خاصة وأخبر أنه لا يغني عنهم من الله شيئًا، وبلغهم وأعذر إليهم. فأنذر قريشًا ببطونها وقبائل العرب في مواسمها؛ وأنذر عمه وعمته وابنته وهم أقرب الناس إليه، وأخبر أنه لا يغني عنهم من الله شيئًا إذا لم يؤمنوا به ويقبلوا ما جاء به من التوحيد وترك الشرك به. وسائر شرائع الإسلام وعباداته. (ق).

(٢) في قرة العيون: لأن هذا هو الذي يقدر عليه ﷺ وما كان أمره إلى الله سبحانه فلا قدرة لأحد عليه كما في هذا الحديث، ولما مات أبو طالب وكان يحوط رسول الله ﷺ ويحميه، ولم ينكر ملة عبد المطلب من الشرك بالله وقال ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] فأخبر أن أبا طالب من أصحاب النار لما مات على غير شهادة أن لا إله إلا الله، فلم ينفعه حمايته النبي ﷺ من أن يكون من المشركين ولا الاعتراف بأن النبي ﷺ على الحق بدون البراءة من الشرك، لأنه لم يبرأ من ملة أبيه فكل تعلق على غير الله من طلب شفاعة أو غيرها شرك بالله يكون عليه وبالاً في الدنيا والآخرة، والشفاعة لا تكون إلا لأهل الإخلاص خاصة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١] والآيات في هذا المعنى كثيرة وكذلك الأحاديث والله أعلم. وسيأتي في باب الشفاعة إن شاء الله تعالى. (ق).

. . . .

الصالح. وفيه: أنه لا يجوزُ أنْ يُسأل العبدُ إلاَّ ما يقدر عليه، من أمور الدنيا. وأمَّا الرحمة والمغفرة، والجنة والنجاة من النار ونحو ذلك من كلِّ ما لا يقدر عليه إلاَّ الله، فلا يجوز أنْ يُطلب إلاَّ منه.

فإنَّ ما عند الله لا يُنال إلاَّ بتجريد التوحيد، والإخلاص له بما شرعه ورضيه لعباده أنْ يتقربوا إليه به. فإذا كان لا ينفع ابنته وعمَّه وعمَّته وقرابته إلاَّ ذلك، فغيرُهم أولىٰ وأحرىٰ. وفي قصة عمه أبي طالب مُعتبر.

فانظر إلىٰ الواقع من كثيرٍ من الناس: من الالتجاء إلىٰ الأموات، والتوجُّه إليهم بالرغبات والرهبات. وهم عاجزون لا يملكون لأنفسهم ضراً ولانفعًا، فضلاً عن غيرهم، يتبين لك أنهم ليسوا علىٰ شيء ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]. أظهر لهم الشيطانُ الشرك في قالب محبة الصالحين، وكلُّ صالحٍ يبرأُ إلىٰ الله من هذا الشرك في الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد.

ولا ريب أنَّ محبة الصالحين: إنما تحصلُ بموافقتهم في الدين، ومتابعتهم في طاعة رب العالمين. لا باتخاذهم أنداداً من دون الله، يُحبونهم كحب الله، إشراكًا بالله وعبادة لغير الله، وعداوةً لله ورسله والصالحين من عباده؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ

فإن قيل: كيف يقول النبي ﷺ: عبد المطلب مع أنه لا يجوز أن يضاف عبد إلا إلىٰ اللّه ـ عز وجل؟

فالجواب: إن هذا ليس إنشاء، بل هو خبر؛ فاسمه عبد المطلب، ولم يسمِّه النبي ﷺ، لكن اشتهر بعبد المطلب، ولهذا انتمىٰ إليه الرسول ﷺ؛ فقال:

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب(١)

فلو فرض أن لك أب يسمىٰ عبد المطلب، أو عبد العزىٰ؛ فإنك تنتسب إليه، ولا يعد هذا إقراراً، ولكنه خبر عن أمر واقع. كما لو قلت: كفر فلان، ونافق فلان، وما أشبه ذلك، ولكن إذا كان موجوداً غيرنا اسمه إذا كان لا يجوز.

قوله: «لا أغني عنك من الله شيئًا»: أي: لا أنفعك بشيء من دون اللّه، ولا أمنعك من شيء أراده اللّه لك؛ فالنبي ﷺ لا يغني عن أحد شيئًا حتىٰ عن أبيه وأمه.

قوله: «يا صفية عمة رسول الله»: يقال في إعرابها كما قيل في عباس بن عبد المطلب.

قوله: «يا فاطمة بنت محمد! سليني من مالي ما شئت»: أي: اطلبيني من مالي ما شئت؛ فلن أمنعك؛ لأنه ﷺ مالك لماله، ولكن بالنسبة لحق اللّه قال: «**لا أغني عنك من اللّه شيئًا**».

فهذا كلام النبي ﷺ لأقاربه الأقربين: عمه، وعمته، وابنته، فما بالك بمن هم أبعد؟ فعدم إغنائه عنهم شيئًا من باب أولىٰ.

فهؤلاء الذين يتعلقون بالرسول ﷺ ويلوذون به ويستجيرون به الموجودون في هذا الزمن وقبله قد غرَّهم الشيطان واجتالهم عن طريق الحق؛ لأنهم تعلقوا بما ليس بمتعلق؛ إذ الذي ينفع بالنسبة

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٦٤) ومواضع، ومسلم (١٧٧٦)، والترمذي (١٦٨٨)، وأحمد (١٨٠٠٠) ومواضع.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين(١).

شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

قال العلاَّمة ابنُ القيم في هذه الآية ـ بعد كلام سبق ـ: ثم نفى أنْ يكون قال لهم غيرَ ما أُمر به، وهو محضُ التوحيد؛ فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم، وأنه بعد الوفاة لا اطلاع له عليهم، وأنَّ الله عز وجل المنفردُ بعد الوفاة بالاطلاع عليهم، فقال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وصَفَه سبحانه: بأنَّ شهادته فوق كلِّ شهادة، وأعم. انتهى ملخصًا.

قلتُ: ففي هذا بيانُ أنَّ المشركين خالفوا ما أمر الله به رسله: من توحيده الذي هو دينهم، الذي اتفقوا عليه ودعوا الناس إليه، وفارقوهم فيه إلاَّ من آمن. فكيف يُقال لمن دان بدينهم، وأطاعهم فيما أمروا به من إخلاص العبادة لله وحده: إنه قد تنقَّصهم بهذا التوحيد الذي أطاع به ربه، واتبع فيه رسله عليهم السلام، ونزَّه به ربَّه عن الشرك الذي هو هضمٌ للربوبية، وتنقصٌ للإلهية، وسوءُ ظن برب العالمين؟!

والمشركون هم أعداءُ الرسل وخصماؤهم في الدنيا والآخرة، وقد شرعوا لأتباعهم أن يتبرؤوا من كلِّ مشرك، ويكفروا به، ويبغضوه ويعادوه في ربهم ومعبودهم: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وإذا كان أشرف الخلق على الإطلاق لا يملك نفع أقرب الخلق إليه وأمسهم به رحما فكيف بغيره؟ فتبًّا لمن أشرك بالله وساوى به أحدًا من المخلوقين، لقد سلب عقله بعد ما سلب دينه، فنعوت الباري تعالى وصفات عظمته وتوحده في الكمال المطلق أكبر برهان على أنه لا يستحق العبادة إلا هو.

للرسول ﷺ هو الإيمان به واتباعه.

أما دعاؤه والتعلق به ورجاؤه فيما يؤمل، وخشيته فيما يخاف منه؛ فهذا شرك بالله، وهو مما يبعد عن الرسول ﷺ، وعن النجاة من عذاب الله.

ففي الحديث امتثال النبي ﷺ لأمر ربه في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

فإنه قام بهذا الأمر أتم القيام؛ فدعا وعمَّ وخصَّص، وبين أنه لا ينجي أحدًا من عذاب الله بأي وسيلة، بل الذي ينجي هو الإيمان به واتباع ما جاء به.

وإذا كان القرب من النبي ﷺ لا يغني عن القريب شيئًا؛ دل ذلك على منع التوسل بجاه النبي ﷺ؛ لأن جاه النبي ﷺ لا ينتفع به إلا النبي ﷺ، ولهذا كان أصح قولي أهل العلم تحريم التوسل بجاه النبي ﷺ.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين: وهما آيتا الأعراف، وسبق ذلك في أول الباب، والاستفهام فيهما

---

(١) يعني قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ [الأعراف: ١٩٢] وقوله ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣] لأنه إذا كان النبي ﷺ وهو سيد ولد آدم لا يغني عن قرابته شيئًا. فغيره أولى أن يعجز عن ضر أو نفع لنفسه أو لغيره. (ق).

الثانية: قصة أُحد.

الثالثة: قُنُوتُ سيد المرسلين، وخلفه سادات الأولياء يُؤَمِّنون في الصلاة.

الرابعة: أن المدعوَّ عليهم كفارٌ.

الخامسة: أنَّهُم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار، منها: شجُّهم نبيَّهم وحرصهم على قتله، ومنها: التمثيل بالقتلى مع أنَّهُم بنو عمِّهِم.

السادسة: أنزل الله عليه في ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

....

للتوبيخ والإنكار، وكذلك سبق تفسير الآية الثالثة آية فاطر.

الثانية: قصة أحد: يعني: حيث شُجَّ النبي ﷺ... الحديث.

الثالثة: قنوت سيد المرسلين.... إلخ: أراد المؤلف بهذه المسألة أن النبي ﷺ سيد المرسلين، وأصحابه سادات الأولياء، ومع هذا ما أنقذوا أنفسهم، فكيف ينقذون غيرهم؟! وليس مراده رحمه اللّه مجرد إثبات القنوت والتأمين عليه، ولهذا جاءت العبارات بسيد وسادات؛ فلا أحد من هذه الأمة أقرب إلى اللّه من الرسول وأصحابه، ومع ذلك يلجؤون إلى اللّه ـ سبحانه ـ في كشف الكربات، ومن كانت هذه حاله؛ فكيف يمكن أن يُلجأ إليه في كشف الكربات؟! فليس مراد المؤلف إثبات مسألة فقهية.

الرابعة: أن المدعو عليهم كفار: تؤخذ من قوله تعالى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾؛ فهذا دليل على أنهم الآن ليسوا على حال مُرضية، ومن المعلوم أن صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام وقت الدعاء عليهم كانوا كفاراً.

وهذه المسألة ـ أي أن المدعو عليهم كفار ـ ترمي إلى أن الرسول ﷺ وإن كان يرى أنه دعا عليهم بحق؛ فقد قطع اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ أن يكون له من الأمر شيء؛ لأنه قد يقول قائل: إذا كانوا كفاراً؛ أليس يملك الرسول ﷺ أن يدعو عليهم؟

نقول: حتى في هذه الحال لا يملك من أمرهم شيئًا، هذا وجه قول المؤلف: أن المدعو عليهم كفار، وليس مراده الإعلام بكفرهم؛ لأن هذا معلوم لا يستحق أن يُعنَوْن له، بل المراد في هذه الحال الذي كان هؤلاء كفاراً لم يملك النبي ﷺ شيئًا بالنسبة إليهم.

الخامسة: أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار...: أي: أنهم مع كفرهم كانوا معتدين، ومع ذلك قيل له في حقهم: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾: وإلا؛ فهم شجوا النبي ﷺ، ومثلوا بالقتلى مثل حمزة بن عبد المطلب، وكذلك أيضًا حرصوا على قتل النبي ﷺ، مع أن كل هؤلاء فيهم من بني عمهم، وفيهم من الأنصار.

السادسة: أنزل الله عليه في ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾: أي: مع ما تقدم من الأمور التي تقتضي أن يكون للنبي ﷺ حق بأن يدعو عليهم أنزل اللّه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾؛ فالأمر للّه وحده، فإذا كان الرسول ﷺ قد قطع عنه هذا الشيء؛ فغيره من باب أولى.

السابعة: قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يعذبهم﴾ فتاب عليهم فآمنوا.
الثامنة: القنوت في النوازل.
التاسعة: تسمية المدعوِّ عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم.

....

السابعة: قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، فتاب عليهم، فآمنوا؛ وهذا دليل على كمال سلطان الله وقدرته؛ فهؤلاء الذين جرى منهم ما جرى تاب الله عليهم وآمنوا؛ لأن الأمر كله بيده سبحانه، وهو الذي يذل من يشاء ويعز من يشاء، ومن ذلك ما جرى من عمر رضي الله عنه قبل إسلامه من العداوة الظاهرة للإسلام، وما جرى منه بعد إسلامه من الولاية والنصرة لدين الله تعالى؛ فرسول الله ﷺ ومن دونه لا يستطيعون أن يغيروا شيئًا من أمر الله.

الثامنة: القنوت في النوازل. وهذه هي المسألة الفقهية، فإذا نزل بالمسلمين نازلة؛ فإنه ينبغي أن يدعى لهم حتى تنكشف، وهذا القنوت مشروع في كل الصلوات. كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه أحمد وغيره[1]؛ إلا أن الفقهاء رحمهم الله استثنوا الطاعون، وقالوا: لا يقنت له لعدم ورود ذلك، وقد وقع في عهد عمر[2] رضي الله عنه ولم يقنت؛ ولأنه شهادة فلا ينبغي الدعاء برفع سبب الشهادة.

وظاهر السنة أن القنوت إنما يشرع في النوازل التي تكون من غير الله؛ مثل: إيذاء المسلمين والتضييق عليهم، أما ما كان من فعل الله؛ فإنه يشرع له ما جاءت به السنة، مثل الكسوف؛ فيشرع له صلاة الكسوف، والزلازل شرع لها صلاة الكسوف كما فعل ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: هذه صلاة الآيات، والجدب يشرع له الاستسقاء، وهكذا. وما علمت لساعتي هذه أن القنوت شُرع لأمر نزل من الله، بل يُدعى له بالأدعية الواردة الخاصة، لكن إذا ضيق على المسلمين وأوذوا وما أشبه ذلك؛ فإنه يقنت اتباعًا للسنة في هذا الأمر. ثم من الذي يقنت: الإمام الأعظم، أو إمام كل مسجد، أو كل مصلٍّ؟ المذهب: أن الذي يقنت هو الإمام الأعظم فقط الذي هو الرئيس الأعلى للدولة. وقيل: يقنت كل إمام مسجد. وقيل: يقنت كل مصلٍّ، وهو الصحيح؛ لعموم قول النبي ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[3]، وهذا يتناول قنوته ﷺ عند النوازل.

التاسعة: تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم: وهم: صفوان بن أمية، وسهيل ابن عمرو، والحارث بن هشام؛ فسماهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، لكن هل هذا مشروع أو جائز؟

---

(١) حسن: رواه أبو داود (١٤٤٣)، وأحمد (٢٧٤١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ولفظه: قنت رسول الله ﷺ شهرًا متتابعًا في الظهر والعصر والمغرب والعشاء وصلاة الصبح في دبر كل صلاة إذا قال سمع الله لمن حمده من الركعة الأخرة يدعو على أحياء من بني سليم على رعل وذكوان وعصية ويؤمن من خلفه والحديث حسنه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (١٢٩٠).
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٢٩، ٥٧٣٠)، ومسلم (٢٢١٩).
(٣) صحيح: رواه البخاري (٦٣١، ٦٠٠٨، ٧٢٤٦).

العاشرة: لعنُ المعيَّن في القنوت.

الحادية عشرة: قصتة ﷺ لما أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾.

وكذلك صفات المخلوقات كلها وما هي عليه من النقص والحاجة والفقر إلى ربها في كل شؤونها وأنه ليس لها من الكمال إلا ما أعطاها ربها من أعظم البراهين على بطلان إلهية شيء منها، فمن عرف الله وعرف الخلق اضطرته هذه المعرفة إلى عبادة الله وحده، وإخلاص الدين له والثناء عليه، وحمده وشكره بلسانه وقلبه وأركانه وانصرف تعلقه بالمخلوقين خوفًا ورجاء وطمعًا والله أعلم.

الجواب: هذا جائز، وعليه، فإذا كان في تسمية المدعو عليهم لمصلحة؛ كانت التسمية أولى، ولو دعا إنسان لأناس معينين في الصلاة جاز؛ لأنه لا يُعَدُّ من كلام الناس بل هو دعاء، والدعاء مخاطبة اللّه تعالى، ولا يدخل في عموم قوله ﷺ: **«إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس»** [١].

مسألة: هل الذي نهى عنه الرسول ﷺ الدعاء أو لعن المعينين؟

الجواب: المنهي عنه هو لعن الكفار في الدعاء على وجه التعيين، أما لعنهم عمومًا؛ فلا بأس به، وقد ثبت عن أبي هريرة أنه كان يقنت ويلعن الكفرة [٢] عمومًا، ولا بأس بدعائنا على الكافر بقولنا: اللّهم أرح المسلمين منه، واكفهم شره، واجعل شره في نحره، ونحو ذلك.

أما الدعاء بالهلاك لعموم الكفار؛ فإنه محل نظر، ولهذا لم يدع النبي ﷺ على قريش بالهلاك، بل قال: **«اللّهم عليك بهم، اللّهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف»** [٣]، وهذا دعاء عليهم بالتضييق، والتضييق قد يكون من مصلحة الظالم بحيث يرجع إلى اللّه عن ظلمه. فالمهم أن الدعاء بالهلاك لجميع الكفار عندي تردد فيه. وقد يستدل بدعاء خبيب حيث قال: **«اللّهم احصهم عددًا، ولا تبق منهم أحدًا»** [٤] على جواز ذلك؛ لأنه وقع في عهد الرسول ﷺ ولأن الأمر وقع كما دعا؛ فإنه ما بقي منهم أحد على رأس الحول، ولم ينكر اللّه تعالى ذلك، ولا أنكره النبي ﷺ بل إنَّ إجابة اللّه دعاءه يدل على رضاه به وإقراره عليه. فهذا قد يُستدل به على جواز الدعاء على الكفار بالهلاك، لكن يحتاج أن يُنظر في القصة؛ فقد يكون لها أسباب خاصة لا تتأتى في كل شيء. ثم إن خبيبًا دعا بالهلاك لفئة محصورة من الكفار لا لجميع الكفار. وفيه أيضًا ـ إن صح الحديث ـ: دعاؤه على عتبة بن أبي لهب: **«اللّهم سلط عليه كلبًا من كلابك»** [٥]، فيه دليل على الدعاء بالهلاك، لكن هذا على شخص معين لا على جميع الكفار.

العاشرة: لعن المعين في القنوت: هذا غريب، فإن أراد المؤلف رحمه اللّه أن هذا أمر وقع، ثم نهى عنه؛ فلا

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٣٧)، وأبو داود (٠٣٠ ٥) ومواضع، والنسائي (١٢١٨)، وأحمد (٢٣٢٥٠) ومواضع.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧٩٧)، ومسلم (٦٧٦). (٣) متفق عليه: وقد تقدم.

(٤) صحيح: رواه البخاري (٣٠٤٥، ٣٩٨٩، ٤٠٨٦).

(٥) حسن: رواه البيهقي في سننه الكبرى (٥/٢١١)، والحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/٢٤٩)، وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (٤/٣٩) وقال: وهو حديث حسن أخرجه الحاكم من طريق أبي نوفل بن أبي عقرب عن أبيه.

الثانيـة عشـرة: جدُّه ﷺ في هذا الأمر، بحـيث فعل مـا نُسب بسببه إلى الجنون، وكذلك لو يفعله مسلم الآن.

الثالثة عشرة: قوله للأبعد والأقرب: «لا أغني عـنك من الله شيئًا» حتى قال: «يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئًا» فإذا صرح ﷺ وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني شيئًا عـن سيدة نسـاء العالمين، وآمن الإنسان أنَّه ﷺ لا يقول إلا الحق، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواصِّ الناس اليوم، تبيَّن له التوحيد وغربة الدِّين.

إشكال، وإن أراد أنه يستفاد من هذا جواز لعن المعين في القنوت أبدًا؛ فهذا فيه نظر لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك.

الحادية عشرة: قصته ﷺ لما أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾: وهي أنه لما نزلت عليه الآية نادى قريشًا؛ فعمَّ، ثم خصَّص، فامتثل أمر اللَّه في هذه الآية.

الثانية عـشرة: جده ﷺ في هذا الأمر، بحيث فعل ما نُسب بسببه إلى الجنون: أي: اجتهاده ﷺ في هذا الأمر، بحيث قالوا: إن محمدًا جُنَّ، كيف يجمَعنا وينادينا هذا النداء؟

وقوله: «وكذلك لو يفعله مسلم الآن»: أي: لو أَن إنسانًا جمع الناس، ثم قام يحذرهم كتحذير النبي ﷺ؛ لقالوا: مجنون، إلا إذا كان معتادًا عند الناس، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [النور: ٤٤]؛ فهذا يختلف باختلاف البلاد والزمان، ثم إنه يجب على الإنسان أن يبذل جهده واجتهاده في الدعوة إلى اللَّه بالحكمة والموعظة الحسنة، والنبي ﷺ قام بهذا الأمر ولم يبالِ بما رميَ به من الجنون.

الثالثة عشرة: قوله للأبعد والأقرب: «لا أغني عنك من اللَّه شيئًا...»:

صدق رحمه اللَّه فيما قال؛ فإنه إذا كان هذا القائل سيد المرسلين؛ وقاله لسيدة نساء العالمين، ثم نحن نؤمن أن الرسول ﷺ لا يقول إلا الحق، وأنه لا يغني عن ابنته شيئًا؛ تبين لنا الآن أن ما يفعله خواص الناس ترك للتوحيد؛ لأنه يوجد أناس خواص يرون أنفسهم علماء، ويراهم من حولهم علماء وأهلاً للتقليد، يدعون الرسول ﷺ لكشف الضر وجلب النفع دعوة صريحة، ويرددون:

يا أكرم الخلق مـا لي من ألوذ به ... سـواك عند حلول الحادث العـمم

وغير ذلك من الشرك، وإذا أنكر عليهم ذلك ردوا على المنكر بأنه لا يعرف حق الرسول ﷺ ومقامه عند اللَّه، وأنه سيد الكون، وما خلقت الجن والإنس إلا من أجله، وأنه خلق من نور العرش، ويُلبِّسون بذلك على العامة، فيصدقهم البعض لجهلهم، ولو جاءهم من يدعوهم إلى التوحيد لم يستجيبوا له؛ لأنه سيدهم وعالمهم على خلاف التوحيد، ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥]، ثم إن المؤمن عاطفته وميله للرسول ﷺ أمر لا ينكر، لكن الإنسان لا ينبغي له أن يحكم العاطفة، بل يجب عليه أن يتبع ما دل عليه الكتاب والسنة وأيده العقل الصريح السالم من الشبهات والشهوات.

ولهذا نعى اللَّه ـ سبحانه ـ على الكفار الذين اتبعوا ما ألفوا عليه آباءهم بأنهم لا يعقلون، وكلام المؤلف

١٥ـ باب
قول الله تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾(١) [سبأ: ٢٣]

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]:

قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾: أي: زال الفزع عنها. قاله ابنُ عباس، وابن عمر، وأبوعبدالرحمن السُّلمي، والشعبي، والحسن وغيرهم(٢).

حق؛ فإن من تأمل ما عليه الناس اليوم في كثير من البلدان الإسلامية تبين له ترك التوحيد وغربة الدين.

مناسبة الترجمة: أن هذا من البراهين الدالة على أنه لا يستحق أحد أن يكون شريكًا مع اللّه؛ لأن الملائكة ـ وهم أقرب ما يكون من الخلق للّه عز وجل، ما عدا خواص بني آدم ـ يحصل منهم عند

---

(١) في قرة العيون: وهذه الآيات تقطع عروق الشرك بأمور أربعة:

(الأول): أنهم لا يملكون مثقال ذرة مع الله والذي لا يملك مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض لا ينفع ولا يضر، فالله تعالى هو الذي يملكهم ويدبرهم ويتصرف فيهم وحده.

(الثاني) قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ [سبأ: ٢٢] أي في السموات والأرض، أي وما لهم شرك مثقال ذرة من السموات والأرض.

(الثالث) قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢] والظهير المعين؛ فليس لله معين من خلقه، بل هو الذي يعينهم على ما ينفعهم لكمال غناه عنهم، وضرورتهم إلى ربهم فيما قل وكثر من أمور دنياهم وأخراهم.

(الرابع) قوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣] فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه. وأخبر تعالى أن من اتخذ شفيعًا من دونه حرم شفاعة الشفعاء، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] لأن اتخاذ الشفعاء شرك لقوله تعالى في حقهم: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ والمشرك منفية الشفاعة في حقه كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤] وذلك أن متخذ الشفيع لا بد أن يرغب إليه ويدعوه ويرجوه ويخافه ويحبه لما يؤمله منه وهذه من أنواع العبادة التي لا يصرف منها شيء لغير الله وذلك هو الشرك الذي ينافي الإخلاص. (ق).

(٢) ذكره عن ابن مسعود من عدة طرق، وساق بسنده حديث أبي هريرة ﷺ الذي رواه البخاري الآتي بعد صفحة. وقد قال البخاري في تفسير سورة الحجر عن علي بن عبد الله. قلت لسفيان: إن إنسانًا روى عنك عن عمرو عن عكرمة عن أبي هريرة أنه قرأ ﴿فرغ﴾ بضم الفاء والراء المثقلة المهملة وبالغين المعجمة فقال سفيان: هكذا قرأ عمرو - يعني ابن دينار -. فلا أدري سمعه هكذا أم لا؟ قال الحافظ: وهذه القراءة رويت عن الحسن وقتادة ومجاهد. والقراءة المشهورة بالزين والعين المهملة. وقرأها ابن عامر مبنيًا للفاعل. ومعناه بالزاء والعين المهملة: أدهش الفزع عنهم. ومعنى التي بالراء والغين المعجمة: ذهب عن قلوبهم ما حل فيها. (ق).

. . . .

وقال ابنُ جرير: قال بعضهم: الذي فُزِّعَ عن قلوبهم: الملائكة. قالوا: وإنما فزِّع عن قلوبهم، من غَشْية تصيبهم عند سماعهم كلام الله بالوحي.

وقال ابن عطية: في الكلام حذفٌ يدلُّ عليه الظاهر. كأنه قال: ولا هم شفعاءُ كما تزعمون أنتم، بل هم عَبَدَةٌ مسلمون أبدًا، يعني منقادون. حتىٰ إذا فُزِّع عن قلوبهم، والمراد: الملائكة. علىٰ ما اختاره ابنُ جرير، وغيره.

قال ابن كثير: وهو الحق الذي لا مِرْية فيه؛ لصحة الأحاديث فيه والآثار.

وقال أبو حيان: تظاهرت الأحاديثُ عن رسول الله ﷺ أنَّ قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ إنما هي في الملائكة، إذا سمعت الوحيَ إلىٰ جبريل يأمره الله به، سمعت كجرٍّ سلسلة الحديد علىٰ الصَّفوان، فتفزعُ عند ذلك تعظيمًا وهيبة.

قال: وبهذا المعنىٰ منْ ذكر الملائكة في صدر الآية تتَّسق هذه الآية علىٰ الأولىٰ، ومن لم يشعر أنَّ الملائكة مشارٌ إليهم من أوَّل قوله: ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ لم تتصل له هذه الآية بما قبلها [(١)].

قوله: ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾: ولم يقولوا: ماذا خلق ربنا؟ ولو كان كلامُ الله مخلوقًا، لقالوا: ماذا خلق؟! انتهىٰ. من (شرح سُنن ابن ماجه).

ومثلُه الحديث: «ماذا قال ربنا يا جبريل؟» [(٢)] وأمثالُ هذا في الكتاب والسنة كثير. وقوله: ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ أي: قالوا: قال الله الحق. وذلك لأنهم إذا سمعوا كلامَ الله صُعِقوا، ثم إذا أفاقوا أخذوا

كلام اللَّه ـ سبحانه ـ الفزع.

قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾: قال ذلك ولم يقل: «فزعت قلوبهم»؛ «إذا» تفيد المجاوزة، والمعنىٰ: جاوز الفزع قلوبهم؛ أي: أزيل الفزع عن قلوبهم. والفزع: الخوف المفاجئ؛ لأن الخوف المستمر لا يسمىٰ فزعًا. وأصله: النهوض من الخوف.

وقوله: ﴿عَن قُلُوبِهِمْ﴾: قلوب الملائكة؛ لأن الضمير يعود عليهم بدليل ما سيأتي من حديث أبي هريرة، ولا أحد من الخلق أعلم بتفسير القرآن من رسول اللَّه ﷺ.

قوله: ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾: جواب الشرط.

والمعنىٰ: قال بعضهم لبعض: وإنما قلنا ذلك لأن في الكلام قائلاً ومقولاً له، فلو جعلنا الضمير في «قالوا» عائدًا علىٰ الجميع؛ فأين المقول له؟ والمعنىٰ: أي شيء قال ربكم؟

وإعراب «ماذا» علىٰ أوجه:

١ ـ ما: اسم استفهام مبتدأ، وذا: اسم موصول خبر؛ أي: ما الذي.

٢ ـ ماذا: اسم استفهام مركب من ما وذا.

---

(١) قال أبو حيان: ولهذا اضطرب المفسرون في تفسيرها. (ق).

(٢) رواه الطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٣٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٩٥): رواه الطبراني عن شيخه يحيى بن عثمان بن صالح وقد وثق وتكلم فيه من لم يسم بغير قادح معين وبقية رجاله ثقات.

. . . .

يسألون، فيقولون: ماذا قال ربكم؟ فيقولون: قال الحق.

قوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾: علوُّ القدر وعلوُّ القهر وعلو الذات، فله العلوُّ الكامل من جميع الوجوه؛ كما قال عبدُ الله بن المبارك ـ لما قيل له: بماذا نعرفُ ربَّنا؟ قال: بأنه على عرشه، بائنٌ من خلقه[1]. تمسكًا منه بالقرآن، لقول الله تعالىٰ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى

باب قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: ٢٣]

وهذا أيضا برهان عظيم آخر على وجوب التوحيد وبطلان الشرك، وهو ذكر النصوص الدالة على كبرياء الرب وعظمته التي تتضاءل وتضمحل عندها عظمة المخلوقات العظيمة، وتخضع له الملائكة والعالم العلوي والسفلي، ولا تثبت أفئدتهم عندما يسمعون كلامه، أو تتبدىٰ لهم بعض عظمته ومجده، فالمخلوقات بأسرها

---

٣ ـ ما اسم استفهام، وذا زائدة، قال ابن مالك:

ومثل ماذا بعدما استفهام أو من إذا لم تلغ في الكلام

قوله: ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾: أي: قال المسئولون.

والحق: صفة لمصدر محذوف مع عامله، والتقدير: قال القول الحق.

والمعنىٰ: أن اللَّه ـ سبحانه ـ قال القول الحق لأنه سبحانه هو الحق، ولا يصدر عنه إلا الحق، ولا يقول ولا يفعل إلا الحق. والحق في الكلام هو الصدق في الإخبار، والعدل في الأحكام؛ كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

ولا يفهم من قوله: ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ أنه قد يكون قوله باطلاً، بل هو بيان للواقع.

فإن قيل: ما دام بيانًا للواقع ومعروفًا عند الملائكة أنه لا يقول إلا الحق؛ فلماذا الاستفهام؟!

أجيب: أن هذا من باب الثناء على اللَّه بما قال، وأنه سبحانه لا يقول إلا الحق.

قوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾: أي: العلي في ذاته وصفاته، الكبير: ذو الكبرياء، وهي العظمة التي لا يدانيها شيء، أي العظيم الذي لا أعظم منه.

مناسبة الآية للتوحيد: أنه إذا كان منفردًا في العظمة والكبرياء؛ فيجب أن يكون منفردًا في العبادة.

والعلو قسمان:

الأول: علو الصفات، وقد أجمع عليه كل من ينتسب للإسلام حتىٰ الجهمية ونحوهم.

الثاني: علوّ الذات: وقد أنكره كثير من المنتسبين للإسلام حتىٰ الجهمية وبعض الأشاعرة غير المحققين منهم؛ فإن المحققين منهم أثبتوا علوّ الذات.

وعلوه لا ينافي كونه مع الخلق يعلمهم ويسمعهم ويراهم؛ لأنه ليس كمثله شيء في جميع صفاته.

وفي الآية فوائد:

١ ـ أن الملائكة يخافون اللَّه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠].

---

(١) الأثر مذكور في حاشية ابن القيم (١٣/ ٢٥، ٣٤)، وابن مفلح في المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد (٢/ ٣٣٢).

وفي الصحيح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكةُ بأجنحتها خضعـانًا لقوله، كأنه سلسلةٌ على صفوان، يَنْفُذُهم ذلك،

﴿الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ...﴾ [الفرقان: ٥٩] في سبعة مواضع في القرآن.

قوله: ﴿الْكَبِيرُ﴾: الذي لا أكبر منه ولا أعظم، تبارك وتعالى.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: في الصحيح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكةُ بأجنحتها خضعانًا لقوله، كأنه سلسلةٌ على

خاضعة لجلاله معترفة بعظمته ومجده خاضعة له خائفة منه، فمن كان هذا شأنه فهو الرب الذي لا يستحق العبادة والحمد والثناء والشكر والتعظيم والتأله إلا هو، ومن سواه ليس له من هذا الحق شيء.

---

٢ - إثبات القلوب للملائكة؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾.

٣ - إثبات أنهم أجسام وليسوا أرواحًا مجردة من الجسمية، وهو أمر معلوم بالضرورة، قال تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر: ١]، وقد رأى النبي ﷺ جبريل له ستمائة جناح قد سد الأفق[١]؛ فالقول بأنهم أرواح فقط إنكار لهم في الواقع، وهو قول باطل.

لكنهم لا يأكلون ولا يشربون، وإنما أكلهم وشربهم التسبيح؛ بدليل قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

ففي هذا دليل على أن ليلهم ونهارهم مملوءان بذلك، ولهذا جاء: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ﴾، ولم يقل: يسبحون في الليل؛ أي: أن تسبيحهم دائم، والتسبيح تنزيه اللَّه عما لا يليق به.

٤ - أن لهم عقولاً؛ إذ أن القلوب هي محل العقول خلافًا لمن قال: إنهم لا يعقلون؛ ولأنهم يسبحون اللَّه، ويطوفون بالبيت المعمور.

٥ - إثبات القول للَّه - سبحانه وتعالى - وأنه متعلق بمشيئته، لأنه جاء بالشرط: ﴿إِذَا فُزِّعَ﴾، وإذا الشرطية تدل على حدوث الشرط والمشروط، خلافًا للأشاعرة الذين يقولون: إن اللَّه لا يتكلم بمشيئته، وإنما كلامه هو المعنى القائم بنفسه؛ فهو قائم باللَّه أزلي أبدي، كقيام العلم والقدرة والسمع والبصر. ولا ريب أن هذا باطل، وأن حقيقته إنكار كلام اللَّه، ولهذا يقولون: إن اللَّه يتكلم بكلام نفسي أزلي أبدي، كما يقولون: هذا الكلام الذي سمعه موسى، وسمعه النبي ﷺ، نزل به جبريل على الرسول ﷺ شيء مخلوق للتعبير عن كلام اللَّه القائم بنفسه.

وهذا في الحقيقة قول الجهمية؛ كما قال بعض المحققين من الأشاعرة: ليس بيننا وبين الجهمية فرق، فإننا اتفقنا على أن هذا الذي بين دفتي المصحف مخلوق، لكن نحن قلنا: هو عبارة عن كلام، وهم قالوا: هو كلام اللَّه.

فالجهمية خير منهم في أنهم يقولون: هذا كلام اللَّه، لكنهم شر منهم في كونهم يصرحون أن كلام اللَّه مخلوق.

٦ - إثبات أن قول اللَّه حق، وهذا جاء في القرآن: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقال: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ [ص: ٨٤]؛ فاللَّه تعالى لا يقول إلا حقًا، لأنه هو الحق،

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٣٢)، ومواضع، ومسلم (١٧٤) من حديث عبد الله بن مسعود.

حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم. قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحقَّ وهو العليُّ الكبير، فيسمعها مُسترقُ السمع ـ ومسترقُ السمعِ هكذا بعضُه فوق بعض، وصَفَه سفيانُ بكفه فحرَّفها وبدَّد بين أصابعه ـ فيسمعُ الكلمةَ فيلقيها إلى من تحته، ثم يُلقيها الآخرُ إلى من تحته، حتى يُلقيها على لسان الساحر أو الكاهن. فربما أدركه الشِّهابُ قبل أنْ يلقيها، وربما ألقاها قبل أنْ يُدركه، فيكذبُ معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيُصدَّق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء»[(١)(٢)].

صفوان، يَنْفُذُهم ذلك، حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم. قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحقَّ وهو العليُّ الكبير، فيسمعها مُسترقُ السمع ـ ومسترقُ السمع هكذا بعضُه فوق بعض، وصَفَه سفيانُ بكفه فحرَّفها وبدَّد بين أصابعه ـ فيسمعُ الكلمةَ فيلقيها إلى من تحته، ثم يُلقيها الآخرُ إلى من تحته، حتى يُلقيها على لسان الساحر أو الكاهن. فربما أدركه الشِّهابُ قبل أنْ يلقيها، وربما ألقاها قبل أنْ يُدركه، فيكذبُ معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيُصدَّق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء».

قوله: «في الصحيح»: أي: (صحيح البخاري)[(٣)].

قوله: «إذا قضى الله الأمر في السماء»: أي: إذا تكلَّم الله بالأمر الذي يوحيه إلىٰ جبرائيل، بما أراده؛ كما صرَّح به في الحديث الآتي. وكما روىٰ سعيدُ بن منصور، وأبو داود، وابنُ جرير، عن ابن مسعود «إذا تكلَّم الله بالوحي سمع أهلُ السموات صلصلة كجرِّ السلسلة على الصفوان»[(٤)].

ولا يصدر عن الحق إلا الحق.

قوله: «في الصحيح»: سبق الكلام عليها.

قوله: «قضى الله الأمر في السماء»: المراد بالأمر الشأن، ويكون القضاء بالقول؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

قوله: «خضعانًا»: أي: خضوعًا؛ لقوله: «كأنه»؛ أي: صوت القول في وقعه علىٰ قلوبهم.

---

(١) يعني أن قول الكاهن والساحر والعراف قد يصادف بعض الواقع؛ فيغتر الجاهلون المخرفون بذلك؛ ويحتجون بهذه المصادفة على تصديق كذبه الذي لا يعد وهو مبني على افتراء الكذب على الله ودعوى معرفة الغيب الذي لا يعلمه إلا الله. وسيأتي بيانه في باب الكهان.(ق).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٤٧٠١، ٤٨٠٠، ٧٤٨١).

(٣) رواه في تفسيره قوله: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾[الحجر: ١٨] من سورة الحجر، وفي تفسير سورة سبأ وغير هذين الموضعين. حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا عمرو بن دينار عن عكرمة عن أبي هريرة ﷺ. رواه مسلم وأبو داود بنحو هذا.(ق).

(٤) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٢٩٣).

. . . .

وروى ابنُ أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: لما أوحى الجبارُ إلى محمد ﷺ دعا الرسول من الملائكة ليبعثه بالوحي. فسمعت الملائكةُ صوت الجبار يتكلم بالوحي، فلما كشف عن قلوبهم، سألوا عما قال الله؟ فقالوا: الحق، وعلموا أنَّ الله لا يقول إلاَّ حقًا.

قوله: «ضربت الملائكةُ بأجنحتها خضعانًا لقوله» أي: لقول الله تعالى.

قال الحافظ: خضعانًا. بفتحتين، من الخضوع. وفي رواية: بضمٍّ أوله وسكون ثانيه، وهو مصدرٌ بمعنى خاضعين.

قوله: «كأنه سلسلةٌ على صفوان»: أي: كأن الصوت المسموع سلسلةٌ على صفوان، وهو الحجرُ الأملس.

قوله: «ينْفُذُهم ذلك»: هو: بفتح التحتية، وسكون النون، وضم الفاء والذال المعجمة.

ذلك: أي: القول. والضمير في: ينفُذُهم. للملائكة، أي: ينفذُ ذلك القولُ الملائكة: أي: يخلص ذلك القول، ويمضي فيهم حتى يفزعوا منه. وعند ابن مردويه، من حديث ابن عباس **«فلا ينزل على أهل سماء إلاَّ صُعقوا»**[1] وعند أبي داود وغيره مرفوعًا: **«إذا تكلم الله بالوحي سمع أهلُ السماء الدنيا صلصلة كجر السلسلة على الصفا، فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل»**[2] الحديث.

قوله: «حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم» تقدم معناه.

قوله: «قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق»: أي: قالوا: قال الله الحق، علموا أنَّه لا يقول إلاَّ الحق.

قوله: «صفوان»: هو الحجر الأملس الصلب، والسلسلة عليه يكون لها صوت عظيم. وليس المراد تشبيه صوت اللَّه تعالى بهذا؛ لأن اللَّه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، بل المراد تشبيه ما يحصل لهم من الفزع عندما يسمعون كلام الله بفزع من يسمع سلسلة على صفوان.

قوله: «ينفذهم ذلك»: النفوذ: هو الدخول في الشيء، ومنه: نفذ السهم في الرمية، أي: دخل فيها، والمعنى أن هذا الصوت يبلغ منهم كل مبلغ.

قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾: أي: أزيل عنها الفزع.

قوله: ﴿قَالُوا﴾: أي: قال بعضهم لبعض.

قوله: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾: أي: قالوا: قال الحق، أي: قال القول الحق؛ فالحق صفة لمصدر محذوف مع عامله، تقديره: قال القول الحق. وهذا الجواب الذي يقولونه هل هم يقولونه لأنهم سمعوا ما قال وعلموا أنه حق، أو أنهم كانوا يعلمون أنه لا يقول إلا الحق؟ يحتمل أن يكونوا قد علموا ما قال، وقالوا: إنه الحق؛ فيكون هذا عائدًا إلى الوحي الذي تكلم اللَّه به. ويحتمل أنهم قالوا ذلك لعلمهم أن اللَّه ـ سبحانه ـ لا يقول إلا الحق؛ فلذلك قالوا هذا لأن ذلك صفته سبحانه وتعالى. وهذا الحديث مطابق للآية تمامًا، وعلى هذا يجب أن يكون هذا تفسير الآية، ولا يقبل لأي قائل أن

---

(١) ذكره الحافظ في الفتح (٨/ ٥٣٨).

(٢) صحيح: وقد تقدم تخريجه.

. . . .

قوله: «فيسمعـها مسترقُ السمع» أي: يسمع الكلمة التي قضاها الله، وهم الشياطين يركب بعضهم بعضًا.

وفي (صحيح البخاري)، عن عائشة مرفوعًا **«إنَّ الملائكة تنزلُ في العنان - وهو السحاب - فتذكر الأمر قُضي في السماء، فتسترقُ الشياطين السمع، فتوحيه إلى الكُهَّان»**[1].

يفسرها بغيره؛ لأن تفسير القرآن إذا كان بالقرآن أو السنة، فإنه نص لا يمكن لأحد أن يتجاوزه. وأما تفسير الصحابي؛ فإنه حجة عند أكثر المفسرين، وأما التابعين؛ فإن أكثر العلماء يقول: إنه ليس بحجة إلا من اختص منهم بشيء كمجاهد؛ فإنه عرض المصحف على ابن عباس عشرين مرة أو أكثر، يقف عند كل آية ويسأله عن معناها، وأما من بعد التابعين، فليس تفسيره حجة على غيره، لكن إن أيده سياق القرآن كان العمدة سياق القرآن. فلا يقبل أن يقال: إذا فزع عن قلوب الناس يوم القيامة، بل نقول: الرسول ﷺ فسر الآية بتفسير غيبي لا مجال للاجتهاد فيه، وما كان غيبيًا وجاء به النص، فالواجب علينا قبوله، ولهذا نقول في مسألة ما يعذر فيه بالاجتهاد وما لا يعذر: إنه ليس عائدًا على أن هذا من الأصول وهذا من الفروع؛ كما قال بعض العلماء: الأصول لا مجال للاجتهاد فيها، ويخطئ المخالف مطلقًا بخلاف الفروع. لكن شيخ الإسلام ابن تيمية أنكر تقسيم الدين إلى أصول وفروع، ويدل على بطلان هذا التقسيم: أن الصلاة عند الذين يقسمون من الفروع مع أنها من أجل الأصول.

والصواب: أن مدار الإنكار على ما للاجتهاد فيه مجال وما لا مجال فيه؛ فالأمور الغيبية ينكر على المخالف فيها ولا يعذر، سواء كانت تتعلق بصفات اللَّه أو اليوم الآخر أو غير ذلك؛ لأنه لا مجال للاجتهاد فيها. أما الأمور العملية التي للاجتهاد فيها مجال، فلا ينكر على المخالف فيها إلا إذا خالف نصًا صريحًا، وإن كان يصح تضليله بهذه المخالفة، كقول ابن مسعود في بنت وبنت ابن وأخت: «للبنت النصف، ولابنة الابن السدس، تكملة الثلثين، وما بقي فللأخت» وذكر له قسمة أبي موسى: «للابنة النصف، وللأخت النصف» وقوله: «ائت ابن مسعود، فسيتابعني» فأخبر ابن مسعود بذلك، فقال: «قد ضللت إذًا، وما أنا من المهتدين»[2].

قوله: «فيسمعها مسترق السمع»: أي: هذه الكلمة التي تكلمت بها الملائكة.

و«مسترق»: مفرد مضاف؛ فيعم جميع المسترقين.

وتأمل كلمة «مسترق» ففيها دليل على أنه يبادر، فكأنه يختلسها اختلاسًا بسرعة، ويؤيده قوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

قوله: «ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض»: يحتمل أن يكون هذا من كلامه ﷺ، أو

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٢١٠).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٧٣٦)، وأبو داود (٢٨٩٠)، والترمذي (٢٠٩٣)، وابن ماجه (٢٧٢١)، وأحمد (٣٦٨٣، ٤١٨٤، ٤٤٠٦).

. . . .

قوله: (ومسترِقِ السمع، هكذا وصفه سفيانُ بكفه). أي: وصف ركوب بعضهم فوق بعض. وسفيان: هو ابنُ عيينة، أبو محمد الهلالي الكوفي، ثم المكي، ثقةٌ حافظ، فقيه إمامٌ حجة. مات سنة ثمانٍ وتسعين ومائة، وله إحدىٰ وتسعون سنة.

قوله: (فحرَّفها). بحاءٍ مهملة، وراء مشدَّدة، وفاء.

قوله: (وبدَّد). أي: فرَّق بين أصابعه.

قوله: «فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته»: أي: يسمع الفوقانِّي الكلمة، فُيلقيها إلىٰ آخر تحته، ثم يلقيها إلىٰ من تحته، حتىٰ يلقيها علىٰ لسان الساحر أو الكاهن.

من كلام أبي هريرة، أو من كلام سفيان.

قوله: «وصفه سفيان بكفه»: أي: أنها واحد فوق الثاني، أي الأصابع، فالجن يتراكبون واحداً فوق الآخر، إلىٰ أن يصلوا إلىٰ السماء، فيقعدون لكل واحد مقعد خاص، قال تعالىٰ: ﴿**وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا**﴾ [الجن: ٩].

قوله: «فيسمع الكلمة، فيلقيها إلى من تحته»: أي: يسمع أعلىٰ المسترقين الكلمة، فيلقيها إلىٰ من تحته؛ أي: يخبره بها، و«من»: اسم موصول، وقوله «تحته» شبه جملة صلة الموصول لأنه ظرف.

قوله: «ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها»: أي: يلقي الكلمة آخرهم الذي في الأرض علىٰ لسان الساحر أو الكاهن.

والسحر: عزائم ورقىٰ وتعوذات تؤثر في بدن المسحور وقلبه وعقله وتفكيره.

والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقد التبس علىٰ بعض طلبة العلم، فظنوا أن كل من يخبر عن الغيب ولو فيما مضىٰ؛ فهو كاهن، لكن ما مضىٰ مما يقع في الأرض ليس غيبًا مطلقًا، بل هو غيب نسبي، مثل ما يقع في المسجد يعد غيبًا بالنسبة لمن في الشارع، وليس غيبًا بالنسبة لمن في المسجد.

وقد يتصل الإنسان بجني، فيخبره عما حدث في الأرض، ولو كان بعيداً، فيستخدم الجن، لكن ليس علىٰ وجه محرم، فلا يسمىٰ كاهنًا؛ لأن الكاهن من يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقيل: الذي يخبر عما في الضمير، وهو نوع من الكهانة في الواقع، إذا لم يستند إلىٰ فراسة ثاقبة، أما إذا كان يخبر عما في الضمير استناداً إلىٰ فراسة، فإنه ليس من الكهانة في شيء، لأن بعض الناس قد يفهم ما في الإنسان اعتماداً علىٰ أسارير وجهه ولمحاته، وإن كان لا يعلمه علىٰ وجه التفصيل، لكن يعلمه علىٰ سبيل الإجمال. فمن يخبر عما وقع في الأرض ليس من الكهان، ولكن ينظر في حاله، فإذا كان غير موثوق في دينه؛ فإننا لا نصدقه؛ لأن اللَّه تعالىٰ يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا**﴾ [الحجرات: ٦].

وإن كان موثوقًا في دينه، ونعلم أنه لا يتوصل إلىٰ ذلك بمحرم من شرك أو غيره، فإننا لا ندخله

. . . .

قوله: «فربما أدركه الشهابُ قبل أن يلقيها» الشهاب: هو النجم الذي يُرمىٰ. أي: ربما أدرك الشهابُ المسترِقَ.

وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الرمي بالشُّهب كان قبل المبعث؛ لما روىٰ أحمدُ، والسياق له في (المسند)، من طريق مَعْمر: أنبأنا الزهري، عن علي بن حسين، عن ابن عباس، قال: كان رسولُ الله ﷺ جالسًا في نفر من أصحابه قال عبدُ الرزاق: من الأنصار. قال: فرُمي بنجمٍ عظيم، فاستنار، قال: «**ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية؟**» قال: كنا نقول: لعلَّه يولد عظيم أو يموت عظيم - قلتُ للزهري: أكان يُرمىٰ بها في الجاهلية؟ قال: نعم، ولكن غلظت حين بُعث النبي ﷺ قال: «**فإنه لا يُرمى بها لموت أحد، ولا لحياته. ولكن ربنا تبارك اسمه: إذا قضى أمرًا سبح حملةُ العرش، ثم سبح أهلُ السماء الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح هذه السماء الدنيا. ثم يستخبر أهلُ السماء الذين يلون حملة العرش، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ويخبر أهلُ كل سماء سماءً، حتى ينتهي الخبرُ إلى هذه السماء، ويخطفُ الجنُّ السمعَ فيرمون. فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يَقْرفون[1] فيه ويزيدون**»[2]. قال عبدُ الله: قال أبي، قال عبد الرزاق: «**ويخطف الجنَّ ويُرمون**» وفي رواية له «**لكنهم يزيدون فيه، ويقرفون وينقصون**»[3].

في الكهان الذين يحرم الرجوع إلىٰ قولهم، ومن يخبر بأشياء وقعت في مكان ولم يطلع عليها أحد دون أن يكون موجودًا فيه؛ فلا يسمىٰ كاهنًا؛ لأنه لم يخبر عن غيب مستقبل يمكن أن يكون عنده جني يخبره، والجني قد يخدم بني آدم بغير المحرم، إما محبة للَّه - عز وجل - أو لعلم يحصله منه، أو لغير ذلك من الأغراض المباحة.

والسحرة قد يكون لهم من الجن من يسترق لهم السمع.

ولا يصل هؤلاء المسترقون إلا إلىٰ السماء الدنيا؛ لقوله تعالىٰ: ﴿**وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا**﴾ [الأنبياء: ٣٢]، فلا يمكن نفوذه إلىٰ السماء.

قوله: «فربما أدركه الشهاب» إلخ: الشهاب: جزء منفصل من النجوم، ثاقب، قوي، ينفذ فيما يصطدم به.

قال العلماء في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ**﴾ [الملك: ٥].

أي: جعلنا شهابها الذي ينطلق منها؛ فهذا من باب عود الضمير إلىٰ الجزء لا إلىٰ الكل.

فالشهب: نيازك تنطلق من النجوم، وهي كما قال أهل الفلك: تنزل إلىٰ الأرض، وقد تحدث

---

(١) يقرفون: يخلطون فيه الكذب.

(٢) قال الحافظ ابن كثير: وقد أخرجه مسلم في صحيحه من حديث صالح بن كيسان والأوزاعي ويونس ومعقل بن عبد الله، أربعتهم عن الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس عن رجل من الأنصار.(ق).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٢٢٩).

قوله: «فيكذب معها مائة كذبة» أي: الكاهن، أو الساحر.
وكذْبة: بفتح الكاف، وسكون الذال المعجمة.
قوله: «فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا» هكذا في نسخةٍ بخط المصنف رحمه الله، كالذي في (صحيح البخاري) سواء.

تصدعًا فيها. أما النجم، فلو وصل إلى الأرض؛ لأحرقها.

واختلف العلماء: هل المسترقون انقطعوا عن الاستراق بعد بعثة الرسول ﷺ إلى الأبد، أو انقطعوا في وقته فقط؟

والثاني هو الأقرب: أنهم انقطعوا في وقت البعثة فقط؛ حتى لا يلتبس كلام الكهان بالوحي، ثم بعد ذلك زال السبب الذي من أجله انقطعوا.

قوله: «فيكذب معها مائة كذبة»: هل هذا على سبيل التحديد، أو المراد المبالغة، أي أنه يكذب معها كذبات كثيرة؟ الثاني هو الأقرب، وقد تزيد عن ذلك وقد تنقص؛ فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ والناس في هذه الأمور الغريبة على حسب ما أخبر به المخبر يأخذون كل ما يقوله صدقًا، فإذا أخبر بشيء فوقع، ثم أخبر بشيء ثان، قالوا: إذًا لا بد أن يصدق.

فوائد الحديث:

١ - إثبات القول للَّه عز وجل.
٢ - عظمة اللَّه سبحانه وتعالى.
٣ - إثبات الأجنحة للملائكة.
٤ - خوف الملائكة من اللَّه - عز وجل - وخضوعهم له.
٥ - أن الملائكة يتكلمون ويعقلون.
٦ - أنه لا يصدر عن اللَّه إلا الحق.
٧ - أن اللَّه - سبحانه - يمكن هؤلاء الجن من الوصول إلى السماء فتنة للناس وهي ما يلقونه على الكهان، فيحصل بذلك فتنة، واللَّه - عز وجل - حكيم.

وقد يوجد اللَّه أشياء تكون ضلالاً لبعض الناس، لكنها لبعضهم هدًى وامتحانًا وابتلاءً.

٨ - كثرة الجن؛ لأنهم يترادفون إلى السماء، ومعنى ذلك أنهم كثيرون جدًا، وأجسامهم خفيفة يطيرون طيرانًا. وذكر ذلك عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه[1] في السحرة الذين يستخدمون الجن وتطير بهم: أنهم يصبحون يوم عرفة في بلادهم ويقفون مع الناس في عرفة، وهذا ممكن الآن في الطائرات، لكن في ذلك الوقت لم يكن هناك طائرات، فتحملهم الشياطين، ويجعلون للناس المكانس التي تكنس بها البيوت، ويقول: أنا أركب المكنسة وأطير بها إلى مكة، فيفعلون هذا، وشيخ الإسلام يقول: إن هؤلاء كذبة ومستخدمون للشياطين، ويسيئون حتى من الناحية العملية، لأنهم يمرون بالميقات ولا يحرمون منه.

٩ - أن الكهان من أكذب الناس، ولهذا يضيفون إلى ما سمعوا كذبات كثيرة يضللون بها الناس، ويتوصلون بها إلى باطلهم تارة بالترهيب وتارة بالترغيب، كأن يقولوا: ستقوم القيامة يوم كذا وكذا،

---

(١) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى فصل فيمن خالف ما جاء به النبي ﷺ.

وعن النوّاس بن سمعان، قال: قال رسول الله ﷺ «إذا أراد الله تعالى أنْ يُوحي بالأمر تكلَّم بالوحي، أخذت السموات منه رَجفةٌ ـ أو قال رَعدةٌ ـ شديدةٌ، خوفًا من الله عز وجل. فإذا سمع ذلك أهلُ السموات صُعقوا وخرّوا لله سجّدًا. فيكون أوّلَ من يرفع رأسه جبريلُ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمرّ جبريل على الملائكة، كلّما مرَّ بسماء سأله ملائكتُها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال الحق، وهو العليُّ الكبيرُ. فيقولون كلُّهم مثل ما قال

قال المُصنِّف: وفيه: قبولُ النفوسِ للباطل. يتعلَّقون بواحدة، ولا يعتبرون بمائة:

وفيه: أنَّ الشيء إذا كان فيه شيءٌ من الحق، فلا يدلُّ على أنه حقٌ كلُّه. فكثيرًا ما يلبس أهلُ الضلال الحقَّ بالباطل، ليكون أقبل لباطلهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢]. وفي هذه الأحاديث وما بعدها، وما في معناها: إثباتُ علو الله تعالى على خلقه على ما يليق بجلاله وعظمته، وأنه تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء بكلام يسمعه الملائكة.

وهذا قول أهلِ السنة قاطبة سلفًا وخلفًا، خلافًا للأشاعرة والجهمية ونُفاة المعتزلة. فإياك أنْ تلتفت إلى ما زخرفه أهلُ التعطيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن النوّاس بن سمعان، قال: قال رسول الله ﷺ «إذا أراد الله تعالى أنْ يُوحي بالأمر تكلَّم بالوحي، أخذت السموات منه رَجفةٌ ـ أو قال رَعدةٌ ـ شديدةٌ، خوفًا من الله عز وجل. فإذا سمع ذلك أهلُ السموات صُعقوا وخرّوا لله سجّدًا. فيكون أوّلَ من يرفع رأسه جبريلُ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمرّ جبريل على الملائكة، كلّما مرّ بسماء سأله ملائكتُها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال الحق، وهو العليُّ الكبير. فيقولون

فكما أن الكمال المطلق والكبرياء والعظمة، ونعوت الجلال والجمال المطلق كلها لله لا يمكن أن يتصف بها غيره فكذلك العبودية الظاهرة والباطنة كلها حقه تعالى الخاص الذي لا يشاركه فيه مشارك بوجه.

وسيجري عليك كذا من موت أو سرقة مال ونحو ذلك.

١٠ ـ أن الساحر يصور للمسحور غير الواقع، وفي هذا تحذير من أهل التمويه والتلبيس، وأنهم إن صدقوا في شيء، فيجب الحذر منهم بكل حال.

قوله: «وعن النواس ...»: هذا الحديث لم يخرجه المؤلف، لكن قد ذكره ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم، وذكر فيه علة وهي أن في سنده الوليد بن مسلم، وهو مدلس، وقد رواه عن شيخه بالعنعنة، فيكون في الحديث ضعف، إلا أنه قد روى مسلم، وأحمد من حديث ابن عباس حديثًا قد يكون شاهدًا له، حيث أخبر أن اللَّه إذا تكلم بالوحي سمعه حملة العرش، فسبحوا ثم سمعه أهل كل سماء، فيسبحون كما سبح أهل السماء السابعة، حتى يصل إلى السماء الدنيا، فتخطفه الجن أو الشياطين.

جبريل، فينتهي جبريلُ بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل»[(١)(٢)].

كلُّهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريلُ بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل».

هذا الحديث: رواه ابنُ أبي حاتم، بسنده، كما ذكره العمادُ ابن كثير في (تفسيره).

النَّواس بن سمْعان ـ بكسر السين ـ بن خالد الكلابي، ويقال: الأنصاري، صحابي. ويقال: إنَّ أباه صحابي أيضًا.

قوله: «إذا أراد الله أنْ يُوحي بالأمر» إلى آخره، فيه: النصُّ على أنَّ الله تعالى يتكلَّم بالوحي. وهذا من حجة أهل السنة على النفاة ـ لقولهم: لم يزل الله متكلمًا إذا شاء.

قوله: «أخذت السموات منه رجفةٌ» السموات مفعول مقدَّم، والفاعل رجفة، أي: أصاب السموات من كلامه تعالى رجفة، أي: ارتجفت.

وهو صريحٌ في أنها تسمع كلامه تعالى؛ كما روى ابنُ أبي حاتم، عن عكرمة، قال: إذا قضى الله أمرًا تكلَّم تبارك وتعالى، رجفت السموات والأرض والجبال، وخرَّت الملائكة كلُّهم سجدًا[(٣)].

وهذا وإن لم يكن فيه ذكر رجفة السماء أو السجود؛ لكن يدل على أن له أصلاً.

قوله: «إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر»: أي: بالشأن.

قوله: «تكلم بالوحي»: جملة شرطية تأخر المشروط عن الشرط، فالإرادة سابقة، والكلام لاحق، فيكون فيه رد على الأشاعرة الذين يقولون: إن اللَّه لا يتكلم بإرادة، وإن كلامه أزلي، كالسمع والبصر، ففيه إثبات الكلام الحادث، ولا ينقص كمال اللَّه إذا قلنا: إنه يتكلم بما يشاء، كيف شاء، متى شاء، بل هذا صفة كمال، لكن النقص أن يقال: إنه لا يتكلم بحرف وصوت، إنما الكلام معنى قائم بنفسه.

قوله: «أخذت السموات منه رجفة»: السموات: مفعول به جمع مؤنث سالم، أو ملحق به، فيكون منصوبًا بالكسرة. ورجفة: فاعل.

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٢٧)، ومحمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٣٦).

(٢) في قرة العيون: قوله «أن يوحي بالأمر» فيه بيان معنى ما تقدم في الحديث قبله من قوله: «إذا قضى الله الأمر» قوله: «تكلم بالوحي» فيه التصريح بأنه يتكلم بالوحي فيوحيه إلى جبريل عليه السلام ففيه الرد على الأشاعرة في قولهم أن القرآن عبارة عن كلام الله.

قوله: «أخذت السموات منه رجفة أو قال: رعدة شديدة خوفًا من الله عز وجل» في هذه معرفة عظمة الله ويوجب للعبد شدة الخوف منه تعالى وفيه إثبات العلو. قوله: «فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدًا» هيبة وتعظيمًا لربهم وخشية لما سمعوا من كلامه تعالى وتقدس. قوله: «فيكون أول من يرفع رأسه جبريل» لأنه ملك الوحي عليه السلام. قوله: «فيكلمه الله من وحيه بما أراد» فيه التصريح بأنه تعالى يوحي إلى جبريل بما أراده من أمره كما تقدم في أول الحديث، قوله: «ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها» وهذا أيضًا من أدلة علو الرب تعالى وتقدس. قوله: «ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: (قال الحق وهو العلي الكبير) فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل؛ فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل» وهذا دليل بأنه تعالى قال ويقول، وأهل البدع من الجهمية ومن تلقى عنهم كالأشاعرة جحدوا ما أثبته الله تعالى في كتبه وأثبته رسوله ﷺ في سنته من علوه وكلامه وغير ذلك من صفات كماله التي أثبتها له رسوله والمؤمنون من الصحابة والتابعين وتابعيهم من أهل السنة والجماعة على ما يليق بجلال الله وعظمته.(ق).

(٣) رواه البخاري في خلق أفعال العباد (١/ ٩٩) وعكرمة تابعي فالإسناد مرسل.(ق).

. . . .

قوله: أو قال: «رَعدةٌ شديدة». شكٌ من الراوي. هل قال النبي ﷺ: رجفة، أو قال: رعدة. والراء مفتوحة فيهما.

قوله: «خوفًا من الله عز وجل» وهذا ظاهرٌ في أنَّ السموات تخاف الله، بما يجعل الله تعالىٰ فيها من الإحساس، ومعرفة من خلقها. وقد أخبر تعالىٰ: أنَّ هذه المخلوقات العظيمة تُسبحهُ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مريم: ٩٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقد قرَّر العلاَّمة ابن القيم رحمه الله: أن هذه المخلوقات، تسبح الله وتخشاه حقيقة، واحتج بهذه الآيات ونحوها.

وفي البخاري: عن ابن مسعود، قال: كنا نسمعُ تسبيحَ الطعام، وهو يُؤكل[1]. وفي حديث أبي ذر: أنَّ النبي ﷺ أخذ في يده حصيات، فسُمع لهن تسبيحًا. الحديث[2]. وفي الصحيح: قصةُ حنين الجِذْع الذي كان يخطبُ عليه النبيُّ ﷺ قبل اتخاذ المنبر[3]. ومثلُ هذا كثير.

وقوله: «صُعقوا وخرُّوا لله سجدًا» الصَّعق: هو الغشي، ومعه السجود.

وقوله: «فيكون أوَّلَ من يرفع رأسه جبريل» بفتح أول؛ خبر يكون تقدم علىٰ اسمها. ويجوز العكس.

ومعنى جبريل: عبد الله؛ كما روىٰ ابنُ جرير، وغيره، عن علي بن حسين، قال: كان اسم جبريل: عبد الله، واسم ميكائيل: عُبيد الله، وإسرافيل: عبد الرحمن. وكلُّ شيءٍ رجع إلىٰ إيل، فهو مُعبَّدٌ لله عز وجل.

قوله: «أو قال: رعدة شديدة»: شك من الرواي، وإنما تأخذ السموات الرجفة أو الرعدة، لأنه سبحانه عظيم يخافه كل شيء، حتىٰ السموات التي ليس فيها روح.

قوله: «فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدًا»: فإن قيل: كيف يمكن أن يصعقوا ويخروا سجدًا؟

فالجواب: أن الصعق هنا ـ والله أعلم ـ يكون قبل السجود، فإذا أفاقوا سجدوا.

قوله: «فيكون أول من يرفع رأسه جبريل»: أول: بالنصب علىٰ أنها خبر مقدم، وجبريل بالرفع علىٰ أنها اسم يكون مؤخراً.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٥٧٩).

(٢) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٦/ ٥٩٢): وأما تسبيح الحصى فليست له إلا هذه الطريق الواحدة مع ضعفها.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٤٤٩) ومواضع.

. . . .

وفيه: فضيلةُ جبريل عليه السلام، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١].

قال ابن كثير رحمه الله: إنه لتبليغُ رسولٍ كريم.

قال أبو صالح في الآية[١]: جبريلُ يدخلُ في سبعين حجابًا من نور، بغير إذن.

ولأحمد بإسنادٍ صحيح عن ابن مسعود، قال: رأىٰ رسولُ الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كلُّ جناح قد سدَّ الأفق. يسقطُ من جناحه من التهاويل والدر والياقوت، ما الله به عليم[٢].

فإذا كان هذا عظم هذه المخلوقات، فخالقها أعظمُ وأجلُّ وأكبر. فكيف يسوّىٰ به غيره في العبادة: دعاءً وخوفًا ورجاءً وتوكلاً، وغير ذلك من العبادات التي لا يستحقها غيره؟ فانظر إلىٰ حال الملائكة وشدة خوفهم من الله تعالىٰ، وقد قال تعالىٰ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩].

قوله: «فينتهي جبريلُ بالوحي إلى حيثُ أمره الله عز وجل» «من السماء والأرض» وهذا تمامُ الحديث.

والآياتُ المذكورة في هذا الباب والأحاديث: تُقرِّرُ التوحيدَ الذي هو مدلولُ شهادة أنْ لا إله إلاَّ الله.

قوله: «بما أراد»: أي: بما شاء؛ لأن اللّه تعالىٰ يتكلم بمشيئته.

قوله: «ثم يمر جبريل على الملائكة»: لأنه يريد النزول من عند اللّه إلىٰ حيث أمره اللّه إلىٰ أن ينتهي إليه بالوحي.

قوله: «قال الحق وهو العلي الكبير»: سبق في تفسير ذلك أنه يحتمل: قال الحق في هذه القضية المعينة، أو: قال الحق، لأن من عادته سبحانه ألا يقول إلا الحق، وأيّا كان، فإن جبريل لا يخبر الملائكة بما أوحىٰ اللّه إليه، بل يقول: قال الحق مبهمًا، ولهذا سمي عليه السلام بالأمين، والأمين: هو الذي لا يبوح بالسر.

قوله: «وهو العلي الكبير»: تقدم الكلام عليه.

قوله: «فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل»: أي: قال الحق، وهو العلي الكبير.

قوله: «فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل»: أي: يصل بالوحي إلىٰ حيث أمره اللّه من الأنبياء والرسل.

---

(١) أي في قوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠] كما ساق ذلك الحافظ ابن كثير وقد نقلها الشارح رحمه الله مختصرة. (ق).

(٢) رواه أحمد في المسند (١/ ٣٩٥) وأول الحديث في الصحيحين.

. . . .

فإنَّه الملك العظيم، الذي تُصعق الأملاك من كلامه خوفًا منه ومهابة، وترجُف منه المخلوقات، الكامل في ذاته وصفاته، وعلمه وقدرته، وملكه وعِزِّه وغناه عن جميع خلقه، وافتقارهم جميعهم إليه، ونفوذ قَدَره وتصرفه فيهم لعلمه وحكمته: لا يجوز شرعًا ولا عقلاً، أنْ يُجعل له شريكٌ من خلقه في العبادة التي هي حقه عليهم.

فكيف يُجعل المربوب ربًا، والعبد معبودًا؟ أين ذهبت عقولُ المشركين؟! سبحان الله عمَّا يشركون.

وقال تعالىٰ: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٣-٩٥].

فإذا كان الجميع عبيدًا: فَلِمَ يَعبدُ بعضهم بعضًا بلا دليل ولا برهان، بل بمجرَّد الرأي والاختراع والابتداع؟!

ثم قد أرسل رسله من أولهم إلىٰ آخرهم، تزجرهم عن ذلك الشرك، وتنهاهم عن عبادة ما سوىٰ الله. (انتهىٰ من شرح سُنن ابن ماجه).

من فوائد الحديث:

١ ـ إثبات الإرادة لقوله: « إذا أراد اللَّه »، وهي قسمان: شرعية، وكونية.

والفرق بينهما: أولاً: من حيث المتعلق، فالإرادة الشرعية تتعلق بما يحبه اللَّه ـ عز وجل ـ، سواء وقع أو لم يقع، وأما الكونية، فتتعلق بما يقع سواء كان مما يحبه اللَّه أو مما لا يحبه.

ثانيًا: الفرق بينهما من حيث الحكم، أي حصول المراد؛ فالشرعية لا يلزم منها وقوع المراد، أما الكونية؛ فيلزم منها وقوع المراد.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]؛ هذه إرادة شرعية، لأنها لو كانت كونية لتاب علىٰ كل الناس، وأيضًا متعلقها فيما يحبه اللَّه وهو التوبة.

وقوله: ﴿ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود: ٣٤]؛ هذه كونية؛ لأن اللَّه لا يريد الإغواء شرعًا، أما كونًا وقدرًا، فقد يريده.

وقوله: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء: ٢٦]؛ هذه كونية، لكنها في الأصل شرعية، لأنه قال: ﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾[النساء: ٢٦].

قوله: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. هذه شرعية؛ لأن قوله: ﴿وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ لا يمكن أن تكون كونية، إذ أن العسر يقع، ولو كان اللَّه لا يريده قدرًا وكونًا، لم يقع.

٢ ـ أن المخلوقات وإن كانت جمادات تحس بعظمة الخالق، قال تعالىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

٣ ـ إثبات أن الملائكة يتكلمون ويفهمون ويعقلون لأنهم يسألون: ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؟ ويجابون: قال: ﴿الْحَقَّ﴾، خلافًا لمن قال: إنهم لا يوصفون بذلك؛ فيلزم من قولهم هذا أننا تلقينا الشريعة ممن

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية.

الثانية: ما فيها من الحجة على إبطال الشرك، خصوصًا من تعلّق على الصالحين وهي الآية التي قيل: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب.

....

لا عقول لهم، هذا قدح في الشريعة بلا ريب.

٤ - إثبات تعدد السموات، لقوله: «كلما مر بسماء».

٥ - أن لكل سماء ملائكة مخصصين، لقوله: «سأله ملائكتها».

٦ - فضيلة جبريل عليه السلام حيث إنه المعروف بأمانة الوحي، ولهذا قال ورقة بن نوفل: «هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى»[1].

والناموس بالعبرية بمعنى صاحب السر.

٧ - أمانة جبريل عليه السلام، حيث ينتهي بالوحي إلى حيث أمره اللّٰه عز وجل، فيكون فيه رد على الرافضة الكفرة الذين يقولون بأن جبريل أمر أن يوحي إلى علي فأوحى إلى محمد ﷺ، ويقولون: خان الأمين فصدها عن حيدرة، وحيدرة لقب لعلي بن أبي طالب؛ لأنه كان يقول في غزوة خيبر: أنا الذي سمتني أمي حيدرة[2].

وفي هذا تناقض منهم، لأن وصفه بالأمانة يقتضي عدم الخيانة.

٨ - إثبات العزة والجلال للّٰه - عز وجل - لقوله: «عز وجل» والعزة بمعنى الغلبة والقوة، وللعزيز ثلاثة معان:

١ - عزيز: بمعنى ممتنع أن يناله أحد بسوء.
٢ - عزيز: بمعنى ذي قدر لا يشاركه فيه أحد.
٣ - عزيز: بمعنى غالب قاهر.

قال ابن القيم:

وهو العزيز فلن يرام جنابه ... أنى يُرام جناب ذو السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شيء هذه صفتان
وهو العزيز بقوة وهيْ وصفه ... فالعز حينئذ ثلاث معان

وأما جل: فالجلال بمعنى العظمَة التي ليس فوقها عظمة.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية: أي: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، وقد سبق تفسيرها.

الثانية: ما فيه من الحجة على إبطال الشرك: وذلك أن الملائكة - وهم من هم في القوة

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤) ومواضع، ومسلم (١٦٠).
(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٠٧).

الثالثة: تفسير قوله: ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك.

الخامسة: أن جبريل الذي يجيبهم بعد ذلك بقوله: «قال كذا وكذا».

السادسة: ذكر أن أول من يرفع رأسه جبريل.

السابعة: أنَّه يقول لأهل السموات كلهم، لأنَّهم يسألونه.

الثامنة: أن الغَشْي يعمُّ أهل السموات كلَّهم.

التاسعة: ارتجاف السموات لكلام الله.

العاشرة: أنَّ جبريل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله.

والعظمة - يصعقون، ويفزعون من تعظيم اللَّه، فكيف بالأصنام التي تعبد من دون اللَّه وهي أقل منهم بكثير، فكيف يتعلق الإنسان بها؟

ولذلك قيل: إن هذه الآية هي التي تقطع عروق الشرك من القلب، لأن الإنسان إذا عرف عظمة الرب سبحانه - حيث ترتجف السموات ويصعق أهلها بمجرد تكلمه بالوحي - فكيف يمكن للإنسان أن يشرك باللَّه شيئًا مخلوقًا ربما يصنعه بيده حتى كان جهال العرب - يصنعون آلهة من التمر إذا جاع أحدهم أكلها؟!

وينزل أحدهم بالوادي فيأخذ أربعة أحجار: ثلاثة يجعلها تحت القدر، والرابع - وهو أحسنها - يجعلها إلهًا له.

الثالثة: تفسير قوله: ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾: وسبق تفسيرها.

الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك: فالسؤال: ماذا قال ربكم؟ وسببه شدة خوفهم منه وفزعهم خوفًا من أن يكون قد قال فيهم ما لا يطيقونه من التعذيب.

الخامسة: أن جبريل يجيبهم بعد ذلك بقوله: قال كذا وكذا، أي: يقول: قال الحق.

السادسة: ذكر أن أول من يرفع رأسه جبريل: لحديث النواس بن سمعان، وفيه فضيلة جبريل.

السابعة: أنه يقول لأهل السموات كلهم لأنهم يسألونه: وفي هذا دليل على عظمته بينهم.

الثامنة: أن الغشي يعم أهل السموات كلهم: تؤخذ من قوله: «فإذا سمع ذلك أهل السموات، صعقوا وخروا للَّه سجدًا».

التاسعة: ارتجاف السموات لكلام اللَّه: لقوله: «أخذت السموات منه رجفة» أي: لأجله تعظيمًا للَّه.

العاشرة: أن جبريل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره: أي: لا أحد يتولى إيصال الوحي غير جبريل حتى يوصله إلى حيث أمره به، لأنه الأمين على الوحي.

الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين.

الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضًا.

الثالثة عشرة: إرسال الشهب.

الرابعة عشرة: أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يُلقبها، وتارة يُلقيها في أذن وليِّه من الإنس قبل أن يدركه.

الخامسة عشرة: كون الكاهن يصدقُ بعض الأحيان.

السادسة عشرة: كونه يكذب معها مائة كذبة.

السابعة عشرة: أنه لم يصدق كذبه إلا بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء.

الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل، كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة؟!

الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين: أي: الذين يسترقون ما يسمع في السموات، فيلقونه على الكهان، فيزيد فيه الكهان وينقصون.

الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضًا: وصفها سفيان رحمه اللّه بأن حرف يده وبدد بين أصابعه.

الثالثة عشرة: إرسال الشهب: يعني: التي تحرق مسترقي السمع، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر:١٨].

الرابعة عشرة: أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يُلقيها، وتارة يُلقيها في أذن وليِّه من الإنس قبل أن يدركه.

الخامسة عشرة: كون الكاهن يصدق بعض الأحيان: لأنه يأتي بما سمع من السماء ويزيد عليه، وإذا وقع ما في السماء، صار صادقًا.

اعتراض وجوابه: كيف يسمع المسترقون الكلمة وعندما يسأل الملائكة جبريل يجابون ـ«قال الحق» فقط؟

والجواب: إن الوحي لا يعلمه أهل السماء، بل هو من اللّه إلى جبريل إلى النبي ﷺ.

أما الأمور القدرية التي يتكلم اللّه بها، فليست خاصة بجبريل، بل ربما يعلمها أهل السماء مفصلة، ثم يسمعها مسترقوا السمع.

السادسة عشرة: كونه يكذب معها مائة كذبة: أي: يكذب مع الكلمة التي تلقاها من المسترق وقوله: «مئة كذبة» هذا على سبيل المبالغة كما سبق وليس على سبيل التحديد.

السابعة عشرة: أنه لم يصدق إلا بتلك الكلمة التي سمعت من السماء: وأما ما قاله من عنده؛ فهو تخرص، فالكلمة التي سمعها تصدق، والذي يضيفه كله كذب يموه به على الناس.

الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة؟!: وهذا صحيح، وليس صفة عامة لعامة الناس، بل لأهل الجهل والسفه، فهم يتعلقون بالكاهن من أجل صدقه مرة واحدة،

التاسعة عشرة: كونُهم يتلقَّى بعضهم من بعض تلك الكلمة ويحفظونَها ويستدلون بهَا.

العشرون: إثبات الصفات خلافًا للأشعرية المعطلة.

الحادية والعشرون: التصريح بأن تلك الرجفة والغشي خوفٌ من الله عز وجل.

الثانية والعشرون: أنَّهُم يخُرُّونَ لله سجدًا.

وأما مائة كذبة، فلا يعتبرون بها، ولا شك أن بعض السفهاء يغترون بالصالح المغمور بالمفاسد، ولكن لا يغتر به أهل العقل والإيمان، ولهذا لما نزل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]. تركهما كثير من الصحابة اعتباراً بالموازنة، والعاقل لا يمكن إذا وازن بين الأشياء أن يرجح جانب المفسدة، فهو وإن لم يأت الشرع بالتعيين يعرف ويميز بين المضار والمنافع.

التاسعة عشرة: كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة ويحفظونها...إلخ: الكلمة: هي الصدق؛ لأنها هي التي تروج بضاعتهم، ولو كانت بضاعتهم كلها كذبًا ما راجت بين الناس.

العشرون: إثبات الصفات خلافًا للأشعرية المعطلة: الأشعرية: هم الذين ينتسبون إلى أبي الحسن الأشعري، وسموا معطلة؛ لأنهم يعطلون النصوص عن المعنى المراد بها ويعطلون ما وصف الله به نفسه، والمراد تعطيل أكثر ذلك فإنهم يعطلون أكثر الصفات ولا يعطلون جميعها، بخلاف المعتزلة، فالمعتزلة ينكرون الصفات ويؤمنون بالأسماء، هؤلاء عامتهم، وإلا، فغلاتهم ينكرون حتى الأسماء، وأما الأشاعرة، فهم معطلة عامتهم اعتباراً بالأثر؛ لأنهم لا يثبتون من الصفات إلا سبعًا، وصفاته تعالى لا تحصى، وإثباتهم لهذه السبع ليس كإثبات السلف، فمثلاً: الكلام عند أهل السنة: أن الله يتكلم بمشيئته بصوت وحرف. والأشاعرة قالوا: الكلام لازم لذاته كلزوم الحياة والعلم، ولا يتكلم بمشيئة، وهذا الذي يسمع عبارة عن كلام الله وليس كلام الله، بل هو مخلوق، فحقيقة الأمر أنهم لم يثبتوا الكلام، ولهذا قال بعضهم: إنه لا فرق بيننا وبين المعتزلة في كلام الله؛ لأننا أجمعنا على أن ما بين دفتي المصحف مخلوق، وحجتهم في إثبات الصفات السبع: أن العقل دل عليها.

وشبهتهم في إنكار البقية زعموا أن العقل لا يدل عليها.

والرد عليهم بما يلي:

١ ـ أن كون العقل يدل على الصفات السبع لا يدل على انتفاء ما سواها؛ فإن انتفاء الدليل المعين لا يستلزم انتفاء المدلول، فهب أن العقل لا يدل على بقية الصفات، لكن السمع دل عليها، فنثبتها بالدليل السمعي.

٢ ـ أنها ثابتة بالدليل العقلي بنظير ما أثبتم هذه السبع، فمثلاً: الإرادة ثابتة لله عندهم بدليل التخصيص، حيث إن الله جعل الشمس شمسًا والقمر قمراً والسماء سماءً والأرض أرضًا، وكونه يميز بين ذلك معناه أنه سبحانه وتعالى يريد، إذ لولا الإرادة، لكانت الدنيا كلها سواء، فأثبتوها؛ لأن العقل دل عليها.

فنقول لهم: الرحمة لا تمضي لحظة على الخلق إلا وهم في نعمة من الله، فهذه النعم العظيمة من الله تدل على رحمته لخلقه أدل من التخصيص على الإرادة.

١٦ـ باب الشفاعة

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ الشفاعة.

أي بيانُ ما أثبته القرآن منها وما نفاه، وحقيقةُ ما دلَّ القرآنُ على إثباته.

باب الشفاعة

إنما ذكر المصنف الشفاعة في تضاعيف هذه الأبواب؛ لأن المشركين يبررون شركهم ودعاءهم للملائكة والأنبياء والأولياء بقولهم نحن ندعوهم مع علمنا أنهم مخلوقون مملوكون، ولكن حيث أن لهم عند الله جاهًا عظيمًا ومقامات عالية ندعوهم ليقربونا إلى الله زلفى، وليشفعوا لنا عنده كما يتقرب إلى الوجهاء عند الملوك والسلاطين ليجعلوهم وسائط لقضاء حاجاتهم وإدراك مآربهم. وهذا من أبطل الباطل، وهو تشبيه لله العظيم ملك الملوك الذي يخافه كل

والانتقام من العصاة يدل على بغضه لهم، وإثابة الطائعين ورفع درجاتهم في الدنيا والآخرة يدل على محبته لهم أدل على التخصيص من الإرادة، وعلى هذا فقس، فالمؤلف رحمه اللَّه لما كان الأشعرية لا يثبتون إلا سبع صفات على خلاف في إثباتها مع أهل السنة جعلهم معطلة على سبيل الإطلاق، وإلا؛ فالحقيقة أنهم ليسوا معطلة على سبيل الإطلاق.

الحادية والعشرون: التصريح بأن تلك الرجفة والغشي خوفًا من الله ـ عز وجل ـ: فيدل على عظمة اللَّه جل وعلا، حيث بلغ خوف الملائكة منه هذا المبلغ.

الثانية والعشرون: أنهم يخرون لله سجدًا: أي: تعظيمًا للَّه واتقاء لما يخشونه، فتفيد تعظيم اللَّه ـ عز وجل ـ كالتي قبلها.

❊ ❊ ❊

ذكر المؤلف رحمه اللَّه الشفاعة في كتاب التوحيد؛ لأن المشركين الذين يعبدون الأصنام يقولون: إنها شفعاء لهم عند اللَّه، وهم يشركون باللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ فيها بالدعاء والاستغاثة وما أشبه ذلك.

وهم بذلك يظنون أنهم معظمون للَّه، ولكنهم منتقصون له؛ لأنه عليم بكل شيء، وله الحكم التام المطلق والقدرة التامة، فلا يحتاج إلى شفعاء.

ويقولون: إننا نعبدهم ليكونوا شفعاء لنا عند اللَّه، فيقربونا إلى اللَّه، وهم ضالون في ذلك، فهو سبحانه عليم وقدير وذو سلطان، ومن كان كذلك؛ فإنه لا يحتاج إلى شفعاء.

والملوك في الدنيا يحتاجون إلى شفعاء، إما لقصور علمهم، أو لنقص قدرتهم، فيساعدهم الشفعاء في ذلك، أو لقصور سلطانهم، فيتجرأ عليهم الشفعاء فيشفعون بدون استئذان، ولكن اللَّه ـ عز وجل ـ كامل العلم والقدرة والسلطان، فلا يحتاج لأحد أن يشفع عنده، ولهذا لا تكون الشفاعة عنده سبحانه إلا بإذنه لكمال سلطانه وعظمته.

ثم الشفاعة لا يراد بها معونة اللَّه ـ سبحانه ـ في شيء، مما شفع فيه، فهذا ممتنع كما سيأتي في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه، ولكن يُقصد بها أمران، هما:

١ ـ إكرام الشافع. ٢ ـ نفع المشفوع له.

وقول الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقول الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[1] [الأنعام: ٥١].

الإنذار: هو الإعلامُ بأسباب المخافة، والتحذيرُ منها.

قوله ﴿به﴾: قال ابنُ عباس: القرآن، ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وهم المؤمنون.

وعن الفُضَيل بن عياض: ليس كلَّ خلْقه عاتب، إنما عاتب الذين يعقلون، فقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: وهم المؤمنون، أصحاب القلوب الواعية.

أحد، وتخضع له المخلوقات بأسرها، بالملوك الفقراء المحتاجين للوجهاء والوزراء في تكميل ملكهم ونفوذ قوتهم.

والشفاعة:

لغة: اسمٌ من شفع يشفع، إذا جعل الشيء اثنين، والشفع ضد الوتر، قال تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر: ٣].

واصطلاحًا: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.

مثال جلب المنفعة: شفاعة النبي ﷺ لأهل الجنة بدخولها.

مثال دفع المضرة: شفاعة النبي ﷺ لمن استحق النار أن لا يدخلها.

وذكر المؤلف رحمه الله في هذا الباب عدة آيات:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾: الإنذار: هو الإعلام المتضمن للتخويف، أما مجرد الخبر، فليس بإنذار، والخطاب للنبي ﷺ. والضمير في ﴿بِهِ﴾ يعود للقرآن؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]. وقال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ

---

(١) في قرة العيون: الشفاعة نوعان: (النوع الأول) شفاعة منفية في القرآن؛ وهي الشفاعة للكافر والمشرك قال تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] وقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨] ونحو هذه الآيات كقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨] يخبر تعالى أن من اتخذ هؤلاء شفعاء عند الله أنه لا يعلم أنهم يشفعون له بذلك وما لا يعلمه لا وجود له فنفى وقوع الشفاعة وأخبر أنها شرك بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣] فأبطل شفاعة من اتخذ شفيعًا بزعم أنه يقربه إلى الله وهو يبعده عنه وعن رحمته ومغفرته. لأنه جعل لله شريكًا يرغب إليه ويرجوه ويتوكل عليه ويحبه كما يحب الله تعالى أو أعظم.

(النوع الثاني) الشفاعة التي أثبتها القرآن وهي خالصة لأهل الإخلاص؛ وقيدها تعالى بأمرين:

الأمر الأول: إذنه للشافع أن يشفع كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وإذنه تعالى لا يصدر إلا إذا رحم عبده الموحد المذنب؛ فإذا رحمه الله تعالى أذن للشافع أن يشفع له.

الأمر الثاني: رضاه عمن أذن لشافع أن يشفع فيه. كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] فالإذن بالشفاعة له بعد الرضاء؛ كما في هذه الآية، وهو سبحانه لا يرضى إلا بالتوحيد. (ق).

وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] .

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ﴾: قال الزّجّاج: موضع ليس: نُصب على الحال، كأنه قال: متخلّين من وليّ وشفيع. والعاملُ فيه: يخافون.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: فيعملون في هذه الدار عملاً ينجيهم الله به من عذاب يوم القيامة[1].

قال المُصنّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ وقبلها ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣] وهذه الآية، كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] فبيَّن تعالى في هذه الآيات، وأمثالها: أنَّ وقوع الشفاعة على هذا الوجه، منتفٍ وممتنع.

وأنَّ اتخاذهم شفعاء شركٌ، يتنزّه الرب تعالى عنه. وقد قال تعالى: ﴿فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨] فبيَّن تعالى: أنَّ دعواهم أنهم يشفعون لهم بتألُّهِهم، أنَّ ذلك منهم إفكٌ وافتراء.

وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[2] أي: هو مالكها، وليس لمن تُطلب منه شيءٌ منها، وإنما تُطلب ممن يملكها دونَ كلِّ ما سواه؛ لأن ذلك عبادةٌ، وتألُّه لا يصلُح إلاَّ لله.

لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢].

قوله: ﴿يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا﴾: أي: يخافون مما يقع لهم من سوء العذاب في ذلك الحشر. والحشر: الجمع، وقد ضمن هنا معنى الضم والانتهاء، فمعنى يحشرون، أي: يجمعون حتى ينتهوا إلى الله.

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ﴾: ﴿وَلِيٌّ﴾. أي: ناصر ينصرهم.

﴿وَلا شَفِيعٌ﴾: أي: شافع يتوسط لهم، وهذا محل الشاهد.

ففي هذه الآية نفي الشفاعة من دون الله، أي من دون إذنه، ومفهومها، أنها ثابتة بإذنه، وهذا هو المقصود، الشفاعة من دونه مستحيلة، وبإذنه جائزة وممكنة.

أما عند الملوك؛ فجائزة بإذنهم وبغير إذنهم، فيمكن لمن كان قريبًا من السلطان أن يشفع بدون أن يستأذن. ويفيد قوله: ﴿مِّن دُونِهِ﴾ أن لهم بإذنه وليًا وشفيعًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة: ٥٥].

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾: مبتدأ وخبر، وقدم الخبر للحصر، والمعنى: لله وحده الشفاعة كلها، لا يوجد شيء منها خارج عن إذن الله وإرادته، فأفادت الآية في قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ أن هناك أنواعًا للشفاعة. وقد قسم أهل العلم رحمهم الله الشفاعة إلى قسمين رئيسين، هما:

---

(١) في قرة العيون: وتركوا التعلق على الشفعاء وغيرهم لأنه ينافي الإخلاص الذي لا يقبل الله من أحد عملاً بدونه. (ق).

(٢) في قرة العيون: دلت الآية على أن الشفاعة له سبحانه لأنها لا تقع إلا لأهل التوحيد بإذنه سبحانه وتعالى كما قال تعالى في الآية السابقة، وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ [يونس: ٣] فلا شفاعة إلا لمن هي له سبحانه، ولا تقع إلا ممن أذن له فيها. فتدبر هذه الآيات العظيمة في اتخاذ الشفعاء. (ق).

. . . .

قال البيضاوي: لعله ردٌّ لما عسى أنْ يُجيبوا به، وهو أنَّ الشفعاء أشخاصٌ مقربون.

وقوله: ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ تقريرٌ لبطلان اتخاذ الشفعاء من دونه؛ لأنه مالكُ الملك، فاندرج في ذلك ملكُ الشفاعة. فإذا كان هو مالكها، بطل أنْ تُطلب ممن لا يملكها [1] ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾، ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

قال ابن جرير: نزلت لما قال الكفار: ما نعبدُ أوثاننا [2] هذه إلاَّ ليقربونا إلى الله زُلفى. قال الله تعالى: ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٤].

القسم الأول: الشفاعة الخاصة بالرسول ﷺ، وهي أنواع:

النوع الأول: الشفاعة العظمى، وهي من المقام المحمود الذي وعده الله؛ فإن الناس يلحقهم يوم القيامة في ذلك الموقف العظيم من الغم والكرب ما لا يطيقونه، فيقول بعضهم لبعض: اطلبوا من يشفع لنا عند الله، فيذهبون إلى آدم أبي البشر، فيذكرون من أوصافه التي ميزه الله بها: أن الله خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء فيقولون: اشفع لنا عند ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيعتذر؛ لأنه عصى الله بأكله من الشجرة، ومعلوم أن الشافع إذا كان عنده شيء يخدش كرامته عند المشفوع إليه، فإنه لا يشفع لخجله ذلك، مع أن آدم عليه السلام قد تاب الله عليه واجتباه وهداه، قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢]، لكن لقوة حيائه من الله اعتذر. ثم يذهبون إلى نوح ويذكرون من أوصافه التي امتاز بها بأنه أول رسول أرسله الله إلى الأرض، فيعتذر بأنه سأل الله ما ليس له به علم حين قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]. ثم يذهبون إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فيذكرون من صفاته، ثم يعتذر بأنه كذب ثلاث كذبات، لكنها حق حسب مراده. ثم يذهبون إلى موسى ﷺ فيذكرون من أوصافه ما يقتضي أن يشفع، لكنه يعتذر بقتل نفس لم يؤمر بقتلها، وهي نفس القبطي حين استغاثه الإسرائيلي، فوكز موسى القبطي فقتله فقضى عليه. ثم يذهبون إلى عيسى عليه الصلاة والسلام، فيذكرون من أوصافه ما يقتضي أن يشفع؛ فلا يعتذر بشيء، لكن يحيل إلى من هو أعلى مقامًا، فيقول: اذهبوا إلى محمد، عبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيحيلهم إلى محمد ﷺ دون أن يذكر

---

(١) في قرة العيون: فليس لأحد في ملكه مثقال ذرة دونه سبحانه وبحمده، والإسلام هو أن تسلم قلبك وجوارحك لله بالإخلاص كما في المسند عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال لرسول الله ﷺ: فبالذي بعثك بالحق ما بعثك به؟ قال: «**الإسلام**». قال: وما الإسلام؟ قال: «**أن تسلم قلبك وأن توجه وجهك إلى الله؛ وأن تصلي الصلاة المكتوبة؛ وأن تؤدي الزكاة المفروضة**»، والآيات في بيان الإخلاص كثيرة، وهو أن لا يلتفت القلب ولا الوجه في جميع الأعمال كلها إلا لله وحده. كما قال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ١٤] فأمر تعالى بإخلاص الدعاء له وحده وأخبر أنه الدين الذي تصح معه الأعمال وتقبل. قال شيخ الإسلام: الإخلاص محبة الله وإرادة وجهه. (ق).

(٢) الأولى (ما نعبد أولياءنا) ولم أجد هذه الجملة كلها في تفسير ابن جرير. (ق).

. . . .

. . . .

عذراً يحول بينه وبين الشفاعة[١]، فيأتون محمداً ﷺ، فيشفع إلى الله ليريح أهل الموقف.

الثاني: شفاعته في أهل الجنة أن يدخلوها، لأنهم إذا عبروا الصراط ووصلوا إليها وجدوها مغلقة، فيطلبون من يشفع لهم، فيشفع النبي ﷺ إلى الله في فتح أبواب الجنة لأهلها، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر: ٧٣]، فقال: ﴿ وَفُتِحَتْ ﴾؛ فهناك شيء محذوف، أي: وحصل ما حصل من الشفاعة، وفتحت الأبواب، أما النار، فقال فيها: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ الآية.

الثالث: شفاعته ﷺ في عمه أبي طالب أن يخفف عنه العذاب[٢]، وهذه مستثناة من قوله تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]، وذلك لما كان لأبي طالب من نصرة للنبي ﷺ ودفاع عنه، وهو لم يخرج من النار، لكن خفف عنه حتى صار - والعياذ بالله - في ضحضاح من نار، وعليه نعلان منها يغلي منهما دماغه، وهذه الشفاعة خاصة بالرسول ﷺ، لا أحد يشفع في كافر أبداً إلا النبي ﷺ، ومع ذلك لم تقبل الشفاعة كاملة، وإنما هي تخفيف فقط.

القسم الثاني: الشفاعة العامة له ﷺ ولجميع المؤمنين.

وهي أنواع:

النوع الأول: الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها، وهذه قد يستدل لها بقول الرسول ﷺ: «ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئًا؛ إلا شفعهم الله فيه»[٣]، فإن هذه شفاعة قبل أن يدخل النار، فيشفعهم الله في ذلك.

النوع الثاني: الشفاعة فيمن دخل النار أن يخرج منها، وقد تواترت بها الأحاديث وأجمعت عليها الصحابة، واتفق عليها أهل الملل ما عدا طائفتين، وهما: المعتزلة والخوارج؛ فإنهم ينكرون الشفاعة في أهل المعاصي مطلقًا؛ لأنهم يرون أن فاعل الكبيرة مخلد في النار، ومن استحق الخلود؛ فلا تنفع فيه الشفاعة، فهم ينكرون أن النبي ﷺ أو غيره يشفع في أهل الكبائر أن لا يدخلوا النار، أو إذا دخلوها أن يخرجوا منها، لكن قولهم هذا باطل بالنص والإجماع.

النوع الثالث: الشفاعة في رفع درجات المؤمنين، وهذه تؤخذ من دعاء المؤمنين بعضهم لبعض كما قال ﷺ في أبي سلمة: «اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، وأفسح له في قبره، ونور له فيه، واخلفه في عقبه»[٤]، والدعاء شفاعة، كما قال ﷺ: « ما من مسلم يموت، فيقوم على

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤، ١٩٥)، والترمذي (٢٤٣٤)، وأحمد (٩٣٤٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩). (٣) صحيح: رواه مسلم (٩٤٨)، وأحمد (٢٥٠٥).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٩٢٠)، وأبو داود (٣١١٨)، وابن ماجه (١٤٥٤)، وأحمد (٢٦٠٠٣).

وقـوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْـفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البـقـرة: ٢٥٥].

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].
قد تبيَّن مما تقدم من الآيات: أنَّ الشفاعة التي نفاها القرآن، هي التي تُطلب من غير الله.
وفي هذه الآية: بيانُ أنَّ الشفاعة إنما تقع في الدار الآخرة بإذنه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ [طه: ١٠٩].
فبيَّن أنها لا تقع لأحدٍ، إلاَّ بشرطين: إذن الرب تعالى للشافع أنْ يشفع، ورضاهُ عن المأذون بالشفاعة فيه. وهو تعالى لا يرضى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة إلاَّ ما أُريد به وجهه، ولقيه العبدُ به مخلصًا غير شاكٍّ في ذلك؛ كما دلَّ على ذلك الحديثُ الصحيح. وسيأتي ذلك مقررًا، في كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى.

جنازته أربعون رجلاً لا يشركون باللَّه شيئًا، إلا شفعهم اللَّه فيه».
إشكال وجوابه.
فإن قيل: إن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه سبحانه؛ فكيف يسمى دعاء الإنسان لأخيه شفاعة وهو لم يستأذن من ربه؟
والجواب: إن اللَّه أمر بأن يدعو الإنسان لأخيه الميت، وأمره بالدعاء إذنٌ وزيادة.
وأما الشفاعة الموهومة التي يظنها عباد الأصنام من معبوديهم، فهي شفاعة باطلة؛ لأن اللَّه لا يأذن لأحد بالشفاعة إلا من ارتضاه من الشفعاء والمشفوع لهم.
إذًا قوله: ﴿لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] تفيد أن الشفاعة متعددة كما سبق.
الآية الثالثة: قوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾:
﴿مَن﴾: اسم استفهام بمعنى النفي، أي: لا يشفع أحد عند اللَّه إلا بإذنه.
﴿ذَا﴾ هل تجعل ذا اسمًا موصولاً كما قال ابن مالك في الألفية، أو لا تصح أن تكون اسمًا موصولاً هنا لوجود الاسم الموصول: ﴿الَّذِي﴾؟
الثاني هو الأقرب، وإن كان بعض المعربين قال: يجوز أن تكون ﴿الَّذِي﴾ توكيدًا لها.
والصحيح أن ﴿ذَا﴾ هنا إما مركبة مع ﴿مَن﴾ أو زائدة للتوكيد، وأيا كان الإعراب، فالمعنى: أنه لا أحد يشفع عند اللَّه إلا بإذن اللَّه. وسبق أن النفي إذا جاء في سياق الاستفهام، فإنه يكون مضمنًا معنى التحدي، أي إذا كان أحد يشفع بغير إذن اللَّه فائت به.
قوله: ﴿عِندَهُ﴾: ظرف مكان، وهو سبحانه في العلو؛ فلا يشفع أحد عنده ولو كان مقربًا، كالملائكة المقربين، إلا بإذنه الكوني، والإذن لا يكون إلا بعد الرضا.
وأفادت الآية: أنه يشترط للشفاعة إذن اللَّه فيها لكمال سلطانه جل وعلا، فإنه كلما كمل سلطان الملك، فإنه لا أحد يتكلم عنده ولو كان بخير، إلا بعد إذنه، ولذلك يعتبر اللغط في مجلس الكبير إهانةً له، ودليلاً على أنه ليس كبيرًا في نفوس من عنده، كان الصحابة مع الرسول ﷺ كأنما على

وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦].

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦].

قال ابنُ كثير: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ كقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾، ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ إذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأنداد عند الله وهو لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها. بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله، وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه؟

رؤوسهم الطير من الوقار وعدم الكلام إلا إذا فتح الكلام، فإنهم يتكلمون.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾: كم: خبرية للتكثير، والمعنى: ما أكثر الملائكة الذين في السماء، ومع ذلك لا تغني شفاعتهم شيئًا إلا بعد إذن الله ورضاه.

قوله: ﴿إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾: فللشفاعة شرطان، هما:

١ ـ الإذن من الله، لقوله: ﴿أَن يَأْذَنَ اللَّهُ﴾.

٢ ـ رضاه عن الشافع والمشفوع له، لقوله: ﴿وَيَرْضَىٰ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فلا بد من إذنه تعالى ورضاه عن الشافع والمشفوع له؛ إلا في التخفيف عن أبي طالب، وقد سبق ذلك. وهذه الآية في سياق بيان بطلان ألوهية اللات والعزى، قال تعالى بعد ذكر المعراج وما حصل للنبي ﷺ فيه: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١٨]، أي: العلامات الدالة عليه عز وجل، فكيف به سبحانه؟ فهو أكبر وأعظم! ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]، وهذا استفهام للتحقير، فبعد أن ذكر الله هذه العظمة قال: أخبروني عن هذه اللات والعزى ما عظمتها؟ وهذا غاية في التحقير، ثم قال: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ [النجم: ٢١ ـ ٢٦] الآية. فإذا كانت الملائكة وهي في السموات في العلو لا تغني شفاعتهم إلا بعد إذنه تعالى ورضاه، فكيف باللات والعزى وهي في الأرض؟! ولهذا قال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ﴾، مع أن الملائكة تكون في السموات وفي الأرض، ولكن أراد الملائكة التي في السموات العلى، وهي عند الله ـ سبحانه ـ فحتى الملائكة المقربون حملة العرش لا تغني شفاعتهم إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى.

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا﴾: الأمر في قوله: ﴿ادْعُوا﴾ للتحدي والتعجيز، وقوله: ﴿ادْعُوا﴾ يحتمل معنيين، هما:

وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[1] [سبأ: ٢٢، ٢٣].

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

قال ابنُ القيم رحمه الله تعالى، في الكلام على هذه الآيات: وقد قطع الله الأسباب التي يتعلَّق بها المشركون جميعها. فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع، والنفع لا يكون إلاَّ ممن فيه خصلةٌ من هذه الأربع: إمَّا مالكٌ لما يريدُه عابدُه منه، فإنْ لم يكن مالكًا كان شريكًا للمالك، فإنْ لم يكن شريكًا له كان مُعينًا له وظهيرًا، فإنْ لم يكن مُعينًا ولا ظهيرًا كان شفيعًا عنده.

فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيًا مُرتبًا، منتقلاً من الأعلى إلى الأدنى. فنفى الملك والشركة، والمظاهرة والشفاعة التي يطلُبها المشرك. وأثبت شفاعةً لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعةُ بإذنه.

فكفى بهذه الآية: نورًا وبرهانًا، وتجريدًا للتوحيد، وقطعًا لأصول الشرك وموادّه لمن عقلها.

والقرآنُ مملوءٌ من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له. ويظنه في نوعٍ وقومٍ قد خلوا من قبلُ، ولم يُعقبوا وارثًا. وهذا هو الذي يحولُ بين القلب وبين فهم القرآن. ولعمر الله، إنْ كان أولئك قد خلوا، فقد ورثهم من هو مثلُهم أو شرٌّ منهم، أو دونهم. وتناولُ القرآن لهم كتناوله لأولئك. ثم قال: ومن نوعه ـ أي: الشرك ـ طلبُ الحوائج من الموتى، والاستغاثةُ بهم. وهذا أصلُ شرك العالم؛ فإنَّ الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، فضلاً لمن استغاث به وسأله أن يشفع له إلى الله. وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده. فإنه لا يقدر أنْ يشفع له عند الله إلاَّ بإذنه، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سببًا لإذنه وإنما السبب كمالُ التوحيد. فجاء هذا المشركُ بسبب يمنع الإذن، وهو بمنزلة من استعان في حاجته بما يمنع حصولها. وهذه حالةُ كلِّ مشرك.

فأبطل الله هذا الزعم وبين أن الشفاعة كلها له كما أن الملك كله له، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، ولا يرضى إلا توحيده وإخلاص العمل له. فبين أن المشرك ليس له حظ ولا نصيب من الشفاعة.

---

١ ـ أحضروهم. ٢ ـ ادعوهم دعاء مسألة.

---

(١) في قرة العيون: فإذا كان هذا في حق الملائكة الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ..... كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩] الآيات. فظهر من هذه الآيات المحكمات ما يبين حقيقة الشفاعة المثبتة في القرآن التي هي ملك لله لا يملكها غيره. وقيد حصولها بقيدين كما في هذه الآية وغيرها كما تقدم قريبًا: إذنه للشافع أن يشفع كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] والثاني: رضاه عمن أراد رحمته ممن أذنب من الموحدين. فاختصت الشفاعة بأهل الإخلاص خاصة، وإن اتخاذ الشفعاء بلا إذن من دين المشركين قد أنكره الله عليهم فيما تقدم من الآيات. (ق).

. . . .

فجمعوا: بين الشرك بالمعبود، وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد، ونسبة أهله إلى التنقص بالأموات. وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك، وأولياء الموحدين بذمهم وعيبهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص؛ إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، وأنهم أمروهم به، وأنهم يوالونهم عليه. وهؤلاء هم أعداءُ الرسل في كلِّ زمانٍ ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم. وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلاَّ من جَرَّد توحيده لله، وعادى المشركين في الله، وتقرب بمقتهم إلى الله، واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده. فجرَّد حُبَّه لله، وخوفه لله، ورجاءه لله، وذله لله، وتوكُّله على الله، واستعانته بالله، والتجاءه إلى الله، واستغاثته بالله، وقصده لله. متبعًا لأمره، مُتطلِّبًا لمرضاته. إذا سأل سأل الله، وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمل عمل لله. فهو لله، وبالله، ومع الله. انتهى كلامه رحمه الله. وهذا الذي ذكره هذا الإمام: هو حقيقةُ دينِ الإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: ١٢٥].

فلو دعوهم دعاء مسألة لا يستجيبون لهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

يكفرون: يتبرؤون، ومع هذه الآيات العظيمة يذهب بعض الناس يشرك بالله ويستنجد بغير الله، وكذلك لو دعوهم دعاء حضور لم يحضروا، ولو حضروا ما انتفعوا بحضورهم.

قوله: ﴿لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾: واحدة الذر: وهي صغار النمل، ويضرب بها المثل في القلة.

قوله: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، وكذلك ما دون الذرة لا يملكونه، والمقصود بذكر الذرة المبالغة، وإذا قصد المبالغة بالشيء قلةً أو كثرةً، فلا مفهوم له، فالمراد الحكم العام، فمثلاً قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]. أي: مهما بالغت في الاستغفار. ولا يرد على هذا أن الله أثبت ملكًا للإنسان، لأن ملك الإنسان قاصر وغير شامل ومتجدد وزائل، وليس كملك الله.

قوله: ﴿مَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾: أي: ما لهؤلاء الذين تدعون من دون الله.

﴿فِيهِمَا﴾: أي: في السموات والأرض.

﴿مِن شِرْكٍ﴾: أي: مشاركة، أي لا يملكونه انفرادًا ولا مشاركة.

﴿مِن شِرْكٍ﴾: مبتدأ مؤخر دخلت عليه ﴿مِن﴾ الزائدة لفظًا، لكنها للتوكيد معنى.

وكل زيادة لفظية في القرآن؛ فهي زيادة في المعنى.

وأتت ﴿مِن﴾ للمبالغة في النفي، وأنه ليس هناك شرك لا قليل ولا كثير.

قوله: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾: الضمير في ﴿مَا لَهُ﴾ يعود إلى الله تعالى، وفي ﴿مِنْهُم﴾ يعود إلى الأصنام، أي: ما لله تعالى من هذه الأصنام ظهير.

و﴿مِن﴾: حرف جر زائد. و﴿ظَهِيرٍ﴾: مبتدأ مؤخر بمعنى معين، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ

قال أبو العباس: نفى الله عمَّا سواه كلَّ ما يتعلق به المشركون. فنفى أنْ يكون لغيره ملكٌ أو قسطٌ منه، أو يكون عونًا لله. ولم يبقَ إلاَّ الشفاعة، فبيَّن أنها لا تنفعُ إلاَّ لمن أذن له الرب، كما قال: ﴿ولا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: قال أبو العباس: نفى الله عمَّا سواه، كلَّ ما يتعلق به المشركون. فنفى أنْ يكون لغيره ملكٌ أو قسطٌ منه، أو يكون عونًا لله. ولم يبقَ إلاَّ الشفاعة، فبيَّن أنها لا تنفعُ إلاَّ لمن أذن له الرب، كما قال: ﴿ولا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]، أي معينًا. وقال تعالىٰ: ﴿وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] أي: معين. أي: ليس للَّه معين يعينه في أفعاله، وبذلك ينتفي عن هذه الأصنام كل ما يتعلق به العابدون، فهي لا تملك شيئًا علىٰ سبيل الانفراد ولا المشاركة ولا الإعانة، لأن من يعينك وإن كان غير شريك لك يكون له منة عليك، فربما تحابيه في إعطائه ما يريد. فإذا انتفت هذه الأمور الثلاثة، لم يبق إلا الشفاعة، وقد أبطلها اللَّه بقوله: ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]. فلا تنفع عند اللَّه الشفاعة لهؤلاء، لأن هذه الأصنام لا يأذن اللَّه لها، فانقطعت كل الوسائل والأسباب للمشركين، وهذا من أكبر الآيات الدالة علىٰ بطلان عبادة الأصنام، لأنها لا تنفع عابديها لا استقلالاً ولا مشاركة ولا مساعدة ولا شفاعة، فتكون عبادتها باطلة.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف: ٥]، حتىٰ ولو كان المدعو عاقلاً، لقوله: ﴿من﴾، ولم يقل: «ما» ثم قال تعالىٰ: ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾: [الأحقاف: ٥، ٦].

وكل هذه الآيات تدل علىٰ أنه يجب علىٰ الإنسان قطع جميع تعلقاته إلا باللَّه عبادة وخوفًا ورجاء واستعانة ومحبة وتعظيمًا، حتىٰ يكون عبداً للَّه حقيقة، يكون هواه وإرادته وحبه وبغضه وولاؤه ومعاداته للَّه وفي اللَّه؛ لأنه مخلوق للعبادة فقط. قال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، أي: لا نأمركم ولا ننهاكم، إذ لو خلقناكم فقط للأكل والشرب والنكاح فكان ذلك عين العبث، ولكن هناك شيء وراء ذلك، وهو عبادة اللَّه سبحانه في هذه الدنيا.

قوله: ﴿إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾: أي: وحسبتم أنكم إلينا لا ترجعون، فنجازيكم إذا كان هذا هو حسبانكم، فهو حسبان باطل.

قوله: «قال أبو العباس»: هو شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية رحمه اللَّه يكنىٰ بذلك، ولم يتزوج لأنه كان مشغولاً بالعلم والجهاد، وليس زاهدًا في السنة، مات سنة ٧٢٨هـ، وله ٦٧ سنة، و١٠ أشهر(١).

قوله: «لغيره ملك»: أي: لغير اللَّه في قوله: ﴿لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾.

---

(١) راجع ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية في الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية للحافظ عمر بن علي البزار، وسير أعلام النبلاء للذهبي، والبداية والنهاية للحافظ ابن كثير.

فهذه الشفاعةُ التي يظنها المشركون: هي مُنتفيةٌ يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النبي ﷺ: أنه يأتي فيسجدُ لربه ويحمَدُه. لا يبدأ بالشفاعة أولاً، ثم يقال له: «ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تُعط واشفع تُشفَّع»(١).

وقال له أبو هريرة: من أسعدُ الناس بشفاعتك؟ قال: «من قال:

فهذه الشفاعةُ التي يظنها المشركون: هي مُنتفيةٌ يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النبيُّ ﷺ: أنه يأتي فيسجدُ لربه ويحمَدُه. لا يبدأ بالشفاعة أولاً، ثم يقال له: «ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تُعط واشفع تُشفَّع».

وقال له أبو هريرة: من أسعدُ الناس بشفاعتك؟ قال: «من قال: لا إله إلا الله خالصًا من

وبين أن الشفاعة المثبتة التي تقع بإذنه إنما هي الشفاعة لأهل الإخلاص خاصة وأنها كلها منه، رحمة منه وكرامة للشافع، ورحمة منه وعفوا عن المشفوع له، وأنه هو المحمود عليها في الحقيقة وهو الذي أذن لمحمد ﷺ فيها وأناله المقام المحمود. فهذا ما دل عليه الكتاب والسنة في تفصيل القول في الشفاعة.

وقد ذكر المصنف رحمه الله كلام الشيخ تقي الدين في هذا الموضع وهو كاف شاف، فالمقصود في هذا الباب ذكر النصوص الدالة على إبطال كل وسيلة وسبب يتعلق به المشركون بآلهتهم، وأنه ليس لها من الملك شيء: لا استقلالا ولا مشاركة ولا معاونة ولا مظاهرة، ولا من الشفاعة شيء، وإنما ذلك كله لله وحده، فتعين أن يكون المعبود وحده.

قوله: «أو قسط منه» في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

قوله: «أو يكون عونًا لله» في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ بدون استثناء.

قوله: «ولم يبق إلا الشفاعة»: فبين أنها لا تنفع إلا من أذن له الرب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾.

وقال: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ومعلوم أنه لا يرضى هذه الأصنام لأنها باطلة، وحينئذ فتكون شفاعتها منتفية. واعلم أن شرك المشركين في السابق كان في عبادة الأصنام، أما الآن، فهو في طاعة المخلوق في المعصية، فإن هؤلاء يقدسون زعماءهم أكثر من تقديس اللَّه إن أقروا به، فيقال لهم: إنهم بشر مثلكم، خرجوا من مخرج البول والحيض، وليس لهم شرك في السموات ولا في الأرض، ولا يملكون الشفاعة لكم عند اللَّه، إذًا فكيف تتعلقون بهم؟ حتى إن الواحد منهم يركع لرئيسه أو يسجد له كما يسجد لرب العالمين. والواجب علينا نحو ولاة الأمور طاعتهم، وطاعتهم من طاعة اللَّه، وليست استقلالاً، أما عبادتهم كعبادة اللَّه، فهذه جاهلية وكفر.

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة، كما نفاها القرآن؛ فاللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ نفى أن تنفعهم أصنامهم، بل قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، حتى الأصنام لا تنفع نفسها ولا يشفع لها؛ فكيف تكون شافعة؟ بل هي وعابدوها في النار.

قوله: «وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه»: أي: وكما أخبر، فالواو عاطفة، ويجوز أن تكون استئنافية، فإذا

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣).

لا إله إلا الله خالصًا من قلبه» فتلك الشفاعةُ لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

قلبه»(١) فتلك الشفاعةُ لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله:

كان الرسول ﷺ وهو أعظم الناس جاهًا عند اللَّه لا يشفع إلا بعد أن يحمد اللَّه ويثني عليه، فيحمد اللَّه بمحامد عظيمة يفتحها اللَّه عليه لم يكن يعلمها من قبل، ويطول سجوده، فكيف بهذه الأصنام، هل يمكن أن تشفع لأصحابها؟

قوله: «ارفع رأسك»: أي: من السجود.

قوله: «وقل يسمع»: السامع هو اللَّه، و«يسمع»: جواب الأمر مجزوم.

قوله: «وسل تعط»: أي: سل ما بدا لك تعط إياه، وتعط: مجزوم بحذف حرف العلة جوابًا لسل.

وحينئذ يشفع النبي ﷺ في الخلائق أن يُقضى بينهم.

قوله: «وقال أبو هريرة له ﷺ: من أسعد الناس بشفاعتك؟»: هذا السؤال من أبي هريرة للنبي ﷺ؛ فقال له النبي ﷺ: «لقد كنت أظن أن لا يسألني أحد غيرك عنه لما أرى من حرصك على العلم»، وفي هذا دليل على أن من وسائل تحصيل العلم السؤال.

قوله: «من قال لا إله إلا اللَّه خالصًا من قلبه». وعليه، فالمشركون ليس لهم حظ من الشفاعة لأنهم لا يقولون: لا إله إلا اللَّه، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦].

وقال تعالى حكاية عنهم: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

والحقيقة أن صنيعهم هو العجاب، قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

قوله: «خالصًا من قلبه»: خرج بذلك من قالها نفاقًا، فإنه لا حظ له في الشفاعة، فإن المنافق يقول: لا إله إلا اللَّه، ويقول: أشهد أن محمدًا رسول الله، لكن اللَّه عز وجل قابل شهادتهم هذه بشهادته على كذبهم. قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]. أي: في شهادتهم في قولهم: إنك لرسول اللَّه؛ فهم كاذبون في شهادتهم.

وفي قولهم: لا إله إلا اللَّه، لأنهم لو شهدوا بذلك حقًا ما نافقوا ولا أبطنوا الكفر.

قوله: «خالصًا»: أي: سالمًا من كل شوب، فلا يشوبها رياء ولا سمعة، بل هي شهادة يقين.

قوله: «من قلبه»: لأن المدار على القلب، هو ليس معنى من المعاني، بل هو مضغة في صدور الناس، قال اللَّه تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾.

وقال ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله»(٢). وبهذا يبطل قول من

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٩٩، ٦٥٧٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)، وابن ماجه (٣٩٨٤)، والدارمي (٢٥٣١).

حقيقتُـه: أنَّ الله سبحانه وتعالى هو الذي يتفضَّل على أهل الإخـلاص، فيغفرُ لهم بواسطة دعاء من أذن له أنْ يشفع، لـيُكرمَه وينال المقام المحمود. فالشـفاعةُ التي نفاها القـرآن: ما كان فـيها شرك، ولهـذا أثبت الشفاعـةَ بإذنه في مواضع، وقد بيَّن النبيُّ ﷺ أنها لا تكـون إلاَّ لأهل التوحيـد والإخلاص. اهـ كـلامه.

وحقيقُته: أنَّ الله سبحانه وتعالى هو الذي يتفضَّل على أهل الإخلاص، فيغفرُ لهم بواسطة دعاء من أذن له أنْ يشفع، ليُكرمَه وينال المقام المحمود. فالشفاعةُ التي نفاها القرآن: ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعةَ بإذنه في مواضع، وقد بيَّن النبيُّ ﷺ أنها لا تكون إلاَّ لأهل التوحيد والإخلاص.

قوله: (قال أبو العباس): هو كُنيةُ شيخ الإسلام، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، إمام المسلمين رحمه الله.

قوله: (وقال له أبو هريرة) إلى آخره. هذا الحديث رواه البخاري، والنسائي، عن أبي هريرة. ورواه أحمدُ، وصححه ابنُ حبان، وفيه: «**وشفاعتي لمن قال: لا إله إلاَّ الله مخلصًا، يُصدِّقُ قلبُه لسانَه، ولسانه قلبه**»[(١)].

وشاهدُه في (صحيح مسلم)، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «**لكل نبي دعوةٌ مُستجابة، فتعجَّل كلُّ نبي دعوته، وإني اختبأتُ دعوتي شفـاعةً لأمتي يوم القيامة، فهي نائلةٌ إنْ شاء الله من مات لا يُشرك بالله شيئًا**»[(٢)].

قال: إن العقل في الدماغ، ولاينكر أن للدماغ تأثيراً في الفهم والعقل، لكن العقل في القلب، ولهذا قال الإمام أحمد: «العقل في القلب، وله اتصال في الدماغ». ومن قال كلمة الإخلاص خالصًا من قلبه، فلا بد أن يطلب هذا المعبود بسلوك الطرق الموصلة إليه؛ فيقوم بأمر الله ويدع نهيه.

قوله: «**فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص**»: لأن من أشرك بالله قال الله فيه: ﴿**فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾ [المدثر: ٤٨].

قوله: «**وحقيقته أن الله ـ سبحانه ـ هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أنه يشفع**»: وحقيقته، أي: حقيقة أمر الشفاعة، أي الفائدة منها: أن الله ـ عز وجل ـ أراد أن يغفر للمشفوع له، ولكن بواسطة هذه الشفاعة.

والحكمة من هذه الواسطة بينها بقوله: «**ليكرمه وينال المقام المحمود**».

ولو شاء الله لغفر لهم بلا شفاعة، ولكنه أراد بيان فضل هذا الشافع وإكرامه أمام الناس، ومن المعلوم أن من قبل الله شفاعته، فهو عنده بمنزلة عالية؛ فيكون في هذا إكرام للشافع من وجهين:

الأول: إكرام الشافع بقبول شفاعته. الثاني: ظهور جاهه وشرفه عند الله تعالى.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢/ ٣٠٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٤٠٤): رواه أحمد ورجاله رجال معاوية بن معتب وهو ثقة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٩).

....

وقد ساق المُصنِّفُ رحمه الله كلام شيخ الإسلام هنا، فقام مقام الشرح والتفسير لما في هذا الباب من الآيات. وهو كافٍ وافٍ، بتحقيق مع الإيجاز. والله أعلم.

وقد عَرَّف الإخلاص بتعريفٍ حسن، فقال: الإخلاصُ: محبّةُ الله وحده، وإرادةُ وجهه.

وقال ابن القيم رحمه الله في معنى حديث أبي هريرة: تأمل هذا الحديث كيف جعل الأسباب التي تُنال بها شفاعته: تجريد التوحيد، عكس ما عند المشركين أنَّ الشفاعة تُنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم. فقلَب النبيُّ ﷺ ما في زعمهم الكاذب، وأخبر أنَّ سبب الشفاعة تجريدُ التوحيد، فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع.

ومن جهْل المشرك اعتقادُه أنَّ من اتخذه وليًا أو شفيعًا، أنه يشفعُ له وينفعه عند الله، كما يكون خواصُّ الملوك والولاة تنفع مَن والاهم.

ولم يعلموا أنه لا يشفعُ عنده أحدٌ إلاَّ بإذنه، ولا يأذن في الشفاعة إلاَّ لمن رضي قوله وعمله؛ كما قال في الفصل الأول: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ وفي الفصل الثاني: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ وبقي فصل ثالث، وهو أنه لا يرضىٰ من القول والعمل إلاَّ توحيده واتباع رسوله ﷺ. فهذه ثلاثةُ فصول، تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها. انتهىٰ.

وذكر أيضًا رحمه الله: أنَّ الشفاعة ستةُ أنواع:

الأول: الشفاعةُ الكبرىٰ، التي يتأخَّرُ عنها أُولو العزم عليهم الصلاة والسلام، حتىٰ تنتهي إليه ﷺ، فيقول: «أنا لها»[1]. وذلك حين يرغبُ الخلائقُ إلىٰ الأنبياء، ليشفعوا لهم إلىٰ ربهم حتىٰ يُريحهم من مقامهم في الموقف.

وهذه شفاعةٌ يختصُّ بها لا يشركه فيها أحد.

الثاني: شفاعتُه لأهل الجنة، في دخولها. وقد ذكرها أبو هريرة، في حديثه الطويل المتفق عليه.

الثالث: شفاعتُه لقوم من العُصاة من أمته، قد استوجبوا النار بذنوبهم، فيشفعُ لهم أن لا يدخلوها.

قوله: «**المقام المحمود**»: أي: المقام الذي يحمد عليه وأعظم الناس في ذلك رسول اللّه ﷺ؛ فإن اللّه وعده أن يبعثه مقامًا محمودًا.

ومن المقام المحمود: أن اللّه يقبل شفاعته بعد أن يتراجع الأنبياء أولو العزم عنها.

ومن يشفع من المؤمنين يوم القيامة؛ فله مقام يحمد عليه علىٰ قدر شفاعته.

قوله: «**فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك**».

هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّه.

«ما» اسم موصول، أي: التي كان فيها شرك.

قوله: «**وقد أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع**»: ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيات.

الثانية: صفة الشفاعة المنفية.

الثالثة: صفة الشفاعة المثبتة.

الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرى، وهي المقام المحمود.

الخامسة: صفة ما يفعله ﷺ، وأنه لا يبدأ بالشفاعة، بل يسجد، فإذا أذِنَ الله له شفَع.

الرابع: شفاعتُه في العُصاة من أهل التوحيد، الذين يدخلون النار بذنوبهم.

والأحاديث بها متواترة عن النبي ﷺ، وقد أجمع عليها الصحابةُ وأهلُ السنة قاطبة، وبدَّعوا من أنكرها، وصاحوا به من كلِّ جانب، ونادوا عليه بالضلال.

الخامس: شفاعتُه لقوم من أهل الجنة، في زيادة ثوابهم ورفعة درجاتهم. وهذه مما لم يُنازع فيها أحد.

وكلها مختصةٌ بأهل الإخلاص، الذين لم يتخذوا من دون الله وليًا ولا شفيعًا، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ [الأنعام: ٥١].

السادس: شفاعتُه في بعض الكُفَّار من أهل النار، حتىٰ يُخفَّفَ عذابه. وهذه خاصةٌ بأبي طالب وحده.

إلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ [النجم: ٢٦].

قوله: «وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل الإخلاص والتوحيد»: أما أهل الشرك، فإن الشفاعة لا تكون لهم، لأن شفعاءهم هي الأصنام، وهي باطلة.

وجه إدخال باب الشفاعة في كتاب التوحيد: أن الشفاعة الشركية تنافي التوحيد، والبراءة منها هو حقيقة التوحيد.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيات: وهي خمس، وسبق تفسيرها في محلها.

الثانية: صفة الشفاعة المنفية: وهي ما كان فيها شرك، فكل شفاعة فيها شرك، فإنها منفية.

الثالثة: صفة الشفاعة المثبتة: وهي شفاعة أهل التوحيد بشرط إذن اللَّه تعالىٰ ورضاه عن الشافع والمشفوع له.

الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرى، وهي المقام المحمود: وهي الشفاعة في أهل الموقف أن يقضى بينهم، وقول الشيخ: « وهي المقام المحمود»، أي منه.

الخامسة: صفة ما يفعله ﷺ، وأنه لا يبدأ بالشفاعة، بل يسجد، فإذا أذن له، شفع: كما قال شيخ الإسلام رحمه اللَّه، وهو ظاهر، وهذا يدل على عظمة الرب وكمال أدب النبي ﷺ.

السادسة: من أسعد الناس بها؟ هم أهل التوحيد والإخلاص من قال: لا إله إلا اللَّه خالصًا من قلبه.

ولا إله إلا اللَّه معناه: لا معبود بحق إلا اللَّه، وليس المعنىٰ: لا معبود إلا اللَّه، لأنه لو كان كذلك، لكان الواقع يكذب هذا، إذ أن هناك معبودات من دون اللَّه تعبد وتسمىٰ آلهة، ولكنها

السادسة: من أسعد الناس بهَا؟

السابعة: أنَّهَا لا تكون لمن أشرك بالله.

الثامنة: بيان حقيقتها.

. . . .

باطلة، وحينئذ يتعين أن يكون المراد لا إله حق إلا اللَّه.

ولا إله إلا اللَّه تتضمن نفيًا وإثباتًا، هذا هو التوحيد، لأن الإثبات المجرد لا يمنع المشاركة، والنفي المجرد تعطيل محض.

فلو قلت: لا إله معناه عطلت كل إله، ولو قلت: اللَّه إله ما وحدت؛ لأن مثل هذه الصيغة لا تمنع المشاركة.

ولهذا قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]. لما جاء الإثبات، فقط أكده بقوله: واحد.

السابعة: أنها لا تكون لمن أشرك باللَّه: لقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وغير ذلك مما نفى اللَّه فيه الشفاعة للمشركين، ولقوله ﷺ: «خالصًا من قلبه».

الثامنة: بيان حقيقتها: وحقيقتها: أن اللَّه تعالى يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود.

* * *

١٧ـ باب قول الله تعالى:

﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى:

بابُ قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

سبب نزول هذه الآية: موتُ أبي طالب على ملَّة عبد المطلب، كما يأتي بيانُ ذلك في حديث الباب.

قال ابن كثير: يقول تعالى لرسوله: إنك يا محمد ﴿لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي: ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ، والله يهدي من يشاء، وله الحكمةُ البالغة، والحجة الدامغة.

كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

قلت: والمنفيُّ هنا هدايةُ التوفيق والقبول؛ فإنَّ أمر ذلك إلى الله، وهو القادرُ عليه. وأمَّا الهداية المذكورة في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فإنها هدايةُ الدلالة والبيان.

فهو المبيِّنُ عن الله، والدالُّ على دينه وشرعه.

باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]

قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وهذا الباب أيضًا نظير الباب الذي قبله، وذلك أنه إذا كان ﷺ هو أفضل الخلق على الإطلاق وأعظمهم عند الله جاهًا وأقربهم إليه وسيلة، لا يقدر على هداية من أحب هداية التوفيق وإنما الهداية كلها بيد الله، فهو الذي تفرد بهداية القلوب كما تفرد بخلق المخلوقات.

مناسبة هذا الباب لما قبله:

مناسبته أنه نوع من الباب الذي قبله، فإذا كان لا أحد يستطيع أن ينفع أحداً بالشفاعة والخلاص من العذاب، كذلك لا يستطيع أحد أن يهدي أحداً، فيقوم بما أمر اللّه به.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦].

الخطاب للنبي ﷺ، وكان يحب هداية عمه أبي طالب أو من هو أعم.

فأنت يا محمد المخاطب بكاف الخطاب، وله المنزلة الرفيعة عند اللّه لا تستطيع أن تهدي من أحببت هدايته، ومعلوم أنه إذا أحب هدايته، فسوف يحرص عليه، ومع ذلك لا يتمكن من هذا الأمر، لأن الأمر كله بيد اللّه.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ [آل عمران:١٢٨]. وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود:١٢٣]، فأتى بـ«أل» الدالة على الاستغراق؛ لأن«أل» في قوله: «الأمر» للاستغراق، فهي نائبة مناب كل، أي: وإليه يرجع كل الأمر، ثم جاءت مؤكدة بكل، وذلك توكيدان.

والهداية التي نفاها اللّه عن رسوله ﷺ هداية التوفيق، والتي أثبتها له هداية الدلالة والإرشاد، ولهذا أتت مطلقة لبيان أن الذي بيده هو هداية الدلالة فقط، لا أن يجعله مهتدياً.

وفي الصحيح، عن ابن المسيَّب عن أبيه، قال: لما حضرَتْ أبا طالب الوفاة، جاءه رسولُ الله ﷺ وعنده عبدُ الله بن أبي أُميَّة، وأبو جهل، فقال له: «يا عمِّ، قُل: لا إله إلا الله، كلمةً أحاجُّ لك بها عند الله». فقالا له: أترغبُ عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبيُّ ﷺ، فأعادا. فكان آخرُ ما قال: هو على ملَّة عبد المطلب. وأبى أنْ يقول: لا إله إلا الله. فقال النبيُّ ﷺ: «لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك» فأنزل الله عز وجل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل في أبي طالب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[1].

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: في الصحيح، عن ابن المسيَّب عن أبيه، قال: لما حضرَتْ أبا طالب الوفاة، جاءه رسولُ الله ﷺ وعنده عبدُ الله بن أبي أُميَّة، وأبو جهل، فقال له: «يا عمِّ، قل: لا إله إلاَّ الله، كلمةً أحاجُّ لك بها عند الله». فقالا له: أترغبُ عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبيُّ ﷺ، فأعادا. فكان آخرُ ما قال: هو على ملَّة عبد المطلب. وأبى أنْ يقول: لا إله إلا الله. فقال النبيُّ ﷺ: «لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك» فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا

فتبين أنه الإله الحق، وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ: ٥٢] فالمراد بالهداية هنا هداية البيان وهو ﷺ المبلغ عن الله وحيه الذي اهتدىٰ به الخلق.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]. فلم يخصص سبحانه فلانًا وفلانًا ليبين أن المراد: أنك تهدي هداية دلالة، فأنت تفتح الطريق أمام الناس فقط وتبين لهم وترشدهم، وأما إدخال الناس في الهداية، فهذا أمر ليس إلىٰ الرسول ﷺ، إنما هو مما تفرد اللّٰه به سبحانه، فنحن علينا أن نبين وندعو ونبلغ.

وأما هداية التوفيق (أي أن الإنسان يهتدي) فهذا إلىٰ اللّٰه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وهذا هو الجمع بين الآيتين.

قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾: ظاهره أن النبي ﷺ يحب أبا طالب؛ فكيف يؤول ذلك؟

والجواب: إما أن يقال: إنه علىٰ تقدير أن المفعول محذوف.

والتقدير: من أحببت هدايته لا من أحببته هو. أو يقال: إنه أحب عمه محبة طبيعية كمحبة الابن أباه ولو كان كافرًا. أو يقال: إن ذلك قبل النهي عن محبة المشركين.

والأول أقرب، أي: من أحببت هدايته لا عينه، وهذا عام لأبي طالب وغيره.

ويجوز أن يحبه محبة قرابة، ولا ينافي هذا المحبة الشرعية، وقد أحب أن يهتدي هذا الإنسان، وإن كنت أبغضه شخصيًا لكفره، ولكن لأني أحب أن الناس يسلكون دين اللّٰه.

قوله: «في الصحيح»: سبق الكلام علىٰ مثل هذه العبارة في باب تفسير التوحيد (ص ١٢٠).

---

(١) صحيح: رواه البخاري (١٣٦٠، ٤٦٧٥، ٤٧٧٢)، ومسلم (٢٤).

. . . .

أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل في أبي طالب: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾.

قوله: في (الصحيح)، أي في (الصحيحين).

وابن المسيب، هو سعيدُ بن المسيب بن حَزْن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القُرشي المخزومي، أحدُ العلماء والفقهاء الكبار السبعة من التابعين. اتفق أهلُ الحديث على أنَّ مراسيله أصح المراسيل. وقال ابنُ المديني: لا أعلمُ في التابعين أوسع علمًا منه. مات بعد التسعين، وقد ناهز الثمانين. وأبوه المسيب صحابي، بقي إلى خلافة عثمان رضي الله عنه، وكذا جدُّه حزْن، صحابيٌّ استُشْهِدَ باليمامة.

قوله: (لَمَّا حضرت أبا طالب الوفاة). أي: علاماتُها ومقدماتها.

قوله: (جاءهُ رسول الله ﷺ). يُحتمل أن يكون المسيب حضر مع الاثنين؛ فإنهما من بني مخزوم، وهو أيضًا مخزومي. وكان الثلاثةُ إذ ذاك كفارًا؛ فقُتل أبو جهل على كفره، وأسلم الآخران.

قوله: «يا عم» منادىٰ مُضاف، يجوز فيه إثباتُ الياء وحذفها. حُذفت الياءُ هُنا، وبقيت الكسرة دليلاً عليها.

قوله: «قل: لا إله إلا الله»: أمره أنْ يقولها، لِعلم أبي طالب بما دلَّت عليه: من نفي الشرك بالله، وإخلاص العبادة له وحده. فإنَّ من قالها بعلم ويقين، فقد برئ من الشرك والمشركين ودخل في الإسلام؛ لأنهم يعلمون ما دلَّت عليه. وفي ذلك الوقت، لم يكن بمكة إلاَّ مسلمٌ أو كافر. فلا يقولها إلاَّ من ترك الشرك، وبرئ منه. ولما هاجر النبيُّ ﷺ وأصحابه إلى المدينة: كان فيها المسلمون الموحّدون، والمنافقون الذين يقولونها بألسنتهم وهم يعرفون معناها لكن لا يعتقدونه، لما في قلوبهم من العداوة والشك والريب، فهم مع المسلمين بظاهر الأعمال دون الباطن.

قوله: «أبا»: بالألف: مفعول به منصوب بالألف؛ لأنه من الأسماء الخمسة، و«الوفاة» يعني: الموت، فاعل حضرت.

قوله: «فقال: يا عم، قل لا إله إلا اللَّه». أتىٰ ﷺ بهذه الكنية الدالة على العطف؛ لأن العم صنو الأب، أي: كالغصن معه. والصنو: الغصن الذي أصله واحد، فكأنه معه كالغصن.

قوله: «يا عم» فيها وجهان:

يا عم، بكسر الميم: على تقدير أنها مضافة إلى الياء.

ويا عم، بضم الميم: على تقدير قطعها عن الإضافة.

قوله: «قل: لا إله إلا اللَّه»، يجوز أنه قاله على سبيل الأمر والإلزام، لأنه يجب أن يأمل كل أحد أن يقول: لا إله إلا اللَّه. ويجوز أنه قاله على سبيل الإرشاد والتوجيه. ويجوز أنه قاله على سبيل الترجي والتلطف معه، وأبو طالب والذين عنده يعرفون هذه الكلمة ويعرفون معناها، ولهذا بادر الإنكار.

قوله: «كلمة» منصوبة؛ لأنها بدل لا إله إلا اللَّه، ويجوز إذا لم تكن الرواية بالنصب أن تكون بالرفع، أي: هي كلمة، ولكن النصب أوضح.

. . . .

وفيها اليهود، وقد أقرَّهم رسولُ الله ﷺ لَمَّا هاجر، وادعهم بأن لا يخونوه ولا يُظاهروا عليه عدواً، كما هو مذكورٌ في كُتب الحديث والسِّير.

قوله: «كلمةً» قال القرطبي: بالنصب، على أنه بدلٌ من لا إله إلا الله. ويجوز الرفع، على أنه خبرُ مبتدأ محذوف.

قوله: «أحاجُّ لك بها عند الله» هو بتشديد الجيم، من المحاجة.

وفيه: دليلٌ على أنَّ الأعمال بالخواتيم؛ لأنه لو قالها في تلك الحال، معتقداً ما دلَّت عليه مطابقة من النفي والإثبات، لنفعته.

قوله: (فقالا له: أترغبُ عن ملة عبد المطلب؟): ذكَّراه الحجَّةَ الملعونة، التي يحتج بها المشركون على المرسلين؛ كقول فرعون لموسى: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

قوله: (فأعاد عليه النبيُّ ﷺ، فأعادا)[1]. فيه: معرفتهما معنى لا إله إلاَّ الله؛ لأنهما عرفا أنَّ أبا طالب لو قالها لتبرأ من ملَّة عبد المطلب. فإنَّ ملَّة عبد المطلب هي الشرك بالله في إلهيته؛ وأمَّا الربوبيةُ فقد أقروا بها كما تقدم، وقد قال عبدُ المطلب لأبرهَة: أنا ربُّ الإبل، والبيتُ له ربٌّ يمنعه منك.

قوله: «أحاج»: بضم الجيم وفتحها: فعلى ضم الجيم فهي صفة لكلمة، وإذا كانت بالفتح فهي مجزومة جواباً للأمر: «قل»، أي: إن تقل أحاج. قال بعض المعربين: إنها جواب لشرط مقدر، أي: إن تقل أحاج، وبعضهم يرى أنها جواب للأمر مباشرة، وهذا أسهل، لأن الأصل عدم التقدير. والمعنى أذكرها حجة لك عند اللَّه، وليس أخاصم وأجادل لك بها عند اللَّه، وإن كان بعض أهل العلم قال: إن معناها أجادل الله بها، ولكن الذي يظهر لي أن المعنى: أحاج لك بها عند اللَّه؛ أي: أذكرها حجة لك كما جاء في بعض الروايات: «أشهد لك بها عند اللَّه»[2].

قوله: «فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟»: القائلان: هما عبد اللَّه بن أبي أمية، وأبو جهل، والاستفهام للإنكار عليه؛ لأنهم عرفوا أنه إذا قالها ـ كلمة الإخلاص ـ وحد، وملة عبد المطلب الشرك، وذكرا له ما تهيج به نعرته، وهي ملة عبد المطلب حتى لا يخرج عن ملة آبائه.

وقد مات أبو جهل على ملة عبد المطلب، أما عبد اللَّه بن أبي أمية والمسيب الذي روى الحديث، فأسلما؛ فأسلم من هؤلاء الثلاثة رجلان، رضي اللَّه عنهما.

قوله: «ملة عبد المطلب»: أي: دين عبد المطلب.

قوله: «فأعاد عليه النبي ﷺ»: أي: قول قل لا إله إلا اللَّه، كلمة أحاج لك بها عند اللَّه.

---

(١) في قرة العيون: فيه مضرة أصحاب السوء والحذر من قربهم والاستماع لهم. ففيه معنى قول الناظم:

إذا ما صحبت القوم فاصحب خيارهم ... ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى (ق).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٨٨٤، ٤٧٧٢، ٦٦٨١)، ومسلم (٢٤)، والنسائي (٢٠٣٥)، وأحمد (٢٣١٦٢).

. . . .

وهذه المقالة منهما عند قول النبي ﷺ لعمه «قل: لا إله إلا الله» استكباراً عن العمل بمدلولها؛ كما قال الله تعالىٰ عنهما وعن أمثالهما من أولئك المشركين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦]، فردَّ عليهم بقوله: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧].

فبيَّن تعالىٰ أنَّ استكبارهم عن قول: لا إله إلا الله؛ لدلالتها علىٰ نفي عبادتهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله. فإنَّ دلالة هذه الكلمة علىٰ نفي ذلك دلالةُ تضمُّن، ودلالتها عليه وعلىٰ الإخلاص دلالةُ مطابقة. ومن حكمة الرب تعالىٰ في عدم هداية أبي طالب إلىٰ الإسلام، ليبيِّن لعباده أنَّ ذلك إليه، وهو القادرُ عليه دون من سواه. فلو كان عند النبي ﷺ الذي هو أفضلُ خلقه من هداية القلوب وتفريج الكروب، ومغفرة الذنوب، والنجاة من العذاب، ونحو ذلك شيءٌ: لكان أحقَّ الناس بذلك وأولاهم به عمُّه، الذي كان يحوطُه ويحميه وينصره ويؤويه. فسبحانه من بَهَرَتْ حكمتُه العقول، وأرشد العباد إلىٰ ما يدلهم علىٰ معرفته وتوحيده، وإخلاص العمل له وتجريده.

قوله: (فكان آخرُ ما قال)، الأحسن فيه الرفعُ، علىٰ أنَّه اسمُ كان. وجملةُ هو، وما بعدها الخبر.

قوله: (هو على ملة عبد المطلب). الظاهرُ أنَّ أبا طالب، قال: أنا. فغيَّره الراوي؛ استقباحًا للَّفظ المذكور، وهي من التصرفات الحسنة، قاله الحافظ.

قوله: (وأبى أنْ يقول: لا إله إلاَّ الله)، قال الحافظ: هذا تأكيدٌ من الراوي في نفي وقوع ذلك من أبي طالب.

قوله: «فأعادا عليه»: أي قولهما: أترغب عن ملة عبد المطلب.

قوله: «فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك...»إلخ: جملة «لأستغفرن لك» مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم، واللام، ونون التوكيد الثقيلة. والاستغفار: طلب المغفرة، وكأن النبي ﷺ في نفسه شيء من القلق، حيث قال: «ما لم أنه عنك»: فوقع الأمر كما توقع.

قوله: «ما لم أنه عنك»: فعل مضارع مبني للمجهول، والناهي عنه هو اللَّه.

قوله: «ما كان»: ما: نافية، وكان: فعل ماض ناقص.

قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾: أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر اسم كان مؤخر.

قوله: ﴿لِلنَّبِيِّ﴾: خبر مقدم؛ أي: ما كان استغفاره. واعلم أن (ما كان) أو (ما ينبغي) أو (لا ينبغي) ونحوها إذا جاءت في القرآن والحديث؛ فالمراد أن ذلك ممتنع غاية الامتناع؛ كقوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥]، وقوله: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢]، وقوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ [يس: ٤٠]، وقوله ﷺ: «إن اللَّه لا ينام ولا ينبغي له أن ينام»[1].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧٩)، وابن ماجه (١٩٥، ١٩٦)، وأحمد (١٩٠٣٦، ١٩٠٩٠، ١٩١٣٥).

. . . .

. . . .

وقوله: ﴿أَن يَسْتَغْفِرُوا﴾: أي: يطلبوا المغفرة للمشركين.

وقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾: أي: حتى ولو كانوا أقارب لهم، ولهذا لما اعتمر النبي ﷺ، ومر بقبر أمه استأذن الله أن يستغفر لها فما أذن الله له، فاستأذنه أن يزوره فأذن له، فزاره للاعتبار وبكى وأبكى من حوله من الصحابة[1]. فالله منعه من طلب المغفرة للمشركين؛ لأن هؤلاء المشركين ليسوا أهلاً للمغفرة؛ لأنك إذا دعوت الله أن يفعل ما لا يليق؛ فهو اعتداء في الدعاء.

قوله: «وأنزل الله في أبي طالب»: أي: في شأنه.

قوله: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾: الخطاب للرسول ﷺ.

قوله: ﴿اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾: كل فعل يضاف إلى مشيئة الله تعالى؛ فهو مقرون بالحكمة؛ أي: من اقتضت حكمته أن يهديه فإنه يهتدي، ومن اقتضت حكمته أن يضله أضله. وهذا الحديث يقطع وسائل الشرك بالرسول وغيره؛ فالذين يلجؤون إليه ﷺ ويستنجدون به مشركون، فلا ينفعهم ذلك؛ لأنه لم يؤذن له أن يستغفر لعمه، مع أنه قد قام معه قياماً عظيماً، ناصره وآزره في دعوته، فكيف بغيره ممن يشركون بالله؟!

الإشكالات الواردة في الحديث:

الإشكال الأول: الإثبات والنفي في الهداية، وقد سبق بيان ذلك.

الإشكال الثاني: قوله لما حضرت أبا طالب الوفاةُ يشكل مع قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ [النساء: ١٨]، وظاهر الحديث قبول توبته. والجواب عن ذلك عن أحد وجهين:

الأول: أن يقال لنا حضرت أبا طالب الوفاة، أي ظهر عليه علامات الموت ولم ينزل به، ولكن عرف موته لا محالة، وعلى هذا؛ فالوصف لا ينافي الآية.

الثاني: أن هذا خاص بأبي طالب مع النبي ﷺ، ويستدل لذلك بوجهين:

أ- أنه قال: «**كلمة أحاج لك بها عند الله**»، ولم يجزم بنفعها له، ولم يقل: كلمة تخرجك من النار.

ب- أنه سبحانه أذن للنبي ﷺ بالشفاعة لعمه مع كفره، وهذا لا يستقيم إلا له، والشفاعة له ليخفف عنه العذاب. ويضعف الوجه الأول أن المعنى: ظهرت عليه علامات الموت: بأن قوله: «**لما حضرت أبا طالب الوفاة**» مطابق تماماً لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾، وعلى هذا يكون الأوضح في الجواب أن هذا خاص بالنبي ﷺ مع أبي طالب نفسه.

الإشكال الثالث: أن قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣]. في سورة «التوبة»، وهي متأخرة مدنية، وقصة أبي طالب مكية، وهذا يدل على تأخر

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٧٦)، وأبو داود (٣٢٣٤)، والنسائي (٢٠٣٤)، وابن ماجه (١٥٦٩).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

الثانية تفسير قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

الثالثة: وهي المسألة الكبرى: تفسير قوله ﷺ: «قل: لا إله إلا الله» بخلاف ما

. . . .

النهي عن الاستغفار للمشركين، ولهذا استأذن النبي ﷺ للاستغفار لأمه[1] وهو ذاهب للعمرة.

ولا يمكن أن يستأذن بعد نزول النهي؛ فدل على تأخر الآية، وأن المراد بيان دخولها في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾، وليس المعنى أنها نزلت في ذلك الوقت.

وقيل: إن سبب نزول الآية هو استئذانه ربه في الاستغفار لأمه، ولا مانع من أن يكون للآية سببان.

الإشكال الرابع: أن أهل العلم قالوا: يسن تلقين المحتضر لا إله إلا اللّه، لكن بدون قول قل؛ لأنه ربما مع الضجر يقول: لا؛ لضيق صدره مع نزول الموت، أو يكره هذه الكلمة أو معناها، وفي هذا الحديث قال: «قل».

والجواب: أن أبا طالب كان كافرًا، فإذا قيل له: قل وأبىٰ، فهو باق علىٰ كفره، لم يضره التلقين بهذا؛ فإما أن يبقىٰ علىٰ كفره ولا ضرر عليه، وإما أن يهديه اللّه، بخلاف المسلم؛ فهو علىٰ خطر؛ لأنه ربما يضره التلقين علىٰ هذا الوجه.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾: أي: من أحببت هدايته، وسبق تفسيرها، وبينا أن الرسول ﷺ إذا كان لا يستطيع أن يهدي أحدًا وهو حي؛ فكيف يستطيع أن يهدي أحدًا وهو ميت؟! وأنه كما قال اللّه تعالىٰ في حقه: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١].

الثانية: تفيسر قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ...﴾ الآية: وقد سبق تفسيرها وبيان تحريم استغفار المسلمين للمشركين ولو كانوا أولي قربىٰ.

والخطر من قول بعض الناس لبعض زعماء الكفر إذا مات: المرحوم؛ فإنه حرام لأن هذا مضادة للّه - سبحانه وتعالىٰ - وكذلك يحرم إظهار الجزع والحزن علىٰ موتهم بالإحداد أو غيره؛ لأن المؤمنين يفرحون بموتهم، بل لو كان عندهم القدرة والقوة لقاتلوهم حتىٰ يكون الدين كله للّه.

الثالثة: وهي المسألة الكبيرة: أي: الكبيرة من هذا الباب، وقوله (أي قول النبي ﷺ) لعمه: «قل: لا إله إلا الله»، وعمه عرف المعنىٰ أنه التبرؤ من كل إله سوىٰ اللّه، ولهذا أبىٰ أن يقولها لأنه يعرف معناها ومقتضاها وملزوماتها.

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٧٦)، وأبو داود (٣٢٣٤)، والنسائي (٢٠٣٤)، وابن ماجه (١٥٦٩).

عليه من يدَّعي العلم[١].

الرابعة: أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد االنبي ﷺ، إذا قال للرجل: «قل لا إله إلا الله» فقَبَّحَ الله من أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام.

الخامسة: جدّه ﷺ ومبالغته في إسلام عمه.

....

وقوله: «بخلاف ما عليه من يدعي العلم»: كأنه يشير إلى تفسير المتكلمين لمعنى: لا إله إلا اللَّه، حيث يقولون: إن الإله هو القادر على الاختراع، وإنه لا قادر على الاختراع والإيجاد والإبداع إلا اللَّه، وهذا تفسير باطل. نعم هو حق؛ لا قادر على الاختراع إلا اللَّه، لكن ليس هذا معنى لا إله إلا اللَّه، ولكن المعنى: لا معبود بحق إلا اللَّه؛ لأننا لو قلنا: إن معنى لا إله إلا اللَّه: لا قادر على الاختراع إلا اللَّه؛ صار المشركون الذين قاتلهم الرسول ﷺ واستباح نساءهم وذريتهم وأموالهم مسلمين؛ فالظاهر من كلامه رحمه اللَّه أنه أراد أهل الكلام الذين يفسرون لا إله إلا اللَّه بتوحيد الربوبية، وكذلك الذين يعبدون الرسول والأولياء ويقولون نحن نقول لا إله إلا الله.

الرابعة: أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ: أبو جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ بقول: لا إله إلا اللَّه، ولذا ثاروا وقالوا له: «أترغب عن ملة عبد المطلب؟»، وهو أيضًا أبى أن يقولها؛ لأنه يعرف مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦]. فالحاصل أن الذين يدعون أن معنى لا إله إلا اللَّه؛ أي: لا قادر على الاختراع إلا اللَّه، أو يقولونها وهم يعبدون غيره كالأولياء هم أجهل من أبي جهل. واحترز المؤلف في عدم ذكر من مع أبي جهل لأنهم أسلموا، وبذلك صاروا أعلم ممن بعدهم، خاصة من هم في العصور المتأخرة في زمن المؤلف رحمه اللَّه.

الخامسة: جده ومبالغته في إسلام عمه: حرصه ﷺ وكونه يتحمل أن يحاج بالكلمة عند اللَّه واضح من نص الحديث؛ لسببين هما:

(١) كثير من أدعياء العلم يجهلون (لا إله إلا الله) فيحكمون على كل من تلفظ بها بالإسلام ولو كان مجاهرًا بالكفر الصراح، كعبادة القبور والموتى والأوثان واستحلال المحرمات المعلوم تحريمها من الدين ضرورة والحكم بغير ما أنزل الله واتخاذ أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، ولو كانت لهؤلاء الجهلة قلوب يفقهون بها لعلموا أن معنى (لا إله إلا الله) البراءة من عبادة غير الله؛ وإعطاء العهد والميثاق بالقيام بأداء حق الله في العبادة، يدل على ذلك قول الله ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقد شهد النبي ﷺ للخوارج بكثرة الصلاة والصيام وقراءة القرآن المشحون بلا إله إلا الله. ومع ذلك فقد حكم عليهم بالكفر وبأنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية وقال: «لو أدركتهم لقتلتهم قتل عاد» كما في الصحيحين. ولو كان مجرد التلفظ بلا إله إلا الله كافيًا؛ ما وقعت الحرب والعداء بين الرسول ﷺ وبين المشركين الذين كانوا يفهمون (لا إله إلا الله) أكثر مما يفهمها أدعياء العلم في هذا الزمن. ولكن طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون. (ق).

السادسة: الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه.

قال المُصنِّفُ: وفيه الردُّ على من زعم إسلامَ عبد المطلب، وأسلافه. ومضرةُ أصحاب السوء على الإنسان، ومضرةُ تعظيم الأسلاف.

أي: إذا زاد على المشروع، بحيث تُجعلُ أقوالهم حجة يُرجع إليها عند التنازع.

قوله: فقال النبي ﷺ: «**لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك**» قال النووي: وفيه جوازُ الحَلِف من غير استحلاف. وكأنَّ الحلف هنا لتأكيد العزم على الاستغفار، تطييبًا لنفس أبي طالب.

وكانت وفاةُ أبي طالب بمكة، قبل الهجرة بقليل.

قال ابنُ فارس: مات أبو طالب، ولرسول الله ﷺ تسعٌ وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يومًا.

وتوفيت خديجةُ أمُّ المؤمنين رضي الله عنها، بعد موت أبي طالب بثمانية أيام.

قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾. أي: ما ينبغي لهم ذلك. وهو خبرٌ بمعنى النهي، والظاهرُ أنَّ هذه الآية نزلت في أبي طالب؛ فإنَّ الإتيان بالفاء المفيدة للترتيب، في قوله: فأنزل الله، بعد قوله: «**لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك**» يُفيد ذلك.

وقد ذكر العلماءُ لنزول هذه الآية أسبابًا أُخر، فلا منافاة؛ لأن أسباب النزول قد تتعدد.

قال الحافظ: أمَّا نزولُ الآية الثانية، فواضحٌ في قصة أبي طالب. وأمَّا نزول الآية التي قبلها، ففيه نظر.

ويظهر أنَّ المراد: أنَّ الآية المتعلقة بالاستغفار نزلت بعد أبي طالب بمدة، وهي عامةٌ في حقه وحق غيره.

يوضِّحُ ذلك ما يأتي في التفسير[1]: فأنزل الله بعد ذلك ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا

---

١ ـ القرابة.

٢ ـ لما أسدىٰ للرسول والإسلام من المعروف؛ فهو على هذا مشكور، وإن كان على كفره مأزورًا وفي النار، ومن مناصرة أبي طالب أنه هجر قومه من أجل معارضة النبي ﷺ ومناصرته، وكان يعلن على الملأ صدقه ويقول قصائد في ذلك ويمدحه، ويصبر على الأذىٰ من أجله، وهذا جدير بأن يحرص على هدايته، لكن الأمر بيد مقلِّب القلوب كما في الحديث: «**إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء**»، ثم قال ﷺ في نفس الحديث: «**اللَّهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**»[2].

السادسة: الرد على من زعم إسلام عبد المطلب: بدليل قولهما: «**أترغب عن ملة عبد المطلب؟**» حين أمره النبي ﷺ أن يقول: لا إله إلا اللّه؛ فدل على أن ملة عبد المطلب الكفر والشرك.

وفي الحديث رد على من قال بإسلام أبي طالب أو نبوته كما تزعمه الرافضة، قبحهم الله؛ لأن آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبىٰ أن يقول: لا إله إلا الله.

---

(١) ساق البخاري قصة موت أبي طالب في كتاب الجنائز في الباب الحادي والثمانين. ولم يتكلم عليه الحافظ في الفتح، بل حوله إلى التفسير. وساقه في تفسير سورة براءة فحول الحافظ تفصيل القول فيه إلى سورة القصص. (ق).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٥٤)، وأحمد (٦٥٣٣، ٦٥٧٣).

السابعة: كونه ﷺ استغفر له فلم يُغفر له، بل نُهِيَ عن ذلك.

الثامنة: مَضرَّةُ أصحاب السوء على الإنسان.

لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية، ونزل في أبي طالب ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[1].

كلُّه ظاهر في أنه مات على غير الإسلام، ويُضَعِّفُ ما ذكره السُّهَيلي: أنه رأى في بعض كُتب المسعودي أنه أسلم؛ لأن مثل ذلك لا يُعارِضُ ما في الصحيح. انتهى.

وفيه: تحريمُ الاستغفار للمشركين، وموالاتهم ومحبتهم؛ لأنه إذا حرُم الاستغفارُ لهم فموالاتهم ومحبتهم أولى.

السابعة: كونه ﷺ استغفر له فلم يغفر له: الرسول ﷺ أقرب الناس أن يجيب اللّه دعاءه، ومع ذلك اقتضت حكمة اللّه أن لا يجيب دعاءه لعمه أبي طالب؛ لأن الأمر بيد اللّه لا بيد الرسول ولا غيره، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: ١٢٣]، ليس لأحد تصرف في هذا الكون إلا رب الكون. وكذا أمه ﷺ لم يؤذن له في الاستغفار لها؛ فدل على أن أهل الكفر ليسوا أهلاً للمغفرة بأي حال، ولا يجاب لنا فيهم، ولا يحل الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإنما يدعى لهم بالهداية وهم أحياء.

الثامنة: مضرة أصحاب السوء على الإنسان: المعنى أنه لولا هذان الرجلان؛ لربما وُفِّقَ أبو طالب إلى قبول ما عرضه النبي ﷺ، لكن هؤلاء ـ والعياذ باللّه ـ ذكَّراه نعرة الجاهلية ومضرة رفقاء السوء، ليس خاصًا بالشرك، ولكن في جميع سلوك الإنسان، وقد شبه النبي ﷺ جليس السوء بنافخ الكير؛ إما أن يحرق ثيابك، أو تجد منه رائحة كريهة[2]، وقال ﷺ: «**فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[3]، وذلك لما بينهما من الصحبة والاختلاط، وكذلك روي عن النبي ﷺ بسند لا بأس به:

---

(١) الهداية تطلق على خلق الهدى في القلب وتحويله من الضلال والكفر والفسوق إلى الهدى والإيمان والطاعة، وتسديده على صراط الله المستقيم وتثبيته عليه، وهذه مختصة بالله تعالى، لأنه هو الذي يقلب القلوب ويصرفها، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء. ومن يهدي الله فما له من مضل. ومن يضلل فما له من هاد. وهي المنفية في الآية عن النبي ﷺ وعن غيره من باب أولى. فمن ادعاها من مشايخ الطرق الصوفية ونحوهم، وزعم أنه يدخل قلوب مريديه وتلاميذه ويعلم ما فيها ويصرفها على ما يريد - فهو كاذب ضال مضل. ومن صدق ذلك فهو ضال مكذب لله ولرسوله؛ وتطلق على العلم والدلالة والإرشاد بالقرآن ونحوه على طريق النجاة والسعادة، وهذه يقدر عليها المخلوق وهي المثبتة للنبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقد أوجب الله على أهل العلم أن يقوموا بها فيرشدوا الناس ويهدوهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى صراط الله المستقيم. وأكثر الناس لا يميز الفرق بين الهدايتين. فبعضهم يعتدي على الحدود وبعضهم يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر محتجًا بالآية: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]الآية. وهذا وذاك جهل وضلال. (ق).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٥٨) ومواضع، ومسلم (٢٦٥٨)، وأبو داود (٤٧١٤)، والترمذي (٢١٣٨)، وأحمد (٧١٤١) ومواضع.

التاسعة: مضرةُ تعظيم الأسلاف والأكابر.

العاشرة: الشبهة للمبطلين في ذلك، لاستدلال أبي جهل بذلك.

الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم؛ لأنه لو قالها لنفعته.

الثانية عشرة: التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين؛ لأن في القصة أنهم لم يجادلوه، إلا بها، مع مبالغته ﷺ وتكريره، فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم، اقتصروا عليها.

. . . .

«المرء على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يخالل»[1] ؛ فالمهم أنه يجب على الإنسان العاقل أن يفكر في أصحابه: هل هم أصحاب سوء؟ فليبعد عنهم لأنهم أشد عداء من الجرب، أو هم أصحاب خير: يأمرونه بالمعروف، وينهونه عن المنكر، ويفتحون له أبواب الخير؛ فعليه بهم.

التاسعة: مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر: لأن أبا طالب اختار أن يكون على ملة عبد المطلب حين ذكروه بأسلافه مع مخالفته لشريعة النبي ﷺ وهذا ليس على إطلاقه؛ فتعظيمهم إن كانوا أهلاً لذلك لا يضر، بل هو خير؛ فأسلافنا من صدر هذه الأمة لا شك أن تعظيمهم وإنزالهم منازلهم خير لا ضرر فيه. وإن كان تعظيم الأكابر لما هم عليه من العلم والسن؛ فليس فيه مضرة، وإن كان تعظيمهم لما هم عليه من الباطل؛ فهو ضرر عظيم على دين المرء، فمثلاً: من يعظم أبا جهل لأنه سيد أهل الوادي، وكذلك عبد المطلب وغيره؛ فهو ضرر عليه، ولا يجوز أن يرى الإنسان في نفسه لهؤلاء أي قدر؛ لأنهم أعداء اللَّه -عز وجل- وكذلك لا يعظم الرؤساء من الكفار في زمانه؛ فإن فيه مضرة؛ لأنه قد يورث ما يضاد الإسلام، فيجب أن يكون التعظيم حسب ما تقتضيه الأدلة من الكتاب والسنة.

العاشرة: الشبهة للمبطلين في ذلك لاستدلال أبي جهل بذلك: شبه المبطلين في تعظيم الأسلاف في استدلال أبي جهل بذلك في قوله: **«أترغب عن ملة عبد المطلب؟»**، وهذه الشبهة ذكرها اللَّه في القرآن في قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ**﴾ [الزخرف: ٢٣]. فالمبطلون يقولون في شبهتهم: إن أسلافهم على الحق وسيقتدون بهم، ويقولون: كيف نسفه أحلامهم، ونضلل ما هم عليه؟

وهذا يوجد في المتعصبين لمشايخهم وكبرائهم ومذاهبهم، حيث لا يقبلون قرآنًا ولا سنة في معارضة الشيخ أو الإمام، حتى إن بعضهم يجعلهم معصومين، كالرافضة، والتيجانية، والقاديانية، وغيرهم؛ فهم يرون أن إمامهم لا يخطئ، والكتاب والسنة يمكن أن يخطئا.

والواجب على المرء أن يكون تابعًا لما جاء به الرسول ﷺ، وأما من خالفه من الكبراء والأئمة؛ فإنهم لا

(١) حسن: رواه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وأحمد (٧٩٦٨، ٨٢١٢)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٩٢٧).

١٨ ـ باب
ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

قال المُصنِّفُ رحـمه الله تعالى: بابُ ما جـاء أنَّ سبب كُفْـرِ بني آدم وتركِهم دينَهم هو الغلوُّ في الصالحين:

قوله: (تركهم): بالجر عطفًا على المضاف إليه. وأراد المصنفُ رحمه الله تعالى: بيانَ ما يؤول إليه الغلو في الصالحين، من الشرك بالله في الإلهية الذي هو أعظمُ ذنب عُصي الله به، وهو ينافي التوحيد الذي دلَّت عليه كلمةُ الإخلاص، شهادة أنْ لا إله إلاَّ الله.

يحتج بهم على الكتاب والسنة، لكن يعتذر لهم عن مخالفة الكتاب والسنة إن كانوا أهلاً للاعتذار، بحيث لم يعرف عنهم معارضة للنصوص، فيعتذر لهم بما ذكره أهل العلم، ومن أحسن ما ألف كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية: «رفع الملام عن الأئمة الأعلام»[1] أما من يعرف بمعارضة الكتاب والسنة، فلا يعتذر له.

الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم: وهذا مبني على القول بأن معنى حضرته الوفاة؛ أي: ظهرت عليه علاماتها ولم ينزل به كما سبق.

الثانية عشرة: التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين..إلخ وهذه الشبهة هي تعظيم الأسلاف والأكابر.

قوله: «سبب كفر بني آدم»: السبب في اللغة: ما يتوصل به إلى غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ [الحج: ١٥]؛ أي: بشيء يوصله إلى السماء. ومنه أيضًا سمّي الحبل سببًا؛ لأنه يتوصل به إلى استسقاء الماء من البئر. وأما في الاصطلاح عند أهل الأصول؛ فهو الذي يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم. أي: إذا وجد السبب وجد المسبب، وإذا عدم السبب عدم المسبب؛ إلا أن يكون هناك سبب آخر يثبت به المسبب.

قوله: «بني آدم»: يشمل الرجال والنساء؛ لأنه إذا قيل: بنو فلان، وهم قبيلة؛ شمل ذكورهم وإناثهم، أما إذا قيل: بنو فلان، أي رجل معين؛ فالمراد بهم الذكور.

قوله: «وتركهم»: يعني: وسبب تركهم.

قوله: «دينهم»: مفعول ترك؛ لأن ترك مصدر مضاف إلى فاعله، و«دينهم» يكون مفعولاً به.

---

(١) ذكر أهمية الكتاب أيضًا العلامة ابن باز رحمه الله في رسالته التي هي بعنوان ما هكذا الدعوة إلى إصلاح الأوضاع يا حمد فقال: وكثير من العلماء قد خالفوا الشرع المطهر في مسائل كثيرة إما لجهل بالدليل، وإما لأسباب أخرى، ولا يجوز أن يكونوا حجة في جواز مخالفة ما علم من الشرع لكونهم لم يأخذوا به، بل غاية ما هناك أن يعتذر عنهم بأن الشرع لم يبلغهم أو بلغهم من وجه لم يثبت لديهم أو لأعذار أخرى، كما بسط ذلك الإمام العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه الجليل: «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» وقد أجاد فيه وأفاد وأوضح أعذار أهل العلم فيما خالفوا من الشرع فليراجع فإنه مفيد جدا لطالب الحق.

وقول الله عز وجل ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقول الله عز وجل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

الغلو: هو الإفراطُ في التعظيم، بالقول والاعتقاد. أي: لا ترفعوا المخلوقَ عن منزلته التي أنزله الله، فتنزّلوه المنزلةَ التي لا تنبغي إلاَّ لله.

والخطابُ ـ وإنْ كان لأهل الكتاب، فإنَّه عامٌّ يتناول جميعَ الأمة؛ تحذيراً لهم أنْ يفعلوا فعل النصارىٰ

قوله: «هو الغلو»: هذا الضمير يسمىٰ ضمير الفصل، وهو من أدوات التوكيد، والغلو: خبر لأن ضمير الفصل علىٰ القول الراجح ليس له محل من الإعراب.

والغلو: هو مجاوزة الحد في الثناء مدحًا أو قدحًا.

والقدح: يسمىٰ ثناء، ومنه الجنازة التي مرت فأثنوا عليها شرًا[1].

والغلو هنا: مجاوزة الحد في الثناء مدحًا.

قوله: «الصالحين»: الصالح: هو الذي قام بحق اللَّه وحق العباد، وفي هذه الترجمة إضافة الشيء إلىٰ سببه بدون أن ينسب إلىٰ اللَّه بقوله: أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين، وهذا جائز إذا كان السبب حقيقة وصحيحًا، وذلك إذا كان السبب قد ثبت من قبل الشرع أو الحس أو الواقع.

وقد قال الرسول ﷺ: «**لولا أنا؛ لكان في الدرك الأسفل من النار**»[2]؛ يعني: عمه أبا طالب.

قوله: «وقول الله ـ عز وجل ـ»: يعني: وباب قول اللَّه ـ عز وجل ـ.

قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾: نداء، وهم اليهود والنصارىٰ، والكتاب: التوراة لليهود، والإنجيل للنصارىٰ.

قوله: ﴿لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾: أي: لا تتجاوزوا الحد مدحًا أو قدحًا، والأمر واقع كذلك بالنسبة لأهل الكتاب عمومًا؛ فإنهم غلوا في عيسىٰ ابن مريم عليه السلام مدحًا وقدحًا، حيث قال النصارىٰ: إنه ابن اللَّه، وجعلوه ثالث ثلاثة. واليهود غلوا فيه قدحًا، وقالوا: إن أمه زانية، وإنه ولد زنا، قاتلهم اللَّه؛ فكل من الطرفين غلا في دينه وتجاوز الحد بين إفراط أو تفريط.

قوله: ﴿وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾: وهو ما قاله سبحانه وتعالىٰ عن نفسه بأنه: إله واحد، أحد، صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولد.

قوله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾: هذه صيغة حصر، وطريقه: ﴿إِنَّمَا﴾؛ فيكون المعنىٰ:

---

(١) ثبت ذلك من حديث أنس بن مالك بلفظ: مروا بجنازة فأثنوا عليها خيرًا فقال النبي ﷺ: «وجبت» ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرًا فقال: «وجبت»، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما وجبت قال: «**هذا أثنيتم عليه خيرًا فوجبت له الجنة وهذا أثنيتم عليه شرًا فوجبت له النار أنتم شهداء الله في الأرض**». والحديث رواه البخاري (١٣٦٧، ٢٦٤٢)، ومسلم (٩٤٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٨٨٣، ٦٢٠٨)، ومسلم (٢٠٩)، وأحمد (١٧٧١، ١٧٧٧).

. . . .

في عيسىٰ عليه السلام، واليهود في العُزير[١]، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم»[٢] ويأتي.

فكلُّ من دعا نبيًّا، أو وليًّا من دون الله: فقد اتخذه إلهًا، وضاهىٰ النصارىٰ في شركهم، وضاهىٰ اليهود في تفريطهم.

فإنَّ النصارىٰ غلوْا في عيسىٰ عليه السلام، واليهود عادَوه وسبُّوه وتنقَّصوه. فالنصارىٰ أفرطوا، واليهودُ فرَّطوا؛ وقد قال تعالىٰ: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ الآية [المائدة: ٧٥]، ففي هذه الآية وأمثالها الردُّ علىٰ اليهود والنصارىٰ.

قال شيخُ الإسلام: ومن تشبَّه من هذه الأمة باليهود والنصارىٰ، وغلا في الدين بإفراط فيه أو تفريط، فقد شابههم.

ما المسيح عيسىٰ ابن مريم إلا رسول اللَّه، وأضافه إلىٰ أمه ليقطع قول النصارىٰ الذين يضيفونه إلىٰ اللَّه.

وفي قوله: ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ إبطال لقول اليهود: إنه كذاب، ولقول النصارىٰ: إنه إله.

وفي قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ إبطال لقول اليهود: إنه ابن زنا.

﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾: أن قال له: كن فكان.

قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾: أي: إنه عز وجل جعل عيسىٰ عليه الصلاة والسلام كغيره من بني آدم من جسد وروح، وأضاف روحه إليه تشريفًا وتكريمًا؛ كما في قوله تعالىٰ في آدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢]؛ فهذا للتشريف والتكريم.

قوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾: الخطاب لأهل الكتاب، ومن رسله محمد ﷺ الذي هو آخرهم وخاتمهم وأفضلهم.

قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾: أي: لا تقولوا: إن اللَّه ثالث ثلاثة.

قوله: ﴿انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾: ﴿خَيْرًا﴾: خبر ليكن المحذوفة؛ أي: انتهوا يكن خيرًا لكم.

قوله: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: أي: تنزيهًا له أن يكون له ولد؛ لأنه مالك لما في السموات وما في الأرض، ومن جملتهم عيسىٰ ابن مريم عليه الصلاة والسلام، فهو من جملة المملوكين المربوبين؛ فكيف يكون إلهًا مع الله أو ولدًا للَّه؟

---

(١) في قرة العيون: وقد وقع ذلك الشرك في العبادة في هذه الأمة نظمًا ونثرًا كما في كلام البوصيري والبرعي وغيرهما؛ وفيما فعلوه من الغلو والشرك محادة لله ولكتابه ولرسوله ﷺ، فأين ما وقع فيه هؤلاء من قول من قال للنبي ﷺ أنت سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا فكره ذلك ﷺ أشد الكراهة؟ كما سيأتي في الكلام على هذا الحديث إن شاء الله تعالى، وقول القائل ما شاء الله وشئت فقال: «أجعلتني لله ندًّا؟ بل ما شاء الله وحده».(ق).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٣٤٤٥).

. . . .

قال: وعليٌّ رضي الله عنه حرَّق الغالية من الرافضة، فأمر بأخاديد خُدَّت لهم عند باب كِندة[1]، فقذفهم فيها. واتفق الصحابةُ على قتلهم، لكنَّ ابن عباس مذهبُه أنْ يُقتلوا بالسيف من غير تحريق، وهو قولُ أكثر العلماء.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: في الصحيح، عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ

(تنبيه): لم يشر المؤلف رحمه اللّه تعالى إلى إكمال الآية، ونرجو أن يكون في إكمالنا لها فائدة.

قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾: أي: كفى اللّه تعالى أن يكون حفيظًا على عباده، مدبرًا لأحوالهم، عالمًا بأعمالهم. والشاهد من هذه الآية قوله: ﴿لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾. فنهى عن الغلو في الدين؛ لأنه يتضمن مفاسد كثيرة، منها:

١ ـ أنه تنزيل للمغلو فيه فوق منزلته إن كان مدحًا، وتحتها إن كان قدحًا.

٢ ـ أنه يؤدي إلى عبادة هذا المغلو فيه كما هو الواقع من أهل الغلو.

٣ ـ أنه يصد عن تعظيم اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ؛ لأن النفس إما أن تنشغل بالباطل أو بالحق، فإذا انشغلت بالغلو بهذا المخلوق وإطرائه وتعظيمه؛ تعلقت به ونسيت ما يجب للّه تعالى من حقوق.

٤ ـ أن المغلو فيه إن كان موجودًا؛ فإنه يزهو نفسه، ويتعاظم ويعجب بها، وهذه مفسدة تفسد المغلو فيه إن كانت مدحًا، وتوجب العداوة والبغضاء وقيام الحروب والبلاء بين هذا وهذا إن كانت قدحًا.

قوله: ﴿فِي دِينِكُمْ﴾: الدين يطلق على العمل والجزاء، والمراد به هنا: العمل.

والمعنى: لا تجعلوا عبادتكم غلوًا في المخلوقين وغيرهم.

وهل يدخل في هذا الغلو في العبادات؟

الجواب: نعم، يدخل الغلو في العبادات، مثل أن يرهق الإنسان نفسه بالعبادة ويتعبها؛ فإن النبي ﷺ نهى عن ذلك[2]، ومثل أن يزيد عن المشروع، كأن يرمي بجمرات كبيرة، أو يأتي بأذكار زائدة عن المشروع أدبار الصلوات تكميلاً للورد أو غير هذا؛ فالنهي عن الغلو في الدين يعم الغلو من كل وجه.

قوله: «وفي الصحيح»: أي: في «صحيح البخاري»، هذا الأثر اختصره المصنف، وقد سبق الكلام على مثل هذه العبارة في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا اللّه.

قوله: ﴿وَقَالُوا﴾: أي: قال بعضهم لبعض.

قوله: ﴿لا تَذَرُنَّ﴾: أي: لا تدعن وتتركن، وهذا نهي مؤكد بالنون.

(١) باب من أبواب الكوفة. الغلاة المحرَّقون: هم عبد الله بن سبأ اليهودي وأتباعه. قالوا: إن عليًّا إلههم، فنهاهم فلم ينتهوا فحرقهم. وإنما أراد ابن سبأ بذلك إحداث فتنة، وخلق شيع: وفتح ثغرة في صفوف المسلمين. وقد حدث ما أراد هذا اليهودي الملعون. ووجد في الناس كثيرًا ممن أطاعه وأله عليًّا وأبناءه وكفر بالله ورسوله وعادى عليًّا والمؤمنين. ولا حول ولا قوة إلا بالله. (ق).

(٢) ثبت ذلك من حديث عائشة ﵂ قالت: كانت عندي امرأة من بني أسد فدخل علي رسول الله ﷺ فقال: «من هذه» قلت: فلانة لا تنام بالليل فذكرت من صلاتها فقال: **«مه عليكم ما تطيقون من الأعمال فإن الله لا يمل حتى تملوا»** والحديث رواه البخاري (١١٥١)، ومسلم (٧٨٥).

وفي الصحيح، عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، قال: هذه أسماءُ رجال صالحين من قوم نوح، فلمَّا هلكوا أوحى الشيطانُ إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا، وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا. ولم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم، عُبدت[1].

آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، قال: هذه أسماءُ رجال صالحين من قوم نوح، فلمَّا هلكوا أوحى الشيطانُ إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا، وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا. ولم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم، عُبدت.

قوله: في (الصحيح) أي: (صحيح البخاري).

وهذا الأثر، اختصره المُصنِّفُ رحمه الله. ولفظ ما في البخاري، عن ابن عباس: صارت الأوثانُ التي في قوم نوح، في العرب بعدُ: أمَّا وَدٌّ: فكانت لكلْب بدَوْمَة الجندَل. وأمَّا سُواعٌ؛ فكانت لهُذيل. وأمَّا يَغوثُ: فكانت لمراد، ثم لبني غُطيف بالجُرف عند سبأ. وأمَّا يعوق: فكانت لهمْدان. وأمَّا نَسْرٌ: فكانت لحِمْيَر، لآلِ ذي الكَلاع: أسماءُ رجالٍ صالحين، في قوم نوح. إلى آخره.

وروي: عن عكرمة، والضَّحاك، وابن إسحاق، نحو هذا.

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابنُ حميد، قال: حدثنا مهران، عن سفيان، عن موسى، عن محمد بن قيس: أنَّ يغوث ويعوق ونسرًا، كانوا قومًا صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباعٌ يقتدون بهم. فلمَّا ماتوا، قال أصحابهم: لو صوَّرناهم كان أشوقَ لنا إلى العبادة؛ فصوَّروهم. فلما ماتوا، وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقون المطر، فعبدوهم.

باب أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

والغلو هو: مجاوزة الحد بأن يجعل للصالحين من حقوق الله الخاصة به شيء، فإن حق الله الذي لا يشاركه فيه مشارك هو الكمال المطلق، والغنى المطلق، والتصرف المطلق من جميع الوجوه، وأنه لا يستحق العبادة والتأله أحد سواه، فمن غلا بأحد من المخلوقين حتى جعل له نصيبًا من هذه الأشياء فقد ساوى به رب العالمين وذلك أعظم الشرك، ومن رفع أحدًا من الصالحين فوق منزلته التي أنزله الله بها فقد غلا فيه وذلك وسيلة إلى الشرك وترك الدين.

قوله: ﴿آلِهَتَكُمْ﴾: هل المراد: لا تذروا عبادتها أو تمكنوا أحدًا من إهانتها؟

الجواب: المعنيان؛ أي: انتصروا لآلهتكم، ولا تمكنوا أحدًا من إهانتها، ولا تدعوها للناس، ولا تدعوا عبادتها أيضًا، بل احرصوا عليها، وهذا من التواصي بالباطل عكس الذين آمنوا وعملوا الصالحات يتواصون بالحق.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٩٢٠).

. . . .

قوله: (أن انصبوا) ، هو بكسر الصاد المُهملة.

قوله: (أَنصابًا) جمع نُصب، والمراد به هنا: الأصنامُ المصوَّرة على صور أولئك الصالحين، التي نصبوها في مجالسهم، وسمَّوها بأسمائهم.

وفي سياق حديث ابن عباس: ما يدلُّ على أنَّ الأصنام تُسمَّى أوثانًا. فاسمُ الوثن يتناول كلَّ معبودٍ من دون الله، سواء كان ذلك المعبودُ قبرًا أو مَشْهدًا، أو صورةً أو غير ذلك[1].

قوله: (حتى إذا هلك أولَئك): أي: الذين صوَّروا تلك الأصنام.

قوله: ﴿وَلا سُوَاعًا﴾: لا: زائدة للتوكيد، مثلها في قوله تعالى: ﴿وَلا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، وفائدتها أنهم جعلوا مدخولها كالمستقل، بخلاف يعوق ونسر؛ فهما دون مرتبة من سبقهما.

قوله: ﴿لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾: ، هذه الخمسة كأن لها مزية على غيرها؛ لأن قوله: ﴿آلِهَتَكُمْ﴾ عام يشمل كل ما يعبدون؛ وكأنها كبار آلهتهم؛ فخصوها بالذكر.

والآلهة: جمع إله، وهو كل ما عبد، سواء بحق أو بباطل، لكن إذا كان المعبود هو اللَّه؛ فهو حق، وإن كان غير اللَّه؛ فهو باطل.

قال ابن عباس رضي اللَّه عنهما في هذه الآية: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح».

---

(١) في قرة العيون: فصارت هذه الأصنام بهذا التصوير على صور الصالحين سلمًا إلى عبادتها. وكل ما عبد من دون الله، من قبر أو مشهد، أو صنم، أو طاغوت فالأصل في عبادته هو الغلو. كما لا يخفى على ذوي الأبصار. كما جرى لأهل مصر وغيرهم، فإن أعظم آلهتهم أحمد البدوي وهو لا يعرف له أصل ولا فضل ولا علم ولا عبادة. ومع هذا فصار أعظم آلهتهم مع أنه لا يعرف إلا أنه دخل المسجد يوم الجمعة فبال فيه ثم خرج ولم يصل. ذكره السخاوي عن أبي حيان. فزين لهم الشيطان عبادته فاعتقدوا أنه يتصرف في الكون؛ ويطفئ الحريق وينجي الغريق، وصرفوا له الإلهية والربوبية وعلم الغيب، وكانوا يعتقدون أنه يسمعهم ويستجيب لهم من الديار البعيدة. وفيهم من يسجد على عتبة حضرته. وكان أهل العراق ومن حولهم كأهل عمان يعتقدون في عبد القادر الجيلاني؛ كما يعتقد أهل مصر في البدوي. وعبد القادر من متأخري الحنابلة وله كتاب الغنية، وغيره ممن قبله وبعده من الحنابلة أفضل منه في العلم والزهد، لكن فيه زهد وعبادة، وفتنوا به أعظم فتنة. كما جرى من الرافضة مع أهل البيت.

وسبب ذلك الغلو دعوى أن له كرامات وقد جرت الكرامات لمن هو خير منه وأفضل كبعض الصحابة والتابعين، وهكذا حال أهل الشرك مع من فتنوا به.

وأعظم من هذا عبادة أهل الشام لابن عربي وهو إمام أهل الوحدة الذين هم أكفر أهل الأرض وأكثر من يعتقد فيه هؤلاء لا فضل له ولا دين كأناس بمصر وغيره، وجرى في نجد قبل هذه الدعوة مثل هذا؛ وفي الحجاز واليمن وغيرهما من عبادة الطواغيت والأشجار والأحجار والقبور ما عمت به البلوى، كعبادتهم للجن وطلبهم للشفاعة منهم. والأصل في ذلك الغلو تزيين الشيطان.

وذكر أهل السير أن التلبية من عهد إبراهيم عليه السلام (لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك) حتى كان عمرو ابن لحي الخزاعي فبينما هو يلبي تمثل له الشيطان في صورة شيخ يلبي معه فقال: (لبيك لا شريك لك) فقال الشيخ: (إلا شريكًا هو لك). فأنكر عمرو وقال ما هذا؟ فقال الشيخ: (تملكه وما ملك). فإنه لا بأس بهذا. فقالها عمرو: فدانت بها العرب.(ق).

....

قوله: (ونُسي العلم)، ورواية البخاري: وتَنَسَّخ. وللكُشْمَيْهَنِيّ: ونُسخ العلم. أي: درست آثارهُ بذهاب العلماءِ، وعمَّ الجهلُ حتىٰ صاروا لا يُميِّزون بين التوحيد والشرك. فوقعوا في الشرك، ظنًا منهم أنه ينفعهم عند الله.

وفي هذا التفسير إشكال، حيث قال: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح»، وظاهر القرآن أنها قبل نوح، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ [نوح: ٢١ ـ ٢٣]؛ ظاهر الآية الكريمة: أن قوم نوح كانوا يعبدونها، ثم نهاهم نوح عن عبادتها، وأمرهم بعبادة اللَّه وحده، ولكنهم أبوا وقالو: ﴿لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾، وهذا (أعني: القول بأنهم قبل نوح) قول محمد بن كعب ومحمد بن قيس، وهو الراجح لموافقته ظاهر القرآن.

ويحتمل ـ وهو بعيد ـ أن هذا في أول رسالة نوح، وأنه استجاب له هؤلاء الرجال وآمنوا به، ثم بعد ذلك ماتوا قبل نوح ثم عبدوهم، لكن هذا بعيد حتىٰ من سياق الأثر عن ابن عباس.

فالمهم أن تفسير الآية أن يقال: هذه أصنام في قوم نوح كانوا رجالاً صالحين، فطال علىٰ قومهم الأمد، فعبدوهم.

قوله: «أوحى الشيطان»: أي: وحي وسوسة، وليس وحي إلهام.

قوله: «انصبوا إلى مجالسهم»: الأنصاب: جمع نصب، وهو كل ما ينصب من عصا أو حجر أو غيره.

قوله: «وسموهم بأسمائهم»: أي: ضعوا أنصابًا في مجالسهم، وقولوا: هذا ود، وهذا سواع، وهذا يغوث، وهذا يعوق، وهذا نسر؛ لأجل إذا رأيتموهم تتذكروا عبادتهم فتنشطوا عليها، هكذا زين لهم الشيطان، وهذا غرور ووسوسة من الشيطان كما قال لآدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]. وإذا كان العبد لا يتذكر عبادة اللَّه إلا برؤية أشباح هؤلاء؛ فهذه عبادة قاصرة أو معدومة.

قوله: «ففعلوا ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم؛ عبدت من دون اللَّه»: ذكر ابن عباس رضي اللَّه عنهما أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون، والقرن مائة سنة، حتىٰ إذا طال عليهم الأمد حصل النزاع والتفرق، فبعث اللَّه النبيين؛ كما قال تعالىٰ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣] الآية.

هذا هو تفسير ابن عباس رضي اللَّه عنهما للآية، وهل تفسيره حجة؟

الجواب: يرجع في التفسير أولاً إلىٰ القرآن؛ فالقرآن يفسر بعضه بعضًا، مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ﴾ تفسيرها: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ١٠، ١١]. فإن لم نجد في القرآن؛ فإلىٰ سنة الرسول ﷺ، فإن لم نجد؛ فإلىٰ تفسير الصحابة، وتفسير الصحابي حجة بلا شك؛ لأنهم أدرىٰ بالقرآن حيث نزل بعصرهم وبلغتهم ويعرفون عنه أكثر من غيرهم، حتىٰ قال بعض العلماء: إن تفسير الصحابي في

. . . .

قوله: (عُبِدت): لما قال لهم إبليس: إنَّ من كان قبلكم كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقون المطر. فهو الذي زيَّن لهم عبادة الأصنام، وأمرهم بها.

فصار هو معبودهم في الحقيقة، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢]

وهذا يفيد الحذرَ من الغلوِّ ووسائل الشرك، وإنْ كان القصد بها حسنًا.

فإنَّ الشيطان أدخل أولئك في الشرك من باب الغلو في الصالحين، والإفراط في محبتهم، كما قد وقع مثلُ ذلك في هذه الأمة، أظهر لهم البدعَ والغلوَّ في قالب تعظيم الصالحين ومحبتهم، ليوقعهم فيما هو أعظم من ذلك، من عبادتهم لهم من دون الله[1].

وفي رواية، أنهم قالوا: ما عَظَّم أوّلُنا هؤلاء إلاَّ وهم يرجون شفاعتهم عند الله.

أي: يرجون شفاعة أولئك الصالحين الذين صوَّروا تلك الأصنام علىٰ صورهم، وسمَّوها بأسمائهم.

ومن هُنا يُعلم أنَّ اتخاذ الشفعاء، ورجاءَ شفاعتهم بطلبها منهم: شركٌ بالله، كما تقدم بيانُه في الآيات المحكمات.

حكم المرفوع، وهذا ليس بصحيح، لكنه لا شك أنه حجة علىٰ من بعدهم، فإن اختلف الصحابة في التفسير أخذنا بما يرجحه سياق الآية، والآية تدل علىٰ ما ذكره ابن عباس؛ إلا أن ظاهر السياق أن هؤلاء القوم الصالحين كانوا قبل نوح ﷺ، وقد عرفت القول الراجح.

قوله: «الأمد»: الزمن. وهذا كتفسير ابن عباس؛ إلا أن ابن عباس يقول: «إنهم جعلوا الأنصاب في مجالسهم»، وهنا يقول: «جعلوها علىٰ قبورهم»، ولا يبعد أنهم جعلوا هذا وهذا، أو أنهم قبروا في مجالسهم؛ فتكون هي محل القبور. والشاهد قوله: «ثم طال عليهم الأمد؛ فعبدوهم»؛ فسبب العبادة إذًا الغلو في هؤلاء الصالحين حتىٰ عبدوهم».

---

(١) وما جر إلى هذا الغلو الذي أدى إلى عبادتهم من دون الله إلا تعظيم قبورهم؛ وبناء القباب عليها، وسترها بالأستار، وإيقاد السرج، وقيام السدنة وشياطين الإنس عندها لدعوة الناس إلى عبادتها بأنواع النذور فيعود عليهم من تلك الأموال. وإلا فكم من عباد صالحين من الصالحين وأفاضل العلماء الذين كان لهم قدم صدق في الإسلام مدفونون في مقابر مصر والشام وغيرهما؛ هم أفضل آلاف المرات من أمثال البدوي والدسوقي؛ بل نعالهم أشرف وأكرم من هذا البدوي وأضرابه-لا يعرفهم هؤلاء المشركون. لأنهم لم ينصب على قبورهم تلك الأنصاب ولم تتخذ عليها تلك الأوثان. ولذلك كان الذي يزعم أنه يزور للموعظة وتذكر الدار الآخرة، تلك القبور التي نصبت عليها هذه الأنصاب والمقاصير من أجهل الناس وأبعدهم عن هدي الإسلام الذي لا يعرف تلك القباب وإنما يعرف القبور التي لا يبنى عليها ولا يكتب عليها ولا تستر بالأستار الحرير وغيرها فإنه من أمحل المحال الاتعاظ بهذه الأوثان والأنصاب، ومن أعظم الجهل أن تسمى هذه قبورًا تسن زيارتها كما تسن زيارة القبور التي وصفها رسول الله ﷺ وأمر بها. فنسألك اللهم أن تعجل بهدم هذه الأوثان وتطهير الأرض منها كلها تحقيقًا لما أمر به نبيك ﷺ وبعث به علي بن أبي طالب إلى اليمن صيانة للتوحيد من قذر الشرك الذي أعظم أسبابه هذه القبور. (ق).

وقـال ابنُ القيم: قـال غـيرُ واحـد من السَّلف: لَمَّا مـاتوا عكفـوا على قـبـورهم، ثـم صـوَّروا تماثيلهم. ثَم طال علـيهم الأمـدُ، فـعـبـدوهم.

قال المُصنِّفُ رحمه اللـه تعالى: وقال ابنُ القيم: قال غيرُ واحـدٍ من السَّلف: لَمَّا ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوَّروا تماثيلهم. ثم طال عليهم الأمدُ، فعبدوهم:

قوله: (وقـال ابن القيم). هو الإمامُ العلاَّمة، محـمـد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرعي الدِّمشقي، المعروف بابن قيِّم الجوزية.

قال الحافظُ السخاوي: العلاَّمةُ الحجة، المتقدِّمُ في سعة العلم ومعرفة الخلاف وقوة الجنان، المجمعُ عليه بين الموافق والمخالف، صاحبُ التصانيف السائرة، والمحاسن الجمة. مات سنة إحدىٰ وخمسين وسبعمائة.

قـوله: (قال غـيرُ واحـد من السلف): هو بمعنىٰ مـا ذكره البخاريُّ، وابنُ جرير. إلاَّ أنه ذكر عكوفَهم علىٰ قبورهم، قبل تصويرهم تماثيلهم.

وذلك من وسائل الشرك، بل هو شرك؛ لأن العكوف لله في المساجد عبادة. فإذا عكفوا علىٰ القبور، صار عكوفهم تعظيمًا ومحبة وعبادةً لها.

قوله: (ثم طال عليهم الأمدُ فعبدوهم): أي: طال عليهم الزمان. وسبب تلك العبادة والموصل إليـهـا: هو مـا جرىٰ من الأولين، من التعظيم في العكوف علىٰ قـبـورهم، ونصب صـورهم في مجالسهم. فصارت بذلك أوثانًا تعبدُ من دون الله، كما ترجم به المصنفُ رحمه الله تعالىٰ.

فإنهم تركوا بذلك دينَ الإسلام، الذي كان أولئك عليه قبل حدوث وسائل هذا الشرك.

فكفروا بعبادة تلك الصور، واتخاذهم شفعاء. وهذا أوَّلُ شرك حدث في الأرض.

قال القرطبي: وإنما صوَّر أوائلُهم الصور ليتـأسوا بها، ويتذكروا أفعالهم الصالحة، فيجتهدوا كاجتهادهم، ويعبدوا الله عند قبورهم. ثم خلفهم قومٌ جهلوا مرادهم، ووسوس لهم الشيطان أنَّ أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها. انتهىٰ.

قال ابن القيم: وما زال الشيطانُ يُوحي إلىٰ عُبَّاد القبور، ويُلقي إليهم أنَّ البناء والعكوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين، وأنَّ الدعاء عندها مُستجاب. ثم ينقلُهم من هذه المرتبة إلىٰ الدعاء به، والإقسام علىٰ الله به، فإن شأن الله أعظمُ من أنْ يُقسم عليه، أو يُسأل بأحدٍ من خلقه.

فإذا تقرَّر ذلك عندهـم. نقلهم منه إلىٰ دعائه وعبادته، وسؤاله الشفاعة من دون الله، واتخاذ قبره وثنًا تُعلَّقُ عليه القناديلُ والستور، ويُطاف به ويُستلم ويُقبَّل ويُحج إليه ويذبح عنده!

فإذا تقرَّر ذلك عندهم. نقلهم منه إلىٰ دعاء الناس إلىٰ عبادته، واتخاذِه عيدًا ومنسكًا، ورأوا أنَّ ذلك أنفعُ لهم في دنياهم وأُخراهم.

. . . .

. . . .

وكلُّ هذا مما قد عُلم بالاضطرار من دين الإسلام، أنه مضادٌّ لما بعث الله به رسوله ﷺ: من تجريد التوحيد، وأنْ لا يُعبد إلاَّ الله.

فإذا تقرَّر ذلك عندهم. نقلهم منه إلىٰ أنَّ من نهىٰ عن ذلك فقد تنقَّص أهلَ الرتب العالية، وحطَّهم عن منزلتهم، وزعم أنه لا حُرمة لهم ولا قدر، وغضب المشركون واشمأزَّت قلوبهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]، وسرىٰ ذلك في نفوس كثير من الجهال والطغام، وكثير ممن ينتسب إلىٰ العلم والدين. حتىٰ عادَوْا أهل التوحيد، ورموهم بالعظائم، ونفَّروا الناس عنهم، ووالَوْا أهلَ الشرك وعظَّموهم، وزعموا أنهم أولياءُ الله، وأنصار دينه ورسوله، ويأبىٰ الله ذلك ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]. انتهىٰ كلامُ ابن القيم رحمه الله تعالىٰ.

وفي القصة فوائدُ ذكرها المصنفُ رحمه الله[(١)]:

منها: أنَّ من فهم هذا الباب وما بعده، تبينَّ له غربةُ الإسلام، ورأىٰ من قُدرة الله وتقليبه القلوب العجب.

ومنها: أنَّ أوَّلَ شرك حدث في الأرض، سببُه محبةُ الصالحين. أي: المحبة التي فيها غُلوّ.

ومنها: معرفةُ أوَّل شيءٍ غُيِّر به دينُ الأنبياء.

ومنها: معرفةُ سبب قبول البدع، مع كون الشرائع والفِطر تُنكرها، وأنَّ سبب ذلك كلّه مَزْجُ الحق بالباطل، بأمرين:

الأول: محبةُ الصالحين.

والثاني: فِعلُ أُناس من أهل العلم والدين شيئًا أرادوا به خيرًا، فظنَّ من بعدهم أنهم أرادوا غيره.

ومنها: معرفة جبلّة الإنسان، في كون الحق ينقصُ في قلبه والباطل يزيد. أي: في الغالب.

ومنها: أنَّ فيها شاهدًا لما نُقل عن بعض السلف: أنَّ البدعة سبب الكفر، وأنها أحبُّ إلىٰ إبليس من المعصية؛ لأن المعصية قد يُتابُ منها، والبدعة لا يُتاب منها.

ومنها: معرفةُ الشيطان بما تؤول إليه البدعة، ولو حسُن قصد الفاعل.

ومنها: معرفة القاعدة الكلية، وهي: النهي عن الغلو، ومعرفةُ ما يؤول إليه. أي: من الشرك.

ومنها: النهيُ عن التماثيل، والحكمة في إزالتها.

ومنها: معرفةُ عظم شأن هذه القصة، وشدةِ الحاجة إليها مع الغفلة عنها.

ومنها: ـ وهي أعجب ـ قراءتُهم إياها في كتب التفسير والحديث، ومعرفتُهم لمعنىٰ الكلام، وكون الله تعالىٰ حال بين قلوبهم، حتىٰ اعتقدوا أنَّ فعل قوم نوح هو أفضلُ العبادة، واعتقدوا أنَّ نهي الله

. . . .

(١) كان الشارح رحمه الله قد ذكرها بنقص السادسة والحادية عشرة والسابعة عشرة والثامنة عشرة. فاكتفينا بنص المصنف رحمه الله لعدم التكرار. (ق).

وعن عمـر: أنَّ رسول الله ﷺ، قال: «لا تُطْرُوني كمـا أطرَتِ النصارى

ورسوله هو الكفر المُبيح للدم والمال.

يعني: لو نهاهم ناهٍ بنهي الله لهم عن الشرك، لكفَّروه واستحلوا دمه وماله بذلك.

ومنها: التصريحُ بأنهم لم يُريدوا إلاّ الشفاعة.

ومنها: ظنُّهم أنَّ الذين صوَّروا الصور أرادوا ذلك.

ومنها: التصريحُ بأنها لم تُعبد، حتىٰ نُسي العلم. ففيها: معرفةُ قدر وجوده ومضرّة فقده.

ومنها: أن سبب فقد العلم موت العلماء. انتهىٰ.

ومنها: ردُّ الشبه التي يُسمِّيها أهلُ الكلام عقليات، ويدفعون بها ما جاء به الكتابُ والسنة من توحيد الصفات، وإثباتها علىٰ ما يليقُ بجلال الله وعظمته وكبريائه.

ومنها: مضرةُ التقليد.

ومنها: ضرورة الأمة إلىٰ ما جاء به الرسول ﷺ، علمًا وعملاً بما يدلُّ عليه الكتاب والسنة، فإنَّ ضرورة العبد إلىٰ ذلك فوق كلِّ ضرورة.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالىٰ: **وعن عمر: أنَّ رسول الله ﷺ، قال: «لا تُطْرُوني كما أطرَت النصارى ابنَ مريم؛ إنما أنا عبدٌ. فقولوا: عبدُ الله ورسوله» أخرجاه.**

قولَه: (عن عمر): هو ابنُ الخطاب بن نُفيل ـ بنون وفاء مصغَّرًا ـ العَدوي، أميرُ المؤمنين، وأفضلُ الصحابة بعد الصديق رضي الله عنهم. وليَ الخلافة عشر سنين ونصفًا، فامتلأت الدنيا عدلاً، وفُتحت في أيامه ممالكُ كسرىٰ وقيصر. واستُشهد في ذي الحجة، سنة ثلاث وعشرين.

قوله: «**لا تطروني**». الإطراء: المبالغة في المدح.

وهذا النهي يحتمل أنه منصب علىٰ هذا التشبيه، وهو قوله: «**كما أطرت النصارى ابن مريم**»، حيث جعلوه إلهًا أو ابنًا للَّه، وبهذا يوحي قول البوصيري:

دع مـا ادعته النصارى في نبيهمُ   واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكمِ

أي: دع ما قاله النصارىٰ أن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ابن اللَّه أو ثالث ثلاثة، والباقي املأ فمك في مدحه ولو بما لا يرضيه.

ويحتمل أن النهي عام؛ فيشمل ما يشابه غلو النصارىٰ في عيسىٰ ابن مريم وما دونه، ويكون قوله: «**كما أطرت**» لمطلق التشبيه لا للتشبيه المطلق؛ لأن إطراء النصارىٰ عيسىٰ ابن مريم سببه الغلو في هذا الرسول ﷺ، حيث جعلوه ابنًا للَّه وثالث ثلاثة.

والدليل علىٰ أن المراد هذا قوله: «**إنما أنا عبد فقولوا عبد اللَّه ورسوله**».

قوله: «**إنما أنا عبد**»: أي: ليس لي حق من الربوبية، ولا مما يختص به اللَّه ـ عز وجل ـ أبدًا.

ابنَ مريم؛ إنما أنا عبدٌ. فقولوا: عبدُ الله ورسوله»[١][٢] أخرجاه.

قوله: «لا تُطروني كما أطرت النصارى ابنَ مريم»[٣]: الإطراء: مجاوزةُ الحدّ في المدح، والكذب فيه. قاله أبو السعادات. وقال غيرُه: أي: لا تمدحوني بالباطل، ولا تجاوزوا الحدَّ في مدحي.

قوله: «إنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ الله ورسوله» أي: لا تمدحوني فتغلوا في مدحي، كما غلت النصارىٰ في عيسىٰ عليه السلام، فادّعَوا فيه الإلهية. وإنما أنا عبدُ الله، فصفوني بذلك كما وصفني

قوله: «فقولوا عبد اللَّه ورسوله»: هذان وصفان أصدق وأشرفه في الرسول ﷺ؛ فأشرف وصف للإنسان أن يكون من عباد اللَّه، قال تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٧١]؛ فوصفهم اللَّه

---

(١) حيث أن النبي ﷺ أخبر- وهو الصادق - أن بعض هذه الأمة يتبع سنن أهل الكتاب في اتباع الهوى والقول على الله بلا علم وابتداع دين لم يشرعه اللـه. فقد وقع ما نهى عنه النبي ﷺ فإن كثيـرًا ممن ينتسب إلى الإسلام يطري النبي غاية الإطراء فيعتقد فيه أنه يعلم الغيب وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. وقد نفى الله عنه ذلك في القرآن فقال: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨] ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠] ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩] فكفروا به واعتقدوا ما أوحته إليهم الشياطين. وكثير منهم يعتقدون أنه يتصرف في الدنيا بعد موته ويزور من شاء في المشارق والمغارب. وقد بلغت الوقاحة بالدجال أحمد التيجاني أن زعم أن النبي ﷺ يحضر مجلس مكانه وتصديته ومجالس كل من اتـبعه في طريقه الضال، فصار هؤلاء الزائفون إذا جلسوا للغـط واللغو الذي يسمونه صلاة الفاتح، ويزعمون بوقاحتهم وفجورهم أن المرة الواحـدة منها أفضل من القرآن ستة آلاف مرة، وينشرون ثوبًا أبيض في وسط حلقتهم ليجلس عليه النبي والخلفاء، وإنما زعم الدجال التيجاني هـذا تمويهًا على أشباه الأنعام العامة ليتبعوه على دجله وباطله ويريهم أنه أتى بما لم يسبق إليـه. وصدق فإنه لم يسبق إلى هذه الوقاحة في الكفـر فنعوذ بالله من عمى القلوب، وشرع ما لم يأذن به الله. بل تكاد السموات يتفطرن منه. وبعضهم يعتقد أن النبي ﷺ يزوره ويشرع له من الدين ما يخـالف شرعه الذي أتمه اللـه وأكمله وارتضاه دينًا قـبل موته ﷺ ادعى ذلك الشعـراني في كتاب العـهود المحمـدية. وزعم أن شيـخه الخـواص كان لا يفـارق النبي ﷺ طرفة عين وهـذا كله كذب وبهتـان. فكم وقع بين الصحابة من الخلافات ما كان أولى أن يجيئهم فيها النبي ﷺ ليرجعهم فيها إلى الصواب الذي يطفئ الفتنة. لو أمكن ظهوره. ولكنها لا تعـمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور. وبعـضهم يعتقد أن السـموات والأرض وما بينهما مملوءة بالنبي ولو كشف عنا الحجاب لرأيناه عيـانًا؛ فإذا سمع أهل الغرور هذه الخرافة أفنوا أعمارهم في الخلوات يهمهمون ويزمـزمون، وأنفقوا أموالهم كلها على الدجالين المشعوذين الـذين أغووهم كل ذلك طمعًا في المحال أن يروا النبي ﷺ عيانًا مالئًا السماء والأرض وما بينهما؛ وقد انجر بنا الكلام إلى ذكر شيء من باطلهم تحذيرًا لمن لم يقع في حبائلهم وإنذارًا لمن وقع؛ وهذا نذر يسير مما نعرفه عنهم وهو مسطور في كـتبهم وأساطيرهم المطبوعة المنشورة، وليعلم الناظر في هذا أني كنت على عقيدتهم الخبيثة سنين فأنقذني الله منها على يد بعض المصلحين فاستيقظت من نوم البدعة الذميمة فلاحت لي أنوار شمس السنة، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. (ق).

(٢) صحيح: وقد تقدم تخريجه.

(٣) في قرة العيون: كما قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] قوله «إنما أنا عبد فقـولوا عبد الله ورسوله» أمرهم ﷺ أن لا يتجاوزوا هذا القول. وقد أمر الله عبادة بالصلاة والسلام عليه، لأن أشرف مقامات الأنبياء؛ العبودية الخاصة والرسالة. (ق).

. . . .

ربيّ»، فقولوا: عبدُ الله ورسوله. فأبىٰ المشركون إلاَّ مخالفة أمره، وارتكاب نهيه. فعظَّموه بما نهاهم عنه وحذَّرهم منه، وناقضوه أعظم مناقضة، وضاهوا النصارىٰ في غُلُوهم وشركهم، ووقعوا في المحذور، وجرىٰ منهم من الغلو والشرك شعرًا ونثرًا ما يطولُ عدُّه، وصنَّفوا فيه المصنفات.

وقد ذكر شيخُ الإسلام، عن بعض أهل زمانه[1]: أنه جوّز الاستغاثة بالرسول ﷺ، في كلِ ما يستغاث فيه بالله. وصنَّف في ذلك مصنفًا، ردَّه شيخُ الإسلام، وردُّه موجودٌ بحمد الله.

ويقول: إنه يعلمُ مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلاَّ الله. وذكر عنهم أشياءَ من هذا النمط. نعوذُ بالله من عمىٰ البصيرة.

وقد اشتهر في نظم البُوصِيري، قوله:

يا أكرمَ الخلقِ ما لي من ألوذُ به سواك عند حُلول الحادث العَمم!!

وما بعده من الأبيات، التي مضمونُها: إخلاصُ الدعاء، واللياذ والرجاء والاعتمادَ في أضيق الحالات، وأعظم الاضطرار لغير الله.

فناقضوا الرسول ﷺ في ارتكاب ما نهىٰ عنه أعظم مناقضة، وشاقُّوا الله ورسوله أعظمَ مشاقة.

وذلك أنَّ الشيطان أظهر لهم هذا الشرك العظيم، في قالب محبة النبي ﷺ وتعظيمه. وأظهر لهم التوحيدَ والإخلاص، الذي بعثه الله به في قالب تنقُّصه.

بالعبودية قبل الرسالة مع أن الرسالة شرف عظيم، لكن كونهم عبادًا للّه ـ عز وجل ـ أشرف وأعظم، وأشرف وصف له وأحق وصف به، ولهذا يقول الشاعر في محبوبته:

لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائي

أي: أنت إذا أردت أن تكلمني قل: يا عبد فلانة؛ لأنه أشرف أسمائي وأبلغ في الذل.

فمحمد ﷺ عبد لا يُعبد، ورسول لا يكذب، ولهذا نقول في صلاتنا عندما نسلم عليه ونشهد له بالرسالة: «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»؛ فهذا أفضل وصف اختاره النبي عليه الصلاة والسلام لنفسه.

واعلم أن الحقوق ثلاثة أقسام، وهي:

الأول: حق للّه لا يُشرك فيه غيره: لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وهو ما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

الثاني: حق خاص للرسل، وهو إعانتهم وتوقيرهم وتبجيلهم بما يستحقون.

---

(١) هو علي بن يعقوب بن جبريل البكري المتوفي يوم الاثنين سابع ربيع الآخر سنة ٧٢٤هـ والرد عليه اسمه تلخيص كتاب الاستغاثة طبع بالمطبعة السلفية سنة ١٣٤٦هـ على نفقة جلالة إمام الموحدين ناصر السنة وقامع البدعة، الملك الصالح الموفق عبد العزيز آل سعود، أيده الله بنصره وأطال حياته المباركة في خدمة الإسلام؛ ووفق ولي عهده المعظم صاحب السمو الملكي الأمير الأجل سعود إلى مثل ما يقوم به والده العظيم من نشر راية الإسلام وإعلاء كلمته، بطبع الكتب النافعة، وإقامة حدود الله. (ق).

وقال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والغُلو؛ فإنما أهلك مَنْ كـان قبلكم الغلو»[(١)].

وهؤلاء المشركون هم المتنقصون الناقصون، أفرطوا في تعظيمه بما نهاهم عنه أشدَّ النهي، وفرَّطوا في متابعته. فلم يعبؤوا بأقواله وأفعاله، ولا رضوا بحكمه ولا سلَّموا له. وإنما يحصلُ تعظيمُ الرسول ﷺ: بتعظيم أمره ونهيه، والاهتداء بهديه، واتباع سنَّته، والدعوة إلىٰ دينه الذي دعا إليه، ونُصرته، وموالاة من عمل به، ومعاداة من خالفه.

فعكس أولئك المشركون ما أراده الله ورسوله علمًا وعملاً، وارتكبوا ما نهىٰ الله عنه ورسوله، فالله المستعان.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: **وقال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والغُلو؛ فإنما أهلك مَنْ كان قبلكم الغلو»:**

هذا الحديث، ذكره المصنفُ بدون ذكر راويه. وقد رواه الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه، من حديث ابن عباس. وهذا لفظُ أحمد[(٢)]: عن ابن عباس، قال: قال لي رسول الله ﷺ غَداة جَمْع:

الثالث: حق مشترك، وهو الإيمان باللّه ورسله، وهذه الحقوق موجودة في الآية الكريمة، وهي قوله تعالىٰ: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ فهذا حق مشترك، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ هذا خاص بالرسول ﷺ، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفتح: ٩] هذا خاص باللّه - سبحانه وتعالىٰ - والذين يغلون في الرسول ﷺ يجعلون حق اللّه له؛ فيقولون: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾؛ أي: الرسول، فيسبحون الرسول كما يسبحون اللّه، ولا شك أنه شرك؛ لأن التسبيح من حقوق اللّه الخاصة به، بخلاف الإيمان؛ فهو من الحقوق المشتركة بين اللّه ورسوله. ونهىٰ عن الإطراء في قوله عليه الصلاة والسلام: **«كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم»**[(٣)]؛ لأن الإطراء والغلو يؤدي إلىٰ عبادته كما هو الواقع الآن؛ فيوجد عند قبره في المدينة من يسأله، فيقول: يا رسول اللّه، المدد، المدد، يا رسول اللّه، أغثنا، يا رسول اللّه، بلادنا يابسة، وهكذا، ورأيت بعيني رجلاً يدعو اللّه تحت ميزاب الكعبة موليًا ظهره البيت مستقبلاً المدينة؛ لأن استقبال القبر عنده أشرف من استقبال الكعبة والعياذ باللّه.

ويقول بعض المغالين: الكعبة أفضل من الحجرة؟! فأما والنبي ﷺ فيها؛ فلا واللّه، ولا الكعبة، ولا العرش وحملته، ولا الجنة. فهو يريد أن يفضل الحجرة علىٰ الكعبة وعلىٰ العرش وحملته وعلىٰ الجنة، وهذه مبالغة لا يرضاها النبي ﷺ لنا ولا لنفسه.

وصحيح أن جسده ﷺ أفضل، ولكن كونه يقول: إن الحجرة أفضل من الكعبة والعرش وحملته والجنة؛ لأن الرسول ﷺ فيها؛ فهذا خطأ عظيم، نسأل اللّه السلامة من ذلك.

قوله: «إياكم»: للتحذير.

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (٣٠٢٩)، وأحمد (١/ ٣٤٧)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢٦٨٠).

(٢) ورواه أيضًا الإمام أحمد وأبو داود، وإنما اقتصر المصنف على ما هو أرجح وأقوى. (ق). (٣) صحيح: وقد تقدم.

. . . .

«هَلُمَّ القُطْ» فلقطتُ له حصيات، هُنَّ حَصَى الخَذْف. فلما وضعهن في يده، قال: **«نعم، بأمثال هؤلاء. وإياكم والغلو في الدين؛ فإنَّما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين»**[1].

قال شيخ الإسلام: هذا عامٌ في جميع أنواع الغلو، في الاعتقادات والأعمال.

وسببُ هذا اللفظ العام: رمْيُ الجمار، وهو داخلٌ فيه. مثل الرمي بالحجارة الكبار؛ بناءً على أنه أبلغُ من الصغار. ثم علله بما يقتضي مجانبةَ هَدْي من كان قبلنا؛ إبعادًا عن الوقوع فيما هلكوا به. وأن المشارك لهم في بعض هديهم يخاف عليه من الهلاك.

قوله: «والغلو»: معطوف على إياكم، وقد اضطرب فيه المعربون اضطرابًا كثيرًا، وأقرب ما قيل للصواب وأقله تكلفًا، أن إيا منصوبة بفعل أمر مقدر تقديره: إياك احذر؛ أي: احذر نفسك أن تغرك، والغلو معطوف على إياك؛ أي: واحذر الغلو. والغلو كما سبق: هو مجاوزة الحد مدحًا أو ذمًا، وقد يشمل ما هو أكثر من ذلك أيضًا؛ فيقال: مجاوزة الحد في الثناء وفي التعبد وفي العمل؛ لأن هذا الحديث ورد في رمي الجمرات، حيث روى ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته: **«القط لي حصى، فلقطت له سبع حصيات هن حصى الخذف؛ فجعل ينفضهن في كفه، ويقول: أمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو في الدين؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»**. هذا لفظ ابن ماجه. والغلو: فاعل أهلك.

قوله: «من كان قبلكم»: مفعول مقدم.

قوله: «وإنما»: أداة حصر، والحصر: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه.

قوله: «أهلك»: يحتمل معنيين:

الأول: أن المراد هلاك الدين، وعليه يكون الهلاك واقعًا مباشرة من الغلو؛ لأن مجرد الغلو هلاك.

الثاني: أنه هلاك الأجسام، وعليه يكون الغلو سببًا للهلاك؛ أي: إذا غلو خرجوا عن طاعة الله فأهلكهم الله.

وهل الحصر في قوله: **«فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»** حقيقي أو إضافي؟

الجواب: إن قيل: إنه حقيقي: حصل إشكال، وهو أن هناك أحاديث أضاف النبي ﷺ الهلاك فيها إلى أعمال غير الغلو، مثل قوله ﷺ: **«إنما أهلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»**[2]؛ فهنا حصران متقابلان، فإذا قلنا: إنه حقيقي بمعنى أنه لا هلاك إلا بهذا حقيقة؛ صار بين الحديثين تناقض.

وإن قيل: إن الحصر إضافي؛ أي: باعتبار عمل معين؛ فإنه لا يحصل التناقض بحيث يحمل كل

---

(١) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في تخريج السنة لابن أبي عاصم (٩٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٧٥، ٣٧٣٣، ٤٣٠٤)، ومسلم (١٦٨٨)، وأبو داود (٤٣٧٣)، والترمذي (١٤٣٠)، والنسائي (٤٨٩٧)، وابن ماجه (٢٥٤٧).

....

....

منهما على جهة لا تعارض الحديث الآخر لئلا يكون في حديثه ﷺ تناقض، وحينئذ يكون الحصر إضافيًا، فيقال: أهلك من كان قبلكم الغلو، هذا الحصر باعتبار الغلو في التعبد في الحديث الأول، وفي الآخريقال: أهلك من كان قبلكم باعتبار الحكم، فيهلك الناس إذا أقاموا الحد على الضعيف دون الشريف. وفي هذا الحديث يحذر الرسول ﷺ أمته من الغلو، ويبرهن على أن الغلو سبب الهلاك؛ لأنه مخالف للشرع ولإهلاكه للأمم السابقة؛ فيستفاد منه تحريم الغلو من وجهين:

الوجه الأول: تحذيره ﷺ، والتحذير نهي وزيادة.

الوجه الثاني: أنه سبب لإهلاك الأمم كما أهلك من قبلنا، وما كان سببًا للهلاك كان محرمًا.

أقسام الناس في العبادة:

والناس في العبادة طرفان ووسط؛ فمنهم المفرِط، ومنهم المفرِّط، ومنهم المتوسط.

فدين اللّه بين الغالي فيه والجافي عنه، وكون الإنسان معتدلاً لا يميل إلى هذا ولا إلى هذا، هذا هو الواجب؛ فلا يجوز التشدد في الدين والمبالغة، ولا التهاون وعدم المبالاة، بل كن وسطًا بين هذا وهذا.

والغلو له أقسام كثيرة:

منها: الغلو في العقيدة، ومنها: الغلو في العبادة، ومنها: الغلو في المعاملة، ومنها: الغلو في العادات.

والأمثلة عليها كما يلي: أما الغلو في العقيدة؛ فمثل ما تشدق به أهل الكلام بالنسبة لإثبات الصفات، فإن أهل الكلام تشدقوا وتعمقوا حتى وصلوا إلى الهلاك قطعًا؛ حتى أدى بهم هذا التعمق إلى واحد من أمرين:

إما التمثيل، أو التعطيل.

إما أنهم مثلوا الله بخلقه، فقالوا: هذا معنى إثبات الصفات، فغلوا في الإثبات حتى أثبتوا ما نفى اللّه عن نفسه، أو عطلوه وقالوا: هذا معنى تنزيهه عن مشابهة المخلوقات، وزعموا أن إثبات الصفات تشبيه؛ فنفوا ما أثبته اللّه لنفسه.

لكن الأمة الوسط اقتصدت في ذلك؛ فلم تتعمق في الإثبات ولا في النفي والتنزيه؛ فأخذوا بظواهر اللفظ، وقالوا: ليس لنا أن نزيد على ذلك؛ فلم يهلكوا، بل كانوا على الصراط المستقيم، ولما دخل هؤلاء الفرس والروم وغيرهم في الدين؛ صاروا يتعمقون في هذه الأمور ويجادلون مجادلات ومناظرات لا تنتهي أبدًا؛ حتى ضاعوا، نسأل اللّه السلامة.

وكل الإيرادات التي أوردها المتأخرون من هذه الأمة على النصوص، لم يوردها الصحابة الذين هم الأمة الوسط.

أما الغلو في العبادات؛ فهو التشدد فيها؛ بحيث يرى أن الإخلال بشيء منها كفر وخروج عن الإسلام؛ كغلو الخوارج والمعتزلة، حيث قالوا: إن من فعل كبيرة من الكبائر؛ فهو خارج عن الإسلام وحل دمه وماله، وأباحوا الخروج على الأئمة وسفك الدماء.

ولمسلم، عن ابن مسعود: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «هلك المُتنطِّعون» قالها ثلاثًا (١).

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولمسلم، عن ابن مسعود: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «هلك المُتنطِّعون» قالها ثلاثًا.

وكذا المعتزلة، حيث قالوا: من فعل كبيرة؛ فهو بمنزلة بين المنزلتين: الإيمان والكفر؛ فهذا تشدد أدىٰ إلىٰ الهلاك.

وهذا التشدد قابله تساهل المرجئة، فقالوا: إن القتل والزنا والسرقة وشرب الخمر ونحوها من الكبائر، لا تخرج من الإيمان، ولا تنقص من الإيمان شيئًا، وإنه يكفي في الإيمان الإقرار، وإن إيمان فاعل الكبيرة كإيمان جبريل ورسول اللَّه ﷺ؛ لأنه لا يختلف الناس في الإيمان، حتىٰ يقولوا: إن إبليس مؤمن لأنه مقر، وإذا قيل: إن اللَّه كفره؛ قالوا: إذن إقراره ليس بصادق، بل هو كاذب، وإلا لو استكبر عن أمر اللَّه؛ فهو مؤمن. وهؤلاء في الحقيقة يصلحون لكثير من الناس في هذا الزمان، ولا شك أن هذا تطرف بالتساهل، والأول تطرف بالتشدد، ومذهب أهل السنة أن الإيمان يزيد وينقص، وفاعل المعصية ناقص الإيمان بقدر معصيته، ولا يخرج من الإيمان إلا بما برهنت النصوص علىٰ أنه كفر.

وأما الغلو في المعاملات؛ فهو التشدد في الأمور بتحريم كل شيء حتىٰ ولو كان وسيلة، وأنه لا يجوز للإنسان أن يزيد عن واجبات حياته الضرورية، وهذا مسلك سلكه الصوفية، حيث قالوا: من اشتغل بالدنيا؛ فهو غير مريد للآخرة، وقالوا: لا يجوز أن تشتري ما زاد علىٰ حاجتك الضرورية، وما أشبه ذلك. وقابل هذا التشدد تساهل من قال: بحل كل شيء ينمي المال ويقوي الاقتصاد؛ حتىٰ الربا والغش وغير ذلك. فهؤلاء -والعياذ باللَّه- متطرفون بالتساهل؛ فتجده يكذب في ثمنها وفي وصفها وفي كل شيء؛ لأجل أن يكسب فلسًا أو فلسين، وهذا لا شك أنه تطرف. والتوسط أن يقال: تحل المعاملات وفق ما جاءت به النصوص، ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥].

فليس كل شيء حرامًا؛ فالنبي ﷺ باع واشترىٰ، والصحابة رضي اللَّه عنهم يبيعون ويشترون، والنبي ﷺ يقرّهم.

وأما الغلو في العادات؛ فإذا كانت هذه العادة يخشىٰ أن الإنسان إذا تحول عنها انتقل من التحول في العادة إلىٰ التحول في العبادة؛ فهذا لا حرج أن الإنسان يتمسك بها، ولا يتحول إلىٰ عادة جديدة، أما إذا كان الغلو في العادة يمنعك من التحول إلىٰ عادة جديدة مفيدة أفيد من الأولىٰ؛ فهذا من الغلو المنهي عنه، فلو أن أحدًا تمسك بعادته في أمر حدث أحسن من عادته التي هو عليها نقول: هذا في الحقيقة غالٍ ومفرط في هذه العادة. وأما إن كانت العادات متساوية المصالح، لكنه يخشىٰ أن ينتقل الناس من هذه العادة إلىٰ التوسع في العادات التي قد تُخل بالشرف أو الدين؛ فلا يتحول إلىٰ العادة الجديدة.

قوله: «المتنطعون»: المتنطع: هو المتعمق المتقعر المتشدق، سواء كان في الكلام أو في الأفعال؛

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٧٠).

فيه مسائل:

الأولى: أنَّ من فهم هذا الباب وبابين بعده، تبيَّن له غربة الإسلام، ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب.

قال الخطَّابي: المتنطِّع: المتعمِّق في الشيء، المتكلِّف البحث عنه، على مذاهب أهل الكلام الداخلين فيما لا يعنيهم، الخائضين فيما لا تبلغه عقولُهم.

ومن التنطع: الامتناع من المباح مُطلقًا، كالذي يمتنعُ من أكل اللحم والخبز، ومن لبْس الكتان والقطن ولا يلبس إلاَّ الصوف، ويمتنعُ من نكاح النساء. ويظنُّ أنَّ هذا من الزهد المستحب.

قال الشيخ تقي الدين: فهذا جاهلٌ ضال. انتهى.

وقال ابن القيم رحمه الله: قال الغزالي: والمتنطعون في البحث والاستقصاء.

وقال أبو السعادات: هم المتعمقون، الغالون في الكلام، المتكلمون بأقاصي حلوقهم. مأخوذ من النطع، وهو الغارُ الأعلى من الفم، ثم استُعمل في كلِّ متعمِّق قولاً وفعلاً.

وقال النووي: فيه كراهةُ التقعُّر في الكلام بالتشدق وتكلف الفصاحة، واستعمال وحشي اللغة، ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم.

قوله: (قالها ثلاثًا): أي: قال هذه الكلمة ثلاث مرات، مبالغةً في التعليم والإبلاغ، فقد بلَّغ البلاغ المبين. صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهو هالك، حتى ولو كان ذلك في الأقوال المعتادة؛ فبعض الناس يكون بهذه الحالة، حتى إنه ربما يقترن بتعمقه وتنطعه الإعجاب بالنفس في الغالب، وربما يقترن به الكبر، فتجده إذا تكلم يتكلم بأنفه، فتسلم عليه تسمع الرد من الأنف إلى غير ذلك من الأقوال. والتنطع بالأفعال كذلك أيضًا قد يؤدي إلى الإعجاب أو إلى الكبر، ولهذا قال: «**هلك المتنطعون**». والتنطع أيضًا في المسائل الدينية يشبه الغلو فيها؛ فهو أيضًا من أسباب الهلاك.

ومن ذلك ما يفعله بعض الناس من التنطع في صفات اللَّه تعالى والتقعر فيها، حيث يسألون عما لم يسأل عنه الصحابة رضي اللَّه عنهم، وهم يعلمون أن الصحابة خير منهم وأشد حرصًا على العلم، وفيهم رسول ﷺ الذي عنده من الإجابة على الأسئلة ما ليس عند غيره من الناس مهما بلغ علمهم.

فهذه الأحاديث الثلاثة كلها تدل على تحريم الغلو، وأنه سبب للهلاك، وأن الواجب أن يسير العبد إلى اللَّه بين طرفي نقيض بالدين الوسط، فكما أن هذه الأمة هي الوسط ودينها هو الوسط؛ فينبغي أن يكون سيرها في دينها على الطريق الوسط.

فيه مسائل:

الأولى: أن من فهم هذا الباب ـ أي: بما مرَّ من تفسير الآية الكريمة: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ ـ وبابين بعده؛ تبين له غربة الإسلام: وهذا حق؛ فإن الإسلام المبني على التوحيد الخالص غريب،

الثانية: معرفة أول شرك حدث في الأرض: أنه بشبهة الصالحين.

الثالثة: أول شيء غُيِّر به دينُ الأنبياء، وما سبب ذلك؟ مع معرفة أنَّ الله أرسلهم.

الرابعة: قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تَرُدُّهَا.

الخامسة: أنَّ سبب ذلك كله مَزجُ الحق بالباطل، فالأول: محبة الصالحين، والثاني: فعلُ أُناس من أهل العلم والدين شيئًا أرادوا به خيرًا، فَظَنَّ مَن بعدهم أَنَّهُم أرادوا به غيره.

. . . .

فكثير من البلدان الإسلامية تجد فيها الغلو في الصالحين في قبورهم؛ فلا تجد بلدًا مسلمًا إلا وفيه غلو في قبور الصالحين، وقد يكون ليس قبر رجل صالح، بل قد يكون وهمًا، مثل قبر الحسين بن علي رضي اللَّه عنهما؛ فأهل العراق يقولون: هو عندنا، وأهل الشام يقولون: عندنا، وأهل مصر يقولون: عندنا، وبعضهم يقول: هو في المغرب؛ فصار الحسين إمَّا أنه أربعة رجال، أو مُقطَّع أوصالاً، وهذا كله ليس بصحيح؛ فالمهم أنه كما قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: تبين لك غربة الإسلام في المسلمين.

الثانية: معرفة أول شرك حدث في الأرض: وجه ذلك: أنَّ هذه الأصنام التي عبدها قوم نوح كانوا أقوامًا صالحين، فحدث الغلو فيهم، ثم عبدوا من دون اللَّه؛ ففيه الحذر من الغلو في الصالحين.

الثالثة: معرفة أول شيء غُيِّر به دين الأنبياء، وما سبب ذلك، مع معرفة أن اللَّه أرسلهم: أول شيء غُيِّر به دين الأنبياء هو الشرك، وسببه هو الغلو في الصالحين، وقوله: «**مع معرفة أن الله أرسلهم**»، قال اللَّه تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]؛ أي: كانوا أمة واحدة على التوحيد، فاختلفوا، فبعث اللَّه النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه؛ فهذا أول ما حدث من الشرك في بني آدم.

الرابعة: قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردُّها: قوله: «**قبول البدع**»: أي: أنَّ النفوس تقبلها لا لأنَّها مشروعة، بل إن الشرائع تردها، وكذلك الفطر السليمة تردها، لأنَّ الفطر السليمة جُبلت على عبادة اللَّه وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]؛ فالفطر السليمة لا تقبل تشريعًا إلا ممن يملك ذلك.

الخامسة: أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل: أراد المؤلف رحمه اللَّه أن يبين أن مزج الحق بالباطل حصل بأمرين:

الأول: محبة الصالحين، ولهذا صوروا تماثيلهم محبَّة لهم، ورغبة في مشاهدة أشباحهم.

الثاني: أنَّ أهل العلم والدين أرادوا بذلك خيرًا، وهو أن ينشطوا على العبادة، ولكن من بعدهم أرادوا غير الخير الذي أراده أولئك، ويؤخذ منه: أنَّ من أراد تقوية دينه ببدعة؛ فإن ضررها أكثر من نفعها.

مثال ذلك: أولئك الذين يغلون في الرسول ﷺ ويجعلون له الموالد، فهم يريدون بذلك خيرًا، لكن أرادوا خيرًا بهذه البدعة، فصار ضررها أكثر من نفعها؛ لأنَّها تعطي الإنسان نشاطًا غير مشروع

. . . .

. . . .

في وقت معيَّن، ثم يعقبه فتور غير مشروع في بقية العام. ولهذا تجد هؤلاء الذين يغالون في هذه البدع فاترين في الأمور المشروعة الواضحة ليسوا كنشاط غيرهم، وهذا ممَّا يدل على تأثير البدع في القلوب، وأنَّها مهما زيَّنها أصحابها؛ فلا تزيد الإنسان إلا ضلالاً؛ لأنَّ النبي ﷺ يقول: «**كل بدعة ضلالة**»[(١)].

فإن قيل: إن للاحتفال بمولده أصلاً من السنة، وهو أن النبي ﷺ سئل عن صوم يوم الإثنين؛ فقال: «**ذاك يوم ولدت فيه، وبعثت فيه ـ أو ـ أنزل عليَّ فيه**»[(٢)] وكان ﷺ يصومه مع الخميس ويقول: «**إنهما يومان تُعرض فيهما الأعمال على الله؛ فأحب أن يُعرض عملي وأنا صائم**»[(٣)].

فالجواب على ذلك من وجوه:

الأول: أن الصوم ليس احتفالاً بمولده كاحتفال هؤلاء، وإنَّما هو صوم وإمساك، أمَّا هؤلاء الذين يجعلون له الموالد؛ فاحتفالهم على العكس من ذلك.

فالمعنى: أنَّ هذا اليوم إذا صامه الإنسان؛ فهو يوم مبارك حصل فيه هذا الشيء، وليس المعنى أنَّنا نحتفل بهذا اليوم.

الثاني: أنه على فرض أن يكون هذا أصلاً؛ ، فإنه يجب أن يقتصر فيه على ما ورد؛ لأن العبادات توقيفية، ولو كان الاحتفال المعهود عند الناس اليوم مشروعا لبيَّنه النبي ﷺ إما بقوله أو فعله أو إقراره.

الثالث: أنَّ هؤلاء الذين يحتفلون بمولد النبي ﷺ لا يقيِّدونه بيوم الاثنين، بل في اليوم الذي زعموا مولده فيه، وهو اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول، مع أنَّ ذلك لم يثبت من الناحية التاريخية، وقد حقَّق بعض الفلكيين المتأخرين ذلك؛ فكان في اليوم التاسع لا في اليوم الثاني عشر.

الرابع: أن الاحتفال بمولده على الوجه المعروف بدعة ظاهرة؛ لأنَّه لم يكن معروفًا على عهد النبي ﷺ وأصحابه، مع قيام المقتضي له وعدم المانع منه.

مسألة حكم الاحتفال بعيد الميلاد للأطفال: فائدة: كل شيء يتخذ عيداً يتكرر كل أسبوع، أو كل عام وليس مشروعًا؛ فهو من البدع، والدليل على ذلك: أنَّ الشارع جعل للمولود العقيقة، ولم يجعل شيئًا بعد ذلك، واتخاذهم هذه الأعياد تتكرر كل أسبوع أو كل عام معناه أنَّهم شبهوه بالأعياد الإسلامية، وهذا حرام لا يجوز، وليس في الإسلام شيء من الأعياد إلا الأعياد الشرعية الثلاثة: عيد الفطر، وعيد الأضحى، وعيد الأسبوع ـ وهو يوم الجمعة ـ.

وليس هذا من باب العادات لأنَّه يتكرر، ولهذا لما قدم النبي ﷺ فوجد للأنصار عيدين يحتفلون بهما؛

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد (١٦٦٩٢)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الترغيب والترهيب (٣٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١١٦٢).

(٣) صحيح: رواه الترمذي (٧٤٧)، وابن ماجه (١٧٤٠)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢٩٥٩).

السادسة: تفسير الآية التي في سورة نوح.

السابعة: جِبِلَّةُ الآدمي[1] في كون الحقِّ ينقص في قلبه، والباطل يزيد.

الثامنة: فيه شاهد لما نُقل عن السلف أن البدعة سبب الكفر.

. . . .

قال: «**إن اللَّه أبدلكما بخير منهما: عيد الأضحى، وعيد الفطر**»[2]، مع أنَّ هذا من الأمور العادية عندهم.

السادسة: تفسير الآية في سورة نوح: وقد سبق ذلك وبيان أنهم يتواصون بالباطل، وهذا خلاف طريق المؤمنين الذين يتواصون بالحق والصبر والمرحمة، ويشبههم أهل الباطل والضلال الذين يتواصون بما هم عليه، سواء كانوا رؤساء سياسيين أو رؤساء دينيين ينتسبون إلىٰ الدين، فتجد الواحد منهم لا يموت إلا وقد وضع له ركيزة من بعده ينمي هذا الأمر الذي هو عليه.

السابعة: جبلة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه، والباطل يزيد: هذه العبارة تفيد من حيث كونه آدميًا بقطع النَّظر عن من يمنُّ اللَّه عليه بتزكية النفس؛ فإنَّ اللَّه يقول: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

قوله: «جبلة» علىٰ وزن «فعلة»، وهو ما يجبل المرء عليه؛ أي يخلق عليه ويطبع ويبدع، بمعنىٰ الطبيعة التي عليها؛ فالإنسان من حيث هو إنسان بقطع النظر عن كونه زكىٰ نفسه أو دسَّاها.

فالإنسان من حيث هو إنسان وصفه اللَّه بوصفين؛ فقال تعالىٰ: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقال تعالىٰ: ﴿**وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾ [الأحزاب: ٧٢].

أمَّا من حيث ما يمنُّ به عليه من الإيمان والعمل الصالح؛ فإنَّه يرتقي عن هذا، قال تعالىٰ: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾ [التين: ٤-٦]؛ فالإنسان الذي يمنُّ اللَّه عليه بالهدىٰ؛ فإنَّ الباطل الذي في قلبه يتناقص وربما يزول بالكلية؛ كعمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهم.

وكذلك أهل العلم؛ كأبي الحسن الأشعري، كان معتزليًا، ثم كلاميًا، ثم سنيًا، وابن القيم كان صوفيًا، ثم منَّ اللَّه عليه بصحبة شيخ الإسلام ابن تيمية؛ فهداه اللَّه علىٰ يده حتىٰ كان ربانيًا.

الثامنة: فيه شاهد لما نُقل عن السلف أن البدع سبب الكفر: قال أهل العلم: إنَّ الكفر له أسباب متعددة، ولا مانع أن يكون للشيء الواحد أسباب متعددة، ومن ذلك الكفر، ذكروا من أسبابه البدعة، وقالوا: إنَّ البدعة لا تزال في القلب، يظلم منها شيئًا فشيئًا؛ حتَّىٰ يصل إلىٰ الكفر،

---

(١) الجبلة بكسرتين فلام مشددة وكخشبة أيضًا الخلقة والطبيعة؛ والمعنى أن الإنسان مجبول على نقصان الحق في قلبه وزيادة الباطل إلا من رحم الله وأنزل في قلوبهم السكينة فإن إيمانهم لا يزال يزيد ولا ينقص. (ق).

(٢) صحيح: رواه أبو داود (١١٣٤)، والنسائي (١٥٥٦)، وأحمد (١١٥٩٥)، ومواضع، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٤٣٨١).

التاسعة: معرفة الشيطان بِما تئول إليه البدعة، ولو حَسُن قصد الفاعل.

. . . .

واستدلوا بقوله ﷺ: «**كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار**»[1].

وقالوا أيضًا: «إن المعاصي بريد الكفر، وبريد الشيء ما يوصل إلىٰ الغاية».

والمعاصي كما أخبر النبي ﷺ تتراكم علىٰ القلب، فتنكت فيه نكتة سوداء، فإن تاب؛ صقل قلبه وابيض[2]، وإلا؛ فلا تزال هذه النكتة السوداء تتزايد حتىٰ يصبح مظلمًا.

وكذلك حذَّر من محقرات الذنوب، وضرب لها مثلاً بقوم نزلوا أرضًا، فأرادوا أن يطبخوا، فذهب كل واحد منهم وأتىٰ بعود، فأتىٰ هذا بعود وهذا بعود، فجمعوها، فأضرموا نارًا كبيرة، وهكذا المعاصي[3]؛ فالمعاصي لها تأثير قوي علىٰ القلب، وأشدها تأثيرًا الشهوة فهي أشد من الشبهة؛ لأنَّ الشبهة أيسر زوالاً علىٰ من يسَّرها اللَّه عليه؛ إذ أن مصدرها الجهل، وهو يزول بالتَّعلُّم.

أما الشهوة، وهي إرادة الإنسان الباطل؛ فهي البلاء الذي يُقتل به العالم والجاهل، ولذا كانت معصية اليهود أكبر من معصية النصارىٰ؛ لأنَّ معصية اليهود سببها الشهوة وإرادة السوء والباطل، ومعصية النصارىٰ سببها الشبهة، ولهذا كانت البدعة غالبها شبهة، ولكن كثيرًا منها سببه الشهوة، ولهذا يبين الحق لأهل الشهوة من أهل البدع، فيصرُّون عليها، وغالبهم يقصد بذلك بقاء جاهه ورئاسته بين الناس دون صلاح الخلق، ويظنُّ في نفسه ويملي عليه الشيطان أنَّه لو رجع عن بدعته لنقصت منزلته بين الناس، وقالوا: هذا رجل متقلب وليس عنده علم، لكن الأمر ليس كذلك؛ فأبو الحسن الأشعري مضرب المثل في هذا الباب؛ فإنه لما كان من المعتزلة لم يكن إمامًا، ولما رجع إلىٰ مذهب أهل السنة صار إمامًا؛ فكل من رجع إلىٰ الحق ازدادت منزلته عند اللَّه سبحانه ثم عند خلقه.

والخلاصة: أن البدعة سبب للكفر، ولا يرد علىٰ هذا قول بعض أهل العلم: إن المعاصي بريد الكفر؛ لأنَّه لا مانع من تعدد الأسباب.

التاسعة: معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ولو حسن قصد الفاعل: لأنَّ الشيطان هو الذي سوَّل لهؤلاء المشركين أن يصوِّروا هذه التماثيل والتصاوير؛ لأنَّه يعرف أن هذه البدعة تؤول إلىٰ الشرك.

وقوله: «**ولو حسن قصد الفاعل**»: أي: إنَّ البدعة شر ولو حسن قصد فاعلها، ويأثم إن كان عالمًا أنَّها بدعة ولو حسن قصده؛ لأنه أقدم علىٰ المعصية كمن يجيز الكذب والغش ويدعي أنَّه مصلحة، أمَّا لو كان جاهلاً فإنَّه لا يأثم؛ لأنَّ جميع المعاصي لا يأثم بها إلا مع العلم، وقد يُثاب علىٰ حسن قصده، وقد نبَّه علىٰ ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم»؛ فيثاب علىٰ نيَّته دون عمله، فعمله هذا غير صالح ولا مقبول عند اللَّه ولا مرضي، لكن لحسن نيته مع الجهل يكون له أجر، ولهذا قال ﷺ للرجل الذي صلىٰ وأعاد الوضوء بعدما وجد الماء وصلَّىٰ ثانية: «لك

---

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) حسن: رواه الترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، وأحمد (٧٨٩٢)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٦٧٠).

(٣) صحيح: رواه أحمد (٢٢٣٠٢)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢٦٨٦).

العاشرة: معرفة القاعدة الكلية، وهي النَّهيُ عن الغلو، ومعرفة ما تئول إليه.

الحادية عشرة: مَضرّة العُكوف على القبر لأجل عمل صالح.

....

والناس في معاملة الصالحين ثلاثة أقسام: أهل الجفاء الذين يهضمونهم حقوقهم ولا يقومون بحقهم من الحب والموالاة لهم والتوقير والتبجيل، وأهل الغلو الذين يرفعونهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله بها، وأهل الحق الذين يحبونهم ويوالونهم ويقومون بحقوقهم الحقيقية ولكنهم يبرأون من الغلو فيهم وادعاء عصمتهم، والصالحون أيضا يتبرأون من أن يدعوا لأنفسهم حقًّا من حقوق ربهم الخاصة، كما قال الله عن عيسى ﷺ: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦].

الأجر مرتين» [١] لحسن قصده، ولأنَّ عمله عمل صالح في الأصل، لكن لو أراد أحد أن يعمل العمل مرتين مع علمه أنه غير مشروع، لم يكن له أجر؛ لأن عمله غير مشروع لكونه خلاف السنة؛ فقد قال النبي ﷺ للذي لم يعد: **«أصبت السنة»** [٢].

فإن قال: إني أريد بهذه البدعة إحياء الهمم والتنشيط وما أشبه ذلك.

أجيب: بأن هذه الإرادة طعن في رسالة الرسول ﷺ لأنَّه اتهام له بالتقصير أو القصور، أي مقصر في الإخبار عن ذلك أو قاصر في العلم، وهذا أمر عظيم وخطر جسيم، ولأن هذا لم يكن عليه الرسول ﷺ ولا خلفاؤه الراشدون، أمَّا إذا كان حسنَ القصدِ، ولم يعلم أنَّ هذا بدعة؛ فإنَّه يثاب على نيَّته ولا يُثاب على عمله؛ لأنَّ عمله شر حابط كما قال النبي ﷺ **«من عمل عملاً ليس عليه أمرنا؛ فهو رد»** [٣].

وأما العامة الذين لا يعلمون، وقد لُبس عليهم هذه البدعة وغيُرها؛ نقول: ما داموا قاصدين للحق ولا علموا به؛ فإثمهم على من أفتاهم ومن أضلَّهم. ولهذا يوجد في مجاهيل أفريقيا وغيرها من لا يعرفون عن الإسلام شيئًا، فلو ماتوا لا نقول: إنَّهم مسلمون ونصلي عليهم ونترحَّم عليهم مع أنَّهم لم تقم عليهم الحجة، لكننا نعاملهم في الدنيا بالظاهر، أمَّا في الآخرة، فأمرهم إلى اللَّه.

العاشرة: معرفة القاعدة الكليَّة، وهي النهي عن الغلو ومعرفة ما يؤول إليه: هذا ما حذَّر منه النبي ﷺ لأنَّ الغلو مجاوزة الحد، وهو كما يكون في العبادات يكون في غيرها، قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقد سبق بيان ذلك.

الحادية عشر: مضرَّة العكوف على القبر لأجل عمل صالح: المضرَّة الحاصلة: هي أنها توصل إلى عباداتهم. ومثل ذلك: ما لو قُرئ القرآن عند قبر رجل صالح، أو تُصدق عند هذا القبر يعتقد أنَّ لذلك مزيَّة

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٣٣٨)، والدارمي (٧٤٤)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٥٣٣).

(٢) صحيح: وهو السابق.

(٣) صحيح رواه مسلم (١٧١٨، ٢٩٨٥)، ورواه البخاري تعليقًا في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ...، ورواه البخاري (٢٦٩٧) بلفظ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد».

الثانية عشرة: معرفة النهي عن التماثيل، والحكمة في إزالتها.

الثالثة عشرة: معرفة عظم شأن هذه القصة، وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها.

الرابعة عشرة: وهي أعجب العجب: قراءتُهم إيَّاها في كتب التفسير والحديث، ومعرفتهم بمعنى الكلام، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم؛ حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح هو أفضل العبادات، واعتقدوا أن ما نَهَى الله ورسوله عنه، فهو الكفر المبيح للدم والمال.

. . . .

على غيره؛ فإن هذا من البدع، وهذه البدعة قد تؤدي بصاحبها إلى عبادة هذا القبر.

الثانية عشرة: معرفة النهي عن التماثيل: التماثيل: هي الصور على مثال رجل، أو حيوان، أو حجر، والغالب أنَّها تطلق على ما صنع ليعبد من دون اللَّه.

الثالثة عشرة: معرفة عظم شأن هذه القصة: أي: قصة هؤلاء الذين غلوا في الصالحين وغير الصالحين، لكن اعتقدوا فيهم الصلاح، حتى تدرج بهم الأمور إلى عبادتهم من دون اللَّه؛ فتجب معرفة هذه القصة، وأنَّ أمر الغلو عظيم، ونتائجه وخيمة؛ فالحاجة شديدة إلى ذلك، والغفلة عنها كثيرة والنَّاس لو تدبَّرت أحوالهم وسبرت قلوبهم وجدت أنَّهم في غفلة عن هذا الأمر، وهذا موجود في البلاد الإسلامية.

الرابعة عشرة وهي أعجب العجب: قراءتهم إيَّاها في كتب التفسير والحديث:

قوله: «وأعجب» أي: أكثر عجبًا وأشد، والعجب نوعان:

الأول: بمعنى الاستحسان، وهو ما إذا تعلق بمحمود؛ كقول عائشة في الحديث: «كان النبي ﷺ يعجبه التيامن في تنعُّله وترجُّله وطهوره، وفي شأنه كله»[1].

الثاني: بمعنى الإنكار، وذلك فيما إذا تعلق بمذموم، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥]. وكلام المؤلف هنا من باب الإنكار.

وكلام المؤلف هنا عمَّا كان في زمنه، حيث غفلوا عن هذه القصة مع قراءتهم لها في كتب التفسير والحديث، واعتقدوا أن فعل قوم نوح أفضل العبادات، وهذا من أضر ما يكون على المرء أن يعتقد السيء حسنًا، قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

قوله: «فاعتقدوا أنَّ ما نهى اللَّه ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدم والمال»: أي: من اعتقد أنَّ الشرك والكفر من أفضل العبادات، وأنَّه مقرب إلى اللَّه؛ فهو كفر مبيح لدمه وماله، هذا ما أراد المؤلف، وإن كان لا يسعفه ظاهر كلامه ثم بدا لي ما لعله المراد أن هؤلاء الغالين اعتقدوا أن المنهي عنه هو الكفر المبيح للدم والمال، وأما ما دونه من الغلو؛ فلا نهي فيه، واللَّه أعلم.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٦٨)، ومسلم (٢٦٨).

الخامسة عشرة: التصريح وأنَّهُم لم يريدوا إلا الشفاعة.

السادسة عشرة: ظَنُّهم أن العلماء الذين صوَّروا الصور أرادوا ذلك.

السابعة عشرة: البيان العظيم في قوله ﷺ: «لا تطروني كما أطرتِ النصارى ابن مريم» فصلوات الله وسلامه على من بلَّغ البلاغ المبين.

الثامنة عشرة: نصيحتُه إيَّانَا بهَلاك المتنطِّعين.

التاسعة عشرة: التصريح بأنَّهَا لم تُعبد حتَّى نُسي العلم، ففيها بيان معرفة قدر وجوده، ومضرَّة فَقْده.

واعلم أن الحقوق ثلاثة: حق خاص لله لا يشاركه فيه مشارك وهو التأله له وعبادته وحده لا شريك له، والرغبة والإنابة إليه وحده حبًّا وخوفًا ورجاء، وحق خاص للرسل وهو توقيرهم وتبجيلهم والقيام بحقوقهم الخاصة.

وحق مشترك: وهو الإيمان بالله ورسله؛ وطاعة الله ورسله، ومحبة الله، ومحبة رسله: ولكن هذه لله أصلاً وللرسل تبعًا لحق الله، فأهل الحق يعرفون الفرقان بين هذه الحقوق الثلاثة فيقومون بعبودية الله وإخلاص الدين له، ويقومون بحق رسله وأوليائه على اختلاف منازلهم ومراتبهم والله أعلم.

الخامسة عشرة: التَّصريح بأنَّهم لم يريدوا إلا الشفاعة: أي: ما أرادوا إلا الشفاعة، ومع ذلك وقعوا في الشرك.

السادسة عشرة: ظنُّهم أن العلماء الذين صوَّروا الصور أرادوا ذلك: أي: أرادوا أن تشفع لهم، بل ظنُّوا أنها تنشطهم على العبادة، وهذا ظنٌّ فاسد كما سبق.

السابعة عشرة: البيان العظيم في قوله ﷺ: «لا تطروني...» الحديث: معنى الإطراء: الغلو في المدح، والمبالغة فيه. وهذا الذي نهى عنه ﷺ وقع فيه بعض هذه الأمة، بل أشد؛ حتى جعلوا النبي ﷺ المرجع في كل شيء، وهذا أعظم من قول النصارى: المسيح ابن اللّه، وثالث ثلاثة.

ومعنى: «بلَّغ»؛ أي: أوصل وبيَّن.

الثامنة عشرة: نصيحته إيَّانا بهلاك المتنطعين: وذلك بقوله ﷺ: «**هلك المتنطعون**»؛ فلم يرد مجرد الخبر، ولكن التحذير من التنطع.

التاسعة عشرة: التصريح بأنَّها لم تُعبد حتى نسي العلم: أي: لم تُعبد هذه التماثيل إلا بعد أن نُسي العلم واضمحلَّ؛ ففيه دليل على معرفة قدر وجوده أي العلم، وأن وجوده أمر ضروري للأمَّة؛ لأنَّه إذا فُقد العلم؛ حلَّ الجهل محلَّه، وإذا حلَّ الجهل؛ فلا تسأل عن حال الناس؛ فسوف لا يعرفون كيف يعبدون اللّه، ولا كيف يتقربون إليه.

العشرون: أن سبب فَقد العلم موت العلماء.

. . . .

العشرون: أنَّ سبب فقد العلم موت العلماء: فهذا من أكبر الأسباب لفقد العلم، فإذا مات العلماء؛ لم يبق إلا جُهَّال الخلق يفتون بغير علم. ومن أسباب فقده أيضًا: الغفلة والإعراض عنه، والتشاغل بأمور الدنيا، وعدم المبالاة به. ثم إن العلم قد يكون موجودًا وهو معدوم، وذلك فيما إذا كَثُرَ القُرَّاء الذين يقرؤون العلم ولا يعملون به، وقلَّ الفقهاء الذين يعملون به، فبهذا يُصبح العلم عديم الفائدة ووجوده كعدمه، بل إنَّ في وجوده ضررًا على الأمة؛ لأنَّ العامَّة إذا رأوا من ينتسب إليه ساكتًا غير عامل بما علم؛ ظنُّوا أنَّ ما عليه الناس حق. فضرر العلم الذي لا ينفع أشد من ضرر الجهل، وإذا وجد الجهل؛ فإنَّ الناس قد يطلبون العلم ويتلمَّسونه.

الخلاصة للباب:

بيان أنَّ الغلو في الصالحين من أسباب الكفر، وليس هو السبب الوحيد للكفر.

وأنَّ خطر الغلو عظيم ونتائجه وخيمة؛ فالواجب تنزيل الصالحين منازلهم؛ فلا يستوي الصالح والفاسد، بل ينزَّل كلٌّ منزلته، ولكن لا نتجاوز به المنزلة فنغلو فيه؛ فدين اللّٰه وسط لا يعطي الإنسان أكثر مما يستحق، ولا يسلبه ما يستحق، وهذا هو العدل.

س١: ما الفرق بين التنطع والغلو والاجتهاد؟

الجواب: الغلو مجاوزة الحد.

والتنطُّع معناه: التشدُّق بالشيء والتعمُّق فيه، وهو من أنواع الغلو.

أما الاجتهاد؛ فإنَّه بذل الجهد لإدراك الحق، وليس فيه غلو إلا إذا كان المقصود بالاجتهاد كثرة الطاعة غير المشروعة؛ فقد تؤدي إلى الغلو، فلو أنَّ الإنسان مثلاً أراد أن يقوم الليل ولا ينام، وأن يصوم النهار ولا يُفطر، وأن يعتزل ملاذ الدنيا كلها، فلا يتزوَّج ولا يأكل اللحم ولا الفاكهة وما أشبه ذلك؛ فإنَّ هذا من الغلو، وإن كان الحامل على ذلك الاجتهاد والبر، ولكن هذا خلاف هدي النبي ﷺ.

س٢: ما حكم الذهاب إلى قبور الصالحين لقراءة الفاتحة؟

الجواب: هذا من البدع، وسواء قلنا يصل الثواب أو لا يصل، فكونك تتخذ القراءة عند القبر خاصَّة هذا من البدع. وإنَّما اختلف السلف فيما إذا قرئت الفاتحة عند الميت بعد دفنه مباشرة أو غيرها من القرآن. والصحيح أيضًا أنَّه ليس بسنَّة، والسنَّة أن تستغفر له وتسأل له التثبيت.

وقوله: «التَّغليظ»: أي التشديد.

❊ ❊ ❊

١٩ـ باب

ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟!

في الصحيح، عن عائشة: أنَّ أمَّ سَلَمة، ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسةً رأتها

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ ما جاء من التغليظ فيمن عبدَ الله عند قبر رجلٍ صالح، فكيف إذا عبده: أي: الرجل الصالح؛ فإنَّ عبادته هي الشركُ الأكبر، وعبادةُ الله عنده وسيلةٌ إلىٰ عبادته. ووسائلُ الشرك محرمة؛ لأنها تؤدي إلىٰ الشرك الأكبر، وهو أعظمُ الذنوب.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: في الصحيح، عن عائشة: أنَّ أمَّ سَلَمة، ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسةً رأتها بأرض الحبشة[1] وما فيها من الصُّور، فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجلُ الصالح أو العبد الصالح، بَنوْا على قبره مَسجداً، وصوَّروا فيه تلك الصُّور، أولئك شرارُ الخلق عند الله»[2][3]، فهؤلاء، جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل:

باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده

باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله

ما ذكره المصنف في البابين يتضح بذكر تفصيل القول فيما يفعل عند قبور الصالحين وغيرهم: وذلك أن ما يفعل عندها نوعان: مشروع وممنوع.

أما المشروع: فهو ما شرعه الشارع من زيارة القبور على الوجه الشرعي من غير شد رحل؛ يزورها

قوله: «من عبد اللَّه عند قبر رجل صالح»: أي: عمل عملاً تعبد للَّه به من قراءة أو صلاة أو صدقة أو غير ذلك.

قوله: «فكيف إذا عبده؟»: أي: يكون أشد وأعظم، وذلك لأنَّ المقابر والقبور للصالحين أو من دونهم من المسلمين ـ أهلها بحاجة إلى الدعاء؛ فهم يُزارون ليُنفعوا لا ليُنتفع بهم إلا باتباع السنة في زيارة المقابر، والثواب الحاصل بذلك، لكن هذا ليس انتفاعاً بأشخاصهم، بل انتفاع بعمل الإنسان بما أتى به من السنة. فالزيارة التي يقصد منها الانتفاع بالأموات زيارة بدعيَّة. والزيارة التي يُقصد بها نفع الأموات والاعتبار بحالهم زيارة شرعيَّة.

---

(١) لأن دين الحبشة: النصرانية. وقد أسلم النجاشي وجماعة من أهلها لما هاجر إليها جعفر بن أبي طالب ومن معه من المسلمين: الهجرة الأولى. (ق).

(٢) إنما كانوا شرار الخلق لأنهم ضلوا وأضلوا وسنوا لمن بعدهم الغلو في القبور وأهلها المفضي بالغالين إلى عبادتها وكل من فعل فعلهم من هذه الأمة التي سبق عليها القول بأن بعضها يتبع سنن المشركين من أهل الكتاب فهو مثلهم، وفي مثل هؤلاء ورد الحديث الذي في الصحيح «ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» وقال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] الآية. (ق).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٤٢٧، ٤٣٤، ١٣٤١، ٣٨٧٣)، ومسلم (٥٢٨).

بأرض الحبشة وما فيها من الصُّور، فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجلُ الصالح أو العبد الصالح، بَنوْا على قبره مَسجدًا، وصوَّروا فيه تلك الصُّور، أولئك شرارُ الخلق عند الله»، فهؤلاء، جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التَماثيل.

قوله: (في الصحيح). أي: (الصحيحين).

قوله: (أنَّ أمَّ سلمة). هي هندُ بنتُ أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عُمر بن مخزوم القُرشية المخزومية. تزوجها النبيﷺ بعد أبي سلمة، سنة أربع. وقيل: ثلاث. وكانت قد هاجرت مع أبي سلمة إلىٰ الحبشة(١)، ماتت سنة اثنتين وستين.

قوله: (ذكرت لرسول الله ﷺ): وفي (الصحيحين): أنَّ أمَّ حبيبة وأمَّ سلمة، ذكرتا لرسول الله ﷺ. والكنيسة، بفتح الكاف وكسر النون: معبدُ النصارىٰ.

قوله: «أولئك»: بكسر الكاف، خطابًا للمرأة.

قوله: «إذا مات فيهم الرجلُ أو العبدُ الصالح» هذا ـ والله أعلم ـ شك من بعض رواة الحديث: هل قال النبيُّﷺ هذا أو هذا؟ ففيه: التحرّي في الرواية، وجوازُ الرواية بالمعنىٰ.

- - -

المسلم متبعًا للسنة فيدعو لأهلها عمومًا ولأقاربه ومعارفه خصوصًا فيكون محسنًا إليهم بالدعاء لهم وطلب العفو والمغفرة والرحمة لهم، ومحسنًا إلىٰ نفسه باتباع السنة وتذكر الآخرة والاعتبار بها والاتعاظ.

قوله: «في الصحيح»: أي «الصحيحين»، وقد سبق الكلام علىٰ مثل هذه العبارة في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا اللَّه.

قوله: «أم سلمة»: كانت ممَّن هاجر مع زوجها إلىٰ أرض الحبشة. ولما توفي زوجها أبو سلمة تزوَّجها النبيﷺ، وأخبرته بما رأت وهو في مرض موته، كما في «الصحيح».

قولها: «من الصور»: الظاهر أنَّ هذه الصور صور مجسَّمة وتماثيل منصوبة.

قوله: «أولئك»: المشار إليهم نصارىٰ الحبشة، ويحتمل أن يراد من فعلوا هذه الأفعال أيًّا كانوا.

وقوله: «أولئك» يجوز في الكاف الكسر إذا كان الخطاب لأم سلمة، والفتح إذا كان الخطاب باعتبار الجنس.

وقد ذكر العلماء أنَّ في كاف الخطاب المتصل باسم الإشارة ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يكون مطابقًا للمخاطب، المفرد للمفرد والمثنىٰ للمثنىٰ والجمع للجمع، مذكرًا كان أم مؤنثًا.

الوجه الثاني: الفتح مطلقًا.

الوجه الثالث: الكسر للمؤنث مطلقًا، والفتح للمذكَّر مطلقًا.

وأشهرها: أن يكون مطابقًا للمخاطب، ثم الفتح مطلقًا، ثم الفتح للمذكر، والكسر للمؤنث.

قوله: «الرجل الصالح أو العبد الصالح»: «أو»: شك من الراوي.

---

(١) ثم عادت مع زوجها أبي سلمة إلى مكة، وهاجر أبو سلمة إلى المدينة، وحبسها بنو المغيرة بمكة سنة؛ ثم لحقت بزوجها في المدينة؛ وتوفي أبوسلمة ﷺ سنة أربع من الهجرة.(ق).

قوله: «وصوَّروا فيه تلك الصور»: الإشارةُ إلىٰ ما ذكرت أمُّ سلمة وأمُّ حبيبة، من التصاوير التي في الكنيسة.

قوله: «أولئك شرارُ الخلق عند الله» وهذا يقتضي تحريم بناء المساجد على القبور، وقد لُعن من فعل ذلك، كما سيأتي.

قال البيضاوي: لَمَّا كانت اليهود والنصارىٰ يسجدون لقبور الأنبياء تعظيمًا لشأنهم، ويجعلونها قبلةً يتوجهون في الصلاة نحوها واتخذوها أوثانًا، لعنهم النبيُّ ﷺ.

قال القرطبي: وإنما صوَّر أوائلُهم الصُّور ليتأسَّوا بها، ويتذكروا أفعالهم الصالحة فيجتهدوا كاجتهادهم، ويعبدوا الله عند قبورهم. ثم خلفهم قومٌ جهلوا مرادهم، ووسوس لهم الشيطان أنَّ أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها. فحذَّر النبيُّ ﷺ عن مثل ذلك؛ سدًّا للذريعة المؤدية إلىٰ ذلك[1].

قوله: (فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل): هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، ذكره المصنفُ رحمه الله؛ تنبيهًا على ما وقع من شدة الفتنة بالقبور والتماثيل. فإنَّ الفتنة بالقبور، كالفتنة بالأصنام أو أشد.

قال شيخُ الإسلام: وهذه العلَّةُ التي لأجلها نهىٰ الشارعُ ﷺ عن اتخاذ المساجد على القبور هي التي أوقعت كثيرًا من الأمم: إمَّا في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك.

فإنَّ النفوس قد أشركت بتماثيل الصالحين وتماثيل يزعمون أنها طلاسم الكواكب ونحو ذلك. فإنَّ الشرك بقبر الرجل الذي يُعتقد صلاحه، أقربُ إلىٰ النفوس من الشرك بخشبة أو حجر. ولهذا تجدُ أهلَ الشرك يتضرعون عندها ويخشعون ويخضعون، ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله، ولا وقت السَّحَر. ومنهم من يسجدُ لها، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجون في المساجد.

فلأجل هذه المفسدة، حسم النبيُّ ﷺ مادَّتها، حتىٰ نهىٰ عن الصلاة في المقبرة مطلقًا، وإنْ لم

قوله: «بنوا على قبره»: أي قبر ذلك الرجل الصالح.

قوله: «صوَّروا فيه تلك الصُّور»: أي: التي رأت، والأقرب أنَّها صورة ذلك الرجل الصالح، وربما أنَّهم يضيفون إلىٰ صورته صورة بعض الصالحين، وربما تكون الصور علىٰ أحجام مختلفة، فتجتمع منها صور كثيرة.

قوله: «أولئك شرار الخلق عند اللَّه»: لأنَّ عملهم هذا وسيلة إلىٰ الكفر والشرك، وهذا أعظم الظلم وأشده، فما كان وسيلة إليه؛ فإنَّ صاحبه جدير بأن يكون من شرار الخلق عند اللَّه سبحانه وتعالىٰ.

قوله: «فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل»: هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه.

قوله: «فتنة القبور»؛ لأنهم بنوا المساجد عليها.

---

(١) في قرة العيون: ولم يذكر غير بناء المساجد والتصوير لكونه ذريعة إلى عبادة من بنوا عليه المسجد وصوروا صورته فبذلك صاروا شرار الخلق. فانظر إلى ما وقع في هذه الأمة من ذرائع الشرك والوقوع فيه مما هو أعظم من هذا، كالبناء على القبور وتعظيمها وعبادتها ومع ذلك يعتقدونه دينًا وهو الشرك الذي حرمه الله، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، بالنهي عنه. (ق).

ولهما عنها ـ أي: عن عائشة ـ قالت: لما نُزِلَ برسول الله ﷺ، طَفِق يطرحُ خميصةً له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفَهَا، فقال وهو كذلك: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد» ـ يُحذِّر ما صنعوا. ولولا ذلك أُبرز قبرُه؛ غير أنه خشي أنْ يُتخذ مسجدًا[1][2]. أخرجاه.

يقصد المصلي البقعة بصلاته، كما يقصد بصلاته بركة المساجد. كما نهىٰ عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها؛ لأنها أوقاتٌ يقصد المشركون فيها الصلاة للشمس، فنهىٰ أُمته عن الصلاة حينئذٍ وإن لم يقصد ما قصده المشركون، سدًّا للذريعة. وأمَّا إذا قصد الرجلُ الصلاة عند القبور متبركًا بالصلاة في تلك البقعة، فهذا عينُ المُحادَّة لله ولرسوله، والمخالفة لدينه، وابتداع دين لم يأذن به الله.

فإنَّ المسلمين قد أجمعوا علىٰ ما علموه بالاضطرار من دين رسول الله ﷺ: أنَّ الصلاة عند القبور منهيٌّ عنها، وأنه لعن من اتخذها مساجد. فمن أعظم المحدثات، وأسباب الشرك: الصلاةُ عندها، واتخاذها مساجد، وبناءُ المساجد عليها. وقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهي عن ذلك، والتغليظ فيه. وقد صرَّح عامّةُ الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها؛ متابعةً منهم للسُّنة الصحيحة الصريحة.

وصرَّح أصحابُ أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك، وطائفةٌ أطلقت الكراهة. والذي ينبغي: أنْ تُحمل علىٰ كراهة التحريم، إحسانًا للظن بالعلماء، وأنْ لا يُظن بهم أنْ يجوِّزوا فعلَ ما تواتر عن رسول الله ﷺ لعن فاعله والنهي عنه. انتهىٰ كلامُه رحمه الله.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولهما عنها ـ أي: عن عائشة ـ قالت: لما نُزِلَ برسول الله ﷺ، طَفِق يطرحُ خميصةً له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفَهَا، فقال وهو كذلك: «لعن الله

قوله: «فتنة التماثيل»؛ لأنهم صوَّروا فجمعوا بين فتنتين، وإنَّما سمي ذلك فتنة؛ لأنها سبب لصد الناس عن دينهم، وكل ما كان كذلك؛ فإنه من الفتنة، قال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١، ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: ١٠]؛ أي صدُّوهم، أو فعلوا ما يصدونهم به عن دين اللّه.

قوله: «ولهما عنها»: الضمير يعود علىٰ البخاري ومسلم، وإن لم يسبق لهما ذكرٌ، لكنه لما كان ذلك مصطلحًا معروفًا؛ صحَّ أن يعود الضمير عليهما، وهما لم يُذكرا اعتمادًا علىٰ المعروف المعهود.

وقوله: «عنها»؛ أي: عن عائشة. قالت: «لمَّا نزل برسول اللّه». أي: نزل به ملك الموت لقبض روحه.

قوله: «طفق»: من أفعال الشروع، واسمها مستتر، وجملة «يطرح» خبرها.

قوله: «خميصة»: هي كساء مُربَّع له أعلام كان يطرحه النبي ﷺ علىٰ وجهه.

---

(١) نزل: بضم النون وكسر الزاي أي نزل به علامات الوفاة وخاف على أمته أن يتخذوا قبره مسجدًا ويغلوا فيه فيشركون بالله كما فعل الذين لعنهم فحذرهم من ذلك، جزاه الله خير الجزاء. (ق).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٣٦) ومواضع، ومسلم (٥٣١).

....

اليهود والنصارى، اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد» ـ يُحذِّر ما صنعوا. ولولا ذلك أُبرز قبرُه؛ غير أنه خشي أنْ يُتخذ مسجدًا. أخرجاه.

قوله: (ولهما): أي: البخاري ومسلم. وهو يغني عن قوله، في آخره: أخرجاه.

قوله: (لما نُزل): هو بضم النون وكسر الزاي. أي: نزل به مَلَكُ الموت والملائكةُ الكرام عليهم السلام.

قوله: (طَفق): بكسر الفاء وفتحها. والكسرُ أفصح، وبه جاء القرآن. ومعناه: جعل.

قوله: (خَميصة): بفتح المعجمة والصاد المهملة: كساءٌ له أعلام.

قوله: (فإذا اغتمَّ بها كشفها): أي: عن وجهه.

قوله: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يبين أنَّ من فعل مثل ذلك، حلَّ عليه من اللعنة ما حل على اليهود والنصارى.

قوله: (يُحذِّرُ ما صنعوا): الظاهر: أنَّ هذا من كلام عائشة رضي الله عنها؛ لأنها فهمت من قول النبي ﷺ ذلك تحذير أُمَّته من هذا الصنيع، الذي كانت تفعله اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم، فإنه من الغلو في الأنبياء. ومن أعظم الوسائل إلى الشرك. ومن غُربة الإسلام: أنَّ هذا الذي لعن رسولُ الله ﷺ فاعليه تحذيراً لأمته أنْ يفعلوه معه ﷺ ومع الصالحين من أُمتَّه قد فعله الخلقُ الكثير من متأخري هذه الأمة، واعتقدوه قربةً من القُربات، وهو من أعظم السيئات والمنكرات، وما شعروا أنَّ ذلك محادَّةٌ لله ورسوله.

قال القُرطبي في معنى هذا الحديث: وكلُّ ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة من فيها؛ كما كان السبب في عبادة الأصنام. انتهى. إذ لا فرق بين عبادة القبر ومن فيه، وعبادة الصنم. وتأمَّل قولَ

قوله: «فإذا اغتمَّ بها»: أي: أصابه الغم بسببها، وقد احتضر ﷺ.

قوله: «وهو كذلك»: أي: وهو في هذه الحال عند الاحتضار.

قوله: «لعنة اللَّه على اليهود والنصارى اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»: يقول هذا في سياق الموت.

و «لعنة اللَّه»: أي: طرده وإبعاده، وهذه الجملة يُحتمل أنَّه يُراد بها ظاهر اللفظ؛ أي: أنَّ النبي ﷺ يُخبر بأنَّ الله لعنهم. ويُحتمل أن يُراد بها الدعاء؛ فتكون خبرية لفظًا إنشائية معنى، والمعنى على هذا الاحتمال أنَّ النبي ﷺ دعا عليهم وهو في سياق الموت بسبب الفعل.

قوله: «اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»: الجملة هذه تعليل لقوله: «لعنة اللَّه على اليهود والنصارى» ، كأنَّ قائلاً يقول: لماذا لعنهم النبي ﷺ ؟

فكان الجواب: أنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد؛ أي: أمكنة للسجود، سواء بنوا مساجد أم لا، يصلون ويعبدون اللَّه تعالى فيها مع أنَّها مبنيَّة على القبور.

قوله: «يُحذر ما صنعوا»: أي: أنَّه ﷺ قال ذلك في سياق الموت تحذيراً لأمَّته ممَّا صنع هؤلاء؛ لأنَّه عَلِمَ أنَّه سيموت وأنَّه ربما يحصل هذا ولو في المستقبل البعيد.

قوله: «ولولا ذلك أبرز قبره»: أبرز؛ أي: أخرج من بيته؛ لأنَّ البروز معناه الظهور، أي لولا

. . . .

الله تعالىٰ عن نبيه يوسف بن يعقوب، حيث قال: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨] نكرة في سياق النفي، تعمُّ كلَّ شرك.

قوله: (ولولا ذلك): أي: ما كان يُحْذَرُ من اتخاذ قبر النبيﷺ مسجداً، لأُبرز قبرُه مع قبور أصحابه الذين كانت قبورهم في البقيع.

قوله: (غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً)[1]، رُوي بفتح الخاء، وضمها. فعلىٰ الفتح: يكون هو الذي خشي ذلكﷺ، وأمرهم أنْ يدفنوه في المكان الذي قُبض فيه. وعلىٰ رواية الضَّم: يحتمل أنْ يكون الصحابةُ هم الذين خافوا أنْ يقع ذلك من بعض الأمَّة غُلواً وتعظيماً بما أبدىٰ وأعاد من النهي والتحذير منه، ولعن فاعله.

قال القُرطبي: ولهذا بالغ المسلمون في سدِّ الذريعة في قبر النبيﷺ، فأعلوا حيطان تُربته وسدوا المدخل إليها، وجعلوها محدقةً بقبرهﷺ. ثم خافوا أنْ يُتَّخذ موضعُ قبره قبلةً إذ كان مستقبل المصلين، فتتصوَّر الصلاةُ إليه بصورة العبادة فبنوا جدارين من رُكني القبر الشماليَّين، وحرفوهما حتىٰ

التحذير وخوف أن يُتَّخذ قبره مسجداً؛ لأخرج ودُفِن في البقيع مثلاً، لكنه في بيته أصون له، وأبعد عن اتخاذه مسجداً؛ فلهذا لم يبرز قبره، وهذا أحد الأسباب التي أوجبت أن لا يبرز مكان قبرهﷺ.

ومن أسباب ذلك: إخبارهﷺ أنَّه ما قبض نبي إلا دُفنَ حيث قبض[2]، ولا مانع أن يكون للحكم الواحد سببان فأكثر، كما أنَّ السبب الواحد قد يترتَّب عليه حكمان أو أكثر؛ كغروب الشمس يترتَّب عليه جواز إفطار الصائم، وصلاة المغرب.

قوله: «غير أنه خشي أن يُتَّخذ مسجداً»: خشي فيها روايتان: خُشِيَ، وخَشِيَ. فعلىٰ رواية خُشِيَ يكون الذي وقعت منهم الخشية الصحابة رضي اللّه عنهم. وعلىٰ رواية «خَشِيَ» يكون الذي وقعت منه الخشية النبيﷺ. والحقيقة أنَّ الأمر كله حاصل؛ فالرسول أخبر بأنَّه ما قُبض نبي إلا دُفنَ حيث قبض، ولعن اليهود والنصارىٰ لأنَّهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد خوفاً من اتخاذ قبره مسجداً، والصحابة رضي اللّه عنهم اتفقوا علىٰ أن يُدفنﷺ في بيته بعد تشاورهم أنهم خشوا ذلك. ويجوز أن يكون بعضهم أشار بأن يُدفن في بيته، وليس في ذهنه إلاَّ هذه الخشية، وبعضهم أشار أن يُدفن في بيته وعنده

---

(١) هذا هو الشاهد للترجمة. لأن النبي ﷺ لعنهم على تحري الصلاة عندها وإن كان المصلي إنما يصلي لله. فمن كان يصلي عند القبور ويتخذها مساجد فهو ملعون، لأنه ذريعة إلى عبادتها؛ فكيف إذا عبد المقبور فيها بأنواع العبادة؛ وسؤاله ما لا قدرة له عليه. وهذا هو الغاية التي يكون اتخاذ القبور مساجد ذريعة إليها. وليست اللعنة خاصة باليهود والنصارى لأشخاصهم أو أزمانهم أو أسمائهم، وإنما هي لأعمالهم، وكذلك من فعل فعلهم فمن فعل ما هو أعظم من فعلهم أولى باللعن، وإنما أراد ﷺ تحذير أمته أن يتعرضوا لما تعرض له اليهود والنصارى من اللعنة، ولذلك قالت عائشة: «يحذر ما صنعوا ولولا ذلك لأبرز قبره».(ق).

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه (١٦٢٨)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥٦٧٠).

. . . .

التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال؛ حتى لا يتمكن أحدٌ من استقبال قبره[١] . انتهى.

قال المصنف: وفيه من المسائل: ما ذكر الرسولُ ﷺ فيمن بنى مسجداً يُعبد الله فيه على قبر رجل صالح، ولو صحَّت نيةُ الفاعل.

ومنها: النهي عن التماثيل، بتغليظ الأمر.

ومنها: نهيه عن فعله عند قبره، قبل أنْ يُوجد القبر.

ومنها: أنه من سُنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

ومنها: لعنه إيَّاهم على ذلك.

ومنها: أنَّ مُراده بذلك تحذيره إيانا عن قبره.

ومنها: أنها هي العلة في عدم إبرازه. انتهى.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولمسلمٍ، عن جُنْدُب بن عبد الله، قال: سمعتُ النبي ﷺ قبل أنْ يموت

علم بأنَّه ﷺ قال: «ما قُبِضَ نبي إلا دُفِنَ حيث قُبِض»[٢] ، وخوفًا من اتخاذه مسجداً. في هذا الحديث والحديث السابق: التحذير من اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، وهم أفضل الصالحين؛ لأنَّ مرتبة النبيين هي المرتبة الأولى من المراتب الأربع التي قال اللَّه تعالى عنها: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

اعتراض وجوابه:

إذا قال قائل: نحن الآن واقعون في مشكلة بالنسبة لقبر الرسول ﷺ ، فإنه في وسط المسجد؛ فما هو الجواب؟

قلنا: الجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أنَّ المسجد لم يبن على القبر، بل بُني المسجد في حياة النبي ﷺ .

الوجه الثاني: أنَّ النبي ﷺ لم يدفن في المسجد حتى يُقال: إنَّ هذا من دفن الصالحين في المسجد، بل دفن في بيته.

---

(١) وكان هذا الوضع قد جعل القبر لاصقًا بالجدار الذي فيه باب جبريل ولكن قد أزيل هذا الوضع وأخلي حول القبر من جهاته الأربع، وأصبح كثير من المصلين يستقبلونه ممن يكون في الموضع الخاص بالأموات، وفي المكان الخاص بالنساء، وأصبح عرضة لأن يطاف به وقد رأيت كثيرًا من العامة يطوفون به؛ ويحاولون التمسح به لولا منع الجند الذين خصصتهم الحكومة السعودية لذلك المنع. ومهما حرص الجند على أداء وظيفتهم؛ فلن يمكنهم ولا أي قوة أن تمنع هذا منعًا باتًا، اللهم إلا العلم الذي ينير قلوب الجمهور الإسلامي ويعرفهم حقيقة محبة النبي ﷺ وأنها إنما تكون باتباع دينه كما كان أصحابه ﷺ يفعلون، وهم أشد الناس حبًا لله ولرسوله، وأن يعود الناس إلى الأمر الأول الذي كان عليه السلف الصالح في كل شئونهم، فعند ذلك لا حاجة لجند ولا قوة. والله يهدي الناس إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم.(ق).

(٢) صحيح: وهو السابق.

ولمسلمٍ، عن جُنْدُب بن عبد الله، قال: سمعتُ النبيﷺ قبل أنْ يموت بخمس، وهو يقول: «إنّي أبْرَأُ إلى الله أنْ يكونَ لي منكم خليلٌ؛ فإنَّ الله قد اتَّخذني خليلاً، كما اتخذَ إبراهيم خليلاً. ولو كنتُ مُتَّخذًا من أُمتي خليلاً لاتخَّذتُ أبا بكر خليلاً، ألا وإنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك».

بخمس، وهو يقول: «إنّي أبْرَأُ إلى الله أنْ يكونَ لي منكم خليلٌ؛ فإنَّ الله قد اتخَّذني خليلاً، كما اتخذَ إبراهيم خليلاً. ولو كنتُ متَّخذًا من أُمتي خليلاً لاتخَّذتُ أبا بكر خليلاً، ألا وإنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فَلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»[1] فقد نهى عنه في آخر حياته.

ثم إنه لعن وهو في السِّياق مَنْ فَعله. والصلاةُ عندها من ذلك، وإنْ لم يُبن مَسْجد.

وهو معنى قولها: خشي أن يتخذ مسجدًا، فإنَّ الصحابة لم يكونوا ليبنوا حَولَ قبره مسجدًا. وكلُّ موضع قُصدت الصلاة فيه فقد اتُّخذ مسجدًا، بل كلُّ موضع يُصلَّى فيه يُسمَّى مسجدًا؛ كما قال ﷺ: «جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»[2].

وأما الممنوع فإنه نوعان:

أحدهما: محرم ووسيلة للشرك، كالتمسح بها والتوسل إلى الله بأهلها والصلاة عندها وكإسراجها والبناء عليها والغلو فيها وفي أهلها إذا لم يبلغ رتبة العبادة.

والنوع الثاني: شرك أكبر كدعاء أهل القبور والاستغاثة بهم وطلب الحوائج الدنيوية والأخروية منهم، فهذا شرك أكبر وهو عين ما يفعله عباد الأصنام مع أصنامهم.

الوجه الثالث: أنَّ إدخال بيوت الرسولﷺ -ومنها بيت عائشة- مع المسجد ليس باتفاق من الصحابة، بل بعد أن انقرض أكثرهم ولم يبق منهم إلا القليل، وذلك عام ٩٤ هـ تقريبًا؛ فليس ممَّا أجازه الصحابة أو أجمعوا عليه، مع أنَّ بعضهم خالف في ذلك، وممَّن خالف أيضًا سعيد بن المسيب من التابعين؛ فلم يرض بهذا العمل.

الوجه الرابع: أنَّ القبر ليس في المسجد، حتى بعد إدخاله؛ لأنَّه في حجرة مستقلة عن المسجد؛ فليس المسجد مبنيًا عليه، ولهذا جعل هذا المكان محفوظًا ومحوطًا بثلاثة جدران، وجعل الجدار في زاوية منحرفة عن القبلة، أي مثلثًا، والركن في الزاوية الشماليَّة، بحيث لا يستقبله الإنسان إذا صلى لأنَّه منحرف. فبهذا كله يزول الإشكال الذي يحتج به أهل القبور، ويقولون هذا منذ عهد التابعين إلى اليوم، والمسلمون قد أقروه ولم ينكروه، فنقول: إنَّ الإنكار قد وجد حتى في زمن التابعين، وليس محل إجماع، وعلى فرض أنه إجماع؛ فقد تبين الفرق من الوجوه الأربعة التي ذكرناها.

قوله: «بخمس»: أي: خمس ليال، لكن العرب تطلقها على الأيام والليالي.

قوله: «أبرأ»: البراءة: هي التخلي؛ أي: أتخلى أن يكون لي منكم خليل.

---

(١) رواه مسلم (٥٣٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣٥، ٤٣٨)، ومسلم (٥٢١).

. . . .

قوله: (عن جُندب بن عبد الله). أي: ابن سُفيان البجلي، وينسبُ إلى جده، صحابيٌّ مشهور. مات بعد الستين.

قوله: «إني أبـرأُ إلى الله أنْ يكون لي منكم خليل»: أي: أمتنع عـمَّا لا يجوز لي أنْ أفعله. والخُلَّة فوق المحبة، والخليل: هو المحبوب غاية الحب، مشتقٌ من الخَلّة بفتح الخاء وهي تَخلُّل المودة في القلب، كما قال الشاعر:

قـد تـخلَّلتَ مسلك الروح مني وبـذا سُـمِّي الخليلُ خليـلا

هذا هو الصحيح في معناه؛ كما ذكره شيخُ الإسلام، وابنُ القيم، وابنُ كثير وغيرهم.

قال القُرطبي: وإنَّما كان ذلك؛ لأنَّ قلبه ﷺ قد امتلأ من محبة الله وتعظيمه ومعرفته، فلا يسعُ خُلَّة غيره.

قوله: «فإنَّ الله قد اتخذني خليلاً»: فيه بيانُ أنَّ الخُلَّة فوق المحبة.

قال ابنُ القيم رحمه الله: وأمَّا ما يظنُّه بعض الغالطين من أن المحبة أكملُ من الخُلَّة، وأنَّ إبراهيم خليل الله، ومحمداً حبيبُ الله، فمن جهلهم.

فإنَّ المحبة عامَّة، والخلة خاصة، وهي نهاية المحبة. وقد أخبر النبي ﷺ: أنَّ الله قد اتخذه خليلاً،

قوله: «خليل»: هو الذي يبلغ في الحب غايته؛ لأنَّ حبه يكون قد تخلل الجسم كله، قال الشاعر يخاطب محبوبته:

قـد تخـلَّلْتَ مسلك الروح مني وبـذا سـمي الخـليـل خـليـلاً

والخُلَّة أعظم أنواع المحبة وأعلاها، ولم يثبتها اللَّه عز وجل فيما نعلم إلا لاثنين من خلقه، وهما: إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: ١٢٥]، ومحمد لقوله ﷺ: **«إنَّ اللَّه اتَّخذني خليلاً كما اتَّخذ إبراهيم خليلاً»**.

وبهذا تعرف الجهل العظيم الذي يقوله العامة: إن إبراهيم خليل الله، ومحمداً حبيب الله، وهذا تنقص في حق الرسول ﷺ لأنهم بهذه المقالة جعلوا مرتبة النبي ﷺ دون مرتبة إبراهيم؛ ولأنهم إذ جعلوه حبيب الله لم يفرقوا بينه وبين غيره من الناس؛ فإن الله يحب المحسنين والصابرين، وغيرهم ممن علق الله بفعلهم المحبة؛ فعلى رأيهم لافرق بين الرسول ﷺ وغيره، لكن الخلة ماذكرها الله إلا لإبراهيم، والنبي ﷺ أخبرأن الله اتخذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً.

فالمهم: أنَّ العامة مشكل أمرهم، دائمًا يصفون الرسول ﷺ بأنَّه حبيب اللَّه، فنقول: أخطأتم وتنقَّصتم نبيكم؛ فالرسول خليل اللَّه؛ لأنَّكم إذا وصفتموه بالمحبَّة أنزلتموه عن بلوغ غايتها.

قوله: «فإنَّ اللَّه قد اتَّخذني خليلاً كما اتَّخذ إبراهيم خليلاً»: هذا تعليل لقوله: **«إني أبرأ إلى اللَّه أن يكون لي منكم خليل»**؛ فالنبي ﷺ ليس في قلبه خلَّة لأحد إلا اللَّه عز وجل.

قوله: «ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً؛ لاتخذت أبا بكر خليلاً»: وهذا نص صريح على أنَّ أبا بكر أفضل من علي، رضي اللَّه عنهما، وفي هذا رد على الرافضة الذين يزعمون أنَّ عليًا أفضل من أبي بكر.

. . . .

ونفى أنْ يكون له خليلٌ غير ربه، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها، ولعمر بن الخطاب، وغيرهم.
وأيضًا: فإنَّ الله يحبُّ التوابين ويحب المتطهرين ويحب الصابرين، وخُلَّته خاصةٌ بالخليلين.

قوله: «ولو كنت متخذًا من أُمتي خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً» فيه: بيانُ أنَّ الصِّديق أفضلُ الصحابة.

وفيه: الردُّ على الرافضة وعلى الجهمية، وهما شرُّ أهل البدع، وأخرجَهم بعضُ السلف من الثنتين والسبعين فرقة. وبسبب الرافضة حدث الشركُ وعبادة القبور، وهم أوَّلُ من بنى عليها المساجد. قاله المصنف، وهو كما قال بلا ريب[1].

وفيه: إشارةٌ إلى خلافة أبي بكر؛ لأن من كانت محبتُه لشخص أشد، كان أولى به من غيره. وقد استخلفه على الصلاة بالناس، وغضب ﷺ لما قيل: يصلي بهم عمر[2]، وذلك في مرضه الذي توفي فيه، صلواتُ الله وسلامه عليه.

واسمُ أبي بكر: عبد الله بن عُثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرَّة. الصّديقُ الأكبر، خليفةُ رسول الله ﷺ، وأفضلُ الصحابة بإجماع من يُعتدُّ بقوله من أهل العلم. مات في جُمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، وله ثلاثٌ وستون سنة رضي الله عنه.

قوله: «ألا»: حرفُ استفتاح «**ألا وإنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد**» الحديث.

قال الخلخالي: وإنكارُ النبي ﷺ صنيعهم هذا، يخرَّجُ على وجهين:

أحدهما: أنهم يسجدون لقبور الأنبياء، تعظيمًا لهم.

قوله: «ولو»: حرف امتناع لامتناع؛ فيمتنع الجواب لامتناع الشرط، وعلى هذا امتنع ﷺ من اتِّخاذ أبي بكر خليلاً لأنَّه يمتنع أن يتخذ من أمته خليلاً.

قوله: «ألا»: للتنبيه، وهذه الجملة من الحديث الأول لكنه ابتدأها بالتَّنبيه لأهميِّة المقام.

قوله: «ألا فلا تتخذوا»: هذا تنبيه آخر للنهي عن اتخاذ القبور مساجد، وهذا عام يشمل قبره وقبر غيره.

قوله: «فإنِّي أنهاكم عن ذلك»: هذا نهي باللفظ دون الأداة تأكيدًا لهذا النَّهي لأهميِّة المقام.

---

(١) فإن أول من فعل ذلك العبيديون الذين زعموا كذبًا أنهم فاطميون. شيدوا للحسين ﷺ وبرأه الله منهم ومن شيعتهم ومحبيهم -قبرًا بالقاهرة؛ ورفعوا عليه قبة عظيمة وبنوا له المسجد المشهور الذي بالقاهرة، يقام فيه من الأعمال الشركية ما يغضب الله ورسوله وآل بيته وكل من في قلبه حب الله ورسوله والإيمان الصحيح. وقد صنف كثير من العلماء السالفين في بيان كذب أولئك العبيدين وبيان نحلتهم الكافرة الفاجرة، وأنهم كانوا يظهرون الرفض ويبطنون الكفر. وممن كتب في ذلك الإمام أبو بكر الباقلاني في كتاب نفيس سماه كشف الأسرار وهتك الأستار؛ والإمام ابن الجوزي وغيرهم. انظر في ذلك البداية والنهاية للعماد ابن كثير في حوادث سنة ٤٠٢ (ج١١ص٢٤٩).(ق).

(٢) الذي قال ذلك وعرضه: عائشة ﷺ كما في صحيح البخاري: قالت: إن أبا بكر رجل أسيف، لا يملك نفسه إذا صلى، فمر عمر يصلي بالناس. فقال النبي ﷺ: «**إنكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس**».(ق).

فقد نهى عنه في آخر حياته، ثم إنه لعن ـ وهو في السياق ـ من فعله، والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يُبْنَ مسجد.

الثاني: أنهم يجوِّزون الصلاة في مدافن الأنبياء والتوجه إليها حالة الصلاة، نظرًا منهم بذلك إلى عبادة الله والمبالغة في تعظيم الأنبياء.

والأول: هو الشرك الجلي.

والثاني: الخفيّ، فلذلك استحقُّوا اللعن.

قوله: (فقد نهى عنه في آخر حياته). أي: كما في حديث جُنْدُب. هذا من كلام شيخ الإسلام، وكذا ما بعده.

قوله: (ثم إنه لعن وهو في السِّياق[1] من فعله). كما في حديث عائشة.

قلتُ: فكيف يسوغُ مع هذا التغليظ من سيد المرسلين، أنْ تُعظَّم القبور ويُبنى عليها، ويُصلى عندها وإليها. هذا أعظم مشاقَّة ومحادَّة لله تعالى ولرسوله ﷺ، لو كانوا يعقلون.

قوله: (والصلاةُ عندها من ذلك، وإن لم يُبن مسجد). أي: من اتخاذِها مساجد، الملعون

من فوائد الحديث:

١ ـ أنَّ النبي ﷺ تبرأ من أن يتخذ أحدًا خليلاً؛ لأنَّ قلبه مملوء بمحبة اللَّه تعالى.

٢ ـ أنَّ اللَّه تعالى اتَّخذه خليلاً كما اتَّخذ إبراهيم خليلاً؛ ففيه فضيلة لرسول اللَّه ﷺ.

٣ ـ فضيلة إبراهيم ﷺ باتخاذه خليلاً.

٤ ـ فضيلة أبي بكر، وأنَّه أفضل الصحابة لأنَّ الحديث يدل على أنَّه أحب الصحابة إلى الرسول ﷺ.

٥ ـ التحذير من اتخاذ القبور مساجد في قوله: «**ألا فلا تتخذوا القبور مساجد**»، وقوله: «**فإني أنهاكم عن ذلك**».

٦ ـ أنَّ من دفن شخصًا في مسجد وجب عليه نبشه وإخراجه من المسجد.

٧ ـ حرص النبي ﷺ على أمته في إبعادهم عن الشرك وأسبابه؛ لأنَّ اتخاذ القبور مساجد من وسائل الشرك وذرائعه، ولهذا حرص النبي ﷺ على تحذير أمته منه، وهذا من كمال رأفته ورحمته بالأمة.

٨ ـ أنَّ من بنى مسجدًا على قبر وجب عليه هدمه.

قوله: «فقد نهى عنه في آخر حياته...»: هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية.

وقوله: «فقد نهى عنه في آخر حياته» الضمير يعود إلى النبي ﷺ، والمنهي عنه هو اتخاذ القبور مساجد.

قوله: «ثمَّ إنَّه لعن وهو في السياق من فعله»؛ فالنبي ﷺ وهو عند فراق الدنيا لعن من اتَّخذ القبور مساجد.

---

(١) أي في سياق الموت؛ أصله (سوق) قلبت الواو ياء لكسر السين، كأن روحه تساق لتخرج من البدن. وسياق وسواق مصدران من ساق يسوق. (ق).

وهو معنى قولها: خشي أن يتخذ مسجداً، فإنَّ الصحابة لم يكونوا ليبنُوا حول قبره مسجداً، وكل موضع قُصدَت الصلاة فيه فقد اتُّخِذَ مسجداً، بل كل موضع يُصلَّي فيه يسمى مسجداً، كما قال ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً».

فاعله، وهذا يقتضي تحريم الصلاة عند القبور وإليها. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، مرفوعًا «**الأرضُ كلُّها مسجدٌ إلاَّ المقبرة والحمَّام**»[1] رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه ابنُ حبان، والحاكم.

قال ابنُ القيم رحمه الله تعالى: وبالجملة، فمن له معرفةٌ بالشرك وأسبابه وذرائعه، وفَهِمَ عن رسول الله ﷺ مقاصدَه، جزم جزمًا لا يحتمل النقيض أنَّ هذه المبالغة واللعن والنهي بصيغتيه صيغة «**لا تفعلوا**» وصيغة «**إني أنهاكم عن ذلك**» ليس لأجل النجاسة، بل هي لأجل نجاسة الشرك اللاحقة لمن عصاه، وارتكب ما عنه نهاه، واتبع هواه، ولم يخش ربَّه ومولاه، وقلَّ نصيبُه أو عُدم من لا إله إلاَّ الله.

فإنَّ هذا وأمثاله من النبي ﷺ: صيانةٌ لحمىٰ التوحيد أن يلحقه الشركُ ويغشاه، وتجريدٌ له وغضبٌ لربه أنْ يعدل به سواه. فأبىٰ المشركون إلاَّ معصيةً لأمره، وارتكابًا لنهيه. وغرّهم الشيطانُ، بأنَّ هذا تعظيمٌ لقبور المشايخ والصالحين، وكلَّما كنتم لها أشد تعظيمًا وأشد فيهم غلوًا كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد. ولعمر الله، من هذا الباب دخل علىٰ عُبَّاد يغوث ويعوق ونسر، ودخل علىٰ عُبَّاد الأصنام، منذ كانوا إلىٰ يوم القيامة.

فجمع المشركون بين الغلو فيهم، والطعن في طريقتهم. فهدىٰ الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم، وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها: من العبودية، وسلب خصائص الإلهية عنهم.

قال الشارح: وممن علَّل بخوف الفتنة بالشرك: الإمامُ الشافعي، وأبو بكر الأثرم، وأبو محمد المقدسي، وشيخ الإسلام، وغيرهم، وهو الحقُّ الذي لا ريب فيه.

قوله: (فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا): أي: لما علموا من تشديده في ذلك، وتغليظه ولعن من فعله.

قوله: (وكل موضع قُصدت الصلاةُ فيه فقد اتُّخذ مسجدًا): أي: وإنْ لم يُبن مسجد. بل كلُّ موضع يُصلَّىٰ فيه يسمىٰ مسجدًا. يعني: وإن لم يُقصد بذلك، كما إذا عرض لمن أراد أن يُصلي،

قوله: «والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يبن مسجد»: «عندها»؛ أي: القبور، وقوله: «من ذلك»؛ أي: من اتخاذها مساجد، وعلىٰ هذا؛ فلا تجوز الصلاة عند القبور، ولهذا نهىٰ النبي ﷺ؛ كما في «صحيح مسلم» من حديث أبي مرثد الغنوي أن يُصلَّىٰ إلىٰ القبور؛ فقال: «**لا تصلوا إلى القبور**»[2].

قوله: «وهو معنى قولها: خشي أن يتخذ مسجداً»: الضمير في «قولها» يرجع إلىٰ عائشة رضي اللّه عنها.

---

(١) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في الإرواء (١/ ٣٢٠)، والمشكاة (٧٣٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٧٢)، والنسائي (٧٦٠)، وأحمد (١٦٧٦٤).

. . . .

فأوقع الصلاة في ذلك الموضع الذي حانت الصلاة عنده من غير أنْ يقصد ذلك الموضع بخصوصه، فصار بفعل الصلاة فيه مسجدًا.

قوله: كما قالﷺ: «جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»(١) أي: فسمى الأرض مسجدًا تجوزُ الصلاةُ في كلِّ بقعة منها، إلاَّ ما استثنى من المواضع التي لا تجوز الصلاة فيها كالمقبرة ونحوها.

قال البغوي في (شرح السنة): أراد أنْ أهلَ الكتاب لم تُبح لهم الصلاة إلاَّ في بِيَعِهم وكنائسهم، فأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا، تخفيفًا عليهم وتيسيرًا، ثم خص من جميع المواضع الحمَّامَ والمقبرة والمكان النجس. انتهى.

قوله: «فإنَّ الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا»: هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه تعالى(٢).

قد يقال: «خشي أن يُتَّخذ مسجدًا»: معناه: خشي أن يبنى عليه مسجد، لكن يبعده أن الصحابة لا يمكن أن يبنوا حول قبره مسجدًا؛ لأنَّ مسجده مجاور لبيته؛ فكيف يبنون مسجدًا آخر؟! هذا شيء مستحيل بحسب العادة؛ فيكون معنى قولها: «خشي أن يتخذ مسجدًا»؛ أي: مكانًا يُصلى فيه، وإن لم يُبن المسجد. ولا ريب أنَّ أصل تحريم بناء المساجد على القبور أن المساجد مكان الصلاة، والناس يأتون إليها للصلاة فيها، فإذا صلى الناس في مسجد بني على قبر؛ فكأنهم صلوا عند القبر، والمحذور الذي يوجد في بناء المساجد على القبور يوجد فيما إذا اتخذ هذا المكان للصلاة؛ وإن لم يبن مسجد.

فتبيَّن بهذا أن يتخذ القبور مساجد له معنيان:

الأول: أن تبنى عليها مساجد.

الثاني: أن تُتَّخذ مكانًا للصلاة عندها وإن لم يبن المسجد، فإذا كان هؤلاء القوم مثلاً يذهبون إلى هذا القبر ويصلون عنده ويتخذونه مصلًّى؛ فإنَّ هذا بمعنى بناء المساجد عليها، وهو أيضًا من اتخاذها مساجد.

قوله: فكل موضع قصدت الصلاة فيه؛ فقد اتُّخذ مسجدًا»: وهذا يشهد له العرف؛ فإنَّ الناس الذين

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن جابر ﷺ، وفيه زيادة «فأيما رجل أدركته الصلاة فليصل حيث أدركته» (ق).

(٢) ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى باب تفسير سورة «يوسف» فقال رحمه الله: فإن هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ أحق بذلك ممن بعدهم، فإن هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ وأعلم بسنته، وأتبع لها ممن بعدهم. وكذلك الصحابة لم يكونوا يتابون قبر الخليل ﷺ، بل ولا فتحوه، بل ولا بنوا على قبر أحد من الأنبياء مسجدًا، فإنهم كانوا يعلمون أن النبي ﷺ قال: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك» ولما ظهر قبر دانيال بتُسْتَر كتب فيه أبو موسى إلى عمر بن الخطاب ﷺ فكتب إليه عمر، إذا كان بالنهار فاحفر ثلاثة عشر قبراً، ثم ادفنه بالليل في واحد منها، وعفِّر قبره لئلا يفتتن به الناس، وقد تأملت الآثار التي تروى في قصد هذه المقامات، والدعاء عندها أو الصلاة، فلم أجد لها عن الصحابة أصلاً، بل أصلها عمن أخذ عن أهل الكتاب. فمن أصول الإسلام أن تميز ما بعث الله به محمداً ﷺ من الكتاب والحكمة، ولا تخلطه بغيره، ولا تلبس الحق بالباطل، كفعل أهل الكتاب. فإن الله ـ سبحانه ـ أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة، ورضي لنا الإسلام دينًا.

ولأحمد بسند جيِّد، عن ابن مسعود مرفوعًا «إنَّ من شِرار الناس من تُدركهم الساعةُ وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد»[(١)][(٢)] رواه أبو حاتم ابن حبان في (صحيحه).

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالىٰ: ولأحمد بسند جيِّد، عن ابن مسعود مرفوعًا «إنَّ من شرار الناس من تُدركهم الساعةُ وهم أحياء، والذين يتخذون القبورَ مساجد» رواه أبو حاتم ابن حبان في (صَحيحه).

قوله: «إن من شرار الناس»: بكسر الشين، جمعُ شرِّير.

لهم مساجد في مكان أعمالهم؛ كالوزارات والإدارات لو سألت واحدًا منهم أين المسجد؟ لأشار إلىٰ المكان الذي اتخذوه مصلىٰ يصلون فيه، مع أنَّه لم يبن، لكن لما كانت الصلاة تقصد فيه؛ صار يُسمَّىٰ مسجدًا.

قوله: «بل كان موضع يُصلى...»: فقوله: «مسجدًا»؛ أي: مكانًا للسجود، وهذا معنىٰ ثالث زائد علىٰ المعنيين الأولين، وهو أن يقال: كل شيء تصلىٰ فيه فإنه مسجد ما دمت تصلي فيه، كما يُقال للسجادة التي تُصلي عليها مسجد أو مُصلًّىٰ وإن كان الغالب عليها اسم مُصلًّىٰ.

الخلاصة: أنَّه لا يجوز بناء المساجد علىٰ القبور؛ لأنَّها وسيلة إلىٰ الشرك، وهو عبادة صاحب القبر، ولا يجوز أيضًا أن تُقصد القبور للصلاة عندها، وهذا من اتخاذها مساجد؛ لأنَّ العلَّة من اتخاذها مساجد موجودة في الصلاة عندها، فلو فُرضَ أنَّ رجلاً يذهب إلىٰ المقبرة ويصلي عند قبر ولي من الأولياء علىٰ زعمه؛ قلنا: إنَّك اتَّخذت هذا القبر مسجدًا، وإنَّك مستحقٌ لما استحقه اليهود والنصارىٰ من اللعنة، وفي كلام شيخ الإسلام ابن تيمية دليل علىٰ صحة تسمية كل شيء يصلىٰ فيه مسجدًا بالمعنىٰ العام.

قوله: «مرفوعًا»: المرفوع: ما أسند إلىٰ النبي ﷺ.

قوله: «إنَّ من شرار النَّاس»: «من»: للتبعيض، «وشرار»: جمع شر، مثل صحاب جمع صحب، والمعنىٰ: أصحاب الشر، وفي هذا دليل »علىٰ أنَّ الناس يتفاوتون في الشر، وأنَّ بعضهم أشد من بعض.

---

(١) في قرة العيون: (قلت): وقد وقع هذا في الأمة كثيرًا كما وقع في أهل الجاهلية قبل مبعث النبي ﷺ كما لا يخفى على ذوي البصائر. وقد زاد هؤلاء المتأخرون من هذه الأمة على ما وقع من أهل الجاهلية من هذا الشرك بأمور (منها) أنهم يخلصون عند الاضطرار لغير الله وينسون الله (ومنها) أنهم يعتقدون أن آلهتهم من الأموات يتصرفون في الكون دون الله. وجمعوا بين نوعي الشرك في الإلهية والربوبية، وقد سمعت ذلك منهم مشافهة، ومن ذلك قول ابن كمال من أهل عمان وأمثاله: إن عبد القادر الجيلاني يسمع من دعاه ومع سماعه ينفع، فزعم أنه يعلم الغيب وهو ميت فلقد ذهب عقل هذا وضل فكفر بما أنزله الله في كتابه كقوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤] فما صدقوا الخبير فيما أخبر به عن آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، ولا آمنوا بما أنزل الله في كتابه بل بالغوا وعاندوا في رده وكذبوا وألحدوا وكابروا المعقول والمنقول فالله المستعان. (ق).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٧٠٦٧)، ورواه أحمد في المسند (١/ ٤٠٥).

قوله: «من تدركهم الساعةُ وهم أحياء» أي: مقدماتها، كخروج الدَّابة، وطلوع الشمس من مغربها. وبعد ذلك يُنفخُ في الصُّور، نفخة الفَزَع.

قوله: «والذين يتَّخذون القبور مساجد» معطوفٌ على خبر إنَّ، في محل نصب، على نية تكرار العامل. أي: ومن شرار الناس، الذين يتخذون القبور مساجد. أي: بالصلاة عندها وإليها، وبناء المساجد عليها. وتقدَّم في الأحاديث الصحيحة أنَّ هذا من عمل اليهود والنصارىٰ، وأنَّ النبي ﷺ لعنهم علىٰ ذلك، تحذيرًا للأمة أنْ يفعلوا مع نبيهم وصالحيهم فعل اليهود والنصارىٰ. فما رفع أكثرُهم بذلك رأسًا، بل اعتقدوا أنَّ هذا الأمر قربةٌ إلىٰ الله، وهو مما يُبعدهم عن الله ويطردهم عن رحمته ومغفرته. والعجب أنَّ أكثر من يدَّعي العلم ممن هو من هذه الأمة لا ينكرون ذلك، بل ربما استحسنوه ورغَّبوا في فعله. فلقد اشتدت غربةُ الإسلام، وعاد المعروفُ منكرًا والمنكر معروفًا، والسنة بدعة والبدعة سنة، نشأ علىٰ هذا الصغير، وهرم عليه الكبير.

قال شيخُ الإسلام رحمه الله: أمَّا بناءُ المساجد علىٰ القبور: فقد صرَّح عامةُ الطوائف بالنهي عنه؛ متابعة للأحاديث الصحيحة. وصرَّح أصحابُنا، وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريمه. قال: ولا ريب في القطع بتحريمه.

ثم ذكر الأحاديث في ذلك، إلىٰ أنْ قال: وهذه المساجدُ المبنيةُ علىٰ قبور الأنبياء والصالحين أو

قوله: «من تدركهم الساعة»: «من»: اسم موصول اسم إن، والساعة، أي: يوم القيامة، وسميت بذلك لأنها داهية، وكل شيء داهية عظيمة يسمىٰ ساعة، كما يقال: هذه ساعتك في الأمور الداهية التي تصيب الإنسان.

قوله: «وهم أحياء»: الجملة حال من الهاء في «تدركهم».

وفي قوله: «تدركهم الساعة وهم أحياء» إشكال، وهو أنَّه ثبت عن النبي ﷺ قوله: **«لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر اللَّه»**[1]، وفي رواية: **«حتى تقوم الساعة»**؛ فكيف نوفق بين الحديثين؛ لأنَّ ظاهر الحديث الذي ساقه المؤلف أنَّ كل من تدركهم الساعة وهم أحياء؛ فهم من شرار الخلق؟! والجمع بينهما أن يُقال: إنَّ المراد بقوله: **«حتى تقوم الساعة»**؛ أي: إلىٰ قُرب قيام الساعة، وليس إلىٰ قيامها بالفعل؛ لأنَّها لا تقوم إلا علىٰ شرار الخلق؛ فاللَّه يُرسل ريحًا تقبض نفس كل مؤمن ولا يبقىٰ إلا شرار الخلق، وعليهم تقوم الساعة.

قوله: **«الذين يتخذون القبور مساجد»**: فهم من شرار الخلق، وإن لم يشركوا؛ لأنهم فعلوا وسيلة من وسائل الشرك، والوسائل لها أحكام المقاصد، وإن كانت دون مرتبتها، لكنها تعطىٰ حكمها بالمعنىٰ العام، فإن كانت وسيلة لواجب صارت واجبة، وإن كانت وسيلة لمحرَّم؛ فهي محرَّمة. فشر الناس في هذا الحديث ينقسمون إلىٰ صنفين:

الأول: الذين تدركهم الساعة وهم أحياء.

الثاني: الذين يتَّخذون القبور مساجد.

وفي قوله ﷺ: **«إنَّ من شرار الخلق»** دليل علىٰ أنَّ الناس يتفاوتون في الشر؛ لأنَّ بعضهم أشدّ من

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٢٠).

. . . .

الملوك وغيرهم، تعيَّنُ إزالتها بهدم أو بغيره، هذا مما لا أعلمُ فيه خلافًا بين العلماء المعروفين.

وقال ابنُ القيم رحمه الله تعالى: يجبُ هدمُ القباب التي بُنيت على القبور؛ لأنها أُسِّست على معصية الرسول ﷺ.

وقد أفتى جماعةٌ من الشافعية بهدم ما في القرَّافة من الأبنية، منهم ابنُ الجُمَّيزي والظَّهير التَّزمنتي وغيرهما.

وقال القاضي ابن كَجّ: ولا يجوز أنْ تُجصَّص القبور، ولا أنْ يُبنى عليها قباب، ولا غير قباب، والوصيةُ بها باطلة.

وقال الأذرُعي: وأمَّا بطلان الوصية ببناء القباب وغيرها من الأبنية، وإنفاق الأموال الكثيرة، فلا ريب في تحريمه.

وقال القرطبي في حديث جابر: «نهى أنْ يُجصص القبر أو يُبنى عليه»[1] وبظاهر هذا الحديث قال مالك، وكره البناء والجص على القبور، وقد أجازه غيره، وهذا الحديث حجةٌ عليه.

وقال ابنُ رُشْد: كره مالكُ البناء على القبر، وجَعْلَ البلاطة المكتوبة. وهو من بدع أهل الطَّول، أحدثوه إرادةَ الفخر والمباهاة والسمعة، وهو مما لا اختلاف فيه.

وقال الزَّيْلعي في (شرح الكنز): ويُكره أنْ يُبنى على القبر. وذكر قاضي خان: أنَّه لا يُجصص القبر ولا يُبنى عليه؛ لما رُوي عن النبي ﷺ أنه نهى عن التجصيص والبناء فوق القبر. والمرادُ بالكراهة

بعض فيه، كما أنَّهم يتفاوتون في الخير أيضًا؛ لقوله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٢]، وذلك من حيث الكمية فمن صلَّى ركعتين، فليس كمن صلى أربعًا.

ومن حيث الكيفية: فمن صلَّى وهو قانت خاشع حاضر القلب؛ ليس كمن صلَّى وهو غافل. ومن حيث النوعية: فالفرض أفضل من النفل، وجنس الصلاة أفضل من جنس الصدقة؛ لأنَّ الصلاة أفضل الأعمال البدنية. وهذا الذي تدل عليه الأدلة هو مذهب أهل السنة والجماعة، وهو التفاضل في الأعمال، حتى في الإيمان الذي هو في القلب يتفاضل الناس فيه، بل إنَّ الإنسان يحس في نفسه أنَّه في بعض الأحيان يجد في قلبه من الإيمان ما لا يجده في بعض الأحيان؛ فكيف بين شخص وشخص؟ فهو يتفاضل أكثر.

وخلاصة الباب: أنه يجب البعد عن الشرك ووسائله، ويغلظ على من عبد الله عند قبر رجل صالح. وكلام المؤلف رحمه الله في قوله: «عبد الله» يشمل الصلاة وغيرها والأحاديث التي ساقها في الصلاة، لكنه رحمه الله كأنه قاس غيرها عليها، فمن زعم أنَّ الصدقة عند هذا القبر أفضل من غيره فهو شبيه بمن اتخذه مسجدًا لأنه يرى أنَّ لهذه البقعة أو لمن فيها شأنًا يفضل به على غيره؛ فالشيخ عمَّم، والدليل خاص.

فإن قيل: لا يستدل بالدليل الخاص على العام؟

أجيب: إن الشيخ أراد بذلك أنَّ العلَّة هي تعظيم هذا المكان؛ لكونه قبرًا، وهذا كما يوجد في الصلاة يوجد في غيرها من العبادات؛ فيكون التعميم من باب القياس لا من باب شمول النَّص له لفظًا.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٧٠).

عند الحنفية كراهة التحريم. وقد ذكر ذلك ابنُ نُجيم في (شرح الكنز).

وقال الشافعيُّ رحمه الله: أكره أنْ يُعظَّم مخلوق، حتىٰ يجعل قبره مسجداً؛ مخافة الفتنة عليه وعلىٰ من بعده من الناس. وكلامُ الشافعي رحمه الله يبين أنَّ مراده بالكراهة: كراهة التحريم.

قال الشارح: وجزم النوويُّ رحمه الله في (شرح المُهذَّب) بتحريم البناء مطلقًا، وذكر في (شرح مسلم) نحوه أيضًا.

وقال أبو محمد، عبد الله بن أحمد بن قُدامة إمامُ الحنابلة، صاحبُ المصنفات الكبار (كالمغني) و(الكافي): ولا يجوز اتخاذُ المساجد علىٰ القبور؛ لأنَّ النبي ﷺ قال: «**لعن الله اليهود والنصارى**» الحديث[1].

وقد روِّينا أنَّ ابتداء عبادة الأصنام: تعظيمُ الأموات واتخاذُ صورهم، والتمسُّحُ بها والصلاة عندها، انتهىٰ[2].

وقال شيخُ الإسلام رحمه الله: وأمَّا المقبرة، فلا فرق فيها بين الجديدة والعتيقة، وما انقلبت تربتُها أو لم تنقلب.

ولا فرق بين أنْ يكون بينه وبين الأرض حائل أو لا؛ لعموم الاسم وعموم العلة، ولأن النبيَّ ﷺ لعن الذين اتخذوا قبور الأنبياء مساجد، ومعلومٌ أنَّ قبور الأنبياء لا تنجس.

وبالجملة، فمن علَّل النهي عن الصلاة في المقبرة بنجاسة التربة خاصة فهو بعيدٌ عن مقصود النبي ﷺ. ثم لا يخلو أن يكون القبرُ قد بُني عليه مسجد، فلا يُصلَّىٰ في هذا المسجد، سواء كان خلف القبر أو أمامه بغير خلافٍ في المذهب؛ لأن النبي ﷺ قال: «**إنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**»[3]. وخصَّ قبور الأنبياء والصالحين؛ لأن عكوف الناس علىٰ قبورهم أعظم، واتخاذها مساجد أشد.

وكذلك إنْ لم يكن بُني عليه مسجد، فهذا قد ارتكب حقيقة المفسدة التي كان النهيُ عن الصلاة عند القبور من أجلها.

فإنَّ كُلَّ مكان صُلِّي فيه يُسمىٰ مسجداً، كما قال ﷺ: «**جُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**»[4] وإنْ كان موضع قبر أو قبرين.

وقال بعض أصحابنا: لا يُمنع الصلاة فيها؛ لأنه لا يتناولها اسمُ المقبرة. وليس في كلام أحمد، ولا بعض أصحابه هذا الفرق، بل عموم كلامهم يقتضي منع الصلاة عند كل قبر.

وقد تقدَّم عن علي أنه قال: لا أصلي في حمَّامٍ ولا عند قبر.

---

(١) **صحيح**: وقد تقدم تخريجه.

(٢) وقد صرح ابن حجر الهيثمي المكي في كتابه الكبائر: إن بناء القباب على القبور من الكبائر المحرمة بالنص الصريح. وأن الواجب على ملوك المسلمين وأمرائهم وولاتهم أن يهدموا هذه القباب ويبدأوا بقبة الإمام الشافعي. (ق).

(٣) **صحيح**: وقد تقدم تخريجه.

(٤) **صحيح**: وقد تقدم تخريجه.

. . . .

فعلىٰ هذا: يكونُ النهي متناولاً تحريم القبر وبنائه، ولا تجوزُ الصلاة في مسجد بُني في مقبرة، سواءٌ كان له حيطان تحجزُ بينه وبين القبور أو كان مكشوفًا.

قال في رواية الأثْرم: إذا كان المسجدُ بين القبور لا يُصلَّىٰ فيه الفريضة، وإنْ كان بينها وبين المسجد حاجز فرخَّص أنْ يُصلَّىٰ فيه على الجنائز، ولا يُصلىٰ فيه علىٰ غير الجنائز.

وذكر حديث أبي مَرْثَد، عن النبي ﷺ «**لا تُصلَّوا إلى القبور**»[(١)][(٢)] وقال: إسنادهُ جيد. انتهىٰ.

ولو تتبَّعنا كلام العلماء في ذلك، لاحتمل عِدَّة أوراق. فتبينَّ بهذا أنَّ العلماء رحمهم الله بيَّنوا أنَّ علة النهي، ما يؤدِّي إليه ذلك؛ من الغلوِّ فيها، وعبادتها من دون الله، كما هو الواقع والله المستعان.

وقد حَدَث بعد الأئمة، ومن يُعتدُّ بقولهم: أناسٌ كُثُرٌ في أبواب العلم بالله اضطرابُهم، وغلظ عن معرفة ما بعث الله به رسوله من الهدىٰ والعلم حجابُهم.

فقيَّدوا نصوصَ الكتاب والسنة بقيودٍ أوهنت الانقياد، وغيَّروا بها ما قصده الرسولُ ﷺ بالنهي وأراد.

فقال بعضهم: النهيُ عن البناء على القبور يختصُّ بالمقبرة المسبَّلة، و النهي عن الصلاة فيها لتنجُّسها بصديد الأموات. وهذا كلّه باطل، لوجوه:

منها: أنه من القول على الله بلا علم. وهو حرامٌ بنصٍّ الكتاب.

ومنها: أنَّ ما قالوه لا يقتضي لعنَ فاعله، والتغليظ. وما المانع له من أنْ يقول: من صلَّىٰ في بقعة نجسة فعليه لعنة الله؟!

ويلزم علىٰ ما قاله هؤلاء أنَّ النبي ﷺ لم يُبيِّن العلة، وأحالَ الأمة في بيانها علىٰ من يجيءُ بعده ﷺ، وبعد القرون المُفضَّلة والأئمة.

وهذا باطلٌ قطعًا عقلاً وشرعًا؛ لما يلزمُ عليه من أنَّ الرسول ﷺ عجز عن البيان، أو قصَّر في البلاغ. وهذا من أبطل الباطل؛ فإنَّ النبي ﷺ بلَّغ البلاغ المبين، وقدرتُه في البيان فوقَ قدرة كلِّ أحد، فإذا بطل اللاَّزمُ بطل الملزوم.

ويُقال أيضًا: هذا اللعنُ والتغليظ الشديد إنَّما هو فيمن اتخذ قبورَ الأنبياء مساجد، وجاء في بعض النصوص ما يَعمُّ الأنبياء وغيرهم.

فلو كانت هذه هي العلة لكانت منتفيةً في قبور الأنبياء؛ لكون أجسادهم طريَّة لا يكون لها صديدٌ يمنع من الصلاة عند قبورهم.

فإذا كان النهيُ عن اتخاذ المساجد عند القبور يتناولُ قبور الأنبياء بالنص، عُلم أنَّ العلة ما ذكره هؤلاء العلماء الذين نَقلتُ أقوالهم.

والحمدُ لله علىٰ ظهور الحجة وبيان المحجَّة، والحمدُ لله الذي هدانا لهذا، وما كُنَّا لنهتدي لولا أنْ هدانا الله.

. . . .

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي. (ق).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٧٢).

فيه مسائل:

الأولى: ما ذكر الرسول ﷺ فيمن بنى مسجداً يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل.

الثانية: النهي عن التماثيل، وغلظ الأمر في ذلك.

....

ولا فرق في هذا بين أن يعتقد الفاعل لذلك أنهم مستقلون في تحصيل مطالبه أو متوسطون إلى الله، فإن المشركين يقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] و﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

فيه مسائل:

الأولى: ما ذكر الرسول ﷺ فيمن بنى مسجداً يعبد اللَّه فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحَّت نيَّة الفاعل: تؤخذ من لعن النبي ﷺ الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

قوله: «ولو صحَّت نيَّة الفاعل»؛ لأنَّ الحكم عُلق على مجرَّد صورته؛ فهذا العمل لا يحتاج إلى نيَّة لأنَّه مُعلق بمجرد الفعل.

فالنِّية تؤثر في الأعمال الصالحة وتصحيحها، وتؤثر في الأعمال التي لا يقدر عليها فيعطى أجرها، وما أشبه ذلك، بخلاف ما علق على فعل مجرد؛ فلا حاجة فيه إلى النية.

أي: ولو كان يعبد اللَّه، ولو كان يريد التقرُّب إلى اللَّه ببناء هذا المسجد اعتباراً بما يئول إليه الأمر، وبالنتيجة السيئة التي تترتَّب على ذلك، وهذه النقطة نتدرَّج منها إلى نقطة أخرى، وهي التحذير من مشابهة المشركين وإن لم يقصد الإنسان المشابهة، وهذه قد تخفى على بعض الناس، حيث يظن أنَّ التشبه إنَّما يحرم إذا قصدت المشابهة، والشرع إنَّما علق الحكم بالتشبه؛ أي: بأن يفعل ما يشبه فعلهم، سواء قصد أو لم يقصد، ولهذا قال العلماء في مسألة التشبه: وإن لم ينو ذلك؛ فإن التشبه يحصل بمطلق الصورة.

فإن قيل: قاعدة «إنما الأعمال بالنيات» هل تعارض ما ذكرنا؟

فالجواب: لا تعارضه؛ لأن ما عُلق بالعمل ثبت له حكمه وإن لم ينو الفعل؛ كالأشياء المحرَّمة؛ كالظهار، والزِّنا، وما أشبهها.

الثانية: النهي عن التماثيل وغلظ الأمر في ذلك: تؤخذ من قوله: «**وصوروا فيه تلك الصور**»، ولا سيما إذا كانت هذه الصور معظمة عادةً ـ كالرؤساء، والزعماء، والأب، والأخ، والعم ـ أو شرعاً ـ مثل: الأولياء، والصالحين، والأنبياء، وما أشبه ذلك.

الثالثة: العبرة في مبالغته ﷺ في ذلك، كيف بيَّن لهم هذا أولاً، ثم قبل موته بخمس قال ما قال؟! ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدَّم: وهذا مما يدل على حرص النبي ﷺ على حماية جانب التوحيد؛ لأنه خلاصة دعوة الرسل، ولأن التوحيد أعظم الطاعات؛ فالمعاصي ـ ولو كبرت ـ

الثالثة: العبرة في مبالغته ﷺ في ذلك، كيف بيّن لهم هذا أولاً، ثم قبل موته بخمس قال ما قال، ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم.

الرابعة: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر.

الخامسة: أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

أهون من الشرك، حتى قال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا»(١)؛ لأن الحلف بغيره نوع من الشرك، والحلف بالله كاذبًا معصية، وهي أهون من الشرك.

فالشرك أمره عظيم جدًا، ونحن نحذر إخواننا المسلمين مما هم عليه الآن من الانكباب العظيم على الدنيا حتى غفلوا عما خلقوا له، واشتغلوا بما خلق لهم؛ فعامة الناس الآن تجدهم مشتغلين بالدنيا قائمين وقاعدين ونائمين ومستيقظين، وهذا في الحقيقة نوع من الشرك؛ لأنه يوجب الغفلة عن الله ـ عز وجل ـ ولهذا سمى النبي ﷺ من فعل ذلك عبداً لما تعبد له، فقال: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة**»(٢)، ولو أقبل العبد على الله بقلبه وجوارحه لحصل ما قُدر له من الدنيا، فالدنيا وسيلة ليست غاية، وتعس من جعلها غاية، وكيف تجعلها غاية وأنت لا تدري مقامك فيها؟! وكيف تجعلها غاية وسرورها مصحوب بالأحزان؛ كما قال الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا ... ويوم نُسَاءُ ويوم نُسَرّ

فالحاصل: أن النبي ﷺ بعث لتحقيق عبادة الله، ولهذا كان حريصًا على سد كل الأبواب التي تؤدي إلى الشرك؛ فالرسول ﷺ حذر من اتخاذ القبور مساجد ثلاث مرات:

الأولى: في سائر حياته. **والثانية**: قبل موته بخمس. **والثالثة**: وهو في السياق.

الرابعة: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر: تؤخذ من قوله: «**ألا فلا تتخذوا القبور مساجد**»؛ فإن قبره داخل في ذلك بلا شك، بل أول ما يدخل فيه.

الخامسة: أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم: تؤخذ من قوله ﷺ: «**اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، وبئس رجلاً جعل إمامه اليهود والنصارى وتشبه بهم في قبيح أعمالهم.

السادسة: لعنه أياهم على ذلك: تؤخذ من قوله: «**لعنة الله على اليهود والنصارى**».

السابعة: أن مراده تحذيره إيانا عن قبره: تؤخذ من قول عائشة: «يُحذر ما صنعوا»؛ أي: ما صنعه اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

---

(١) صحيح موقوف: رواه الطبراني في الكبير (٩/ ١٨٣)، وعبد الرزاق في مصنفه (٨/ ٤٦٩)، وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ١٧٧): رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح، والحديث صححه العلامة الألباني رحمه الله في الإرواء (٢٥٦٢)، وصحيح الترغيب والترهيب (٢٩٥٣) وقال: صحيح موقوف.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٨٨٧، ٦٤٣٥).

السادسة: لعنه إياهم على ذلك.

السابعة: أن مراده تحذيره إيانا عن قبره.

الثامنة: العلة في عدم إبراز قبره.

التاسعة: في معنى اتخاذها مسجداً.

العاشرة: أنه قَرَن بين من اتخذها مسجداً وبين من تقوم عليهم الساعة، فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته.

الحادية عشرة: ذكره في خطبته قبل موته بخمس: الرد على الطائفتين اللتين هما أشرُّ أهل البدع، بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة، وهم الرافضة والجهمية، وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد.

فمن زعم أنه لا يكفر من دعا أهل القبور حتى يعتقد أنهم مستقلون بالنفع ودفع الضرر، وأن من اعتقد أن الله هو الفاعل وأنهم وسائط بين الله وبين من دعاهم واستغاث بهم فلا يُكفَّر. من زعم ذلك فقد كذب ما جاء به الكتاب والسنة، وأجمعت عليه الأمة من أن من دعا غير الله فهو مشرك كافر في الحالين المذكورين، سواء اعتقدهم مستقلين أو متوسطين.

الثامنة: العلة في عدم إبراز قبره: تؤخذ من قول عائشة: «ولولا ذلك أبرز قبره؛ غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً». هناك علة أخرى، وهي: إخباره بأنه ما من نبي يموت إلا دفن حيث يموت [1]، ولا يمتنع أن يكون للحكم علتان، كما لا يمتنع أن يكون للعلة حكمان.

التاسعة: في معنى اتخاذها مسجداً: سبق أن ذكرنا أن لها معنيين:

١ - بناء المساجد عليها.

٢ - اتخاذها مكانًا للصلاة تقصد فيصلى عندها، بل إن من صلى عندها ولم يتخذها للصلاة؛ فقد اتخذها مسجداً بالمعنى العام.

العاشرة: أنه قرن بين من اتخذها مسجداً وبين من تقوم عليه الساعة؛ فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته: ومعنى هذا أن الرسول ﷺ ذكر التحذير من الشرك قبل أن يموت.

وقوله: «مع خاتمته»، وهي: أن من تقوم عليهم شرار الخلق والذين تقوم عليهم الساعة وهم أحياء هؤلاء الكفار، والذين يتخذون القبور مساجد هؤلاء فعلوا أسباب الشرك والكفر.

الحادية عشرة: ذكره في خطبته قبل موته بخمس: الردّ على الطائفتين اللتين هما أشر أهل البدع:

قوله: «قبل أن يموت بخمس»: أي: بخمس ليال، والعرب يعبرون عن الأيام بالليالي وبالعكس.

قوله: «أشر أهل البدع»: يقال: أشر، ويقال: شر؛ بحذف الهمزة، وهو الأكثر استعمالاً.

---

(١) صحيح: وقد تقدم.

. . . .

. . . .

وإنما تكلم المؤلف رحمه اللَّه عن حال الرافضة والجهمية وحكمهما قبل ذكر اسمهما من أجل تهييج النفس علىٰ معرفتهما والاطلاع عليهما؛ لأن الإنسان إذا ذكر له الحكم والوصف قبل ذكر الموصوف والمحكوم عليه؛ صارت نفسه تتطلع وتتشوق إلىٰ هذا، فلو قال من أول الكلام: الرد علىٰ الرافضة والجهمية؛ فلا يكون للإنسان التشوق مثل ما لو تكلم عن حالهما وحكمهما أولاً.

وحالهما: أنها أشر أهل البدع.

وحكمهما: أن بعض أهل العلم أخرجهم من الثنتين والسبعين فرقة.

والرافضة: اسم فاعل من رفض الشيء إذا استبعده، وسموا بذلك لأنهم رفضوا زيد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب حين سألوه: ما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنىٰ عليهما، وقال: هما وزيرا جدي، فرفضوه وتركوه، وكانوا في السابق معه، لكن لما قال الحق المخالف لأهوائهم؛ نفروا منه والعياذ باللَّه، فسموا رافضة. وأصل مذهبهم من عبد اللَّه بن سبأ، وهو يهودي تلبس بالإسلام، فأظهر التشيع لآل البيت والغلو فيهم لشغل الناس عن دين الإسلام وليفسده كما أفسد بولص دين النصارىٰ عندما تلبس بالنصرانية.

وأول ما أظهر ابن سبأ بدعته في عهد علي بن أبي طالب، حتىٰ إنه جاءه وقال: أنت اللَّه حقًا - والعياذ باللَّه - فأمر علي بالأخدود فحفرت، وأمر بالحطب فجُمع، وبالنار فأوقدت، ثم أحرقهم بها؛ إلا أنه يقال: إن عبد اللَّه بن سبأ هرب وذهب إلىٰ مصر ونشر بدعته، فاللَّه أعلم.

فالمهم أن عليًا رضي اللَّه عنه رأىٰ أمرًا لم يحتمله، حيث ادعوا فيه الألوهية فأحرقهم بالنار إحراقًا، ثم بدأت هذه الفرقة الخبيثة تتكاثر؛ لأن شعارها في الحقيقة النفاق الذي يسمونه التقية، ولهذا كانت هذه الفرقة أخطر ما يكون علىٰ الإسلام؛ لأنها تتظاهر بالإسلام والدعوة إليه، وتقيم شعائره الظاهرة؛ كتحريم الخمور وما أشبه ذلك، لكنها تناقضه في الباطن؛ فهم يرون أئمتهم آلهة تدير الكون، وأنهم أفضل من الأنبياء والملائكة والأولياء، وأنهم في مرتبة لا ينالها ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهؤلاء كيف يصح أن تقبل منهم دعوىٰ الإسلام، ولذلك يقول عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه في كثير من كتبه قولاً إذا اطلع عليه الإنسان عرف حالهم: «إنهم أشد الناس ضرراً علىٰ الإسلام، وأنهم هجروا المساجد وعمروا المشاهد»؛ فهم يقولون: لا نصلي جماعة إلا خلف إمام معصوم ولا معصوم الآن، وهم أول من بنىٰ المشاهد علىٰ القبور كما قال الشيخ هنا، ورموا أفضل أتباع الرسول علىٰ الإطلاق - وهما أبو بكر وعمر - بالنفاق، وأنهما ماتا علىٰ ذلك؛ كعبد اللَّه ابن أبي ابن سلول وأشباهه والعياذ باللَّه، فانظر بماذا تحكم علىٰ هؤلاء بعد معرفة معتقدهم ومنهجهم؟!

وأما الجهمية: فهم أتباع الجهم بن صفوان، وأول بدعته أنه أنكر صفات اللَّه، وقال: إن اللَّه لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسىٰ تكليمًا؛ فأنكر المحبة والكلام، ثم بدأت هذه البدعة تنتشر وتتسع، فاعتنقها طوائف غير الجهمية؛ كالمعتزلة ومتأخري الرافضة؛ لأن الرافضة كانوا بالأول

. . . .

. . . .

مشبهة، ولهذا قال أهل العلم: أول من عرف بالتشبيه هشام بن الحكم الرافضي، ثم تحولوا من التشبيه إلى التعطيل، وصاروا ينكرون الصفات.

والجهم بن صفوان أخذ بدعته عن الجعد بن درهم، والجعد أخذ بدعته عن أبان بن سمعان، وأبان أخذها عن طالوت الذي أخذها عن لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ، فتكون بدعة التعطيل أصلها من اليهود، ثم إن الجهم بن صفوان نشأ في بلاد خراسان، وفيها كثير من الصابئة وعباد الكواكب والفلاسفة، فأخذ منهم أيضًا ما أخذ، فصارت هذه البدعة مركَّبة من اليهودية والصابئة والمشركين.

وانتشرت هذه البدعة في الأمة الإسلامية، وهؤلاء الجهمية معطلة في الصفات؛ ينكرون الصفات، ومنهم من أنكر الأسماء مع الصفات، وهذه الأسماء التي يضيفها اللَّه - سبحانه - إلى نفسه جعلوها إضافات وليست حقيقة، أو أنها أسماء لبعض مخلوقاته؛ فالسميع عندهم بمعنى من خلق السمع في غيره، والبصير كذلك، وهكذا.

ومنهم من أنكر أن يكون اللَّه متصفًا بالإثبات أو العدم، فقالوا: لا يجوز أن نثبت للَّه صفة أو ننفي عنه صفة؛ حتى قالوا: لا يجوز أن نقول عنه: إنه موجود ولا إنه معدوم؛ لأننا إن قلنا بأنه موجود شبهناه بالموجودات، وإن قلنا بأنه معدوم شبهناه بالمعدومات؛ فنقول: لا موجود ولا معدوم؛ فكابروا المعقول، وكذبوا المنقول، وهذا لا يمكن؛ لأنَّ تقابل الوجود والعدم من تقابل النقيضين اللذين لا يمكن ارتفاعهما ولا اجتماعهما، بل لا بد أن يوجد أحدهما، فوصف اللَّه بذلك تشبيه له بالممتنعات على قاعدتهم.

ومذهبهم في القضاء والقدر: الجبر، فيقولون: إن الإنسان مجبر على عمله يعمل بدون اختياره؛ إن صلى؛ فهو مجبر، وإن قتل فهو مجبر، وهكذا؛ فعطلوا بذلك حكمة اللَّه لأنه إذا كان كل عامل مجبرًا على عمله لم يكن هناك حكمة في الثواب والعقاب، بل بمجرد المشيئة يعاقب هذا ويثيب هذا، وبذلك عطلوا عن الفاعلين أوصاف المدح والذم، فلا يمكن أن تمدح إنسانًا أو تذمه؛ لأن العاصي مجبر والمطيع مجبر.

ويقال لهم: إنكم إذا قلتم ذلك أثبتم أن اللَّه أظلم الظالمين؛ لأنه كيف يعاقب العاصي وهو مجبر على المعصية؟ ويثيب الطائع وهو مجبر على طاعته؟ فيكون أعطى من لا يستحق، ومنع من يستحق، وهذا ظلم.

فقالوا: هذا ليس بظلم، لأن الظلم تصرف المالك في غير ملكه، وهذا تصرف من المالك في ملكه يفعل به ما يشاء.

وأجيب: بأنه باطل؛ لأن المالك إذا كان متصفًا بصفات الكمال لن يخلف وعده، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، فلو أخلف هذا الوعد؛ لكان نقصًا في حقه وظلمًا لخلقه، حيث وعدهم فأخلفهم.

ومذهبهم في أسماء الإيمان والدين الإرجاء، فيقولون: إن الإيمان مجرد اعتراف الإنسان بالخالق

الثانية عشرة: ما بُلي بهﷺ من شدة النَزْع.

الثالثة عشرة: ما أُكرم به من الخلّة.

....

على الوصف المعطل عن الصفات حسب طريقتهم، وأن الأقوال والأعمال لا مدخل لها في الإيمان، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص. ومن هذه الأمور الثلاثة قالوا: إن أفسق وأعدل عباد الله في الإيمان سواء، بل قالوا: إن فرعون مؤمن كامل الإيمان، وجبريل مؤمن كامل الإيمان، لكن فرعون كفر؛ لأنه ادعى الربوبية لنفسه فقط، فصار بذلك كافراً.

قال ابن القيم عنهم:

والناس في الإيمان شيء واحد ... كالمشط عند تماثل الأسنان

فمذهبهم من أخبث المذاهب إن لم نقل أخبثها، لكن أخبث منه مذهب الرافضة، حتى قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن جميع البدع أصلها من الرافضة»؛ فهم أصل البلية في الإسلام، ولهذا قال المؤلف: «**أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة**»، ولعل الصواب من الثلاث والسبعين فرقة، أو أن الصواب أخرجهم إلى الثنتين والسبعين؛ أي: أخرجهم من الثالثة التي كان عليها الرسولﷺ وأصحابه؛ لأن المعروف أن هذه الأمة تفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وهي من كانت على ما كان عليه النبيﷺ وأصحابه. وصدق رحمه الله في قوله عن هاتين الطائفتين الرافضة والجهمية: «**شر أهل البدع**». وقد قتل الجهم بن صفوان سلمة ابن أحوز صاحب شرطة نصر بن سيار لأنه أظهر هذا المذهب ونشره.

وقول المؤلف: «وبسبب الرافضة حدث الشرك، وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد» ، ولهذا يجب الحذر من بدعتهم وبدعة الجهمية وغيرها، ولا شك أن البدع دركات بعضها أسفل من بعض، فعلى المرء الحذر من البدع، وأن يكون متبعًا لمنهج السلف الصالح في هذا الباب وفي غيره.

الثانية عشرة: ما بلي به ﷺ من شدة النزع: تؤخذ من قولها: «**طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتَّم بها كشفها**»، وفي هذا دليل على شدة نزعه، وهكذا كان الرسولﷺ يمرض ويوعك كما يوعك الرجلان من الناس[1] ، وهذا من حكمة الله - عز وجل - فهوﷺ شدد عليه البلاء في مقابلة دعوته وأوذي إيذاءً عظيمًا، وكذلك أيضًا فيما يصيبه من الأمراض يضاعف عليه، والحكمة من ذلك لأجل أن ينال أعلى درجات الصبر؛ لأن الإنسان إذا ابتلي بالشر وصبر كان ذلك أرفع لدرجته.

والصبر درجة عالية لا تنال إلا بوجود أسبابها، ومنها الابتلاء؛ فيصبر ويحتسب حتى ينال درجة الصابرين.

الثالثة عشرة: ما أكرم به من الخلَّة: ويدل عليها قولهﷺ: «**إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ**

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٣٦) ومواضع، ومسلم (٥٣١).

الرابعة عشرة: التصريح بأنَّها أعلى من المحبة.

الخامسة عشرة: التصريح بأنَّ الصديق أفضل الصحابة.

السادسة عشرة: الإشارة إلى خلافته.

....

إبراهيم خليلاً»، ولا شك أن هذه الكرامة عظيمة؛ لأننا لا نعلم أحدًا نال هذه المرتبة إلا رسول الله ﷺ وإبراهيم ﷺ.

الرابعة عشرة: التصريح بأنها أعلى من المحبة: ويدل ذلك أنه ﷺ كان يحب أبا بكر، وكان أحب الناس إليه؛ فأثبت له المحبة، ونفى عنه الخلة، فدل هذا على أنها أعلى من المحبة، والتصريح ليس من هذا الحديث فقط، بل بضمه إلى غيره، فقد ورد من حديث آخر أنه صرح: «**بأن أبا بكر أحب الرجال إليه**»[1]، ثم قال هنا: «**لو كنت متخذًا أحدًا خليلاً؛ لاتخذت أبا بكر خليلاً**» فدل على أن الخلة أعلى من المحبة.

الخامسة عشرة: التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة: تؤخذ من قوله ﷺ: «**ولو كنت متخذًا من أمتي خليلاً؛ لاتخذت أبا بكر خليلاً**»، فلو كان غيره أفضل منه عند النبي ﷺ؛ لكان أحق بذلك.
ومن المسائل الهامة أيضًا: أن الأفضلية في الإيمان والعمل الصالح فوق الأفضلية بالنسب؛ لأننا لو راعينا الأفضلية بالنسب؛ لكان حمزة بن عبد المطلب والعباس رضي الله عنهما أحق من أبي بكر في ذلك، ومن ثم قدم أبو بكر رضي الله عنه على علي بن أبي طالب وغيره من آل النبي ﷺ.

السادسة عشرة: الإشارة إلى خلافته: لم يقل التصريح، وإنما قال: الإشارة؛ لأن النبي ﷺ لم يقل: إن أبا بكر هو الخليفة من بعده، لكن لما قال: «**لو كنت متخذًا من أمتي خليلاً؛ لاتخذت أبا بكر خليلاً**» عُلِم أنه رضي الله عنه أولى الناس برسول الله ﷺ؛ فيكون أحق الناس بخلافته.

* * *

---

(١) ثبت ذلك من حديث عمرو بن العاص بلفظ: أن النبي ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك، قال: «عائشة» فقلت: من الرجال فقال: «أبوها» قلت: ثم من قال: «ثم عمر بن الخطاب» فعد رجالاً والحديث رواه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).

٢٠ـ باب
ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يُصَيّرُها أوثانًا تعبد من دون الله

روى مالك في (الموطأ): أنَّ رسول الله ﷺ قال: «اللهمَّ لا تجعل قبري وثنًا

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ ما جاء أنَّ الغلوَّ في قبور الصالحين يُصيِّرها أوثانًا تُعبد من دون الله:

روى مالك في (الموطأ): أنَّ رسول الله ﷺ قال: «اللهمَّ لا تجعل قبري وثنًا يُعبد. اشتدَّ

هذا الباب له صلة بما قبله، وهو أن الغلو في قبور الصالحين يصيِّرها أوثانًا تُعبد من دون اللَّه.

أي: يئول الأمر بالغالين إلىٰ أن يعبدوا هذه القبور أو أصحابها.

والغلو: مجاوزة الحد مدحًا أو ذمًّا، والمراد هنا مدحًا.

والقبور لها حق علينا من وجهين:

١ ـ أن لا نفرط فيما يجب لها من الاحترام، فلا تجوز إهانتها ولا الجلوس عليها، وما أشبه ذلك.

٢ ـ أن لا نغلو فيها فنتجاوز الحد.

وفي «صحيح مسلم» قال علي بن أبي طالب لأبي الهياج الأسدي: «ألا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رسول اللَّه ﷺ؟ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»[1]، وفي رواية: «ولا صورة إلا طمستها».

والقبر المشرف: هو الذي يتميز عن سائر القبور، فلا بد أن يسوىٰ ليساويها لئلا يظن أن لصاحب هذا القبر خصوصية ولو بعد زمن؛ إذ هو وسيلة إلىٰ الغلو فيه.

قوله: «الصالحين»: يشمل الأنبياء والأولياء، بل ومن دونهم.

قوله: «أوثانًا»: جمع وثن، وهو كل ما نُصب للعبادة، وقد يقال له: صنم، والصنم: تمثال مُمَثَّل؛ فيكون الوثن أعم.

ولكن ظاهر كلام المؤلف أن كل ما يُعبد من دون اللَّه يسمىٰ وثنًا، وإن لم يكن علىٰ تمثال نصب؛ لأن القبور قد لا يكون لها تمثال ينصب علىٰ القبور فيعبد.

قوله: «تعبد من دون اللَّه»: أي: من غيره، وهو شامل لما إذا عبدت وحدها أو عبدت مع اللَّه؛ لأن الواجب في عبادة اللَّه إفراده فيها، فإذا قرن بها غيره صارت عبادة لغير اللَّه، وقد ثبت في الحديث القدسي أن اللَّه تعالىٰ يقول: **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»**.

قوله: «في الموطأ»: كتاب مشهور، ومن أصح الكتب؛ لأنه رحمه اللَّه تحرىٰ فيه صحة السند، وسنده أعلىٰ من سند البخاري لقربه من الرسول ﷺ، وكلما كان السند أعلىٰ كان إلىٰ الصحة أقرب،

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٦٩)، وأبو داود (٣٢١٨)، والترمذي (١٠٤٩)، والنسائي (٢٠٣١)، وأحمد (٧٤٣، ١٠٦٧).

يُعبد. اشتدَّ غضبُ الله على قومٍ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(١)(٢).

غضبُ الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»:

هذا الحديث رواه مالكُ مرسلاً، عن زيد بن أسْلم، عن عطاء بن يسار: أنَّ رسول الله ﷺ قال. الحديث.

ورواه ابنُ أبي شيبة في (مُصنَّفه)، عن ابن عجلان، عن زيد بن أسلم، به. ولم يذكر عطاء. ورواه البَزّارُ عن زيد، عن عطاء، عن أبي سعيد الخُدري، مرفوعًا.

وله شاهدٌ عند الإمام أحمد بسنده، عن سُهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة، رفعه **«اللهمَّ لا تجعل قبري وثنًا، لعن الله قومًا اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**.

قوله: (روى مالكٌ في الموطأ). هو الإمامُ، مالكُ بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي، أبو عبد الله المدني. إمامُ دار الهجرة، وأحدُ الأئمة الأربعة، وأحد المتقنين للحديث؛ حتى قال البخاري: أصحُّ الأسانيد مالكٌ عن نافع عن ابن عمر، مات سنة تسعٍ وسبعين ومائة. وكان مولده سنة ثلاثٍ وتسعين. وقيل: أربع وتسعين. قال الواقدي: بلغ تسعين سنة.

قوله: «اللهمَّ لا تجعل قبري وثنًا يعبد»: قد استجاب الله دعاءه، كما قال ابنُ القيم رحمه الله:

فأجاب رَبُّ العالمين دعاءَه ... وأحاطه بثلاثة الجدران

حتى غدت أرجاؤه بدعائه ... في عِزَّةٍ وحماية وصيان

وفيه مع الأحاديث آثار عن الصحابة، وفيه أيضًا كلام وبحث للإمام مالك نفسه.

وقد شرحه كثير من أهل العلم، ومن أوسع شروحه وأحسنها من الرواية والدراية: «التمهيد» لابن عبد البر، وهذا ـ أعني: «التمهيد» ـ فيه علم كثير.

قوله: «اللَّهم»: أصلها: يا اللَّه! فحذفت يا النداء لأجل البداءة باسم اللَّه، وعوض عنها الميم الدالة على الجمع؛ فكأن الداعي جمع قلبه على اللَّه، وكانت الميم في الآخر لأجل البداءة باسم اللَّه.

قوله: «لا تجعل قبري وثنًا يعبد»: لا: للدعاء؛ لأنها طلب من اللَّه، وتجعل: تصير، والمفعول الأول لها: «قبري»، والثاني: «وثنًا».

---

(١) في قرة العيون: ذلك أنه ﷺ خاف أن يقع في أمته في حقه كما وقع من اليهود والنصارى في حق أنبيائهم من عبادتهم من دون الله وسبب ذلك الغلو فيهم كما قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [النساء: ١٧١] وكذلك رغب ﷺ إلى ربه أن لا يجعل قبره وثنًا يعبد، وقد عبدت القبور بأنواع العبادة كما لا يخفى، وتقدم في حديث عائشة ﵂: «ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا» وقد استجاب الله دعوة نبيه ﷺ وصان قبره وأحاطه بثلاثة جدران. (ق).

(٢) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في غاية المرام (١٢٦).

. . . .

ودلَّ الحديثُ: علىٰ أنَّ قبر النبي ﷺ لو عُبد لكان وثنًا، لكن حماه الله تعالىٰ بما حال بينه وبين الناس، فلا يُوصلُ إليه. ودلَّ الحديثُ: علىٰ أنَّ الوثن، هو ما يباشر العابدُ من القبور، والتَّوابيت التي عليها. وقد عظُمت الفتنة بالقبور بتعظيمها وعبادتها، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: كيف أنتم إذا لبستكم فتنةٌ يهرم فيها الكبير، وينشأ فيها الصغير.

تجري علىٰ الناس يتخذونها سنَّة، إذا غُيِّرت، قيل: غُيِّرت السنة انتهىٰ.

ولخوف الفتنة، نهىٰ عمر رضي الله عنه عن تتبُّع آثار النبي ﷺ:

قال ابنُ وضَّاح: سمعتُ عيسىٰ بن يُونس، يقول: أمر عمرُ بن الخطاب بقطع الشجرة التي بُويع تحتها النبي ﷺ [1]. فقطعها؛ لأن النَّاس كانوا يذهبون فيصلُّون تحتها، فخاف عليهم الفتنة.

وقال المعرور بن سُويد: صلَّيتُ مع عمر بن الخطاب بطريق مكة، صلاة الصبح. ثم رأىٰ الناس يذهبون مذاهب، فقال: أين يذهبُ هؤلاء؟ فقيل: يا أمير المؤمنين، مسجدٌ صلَّىٰ فيه النبيُّ ﷺ فهم يُصلُّون فيه. فقال: إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا؛ كانوا يتَّبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعًا. فمن أدركته الصلاةُ في هذه المساجد، فليصلّ. ومن لا، فليمض ولا يتعمَّدها.

وفي (مغازي) ابن إسحاق، من زيادات يُونس بن بُكير، عن أبي خَلْدة خالد بن دينار، حدَّثنا أبو العالية، قال: لما فتحنا تُسْتَر، وجدنا في بيت مال الهُرمزان سريرًا عليه رجلٌ ميت، عند رأسه مصحف. فأخذنا المصحف فحملناه إلىٰ عمر، فدعا له كعبًا فنسخه بالعربية، فأنا أوَّلُ رجلٍ قرأه من العرب.

قرأته مثل ما أقرأ القرآن. فقلت: لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيرتُكم وأموركم ولحون كلامكم، وما هو كائنٌ بعدُ. قلت: فما صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبرًا متفرقة. فلما كان بالليل دفناه، وسوَّينا القبور كلها لِنُعمِّيه علىٰ الناس لا ينبشونه. قلت: وما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون، فقلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجلٌ يقال له: دانيال، فقلت: منذ كم وجدتموه مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة.

وقوله: «يُعبد»: صفة لوثن، وهي صفة كاشفة؛ لأن الوثن هو الذي يعبد من دون اللَّه.

وإنما سأل النبي ﷺ ذلك لأن من كان قبلنا جعلوا قبور أنبيائهم مساجد وعبدوا صالحيهم، فسأل النبي ﷺ ربه أن لا يجعل قبره وثنًا يعبد؛ لأن دعوته كلها بالتوحيد ومحاربة الشرك.

---

(١) كان ذلك في صلح الحديبية. وهي الشجرة التي ذكرها الله تعالى في سورة الفتح ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] وذلك حين أشاع الناس أن عثمان بن عفان قتلته قريش حين بعثه النبي ﷺ سفيرًا بينه وبين قريش، فقال: لا نبرح حتى نناجز القوم، ودعا رسول الله إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان على الموت، وكان المبايعون ألفًا وأربعمائة، ثم أتى رسول الله أن الذي كان من أمر عثمان باطل. والقصة رواها البخاري ومسلم وغيرهما من أصحاب السير والمغازي.(ق).

. . . .

قلت: ما كان تغيَّر منه شيء؟ قال: لا، إلاَّ شُعيرات من قفاه. إنَّ لحوم الأنبياء لا تُبليها الأرض[1][2].

قال ابنُ القيم: ففي هذه القصة، ما فعله المهاجرون والأنصار من تَعْمية قبره؛ لئلاَّ يُفتتن به. ولم يُبرزُوه للدعاء عنده والتبركِ به، ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف، ولعبدوه من دون الله.

قال شيخُ الإسلام: وهو إنكارٌ منهم لذلك، فمن قصد بقعةً يرجو الخير بقصدها ولم يستحب الشارعُ قصدها فهو من المنكرات، وبعضه أشدّ من بعض. سواءٌ قصدها ليصلِّي عندها أو ليدعو عندها، أو ليقرأ عندها، أو ليذكر الله عندها، أو لينسُك عندها. بحيثُ يخصُّ تلك البقعة بنوع من العبادة التي لم يُشرع تخصيصُها به، لا نوعًا ولا عينًا.

إلاَّ أنَّ ذلك قد يجوزُ بحكم الاتفاق، لا لقصد الدعاء فيها. كمن يزورها ويسلِّمُ عليها، ويسألُ الله العافية له وللموتى، كما جاءت السنة به.

وأمَّا تحري الدعاء عندها، بحيثُ يستشعر أنَّ الدعاء هناك أجْوَبُ منه في غيره، فهذا هو المنهي عنه. انتهى مُلخصًا.

قوله: «اشتد غضبُ الله على قوم اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»: ففيه تحريمُ البناء على القبور، وتحريمُ الصلاة عندها، وأنَّ ذلك من الكبائر.

وفي (القِرَى) للطبري[3]: عن أصحاب مالك، عن مالك، أنَّه كره أنْ يقول: زرتُ قبرَ النبي ﷺ. وعلَّل ذلك، بقوله ﷺ: **«اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد»**[4] الحديث. كره إضافة هذا اللفظ إلى

قوله: «اشتد»: أي: عَظُمَ.

قوله: «غضب الله»: صفة حقيقية ثابتة لله ـ عز وجل ـ لا تماثل غضب المخلوقين لا في الحقيقة ولا في الأثر، وقال أهل التأويل: غضب الله: هو الانتقام ممن عصاه، وبعضهم يقول: إرادة الانتقام ممن عصاه.

---

(١) ذكرها الطبري (ج ٤ ص٢٢٠) في حوادث سنة ١٧قال: قيل لأبي سبرة هذا جسد دانيال في هذه المدينة. قال: وما لنا بذلك؟ فأقره بأيديهم- ثم ذكر خبر دانيال وسبي بختنصر له من بيت المقدس وموته بالسوس؛ فكان هنالك يستسقى بجسده، فلما فتحها المسلمون أتوا به فأقروه في أيديهم؛ حتى إذا ولى أبو سبرة عنهم إلى جندي سابور أقام أبو موسى بالسوس وكتب إلى عمر فيه إلخ القصة. وقد ذكرها أبو عبيد في الأموال (ص٣٤٣ رقم ٨٧٦) عن قتادة قال: (لما فتحت السوس وعليهم أبو موسى الأشعري وجدوا دانيال في أبرن، وإذا إلى جانبه مال موضوع وكتاب فيه: من شاء أتى فاستقرض منه إلى أجل، فإن أتى به إلى ذلك الأجل وإلا برص. فكتب إليه عمر: كفنه وحنطه وصل عليه ثم ادفنه كما دفنت الأنبياء صلوات الله عليهم. وانظر ماله فاجعله في بيت مال المسلمين. قال: فكفنه في قباطي بيض وصلى عليه ودفنه) وقال البلاذري ص ٣٧١: (ورأى أبو موسى في قبلتهم بيتًا وعليه ستر فسأل عنه فقيل: إن فيه جثة دانيال النبي، فإنهم كانوا أقحطوا، فسألوا أهل بابل دفعه إليهم ليستسقوا به ففعلوا. وكان بختنصر سبى دانيال وأتى به إلى بابل فقبض بها. فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر أن كفنه وادفنه، فسكر أبو موسى نهرًا حتى إذا انقطع دفنه ثم أجرى الماء عليه). (ق).

(٢) أثر صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في فضائل الشام (ص١٨).

(٣) كتاب (القِرى لقاصد أم القُرى) تأليف المحب الطبري.

(٤) صحيح: وقد تقدم تخريجه.

. . . .

القبر؛ لئلا يقع التَّشبُّه بفعل أولئك؛ سداً للذريعة.

قال شيخُ الإسلام: ومالكٌ قد أدرك التابعين، وهم أعلمُ الناس بهذه المسألة، فدلَّ ذلك على أنَّه لم يكن معروفًا عندهم ألفاظُ زيارة قبر النبي ﷺ.

إلى أنْ قال: وقد ذكروا في أسباب كراهته أن يقول: زرتُ قبر النبي ﷺ؛ لأنَّ هذا اللفظ قد صار كثيرٌ من الناس يريد به الزيارة البدعية، وهي قصدُ الميت لسؤاله ودعائه، والرغبة إليه في قضاء الحوائج، ونحو ذلك مما يفعله كثيرٌ من الناس.

وهذا تحريف للكلام عن مواضعه؛ لأن النبي ﷺ لم يقل: انتقم اللّه، وإنما قال: اشتد غضب اللّه، وهو ﷺ يعرف كيف يُعَبِّر، ويعرف الفرق بين غضب اللّه وبين الانتقام، وهو أنصح الخلق وأعلم الخلق بربه، فلا يمكن أن يأتي بكلام وهو يريد خلافه؛ لأنه لو أتى بذلك لكان ملبّسًا، وحاشاه أن يكون كذلك؛ فالغضب غير الانتقام وغير إرادة الانتقام؛ فالغضب صفة حقيقية ثابتة للّه تليق بجلاله لا تماثل غضب المخلوق، لا في الحقيقة ولا في الأثر.

وهناك فروق بين غضب المخلوق وغضب الخالق، منها:

١ - غضب المخلوق حقيقته هو: غليان دم القلب، وجمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم حتى يفور، أما غضب الخالق، فإنه صفة لا تماثل هذا، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

٢ - أن غضب الآدمي يؤثر آثارًا غير محمودة؛ فالآدمي إذا غضب قد يحصل منه ما لا يحمد، فيقتل المغضوب عليه، وربما يطلق زوجته، أو يكسر الإناء، ونحو ذلك، أما غضب اللّه، فلا يترتب عليه إلا آثار حميدة لأنه حكيم؛ فلا يمكن أن يترتب على غضبه إلا تمام الفعل المناسب الواقع في محله.

فغضب اللّه ليس كغضب المخلوقين، لا في الحقيقة ولا في الآثار، وإذا قلنا ذلك؛ فلا نكون وصفنا اللّه بما يماثل صفات المخلوقين، بل وصفناه بصفة تدل على القوة وتمام السلطان؛ لأن الغضب يدل على قدرة الغاضب على الانتقام وتمام سلطانه؛ فهو بالنسبة للخالق صفة كمال، وبالنسبة للمخلوق صفة نقص.

ويدل على بطلان تأويل الغضب بالانتقام قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

فإن معنى ﴿آسَفُونَا﴾: أغضبونا فجعل الانتقام غير الغضب، بل أثرًا مترتبًا عليه؛ فدل هذا على بطلان تفسير الغضب بالانتقام.

واعلم أن كل من حرف نصوص الصفات عن حقيقتها وعما أراد اللّه بها ورسوله؛ فلا بد أن يقع في زلة ومهلكة. فالواجب علينا أن نسلم لما جاء به الكتاب والسنة من صفات اللّه على ما ورد إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل.

قوله: «اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»: أي: جعلوها مساجد؛ إما بالبناء عليها، أو بالصلاة عندها؛ فالصلاة عند القبور من اتخاذها مساجد، والبناء عليها من اتخاذها مساجد.

ولابن جرير بسنده، عن سُفيان، عن منصور، عن مجاهد ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩]، قال: كان يَلُتُّ لهم السَّويق[1] فمات، فعكفوا على قبره.

فهم يعنون بلفظ الزيارة: مثل هذا، وهذا ليس بمشروع باتفاق الأئمة. فكره مالكُ أنْ يتكلَّم بلفظٍ مجملٍ يدلُّ علىٰ معنىٰ فاسد، بخلاف الصلاة عليه والسلام، فإنَّ ذلك مما أمر الله به.

أمَّا لفظُ الزيارة في عموم القبور، فلا يُفهم منها مثل هذا المعنىٰ، ألا ترىٰ إلىٰ قوله: «**فزوروا القبور فإنَّها تذكركُم الآخرة**»[2] مع زيارته لقبر أمه. فإنَّ هذا يتناول قبور الكفار.

فلا يُفهم من ذلك: زيارة الميت لدعائه، وسؤاله والاستغاثة به، ونحو ذلك مما يفعله أهلُ الشرك والبدع. بخلاف ما إذا كان المزورُ معظَّمًا في الدين كالأنبياء والصالحين، فإنه كثيرًا ما يُعنىٰ بزيارة قبورهم هذه الزيارة البدعية الشركية. فلهذا كره مالك ذلك في مثل هذا، وإنْ لم يكره ذلك في موضع آخر، ليس فيه هذه المفسدة. انتهىٰ.

وفيه: أنَّ النبي ﷺ لم يستْعذ إلاَّ مما يُخاف وقوعه. ذكره المصنِّف رحمه الله تعالىٰ.

قال المُصنِّف رحمه الله تعالىٰ: ولابن جرير بسنده، عن سُفيان، عن منصور، عن مجاهد

وهذا معلوم بالضرورة من دين الإسلام، فعليك بهذا التفصيل الذي يحصل به الفرقان في هذا الباب المهم الذي حصل به من الاضطراب والفتنة ما حصل ولم ينج من فتنته إلا من عرف الحق واتبعه.

وهنا نسأل: هل استجاب اللَّه دعوة نبيه ﷺ بأن لا يجعل قبره وثنًا يُعبد، أم اقتضت حكمته غير ذلك؟

الجواب: يقول ابن القيم: إن اللَّه استجاب له؛ فلم يُذكر أن قبره ﷺ جُعل وثنًا، بل إنه حمي بثلاثة جدران؛ فلا أحد يصل إليه حتىٰ يجعله وثنًا يعبد من دون اللَّه، ولم يسمع في التاريخ أنه جعل وثنًا.

قال ابن القيم في «النونية»:

فأجاب رب العالمين دعاءه ... وأحاطه بثلاثة الجدران

صحيح أنه يوجد أناس يغلون فيه، ولكن لم يصلوا إلىٰ جعل قبره وثنًا، ولكن قد يعبدون الرسول ﷺ ولو في مكان بعيد، فإن وجد من يتوجه له ﷺ بدعائه عند قبره؛ فيكون قد اتخذه وثنًا، لكن القبر نفسه لم يجعل وثنًا.

قوله: «ولابن جرير»: هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري، الإمام المشهور في التفسير، توفي سنة ٣١٠هـ. وتفسيره: هو أصل التفسير بالأثر، ومرجع لجميع المفسرين بالأثر، ولا يخلو من بعض الآثار الضعيفة، وكأنه يريد أن يجمع ما روي عن السلف من الآثار في تفسير القرآن، ويدع للقارئ الحكم عليها بالصحة أو الضعف بحسب تتبع رجال السند، وهي طريقة جيدة من وجه، وليست جيدة من وجه آخر. فجيدة من جهة أنها تجمع الآثار الواردة حتىٰ لا تضيع، وربما تكون طرقها ضعيفة ويشهد بعضها لبعض. وليست جيدة من جهة أن القاصر بالعلم ربما يخلط الغث بالسمين ويأخذ بهذا

---

(١) السويق: دقيق الحنطة أو الشعير؛ ولته: بله بالماء أو السمن، والحاج: بمعنى الحجاج.(ق).

(٢) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في الأحكام (١٧٨- ١٨٩).

وكذا قـال أبو الجوزاء، عن ابن عبـاس: كان يلُتُّ السـويق للحاج[١].

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩] قال: كان يَلُتُّ لهم السَّويق فمات، فعكفوا على قبره:
وكذا قال أبو الجوزاء، عن ابن عباس: كان يلُتُّ السويق للحاج.
قوله: (ولابن جرير). هو الإمام الحافظُ، محمد بن جرير بن يزيد الطبري، صاحبُ (التفسير)

وهذا، لكن من عرف طريقة السند، وراجع رجال السند، ونظر إلىٰ أحوالهم وكلام العلماء فيهم؛ علم ذلك. وقد أضاف إلىٰ تفسيره بالأثر: التفسير بالنظر، ولا سيما ما يعود إلىٰ اللغة العربية، ولهذا دائمًا يرجح الرأي ويستدل له بالشواهد الواردة في القرآن وعن العرب.

ومن الناحية الفقهية؛ فالطبري مجتهد، لكنه سلك طريقة خالف غيره فيها بالنسبة للإجماع؛ فلا يعتبر خلاف الرجل والرجلين، وينقل الإجماع ولو خالف في ذلك رجل أو رجلان، وهذه الطريقة تؤخذ عليه؛ لأن الإجماع لا بد أن يكون من جميع أهل العلم المعتبرين في الإجماع، وقد يكون الحق مع هذا الواحد المخالف. والعجيب أني رأيت بعض المتأخرين يحذرون الطلبة من تفسيره؛ لأنه مملوء علىٰ زعمهم بالإسرائيليات، ويقولون: عليكم بـ«تفسير الكشاف» للزمخشري وما أشبه ذلك، وهؤلاء مخطئون؛ لأنهم لجهلهم بفضل التفسير والآثار عن السلف واعتزازهم بأنفسهم وإعجابهم بآرائهم صاروا يقولون هذا.

قوله: «عن سفيان»: إما سفيان الثوري، أو ابن عيينة، وهذا مبهم، والمبهم يمكن معرفته بمعرفة شيوخه وتلاميذه. وفي الشرح يقول: الظاهر أنه الثوري.

قوله: «عن مجاهد»: هو مجاهد بن جبر المكي، إمام المفسرين من التابعين، ذكر عنه أنه قال: «عرضت المصحف علىٰ عبد اللَّه بن عباس رضي اللَّه عنهما من فاتحته إلىٰ خاتمته؛ فما تجاوزت آية إلا وقفت عندها أسأله عن تفسيرها».

قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ﴾: الهمزة: للاستفهام، والمراد به التحقير، والخطاب لعابدي هذه الأصنام اللات والعزىٰ... إلخ. لما ذكر اللَّه تعالىٰ قصة المعراج وما حصل فيه من الآيات العظيمة التي قال عنها: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾؛ قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ﴾: أي: ما نسبة هذه الأصنام للآيات الكبيرة التي رآها النبي ﷺ ليلة المعراج.

قوله: ﴿اللاَّتَ﴾، «كان يلت لهم...» إلخ: علىٰ قراءة التشديد: من لتّ يلت فهو لاتّ. أما علىٰ قراءة التخفيف؛ فوجهها أنها خففت لتسهيل الكلام؛ أي: حذف منها التضعيف تخفيفًا. وقد سبق أنهم قالوا: إن اللات من الإله.

وأصله: رجل كان يلت السويق للحجاج، فلما مات؛ عظموه، وعكفوا علىٰ قبره، ثم جعلوه إلهًا، وجعلوا التسمية الأولىٰ مقترنة بالتسمية الأخيرة؛ فيكون أصله من لتّ السويق، ثم جعلوه من الإله، وهذا علىٰ قراءة التخفيف أظهر من التشديد؛ فالتخفيف يرجح أنه من الإله، والتشديد يرجح أن أصله رجل يلت السويق. وغلوا في قبره، وقالوا: هذا الرجل المحسن الذي يلت السويق للحجاج

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٨٥٩).

. . . .

و(التاريخ) وغيرهما. قال ابنُ خزيمة: لا أعلمُ على وجه الأرض أعلمَ من محمد بن جرير. وكان من المجتهدين، لا يقلِّدُ أحدًا. وله أصحابٌ يتفقهون على مذهبه، يأخذون بأقواله. ولد سنة أربع وعشرين ومائتين، ومات ليومين بقيا من شوال سنة عشرٍ وثلاثمائة.

قوله: (عن سُفيان)، الظاهر: أنَّه سفيان بن سعيد بن مسرُوق الثوري، أبو عبد الله الكوفي، ثقةٌ حافظٌ فقيه إمامٌ عابد. كان مجتهداً، وله أتباعٌ يتفقهون على مذهبه. مات سنة إحدىٰ وستين ومائة، وله أربعٌ وستون سنة.

قوله: (عن منصور). هو ابن المعتمر بن عبد الله السُّلمي، ثقةٌ ثبت فقيه. مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

قوله: (عن مُجاهد) هو ابنُ جَبْر بالجيم والموحَّدة أبو الحجاج المخزُومي مولاهم المكي، ثقةٌ إمامٌ في التفسير، أخذه عن ابن عباس وغيره. مات سنة أربع ومائة، قاله يحيىٰ القطَّان. وقال ابنُ حبان: مات سنة اثنتين أو ثلاث ومائة، وهو ساجد. ولد سنة إحدىٰ وعشرين، في خلافة عمر.

قوله: (كان يَلُتُّ لهم السَّويق، فمات فعكفوا على قبره): في رواية: فيُطعمُ من يمرُّ من الناس، فلما مات عبدوه، وقالوا: هو اللاَّت. رواه سعيدُ بنُ منصور. ومناسبتُه للترجمة: أنَّهم غلوا فيه لصلاحه حتىٰ عبدوه، وصار قبره وثنًا من أوثان المشركين.

قوله: (وكذا قال أبو الجوزاء): هو أوسُ بن عبد الله الرَّبعي، بفتح الراء والباء. مات سنة ثلاثٍ وثمانين.

ويطعمهم إياه، ثم بعد ذلك عبدوه؛ فصار الغلو في القبور يصيرها أوثانًا تعبد من دون اللَّه. وفي هذا التحذير من الغلو في القبور، ولهذا نهيَ عن تجصيصها والبناء عليها والكتابة عليها خوفًا من هذا المحظور العظيم الذي جعلها تعبد من دون اللَّه، وكان الرسول ﷺ يأمر إذا بعث بعثًا: بأن لا يدعوا قبرًا مشرفًا إلا سووه[1]؛ لعلمه أنَّه من طول الزمان سيقال: لولا أن له مزية ما اختلف عن القبور؛ فالذي ينبغي أن تكون القبور متساوية لا ميزة لواحد منها عن البقية.

قوله: «السويق»: هو عبارة عن الشعير يحمص، ثم يطحن، ثم يخلط بتمر أو شبهه، ثم يؤكل.

وقوله: «كان يلت لهم السويق، فمات، فعكفوا على قبره»، يعني: ثم عبدوه وجعلوه إلهًا مع اللَّه.

قوله: «وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: كان يلت السويق للحاج»: والغريب أن الناس في جاهليتهم يكرمون حجاج بيت اللَّه، ويلتون لهم السويق، وكان العباس أيضًا يسقي لهم من زمزم، وربما يجعل في زمزم نبيذًا يحليه زبيبًا أو نحوه، وفي الوقت الحاضر صار الناس بالعكس يستغلون الحجاج غاية الاستغلال ـ والعياذ باللَّه ـ؛ حتىٰ يبيعوا عليهم ما يساوي ريالاً بريالين وأكثر حسب ما يتيسر لهم، وهذا في الحقيقة خطأ عظيم؛ لأن اللَّه تعالىٰ يقول: ﴿**وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الحج: ٢٥]؛ فكيف بمن يفعل الإلحاد؟!

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٦٩)، وأبو داود (٣٢١٨)، والترمذي (١٠٤٩)، والنسائي (٢٠٣١)، وأحمد (٧٤٣، ١٠٦٧).

وعـن ابن عـبـاس، قـال: لعن رسـول الله ﷺ زائرات القـبـور، والمتـخـذين عـليـهـا المسـاجـد والسُّـرُج. رواه أهلُ السنن[١].

قال البخاري: حدَّثنا مسلم وهو ابنُ إبراهيم، حدَّثنا أبو الأشهب[٢]، حدَّثنا أبو الجوزاء، عن ابن عباس، قال: كان اللاَّتُ رجلاً يَلُتُّ سويق الحاج.

قال ابنُ خُزيمة: وكذا العُزَّىٰ، وكانت شجرةً عليها بناءٌ وأستار بنخلة، بين مكة والطائف، كانت قريشُ يعظِّمونها، كما قال أبو سفيان يوم أُحد: لنا العُزَّىٰ ولا عُزَّىٰ لكم.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن ابن عباس، قال: لعن رسولُ الله ﷺ زائراتِ القبور، والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج. رواه أهلُ السنن:

قلت: وفي الباب حديثُ أبي هريرة، وحديثُ حسَّان بن ثابت. فأمَّا حديثُ أبي هُريرة: فرواه أحمد، والترمذي وصحَّحه[٣]. وحديثُ حسَّان، أخرجه ابنُ ماجه، من رواية عبد الرحمن بن حسَّان ابن ثابت، عن أبيه، قال: لعن رسولُ الله ﷺ زوَّارات القبور[٤]. وحديثُ ابنُ عباس هذا: في إسناده أبو صالح مولىٰ أُم هانىء، وقد ضعَّفه بعضُهم ووثقه بعضهم[٥]. قال علي بن المديني، عن

قوله: «لعن»: اللعن: هو الطرد والإبعاد عن رحمة اللَّه، ومعنىٰ: «لعن رسول اللَّه ﷺ»؛ أي: دعا عليهم باللعنة.

قوله: «زائرات القبور»: زائرات: جمع زائرة، والزيارة هنا معناها: الخروج إلىٰ المقابر، وهي أنواع منها ما هو سنة، وهي زيارة الرجال للاتعاظ والدعاء للموتىٰ. ومنها ما هو بدعة، وهي

---

(١) ذكره العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (٢٢٥) وقال: ضعيف بهذا السياق والتمام، وقد جاء غالب هذا الحديث من طرق أخرى مشروحة في الكتاب ومعلق عليها منها: لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا من قبور أنبيائهم مساجد، زاد أحمد في رواته يحرم ذلك على أمته متواتر عنه ﷺ في الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة. (ق).

(٢) أبو الأشهب هو جعفر بن حيان التيمي السعدي العطاردي الحذاء الأعمى. مات سنة ١٦٥هـ. (ق).

(٣) أخرجه الترمذي من طريق عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة: (أن رسول الله ﷺ لعن زوارات القبور) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن حبان في صحيحه. قال الترمذي: وفي الباب عن عائشة وحسان بن ثابت. وحديث حسان بن ثابت رواه الإمام أحمد في مسنده أيضًا وروى ابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن عمرو وحديث فاطمة بنت رسول الله ﷺ في عزائها أهل ميت في ميتهم، فقال لها: «لعلك بلغت معهم الكدى؟» قالت: معاذ الله وقد سمعتك تذكر فيها ما تذكر. قال: «لو بلغت الكدى معهم ما رأيت الجنة حتى يراها جد أبيك». (ق).

(٤) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (١٧٧٠)، والإرواء (٣/ ٢٣٣).

(٥) وأبو صالح اسمه باذام، أو باذان. وقد صرح في هذا الحديث بالتحديث عن ابن عباس فانتفت تهمة التدليس؛ ثم قد حسن الترمذي هذا الحديث وإن كان الحافظ المنذري قد تعقبه عليه. وقال الحافظ ابن القيم في تهذيب سنن أبي داود في باب الكراهية اتخاذ القبور مساجد: وفي صحيح أبي حاتم عن أبي صالح عن ابن عباس قال: (لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج) قال أبو حاتم: أبوصالح هذا اسمه مهران ثقة. وليس بصاحب الكلبي. ذاك اسمه باذام. وقال الأشبيلي: هو باذام صاحب الكلبي. وهو عندهم ضعيف جدًا. وكان شيخنا أبو الحجاج المزي يرجح هذا أيضًا. (ق).

. . . .

يحيىٰ القطان: لم أر أحداً من أصحابنا ترك أبا صالح مولىٰ أم هانئ. وما سمعتُ أحداً من الناس يقول فيه شيئًا، ولم يتركه شُعبة، ولا زائدة، ولا عبد الله بن عثمان.

وقال ابنُ معين: ليس به بأس، ولهذا أخرجه ابن السَّكَن في (صحاحه). انتهىٰ من (الذهب الإبريز)، عن الحافظ المِزِّي.

قال شيخُ الإسلام: وقد جاء عن النبي ﷺ، من طريقين: فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ لعن زوّارات القبور. وذكر حديثَ ابن عباس، ثم قال: ورجالُ هذا ليس رجال هذا، فلم يأخذه أحدُهما عن الآخر، وليس في الإسنادين من يُتَّهم بالكذب، ومثلُ هذا حجةٌ بلا ريب. وهذا من أجود الحسن، الذي شرطه الترمذي؛ فإنه جعل الحسن: ما تعدَّدت طرقُه ولم يكن فيه مُتَّهم، ولم يكن شاذًا، أي: مُخالفًا لما ثبت بنقل الثقات. وهذا الحديثُ تعددت طرقُه، وليس فيها مُتهم، ولا خالفه أحدٌ من الثقات. هذا لو كان عن صاحب واحد، فكيف إذا كان هذا رواه عن صاحبٍ، وذاك عن آخر؟ فهذا كلُّه يُبيِّنُ أنَّ الحديث في الأصل معروف. والذين رخَّصوا في الزيارة، اعتمدوا علىٰ ما رُوي عن عائشة رضي الله عنها: أنها زارت قبر أخيها عبد الرحمن، وقالت: لو شهدتُك ما زُرتُك. وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الزيارة ليست مُستحبةً للنساء كما تُستحب للرجال، إذ لو كان كذلك لاستَحبَّت زيارته، سواء شهدته أم لا.

قلتُ: فعلىٰ هذا، فلا حُجَّةَ فيه لمن قال بالرُّخصة. وهذا السِّياقُ لحديث عائشة: رواه الترمذيُّ، من رواية عبد الله بن أبي مُلَيْكة، عنها، وهو يُخالف سياق الأثرم له، عن عبد الله بن أبي مُليكة أيضًا: أنَّ عائشة رضي الله عنها أقبلت ذاتَ يوم من المقابر. فقلتُ لها: يا أُمَّ المؤمنين، أليس نهىٰ رسولُ الله ﷺ عن زيارة القبور؟ فقالت: نعم!، نهىٰ عن زيارة القبور، ثم أمر بزيارتها.

زيارتهم للدعاء عندهم وقراءة القرآن ونحو ذلك. ومنها ما هو شرك، وهي زيارتهم لدعاء الأموات والاستنجاد بهم والاستغاثة ونحو ذلك.

وزائر: اسم فاعل يصدق بالمرة الواحدة، وفي حديث أبي هريرة: «**لعن رسول اللَّه ﷺ زورات القبور**»[1]؛ بتشديد الواو، وهي صيغة مبالغة تدل علىٰ الكثرة أي كثرة الزيارة.

قوله: «والمتخذين عليها المساجد»: هذا الشاهد من الحديث؛ أي: الذين يضعون عليها المساجد، وقد سبق أن اتخاذ المساجد له صورتان:

١ ـ أن يتخذها مصلى يصلي عندها. ٢ ـ بناء المساجد عليها.

قوله: «والسرج»: جمع سراج، توقد عليها السرج ليلاً ونهارًا تعظيمًا وغلواً فيها.

وهذا الحديث يدل علىٰ تحريم زيارة النساء للقبور، بل علىٰ أنه من كبائر الذنوب؛ لأن اللعن لا يكون إلا

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (١٠٥٦)، وابن ماجه (١٥٧٦)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الإرواء (٧٧٤)، وصحيح الجامع (٥١٠٩).

. . . .

فأجاب شيخُ الإسلام عنِ هذا، فقال: ولا حُجّة في حديث عائشة، فإنَّ المُحتجَّ عليها احتج بالنهي العام، فدفعت ذلك بأنَّ النهي منسوخ، ولم يَذكُر لها المُحتجُّ النهيَ الخاص بالنساء، الذي فيه لعنهن على الزيارة. يُبيِّنُ ذلك قولها: قد أمر بزيارتها. فهذا يبيِّنُ أنه أمرَ به أمرًا يقتضي الاستحباب، والاستحبابُ إنما هو ثابتٌ للرجال خاصة. ولو كانت تعتقدُ أنَّ النساء مأمورات بزيارة القبور، لكانت تفعلُ ذلك كما يفعلُه الرجال، ولم تقل لأخيها: لما زرتك. واللَّعنُ صريحٌ في التحريم، والخطابُ بالإذن في قوله: «فَزُورُوها» لم يتناول النساء، فلم يدخلن في الحكم الناسخ. والعامُّ إذا عُرف أنه بعد الخاص لم يكن ناسخًا له عند جمهور العلماء، وهو مذهبُ الشافعي، وأحمد في أشهر الروايتين عنه، وهو المعروفُ عند أصحابه. فكيف إذا لم يُعلم أنَّ هذا العام بعد الخاص؟ إذْ قد يكون قوله: «لعن الله زوَّارات القبور» بعد إذنه للرجال في الزيارة؛ يدلُّ على ذلك: أنَّه قرنه بالمتَّخذين عليها المساجد والسُّرُج؛ ومعلومٌ أنَّ اتخاذ المساجد والسرج المنهي عنه مُحكم؛ كما دلَّت عليه الأحاديثُ الصحيحة، وكذلك الآخر. والصحيح: أنَّ النساء لم يدخُلن في الإذن في زيارة القبور، لعدة أوجه:

أحدُها: أنَّ قوله ﷺ: «فزوروها» صيغةُ تذكير. وإنما يتناول النساء أيضًا على سبيل التغليب. لكن هذا فيه قولان، قيل: إنَّه يحتاجُ إلى دليل مُنفصل، وحينئذٍ فيحتاج تناول ذلك النساء إلى دليلٍ منفصل، وقيل: إنَّه يُحمل على ذلك عند الإطلاق. وعلى هذا: فيكونُ دخول النساء بطريق العموم ضعيف، والعامُّ لا يُعارضُ الأدلة الخاصة ولا ينسخها عند جمهور العلماء. ولو كان النساءُ داخلات في هذا الخطاب لاستُحبَّ لهن زيارة القبور، وما علمنا أحدًا من الأئمة استحبَّ لهن زيارة القبور، ولا كان النساء على عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين خرجن إلى زيارة القبور.

على كبيرة، ويدل على تحريم اتخاذ المساجد والسرج عليها، وهو كبيرة من كبائر الذنوب للعن فاعله.

المناسبة للباب: أن اتخاذ المساجد عليها وإسراجها غلو فيها؛ فيؤدي بعد ذلك إلى عبادتها.

مسألة: ما هي الصلة بين الجملة الأولى: «زائرات القبور»، والجملة الثانية: **«المتخذين عليها المساجد والسرج»**؟

الجواب: الصلة بينهما ظاهرة: هي أن المرأة لرقة عاطفتها وقلة وتميزها وضعف صبرها ربما تعبد أصحاب القبور تعطفًا على صاحب القبر؛ فلهذا قرنها بالمتخذين عليها المساجد والسرج.

مسألة: وهل يدخل في اتخاذ السرج على المقابر ما لو وضع فيها مصابيح كهرباء لإنارتها؟

الجواب: أما في المواطن التي لا يحتاج الناس إليها، كما لو كانت المقبرة واسعة وفيها موضع قد انتهى الناس من الدفن فيه؛ فلا حاجة إلى إسراجه، فلا يسرج، أما الموضع الذي يقبر فيه فيسرج ما حوله فقد يقال بجوازه؛ لأنها لا تسرج إلا بالليل؛ فليس في ذلك ما يدل على تعظيم القبر، بل اتخذ الإسراج للحاجة. ولكن الذي نرى أنه ينبغي المنع مطلقًا للأسباب الآتية.

١ - أنه ليس هناك ضرورة.

. . . .

ومنها: أنَّ النبي ﷺ علَّل الإذن للرجال، بأنَّ ذلك «**يذكِّرُ الموت، ويرقِّقُ القلب، وتدمع العين**» هكذا في (مُسند أحمد). ومعلومٌ أنَّ المرأة إذا فُتح لها هذا الباب أخرجها إلى الجزع والندب والنياحة؛ لما فيها من الضَّعف وقلة الصبر. وإذا كانت زيارة النساء مَظنّةً وسببًا للأمور المحرَّمة، فإنه لا يُمكن أنْ يُحدَّد المقدار الذي لا يُفضي إلى ذلك، ولا التمييز بين نوع ونوع.

ومن أصول الشريعة: أنَّ الحكمة إذا كانت خفيَّةً أو مُنتشرة عُلِّق الحكمُ بمظنتها. فيحرمُ هذا الباب سدًّا للذريعة، كما حُرِّم النظرُ إلى الزينة الباطنة، وكما حُرِّم الخلوة بالأجنبية وغير ذلك. وليس في ذلك من المصلحة ما يُعارض هذه المفسدة، فإنَّه ليس في ذلك إلاَّ دعاؤها للميت. وذلك ممكنٌ في بيتها.

ومن العُلماء من يقول: التَّشْييعُ كذلك، ويحتجُّ بقوله ﷺ: «**ارجعن مأزورات غير مأجورات، فإنكن تَفتنَّ الحي وتُؤذين الميت**»[1] وقوله لفاطمة: «**أمَا إنَّك لو بلغت معهم الكُدَى لم تدخُلي الجنة**»[2]. يؤيِّدُه: ما ثبت في (الصحيحين)؛ من أنَّه نهى النساء عن اتباع الجنائز[3]، ومعلومٌ أنَّ قوله ﷺ «**من صلَّى على جنازة فله قيراط، ومن تبعها حتى تُدفن فله قيراطان**»[4] هو أدلُّ على العموم من

---

٢ - أن الناس إذا وجدوا ضرورة لذلك؛ فعندهم سيارات يمكن أن يوقدوا الأنوار التي فيها ويتبين لهم الأمر، ويمكنهم أن يحملوا سراجًا معهم.

٣ - أنه إذا فتح هذا الباب؛ فإن الشر سيتسع في قلوب الناس ولا يمكن ضبطه فيما بعد، فلو فرضنا أنهم جعلوا الإضاءة بعد صلاة الفجر ودفنوا الميت؛ فمن الذي يتولى قفل هذه الإضاءة؟

الجواب: قد تترك، ثم يبقى كأنه متخذ عليها السرج؛ فالذي نرى أنه يمنع نهائيًا.

أما إذا كان في المقبرة حجرة يوضع فيها اللبن ونحوه؛ فلا بأس بإضاءتها لأنها بعيدة عن القبور، والإضاءة داخلة لا تشاهد؛ فهذا نرجوا أن لا يكون به بأس. والمهم أن وسائل الشرك يجب على الإنسان أن يبتعد عنها ابتعادًا عظيمًا، ولا يقدر للزمن الذي هو فيه الآن، بل يقدر للأزمان البعيدة؛ فالمسألة ليست هينة. وفي الحديث ما يدل على تحريم زيارة النساء للقبور، وأنها من كبائر الذنوب، والعلماء اختلفوا في ذلك على ثلاثة أقوال:

القول الأول: تحريم زيارة النساء للقبور؛ بل إنها من كبائر الذنوب؛ لهذا الحديث.

القول الثاني: كراهة زيارة النساء للقبور كراهة لا تصل إلى التحريم، وهذا هو المشهور من مذهب أحمد عن أصحابه؛ لحديث أم عطية: «**نهينا عن اتباع الجنائز، ولم يعزم علينا**»[5].

---

(١) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (٢٧٤٢).

(٢) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في ضعيف أبي داود (٦٨٤)، وضعيف النسائي (١١٣).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٣١٣) ومواضع، ومسلم (٩٣٨).

(٤) صحيح: رواه البخاري (٤٧) ومواضع، ومسلم (٩٤٥).

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٧٨)، ومسلم (٩٣٨)، وأبو داود (٣١٦٧)، وابن ماجه (١٥٧٧)، وأحمد (٢٦٧٥٨).

. . . .

صيغة التذكير؛ فإن لفظ: مَن، يتناولُ الرجالَ والنساء باتفاق الناس، وقد عُلم بالأحاديث الصحيحة أنَّ هذا العموم لم يتناول النساء لنهي النبي ﷺ لهن عن اتباع الجنائز. فإذا لم يدخُلن في هذا العموم، فكذلك في ذلك بطريق الأولىٰ. انتهىٰ ملخصًا.

قلتُ: وعمَّا استدلَّ به القائلون بالنسخ أجوبةٌ أيضًا:

منها: أنَّ ما ذكروه عن عائشة وفاطمة رضي الله عنهما معارضٌ بما ورد عنهما في هذا الباب، فلا يثبتُ به نسخ.

ومنها: أنَّ قول الصحابي وفعله ليس حجةً علىٰ الحديث، بلا نزاع. وأمَّا تعليمهُ عائشة كيف تقول إذا زارت القبور ونحو ذلك، فلا يدلُّ علىٰ نسخ ما دلَّت عليه الأحاديثُ الثلاثة من لعن زائرات القبور؛ لاحتمال أنْ يكون ذلك قبل هذا النهي الأكيد والوعيد الشديد. والله أعلم.

القول الثالث: أنها تجوز زيارة النساء للقبور؛ لحديث المرأة: أنه ﷺ مر بامرأة وهي تبكي عند القبر، فقال لها: «**اتقي اللَّه واصبري**». فقالت له: إليك عني؛ فإنك لم تصب بمثل مصيبتي. فانصرف الرسول ﷺ عنها، فقيل لها: هذا رسول اللَّه ﷺ. فجاءت إليه تعتذر؛ فلم يقبل عذرها، وقال: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»[(١)]؛ فالنبي ﷺ شاهدها عند القبر ولم ينهها عن الزيارة، وإنما أمرها أن تتقي اللَّه وتصبر. ولما ثبت في «صحيح مسلم»[(٢)] من حديث عائشة الطويل، وفيه: أن النبي ﷺ خرج إلىٰ أهل البقيع في الليل، واستغفر لهم ودعا لهم، وأن جبريل أتاه في الليل وأمره، فخرج ﷺ مختفيًا عن عائشة، وزار ودعا ورجع، ثم أخبرها الخبر؛ فقالت: ما أقول لهم يا رسول اللَّه؟ قال: «**قولي: السلام عليكم يا أهل الديار من المؤمنين والمسلمين...**» إلخ.

قالوا: فعلَّمها النبي ﷺ دعاء زيارة القبور، وتعليمه هذا دليل علىٰ الجواز.

ورأيت قولاً رابعًا: أن زيارة النساء للقبور سنة كالرجال؛ لقوله ﷺ: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور؛ فزوروها؛ فإنها تذكِّركم الآخرة**»[(٣)]، وهذا عام للرجال والنساء. ولأن عائشة رضي اللَّه عنها زارت قبر أخيها، فقال لها عبد اللَّه بن أبي مليكة: أليس النبي ﷺ قد نهىٰ عن زيارة القبور؟ قالت: إنه أمر بها بعد ذلك[(٤)]. وهذا دليل علىٰ أنه منسوخ.

والصحيح القول الأول، ويجاب عن أدلة الأقوال الأخرىٰ: بأن الصريح منها غير صحيح، والصحيح غير صريح، فمن ذلك.

أولاً: دعوىٰ النسخ غير صحيحة؛ لأنها لا تقبل إلا بشرطين:

١ ـ تعذر الجمع بين النصين، والجمع هنا سهل وليس بمتعذر؛ لأنه يمكن أن يقال: إن الخطاب في قوله: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور؛ فزوروها**» للرجال، والعلماء اختلفوا فيما إذا خوطب الرجال

---

(١) صحيح: وقد تقدم. (٢) صحيح: رواه مسلم (٩٧٤)، والنسائي (٢٠٣٧)، وأحمد (٢٥٣٢٧).
(٣) صحيح: وقد تقدم. (٤) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في تلخيص أحكام الجنائز ص (٧٩).

. . . .

قال محمدُ بن إسماعيل في كتاب (تطهير الاعتقاد): والمشاهدُ التي صارت أعظم ذريعةٍ إلىٰ الشرك والإلحاد، غالبُ من يعمرُها الملوكُ والسلاطين: إمَّا علىٰ قريبٍ لهم، أو علىٰ من يُحسنون الظنَّ فيه من فاضلٍ أو عالم. ويزوره الناسُ الذين يعرفونه، زيارةَ الأموات من دون توسلٍ به ولا هتفٍ باسمه، بل يدعون له ويستغفرون. حتىٰ ينقرض من يعرفُه أو أكثرهم، فيأتي مَنْ بعدهم من يرىٰ قبراً قد شُيِّد عليه البناء، وسرُجت عليه الشموع، وفُرش بالفراش الفاخر. فيعتقد أنَّ ذلك لنفع أو دفع ضر، وتأتيه السدنةُ يكذبون علىٰ الميت بأنه فعل وفعل، وأنزل بفلانٍ الضر وبفلان النفع، حتىٰ يغرسوا في جبلَّته كلَّ باطل. والأمرُ ما ثبت في الأحاديث النبوية من لعن[1] من سرج القبور وكتب عليها وبنىٰ عليها، وأحاديثُ ذلك واسعةٌ معروفة؛ فإنَّ ذلك في نفسه منهيٌّ عنه، ثم هو ذريعةٌ إلىٰ مفسدةٍ عظيمة. انتهىٰ. ومنه تعلم مطابقة الحديثِ للترجمة. والله أعلم.

بحكم: هل يدخل فيه النساء أو لا؟ وإذا قلنا بالدخول ـ وهو الصحيح ـ؛ فإن دخولهن في هذا الخطاب من باب دخول أفراد العام في العموم، وعلىٰ هذا يجوز أن يخصص بعض أفراد العام بحكم يخالف العام، وهنا نقول: قد خص النبي ﷺ النساء من هذا الحكم، فأمره بالزيارة للرجال فقط؛ لأن النساء أخرجن بالتخصيص من هذا العموم بلعن الزائرات، وأيضًا مما يبطل النسخ قوله: **«لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج»**[2]، ومن المعلوم أن قوله: **«والمتخذين عليها المساجد والسرج»**، لا أحد يدعي أنه منسوخ، والحديث واحد؛ فادعاء النسخ في جانب منه دون آخر غير مستقيم، وعلىٰ هذا يكون الحديث محكمًا غير منسوخ.

٢ ـ العلم بالتأريخ، وهنا لم نعلم التأريخ؛ لأن النبي ﷺ لم يقل: كنت لعنت من زار القبور، بل قال: **«كنت نهيتكم»**، والنهي دون اللعن. وأيضًا؛ فإن قوله: **«كنت نهيتكم»** خطاب للرجال، ولعن زائرات القبور خطاب للنساء، فلا يمكن حمل خطاب الرجال علىٰ خطاب النساء، إذًا؛ فالحديث لا يصح فيه دعوىٰ النسخ.

وثانيًا: وأما الجواب عن حديث المرأة وحديث عائشة؛ فإن المرأة لم تخرج للزيارة قطعًا، لكنها أصيبت، ومن عظم المصيبة عليها لم تتمالك نفسها لتبقىٰ في بيتها، ولذلك خرجت وجعلت تبكي عند القبر مما يدل علىٰ أن في قلبها شيئًا عظيمًا لم تتحمله حتىٰ ذهبت إلىٰ ابنها وجعلت تبكي عند قبره ولهذا أمرها ﷺ أن تصبر؛ لأنه علم أنها لم تخرج للزيارة، بل خرجت لما في قلبها من عدم تحمل هذه الصدمة الكبيرة؛ فالحديث ليس صريحًا بأنها خرجت للزيارة، وإذا لم يكن صريحًا؛ فلا يمكن أن يعارض الشيء

---

(١) يعني أنه لما قرن بذلك الدعاء اتخاذ القبور مساجد علم أن اتخاذها مساجد ذريعة إلى اتخاذها أوثانًا. (ق).

(٢) ضعيف: رواه أبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، والنسائي (٢٠٤٣)، وابن ماجه (١٥٧٥)، وأحمد (٢٠٣١) ومواضع، وضعفه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (٢٢٥) وقال: ضعيف بهذا السياق والتمام وقد جاء غالب هذا الحديث من طرق أخرى مشروحة في الكتاب ومعلق عليها منها **«لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا من قبور أنبيائهم مساجد»** زاد أحمد في رواته يحرم ذلك على أمته متواتر عنه ﷺ في الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة. اهـ.

. . . .

قوله: (والمتَّخذين عليها المساجد): تقدَّم شرحُه في الباب قبله.
قوله: (والسُّرُج): قال أبو محمد المقدسي: لو أبيح اتخاذُ السرج عليها لم يُلعن من فعله؛ لأنَّ فيه تضييعًا للمال في غير فائدة، وإفراطًا في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام.
وقال ابنُ القيم رحمه الله تعالى: اتخاذها مساجد وإيقادُ السرج عليها من الكبائر[1].
قوله: (رواه أهلُ السُّنن): يعني أبا داود، والترمذي، وابن ماجه، فقط، ولم يروه النسائي.

الصريح بشيء غير صريح. وأما حديث عائشة؛ فإنها قالت للرسولﷺ: « **ماذا أقول؟ فقال: قولي: السلام عليكم**»[2]؛ فهل المراد أنها تقول ذلك إذا مرت، أو إذا خرجت زائرة؟ فهو محتمل؛ فليس فيه تصريح بأنها إذا خرجت زائرة، إذ من الممكن أن يراد به إذا مرت بها من غير خروج للزيارة، وإذا كان ليس صريحًا؛ فلا يعارض الصريح. وأما فعلها مع أخيها رضي اللّه عنهما؛ فإن فعلها مع أخيها لم يستدل عليها عبد اللّه ابن أبي مليكة بلعن زائرات القبور، وإنما استدل عليها بالنهي عن زيارة القبور مطلقًا؛ لأنه لو استدل عليها بالنهي عن زيارة النساء للقبور أو بلعن زائرات القبور؛ لكنا ننظر بماذا ستجيبه.

فهو استدل عليها بالنهي عن زيارة القبور، ومعلوم أن النهي عن زيارة القبور كان عامًا، ولهذا أجابته بالنسخ العام، وقالت: إنه قد أمر بذلك، ونحن ـ وإن كنا نقول: إن عائشة رضي اللّه عنها استدلت بلفظ العموم؛ فهي كغيرها من العلماء لا يعارض بقولها قول الرسولﷺ، على أنه روي عنها؛ أنها قالت: « **لو شهدتك ما زرتك**»، وهذا دليل على أنها رضي اللّه عنها خرجت لتدعو له؛ لأنها لم تشهد جنازته، لكن هذه الرواية طعن فيها بعض العلماء، وقال: إنها لا تصح عن عائشة رضي اللّه عنها، لكننا نبقى على الرواية الأولى الصحيحة؛ إذ ليس فيها دليل على أن الرسولﷺ نسخه، وإذا فهمت هي ذلك؛ فلا يعارض بقولها قول الرسولﷺ.

إشكال وجوابه: في قوله: « زوارات القبور»: ألا يمكن أن يحمل النهي على تكرار الزيارة؛ لأن «زوارات» صيغة مبالغة؟

الجواب: هذا ممكن، لكننا إذا حملناه على ذلك؛ فإننا أضعنا دلالة المطلق «زائرات».

والتضعيف قد يحمل على كثرة الفاعلين لا على كثرة الفعل؛ فـ« زوارات» يعني: النساء إذا كن مائة كان فعلهن كثيرًا، والتضعيف باعتبار الفاعل موجود في اللغة العربية، قال تعالى: ﴿ **جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ**﴾ [ص: ٥٠]، فلما كانت الأبواب كثيرة كان فيها التضعيف؛ إذ الباب لا يفتح إلا مرة واحدة، وأيضًا قراءة: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وفتِّحَتْ**﴾ [الزمر: ٧٣]؛ فهي مثلها.

فالراجح تحريم زيارة النساء للمقابر، وأنها من كبائر الذنوب.

وانظر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في« مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٣٤٣).

---

(١) وقد عده ابن حجر الهيثمي في الكبائر أيضًا. (ق).
(٢) صحيح: وقد تقدم.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الأوثان. **الثانية: تفسير العبادة.**

الثالثة: أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه.

الرابعة: قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد[1]. **الخامسة: ذكر شدة الغضب من الله.**

السادسة: وهي من أهمها: معرفة صفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان.

السابعة: معرفة أنه قبر رجل صالح.

الثامنة: أنه اسم صاحب القبر، وذكر معنى التسمية.

التاسعة: لعنه زَوَّارَات القبور. **العاشرة: لعنه من أسرجها.**

* * *

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الأوثان: وهي: كل ما عُبد من دون اللَّه، سواء كان صنمًا أو قبرًا أو غيره.

الثانية: تفسير العبادة: وهي التذلل والخضوع للمعبود خوفًا ورجاءً ومحبة وتعظيمًا؛ لقوله: **«لا تجعل قبري وثنًا يعبد»**.

الثالثة: أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يُخاف من قوعه: وذلك في قوله: **«اللَّهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد»**.

الرابعة: قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد: وذلك في قوله: **«اشتد غضب اللَّه على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**.

الخامسة: ذكر شدة الغضب من اللَّه: تؤخذ من قوله: **«اشتد غضب اللَّه»**.

وفيه: إثبات الغضب من الله حقيقة، لكنه كغيره من صفات الأفعال التي نعرف معناها ولا نعرف كيفيتها. وفيه أنه يتفاوت كما ثبت في الحديث الصحيح حديث الشفاعة: **«إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب مثله قبله ولا بعده»**.

السادسة ـ وهي من أهمها ـ: معرفة صفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان: وذلك في قوله: **«فمات، فعكفوا على قبره»**.

السابعة: معرفة أنه قبر رجل صالح: تؤخذ من قوله: **«كان يلت لهم السويق»**؛ أي: للحجاج؛ لأنه معظم عندهم، والغالب أن لا يكون معظمًا إلا صاحب دين.

الثامنة: أنه اسم صاحب القبر، وذكر معنى التسمية: وهو أنه كان يلت السويق.

التاسعة: لعنه زوَّرات القبور: أي: النبي ﷺ، وذكر رحمه الله لفظ: **«زورات القبور»** مراعاة للَّفظ الآخر.

العاشرة: لعنه من أسرجها: وذلك في قوله: **«والمتخذين عليها المساجد والسرج»**.

---

(١) في تطهير الاعتقاد: ولهذا الأمر ثبت في الأحاديث النبوية اللعن على من أسرج القبور. . . .إلخ. (ق).

٢١- بـاب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

قال المصنف رحمه الله تعالى: بـاب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد، وسده

باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

(حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك) من تأمل نصوص الكتاب والسنة في هذا الباب رأى نصوصًا كثيرة تحث على القيام بكل ما يقوي التوحيد وينميه ويغذيه من الحث على

وهنا مسألة مهمة لم تذكر، وهي: أنَّ الغلو في قبور الصالحين يُصيرها أوثانًا كما في قبر اللات، وهذه من أهم الوسائل، ولم يذكرها المؤلف رحمه الله، ولعلَّه اكتفى بالترجمة عن هذه المسألة بما حصل للات، فإذا قيل بذلك؛ فله وجه.

مسـألة: المرأة إذا ذهبت للروضة في المسجد النبوي لتصلي فيها، فالقبر قريب منها، فتقف وتسلم، ولا مانع فيه. والأحسن البعد عن الزحام ومخالطة الرجال، ولئلا يظن من يشاهدها أن المرأة يجوز لها قصد الزيارة؛ فيقع الإنسان في محذور، وتسليم المرء على النبي ﷺ يبلغه حيث كان.

قـوله: «المصطفى»: أصلهـا: المصـتفى، من الصفـوة، وهو خيـار الشيء؛ فـالنبي ﷺ أفـضل المصطفين؛ لأنه أفضل أولي العـزم من الرسل، والرسل هـم المصطفـون، والمراد به: محـمـد ﷺ، والاصطفاء على درجات أعلاها اصطفاء أولي العزم من الرسل، ثم اصطفاء الرسل، ثم اصطفاء الأنبياء، ثم اصطفاء الصديقين، ثم اصطفاء الشهداء، ثم اصطفاء الصالحين.

قوله: «حماية»: من حمى الشيء، إذا جعل له مانعًا يمنع من يقرب حوله، ومنه حماية الأرض عن الرعي فيها، ونحو ذلك.

قوله: «جناب»: بمعنى جانب، والتوحيد: تفعيل من الوحدة، وهو إفراد الله تعالى بما يجب له من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

قوله: «وسده كل الطريق»: أي: مع الحماية لم يدع الأبواب مفتوحة يلج إليها من شاء، ولكنه سدَّ كل طريق يوصل إلى الشرك؛ لأن الشرك أعظم الذنوب.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

قال شيخ الإسلام ابـن تيمية[(١)]: الشرك الأصغر لا يغفره الله؛ لعموم قوله: ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾،

(١) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتـاوى فصل في كل من تاب من أي ذنب كان فإن الله يتوب عليه فقال رحمه الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾، وهذا في حق من لم يتب، فالشرك لا يغفره الله، وما دون الشرك أمره إلى الله إن شاء عـاقب عليه، وإن شاء عـفا عنه. ومن الشرك أن يدعـو العبد غـير الله، كمن يستغيث في المخـاوف والأمراض والفاقات بالأموات، والغائبين. فيقول: يا سيدي الشيخ فلان، لشيخ ميت أو غائب، فيستغيث به، ويستوصيه، ويطلب منه ما يطلب من الله من النصر والعافية فإن هذا من الشرك الذي حرمه الله ورسوله باتفاق المسلمين. اهـ.

وقول الله تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)

كل طريق يوصل إلى الشرك.

الجناب: هو الجانب، والمراد حمايته عما يقرب إليه أو يخالطه من الشرك وأسبابه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قال ابن كثير: يقول تعالى ممتنًا على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم، أي: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] أي: منكم، كما قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولا منا، نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته، وذكر الحديث.

وقال سفيان بن عيينة، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية[1].

الإنابة إلى الله وانحصار تعلق القلب بالله رغبة ورهبة وقوة الطمع بفضله وإحسانه والسعي لتحصيل ذلك وإلى التحرر من رق المخلوقين وعدم التعلق بهم بوجه من الوجوه أو الغلو في أحد منهم والقيام التام بالأعمال الظاهرة والباطنة وتكميلها وخصوصًا حث النصوص على روح العبودية وهو الإخلاص التام لله وحده.

وعلى هذا فجميع الذنوب دونه لقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ فيشمل كبائر الذنوب وصغارها، فالشرك ليس بالأمر الهين الذي يتهاون به، فالشرك يفسد القلب والقصد، وإذا فسد القصد فسد العمل؛ إذ العمل مبناه على القصد، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦]. وقال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»[2].

إذًا فالرسول ﷺ حمى جانب التوحيد حماية محكمة، وسد كل طريق يوصل إلى الشرك ولو من بعيد؛ لأن من سار على الدرب وصل، والشيطان يزين للإنسان أعمال السوء شيئًا فشيئًا حتى يصل إلى الغاية.

قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: الجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم، واللام، وقد، وهي مؤكدة لجميع مدخولها بأنه رسول، وأنه من أنفسهم، وأنه عزيز عليه ما يشق علينا، وأنه

---

(١) ثم ذكر ابن كثير الحديث «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح» وقد وصل هذا من وجه آخر. كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي في كتابه المحدث الفاصل بين الراوي والواعي. وقد استدل بعض الجاهلين بهذا الحديث على إيمان آباء النبي ﷺ وهذا من عظيم جهلهم. فليس فيه أي دليل. لأن في البخاري من حديث عائشة أنهم كانوا في الجاهلية لهم نكاح هو نكاح الناس اليوم.(ق).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨، ١٢٩].

وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته، ويشق عليها[(١)]؛ ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه، أنه قال: «**بعثت بالحنيفية السمحة**»[(٢)] وفي الصحيح: «**إن هذا الدين يسر**»[(٣)] وشريعته كلها سمحة سهلة كاملة، يسيرة على من يسرها الله عليه.

قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على هدايتكم، ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم.

وعن أبي ذر[(٤)]، قال: تركنا رسول الله ﷺ، وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علمًا[(٥)].

أخرجه الطبراني، قال[(٦)]: قال رسول الله ﷺ: «**ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بينته لكم**»[(٧)].

بالمؤمنين رؤوف رحيم، فالقسم منصب على كل هذه الأوصاف الأربعة.

والخطاب في قوله: ﴿جَاءَكُمْ﴾ قيل: للعرب؛ لقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ فالرسول ﷺ من العرب، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾. [الجمعة: ٢].

ويحتمل أن يكون عامًا للأمة كلها، ويكون المراد بالنفس هنا الجنس؛ أي: ليس من الجن ولا الملائكة، بل هو من جنسكم؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وعلى الاحتمال الأول فيه إشكال؛ لأن النبي ﷺ بعث إلى جميع الناس من العرب والعجم.

ولكن يقال في الجواب: إنه خوطب العرب بهذا؛ لأن منة اللَّه عليهم به أعظم من غيرهم، حيث كان منهم، وفي هذا تشريف لهم بلا ريب.

والاحتمال الثاني أولى؛ للعموم، ولقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، ولما كان المراد العرب، قال: ﴿مِّنْهُمْ﴾ لا «من أنفسهم»، قال اللَّه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾، وقال تعالى عن إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وعلى هذا، فإذا جاءت «من أنفسهم»؛ فالمراد: عموم الأمة، وإذا جاءت

---

(١) في قرة العيون: ووجه الدلالة بالآية أنه ﷺ يعز عليه كل ما يؤثم الأمة ويشق عليهم وأعظم ما يؤثم الأمة ويشق عليهم الشرك بالله قليله وكثيره ووسائله وما يقرب منه من كبائر الذنوب وقد بالغ ﷺ في النهي عن الشرك وأسبابه أعظم مبالغة كما لا يخفى، وقد كانت هذه حالة أصحابه ﷺ في قطعهم الخيوط التي يرقى للمريض فيها ونحو ذلك من تعليق التمائم. (ق).

(٢) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في غاية المرام (٨).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٣٩).

(٤) ساق ابن كثير سند الطبراني إلى أبي ذر. (ق).

(٥) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢/ ١٥٥)، وقال الدارقطني في العلل (٦/ ٢٩٠): يرويه ابن عيينة عن فطر ابن خليفة عن أبي الطفيل عن أبي ذر وقيل: عن الثوري أيضًا وليس بصحيح عنه وغير ابن عيينة يرويه عن فطر عن منذر الثوري عن أبي ذر مرسلاً وهو الصحيح.

(٦) أي قال أبو ذر: وهو من رواية الطبراني أيضًا. وقد ذكر الحافظ ابن كثير بعد هذا الحديث من طريق الإمام أحمد عن ابن عباس حديث الملكين اللذين أتيا رسول الله ﷺ في المنام وقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه. ثم ضربا له ولأمته المثل. وروى عدة أحاديث في هذا المعنى في رحمة النبي ﷺ. (ق).

(٧) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٨٠٣).

. . . .

قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، كما قال تعالى ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٥، ٢١٦] وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة.

قلت: فاقتضت هذه الأوصاف التي وصف الله بها رسولهﷺ، في حق أمته: أن أنذرهم وحذرهم الشرك الذي هو أعظم الذنوب، وبين لهم ذرائعه الموصلة إليه، وأبلغ في نهيهم عنها. ومن ذلك تعظيم القبور والغلو فيها، والصلاة عندها وإليها، ونحو ذلك مما يوصل إلى عبادتها، كما تقدم، وكما سيأتي في أحاديث الباب.

«منهم»؛ فالمراد: العرب؛ فعلى الاحتمال الثاني لا إشكال في الآية.

قوله: ﴿رَسُولٌ﴾: أي: من الله؛ كما قال تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ [البينة: ٢]، وفعول هنا بمعنى مفعل؛ أي: مرسل.

و﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: سبق الكلام فيها.

قوله: ﴿عَزِيزٌ﴾: أي: صعب؛ لأن هذه المادة العين والزاي في اللغة العربية تدل على الصلابة، ومنه: «أرض عزاز»؛ أي: صلبة قوية، والمعنى: أنه يصعب عليه ما يشق عليكم، ولهذا بعث بالحنيفية السمحة، وما خير بين شيئين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، وهذا من التيسير الذي بعث به الرسولﷺ.

قوله: ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾: ﴿مَا﴾ مصدرية، وليست موصولة، أي: عنتكم؛ أي: مشقتكم؛ لأن العنت بمعنى المشقة، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٢٥]؛ أي: المشقة.

والفعل بعد﴿مَا﴾ يؤول إلى مصدر مرفوع، لكن بماذا هو مرفوع؟ يختلف باختلاف﴿عَزِيزٌ﴾. إذا قلنا: بأن﴿عَزِيزٌ﴾ صفة لرسول؛ صار المصدر المؤول فاعلاً به؛ أي: عزيز عليه عنتكم، وإن قلنا: عزيز خبر مقدم؛ صار عنتكم مبتدأ، والجملة حينئذ تكون كلها صفة لرسول، أو يقال: عزيز مبتدأ، وعنتكم فاعل سد مسد الخبر على رأي الكوفيين الذي أشار إليه ابن مالك في قوله:

وقد يجوز نحو فائز أولو الرشد

قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾: الحرص: بذل الجهد لإدراك أمر مقصود، والمعنى: باذل غاية جهده في مصلحتكم؛ فهو جامع بين أمرين: دفع المكروه الذي أفاده قوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، وحصول المحبوب الذي أفاده قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾. فكان النبيﷺ جامعًا بين هذين الوصفين، وهذا من نعمة الله علينا وعلى الرسولﷺ أن يكون على هذا الخلق العظيم الممثل بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، و﴿رَءُوفٌ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿رَّحِيمٌ﴾. مبتدأ ثان، وتقديم الخبر يفيد الحصر.

والرأفة: أشد الرحمة وأرقها.

والرحمة: رقة بالقلب تتضمن الحنو على المرحوم والعطف عليه بجلب الخير له ودفع الضرر عنه.

. . . .

. . . .

وقولنا: رقة في القلب هذا باعتبار المخلوق، أما بالنسبة للَّه تعالىٰ؛ فلا نفسرها بهذا التفسير؛ لأن اللَّه تعالىٰ ليس كمثله شيء، ورحمة اللَّه أعظم من رحمة المخلوق لا تدانيها رحمة المخلوق ولا تماثلها، فقد ثبت عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «**إن للَّه مائة رحمة وضع منها رحمة واحدة يتراحم بها الخلق منذ خلقوا إلى يوم القيامة، حتى إن الدابة لترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**»[1].

فمن يحصي هذه الرحمة التي في الخلائق منذ خلقوا إلىٰ يوم القيامة كمية؟ ومن يستطيع أن يقدرها كيفية؟ لا أحد يستطيع إلا اللَّه - عز وجل - الذي خلقها.

فهذه الرحمة واحدة، فإذا كان يوم القيامة رحم الخلق بتسع وتسعين رحمة بالإضافة إلىٰ الرحمة الأولىٰ، وهل هذه الرحمة تدانيها رحمة المخلوق؟

الجواب: أبدًا، لا تدانيها، والقدر المشترك بين رحمة الخالق ورحمة المخلوق أنها صفة تقتضي الإحسان إلىٰ المرحوم، ورحمة الخالق غير مخلوقة؛ لأنها من صفاته، ورحمة المخلوق مخلوقة؛ لأنها من صفاته؛ فصفات الخالق لا يمكن أن تنفصل عنه إلىٰ مخلوق لأننا لو قلنا بذلك لقلنا بحلول صفات الخالق بالمخلوق، وهذا أمر لا يمكن؛ لأن صفات الخالق يتصف بها وحده، وصفات المخلوق يتصف بها وحده، لكن صفات الخالق لها آثار تظهر في المخلوق، وهذه الآثار هي الرحمة التي نتراحم بها.

قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: أي: إن النبي ﷺ في غير المؤمنين ليس رؤوفًا ولا رحيمًا، بل هو شديد عليهم كما وصفه اللَّه هو وأصحابه بذلك في قوله: ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾ [الفتح: ٢٩].

قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾: أي: أعرضوا مع هذا البيان الواضح بوصف الرسول ﷺ.

وهذا التفات من الخطاب إلىٰ الغيبة؛ لأن التولي مع هذا البيان مكروه، ولهذا لم يخاطبوا به؛ فلم يقل: فإن توليتم.

والبلاغيون يسمونه التفاتًا، ولو قيل: إنه انتقال؛ لكان أحسن.

قوله: ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾: الخطاب للنبي ﷺ؛ أي: قل ذلك معتمدًا علىٰ اللَّه، متوكلاً عليه، معتصمًا به: حسبي اللَّه، وارتباط الجواب بالشرط واضح، أي: فإن أعرضوا؛ فلا يهمنك إعراضهم، بل قل بلسانك وقلبك: حسبي، و﴿حَسْبِيَ﴾ خبر مقدم، و﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ مؤخر، ويجوز العكس بأن نجعل: ﴿حَسْبِيَ﴾ مبتدأ و﴿اللَّهُ﴾ خبر، لكن لما كانت حسب نكرة لا تتعرف بالإضافة؛ كان الأولىٰ أن نجعلها هي الخبر.

قوله: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾: أي: لا معبود حق حقيق بالعبادة سوىٰ اللَّه - عز وجل -.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾: عليه: جار ومجرور متعلق بتوكلت، وقدم للحصر.

والتوكل: هو الاعتماد علىٰ اللَّه في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة به.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢).

عـن أبي هـريـرة، قال: قــال رسـول الله ﷺ: «لا تجـعلوا بـيـوتكم قـبـوراً، ولا تجعلـوا قبـري عيـداً. وصلوا علي فـإن صـلاتكم تبلغني

قال المصنف رحمه الله تعـالى: عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «لا تجعلوا بيوتكم قـبوراً، ولا تجـعلوا قبـري عيـداً. وصلوا علي فإن صـلاتكم تبلغني حـيث كنتم» رواه أبو داود بإسناد حسن، رواته ثقات [١][٢].

وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ مع قوله: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ فيها جمع بين توحيدي الربوبية والعبودية.

والله تعالى يجمع بين هذين الأمرين كثيراً، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾: الضمير يعود على الله ـ سبحانه ـ.

و ﴿رَبُّ الْعَرْشِ﴾؛ أي: خالقه، وإضافة الربوبية إلى العرش وإن كانت ربوبية الله عامة تشريفًا وتعظيمًا له. ومناسبة التوكل لقوله: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾. لأن من كان فوق كل شيء ولا شيء فوقه؛ فإنه لا أحد يغلبه، فهو جدير بأن يتوكل عليه وحده.

وقوله: ﴿الْعَرْشِ﴾ فسره بعض الناس بالكرسي، ثم فسروا الكرسي بالعلم، وحينئذ لا يكون هناك كرسي ولا عرش، وهذا التفسير باطل، والصحيح أن العرش غير الكرسي، وأن الكرسي غير العلم، ولا يصح تفسيره بالعلم، بل الكرسي من مخلوقات الله العظيمة التي وسع السماوات والأرض، والعرش أعظم وأعظم، ولهذا وصفه بأنه عظيم بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] وبأنه مجيد بقوله: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥] على قراءة كسر الدال، وبأنه كريم في قوله: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]؛ لأنه أعظم المخلوقات التي بلغنا علمها وأعلاها لأن الله استوى عليه. وفيه دليل على أن كلمة العظيم يوصف بها المخلوق؛ لأن العرش مخلوق، وكذلك الرحيم، والرؤوف، والحكيم.

ولا يلزم من اتفاق الاسمين اتفاق المسميين، فإذا كان الإنسان رؤوفًا؛ فلا يلزم أن يكون مثل الخالق، فلا تقل: إذا كان الإنسان سميعًا بصيراً عليمًا لزم أن يكون مثل الخالق؛ لأن الله سميع بصير عليم، كما أن وجود الباري سبحانه لا يستلزم أن تكون ذاته كذوات الخلق؛ فإن أسماءه كذلك لا يستلزم أن تكون كأسماء الخلق، وهناك فرق عظيم بين هذا وهذا.

وقوله: ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾: أي: كافيني، وهكذا يجب أن يعلن المؤمن اعتماده على ربه، ولا سيما في مثل هذا المقام الذي يتخلى الناس عنه؛ لأنه قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾.

---

(١) في قرة العيون: قال الحافظ محمد بن عبد الهادي: هو حديث حسن؛ جيد الإسناد؛ وله شواهد يرتقي بها إلى درجة الصحة. نهاهم ﷺ أن يهجروا بيوتهم عن الصلاة فيها، كما تهجر القبور عن الصلاة إليها، مخافة الفتنة بها، وما يفضي إلى عبادتها من دون الله. لأن النهي عن ذلك قد تقرر عندهم، فنهاهم أن يجعلوا بيوتهم كذلك. (ق).

(٢) **صحيح**: صححه العلامة الألباني رحمه الله في غاية المرام (١٢٥).

حـــيث كنتم» رواه أبو داود بـإسناد حـــسن، ورواته ثـقـــات.

قوله: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً» قال شيخ الإسلام: أي: لا تعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور. فأمر بتحري العبادة في البيوت، ونهى عن تحريها عند القبور، عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تشبه بهم من هذه الأمة.

وفي «الصحيحين»، عن ابن عمر، مرفوعًا «**اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً**»[١].

وفي «صحيح مسلم»، عن ابن عمر، مرفوعًا «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر؛ فإن الشيطان يفر من البيت الذي يسمع سورة البقرة تقرأ فيه**»[٢].

وهذه الكلمة - كلمة الحسب - تقال في الشدائد، قالها إبراهيم حين ألقي في النار، والنبي ﷺ وأصحابه حين قيل لهم: ﴿**إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾ [آل عمران: ١٧٣].

تنبيه: في سياقنا للآية الثانية فوائد نسأل اللَّه أن ينفع بها.

قوله: «لا تجعلوا»: الجملة هنا نهي؛ فلا ناهية، والفعل مجزوم وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل.

قوله: «بيوتكم»: جمع بيت، وهو مقر الإنسان وسكنه، سواء كان من طين أو حجارة أو خيمة أو غير ذلك، وغالب ما يراد به الطين والحجارة.

قوله: «قبوراً»: مفعول ثان لتجعلوا، وهذه الجملة اختلف في معناها؛ فمنهم من قال: لا تجعلوها قبوراً؛ أي: لا تدفنوا فيها، وهذا لا شك أنه ظاهر اللفظ، ولكن أورد على ذلك دفن النبي ﷺ في بيته.

وأجيب عنه بأنه من خصائصه ﷺ؛ فالنبي ﷺ دفن في بيته لسببين:

١ - ما روي عن أبي بكر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**ما من نبي يموت إلادفن حيث قبض**»[٣]، وهذا ضعفه بعض العلماء.

٢ - ما روته عائشة رضي اللَّه عنها: «**أنه خشي أن يتخذ مسجداً**»[٤].

وقال بعض العلماء: المراد بـ «**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً**»؛ أي: لا تجعلوها مثل القبور، أي: المقبرة لا تصلون فيها، وذلك لأنه من المتقرر عندهم أن المقابر لا يصلى فيها، وأيدوا هذا التفسير بأنها سبقها جملة في بعض الطرق: «**اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تجلوها قبوراً**»، وهذا يدل على أن المراد: لا تدعوا الصلاة فيها.

وكلا المعنيين صحيح؛ فلا يجوز أن يدفن الإنسان في بيته، بل يدفن مع المسلمين؛ لأن هذه هي العادة المتبعة منذ عهد النبي ﷺ إلى اليوم، ولأنه إذا دفن في بيته؛ فإنه ربما يكون وسيلة إلى الشرك، فربما يعظم هذا المكان، ولأنه يحرم من دعوات المسلمين الذين يدعون بالمغفرة لأموات المسلمين عند

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٣٢، ١١٨٧)، ومسلم (٧٧٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٨٠).

(٣) صحيح: وقد تقدم.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٩٠)، ومسلم (٥٢٩).

. . . .

قوله: «ولا تجعلوا قبري عيداً»:

قال شيخ الإسلام: العيد: اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد، عائد: إما بعود السنة، أو بعود الأسبوع، أو الشهر ونحو ذلك.

وقال ابن القيم: العيد: ما يعتاد مجيئه وقصده، من زمان ومكان. مأخوذ من المعاودة، والاعتياد.

فإذا كان اسماً للمكان فهو المكان الذي يقصد في الاجتماع، وانتيابه للعبادة أو لغيرها؛ كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيداً للحنفاء ومثابة، كما جعل أيام التعبد فيها عيداً.

وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية، فلما جاء الله بالإسلام أبطلها وعوَّض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر، وأيام منى. كما عوضهم عن أعياد المشركين المكانية، الكعبة ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر.

زيارتهم للمقابر، ولأنه يضيق على الورثة من بعده فيسأمون منه، وربما يستوحشون منه، وإذا باعوه لا يساوي إلا شيئاً قليلاً، ولأنه قد يحدث عنده من الصخب واللعب واللغو والأفعال المحرمة ما يتنافى مع مقصود الشارع؛ فإن الرسول ﷺ يقول: «**زوروا القبور؛ فإنها تذكركم الآخرة**»[1].

وأما أن المعنى: لا تجعلوها قبوراً؛ أي: مثل القبور في عدم الصلاة فيها؛ فهو دليل على أنه ينبغي - إن لم نقل: يجب - أن يجعل الإنسان من صلاته في بيته ولا يخليه من الصلاة.

وفيه أيضاً: أنه من المتقرر عندهم أن المقبرة لا يصلى فيها.

إذاً؛ فيكون هذا النهي عن ترك الصلاة في البيوت لئلا تشبه المقابر؛ فيكون فيه دليل واضح على أن المقابر ليست محلاً للصلاة، وهذا هو الشاهد من الحديث للباب؛ لأن اتخاذ المقابر مساجد سبب قريب جداً للشرك.

واتخاذها مساجد سبق أن له مرتبتين:

الأولى: أن يبنى عليها مسجداً.

الثانية: أن يتخذها مصلى يقصدها ليصلى عندها.

والحديث يدل على أن الأفضل: أن المرء يجعل من صلاته في بيته وذلك جميع النوافل؛ لقوله ﷺ: «**أفضل صلاة المرء في بيته؛ إلا المكتوبة**»[2]؛ إلا ما ورد الشرع أن يفعل في المسجد، مثل: صلاة الكسوف، وقيام الليل في رمضان، حتى ولو كنت في المدينة النبوية؛ لأن النبي ﷺ قال ذلك وهو في المدينة، وتكون المضاعفة بالنسبة للفرائض أو النوافل التي تسن لها الجماعة.

قوله: «عيداً»: عيد: اسم لما يعتاد فعله، أو التردد إليه، فإذا اعتاد الإنسان أن يعمل عملاً كما لو كان كلما حال عليه الحول صنع طعاماً ودعا الناس؛ فهذا يسمى عيداً لأنه جعله يعود ويتكرر.

وكذلك من العيد: أن تعتاد شيئاً فتتردد إليه، مثل: ما يفعل بعض الجهلة في شهر رجب وهو ما

---

(١) **صحيح:** وقد تقدم.

(٢) **متفق عليه:** رواه البخاري (٧٢٩٠)، ومسلم (٧٨١).

. . . .

قوله: «وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»:
قال شيخ الإسلام: يشير بذلك إلى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبعدكم، فلا حاجة بكم إلى اتخاذه عيداً. انتهى.

يسمى بالزيارة الرجبية، حيث يذهبون من مكة إلى المدينة، ويزورون ـ كما زعموا ـ قبر النبي ﷺ وإذا أقبلوا على المدينة تسمع لهم صياحًا، وكانوا سابقًا يذهبون من مكة إلى المدينة على الحمير خاصة، ولما جاءت السيارات صاروا يذهبون على السيارات.

وأيهما المراد من كلام النبي ﷺ: الأول؛ أي العمل الذي تكرر بتكرر العام، أو التردد إلى المكان؟

الظاهر الثاني، أي: لا تترددوا على قبري وتعتادوا ذلك، سواء قيدوه بالسنة أو بالشهر أو بالأسبوع؛ فإنه ﷺ نهى عن ذلك، وإنما يزار لسبب، كما لو قدم الإنسان من سفر، فذهب إلى قبره فزاره، أو زاره ليتذكر الآخرة كغيره من القبور.

وما يفعله بعض الناس في المدينة كلما صلى الفجر ذهب إلى قبر النبي ﷺ من أجل السلام عليه، فيعتاد هذا كل فجر، يظنون أن هذا مثل زيارته في حياته؛ فهذا من الجهل، وما علموا أنهم إذا سلموا عليه في أي مكان؛ فإن تسليمهم يبلغه.

قوله: «وصلوا علي»: هذا أمر؛ أي: قولوا: اللَّهم صل على محمد، وقد أمر الله بذلك في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وفضل الصلاة على النبي ﷺ معروف، ومنه أن من صلى عليه مرة واحدة صلى اللَّه عليه بها عشراً.

والصلاة من اللَّه على رسوله ليس معناها كما قال بعض أهل العلم: إن الصلاة من اللَّه الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، ومن الآدميين الدعاء.

فهذا ليس بصحيح، بل إن صلاة اللَّه على المرء ثناؤه عليه في الملإ الأعلى، كما قال أبو العالية وتبعه على ذلك المحققون من أهل العلم.

ويدل على بطلان القول الأول قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧]؛ فعطف الرحمة على الصلوات، والأصل في العطف المغايرة، ولأن الرحمة تكون لكل أحد، ولهذا أجمع العلماء على أنه يجوز أن تقول: فلان رحمه اللَّه، واختلفوا: هل يجوز أن تقول: فلان صلى اللَّه عليه؟

فمن صلى على محمد ﷺ مرة أثنى اللَّه عليه في الملإ الأعلى عشر مرات، وهذه نعمة كبيرة.

قوله: «فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»: حيث: ظرف مبني على الضم في محل نصب، ويقال فيها: حيث، وحوث، وحاث، لكنها قليلة.

كيف تبلغه الصلاة عليه؟

الجواب: نقول: إذا جاء مثل هذا النص وهو من أمور الغيب؛ فالواجب أن يقال: الكيف مجهول

وعن علي بن الحسين، أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعو. فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثًا سمعته من أبي،

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن علي بن الحسين، أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعو. فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثًا سمعته من أبي، عن جدي، عن رسول الله ﷺ؟ قال: «لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، وصلوا عليَّ فإن تسليمكم ليبلغني أين كنتم» رواه في المختارة [١].

هذا الحديث والذي قبله جيدان، حسنا الإسنادين.

أما الأول: فرواه أبو داود، وغيره، من حديث عبد الله بن نافع الصائغ، قال: أخبرني ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، فذكره.

ورواته ثقات مشاهير، لكن عبد الله بن نافع، قال فيه أبو حاتم الرازي: ليس بالحافظ، تعرف وتنكر. وقال ابن معين: هو ثقة. وقال أبو زرعة: لا بأس به.

لا نعلم بأي وسيلة تبلغه، لكن ورد عن النبي ﷺ: **«أن لله ملائكة سياحين يسيحون في الأرض يبلغون النبي ﷺ سلام أمته عليه»** [٢]، فإن صح؛ فهذه هي الكيفية.

قوله: «رواه أبو داود بإسناد حسن، ورواته ثقات»: هذا التعبير من الناحية الاصطلاحية، ظاهره أن بينهما اختلافًا، ولكننا نعرف أن الحسن: هو أن يكون الرواي خفيف الضبط؛ فمعناه أن فيه نوعًا من الثقة، فيجمع بين كلام المؤلف رحمه الله وبين ما ذكره عن رواية أبي داود بإسناد حسن: أن المراد بالثقة ليس غاية الثقة؛ لأنه لو بلغ إلى حد الثقة الغاية لكان صحيحًا؛ لأن ثقة الراوي تعود على تحقق الوصفين فيه، وهما: العدالة والضبط، فإذا خف الضبط خفت الثقة، كما إذا خفت العدالة أيضًا تخف الثقة فيه.

فيجمع بينهما على أن المراد: مطلق الثقة، ولكنه لا شك فيما أرى أنه إذا أعقب قوله: «حسن» بقوله: «رواته ثقات» أنه أعلى مما لو اقتصر على لفظ: «حسن».

ومثل هذا ما يعبر به ابن حجر في «تقريب التهذيب» بقوله: «صدوق يهم»، وأحيانًا يقول: «صدوق»، وصدوق أقوى، فيكون توثيق الرجل الموصوف بصدوق أشد من توثيق الرجل الذي يوصف بأنه يهم.

لا يقول قائل: إن كلمة يهم لا تزيده ضعفًا؛ لأنه ما من إنسان إلا ويهم.

---

(١) صحيح: رواه الضياء المقدسي في المختارة (٢/ ٤٩)، وأبو يعلى (١/ ٣٦١)، والعجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣٢)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧٢٢٦).

(٢) صحيح: رواه النسائي (١٢٨٢)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٩٢٤)، وصحيح الترغيب والترهيب (١٦٦٤).

عن جدي، عن رسول الله ﷺ؟ قال: «لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليّ فإن تسليمكم ليبلغني أين كنتم» رواه في المختارة.

قال شيخ الإسلام: ومثل هذا إذا كان لحديثه شواهد علم أنه محفوظ، وهذا له شواهد متعددة. وقال الحافظ محمد بن عبد الهادي: هو حديث حسن، جيد الإسناد، وله شواهد كثيرة يرتقي بها إلى درجة الصحة.

وأما الحديث الثاني: فرواه أبو يعلى، والقاضي إسماعيل، والحافظ الضياء في «المختارة».

قال شيخ الإسلام: فانظر هذه السنة، كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت، الذين لهم من رسول الله ﷺ قرب النسب وقرب الدار؛ لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم، فكانوا له أضبط. انتهى.

وقال سعيد بن منصور في «سننه»: حدثنا عبد العزيز بن محمد، أخبرني سهيل بن أبي سهيل، قال: رآني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عند القبر، فناداني، وهو في بيت فاطمة يتعشى، فقال: هلم إلى العشاء: فقلت: لا أريده. فقال مالي رأيتك عند القبر؟ فقلت: سلمت على النبي ﷺ، فقال: إذا دخلت المسجد فسلم. ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال: **«لا تتخذوا قبري عيداً، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، وصلوا عليّ، فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم، لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»** ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء[1][2].

فنقول: هذا لا يصح؛ لأن إن قولهم: (يهم) لا يعنون به الوهم الذي لا يخلو منه أحد، ولو لا أن هناك غلبة في أوهامه ما وصفوه بها.

قوله: «وعن علي بن الحسين»: هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، يسمى بزين العابدين، من أفضل أهل البيت علماً وزهداً وفقهاً.

والحسين معروف: ابن فاطمة رضي الله عنها، وأبوه علي رضي الله عنه.

قوله: «يجيء إلى فرجة»: هذا الرجل لا شك أنه لم يتكرر مجيئه إلى هذه الفرجة إلا لاعتقاده أن

---

(١) قال في قرة العيون: وهذا أيضاً له قرب النسب وقرب الدار؛ فنهى عن المجيء إلى القبر للدعاء عنده. فالمجيء إلى القبر للسلام عليه وتحري إجابة الدعاء مما شرعه الله ورسوله لهذه الأمة. ولو كان مشروعاً لما تركه الخلفاء والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان من سادات أهل البيت وأئمة التابعين، ولما أنكروا على ما فعله، وقولهم هو الحجة، وهو الذي دلت عليه الأحاديث، كحديث عائشة وحديث الباب وغيرهما، لعلم السلف بما أراده النبي ﷺ بنهيه عن الغلو؛ وخوفه مما وقع ممن غلا في الدين، واتبع غير سبيل المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

ولما حدث الشرك بأرباب القبور في هذه الأمة وتعظيمها وعبادتها صارت تشد الرحال إليها لقصد دعائها؛ والاستغاثة بها، وبذل نفيس المال تقرباً إليها وتعظيم سدنتها. فيا لها من معصية ما أعظمها. نسأل الله السلامة من هذا الشرك وما يقرب منه أو يوصل إليه. (ق).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٣٤٥)، وعبد الرزاق في مصنفه (١٧٢٦) وذكره أبو الطيب العظيم آبادي في عون المعبود شرح سنن أبي داود (٦/ ٢٤).

. . . .

وقال سعيد أيضًا: حدثنا حبان بن علي، حدثنا محمد بن عجلان، عن أبي سعيد مولى المهري، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتخذوا بيتي عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني»[1].

قال شيخ الإسلام: فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين، يدلان على ثبوت الحديث. لا سيما وقد احتج به من أرسله، وذلك يقتضي ثبوته عنده. هذا لو لم يرو من وجوه مسندة غير هذين، فكيف وقد تقدم مسندًا؟.

قوله: «عن علي بن الحسين». أي: ابن علي بن أبي طالب، المعروف بزين العابدين رضي الله عنه، أفضل التابعين من أهل بيته وأعلمهم. قال الزهري: ما رأيت قرشيًا أفضل منه. مات سنة ثلاث وتسعين، على الصحيح. وأبوه الحسين، سبط رسول الله ﷺ وريحانته. حفظ عن النبي ﷺ، واستشهد يوم عاشوراء سنة إحدى وستين، وله ست وخمسون سنة.

قوله: «أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة». بضم الفاء وسكون الراء، وهي الكوة في الجدار والخوخة ونحوهما.

قوله: «فيدخل فيها فيدعو، فنهاه». هذا يدل على النهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها.

قال شيخ الإسلام: ما علمت أحدًا رخص فيه؛ لأن ذلك نوع من اتخاذه عيدًا، ويدل أيضًا: أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلي منهي عنه؛ لأن ذلك لم يشرع.

وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل الإنسان المسجد أن يأتي قبر النبي ﷺ؛ لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك، قال: ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها.

وكان الصحابة والتابعون رضي الله عنهم يأتون إلى مسجد النبي ﷺ فيصلون، فإذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا، ولم يكونوا يأتون القبر للسلام؛ لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكمل وأفضل.

فيها فضلاً ومزية، وكونه يظن أن الدعاء عند القبر له مزية فتح باب ووسيلة إلى الشرك، بل جميع العبادات إذا كانت عند القبر؛ فلا يجوز أن يعتقد أن لها مزية، سواء كانت صلاة أو دعاء أو قراءة، ولهذا نقول: تكره القراءة عند القبر إذا كان الإنسان يعتقد أن القراءة عند القبر أفضل.

قوله: «فنهاه»: أي: طلب منه الكف.

قوله: «ألا أحدثكم حديثًا»: قال: أحدثكم والرجل واحد؛ لأن الظاهر أنه كان عند أصحابه يحدثهم، فجاء هذا الرجل إلى الفرجة.

و «ألا»: أداة عرض؛ أي: أعرض عليكم أن أحدثكم.

وفائدتها: تنبيه المخاطب إلى ما يريد أن يحدثه به.

قوله: «عن أبي عن جدي»: أبوه: الحسين، وجده: علي بن أبي طالب.

---

(١) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في غاية المرام (١٢٥).

. . . .

وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك، أو الصلاة أو الدعاء، فلم يشرعه لهم. بل نهاهم في قوله: «لا تتخذوا قبري عيداً وصلُّوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني»، فبين أن الصلاة تصل إليه من بعيد، وكذلك السلام، ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد.

وكانت الحجرة في زمانهم يدخل إليها من الباب، إذ كانت عائشة فيها، وبعد ذلك، إلى أن بُني الحائط الآخر. وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون إليه، لا لسلام ولا لصلاة، ولا لدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم، ولا لسؤال عن حديث أو علم. ولا كان الشيطان يطمع فيهم- حتى يسمعهم كلامًا أو سلامًا، فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم وبين لهم الأحاديث، أو أنه قد رد عليهم السلام بصوت يسمع من خارج- كما طمع الشيطان في غيرهم، فأضلهم عند قبره[1] وقبر غيره، حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويفتيهم ويحدثهم في الظاهر، وأنه يخرج من القبر ويرونه خارجًا من القبر، ويظنون أن نفس أبدان الموتى خرجت تكلمهم، وأن روح الميت تجسدت لهم فرأوها، كما رآهم النبي ﷺ ليلة المعراج.

والمقصود: أن الصحابة لم يكونوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره، كما يفعله من بعدهم من الخلوف. وإنما كان بعضهم يأتي من خارج فيسلم عليه إذا قدم من سفره، كما كان ابن عمر يفعله.

قال عبيد الله بن عمر، عن نافع: كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبي ﷺ، فقال: السلام عليك

قوله: «عن رسول الله ﷺ»: السند متصل، وفيه عنعنة لكنها لا تضر؛ لأنها من غير تدليس، فتحمل على السماع.

قوله: «لا تتخذوا قبري عيداً»: يقال فيه كما في الحديث السابق: أنه نهى أن يتخذ قبره عيداً يعتاد ويتكرر إليه؛ لأنه وسيلة إلى الشرك.

قوله: «ولا بيوتكم قبوراً»: سبق معناه.

قوله: «وصلوا عليَّ؛ فإنَّ تسليمكم يبلغني حيث كنتم»: اللفظ هكذا، وأشك في صحته؛ لأن قوله: «صلوا علي» يقتضي أن يقال: فإن صلاتكم تبلغني؛ إلا أن يقال هذا من باب الطي والنشر.

والمعنى: صلوا عليَّ وسلموا؛ فإن تسليمكم وصلاتكم تبلغني، وكأنه ذكر الفعلين والعلتين، لكن حذف من الأولى ما دلت عليه الثانية، ومن الثانية ما دلت عليه الأولى.

قوله: «وصلوا عليَّ»: سبق معناها، والمراد: صلوا عليَّ في أي مكان كنتم، ولا حاجة إلى أن تأتوا إلى القبر وتسلموا علي وتصلوا علي عنده.

قوله: «يبلغني»: تقدم كيف يبلغه ﷺ.

---

(١) ومن ذلك الحكاية المفتراة المنسوبة إلى الشيخ أحمد الرفاعي؛ وأنه طلب من النبي ﷺ مد يده ليقبلها ففعل، وخرجت اليد فقبلها. فانظر بالله كيف استطاعت شياطين الجن والإنس أن تلعب بعقول أولئك المخبولين، المحرومين من كل علم وعقل ودين، ولا حول ولا قوة إلا بالله. (ق).

. . . .

يا رسول الله. السلام عليك يا أبا بكر. السلام عليك يا أبتاه، ثم ينصرف. قال عبيد الله: ما نعلم أحدًا من أصحاب النبي ﷺ فعل ذلك إلا ابن عمر. وهذا يدل على أنه لا يقف عند القبر للدعاء إذا سلم، كما يفعله كثير.

قال شيخ الإسلام: لأن ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة، فكان بدعة محضة. وفي «المبسوط»: قال مالك: لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ، ولكن يسلم ويمضي. ونص أحمد أنه يستقبل القبلة، ويجعل الحجرة عن يساره؛ لئلا يستدبره. وبالجملة، قد اتفق الأئمة على أنه إذا دعا لا يستقبل القبر، وتنازعوا: هل يستقبله عند السلام عليه أم لا؟

وفي الحديث: دليل على منع شد الرحال إلى قبره ﷺ، وإلى غيره من القبور والمشاهد؛ لأن ذلك من اتخاذها أعيادًا. بل من أعظم أسباب الإشراك بأصحابها. وهذه هي المسألة التي أفتى فيها شيخ الإسلام - أعني من سافر لمجرد زيادة قبور الأنبياء والصالحين - ونقل فيها اختلاف العلماء. فمن مبيح لذلك، كالغزالي، وأبي محمد المقدسي. ومن مانع لذلك، كابن بطة، وابن عقيل، وأبي محمد الجويني، والقاضي عياض. وهو قول الجمهور؛ نص عليه مالك، ولم يخالفه أحد من الأئمة. وهو الصواب؛ لما في «الصحيحين»، عن أبي سعيد، عن النبي - ﷺ -: **«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»**[1] فدخل في النهي: شدها لزيارة القبور والمشاهد، فإما أن يكون نهيًا، وإما إن يكون نفيًا. وجاء في رواية، بصيغة النهي، فتعين أن يكون للنهي. ولهذا فهم منه الصحابة المنع؛ كما في «الموطأ»، «والمسند» «والسنن»، عن بصرة ابن أبي بصرة الغفاري، أنه قال لأبي هريرة - وقد أقبل من الطور -: لو أدركتك قبل أن تخرج إليه لما خرجت، سمعت رسول الله يقول: **«لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»**[2].

وروى الإمام أحمد، وعمر بن شبة في «أخبار المدينة» بإسناد جيد، عن قزعة، قال: أتيت ابن عمر، فقلت: إني أريد الطور. فقال: **إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد المدينة والمسجد الأقصى. فدع عنك الطور ولا تأته**[3].

فابن عمر، وبصرة بن أبي بصرة، جعلا الطور مما نهي عن شد الرحال إليه؛ لأن اللفظ الذي ذكراه: في النهي عن شدها إلى غير الثلاثة، مما يقصد به القربة. فعلم أن المستثنى منه عامٌ في المساجد وغيرها، وأن النهي ليس خاصًا بالمساجد؛ ولهذا نهيا عن شدها إلى الطور مستدلين بهذا الحديث.

والطور إنما يسافر من يسافر إليه لفضيلة البقعة؛ فإن الله سماه الوادي المقدس والبقعة المباركة، وكلم كليمه موسى هناك، وهذا هو الذي عليه الأئمة الأربعة، وجمهور العلماء.

ومن أراد بسط القول في ذلك والجواب عما يعارضه، فعليه بما كتبه شيخ الإسلام مجيبًا لابن

. . . .

(١) **صحيح**: رواه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (٨٢٧).

(٢) **صحيح**: صححه العلامة الألباني رحمه الله في الإرواء (٧٧٣).

(٣) رواه أحمد في المسند (٣/ ٦٤، ٩٣)، وعبد الرزاق في مصنفه (٥/ ١٣٥)، وفي أخبار مكة (٢/ ٩٤).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية براءة.

الأخنائي [1] فيما اعترض به على ما دلت عليه الأحاديث، وأخذ به العلماء وفي «الجواب الباهر» الذي نقل عنه ابن عبد الهادي - رحمه الله تعالى - وقياس الأولى؛ لأن المفسدة في ذلك ظاهرة.

وأما النهي عن زيارة غير المساجد الثلاثة، فغاية ما فيها: أنها لا مصلحة في ذلك توجب شد الرحال، ولا مزية تدعو إليه. وقد بسط القول في ذلك الحافظ محمد بن عبد الهادي في كتاب «الصارم المنكي» في رده على السبكي، وذكر فيه علل الأحاديث الواردة في زيارة قبر النبي ﷺ وذكر هو، وشيخ الإسلام رحمه الله: أنه لا يصح منها حديث عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه. مع أنها لا تدل على محل النزاع؛ إذ ليس فيها إلا مطلق الزيارة، وذلك لا ينكره أحد بدون شد الرحال. فيحمل على الزيارة الشرعية، التي ليس فيها شرك ولا بدعة.

قوله: «رواه في المختارة» «المختارة»: كتاب جمع فيه مؤلفه الأحاديث الجياد الزائدة على «الصحيحين». ومؤلفه: هو أبو عبد الله، محمد بن عبد الواحد المقدسي، الحافظ ضياء الدين الحنبلي، أحد الأعلام. قال الذهبي: أفنى عمره في هذا الشأن مع الدين المتين، والورع والفضيلة التامة والإتقان، فالله يرحمه ويرضى عنه.

وقال شيخ الإسلام: تصحيحه في «مختارته» خير من تصحيح الحاكم بلا ريب. مات سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

ثم في مقابلة ذلك نهى عن أقوال وأفعال فيها الغلو بالمخلوقين ونهى عن التشبه بالمشركين؛ لأنه يدعو إلى الميل إليهم ونهى عن أقوال وأفعال يخشى أن يتوصل بها إلى الشرك، كل ذلك حماية للتوحيد ونهى عن كل سبب يوصل إلى الشرك، وذلك رحمة بالمؤمنين ليتحققوا بالقيام بما خلقوا له من عبودية الله الظاهرة والباطنة وتكميلها لتكمل لهم السعادة والفلاح، وشواهد هذه الأمور كثيرة معروفة.

قوله: «رواه في المختارة» الفاعل مؤلف المختارة، والمختارة: اسم للكتاب؛ أي: الأحاديث المختارة. والمؤلف هو عبد الغني المقدسي، من الحنابلة. وما أقل الحديث في الحنابلة، يعني المحدثين، وهذا من أغرب ما يكون، يعني أصحاب الإمام أحمد أقل الناس تحديثًا بالنسبة للشافعية.

فالحنابلة غلب عليهم رحمهم اللّه الفقه مع الحديث؛ فصاروا محدثين وفقهاء، ولكنهم رحمهم اللّه بشر، فإذا أخذ من هذا العلم صار ذلك زحامًا للعلم الآخر.

أما الأحناف؛ فإنهم أخذوا بالفقه، لكن قلت بضاعتهم في الحديث، ولهذا يسموا أصحاب الرأي (يعني: العقل والقياس)؛ لقلة الحديث عندهم.

والشافعية أكثر الناس عناية بالحديث والتفسير، والمالكية كذلك، ثم الحنابلة وسط، وأقلهم في ذلك الأحناف مع أن لهم كتبًا في الحديث.

---

(١) قاضي المالكية في عصره، والرد عليه مطبوع بهامش الرد على البكري؛ على نفقة جلالة الملك الصالح المصلح؛ الملك عبد العزيز آل سعود. (ق).

الثانية: إبعاده أُمته عن هذا الحمى غاية البعد.

الثالثة: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته.

الرابعة: نَهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص، مع أنَّ زيارته من أفضل الأعمال.

الخامسة: نهيه عن الإكثار من الزيارة.

السادسة: حثه على النافلة في البيت.

السابعة: أنه متقرر عندهم أنه لا يصلى في المقبرة.

الثامنة: تعليله ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بَعُد، فلا حاجة إلى ما يتوهمه مَن أراد القرب.

التاسعة: كونه ﷺ في البرزخ تعرض أعمال أُمته في الصلاة والسلام عليه[1].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية براء: وسبق ذلك في أول الباب.

الثانية: إبعاده ﷺ أمته عن هذه الحمى غاية البعد: تؤخذ من قوله: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً».

الثالثة: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته: وهذا مذكور في آية براءة.

الرابعة: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص: تؤخذ من قوله: «ولا تجعلوا قبري عيداً»؛ فقوله: «عيداً» هذا هو الوجه المخصوص. وزيارة قبر النبي ﷺ من أفضل الأعمال من جنسها؛ فزيارته فيها سلام عليه، وحقه ﷺ أعظم من غيره. وأما من حديث التذكير بالآخرة؛ فلا فرق بين قبره وقبر غيره.

الخامسة: نهيه عن الإكثار من الزيارة.: تؤخذ من قوله: «لا تجعلوا قبري عيداً»، لكنه لا يلزم منه الإكثار؛ لأنه قد لا يأتي إلا بعد سنة، ويكون قد اتخذه عيداً؛ فإن فيه نوعاً من الإكثار.

السادسة: حثه على النافلة في البيت: تؤخذ من قوله: «ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً»، وسبق أن فيها معنيين:

المعنى الأول: أن لا يقبر في البيت، وهذا ظاهر الجملة.

والثاني: الذي هو من لازم المعنى أن لا تترك الصلاة فيها.

السابعة: أنه متقرر عندهم أنه لا يصلى في المقبرة: تؤخذ من قوله: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً»؛ لأن المعنى: لا تجعلوها قبوراً، أي: لا تتركوا الصلاة فيها على أحد الوجهين؛ فكأنه من المتقرر عندهم أن المقابر لا يصلى فيها.

الثامنة: تعليل ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعد؛ فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب: أي: كونه نهى ﷺ أن يجعل قبره عيداً، العلة في ذلك: أن الصلاة تبلغه حيث كان

---

(١) يريد المصنف رحمه الله أن النبي ﷺ لا يعرض عيه من أعمالنا إلا الصلاة والسلام عليه فقط، لا كما يظنه المبتدعون أن كل الأعمال تعرض عليه فإن وجد خيراً حمد الله وإن وجد غير ذلك استغفر، مستدلين على ذلك بحديث أوهن من بيوت العنكبوت ومعرضين عن صحاح النصوص من الكتاب والسنة التي رواها البخاري ومسلم. (ق).

٢٢ـ باب
ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

وقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان. وقول الله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

الوثن: يطلق على ما قصد بنوع من أنواع العبادة من دون الله، من القبور والمشاهد وغيرها؛ لقول الخليل عليه السلام: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧] مع قوله: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ [الشعراء: ٧١] وقوله: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] فبذلك يعلم

باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

مقصود هذه الترجمة الحذر من الشرك والخوف منه وأنه أمر واقع في هذه الأمة لا محالة والرد على من زعم أن من قال: لا إله إلا الله وتسمى بالإسلام أنه يبقى على إسلامه ولو فعل ما ينافيه من الاستغاثة بأهل القبور ودعائهم وسمى ذلك توسلاً لا عبادة فإن هذا باطل.

الإنسان؛ فلا حاجة إلى أن يأتي إلى قبره، ولهذا نسلم ونصلي عليه في أي مكان؛ فيبلغه السلام والصلاة. ولهذا قال علي بن الحسين: « ما أنت ومن في الأندلس إلا سواء».

التاسعة: كونه ﷺ في البرزخ تعرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه: أي: فقط فكل من صلى عليه أو سلم عرضت عليه صلاته وتسليمه، ويؤخذ من قوله: «**فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم**».

سبب مجيء المؤلف بهذا الباب لدحض حجة من يقول: إن الشرك لا يمكن أن يقع في هذه الأمة، وأنكروا أن تكون عبادة القبور والأولياء من الشرك؛ لأن هذه الأمة معصومة منه؛ لقوله ﷺ: «**إن الشيطان أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم**»[1].

والجواب عن هذا سبق عند الكلام على المسألة الثامنة عشرة من مسائل باب من تبرك بشجر أو حجر أو نحوهما.

قوله: «أن بعض هذه الأمة»: أي: لا كلها؛ لأن في هذه الأمة طائفة لا تزال منصورة على الحق إلى قيام الساعة، لكنه سيأتي في آخر الزمان ريح تقبض روح كل مسلم؛ فلا يبقى إلا شرار الناس.

قوله: «تعبد»: بفتح التاء، وفي بعض النسخ: «يعبد» بفتح الياء المثناة من تحت.

فعلى قراءة «يعبد» لا إشكال فيها؛ لأن «بعض» مذكر.

وعلى قراءة «تعبد»؛ فإنه داخل في قول ابن مالك:

وربما أكسب ثان أولاً ... تأنيثًا إن كان لحذف موهلا

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨١٢)، والترمذي (١٩٣٧)، وأحمد (١٣٩٥٧) ومواضع.

. . . .

أن الوثن يطلق على الأصنام وغيرها مما عبد من دون الله، كما تقدم في الحديث.

وقوله: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ روى ابن أبي حاتم، عن عكرمة، قال: جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة، فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكوماء، ونسقي الماء على اللبن، ونفك العناة، ونسقي الحجيج. ومحمد صنبور، قطع أرحامنا واتبعه سراق الحجيج من غفار، فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدى سبيلاً، فأنزل الله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾**[1]. وفي «مسند أحمد»، عن ابن عباس، نحوه.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان.

وكذا قال ابن عباس وأبو العالية، ومجاهد، والحسن، وغيرهم.

وعن ابن عباس، وعكرمة، وأبي مالك: الجبت: الشيطان ـ زاد ابن عباس ـ: بالحبشية.

وعن ابن عباس أيضًا: الجبت: الشرك. وعنه، الجبت: الأصنام. وعنه، الجبت: حيي بن أخطب.

ومثلوا لذلك بقولهم: قطعت بعض أصابعه؛ فالتأنيث هنا من أجل أصابعه لا من أجل بعض.

فإذا صحت النسخة «تعبد»؛ فهذا التأنيث اكتسبه المضاف من المضاف إليه.

قوله: «الأوثان»: جمع وثن، وهو: كل ما عبد من دون اللَّه.

ذكر المؤلف في هذا الباب عدة آيات:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: الاستفهام هنا للتقرير والتعجب، والرؤية بصرية بدليل أنها عديت بإلى، وإذا عديت بإلى صارت بمعنى النظر.

والخطاب إما للنبي ﷺ، أو لكل من يصح توجيه الخطاب إليه؛ أي: ألم تر أيها المخاطب؟

قوله: ﴿ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا﴾: أي: أعطوا، ولم يعطوا كل الكتاب؛ لأنهم حرموا بسبب معصيتهم؛ فليس عندهم العلم الكامل بما في الكتاب.

قوله: ﴿نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾: المنزَّل.

والمراد بالكتاب: التوراة والإنجيل.

وقد ذكروا لذلك مثلاً، وهو كعب بن الأشرف حين جاء إلى مكة، فاجتمع إليه المشركون، وقالوا:

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: وقد روي هذا من غير وجه عن ابن عباس وجماعة من السلف؛ وقال الإمام أحمد عن عكرمة عن ابن عباس قال (لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش: ألا ترى هذا الصنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية. قال: أنتم خير، قال: فنزلت فيهم: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣] ونزل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ....﴾ [آل عمران: ٢٣] الآية) و(الكوماء) الناقة العظيمة السنام لسمنها. و(العناة) جمع (عان) وهو الأسير. و (الصنبور) الأبتر الذي لا عقب له. وأصله سعفة تنبت في جذع النخلة لا في الأرض، وقيل: هي النخلة المنفردة التي دق أسفلها. أرادوا أنه إذا بلغ انقطع ذكره كما يذهب الصنبور لأنه لا عقب له. (ق).

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٦٠].

وعن الشعبي، الجبت: الكاهن.

وعن مجاهد، الجبت: كعب بن الأشرف.

قال الجوهري: الجبت: كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر، ونحو ذلك[1].

قال المصنف: وفيه: معرفة الإيمان بالجبت والطاغوت في هذا الموضع: هل هو اعتقاد قلب، أو هو موافقة أصحابها مع بغضها، معرفة بطلانها؟

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن

ما تقول في هذا الرجل (أي: النبي ﷺ) الذي سفه أحلامنا ورأى أنه خير منا؟ فقال لهم: أنتم خير من محمد، ولهذا جاء في آخر الآية: ﴿ **وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا** ﴾ [النساء: ٥١].

قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾: أي: يصدقون بهما، ويقرونهما لا ينكرونهما، فإذا أقر الإنسان هذه الأوثان؛ فقد آمن بها.

والجبت: قيل: السحر، وقيل: هو الصنم، والأصح: أنه عام لكل صنم أو سحر أو كهانة أو ما أشبه ذلك.

والطاغوت: ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع.

فالمعبود كالأصنام، والمتبوع كعلماء الضلال، والمطاع كالأمراء؛ فطاعتهم في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله تعد من عبادتهم.

والمراد من كان راضيًا بعبادتهم إياه، أو يقال: هو طاغوت باعتبار عابديه؛ لأنهم تجاوزوا به حده، حيث نزلوه فوق منزلته التي جعلها الله له، فتكون عبادتهم لهذا المعبود طغيانًا؛ لمجاوزتهم الحد بذلك.

والطاغوت: مأخوذ من الطغيان؛ فكل شيء يتعدى به الإنسان حده يعتبر طاغوتًا.

وجه المناسبة في الآية للباب لا يتبين إلا بالحديث، وهو: «**لتركبن سنن من كان قبلكم**»، فإذا كان الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت، وأن من هذه الأمة من يرتكب سنن من كان قبله يلزم من هذا أن في هذه الأمة من يؤمن بالجبت والطاغوت؛ فتكون الآية مطابقة للترجمة تمامًا.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾: الخطاب للنبي ﷺ ردًا على هؤلاء اليهود الذين اتخذوا دين الإسلام هزوًا ولعبًا.

---

(١) زاد ابن كثير عن الجوهري: وفي الحديث «الطيرة والعيافة والطرق من الجبت» قال ابن كثير: رواه الإمام أحمد عن قبيصة بن مخارق. (ق).

. . . .

سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

يقول تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد، هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا؟ وهم أنتم أيها المتصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي: أبعده من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أي: غضبًا لا يرضىٰ بعده أبدًا ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾.

وقد قال الثوري: عن علقمة بن مرثد، عن المغيرة بن عبد الله، عن المعرور بن سويد: أن ابن مسعود، قال: سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير: أهي مما مسخ الله؟ فقال: **«إن الله لم يهلك قومًا ـ أو قال: لم يمسخ قومًا ـ فيجعل لهم نسلاً ولا عاقبة، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك»** [(١)(٢)] ورواه مسلم.

قال البغوي في «تفسيره»: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ أخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ﴾ يعني، قولهم: لم نر أهل دين أقل حظًا في الدنيا والآخرة منكم، ولا دينًا شرًا من دينكم، فذكر الجواب بلفظ الابتداء؛ كقوله: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ﴾ [الحج: ٧٢].

قوله: ﴿مَثُوبَةً﴾ ثوابًا وجزاءً، نصب على التفسير ﴿عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ فالقردة أصحاب السبت، والخنازير كفار مائدة عيسىٰ.

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أن المسخين كلاهما من أصحاب السبت، فشبابهم مسخوا قردة، ومشايخهم مسخوا خنازير.

﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أي: وجعل منهم من عبد الطاغوت، أي: أطاع الشيطان فيما سوله.

وقوله: ﴿أُنَبِّئُكُم﴾: أي: أخبركم، والاستفهام هنا للتقرير والتشويق، أي: سأقرر عليكم هذا الخبر.

قوله: ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ﴾: شر: هنا اسم تفضيل، وأصلها أشر لكن حذفت الهمزة تخفيفًا لكثرة الاستعمال، ومثلها كلمة خير مخففة من أخير، والناس مخففة من الأناس، وكذا كلمة اللَّه مخففة من الإله.

قوله: ﴿ذَلِكَ﴾: المشار إليه ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه؛ فإن اليهود يزعمون أنهم هم الذين على الحق، وأنهم خير من الرسول صلىٰ اللَّه عليه وعلىٰ آله وأصحابه وسلم، وأن الرسول ﷺ وأصحابه ليسوا على الحق؛ فقال اللَّه تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾.

قوله: ﴿مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾: مثوبة: تمييز لشر؛ لأنه اسم تفضيل، وما جاء بعد أفعل التفضيل مبينًا له يكون منصوبًا على التمييز.

قال ابن مالك:

اسم بمعنى (مِنْ) مبين نكرة ... يُنْصَبُ تمييزًا بما قد فسره

---

(١) رواه مسلم في كتاب القدر في باب بيان أن الآجال والأرزاق لا تزيد ولا تنقص من وجهين: أولهما عن أبي بكر ابن أبي شيبة؛ وأبي كريب عن مسعر. وهذا هو الذي فيه (ولا عقبًا) والثاني: عن إسحاق بن إبراهيم الحنظلي وحجاج بن الشاعر واللفظ لحجاج: وليس فيه (ولا عقبًا). (ق).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٣).

. . . .

وقرأ ابن مسعود[١] ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ وقرأ حمزة: (وعبدُ الطاغوتِ) بضم الباء وجر التاء[٢]، أراد العبد. وهما لغتان: عبد بجزم الباء، عبد بضمها، مثل سبع وسبع[٣]، قرأ الحسن ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ على الواحد[٤].

وفي «تفسير الطبرسي»: قرأ حمزة وحده (وعبدُ الطاغوتِ) بضم الباء وجر التاء، والباقون ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ بنصب الباء وفتح التاء. وقرأ ابن عباس، وابن مسعود، وإبراهيم النخعي، والأعمش، وأبان بن تغلب (وعُبُدَ الطاغوت) بضم العين والباء، وفتح الدال وخفض التاء. قال: وحجة حمزة في قراءته ﴿وعبدُ الطاغوتِ﴾ أنه يحمله على ما عمل فيه ﴿جَعَلَ﴾. كأنه: وجعل منهم عبد الطاغوت. ومعنى ﴿جَعَلَ﴾: خلق، كقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[الأنعام: ١] وليس عبد لفظ جمع؛ لأنه ليس من أبنية الجموع شيء علي هذا البناء، ولكنه واحد يراد به الكثرة. ألا ترى أن في الأسماء المفردة المضافة إلى المعارف ما لفظه لفظ الإفراد ومعناه الجمع، كما في قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] ولأن بناء فَعُلَ يراد به المبالغة والكثرة نحو يَقُظَ ودَنُسَ، وكأن تقديره: أنه قد ذهب في عبادة الطاغوت كل مذهب.

إلى أن قال:

والفاعلَ المَعْنَى انصبَنْ بأفْعَلا مُفَضَّلاً كانت أعلى مَنْزِلاً

والمثوبة: من ثاب يثوب إذا رجع، ويطلق على الجزاء؛ أي: بشر من ذلك جزاء عند اللَّه.

قوله: ﴿عِندَ اللَّهِ﴾: أي: في علمه وجزائه عقوبة أو ثوابًا.

قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾: من: اسم موصول خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو من لعنه اللَّه؛ لأن الاستفهام انتهى عند قوله: ﴿مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾. وجواب الاستفهام: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾. ولعنه؛ أي: طرده وأبعده عن رحمته.

قوله: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾: أي: أحل عليه غضبه، والغضب: صفة من صفات اللَّه الحقيقية تقتضي الانتقام من المغضوب عليه، ولا يصح تحريفه إلى معنى الانتقام.

وقد سبق الكلام عليه.

والقاعدة العامة عند أهل السنة: أن آيات الصفات وأحاديثها تجري على ظاهرها اللائق باللَّه-عز وجل- فلا تجعل من جنس صفات المخلوقين، ولا تحرف فتنفى عن اللَّه؛ فلا نغلو في الإثبات ولا في النفي.

قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾: القردة: جمع قرد، وهو حيوان معروف أقرب ما يكون شبهًا بالإنسان.

والخنازير: جمع خنزير، وهو ذلك الحيوان الخبيث المعروف الذي وصفه اللَّه بأنه رجس.

---

(١) في البغوي: وتصدقها قراءة ابن مسعود. (ق).

(٢) فيكون على الإضافة، على أن المعنى: وجعل منهم خدم الطاغوت، أي خدامه وعبيده. (ق).

(٣) في تفسير البغوي وقيل: هو جمع العباد وقرأ الحسن إلخ. (ق).

(٤) آخر النقل عن البغوي. (ق).

. . . .

وأما من فتح فقال: ﴿وَعَبَدَ الطاغوتَ﴾ فإنه عطفه على بناء المُضيِّ الذي في الصلة، وهو قوله: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾.

وأفرد الضمير في عبد، وإن كان المعنى فيه الكثرة؛ لأن الكلام محمول على لفظه دون معناه. وفاعله ضمير من، كما أن فاعل الأمثلة المعطوف عليها ضمير من، فأفرد لحمل ذلك جميعًا على اللفظ. وأما قوله: ﴿وعبدَ الطَّاغُوتَ﴾ فهو جمع عبد[1].

وقال أحمد بن يحيى: عُبُد جمع عابد؛ كبازل وبُزل، وشارف وشرف، كذلك عُبَّد جمع عابد. ومثله عباد وعبَّاد. انتهى.

وقال شيخ الإسلام ـ في قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾: والصَّواب أنه معطوف على ما قبله من الأفعال، أي: من لعنه وغضب عليه، ومن جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت. قال: والأفعال المتقدمة، الفاعل فيها اسم الله تعالى، مظهراً ومضمراً. وهنا الفاعل اسم من عبد الطاغوت، وهو الضمير في عبد. ولم يعد سبحانه من؛ لأنه جعل هذه الأفعال صفة لصنف واحد، وهم اليهود.

قوله: ﴿أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ مما تظنون بنا ﴿وأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة، كقوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ [الفرقان: ٢٤] قاله العماد ابن كثير في «تفسيره». وهو الظاهر.

والإشارة هنا إلى اليهود؛ فإنهم لعنوا كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ الآية [المائدة: ٧٨].

وجعلوا قردة بقوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، وغضب اللَّه عليهم بقوله: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠].

قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾: فيها قراءتان في ﴿عَبَدَ﴾ وفي ﴿الطَّاغُوتَ﴾.

الأولى: بضم الباء: (عَبُدَ)، وعليها تكسر التاء في (الطاغوت)؛ لأنه مجرور بالإضافة.

الثانية: بفتح الباء ﴿عَبَدَ﴾ على أنه فعل ماض معطوف على قوله: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ صلة الموصول، أي: ومن عبد الطاغوت، ولم يعد ﴿مَن﴾ مع طول الفصل؛ لأن هذا ينطبق على موصوف واحد، فلو أعيدت ﴿مَن﴾ لأوهم أنهم جماعة آخرون وهم جماعة واحدة؛ فعلى هذه القراءة يكون ﴿عَبَدَ﴾ فعلاً ماضيًا، والفاعل ضمير مستتر جوازًا تقديره هو يعود على الضمير في قوله: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾.

وبهذا نعرف اختلاف الفاعل في صلة الموصول وما عطف عليه؛ لأن الفاعل في صلة الموصول ﴿اللَّهُ﴾ والفاعل في هذا المعطوف يعود على المفعول «الهاء» لا على الفاعل. وعلى كل حال؛ فالمراد بها عابد الطاغوت.

فالفرق بين القراءتين بالباء فقط؛ فعلى قراءة الفعل مفتوحة، وعلى قراءة الاسم مضمومة.

---

(١) قال ابن كثير: على أنه جمع الجمع. عبد عبيد عبد؛ مثل ثمار ثمر. (ق).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١]

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

والمراد: أنهم فعلوا مع الفتية بعد موتهم ما يذم فاعله؛ لأن النبي ﷺ قال: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[1] أراد تحذير أمته أن يفعلوا كفعلهم.

والطاغوت على قراءة الفعل في ﴿عَبَدَ﴾ تكون مفتوحة ﴿عَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ وعلى قراءة الاسم تكون مكسورة بالإضافة.

وذكر في تركيب ﴿عَبَدَ﴾ مع ﴿الطَّاغُوتَ﴾ أربع وعشرون قراءة، ولكنها قراءات شاذة غير القراءتين السبعيتين ﴿عبدَ﴾ (عبُد).

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾: هذه الآية في سياق قصة أصحاب الكهف، وقصتهم عجيبة؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩]، وهم فتية آمنوا بالله وكانوا في بلاد الشرك، فخرجوا منها إلى الله -عز وجل- فيسر الله لهم غاراً، فدخلوا فيه، وناموا فيه نومة طويلة بلغت ٣٠٩ سنة، ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥] وهم نائمون لا يحتاجون إلى أكل وشرب، ومن حكمة الله أن الله يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال حتى لا يترسب الدم في أحد الجانبين ولما خرجوا بعثوا بأحدهم إلى المدينة ليشتري لهم طعامًا، وآخر الأمر أن أهل المدينة اطلعوا على أمرهم، وقالوا: لا بد أن نبني على قبورهم مسجداً.

وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾: المراد بهم: الحكام في ذلك الوقت قالوا مقسمين مؤكدين: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، وبناء المساجد على القبور من وسائل الشرك كما سبق.

فوائد الآيات السابقة: من فوائد الآية الأولى ما يلي:

١ - أن من العجيب أن يعطى الإنسان نصيبًا من الكتاب ثم يؤمن بالجبت والطاغوت.

٢ - أن العلم قد لا يعصم صاحبه من المعصية؛ لأن الذين أوتوا الكتاب آمنوا بالكفر، والذي يؤمن بالكفر يؤمن بما دونه من المعاصي.

٣ - وجوب إنكار الجبت والطاغوت؛ لأن الله تعالى ساق الإيمان بهما مساق العجب والذم؛ فلا يجوز إقرار الجبت والطاغوت.

٤ - ما ساقها المؤلف من أجله أن من هذه الأمة من يؤمن بالجبت والطاغوت لقوله: «**لتركبن سنن من كان قبلكم**»[2]، فإذا وجد في بني إسرائيل من يؤمن بالجبت والطاغوت؛ فإنه سيوجد في هذه الأمة أيضًا من يؤمن بالجبت والطاغوت.

ومن فوائد الآية الثانية ما يلي:

---

(١) صحيح: وقد سبق تخريجه.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

. . . .

. . . .

١ ـ تقرير الخصم والاحتجاج عليه بما لا يستطيع إنكاره، بمعنى أنك تحتج على خصمك بأمر لا يستطيع إنكاره؛ فإن اليهود يعرفون بأن فيهم قومًا غضب اللَّه عليهم ولعنهم وجعل منهم القردة والخنازير؛ فإذا كانوا يقرّون بذلك وهم يستهزئون بالمسلمين؛ فنقول لهم: أين محل الاستهزاء؛ الذين حلت عليهم هذه العقوبات أم الذين سلموا منها؟

والجواب: الذين حلت بهم العقوبة أحق بالاستهزاء.

٢ ـ اختلاف الناس في المنزلة عند اللَّه؛ لقوله: ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾، ولا شك أن الناس يختلفون بزيادة الإيمان ونقصه وما يترتب عليه من الجزاء.

٣ ـ سوء حال اليهود الذين حلت بهم هذه العقوبات من اللعن والغضب والمسخ وعبادة الطاغوت.

٤ ـ إثبات أفعال اللَّه الاختيارية، وأنه سبحانه يفعل ما يشاء؛ لقوله: ﴿لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾؛ فإن اللعن من صفات الأفعال.

٥ ـ إثبات الغضب للَّه؛ لقوله: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾.

٦ ـ إثبات القدرة للَّه، لقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾. وهل المراد بالقردة والخنازير هذه الموجودة؟

والجواب: لا؛ لما ثبت في «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ: **«أن كل أمة مسخت لا يبقى لها نسل»**[(١)]، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك، وعلى هذا؛ فليس هذا الموجود من القردة والخنازير هو بقية أولئك الممسوخين.

٧ ـ أن العقوبات من جنس العمل؛ لأن هؤلاء الذين مسخوا قردة، والقرد أشبه ما يكون شبهًا بالإنسان، فعلوا فعلاً ظاهره الإباحة والحل وهو محرم، وذلك أنه حرم عليهم الصيد يوم السبت ابتلاء من اللَّه، فإذا جاء يوم السبت امتلأ البحر بالحيتان، وظهرت على سطح الماء، وفي غيره من الأيام تختفي ولا يأتي منها شيء، فلما طال عليهم الأمد صنعوا شباكًا؛ فصاروا ينصبونها في يوم الجمعة ويدعون الحيتان تدخل فيها يوم السبت، فإذا أتى يوم الأحد أخذوها وهذه حيلة ظاهرها الحل، ولكن حقيقتها ومعناها الوقوع في الإثم تمامًا، ولهذا مسخوا إلى حيوان يشبه الإنسان وليس بإنسان، وهو القرد، قال تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، وهو يفيد أن الجزاء من جنس العمل، ويدل عليه صراحة قوله تعالى: ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

٨ ـ أن هؤلاء اليهود صاروا يعبدون الطاغوت؛ لقوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾، ولا شك أنهم حتى الآن يعبدونه؛ لأنهم عبدوا الشيطان وأطاعوه وعصوا اللَّه ورسوله.

وفي الآية نكتة نحوية في قوله: ﴿عَلَيْهِ﴾ و﴿مِنْهُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾؛ فالضمير في ﴿لَعَنَهُ﴾ الهاء، و﴿غَضِبَ عَلَيْهِ﴾ مفرد، و ﴿مِنْهُمُ﴾

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٣) من حديث أم حبيبة بلفظ: **«إن الله لم يجعل لمسخ نسلاً ولا عقبًا وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك»**.

عن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القُذَّة بالقُذَّة، حتى لو دخلوا جُحْر ضبٍّ لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»[1] أخرجاه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القُذَّة بالقُذَّة، حتى لو دخلوا جُحْر ضب لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن» أخرجاه. وهذا سياق مسلم.

قوله «سنن» بفتح المهملة، أي: طريق من كان قبلكم. قال المهلب: الفتح أولى.

جمع، مع أن المرجع واحد، وهو: ﴿مَن﴾.

والجواب: أنه روعي في الإفراد اللفظ، وفي الجمع المعنى، وذلك أنَّ ﴿مَن﴾ اسم موصول صالحة للمفرد وغيره. قال ابن مالك:

ومن وما وأل تساوي ما ذكر

لما ذكر الأسماء الموصولة من المفرد والمثنى والجمع من مذكر ومؤنث قال: ومن وما. . إلخ.

وقال: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ﴾؛ ولم يقل وجعلهم قردة؛ لأن اللعن والغضب عام لهم جميعًا، والعقوبة بمسخهم إلى قردة وخنازير خاص ببعضهم، وليس شاملاً لبني إسرائيل.

ومن فوائد الآية الثالثة ما يلي:

١ ـ ما تضمن سياق هذه الآية من القصة العجيبة في أصحاب الكهف وما تضمنته من الآيات الدالة على كمال قدرة اللّٰه وحكمته.

٢ ـ أن من أسباب بناء المساجد على القبور الغلو في أصحاب القبور؛ لأن الذين غلبوا على أمرهم بنوا عليهم المساجد؛ لأنهم صاروا عندهم محل الاحترام والإكرام فغلوا فيهم.

٣ ـ أن الغلو في القبور ـ وإن قل ـ قد يؤدي إلى ما هو أكبر منه، ولهذا قال النبي ﷺ لعليٍّ حين بعثه: «**ألاَّ تدع قبراً مشرفًا إلا سويته**»[2].

قوله في الحديث: «لتتبعنَّ»: اللام موطئة للقسم، والنون للتوكيد؛ فالكلام مؤكد بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام، والنون، والتقدير: واللّٰه لتتبعن.

قوله: «سنن من كان قبلكم»: فيها روايتان: «سَنَنَ» و«سُنَنَ».

أما «سُنَنَ»؛ بضم السين؛ جمع سُنَّة، وهي الطريق.

وأما «سنن»؛ بالفتح، فهي مفرد بمعنى الطريق.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٦٩)، وأبو داود (٣٢١٨)، والترمذي (١٠٤٩)، والنسائي (٢٠٣١)، وأحمد (٧٤٣، ١٠٦٧).

. . . .

. . . .

و(فَعَل) تأتي مفردة مثل: فنن جمعها أفنان، وسبب جمعها أسباب.

وقوله: «من كان قبلكم»: أي: من الأمم.

وقوله: «لتتعبن سنن من كان قبلكم»: ليس على ظاهره، بل هو عام مخصوص؛ لأننا لو أخذنا بظاهره كانت جميع هذه الأمة تتبع سنن من كان قبلها، لكننا نقول: إنه عام مخصوص؛ لأن في هذه الأمة من لا يتبع كما أخبر النبي ﷺ أنه لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق، وقد يقال: إن الحديث على عمومه وإنه لا يلزم أن تتبع هذه الأمة الأمم السابقة في جميع سننها، بل بعض الأمة يتبعها في شيء وبعض الأمة يتبعها في شيء آخر، وحينئذ لا يقتضي خروج هذه الأمة من الإسلام، وهذا أولى لبقاء الحديث على عمومه، ومن المعلوم أن من طرق من كان قبلنا ما لا يخرج من الملة، مثل: أكل الربا، والحسد، والبغي، والكذب.

ومنه ما يخرج من الملة: كعبادة الأوثان.

السنن: هي الطرائق، وهي متنوعة، منها ما هو اعتداء على حق الخالق، ومنها ما هو اعتداء على حق المخلوق، ولنستعرض شيئًا من هذه السنن:

فمن هذه السنن:

عبادة القبور والصالحين؛ فإنها موجودة في الأمم السابقة وقد وجدت في هذه الأمة، قال تعالى عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

ومن ذلك: الغلو في الصالحين كما وجد في الأمم السابقة وجد في هذه الأمة.

ومنها: دعاء غير الله، وقد وجد في هذه الأمة.

ومنها: بناء المساجد على القبور موجود في السابقين، وقد وجد في هذه الأمة.

ومنها: وصف الله بالنقائص والعيوب؛ فقد قالت اليهود: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقالوا: إن الله تعب من خلق السموات والأرض، وقد وجد في هذه الأمة من قال بذلك أو أشد منه؛ فقد وجد من قال: ليس له يد، ومنهم من قال: لا يستطيع أن يفعل ما يريد فلم يستو على العرش، ولا ينزل إلى السماء الدنيا ولا يتكلم، بل وجد في هذه الأمة من يقول: بأنه ليس داخلاً في العالم، وليس خارجًا عنه ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه؛ فوصفوه بما لا يمكن وجوده، ومنهم من قال: لا تجوز الإشارة الحسية إليه، ولا يفعل، ولا يغضب، ولا يرضى، ولا يحب، وهذا مذهب الأشاعرة.

ومنها: أكل السحت؛ فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: أكل الربا؛ فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: التحيل على محارم الله؛ فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: إقامة الحدود على الضعفاء ورفعها عن الشرفاء؛ فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

. . . .

. . . .

ومنها: تحريف كلام اللَّه عن مواضعه لفظًا ومعنىً؛ كاليهود حين قيل لهم: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، دخلوا على قفاهم، وقالوا: حنطة ولم يقولوا حطة، ووجد في هذه الأمة من فعل كذلك، فحرف لفظ الاستواء إلى الاستيلاء، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وقالوا هم: الرحمن على العرش استولى.

قال ابن القيم: إن اللام في استولى مزيدة زادها أهل التحريف كما زاد اليهود النون في (حطة) فقالوا: (حنطة).

نون اليهود ولام جهمي هما ... في وحي رب العرش زائدتان
أمر اليهود بأن يقولوا حطَّة ... فأبوا وقالوا حنطة لهوان
وكذلك الجهمي قيل له استوى ... فأبى وزاد الحرف للنقصان

ووجد في الأمم السابقة من اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون اللَّه، ووجد في هذه الأمة من يعارض قول النبي ﷺ بقول شيخه.

فإذا تأملت كلام النبي ﷺ وجدته مطابقًا للواقع: «لتتبعن سنن من كان قبلكم»، ولكن يبقى النظر: هل هذا الحديث للتحذير أو للإقرار؟

الجواب: لا شك أنه للتحذير وليس للإقرار؛ فلا يقول أحد: سأحسد وسآكل الربا، وسأعتدي على الخلق؛ لأن الرسول ﷺ قال ذلك، فمن قال ذلك؛ فإننا نقول له: أخطأت؛ لأن قول النبي ﷺ لا شك أنه للتحذير، ولهذا قال الصحابة: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»؟ ثم نقول لهم أيضًا: إن الرسول ﷺ أخبر بأشياء ستقع، ومع ذلك أخبر بأنها حرام بنص القرآن.

فمن ذلك أنه أخبر أن الرجل يكرم زوجته ويعق أمه، وأخبر أن الإنسان يعصي أباه ويدني صديقه[1]، وهذا ليس بجائز بنص القرآن، لكن قصد التحذير من هذا العمل.

ووجد في الأمم السابقة من يقول للمؤمنين: إن هؤلاء لضالون، ووجد في هذه الأمة من يقول للمؤمنين: إن هؤلاء لرجعيون.

فالمعاصي لها أصل في الأمم على حسب ما سبق، ولكن من وفقه اللَّه للهداية اهتدى.

والحاصل: أنك لا تكاد تجد معصية في هذه الأمة إلا وجد لها أصل في الأمم السابقة.

ولا تجد معصية في الأمم السابقة إلا وجدت لها وارثًا في هذه الأمة.

---

(١) جاء ذلك في حديث رواه الترمذي (٢٢١٠) من حديث علي بن أبي طالب بلفظ: «إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء. فقيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: إذا كان المغنم دولاً، والأمانة مغنمًا والزكاة مغرمًا، وأطاع الرجل زوجته وعق أمه، وبر صديقه وجفا أباه، وارتفعت الأصوات في المساجد، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأكرم الرجل مخافة شره، وشربت الخمور ولبس الحرير واتخذت القينات والمعازف، ولعن آخر هذه الأمة أولها؛ فليرتقبوا عند ذلك ريحًا حمراء أو خسفًا ومسخًا» والحديث ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٦٠٨).

. . . .

قوله: «حذو القُذَّة بالقذة» بنصب حذو، على المصدر. والقذة ـ بضم القاف ـ واحدة القذاذ، وهو ريش السهم. أي: لتتعبن طريقهم في كل ما فعلوه، وتشبهوهم في ذلك كما تشبه قذة السهم القذة الأخرى، فوقع كما أخبر ﷺ. وبهذا تظهر مناسبة الآيات للترجمة. وقد وقع كما أخبر، وهو علم من أعلام النبوة.

قوله: «حتى لو دخلوا جُحْر ضَب لدخلتموه» وفي حديث آخر «**حتى لو كان فيهم من يأتي أمه علانية لكان في أمتي من يفعل ذلك**»[1].

أراد ﷺ أن أمته لا تدع شيئًا مما كان يفعله اليهود والنصارى إلا فعلته كله، لا تترك منه شيئًا؛ ولهذا قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا ففيه شبه من النصارى. انتهى.

قلت: فما أكثر الفريقين، لكن من رحمة الله تعالى ونعمته أن جعل هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة؛ كما في حديث ثوبان الآتي قريبًا.

قوله: قالوا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن» هو برفع اليهود؛ خبر مبتدأ محذوف، أي: أهم اليهود والنصارى الذين نتبع سننهم؟ ويجوز النصب بفعل محذوف تقديره: تعني.

أما مناسبة الحديث للباب:

فلأنه لما عبدت الأمم السابقة الأصنام والأوثان؛ فسيكون في هذه الأمة من يعبد الأصنام والأوثان.

قوله: «حذو القذة بالقذة»: حذو بمعنى: محاذيًا، وهي منصوبة على الحال من فاعل تتبعن؛ أي: حال كونكم محاذين لهم حذو القذة بالقذة.

والقذة: هي ريشة السهم، والسهم له ريش لا بد أن تكون متساوية تمامًا، وإلا؛ صار الرمي به مختلاً.

قوله: «حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»: هذه الجملة تأكيد منه ﷺ للمتابعة.

وجحر الضب من أصغر الجحور، ولو دخلوا جحر أسد من باب أولى أن ندخله، فالنبي ﷺ قال ذلك على سبيل المبالغة؛ كقوله ﷺ: «**من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا، طوقه اللَّه به يوم القيامة من سبع أرضين**»[2]، ومن اقتطع ذراعًا؛ فمن باب أولى.

قوله: «قالوا؟ اليهود والنصارى؟»: يجوز فيها وجهان:

الأول: نصب اليهود والنصارى على أنه مفعول لفعل محذوف تقديره: أتعني اليهود والنصارى؟

الثاني: الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أهم اليهود والنصارى؟

وعلى كل تقدير؛ فالجملة إنشائية لأنهم يسألون النبي ﷺ؛ فهي استفهامية، والاستفهام من باب الإنشاء.

واليهود: أتباع موسى عليه الصلاة والسلام، وسمّوا يهودًا نسبة إلى يهوذا من أحفاد إسحاق، أو لأنهم هادوا إلى اللَّه؛ أي: رجعوا إليه بالتوبة من عبادة العجل.

---

(١) حسن: حسنه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٣٤٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٥٢، ٣١٩٨)، ومسلم (١٦١٠).

. . . .

قوله: قال: «فمن» استفهام إنكار. أي: فمن هم غير أولئك؟

والنصارىٰ: هم أتباع عيسىٰ عليه الصلاة والسلام، وسمّوا بذلك نسبة إلىٰ بلدة تسمّىٰ الناصرة.
وقيل: من النصرة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

قوله: «قال فمن»: من هنا: اسم استفهام، والمراد به التقرير؛ أي: فمن أعني غير هؤلاء، أو: فمن هم غير هؤلاء فالصحابة رضي اللَّه عنهم لما حدثهم ﷺ بهذا الحديث كأنه حصل في نفوسهم بعض الغرابة، فلما سألوه قرر النبي ﷺ أنهم اليهود والنصارىٰ.

من فوائد الحديث:

١ ـ ما أراده المؤلف بسياقه، وهو أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان؛ لأنه من سنن من قبلنا، وقد أخبر ﷺ أننا سنتبعهم.

٢ ـ ويستفاد أيضًا من فحوىٰ الكلام التحذير من متابعة من قبلنا في معصية اللَّه.

٣ ـ أنه ينبغي معرفة ما كان عليه من كان قبلنا مما يجب الحذر منه لنحذر، وغالب ذلك ـ وللَّه الحمد ـ موجود في القرآن والسنة.

٤ ـ استعظام هذا الأمر عند الصحابة، لقولهم اليهود والنصارىٰ، فإن الاستفهام للاستعظام؛ أي: استعظام الأمر أن نتبع سنن من كان قبلنا بعد أن جاءنا الهدىٰ مع النبي ﷺ.

٥ ـ أنه كلما طال العهد بين الإنسان وبين الرسالة؛ فإنه يكون أبعد من الحق؛ لأنه أخبر عن مستقبل ولم يخبر عن الحاضر، ولأن من سنن من قبلنا أنه لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم، قال تعالىٰ: **﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾** [الحديد: ١٦].

فإذا كان طول الأمد سببًا لقسوة القلب فيمن قبلنا؛ فسيكون فينا، ويشهد لذلك ما جاء في «البخاري» من حديث أنس رضي اللَّه عنه؛ أنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يأتي على الناس زمان إلا وما بعده أشر منه، حتى تلقوا ربكم**»[1]، ومن تتبع أحوال هذه الأمة وجد الأمر كذلك، لكن يجب أن نعرف الفرق بين الجملة والأفراد؛ فحديث أنس رضي اللَّه عنه حديث صحيح سندًا ومتنًا؛ فالمتن ليس فيه شذوذ، والسند في «البخاري»، والمراد به من حيث الجملة، ولذلك يوجد في أتباع التابعين من هو خير من كثير من التابعين؛ فلا تيأسوا، فتقولوا: إذًا لا يمكن أن يوجد في زماننا هذا مثل من سبق؛ لأننا نقول: إن مثل هذا الحديث يراد به الجملة، وإذا شئتم أن يتضح الأمر؛ فانظروا إلىٰ جنس الرجال وجنس النساء؛ أيهما خير؟

والجواب: جنس الرجال خير، قال تعالىٰ: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ولكن يوجد في النساء من هن خير من كثير من الرجال، فيجب أن نعرف الفرق بين الجملة والأفراد.

(١) صحيح: رواه البخاري (٧٠٦٨)، والترمذي (٢٢٠٦)، وأحمد (١١٩٣٨، ١٢٤٠٦، ١٢٤٢٧).

ولمسلم عن ثوبان: أن رسـول الله ﷺ قـال: «إن الله زوى لـي الأرض، فـرأيت مشارقهـا ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكهـا ما زوي لي منها. وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض. وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنَة بعامَّة، وأن لا يسلط عليهم عـدواً من سوى أنفسهم، فيـستبيح بيـضتهم. وإن ربي قال: يا مـحمد، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد. وإنـي أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامَّة، وأن لا

قال المـصنف رحمـه الله تعالى: ولمسلم عن ثوبان: أن رسـول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مـشارقها ومـغاربها، وإن أمتي سـيبلغ ملكها ما زوي لـي منها. وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض. وإني سـألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنَة بعامَّـة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من

فإن الوثن اسم جامع لكل ما عبد من دون الله لا فرق بين الأشجار والأحجار والأبنية ولا بين الأنبياء والصالحين والطالحين في هذا الموضع وهو العبادة، فإنها حق الله وحده فمن دعا غير الله أو عبده فقد اتخذه وثنًا وخرج بذلك عن الدين ولم ينفعه انتسابه إلى الإسلام، فكم انتسب إلى الإسلام من مشرك وملحد وكافر ومنافق. والعبرة بروح الدين وحقيقته لا بمجرد الأسامي والألفاظ التي لا حقيقة لها.

فإذا نظرنا إلى مجموع القرن كله نجد أن ما بعد القرن شر منه، لا باعتبار الأفراد ولا باعتبار مكان دون مكان؛ فقد تكون أمة في بعض الجهات يرتفع الناس فيها من حسن إلى أحسن، كما لو نشأ فيها علماء نفع الله بهم، فإنهم يكونون أحسن ممن سبقهم.

أما الصحابة؛ فلا أحد يساويهم في فضل الصحبة، حتى أفرادهم لا يمكن لأحد من التابعين أن يساويهم فيها مهما بلغ من الفضل؛ لأنه لم يدرك الصحبة.

مسألة: ما هي الحكمة من ابتلاء الأمة بهذا الأمر: «لتتبعن سنن...» إلخ، وأن يكون فيها من كل مساوئ من سبقها؟

الجواب: الحكمة ليتبين بذلك كمال الدين؛ فإن الدين يعارض كل هذه الأخلاق، فإذا كان يعارضها دلّ هذا على أنَّ كل نقص في الأمم السابقة، فإن هذه الشريعة جاءت بتكميله؛ لأن الأشياء لا تتبين إلا بضدها؛ كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء.

تنبيه:

قوله: «حذو القذة بالقذة» لم أجده في مظانه في «الصحيحين»؛ فليحرر.

قوله: «زوي لي»: بمعنى جمع وضم؛ أي: جمع له الأرض وضمها.

قوله: «فرأيت»: أي: بعيني؛ فهي رؤية عينية، ويحتمل أن تكون رؤية منامية.

قوله: «مشارقها ومغاربها»: وهذا ليس على الله بعزيز؛ لأنه على كل شيء قدير، فمن قدرته أن يجمع الأرض حتى يشاهد النبي ﷺ ما سيبلغ ملك أمته منها.

وهل المراد هنا بالزوي أن الأرض جمعت، أو أن الرسول ﷺ قوي نظره حتى رأى البعيد؟

الأقرب إلى ظاهر اللفظ: أن الأرض جمعت، لا أن بصره قوي حتى رأى البعيد.

أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم. ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا»[1].

سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم. وإن ربي قال: يا محمد، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد. وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامَّة، وأن لا أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم. ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا».

هذا الحديث رواه أبو داود في «سننه»، وابن ماجه، بالزيادة التي ذكرها المصنف.

قوله عن «ثوبان». هو مولى النبي ﷺ. صحبه ولازمه، ونزل بعده الشام. ومات بحمص سنة أربع وخمسين.

قوله: «زوى لي الأرض»: قال التُّورِبِشْتي: زَوَيتُ الشيء، جمعته وقبضته. يريد تقريب البعيد منها، حتى أطلع عليه اطلاعه على القريب.

وحاصله: أنه طوى له الأرض، وجعلها مجموعة كهيئة كف في مرآة ينظره. قال الطيبي: أي: جمعها لي، حتى أبصرت ما تملكه أمتي من أقصى المشارق والمغارب منها.

قوله: «وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها».

وقال بعض العلماء: المراد قوة بصره ﷺ: أن الله أعطاه قوة بصر حتى أبصر مشارق الأرض ومغاربها، لكن الأقرب الأول، ونحن إذا أردنا تقريب هذا الأمر نجد أن صورة الكرة الأرضية الآن مجموعة يشاهد الإنسان فيها مشارق الأرض ومغاربها؛ فالله على كل شيء قدير؛ فهو قادر على أن يجمع له ﷺ الأرض حتى تكون صغيرة فيدركها من مشارقها إلى مغاربها.

اعتراض وجوابه:

فإن قيل: هذا إن حمل على الواقع؛ فليس بموافق للواقع؛ لأنه لو حصرت الأرض بحيث يدركها بصر النبي ﷺ المجرد؛ فأين يذهب الناس والبحار والجبال والصحارى؟

الجواب: بأن هذا من الأمور الغيبية التي لا يجوز أن تورد عليها كيف ولِمَ، بل نقول: إن الله على كل شيء قدير؛ إذ قوة الله - سبحانه - أعظم من قوتنا وأعظم من أن نحيط بها، ولهذا أخبر النبي ﷺ أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم[2]؛ فلا يجوز أن نقول: كيف يجري مجرى الدم؟ فالله أعلم بذلك. وهذه المسائل التي لا ندركها يجب التسليم المحض لها، ولهذا نقول في باب الأسماء والصفات: تجري على ظاهرها مع التنزيه عن التكييف والتمثيل، وهذا ما اتفق عليه أهل السنة والجماعة.

قوله: «فرأيت مشارقها ومغاربها»: أي: أماكن الشرق والغرب منها.

قوله: «وإنَّ أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها»: والمراد: أمة الإجابة التي آمنت بالرسول ﷺ

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٨٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٣٨، ٣٢٨١)، ومسلم (٢١٧٥)، وأبو داود (٢٤٧٠، ٤٩٩٤)، وابن ماجه (١٧٧٩).

قال القرطبي: هذا الخبر وجد مخبره كما قال، وكان ذلك من دلائل نبوته. وذلك أن ملك أمته اتسع إلىٰ أن بلغ أقصىٰ طنجة ـ بالنون والجيم ـ الذي هو منتهىٰ عمارة المغرب، إلىٰ أقصىٰ المشرق مما وراء خراسان والنهر، وكثير من بلاد الهند والسند والصغد. ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال؛ ولذلك لم يذكر عليه السلام أنه أُريه، ولا أخبر أن ملك أمته يبلغه.

قوله: «زوي لي منها»: يحتمل أن يكون مبنيًا للفاعل، وأن يكون مبنيًا للمفعول.

قوله: «وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض» قال القرطبي: يعني بها كنز كسرىٰ، وهو ملك الفرس، وكنز قيصر وهو ملك الروم وقصورهما وبلادهما.

وقد قال ﷺ: **«والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»**[1] وعبر بالأحمر عن كنز قيصر؛ لأن الغالب عندهم كان الذهب، وبالأبيض عن كنز كسرىٰ؛ لأن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة. ووجد ذلك في خلافة عمر، فإنه سيق إليه تاج كسرىٰ وحليته وما كان في بيوت أمواله، وجميع ما حوته مملكته علىٰ سعتها وعظمتها، وكذلك فعل الله بقيصر، والأبيض والأحمر منصوبان علىٰ البدل.

قوله: «وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة»: هكذا ثبت في أصل المصنف رحمه الله تعالىٰ: بعامة. بالباء، وهي رواية صحيحة في «صحيح مسلم» وفي بعضها بحذفها.

سيبلغ ملكها ما زوي للرسول ﷺ منها، وهذا هو الواقع؛ فإن ملك هذه الأمة اتسع من المشرق ومن المغرب اتساعًا بالغًا، لكنه من الشمال والجنوب أقل بكثير، والأمة الإسلامية وصلت من المشرق إلىٰ السند والهند وما وراء ذلك، ومن المغرب إلىٰ ما وراء المحيط، وهذا يحقق ما رآه النبي ﷺ.

قوله: «وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض»: الذي أعطاه هو اللَّه.

والكنزان: هما الذهب والفضة كنوز كسرىٰ وقيصر؛ فالذهب عند قيصر، والفضة عند كسرىٰ، كل منهما عنده ذهب وفضة، لكن الأغلب علىٰ كنوز قيصر الذهب وعلىٰ كنوز كسرىٰ الفضة.

وقوله: «أعطيت»: هل هو ﷺ أعطيها في حياته، أم بعد موته؟

الجواب: بعد موته أعطيت أمته ذلك، لكن ما أعطيت أمته؛ فهو كالمعطي له؛ لأنها امتداد ملك الأمة لا لأنها أمة عربية كما يقوله الجهال، بل لأنها أمة إسلامية أخذت بما كان عليه الرسول ﷺ.

قوله: «وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة»: هكذا في الأصل: «بعامة»، والمعنىٰ بمهلكة عامة، وفي رواية في بعض النسخ: «بسنة عامة».

السنة: الجدب والقحط، وهو يهلك ويدمر، قال ﷺ: **«اللَّهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف»**[2]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، ويحتمل أن يكون المعنىٰ بعام واحد؛ فتكون الباء للظرفية. وعامة؛ أي: عمومًا تعمهم، هذه دعوة.

قوله: «وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم»: أي: لا يُسلط عليهم

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣١٢٠) ومواضع، ومسلم (٢٩١٨).

(٢) صحيح: وقد تقدم.

. . . .

قال القرطبي: وكأنها زائدة؛ لأن عامة صفة السنة، والسنة: الجدب الذي يكون به الهلاك العام. ويسمىٰ الجدب والقحط: سنة. ويجمع علىٰ سنين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠] أي: الجدب المتوالي.

قوله: «وأن لا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم»: أي: من غيرهم من الكفار: من إهلاك بعضهم بعضًا، وسبي بعضهم بعضًا، كما هو مبسوط في التاريخ فيما قبل، وإلىٰ زماننا هذا. نسأل الله العفو والعافية.

قوله: «فيستبيح بيضتهم» قال الجوهري: بيضة كل شيء: حوزته. وبيضة القوم: ساحتهم. وعلىٰ هذا فيكون معنىٰ الحديث: إن الله تعالىٰ لا يسلط العدو علىٰ كافة المسلمين حتىٰ يستبيح جميع ما حازوه من البلاد والأرض، ولو اجتمع عليهم من بأقطار الأرض، وهي جوانبها. وقيل: بيضتهم معظمهم وجماعتهم وإن قلوا.

قوله: «حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا»: والظاهر أن حتىٰ عاطفة، أو تكون لانتهاء الغاية. أي: أن أمر الأمة ينتهي إلىٰ أن «يكون بعضهم يهلك بعضًا» الحديث. وقد يسلَّطُ بعضهم علىٰ بعض، كما هو الواقع؛ وذلك لكثرة اختلافهم وتفرقهم.

قوله: «وإن ربي قال: يا محمد، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد» قال بعضهم: أي: إذا حكمت

عدوًا، والعدو: ضد الولي، وهو: المعادي المبغض الحاقد، وأعداء المسلمين هنا: هم الكفار، ولهذا قال: «من سوى أنفسهم». ومعني: «يستبيح»: يستحل، والبيضة: ما يجعل علىٰ الرأس وقاية من السهام. والمراد: يظهر عليهم ويغلبهم.

قوله: «إذا قضيت قضاء؛ فإنه لا يرد»: اعلم أن قضاء اللَّه نوعان:

١ ـ قضاء شرعي قد يرد؛ فقد يرده اللَّه ولا يقبلونه.

٢ ـ قضاء كوني لا يرد، ولا بد أن ينفذ. وكلا القضاءين قضاء بالحق، وقد جمعهما قوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ [غافر: ٢٠]. ومثال القضاء الشرعي: قوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ لأنه لو كان كونيًا؛ لكان كل الناس لا يعبدون إلا اللَّه. ومثال القضاء الكوني: قوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤]؛ لأن اللَّه تعالىٰ لا يقضي شرعًا بالفساد؛ لكنه يقضي به كونًا وإن كان يكرهه سبحانه؛ فإن اللَّه لا يحب الفساد ولا المفسدين، لكنه يقضي بذلك لحكمة بالغة، كما قسم خلقه إلىٰ مؤمن وكافر؛ لما يترتب علىٰ ذلك من المصالح العظيمة. والمراد بالقضاء في هذا الحديث: القضاء الكوني؛ فلا أحد يستطيع ردّه مهما كان من الكفر والفسوق؛ فقضاء اللَّه نافذ علىٰ أكبر الناس عتوًا واستكبارًا، فقد نفذ علىٰ فرعون وأُغرق بالماء الذي كان يفتخر به، وعلىٰ طواغيت بني آدم فأهلكهم اللَّه ودمَّرهم.

وفي قوله: «إذا قضيت قضاء؛ فإنه لا يرد» من كمال سلطان اللَّه وقدرته وربوبيته ما هو ظاهر؛ لأنه ما من ملك سوىٰ اللَّه إلا يمكن أن يرد ما قضىٰ به. واعلم أن قضاء اللَّه كمشيئته بالحكمة؛ فهو لا يقضي قضاء إلا والحكمة تقتضيه، كما لا يشاء شيئًا إلا والحكمة تقتضيه، ويدل عليه قوله تعالىٰ:

. . . .

حكمًا مبرمًا نافذًا فإنه لا يرد بشيء، ولا يقدر أحد على رده؛ كما قال النبي ﷺ: «**ولا راد لما قضيت**»[(١)].

﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾ [الإنسان: ٣٠]؛ فيتبين أنه لا يشاء شيئًا إلا عن علم وحكمة، وليس لمجرد المشيئة. خلافًا لمن أنكر حكمة اللَّه من الجهمية وغيرهم، فقالوا: إنه لا يفعل الأشياء إلا لمجرد المشيئة، فجعلوا على زعمهم المخلوقين أكمل تصرفًا من اللَّه؛ لأن كل عاقل من المخلوقين لا يتصرف إلا لحكمة، ولهذا كان الذي يتصرف بسفه يحجر عليه، قال تعالى: ﴿**وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا**﴾ [النساء: ٥]. فنحن نقول: إن اللَّه - جل وعلا - لا يفعل شيئًا ولا يحكم بشيء إلا لحكمة، ولكن هل يلزم من الحكمة أن نحيط بها علمًا؟

الجواب: لا يلزم؛ لأننا أقصر من أن نحيط علمًا بحكم اللَّه كلها، صحيح أنَّ بعض الأشياء نعرف حكمتها، لكن بعض الأشياء تعجز العقول عن إدراكها. والمقصود من قوله: «**إذا قضيت قضاء؛ فإنه لا يرد**» بيان أن من الأشياء التي سألها النبي ﷺ ما لم يعطها؛ لأن اللَّه قضى بعلمه وحكمته ذلك، ولا يمكن أن يرد قضاء اللَّه - عز وجل -. والقضاء قد يتوقف على الدعاء، بل إن كان القضاء - أو أكثر القضاء - له أسباب؛ فدخول الجنة لا يمكن إلا بسبب يترتب دخول الجنة عليه، وهو الإيمان والعمل الصالح. كذلك حصول المطلوب، قد يكون الله - عز وجل - منعه حتى نسأل، لكن من الأشياء ما لا تقتضي الحكمة وجوده، وحينئذ يجازي الداعي بما هو أكمل، أو يؤخر له ويدخر له عند اللَّه - عز وجل - أو يصرف عنه من السوء ما هو أعظم، والدعاء إذا تمت فيه شروط القبول ولم يجب؛ فإننا نجزم بأنه ادخر له.

وقوله: «**وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة**»: هذه واحدة.

والثانية: قوله: «**أن لا أسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا**»: وهذه الإجابة قيدت بقوله: «**حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا**» إذا وقع ذلك منهم؛ فقد يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم؛ فكأن إجابة اللَّه لرسوله ﷺ في الجملة الأولى بدون استثناء، وفي الجملة الثانية باستثناء «**حتى يكون بعضهم...**».

وهذه هي الحكمة من تقديم قوله: «**إذا قضيت قضاء؛ فإنه لا يرد**»؛ فصارت إجابة اللَّه لرسوله ﷺ مقيدة. ومن نعمة اللَّه أن هذه الأمة لن تهلك بسنة بعامة أبدًا؛ فكل من يدين بدين الرسول ﷺ؛ فإنه لن يهلك، وإن هلك قوم في جهة بسنة؛ فإنه لا يهلك الآخرون. فإذا صار بعضهم يقتل بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا؛ فإنه يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم، وهذا هو الواقع؛ فالأمة الإسلامية حين كانت أمة واحدة عونًا في الحق ضد الباطل كانت أمة مهيبة، ولما تفرقت وصار بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا؛ سلط اللَّه عليهم عدوًا من سوى أنفسهم، وأعظم من سلط عليهم فيما أعلم التتار، فقد سلطوا على المسلمين تسليطًا لا نظير له؛ فيقال: إنهم قتلوا في بغداد وحدها أكثر من

---

(١) صحيح: صححه الحافظ ابن حجر في الفتح (٢/ ٣٣٣).

ورواه البرقاني في «صحيحه»، وزاد: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين. وإذا وقع عليهم السيف لم يُرفع إلى يوم القيامة. ولا تقوم الساعة حتى يَلْحَقَ حيٌّ من أمتي بالمشركين، وحتى تَعْبُدَ فِئَامٌ من أمتي الأوثان. وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي. وأنا خاتم النبيين، ولا نبي بعدي. ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله، تبارك وتعالى»[1].

قوله: «ورواه البرقاني في صحيحه». هو الحافظ الكبير، أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد ابن غالب الخوارزمي الشافعي. ولد سنة ستٍ وثلاثين وثلاثمائة، ومات سنة خمسٍ وعشرين وأربعمائة.

قال الخطيب: كان ثبتًا ورعًا، لم نر في شيوخنا أثبت منه، عارفًا بالفقه. كثير التصانيف، صنف «مسندًا» ضمنه ما اشتمل عليه «الصحيحان»، وجمع حديث الثوري، وحديث شعبة، وطائفة.

وهذا الحديث رواه أبو داود بتمامه، بسنده إلى أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله ـ أو قال: إن ربي ـ زوى لي الأرض، فرأيت مشارق الأرض ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة[2]، ولا يسلط عليها عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال لي: يا محمد، إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد، ولا أهلكهم بسنة عامة، ولا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها ـ أو قال: بأقطارها ـ حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، وحتى يكون بعضهم يسبي بعضًا، وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين. وإذا وضع السيف في أمتي لم يرتفع عنها إلى يوم القيامة. ولا تقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان. وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق ـ قال ابن عيسى: ظاهرين، ثم اتفقا ـ لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله»**[3][4].

خمسمائة عالم في يوم واحد، وهذا شيء عظيم، وقتلوا الخليفة، وجعلوا الكتب الإسلامية جسراً على نهر دجلة يطؤونها بأقدامهم ويفسدونها، وكانوا يأتون إلى الحوامل ويبقرون بطونهن ويخرجون أولادهن يتحركون أمامهم فيقتلونهم، وهي حية تشاهد ثم تموت.

قال ابن الأثير في «الكامل»: «لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها كارهًا لذكرها فأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟! فيا ليت أمي لم تلدني! ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا! إلا أني حثني

(١) صحيح: رواه أبو داود في سننه (٤٢٥٢)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٤/٢٥٢، ١٩٥٧).

(٢) الذي في سنن أبي داود (ج٤ص١٥) مع شرح عون المعبود - وهي طبعة هندية مصححة بدقة- (بسنة بعامة) وقال في عون المعبود: وفي رواية مسلم: (بسنة بعامة) في باب الفتن. (ق).

(٣) قال في عون المعبود: إسناده صحيح. (ق).

(٤) صحيح: وقد تقدم تخريجه.

. . . .

وروى أبو داود أيضًا، عن عبد الله بن مسعود، عن النبيﷺ أنه قال: «**تدور رحى الإسلام لخمس وثلاثين، أو ست وثلاثين أو سبع وثلاثين، فإن يهلكوا فسبيل من هلك، وإن يقم لهم دينهم يقم سبعين عامًا**»، قال: قلتُ: أمما بقي أو مما مضى؟ قال: «**مما مضى**»[(١)(٢)].

وروى في «سننه» أيضًا، عن أبي هريرة، قال: قال رسول اللهﷺ: «**يتقارب الزمان وينقص العلم، وتظهر الفتن، ويُلقى الشُحُّ، ويكثر الهرج**» قيل: يا رسول الله، أيه هو؟ قال: «**القتل القتل**»[(٣)].

قوله: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»: أي: الأمراء والعلماء والعباد، فيحكمون فيهم بغير علم فيضلونهم[(٤)]، كما قال تعالى ﴿**وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ**﴾ [الأحزاب: ٦٧].

وكان بعض هؤلاء يقول لأصحابه: من كان له حاجة فليأت إلى قبري فإني أقضيها له، ولا خير في رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب، أو نحو هذا.

وهذا هو الضلال البعيد؛ يدعو أصحابه إلى أن يعبدوه من دون الله، ويسألوه مالا يقدر عليه من قضاء حاجاتهم، وتفريج كرباتهم، وقد قال تعالى: ﴿**يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ**﴾ [الحج: ١٢، ١٣]، وقال تعالى: ﴿**وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا**﴾ [الفرقان: ٣] وقال تعالى: ﴿**فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ**

جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ذلك لا يجدي...». وذكر كلامًا طويلاً ووقائع مفجعة، ومن أراد مزيدًا من ذلك؛ فليرجع إلى حوادث سنة ٦١٧ من الكتاب المذكور.

وفي الحديث دليل على تحريم القتال بين المسلمين، وإهلاك بعضهم بعضًا، وسبي بعضهم بعضًا، وأنه يجب أن يكونوا أمة واحدة حتى تبقى هيبتهم بين الناس وتخشاهم الأمم.

قوله: «إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»: **بين الرسولﷺ أنه لا يخاف على الأمة إلا الأئمة المضلين.**

والأئمة: جمع إمام، والإمام قد يكون إمامًا في الخير أو الشر، قال تعالى في أئمة الخير: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال تعالى عن آل فرعون أئمة: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ**﴾ [القصص: ٤١]

---

(١) قال الحافظ أبو الحجاج يوسف المزي في كتاب الأطراف: وأخرجه البخاري في الصحيح في الأدب وفي الفتن؛ ومسلم في القدر، وأبو داود في الفتن.(ق).

(٢) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٩٧٦).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٦٠٣٧، ٧٠٦١)، ومسلم (١٥٧).

(٤) في قرة العيون: كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾[الأنعام: ١١٩] وقال: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ﴾[الصافات: ٧١] وأمثال هذه الآيات كثير، وعن زياد بن حدير قال: قال لي عمر: (هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت: لا، قال: يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب؛ وحكم الأئمة المضلين). رواه الدارمي. (ق).

. . . .

تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧] وأمثال هذا في القرآن كثير، يبين تعالىٰ الهدىٰ من الضلال.

ومن هذا الضرب: من يدعي أنه يصل مع الله إلىٰ حال تسقط عنهم التكاليف، أو يدعي أن الأولياء يدعون أو يستغاث بهم في حياتهم ومماتهم. وأنهم ينفعون ويضرون ويدبرون الأمور علىٰ سبيل الكرامة، أو أنه يطلع علىٰ اللوح المحفوظ، ويعلم أسرار الناس وما في ضمائرهم.

أو يُجوِّز بناء المساجد علىٰ قبور الأولياء والصالحين، وإيقادها بالسرج، ونحو ذلك من الغلو والإفراط والعبادة لغير الله. فما أكثر هذا الهذيان والكفر، والمحادة لله ولكتابه ولرسوله

وقوله ﷺ: «وإنما أخاف على أمتي **الأئمة المضلين**» أتىٰ بإنما، التي قد تأتي للحصر، بيانًا لشدة خوفه علىٰ أمته من أئمة الضلال. وما وقع في خلد النبي ﷺ من ذلك، إلا لما أطلعه الله عليه من غيبه أن سيقع نظير ما في الحديث قبله من قوله: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**» الحديث.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون**»[(١)] رواه الطيالسي. وعن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**»[(٢)] رواه الدارمي.

وقد بين الله تعالىٰ في كتابه صراطه المستقيم، الذي هو سبيل المؤمنين. فكل من أحدث حدثًا ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ فهو ملعون، وحدثُه مردود؛ كما قال ﷺ: «**من أحدث حدثًا، أو آوى محدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلاً**»[(٣)].

وقال: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[(٤)].

وقال: «كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»[(٥)].

وهذه أحاديث صحيحة، مدار أصول الدين وأحكامه علىٰ هذه الأحاديث ونحوها. وقد بين الله تعالىٰ هذا الأصل في مواضع من كتابه العزيز، كما قال تعالىٰ: **﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾** [الأعراف: ٣] وقال **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ**

والذي في حديث الباب: «**الأئمة المضلين**»، أئمة الشر، وصدق النبي ﷺ، إن أعظم ما يخاف علىٰ الأمة الأئمة المضلون، كرؤساء الجهمية والمعتزلة وغيرهم الذين تفرقت الأمة بسببهم.

والمراد بقوله: «**الأئمة المضلين**»: الذين يقودون الناس باسم الشرع، والذين يأخذون الناس بالقهر والسلطان؛ فيشمل الحكام الفاسدين، والعلماء المضلين، والذين يدعون أن ما هم عليه شرع اللَّه، وهم أشد الناس عدواة له.

قال الإمام أحمد رحمه اللَّه: لو كان لي دعوة مستجابة؛ لصرفتها للسلطان؛ فإن بصلاحه صلاح الأمة.

---

(١) صحيح: صحيح الجامع (١٥٥١).
(٢) رواه الدارمي في سننه (٢١١).
(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٨٧٠) ومواضع، ومسلم (١٣٧٠).
(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).
(٥) صحيح: صحيح الجامع (٢٥٤٩).

. . . .

الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ الآية [الجاثية ١٨، ١٩] ونظائرها في القرآن كثيرة.

وعن زياد بن حُدير، قال: قال لي عمر: هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت: لا، قال: يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحُكمُ الأئمة المضلين[1]. رواه الدارمي.

وقال يزيد بن عميرة: كان معاذ بن جبل لا يجلسُ مجلسًا للذكر إلا قال: الله حكم قسط، هلك المرتابون ـ وفيه ـ: واحذروا زيغة الحكيم؛ فإن الشيطان قد يقول الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق. قلت لمعاذ: وما يدريني ـ رحمك الله ـ أن الحكيم قد يقول كلمة الضلال، والمنافق قد يقول كلمة الحق؟ قال: قال لي: اجتنب من كلام الحكيم المشتبهات التي يقال: ما هذه؟ ولا يثنينك عنه، فإنه لعله يراجع الحق، وتلق الحق إذا سمعته، فإن على الحق نوراً[2]. رواه أبو داود، وغيره.

وقوله: «وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة» وكذلك وقع، فإن السيف لما وقع بقتل عثمان رضي الله عنه لم يرفع، وكذلك يكون إلى يوم القيامة، ولكن قد يكثر تارة، ويقل أخرى. ويكون في جهة، ويرتفع عن أخرى[3].

قوله: «ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين» الحي واحد الأحياء، وهي القبائل. وفي رواية أبي داود: **«حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين»**.

والمعنى: أنهم يكونون معهم، ويرتدون؛ برغبتهم عن أهل الإسلام، ولحوقهم بأهل الشرك.

قوله: «وحتى تعبد فئَامٌ من أمتي الأوثان» والفئام ـ مهموز ـ: الجماعات الكثيرة: قاله أبو السعادات.

وفي رواية أبي داود: **«وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان»**.

وهذا هو شاهد الترجمة. ففيه: الرد على من قال بخلافه من عباد القبور، الجاحدين لما يقع منهم

قوله: «وإذا وقع عليهم السيف...» إلخ: هذا من آيات النبي ﷺ، وهذا حق واقع؛ فإنه لما وقع السيف في هذه الأمة لم يرفع، فما زال بينهم القتال منذ قتل الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه، وصارت الأمة يقتل بعضهم بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا.

قوله: «ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين»: الحي: بمعنى القبيلة.

وهل المراد باللحوق هنا اللحوق البدني، بمعنى أنه يذهب هذا الحي إلى المشركين ويدخلون فيهم، أو اللحوق الحكمي، بمعنى أن يعملوا بعمل المشركين، أو الأمران معًا؟

الظاهر أن المراد جميع ذلك.

وأما الحي؛ فالظاهر أن المراد به الجنس، وليس واحد الأحياء، وإن قيل: إن المراد واحد الأحياء؛

---

(١) رواه الدارمي في سننه (٢١٤) موقوفًا على عمر رضي الله عنه. (٢) صحيح الإسناد موقوف: رواه أبو داود في سننه (٤٦١١).

(٣) في قرة العيون: وفيه ما هو حق، كقتال أهل التوحيد لأهل الشرك بالله، وجهادهم على تركهم الشرك، وقد من الله بذلك على من أقامهم في آخر هذا الزمان بالدعوة إلى توحيده، لكن أهل الشرك بدؤوهم بالقتال، وأظهرهم الله عليهم كما لا يخفى على من تدبر آيات هذا الدين في هذه الأزمنة. اهـ.(ق).

من الشرك بالله بعبادتهم الأوثان. وذلك لجهلهم بحقيقة التوحيد وما يناقضه من الشرك والتنديد [١]، فالتوحيد هو أعظم مطلوب، والشرك هو أعظم الذنوب.

وفي معنىٰ هذا الحديث: ما في «الصحيحين»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، مرفوعًا: **«لا تقوم الساعة حتى تضطرب أَلْيَاتُ نساء دَوْس على ذي الخَلَصة»**. قال: وذو الخلصة، طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية [٢]. وروىٰ ابن حبان، عن معمر، قال: إن عليه الآن بيتًا مبنيًا مغلقًا.

قال العلامة ابن القيم - في قصة هدم اللات لما أسلمت ثقيف -: فيه أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت - بعد القدرة علىٰ هدمها وإبطالها - يومًا واحدًا.

وكذلك حكم المشاهد التي بنيت علىٰ القبور، والتي اتخذت أوثانًا تعبد من دون الله. والأحجار التي تقصد للشرك والنذر، لا يجوز إبقاء شيء منها علىٰ وجه الأرض مع القدرة علىٰ إزالتها. وكثير منها بمنزلة اللات والعزىٰ ومناة، وأعظم شركًا عندها وبها. فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم، وسلكوا سبيلهم حذو القُذَّة بالقذة، وغلب الشرك علىٰ أكثر النفوس؛ لظهور الجهل وخفاء العلم. فصار المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، والسنة بدعة والبدعة سنة. وطمست الأعلام، واشتدت غربة الإسلام، وقلَّ العلماء، وغلب السفهاء، وتفاقم الأمر، واشتد البأس، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس.

ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمدية بالحق قائمين، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين، إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. انتهىٰ ملخصًا.

فلا بد أن يكون لهذا الحي أثره وقيمته في الأمة الإسلامية، بحيث يتبين ويظهر، وربما يكون لهذا الحي إمام يزيغ - والعياذ بالله - ويفسد؛ فيتبعه كل الحي، ويتبين ويظهر أمره.

قوله: «وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان»: الفئام؛ أي: الجماعات، وهذا وقع؛ ففي كل جهة من جهات المسلمين من يعبدون القبور ويعظمون أصحابها ويسألونهم الحاجات والرغبات ويلتجئون إليهم، وفئام؛ أي: ليسوا أحياء؛ فقد يكون بعضهم من قبيلة، والبعض الآخر من قبيلة؛ فيجتمعون.

---

(١) في قرة العيون: وقد استحكمت الفتنة بعبادة الأوثان حتى إنه لا يعرف أحد في هذه القرون المتأخرة أنكر ما وقع من ذلك حتى أقام الله شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى الذي أنكره ونهى عنه. ودعا الناس إلى تركه وإلى أن يعبدوا الله وحده لا شريك له في ألوهيته وأسمائه وصفاته. فرماه الملوك وأتباعهم عن قوس العداوة. فأظهره الله بالحجة، وأعز أنصاره على من ناوأهم. وبلغت دعوته مشارق الأرض ومغاربها؛ ولكن من الناس منهم من عرف ومنهم من أنكر. وانتفع بدعوته الكثير من أهل نجد والحجاز وعمان وغيرها. فلله الحمد على هذه النعمة العظيمة جعلنا الله لها شاكرين.

قال أبو طاهر -غفر الله لهما-: وإنما أظهره الله بتوفيق آل سعود للانضواء تحت راية التوحيد الذي دعا إليه الشيخ ابن عبد الوهاب. فكان لحديدهم مع بينات الشيخ هذا الأثر في ظهور كلمة التوحيد وقيام دولة مرهوبة الجانب لأهل التوحيد تصديقًا لقول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥] والله نسأل أن يديم توفيقهم ويوفق ملوك المسلمين لمثل ما وفقهم له. (ق).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٧١١٦)، ومسلم (٢٩٠٦).

. . . .

قلت: فإذا كان هذا في القرن السابع وقبله، فما بعده أعظم فساداً [كما هو الواقع].

قوله: «وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي»:

قال القرطبي: وقد جاء عددهم معيناً في حديث حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ **«يكون في أمتي كذابون دجالون سبع وعشرون، منهم أربع نسوة»**(١) أخرجه أبو نعيم. وقال: هذا حديث غريب. انتهى.

وحديث ثوبان أصح من هذا.

قال القاضي عياض: عُدَّ من تنبأ من زمن رسول الله ﷺ إلى الآن - ممن اشتهر بذلك، وعرف واتبعه جماعة على ضلالته - فوجد هذا العدد فيهم، ومن طالع كتب الأخبار والتواريخ عرف صحة هذا(٢).

وقال الحافظ: قد ظهر مصداق ذلك في زمن النبي ﷺ: فخرج مسيلمة الكذاب باليمامة، والأسود العنسي باليمن. وفي خلافة أبي بكر: طليحة بن خويلد في بني أسد بن خزيمة، وسجاح في بني تميم. وقتل الأسود قبل أن يموت النبي ﷺ، وقتل مسيلمة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه. وتاب طليحة ومات على الإسلام في زمن عمر رضي الله عنه، ونقل أن سجاح تابت أيضاً.

ثم خرج المختار ابن أبي عبيد الثقفي، وغلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير. فأظهر محبة أهل البيت، ودعا الناس إلى طلب قتلة الحسين، فتتبعهم فقتل كثيراً ممن باشر ذلك وأعان عليه، فأحبه الناس. ثم ادعى النبوة، وزعم أن جبريل عليه السلام يأتيه. ومنهم الحارث الكذاب، خرج في خلافة عبد الملك بن مروان فقتل. وخرج في خلافة بني العباس جماعة.

وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقاً، فإنهم لا يحصون كثرة؛ لكون غالبهم ينشأ عن جنون

قوله: «وإنَّه سيكون من أمتي كذابون ثلاثون»: حصرهم النبي ﷺ بعدد، وكلهم يزعم أنه نبي أوحي إليه، وهم كذابون؛ لأن النبي ﷺ خاتم النبيين ولا نبي بعده، فمن زعم أنه نبي بعد الرسول ﷺ؛ فهو كاذب كافر حلال الدم والمال، ومن صدقه في ذلك؛ فهو كافر حلال الدم والمال، وليس من المسلمين ولا من أمة محمد ﷺ، ومن زعم أنه أفضل من محمد، وأنه يتلقى من اللَّه مباشرة ومحمد ﷺ يتلقى منه بواسطة الملك؛ فهو كاذب كافر حلال الدم والمال.

قوله: «كذابون ثلاثون»: هل ظهروا أم لا؟

الجواب: ظهر بعضهم، وبعضهم ينتظر؛ لأن النبي ﷺ لم يحصرهم في زمن معين، وما دامت الساعة لم تقم؛ فهم يُنتظرون.

قوله: «كلهم يزعم»: أي: يدعي.

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٣/ ١٦٩)، وفي عون المعبود أن إسناده جيد.

(٢) للسيد صديق حسن خان كتاب: (الإذاعة لما كان ويكون بين يدي الساعة). عد فيه أولئك الدجالين إلى زمنه؛ وعد منهم الدجال الإفرنجي الخبيث غلام أحمد القادياني الهندي قبحه الله وأخزاه، ومن اتبعه على كفره، فإنه ما قام بفتنته وادعى المهدوية ثم النبوة إلا بإيعاز ومساعدة دولة نصرانية، سياستها التفريق لجماعات المسلمين. (ق).

. . . .

أو سوداء. وإنما المراد من قامت له شوكة، وبدا له شبهة كمن وصفنا. وقد أهلك الله تعالىٰ من وقع منهم ذلك، وبقي منهم من يلحقه بأصحابه، وآخرهم الدجال الأكبر.

قوله: «وأنا خاتم النبيين»: قال الحسن: خاتم: الذي ختم به، أي: أنه آخر النبيين كما قال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وإنما ينزل عيسىٰ ابن مريم في آخر الزمان، حاكمًا بشريعة محمد ﷺ مصليًا إلىٰ قبلته. فهو كأحد أمته، بل هو أفضل هذه الأمة؛ قال النبي ﷺ «**والذي نفسي بيده لينزلن فيكم ابنُ مريم حكمًا مقسطًا. فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية**»[١].

قوله: «ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم».

قال يزيد بن هارون، وأحمد بن حنبل: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم؟

قال ابن المبارك، وعلي بن المديني، وأحمد بن سنان، والبخاري، وغيرهم: إنهم أهل الحديث.

وعن ابن المديني، رواية: هم العرب. واستدل برواية من روىٰ: هم أهل الغرب[٢]. وفسر الغرب بالدلو العظيمة؛ لأن العرب هم الذين يستقون بها.

قال النووي: يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة، من أنواع المؤمنين ما بين شجاع وبصير بالحرب، وفقيهٍ ومحدث ومفسر، وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وزاهدٍ وعابد. ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد، وافتراقهم في أقطار الأرض،

قوله: «وأنا خاتم النبيين»: أي: آخرهم، وأكد ذلك بقوله: «**لا نبي بعدي**»، فإن قيل: ما الجواب عما ثبت في نزول عيسىٰ ابن مريم في آخر الزمان، مع أنه نبي ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام؛ فالجواب: إن نبوته سابقة لنبوة محمد ﷺ، وأما كونه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام؛ فليس تشريعًا جديدًا ينسخ قبول الجزية، بل هو تشريع من محمد ﷺ؛ لأنه أخبر به مقررًا له.

قوله: «ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة»: المعنىٰ: أنهم يبقون إلىٰ آخر وجودهم منصورين. هذا من نعمة الله، فلما ذكر أن حيًا من الأحياء يلتحقون بالمشركين، وأن فئامًا يعبدون الأصنام، وأن أناسًا يدعون النبوة؛ فيكون هنا الإخلال بالشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله بالشرك، وأن محمدًا رسول الله بادعاء النبوة، وذلك أصل التوحيد، بل أصل الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

فلما بين ذلك لم يجعل الناس ييأسون، فقال: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة**».

والطائفة: الجماعة.

وقوله: «على الحق»: جار ومجرور خبر تزال.

قوله: «منصورة»: خبر ثان، ويجوز أن يكون حالاً، والمعنىٰ: لا تزال علىٰ الحق، هي كذلك أيضًا منصورة.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٢٢٢) ومواضع، ومسلم (١٥٥). (٢) صحيح: رواه مسلم (١٩٢٥).

....

ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد، وأن يكونوا في بعض دون بعض منه، ويجوز إخلاء الأرض من بعضهم أولاً فأولاً، إلىٰ أن لا يبقىٰ إلا فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا جاء أمر الله.

انتهىٰ ملخصًا، مع زيادة فيه. قاله الحافظ.

قال القرطبي: وفيه دليل علىٰ أن الإجماع حجة؛ لأن الأمة إذا اجتمعت فقد دخل فيهم الطائفة المنصورة[1].

قال المصنف: وفيه: الآية العظيمة، أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم. والبشارة بأن الحق لا يزول بالكلية.

قلت: واحتج به الإمام أحمد علىٰ أن الاجتهاد لا ينقطع، ما دامت هذه الطائفة موجودة.

قوله: «حتى يأتي أمر الله»: الظاهر أن المراد به ما روي من قبض من بقي من المؤمنين بالريح الطيبة، ووقوع الآيات العظام.

ثم لا يبقىٰ إلا شرار الناس؛ كما روىٰ الحاكم: أن عبد الله بن عمرو، قال لا تقوم الساعة إلا علىٰ شرار الخلق، هم شر أهل الجاهلية. فقال عقبة بن عامر لعبد الله: أعلمُ ما تقول، وأما أنا فسمعت النبي ﷺيقول: **«لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله، ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»** فقال عبد الله: ويبعث الله ريحًا ريحها المسك، ومسُّها مسُّ الحرير،

قوله: «لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم»: خذلهم؛ أي: لم ينصرهم ويوافقهم علىٰ ما ذهبوا إليه، وفي هذا دليل علىٰ أنه سيوجد من يخذلهم، لكنه لا يضرهم؛ لأن الأمور بيد اللَّه، وقد قال ﷺ: **«واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللَّه عليك»**[2]، وكذلك لا يضرهم من خالفهم؛ لأنهم منصورون بنصر اللَّه؛ فاللَّه -عز وجل- إذا نصر أحدًا فلن يستطيع أحد أن يذله.

قوله: «حتى يأتي أمر اللَّه»: أي: الكوني، وذلك عند قيام الساعة عندما يأتي أمره سبحانه وتعالىٰ بأن تقبض نفس كل مؤمن، حتىٰ لا يبقىٰ إلا شرار الخلق؛ فعليهم تقوم الساعة.

الشاهد من هذا الحديث: قوله في رواية البرقاني: **«حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين ويعبد فئام من أمتي الأوثان»**.

قوله: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة»: هذه لم يحدد مكانها؛ فتشمل جميع بقاع الأرض في الحرمين والعراق وغيرهما.

فالمهم أن هذه الطائفة مهما نأت بهم الديار؛ فهي طائفة واحدة منصورة علىٰ الحق لا يضرهم من

---

(١) المراد من الإجماع: إجماع كل من يعتد به من هذه الأمة في جميع أقطار الأرض ومعرفة ذلك غير متيسرة إلا فيما هو معلوم بالضرورة كالصلوات والصيام ونحوه، ولذلك يروى عن الشافعي وأحمد أن من ادعى الإجماع بعد الصحابة فقد أخطأ. (ق).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٤) ومواضع، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧٩٥٧).

. . . .

فلا تترك أحداً في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، ثم يبقىٰ شرار الناس، فعليهم تقوم الساعة(١).

وفي «صحيح مسلم» «**لاتقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله**»(٢).

وعلىٰ هذا: فالمراد بقوله في حديث عقبة وما أشبهه «**حتى تأتيهم الساعة**» ساعتهم، وهي وقت موتهم بهبوب الريح. ذكره الحافظ. وقد اختُلف في محل هذه الطائفة، فقال ابن بطال: إنها تكون في بيت المقدس؛ كما رواه الطبراني، من حديث أبي أمامة، قيل: يا رسول الله، وأين هم؟ قال: «**ببيت المقدس**» وقال معاذ بن جبل: هم بالشام.

وفي كلام الطبري ما يدل علىٰ أنه لا يجب أن تكون في الشام أو في بيت المقدس دائمًا، بل قد تكون في موضع آخر في بعض الأزمنة. قلت: ويشهد له الواقع، وحال أهل الشام وأهل بيت المقدس. [فإنهم] من أزمنة طويلة لا يعرف فيهم من قام بهذا الأمر بعد شيخ الإسلام ابن تيمية وأصحابه، في القرن السابع وأول الثامن. فإنهم علىٰ الحق يدعون إليه، ويناظرون عليه، ويجاهدون فيه. وقد يجيء من أمثالهم بعد بالشام من يقوم مقامهم بالدعوة إلىٰ الحق والتمسك بالسنة، والله علىٰ كل شيء قدير. ومما يؤيد هذا: أن أهل الحق والسنة في زمن الأئمة الأربعة، وتوافر العلماء في ذلك الزمان وقبله وبعده، لم يكونوا في محل واحد. بل هم في غالب الأمصار: في الشام منهم أئمة، وفي الحرمين، وفي مصر، وفي العراق، وفي اليمن. وكلهم علىٰ الحق يناضلون ويجاهدون

خذلهم ولا من خالفهم حتىٰ يأتي أمر اللَّه.

مسألة: قال بعض السلف: إن الطائفة المنصورة هم أهل الحديث؛ فما مدىٰ صحة هذا القول؟

الجواب: هذا ليس بصحيح علىٰ إطلاقه، بل لا بد من التفصيل؛ فإن أريد بذلك أهل الحديث المصطلح عليه، الذين يأخذون الحديث رواية ودراية وأخرج منهم الفقهاء وعلماء التفسير وما أشبه ذلك؛ فهذا ليس بصحيح؛ لأن علماء التفسير والفقهاء الذين يتحرَّون البناء علىٰ الدليل هم في الحقيقة من أهل الحديث، ولا يختص بأهل الحديث صناعة؛ لأن العلوم الشرعية: تفسير، وحديث، وفقه... إلخ.

فالمقصود: أن كل من تحاكم إلىٰ الكتاب والسنة؛ فهو من أهل الحديث بالمعنىٰ العام.

وأهل الحديث هم: كل من يتحرَّىٰ العمل بسنة رسول اللَّه ﷺ فيشمل الفقهاء الذين يتحرون العمل بالسنة، وإن لم يكونوا من أهل الحديث اصطلاحًا.

فشيخ الإسلام ابن تيمية مثلاً لا يعتبر اصطلاحًا من المحدثين، ومع ذلك؛ فهو رافع لراية الحديث.

والإمام أحمد رحمه اللَّه تنازعه طائفتان: أهل الفقه قالوا: إنه فقيه، وأهل الحديث قالوا: إنه محدث. وهو إمام في الفقه والحديث والتفسير، ولا شك أن أقرب الناس تمسكًا بالحديث هم الذين يعتنون به. ويخشىٰ من التعبير بأن الطائفة المنصورة هم أهل الحديث أن يظن أنهم أهل الحديث الذين يعتنون به اصطلاحًا، فيخرج غيرهم.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٢٤).
(٢) صحيح: رواه مسلم (١٤٨).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النساء.

الثانية: تفسير آية المائدة.

أهل البدع، ولهم المصنفات التي صارت أعلامًا لأهل السنة، وحُجَّةً على كل مبتدع.

فعلى هذا: فهذه الطائفة قد تجتمع وقد تفترق، وقد تكون في الشام، وقد تكون في غيره.

فإن حديث أبي أمامة، وقول معاذ، لا يفيد حصرها بالشام، وإنما يفيد أنها تكون في الشام في بعض الأزمان لا في كلها.

وقوله: «تبارك وتعالى»:

قال ابن القيم:

البركة نوعان: أحدهما: بركة هي فعله، والفعل منها باركَ. ويتعدَّى بنفسه تارة، وبأداة على تارة، وبأداة في تارة. والمفعول منها مبارك. وهو ما جعل منها كذلك، فكان مباركًا بجعله تعالى.

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها تبارك.

ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له عزوجل. فهو سبحانه المبارك، وعبده ورسوله المبارك، كما قال المسيح عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١] فمن بارك الله فيه وعليه، فهو المبارك. وأما صفته «تبارك» فمختصة به، كما أطلقها على نفسه في قوله: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جاريةً عليه مختصة به، لا تطلق على غيره؟.

وجاءت على بناء السعة والمبالغة، كتعالى وتعاظم ونحوه. فجاء بناء ﴿تَبَارَكَ﴾ على بناء: تعالى، الذي هو دالٌّ على كمال العلو ونهايته، فكذلك ﴿تَبَارَكَ﴾ دالٌّ على كمال بركته وعظمتها وسعتها. وهذا معنى قول من قال من السلف: ﴿تَبَارَكَ﴾: تعاظم.

وقال ابن عباس: جاء بكل بركة.

فإذا قيل: أهل الحديث بالمعنى الأعم الذين يأخذون بالحديث، سواء انتسبوا إليه اصطلاحًا واعتنوا به أو لم يعتنوا، لكنهم أخذوا به؛ فحينئذ يكون صحيحًا.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النساء: وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾، وقد سبق ذلك.

الثانية: تفسير آية المائدة: وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾، وقد سبق تفسيرها. والشاهد منها هنا قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾.

الثالثة: تفسير آية الكهف.

الرابعة: ـ وهي أهمها ـ ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت في هذا الموضع؟ هل هو اعتقاد قلب، أو هو موافقة أصحابها مع بُغضها ومعرفة بطلانها؟

الخامسة: قولهم: إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين.

السادسة: وهي المقصودة بالترجمة أنَّ هذا لا بدَّ أن يوجد في هذه الأمة، كما تقرر في حديث أبي سعيد.

السابعة: التصريح بوقوعها ـ أعني عبادة الأوثان في هذه الأمة ـ في جموع كثيرة.

الثامنة: العجب العجاب خروج من يَدَّعي النبوة، مثل المختار، مع تكلُّمه بالشهادتين وتصريحه بأنه من هذه الأمة، وأنَّ الرسول حقٌّ، وأنَّ القرآن حقٌّ. وفيه:

الثالثة: تفسير آية الكهف: يعني: قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، وقد سبق بيان معناها.

الرابعة ـ وهي أهمها ـ: ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت؟ هل هو اعتقاد القلب، أو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟ أما إيمان القلب واعتقاده؛ فهذا لا شك في دخوله في الآية. وأما موافقة أصحابها في العمل مع بغضها ومعرفة بطلانها؛ فهذا يحتاج إلىٰ تفصيل، فإن كان وافق أصحابها بناءً علىٰ أنها صحيحة؛ فهذا كفر، وإن كان وافق أصحابها ولا يعتقد أنها صحيحة؛ فإنه لا يكفر، لكنه لا شك علىٰ خطر عظيم يخشىٰ أن يؤدي به الحال إلىٰ الكفر والعياذ باللّٰه.

الخامسة: قولهم إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين: يعني: أن هذا القول كفر وردَّة؛ لأن من زعم أن الكفار الذين يعرف كفرهم أهدىٰ سبيلاً من المؤمنين؛ فإنه كافر لتقديمه الكفر علىٰ الإيمان.

السادسة ـ وهي المقصودة بالترجمة ـ: أن هذا لا بد أن يوجد في هذه الأمة كما تقرر في حديث أبي سعيد.

السابعة: تصريحه بوقوعها؛ أعني: عبادة الأوثان: والترجمة التي أشار إليها رحمه اللّٰه هي قوله: «باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان»، وحديث أبي سعيد هو قوله ﷺ: **«لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا: يا رسول اللّٰه! اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»** أخرجاه.

وهذا يتضمن التحذير من أن تقع هذه الأمة في مثل ما وقع فيه من سبقها.

الثامنة: العجب العجاب: خروج من يدعي النبوة، مثل المختار مع تكلمه بالشهادتين،

أنَّ محمداً خاتم النبيين، ومع هذا يُصدَّق في هذا كله مع التضاد الواضح، وقد خرج المختار في آخر عصر الصحابة، وتبعه فِئَامٌ كثيرة.

التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى، بل لا تزال عليه طائفة.

العاشرة: الآية العظمى، أنَّهُم مع قلتهم لا يضرهم مَن خَذَلَهم ولا من خالفهم.

الحادية عشرة: أنَّ ذلك الشرط إلى قيام الساعة.

الثانية عشرة: ما فيه من الآيات العظيمة، منها: إخباره بأن الله زوَى له المشارق

....

وتصريحه بأنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق، وأن القرآن حق، وفيه أن محمداً خاتم النبيين، ومع هذا يصدق في هذا كله، مع التضاد الواضح، وقد خرج المختار في آخر عهد الصحابة، وتبعه فئام كثيرة: والمختار هو ابن أبي عبيدة الثقفي، خرج وغلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير رضي الله عنه، وأظهر محبة آل البيت، ودعا الناس إلى الثأر من قتلة الحسين؛ فتتبعهم، وقتل كثيراً ممن باشر ذلك أو أعان عليه، فانخدع به العامة، ثم ادعى النبوة وزعم أن جبريل يأتيه.

ولا شك أن هذه المسألة من العجب العجاب أن يدعي النبوة وهو يؤمن أن القرآن حق، وفي القرآن أن محمداً ﷺ خاتم النبيين؛ فكيف يكون صادقًا؟ وكيف يصدق مع هذا التناقض؟! ولكن من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى، بل لا تزال عليه طائفة: يعني: من هذه الأمة منصورة إلى يوم القيامة.

يؤخذ هذا من آخر الحديث: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى».

العاشرة: الآية العظمى أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم: وهذه آية عظمى: أن الكثرة الكاثرة من بني آدم على خلاف ذلك، ومع ذلك لا يضرونهم: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

الحادية عشرة: أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة: وقد سبق.

الثانية عشرة: ما فيه من الآيات العظيمة: أي: ما في هذا الحديث من الآيات العظيمة، والآيات: جمع آية، وهي العلامة، والآيات التي يؤيد الله بها رسله عليهم الصلاة والسلام هي العلامات الدالة على صدقهم.

والمغارب، وأخبر بمعنى ذلك، فوقع كما أخبر، بخلاف الجنوب والشمال، وإخباره بأنه أعطي الكنزين، وإخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين، وإخباره بأنه مُنِعَ الثالثة، وإخباره بوقوع السيف، وأنَّه لا يُرفع إذا وقع، وإخباره بإهلاك بعضهم بعضًا وسبي بعضهم بعضًا، وخوفه على أمته من الأئمة المضلين، وإخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة، وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة. وكل هذا وقع كما أخبر مع أن كل واحدة منها أبعد ما يكون من العقول.

. . . .

فمما في هذا الحديث: إخباره بأن اللَّه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ زوىٰ له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنىٰ ذلك؛ فوقع كما أخبر في خلاف الجنوب والشمال، فإن رسالة النبي ﷺ امتدت نحو الشرق والغرب أكثر من امتدادها نحو الجنوب والشمال، وهذا من علم الغيب الذي أطلع اللَّه رسوله ﷺ عليه.

ومنها: إخباره أنه ﷺ أعطي الكنزين، وهما كنزا كسرىٰ وقيصر.

ومنها: إخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين، وهما ألا يهلكها بسنة بعامة، وألا يسلط عليهم عدواً من سوىٰ أنفسهم فيستبيح بيضتهم حتىٰ يكون بعضهم يهلك بعضاً. . . إلخ.

ومنع الثالثة، وهي ألا يجعل بأس هذه الأمة بينها؛ فإن هذا سوف يكون كما صرح به حديث عامر بن سعد عن أبيه: أن النبي ﷺ أقبل ذات يوم من العالية، حتىٰ إذا مر بمسجد بني معاوية؛ دخل، فركع فيه ركعتين وصلينا معه ودعا دعاء طويلاً، وانصرف إلينا، فقال: «**سألت ربي ثلاثًا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة، سألت ربي ألا يهلك أمتي بالسنة؛ فأعطانيها، وسألته ألا يهلك أمتي بالغرق، فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم؛ فمنعنيها**»[1].

أي: منعني إياها.

ومن الآيات التي تضمنها هذا الحديث: إخباره بوقوع السيف في أمته، وأنه إذا وقع؛ فإنه لا يرفع حتىٰ تقوم الساعة، وقد كان الأمر كذلك، فإنه منذ سلت السيوف علىٰ المسلمين من بعضهم علىٰ بعض بقي هذا إلىٰ يومنا هذا.

ومنها: إخباره بإهلاك بعضهم بعضًا وسبي بعضهم بعضًا، هذا أيضًا واقع.

ومنها: خوفه علىٰ أمته من الأئمة المضلين.

والأئمة: جمع إمام، والإمام: هو من يقتدىٰ به؛ إما لعلمه، وإما لسلطته، وإما لعبادته.

ومنها: إخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة، وأنهم ثلاثون.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٩٠)، وأحمد (١٥١٩، ١٥٧٨).

الثالثة عشرة: حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين.

الرابعة عشرة: التنبيه على معنى عبادة الأوثان.

. . . .

قال ابن حجر: «هذا الحصر بالثلاثين لا يعني انحصار المتنبئين بذلك؛ لأنهم أكثر من ذلك».

قلت: فيكون ذكر الثلاثين لبيان الحد الأدنى؛ أي أنهم لا ينقصون عن ذلك العدد، وإنما عدلنا عن ظاهر اللفظ للأمر الواقع.

وهذا ـ والله أعلم ـ هو السر في ترك المؤلف رحمه الله العدد في مسائل الباب مع أنه صريح في الحديث.

ومنها: إخباره ببقاء الطائفة المنصورة، وهذا كله وقع كما أخبر.

قال الشيخ رحمه الله: «مع أن كل واحدة منها أبعد ما يكون في العقول».

الثالثة عشرة: حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين: ووجه هذا الحصر أن الأئمة ثلاثة أقسام: أمراء وعلماء وعباد؛ فهم الذين يخشى من إضلالهم لأنهم متبوعون؛ فالأمراء لهم السلطة والتنفيذ، والعلماء لهم التوجيه والإرشاد، والعباد لهم تغرير الناس وخداعهم بأحوالهم؛ فهؤلاء يطاعون ويقتدى بهم، فيخاف على الأمة منهم؛ لأنهم إذا كانوا مضلين ضلَّ بهم كثير من الناس، وإذا كانوا هادين اهتدى بهم كثير من الناس.

الرابعة عشرة: التنبيه على معنى عبادة الأوثان: يعني أن عبادة الأوثان لا تختص بالركوع والسجود لها، بل تشمل اتباع المضلين الذين يحلون ما حرم الله فيحله الناس، ويحرمون ما أحله الله فيحرمه الناس.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

٢٣ـ باب
ما جاء في السحر

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب ما جاء في السِّحر:

أي والكهانة. السِّحرُ في اللغة: عبارةٌ عما خفي ولطُف سببه؛ ولهذا جاء في الحديث: «**إن من البيان لسحراً**»(١) وسُمِّي السَّحَرُ سَحراً؛ لأنه يقع خفيًا آخر الليل.

قال أبو محمد المقدسي في (الكافي): السحرُ: عزائمُ ورُقًى وعُقد، تُؤثِّرُ في القلوب والأبدان، فيُمرض ويقتل، ويفرِّقُ بين المرء وزوجه؛ قال الله تعالى: ﴿**فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ**﴾ [البقرة: ١٠٢] وقال سبحانه: ﴿**وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ**﴾ [الفلق: ٤].

يعني: السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن، وينفثن في عقدهن. ولولا أن للسحر حقيقةً لم يأمر بالاستعاذة منه. وعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ سُحر، حتى إنه لَيُخيَّلُ إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، وأنه قال لها ذات يوم: «**أتاني مَلَكان، فجلس أحدُهما عند رأسي والآخر عند رجلَيَّ،**

السحر لغة: ما خفي ولطف سببه، ومنه سمي السَّحر لآخر الليل؛ لأن الأفعال التي تقع فيه تكون خفية، وكذلك سمي السَّحور؛ لما يؤكل في آخر الليل؛ لأنَّه يكون خفيًا؛ فكل شيء خفي سببه يسمى سحراً.

وأما في الشرع؛ فإنه ينقسم إلى قسمين:

الأول: عُقد ورُقى؛ أي: قراءات وطلاسم يتوصل بها الساحر إلى استخدام الشياطين فيما يريد به ضرر المسحور، لكن قد قال الله تعالى: ﴿**وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾.

الثاني: أدوية وعقاقير تؤثر على بدن المسحور وعقله وإرادته وميله؛ فتجده ينصرف ويميل، وهو ما يسمى عندهم بالصرف والعطف. فيجعلون الإنسان ينعطف على زوجته أو امرأة أخرى، حتى يكون كالبهيمة تقوده كما تشاء، والصرف بالعكس عن ذلك.

فيؤثر في بدن المسحور: بإضعافه شيئًا فشيئًا حتى يهلك.

وفي تصوره: بأن يتخيل الأشياء على خلاف ما هي عليه.

وفي عقله؛ فربما يصل إلى الجنون والعياذ بالله.

فالسحر قسمان:

أـ شرك: وهو الأول الذي يكون بواسطة الشياطين؛ يعبدهم ويتقرب إليهم ليسلطهم على المسحور.

ب ـ عدوان: وهو الثاني الذي يكون بواسطة الأدوية والعقاقير ونحوها.

وبهذا التقسيم الذي ذكرناه نتوصل به إلى مسألة مهمة، وهي: هل يكفر الساحر أو لا يكفر؟ اختلف في هذا أهل العلم:

---

(١) رواه مالك وأحمد وأبو داود والترمذي عن ابن عمر. (ق).

وقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فقال: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومَن طبّه؟ قال: لَبيدُ ابن الأعصم، في مشط ومشاطة، في جُفِّ طلْعة ذَكر في بئر ذَرْوان»(١) رواه البخاري.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

قال ابن عباس: من نصيب. قال قتادة: وقد علم أهل الكتاب فيما عُهد إليهم: أن الساحر لا خلاق له في الآخرة. وقال الحسن: ليس له دين.

فدلَّت الآية على تحريم السِّحر، وكذلك هو محرَّم في جميع أديان الرسل عليهم السلام؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٩]. وقد نص أصحاب أحمد: أنه يكفر بتعلُّمه وتعليمه. وروى عبدُ الرزاق، عن صفوان بن سليم، قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من تعلَّم شيئًا من السِّحر قليلاً كان أو كثيراً كان آخرُ عهده من الله»(٢) وهو مرسل. وقد اختلفوا: هل يكفر الساحرُ أو لا؟ فذهب طائفةٌ من السلف [إلى] أنه يكفر، وبه قال مالك، وأبو حنيفة، وأحمد. قال أصحابه: إلا أن يكون سِحرُه بأدوية وتدخين وسقي شيء لا يضر، فلا يكفر.

فمنهم من قال: إنه يكفر. ومنهم من قال: إنه لا يكفر.

ولكن التقسيم السابق الذي ذكرناه يتبين به حكم هذه المسألة، فمن كان سحره بواسطة الشياطين؛ فإنه يكفر لأنه لا يتأتى ذلك إلا بالشرك غالبًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ومن كان سحره بالأدوية والعقاقير ونحوها؛ فلا يكفر، ولكن يعتبر عاصيًا معتديًا.

وأما قتل الساحر، فإن كان سحره كفرًا؛ قُتل قتل ردة، إلا أن يتوب على القول بقبول توبته، وهو الصحيح، وإن كان سحره دون الكفر؛ قُتل قتل الصائل؛ أي: قتل لدفع أذاه وفساده في الأرض، وعلى هذا يرجع في قتله إلى اجتهاد الحاكم، وظاهر النصوص التي ذكرها المؤلف أنه يقتل بكل حال؛ فالمهم أن السحر يؤثر بلا شك، لكنه لا يؤثر بقلب الأعيان إلى أعيان أخرى؛ لأنه لا يقدر على ذلك إلا اللّه عز وجل وإنما يُخيَّل إلى المسحور أن هذا الشيء انقلب وهذا الشيء تحرك أو مشى وما أشبه ذلك، كما جرى لموسى عليه الصلاة والسلام أمام سحرة آل فرعون، حيث كان يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى.

إذا قال قائل: ما وجه إدخال السحر في كتاب التوحيد؟

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣١٧٥) ومواضع، ومسلم (٢١٨٩).

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه (١٠/ ١٨٤) وهو مرسل وفي إسناده إبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي كذبه ابن معين وقال النسائي والدارقطني: متروك.

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

قال عمر: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان[١].

وقال جابر: الطواغيت: كُهَّانٌ، كان ينزل عليهم الشيطان، في كل حيٍّ واحد[٢].

وقال الشافعي: إذا تعلم السحر، قلنا له: صف لنا سحرك! فإنْ وصف ما يُوجب الكفر - مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل ما يلتمس منها - فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر: فإنْ اعتقد إباحته كفر. انتهى.

وقد سماه اللَّه كفرًا في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] وقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ قال ابن عباس، في قوله ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾: وذلك أنهما علِما الخير والشر والكفر والإيمان، فعرفا أن السحر من الكفر.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

باب السحر، وباب شيء من أنواع السحر

وجه إدخال السحر في أبواب التوحيد أن كثيرًا من أقسامه لا يتأتى إلا بالشرك والتوصل بالأرواح الشيطانية إلى مقاصد الساحر فلا يتم للعبد توحيد حتى يدع السحر كله قليله وكثيره؛ ولهذا قرنه الشارع بالشرك.

نقول: مناسبة الباب لكتاب التوحيد: لأن من أقسام السحر ما لا يتأتى غالبًا إلا بالشرك؛ فالشياطين لا تخدم الإنسان غالبًا إلا لمصلحة، ومعلوم أن مصلحة الشيطان أن يغوي بني آدم فيدخلهم في الشرك والمعاصي.

وقد ذكر المؤلف في الباب آيتين:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾: ضمير الفاعل يعود على متعلمي السحر، والجملة مؤكَّدة بالقسم واللام وقد. ومعنى: ﴿اشْتَرَاهُ﴾؛ أي: تعلمه.

قوله: ﴿مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾: أي: ما له من نصيب، وكل من ليس له في الآخرة من خلاق؛ فمعناه أن عمله حابط باطل، لكن إما أن ينتفي النصيب انتفاءً كليًا فيكون العمل كفرًا، أو ينتفي كمال النصيب فيكون فسقًا.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي: اليهود. ﴿بِالْجِبْتِ﴾: أي: السحر كما فسرها عمر بن الخطاب. واليهود كانوا من أكثر الناس تعلمًا للسحر وممارسة له، ويدعون أن سليمان عليه السلام علمهم إياه، وقد اعتدوا؛ فسحروا النبي ﷺ.

قوله: ﴿وَالطَّاغُوتِ﴾: أجمع ما قيل فيه: هو ما تجاوز به العبد حده؛ من معبود، أو متبوع، أو مطاع.

ومعنى «من معبود»؛ أي: بعلمه ورضاه، هكذا قال ابن القيم رحمه اللَّه، وقد سبق في أول الكتاب التعليق على هذا القول عند قوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

---

(١) رواه البخاري معلقًا في كتاب التفسير باب قوله وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط.

(٢) انظر التخريج السابق.

. . . .

تقدم الكلام عليهما في الباب قبله. وفيه: أن السحر من الجبت. قاله المصنف.

قال المصنف رحمه الله تعالى: قال عمر: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان.

هذا الأثر، رواه ابن أبي حاتم، وغيره.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقال جابر: الطواغيت: كُهَّانٌ، كان ينزل عليهم الشيطان، في كل حيٍّ واحد:

هذا الأثر، رواه ابنُ أبي حاتم بنحوه مُطولاً، عن وهب بن مُنبِّه، قال: سألت جابر بن عبد اللَّه عن الطواغيت التي كانوا يتحاكمون إليها، قال: إن في جُهينة واحدًا، وفي أسلم واحدًا، وفي هلال واحدًا، وفي كل حي واحدًا، وهم كُهَّان تنزل عليهم الشياطين[١].

قوله: (قال جابر): هو ابن عبد اللَّه بن عمرو بن حرام الأنصاري[٢].

قوله: (الطواغيت: كهان): أراد أن الكهان من الطواغيت، فهو من أفراد المعنى.

الشاهد: قوله: ﴿بِالْجِبْتِ﴾؛ حيث فسرها أمير المؤمنين عمر رضي اللَّه عنه بأنها السحر.

وأما تفسيره الطاغوت بالشيطان؛ فإنه من باب التفسير بالمثال.

والسلف رحمهم اللَّه يفسرون الآية أحيانًا بمثال يُحتذىٰ عليه، مثل قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

قال بعض المفسرين: الظالم لنفسه: الذي لا يصلي إلا بعد خروج الوقت، والمقتصد: الذي يصلي في آخر الوقت، والسابق بالخيرات: الذي يصلي في أول الوقت.

وهذا مثال من الأمثلة، وليس ما تدل عليه الآية علىٰ وجه الشمول، ولهذا فسرها بعضهم بأن الظالم لنفسه الذي لا يخرج الزكاة، والمقتصد من يخرج الزكاة ولا يتصدق، والسابق بالخيرات من يخرج الزكاة ويتصدق.

فتفسير عمر رضي اللَّه عنه للطاغوت بالشيطان تفسير بالمثال؛ لأن الطاغوت أعم من الشيطان؛ فالأصنام تعتبر من الطواغيت؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، والعلماء والأمراء الذين يضلون الناس يُعتبرون طواغيت؛ لأنهم طغوا وزادوا وفعلوا ما ليس لهم به حق.

قوله: «الطواغيت كُهَّانٌ كان ينزل عليهم الشيطان، في كل حي واحد»: هذا أيضًا من باب

---

(١) الذي يستخلص من كلام السلف ﷺ: أن الطاغوت كل ما يصرف العبد ويصده عن عبادة الله وإخلاص الدين والطاعة لله ولرسوله. سواء في ذلك الشيطان من الجن والشيطان من الإنس، والأشجار والأحجار وغيرها. ويدخل في ذلك بلا شك: الحكم بالقوانين الأجنبية عن الإسلام وشرائعه وغيرها من كل ما وضعه الإنسان ليحكم به في الدماء والفروج والأموال، وليبطل بها شرائع الله، من إقامة الحدود وتحريم الربا والزنا والخمر ونحو ذلك مما أخذت هذه القوانين تحللها وتحميها بنفوذها ومنفذيها. والقوانين نفسها طواغيت، وواضعوها ومرجوها طواغيت. وأمثالها من كل كتاب وضعه العقل البشري ليصرف عن الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ إما قصدًا أو عن غير قصد من واضعه. فهو طاغوت.(ق).

(٢) توفي جابر سنة٧٤هـ وقيل: سنة ٧٧هـ، وكان عمره أربعًا وتسعين سنة.(ق).

عن أبي هريرة -رضي الله عنه -، أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»(١).

قوله: (كان ينزل عليهم الشيطان): أراد الجنس، لا الشيطان الذي هو إبليس خاصة، بل تنزل عليهم الشياطين، ويخاطبونهم ويخبرونهم بما يسترقونه من السمع، فيصدقون مرة ويكذبون مائة.

قوله: (في كل حي واحد): الحيُّ واحد الأحياء، وهم القبائل، أي: في كل قبيلة كاهن يتحاكمون إليه ويسألونه عن الغيب، وكذلك كان الأمر قبل مبعث النبي ﷺ. فأبطل اللَّه ذلك بالإسلام، وحُرست السماء بكثرة الشُّهُب.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

[كذا أورده المصنف غير معزو]، وقد رواه البخاري، ومسلم.

قوله: «اجتنبوا» أي: ابعدوا، وهو أبلغ من قوله: دعوا أو اتركوا؛ لأن النهي عن القُربان أبلغ، كقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

التفسير بالمثال، حيث إنه جعل من جملة الطواغيت الكهان.

والكاهن؛ قيل: هو الذي يخبر عما في الضمير.

وقيل: الذي يخبر عن المُغيبات في المستقبل.

وكان هؤلاء الكهان تنزل عليهم الشياطين بما استرقوا من السمع من السماء، وكان كل حي من أحياء العرب لهم كاهن يستخدم الشياطين، فتسترق له السمع، فتأتي بخبر السماء إليه.

وكانوا يتحاكمون إليهم في الجاهلية.

والطواغيت ليسوا محصورين في هؤلاء؛ فتفسير جابر رضي اللَّه عنه تفسير بالمثال كتفسير عمر رضي اللَّه عنه.

قوله: «اجتنبوا السبع الموبقات»: النبي ﷺ أنصح الخلق للخلق؛ فكل شيء يضر الناس في دينهم ودنياهم يحذرهم منه، ولهذا قال: «اجتنبوا» وهي أبلغ من قوله: اتركوا؛ لأن الاجتناب معناه أن تكون في جانب وهي في جانب آخر، وهذا يستلزم البعد عنها.

و«اجتنبوا»: أي: اتركوا، بل أشد من مجرد الترك؛ لأن الإنسان قد يترك الشيء وهو قريب منه.

فإذا قيل: اجتنبه؛ يعني: اتركه مع البعد.

وقوله: «السبع الموبقات»: هذا لا يقتضي الحصر؛ فإن هناك موبقات أخرىٰ، ولكن النبي ﷺ

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٧٦٧، ٦٨٥٧)، ومسلم (٨٩).

....

قوله: «الموبقات»: بموحَّدة وقاف. أي: المُهلكات. وسُمِّيت هذه موبقات؛ لأنها تُهلك فاعلها في الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات، وفي الآخرة من العذاب.

وفي حديث ابن عمر - عند البخاري في (الأدب المفرد)، والطبري في (التفسير)، وعبد الرزاق، مرفوعًا وموقوفًا - قال: الكبائر تسع - وذكر السبعة المذكورة - والإلحاد في الحرم. وعقوق الوالدين.

ولابن أبي حاتم، عن علي، قال: الكبائر - فذكر السبع، إلا مال اليتيم - وزاد: العقوق، والتعرُّب بعد الهجرة[١]، وفراق الجماعة، ونكث الصفقة[٢].

قال الحافظ: ويُحتاج عندي هذا، إلىٰ الجواب عن الحكمة في الاقتصار علىٰ سبع.

ويُجاب: بأن مفهوم العدد ليس بحُجة، وهو ضعيف، أو بأنه أعلم أولاً بالمذكورات، ثم أعلم بما زاد، فيجب الأخذ بالزائد، أو أن الاقتصار وقع بحسب المقام بالنسبة للسائل.

وقد أخرج الطبراني، وإسماعيل القاضي، عن ابن عباس، أنه قيل له: الكبائر سبع، قال: هن أكثر من سبع وسبع. وفي رواية: هي إلىٰ السبعين أقرب. وفي رواية: إلىٰ السبعمائة[٣].

يحصر أحيانًا بعض الأنواع والأجناس، ولا يعني بذلك عدم وجود غيرها.

ومن ذلك حديث: **«السبعة الذين يظلهم اللَّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله»**؛ فهناك غيرهم، ومثله: **«ثلاثة لا يكلمهم اللَّه يوم القيامة»**[٤]، وأمثلة هذا كثيرة، وإن قلنا بدلالة حديث أبي هريرة في الباب علىٰ الحصر لكونه وقع بـ «أل» المعرفة؛ فإنه حصرها لأن هذه أعظم الكبائر.

قوله: **«قالوا: يا رسول اللَّه؛ وما هن؟»**: كان الصحابة رضي اللَّه عنهم أحرص الناس علىٰ العلم، والنبي ﷺ إذا ألقىٰ إليهم الشيء مبهمًا طلبوا تفسيره وتبيينه، فلما حذرهم النبي ﷺ من السبع الموبقات قالوا ذلك؛ لأجل أن يجتنبوهن، فأخبرهم، وعلىٰ هذه القاعدة أن الصحابة رضي اللَّه عنهم أحرص الناس علىٰ العلم، لكن ما كانت الحكمة في إخفائه؛ فإن النبي ﷺ لا يخبرهم؛ كقوله ﷺ: **«إن للَّه تسعة وتسعين اسمًا، من أحصاها دخل الجنة»**، ولم يرد تبيينها عن النبي ﷺ في حديث صحيح.

وقد حاول بعض الناس أن يصحح حديث سرد الأسماء التسعة والتسعين[٥]، ولم يصب، بل

---

(١) قال الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٢٢٤٤) التعرب بعد الهجرة قال ابن الأثير في النهاية: هو أن يعود إلى البادية، ويقيم مع الأعراب بعد أن كان مهاجرًا. وكان من رجع بعد الهجرة إلى موضعه من غير عذر يعدونه كالمرتد. قال الألباني: ونحوه (التغرب): السفر إلى بلاد الغرب والكفر، من البلاد الإسلامية إلا لضرورة، وقد يسمي ذلك بعضهم بـ (الهجرة) وهو من القلب للحقائق الشرعية الذي ابتلينا به في هذا العصر، فإن الهجرة إنما تكون من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام. والله المستعان.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٨).

(٣) قد الف الحافظ عبد الرحمن بن رجب رحمه الله كتابًا في عده الكبائر. طبع. ولشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله: كتاب مسائل الجاهلية، هو كذلك في عد الكبائر. (ق).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٢٣٦٩)، ومسلم (١٠٨).

(٥) الحديث رواه الترمذي (٣٥٠٧)، وابن ماجه (٣٨٦١)، وضعفه العلامة الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (١٩٤٥).

. . . .

قوله: قال: «الشرك بالله»: هو أن يجعل للَّه نداً يدعوه كما يدعو اللَّه ويرجوه كما يرجو اللَّه، ويخافه كما يخاف اللَّه.

وبدأ به؛ لأنه أعظم ذنب عُصي اللَّه به، كما في (الصحيحين)، عن ابن مسعود: سألت النبي ﷺ أيُّ الذنب أعظم عند اللَّه؟ قال: **«أن تجعل لله نداً وهو خلقك»**[1] الحديث.

وأخرج الترمذي ـ بسنده ـ عن صفوان بن عسَّال، قال: قال يهودي لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي، فقال له صاحبه: لا تقل: نبي، إنه لو سمعك لكان له أربع أعين، فأتيا رسول اللَّه ﷺ فسألاه عن تسع آيات بينات، فقال رسول اللَّه ﷺ: **«لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة، ولا تُولوا الفرار يوم الزحف. وعليكم خاصةً اليهود أن لا تعتدوا في السبت»** قال: فقبَّلا يديه ورجليه. وقالا: نشهد أنك نبي. الحديث[2]. وقال: حسن صحيح.

نقل شيخ الإسلام اتفاق أهل المعرفة في الحديث على أن عدها وسردها لا يصح عن النبي ﷺ، وصدق رحمه اللَّه بدليل الاختلاف الكبير فيها.

فمن حاول تصحيح هذا الحديث؛ قال: إن الثواب عظيم، **«من أحصاها دخل الجنة»** فلا يمكن للصحابة أن يُفوِّتوه، فلا يسألوه عن تعيينها فدل هذا على أنها قد عُينت من قبل النبي ﷺ.

لكن يجاب عن ذلك بأنه ليس بلازم، ولو عينها النبي ﷺ؛ لكانت هذه الأسماء التسع والتسعين معلومة للعالم أشد من علم الشمس، ولنقلت في «الصحيحين» وغيرهما؛ لأن هذا مما تدعو الحاجة إليه، وتلح بحفظه والعناية به؛ فكيف لا يأتي إلا عن طرق واهية وعلى صور مختلفة؟!

فالنبي ﷺ لم يبينها لحكمة بالغة، وهي أن يطلبها الناس ويتحروها في كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ؛ حتى يعلم الحريص من غير الحريص.

كما ولم يبين النبي ﷺ ساعة الإجابة يوم الجمعة، والعلماء اختلفوا في حديث أبي موسى الذي في مسلم؛ حيث قال فيه: **«إنها ما بين أن يخرج الإمام إلى أن تقضى الصلاة»**[3]؛ فإن بعضهم صححه وبعضهم ضعفه، لكن هو عندي صحيح؛ لأن علة التضعيف فيه واهية، والحال تؤيد صحته؛ لأن الناس مجتمعون أكبر اجتماع في البلد على صلاة مفروضة؛ فيكون هذا الوقت في هذه الحال حريًا بإجابة الدعاء، وكذلك ليلة القدر لم يبينها النبي ﷺ مع أنها من أهم ما يكون.

وقوله: «الموبقات»: أي المهلكات، قل تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ [الكهف: ٥٢]؛ أي: مكان هلاك.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٤٧٧) ومواضع، ومسلم (٨٦).

(٢) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في ضعيف سنن النسائي (٢٧٥، ٤٠٧٨)، وفي ضعيف سنن ابن ماجه (٨٠٨).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٨٥٣)، وأبو داود (١٠٤٩).

. . . .

قوله: «والسحر»: تقدم معناه. وهذا وجه مناسبة هذا الحديث للترجمة.

قوله: «وقتلُ النفس التي حرم الله»: أي: حرَّم قتلَها.

قوله: «قالوا: يا رسول اللَّه؛ وما هن؟»: سألوا عن تبيينها، وبه تتبين الفائدة من الإجمال، وهي أن يتطلع المُخاطب لبيان هذا المجمل؛ لأنه إذا جاء مبينًا من أول وهلة؛ لم يكن له التلقي والقبول كما إذا أجمل ثم بيِّن.

قوله: «وما هن»: «ما»: اسم استفهام مبتدأ، و«هن»: خبر المبتدأ.

وقيل: بالعكس، «ما»: خبر مقدم وجوبًا؛ لأن الاستفهام له الصدارة، و«هن»: مبتدأ مؤخر؛ لأن «هن» ضمير معرفة، و«ما» نكرة، والقاعدة المتبعة أنه يخبر بالنكرة عن المعرفة ولا عكس.

قوله: قال: «الشرك باللَّه»: قدمه؛ لأنه أعظم الموبقات؛ فإن أعظم الذنوب أن تجعل للَّه ندًّا وهو خلقك.

والشرك باللَّه يتناول الشرك بربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه أو صفاته.

فمن اعتقد أن مع اللَّه خالقًا أو معينًا؛ فهو مشرك، أو أن أحدًا سوى اللَّه يستحق أن يعبد؛ فهو مشرك وإن لم يعبده، فإن عبده؛ فهم أعظم، أو أن للَّه مثيلاً في أسمائه؛ فهو مشرك؛ أو أن اللَّه استوى على العرش كاستواء الملك على عرش مملكته؛ فهو مشرك، أو أن اللَّه ينزل إلى السماء الدنيا كنزول الإنسان إلى أسفل بيته من أعلى؛ فهو مشرك.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وبين ﷺ أن الشرك أعظم ما يكون من الجناية والجُرم بقوله حين سئل: أي الذنب أعظم: **«أن تجعل للَّه ندًا وهو خلقك»**[1].

فالذي خلقك وأوجدك وأمدك وأعدك ورزقك كيف تجعل له ندًّا؟ فلو أن أحدًا من الناس أحسن إليك بما دون ذلك، فجلعت له نظيرًا؛ لكان هذا الأمر بالنسبة إليه كفرًا وجحودًا.

قوله: «والسحر»: أي: من الموبقات، وظاهر كلام النبي ﷺ أنه لا فرق بين أن يكون ذلك بواسطة الشياطين أو بواسطة الأدوية والعقاقير.

لأنه إن كان بواسطة الشياطين؛ فالذي لا يأتي إلا بالإشراك بهم؛ فهو داخل في الشرك باللَّه.

وإن كان دون ذلك؛ فهو أيضًا جرم عظيم؛ لأن السحر من أعظم ما يكون في الجناية على بني آدم؛ فهو يفسد على المسحور أمر دينه ودنياه، ويُقلقُه فيصبح كالبهائم، بل أسوأ من ذلك؛ لأن البهيمة خلقت هكذا على طبيعتها، أما الآدمي؛ فإنه إذا صرف عن طبيعته وفطرته لحقه من الضيق والقلق ما لا يعلمه إلا رب العباد، ولهذا كان السحر يلي الشرك باللَّه عز وجل.

قوله: «وقتل النفس التي حرم اللَّه إلا بالحق»: القتل: إزهاق الروح، والمراد بالنفس: البدن

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٤٧٧) ومواضع، ومسلم (٨٦)، وأبو داود (٢٣١٠)، والترمذي (٣١٨٢، ٣١٨٣)، والنسائي (٤٠١٣، ٤٠١٤)، وأحمد (٣٦٠١) ومواضع.

. . . .

«إلا بالحق» أي: بأن تفعل ما يوجب قتلها، كالشرك، والنفس بالنفس، والزاني بعد الإحصان.

قوله: «وقتل النفس التي حرم الله» أي: نفس المسلم المعصوم، وقتل المعاهد؛ كما في الحديث: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة»(١) الحديث.

واختلف العلماء فيمن قتل مؤمنًا متعمدًا، هل له توبة أم لا؟ فذهب ابن عباس، وأبو هريرة، وغيرهما: إلى أنه لا توبة له؛ استدلالاً بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣].

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية وهي آخر ما نزل، وما نسخها شيء. وفي رواية: لقد نزلت في آخر ما نزل، ما نسخها شيء حتى قبض رسول الله ﷺ وما نزل وحي(٢).

وروي في ذلك آثار تدل لما ذهب إليه؛ كما عند الإمام أحمد، والنسائي، وابن المنذر، عن معاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرًا أو الرجل يقتل مؤمنًا متعمدًا»(٣).

الذي فيه الروح، والمراد بالنفس هنا: نفس الآدمي وليس نفس البعير والحمار وما أشبهها.

وقوله: «التي حرم الله»: مفعول «حرم» محذوف تقديره: حرم قتلها؛ فالعائد على الموصول محذوف.

وقوله: «إلا بالحق»: أي: بالعدل؛ لأن هذا حكم، والحق إذا ذكر بإزاء الأحكام؛ فالمراد به العدل، وإن ذكر بإزاء الأخبار؛ فالمراد به الصدق، والعدل: هو ما أمر الله به ورسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠].

والنفس المحرمة أربعة أنفس، هي: نفس المؤمن، والذمي، والمُعاهد، والمُستأمِن - بكسر الميم: طالب الأمان.

فالمؤمن لإيمانه، والذمي لذمته، والمعاهد لعهده، والمستأمن لتأمينه.

والفرق بين الثلاثة الذمي، والمعاهد، والمستأمن: أن الذمي هو الذي بيننا وبينه ذمة؛ أي: عهد على أن يقيم في بلادنا معصومًا مع بذل الجزية.

وأما المعاهد؛ فيقيم في بلاده، لكن بيننا وبينه عهد أن لا يحاربنا ولا نحاربه.

وأما المستأمن؛ فهو الذي ليس بيننا وبينه ذمة ولا عهد، لكننا أمنَّاه في وقت محدد؛ كرجل حربي دخل إلينا بأمان للتجارة ونحوها، أو ليفهم الإسلام، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦]، وهناك فرق آخر، وهو أن العهد يجوز من جميع الكفار، والذمة لا تجوز إلا من اليهود والنصارى والمجوس دون بقية الكفار، وهذا هو المشهور من المذهب، والصحيح: أنها تجوز من جميع الكفار. فهذه الأنفس الأربع قتلها حرام، لكنها ليست على

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣١٦٦). (٢) صحيح: رواه البخاري (٤٢٢٤)، ومسلم (٥٣٤٥).

(٣) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٥١١)، وغاية المرام (٤٤١).

. . . .

وذهب جمهور الأمـة ـ سلفًا وخلفًا ـ إلىٰ أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله، فإن تاب وأناب وعمل صالحًا بدل الله سيئاته حسنات؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

قوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ فقد قال أبو هريرة وغيره: هذا جزاؤه إن جازاه.

[وقد رُوي عن ابن عباس ما يُوافق قول الجمهور، فروىٰ عبد بن حميد، والنحاس، عن سعيد بن عبيد: أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يقول: لمن قتل مؤمنًا توبة. وكذلك ابن عمر رضي الله عنهما. ورُوي مرفوعًا: أن جزاءه جهنم إن جازاه].

حد سواء في التحريم؛ فنفس المؤمن أعظم، ثم الذمي، ثم المعاهد، ثم المستأمن.

وهل المستأمن مثل المعاهد أو أعلىٰ؟

أشك في ذلك؛ لأن المستأمن من له عهد خاص، بخلاف المُعاهدين؛ فالمعاهدون يتولىٰ العهد أهلُ الحل والعقد منهم؛ فليس بيننا وبينهم عقود تأمينات خاصة، وأيًا كان؛ فالحديث عام، وكل منهم معصوم الدم والمال.

وقوله: «إلا بالحق»: أي: مما يوجب القتل، مثل: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة.

قوله: «وأكل الربا»: الربا في اللغة: الزيادة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥]؛ يعني: زادت.

وفي الشرع: تفاضل في عقد بين أشياء يجب فيها التساوي، ونسأ في عقد بين أشياء يجب فيها التقابض.

والربا: ربا فضل؛ أي: زيادة، وربا نسيئة؛ أي: تأخير، وهو يجري في ستة أموال بينها الرسول ﷺ في قوله: «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والتمر بالتمر، والشعير بالشعير، والملح بالملح»[1]؛ فهذه هي الأموال الربوية بنص الحديث وإجماع المسلمين، وهذه الأصناف الستة إذا بعت منها جنسًا بمثله جرىٰ فيه ربا الفضل والنسيئة، فلو زدت واحدًا علىٰ آخر؛ فهو ربا فضل، أو سويته لكن أخَّرت القبض، فهو ربا نسيئة، وربما يجتمع النوعان كما لو بعت ذهبًا بذهب متفاضلاً والقبض متأخر؛ فقد اجتمع في هذا العقد ربا الفضل وربا النسيئة، وعلىٰ هذا، فإذا بعت جنسًا بجنسه؛ فلابد من أمرين: التساوي، والتقابض في مجلس العقد.

وإذا اختلفت الأجناس واتفقت العلة؛ أي: اتفق المقصود في العوضين؛ فإنه يجري ربا النسيئة دون

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٥٨٧)، وأبو داود (٣٣٤٩)، والترمذي (١٢٤٠)، والنسائي (٤٥٥٩) ومواضع، وابن ماجه (٢٢٥٤)، وأحمد (٧١٣١) ومواضع.

. . . .

قوله: «وأكل الربا»: أي: تناوله بأي وجه كان؛ كما قال تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ.....﴾ الآيات [البقرة: ٢٧٥-٢٨٠] قال ابنُ دقيق العيد: وهو مجرَّبٌ لسوء الخاتمة، نعوذ بالله من ذلك.

ربا الفضل؛ فذهب بفضة متفاضلاً مع القبض جائز، وذهب بفضة متساويًا مع التأخير ربا لتأخر القبض.

قال ﷺ: «**فإذا اختلفت هذه الأصناف؛ فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد**»[(١)] .

وقولنا: اتفاق في الغرض والمقصود احترازًا مما إذا اختلف الغرض منها.

فالذهب مثلاً ثمن للأشياء، والفضة ثمن للأشياء، والبر قوت. وعلىٰ هذا يجوز بيع صاع من البر بدينار من الذهب مع التفرق وعدم التساوي لاختلاف القصد؛ لأن هذا يقصد به النقد والثَّمنية، وهذا يقصد به القوت. فإن قيل: الحديث يدل علىٰ أنه لا يصح إلا بالقبض؛ فما هو الجواب؟

نقول: حقيقة إن هذا مقتضىٰ الحديث أنك إذا بعت ذهبًا ببر وجب التقابض؛ لقوله ﷺ: «**فإذا اختلفت هذه الأصناف؛ فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد**»[(٢)] .

والجواب عن هذا أن نقول: قد دلت السنة من وجه آخر علىٰ أن القبض ليس بشرط فيما إذا كان أحدهما ثمنًا، قال ابن عباس: قدم النبي ﷺ المدينة وهم يُسلفون في الثمار السنة والسنتين، فقال: «**من أسلف في شيء، فليسلف في كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم**»[(٣)] .

وعلىٰ هذا؛ فحديث: «**فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد**» لا عموم لمفهومه؛ فلا يشترط القبض في كل صورة من صور المخالفة، وإنما يشترط القبض فيما إذا اتفقا في الغرض؛ كذهب بفضة، أو بر بشعير، وأما ذهب أو فضة بشعير ونحوه؛ فلا يشترط القبض.

واختلف العلماء فيما عدا هذه الأصناف الستة؛ فالظاهرية قالوا: لا يجري الربا إلا في هذه الأصناف الستة؛ لأنهم لا يرون القياس، فيقتصر علىٰ ما جاء به النص، فيجوز عندهم مبادلة أرز بذرة متفاضلاً مع تأخر القبض؛ لأنهما لا يدخلان في المنصوص عليه.

وأما أهل القياس من المذاهب الأربعة؛ فإنهم عدوا الحكم إلىٰ غيرها؛ إلا أن بعضًا منهم لم يُعد الحكم إلىٰ غيرها وهو من أهل القياس، مثل ابن عقيل رحمه الله؛ فإنه قال: لا يجري الربا إلا في هذه الأصناف الستة، لا لأنه لا قياس، ولكن لأن العلماء اختلفوا واضطربوا في العلة التي من أجلها كان الربا، فلما اضطربوا في العلة ألغينا جميع هذه العلل، وأبقينا النص علىٰ ما هو عليه من الحصر في المنصوص عليه.

والصحيح أن الربا يجري في غير الأصناف الستة، وأن العلة هي الكيل والادخار مع الطعم، وهو أن يكون قوتًا مدخرًا، وهذا بالنسبة للبر والتمر والشعير.

وبالنسبة للذهب والفضة: العلة هي الجنس والثَّمَنِيَّة، فقولنا: «الجنس» لأجل أن يشمل الحلي إذا

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٥٨٧)، وأبو داود (٣٣٤٩).
(٢) صحيح: وقد تقدم.
(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٢٤١)، ومسلم (١٦٠٤)، وأبو داود (٣٤٦٣)، والترمذي (١٣١١)، والنسائي (٣٤٦٣)، وابن ماجه (٢٢٨٠)، وأحمد (١٨٧١) ومواضع.

....

قوله: «وأكل مال اليتيم»: يعني: التعدي فيه. وعبَّر بالأكل؛ لأنه أعم وجوه الانتفاع، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

قوله: «والتولي يوم الزحف»: أي: الإدبار عن الكفار وقت التحام القتال. وإنما يكون كبيرة إذا فر إلىٰ غير فئة، أو غير متحرف لقتال، كما قُيِّد به في الآية(١).

بيع بعضه ببعض، فيجري فيه الربا، مع أنه ليس بثمن، والثمنية مثل الدراهم والدنانير والأوراق النقدية المعروفة؛ فإنها بمنزلة الذهب والفضة، أو يقال: العلة الثمنية فقط والحلي خارج عن الثمنية خروجًا طارئًا؛ لأن التحلي طارئ، والأصل في الذهب والفضة الثمنية؛ لأنها ثمن الأشياء.

وأما الملح؛ فقال شيخ الإسلام: إنه يصلح به القوت؛ أي: فهو تابع له؛ فالعلة ليس أنه قوت، لكنه من ضرورياته، ولهذا لو طحنت برًا ولم يكن فيه ملح؛ لم يبق إلا أيامًا يسيرة، فيفسد، فإذا كان فيه الملح منعه من الفساد؛ فيقول: لما كان يصلح له القوت جعل له حكمه.

وقوله: «وأكل الربا»: ذكر النبي ﷺ الأكل؛ لأنه أعم وجوه الانتفاع، هكذا قال أهل العلم، ولهذا قال تعالىٰ في بني إسرائيل: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ [النساء: ١٦١]، ولم يقل أكلهم، والأخذ أعم من الأكل؛ فأكل الربا معناه أخذه، سواء استعمله في الأكل أو الفرش أو البناء أو المسكن أو غير ذلك.

قوله: «وأكل مال اليتيم»: اليتيم: هو الذي مات أبوه قبل بلوغه، سواء كان ذكرًا أم أنثىٰ، أما من ماتت أمه قبل بلوغه، فليس يتيمًا لا شرعًا ولا لغة. لأن اليتيم مأخوذ من اليُتم، وهو الانفراد؛ أي: انفرد عن الكاسب له؛ لأن أباه هو الذي يكسب له. وخص اليتيم؛ لأنه لا أحد يدافع عنه؛ ولأنه أولىٰ أن يرحم، ولهذا جعل اللَّه له حقًا في الفيء، وإذا كان أحق أن يرحم؛ فكيف يسطو هذا الرجل الظالم علىٰ ماله فيأكله؟! ويقال في أكل مال اليتيم ما قيل في أكل الربا؛ فليس خاصًا في الأكل، بل حتىٰ لو استعمله في السكن أو الفرش أو الكتب أو غيرها؛ فهو داخل في ذلك.

وأكل مال غير اليتيم ليس من الكبائر؛ لأن اليتيم له شأن خاص، ولهذا توعد اللَّه من يأكل أموال اليتامىٰ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

قوله: «والتولي يوم الزحف»: التولي: بمعنىٰ الإدبار والإعراض، ويوم الزحف؛ أي: يوم تلاحم الصفين في القتال مع الكفار، وسمي يوم الزحف؛ لأن الجموع إذا تقابلت تجد أن بعضها يزحف إلىٰ بعض، كالذي يمشي زحفًا كل واحد منهم يهاب الآخر، فيمشي رويدًا رويدًا.

والتولي يوم الزحف من كبائر الذنوب؛ لأنه يتضمن الإعراض عن الجهاد في سبيل اللَّه، وكسر قلوب المسلمين، وتقوية أعداء اللَّه، وهذا يؤدي إلىٰ هزيمة المسلمين. لكن هذا الحديث خصصته الآية، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ

---

(١) في سورة «الأنفال»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦]. (ق).

. . . .

قوله: «وقـذف المحصنات الغـافـلات المؤمنات»: وهو بفتح الصاد: المحفوظات من الزنا، وبكسرها: الحافظات فروجهن منه. والمراد: الحرائر العفيفات، والمراد: رميهن بزنا أو لواط. والغافلات: أي: عن الفواحش، وما رُمين به. فهو كناية عن البريئات؛ لأن الغافل بريء عما بُهت به، والمؤمنات: أي بالله تعالى، احترازًا من قذف الكافرات.

الله﴾ [الأنفال: ١٦]. فالله سبحانه استثنى حالين:

الأولى: أن يكون متحرفًا لقتال؛ أي: متهيئًا له، كمن ينصرف ليصلح من شأنه أو يهيء الأسلحة ويعدها، ومنه الانحراف إلى مكان آخر يأتي العدو من جهته؛ فهذا لا يعد متوليًا، إنما يعد متهيئًا.

الثانية: المتحيز إلى فئة كما إذا حصرت سرية للمسلمين يمكن أن يقضي عليها العدو، فانصرف من هؤلاء لينقذها؛ فهذا لا بأس به لدعاء الضرورة إليه، بشرط ألا يكون على الجيش ضرر، فإن كان على الجيش ضرر وذهبت طائفة كبيرة إلى هذه السرية بحيث توهن قوة الجيش وتكسره أمام العدو؛ فإنه لا يجوز؛ لأن الضرر هنا متحقق، وإنقاذ السرية غير متحقق؛ فلا يجوز لأن المقصود إظهار دين الله، وفي هذا إذلال لدين الله، إلا إذا كان الكفار أكثر من مثلي المسلمين، فيجوز الفرار حينئذ؛ لقوله تعالى: ﴿**الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ**﴾ [الأنفال: ٦٦]، أو كان عندهم عدة لا يمكن للمسلمين مقاومتها، كالطائرات إذا لم يكن عند المسلمين من الصواريخ ما يدفعها، فإذا علم أن الصمود يستلزم الهلاك والقضاء على المسلمين؛ فلا يجوز لهم أن يبقوا؛ لأن مقتضى ذلك أنهم يغررون بأنفسهم.

وفي هاتين الآيتين تخصيص السنة بالكتاب، وهو قليل، ومن تخصيص السنة بالكتاب أن من الشروط التي بين النبي ﷺ والمشركين في الحديبية أن من جاء من المشركين مسلمًا يرد إليهم[1]، وهذا الشرط عام يشمل الذكر والأنثى، فأنزل الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ** ﴾ [الممتحنة: ١٠].

قوله: «وقـذف المحصنات»: القذف: بمعني الرمي، والمراد به هنا الرمي بالزنا، والمحصنات هنا الحرائر، وهو الصحيح، وقيل: العفيفات عن الزنا.

والغافلات: وهن: العفيفات عن الزنا البعيدات عنه، اللاتي لا يخطر على بالهن هذا الأمر.

والمؤمنات احترازًا من الكافرات، فمن قذف امرأة هذه صفاتها؛ فإن ذلك من الموبقات، ومع ذلك يقام عليه الحد ـ ثمانون جلدة ـ ولا تقبل شهادته ويكون فاسقًا؛ فجعل الله عليه ثلاثة أمور، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [النور: ٤]، ثم قال: ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا**﴾ [النور: ٥].

وهذا الاستثناء لا يشمل أول الجمل بالاتفاق، ويشمل آخر الجمل بالاتفاق، واختلف العلماء في

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٤١٨٠، ٤١٨١).

وعن جُندب مرفوعًا: «حد الساحر: ضربه بالسيف»(١)
رواه الترمذي، وقال: الصحيح أنه موقوف.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن جُندب مرفوعًا: «حد الساحر: ضربه بالسيف» رواه الترمذي، وقال: الصحيح أنه موقوف:

قوله: (عن جُندب): ظاهرُ صنيع الطبراني في (الكبير): أنه جُندب بن عبد اللَّه البَجلي. لا جُندب الخير الأزدي قاتل الساحر؛ فإنه رواه في ترجمة جُندب البجلي، من طريق خالد العبد، عن الحسن، عن جندب، عن النبي ﷺ، وخالد العبد: ضعيف.

قال الحافظ: والصواب أنه غيره، وقد رواه ابن قانع، والحسن بن سفيان من وجهين، عن الحسن، عن جُندب الخير: أنه جاء إلى الساحر، فضربه بالسيف حتى مات، وقال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: فذكره.

وجُندب الخير: هو جندب بن كعب - وقيل: جندب بن زهير، وقيل: هما واحد؛ كما قاله

الجملة الثانية، وهي قوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾؛ فقيل: إنه يعود إليها، وقيل: لا يعود. وبناءً على ذلك إذا تاب القاذف: هل تقبل شهادته أم لا؟

الجواب: اختلف في ذلك أهل العلم. فمنهم من قال: لا تقبل شهادته أبدًا ولو تاب، وأيدوا قولهم بأن اللَّه أبّد ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ [النور: ٤]، وفائدة هذا التأبيد أن الحكم لا يرتفع عنهم مطلقًا. وقال آخرون: بل تقبل؛ لأن مبنى قبول الشهادة وردها على الفسق، فإذا زال وهو المانع من قبول الشهادة؛ زال ما يترتب عليه.

وينبغي في مثل هذا أن يقال: إنه يرجع إلى نظر الحاكم، فإذا رأى من المصلحة عدم قبول الشهادة لردع الناس عن التهاون بأعراض المسلمين؛ فليفعل. وإلا؛ فالأصل أنه إذا زال الفسق وجب قبول الشهادة.

هل قذف المحصنين الغافلين المؤمنين كقذف المحصنات من كبائر الذنوب؟

الجواب: الذي عليه جمهور أهل العلم أن قذف الرجل كقذف المرأة، وإنما خص بذلك المرأة؛ لأن الغالب أن القذف يكون للنساء أكثر؛ إذ البغايا كثيرات قبل الإسلام، وقذف المرأة أشد؛ لأنه يستلزم الشك في نسب أولادها من زوجها، فيلحق بهن القذف ضررًا أكثر؛ فتخصيصه من باب التخصيص بالغالب، والقيد الأغلبي لا مفهوم له؛ لأنه لبيان الواقع.

والشاهد من هذا الحديث قوله: «السحر».

قوله: «وعن جندب»: ليس هو جندب بن عبد اللَّه البجلي، بل جندب الخير المعروف بقاتل الساحر.

قوله: «مرفوعًا»: أي: إلى النبي ﷺ؛ فيكون من قول النبي عليه الصلاة والسلام، لكن نقل المؤلف عن الترمذي قوله: والصحيح أنه موقوف، أي: من قول جندب.

---

(١) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (١٤٤٦).

وفي (صحيح البخاري)، عن بَجالة بن عَبَدة قال: كتب عمر بن الخطاب: أنِ اقتلوا كلَّ ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاثة سواحر[1].

ابن حبان ـ أبو عبد الله الأزدي الغامدي، صحابي.

روىٰ ابن السكن من حديث بُريدة: أن النبي ﷺ قال: «**يضرب ضربة واحدة فيكون أمة وحده**».

قوله: «حدُّ الساحر: ضربةُ بالسيف»: ورُوي بالهاء وبالتاء، وكلاهما صحيح.

وبهذا الحديث: أخذ أحمد، ومالك، وأبوحنيفة، فقالوا: يُقتل الساحر. وروي ذلك عن عمر، وعثمان، وابن عمر، وحفصة، وجندب بن عبد الله، وجندب بن كعب، وقيس بن سعد، وعمر بن عبد العزيز.

ولم ير الشافعي عليه القتل بمجرد السحر، إلا إنْ عمل في سحره ما يبلغ الكفر. وبه قال ابن المنذر، وهو رواية عن أحمد.

والأول أولىٰ؛ للحديث ولأثر عمر، وعمل به الناس في خلافته من غير نكير.

قال المصنف رحمه الله تعالىٰ: وفي (صحيح البخاري)، عن بَجالة بن عَبَدة قال: كتب عمر ابن الخطاب: أن اقتلوا كلَّ ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاثة سواحر:

هذا الأثر رواه البخاري؛ كما قال المصنف، لكن لم يذكر قتل السواحر.

قوله: (عن بَجالة) بفتح الموحَّدة بعدها جيم. ابن عبدة ـ بفتحتين ـ التميمي العنبري، بصري ثقة.

قوله: «حد الساحر ضربة بالسيف»: حده يعني: عقوبته المحددة شرعًا. وظاهره أنه لا يكفر؛ لأن الحدود تطهر المحدود من الإثم. والكافر إذا قُتِل علىٰ ردته؛ فالقتل لا يطهره.

وهذا محمول علىٰ ما سبق: أن من أقسام السحر ما لا يخرج الإنسان عن الإسلام، وهو ما كان بالأدوية والعقاقير التي توجب الصرف والعطف وما أشبه ذلك.

قوله: «ضربة بالسيف»: روي بالتاء بعد الباء، وروي بالهاء، وكلاهما صحيح، لكن الأولىٰ أبلغ؛ لأن التنكير وصيغة الوحدة يدلان علىٰ أنها ضربة قوية قاضية. هذا كناية عن القتل، وليس معناه أن يضرب بالسيف مع ظهره مصفحًا.

قوله: «وفي صحيح البخاري»: ذكر في الشرح أن هذا اللفظ ليس في «البخاري»، أما أصله، ففي «البخاري»، والذي في «البخاري» أنه: «**أمر بأن يفرق بين كل ذي محرم من المجوس**»[2]؛ لأنهم يجوزون نكاح المحارم ـ والعياذ بالله ـ؛ فأمر عمر أن يفرق ذوي الرحم ورحمه، لكن ذكر الشارح: أن القطيعي رواه في الجزء الثاني من «فوائده»، وفيه: «ثم اقتلوا كل كاهن وساحر»، وقال: (أي: الشارح): إسناده حسن. وهذا القتل هل هو حد أم قتله لكفره؟ يحتمل هذا وهذا بناء علىٰ التفصيل السابق في كفر الساحر، ولكن بناء علىٰ ما سبق من التفصيل نقول: من خرج به السحر إلىٰ الكفر فقتله قتل رده، ومن لم يخرج به السحر إلىٰ الكفر فقتله حد يجب تنفيذه.

---

(١) صحيح: أخرج البخاري (٣١٥٧) أصل الحديث ولكن بدون ذكر الشاهد، وقال الحافظ: وزاد مسدد وأبويعلى في روايتهما. فذكر الزيادة، وقال الحافظ ابن حجر على حديث (٥٧٦٦): أخرج البخاري أصل الحديث دون قصة قتل السواحر.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٣١٥٧)، وأبو داود (٣٠٤٣)، والترمذي (١٥٨٧)، وأحمد (١٦٦٠، ١٦٨٨).

وصح عن حفصة -رضي الله عنها-: أنها أمرت بقتل جارية لها سحرَتها فقُتلت[١]. وكذا صح عن جندب. قال أحمد عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ.

قوله: (كتب إلينا عمر بن الخطاب: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة)، وظاهره أنه يُقتل من غير استتابة. وهو كذلك على المشهور عن أحمد، وبه قال مالك؛ لأن علم الساحر لا يزول بالتوبة. وعن أحمد يُستتاب فإن تاب قُبلت توبته، وبه قال الشافعي؛ لأن ذنبه لا يزيد عن الشرك، والمشرك يُستتاب وتقبل توبته. ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وصح عن حفصة: أنها أمرت بقتل جارية لها سحرَتها فقُتلت. وكذا صح عن جندب. هذا الأثر، رواه مالك في «الموطأ».

وحفْصة: هي أم المؤمنين، بنت عمر بن الخطاب، تزوجها النبي ﷺ بعد خُنَيس ابن حُذافة، وماتت سنة خمس وأربعين.

قوله: (وكذا صح عن جندب): أشار المصنف بهذا إلى قتله الساحر؛ كما رواه البخاري في (تاريخه) عن أبي عثمان النهدي، قال: كان عند الوليد رجل يلعب، فذبح إنسانًا وأبان رأسه، فعجبنا! فأعاد رأسه. فجاء جُندب الأزدي فقتله[٢]. ورواه البيهقي في (الدلائل) مطولاً. وفيه: فأمر به الوليد، فسُجن. فذكر القصة بتمامها، ولها طرق كثيرة.

قال المصنف رحمه الله تعالى: قال أحمد[٣]: عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ: أحمد، هو

فالسحر يدخل في الشرك من جهتين: من جهة ما فيه من استخدام الشياطين ومن التعلق بهم وربما تقرب إليهم بما يحبون ليقوموا بخدمته ومطلوبه، ومن جهة ما فيه من دعوى علم الغيب ودعوى مشاركة الله في علمه وسلوك الطرق المفضية إلى ذلك، وذلك من شعب الشرك والكفر، وفيه أيضا من التصرفات المحرمة والأفعال القبيحة كالقتل والتفريق بين المتحابين والصرف والعطف والسعي في تغيير العقول، وهذا من أفظع المحرمات وذلك من الشرك ووسائله ولذلك تعين قتل الساحر لشدة مضرته وإفساده.

والحاصل: أنه يجب أن نقتل السحرة، سواء قلنا بكفرهم أم لم نقل؛ لأنهم يمرضون ويقتلون، ويفرقون بين المرء وزوجه، وكذلك بالعكس؛ فقد يعطفون فيؤلفون بين الأعداء، ويتوصلون إلى أغراضهم؛ فإن بعضهم قد يسحر أحدًا ليعطفه إليه وينال مأربه منه، كما لو سحر امرأة ليبغي بها، ولأنهم كانوا يسعون في الأرض فسادًا؛ فكان واجبًا على ولي الأمر قتلهم بدون استتابة ما دام أنه حد لضررهم وفظاعة أمرهم، فإن الحد لا يستتاب صاحبه، متى قبض عليه وجب أن ينفذ فيه الحد.

قوله: «قال أحمد عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ»: وهم: عمر، وحفصة، وجندب الخير؛ أي: صح قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ. والقول بقتلهم موافق للقواعد الشرعية؛ لأنهم يسعون في الأرض فسادًا، وفسادهم من أعظم الفساد؛ فقتلهم واجب على الإمام، ولا يجوز

---

(١) موطأ مالك (١٦٢٤). (٢) رواه البخاري في التاريخ الكبير (٢/ ٢٢٢)، وابن حجر في الإصابة (١/ ٥١٢).

(٣) الإمام الجليل، ناصر السنة وقامع البدعة، الصابر المحتسب في الله ولله على ما لقي في نصر دين الله، العلامة الحافظ الحجة. ولد سنة ١٦٤ ومات سنة ٢٤١. قال الشافعي رحمه الله: خرجت من بغداد وما خلفت فيها أفقه ولا أورع ولا أزهد من أحمد بن حنبل. رحمة الله عليه. (ق).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة. الثانية: تفسير آية النساء.

الثالثة: تفسير الجبت والطاغوت، والفرق بينهما.

الرابعة: أن الطاغوت قد يكون من الجنِّ، وقد يكون من الإنس.

الخامسة: معرفة السبع المُوبقات المخصوصات بالنهي.

السادسة: أن الساحر يكفر. السابعة: أنه يقتل ولا يستتاب.

الثامنة: وجود هذا في المسلمين على عهد عمر، فكيف بعده؟

الإمام أحمد بن محمد بن حنبل.

قوله: (عن ثلاثة) أي: صحَّ قتلُ الساحر عن ثلاثة، أو جاء قتل الساحر عن ثلاثة من (أصحاب النبي ﷺ)، يعني: عمر، وحفصة، وجندبًا. والله أعلم.

للإمام أن يتخلف عن قتلهم؛ لأن مثل هؤلاء إذا تركوا وشأنهم انتشر فسادهم في أرضهم وفي أرض غيرهم، وإذا قتلوا سلم الناس من شرهم، وارتدع الناس عن تعاطي السحر.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة: وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ أي: نصيب، ومن لا خلاق له في الآخرة؛ فإنه كافر؛ إذ كل من له نصيب في الآخرة فإن مآله إلى الجنة.

الثانية: تفسير آية النساء: وهي قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]، وفسر عمر الجبت بالسحر والطاغوت بالشيطان، وفسر بأن الجبت: كل ما لا خير فيه من السحر وغيره.

وأما الطاغوت؛ فهو كل ما تجاوز به الإنسان حده من معبود أو متبوع أو مطاع.

الثالثة: تفسير الجبت والطاغوت والفرق بينهما: وهذا بناء على تفسير عمر رضي الله عنه.

الرابعة: أن الطاغوت قد يكون من الجن، وقد يكون من الإنس: تؤخذ من قول جابر: الطواغيت كهان، وكذلك قول عمر: الطاغوت الشيطان، فإن الطاغوت إذا أطلق؛ فالمراد به شيطان الجن، والكهان شياطين الإنس.

الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي: وقد سبق بيانها.

السادسة: أن الساحر يكفر: تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ الآية [البقرة: ١٠٢].

السابعة: أنه يقتل ولا يستتاب: يؤخذ من قوله: «حد الساحر ضربة بالسيف»[١]، والحد إذا بلغ الإمام لا يستتاب صاحبه، بل يقتل بكل حال، أما الكفر؛ فإنه يستتاب صاحبه، وهذا هو الفرق بين الحد وبين عقوبة الكفر، وبهذا نعرف خطأ من أدخل حكم المرتد في الحدود، وذكروا من الحدود قتل الردة. فقتل المرتد ليس من الحدود؛ لأنه يستتاب، فإذا تاب ارتفع عنه القتل، وأما الحدود؛ فلا ترتفع

---

(١) صحيح: وقد تقدم.

٢٤ـ باب
بيان شيء من أنواع السحر

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، حدثنا حيان ابن العلاء، حدثنا قَطَن بن قبيصة، عن أبيه: أنه سمع النبي ﷺ قال: «إن العِيافة، والطَّرْق، والطِّيَرة من الجبت».

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب بيان شيء من أنواع السحر.

قلتُ: ذكر الشارح هنا شيئًا من الخوارق وكرامات الأولياء، وذكر ما اغتر به كثير من الناس من الأحوال الشيطانية التي غرَّت كثيرًا من العوام والجهال، وظنوا أنها تدل على ولاية مَنْ جرت على يده، ممن هو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن، ثم قال: ولشيخ الإسلام كتاب (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) فراجعه. انتهى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، حدثنا حيان بن العلاء، حدثنا قَطَن بن قبيصة، عن أبيه: أنه سمع النبي ﷺ قال: «إن العيافة، والطَّرْق، والطِّيَرة من الجبت».

ومن أنواعه الواقعة في كثير من الناس النميمة لمشاركتها للسحر في التفريق بين الناس وتغيير قلوب المتحابين وتلقيح الشرور. فالسحر أنواع ودركات بعضها أقبح وأسفل من بعض.

بالتوبة إلا أن يتوب قبل القدرة عليه، ثم إن الحدود كفارة لصاحبها وليس بكافر، والقتل بالردة ليس كفارة وصاحبها كافر، لا يصلى عليه، ولا يغسل، ولا يدفن في مقابر المسلمين.

الثامنة: وجود هذا في المسلمين في عهد عمر؛ فكيف بعده؟! تؤخذ من قوله: «**كتب عمر: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة**»؛ فهذا إذا كان في زمن الخليفة الثاني في القرون المفضلة، بل أفضلها؛ فكيف بعده من العصور التي بعدت عن وقت النبي ﷺ وخلفائه وأصحابه؟ فهو أكثر انتشاراً بين المسلمين، وكلما بعد الناس عن زمن الرسالة استولت عليهم الضلالة والجهالة؛ فالضلالة: ارتكاب الخطأ عن جهل، والجهالة: ارتكاب الخطأ عن عمد، ولهذا نقول من عمل سوء بجهالة؛ فهو آثم، ومن عمل سوء بجهل؛ فليس بآثم، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ**﴾ [النساء: ١٧]، والمراد بالجهالة هنا ليست ضد العلم، بل ضد الرشد، وهي السفه.

قوله: «باب بيان شيء من أنواع السحر»: أي: بيان حقائق هذه الأشياء مع حكمها.

وقد سبق أن السحر ينقسم إلى قسمين: كفر، وفسق، فإن كان باستخدام الشياطين وما أشبه ذلك؛ فهو كفر. وكذلك ما ذكره هنا من أنواع السحر: منها ما هو كفر، ومنها ما هو فسق حسب ما تقتضيه الأدلة الشرعية.

والأنواع: جمع نوع، والنوع أخص من الجنس؛ لأن الجنس اسم يدخل تحته أنواع، والنوع يدخل تحته أفراد، وقد يكون الجنس نوعًا باعتبار ما فوقه، والنوع جنسًا باعتبار ما تحته. فالإنسان نوع باعتبار الحيوان، والحيوان باعتبار الإنسان جنس؛ لأنه يدخل فيه الإنسان والإبل والبقر والغنم، والحيوان باعتبار الجسم نوع؛ لأن الجسم يشمل الحيوان والجماد. و«أنواع» هنا باعتبار الجنس العام. وسبق أن السحر في اللغة:

قال عـوف: العيافة: زَجـر الطير، والطَّرقُ: الخط يُخط في الأرض[1]. والجبت: قـال الحسن: رنَّة الشيطان[2]. إسناده جيـد. ولأبي داود، والنسـائي، وابـن حـبـان في (صـحـيـحـه): المسند منه.

قال عوف: العيافة: زَجـر الطير، والطَّرقُ: الخط يُخط في الأرض. والجبت: قال الحسن: رنَّة الشيطان. إسناده جيد. ولأبي داود، [والنسائي]، وابن حبان في (صحيحه): المسند منه.

قوله: (قال أحمد) هو الإمام، أحمد بن محمد بن حنبل.

ومحمد بن جعفر: هو المشهور بغُندر الهُذلي البصري، ثقة مشهور. مات سنة ست ومائتين.

وعوف: هو ابنُ أبي جَميلة - بفتح الجيم - العبدي البصري، المعروف بعوف الأعرابي، ثقة. مات سنة ستٍ - أو سبع - وأربعين، وله ست وثمانون سنة.

وحيان بن العلاء: هـو بالتحتية، ويقال: حيان بن مُخارق، أبو العلاء البصري، مقبول. وقَطَن - بفتحتين - أبو سهل البصري، صدوق.

قوله: (عن أبيه) هو قَبيصة - بفتح أوله - ابن مُخارق - بضم الميم - أبو عبد اللَّه الهلالي، صحابي نزل البصرة.

قوله: «إن العيـافة والطرق والطيـرة من الجبت» قـال عوف: العيافة: زجر الطير، والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها. وهو من عادة العرب، وكثُر في أشعارهم. يقال: عاف يعيف عيفًا: إذا زجر وحدس وظن.

كل ما كان خفي السبب دقيقًا في إدراكه حتى عد الفخر الرازي من جملة أنواع السحر الساعات، وهي في القديم عبارة عن آلات مركبة؛ فكيف بالساعات الإلكترونية اليوم؟!

قوله: «إن العـيافة»: مصدر عـاف يعيف عيافة، وهي: زجـر الطير للتشـاؤم أو التفاؤل؛ فعند العرب قواعد في هذا الأمر؛ لأن زجر الطير له أقسام:

فتارة يزجـرها للصيد، كـمـا قـال أهل العلم في باب الصـيـد: إن تعليم الطير بأن ينزجر إذا زجر؛ فهذا ليس من هذا الباب.

وتارة يزجـر الطير للتشاؤم أو التفـاؤل، فإذا زجـر الطائر وذهب شمـالاً تشاءم، وإذا ذهب يمينًا

---

(١) هو ما يسمونه خط الرمل وعلمه، وهو ذائع بين أهل العصر، ولبعضهم فيه تآليف وقد يتعيش به كثير من المتكهنين يغرون به البُله والجهلة؛ زاعمين أنهم يطلعون على المغيبـات وهم كاذبون؛ فإن هذا العلم بل الجهل لا يقصد به إلا خداع الناس وأكل أموالهم بالباطل، وقد بحثت في قـواعده فوجدته كما ذكرت لك رجمًا بالغـيب وهو من الجبت كما في الحديث؛ فيجب على المؤمنين بالله الكفر به. ومثله ما يسـمونه علم قراءة الكف؛ وقراءة الفنجان؛ ومناجاة حَب البن ونحوه؛ كل ذلك دجل واستمتاع كل من شياطين الجن والإنس ببعضهم. نسأل الله العافية للمسلمين من هذه الأمراض الفتاكة.(ق).

(٢) ضعيف: رواه أبو داود (٣٩٠٧، ٣٩٠٨)، وأحمد (٣/ ٤٧٧، ٥/ ٦٠)، وابن حبان (٦١٣١)، وضـعـفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٣٩٠٠).

. . . .

قوله: «والطرق»: الخط يُخط بالأرض. كذا فسره عوف، وهو كذلك.

وقال أبو السعادات: هو الضربُ بالحصىٰ، الذي يفعله النساء.

وأما الطيرة: فيأتي الكلام عليها، في بابها إن شاء اللّٰه تعالىٰ.

قوله: «من الجبت» أي: السِّحر، قال القاضي: والجبتُ في الأصل: الفشل الذي لا خير فيه، ثم استعير لما يُعبد من دون اللّٰه، وللساحر والسحر.

قوله: (قال الحسن: رنة الشيطان). قلت: ذكر إبراهيم بن محمد بن مُفلح:

تفاءل، وإن ذهب أمامًا؛ فلا أدري أيتوقفون أم يعيدون الزجر؟ فهذا من الجبت.

قوله: «والطرق»: فسره عوف: بأنه الخط يخط في الأرض، وكأنه من الطريق، من طرق الأرض يطرقها إذا سار عليها، وتخطيطها مثل المشي عليها يكون له أثر في الأرض كأثر السير عليها.

ومعنىٰ الخط بالأرض معروف عندهم، يضربون به علىٰ الرمل علىٰ سبيل السحر والكهانة، ويفعله النساء غالبًا، ولا أدري كيف يتوصلون إلىٰ مقصودهم وما يزعمونه من علم الغيب، وأنه سيحصل كذا علىٰ ما هو معروف عندهم؟! وهذا نوع من السحر. أما خط الأرض ليكون سترة في الصلاة، أو لبيان حدودها ونحو ذلك؛ فليس داخلاً في الحديث.

فإن قيل: قد صح عن الرسول ﷺ أنه سئل عن نبي من الأنبياء يخط؛ فقال: **«فمن وافق خطه؛ فذاك»**[1]. قلنا: يجاب عنه بجوابين:

الأول: أن الرسول ﷺ علقه بأمر لا يمكن الحصول عليه؛ لأنه قال: **«فمن وافق خطه فذاك»**، وما يدرينا هل وافق **خطه** أم لا؟

الثاني: أنه إذا كان الخط بالوحي من اللّٰه تعالىٰ كما في حال هذا النبي؛ فلا بأس به؛ لأن اللّٰه يجعل له علامة ينزل الوحي بها بخطوط يعلمه إياها. أما هذه الخطوط السحرية؛ فهي من الوحي الشيطاني، فإن قيل: طريقة الرسول ﷺ أنه يسد الأبواب جميعًا خاصة في موضوع الشرك؛ فلماذا لم يقطع ويسد هذا الباب؟ فالجواب: كأن هذا واللّٰه أعلم أمر معلوم، وهو أن فيه نبيًا من الأنبياء يخط؛ فلا بد أن يجيب عنه الرسول ﷺ.

قوله: «من الجبت»: سبق أن الجبت السحر، وعلىٰ هذا؛ فتكون «من» للتبعيض علىٰ الصحيح، وليست للبيان؛ أي: هذان النوعان من الجبت.

قوله: «والطيرة»: أي: من الجبت، علىٰ وزن فعلة، وهي اسم مصدر تطيَّر، والمصدر منه تطيُّر وهي التشاؤم بمرئي أو مسموع، وقيل: التشاؤم بمعلوم مرئيًا كان أو مسموعًا، زمانًا كان أو مكانًا، وهذا أشمل؛ فيشمل ما لا يرىٰ ولا يسمع؛ كالتطير بالزمان. وأصل التطير: التشاؤم، لكن أضيف إلىٰ الطير؛ لأن غالب التشاؤم عند العرب بالطير، فعلقت به، وإلا؛ فإن تعريفها العام: التشاؤم

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٣٧)، وأبو داود (٩٣٠، ٣٩٠٩)، والنسائي (١٢١٨)، وأحمد (٢٣٢٥٠، ٢٣٢٥٣، ٢٣٢٥٥).

. . . .

أن في (تفسير بَقيٍّ بن مَخْلَد): أن إبليس رنَّ أربع رنات: رنة حين لُعن، ورنة حين أُهبط، ورنة حين ولد رسول اللّه ﷺ، ورنة حين نزلت فاتحة الكتاب.

قال سعيد بن جُبير: لما لعن اللّه إبليس، تغيَّرت صورته عن صورة الملائكة، ورنَّ رنة، فكل رنة منها في الدنيا إلىٰ يوم القيامة. رواه ابن أبي حاتم.

بمرئي أو مسموع أو معلوم. وكان العرب يتشاءمون بالطير وبالزمان وبالمكان وبالأشخاص، وهذا من الشرك كما قال النبي ﷺ. والإنسان إذا فتح علىٰ نفسه باب التشاؤم؛ ضاقت عليه الدنيا، وصار يتخيل كل شيء أنه شؤم، حتىٰ إنه يوجد أناس إذا أصبح وخرج من بيته ثم قابله رجل ليس له إلا عين واحدة تشاءم، وقال: اليوم يوم سوء، وأغلق دكانه، ولم يبع ولم يشتر - والعياذ باللّه -، وكان بعضهم يتشاءم بيوم الأربعاء، ويقول: إنه يوم نحس وشؤم، ومنهم من يتشاءم بشهر شوال، ولا سيما في النكاح، وقد نقضت عائشة رضي اللّه عنها هذا التشاؤم، بأنه ﷺ عقد عليها في شوال، وبنىٰ بها في شوال؛ فكانت تقول: «أيكن كان أحظىٰ عنده مني؟»[1]، والجوب: لا أحد.

فالمهم أن التشاؤم ينبغي للإنسان أن لا يطرأ له علىٰ بال؛ لأنه ينكد عليه عيشه؛ فالواجب الاقتداء بالنبي ﷺ حيث كان يعجبه الفأل[2]؛ فينبغي للإنسان أن يتفاءل بالخير ولا يتشاءم، وكذلك بعض الناس إذا حاول الأمر مرة بعد أخرىٰ تشاءم بأنه لن ينجح فيه فيتركه، وهذا خطأ؛ فكل شيء ترىٰ فيه المصلحة؛ فلا تتقاعس عنه في أول محاولة، وحاول مرة بعد أخرىٰ حتىٰ يفتح اللّه عليك.

قوله: «من الجبت»: قال الحسن: الجبت: رنة الشيطان، قال صاحب« تيسير العزيز الحميد»: لم أجد فيه كلامًا. والظاهر أن رنة الشيطان؛ أي: وحي الشيطان؛ فهذه من وحي الشيطان وإملائه، ولا شك أن الذي يتلقىٰ أمره من وحي الشيطان أنه أتىٰ نوعًا من الكفر، وقول الحسن جاء في« تفسير ابن كثير» باللفظ الذي ذكره المؤلف، وجاء في« المسند» (٥/ ٦٠) بلفظ: إنه الشيطان.

ووجه كون العيافة من السحر أن العيافة يستند فيها الإنسان إلىٰ أمر لا حقيقة له؛ فماذا يعني كون الطائر يذهب يمينًا وشمالاً أو أمامًا أو خلفًا؟ فهذا لا أصل له، وليس بسبب شرعي ولا حسي، فإذا اعتمد الإنسان علىٰ ذلك؛ فقد اعتمد علىٰ أمر خفي لا حقيقة له، وهذا سحر كما سبق تعريف السحر في اللغة.

وكذلك الطُّرْق من السحر؛ لأنهم يستعملونه في السحر، ويتوصلون به إليه والطيرة كذلك؛ لأنها مثل العيافة تمامًا تستند إلىٰ أمر خفي لا يصح الاعتماد عليه، وسيأتي في باب الطيرة ما يستثنىٰ منه.

قوله: «إسناده جيد...»: قال الشيخ: إسناده جيد، وعندي أنه أقل من الجيد في الواقع؛ إلا أن يكون هناك متابعات، وكان بعض العلماء يذهب إلىٰ أن الحديث إذا صح متنه، وكان موافقًا للأصول؛

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٤٢٣)، والترمذي (١٠٩٣)، والنسائي (٣٢٣٦)، وابن ماجه (١٩٩٠)، وأحمد (٢٣٧٥١، ٢٥١٨٨)، والدارمي (٢٢١١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٥٦)، ومسلم (٢٢٢٤).

وعن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شُعبةً من النجوم، فقد اقتبس شعبةً من السحر، زاد ما زاد» رواه أبو داود، بإسناد صحيح[١].

وعن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة، رن إبليس رنة اجتمعت عليه جنودُه[٢]. رواه الحافظ الضياء في (المختارة).

الرنين: الصوت. وقد رن يرنُّ رنينًا. وبهذا يظهر معنىٰ قول الحسن رحمه الله.

قوله: (ولأبي داود، وابن حبان في صحيحه: المسند منه). ولم يذكر التفسير الذي فسره عوف. وقد رواه أبو داود بالتفسير المذكور، بدون كلام الحسن.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شُعبةً من النجوم، فقد اقتبس شعبةً من السحر، زاد ما زاد» رواه أبو داود، بإسناد صحيح:

فإنه يتساهل في سنده، والعكس بالعكس، إذا كان مخالفًا للأصول؛ فإنه لا يبالي بالسند، وهذا مسلك جيد بالنسبة لأخذ الحكم من الحديث، لكن بالنسبة للحكم على السند بأنه جيد بمجرد شهادة الأصول لهذا الحديث بالصحة؛ فهذا مشكل لأنه يلزم أنه لو جاءنا هذا السند في حديث آخر حكمنا بأنه جيد؛ فالأولىٰ أن يقال: إن السند فيه ضعف، ولكن المتن صحيح، فأنا أرىٰ أن مثل هذا لا يحكم له بالجود؛ إذ جيد أرقىٰ من حسن، ثم الحكم بالحسن في مثل هذا السند في نفسي منه شيء؛ لأنه ينبغي لنا أن نتحرىٰ في الحديث عن الرسول ﷺ، إلا أن الذي يخفف الأمر هو صحة المتن، وأيهما أهم: السند أم المتن؟

الجواب: كلاهما مهمان، لكن المتن إذا كان صحيحًا تشهد له الأصول قد تستغني عنه بما تشهد به الأصول، أما السند؛ فلا بد منه، يقول ابن المبارك: لولا السند؛ لقال كل من شاء ما شاء.

قوله: «من»: شرطية، وفعل الشرط: **«اقتبس»**، وجوابه: **«فقد اقتبس»**.

قوله: «اقتبس»: أي: تعلم؛ لأن التعلم وهو أخذ الطالب من العالم شيئًا من علمه بمنزلة الرجل يقتبس من صاحب النار شعلة.

قوله: «شعبة»: أي: طائفة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ [الحجرات: ١٣]؛ أي: طوائف وقبائل.

قوله: «من النجوم»: المراد: علم النجوم، وليس المراد النجوم أنفسها؛ لأن النجوم لا يمكن أن تقتبس وتتعلم، والمراد به هنا علم النجوم الذي يستدل به علي الحوادث الأرضية؛ فيستدل مثلاً باقتران النجم الفلاني بالنجم الفلاني علىٰ أنه سيحدث كذا وكذا. ويستدل بولادة إنسان في هذا النجم علىٰ أنه سيكون سعيدًا،

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٢٦)، وأحمد (١/ ٢٢٧، ٣١١)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٠٧٤).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ١١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ١٣): رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٨٤): رواه أحمد وإسناده حسن.

. . . .

وكذا صححه النووي، والذهبي. ورواه أحمد، وابن ماجه.

قوله: «من اقتبس»: قال أبو السعادات: قبستُ العلم واقتبسته: إذا علمته. انتهى[1].

قوله: «شعبة»: أي: طائفة من علم النجوم. والشعبة الطائفة، ومنه الحديث **«الحياء شعبة من الإيمان»** أي: جزء منه.

قوله: «فقد اقتبس شعبة من السحر»، المحرم تعلُّمه.

قال شيخ الإسلام: فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر، وقد قال تعالى: ﴿**وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ**﴾ [طه: ٦٩].

وفي النجم الآخر على أنه سيكون شقيًا؛ فيستدلون باختلاف أحوال النجوم على اختلاف الحوادث الأرضية، والحوادث الأرضية من عند الله قد تكون أسبابها معلومة لنا، وقد تكون مجهولة، لكن ليس للنجوم بها علاقة، ولهذا جاء في حديث زيد بن خالد الجهني في غزوة الحديبية؛ قال: صلى بنا رسول الله ذات ليلة على أثر سماء من الليل؛ فقال: **«قال الله تعالى: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فمن قال: مطرنا بنوء كذا وكذا-** بنوء يعني: بنجم، والباء للسببية؛ يعني: هذا المطر من النجم-؛ **فإنه كافر بي مؤمن بالكوكب، ومن قال: مطرنا بفضل الله ورحمته؛ فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب»**[2] فالنجوم لا تأتي بالمطر ولا تأتي بالرياح أيضًا، ومنه نأخذ خطأ العوام الذين يقولون: إذا هبت الريح طلع النجم الفلاني؛ لأن النجوم لا تأثير لها بالرياح، صحيح أن بعض الأوقات والفصول يكون فيها ريح ومطر، فهي ظرف لهما، وليست سببًا للريح أو المطر.

وعلم النجوم ينقسم إلى قسمين:

الأول: علم التأثير، وهو أن يستدل بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية؛ فهذا محرم باطل لقول النبي ﷺ: **«من اقتبس شعبة من النجوم؛ فقد اقتبس شعبة من السحر»**[3]، وقوله في حديث زيد بن خالد: **«من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا؛ فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»**[4]، ولقول النبي ﷺ في الشمس والقمر: **«إنهما آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته»**[5]؛ فالأحوال الفلكية لا علاقة بينها وبين الحوادث الأرضية.

الثاني: علم التسيير، وهو ما يستدل به على الجهات والأوقات؛ فهذا جائز، وقد يكون واجبًا أحيانًا، كما قال الفقهاء: إذا دخل وقت الصلاة يجب على الإنسان أن يتعلم علامات القبلة من

---

(١) أصله مأخوذ من القبس، وهو القليل من النار ليستدفئ به. قال موسى لأهله: ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠]. (ق).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٠٣٨)، ومسلم (٧١)، وأبو داود (٣٩٠٦)، وأحمد (١٦٦١٣).

(٣) صحيح: رواه أبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٢٦)، وأحمد (٢٠٠١، ٢٨٣٦)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٠٧٤)، والسلسلة الصحيحة (٧٩٣).

(٤) صحيح: تقدم تخريجه.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (١٠٤٠) ومواضع، ومسلم (٩٠٤) ومواضع.

وللنسائي، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «من عقد عقدةً ثم نفَث فيها فقد سَحر، ومن سَحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئًا وُكلَ إليه»[١] .

قوله: «زاد ما زاد» أي: كلما زاد من تعلم علم النجوم، زاد في الإثم الحاصل بزيادة الاقتباس[٢] من شعبه؛ فإن ما يعتقده في النجوم من التأثير باطل، كما أن تأثير السحر باطل[٣] . والله أعلم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وللنسائي، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «من عقد عقدةً ثم نفَث فيها فقد سَحر، ومن سَحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئًا وُكلَ إليه»:

هذا الحديث ذكره المصنف من حديث أبي هريرة، وعزاه النسائي. وقد رواه النسائي مرفوعًا، وحسنه ابن مفلح.

النجوم والشمس والقمر، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥]، فلما ذكر الله العلامات الأرضية انتقل إلى العلامات السماوية؛ فقال تعالى: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]؛ فالاستدلال بهذه النجوم على الأزمان لا بأس به، مثل أن يقال: إذا طلع النجم الفلاني دخل وقت السيل ودخل وقت الربيع، وكذلك على الأماكن؛ كالقبلة، والشمال، والجنوب.

قوله: «فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد»: المراد بالسحر هنا: ما هو أعم من السحر المعروف؛ لأن هذا من الاستدلال بالأمور الخفية التي لا حقيقة لها، كما أن السحر لا حقيقة له؛ فالسحر لا يقلب الأشياء، لكنه يموه، وهكذا اختلاف النجوم لا تتغير بها الأحوال.

قوله: «زاد ما زاد»: أي: كلما زاد شعبة من تعلم النجوم ازداد شعبة من السحر.

ووجه ذلك: أن الشيء إذا كان من الشيء؛ فإنه يزداد بزيادته.

وجه مناسبة الحديث لترجمة المؤلف:

إن من أنواع السحر: تعلم النجوم ليستدل بها على الحوادث الأرضية، وهذا الحديث وإن كان ضعيف السند؛ لكن من حيث المعنى صحيح تشهد له النصوص الأخرى.

---

(١) ضعيف: رواه النسائي (٤٠٧٩)، وذكره الذهبي في الميزان (٤/٤٣)، وقال: هذا الحديث لا يصح، للين عباد المنقري، وانقطاعه، والحديث من رواية الحسن عن أبي هريرة، وضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٥٧٠٢).

(٢) الوعيد لمن يتعلم منه ما يؤدي إلى الكفر كادعاء علم الغيب كما في كتيب ينسب إلى أبي معشر وهو شائع بين السحرة الذين يتسمون بأسماء إسلامية يغرون به النساء وضعفة العقول. وقد تمدن الشياطين وإخوانهم من سحرة هذا الزمان في البلاد المتمدنة؛ فاخترعوا أسماء للسحر جديدة وصوراً كذلك، مثل اسم التنويم المغناطيسي ومناجاة الأرواح واستحضارها بأنواع من الحيل والتعازيم المتمدنة أيضًا. (ق).

(٣) علم النجوم علمان: علم يعرف به سيرها ومدارها ومنازلها وأبعادها وأحجامها. وهذا علم الفلك لا بأس بتعلمه والعمل به. وعلم يعرف بالعلم الروحاني، يزعمون أنه معرفة روحانية النجوم والكواكب وتأثيرها في الأرض عند اقتران كذا من النجوم والكواكب بكذا. ولهم في ذلك ما يسمونه بالطالع، ويعملون جدولاً بالحوادث التي ستحدث في العام كله من حوادث عامة وخاصة. وهذا هو الدجل والكذب. وهو النوع من السحر واستخدام الشياطين والقول على الله بلا علم. (ق).

. . . .

قوله: (وللنسائي). هو الإمام الحافظ، أحمد بن شُعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار، أبوعبد الرحمن، صاحب (السنن) وغيرها. روىٰ عن محمد بن المُثنىٰ، وابن بشار، وقتيبة، وخلق. وكان إليه المنتهىٰ في العلم بعلل الحديث. مات سنة ثلاث وثلاثمائة، وله ثمان وثمانون سنة.

قوله: «من عقَد عُقدةً ثم نفث فيها فقد سَحر»: اعلم أن السحرة إذا أرادوا عمل السحر، عقدوا الخيوط ونفثوا علىٰ كل عقدة، حتىٰ ينعقد كل ما يريدون من السحر، قال تعالىٰ: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ يعني: السواحر اللاتي يفعلن ذلك.

والنفثُ: هو النفخ مع ريق، وهو دون التفل. والنفث فعل الساحر، فإذا تكيَّفت نفسه بالخبث والشر ـ الذي يريده بالمسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة ـ نفخ في تلك العقدة نفخًا معه ريق، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذىٰ، مقترن للريق الممازج لذلك، وقد يساعد هو والروح الشيطانية علىٰ أذىٰ المسحور، فيصيبه السحر بإذن اللَّه الكوني القدري، لا الشرعي، قاله ابن القيم.

قوله: «ومن سحر فقد أشرك»: نص في أن الساحر مُشرك؛ إذ لا يتأتىٰ السحر بدون الشرك، كما حكاه الحافظ عن بعضهم.

قوله: «ومن تعلق شيئًا وُكل إليه»: أي: من تعلق قلبه شيئًا ـ بحيث يعتمد عليه ويرجوه ـ وكَلَه اللَّه إلىٰ ذلك الشيء[1]. فمن تعَلق علىٰ ربه وإلهه وسيده ومولاه ربِّ كل شيء ومليكه، كفاه ووقاه

قوله: «من عقد عقدة»: «من» شرطية، والعقد معروف.

قوله: «ثم نفث فيها»: النفث: النفخ بريق خفيف، والمراد هنا النفث من أجل السحر.

أما لو عقد عقدة، ثم نفث فيها من أجل أن تحتكم بالرطوبة؛ فليس بداخل في الحديث، والنفث من أجل السحر يفعلونه بعض الأحيان للصرف؛ فيصرفون به الرجل عن زوجته، ولاسيما عند عقد النكاح؛ فيبعد الرجل عن زوجته، فلا يقوىٰ علىٰ جماعها، فمن عقد هذه العقدة؛ فقد وقع في السحر كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤].

قوله: «ومن سحر فقد أشرك»: «من» هذه شرطية، وفعل الشرط: «سحر»، وجوابه: «فقد أشرك».

قوله: «فقد أشرك»: هذا لا يتناول جميع السحر، إنما المراد من سحر بالطرق الشيطانية.

أما من سحر بالأدوية والعقاقير وما أشبهها؛ فقد سبق أنه لا يكون مشركًا، لكن الذي يسحر بواسطة الشياطين واستخدامهم فيما يريد؛ فهذا لا شك أنه مشرك.

قوله: «ومن تعلق شيئًا وكل إليه»: «تعلق شيئًا»؛ أي: استمسك به، واعتمد عليه.

«وكل إليه»؛ أي: جعل هذا الشيء الذي تعلق به عمادًا له، ووكله اللَّه إليه، وتخلىٰ عنه.

---

(١) ومن قصر تعلق قلبه على الله وحده كفاه كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] وهذا التعلق هو روح الإيمان وخلاصة التوحيد، فمن تعلق قلبه بغير الله يرجوه في دفع ضر أو جلب نفع فقد أشرك بالله أعظم الشرك.(ق).

وعن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا هل أُنبئكم ما العَضْهُ؟ هي النميمة: القالة بين الناس» رواه مسلم[١] .

وحفظه وتولاه، فنعم المولى ونعم النصير. قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]. ومن تعلّق على السحرة والشياطين وغيرهم من المخلوقين وكله الله إلى من تعلقه، فهلك. ومن تأمل ذلك في أحوال الخلق، ونظر بعين البصيرة رأى ذلك عيانًا، وهذا من جوامع الكلم. والله أعلم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أُنبئكم ما العَضْهُ؟ هي النميمة: القالة بين الناس» رواه مسلم.

ومناسبة هذه الجملة للتي قبلها: أن النافخ في العقد يريد أن يتوصل بهذا الشيء إلى حاجته ومآربه، فيوكل إلى هذا الشيء المحرم. ووجه آخر: وهو أن من الناس من إذا سُحر عن طريق النفخ بالعقد ذهب إلى السحرة وتعلق بهم، ولا يذهب إلى القراءات والأدوية المباحة والأدعية المشروعة، ومن توكل على الله كفاه. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق: ٣]، وإذا كان الله حسبك؛ فلا بد أن تصل إلى ما تريد. لكن من تعلق شيئًا من المخلوقين وكل إليه، ومن وكل إلى شيء من المخلوقين وكل إلى ضعف وعجز وعورة، وقد يشمل الحديث من اعتمد على نفسه وصار معجبًا بما يقول ويفعل؛ فإنه يوكل إلى نفسه، ويوكل إلى ضعف وعجز وعورة، ولهذا ينبغي أن تكون دائمًا متعلقًا بالله في كل أفعالك وأحوالك حتى في أهون الأمور. ونقول للإنسان: اعتمد على نفسك بالنسبة للناس؛ فلا تسألهم ولا تستذل أمامهم، واستغن عنهم ما استطعت. أما بالنسبة لله؛ فلا تستغن عنه، بل كن دائمًا معتمدًا على ربك حتى تتيسر لك الأمور، ومن هذا النوع من يتعلقون ببعض الأحراز يعلقونها؛ فإنهم يوكلون إلى هذا، ولا يحصل لهم مقصودهم، لكنهم لو اعتمدوا على الله، وسلكوا السبل الشرعية؛ حصل لهم ما يريدون، ومن هذا النوع أيضًا من تعلق شيئًا من القبور، وجعلها ملجأه ومغيثه عند طلب الأمور؛ فإنه يوكل إليه، والإنسان قد يفتن ويحصل له المطلوب بدعاء هؤلاء، ولكن هذا المطلوب الذي حصل حصل عند دعائهم لا بدعائهم، والآية صريحة في ذلك. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف: ٥]، لكن الله تعالى قد يفتن من شاء من عباده.

مناسبة الحديث:

إن هؤلاء الذين يتعلقون بالسحر، ويجعلونه صناعة يصلون بها إلى مآربهم يوكلون إلى ذلك، وآخر أمرهم الخسارة والندم.

قوله: «ألا»: أداة استفتاح، والغرض تنبيه المخاطب والاعتناء بما يلقى إليه لأهميته.

قوله: «هل أُنبئكم ما العضه؟»: الاستفهام للتشويق؛ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]. لأن الإنسان مشتاق إلى العلوم يحب أن يعلم، وقد

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٠٦).

. . . .

قوله: «ألا أُنبئكم»: أي أخبركم، و«**العَضْهُ**» بفتح المهملة وسكون المعجمة.

قال أبو السعادات: هكذا يُروىٰ في كتب الحديث.

والذي في كتب الغريب: «**ألا أُنبئكم ما العِضَه**» بكسر العين وفتح الضاد.

قال الزمخشري: أصلُها: العِضْهَة، فِعْله مَن العَضْه وهو البَهت، فحُذفت لامُه، كما حُذفت من السَّنَة والشَّفة. وتجمع علىٰ عِضِين.

ثم فسره بقوله: «**هي النميمة: القالة بين الناس**» فأطلق عليها: العَضْهُ؛ لأنها لا تنفك عن الكذب والبهتان غالبًا. ذكره القُرطبي. وذكر ابن عبد البر، عن يحيىٰ بن أبي كثير، قال: يفسد النمام والكذاب في ساعة ما لا يفسد الساحر في سنة. وقال أبو الخطاب في (عيون المسائل): ومن السحر السعي بالنميمة والإفساد بين الناس. قال في (الفروع): ووجهه: أنه يقصد الأذىٰ بكلامه وعمله، علىٰ وجه المكر والحيلة، أشبه السحر. وهذا يعرف بالعرف والعادة أنه يؤثر، وينتج ما يعمله السحر أو أكثر. فيُعطىٰ حكمه؛ تسوية بين المتماثلين أو المتقاربين. لكن يقال: الساحر إنما يكفر لوصف السحر، وهو أمر خاص ودليله خاص. وهذا ليس بساحر، وإنما يؤثر عمله ما يؤثره فيُعطىٰ حكمه، إلا فيما اختص به من الكفر وعدم قبول التوبة. انتهىٰ ملخصًا. وبه يظهر مطابقة الحديث للترجمة. وهو يدل علىٰ تحريم النميمة، وهو مجمع عليه.

قال ابن حزم: اتفقوا علىٰ تحريم الغيبة والنميمة، في غير النصيحة الواجبة. وفيه: دليل علىٰ أنها من الكبائر.

يكون المراد به التنبيه؛ لأن المُوَجَّه إليه الخطاب ينبغي أن يتنبه ليعلم، وهي تصلح للجميع. ومعنىٰ أنبئكم: أخبركم، وهي مرادفة للخبر في اصطلاح المحدثين، وقال بعض العلماء من ناحية اللغة لا الاصطلاح: إن الإنباء لغة يكون في الأمور الهامة، والإخبار أعم منه يكون في الهامة وغير الهامة.

قوله: «العضه»: علىٰ وزن الحبل والصمت والوعد، بمعنىٰ القطع، وأما العضة علىٰ وزن عدة؛ فإنها التفريق، وأيًّا كان؛ فإنها تتضمن قطعًا وتفريقًا.

قوله: «هي النميمة»: فعيلة بمعنىٰ مفعولة، وهي من نمّ الحديث إلىٰ غيره؛ أي: نقله، والنميمة فسرها بقوله: «**القالة بين الناس**»؛ أي: نقل القول بين الناس، فينقل من هذا إلىٰ هذا، فيأتي لفلان ويقول: فلان يسبك؛ فهو نم إليه الحديث ونقله، وسواء كان صادقًا أو كاذبًا، فإن كان كاذبًا؛ فهو بهت ونميمة، وإن كان صادقًا؛ فهو نميمة. والنميمة كما أخبر الرسول ﷺ تقطع الصلة، وتفرق بين الناس؛ فتجد هذين الرجلين صديقين، فيأتي هذا النمام، فيقول لأحدهما: صاحبك يسبك، فتنقلب هذه المودة إلىٰ عداوة، فيحصل التفرق، وهذا يشبه السحر بالتفريق؛ لأن السحر فيه تفريق، قال تعالىٰ: ﴿**فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ**﴾ [البقرة: ١٠٢].

والنميمة من كبائر الذنوب، وهي سبب لعذاب القبر، ومن أسباب حرمان دخول الجنة، قال ﷺ: «**لا يدخل الجنة قتات**»؛ أي: نمام، وفي حديث ابن عباس المتفق عليه: أنه ﷺ: «**مر بقبرين يعذبان، أحدهما كان يمشي بالنميمة**».

والنميمة كما هي من كبائر الذنوب؛ فهي في الحقيقة خلق ذميم، ولا ينبغي للإنسان أن يطيع

ولهما، عن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ قال: «إن من البيان لسحراً»[١].

قوله: «القالة بين الناس»: قال أبو السعادات: أي: كثرة القول، وإيقاع الخصومة بين الناس. ومنه الحديث: «**ففشت القالة بين الناس**»[٢].

قال المصنف رحمه الله تعالى: ولهما، عن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ قال: «إن من البيان لسحراً»: البيانُ: البلاغة والفصاحة.

قال صَعْصعةُ بنُ صُوْحان: صدق نبي الله، فإن الرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق، فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق.

وقال ابن عبد البر: تأولته طائفة على الذم؛ لأن السحر مذموم. وذهب أكثر أهل العلم، وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح؛ لأن اللّه تعالى مدح البيان. قال: وقد قال عمر بن عبدالعزيز لرجل سأله عن حاجة فأحسن المسألة، فأعجبه قوله قال: هذا واللّه السحر الحلال. انتهى.

والأول أصح. والمراد به البيان الذي فيه تمويه على السامع وتلبيس، كما قال بعضهم: شعراً.

في زُخرف القول تزيين لباطله ... والحق قد يعتريه سوءُ تعبير

النمام مهما كانت حاله، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠، ١١]، واعلم أن من نم إليك نم فيك أو منك؛ فاحذره. وهي أيضاً سبب من أسباب فساد المجتمع؛ لأن هذا النمام إذا أراد أن يعتدي على كل صديقين متحابين، ويفرق بينهما بنميمته فسد المجتمع؛ لأن المجتمع مكون من أفراد، فإذا تفرقت صار كما قال اللّه عز وجل: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وإذا لم يكن المجتمع كإنسان واحد؛ فإنه لا يمكن أن يكون مجتمعاً؛ فهو أفراد متناثرة، والأفراد المتناثرة ليس لها قوة، ولهذا قال الشاعر:

لا تخاصم بواحدٍ أهل بيت ... فضعيفان يغلبان قويًا

وقال الآخر:

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرًا ... فإذا افترقن تكسرت أفرادًا

ونحن لو تأملنا النصوص الشرعية؛ لوجدناها تحرم كل ما يكون سببًا للتفرق والقطيعة، قال ﷺ: «**ولا يبيع بعضكم على بيع بعض**»[٣]، وقال: «**لا يخطب الرجل على خطبة أخيه**»[٤]، وكل هذا لدفع ما يوجب العداوة والبغضاء بين الناس.

قوله: «إن من البيان»: «إن»: حرف توكيد، ينصب الاسم ويرفع الخبر، و«من»: يحتمل أن تكون للتبعيض، ويحتمل أن تكون لبيان الجنس؛ فعلى الأول يكون المعنى: إن بعض البيان سحر وبعضه ليس بسحر، وعلى الثاني يكون المعنى: إن جنس البيان كله سحر.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٥١٤٦، ٥٧٦٧)، ومسلم (٨٦٩). (٢) النهاية في غريب الحديث (١٢٣/٤).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢١٦٥)، ومسلم (١٤١٢). (٤) متفق عليه: رواه البخاري (٢١٤٠)، ومسلم (١٤١٣).

. . . .

[مأخوذ من قول الشاعر:]

تقـول: هذا مُـجاج الـنحل تمدحــه ... وإن تشــأ قــلت: ذا قـيء الزنـابـير

مدحًا وذمًا، وما جاوزت وصفهمـا ... والحـق قــد يعتـريه ســوء تعـبـير

وقوله: «إن من البيان لسحراً»: هذا من التشبيه البليغ؛ لكون ذلك يعمل عمل السحر، فيجعل الحق في قالب الباطل، والباطل في قالب الحق. فيستميل به قلوب الجهال، حتى يُقبل الباطل ويُنكر الحق. نسأل اللّه الثبات، والاستقامة على الهُدىٰ. وأما البيان الذي يوضح الحق ويقرره، [ويبطل الباطل] ويبينه. فهذا هو الممدوح، وهكذا حال الرسل وأتباعهم؛ ولهذا علت مراتبهم في الفضائل، وعظمت حسناتهم. وبالجملة: فالبيان لا يحمد إلا إذا لم يخرج إلىٰ حد الإسهاب والإطناب، وتغطية الحق وتحسين الباطل. فإذا خرج إلىٰ هذا فهو مذموم؛ وعلىٰ هذا تدل الأحاديث، كحديث الباب، وحديث: «إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها»[1] رواه أحمد، وأبو داود.

قوله: «لسحراً»: اللام للتوكيد، و«سحرًا»: اسم إن.

والبيان: هو الفصاحة والبلاغة، وهو من نعمة اللّه على الإنسان، قال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣، ٤].

والبيان نوعان: الأول: بيان لابد منه، وهذا يشترك فيه جميع الناس فكل إنسان إذا جاع قال: إني جعت، وإذا عطش قال: إني عطشت، وهكذا.

الثاني: بيان بمعنىٰ الفصاحة التامة التي تسبي العقول وتغير الأفكار، وهي التي قال فيها الرسول ﷺ: «إن من البيان لسحراً». وعلىٰ هذا التقسيم تكون «من» للتبعيض؛ أي: بعض البيان ـ وهو البيان الكامل الذي هو الفصاحة ـ سحر. أما إذا جعلنا البيان بمعنىٰ الفصاحة فقط؛ صارت «من» لبيان الجنس. ووجه كون البيان سحراً: أنه يأخذ بلب السامع، فيصرفه أو يعطفه، فيظن السامع أن الباطل حق لقوة تأثير المتكلم، فينصرف إليه، ولهذا إذا أتىٰ إنسان يتكلم بكلام معناه باطل، لكن لقوة فصاحته وبيانه يسحر السامع حقًا، فينصرف إليه، وإذا تكلم إنسان بليغ يُحذر من حق، ولفصاحته وبيانه يظن السامع أن هذا الحق باطل، فينصرف عنه، وهذا من جنس السحر الذي يسمونه العطف والصرف، والبيان يحصل به عطف وصرف؛ فالبيان في الحقيقة بمعنىٰ الفصاحة، ولا شك أنها تفعل فعل السحر، وابن القيم يقول عن الحُور: حديثها السحر الحلال.

قوله: «إن من البيان لسحراً»: وهل هذا علىٰ سبيل الذم، أو علىٰ سبيل المدح، أو لبيان الواقع ثم ينظر إلىٰ أثره؟

الجواب: الأخير هو المراد؛ فالبيان من حيث هو بيان لا يمدح عليه ولا يذم، ولكن ينظر إلىٰ أثره، والمقصود منه، فإن كان المقصود منه رد الحق وإثبات الباطل؛ فهو مذموم؛ لأنه استعمال لنعمة اللّه في معصيته، وإن كان المقصود منه إثبات الحق وإبطال الباطل؛ فهو ممدوح، وإذا كان البيان يستعمل في

---

(١) حسن: حسنه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٨٨٠).

فيه مسائل:

الأولى: أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت.

الثانية: تفسير العيافة والطَّرق.

الثالثة: أنَّ علم النجوم نوع من السحر.

الرابعة: أنَّ العقد مع النفث من ذلك.

الخامسة: أنَّ النميمة من ذلك.

السادسة: أنَّ من ذلك بعض الفصاحة.

طاعة اللَّه وفي الدعوة إلى اللَّه؛ فهو خير من العي، لكن إذا ابتُلي الإنسان ببيان ليصد الناس عن دين اللَّه؛ فهذا لا خير فيه، والعي خير منه، والبيان من حيث هو لاشك أنه نعمة، ولهذا امتن اللَّه به على العبد؛ فقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤].

وجه مناسبة الحديث للباب:

المؤلف كان حكيمًا في تعبيره بالترجمة، حيث قال: باب بيان شيء من أنواع السحر، ولم يحكم عليها بشيء؛ لأن منها ما هو شرك؛ ومنها ما هو من كبائر الذنوب، ومنها دون ذلك، ومنها ما هو جائز على حسب ما يقصد به وعلى حسب تأثيره وآثاره.

قال «فيه مسائل»: أي: في هذا الباب وما تضمنه من الأحاديث والآثار مسائل:

المسألة الأولى: أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت: وقد سبق تفسير هذه الثلاثة وتفسير الجبت.

الثانية: تفسير العيافة والطرق: وقد بيّنت في الباب أيضًا وشرحت.

الثالثة: أن علم النجوم نوع من السحر: لقوله: **«من اقتبس شعبة من النجوم؛ فقد اقتبس شعبة من السحر»**. وسبق الكلام عليها أيضًا.

الرابعة: العقد مع النفث من ذلك: لحديث أبي هريرة: **«من عقد عقدة ثم نفث فيها؛ فقد سحر»**، وقد تقدم الكلام على ذلك.

الخامسة: أن النميمة من ذلك: لحديث ابن مسعود: **«ألا هل أنبئكم ما العضه؟ هي النميمة»**، وهي من السحر؛ لأنها تفعل ما يفعل الساحر من التفريق بين الناس والتحريش بينهم، وقد سبق بيان ذلك.

السادسة: أن من ذلك بعض الفصاحة: أي: من السحر بعض الفصاحة؛ لقول النبي ﷺ: **«إن من البيان لسحرًا»**، والمؤلف رحمه اللَّه قال: بعض الفصاحة استدلالاً بقوله ﷺ: **«إن من البيان»**؛ لأن **«من»** هنا عند المؤلف للتبعيض، ووجه ذلك من السحر أن لسان البليغ ذي البيان قد يصرف الهمم وقد يلهب الهمم بما عنده من الفصاحة.

٢٥ـ باب
ما جاء في الكهان ونحوهم

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب ما جاء في الكهان ونحوهم:

الكاهن: هو الذي يأخذ عن مُسترق السمع، وكانوا قبل المبعث كثيرًا. وأما بعد المبعث فإنهم قليل؛ لأن اللَّه تعالىٰ حرس السماء بالشُّهُب.

وأكثر ما يقع في هذه الأمة: ما يُخبر به الجن مواليهم من الإنس، عن الأشياء الغائبة مما يقع في الأرض من الأخبار، فيظنه الجاهل كشفًا وكرامة[1]. وقد اغتر بذلك كثير من الناس، يظنون ذلك المخبر لهم عن الجن وليًا للَّه، وهو من أولياء الشيطان؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ

باب ما جاء في الكهان ونحوهم

أي: من كل من يدعي علم الغيب بأي طريق من الطرق وذلك أن الله تعالىٰ هو المنفرد بعلم الغيب فمن ادعىٰ مشاركة الله في شيء من ذلك بكهانة أو عرافة أو غيرها أو صدق من ادعىٰ ذلك؛ فقد جعل لله شريكًا فيما هو من خصائصه وقد كذب الله ورسوله.

الكُهَّان: جمع كاهن، والكهنة أيضًا جمع كاهن، وهم قوم يكونون في أحياء العرب يتحاكم الناس إليهم، وتتصل بهم الشياطين، وتخبرهم عما كان في السماء، تسترق السمع من السماء، وتأتي وتخبر الكاهن، ثم الكاهن يضيف إلىٰ هذا الخبر ما يضيف من الأخبار الكاذبة، ويخبر الناس، فإذا وقع مما أخبر به شيء؛ اعتقده الناس عالمًا بالغيب، فصاروا يتحاكمون إليهم؛ فهم مرجع للناس في الحكم، ولهذا يُسمَّون الكهنة؛ إذ هم يخبرون عن الأمور في المستقبل، يقولون: سيقع كذا وسيقع كذا، وليس من الكهانة في شيء، من يخبر عن أمور تدرك بالحساب فإن الأمور التي تدرك بالحساب ليست من الكهانة في شيء كما لو أخبر عن كسوف الشمس أو خسوف القمر؛ فهذا ليس من الكهانة؛ لأنه يدرك بالحساب، وكما لو أخبر أن الشمس تغرب في ٢٠ من برج الميزان مثلاً في الساعة كذا وكذا؛ فهذا ليس من علم الغيب، وكما يقولون: إنه سيخرج في أول العام أو العام الذي بعده مذنب «هالي»، وهو نجم له ذنب طويل؛ فهذا ليس من الكهانة في شيء؛ لأنه من الأمور التي تدرك بالحساب؛ فكل شيء يدرك بالحساب؛ فإن الإخبار عنه ولو كان مستقبلاً لا يعتبر من علم الغيب، ولا من الكهانة.

وهل من الكهانة ما يخبر به الآن من أحوال الطقس في خلال أربع وعشرين ساعة أو ما أشبه ذلك؟

الجواب: لا؛ لأنه أيضًا يستند إلىٰ أمور حسية، وهي تَكيف الجو؛ لأن الجو يتكيف علىٰ صفة

---

(١) والواقع أن ذلك من تآلف روح الشيطان القرين مع روح قرينه الإنسان الخبيث فيتناجيان ويتكلم الشيطان مع قرينه بما يحب من الأخبار التي يتلقاها الشيطان عن الشيطان الآخر قرين الإنسان الآخر. وهكذا فإن لكل إنسان قرينًا من الشيطان كما جاء ذلك في القرآن والسنة. فيخبر شيطان الإنس بما أوحى إليه شيطان الجن من أخبار السائل وأحواله في منزله وخصوصية نفسه مما ألقاه إليه الشيطان القرين، فيظن الجهلة والمغفلون أن ذلك عن صلاح وتقوى وكرامات؛ وأنه بصلاحه قد كشف الحجاب عنه. وهذا من أضل الضلال ومن أعظم الخذلان وإن اعتقده وخدع به كثير ممن ينتسب إلى ظاهر العلم والصلاح. (ق).

روى مسلم في (صحيحه) عن بعض أزواج النبي ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «مَن أتى عرَّافًا فسأله عن شيء ـ فصدقه بما يقول ـ لم تقبل له صلاة أربعين يومًا»[١]

بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم﴾ [الأنعام: ١٢٨].

قال المصنف رحمه الله تعالى: روى مسلم في (صحيحه) عن بعض أزواج النبي ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «مَن أتى عرَّافًا فسأله عن شيء ـ فصدقه بما يقول ـ لم تقبل له صلاة أربعين يومًا».

قوله: (عن بعض أزواج النبي ﷺ) هي حفصة، ذكره أبو مسعود الدمشقي؛ لأنه ذكر هذا الحديث في (الأطراف) في مسندها.

قوله: «من أتى عرافًا» سيأتي بيان العراف إن شاء الله تعالى.

معينة تعرف بالموازين الدقيقة عندهم؛ فيكون صالحًا لأن يمطر، أو لا يمطر، ونظير ذلك في العلم البدائي إذا رأينا تجمع الغيوم والرعد والبرق وثقل السحاب، نقول: يوشك أن ينزل المطر.

فالمهم أن ما استند إلى شيء محسوس؛ فليس من علم الغيب، وإن كان بعض العامة يظنون أن هذه الأمور من علم الغيب، ويقولون: إن التصديق بها تصديق بالكهانة.

والشيء الذي يدرك بالحس إنكاره قبيح؛ كما قال السَّفَّاريني:

فكل معلوم بحس أو حجا فنكره جهل قبيح بالهجا

فالذي يعلم بالحس لا يمكن إنكاره ولو أن أحدًا أنكره مستندًا بذلك إلى الشرع؛ لكان ذلك طعنًا بالشرع.

قوله: «من»: شرطية؛ فهي للعموم.

والعراف: صيغة مبالغة من العارف، أو نسبة؛ أي: من ينتسب إلى العرافة.

والعراف قيل: هو الكاهن، وهو الذي يخبر عن المستقبل.

وقيل: هو اسم عام للكاهن والمُنجِّم والرَّمال ونحوهم ممن يستدل على معرفة الغيب بمقدمات يستعملها، وهذا المعنى أعم، ويدل عليه الاشتقاق؛ إذ هو مشتق من المعرفة، فيشمل كل من تعاطى هذه الأمور وادَّعى بها المعرفة.

قوله «فسأله لم تقبل له صلاة أربعين يومًا» ظاهر الحديث أن مجرد سؤاله يوجب عدم قبول صلاته أربعين يومًا، ولكنه ليس على إطلاقه؛ فسؤال العراف ونحوه ينقسم إلى أقسام:

القسم الأول: أن يسأله سؤالاً مجردًا؛ فهذا حرام لقول النبي ﷺ: «من أتى عرافًا.......»؛ فإثبات العقوبة على سؤاله يدل على تحريمه؛ إذ لا عقوبة إلا على فعل محرم.

القسم الثاني: أن يسأله فيصدقه، ويعتبر قوله؛ فهذا كفر لأن تصديقه له في علم الغيب تكذيب للقرآن، حيث قال تعالى: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

القسم الثالث: أن يسأله ليختبره: هل هو صادق أو كاذب، لا لأجل أن يأخذ بقوله؛ فهذا لا بأس به، ولا يدخل في الحديث. وقد سأل النبي ﷺ ابن صياد؛ فقال: «ماذا خبأت لك؟» قال: الدُّخ. فقال:

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٢٣٠).

. . . .

وظاهر الحديث: أن الوعيد مرتب على مجيئه وسؤاله، سواء صدقه أو شك في خبره؛ فإن [في] بعض روايات الصحيح: «**من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**».

قوله: «لم تقبل له صلاة»: إذا كانت هذه حال السائل، فكيف بالمسئول؟

«**اخسأ؛ فلن تعدو قَدْرَك**»[1]؛ فالنبي ﷺ سأله عن شيء أضمره له؛ لأجل أن يختبره، فأخبره به.

القسم الرابع: أن يسأله ليظهر عجزه وكذبه، فيمتحنه في أمور يتبين بها كذبه وعجزه، وهذا مطلوب، وقد يكون واجبًا. وإبطال قول الكهنة لا شك أنه أمر مطلوب، وقد يكون واجبًا؛ فصار السؤال هنا ليس على إطلاقه، بل يفصل فيه هذا التفصيل على حسب ما دلت عليه الأدلة الشرعية الأخرى. وقد ذكر شيخ الإسلام أن الجن يخدمون الإنس في أمور، والكهان يستخدمون الجن ليأتوهم بخبر السماء، فيضيفون إليه من الكذب ما يضيفون، وخدمة الجن للإنس ليست محرمة على كل حال، بل هي على حسب الحال. فالجني يخدم الإنس في أمور لمصلحة الإنس، وقد يكون للجن فيها مصلحة، وقد لا يكون له فيها مصلحة، بل لأنه يحبه في الله ولله، ولا شك أن من الجن مؤمنين يحبون المؤمنين من الإنس؛ لأنه يجمعهم الإيمان بالله. وقد يخدمونهم لطاعة الإنس لهم فيما لا يرضي الله -عز وجل- إما في الذبح لهم أو في عبادتهم أو أشبه ذلك، والأغرب من ذلك أنهم ربما يخدمون الإنس لأمر محرم من زنا أو لواط؛ لأن الجنية قد تستمتع بالإنسي بالعشق والتلذذ بالاتصال به، أو بالعكس، وهذا أمر معلوم مشهود، حتى ربما كان الجني الذي في الإنسان ينطق بذلك، كما يعلم من الذين يقرؤون على المصابين بالجن. والنبي ﷺ حضر إليه الجن وخاطبهم، وأرشدهم، ووعدهم بعطاء لا نظير له؛ فقال لهم: «**كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما يكون لحمًا، وكل بعرة؛ فهي علف لدوابكم**»، وذكر أن في عهد عمر رضي الله عنه امرأة لها رئيّ من الجن، وكانت توصيه بأشياء، حتى إنه تأخر عمر ذات يوم، فأتوا إليها، فقالوا: ابحثي لنا عنه.

فذهب هذا الجني الذي فيها، وبحث وأخبرهم أنه في مكان كذا، وأنه يَسِمُ إبل الصدقة.

قوله: «**فَصَدَّقه**»: ليست في «صحيح مسلم»، بل الذي في «مسلم»: «**فسأله؛ لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**» وزيادتها في نقل المؤلف إما لأن النسخة التي نقل منها بهذا اللفظ «**فصدقه**» أو أن المؤلف عزاه إلى «مسلم» باعتبار أصله، فأخذ من «مسلم»: «**فسأله**» وأخذ من أحمد: «**فصدقه**».

قوله: «لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»: نفي القبول هنا هل يلزم منه نفي الصحة أو لا؟

نقول: نفي القبول إما أن يكون لفوات شرط، أو لوجود مانع؛ ففي هاتين الحالين يكون نفي القبول نفيًا للصحة، كما لو قلت: من صلى بغير وضوء لم يقبل الله صلاته، ومن صلى في مكان مغصوب لم يقبل الله صلاته عند من يرى ذلك.

وإن كان نفي القبول لا يتعلق بفوات شرط ولا وجود مانع؛ فلا يلزم من نفي القبول نفي الصحة،

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٥٥) ومواضع، ومسلم (٢٩٢٤، ٢٩٣١)، وأبو داود (٤٣٢٩)، والترمذي (٢٢٤٩)، وأحمد (٣٥٩٩، ٦٣٢٤، ١١٣٦٧).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَن أتى كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أُنزِلَ على محمد ﷺ»[1] رواه أبو داود.

قال النووي وغيره: معناه أنه لا ثواب له فيها، وإن كانت مجزئة بسقوط الفرض عنه. ولابد من هذا التأويل في هذا الحديث؛ فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العراف إعادة صلاة أربعين ليلة. انتهى ملخصًا.

وفي الحديث: النهي عن إتيان الكاهن ونحوه.

قال القرطبي: يجب على من قدر على ذلك من مُحتسب وغيره أن يقيم من يتعاطى شيئًا من ذلك من الأسواق، ويُنكر عليهم أشد النكير، وعلى من يجيء إليهم، ولا يغتر بصدقهم في بعض الأمور، ولا بكثرة من يجيء إليهم ممن ينتسب إلى العلم؛ فإنهم غير راسخين في العلم، بل من الجهال بما في إتيانهم من المحذور.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَن أتى كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أُنْزِلَ على محمد ﷺ» رواه أبو داود.

وإنما يكون المراد بالقبول المنفي: إما نفي القبول التام؛ أي: لم تقبل على وجه التمام الذي يحصل له تمام الرضا وتمام المثوبة. وإما أن يراد به أن هذه السيئة التي فَعلَها تقابل تلك الحسنة في الميزان، فتسقطها، ويكون وزرها موازيًا لأجر تلك الحسنة، وإذا لم يكن له أجر صارت كأنها غير مقبولة، وإن كانت مجزئة ومبرئة للذمة، لكن الثواب الذي حصل بها قوبل بالسيئة فأسقطته.

ومثله قوله ﷺ «من شرب الخمر؛ لم تقبل له صلاة أربعين يومًا».

وقوله: «أربعين يومًا»: تخصيص هذا العدد لا يمكننا أن نعلله؛ لأن الشيء المُقدَّر بعدد لا يستطيع الإنسان غالبًا أن يعرف حكمته، فكون الصلاة خمس صلوات أو خمسين لا نعلم لماذا خصصت بذلك؛ فهذا من الأمور التي يقصد بها التعبد للَّه، والتعبد للَّه بما لا تعرف حكمته أبلغ من التعبد له بما تعرف حكمته؛ لأنه أبلغ في التذلل، صحيح أن الإنسان إذا عرف الحكمة اطمأنت نفسه أكثر، لكن كون الإنسان ينقاد لما لا يعرف حكمته دليل على كمال الانقياد والتعبد للَّه عز وجل؛ فهو من حيث العبودية أبلغ وأكمل. وأما ذاك؛ فهو من حيث الطمأنينة إلى الحكم يكون أبلغ؛ لأن النفس إذا علمت بالحكمة في شيء اطمأنت إليه بلا شك، وازدادت أخذًا له وقبولاً؛ فهناك أشياء مما عيَّنه الشرع بعدد أو كيفية لا نعلم ما الحكمة فيه، ولكن سبيلنا أن نكون كما قال اللَّه تعالى عن المؤمنين: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فعلينا التسليم والانقياد وتفويض الأمر إلى اللَّه تعالى. ويؤخذ من الحديث: تحريم إتيان العراف وسؤاله؛ إلا ما استثنيَ؛ كالقسم الثالث والرابع؛ لما في إتيانهم وسؤالهم من المفاسد العظيمة، التي ترتب على تشجيعهم وإغراء الناس بهم، وهم في الغالب يأتون بأشياء كلها باطلة.

قوله: «من أتى كاهنًا»: تقدم معنى الكاهن، وأنهم كانوا رجالاً في أحياء العرب تنزل عليهم

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٣٩٠٤)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥٩٤٢).

. . . .

وفي رواية أبي داود: «أو أتى امرأة - قال مسدد: امرأته - حائضًا، أو أتى امرأة - قال مسدد: امرأته - في دبرها، فقد برئ مما أنزل على محمد ﷺ» فناقل هذا الحديث من (السنن) حذف منه هذه الجملة، واقتصر على ما يناسب الترجمة.

الشياطين، وتخبرهم بما سمعت من أخبار السماء.

قوله: «فصدقه»: أي: نسبه إلى الصدق، وقال: إنه صادق، وتصديق الخبر يعني: تثبيته وتحقيقه، فقال: هذا حق وصحيح وثابت.

قوله: «بما يقول»: «ما» عامة في كل ما يقول، حتى ما يحتمل أنه صدق؛ فإنه لا يجوز أن يصدقه؛ لأن الأصل فيهم الكذب.

قوله: «فقد كفر بما أنزل على محمد»: أي: بالذي أنزل، والذي أنزل على محمد ﷺ القرآن؛ أنزل إليه بواسطة جبريل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، وبهذا تعرف أن القول الراجح في الحديث القدسي أنه من كلام الله تعالى معنى.

وأما لفظه؛ فمن الرسول ﷺ، لكنه حكاه عن الله؛ لأننا لو لم نقل بذلك لكان الحديث القدسي أرفع سندًا من القرآن، حيث إن الرسول ﷺ يرويه عن ربه مباشرة والقرآن بواسطة جبريل.

ولأنه لو كان من كلام الله لفظًا؛ لوجب أن تثبت له أحكام القرآن؛ لأن الشرع لا يفرق بين المتماثلين، وقد علم أن أحكام القرآن لا تنطبق على الحديث القدسي؛ فهو لا يتعبد بتلاوته، ولا يقرأ في الصلاة، ولا يعجز لفظه، ولو كان من كلام الله؛ لكان معجزًا؛ لأن كلام الله لا يماثله كلام البشر، وأيضًا باتفاق أهل العلم - فيما أعلم - أنه لو جاء مشرك يستجير ليسمع كلام الله وأسمعناه الأحاديث القدسية؛ فلا يصح أن يقال: إنه سمع كلام الله.

فدل هذا على أنه ليس من كلام الله، وهذا هو الصحيح، وللعلماء في ذلك قولان: هذا أحدهما.

والثاني: أنه من قول الله لفظًا.

فإن قال قائل: كيف تصححون هذا والنبي ﷺ ينسب القول إلى الله، ويقول: قال الله تعالى: ومقول القول هو هذا الحديث المسوق؟

قلنا: هذا كما قال الله تعالى عن موسى وفرعون وإبراهيم: قال موسى، قال فرعون، قال إبراهيم. . .، مع أننا نعلم أن هذا اللفظ ليس من كلامهم، ولا قولهم؛ لأن لغتهم ليست اللغة العربية، وإنما نُقِلَ نقلاً عنهم، ويدل لهذا أن القصص في القرآن تختلف بالطول والقصر والألفاظ، مما يدل على أن الله سبحانه ينقلها بالمعنى، ومع ذلك ينسبها إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧].

وقال عن موسى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال عن فرعون: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤].

وللأربعة، والحاكم ـ وقال: صحيح على شرطهما ـ عن[١] ... من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ»[٢].

قال المصنف رحمه الله تعالى: وللأربعة، والحاكم ـ وقال: صحيح على شرطهما ـ عن ... من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ».

هكذا بيض المصنف لاسم الراوي. وقد رواه أحمد، والبيهقي، والحاكم، عن أبي هريرة مرفوعًا.

قوله: «من أتى كاهنًا»: قال بعضهم: لا تعارض بين هذا وحديث: «من أتى عرافًا فسأله عن

وكثير من الكهانة المتعلقة بالشياطين لا تخلو من الشرك والتقرب إلى الوسائط التي تستعين بها على دعوى العلوم الغيبية، فهو شرك من جهة دعوى مشاركة الله في علمه الذي اختص به، ومن جهة التقرب إلى غير الله، وفيه إبعاد الشارع للخلق عن الخرافات المفسدة للأديان والعقول.

قوله: «بما أُنزل على محمد». ذكر أهل السنة أن كل كلمة وُصف فيها القرآن بأنه مُنزل أو أنزله من اللَّه؛ فهي دالة على علو اللَّه سبحانه وتعالى بذاته، وعلى أن القرآن كلام اللَّه؛ لأن النزول يكون من أعلى، والكلام لا يكون إلا من متكلم به.

قوله: «كفر بما أنزل على محمد»: وجه ذلك: أن ما أنزل على محمد قال اللَّه تعالى فيه: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

وهذا من أقوى طرق الحصر؛ لأن فيه النفي والإثبات؛ فالذي يُصدّق الكاهن في علم الغيب وهو يعلم أنه لا يعلم الغيب إلا اللَّه؛ فهو كافر كفرًا أكبر مخرجًا عن الملة، وإن كان جاهلاً ولا يعتقد أن القرآن فيه كذب؛ فكفره كفر دون كفر.

قوله: «وللأربعة والحاكم»: الأربعة هم: أبو داود، والنَّسائي، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، ليس من أهل «السنن»، لكن له كتاب سمي «صحيح الحاكم».

قوله: «صحيح على شرطهما»: أي: شرط البخاري ومسلم، لكن قول «على شرطهما» هذا على ما يعتقد، وإلا؛ فقد يكون الأمر على خلاف ذلك. ومعنى قوله: «على شرطهما»؛ أي: أن رجاله رجال «الصحيحين»، وأن ما اشترطه البخاري ومسلم موجود فيه. ونحن لا ننكر أن هناك أحاديث صحيحة لم يذكرها البخاري ومسلم؛ لأنهما لم يستوعبا الصحيح كله، وهذا أمر واقع، ولكن ينظر في قول من قال: إن هذا الحديث على شرطهما؛ فقد تكون فيه علة خفية خفيت على هذا القائل، ويكن البخاري ومسلم علماها وتركا الحديث من أجلها.

قوله: «صحيح»: يقولون: الحاكم ممن يتساهل بالتصحيح، ولهذا قالوا: لا عبرة بتصحيح الحاكم، ولا بتوثيق ابن حبان، ولا بوضع ابن الجوزي، ولا بإجماع ابن المنذر. وهذا القول فيه مجازفة في الحقيقة؛ لأن كلمة (لا عبرة)؛ أي: لا يلتفت إليه. والصواب أنه لا يؤخذ مقبولاً في كل حال، مع أني تدبرت كلام ابن المنذر رحمه اللَّه، ووجدت أنه دائمًا إذا نقل الإجماع يقول: إجماع من نحفظ قوله من أهل العلم، وهو بهذا قد احتفظ لنفسه، ولا

---

(١) بياض بالأصل. (ق).

(٢) رواه ابن ماجه (٦٣٩)، والترمذي (١٣٥)، وأحمد (٢/ ٤٢٩)، والحاكم (١/ ٤٩)، وقال الحافظ في التلخيص (٣/ ١٨٠): قال البخاري: لا يُعرف لأبي تَميمة سَماع من أبي هريرة، وقال البَزار: هذا حديث منكر، والحديث صححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥٩٣٩).

ولأبي يعلى ـ بسند جيد ـ عن ابن مسعود، مثله موقوفًا.

شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» هذا على قول من يقول: هو كفر دون كفر.

أما على قول من يقول بظاهر الحديث، فيُسأل عن وجه الجمع بين الحديثين!

وظاهر الحديث: أنه يكفر، متى اعتقد صدقه بأي وجه كان. وكان غالب الكهان قبل النبوة إنما كانوا يأخذون عن الشياطين.

قوله: «فقد كفر بما أُنزل على محمد»: قال القرطبي: المراد بالمنزل: الكتاب والسنة. انتهى.

وهل الكفر في هذا الموضع كفر دون كفر، فلا ينقل عن الملة، أم يُتوقف فلا يقال: يُخرج عن الملة ولا ما يخرج؟ وهذا أشهر الروايتين عن أحمد رحمه الله.

قال المصنف رحمه الله تعالى: ولأبي يعلى ـ بسند جيد ـ عن ابن مسعود، مثله موقوفًا.

أبو يعلى: اسمه: أحمد بن علي بن المثنى الموصلي، الإمام صاحب التصانيف [كالمسند] وغيره، روى عن يحيى بن معين وأبي خيثمة، وأبي بكر بن أبي شيبة، وخلق. وكان من الأئمة الحفاظ. مات سنة سبع وثلاثمائة.

وهذا الأثر: رواه البزار أيضًا، ولفظه: من أتى كاهنًا أو ساحرًا فصدقه بما يقول: فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ.

وفيه: دليل على كفر الكاهن والساحر؛ لأنهما يدَّعيان علم الغيب، وذلك كفر. والمصدق لهما يعتقد ذلك ويرضى به، وذلك كفر أيضًا[1].

يكلف الله نفسًا إلا وسعها. ولكننا مع ذلك نقول: إذا كان الرجل ذا اطلاع واسع؛ فقد يكون هذا القول إجماعًا، أما إذا كان هذا الرجل لا يعرف إلا ما حوله؛ فإن قوله هذا لا يكون إجماعًا ولا يوثق به، ولا نحكم بأنه إجماع.

مثاله: فلو قال رجل: لم يدرس إلا المذهب الحنبلي في مسألة، وقال هذا إجماع من نحفظ قوله من أهل العلم؛ فإن قوله هذا لا يعتبر؛ لأنه لم يحفظ إلا قولاً قليلاً من أقوال أهل العلم.

قوله: «من أتى عرافًا أو كاهنًا»: «أو» يحتمل أن تكون للشك، ويحتمل أن تكون للتنويع؛ فالحديث الأول بلفظ عراف، والثاني بلفظ كاهن، والثالث جمع بينهما؛ فتكون «أو» للتنويع.

وجاء المؤلف بهذا الحديث مع أن الأول والثاني مغنيان عنه؛ لأن كثرة الأدلة مما يُقوي المدلول، أرأيت لو أن رجلاً أخبرك بخبر فوثقت به، ثم جاء آخر وأخبرك به ازددت توثقًا وقوة، ولهذا فرَّق الشارع بين أن يأتي الإنسان بشاهد واحد أو شاهدين. وظاهر صنيع المؤلف: أن حديث أبي هريرة: «من أتى عرافًا أو كاهنًا» أنه موقوف؛ لأنه قال عن أبي هريرة، لكنه لما قال في الذي بعده: «موقوفًا» ترجح عندنا أن الحديث الذي قبله مرفوع.

---

(١) وذلك لأن في الكتاب المنزَّل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤] وقال في سورة «الأنعام»: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] وقال في سورة «الجن»: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] فمن صدق العراف والكاهن فقد كذب بهذه الآيات، ومن كذبها كفر. (ق).

وعن عمران بن حُصين، مرفوعًا: «ليس منا مَن تطيَّر أو تُطيِّر له، أو تكهَّن أو تُكُهِّن له، أو سَحَر، أو سُحِر له. ومن أتى كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ» رواه البزار بإسناد جيد[1]. ورواه الطبراني بإسناد حسن، من حديث ابن عباس، دون قوله: «ومن أتى كاهنًا» إلى آخره.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن عمران بن حُصين، مرفوعًا: «ليس منا مَن تطيَّر أو تُطيِّر له، أو تكهَّن أو تُكُهِّن له، أو سحر، أو سُحر له. ومن أتى كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ» رواه البزار بإسناد جيد.

ورواه الطبراني بإسناد حسن، من حديث ابن عباس، دون قوله: «ومن أتى كاهنًا» إلى آخره.

قوله: «ليس منا»[2]: فيه: وعيد شديد، ويدل على أن هذه الأمور من الكبائر؛ وتقدم: أن الكهانة والسحر كفر.

قوله: «من تطير»: أي: فعل الطيرة، أو «تُطير له» أي: قَبِل قولَ المتطيِّر له وتابعه، وكذا معنى «أو تكهن أو تُكهن له» كالذي يأتي الكاهن ويصدقه ويتابعه، وكذلك من عمل الساحر له السحر.

فكل من تلقى هذه الأمور عمن تعاطاها فقد برئ منه رسول اللّه ﷺ؛ لكونها: إما شرك كالطيرة، أو كفر كالكهانة والسحر. فمن رضي بذلك وتابع فهو كالفاعل؛ لقبوله الباطل واتباعه.

قوله: «ليس منا»: تقدم الكلام على هذه الكلمة، وأنها لا تدل على خروج الفاعل من الإسلام، بل على حسب الحال.

قوله: «مرفوعًا»: أي: إلى النبي ﷺ.

قوله: «تطير»: التطير: هو التشاؤم بالمرئي أو المسموع أو المعلوم أو غير ذلك، وأصله من الطير؛ لأن العرب كانوا يتشاءمون أو يتفاءلون بها، وقد سبق ذلك. ومنه ما يحصل لبعض الناس إذا شرع في عمل، ثم حصل له في أوله تَعثُّر تركه وتشاءم؛ فهذا غير جائز، بل يعتمد علي اللّه ويتوكل عليه، وما دمت أنك تعلم أن في هذا الأمر خيراً؛ فغامر فيه، ولا تشاءم؛ لأنك لم توفق فيه لأول مرة؛ فكم من إنسان لم يوفق في العمل أول مرة، ثم وفق في ثاني مرة أو ثالث مرة؟!

ويقال: إن الكسائي إمام النحو طلب النحو عدة مرات، ولكنه لم يوفق، فرأى نملة تحمل نواة تمر، فتصعد بها إلى الجدار، فتسقط، حتى كررت ذلك عدة مرات، ثم صعدت بها إلى الجدار وتجاوزته؛ فقال: سبحان اللّه! هذه النملة تكابد هذه النواة حتى نجحت، إذًا أنا سأكابد علم النحو حتى أنجح. فكابد؛ فصار إمام أهل الكوفة في النحو.

قوله: «أو تُطير له»: بالبناء للمفعول؛ أي: أمَرَ من يتطير له، مثل أن يأتي شخص، ويقول:

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في الكبير(١٨/ ١٦٢)، والبزار (٩/ ٥٢)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥٤٣٥). والسلسلة الصحيحة.

(٢) فيه دليل على نفي الإيمان الواجب، وهو لا ينافي ما تقدم من أن الطيرة شرك، وأن الكهانة كفر.(ق).

قال البغوي: العرَّاف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدِّمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة، ونحو ذلك.

قوله: (رواه البزار). هو أحمد بن عمرو بن عبد الخالق، أبو بكر البزار البصري، صاحب (المسند الكبير). وروىٰ عن ابن بشار، وابن المثنىٰ، وخلق. مات سنة اثنتين وتسعين ومائتين.

قال المصنف رحمه الله تعالى: قال البغوي: العرَّاف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدِّمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة، ونحو ذلك.

سأسافر إلىٰ المكان الفلاني، وأنت صاحب طير، وأريد أن تزجر طيرك لأنظر: هل هذه الوجهة مباركة أم لا، فمن فعل ذلك؛ فقد تبرأ منه الرسول ﷺ.

وقوله: «من تطير»: يشمل من تطير لنفسه، أو تطير لغيره.

وقوله: «أو تكهن أو تُكهنَ له»: سبق أن الكهانة ادعاء علم الغيب في المستقبل، يقول: سيكون كذا وكذا، وربما يقع؛ فهذا متكَهن، ومن الغريب أنه شاع الآن في أسلوب الناس قولهم: تكهن بأن فلانًا سيأتي، ويطلقون هذا اللفظ الدَّال علىٰ عمل محرم علىٰ أمر مباح، وهذا لا ينبغي؛ لأن العامي الذي لا يفرق بين الأمور يظن أن الكهانة كلها مباحة، بدليل إطلاق هذا اللفظ علىٰ شيء مباح معلوم إباحته.

قوله: «أو تُكهنَ له»: أي: طلب من الكاهن أن يتكهن له، كأن يقول للكاهن: ماذا يصيبني غدًا، أو في الشهر الفلانَي، أو في السنة الفلانية، وهذا تبرأ منه الرسول ﷺ.

قوله: «أو سَحَر أو سُحر له»: تقدم تعريف السحر، وتقدم بيان أقسامه.

قوله: «أو سُحر له»: أي: طلب من الساحر أن يسحر له، ومنه النُّشرة عن طريق السحر؛ فهي داخلة فيه، وكانوا يستعملونها علىٰ وجوه متنوعة، منها أنهم يأتون بطست فيه ماء، ويصبُّون فيه رصاصًا، فيتكون هذا الرصاص بوجه الساحر؛ أي: تكون صورة الساحر في هذا الرصاص، ويسميها العامة عندنا «صب الرصاص»، وهذا من أنواع السحر المحرم، وقد تبرأ رسول اللّٰه ﷺ من فاعله.

الشاهد من هذا الحديث: قوله: «ومن أتى كاهنًا...» إلخ، وقوله: «ورواه الطبراني في «الأوسط» بإسناد جيد من حديث ابن عباس...» إلخ؛ فيكون هذا مقويًا للأول.

قوله: «قال البغوي: العراف الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات...»: العراف: صيغة مبالغة فإما أن يراد بها الصيغة، وإما أن يراد بها النسبة. وهو الذي يدعي معرفة الأشياء، وليس كل من يدعي معرفة يكون عرافًا، لكن من يدعي معرفة تتعلق بعلم الغيب، فيدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها علىٰ مكان المسروق والضالة ونحوها. وظاهر كلام البغوي رحمه اللّٰه: أنه شامل لمن ادعىٰ معرفة المستقبل والماضي؛ لأن مكان المسروق ماضٍ قد سُرق، وكذلك الضالة قد حصل الضياع، ولكن المسألة ليست اتفاقية بين أهل العلم، ولهذا قال المؤلف رحمه اللّٰه: «وقيل: هو»؛ أي: العراف الكاهن.

والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقيل: هو الكاهن. والكاهن: هو الذي يُخبر عن المغيبات في المستقبل. وقيل: الذي يُخبر عما في الضمير. وقال أبو العباس ابن تيمية: العرَّاف: اسم للكاهن والمنجم والرَّمَّال ونحوهم، وممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق.

وقيل: هو الكاهن. والكاهن: هو الذي يُخبر عن المغيبات في المستقبل. وقيل: الذي يُخبر عما في الضمير. وقال أبو العباس ابن تيمية: العرَّاف: اسم للكاهن والمنجم والرَّمَّال ونحوهم، وممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق.

البَغَوي - بفتحتين - هو الحسين بن مسعود بن الفرَّاء الشافعي، صاحب التصانيف، وعالم أهل خراسان. كان ثقة فقيهًا زاهدًا. مات في شوال سنة ست عشرة وخمسمائة.

قوله: (العرَّاف: الذي يدعي معرفة الأمور): ظاهره، أن العراف: الذي يُخبر عن الواقع كالسرقة وسارقها، والضالة ومكانها.

وقال شيخ الإسلام: إن العراف: اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم، كالحازر الذي يدعي علم الغيب، أو يدعي الكشف. وقال أيضًا: والمنجم يدخل في اسم العراف، وعند بعضهم هو في معناه. وقال أيضًا: والمنجم يدخل في اسم الكاهن، عند الخطابي وغيره من العلماء، وحُكي ذلك عن العرب.

وعند آخرين: هو من جنس الكاهن، وأسوأ حالاً منه، فيُلحق به من جهة المعنى.

وقال الإمام أحمد: العراف: طرف من السحر. والساحر أخبث.

وقال أبو السعادات: العراف: المنجم والحازر الذي يدعي علم الغيب، وقد استأثر اللَّه تعالى به.

وقال ابن القيم: من اشتهر بإحسان الزجر عندهم سموه عائفًا، وعرافًا.

والمقصود من هذا: معرفة من يدعي معرفة علم شيء من المُغيَّبات، فهو إما داخل في اسم الكاهن، وإما مشارك له في المعنى، فيُلحق به. وذلك أن إصابة المخبر ببعض الأمور الغائبة، في بعض الأحيان يكون بالكشف. ومنه ما هو من الشياطين، ويكون: بالفأل، والزجر، والطيرة، والضرب بالحصى، والخط في الأرض، والتنجيم، والكهانة، والسحر، ونحو هذا من علوم الجاهلية.

باب النشرة

وهو حل السحر عن المسحور. ذكر فيه المصنف كلام ابن القيم في التفصيل بين الجائز منه والممنوع وفيه كفاية.

قوله: «وقيل: هو الذي يخبر عما في الضمير»: أي: أن تضمر شيئًا فتقول: ما أضمرت؟ فيقول: أضمرت كذا وكذا. أو المغيبات في المستقبل، تقول: ماذا سيحدث في الشهر الفلاني أو في اليوم الفلاني؟ ماذا ستلد امرأتي؟ متى يقدم ولدي؟ وهو لا يدري.

والخلاصة: أن العلماء اختلفوا في تعريف العراف؛ فقيل: هو الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على مكان المسروق والضالة ونحوها؛ فيكون شاملاً لمن يخبر عن أمور وقعت.

. . . .

ونعني بالجاهلية: كل من ليس من أتباع الرسل عليهم السلام، كالفلاسفة والكُهَّان والمنجمين، وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي ﷺ؛ فإن هذه علوم القوم، ليس لهم علم بما جاءت به الرسل عليهم السلام[1]. وكل هذه الأمور يُسمَّىٰ صاحبها كاهنًا وعرّافًا، أو في معناهما. فمن أتاهم فصدقهم بما يقولون لحقه الوعيد. وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام، فادعوا بها علم الغيب الذي استأثر اللَّه تعالىٰ بعلمه، وادعوا أنهم أولياء، وأن ذلك كرامة !!

وقيل: الذي يخبر عما في الضمير. وقيل: هو الكاهن.

والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

قوله: «وقال أبو العباس ابن تيمية»: هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، يكنىٰ بأبي العباس، ولم يتزوج، ولم يتركه من باب الرهبانية، ولكنه - واللَّه أعلم - كان مشغولاً بالجهاد العلمي مع قلة الشهوة، وإلا لو كان قوي الشهوة لتزوج، وليس كما يدعي المُزَوِّرون أن له ولدًا مدفونًا إلىٰ جانبه في دمشق؛ فإنه غير صحيح قطعًا. وظاهر كلام الشيخ: أن شيخ الإسلام جزم بهذه، ولكن شيخ الإسلام قال: وقيل العراف، وذكره بقيل، ومعلوم أن ما ذُكر بقيل ليس مما يجزم بأن الناقل يقول به، صحيح أنه إذا نقله ولم ينقضه، فهذا دليل علىٰ أنه ارتضاه. وعلىٰ كل حال؛ فشيخ الإسلام ساق هذا القول وارتضاه، ثم قال: ولو قيل: إنه اسم خاص لبعض هؤلاء الرَّمال والمُنجِّم ونحوهم؛ فإنهم يدخلون فيه بالعموم المعنوي؛ لأن عندنا عمومًا معنويًا، وهو ما ثبت عن طريق القياس، وعمومًا لفظيًا، وهو ما يدل عليه اللفظ، بحيث يكون اللفظ شاملاً له.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه[2] أن استخدام الإنس للجن له ثلاث حالات:

الحال الأولىٰ: أن يستخدم في طاعة اللَّه، كأن يكون له نائبًا في تبليغ الشرع؛ فمثلاً: إذا كان له صاحب من الجن مؤمن يأخذ عنه العلم، ويتلقىٰ منه، وهذا شيء ثبت أن الجن قد يتعلمون من الإنس، فيستخدمه في تبليغ الشرع لنظرائه من الجن، أو في المعونة علىٰ أمور مطلوبة شرعًا؛ فهذا لا بأس به، بل إنه قد يكون أمرًا محمودًا أو مطلوبًا، وهو من الدعوة إلىٰ اللَّه عز وجل، والجن حضروا النبي ﷺ وقرأ عليهم القرآن، وولوا إلىٰ قومهم منذرين، والجن فيهم الصلحاء والعباد والزهاد والعلماء؛ لأن المنذر لابد أن يكون عالمًا بما ينذر، عابدًا مطيعًا للَّه سبحانه في الإنذار.

---

(١) ومعنى الجاهلية الإعراض عن العلم المنزَّل من الله على رسله هدى ورحمة، والاعتماد على التقاليد والعادات والظنون والتخرصات، وما يوحي به الشياطين، ويحددها قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] وقد عادت الجاهلية إلى الناس اليوم مثل الجاهلية الأولى وشرًّا منها، ولا يمنع وجود القرآن والحديث لأنهم اتخذوهما مهجورين، فوجودهما حجة عليهم فقط، ولا يغرنك منهم عمائم ولحى وصور فما وراءها إلا جاهلية وعقلية عامية قد تكون شرًّا من عقلية من يتبعون أذناب الإبل والبقر. ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]. (ق).

(٢) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى فصل فيمن خالف ما جاء به النبي ﷺ.

. . . .

ولا ريب أن من ادعى الولاية، واستدل بإخباره ببعض المغيبات فهو من أولياء الشيطان، لا من أولياء الرحمن! إذ الكرامة: أمر يجريه اللَّه على يد عبده المؤمن المتقي: إما بدعاء، أو أعمال صالحة لا صُنع للولي فيها، ولا قدرة له عليها. بخلاف من يدعي أنه ولي للَّه، ويقول للناس: اعلموا أني أعلم المغيبات؛ فإن مثل هذه الأمور قد تحصل بما ذكرنا من الأسباب، وإن كانت أسبابًا محرمة كاذبة في الغالب. ولهذا قال ﷺ في وصف الكهان: «فيكذبون معها مائة كذبة» فبيَّن أنهم يصدقون مرة ويكذبون مائة. وهكذا حال من سلك سبيل الكهان، ممن يدعي الولاية والعلم بما في ضمائر الناس، مع أن نفس دعواه دليل على كذبه؛ لأن في دعواه الولاية تزكية النفس المنهي عنها بقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] وليس هذا من شأن الأولياء، بل شأنهم الإزراء على نفوسهم وعيبهم لها، وخوفهم من ربهم. فكيف يأتون الناس، يقولون: اعرفوا أنا أولياء، وأنا نعلم الغيب؟ ومن ضمن ذلك طلب المنزلة في قلوب الخلق، واقتناص الدنيا بهذه الأمور.

وحسبك بحال الصحابة والتابعين، وهم سادات الأولياء رضي اللَّه عنهم، أفكان عندهم من هذه الدعاوي والشطحات شيء؟! لا واللَّه، بل كان أحدهم لا يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن، كالصديق رضي اللَّه عنه. وكان عمر يُسمع نشيجه من وراء الصفوف يبكي في صلاته، وكان يمرُّ بالآية في ورده بالليل فيمرض منها ليالي يعودونه. وكان تميم الداري يتقلب في فراشه لا يستطيع النوم إلا قليلاً، خوفًا من النار، ثم يقوم إلى صلاته! ويكفيك في صفات الأولياء، ما ذكره اللَّه تعالى من صفاتهم: في سورة «الرعد، والمؤمنين، والفرقان، والذاريات، والطور»[1]. فالمتصفون بتلك

الحالة الثانية: أن يستخدمهم في أمور مباحة، مثل أن يطلب منهم العون على أمر من الأمور المباحة، قال: فهذا جائز بشرط أن تكون الوسيلة مباحة، فإن كانت محرمة؛ صار حرامًا، كما لو كان الجني لا يساعده في أموره إلا إذا ذبح له أو سجد له أو ما أشبه ذلك. ثم ذكر ما ورد أن عمر تأخر ذات مرة في سفره، فاشتغل فكر أبي موسى، فقالوا له: إن امرأة من أهل المدينة لها صاحب من الجن، فلو أمرتها أن ترسل صاحبها للبحث عن عمر، ففعل، فذهب الجني، ثم رجع، فقال: إن أمير المؤمنين ليس به

---

(١) قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ......﴾ [الرعد: ١٩- ٢٤] الآيات، وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: ٢٨، ٢٩]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] (الآيات إلى ٦١) وقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ....﴾ [الفرقان: ٦٣] (الآيات إلى ٧٦)، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ....﴾ [الذاريات: ١٥] (الآيات إلى ١٩)، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ.....﴾ [الطور: ١٧] (الآيات إلى ٢٨).

هذا وفي القرآن الكريم صفات المؤمنين كثيرة جدًا؛ بل أكثر آي القرآن في وصف الإيمان وأهله؛ وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ومن أدل الدلائل على أن الجهل ضرب على القلوب نطاقًا كثيفًا أن يعتقد الناس هذه الدرجة الرفيعة لعباد الرحمن في قوم يبولون على ثيابهم وهم في غاية القذر والوسخ، ولا يركعون لله ركعة؛ وقد سلبوا كل نعمة إلا الحيوانية؛ وربما تكلم الشيطان على ألسنتهم بالكلمة التي يفتن بها أولئك الجاهلين، ولا قوة إلا بالله. (ق).

وقـال ابن عـبـاس ـ في قـوم يكـتـبـون أبا جـاد، وينظرون في النجـوم ـ: مـا أرى مَن فـعلَ ذلك له عند الله مـن خـلاق[١].

الصفات هم الأولياء الأصفياء ، لا أهل الدعوىٰ والكذب ومنازعة رب العالمين فيما اختص به من الكبرياء والعظمة وعلم الغيب ، بل مجرد دعواه علم الغيب كفر . فكيف يكون المدعي لذلك وليًا للَّه؟ وقد عظم الضرر واشتد الخطب بهؤلاء المغترين الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين ، ولبسوا بها علىٰ خفافيش القلوب . نسأل اللَّه السلامة والعافية في الدنيا والآخرة .

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقال ابن عباس ـ في قوم يكتبون أبا جاد، وينظرون في النجوم ـ: ما أرى مَن فعلَ ذلك له عند الله من خلاق.

هذا الأثر ، رواه الطبراني عن ابن عباس ، مرفوعًا . وإسناده ضعيف ، ولفظه : رُبَّ مُعَلِم حروف أبي جاد دارس في النجوم . ليس له عند اللَّه خلاق يوم القيامة . ورواه حُميد بن زَنْجويه عنه ، بلفظ : رُبَّ ناظر في النجوم ومتعلم حروف أبي جاد ، ليس له عند اللَّه خلاق .

قوله: (ما أرى). يجوز فتح الهمزة ، بمعنىٰ : لا أعلم . ويجوز ضمها : بمعنىٰ : لا أظن .

بأس ، وهو يَسِمُ إبل الصدقة في المكان الفلاني ؛ فهذا استخدام في أمر مباح .

الحالة الثالثة: أن يستخدمهم في أمور محرمة ؛ كنهب أموال الناس وترويعهم ، وما أشبه ذلك ؛ فهذا محرم ، ثم إن كانت الوسيلة شركًا صار شركًا ، وإن كانت وسيلته غير شرك صار معصية ، كما لو كان هذا الجني الفاسق يألف هذا الإنسي الفاسق ويتعاون معه علىٰ الإثم والعدوان ؛ فهذا يكون إثمًا وعدوانًا ، ولا يصل إلىٰ حد الشرك . ثم قال : إن من يسأل الجن ، أو يسأل من يسأل الجن ، ويصدقهم في كل ما يقولون ؛ فهذا معصية وكفر ، والطريق للحفظ من الجن هو قراءة آية الكرسي ، فمن قرأها في ليلة لم يزل عليه من اللَّه حافظ ، ولا يقربه شيطان حتىٰ يصبح ، كما ثبت ذلك عنه ﷺ[٢] وهي : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . . . ﴾ الآية [البقرة : ٢٥٥] .

قوله: «يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم»: الواو هنا ليست عطفًا ، ولكنها للحال ، يعني : والحال أنهم ينظرون ، فيربطون ما يكتبون بسير النجوم وحركتها .

قوله: «ما أرى من فعل ذلك»: ويجوز بفتح الهمزة بمعنىٰ : أعلم ، وبالضم بمعنىٰ : ما أظن .

وقوله: «أبا جاد»: هي : أبجد هَوَّز حُطِّي كَلِمُن سَعفَص قرشت ثخذ ضظغ . . . وتَعَلُّم أبا جاد ينقسم إلىٰ قسمين .

الأول: تعلم مباح بأن نتعلمها لحساب الجُمل ، وما أشبه ذلك ؛ فهذا لا بأس به ، وما زال أناس يستعملونها ، حتىٰ العلماء يؤرخون بها ، قال شيخنا عبد الرحمن بن سعدي رحمه اللَّه في تاريخ بناء المسجد الجامع القديم :

---

(١) ضعيف: رواه البيهقي في الكبرى (٨/ ١٣٩)، والشعب (٤/ ٣٠٦)، وفيه خالد بن يزيد العمري، كذاب، كما ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١١٧)، وضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٣٠٩٢).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٣٢٧٥، ٥٠١٠).

. . . .

وكتابة أبي جاد، وتعلُّمها ـ لمن يدعي بها علم الغيب ـ هو الذي يُسمَّىٰ علم الحرف[1]، وهو الذي فيه الوعيد. فأما تعلُّمها للتهجي وحساب الجمل، فلا بأس به.

قوله: (وينظرون في النجوم)، أي: ويعتقدون أن لها تأثيرًا؛ كما سيأتي في باب التنجيم.

وفيه من الفوائد: عدم الاغترار بما يؤتاه أهل الباطل من معارفهم وعلومهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر: ٨٣].

جـــد بالـرضـــا واعــط المنى ... من ســـاعـــدوا في ذا الـبنـا

تـاريـخـــه حـــين انـتـهـى ... قـــول المنيب اغـــفـــر لنـا

والـشـــهـــر في شـــوال يـا ... رب تـقـبـــل ســـعـــيـنـا

فقوله: «اغفر لنا» لو عددناها حسب الجمل صارت ١٣٦٢هـ. وقد اعتنىٰ بها العلماء في العصور الوسطىٰ، حتىٰ في القصائد الفقهية والنَّحوية وغيرها. ويؤرخون بها مواليد العلماء ووفياتهم، ولم يرد ابن عباس هذا القسم.

الثاني: مُحَرَّم، وهو كتابة «أبا جاد» كتابة مربوطة بسير النجوم وحركاتها وطلوعها وغروبها. وينظرون في النجوم ليستدلوا بالموافقة أو المخالفة علىٰ ما سيحدث في الأرض، إما علىٰ سبيل العموم؛ كالجدب والمرض والحرب وما أشبه ذلك، أو علىٰ سبيل الخصوص؛ كأن يقول لشخص: سيحدث لك مرض أو فقر أو سعادة أو نحس في هذا وما أشبه ذلك؛ فهم يربطون هذه بهذه، وليس هناك علاقة بين حركات النجوم واختلاف الوقائع في الأرض.

وقوله: «ما أرى من فعل ذلك له عند اللَّه من خلاق».

قوله: «خلاق»: أي: نصيب. ظاهر كلام ابن عباس أنه يرىٰ كفرهم؛ لأن الذي ليس له نصيب عند اللَّه هو الكافر؛ إذ لا ينفىٰ النصيب مطلقًا عن أحد من المؤمنين، وإن كان له ذنوب عُذِّب بقدر ذنوبه، أو تجاوز اللَّه عنها، ثم صار آخر أمره إلىٰ نصيبه الذي يجده عند اللَّه.

ولم يبين المؤلف رحمه اللَّه حكم الكاهن والمنجم والرمال من حيث العقوبة في الدنيا، وذلك أننا إن حكمنا بكفرهم، فحكمهم في الدنيا أنهم يستتابون، فإن تابوا، وإلا؛ قتلوا كفارًا.

وإن حكمنا بعدم كفرهم؛ إما لكون السحر لا يصل إلىٰ الكفر؛ أو قلنا: إنهم لا يكفرون؛ لأن المسألة فيها خلاف؛ فإنه يجب قتلهم لدفع مفسدتهم ومضرتهم، حتىٰ وإن قلنا بعدم كفرهم؛ لأن أسباب القتل ليست مختصة بالكفر فقط، بل للقتل أسباب متعددة ومتنوعة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣]؛ فكل من أفسد علىٰ الناس أمور دينهم أو دنياهم؛ فإنه يستتاب، فإن

---

(١) وينسبه الدجالون المشركون إلى جعفر الصادق؛ ولهم في ذلك كلام كثير في منتهى الكفر والظاهر أنه من وضع الرافضة الذين استجابوا لسلفهم اليهود فأعملوا في هدم الإسلام كل معول. (ق).

فيه مسائل:

الأولى: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن.

الثانية: التصريح بأنَّه كفر.

الثالثة: ذكر من تُكُهِّن له.

الرابعة: ذكر من تُطيِّر له.

. . . .

تاب، وإلا؛ قتل، ولا سيما إذا كانت هذه الأمور تصل إلى الإخراج من الإسلام.

والنظر في النجوم ينقسم إلى أقسام:

الأول: أن يستدل بحركاتها وسيرها على الحوادث الأرضية، سواء كانت عامة أو خاصة؛ فهو شرك إن اعتقد أن هذه النجوم هي المدبرة للأمور، أو أن لها شركًا؛ فهو كفر مخرج عن الملة، وإن اعتقد أنها سبب فقط؛ فكفره غير مخرج عن الملة، ولكن يُسمى كفرًا؛ لقول النبي ﷺ على إثر سماء كانت من الليل: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: اللَّه ورسوله أعلم. قال: «قال: **أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، أما من قال: مطرنا بفضل اللَّه ورحمته؛ فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا؛ فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»[1].

وقد سبق لنا أن هذا الكفر ينقسم إلى قسمين بحسب اعتقاد قائله.

الثاني: أن يتعلم علم النجوم ليستدل بحركاتها وسيرها على الفصول وأوقات البذر والحصاد والغرس وما أشبهه؛ فهذا من الأمور المباحة؛ لأنه يستعان بذلك على أمور دنيوية.

القسم الثالث: أن يتعلمها لمعرفة أوقات الصلوات وجهات القبلة، وما أشبه ذلك من الأمور المشروعة؛ فالتعلم هنا مشروع، وقد يكون فرض كفاية أو فرض عين.

فيه مسائل:

الأولى: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن: يؤخذ من قوله: «**من أتى كاهنًا، فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد**»، ووجهه: أنه كذَّب بالقرآن، وهذا من أعظم الكفر.

الثانية: التصريح بأنه كفر: تؤخذ من قوله: «**فقد كفر بما أنزل على محمد**».

الثالث: ذكر من تُكهن له: تؤخذ من حديث عمران بن حصين؛ حيث قال: «**ليس منا**»؛ أي: إنه كالكاهن في براءة النبي ﷺ منه.

الرابعة: ذكر من تُطير له: تؤخذ من قوله: «**أو تطير له**».

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٠٣٨)، ومسلم (٧١)، وأبو داود (٣٩٠٦)، وأحمد (١٦٦١٣).

الخامسة: ذكر من سُحِر له.

السادسة: ذكر من تعلم أبا جاد.

السابعة: ذكر الفرق بَيْنَ الكاهن والعراف.

....

الخامسة: ذكر من سحر له: تؤخذ من قوله: «أو سُحر له».

وأتى المؤلف بذكر من تكهن له، أو سحر له، أو تطير له؛ لأنه قد يعارض فيه معارض، فيقول هذا في الكهان، وهذا في المتطيرين، وهذا في السحرة؛ فقال: إن من طلب أن يفعل له ذلك؛ فهو مثلهم في العقوبة.

السادسة: ذكر من تعلم أبا جاد: وتعلم ذلك فيه تفصيل لا يحمد ولا يذم إلا على حسب الحال التي تُنزَّل عليها، وقد سبق ذلك.

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف: وفي هذه المسألة خلاف بين أهل العلم:

القول الأول: أن العراف هو الكاهن؛ فهما مترادفان؛ فلا فرق بينهما.

القول الثاني: أن العراف هو الذي يستدل على معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها؛ فهو أعم من الكاهن؛ لأنه يشمل الكاهن وغيره، فهما من باب العام والخاص.

القول الثالث: أن العراف يخبر عن أمور بمقدمات يستدل عليها، والكاهن هو الذي يخبر عما في الضمير، أو عن المغيبات في المستقبل، فالعراف أعم، أو أن العراف يختص بالماضي، والكاهن بالمستقبل؛ فهما متباينان، والظاهر أنهما متباينان؛ فالكاهن من يخبر عن المغيبات في المستقبل والعراف من يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك.

* * *

٢٦- باب ما جاء في النشرة

عن جابر. أن رسول الله ﷺ سُئل عن النُّشرة؟ فقال: «هي من عمل الشيطان» رواه أحمد بسند جيد، وأبو داود. وقال: سُئل أحمد عنها؟ فقال: ابنُ مسعود يكره هذا كله[١].

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب ما جاء في النُّشرة: بضم النون؛ كما في (القاموس).

قال أبو السعادات: النُّشْرة: ضربٌ من العلاج والرُّقية، يُعالَج به من كان يُظنُّ أن به مسًّا من الجن، سُمِّيت نُشرة؛ لأنه يُنشَر بها عنه ما خامره من الداء، أي: يُكشف ويزال.

قال الحسن: النُّشرة من السحر. وقد نشرت عنه تنشيرًا، ومنه الحديث: «**فلعل طَبًّا أصابه**» ثم نشره بـ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ أي: رقاه.

وقال ابن الجوزي: النُّشْرة: حلُّ السحر عن المسحور. ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر.

قال المصنف رحمه الله تعالى: عن جابر. أن رسول الله ﷺ سُئل عن النُّشرة؟ فقال: «هي من عمل الشيطان» رواه أحمد بسند جيد، وأبو داود. وقال: سُئل أحمد عنها؟ فقال: ابن مسعود يكره هذا كله.

هذا الحديث رواه أحمد، ورواه عنه أبو داود في (سننه).

تعريف النُّشرَة:

في اللغة: بضمِّ النون: فُعْلَة من النشر، وهو التفريق.

وفي الاصطلاح: حل السحر عن المسحور. لأن هذا الذي يحل السحر عن المسحور: يرفعه، ويزيله، ويفرقه.

أما حكمها؛ فهو يتبين مما قاله المؤلف رحمه اللّٰه، وهو من أحسن البيانات. ولا ريب أن حل السحر عن المسحور من باب الدواء والمعالجة، وفيه فضل كبير لمن ابتغى به وجه اللّٰه، لكن في القسم المباح منه. لأن السحر له تأثير على بدن المسحور وعقله ونفسه وضيق الصدر، حيث لا يأنس إلا بمن استعطف عليه. وأحيانًا يكون أمراضًا نفسية بالعكس، تنفر هذا المسحور عمن تنفره عنه من الناس، وأحيانًا يكون أمراضًا عقلية؛ فالسحر له تأثير إما على البدن، أو العقل، أو النفس.

قوله في حديث جابر: «سئل عن النشرة»: (أل) للعهد الذهني؛ أي: المعروفة في الجاهلية التي كانوا يستعملونها في الجاهلية، وذلك طريق من طرق حل السحر، وهي على نوعين:

الأول: أن تكون باستخدام الشياطين، فإن كان لا يصل إلى حاجته منهم إلا بالشرك؛ كانت شركًا، وإن كان يتوصل لذلك بمعصية دون الشرك؛ كان لها حكم تلك المعصية.

---

(١) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٤٥٥٣).

. . . .

والفضل بن زياد في كتاب (المسائل)، عن عبد الرزاق، عن عقيل بن معقل بن مُنَبِّه، عن عمه وهب ابن منبه، عن جابر، فذكره. قال ابن مفلح: إسناده جيد. وحسن الحافظ إسناده.

قوله: (سُئل عن النُّشرة)، الألف واللام في النُّشرة للعهد. أي: النُّشرة المعهودة، التي كان أهل الجاهلية يصنعونها، هي من عمل الشيطان.

قوله: (وقال: سُئل أحمد عنها؟ فقال: ابن مسعود يكره هذا كله)، أراد أحمد رحمه الله: أن ابن مسعود يكره النشرة التي هي من عمل الشيطان؛ كما يكره تعليق التمائم مُطلقًا.

الثاني: أن تكون بالسحر؛ كالأدوية والرُّقىٰ والعُقد والنَّفث وما أشبه ذلك؛ فهذا له حكم السحر علىٰ ما سبق. ومن ذلك ما يفعله بعض الناس، أنهم يضعون فوق رأس المسحور طستًا فيه ماء ويصبُّون عليه رصاصًا ويزعمون أن الساحر يظهر وجهه في هذا الرصاص؛ فيستدل بذلك علىٰ من سحره.

وقد سئل الإمام أحمد عن النشرة، فقال: إن بعض الناس أجازها، فقيل له: إنهم يجعلون ماء في طست، وإنه يغوص فيه، وإنه يبدو وجهه، فنفض يده وقال: ما أدري ما هذا؟ ما أدري ما هذا؟ فكأنه رحمه الله توقف في الأمر وكره الخوض فيه.

قوله: «من عمل الشيطان»: أي: من العمل الذي يأمر به الشيطان ويوحي به؛ لأن الشيطان يأمر بالفحشاء ويوحي إلىٰ أوليائه بالمنكر، وهذا يغني عن قوله: إنها حرام، بل هو أشد؛ لأن نسبتها للشيطان أبلغ في تقبيحها والتنفير منها، ودلالة النصوص علىٰ التحريم لا تنحصر في لفظ التحريم أو نفي الجواز، بل إذا رُتبت العقوبات علىٰ الفعل كان ذلك دليلاً علىٰ تحريمه.

قوله: «رواه أحمد بسند جيد وأبو داود»: سند أبي داود إلىٰ أحمد متصل؛ لأنه قد حدثه وأدركه.

قوله: «فقال: ابن مسعود يكره هذا كله»: أجاب رحمه الله بقول الصحابي، وكأنه ليس عنده أثر صحيح عن النبي ﷺ في ذلك، وإلا لاستدل به. والمشار إليه في قوله: «يكره هذا كله» كل أنواع النشرة. وظاهره: ولو كانت علىٰ الوجه المباح علىٰ ما يأتي، لكنه غير مراد؛ لأن النشرة بالقرآن والتعوذات المشروعة لم يقل أحد بكراهته، وسبق أن ابن مسعود رضي الله عنه كان يكره تعليق التمائم من القرآن وغير القرآن. وعلىٰ هذا؛ فالكلية في قول أحمد: «يكره هذا كله» يراد بها النشرة التي من عمل الشيطان - وهي النشرة بالسحر - والنشرة التي من التمائم.

وقوله: «يكره»: الكراهة عند المتقدمين يراد بها التحريم غالبًا، ولا تخرج عنه إلا بقرينة، وعند المتأخرين خلاف الأول؛ فلا تظن أن لفظ المكروه في عرف المتقدمين أو كلامهم مثله في كلام المتأخرين، بل هو يختلف.

انظر إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، إلىٰ أن قال بعد أن ذكر أشياء محرمة: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨]، ولا شك أن المراد بالكراهة هنا التحريم.

وللبخاري، عن قتادة: قلت لابن المسيب: رجل به طبٌّ أو يُؤخَّذُ عن امرأته، أيُحَلُّ عنه أو يُنَشَّرُ؟ قال: لا بأس به، إنما يُريدون به الإصلاح؛ فأما ما ينفع فلم يُنه عنه[1].

قال المصنف رحمه الله تعالى: وللبخاري، عن قتادة: قلت لابن المسيب: رجل به طبٌّ أو يُؤخَّذُ عن امرأته، أيُحَلُّ عنه أو يُنَشَّرُ؟ قال: لا بأس به، إنما يُريدون به الإصلاح؛ فأما ما ينفع فَلم يُنه عنه.

قوله: (عن قتادة). هو ابن دِعامة ـ بكسر الدال ـ السَّدوسي، ثقة فقيه، من أحفظ التابعين. قالوا: إنه ولد أكمه. مات سنة بضع عشرة ومائة.

قوله: (رجل به طبٌّ). بكسر الطاء. أي: سِحْر، يُقال له: طُبَّ الرجل ـ بالضم ـ إذا سُحر، ويقال: كَنَّوا عن السحَر بالطب؛ تفاؤلاً. كما يُقال للديغ: سليم.

وقال ابنُ الأنباري: الطِّبُّ من الأضداد. يقال لعلاج الداء: طبٌّ، والسحر من الداء، ويقال له: طب.

قوله: (يُؤَخَّذُ): ـ بفتح الواو مهموز، وتشديد الخاء المعجمة وبعدها ذال معجمة ـ أي: يُحبس عن امرأته، ولا يصل إلى جماعها. والأُخذة ـ بضم الهمزة ـ الكلام الذي يقوله الساحر.

قوله: (أيُحل): بضم الياء وفتح الحاء، مبني للمفعول.

قوله: (أو يُنشَّر): بتشديد المعجمة.

قوله: «رجل به طب»: أي: سحر، ومن المعلوم أن الطب هو علاج المرض، لكن سمي السحر طبًّا من باب التفاؤل، كما سمي اللديغ سليمًا والكسير جبيرًا.

قوله: «أو يُؤَخذ عن امرأته»: أي: يحبس عن زوجته؛ فلا يتمكن من جماعها، وهو ليس به بأس، وهذا نوع من السحر. والعجيب أنه مشتهر عند الناس أنه إذا كان عند العقد، وعقد أحد عقدة عند العقد؛ فإنه يحصل حبسه عن امرأته، وبالغ بعضهم؛ فقال: إذا شبك أحدهم بين أصابعه عند العقد حبس الزوج عن أهله، وهذا لا أعرف له أصلاً. ولكن كثيراً ما يقع حبس الزوج عن زوجه ويطلبون العلاج. وقد ذكر بعض أهل العلم أن من العلاج أن يطلقها، ثم يراجعها؛ فينفك السحر. لكن لا أدري هل هذا يصح أم لا؟ فإذا صح؛ فالطلاق هنا جائز؛ لأنه طلاق للاستبقاء، فيطلق كعلاج، ونحن لا نفتي بشيء من هذا، بل نقول: لا نعرف عنه شيئًا.

و«أو» في قوله: «أو يؤخذ» يحتمل أنها للشك من الراوي: هل قال قتادة «به طب» أو قال: «يؤخذ عن امرأته»؟ أي: أو قلت: يؤخذ، ويحتمل أن تكون للتنويع، أي أنه سأله عن أمرين: عن المسحور، وعن الذي يؤخذ عن امرأته.

قوله: «أيحل عنه أو ينشر»: لا شك أن «أو» هنا للشك؛ لأن الحل هو النشرة.

قوله: «لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح»: كأن ابن المسيب رحمه الله قسم السحر إلى قسمين: ضار، ونافع.

فالضار محرم، قال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، والنافع لا بأس به،

---

(١) رواه البخاري معلقًا في كتاب الطب باب هل يستخرج السحر.

ورُوي عن الحسن، أنه قال: «لا يُحَل السحر إلا ساحر» . قال ابن القيم: النُّشرة: حلُّ السحر عن المسحور، وهي نوعان: أحدهما: حلٌّ بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يُحمل قولِ الحسن، فيتقرَّب الناشرُ والمتشر إلى الشيطان بما يُحب، فيبطل عملُه عن المسحور. والثاني: النُّشرة بالرُّقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة، فهذا جائز.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن النشرة.

قوله: (لا بأس به): يعني: أن النُّشرة لا بأس بها؛ لأنهم يريدون بها الإصلاح. أي: إزالة السحر، ولم يُنه عما يُراد به الإصلاح، وهذا من ابن المسيب يُحمل على نوع من النُّشرة، لا يُعلم أنه سحر.

قال المصنف رحمه الله تعالى: ويُروى عن الحسن، أنه قال: «لا يَحُلُّ السحر إلا ساحر»: هذا الأثر، ذكره ابن الجوزي في (جامع المسانيد) .

والحسن: هو ابن أبي الحسن، واسمه يسار ـ بالتحتية والمهملة ـ البصري الأنصاري، مولاهم. ثقة فقيه، إمام من خيار التابعين. مات سنة عشر ومائة، وقد قارب التسعين.

قال المصنف رحمه الله تعالى: قال ابن القيم: النُّشرة: حلُّ السحر عن المسحور، وهي نوعان: أحدهما: حلٌّ بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يُحمل قول الحسن، فيتقرَّب الناشرُ والمنتشر إلى الشيطان بما يُحب، فيبطل عملُه عن المسحور.

والثاني: النُّشرة بالرُّقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة، فهذا جائز.

وهذا ظاهر ما روي عنه، وبهذا أخذ أصحابنا الفقهاء، فقالوا: يجوز حل السحر بالسحر للضرورة.

وقال بعض أهل العلم: إنه لا يجوز حل السحر بالسحر، وحملوا ما روي عن ابن المسيب بأن المراد به ما لا يعلم عن حاله: هل هو سحر، أم غير سحر؟ أما إذا علم أنه سحر؛ فلا يحل، والله أعلم.

ولكن على كل حال حتى ولو كان ابن المسيب ومن فوق ابن المسيب ممن ليس قوله حجة يرى أنه جائز، فلا يلزم من ذلك أن يكون جائزًا في حكم الله حتى يعرض على الكتاب والسنة، وقد سئل الرسول ﷺ عن النشرة؟ فقال: **«هي من عمل الشيطان»**.

قوله: «وروي عن الحسن: لا يحل السحر إلا ساحر»: هذا الأثر إن صح؛ فمراد الحسن الحل المعروف غالبًا، وأنه لا يقع إلا من السحرة.

قوله: «قال ابن القيم: النشرة حل السحر عن المسحور...» إلخ، هذا الكلام جيد ولا مزيد عليه.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن النشرة: تؤخذ من قوله ﷺ: **«هي من عمل الشيطان»**[1]، وهنا ليس فيه صيغة نهي، لكن فيه ما يدل على النهي؛ لأن طرق إثبات النهي ليست الصيغة فقط، بل ذم فاعله ونحوه،

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٣٨٦٨)، وأحمد (١٣٧٢١)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٤٥٥٣).

الثانية: الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه، عما يُزيل الإشكال.

ومما جاء في صفة النُّشْرة الجائزة: ما رواه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ليث بن أبي سُليم، قال: بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله، ـ تقرأ في إناء فيه ماء، ثم يُصبُّ على رأس المسحور[1] ـ الآية التي في «يونس» ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١، ٨٢]، وقوله: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨] إلى آخر الآيات الأربع، وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

وقال ابنُ بطال: في (كتاب وهب بن مُنبه): أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر، فيدقّه بين حجرين، ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسي والقواقل، ثم يحسوا منه ثلاث حسوات، ثم يغتسل به، يذهب عنه كل ما به، وهو جيد للرجل إذا حُبس عن أهله.

قلت: قول العلامة ابن القيم: (والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة. فهذا جائز): يشير إلى مثل هذا، وعليه يُحمل كلام من أجاز النُّشرة من العلماء.

والحاصل: أن ما كان منه بالسحر فيحرُم، وما كان بالقرآن والدعوات والأدوية المباحة، فجائز. والله أعلم.

وتقبيح الشيء وما أشبه ذلك يدل على النهي.

الثانية: الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه: تؤخذ من كلام ابن القيم رحمه الله وتفصيله.

إشكال وجوابه: ما الجمع بين قول الفقهاء رحمهم الله يجوز حل السحر بالسحر، وبين قولهم يجب قتل الساحر؟

الجمع أن مرادهم بقتل الساحر من يضر بسحره دون من ينفع؛ فلا يقتل، أو أن مرادهم بيان حكم حل السحر بالسحر للضرورة، وأما الإبقاء على الساحر؛ فله نظر آخر، والله أعلم.

---

(١) مثل هذا لا يعمل فيه برأي ليث بن أبي سليم ولا برأي ابن القيم(*) ولا غيرهما؛ وإنما يعمل بالسنة الثابتة عن رسول الله ﷺ ولم يجيء عنه ﷺ شيء مما يقول ابن سليم ولا ابن القيم. وما ينقل عن وهب بن منبه فعلى سنة الإسرائيليين لا هدي خير المرسلين. ومن باب هذا التساهل دخلت البدع ثم الشرك الأكبر. وعلى المؤمن الناصح لنفسه أن يعض بالنواجذ على هدي رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين ﷺ ويتجنب المحدثات وإن كانت عمن يكون فكل أحد يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا رسول الله ﷺ. (ق).

(*) قوله: (مثل هذا لا يعمل فيه برأي ليث بن أبي سليم ولا برأي ابن القيم) إلخ. أقول: اعتراض الشيخ حامد على ما ذكره الشارح عن ابن أبي سليم ووهب بن منبه وابن القيم ليس في محله، بل هو غلط من الشيخ حامد، لأن التداوي بالقرآن الكريم والسدر ونحوه من الأدوية المباحة ليس من باب البدع بل هو من باب التداوي، وقد قال النبي ﷺ: «عباد الله تداووا ولا تداووا بحرام» وثبت في سنن أبي داود في كتاب الطب أن النبي ﷺ قرأ في ماء في إناء وصبه على المريض، وبهذا يعلم أن التداوي بالسدر وبالقراءة في الماء وصبه على المريض ليس فيه محذور من جهة الشرع، إذا كانت القراءة سليمة وكان الدواء مباحًا، والله ولي التوفيق. (ز).

٢٧ـ باب ما جاء في التطيُّر

وقول الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب ما جاء في التطيُّر:

أي: من النهي عنه والوعيد فيه، مصدر تطيَّر يتطيَّر [تطيُّرًا]، والطِّيرة ـ بكسر الطاء وفتح الياء، وقد تُسكَّن ـ: اسم مصدر من تطيَّر [طيرة].

وأصله: التطيرُ بالسوانح والبوارح، من الطير والظباء وغيرهما، وكان ذلك يصُدُّهم عن مقاصدهم. فنفاه الشرع وأبطله، وأخبر أنه لا تأثير له في جلب نفع أو دفع ضر.

قال المدائني: سألت رُؤبة بن العجاج: ما السانح؟ قال: ما ولاك ميامنه. قلت: فما البارح؟ قال: وما ولاك مياسره. والذي يجيء من أمامك فهو الناطح والنطيح، والذي يجيء من خلفك هو القاعد والقعيد! ولما كانت الطيرة من الشرك المنافي لكمال التوحيد الواجب ـ لكونها من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته[1] ـ ذكرها المصنف في (كتاب التوحيد)؛ تحذيرًا مما ينافي كمال التوحيد الواجب.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

تعريف التطير: في اللغة: مصدر تطير، وأصله مأخوذ من الطير؛ لأن العرب يتشاءمون أو يتفاءلون بالطيور على الطريقة المعروفة عندهم بزجر الطير، ثم ينظر: هل يذهب يمينًا أو شمالاً أو ما أشبه ذلك، فإن ذهب إلى الجهة التي فيها التيامن؛ أقدم، أو فيها التشاؤم؛ أحجم.

أما في الاصطلاح؛ فهي التشاؤم بمرئي أو مسموع، وهذا من الأمور النادرة؛ لأن الغالب أن اللغة أوسع من الاصطلاح؛ لأن الاصطلاح يدخل على الألفاظ قيودًا تخصصها، مثل الصلاة لغة: الدعاء، وفي الاصطلاح أخص من الدعاء، وكذلك الزكاة وغيرها. وإن شئت؛ فقل: التطير: هو التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم. بمرئي مثل: لو رأى طيرًا فتشاءم لكونه موحشًا.

أو مسموع مثل: من همَّ فسمع أحدًا يقول لآخر: يا خسران، أو يا خائب؛ فيتشاءم.

أو معلوم: كالتشاؤم ببعض الأيام أو بعض الشهور أو بعض السنوات؛ فهذه لا ترى ولا تسمع.

واعلم أن التطير ينافي التوحيد، ووجه منافاته له من وجهين:

الأول: أن المتطير قطع توكله على الله واعتمد على غير الله.

---

(١) وذلك بتعلق القلب بها خوفًا وطمعًا، ومنافاتها للتوكل على الله الذي لا ينفع ولا يضر غيره، واعتقاد النفع والضر في طائر ونحوه لا علم عنده ولا قصد، وإنما تذهب وتجيء في ضرورة معايشها وشئونها. فاعتقاد أن لهذه الحركات ذات اليمين وذات الشمال أثرًا في جلب خير أو دفع ضر من سخف العقول وفساد الفطر، وتمكن الخرافات والجهل وعمى القلوب. وهذا اعتقاد المنجمين في النجوم التي سخرها الله تعالى تجري في بروجها ومداراتها المستقر لها، اعتقدوا لها تأثيرًا في الكون وهو اعتقاد الصابئة الذين أرسل الله إليهم إبراهيم عليه السلام. (ق).

. . . .

ذكر تعالىٰ هذه الآية في سياق قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١].

المعنىٰ: أن آل فرعون إذا أصابتهم الحسنة ـ أي: الخصب والسعة والعافية، كما فسره مجاهد وغيره ـ قالوا: لنا هذه، أي: نحن الجديرون والحقيقون به، ونحن أهله.

وإن تُصبهم سيئة ـ أي: بلاء وقحط ـ يطَّيروا بموسىٰ ومن معه، فيقولون: هذا بسبب موسىٰ وأصحابه، أصابنا بشؤمهم، فقال اللّٰه تعالىٰ: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾.

قال ابن عباس: طائرهم: ما قضىٰ عليهم وقدَّر لهم. وفي رواية: شؤمهم عند اللّٰه ومن قِبله. أي: إنما جاءهم الشؤم من قبله؛ بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله.

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي: أن أكثرهم جهال لا يدرون، ولو فهموا وعقلوا لعلموا أنه ليس فيما جاء به موسىٰ عليه السلام إلا الخير والبركة والسعادة والفلاح لمن آمن به واتبعه.

الثاني: أنه تعلق بأمر لا حقيقة له، بل هو وهم وتخييل فأي رابطة بين هذا الأمر، وبين ما يحصل له، وهذا لا شك أنه يخل بالتوحيد؛ لأن التوحيد عبادة واستعانة، قال تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

فالطيرة محرمة، وهي منافية للتوحيد كما سبق، والمتطير لا يخلو من حالين:

الأول: أن يحجم ويستجيب لهذه الطيرة ويدع العمل، وهذا من أعظم التطير والتشاؤم.

الثاني: أن يمضي لكن في قلق وهم وغم يخشىٰ من تأثير هذا المتطير به، وهذا أهون.

وكلا الأمرين نقص في التوحيد وضرر علىٰ العبيد، بل انطلق إلىٰ ما تريد بانشراح صدر وتيسير واعتماد علىٰ اللّٰه عز وجل، ولا تسيء الظن باللّٰه عز وجل.

وقد ذكر المؤلف رحمه اللّٰه في هذا الباب آيتين:

الآية الأولىٰ: قوله تعالىٰ: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾: هذه الآية نزلت في قوم موسىٰ كما حكىٰ اللّٰه عنهم في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١].

قال اللّٰه تعالىٰ: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ ومعنىٰ: ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾: أنه إذا جاءهم البلاء والجدب والقحط قالوا: هذا من موسىٰ وأصحابه؛ فأبطل اللّٰه هذه العقيدة بقوله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾.

قوله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾: ﴿أَلَا﴾: أداة استفتاح تفيد التنبيه والتوكيد، و﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر.

وقوله: ﴿طَائِرُهُمْ﴾ مبتدأ، و﴿عِندَ اللَّهِ﴾ خبر، والمعنىٰ: أنّ ما يصيبهم من الجدب والقحط ليس من موسىٰ وقومه، ولكنه من اللّٰه؛ فهو الذي قدَّره، ولا علاقة لموسىٰ وقومه به، بل إن الأمر يقتضي أن موسىٰ وقومه سبب للبركة والخير، ولكن هؤلاء والعياذ باللّٰه يُلبسون علىٰ العوام ويوهمون الناس خلاف الواقع.

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: فهم في جهل؛ فلا يعلمون أن هناك إلهًا مدبرًا، وأن ما أصابهم من اللّٰه وليس من موسىٰ وقومه.

وقوله: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٩].

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [يس: ١٩].

المعنى - والله أعلم - حظُّكم وما نابكم من شر معكم، بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا، بل ببغيكم وعداوتكم. فطائرُ الباغي الظالم معه، فما وقع به من الشرور فهو سببه الجالب له، وذلك بقضاء الله وقدره وحكمته وعدله؛ كما قال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].

ويحتمل أن يكون المعنى: طائركم معكم. أي: راجع عليكم. فالتطير الذي حصل لكم إنما يعود عليكم؛ وهذا من باب القصاص في الكلام، ونظيره قوله عليه السلام: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم»[1][2] ذكره ابن القيم.

وقوله: ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم ﴾: أي: من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله قابلتمونا بهذا الكلام ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾.

باب الطيرة

وهو التشاؤم بالطيور والأسماء والألفاظ والبقاع وغيرها فنهى الشارع عن التطير وذم المتطيرين وكان يحب الفال ويكره الطيرة، والفرق بينهما أن الفال الحسن لا يخل بعقيدة الإنسان ولا بعقله وليس فيه تعليق القلب بغير الله بل فيه من المصلحة النشاط والسرور وتقوية النفوس على المطالب النافعة، وصفة ذلك أن يعزم العبد على سفر أو زواج أو عقد من

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾: أي: قال الذين أرسلوا إلى القرية في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ.....﴾ الآيات [يس: ١٣].

فقالوا ذلك ردًّا على قول أهل القرية: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس: ١٨].

أي: تشاءمنا بكم، وإننا لا نرى أنكم تدلوننا على الخير، بل على الشر وما فيه هلاكنا فأجابهم الرسل بقولهم: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾. أي: مصاحب لكم، فما يحصل لكم؛ فإنه منكم ومن أعمالكم، فأنتم السبب في ذلك. ولا منافاة بين هذه الآية والتي ذكرها المؤلف قبلها؛ لأن الأولى تدل على أن المُقدر لهذا الشيء هو الله، والثانية تُبين سببه، وهو أنه منهم؛ فهم في الحقيقة طائرهم معهم (أي الشؤم) الحاصل عليهم معهم ملازم لهم؛ لأن أعمالهم تستلزمه؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

ويستفاد من الآيتين المذكورتين في الباب: أن التطير كان معروفًا من قبل العرب وفي غير العرب؛ لأن الأولى في فرعون وقومه، والثانية في أصحاب القرية.

وقوله: ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ ينبغي أن تقف على قوله: ﴿ ذُكِّرْتُم ﴾؛ لأنها جملة شرطية، وجواب الشرط محذوف تقديره: أإن ذكرتم تطيرتم؟ وعلى هذا؛ فلا تصلها بما بعدها.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن أنس ﷺ. (ق)

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٢٥٨، ٦٩٢٦)، ومسلم (٢١٦٣).

عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا عَدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صَفَر» أخرجاه. زاد مسلم: «ولا نَوْء، ولاَ غُول»[(١)].

وقال قتادة: أئن ذكرناكم بالله تطيّرتم بنا؟!.

ومناسبة الآيتين للترجمة: أن التطير من عمل أهل الجاهلية والمشركين، وقد ذمهم الله به ومقتهم. وقد نهى رسول الله ﷺ عن التطير، وأخبر أنه شرك؛ كما سيأتي في أحاديث الباب.

قال المصنف رحمه الله تعالى: عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا عَدوى ولا طِيرة ولا هامة ولا صَفَر» أخرجاه. زاد مسلم: «ولا نَوْء، ولا غُول».

قال أبو السعادات: العَدوى: اسم من الإعداء. كالرَّعوى. يقال: أعداه الداء، يعديه إعداءً: إذا أصابه مثل ما بصاحب الداء. وفي رواية لمسلم: أن أبا هريرة، كان يُحدِّث بحديث: «لا عدوى»، ويحدث عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يُوردُ مُمرِضٌ على مُصح». ثم إن أبا هريرة اقتصر على حديث: «لا يُوردُ ممرضٌ على مصح» وأمسك عن حديث: «لا عدوى» فراجعوه، وقالوا: سمعناك تُحدثه، فأبى أن يعترف به[(٢)]. قال أبو سلمة - الراوي عن أبي هريرة -: فلا أدري أنسي أبو هريرة أو نسخ أحد القولين الآخر؟. وقد روى حديث: «لا عدوى» جماعة من الصحابة: أنس بن مالك، وجابر ابن عبد الله، والسائب بن يزيد، وابن عمر وغيرهم، وفي بعض روايات هذا الحديث «وفرّ من المجذوم كما تفر من الأسد»[(٣)]. وقد اختلف العلماء في ذلك، وأحسنُ ما قيل فيه: قولُ البيهقي - وتبعه ابنُ الصلاح، وابن القيم، وابن رجب، وابن مفلح، وغيرهم -، أن قوله: «لا عدوى» على الوجه الذي يعتقده أهل الجاهلية، من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى،

العقود أو على حالة من الأحوال المهمة ثم يرى في تلك الحال ما يسره: أو يسمع كلامًا يسره مثل يا راشد أو سالم أو غانم، فيتفاءل ويزداد طمعه في تيسير ذلك الأمر الذي عزم عليه: فهذا كله خير، وآثاره خير، وليس فيه من المحاذير شيء.

وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾: ﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب الإبطالي؛ أي: ما أصابكم ليس منهم، بل هو من إسرافكم.

وقوله: ﴿مُّسْرِفُونَ﴾: أي: متجاوزون للحد الذي يجب أن تكونوا عليه.

قوله عليه السلام: «لا عدوى»: لا نافية للجنس، ونفي الجنس أعم من نفي الواحد والاثنين والثلاثة؛ لأنه نفي للجنس كله، فنفى الرسول ﷺ العدوى كلها.

والعدوى: انتقال المرض من المريض إلى الصحيح، وكما يكون في الأمراض الحسية يكون أيضًا في الأمراض المعنوية الخُلقية، ولهذا أخبر ﷺ أن جليس السوء كنافخ الكير؛ إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه رائحة كريهة.

فقوله: «لا عدوى»: يشمل الحسية والمعنوية، وإن كانت في الحسية أظهر.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٧٥٣) ومواضع، ومسلم (٢٢٢٠) ومواضع. (٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٢١).

(٣) صحيح: رواه البخاري تعليقًا في كتاب الطب باب الجذام والحديث صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٧٨٣).

. . . .

وأن هذه الأمور تُعدي بطبعها، وإلا فقد يجعل اللَّه بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من الأمراض سببًا لحدوث ذلك؛ ولهذا قال: «وفرَّ من المجذوم كما تفرُّ من الأسد» وقال: «لا يوردُ مُمرضٌ على مُصح»[1] وقال في الطاعون: «من سمع به في أرض فلا يقدُم عليه»[2] وكل ذلك بتقدير اللَّه تعالى. ولأحمد، والترمذي، عن ابن مسعود، مرفوعًا: «لا يعدي شيء شيئًا» ـ قالها ثلاثًا ـ فقال أعرابي: يا رسول اللَّه النُّقْبَةُ[3] من الجرَب تكون بمِشفَر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتَجْرَبُ كلُّها؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «فمن أجرب الأول؟ لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صَفَرَ، خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصائبها ورزقها»[4].

فأخبر ﷺ: أن ذلك كله بقضاء اللَّه وقدره، والعبد مأمور باتقاء أسباب الشر إذا كان في عافية. فكما أنه يؤمر أن لا يُلقي نفسه في الماء وفي النار، مما جرت العادة أنه يهلك أو يضر. فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم، والقدوم على بلد الطاعون؛ فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف، فاللَّه سبحانه هو خالق الأسباب ومُسبباتها، لا خالق غيره ولا مقدر غيره. وأما إذا قوي التوكل على اللَّه، والإيمان بقضاء اللَّه وقدره ـ فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب، اعتمادًا على اللَّه، ورجاءً منه أن لا يحصل به ضرر ـ ففي هذه الحال تجوز مباشرة ذلك، لاسيما إذا كانت مصلحة عامة أو خاصة. وعلى هذا يحمل الحديث الذي رواه أبو داود، والترمذي: أن النبي ﷺ أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصعة، ثم قال: «كُل بسم الله، ثقةً بالله وتوكلاً عليه»[5] وقد أخذ به الإمام أحمد. ورُوي ذلك عن عمر، وابنه، وسلمان رضي اللَّه عنهم. ونظير ذلك: ما رُوي عن خالد بن الوليد من أكل السُّم[6]، ومنه: مَشْيُ سعد ابن أبي وقاص، وأبي مُسلم الخولاني على متن البحر. قاله ابن رجب رحمه اللَّه.

قوله: «ولا طيرة»: قال ابن القيم: يحتمل أن يكون نفيًا أو نهيًا، أي: لا تطيَّروا، ولكن قوله في الحديث: «ولا عدَوى ولا صفَر ولا هامة» يدل على أن المراد النفي، وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيها، والنفي في هذا أبلغ من النهي؛ لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره، والنهي إنما يدل على المنع منه.

وفي (صحيح مسلم) عن معاوية بن الحكم: أنه قال لرسول اللَّه ﷺ: ومنا أناس يتطيرون، قال: «ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم»[7] فأخبر أن تأذِّيه وتشاؤمه بالطيرة إنما هو في نفسه

قوله: «ولا طيرة»: اسم مصدر تطير؛ لأن المصدر منه تطيُّر، مثل الخيرة اسم مصدر اختار قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]؛ أي: الاختيار، أي أن يختاروا خلاف ما قضى اللَّه ورسوله من الأمر.

---

(١) صحيح: وقد تقدم تخريجه. (٢) صحيح: رواه البخاري (٣٤٧٣، ٥٧٢٨، ٦٩٧٤)، ومسلم (٢٢١٨).

(٣) النقبة-بضم النون وسكون القاف والباء الموحدة- أول شيء يظهر من الجرب؛ وجمعها: نقب-لأنها تنقب الجلد أي تخرقه. (ق).

(٤) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١١٥٢).

(٥) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٤٥٨٥)، والسلسلة الضعيفة (١١٤٤).

(٦) رواه أحمد في فضائل الصحابة (١٤٨١، ١٤٨٢). (٧) صحيح: رواه مسلم (٥٣٧).

. . . .

وعقيدته، لا في المُتطيَّر به، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يُطيِّره ويصده، لا ما رآه وسمعه.

فأوضح ﷺ لأمته الأمر، وبيَّن لهم فساد الطيرة ليعلموا أن اللَّه - سبحانه - لم يجعل لهم عليها علامة، ولا فيها دلالة، ولا نَصَبها سببًا لما يخافونه ويحذرونه، ولتطمئن قلوبهم، وتسكن نفوسهم إلىٰ وحدانيته - تعالىٰ - التي أرسل بها رسله، وأنزل بها كتبه، وخلق لأجلها السموات والأرض، وعمر الدارين الجنة والنار بسبب التوحيد. فقطع ﷺ عِلَق الشرك من قلوبهم؛ لئلا يبقىٰ فيها علقة منها، ولا يتلبسوا بعمل من أعمال [أهل] النار البتة. فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقىٰ، واعتصم بحبله المتين، وتوكل علىٰ اللَّه، قطع هاجس الطيرة من قبل استقرارها، وبادر خواطرها من قبل استمكانها.

قال عكرمة: كنا جلوسًا عند ابن عباس، فمر طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير خير، فقال ابن عباس: لا خير ولا شر. فبادره بالإنكار عليه، لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر.

وخرج طاوس مع صاحب له في سفر، فصاح غراب، فقال الرجل: خير، فقال طاوس: وأيُّ خير عند هذا؟ لا تصحبني. انتهىٰ ملخصًا.

وقد جاءت أحاديث ظن بعض الناس أنها تدل علىٰ جواز الطيرة؛ كقوله ﷺ: **«الشؤم في ثلاث: في المرأة، والدابة، والدار»** (١) ونحو هذا.

قال ابن القيم رحمه اللَّه: إخباره ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها اللَّه، وإنما غايته أن اللَّه سبحانه قد يخلق منها أعيانًا مشئومة علىٰ من قاربها وسكنها، وأعيانًا مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر. وهذا كما يُعطي سبحانه الوالدين ولدًا مباركًا يريان الخير علىٰ وجهه، ويُعطي غيرهما ولدًا مشئومًا يريان الشر علىٰ وجهه، وكذلك ما يُعطاه العبدُ من ولاية أو غيرها، فكذلك الدار والمرأة والفرس. واللَّه سبحانه خالق الخير والشر والسعود والنحوس، فيخلق بعض هذه الأعيان سعودًا مباركة، ويقضي بسعادة من قاربها وحصول اليمن والبركة له، ويخلق بعضها نُحوسًا يتنحس بها من قاربها. وكل ذلك بقضاء اللَّه وقدره، كما خلق سائر الأسباب وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة. كما خلق المسك وغيره من الأرواح الطيبة ولذَّذ بها من قاربها من الناس، وخلق ضدها وجعلها سببًا لألم من قاربها من الناس.

والفرق بين هذين النوعين مُدرك بالحس، فكذلك في الديار والنساء والخيل، فهذا لون والطيرة الشركية لون. انتهىٰ.

قوله: «ولا هامة»: بتخفيف الميم، علىٰ الصحيح. قال الفرَّاء: الهامة: طير من طيور الليل. كأنه يعني البُومة.

واسم المصدر يوافق المصدر في المعنىٰ، ولذلك تقول كلَّمتُه كلامًا بمعنىٰ كلمته تكليمًا، وسلمت عليه سلامًا بمعنىٰ سلمت عليه تسليمًا. لكن لما كان يخالف المصدر في البناء سَمَّوه اسم مصدر، والطيرة تقدم أنها هي التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٨٥٨)، ومسلم (٢٢٢٥).

. . . .

قال ابن الأعرابي: كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم، يقول نَعَتْ إليّ نفسي أو أحدًا من أهل داري، فجاء الحديث بنفي ذلك وإبطاله.

قوله: «ولا صَفَر»: بفتح الفاء. روى أبو عبيدة في (غريب الحديث)، عن رُؤْبة، أنه قال: هي حية تكون في البطن تصيب الماشية والناس، وهي أعدى من الجرب عند العرب.

وعلى هذا: فالمراد بنفيه: ما كانوا يعتقدونه من العدوى. وممن قال بهذا سفيان بن عيينة، والإمام أحمد، والبخاري، وابن جرير. وقال آخرون: المراد به: شهر صفر، والنفي لما كان أهل الجاهلية يفعلونه في النسيء، وكانوا يحلون المحرم ويحرمون صفر مكانه، وهو قول مالك.

وروى أبو داود، عن محمد بن راشد، عمن سمعه يقول: إن أهل الجاهلية يتشاءمون بصفر، ويقولون: إنه شهر مشئوم، فأبطل النبي ﷺ ذلك.

قال ابن رجب: ولعل هذا القول أشبه الأقوال، والتشاؤم بصفر هو من جنس الطيرة المنهي عنها، وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام، كيوم الأربعاء، وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح فيه خاصة.

قوله: «ولا هامة»: الهَامَة؛ بتخفيف الميم فسرت بتفسيرين:

الأول: أنها طير معروف يشبه البومة، أو هي البومة، تزعم العرب أنه إذا قتل القتيل؛ صارت عظامه هامة تطير وتصرخ حتى يؤخذ بثأره، وربما اعتقد بعضهم أنها روحه.

التفسير الثاني: أن بعض العرب يقولون: الهامة هي الطير المعروف، لكنهم يتشاءمون بها، فإذا وقعت على بيت أحدهم ونعقت؛ قالوا: إنها تنعق به ليموت، ويعتقدون أن هذا دليل قرب أجله، وهذا كله بلا شك عقيدة باطلة.

قوله: «ولا صفر»: قيل: إنه شهر صفر، كانت العرب يتشاءمون به ولا سيما في النكاح.

وقيل: إنه داء في البطن يصيب الإبل وينتقل من بعير إلى آخر، وعلى هذا؛ فيكون عطفه على العدوى من باب عطف الخاص على العام. وقيل: إنه نهيٌ عن النسيئة، وكانوا في الجاهلية يُنسئون، فإذا أرادوا القتال في شهر المحرم استحلوه، وأخروا الحرمة إلى شهر صفر، وهذه النسيئة التي ذكرها الله بقوله تعالى: ﴿فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧]، وهذا القول ضعيف، ويضعفه أن الحديث في سياق التطير، وليس في سياق التغيير، والأقرب أن صفر يعني الشهر، وأن المراد نفي كونه مشئومًا؛ أي: لا شؤم فيه، وهو كغيره من الأزمان يُقدر فيه الخير ويقدر فيه الشر.

وهذا النفي في هذه الأمور الأربعة ليس نفيًا للوجود؛ لأنها موجودة، ولكنه نفي للتأثير؛ فالمؤثر هو الله، فما كان منها سببًا معلومًا؛ فهو سبب صحيح، وما كان منها سببًا موهومًا؛ فهو سبب باطل، ويكون نفيًا لتأثيره بنفسه إن كان صحيحًا، ولكونه سببًا إن كان باطلاً.

فقوله: «لا عدوى»: العدوى موجودة، ويدل لوجودها قوله ﷺ «لا يورد مُمرِضٌ على

. . . .

. . . .

مُصِح»[(١)]؛ أي: لا يورد صاحب الإبل المريضة على صاحب الإبل الصحيحة؛ لئلا تنتقل العدوى.

وقوله: **«فر من المجذوم فرارك من الأسد»**[(٢)]: والجُذام مرضٌ خبيث معدٍ بسرعة ويتلف صاحبه؛ حتى قيل: إنه الطاعون؛ فالأمر بالفرار من المجذوم كي لا تقع العدوى منه إليك، وفيه إثبات لتأثير العدوى، لكن تأثيرها ليس أمراً حتمياً، بحيث تكون علة فاعلة، وأمر النبي ﷺ بالفرار وأن لا يورد ممرض على مصح من باب تجنب الأسباب لا من باب تأثير الأسباب بنفسها؛ فالأسباب لا تؤثر بنفسها، لكن ينبغي لنا أن نتجنب الأسباب التي تكون سبباً للبلاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ولا يمكن أن يقال: إن الرسول ﷺ ينكر تأثير العدوى؛ لأن هذا أمر يبطله الواقع والأحاديث الأخرى. فإن قيل: إن الرسول ﷺ لما قال: **«لا عدوى»** قال رجل: يا رسول الله! الإبل تكون صحيحة مثل الظِّباء، فيدخلها الجمل الأجرب فتجرب؟ فقال النبي ﷺ: **«فمن أعدى الأولى؟»**[(٣)]، يعني أن المرض نزل على الأول بدون عدوى، بل نزل من عند الله عز وجل؛ فكذلك إذا انتقل بالعدوى؛ فقد انتقل بأمر الله، والشيء قد يكون له سبب معلوم وقد لا يكون له سبب معلوم؛ فَجَرَبُ الأول ليس سببه معلوماً؛ إلا أنه بتقدير الله تعالى، وجَرَبُ الذي بعده له سبب معلوم، لكن لو شاء الله لم يَجرَب، ولهذا أحياناً تصاب الإبل بالجرب، ثم يرتفع ولا تموت، وكذلك الطاعون والكوليرا أمراض معدية، وقد تدخل البيت فتصيب البعض فيموتون ويسلم آخرون ولا يصابون. فالإنسان يعتمد على الله، ويتوكل عليه، وقد روي أن النبي ﷺ جاءه رجل مجذوم؛ فأخذ بيده وقال له: **«كل من الطعام الذي يأكل منه الرسول ﷺ»**[(٤)]؛ لقوة توكله ﷺ؛ فهذا توكل مقاوم لهذا السبب المعدي. وهذا الجمع الذي أشرنا إليه هو أحسن ما قيل في الجمع بين الأحاديث، وادّعى بعضهم النسخ؛ فمنهم من قال: إن الناسخ قوله: **«لا عدوى»**، والمنسوخ قوله: **«فر من المجذوم»**، **«ولا يورد ممرض على مصح»**، وبعضهم عكس، والصحيح أنه لا نسخ، لأن من شروط النسخ تعذر الجمع، وإذا أمكن الجمع وجب الرجوع إليه؛ لأن في الجمع إعمال الدليلين، وفي النسخ إبطال أحدهما، وإعمالهما أولى من إبطال أحدهما؛ لأننا اعتبرناهما وجعلناهما حجة، وأيضاً الواقع يشهد أنه لا نسخ.

قوله: **«ولا صفر»**: فيه ثلاثة أقوال سبقت، وبيان الراجح منها. والأزمنة لا دخل لها في التأثير وفي تقدير ـ عز وجل ـ؛ فصفر كغيره من الأزمنة يقدر فيه الخير والشر، وبعض الناس إذا انتهى من

---

(١) صحيح: وقد تقدم. (٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧١٧، ٥٧٧١، ٥٧٧٥)، ومسلم (٢٢٢٠)، وأبو داود (٣٩١١)، وأحمد (٢٤٢١) ومواضع.

(٤) ثبت ذلك من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما الذي رواه أبو داود (٣٩٢٥)، والترمذي (١٨١٧)، وابن ماجه (٣٥٤٢)، وضعفه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٤٥٨٥) بلفظ: أخذ بيد مجذوم فوضعها معه في القصة وقال: «كل ثقة بالله وتوكلا عليه».

. . . .

قوله: «ولا نَوْءَ» النوء: واحد الأنواء، وسيأتي الكلام عليه في بابه إن شاء اللَّه تعالىٰ.

شيء في صفر آخر ذلك وقال انتهىٰ صفر الخير، وهذا من باب مداواة البدعة ببدعة، والجهل بالجهل؛ فهو ليس شهر خير ولا شهر شر. أما شهر رمضان، وقولنا: إنه شهر خير؛ فالمراد بالخير العبادة، ولا شك أنه شهر خير، وقولهم: رجب المعظم؛ بناء علىٰ أنه من الأشهر الحرم. ولهذا أنكر بعض السلف علىٰ من إذا سمع البومة تنعق قال: خيراً إن شاء اللَّه؛ فلا يقال: خير ولا شر، بل هي تنعق كبقية الطيور. فهذه الأربعة التي نفاها الرسول ﷺ تبين وجوب التوكل علىٰ اللَّه وصدق العزيمة، ولا يضعف المسلم أمام هذه الأشياء؛ لأن الإنسان لا يخلو من حالين:

إما أن يستجيب لها بأن يقدم أو يحجم أو ما أشبه ذلك؛ فيكون حينئذٍ قد علق أفعاله بما لا حقيقة له ولا أصل له، وهو نوع من الشرك.

وأما أن لا يستجيب بأن يكون عنده نوع من التوكل ويقدم ولا يبالي، لكن يبقىٰ في نفسه نوع من الهم أو الغم، وهذا وإن كان أهون من الأول، لكن يجب ألا يستجيب لداعي هذه الأشياء التي نفاها الرسول ﷺ مطلقًا، وأن يكون معتمداً علىٰ اللَّه ـ عز وجل ـ. وبعض الناس قد يفتح المصحف لطلب التفاؤل، فإذا نظر ذكر النار تشاءم، وإذا نظر ذكر الجنة قال: هذا فأل طيب؛ فهذا مثل عمل الجاهلية الذين يستقسمون بالأزلام. فالحاصل أننا نقول: لا تجعل علىٰ بالك مثل هذه الأمور إطلاقًا؛ فالأسباب المعلومة الظاهرة تقي أسباب الشر، وأما الأسباب التي لم يجعلها الشرع سببًا بل نفاها؛ فلا يجوز لك أن تتعلق بها، بل احمد اللَّه علىٰ العافية، وقل: ربنا عليك؛ توكلنا.

قوله: «لانوء»: واحد الأنواء، والأنواء: هي منازل القمر، وهي ثمان وعشرون منزلة، كل منزلة لها نجم تدور بمدار السنة. وهذه النجوم بعضها يسمىٰ النجوم الشمالية، وهي لأيام الصيف، وبعضها يسمىٰ النجوم الجنوبية، وهي لأيام الشتاء، وأجرىٰ اللَّه العادة أن المطر في وسط الجزيرة العربية يكون أيام الشتاء، أما أيام الصيف؛ فلا مطر.

فالعرب كانوا يتشاءمون بالأنواء، ويتفاءلون بها؛ فبعض النجوم يقولون: هذا نجم نحس لا خير فيه، وبعضها بالعكس يتفاءلون به فيقولون: هذا نجم سعود وخير، ولهذا إذا أمطروا قالوا: مطرنا بنوء كذا، ولا يقولون: مطرنا بفضل اللَّه ورحمته، ولا شك أن هذا غاية الجهل.

ألسنا أدركنا هذا النوء بعينه في سنة يكون فيه مطر وفي سنة أخرىٰ لا يكون فيه مطر؟ ونجد السنوات تمر بدون مطر مع وجود النجوم الموسمية التي كانت كثيراً ما يكون في زمنها الأمطار.

فالنوء لا تأثير له؛ فقولنا: طلع هذا النجم، كقولنا: طلعت الشمس؛ فليس له إلا طلوع وغروب، والنوء وقت تقديره، وهو يدل علىٰ دخول الفصول فقط.

وفي عصرنا الحاضر يعلق المطر بالضغط الجوي والمنخفض الجوي، وهذا وإن كان قد يكون سببًا حقيقًا، ولكن لا يفتح هذا الباب للناس، بل الواجب أن يقال: هذا من رحمة اللَّه، هذا من فضله

. . . .

قوله: «ولا غُول» هو بالضم، اسمه . وجمعه أغوال وغيلان . وهو المراد هنا .

قال أبو السعادات: الغول: واحد الغيلان، وهو جنس من الجن والشياطين .

كانت العرب تزعم أن الغول في الفلاة تتراءى للناس، تتلوَّن تلونًا [في صور] شتى، وتَغُولُهم: أي: تُضلُّهم عن الطريق وتُهلكهم، فنفاه النبي ﷺ وأبطله، فإن قيل: ما معنى النفي وقد قال النبي ﷺ: «**إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان**»(١) أجيب عنه بأن ذلك كان في الابتداء ثم دفعها الله عن عباده أو يقال: المنفي ليس وجود الغول بل ما يزعمه العرف من تصوفه في نفسه. فيكون المعني بقوله: «**لا غول**» أنها لا تستطيع أن تُضل أحدًا مع ذكر الله والتوكل عليه. ويشهد له الحديث الآخر: «**لا غُول ولكن السَّعالي**» [**السعالي**]: سحرة الجن. أي: ولكن في الجن سحرة لهم تلبيس وتخييل. ومنه الحديث: «**إذا تغوَّلت الغيلان فبادروا بالأذان**»(٢) أي: ادفعوا شرها بذكر الله. وهذا يدل على أنه لم يرد بنفيها عدمها.

ومنه: حديث أبي أيوب: كان لي تمر في سهوة، فكانت الغول تجيء فتأخذ(٣).

ونعمه، قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ**﴾ [النور: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ**﴾ [الروم: ٤٨]. فتعليق المطر بالمنخفضات الجوية من الأمور الجاهلية التي تصرف الإنسان عن تعلقه بربه. فذهبت أنواء الجاهلية، وجاءت المنخفضات الجوية، وما أشبه ذلك من الأقوال التي تصرف الإنسان عن ربه ـ سبحانه وتعالى ـ.

نعم، المنخفضات الجوية قد تكون سببًا لنزول المطر، لكن ليست هي المؤثر بنفسها؛ فتنبه.

قوله: «ولا غول»: جمع غَوْلة أو غُولَة، ونحن نسميها العامية: (الهولة)؛ لأنها تهول الإنسان. والعرب كانوا إذا سافروا أو ذهبوا يمينًا وشمالاً تلونت لهم الشياطين بألوان مفزعة مخيفة، فتدخل في قلوبهم الرعب والخوف، فتجدهم يكتئبون ويستحسرون عن الذهاب إلى هذا الوجه الذي أرادوا، وهذا لا شك أنه يضعف التوكل على الله، والشيطان حريص على إدخال القلق والحزن على الإنسان بقدر ما يستطيع، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ [المجادلة: ١٠]

وهذا الذي نفاه الرسول ﷺ هو تأثيرها؛ فلا تهمكم لأنها خوفتكم، فلا تلتفتوا إليها، وليس المقصود بالنفي نفي الوجود، وأكثر ما يبتلى الإنسان بهذه الأمور إذا كان قلبه معلقًا بها، أما إن كان معتمداً على الله غير مبال بها؛ فلا تضره ولا تمنعه عن جهة قصده.

---

(١) قال السيوطي في الجامع الصغير: رواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة رضي الله عنه وهو ضعيف. (ق).

(٢) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (١١٤٠).

(٣) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في التعليق الرغيب (٢/ ٢٢٠).

ولهما، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طِيرة، ويُعْجِبُني الفألُ» قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة»(١).

قال المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ : ولهما، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة، ويُعْجِبُني الفألُ» قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة».

قوله: «ويُعجِبُني الفأل» قال أبو السعادات: الفأل ـ مهموز ـ فيما يسرُّ ويسوء، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء، وربما استعملت فيما يسر. يقال: تفاءلت بكذا وتفاولت، على التخفيف والقلب. ولقد أولع الناس بترك الهمزة تخفيفًا، وإنما أحب الفأل، لأن الناس إذا أملوا فائدة اللّه، ورجوا عائدته عند كل سبب ضعيف أو قوي فهم على خير، وإذا قطعوا أملهم ورجاءهم من اللّه تعالى كان ذلك من الشر.

وأما الطيرة: فإن فيها سوء الظن باللّه وتوقُّع البلاء، والتفاؤل: أن يكون رجل مريض فيسمع آخر يقول: يا سالم، أو يكون طالب ضالة فيسمع آخر يقول: يا واجد، فيقع في ظنه أنه يبرأ من مرضه ويجد ضالته؛ ومنه الحديث، قيل: يا رسول اللّه ما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة». قوله: قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة» بيَّن ﷺ أن الفأل يُعجبه، فدل على أنه ليس من الطيرة المنهي عنها.

قال ابن القيم: ليس في الإعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشرك، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة، وموجب الفطرة الإنسانية، التي تميل إلى ما يوافقها ويلائمها؛ كما أخبرهم ﷺ أنه حُبِّب إليه النساء والطيب(٢)، وكان يحب الحلواء والعسل(٣)، ويحب حسن الصوت بالقرآن والأذان ويستمع إليه، ويحبُّ معالي الأخلاق ومكارم الشِّيَم.

وبالجملة: يُحبُّ كل كمال وخير، وما يُفضي إليهما. واللّه سبحانه قد جعل في غرائز الناس الإعجاب بسماع الاسم الحسن، ومحبته وميل نفوسهم إليه، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار

قوله في حديث أنس: «لا عدوى، ولا طيرة»: تقدم الكلام على ذلك.

قوله: «ويعجبني الفأل»: أي: يسرني، والفأل بينه بقوله: «الكلمة الطيبة». فـ«الكلمة الطيبة» تعجبه ﷺ؛ لما فيها من إدخال السرور على النفس والانبساط والمضي قدما لما يسعى إليه الإنسان، وليس هذا من الطيرة، بل هذا مما يشجع الإنسان؛ لأنها لا تؤثر عليه، بل تزيده طمأنينة وإقدامًا وإقبالاً. وظاهر الحديث: الكلمة الطيبة في كل شيء؛ لأن الكلمة الطيبة في الحقيقة تفتح القلب وتكون سببًا لخيرات كثيرة، حتى إنها تدخل المرء في جملة ذوي الأخلاق الحسنة. وهذا الحديث جمع النبي ﷺ فيه بين محذورين ومرغوب؛ فالمحذوران هما العدوى والطيرة، والمرغوب هو الفأل، هذا من حسن تعليم النبي ﷺ؛ فمن ذكر المرهوب ينبغي أن يذكر معه ما يكون مرغوبًا، ولهذا كان القرآن مثاني إذا ذكر أوصاف المؤمنين ذكر أوصاف الكافرين، وإذا ذكر العقوبة ذكر المثوبة، وهكذا.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٧٥٦، ٥٧٧٦)، ومسلم (٢٢٢٤).

(٢) حسن صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٥٢٦١)، والروض (٥٣).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٥٤٣١) ومواضع، ومسلم (١٤٧٤).

ولأبي داود ـ بسند صحيح ـ عن عُقْبة بن عامر، قال: ذُكرت الطيرةُ عند رسول الله ﷺ، فقال: «أحسنُها الفألُ، ولا تَردُّ مسلمًا، فإذا رأى أحدُكم ما يكره، فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»[(١)] .

والسرور باسم الفلاح والسلام والنجاح والتهنئة، والبُشرىٰ والفوز والظفر ونحو ذلك. فإذا قرعت هذه الأسماء الأسماعَ استبشرت بها النفس، وانشرح لها الصدر، وقوي بها القلب. وإذا سمعت أضدادَها أوجب لها ضد هذه الحال، فأحزنها ذلك وأثار لها خوفًا وطيرة وانكماشًا وانقباضًا عما قصدت له وعزمت عليه، فأورث لها ضررًا في الدنيا ونقصًا في الإيمان ومقارفة الشرك.

وقال الحليمي: وإنما كان ﷺ يُعجبه الفأل؛ لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالىٰ بغير سبب محقق، والتفاؤل حسن ظن به، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالىٰ علىٰ كل حال.

قال المصنف رحمه الله تعالى: ولأبي داود ـ بسند صحيح ـ عن عُقبة بن عامر، قال: ذُكرت الطيرةُ عند رسول الله ﷺ، فقال: «أحسنُها الفألُ، ولا تَرد مسلمًا، فإذا رأى أحدُكم ما يكره، فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»:

قوله: (عن عقبة بن عامر): هكذا وقع في نسخ (التوحيد)، وصوابه: عن عروة بن عامر. كذا أخرجه أحمد، وأبو داود، وغيرهما. وهو مكي، اختلف في نسبه، فقال أحمد: عن عروة بن عامر القُرشي. وقال غيره: الجهني، واختلف في صحبته، فقال الباوردي: له صُحبة. وذكره ابن حبان في ثقات التابعين. وقال المِزي: لا صُحبة له تصح.

قوله: فقال: «أحسنها الفأل» قد تقدم أنه ﷺ كان يُعجبه الفأل.

وروىٰ الترمذي وصححه، عن أنس: أن النبي ﷺ كان إذا خرج لحاجته، يُحبُّ أن يسمع: يا نجيح، يا راشد[(٢)]. وروىٰ أبو داود، عن بُريدة: أن النبي ﷺ كان لا يتطيَّر من شيء، وكان إذا بعث

قوله: «عن عقبة بن عامر»: صوابه عن عروة بن عامر[(٣)]؛ كما ذكره في «التيسير»، وقد اختلف في نسبه وصحبته.

قوله: «ذكرت الطيرة عند رسول ﷺ»: وهذا الذكر إما ذكر شأنها، أو ذكر أن الناس يفعلونها، والمراد: تحدث الناس بها عند رسول ﷺ.

قوله: «أحسنها الفأل»: سبق أن الفأل ليس من الطيرة، لكنه شبيه بالطيرة من حيث الإقدام؛ فإنه يزيد الإنسان نشاطًا وإقدامًا فيما توجه إليه؛ فهو يشبه الطيرة من هذا الوجه، وإلا؛ فبينهما فرق لأن الطيرة توجب تعلق الإنسان بالمتطير به، وضعف توكله علىٰ الله، ورجوعه عما هم به من أجل ما رأىٰ، لكن الفأل يزيده قوة ونشاطًا؛ فالشبه بينهما هو التأثير في كل منهما.

---

(١) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في الكلم الطيب (٢٥٢)، والمشكاة (٤٥٩١).

(٢) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في الروض (٨٦).

(٣) وعروة بن عامر قرشي تابعي سمع ابن عباس وغيره روى عنه عمرو بن دينار وحبيب بن أبي ثابت ذكره ابن حبان في ثقات التابعين، أما عقبة بن عامر فهو ابن عبس الجهني الصحابي المشهور.

....

عاملاً سأل عن اسمه، فإذا أعجبه فرح به، وإن كره اسمه رُئي كراهية ذلك في وجهه[1]. وإسناده حسن. وهذا فيه استعمال الفأل.

قال ابن القيم: أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة، وهو خيرها. فأبطل الطِّيرة، وأخبر أن الفأل منها ولكنه خير منها. ففصل بين الفأل والطيرة؛ لما بينهما من الامتياز والتضاد، ونفع أحدهما، ومضرة الآخر، ونظير هذا: منعه من الرُّقى بالشرك، وإذنُه في الرقية إذا لم يكن فيها شرك، لما فيها من المنفعة الخالية من المفسدة.

قوله: «ولا تردُّ مسلمًا»: قال الطيبي: تعريض بأن الكافر بخلافه.

قوله: «اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت»: أي: لا تأتي الطيرة بالحسنات ولا تدفع المكروهات، بل أنت وحدك لا شريك لك الذي تأتي بالحسنات، وتدفع السيئات.

ففيه: نفيُ تعلُّق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع ضر، وهذا هو التوحيد. وهو دعاء مناسب لمن وقع في قلبه شيء من الطيرة، وتصريح بأنها لا تجلب نفعًا ولا تدفع ضرًا، ويُعدُّ من اعتقدها سفيهًا مشركًا.

قوله: «ولا حول ولا قوة إلا بك»: استعانة بالله تعالى على فعل التوكل، وعدم الالتفات إلى الطيرة التي قد تكون سببًا لوقوع المكروه عقوبةً لفاعلها. وذلك الدعاء إنما يصدر عن حقيقة التوكل، الذي هو أقوى الأسباب في جلب الخيرات ودفع المكروهات. والحولُ والتحول: الانتقال من حال

قوله: «ولا ترد مسلمًا»: يفهم منه أن من ردته الطيرة عن حاجته؛ فليس بمسلم.

قوله: «فإذا رأى أحدكم ما يكره»: فحينئذ قد ترد على قلبه الطيرة، ويبتعد عما يريد، ولا يقدم عليه، وقد ذكر النبي ﷺ دواء لذلك وقال: «فليقل: اللَّهم لا يأتي بالحسنات...» إلخ.

قوله: «اللَّهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت»: وهذا هو حقيقة التوكل، وقوله: «اللَّهم» يعني: يا اللَّه، ولهذا بنيت على الضم؛ لأن المنادي علم، بل هو أعلم الأعلام وأعرف المعارف على الإطلاق، والميم عوض عن يا المحذوفة، وصارت في آخر الكلمة تبركًا بالابتداء باسم اللَّه - سبحانه وتعالى -، وصارت ميمًا؛ لأنها تدل على الجمع؛ فكأن الداعي جمع قلبه على اللَّه.

قوله: «لا يأتي بالحسنات إلا أنت»: أي: لا يقدرها ولا يخلقها ولا يوجدها للعبد إلا اللَّه وحده لا شريك له، وهذا لا ينافي أن تكون الحسنات بأسباب؛ لأن خالق هذه الأسباب هو اللَّه، فإذا وجدت هذه الحسنات بأسباب خلقها اللَّه؛ صار الموجد حقيقة هو اللَّه.

والمراد بالحسنات: ما يستحسن المرء وقوعه، ويحسن في عينه.

ويشمل ذلك الحسنات الشرعية؛ كالصلاة والزكاة وغيرها؛ لأنها تسر المؤمن، ويشمل الحسنات الدنيوية؛ كالمال والولد ونحوها، قال تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة: ٥٠]، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

---

(١) صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٧٦٢).

وعن ابن مسعود، مرفوعًا: «الطيـرة شرك، الطيرة شرك» وما منا إلا! ولكن الله يُذهبه بالتوكل»[1] . رواه أبو داود، والترمذي، وصـححه، وجعل آخره من قول ابن مـسعود.

إلى حال، والقوة على ذلك بالله وحده. ففيه: التبري من الحول والقوة والمشيئة بدون حول الله وقوته ومشيئته، وهذا هو التوحيد في الربوبية، وهو الدليل على توحيد الإلهية الذي هو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة، وهو توحيد القصد والإرادة. وقد تقدم بيان ذلك بحمد الله.

قال المصنف ـ رحمـه الله تعالى ـ: وعن ابن مسعود، مـرفوعًا: «الطيرة شرك، الطيـرة شرك» وما منا إلا! ولكن الله يُذهبه بالتوكل». رواه أبو داود، والترمذي، وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود.

وقوله: «إلا أنت»: فاعل يأتي؛ لأن الاستثناء هنا مفرغ.

قوله: «ولا يدفع السيئات إلا أنت»: السيئات: ما يسوء المرء وقوعه وينفر منه حالاً أو مآلاً، ولا يدفعها إلا الله، ولهذا إذا أصيب الإنسان بمصيبة التجأ إلى ربه تعالى، حتى المشركون إذا ركبوا في الفلك، وشاهدوا الغرق، دعوا الله مخلصين له الدين. ولا ينافي هذا أن يكون دفعُها بأسباب؛ فمثلاً لو رأى رجلاً غريقًا، فأنقذه؛ فإنما أنقذه بمشيئة الله، ولو شاء الله لم ينقذه؛ فالسبب من الله.

فعـقيدة كل مسلم أنه لا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يدفع السيئـات إلا الله، وبمقـتضى هذه العقيدة؛ فإنه يجب أن لا يسأل المسلم الحسنات ولا يسأل دفع السيئات إلا من الله، ولهذا كان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يسألون الله الحسنات ويسألون دفع السيئات. قال تعالى عن زكريا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨]. وقال تعالى عن أيوب: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وهكذا يجب أن يكون المؤمن أيضًا.

قوله: «ولا حول ولا قوة إلا بالله»: في معناها وجهان:

الأول: أنه لا يوجد حول ولا قوة إلا بالله؛ فالباء بمعنى في، يعني: إلا في الله وحده، ومن سواه ليس لهم حول ولا قوة، ويكون الحول والقوة المنفيان عن غير الله هما الحول المطلق والقوة المطلقة؛ لأن غير الله فيه حول وقوة، لكنها نسبيّة ليست بكاملة، فالحول الكامل والقوة الكاملة في الله وحده.

الثاني: أن الحول والقوة مضاف إلى المخلوق؛ فالباء للاستعانة أو للسببية، أي: لا حول لنا ولا قوة لنا إلا بالله عز وجل وهذا المعنى أصح، وهو مقتضى ورودها في مواضعها؛ إذ إننا لا نتحول من حال إلى حال، ولا نقوى على ذلك إلا بالله؛ فيكون في هذه الجملة كمال التفويض إلى الله، وأن الإنسان يبرأ من حوله وقوته إلا بما أعطاه الله من الحول والقوة.

فإن صح الحديث؛ فالرسول ﷺ أرشدنا إذا رأينا ما نكره مما يتشاءم به المتشائم أن نقول: «اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت؛ ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك».

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٣٩١٠)، وابن ماجه (٣٥٣٨)، وأحمد (١/ ٣٨٩، ٤٤٠)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣٩٦٠).

. . . .

ورواه ابن ماجه، وابن حبان. ولفظ أبي داود: «الطيرة شرك، الطيرة شرك، الطيرة شرك» ثلاثًا.
وهذا صريح في تحريم الطيرة، وأنها من الشرك؛ لما فيها من تعلُّق القلب على غير اللَّه تعالى.

قال ابن حمدان: تُكره الطيرة، وكذا قال غيرُه من أصحاب أحمد.

قال ابن مفلح: والأولى القطعُ بتحريمها؛ لأنها شرك، وكيف يكون الشرك مكروهًا الكراهة الاصطلاحية؟!!

قال في (شرح السنن): وإنما جعل الطيرة من الشرك؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن الطيرة تجلبُ لهم نفعًا أو تدفع عنهم ضرًا إذا عملوا بموجبه، فكأنهم أشركوا مع اللَّه تعالى.

قوله: (وما منا إلا) قال أبو القاسم الأصبهاني، والمُنذري: في الحديث إضمار، والتقدير: وما منا إلا وقد وقع في قلبه شيء من ذلك. انتهى.

وقال الخلخالي: حذف المستثنى؛ لما يتضمنه من الحالة المكروهة. وهذا من أدب الكلام.

قوله: «مرفوعًا»: أي: إلى النبي ﷺ.

قوله: «الطيرة شرك، الطيرة شرك»: هاتان الجملتان يؤكد بعضهما بعضًا من باب التوكيد اللفظي.

قوله: «شرك»: أي: إنها من أنواع الشرك، وليست الشرك كله، وإلا؛ لقال: الطيرة الشرك.

وهل المراد بالشرك هنا الشرك الأكبر المخرج عن الملة، أو أنها نوع من أنواع الشرك؟

نقول: هي نوع من أنواع الشرك؛ كقوله ﷺ: «اثنتان في الناس هما بهم كفر»؛ أي: ليس الكفر المخرج عن الملة، وإلا لقال: «هما بهم الكفر» بل هما نوع من الكفر. لكن في ترك الصلاة قال: «بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»، فقال: «الكفر»؛ فيجب أن نعرف الفرق بين «ال» المعرفة أو الدالة على الاستغراق، وبين خلو اللفظ منها، فإذا قيل: هذا كفر؛ فالمراد أنه نوع من الكفر لا يخرج من الملة، وإذا قيل: هذا الكفر؛ فهو المخرج من الملة. فإذا تطير إنسان بشيء رآه أو سمعه؛ فإنه لا يعد مشركًا شركًا يخرجه من الملة، لكنه أشرك من حيث إنه اعتمد على هذا السبب الذي لم يجعله اللَّه سببًا، وهذا يضعف التوكل على اللَّه ويوهن العزيمة، وبذلك يعتبر شركًا من هذه الناحية، والقاعدة: «إن كل إنسان اعتمد على سبب لم يجعله الشرع سببًا؛ فإنه مشرك شركًا أصغر».

وهذا نوع من الإشراك مع اللَّه؛ إما في التشريع إن كان هذا السبب شرعيًا، وإما في التقدير إن كان السبب كونيًا، لكن لو اعتقد هذا المتشائم المتطير أن هذا فاعل بنفسه دون اللَّه؛ فهو مشرك شركًا أكبر؛ لأنه جعل للَّه شريكًا في الخلق والإيجاد.

قوله: «وما منا». «منا» جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف، إما قبل (إلا) إن قدرت ما بعد إلا فعلاً؛ أي: وما منا أحد إلا تطير، أو بعد (إلا)؛ أي: وما منا إلا متطير.

والمعنى: ما منا إنسان يسلم من التطير؛ فالإنسان يسمع شيئًا فيتشاءم، أو يبدأ في فعل؛ فيجد أوله ليس بالسهل فيتشاءم ويتركه.

والتوكل: صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله.

فلا يكفي صدق الاعتماد فقط، بل لابد أن تثق به؛ لأنه سبحانه يقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

قوله: «وجعل آخره من قول ابن مسعود».

وهو قوله: «وما منا......»: إلخ.

ولأحمد، من حديث ابن عمرو: «من ردَّته الطِّيرة عن حاجته فقد أشرك». قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: «أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرُك، ولا طير إلا طيرُك، ولا إله غيرك»(١).

قوله: (ولكن اللَّه يُذهبه بالتوكل). أي: لكن لما توكلنا على اللَّه في جلب النفع أو دفع الضر، أذهبه اللَّه عنا بتوكلنا عليه وحده.

قوله: (وجعل آخره من قول ابن مسعود)، قال ابن القيم: وهو الصواب؛ فإن الطيرة نوع من الشرك.

قال المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ: ولأحمد، من حديث ابن عمرو: «من ردَّته الطِّيرة عن حاجته فقد أشرك». قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: «أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرُك، ولا طير إلا طيرُك، ولا إله غيرك».

هذا الحديث رواه أحمد، والطبراني، عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص، وفي إسناده ابنُ لَهيعة(٢)، وبقيةُ رجاله ثقات.

قوله: (من حديث ابن عمرو). هو عبد اللَّه بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي، أبو محمد ـ وقيل: أبو عبد الرحمن ـ أحد السابقين المُكثرين من الصحابة، وأحد العبادلة الفقهاء، مات في ذي الحجة، ليالي الحرَّة ـ على الأصح ـ بالطائف(٣).

وأما الطيرة: فإنه إذا عزم على فعل شيء من ذلك من الأمور النافعة في الدين أو في الدنيا، فيرى أو يسمع ما يكره أثر في قلبه أحد أمرين أحدهما أعظم من الآخر.

وعلى هذا يكون موقوفًا، وهو مدرج في الحديث، والمدرج: أن يدخل أحد الرواة كلامًا في الحديث من عنده بدون بيان، ويكون في الإسناد والمتن، ولكن أكثره في المتن، وقد يكون في أول الحديث، وقد يكون في وسطه، وقد يكون في آخره، وهو الأكثر.

مثال ما كان في أول الحديث: قول أبي هريرة رضي اللَّه عنه: «**أسبغوا الوضوء، ويلٌ للأعقاب من النار**»(٤)؛ فقوله: «**أسبغوا الوضوء**» من كلام أبي هريرة، وقوله: «**ويل للأعقاب من النار**» من كلام الرسول ﷺ.

ومثال ما كان في وسطه قول الزهري في حديث بدء الوحي: «**كان رسول اللَّه ﷺ يتحنث في غار حراء**»(٥)، والتحنث: التعبد.

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٢٢٠)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٢٦٤).

(٢) هو عبد الله بن لهيعة الحضرمي الغافقي المصري قاضيها وعالمها ومسندها. قال الإمام أحمد: احترقت كتبه. وهو صحيح الكتاب. ومن كتب عنه قديمًا فسماعه صحيح. مات سنة ١٧٤هـ. (ق).

(٣) واقعة الحرة وفتنة الأقوي. الموقعة التي كانت من أهل الشام في أهل المدينة، بعث يزيد بن معاوية أهل الشام لقتال أهل المدينة حين امتنعوا عن بيعته فغلبوا على أهلها واستباحوها ثلاثًا، وقتل خلق كثير من أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم؛ وكان ذلك سنة خمس وستين (*). (ق).

(*) قوله (وكان ذلك سنة خمس وستين) أقول الصواب سنة ثلاث وستين. (ز).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٦٥)، ومسلم (٢٤٢)، وأبو داود (٩٧)، والنسائي (١١١)، وابن ماجه (٤٥١)، وأحمد (٦٧٧٠) ومواضع.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (٤) ومواضع، ومسلم (١٦٠).

. . . .

قوله: «من ردَّته الطيرة عن حاجته فقد أشرك» وذلك أن الطيرة هي التشاؤم بالشيء المرئي أو المسموع. فإذا ردَّه شيء من ذلك عن حاجته التي عزم عليها - كإرادة السفر ونحوه - فمنعه عما أراده وسعى فيه ما رأى وسمع تشاؤمًا، فقد دخل في الشرك؛ كما تقدم. فلم يُخلص توكّله على الله بالتفاته إلى ما سواه، فيكون للشيطان منه نصيب.

قوله: (فما كفارة ذلك؟) إلى آخره. فإذا قال ذلك، وأعرض عما وقع في قلبه ولم يلتفت إليه: كفَّر الله عنه ما وقع في قلبه ابتداءً؛ لزواله عن قلبه بهذا الدعاء المتضمِّن للاعتماد على الله وحده، والإعراض عما سواه.

ومثال ما كان في آخره: هذا الحديث الذي ذكره المؤلف، وكذا حديث أبي هريرة، وفيه: «**فمن استطاع منكم أن يطيل غرته؛ فليفعل**»[1]، فهذا من كلام أبي هريرة.

قوله في حديث ابن عمرو: «من»: شرطية: وجواب الشرط: «**فقد أشرك**»، واقتران الجواب بالفاء؛ لأنه لا يصلح لمباشرة الأداء، وحينئذ يجب اقترانه بالفاء، وقد جمع ذلك في بيت شعر معروف، وهو قوله:

إسميةٌ طلبيةٌ بجامدٍ وبما وقد وبلن وبالتنفيس

قوله: «من ردته الطيرة عن حاجته»: الحاجة: كل ما يحتاجه الإنسان بما تتعلق به الكمالات، وقد تطلق على الأمور الضرورية.

قوله: «فقد أشرك»: أي: شركًا أكبر إن اعتقد أن هذا التشاؤم به يفعل ويحدث الشر بنفسه، وإن اعتقده سببًا فقط فهو أصغر؛ لأنه سبق أن ذكرنا قاعدة مفيدة في هذا الباب؛ وهي: «إن كل من اعتقد في شيء أنه سبب ولم يثبت أنه سبب لا كونًا ولا شرعًا؛ فشركه شرك أصغر؛ لأنه ليس لنا أن نثبت هذا سببًا إلا إذا كان الله قد جعله سببًا كونًا أو شرعًا، فالشرعي: كالقراءة والدعاء، والكوني: كالأدوية التي جرب نفعها».

قوله: «فما كفارة ذلك؟»: أي: ما كفارة هذا الشرك، أو ما هو الدواء الذي يزيل هذا الشرك؟ لأن الكفارة قد تطلق على كفارة الشيء بعد فعله، وقد تطلق على الكفارة قبل الفعل، وذلك لأن الاشتقاق مأخوذ من الكفر، وهو الستر، والستر واق، فكفارة ذلك إن وقع وكفارة ذلك إن لم يقع.

قوله: «اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك»: يعني: فأنت الذي بيدك الخير المباشر؛ كالمطر والنبات، وغير المباشر؛ كالذي يكون سببه من عند الله على يد مخلوق، مثل: أن يعطيك إنسان دراهم صدقة أو هدية، وما أشبه ذلك فهو خير من الله، لكن بواسطة جعلها الله سببًا، وإلا؛ فكل الخير من الله - عز وجل.

قوله: «لا خير إلا خيرك»: هذا الحصر حقيقي؛ فالخير كله من الله، سواء كان بسبب معلوم أو بغيره.

قوله: «لا طير إلا طيرك»: أي: الطيور كلها ملكك؛ فهي لا تفعل شيئًا، وإنما هي مسخرة، قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩]. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩] فالمهم أن الطير مسخرة بإذن الله؛ فالله تعالى هو الذي يدبرها ويصرفها ويسخرها تذهب يمينًا وشمالا، ولا علاقة لها بالحوادث.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٦)، ومسلم (٢٤٦).

وله، من حديث الفَـضل بن عبَّاس: «إنما الطيرة مـا أمضاك أو ردَّك»(١).

وتضمن الحديث: أن الطيرة لا تضرُّ من كرهها ومضى في طريقه، وأما من لم يُخلص توكله على الله، واسترسل مع الشيطان في ذلك، فقد يُعاقب بالوقوع فيما يكره؛ لأنه إعراض عن واجب الإيمان بالله، وأن الخير كله بيده.

فهو الذي يجلبه لعبده بمشيئته وإرادته، وهو الذي يدفع عنه الضر وحده بقدرته ولُطفه وإحسانه. فلا خير إلا منه، وهو الذي يدفع الشرَّ عن عبده، فما أصابه من ذلك فبذنبه؛ كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

قال المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ: وله، من حديث الفَضل بن عبَّاس: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردَّك». هذا الحديث: عند الإمام أحمد، من حديث الفضل بن عباس، قال: خرجت مع رسول الله ﷺ يومًا، فبرح

ويحتمل أن المراد بالطير هنا ما يتشاءم به الإنسان؛ فكل ما يحدث للإنسان من التشاؤم والحوادث المكروهة: فإنه من الله كما أن الخير من الله؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]. لكن سبق لنا أن الشر في فعل الله ليس بواقع، بل الشر في المفعول لا في الفعل، بل فعله تعالى كله خير؛ إما خير لذاته، وإما لما يترتب عليه من المصالح العظيمة التي تجعله خيرًا. فيكون قوله: «لا طير إلا طيرك» مقابلاً لقوله: «ولا خير إلا خيرك».

قوله: «ولا إله غيرك»: «لا» نافية للجنس، «وإله» بمعنى: مألوه؛ كغراس بمعنى مغروس، وفراش بمعنى مفروش.

والمألوه: هو المعبود محبة وتعظيمًا يتأله إليه الإنسان محبة له وتعظيمًا له.

فإن قيل: إن هناك آلهة دون الله؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [هود: ١٠١].

أجيب: أنها وإن عُبدت من دون الله وسُميت آلهة؛ فليست آلهة حقًا لأنها لا تستحق أن تعبد؛ فلهذا نقول: لا إله إلا الله؛ أي: لا إله حق إلا الله.

يستفاد من الحديث:

١ ـ أنه لا يجوز للإنسان أن ترده الطيرة عن حاجته، وإنما يتوكل على الله ولا يبالي بما رأى أو سمع أو حدث له عند مباشرته للفعل أول مرة؛ فإن بعض الناس إذا حصل له ما يكره في أول مباشرته الفعل تشاءم، وهذا خطأ؛ لأنه ما دامت هناك مصلحة دنيوية أو دينية؛ فلا تهتم بما حدث.

٢ ـ أن الطيرة نوع من الشرك؛ لقوله: «من ردته الطيرة عن حاجته؛ فقد أشرك».

٣ ـ أن من وقع في قلبه التطير ولم ترده الطيرة؛ فإن ذلك لا يضر كما سبق في حديث ابن مسعود: «وما منا إلا... ولكن الله يذهبه بالتوكل».

٤ ـ أن الأمور بيد الله خيرها وشرها.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢١٣).

فيه مسائل:

الأولى: التنبيه على قوله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ مع قوله: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾.

الثانية: نفي العدوى.

ظبيٌ، فمال في شقه فاحتضنته، فقلت: يا رسول اللَّه، تطيرت، فقال: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك».

وفي إسناده انقطاع، أي: بين مسلمة راويه، وبين الفضل. وهو الفضل بن العباس بن عبد المطلب، ابن عم النبي ﷺ. قال ابن معين: قُتل يوم اليرموك. وقال غيره: [قُتل يوم مَرْج الصُّفَّر سنة ثلاث عشرة، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة. وقال أبو داود]: قتل بدمشق، كان عليه درع النبي ﷺ.

قوله: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك» هذا حدُّ الطيرة المنهي عنها، لأنها: ما يحمل الإنسان على المُضي فيما أراده، ويمنعه من المضي فيه كذلك.

وأما الفأل الذي كان يُحبه النبي ﷺ: فيه نوع بشارة، فيُسرُّ به العبد ولا يعتمد عليه؛ بخلاف ما يُمضيه أو يرده؛ فإن للقلب عليه نوع اعتماد، فافهم الفرق، واللَّه أعلم.

---

٥ - انفراد اللَّه بالألوهية؛ كما انفرد بالخلق والتدبير.

قوله في حديث الفضل: «إنما الطيرة»: هذه الجملة عند البلاغيين تسمى حصراً؛ ما الطيرة إلا ما أمضاك أو ردك لا ما حدث في قلبك ولم تلتفت إليه، ولا ريب أن السلامة منها حتى في تفكير الإنسان خير بلا شك، لكن إذا وقعت في القلب ولم ترده ولم يلتفت لها؛ فإنها لا تضره، لكن عليه أن لا يستسلم، بل يدافع؛ إذ الأمر كله بيد اللَّه.

قوله: «ما أمضاك أو ردك»: أما «ما ردك»؛ فلا شك أنه من الطيرة؛ لأن التطير يوجب الترك والتراجع. وأما «ما أمضاك»؛ فلا يخلو من أمرين:

الأول: أن تكون من جنس التطير، وذلك بأن يستدل لنجاحه أو عدم نجاحه بالتطير، كما لو قال: سأزجر هذا الطير، فإذا ذهب إلى اليمين؛ فمعنى ذلك اليُمن والبركة، فيقدم؛ فهذا لا شك أنه تطير؛ لأن التفاؤل بمثل انطلاق الطير عن اليمين غير صحيح؛ لأنه لا وجه له؛ إذ الطير إذا طار؛ فإنه يذهب إلى الذي يرى أنه وجهته؛ فإذا اعتمد عليه؛ فقد اعتمد على سبب لم يجعله اللَّه سبباً، وهو حركة الطير.

الثاني: أن يكون سبب المُضي كلاماً سمعه أو شيئاً شاهده يدل على تيسير هذا الأمر له؛ فإن هذا فأل، وهو الذي يعجب النبي ﷺ، لكن إن اعتمد عليه وكان سبباً لإقدامه؛ فهذا حكمه حكم الطيرة، وإن لم يعتمد عليه ولكنه فرح ونشط وازداد نشاطاً في طلبه؛ فهذا من الفأل المحمود. والحديث في سنده مقال، لكن على تقدير صحته هذا حكمه.

فيه مسائل:

الأولى: التنبيه على قوله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾. مع قوله: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾: أي: لكي يتنبه الإنسان، فإن ظاهر الآيتين التعارض، وليس كذلك؛ فالقرآن والسنة لا تعارض بينهما ولا تعارض في ذاتهما، إنما يقع التعارض حسب فهم المخاطب، وقد سبق بيان الجمع أن قوله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ أن اللَّه هو المقدر ذلك، وليس موسى ولا غيره من الرسل، وأن قوله: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ من باب السبب؛ أي أنتم سببه.

الثانية: نفي العدوى: وقد سبق أن المراد بنفيها نفي تأثيرها بنفسها لا أنها سبب لتأثيرها؛ لأن اللَّه

الثالثة: نفي الطيرة. الرابعة: نفي الهامة.
الخامسة: نفي الصَّفَر. السادسة: أن الفأل ليس من ذلك، بل مستحب.
السابعة: تفسير الفأل.
الثامنة: أنَّ الواقع في القلوبِ من ذلك مع كراهته لا يضرُّ، بلٍ يُذهبُه الله بالتوكل.
التاسعة: ذكر ما يقوله مَن وجَده. العاشرة: التصريح بأنَّ الطيرة شرك.
الحادية عشرة: تفسير الطيرة المذمومة.

....

أحدهما: أن يستجيب لذلك الداعي، فيترك ما كان عازما على فعله أو بالعكس فيتطير بذلك، وينكص عن الأمر الذي كان عازمًا عليه، فهذا كما ترى قد علق قلبه بذلك المكروه غاية التعليق وعمل عليه، وتصرف ذلك المكروه في إرادته وعزمه وعمله فلا شك أنه على هذا الوجه أثر على إيمانه، وأخل بتوحيده وتوكله. ثم بعد هذا لا تسأل عما يحدثه له هذا الأمر من ضعف القلب ووهنه وخوفه من المخلوقين وتعلقه بالأسباب وبأمور ليست أسبابًا، وانقطاع قلبه من تعلقه بالله. وهذا من ضعف التوحيد والتوكل، ومن طرق الشرك ووسائله ومن الخرافات المفسدة للعقل.

الأمر الثاني: أن لا يستجيب لذلك الداعي؛ ولكنه يؤثر في قلبه حزنًا وهمًّا وغمًّا، فهذا وإن كان دون الأول لكنه شر وضرر على العبد، وضعف لقلبه وموهن لتوكله وربما أصابه مكروه فظن أنه من ذلك الأمر فقوي تطيره، وربما تدرج به إلى الأمر الأول، فهذا التفصيل يبين لك وجه كراهة الشارع للطيرة وذمها ووجه منافاتها للتوحيد والتوكل وينبغي لمن وجد شيئًا من ذلك وخاف أن تغلبه الدواعي الطبيعية أن يجاهد نفسه على دفعها ويستعين بالله على ذلك ولا يركن إليها بوجه ليندفع الشر عنه.

قد جعل بعض الأمراض سببًا للعدوى وانتقالها.

الثالثة: نفي الطيرة: أي: نفي التأثير لا نفي الوجود.

الرابعة: نفي الهامة: وقد سبق تفسيرها.

الخامسة: نفي الصفر: وسبق تفسيره.

السادسة: أن الفأل ليس من ذلك؛ بل مستحب: تؤخذ من قول النبي ﷺ: **«يعجبني الفأل»**، وكل ما أعجب النبي ﷺ، فهو حسن، قالت عائشة رضي اللَّه عنها: «كان النبي ﷺ يعجبه التيامن في تنعله وترجله وطهوره وفي شأنه كله».

السابعة: تفسير الفأل: فسره النبي ﷺ بأنه: الكلمة الطيبة، وسبق أن هذا التفسير على سبيل المثال لا على سبيل الحصر؛ لأن الفأل كل ما ينشط الإنسان على شيء محمود؛ من قول، أو فعل مرئي أو مسموع.

الثامنة: أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر بل يذهبه اللَّه بالتوكل: أي: إذا وقع في قلبك وأنت كاره له؛ فإنه لا يضرك، ويذهبه اللَّه بالتوكل؛ لقول ابن مسعود: «وما منا إلا . . . . ولكن اللَّه يذهبه بالتوكل».

التاسعة: ذكر ما يقول من وجده: وسبق أنه شيئان:

أن يقول: **«اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»**.

٢٨ـ باب
ما جاء في التنجيم

قال المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ: بابُ ما جاء في التنجيم.

قال شيخ الإسلام: التنجيم: هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية .

باب ما جاء في التنجيم

التنجيم نوعان: نوع يسمى علم التأثير وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الكونية فهذا باطل، ودعوى لمشاركة الله في علم الغيب الذي انفرد به، أو تصديق لمن ادعى ذلك وهذا ينافي التوحيد لما فيه من هذه الدعوى الباطلة ولما فيه من تعلق القلب بغير الله ولما فيه من فساد العقل؛ لأن سلوك الطرق الباطلة وتصديقها من مفسدات العقول والأديان.

أو يقول: «اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك».

العاشرة: التصريح بأن الطيرة شرك: وسبق أن الطيرة شرك، لكن بتفصيل، فإن اعتقد تأثيرها بنفسها؛ فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنها سبب؛ فهو شرك أصغر.

الحادية عشرة: تفسير الطيرة المذمومة: أي: ما أمضاك أو ردك.

التَّنجيم: مصدر نجَّم بتشديد الجيم؛ أي: تعلم علم النجوم، أو اعتقد تأثير النجوم.

وعلم النجوم ينقسم إلى قسمين:

١ - علم التأثير. ٢ - علم التيسير.

فالأول: علم التأثير: وهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أ - أن يعتقد أن هذه النجوم مؤثرة فاعلة، بمعنى أنها هي التي تخلق الحوادث والشرور؛ فهذا شرك أكبر؛ لأن من ادعى أن مع الله خالقًا؛ فهو مشرك شركًا أكبر؛ فهذا جعل المخلوق المسخر خالقًا مسخرًا.

ب - أن يجعلها سببًا يدعي به علم الغيب؛ فيستدل بحركاتها وتنقلاتها وتغيراتها على أنه سيكون كذا وكذا؛ لأن النجم الفلاني صار كذا وكذا، مثل أن يقول: هذا الإنسان ستكون حياته شقاء؛ لأنه ولد في النجم الفلاني، وهذا حياته ستكون سعيدة؛ لأنه ولد في النجم الفلاني؛ فهذا اتخذ علم النجوم وسيلةً لادعاء علم الغيب، ودعوى علم الغيب كفر مخرج عن الملة؛ لأن الله يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وهذا من أقوى أنواع الحصر؛ لأنه بالنفي والإثبات، فإذا ادعى أحد علم الغيب؛ فقد كذَّب القرآن.

ج - أن يعتقدها سببًا لحدوث الخير والشر، أي أنه إذا وقع شيء نسبه إلى النجوم، ولا ينسب إلى النجوم شيئًا إلا بعد وقوعه؛ فهذا شرك أصغر.

فإن قيل: ينتقض هذا بما ثبت عن النبي ﷺ في قوله في الكسوف: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بها عباده»[1]؛ فمعنى ذلك أنهما علامة إنذار.

والجواب من وجهين: الأول: أنه لا يُسلَّم أن للكسوف تأثيرًا في الحوادث والعقوبات من الجدب

---

(١) صحيح: وقد تقدم.

قال البخاري في (صحيحه): قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينةً للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يُهتدى بها. فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلَّف ما لا علم له به. انتهى[1].

وقال الخطابي: علم النجوم المنهي عنه: ما يدعيه أهل التنجيم، من علم الكوائن والحوادث التي ستقع في مُستقبل الزمان، كأوقات هبوب الريح ومجيء المطر، وتغيُّر الأسعار، وما في معناها من الأمور التي يزعمون أنها تُدرك معرفتها بمسير الكواكب في مجاريها، واجتماعها وافتراقها، يدَّعون أن لها تأثيراً في السُّفليات. وهذا منهم تحكم على الغيب، وتعاط لعلم قد استأثر اللّه به، لا يعلم الغيب سواه.

قال المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ: قال البخاري في (صحيحه): قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينةً للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يُهتدى بها. فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلَّف ما لا علم له به. انتهى.

هذا الأثر علقه البخاري في (صحيحه) وأخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وغيرهم.

والقحط والحروب، ولذلك قال النبي ﷺ: «**إنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته**»، لا فيما مضىٰ ولا في المستقبل، وإنما يخوف اللّه بهما العباد لعلهم يرجعون، وهذا أقرب.

الثاني: أنه لو سلمنا أن لهما تأثيراً؛ فإن النص قد دل علىٰ ذلك، وما دل عليه النص يجب القول به، لكن يكون خاصًا به. لكن الوجه الأول هو الأقرب: أننا لا نسلم أصلاً أن لهما تأثيراً في هذا؛ لأن الحديث لا يقتضيه؛ فالحديث ينص علىٰ التخويف، والمُخَوِّف هو اللّه تعالىٰ، والمخوف عقوبته، ولا أثر للكسوف في ذلك، وإنما هو علامة فقط.

الثاني: علم التيسير: وهذا ينقسم إلىٰ قسمين:

الأول: أن يستدل بسيرها علىٰ المصالح الدينية؛ فهذا مطلوب، وإذا كان يعين علىٰ مصالح دينية واجبة كان تعلمها واجبًا، كما لو أراد أن يستدل بالنجوم علىٰ جهة القبلة؛ فالنجم الفلاني يكون ثلث الليل قبلة، والنجم الفلاني يكون ربع الليل قبلة؛ فهذا فيه فائدة عظيمة.

الثاني: أن يستدل بسيرها علىٰ المصالح الدنيوية؛ فهذا لا بأس به، وهو نوعان:

النوع الأول: أن يستدل بها علىٰ الجهات؛ كمعرفة أن القطب يقع شمالاً، والجدي وهو قريب منه يدور حوله شمالاً، وهكذا؛ فهذا جائز، قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

النوع الثاني: أن يستدل بها علىٰ الفصول، وهو ما يعرف بتعلم منازل القمر؛ فهذا كرهه بعض السلف، وأباحه آخرون. والذين كرهوه قالوا: يخشىٰ إذا قيل: طلع النجم الفلاني؛ فهو وقت الشتاء أو الصيف: أن بعض العامة يعتقد أنه هو الذي يأتي بالبرد أو بالحر أو بالرياح.

والصحيح عدم الكراهة؛ كما سيأتي إن شاء اللّه.

---

(١) رواه البخاري معلقًا في كتاب بدء الخلق باب في النجوم.

. . . .

وأخرجه الخطيب في (كتاب النجوم)، عن قتادة، ولفظه، قال: إنما جعل اللَّه هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يُهتدىٰ بها، وجعلها رجومًا للشياطين. فمن تعاطىٰ فيها غير ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به. وإن ناسًا جهلة بأمر اللَّه، قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا. ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود، والطويل والقصير، والحسن والدميم، وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشيء من هذا الغيب. ولو أن أحدًا علم الغيب لعلمه آدم الذي خلقه اللَّه بيده، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء. انتهىٰ[1].

وتأمل ما أنكره هذا الإمام، مما حدث من هذه المنكرات في عصر التابعين. ومازال الشر يزداد في كل عصر بعدهم، حتىٰ بلغ الغاية في هذه الأعصار، وعمت به البلوىٰ في جميع الأمصار، فمقل ومستكثر. وعزَّ في الناس من ينكره، وعظمت المصيبة في الدين. فإنا للَّه وإنا إليه راجعون.

قوله: (خلق اللَّه هذه النجوم لثلاث). قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

وفيه إشارة إلىٰ أن النجوم في السماء الدنيا؛ كما روىٰ ابن مردويه، عن ابن مسعود رضي اللَّه عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أما السماء الدنيا: فإن الله خلقها من دخان، وجعل فيها سراجًا

قوله في أثر قتادة: «خلق اللَّه هذه النجوم لثلاث»: اللام للتعليل؛ أي: لبيان العلة والحكمة.

قوله: «لثلاث»: ويجوز لثلاثة، لكن الثلاث أحسن، أي: لثلاث حكم، لهذا حذف تاء التأنيث من العدد.

والثلاث هي:

الأولىٰ: زينة للسماء، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]؛ لأن الإنسان إذا رأىٰ السماء صافية في ليلة غير مقمرة وليس فيها كهرباء يجد لهذه النجوم من الجمال العظيم ما لا يعلمه إلا اللَّه؛ فتكون كأنها غابة محلاة بأنواع من الفضة اللامعة، هذه نجمة مضيئة كبيرة تميل إلىٰ الحمرة، وهذه تميل إلىٰ الزرقة، وهذه خفيفة، وهذه متوسطة، وهذا شيء مشاهد. وهل نقول: إن ظاهر الآية الكريمة أن النجوم مرصعة في السماء، أو نقول: لا يلزم ذلك؟

الجواب: لا يلزم من ذلك أن تكون النجوم مرصعة في السماء، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]؛ أي: يدورون، كل له فلك.

وأنا شاهدت بعيني أن القمر خسف نجمة من النجوم، أي غطاها، وهي من النجوم اللامعة الكبيرة كان يقرب حولها في آخر الشهر وعند قرب الفجر غطاها؛ فكنا لا نراها بالمرة، وذلك قبل عامين في آخر

---

(١) في قرة العيون: وقول قتادة رحمه الله تعالى يدل على أن علم التنجيم هذا قد حدث في عصره فأوجب له إنكاره على من اعتقده وتعلق به؛ وهذا العلم مما ينافي التوحيد ويوقع في الشرك لأنه ينسب الحوادث إلى غير من أحدثها وهو الله سبحانه بمشيئته وإرادته كما قال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣] وقال: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]. (ق).

. . . .

وقمراً منيراً، وزينها بمصابيح، وجعلها رجومًا للشياطين، وحفظًا من كل شيطان رجيم»[1].

قوله: (وعلامات). أي: دلالات على الجهات. يُهتدى بها، أي: يهتدي بها الناس في ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الانعام: ٩٧] أي: ليعرفوا بها جهة قصدهم، وليس المراد أنه يهتدى بها في علم الغيب، كما يعتقده المنجمون.

وقد تقدم بطلانه وأنه لا حقيقة له؛ كما قال قتادة: فمن تأول فيها غير ذلك -أي: زعم فيها غير ما ذكر الله في كتابه من هذه الثلاث- فقد أخطأ، حيث زعم شيئًا ما أنزل الله به من سلطان، و أضاع نصيبه من كل خير، لأنه أشغل نفسه بما يضره ولا ينفعه فإن قيل: المنجم قد يصدق!! قيل: صدقه كصدق الكاهن، يصدق في كلمة ويكذب في مائة. وصدقه ليس عن علم، بل قد يوافق قدراً فيكون فتنة في حق من صدقه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما -في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ⑮ وَعَلَامَاتٍ﴾ [النحل: ١٥، ١٦].

فقوله: ﴿وَعَلَامَاتٍ﴾ معطوف على ما تقدم، مما ذكره في الأرض، ثم استأنف، فقال: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ذكره ابن جرير، عن ابن عباس بمعناه. وقد جاءت الأحاديث عن النبي ﷺ بإبطال علم التنجيم؛ كقوله: «من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر. زاد ما زاد»[2][3].

رمضان. إذن هي أفلاك متفاوتة في الارتفاع والنزول، ولا يلزم أن تكون مرصعة في السماء.

فإن قيل: فما الجواب عن قوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾؟ قلنا: إنه لا يلزم من تزيين الشيء بالشيء أن يكون ملاصقًا له، أرأيت لو أن رجلاً عمر قصراً وجعل حوله ثريات من الكهرباء كبيرة وجميلة، وليست على جدرانه؛ فالناظر إلى القصر من بعد يرى أنها زينة له، وإن لم تكن ملاصقة له.

الثانية: رجومًا للشياطين؛ أي: لشياطين الجن، وليسوا شياطين الإنس؛ لأن شياطين الإنس لم يصلوها، لكن شياطين الجن وصلوها؛ فهم أقدر من شياطين الإنس، ولهم قوة عظيمة نافذة، قال تعالى عن عملهم الدال على قدرتهم: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [ص: ٣٧]؛ أي: سخرنا لسليمان: ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩]؛ أي: من سبأ إلى الشام، وهو عرش عظيم لملكة سبأ؛ فهذا يدل على قوتهم وسرعتهم ونفوذهم. وقال تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩]. والرجم: الرمي.

الثالثة: علامات يهتدى بها، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ⑮ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥، ١٦]؛ فذكر الله تعالى نوعين من العلامات التي يهتدى بها:

الأولى: أرضية، وتشمل كل ما جعل الله في الأرض من علامة؛ كالجبال، والأنهار، والطرق،

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن ابن عباس. (ق).

(٣) حسن: حسنه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٧٩٣).

وكره قتادة تعلُّم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه[١]. ذكره حرب عنهما. ورخص في تعلم المنازل أحمد، وإسحاق.

وعن رجاء بن حَيْوة، أن النبي ﷺ قال: «**مما أخاف على أمتي: التصديق بالنجوم، والتكذيب بالقدر، وحيف الأئمة**»رواه عبد بن حميد. وعن أبي محجن، مرفوعًا: «**أخاف على أمتي ثلاثًا: حيف الأئمة، وإيمانًا بالنجوم، وتكذيبًا بالقدر**»[٢] رواه ابن عساكر، وحسنه السيوطي.

وعن أنس، مرفوعًا: «**أخاف على أمتي بعدي خصلتين: تكذيبًا بالقدر، وإيمانًا بالنجوم**»[٣]. رواه أبو يعلىٰ، وابن عدي، والخطيب في (كتاب النجوم)، وحسنه السيوطي أيضًا.

والأحاديث في ذم التنجيم والتحذير منه كثيرة.

قال المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ: وكره قتادة تعلُّم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه. ذكره حرب عنهما. ورخص في تعلم المنازل أحمد، وإسحاق.

قال الخطابي: أما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والخبر، الذي يُعرف به الزوال، وتعلم به جهة القبلة: فإنه غير داخل فيما نهي عنه؛ وذلك أن معرفة رصد الظل، ليس شيئًا بأكثر من أن الظل ما دام متناقصًا، فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقي، وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي. وهذا علم يصح إدراكه بالمشاهدة، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروها بما اتخذوا له من الآلات التي يستغني الناظر فيها عن مراعاة مدَّته ومراصدته. وأما ما يُستدل به من النجوم علىٰ جهة القبلة: فإنها كواكب رصدها أهل الخبرة بها من

والأودية، ونحوها.

الثانية: أفقية في قوله تعالىٰ: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾. والنجم: اسم جنس يشمل كل ما يهتدىٰ به، ولا يختص بنجم معين؛ لأن لكل قوم طريقة في الاستدلال بهذه النجوم علىٰ الجهات سواء جهات القبلة أو المكان برًا أو بحرًا. وهذا من نعمة اللَّه أن جعل علامات علوية لا يحجب دونها شيء وهي النجوم؛ لأنك في الليل لا تشاهد جبالاً ولا أودية، وهذا من تسخير اللَّه، قال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

قوله: «وكره قتادة تعلم منازل القمر»: أي: كراهة تحريم بناء علىٰ أن الكراهة في كلام السلف يراد بها التحريم غالبًا.

قوله: «تعلم منازل القمر»: يحتمل أمرين:

الأول: أن المراد به معرفة منزلة القمر، الليلة يكون في الشرطين، ويكون في الإكليل، فالمراد معرفة منازل القمر كل ليلة؛ لأن كل ليلة له منزلة حتىٰ يتم ثمانيًا وعشرين وفي تسع وعشرين وثلاثين لا يظهر في الغالب.

الثاني: أن المرد به تعلم منازل النجوم؛ أي: يخرج النجم الفلاني في اليوم الفلاني، وهذه النجوم

---

(١) خوفًا من أن يَجر إلَى التنجيم المُحرم الذي هو علم التأثير. (ق).

(٢) صحيح: صحيح الجامع (٢١٤).

(٣) صحيح: صحيح الجامع (٢١٥).

وعن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر»[1] رواه أحمد، وابن حبان في (صحيحه).

الأئمة، الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها، وصدقهم فيما أخبروا به عنها. مثل أن يشاهدها بحضرة الكعبة، ويشاهدها على حال الغيبة عنها. فكان إدراكهم الدلالة منها بالمعاينة، وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم إذ كانوا عندنا غير متهمين في دينهم، ولا مقصرين في معرفتهم انتهى[2].

وروى ابن المنذر، عن مجاهد: أنه كان لا يرى بأسًا أن يتعلم الرجل منازل القمر.

وروي عن إبراهيم: أنه كان لا يرى بأسًا أن يتعلم الرجل من النجوم ما يهتدي به.

قال ابن رجب: والمأذون في تعلمه[علم] التسيير لا علم التأثير؛ فإنه باطل محرم، قليله وكثيره.

وأما علم التسيير، فيتعلم منه ما يحتاج إليه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق. جائز عند الجمهور. انتهى.

قوله: (ذكره حرب عنهما): هو الإمام الحافظ، حرب بن إسماعيل، أبو محمد الكرماني، الفقيه، من جلة أصحاب الإمام أحمد.

روى عن أحمد، وإسحاق، وابن المديني، وابن معين، وغيرهم.

وله كتاب (المسائل) التي سُئل عنها الإمام أحمد وغيره، مات سنة ثمانين ومائتين.

وأما إسحاق: فهو ابن إبراهيم بن مخلد، أبو يعقوب الحنظلي النيسابوري، الإمام المعروف بابن راهويه. روى عن ابن المبارك، وأبي أسامة، وابن عيينة وطبقتهم. قال أحمد: إسحاق عندنا إمام من

جعلها الله أوقاتًا للفصول؛ لأنها[٢٨] نجمًا، منها[١٤] يمانية و[١٤] شمالية؛ فإذا حلت الشمس في المنازل الشمالية صار الحر، وإذا حلت في الجنوبية صار البرد، ولذلك كان من علامة دنو البرد خروج سهيل، وهو من النجوم اليمانية.

قوله: «ولم يرخص فيه ابن عيينة»: هو سفيان بن عيينة المعروف، وهذا يوافق قول قتادة بالكراهة.

قوله: «وذكره حرب»: من أصحاب أحمد، روى عنه مسائل كثيرة.

قوله: «إسحاق»: هو إسحاق بن راهوية. والصحيح أنه لا بأس بتعلم منازل القمر؛ لأنه لا شرك فيها؛ إلا إن تعلمها ليضيف إليها نزول المطر، وحصول البرد، وأنها هي الجالبة لذلك؛ فهذا نوع من الشرك، أما مجرد معرفة الوقت بها؛ هل هو الربيع، أو الخريف، أو الشتاء؛ فهذا لا بأس به.

قوله في حديث أبي موسى: «الجنة»: هي الدار التي أعدها الله لأوليائه المتقين، وسميت بذلك؛ لكثرة أشجارها لأنها تجن من فيها أي تستره.

---

(١) حسن: حسنه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٦٧٨).

(٢) وحقيقة علم الفلك معرفة حركات النجوم والكواكب وتنقلاتها ومنازلها. وقد اخترع لمعرفة ذلك آلات حاسبة ومنظارات مقربة؛ ومراصد كاملة الأسباب والآلات عرفوا بها شيئًا كبيرًا جدًا من العوالم العلوية؛ حتى أصبحت كأنها على هذه الأرض. وكل ذلك لا يصح أن يختلف فيه مطلقًا؛ لأنه كعلم الحساب. أما أن ينسب إلى هذه النجوم والكواكب شيء من الحوادث على هذه الأرض من موت أو حياة أو حرب أو سلم يكون في المستقبل فهذا هو الذي لا شك في كذبه وأنه ضلال. (ق).

أئمة المسلمين. روىٰ عنه أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود وغيرهم، وروىٰ هو أيضًا عن أحمد. مات سنة تسع وثلاثين ومائتين.

قال المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ: وعن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر» رواه أحمد، وابن حبان في (صحيحه):

هذا الحديث رواه أيضًا الطبراني، والحاكم، وقال: صحيح. وأقره الذهبي. وتمامه: «**ومن مات هو مدمن الخمر سقاه الله من نهر الغوطة: نهر يجري من فروج المومسات، يؤذي أهل النار ريح فروجهن**»[1].

قوله: عن (أبي موسى): هو عبد اللّه بن قيس بن سليم بن حضَّار ـ فتح المهملة وتشديد الضاد ـ أبو موسىٰ الأشعري، صحابي جليل، مات سنة خمسين.

قوله: «ثلاثة لا يدخلون الجنة»: هذا من نصوص الوعيد التي كره السلف تأويلها، وقالوا: أمروها كما جاءت، ومن تأولها فهو علىٰ خطر من القول علىٰ اللّه بلا علم.

وأحسن ما يقال: إن كل عمل دون الشرك والكفر المخرج عن ملة الإسلام فإنه يرجع إلىٰ مشيئة اللّه، فإن عذبه به فقد استوجب العذاب، وإن غفر له فبفضله وعفوه ورحمته.

قوله: «مدمن الخمر»: هو الذي يشرب الخمر كثيراً، والخمر حده الرسول ﷺ بقوله: «**كل مسكر خمر**»[2]، ومعنىٰ «أسكر»؛ أي: غطى العقل، وليس كل ما غطىٰ العقل هو خمر؛ فالبنج مثلاً ليس بخمر، وإذا شرب دهنًا فأغمي عليه؛ فليس ذلك بخمر، وإنما الخمر الذي يغطي العقل علىٰ وجه اللذة والطرب؛ فتجد الشارب يحس أنه في منزلة عظيمة وسعادة وما أشبه ذلك، قال الشاعر:

ونشـربها فـتـتركنا ملوكًـا وأسـدًا مـا ينهنهنا اللقـاء

وقال حمزة بن عبد المطلب ـ وكان قد سكر قبل تحريم الخمر ـ للنبي ﷺ: «وهل أنتم إلا عبيد أبي»؛ فالذي يغطي العقل علىٰ سبيل اللذة محرم بالكتاب والسنة، ومن استحله؛ فهو كافر، إلا إن كان ناشئًا ببادية بعيدة، أو حديث عهد بالإسلام، ولا يعلم الحكم الشرعي في ذلك؛ فإنه يعرف ولا يكفر بمجرد إنكاره تحريمه.

قوله: «قاطع رحم»: الرحم: هو القرابة.

قال تعالىٰ: ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وليس كما يظنه العامة أنهم أقارب الزوجين؛ لأن هذه تسمية غير شرعية، والشرعية في أقارب الزوجين: أن يسموا أصهاراً.

ومعنىٰ قاطع الرحم: أن لا يصله، والصلة جاءت مطلقة في الكتاب والسنة، قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢١]، ومنه الأرحام وما جاء مطلقًا غير مقيد؛ فإنه يتبع فيه العرف. كما قيل:

وكُـلُّ مـا أتـى ولـم يُحـدد بالشرع كالحرز فبالعرف احددُ

فالصلة في زمن الجوع والفقر: أن يعطيهم ويلاحظهم بالكسوة والطعام دائمًا، وفي زمن الغنىٰ لا يلزم

---

(١) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (١٤٦٣). (٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٠٣).

. . . .

قوله: «مدمن الخمر»: أي: المداوم على شربها.

قوله: «وقاطع الرحم»: يعني القرابة؛ كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] الآية.

قوله: «ومصدق بالسحر» أي: مطلقًا، ومنه التنجيم؛ لما تقدم من الحديث، وهذا وجه مطابقة الحديث للترجمة.

قال الذهبي في (الكبائر): ويدخل فيه تعلم السِّيميا وعملها، وعقد المرء على زوجته، ومحبة الزوج لامرأته وبغضها وبغضه، وأشباه ذلك بكلمات مجهولة. قال: وكثير من الكبائر بل عامتها، إلا الأقل - يجهل خلق من الأمة تحريمه، وما بلغه الزجر فيه، ولا الوعيد عليه. انتهى.

ذلك. وكذلك الأقارب ينقسمون إلى قريب وبعيد؛ فأقربهم يجب له من الصلة أكثر مما يجب للأبعد.

ثم الأقارب ينقسمون إلى قسمين من جهة أخرى:

قسم من الأقارب: يرى أن لنفسه حقًا لا بد من القيام به، ويريد أن تصله دائمًا.

وقسم آخر: يقدر الظروف وينزل الأشياء منازلها؛ فهذا له حكم، وذلك له حكم.

والقطيعة يرجع فيها إلى العرف؛ إلا أنه يستثنى من ذلك مسألة، وهي: ما لو كان العرف عدم الصلة مطلقًا، بأن كنا في أمة تشتتت وتقطعت عرى صلتها كما يعرف الآن في البلاد الغربية؛ فإنه لا يعمل حينئذ بالعرف؛ ونقول: لا بد من صلة، فإذا كان هناك صلة في العرف اتبعناها، وإذا لم يكن هناك صلة؛ فلا يمكن أن نعطل هذه الشريعة التي أمر الله بها ورسوله. والصلة ليس معناها أن تصل من وصلك؛ لأن هذه مكافأة؛ وليست صلة؛ لأن الإنسان يصل أبعد الناس عنه إذا وصله، إنما الواصل كما قال الرسول ﷺ: «من إذا قطعت رحمه وصلها»، هذا هو الذي يريد وجه الله والدار الآخرة.

وهل صلة الرحم حق لله أو للآدمي؟

الظاهر أنها حق للآدمي، وهي حق لله باعتبار أن الله أمر بها.

قوله: «ومصدق بالسحر»: هذا هو شاهد الباب.

ووجهه أن علم التنجيم نوع من السحر، فمن صدق به؛ فقد صدق بنوع من السحر، فقد سبق: «أن من اقتبس شعبة من النجوم؛ فقد اقتبس شعبة من السحر»، والمصدق به هو المصدق بما يخبر به المنجمون، فإذا قال المنجم: سيحدث كذا وكذا، وصدق به؛ فإنه لا يدخل الجنة، لأنه صدق بعلم الغيب لغير الله. قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

فإن قيل: لماذا لا يجعل السحر هنا عامًا ليشمل التنجيم وغير التنجيم؟

أجيب: إن المصدق بما يخبره به السحرة من علم الغيب يشمله الوعيد هنا، وأما المصدق بأن للسحر تأثيرًا؛ فلا يلحقه هذا الوعيد؛ إذ لا شك أن للسحر تأثيرًا، لكن تأثيره تخييل، مثل ما وقع من سحرة فرعون حيث سحروا أعين الناس حتى رأوا الحبال والعصي كأنها حيات تسعى، وإن كان

....

....

لا حقيقة لذلك، وقد يسحر الساحر شخصًا فيجعله يحب فلانًا ويبغض فلانًا.

فهو مؤثر قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فالتصديق بأثر السحر على هذا الوجه لا يدخله الوعيد لأنه تصديق بأمر واقع.

أما من صدق بأن السحر يؤثر في قلب الأعيان بحيث يجعل الخشب ذهبًا أو نحو ذلك؛ فلا شك في دخوله في الوعيد؛ لأن هذا لا يقدر عليه إلا اللَّه ـ عز وجل.

قوله: «ثلاثة لا يدخلون الجنة»: هل المراد الحصر وأن غيرهم يدخل الجنة؟

الجواب: لا؛ لأن هناك من لا يدخلون الجنة سوى هؤلاء؟ فهذا الحديث لا يدل على الحصر.

وهل هؤلاء كفار لأن من لا يدخل الجنة كافر؟

اختلف أهل العلم في هذا الحديث وما يشبهه من أحاديث الوعيد على أقوال:

القول الأول: مذهب المعتزلة والخوارج الذين يأخذون بنصوص الوعيد، فيرون الخروج من الإيمان بهذه المعصية. لكن الخوارج يقولون: هو كافر، والمعتزلة يقولون: هو في منزلة بين المنزلتين، وتتفق الطائفتان على أنهم مخلدون في النار، فيجرون هذا الحديث ونحوه على ظاهره، ولا ينظرون إلى الأحاديث الأخرى الدالة على أن من في قلبه إيمان وإن قلّ؛ فلا بد أن يدخل الجنة.

القول الثاني: إن هذا الوعيد فيمن استحل هذا الفعل بدليل النصوص الكثيرة الدالة على أن من في قلبه إيمان وإن قلّ؛ فلا بد أن يدخل الجنة، وهذا القول ليس بصواب؛ لأن من استحله كافر وإن لم يفعله، فمن استحل قطيعة الرحم أو شرب الخمر مثلاً؛ فهو كافر وإن لم يقطع الرحم ولم يشرب الخمر.

القول الثالث: أن هذا من باب أحاديث الوعيد التي تمر كما جاءت ولا يتعرض لمعناها، بل يقال: هكذا قال اللَّه وقال رسوله ونسكت؛ فمثلاً: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، هذه الآية من نصوص الوعيد؛ فنؤمن بها، ولا نتعرض لمعناها ومعارضتها للنصوص الأخرى.

ونقول: هكذا قال اللَّه، واللَّه أعلم بما أراد.

وهذا مذهب كثير من السلف؛ كمالك وغيره، وهذا أبلغ في الزجر.

القول الرابع: أن هذا نفي مطلق، والنفي المطلق يحمل على المقيد؛ فيقال: لا يدخلون الجنة دخولاً مطلقًا يعني لا يسبقه عذاب، ولكنهم يدخلون الجنة دخولاً يسبقه عذاب بقدر ذنوبهم، ثم مرجعهم إلى الجنة، وذلك لأن نصوص الشرع يصدق بعضها بعضًا، ويلائم بعضها بعضًا، وهذا أقرب إلى القواعد وأبين حتى لا تبقى دلالة النصوص غير معلومة؛ فتقيد النصوص بعضها ببعض.

وهناك احتمال: أن من كانت هذه حاله حري أن يختم له بسوء الخاتمة، فيموت كافرًا، فيكون هذا الوعيد باعتبار ما يؤول حاله إليه، وحينئذ لا يبقى في المسألة إشكال؛ لأن من مات على الكفر؛ فلن

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق النجوم.

الثانية: الرد على من زعم غير ذلك.

الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل.

الرابعة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر، ولو عرف أنَّه باطل.

النوع الثاني: علم التسيير وهو الاستدلال بالشمس والقمر والكواكب على القبلة والأوقات والجهات فهذا النوع لا بأس به بل كثير منه نافع قد حث عليه الشارع إذا كان وسيلة إلى معرفة أوقات العبادات أو إلى الاهتداء به في الجهات، فيجب التفريق بين ما نهى عنه الشارع وحرمه وبين ما أباحه أو استحبه أو أوجبه، فالأول هو المنافي للتوحيد دون الثاني.

يدخل الجنة، وهو مخلد في النار، وربما يؤيده قوله ﷺ: «لا يزال المرء في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا»؛ فيكون هذا قولاً خامسًا.

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق النجوم: وهي ثلاث:

١ ـ أنها زينة السماء.

٢ ـ ورجومًا للشياطين.

٣ ـ وعلامات يهتدى بها.

وربما يكون هناك حكم أخرى لا نعلمها.

الثانية: الرد على من زعم غير ذلك: لقول قتادة: «من تأول فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به».

ومراد قتادة في قوله: «غير ذلك» ما زعمه المنجمون من الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، وأما ما يمكن أن يكون فيها من أمور حسية سوى الثلاثة السابقة؛ فلا ضلال لمن تأوله.

الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل: سبق ذلك.

الرابعة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ولو عرف أنه باطل: من صدق بشيء من التنجيم أو غيره من السحر بلسانه ولو اعتقد بطلانه بقلبه؛ فإن عليه هذا الوعيد، كيف يصدق وهو يعرف أنه باطل؛ لأنه يؤدي إلى إغراء الناس به وبتعلمه وبممارسته؟!

❋ ❋ ❋

٢٩ـ بـاب
ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

وقـول الله تعـالى: ﴿وَتَجْـعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقـعـة: ٨٢].

قال المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ: بابُ ما جاء في الاستسقاء بالأنواء:
أي من الوعيد، والمراد: نسبة السُّقيا ومجيء المطر إلى الأنواء ـ جمع نَوْء وهي منازل القمر.

قال أبو السعادات: وهي ثمان وعشرون منزلة، ينزل القمر كل ليلة منزلة منها. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩]. يسقط في الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع طلوع الفجر، وتطلع أخرىٰ مقابلتها ذلك الوقت من المشرق، فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة.

وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر، وينسبونه إليها، ويقولون: مطرنا بنوء كذا. وإنما سُمِّي نَوْءًا؛ لأنه إذا سقط الساقط منها ناء الطالع بالمشرق، أي: نهض وطلع.

قال المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ: وقول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].
روىٰ الإمام أحمد، والترمذي ـ وحسنه ـ وابن جرير، وابن أبي حاتم، والضياء في (المختارة)، عن علي رضي الله عنه، قـال: قـال رسـول الله ﷺ: ﴿وَتَجْـعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ يقـول: شُكركم ﴿أَنَّكُمْ

الاستسقاء: طلب السُّقيا؛ كالاستغفار: طلب المغفرة، والاستعانة: طلب المعونة، والاستعاذة: طلب العوذ، والاستهداء: طلب الهداية؛ لأن مادة استفعل في الغالب تدل على الطلب، وقد لا تدل على الطلب، بل تدل على المبالغة في الفعل، مثل: استكبر؛ أي: بلغ في الكبر غايته، وليس المعنى طلب الكبر، والاستسقاء بالأنواء؛ أي: أن تطلب منها أن تسقيك.

والاستسقاء بالأنواء ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: شرك أكبر، وله صورتان:

الأولى: أن يدعو الأنواء بالسقيا، كأن يقول: يا نوء كذا! اسقنا أو أغثنا، وما أشبه ذلك؛ فهذا شرك أكبر؛ لأنه دعا غير الله، ودعاء غير الله من الشرك الأكبر، قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على النهي عن دعاء غير الله، وأنه من الشرك الأكبر.

الثانية: أن ينسب حصول الأمطار إلى هذه الأنواء على أنها هي الفاعلة بنفسها دون الله ولو لم يدعها؛ فهذا شرك أكبر في الربوبية، والأول في العبادة؛ لأن الدعاء من العبادة، وهو متضمن للشرك في الربوبية؛ لأنه لم يدعها إلا وهو يعتقد أنها تفعل وتقضي الحاجة.

القسم الثاني: شرك أصغر، وهو أن يجعل هذه الأنواء سببًا مع اعتقاده أن الله هو الخالق

وعن أبي مالك الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء

تُكَذِّبُونَ﴾ يقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذا، نجم كذا وكذا» وهذا أولى ما فسرت به الآية.

وروي ذلك عن علي، وابن عباس، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني، وغيرهم، وهو قول جمهور المفسرين، وبه يظهر وجه استدلال المصنف بالآية.

قال ابن القيم: أي: وتجعلون حظَّكم من هذا الرزق الذي به حياتكم: التكذيب به، يعني القرآن.

[قال الحسن: تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن] أنكم تكذبون. قال: وخسر عبدٌ لا يكون حظه من القرآن إلا التكذيب.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: وعن أبي مالك الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء

الفاعل؛ لأن كل من جعل سببًا لم يجعله الله سببًا لا بوحيه ولا بقدره؛ فهو مشرك شركًا أصغر.

قوله تعالى: ﴿وتجعلون﴾: أي تُصيِّرون، وهي تنصب مفعولين:

الأول (رزق).

والثاني: (أن)، وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول ثانٍ.

والتقدير: وتجعلون رزقكم كونكم تكذبون أو تكذيبكم.

والمعنى: تكذبون أنه من عند الله، حيث تضيفون حصوله إلى غيره.

قوله: ﴿رِزْقَكُمْ﴾: الرِّزق هو العطاء، والمراد به هنا: ما هو أعم من المطر؛ فيشمل معنيين:

الأول: أن المراد به رزق العلم؛ لأن الله قال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٢]. أي: تخافونهم فتداهنونهم، وتجعلون شكر ما رزقكم الله به من العلم والوحي أنكم تكذبون به، وهذا هو ظاهر سياق الآية.

الثاني: أن المراد بالرزق المطر.

وقد روي في ذلك حديث عن النبي ﷺ لكنه ضعيف؛ إلا أنه صح عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية: أن المراد بالرزق المطر، وأن التكذيب به نسبته إلى الأنواء، وعليه يكون ما ساق المؤلف الآية من أجله مناسبًا للباب تمامًا. والقاعدة في التفسير أن الآية إذا كانت تحتمل المعنيين جميعًا بدون منافاة تحمل عليهما جميعًا، وإن حصل بينهما منافاة طلب المرجح.

ومعنى الآية: أن الله يوبخ هؤلاء الذين يجعلون شكر الرزق التكذيب والاستكبار والبعد؛ لأن شكر الرزق يكون بالتصديق والقبول والعمل بطاعة المنعم، والفطرة كذلك لا تقبل أن تكفر بمن ينعم عليها؛ فالفطرة والعقل والشرع كل منها يوجب أن تشكر من ينعم عليك، سواء قلنا: المراد بالرزق

بالنجوم، والنياحة». وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تُقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب» رواه مسلم[1].

بالنجوم، والنياحة». وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تُقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب» رواه مسلم.

أبو مالك، اسمه: الحارث بن الحارث الشامي. صحابي، تفرد عنه بالرواية أبو سلام، وفي الصحابة أبو مالك الأشعري، اثنان غير هذا.

قوله: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن» ستفعلها هذه الأمة: إما مع العلم بتحريمها، أو مع الجهل بذلك، مع كونها من أعمال أهل الجاهلية المذمومة المكروهة المحرمة.

والمراد بالجاهلية هنا: ما قبل المبعث؛ سموا بذلك لفرط جهلهم، وكل ما يُخالف ما جاء به رسول الله ﷺ فهو جاهلية. فقد خالفهم رسول الله ﷺ في كثير من أمورهم أو أكثرها، وذلك يُدرك بتدبر القرآن ومعرفة السنة.

المطر الذي به حياة الأرض، أو قلنا: إن المراد به القرآن الذي به حياة القلوب؛ فإن هذا من أعظم الرزق؛ فكيف يليق بالإنسان أن يقابل هذه النعمة بالتكذيب؟! واعلم أن التكذيب نوعان:

أحدهما: التكذيب بلسان المقال، بأن يقول: هذا كذب، أو المطر من النوء، ونحو ذلك.

والثاني: التكذيب بلسان الحال، بأن يُعظِّم الأنواء والنجوم معتقداً أنها السبب، ولهذا وعظ عمر بن عبد العزيز الناس يوماً؛ فقال: «أيها الناس! إن كنتم مصدقين؛ فأنتم حمقى، وإن كنتم مكذبين؛ فأنتم هلكى»، وهذا صحيح؛ فالذي يُصدق ولا يعمل أحمق، والمكذب هالك؛ فكل إنسان عاصٍ نقول له الآن: أنت بين أمرين: إما أنك مصدق بما رُتب على هذه المعصية، أو مكذب، فإن كنت مصدقاً؛ فأنت أحمق، كيف لا تخاف فتستقيم؟! وإن كنت غير مصدق؛ فالبلاء أكبر، فأنت هالك كافر.

قوله: في حديث أبي مالك: «أربع في أمتي»: الفائدة من قوله: «أربع» ليس الحصر؛ لأن هناك أشياء تشاركها في المعنى، وإنما يقول النبي ﷺ ذلك من باب حصر العلوم وجمعها بالتقسيم والعدد؛ لأنه يقرب الفهم، ويثبت الحفظ.

قوله: «من أمر الجاهلية»: أمر هنا بمعنى شأن؛ أي: من شأن الجاهلية، وهو واحد الأمور، وليس واحد الأوامر؛ لأن واحد الأوامر طلب الفعل على وجه الاستعلاء.

قوله: «من أمر الجاهلية»: إضافتها إلى الجاهلية الغرض منها التقبيح والتنفير؛ لأن كل إنسان يقال له: فعلُك فعل الجاهلية لا شك أنه يغضب؛ إذ أنه لا أحد يرضى أن يوصف بالجهل، ولا بأن فعله من أفعال الجاهلية؛ فالغرض من الإضافة هنا أمران:

١ ـ التنفير.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٣٤).

. . . .

ولشيخنا ـ رحمه الله ـ مصنف لطيف ذكر فيه ما خالف رسول ﷺ فيه أهل الجاهلية، بلغ مائة وعشرين مسألة(١).

قال شيخ الإسلام: أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم، ذمًا لمن لم يتركه، وهذا يقتضي أن كل ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين الإسلام، وإلا لم يكن في إضافة هؤلاء المنكرات إلى الجاهلية ذم لها. ومعلوم أن إضافتها للجاهلية خرج مخرج الذم؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. [فإن في ذلك ذمًا للتبرج، وذمًا لحال الجاهلية الأولى] وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة.

قوله: «الفخر بالأحساب» أي: التعاظم على الناس بالآباء ومآثرهم، وذلك جهل عظيم، إذ لا كرم إلا بالتقوى؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا

---

٢ ـ وبيان أن هذه الأمور كلها جهل وحمق بالإنسان؛ إذ ليست أهلاً بأن يراعيها الإنسان أو يعتني بها؛ فالذي يعتني بها جاهل. والمراد بالجاهلية هنا: ما قبل البعثة؛ لأنهم كانوا على جهل وضلال عظيم حتى إن العرب كانوا أجهل خلق الله، ولهذا يُسمّون بالأميين، والأمي هو الذي لا يقرأ ولا يكتب؛ نسبة إلى الأم، كأن أمه ولدته الآن. لكن لما بُعث فيهم هذا النبي الكريم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]؛ فهذه منة عظيمة أن بعث فيهم النبي عليه الصلاة والسلام لهذه الأمور السامية:

١ ـ يتلو عليهم آيات الله.
٢ ـ ويزكيهم؛ فيطهر أخلاقهم وعبادتهم وينميها.
٣ ـ ويعلمهم الكتاب.
٤ ـ والحكمة.

هذه فوائد أربع عظيمة لو وزنت الدنيا بواحدة منها لوزنتها عند من يعرف قدرها، ثم بين الحال من قبل، قال: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾، و﴿وَإِن﴾ هذه ليست نافية، بل مؤكِّدة؛ فهي مخففة من الثقيلة، يعني: وإنهم كانوا من قبل لفي ضلال مبين. إذًا المراد بالجاهلية ما قبل البعثة؛ لأن الناس كانوا فيها على جهل عظيم. فجهلهم شامل للجهل في حقوق الله وحقوق عباده، فمن جهلهم أنهم ينصبون النُّصب ويعبدونها من دون الله، ويقتل أحدهم ابنته لكي لا يُعير بها، ويقتل أولاده من ذكور وإناث خشية الفقر.

قوله: «لا يتركونهن»: المراد: لا يتركون كل واحد منها باعتبار المجموع بالمجموع، بأن يكون كل واحد منها عند جماعة، والثاني عند آخرين، والثالث عند آخرين، والرابع عند آخرين، وقد تجتمع هذه الأقسام في قبيلة، وقد تخلو بعض القبائل منها جميعًا، إنما الأمة كمجموع لا بد أن يوجد فيها شيء من ذلك؛ لأن هذا خبر من الصادق المصدوق ﷺ، والمراد بهذا الخبر التنفير؛ لأنه ﷺ قد يخبر

---

(١) كتاب مسائل الجاهلية طبع في المطبعة السلفية وهو نفيس جدًا ككل كتب شيخ الإسلام التي تفيض علمًا ونورًا، رحمه الله. (ق).

. . . .

أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

ولأبي داود، عن أبي هريرة، مرفوعًا: «**إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة[١] الجاهلية، وفخرها بالآباء. إنما هو مؤمن تقي، أو فاجر شقي. الناس بنو آدم وآدم خلق من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام - إنما هم فحم من فحم جهنم - أو ليكونن أهون على الله من الجعلان**»[٢][٣] الحديث.

قوله: «والطعن في الأنساب» أي: الوقوع فيها، بالعيب والتنقص. ولما عيَّر أبو ذر رضي الله عنه رجلاً بأمه[٤]، قال النبي ﷺ: «**أعيرته بأمه، إنك امرؤ فيك جاهلية**»[٥] متفق عليه.

فدلَّ على أن الطعن في الأنساب من عمل الجاهلية، وأن المسلم قد يكون فيه شيء من هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية، ولا يوجب ذلك كفره ولا فسقه. قاله شيخ الإسلام.

قوله: «والاستسقاء بالنجوم» أي: نسبة المطر إلى النوء، وهو سقوط النجم؛ كما أخرج الإمام

بأشياء تقع وليس غرضه أن يؤخذ بها؛ كما قال ﷺ: «**لتركبن سنن من كان قبلكم اليهود والنصارى**»؛ أي: فاحذروا، وأخبر ﷺ: «**أن الظعينة تخرج من صنعاء إلى حضرموت لا تخشى إلا الله**»[٦]؛ أي: بلا محرم، وهذا خبر عن أمر واقع وليس إقرارًا له شرعًا.

قوله: «**أمتي**»: أي: أمة الإجابة.

قوله: «**الفخر بالأحساب**»: الفخر: التعالي والتعاظم، والباء للسببية؛ أي: يفخر بسبب الحسب الذي هو عليه. والحَسَبُ: ما يحتسبه الإنسان من شرف وسؤدد، كأن يكون من بني هاشم فيفتخر بذلك، أو من آباء وأجداد مشهورين بالشجاعة، فيفتخر بذلك، وهذا من أمر الجاهلية؛ لأن الفخر في الحقيقة يكون بتقوى الله الذي يمنع الإنسان من التعالي والتعاظم، والمتقي حقيقة هو الذي كلما ازدادت نعم الله عليه ازداد تواضعًا للحق وللخلق. وإذا كان الفخر بالحسب من فعل الجاهلية، فلا يجوز لنا أن نفعله، ولهذا قال تعالى لنساء نبيه ﷺ: ﴿**وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ**﴾ [الأحزاب: ٣٣]، واعلم أن كل ما ينسب إلى الجاهلية؛ فهو مذموم ومنهي عنه.

قوله: «**الطعن في الأنساب**»: الطَّعن: العيب؛ لأنه وخز معنوي كوخز الطاعون في الجسد، ولهذا سمي العيب طعنًا. والأنساب: جمع نسب، وهو أصل الإنسان وقرابته، فيطعن في نسبه كأن يقول: أنت ابن الدباغ، أو أنت ابن مقطعة البظور وهي شيء في فرج المرأة يقطع عند ختان النساء.

---

(١) العبية: الكبر والنخوة والفخر. (٢) الجعلان: الحشرات.

(٣) صحيح: رواه الترمذي (٣٢٧٠، ٣٩٥٦، ٩٩٥٥)، وأبو داود (٥١١٦)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٧٨٧، ٥٤٨٢)، وحسنه من حديث ابن عمر (٧٨٦٧).

(٤) وإنما عيره بسوادها فقط. فقال له: يا ابن السوداء. فكيف بالناس اليوم وقد أطلقوا لأقلامهم وألسنتهم العنان؟. (ق).

(٥) صحيح: رواه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١). (٦) صحيح: رواه البخاري (٣٥٩٥).

. . . .

أحمد، وابن جرير، عن جابر السوائي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«أخاف على أمتي ثلاثًا: استسقاء بالنجوم، وحَيْفَ السلطان، وتكذيبًا بالقدر»**(1) .

فإذا قال قائلهم: مطرنا بنجم كذا أو بنوء كذا، فلا يخلو: إما أن يعتقد أن له تأثيرًا في نزول المطر، فهذا شرك وكفر. وهو الذي يعتقده أهل الجاهلية، كاعتقادهم أن دعاء الميت والغائب يجلب لهم نفعًا، أو يدفع عنهم ضرًا، أو أنه يشفع بدعائهم إياه، فهذا هو الشرك الذي بعث الله رسوله ﷺ بالنهي عنه وقتال من فعله؛ كما قال تعالىٰ: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ**﴾ [الأنفال: ٣٩] والفتنة الشرك. وإما أن يقول: مطرنا بنوء كذا مثلاً، لكن مع اعتقاده أن المؤثر هو الله وحده، لكنه أجرىٰ العادة بوجود المطر عند سقوط ذلك النجم.

والصحيح: أنه يحرم نسبة ذلك إلىٰ النجم، ولو علىٰ طريق المجاز، فقد صرح ابن مفلح في (الفروع)، بأنه يحرم قول: مُطرنا بنوء كذا . و جزم في (الإنصاف) بتحريمه، ولم يذكر خلافًا .

وذلك أن القائل لذلك نسب ما هو من فعل الله تعالىٰ ـ الذي لا يقدر عليه غيره ـ إلىٰ خلق مسخر، لا ينفع ولا يضر ولا قدرة له علىٰ شيء، فيكون ذلك شركًا أصغر، والله أعلم.

قوله: «والنياحة» أي: رفع الصوت بالندب علىٰ الميت(2) ؛ لأنها تسخط لقضاء الله، وذلك ينافي الصبر الواجب، وهي من الكبائر، لشدة الوعيد والعقوبة.

وقوله: «والاستسقاء بالنجوم»: أي: نسبة المطر إلىٰ النجوم، مع اعتقاد أن الفاعل هو الله عز وجل أما إن اعتقد أن النجوم هي التي تخلق المطر والسحاب أو دعاها من دون الله لتنزل المطر؛ فهذا شرك أكبر مخرج عن الملة.

قوله: «والنياحة على الميت»: هذا هو الرابع، والنياحة: هي رفع الصوت بالبكاء علىٰ الميت قصدًا، وينبغي أن يضاف إليه علىٰ سبيل النَّوح، كنوح الحمام.

والنَّدب: تعداد محاسن الميت. والنياحة من أمر الجاهلية، ولابد أن تكون في هذه الأمة، وإنما كانت من أمر الجاهلية. إما من الجهل الذي هو ضد العلم. أو من الجهالة التي هي السَّفه، وهي ضد الحكمة. وإنما كانت كذلك لأمور، هي:

١ ـ أنها لا تزيد النائح إلا شدة وحزنًا وعذابًا.

٢ ـ أنها تسخط من قضاء الله وقدره واعتراض عليه. ٣ ـ أنها تُهيِّج أحزان غيره.

وقد ذكر عن ابن عقيل رحمه الله ـ وهو من علمائنا الحنابلة ـ أنه خرج في جنازة ابنه عقيل وكان أكبر أولاده وطالب علم، فلما كانوا في المقبرة صرخ رجل وقال: ﴿**قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [يوسف: ٧٨]؛ فقال له ابن عقيل رحمه الله: إن القرآن إنما نزل لتسكين الأحزان، وليس لتهييج الأحزان.

---

(1) صحيح: وقد تقدم تخريجه.

(2) وضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوىٰ الجاهلية. (ق).

. . . .

قوله: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها» فيه: تنبيه على أن التوبة تكفر الذنب وإن عظُم، هذا مجمع عليه في الجملة. وتكفر أيضًا بالحسنات الماحية والمصائب، ودعاء المسلمين بعضهم لبعض، وبالشفاعة بإذن الله وعفو الله عمن شاء ممن لا يشرك بالله شيئًا. وفي الحديث، عن ابن عمر، مرفوعًا: «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يُغَرغِر»[1] رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان.

قوله: «تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطرانٍ ودرع من جرب»: قال القرطبي: السربال، واحد السرابيل، وهي الثياب والقمص، يعني أنهن يلطَّخن بالقطران، فيكون لهن كالقُمص، حتى يكون اشتعال النار بأجسادهن أعظم، ورائحتهن أنتن، وألمها بسبب الجرب أشد.

ورُوي عن ابن عباس: أن القطران هو النحاس المذاب[2].

---

٤ ـ أنه مع هذه المفاسد لا يَرُدُّ القضاء، ولا يرفع ما نزل. والنياحة تشمل ما إذا كانت من رجل أو امرأة، لكن الغالب وقوعها من النساء، ولهذا قال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها»؛ أي: إن تابت قبل الموت؛ تاب الله عليها، وظاهر الحديث أن هذا الذنب لا تكفره إلا التوبة، وأن الحسنات لا تمحوه؛ لأنه من كبائر الذنوب، والكبائر لا تمحى بالحسنات؛ فلا يمحوها إلا التوبة.

قوله: «تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران»: أي: تقام من قبرها. والسربال: الثوب السابغ كالدرع، والقطران معروف، ويسمى «الزفت»، وقيل: إنه النحاس المذاب.

قوله: «ودرع من جرب»: الجرب: مرض معروف يكون في الجلد، يؤرق الإنسان، وربما يقتل الحيوان، والمعنى: أن كل جلدها يكون جربًا بمنزلة الدرع، وإذا اجتمع قطران وجرب زاد البلاء؛ لأن الجرب أي شيء يمسه يتأثر به؛ فكيف ومعه قطران؟! والحكمة أنها لما لم تُغَطِّ المصيبة بالصبر غُطيت بهذا الغطاء سربال من قطران ودرع من جرب؛ فكانت العقوبة من جنس العمل.

ويستفاد من الحديث:

١ ـ ثبوت رسالته ﷺ؛ لأنه أخبر عن أمر من أمور الغيب فوقع كما أخبر.

٢ ـ التنفير من هذه الأشياء الأربعة: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت.

٣ ـ أن النياحة من كبائر الذنوب لوجود الوعيد عليه في الآخرة، وكل ذنب عليه الوعيد في الآخرة؛ فهو من الكبائر.

٤ ـ أن كبائر الذنوب لا تكفر بالعمل الصالح؛ لقوله: «إذا لم تتب قبل موتها».

٥ ـ أن من شروط التوبة أن تكون قبل الموت؛ لقوله: «إذا لم تتب قبل موتها»، ولقوله تعالى:

---

(١) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في التعليق الرغيب (٤/ ٧٥)، والمشكاة (٢٣٤٣).

(٢) ذكر ذلك الحافظ ابن كثير وغيره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٤٩، ٥٠]. (ق).

ولهما[(١)]، عن زيد بن خالد، قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية، على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بنَوْء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»[(٢)].

قال المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ : ولهما، عن زيد بن خالد، قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية، على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما مَن قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بنَوْء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب».

زيد بن خالد الجُهني، صحابي مشهور، مات سنة ثمان وستين، وقيل: غير ذلك، وله خمس وثمانون سنة.

قوله: (صلى لنا رسول اللّه ﷺ) أي: بنا، فاللام بمعنى الباء. قال الحافظ: وفيه إطلاق ذلك مجازًا. وإنما الصلاة للّه.

باب الاستسقاء بالنجوم

لما كان من التوحيد الاعتراف لله بتفرده بالنعم، ودفع النقم وإضافتها إليه قولاً واعترافًا واستعانة بها على طاعته كان قول القائل: مطرنا بنوء كذا وكذا ينافي هذا المقصود أشد المنافاة لإضافة المطر إلى النوء، والواجب إضافة المطر وغيره من النعم إلى الله؛ فإنه الذي تفضل بها على عباده، ثم الأنواء ليست من الأسباب لنزول المطر بوجه من الوجوه وإنما السبب عناية المولى ورحمته وحاجة العباد وسؤالهم لربهم بلسان الحال ولسان المقال فينزل عليهم الغيث بحكمته ورحمته بالوقت المناسب لحاجتهم وضرورتهم.

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء: ١٨].

٦ ـ أن الشرك الأصغر لا يخرج من الملة؛ فمن أهل العلم من قال: إنه داخل تحت المشيئة: إن شاء اللّه عذبه، وإن شاء غفر له. ومن أهل العلم من قال: إنه ليس بداخل تحت المشيئة، وإنه لابد أن يعاقب، وإلى هذا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية لإطلاق قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ١١٦]؛ فقال: والشرك لا يغفره اللّه ولو كان أصغر، وبهذا نعرف عظم سيئة الشرك، قال ابن مسعود رضي اللّه عنه: «لأن أحلف باللّه كاذبًا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا». لأن الحلف بغير اللّه من الشرك، والحلف باللّه كاذبًا من كبائر الذنوب، وسيئة الشرك أعظم من سيئة الذنب.

---

(١) رواه البخاري في الصلاة في باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم؛ وفي الاستسقاء في باب قول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] ورواه مسلم في كتاب الإيمان. (ق).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٨٤٦، ١٠٣٨)، ومسلم (٧١).

....

قوله: (بالحديبية) بالمهملة وتخفيف يائها، وتُثقَّل[1].
قوله: (على إثر) بكسر الهمزة وسكون المثلثة على المشهور، وهو ما يعقب الشيء.
قوله: (سماء) أي: مطر؛ لأنه ينزل من السحاب، والسماء يطلق على كل ما ارتفع.
قوله: (فلما انصرف) أي: من صلاته، أي: التفت إلى المأمومين؛ كما يدلُّ عليه.
قوله: (أقبل على الناس). ويُحتمل أنه أراد السلام.
قوله: «هل تدرون» لفظُ استفهام، ومعناه التنبيه.
وفي النسائي: **«ألم تسمعوا ما قال ربكم الليلة؟»** وهذا من الأحاديث القدسية.
وفيه: إلقاء العالم المسألة على أصحابه، ليختبرهم.
قوله: (قالوا: اللّه ورسوله أعلم) فيه حسن الأدب للمسؤول إذا سئل عما لا يعلم: أن يَكِلَ العلم إلى عالمه. وذلك يجب[2].

---

٧ ـ ثبوت الجزاء والبعث.
٨ ـ أن الجزاء من جنس العمل.

قوله في حديث زيد بن خالد: «صلي لنا»: أي: إمامًا؛ لأن الإمام يصلي لنفسه ولغيره، ولهذا يتبعه المأموم، وقيل: إن اللام بمعنى الباء، وهذا قريب، وقيل: إن اللام للتعليل؛ أي: صلى لأجلنا.

قوله: «صلاة الصبح بالحديبية»: أي: صلاة الفجر، والحديبية فيها لغتان: التخفيف وهو أكثر، والتشديد. وهي اسم بئر سمي بها المكان، وقيل: إن أصلها شجرة حدباء تسمى حديبية، والأكثر على أنها اسم بئر، وهذا المكان قريب من مكة، بعضه في الحل وبعضه في الحرم، نزل به الرسول ﷺ في السنة السادسة من الهجرة لما قدم معتمرًا، فصده المشركون عن البيت، وما كانوا أولياءه، إن أولياؤه إلا المتقون، ويسمى الآن الشَميسي.

قوله: «على إثر سماء كانت من الليل»: الإثر معناه العقب، والأثر: ما ينتج عن السير.

قوله: «سماء»: المراد به المطر.

قوله: «كانت من الليل»: «من» لابتداء الغاية، هذا هو الظاهر واللّه أعلم، ويحتمل أن تكون بمعنى في للظرفية.

قوله: «فلما انصرف»: أي: من صلاته، وليس من مكانه بدليل قوله: «أقبل على الناس».

قوله: «هل تدرون ماذا قال ربكم»: الاستفهام يراد به التنبيه والتشويق لما سيلقى عليهم، وإلا؛ فالرسول ﷺ يعلم أنهم لا يعلمون ماذا قال اللّه؛ لأن الوحي لا ينزل عليهم.

ومعنى قوله: «هل تدرون»: أي: هل تعلمون. والمراد بالربوبية هنا الربوبية الخاصة؛ لأن ربوبية اللّه للمؤمن خاصة

---

(١) قرية على حدود الحرم؛ وتسمى الآن الشميسي، وكان فيها صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ والمشركين سنة ست من الهجرة؛ وكان هذا الصلح الفتح المبين. (ق).

(٢) وردهم هذا إنما كان يصح حينما كان الرسول ﷺ في حياته الدنيا حاضر المجلس فإن الواجب رد العلم إلى الله ثم إليه. وأما بعد أن مات وفارق هذه الدنيا، فلا ينبغي رد العلم إلا إلى الله وحده. فمن الخطأ استعمال الناس هذه الجملة الآن وقولهم: (الله ورسوله أعلم). (ق).

....

قوله: «أصبح من عبادي» الإضافة هنا للعموم؛ بدليل التقسيم إلىٰ مؤمن وكافر، كقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

قوله: «مؤمن بي وكافر» إذا اعتقد أن للنوء تأثيراً في إنزال المطر، فهذا كفر؛ لأنه شرك في الربوبية، والمشرك كافر. وإن لم يعتقد ذلك، فهو من الشرك الأصغر؛ لكونه نسب نعمة اللّه إلىٰ غيره، ولأن اللّه لم يجعل النوءَ سبباً لإنزال المطر فيه، وإنما هو فضل من اللّه ورحمة. يحبسه إذا شاء، ويُنزله إذا شاء.

ودلَّ هذا الحديث: أنه لا يجوز لأحد أن يُضيف أفعال اللّه إلىٰ غيره، ولو علىٰ سبيل المجاز. وأيضًا، الباء تحتمل معاني، وكلها لا تصدق بهذا اللفظ، فليست للسببية ولا للاستعانة؛ لما عرفت من أن هذا باطل. ولا تصدق أيضًا علىٰ أنها للمصاحبة؛ لأن المطر قد يجيء في هذا الوقت وقد لا يجيء فيه. وإنما يجيء المطر في الوقت الذي أراد اللّه مجيئه فيه، برحمته وفضله. فكلُّ معنىٰ تُحمل عليه الباء في هذا اللفظ المنهي عنه فاسد.

فيظهر علىٰ هذا: تحريم هذه اللفظة مطلقًا؛ لفساد المعنىٰ[1]. وقد تقدم القطع بتحريمه في كلام صاحب (الفروع) و(الإنصاف).

قال المصنف: وفيه التفطُّن للإيمان في هذا الموضع. يشير إلىٰ أنه الإخلاص.

قوله: «فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته» فالفضل والرحمة صفتان للّه، ومذهبُ أهل

كما أن عبودية المؤمن له خاصة، ولكن الخاصة لا تنافي العامة؛ لأن العامة تشمل هذا وهذا، والخاصة تختص بالمؤمن.

قوله: «قالوا: اللّه ورسوله أعلم»: فيه إشكال نَحوي؛ لأن «أعلم» خبر عن اثنين، وهي مفرد؛ فيقال: إن اسم التفضيل إذا نُوي به معنىٰ «من»، وكان مجرداً من «أل» والإضافة لزم فيه الإفراد والتذكير. وفيه أيضًا إشكال معنوي، وهو أنه جمع بين اللّه ورسوله بالواو، مع أن الرسول ﷺ لما قال له الرجل: ما شاء اللّه وشئت. قال: «أجعلتني للّه ندًا؟».

فيقال: إن هذا أمر شرعي، وقد نزل علىٰ الرسول ﷺ. وأما إنكاره علىٰ من قال: ما شاء اللّه وشئت؛ فلأنه أمر كوني، والرسول ﷺ ليس له شأن في الأمور الكونية.

والمراد بقولهم: «اللّه ورسوله أعلم» تفويض العلم إلىٰ اللّه ورسوله، وأنهم لا يعلمون.

قوله: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر»: «مؤمن»: صفة لموصوف محذوف؛ أي: عبد مؤمن، وعبد كافر.

و«أصبح»: من أخوات كان، واسمها: «مؤمن»، وخبرها: «من عبادي».

ويجوز أن يكون «أصبح» فعلاً ماضيًا ناقصًا، واسمها ضمير الشأن، أي: أصبح الشأن، فـ«من عبادي» خبر مقدم، و«مؤمن»: مبتدأ مؤخر، أي: أصبح شأن الناس منهم مؤمن ومنهم كافر.

قوله: «فأما من قال: مطرنا بفضل اللّه ورحمته»: أي: قال بلسانه وقلبه، والباء للسببية، والفضل: العطاء والزيادة.

---

(١) وكذلك مثلها مما يستعمله الجاهلون، كقولهم: يا ربنا بمحمد وبنته؛ ونحو ذلك من ألفاظ في توسلاتهم ودعواتهم الجاهلية. (ق).

. . . .

السنة والجماعة: أن ما وصف اللّه به نفسه ووصفه به رسوله من صفات الذات: كالحياة، والعلم. وصفات الأفعال: كالرحمة التي يرحم بها عباده، كلها صفات للّه قائمة بذاته، ليست قائمة بغيره، فتفطَّن لهذا؛ فقد غلط فيه طوائف.

وفي هذا الحديث: أن نعم اللّه لا يجوز أن تُضاف إلا إليه وحده، وهو الذي يُحمد عليها، وهذه حال أهل التوحيد.

قوله: «وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا» إلىٰ آخره، قد تقدم ما يتعلق بذلك.

قال المصنف: وفيه: التفطُّن للكفر في هذا الموضع.

يُشير: أن نسبة النعمة إلىٰ غير اللّه كفر؛ ولهذا قطع بعض العلماء بتحريمه، وإن لم يعتقد تأثير النوء في إنزال المطر. فيكون من كفر النعم؛ لعدم نسبتها إلىٰ الذي أنعم بها ونسبتها إلىٰ غيره، كما سيأتي في قوله تعالىٰ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[النحل: ٨٣].

قال القرطبي في شرح حديث زيد بن خالد: وكانت العرب إذا طلع نجم من المشرق وسقط آخر من المغرب فحدث عند ذلك مطرٌ أو ريح، فمنهم من ينسبه إلىٰ الطالع، ومنهم من ينسبه إلىٰ

والرحمة: صفة من صفات اللّه، يكون بها الإنعام والإحسان إلىٰ الخلق.

قوله: «فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب»: لأنه نسب المطر إلىٰ اللّه ولم ينسبه إلىٰ الكوكب، ولم ير له تأثيراً في نزوله، بل نزل بفضل اللّه.

قوله: «وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا»: الباء للسببية؛ فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب، وصار كافراً باللّه؛ لأنه أنكر نعمة اللّه ونسبها إلىٰ سبب لم يجعله اللّه سبباً، فتعلقت نفسه بهذا السبب، ونسي نعمة اللّه، وهذا الكفر لا يُخرج من الملة؛ لأن المراد نسبة المطر إلىٰ النوء علىٰ أنه سبب وليس إلىٰ النوء علىٰ أنه فاعل. لأنه قال: «مطرنا بنوء كذا» ولم يقل: أنزل علينا المطر نوء كذا؛ لأنه لو قال ذلك؛ لكان نسبة المطر إلىٰ النوء نسبة إيجاد، وبه نعرف خطأ من قال: إن المراد بقوله: «مطرنا بنوء كذا» نسبة المطر إلىٰ النوء نسبة إيجاد؛ لأنه لو كان هذا هو المراد؛ لقال: أنزل علينا المطر نوء كذا ولم يقل مطِرنا به. فعُلم أن المراد أن من أقر بأن الذي خلق المطر وأنزله هو اللّه، لكن النوء هو السبب؛ فهو كافر، وعليه يكون من باب الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة.

والمراد بالكوكب النجم، وكانوا ينسبون المطر إليه، ويقولون: إذا سقط النجم الفلاني جاء المطر، وإذا طلع النجم الفلاني جاء المطر، وليسوا ينسبونه إلىٰ هذا نسبة وقت، وإنما نسبة سبب؛ فنسبة المطر إلىٰ النوء تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

١ ـ نسبة إيجاد، وهذه شرك أكبر.
٢ ـ نسبة سبب، وهذه شرك أصغر.
٣ ـ نسبة وقت، وهذه جائزة بأن يريد بقوله: مطرنا بنوء كذا؛ أي: جاءنا المطر في هذا النوء أي في وقته.

ولهذا قال العلماء: يحرم أن يقول: مطرنا بنوء كذا، ويجوز مطرنا في نوء كذا، وفرَّقوا بينهما أن

ولهما، من حديث ابن عباس، معناه. وفيه: قال بعضهم: لقد صدق نوءُ كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٢][1].

الغارب؛ نسبة إيجاد واختراع، ويُطلقون ذلك القول المذكور في الحديث. فنهى الشارع من إطلاق ذلك؛ لئلا يعتقد أحد اعتقادهم، ولا يتشبه بهم في نطقهم. انتهى.

قوله: فمنهم من ينسبه نسبة إيجاد. يدلُّ على أن بعضهم لا يعتقد ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣]. فدل على أن منهم من يعرف ويقرُّ بأن الله هو الذي أوجد المطر، و[قد] يعتقد هؤلاء أن للنوء فيه شيئًا من التأثير.

والقرطبي في شرحه لم يُصرِّح أن العرب كلهم يعتقدون ذلك المعتقد الذي ذكره، فلا اعتراض عليه بالآية؛ للاحتمال المذكور.

قال المصنف - رحمه الله تعالى -: ولهما، من حديث ابن عباس، معناه. وفيه: قال بعضهم:

الباء للسببية، وفي للظرفية، ومن ثمَّ قال أهل العلم: إنه إذا قال: مطرنا بنوء كذا وجعل الباء للظرفية فهذا جائز، وهذا وإن كان له وجه من حيث المعنى، لكنه لا وجه له من حيث اللفظ؛ لأن لفظ الحديث: «من قال: مطرنا بنوء كذا»، والباء للسببية أظهر منها للظرفية، وهي وإن جاءت للظرفية كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، لكن كونها للسببية أظهر والعكس بالعكس فـ«في» للظرفية أظهر منها للسببية وهي وإن جاءت للسببية، كما في قوله ﷺ «دخلت امرأة النار في هرة».

والحاصل أن الأقرب المنع ولو قصد الظرفية، لكن إذا كان المتكلم لا يعرف من الباء إلا الظرفية مطلقًا، ولا يظن أنها تأتي سببية؛ فهذا جائز، ومع ذلك؛ فالأولى أن يقال لهم: قولوا: في نوء كذا.

قوله «ولهما». الظاهر أنه سَبَق قلم، وإلا؛ فالحديث في «مسلم» وليس في «الصحيحين».

ومعنى الحديث: إنه لما نزل المطر نسبه بعضهم إلى رحمة الله وبعضهم قال: لقد صدق نوء كذا وكذا؛ فكأنه جعل النوء هو الذي أنزل المطر أو نزل بسببه.

ومنه ما يذكر في بعض كتب التوقيت: «وقل أن يخلف نوؤه»، أو «هذا نوؤه صادق»، وهذا لا يجوز، وهو الذي أنكره الله عز وجل على عباده، وهذا شرك أصغر، ولو قال بإذن الله؛ فإنه لا يجوز لأن كل الأسباب من الله، والنوء لم يجعله الله سببًا.

قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾: اختلف في (لا)؛ فقيل: نافية، والمنفي محذوف، والتقدير:

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٣) بهذا اللفظ، وتقدم قريبًا تخريجه في الصحيحين.

. . . .

لقد صدق نَوءُ كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥ـ٨٢].

وبلفظه، عن ابن عباس، قال: مُطر الناس على عهد النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «**أصبح من الناس شاكرٌ، ومنهم كافر**». قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نَوءُ كذا وكذا، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿**فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ**﴾.

هذا قسم من الله عز وجل، يقسم بما شاء من خلقه على ما شاء، وجواب القسم ﴿**إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ**﴾ فتكون: لا صلة لتأكيد النفي، فتقدير الكلام: ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر، أو كهانة، بل هو قرآن كريم.

قال ابن جرير: قال بعض أهل العربية: معنى قوله: ﴿فَلا أُقْسِمُ﴾ فليس الأمر كما تقولون، ثم استؤنف القسم بعد، فقيل: أُقسم. ومواقع النجوم، قال ابن عباس: يعني نجوم القرآن، فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العُليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل مُفرَّقًا في السنين بعد[1]، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية. ومواقعها: نزولها شيئًا بعد شيء.

لا صحة لما تزعمون من أن القرآن كذب أو سحر وشعر وكهانة، أقسم بمواقع النجوم إنه لقرآن كريم. فأقسم لا علاقة لها بـ(لا) إطلاقًا، وهذا له بعض الوجه، وقيل: إن المنفي القسم؛ فهي داخلة على أقسم، أي: لا أقسم ولن أقسم على أن القرآن قرآن كريم؛ لأن الأمر أبين من أن يحتاج إلى قسم، وهذا ضعيف جدًا. وقيل: إن (لا) للتنبيه، والجملة بعدها مثبتة لأن (لا) بمعنى انتبه، أقسم بمواقع النجوم. . . وهذا هو الصحيح. فإن قيل: ما الفائدة من إقسامه سبحانه مع أنه صادق بلا قسم؛ لأن القسم إن كان لقوم يؤمنون به ويصدقون كلامه؛ فلا حاجة إليه، وإن كان القوم لا يؤمنون به؛ فلا فائدة منه، قال تعالى: ﴿**وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ**﴾ [البقرة: ١٤٥].

أجيب: أن فائدة القسم من وجوه:

الأول: أن هذا أسلوب عربي لتأكيد الأشياء بالقسم، وإن كانت معلومة عند الجميع، أو كانت منكرة عند المخاطب، والقرآن نزل بلسان عربي مبين.

الثاني: أن المؤمن يزداد يقينًا من ذلك، ولا مانع من زيادة المؤكدات التي تزيد في يقين العبد، قال تعالى عن إبراهيم: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**﴾ [البقرة: ٢٦٠]

الثالث: أن الله يقسم بأمور عظيمة دالة على كمال قدرته وعظمته وعلمه؛ فكأنه يقيم في هذا المُقسم به البراهين على صحة ما أقسم عليه بواسطة عظم ما أقسم به.

---

(١) الآية تدل على أنه ما زال في الكتاب المكنون حتى كان ينزل به جبريل منجمًا. فكان ينزل مباشرة إلى النبي ﷺ ولا مفهوم لما قاله بعض المفسرين: أنه نزل إلى السماء الدنيا مرة ثم كان ينزل بعد ذلك إلى رسول الله ﷺ منها.(ق).

. . . .

وقال مجاهد: مواقع النجوم: مطالعها ومساقطها. واختاره ابن جرير.

وعلىٰ هذا: فتكون المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه ـ وهو القرآن ـ من وجوه:

أحدها: أن النجوم جعلها اللَّه يُهتدىٰ بها في ظُلمات البر والبحر، وآيات القرآن يُهتدىٰ بها في ظلمات الغي والجهل. فتلك هداية في الظلمات الحسية، والقرآن هداية في الظلمات المعنوية، فجمع بين الهدايتين. مع ما في النجوم من الزينة الظاهرة، وفي القرآن من الزينة الباطنة، ومع ما في النجوم من الرجوم للشياطين، وفي القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن.

والنجوم آياته المشهودة العيانية، والقرآن آياته المتلوة السمعية؛ مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة علىٰ آياته القرآنية، ومواقعها عند النزول. ذكره ابن القيم

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ قال ابن كثير: أي: وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم، لو تعلمون عظمته لعظَّمتم المقسم به عليه.

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ هذا هو المقسَم عليه، وهو القرآن، أي: وإنه وحي اللَّه وتنزيله وكلامه، لا كما يقول الكفار: إنه سحر أو كهانة، أو شعر. بل هو قرآن كريم: أي: عظيم كثير الخير، لأنه كلام اللَّه.

الرابع: التنويه بحال المقسم به؛ لأنه لا يقسم إلا بشيء عظيم، وهذان الوجهان لا يعودان إلىٰ تصديق الخبر، بل إلىٰ ذكر الآيات التي أقسم بها تنويهًا له بها وتنبيهًا علىٰ عظمها.

الخامس: الاهتمام بالمقسم عليه، وأنه جدير بالعناية والإثبات.

قوله: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾: اللَّه سبحانه يتحدث عن نفسه بضمير المفرد؛ لأنه يدل علىٰ الانفراد والتوحيد؛ فهو سبحانه واحد لا شريك له، ويتحدث عن نفسه بضمير الجمع؛ لأنه يدل علىٰ العظمة، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقوله ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [يس: ١٢] الآية، ولا يتحدث عن نفسه بالمثنىٰ؛ لأن المثنىٰ محصور باثنين.

والباء حرف قسم، والمواقع جمع موقع.

واختلف في النجوم؛ فقيل: إنها النجوم المعروفة؛ فيكون المراد بمواقعها مطالعها ومغاربها.

وأقسم اللَّه بها؛ لما فيها من الدلالة علىٰ كمال القدرة في هذا الانتظام البديع وما فيها من مناسبة المقسم به والمقسم عليه، وهو القرآن المحفوظ بواسطة الشهب؛ فإن السماء عند نزول الوحي مُلئت حرسًا شديدًا وشهبًا.

وقيل: إن المراد آجال نزول القرآن، ومنه قولهم: «نزل القرآن مُنجَّمًا»، وقول الفقهاء: يجب أن يكون دين المُكَاتَب مؤجلاً بنجمين فأكثر؛ فيكون اللَّه أقسم بمواضع نزول القرآن، وقد سبقت لنا قاعدة مفيدة، وهي أنه إذا كان المعنيان لا يتنافيان تحمل الآية علىٰ كل منهما، وإلا؛ طُلب المرجح.

قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾: ﴿قسم﴾: خبر إن، وهذا القسم أكد اللَّه عظمته بإن واللام تنويهًا بالمُقسم عليه وتعظيمه.

. . . .

قال ابن القيم: فوصفه بما يقتضي حُسنَه، وكثرة خيره ومنافعه وجلالته؛ فإن الكريم هو البهيّ الكثير الخير العظيم النفع، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله.

واللَّه سبحانه وتعالىٰ وصف نفسه بالكرم، ووصف به كلامه، ووصف به عرشه، ووصف به ما كثُر خيره وحسن منظره من النبات وغيره؛ ولذلك فسر السلف، الكريم: بالحسَن.

قال الأزهري: الكريم اسمٌ جامع لما يُحمد، واللَّه تعالىٰ كريم جميل الفعال. وإنه لقرآن كريم يُحمد؛ لما فيه من الهُدىٰ والبيان والعلم والحكمة.

وقوله: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ أي: معظَّم، في كتاب معظم محفوظ موقَّر، قاله ابن كثير.

وقال ابن القيم: اختلف المفسرون في هذا، فقيل: هو اللوح المحفوظ. والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣-١٦]. ويدلُّ علىٰ أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة؛ قوله: ﴿لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ فهذا يدل علىٰ أنه بأيديهم يمسونه.

قوله: ﴿لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ قال ابن عباس: ﴿لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ قال: الكتاب الذي في السماء. وفي رواية: ﴿لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ يعني الملائكة.

وقال قتادة: لا يمسه عند اللَّه إلا المطهرون. فأما في الدنيا: فإنه يمسه المجوسي النجس، والمنافق

وقوله: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾: مؤكِّد ثالث كأنه قال: ينبغي أن تعلموا هذا الأمر ولا تجهلوه؛ فهو أعظم من أن يكون مجهولاً؛ فإنه يحتاج إلىٰ علم وانتباه، فلو تعلمون حق العلم لعرفتم عظمته؛ فانتبهوا.

قوله: ﴿لَقُرْآنٌ﴾: مصدر مثل الغفران والشكران بمعنىٰ اسم الفاعل، وبمعنىٰ اسم المفعول؛ فعلىٰ الأول يكون المراد أنه جامع للمعاني التي تضمنتها الكتب السابقة من المصالح والمنافع، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وعلىٰ الثاني يكون بمعنىٰ المجموع؛ لأنه مجموع مكتوب.

قوله: ﴿كَرِيمٌ﴾ يطلق علىٰ كثير العطاء، وهذا كمال في العطاء متعد للغير، ويطلق علىٰ الشيء البهي الحسن، ومنه قول النبي ﷺ: «وكرائم أموالهم»؛ أي: البهي منها والحسن، وهذا كمال في الذات، وهذان المعنيان موجودان في القرآن؛ فالقرآن لا أحسن منه بذاته قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥].

والقرآن يعطي أهله من الخيرات الدينية والدنيوية والجسمية والقلبية، قال تعالىٰ: ﴿فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، فهو سلاح لمن تمسك به، ولكن يحتاج إلىٰ أن نتمسك به بالقول والعمل والعقيدة؛ فلابد أن يصدق العقيدة العمل، قال ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»، ووصف الله القرآن في آية أخرىٰ بأنه مجيد، والمجد صفة العظمة والعزة والقوة، والقرآن جامع بين الأمرين: فيه قوة وعظمة، وكذا خيرات كثيرة وإحسان لمن تمسك به.

قوله: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ كتاب فعال بمعنىٰ مفعول، مثل: فراش بمعنىٰ مفروش، وغراس بمعنىٰ مغروس، وكتاب بمعنىٰ مكتوب.

....

الرجس. واختار هذا القول كثيرون. منهم ابن القيم، ورجحه.

وقال ابن زيد: زعمت قريش أن هذا القرآن تنزَّلت به الشياطين، فأخبر اللَّه تعالىٰ أنه لا يمسه إلا المطهرون؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢].

قال ابن كثير: هذا قول جيد، وهو لا يخرج عن القول قبله.

وقال البخاري في (صحيحه) ـ في هذه الآية ـ: لا يجد طعمه إلا من آمن به.

قال ابن القيم: هذا من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يتلذذ به، وبقراءته، وفهمه، وتدبره، إلا من يشهد أنه كلام اللَّه تكلم به حقًا، وأنزله علىٰ رسوله وحيًا. لا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه منه حرج، بوجه من الوجوه.

وقال آخرون: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ أي: من الجنابة والحَدَث. قالوا: ولفظ الآية خبر، ومعناه الطلب.

وقالوا: والمراد بالقرآن ها هنا المصحف؛ واحتجوا علىٰ ذلك بما رواه مالك في (الموطأ)، عن عبد اللَّه بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: إن في الكتاب الذي كتبه رسول اللَّه ﷺ

والمكنون: المحفوظ، قال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩].

واختلف المفسرون في هذا الكتاب علىٰ قولين:

الأول: أنه اللوح المحفوظ الذي كتب اللَّه فيه كل شيء.

الثاني: ـ وإليه ذهب ابن القيم ـ أنه الصحف التي في أيدي الملائكة، قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ [عبس: ١١-١٥]؛ فقوله: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ يرجح أن المراد الكتب التي في أيدي الملائكة؛ لأن قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾؛ أي الملائكة، يوازن قوله: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ يكون المراد بالكتاب الجنس لا الواحد.

قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾: الضمير يعود إلىٰ الكتاب المكنون؛ لأنه أقرب شيء، وهو بالرفع ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا﴾ باتفاق القراء، وإنما نبهنا علىٰ ذلك؛ لدفع قول من يقول: إنه خبر بمعنىٰ النهي، والضمير يعود علىٰ القرآن؛ أي نهىٰ أن يمس القرآن إلا طاهر، والآية ليس فيها ما يدل علىٰ ذلك، بل هي ظاهرة في أن المراد به اللوح المحفوظ؛ لأنه أقرب مذكور، ولأنه خبر والأصل في الخبر أن يبقىٰ علىٰ ظاهره خبرًا لا أمرًا ولا نهيًا حتىٰ يقوم الدليل علىٰ خلاف ذلك، ولم يرد ما يدل علىٰ خلاف ذلك، بل الدليل علىٰ أنه لا يرد به إلا ذلك، وأنه يعود إلىٰ الكتاب المكنون، ولهذا قال اللَّه: ﴿إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ باسم المفعول، ولم يقل: إلا المطَّهِّرون، ولو كان المراد المطهرين لقال ذلك، أو قال: إلا المتطهرون؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

والمطهَّرون: هم الذين طهَّرهم اللَّه تعالىٰ، وهم الملائكة، طُهِّروا من الذنوب وأدناسها، قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦].

....

لعمرو بن حزم: «أن لا يمس القرآن إلا طاهر»(١).

وقوله: ﴿تنزيلٌ من ربِّ العالمين﴾ .

قال ابن كثير: أي: هذا القرآن منزل من الله رب العالمين، وليس كما يقولون: إنه سحر وكهانة أو شعر، بل هو الحق الذي لا مرية فيه، وليس وراءه حق نافع. وفي هذه الآية: أنه كلام الله تكلم به.

قال ابن القيم: ونظيره ﴿ولَكِنْ حقَّ القولُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣] وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] هو إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول، وتعرفه الفطر هو وصول الشيء من أعلى إلى أسفل. ولا يرد عليه قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦] لأنا نقول: إن الذي أنزلها فوق سمواته، فأنزلها لنا بأمره.

قال ابن القيم: وذكر التنزيل مُضافًا إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة لملكه لهم وتصرفه فيهم، وحكمه عليهم، وإحسانه وإنعامه عليهم، وأن من هذا شأنه مع الخلق، كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سُدًى، ويدعهم هملاً، ويخلقهم عبثًا. لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يُثيبهم ولا يُعاقبهم؟

وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧]، وفرق بين المطهِّر الذي يريد أن يفعل الكمال بنفسه، وبين المطهَّر الذي كمله غيره وهم الملائكة، وهذا مما يؤيد ما ذهب إليه ابن القيم أن المراد بالكتاب الكتب التي في أيدي الملائكة، وفي الآية إشارة على أن من طهر قلبه من المعاصي كان أفهم للقرآن، وأن من تنجس قلبه بالمعاصي كان أبعد فهمًا عن القرآن؛ لأنه إذا كانت الصحف التي في أيدي الملائكة لم يمكن الله من مسها إلا هؤلاء المطهرين؛ فكذلك معاني القرآن.

فاستنبط شيخ الإسلام من هذه الآية: أن المعاصي سبب لعدم فهم القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٥]، فهم لا يصلون إلى معانيها وأسرارها؛ لأنه ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون.

وقد ذكر بعض أهل العلم: أنه ينبغي لمن استفتي أن يقدم بين يدي الفتوى الاستغفار لمحو أثر الذنب من قلبه حتى يتبين له الحق، واستنبطه من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥، ١٠٦].

قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خبر ثان لقوله: ﴿وإِنَّهُ﴾ وهو كقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢]،

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: ورواه أبو داود في المراسيل من حديث الزهري. قال: قرأت في صحيفة عند أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم إلخ. قال: ومثل هذا لا ينبغي الأخذ به. وقد أسنده الدارقطني عن عمرو بن حزم وعبدالله بن عمر وعثمان بن أبي العاص. وفي إسناد كل منهما نظر. وقال الحافظ في التلخيص الحبير: وقد ضعف النووي وابن كثير في الإرشاد وابن حزم حديث حكيم بن حزام وحديث عمرو بن حزم جميعًا. والضمير في الآية يعود على الكتاب المكنون؛ فهي صريحة في أنهم الملائكة. والمقصود بالآية ما قال ابن زيد: الرد على قريش زعمها أنه تنزلت به الشياطين؛ فليس في الآية دليل ولا شبه دليل لمن يقول إن المصحف لا يمسه إلا طاهر. (ق)

فمن أقر بأنه رب العالمين، أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله، واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله وصحة ما جاء به. وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق، وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس، وتلك إنما تكون لخواص العُقلاء.

قوله: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ قال مجاهد: أي: تريدون أن تمالئوهم فيه، وتركنوا إليهم.

قال ابن القيم: ثم وبَّخهم سبحانه على وضعهم الأدهان في غير موضعها، وأنهم يداهنون فيما حقه أن يُصدع به ويُفرق به، ويُعضَّ عليه بالنواجذ، وتُثنى عليه الخناصر، وتعقد عليه القلوب والأفئدة، ويُحارب ويسالم لأجله، ولا يلتوي عنه يمنة ولا يسرة، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره، ولا محاكمة إلا إليه، ولا مخاصمة إلا به، ولا اهتداء في طرق المطالب العالية إلا بنوره، ولا شفاء إلا به. فهو روح الوجود، وحياة العالم، ومدار السعادة، وفائدة الفلاح، وطريق النجاة، وسبيل الرشاد، ونور البصائر. فكيف تُطلب المداهنة بما هذا شأنه، ولم ينزل للمداهنة، وإنما نزل بالحق وللحق، والمداهنة إنما تكون في باطل قوي لا تُمكن إزالته، أو في حق ضعيف لا تمكن إقامته، فيحتاج المداهن إلى أن يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل. فأما الحق الذي قام به كل حق، فكيف يداهن به؟

وقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ تقدم الكلام عليها أول الباب، والله - سبحانه وتعالى - أعلم.

وكقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ [فصلت: ٢، ٣]؛ فهو خبر مكرر مع قوله: ﴿لَقُرْآنٌ﴾.

وتنزيل؛ أي: منزل؛ فهي مصدر بمعنى اسم المفعول منزل من رب العالمين؛ أنزله الله على قلب النبي ﷺ؛ لأنه محل الوعي والحفظ بواسطة جبريل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أي: خالقهم، ويستفاد من الآية ما يلي:

١ - أن القرآن نازل لجميع الخلق؛ ففيه دليل على عموم رسالة النبي ﷺ.

٢ - أنه نازل من ربهم، وإذا كان كذلك؛ فهو الحكم بينهم الحاكم عليهم.

٣ - أن نزول القرآن من كمال ربوبية الله، فإذا أضيف إلى هذه الآية قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾؛ علم أن القرآن رحمةٌ للعباد أيضًا، وربوبية الله مبنية على الرحمة، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢، ٣]، وكل ما أمر الله به عباده أو نهاهم عنه؛ فهو رحمة بهم.

٤ - أن القرآن كلام الله؛ لأنه إذا كان الله أنزله؛ فهو كلامه لا كلام غيره كما قاله السلف رحمهم الله، وهو غير مخلوق؛ لأن جميع صفات الله حتى الصفات الفعلية ليست مخلوقة.

والقرآن كلام الله منزل غير مخلوق. فإن قيل: هل كل منزل غير مخلوق؟

قلنا: لا، لكن كل منزل يكون وصفًا مضافًا إلى الله؛ فهو غير مخلوق؛ كالكلام، وإلا؛ فإن الله أنزل من السماء ماء وهو مخلوق، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥]، وهو مخلوق، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦] والأنعام مخلوقة، فإذا كان المُنزل من

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الواقعة. الثانية: ذكر الأربع من أمر الجاهلية.

الثالثة: ذكر الكفر في بعضها. الرابعة: أنَّ من الكفر ما لا يخرج عن الملة[1].

....

فلا يتم توحيد العبد حتى يعترف بنعم الله الظاهرة والباطنة عليه وعلى جميع الخلق ويضيفها إليه ويستعين بها على عبادته وذكره وشكره، وهذا الموضع من محققات التوحيد وبه يعرف كامل الإيمان وناقصه.

عند اللَّه صفة لا تقوم بذاتها، وإنما تقوم بغيرها؛ لزم أن يكون غير مخلوق؛ لأنه من صفات اللَّه.

قوله: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾: الاستفهام للإنكار والتوبيخ، والحديث: القرآن، والمُدهن: الخائف من غيره الذي يحابيه بقوله وفعله.

والمعنى: أتدهنون بهذا الحديث وتخافون وتستخفون؟! لا ينبغي لكم هذا، بل ينبغي لمن معه القرآن أن يصدع به وأن يبينه ويجاهد به، قال تعالى: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾: أكثر المفسرين على أنه على حذف مضاف؛ أي: أتجعلون شكر رزقكم؛ أي: ما أعطاكم اللَّه من شيء من المطر ومن إنزال القرآن؛ أي: تجعلون شكر هذه النعمة العظيمة أن تكذبوا بها، والنبي ﷺ وإن كان ذكرها في المطر؛ فإنها تشمل المطر وغيره.

وقيل: إنه ليس في الآية حذف، والمعنى: تجعلون شكركم تكذيبًا، وقال: إن الشكر رزق، وهذا هو الصحيح، بل هو من أكبر الأرزاق، قال الشاعر:

إذا كان شُكري نعمةَ اللَّه نعمة ... عليَّ له في مثلها يجبُ الشُّكر

فكيف بُلوغُ الشُّكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيامُ واتصلَ العُمر

فالنعمة تحتاج إلى شكر، ثم إذا شكرتها؛ فهي نعمة أخرى تحتاج إلى شكر ثانٍ، وإن شكرت في الثانية؛ فهي نعمة تحتاج إلى شكر ثالث، وهكذا أبدًا، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨].

قوله: ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾: ﴿أن﴾ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول تجعلون الثاني؛ أي: تُصيِّرون شكركم تكذيبًا، ولا شك أن هذا من السَّفه أن يقابل الإنسان نعمة ربه بالتكذيب، إن كانت وحيًا كذَّب خبره ولم يمتثل أمره ولم يجتنب نهيه، وإن كانت عطاءً تنمو به الأجسام نسبه إلى غير اللَّه، قال: هذا من النوء أو هذا من عملي؛ كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الواقعة: وهي قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾. وقد مر تفسيرها.

الثانية: ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية: وهي الطعن في الأنساب، والفخر بالأحساب، والاستسقاء بالأنواء، والنياحة على الميت.

---

(١) **قلت:** وهذا مما سبق الإشارة إليه من أن الشيخ رحمه الله يرى أن الكفر كُفران، كفر أكبر يُخرج من الملة، وكُفر أصغر لا يُخرج من الملة، فتنبه، والله الموفق.

الخامسة: قوله: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» بسبب نزول النعمة.
السادسة: التَّفَطُّن للإيمان في هذا الموضع. السابع: التَّفَطُّن للكفر في هذا الموضع.
الثامنة: التَّفَطُّن لقوله: «لقد صدق نوء كذا وكذا».
التاسعة: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها، لقوله: «أتدرون ماذا قال ربكم؟».
العاشرة: وعيد النائحة.

....

الثالثة: ذكر الكفر في بعضها: وهي الاستسقاء بالأنواء، وكذلك الطعن في النسب، والنياحة على الميت؛ كما في حديث: **«اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت»**.

الرابعة: أن من الكفر ما لا يخرج عن الملة: وهي أن الاستسقاء بالأنواء بعضه كفر مخرج عن الملة وبعضه كفر دون ذلك، وقد سبق بيان ذلك.

الخامسة: قوله: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» بسبب نزول النعمة: أي: إن الناس ينقسمون عند نزول النعمة إلى مؤمن بالله وكافر به، وقد سبق بيان حكم إضافة نزول المطر إلى النوء، والواجب على الإنسان إذا جاءته النعمة أن لا يضيفها إلى أسبابها مجردة عن الله، بل يعتقد أن هذا سبب محض إن كان هذا سببًا، مثال ذلك: رجل غرق في ماء، وكان عنده رجل قوي، فنزل وأنقذه؛ فإنه يجب على هذا الذي نجا أن يعرف نعمة الله عليه، ولولا أن الله أمر أمرًا قدريًا وأمرًا شرعيًا أن ينقذك هذا الرجل ما حصل إنقاذ، فأنت تعتقد أن هذا سبب محض. أما إن غرق ويسر الله له فخرج، فقال: إن الولي الفلاني أنقذني؛ فهذا شرك أكبر؛ لأنه سبب غير صحيح، ثم إن إضافته إليه لا يظهر منها أنه يريد أنه سبب، بل يريد أنه منقذ بنفسه؛ لأن اعتقاد أنه سبب وهو في قبره غير وارد، ولذلك كان أصحاب الأولياء إذا نزلت بهم شدة يسألون الأولياء دون الله تعالى؛ فيقعون في الشرك الأكبر من حيث لا يعلمون أو من حيث يعلمون ثم قد يفتنون، فيحصل لهم ما يريدون عند دعاء الأولياء لا به؛ لأننا نعلم أن هؤلاء الأولياء لا يستجيبون لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف: ٥].

السادسة: التفطن للإيمان في هذا الموضع: وهو نسبة المطر إلى فضل الله ورحمته.

السابعة: التفطن للكفر في هذا الموضع: وهو نسبة المطر إلى النوء؛ فيقال: هذا بسبب النوء الفلاني، وما أشبه ذلك.

الثامنة: التفطن لقوله: «لقد صدق نوء كذا وكذا»: وهذا قريب من قوله: **«مطرنا بنوء كذا»** لأن الثناء بالصدق على النوء مقتضاه أن هذا المطر بوعده، ثم بتنفيذ وعده.

التاسعة: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها؛ لقوله: «أتدرون ماذا قال ربكم»: وذلك أن يلقي العالم على المتعلم السؤال؛ لأجل أن ينتبه له، وإلا؛ فالرسول ﷺ يعلم أن الصحابة لا يعلمون ماذا قال الله، لكن أراد أن ينبههم لهذا الأمر؛ فقال: **«أتدرون ماذا قال ربكم؟»** وهذا يوجب استحضار قلوبهم.

٣٠ـ باب قول الله تعالى:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾

قال المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

لما كانت محبته سبحانه هي أصل دين الإسلام الذي يدور عليه قطب رحاه، فبكمالها يكمل، وبنقصها ينقص توحيد الإنسان [نبه المصنف على ذلك بهذه الترجمة].

قوله: باب قول اللَّه تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا ﴾ الآية. قال في (شرح المنازل)[1]: أخبر تعالى أن من أحب من دون اللَّه شيئًا كما يحب اللَّه تعالى، فهو ممن اتخذ من دون اللَّه أندادًا. فهذا ند في المحبة، لا في الخلق والربوبية؛ فإن أحدًا من أهل الأرض لا يُثبت هذا الند. بخلاف ند المحبة، فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون اللَّه أندادًا في الحب والتعظيم.

ثم قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ وفي تقدير الآية قولان:

أحدهما: والذين آمنوا أشد حبًا للَّه من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم، التي يُحبونها ويعظمونها من دون اللَّه. وروى ابن جرير، عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾: مُباهاةً ومضاهاة للحق بالأنداد ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ من الكفار لأوثانهم. ثم روي: عن ابن زيد قال: هؤلاء المشركون أندادهم آلهتهم التي عبدوا مع اللَّه، يحبونهم كما يحب الذين آمنوا اللَّه، والذين آمنوا أشد حبًا للَّه من حبهم آلهتهم. انتهى.

العاشرة: وعيد النائحة: وذلك بقوله: «**إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب**»، وهذا وعيد عظيم.

قوله: باب قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ.... ﴾ [البقرة: ١٦٥].

جعل المؤلف رحمه الله تعالى الآية هي الترجمة، ويمكن أن يُعني بهذه الترجمة باب المحبة. وأصل الأعمال كلها هو المحبة؛ فالإنسان لا يعمل إلا لما يحب؛ إما لجلب منفعة، أو لدفع مضرة، فإذا عمل شيئًا؛ فلأنه يحبه إما لذاته كالطعام، أو لغيره كالدواء.

وعبادة الله مبنية على المحبة، بل هي حقيقة العبادة، إذ لو تعبدت بدون محبة صارت عبادتك قشرًا لا روح فيها، فإن كان الإنسان في قلبه محبة لله وللوصول إلى جنته؛ فسوف يسلك الطريق الموصل إلى ذلك. ولهذا لما أحب المشركون آلهتهم توصلت بهم هذه المحبة إلى أن عبدوها من دون الله أو مع الله.

والمحبة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: محبة عبادة، وهي التي توجب التذلل والتعظيم، وأن يقوم بقلب الإنسان من

---

(١) مدارج السالكين أول الجزء الثالث من طبعة المنار. (ق).

. . . .

والثاني: والذين آمنوا أشد حبًا للّه، من المشركين بالأنداد للّه؛ فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة. والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾؛ فإن فيها قولين أيضًا:

أحدهما: يحبونهم كما يحبون اللّه. فيكون قد أثبت لهم محبة اللّه، ولكنها محبة شركوا فيها مع اللّه تعالى أندادهم.

والثاني: أن المعنى: يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون اللّه، ثم بين تعالى أن محبة المؤمنين للّه أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللّه تعالى ـ يُرجح القول الأول، ويقول: إنما ذُمُّوا بأن شركوا بين اللّه وبين أندادهم في المحبة، ولم يُخلصوها للّه كمحبة المؤمنين له. وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم، وهم في النار، أنهم يقولون لآلهتهم وأندادهم وهي محضرة معهم في العذاب: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

ومعلوم أنهم لم يُسوّوهم برب العالمين في الخلق والربوبية[1]، وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم.

وهذا أيضًا هو العدل المذكور في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]. أي: يعدلون به غيره في العبادة، التي هي المحبة والتعظيم.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وهذه تُسمّى آية المحنة. قال بعض السلف: ادّعى قوم محبة اللّه، فأنزل اللّه عز وجل آية المحنة ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ إشارة إلى دليل المحبة، وثمرتها وفائدتها. فدليلها وعلامتها: اتباع الرسول ﷺ، وفائدتها وثمرتها: محبة المُرسل لكم، فما لم تحصل المتابعة فلا محبة له حاصلة، ومحبته لكم منتفية. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

إجلال المحبوب وتعظيمه ما يقتضي أن يمتثل أمره ويجتنب نهيه، وهذه خاصة بالله، فمن أحب مع الله غيره محبة عبادة؛ فهو مشرك شركًا أكبر، ويعبر العلماء عنها بالمحبة الخاصة.

القسم الثاني: محبة ليست بعبادة في ذاتها، وهذه أنواع:

النوع الأول: المحبة لله وفي الله، وذلك بأن يكون الجالب لها محبة الله؛ أي: كون الشيء محبوبًا لله تعالى من أشخاص؛ كالأنبياء، والرسل، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

أو أعمال؛ كالصلاة والزكاة، وأعمال الخير، أو غير ذلك.

وهذا النوع تابع للقسم الأول الذي هو محبة الله.

النوع الثاني: محبة إشفاق ورحمة، وذلك كمحبة الولد، والصغار، والضعفاء، والمرضى.

---

(١) في قرة العيون: وقد وقع الشرك في الربوبية أيضًا في كثير من الخاصة والعامة في آخر هذه الأمة فاعتقدوا أن لهؤلاء الأموات تصرفًا في الكون ونحو ذلك. (ق).

. . . .

أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] وذكر لهم أربع علامات:

أحدها: أنهم أذلة على المؤمنين، قيل معناه: أرقَّاء رُحماء مشفقين عليهم، عاطفين عليهم. فلما ضمن أذلة هذا المعنى عدَّاه بالأداة على، قال عطاء ـ رحمه الله ـ: للمؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيده. وعلى الكافرين كالأسد على فريسته ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

العلامة الثالثة[1]: الجهاد في سبيل الله تعالى، بالنفس واليد واللسان والمال. وذلك يُحقِّق دعوى المحبة.

العلامة الرابعة: أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم، وهذا علامة صحة المحبة.

فكل محب أخذه اللوم على محبوبه فليس بمحب على الحقيقة.

وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فذكر المقامات الثلاثة: الحب: وهو ابتغاء القُرب إليه، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة. والرجاء والخوف يدلُّ على أن ابتغاء الوسيلة أمرٌ زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب.

ومن المعلوم قطعًا أنه لا يتنافس إلا في قرب من يحب قربه، وحبُّ قربه تبع لمحبة ذاته، بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه.

وعند الجهمية والمعطِّلة: ما من ذلك كله شيء؛ فإنه عندهم لا تقربُ ذاته من شيء، ولا يقرب من ذاته شيء، ولا يُحبُّ لذاته ولا يُحِب. فأنكروا حياة القلوب، ونعيم الأرواح، وبهجة النفوس، وقرَّة العيون، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة. ولذلك ضُربت قلوبهم بالقسوة، وضُرب دونهم ودون

النوع الثالث: محبة إجلال وتعظيم لا عبادة؛ كمحبة الإنسان لوالده، ولمعلمه، ولكبير من أهل الخير.

النوع الرابع: محبة طبيعية، كمحبة الطعام، والشراب، والملبس، والمركب، والمسكن.

وأشرف هذه الأنواع النوع الأول، والبقية من قسم المباح؛ إلا إذا اقترن بها ما يقتضي التعبد صارت عبادة؛ فالإنسان يحب والده محبة إجلال وتعظيم، وإذا اقترن بها أن يتعبد لله بهذا الحب من أجل أن يقوم ببر والده صارت عبادة، وكذلك يحب ولده محبة شفقة، وإذا اقترن بها ما يقتضي أن يقوم بأمر الله بإصلاح هذا الولد صارت عبادة.

وكذلك المحبة الطبيعية؛ كالأكل والشرب والملبس والمسكن إذا قصد بها الاستعانة على عبادة صارت عبادة ولهذا «حُبِّب للنبي ﷺ النساء والطيب»[2] من هذه الدنيا؛ فحُبب إليه النساء؛ لأن ذلك مقتضى الطبيعة ولما يترتب عليه من المصالح العظيمة، وحبب إليه الطيب؛ لأنه ينشط النفس ويريحها ويشرح الصدر، ولأن الطيبات للطيبين، والله طيب لا يقبل إلا طيبًا. فهذه الأشياء إذا اتخذها الإنسان بقصد العبادة صارت عبادة، قال النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»[3]، وقال العلماء:

---

(١) لم يذكر الثانية. ولعله اكتفى بما في كلام عطاء من الإشارة إليها بقوله: وعلى الكافرين أشد. (ق).

(٢) حسن: رواه النسائي (٣٩٤٠)، وأحمد (١١٨٨٤، ١٢٦٤٤، ١٣٦٢٣)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٥٢٦١).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

. . . .

اللَّه حجاب على معرفته ومحبته. فلا يعرفونه ولا يحبونه، ولا يذكرونه إلا عند تعطيل أسمائه وصفاته. فذكرهم أعظم آثامهم وأوزارهم، بل يُعاقبون من يذكره بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله، ويرمونهم بالأدواء التي هم أحق بها وأهلها. وحسْبُ ذي البصيرة وحياة القلب، ما يرى على كلامهم من القسوة والمقت والتنفير عن محبة اللَّه تعالى ومعرفته وتوحيده. واللَّه المستعان.

وقال ـ رحمه اللَّه ـ أيضًا: لا تُحدُّ المحبة بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاءً. فحدُّها وجودُها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة. وإنما يتكلم الناس في أسبابها، وموجباتها، وعلاماتها، وشواهدها، وثمراتها، وأحكامها.

وأجمع ما قيل في ذلك، ما ذكره أبو بكر الكتَّاني ـ رحمه اللَّه ـ، عن الجُنَيد:

قال أبو بكر: جرت مسألة في المحبة بمكة ـ أعزها اللَّه ـ في أيام الموسم، فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجُنيد أصغرهم سنًا، فقالوا: هات ما عندك يا عراقي، فأطرق رأسه، ودمعت عيناه، ثم قال: عبدٌ ذاهبٌ عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه. أحرق قلبَه نورُ هيبته، وصفا شِربُه من كأس مودته، وانكشف له الجبار من أستار غيبه. فإن تكلم فباللَّه، وإن نطق فعن اللَّه، وإن تحرك فبأمر اللَّه، وإن سكن فمع اللَّه. فهو باللَّه وللَّه، ومع اللَّه. فبكى الشيوخ، وقالوا: ما على هذا مزيد، جبرك اللَّه يا تاج العارفين!

وذكر ـ رحمه اللَّه ـ: أن الأساليب الجالبة للمحبة عشرة:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه، وما أريد به.

الثاني: التقرُّب إلى اللَّه بالنوافل بعد الفرائض.

الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب، والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر هذا.

إن ما لا يتم الواجب إلا به؛ فهو واجب، وقالوا: الوسائل لها أحكام المقاصد، وهذا أمر متفق عليه.

وقد ذكر المؤلف رحمه الله في هذا الباب آيتين:

الأولى التي ترجم بها وهي قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾: ﴿مِن﴾ تبعيضية، ومجرورها خبر مقدم، و﴿مَن يَتَّخِذُ﴾ مبتدأ مؤخر.

قوله: ﴿أَندَادًا﴾: جمع ند، وهو الشبيه والنظير.

قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾: أي: في كيفيته ونوعه؛ فالنوع أن يحب غير الله محبة عبادة.

والكيفية: أن يحبه كمحبة الله أو أشد، حتى إن بعضهم يعظم محبوبه ويغار له أكثر مما يعظم الله ويغار لله، فلو قيل: احلف بالله؛ لحلف، وهو كاذب ولم يبال، ولو قيل: احلف بالند، لم يحلف، وهو كاذب، وهذا شرك أكبر.

وقوله: ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾: للمفسرين فيها قولان:

الأول: أنها على ظاهرها، وأنها مضافة إلى مفعولها؛ أي: يحبونهم كحبهم لله، والمعنى يحبون هذه الأنداد كمحبة الله، فيجعلونها شركاء لله في المحبة، لكن الذين آمنوا أشد حبًا لله من هؤلاء لله، وهذا هو الصواب.

الرابع: إيثار محابّه على محابِّك عند غلبات الهوى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها وتقلُّبه في رياض هذه المعرفة وميادينها.

السادس: مشاهدة برّه وإحسانه، ونعمه الظاهرة والباطنة.

السابع: -وهو أعجبُها-: انكسار القلب بين يديه.

الثامن: الخلوةُ وقت النزول الإلهي(١)، وتلاوة كتابه ثم ختمُ ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب كلماتهم، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيدًا لحالك ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين اللَّه عز وجل.

فمن هذه الأسباب العشرة: وصل المُحبُّون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب.

الثاني: أن المعنى كحب الله الصادر من المؤمنين.

أي: كحب المؤمنين لله؛ فيحبون هذه الأنداد كما يحب المؤمنون الله -عز وجل-.

وهذا وإن احتمله اللفظ، لكن السياق يأباه؛ لأنه لو كان المعنى ذلك؛ لكان مناقضًا لقوله تعالى فيما بعد: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾. وكانت محبة المؤمنين لله أشد؛ لأنها محبة خالصة ليس فيها شرك؛ فمحبة المؤمنين أشد من حب هؤلاء لله.

فإن قيل: قد ينقدح في ذهن الإنسان أن المؤمنين يحبون هذه الأنداد نظرًا لقوله: ﴿أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾؛ فما الجواب؟

أجيب: أن اللغة العربية يجري فيها التفضيل بين شيئين وأحدهما خال منه تمامًا، ومنه قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، مع أن مستقر أهل النار ليس فيه خير، وقال تعالى: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، والطرف الآخر ليس فيه شيء من هذه الموازنة، ولكنها من باب مخاطبة الخصم بحسب اعتقاده.

مناسبة الآية لباب المحبة:

منع الإنسان أن يحب أحدًا كمحبة الله؛ لأن هذا من الشرك الأكبر المخرج عن الملة.

وهذا يوجد في بعض العُبَّاد وبعض الخدم؛ فبعض العباد يُعظِّمون ويحبون بعض القبور أو الأولياء كمحبة الله أو أشد، وكذلك بعض الخدم تجدهم يحبون هؤلاء الرؤساء أكثر مما يحبون الله ويعظمونهم أكثر مما يعظمون الله، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الاحزاب: ٦٧، ٦٨].

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾.

---

(١) وذلك إذا مضى ثلثا الليل كما في حديث النزول.(ق).

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

قال المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ: وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

أمر اللَّه نبيه ﷺ أن يتوعد من أحب أهله وماله وعشيرته، وتجارته ومسكنه، فآثرها أو بعضها على فعل ما أوجبه اللَّه عليه من الأعمال، التي يُحبها اللَّه تعالى ويرضاها، كالهجرة والجهاد ونحو ذلك.

قال العماد ابن كثير: أي: إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ أي: انتظروا ماذا يحلُّ بكم من عقابه.

روى الإمام أحمد، وأبو داود ـ واللفظ له ـ من حديث أبي عبد الرحمن الخُراساني، عن عطاء الخراساني، عن نافع، عن ابن عمر، قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى تُراجعوا دينكم**»[1].

فلابد من إيثار ما أحبه اللَّه من عبده وأراده، على ما يحبه العبد ويريده، فيحب ما يحبه اللَّه، ويبغض ما يبغضه اللَّه، ويُوالي فيه ويُعادي فيه، ويُتابع رسوله ﷺ، كما تقدم في آية المحنة، ونظائرها.

باب قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]

أصل التوحيد وروحه إخلاص المحبة لله وحده وهي أصل التأله والتعبد له، بل هي حقيقة العبادة ولا يتم التوحيد حتى تكمل محبة العبد لربه، وتسبق محبته جميع المحاب وتغلبها ويكون لها الحكم عليها بحيث تكون سائر محاب العبد تبعًا لهذه المحبة التي بها سعادة العبد وفلاحه.

﴿آبَاؤُكُمْ﴾ اسم كان، وباقي الآية مرفوع معطوف عليه، وخبر كان ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، والخطاب في قوله: ﴿قُلْ﴾ للرسول ﷺ والمخاطب في قوله: ﴿آبَاؤُكُمْ﴾ الأمة والأمر في قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ يراد به التهديد. أي: انتظروا عقاب الله.

ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ بإهلاك هؤلاء المؤثرين لمحبة هؤلاء الأصناف الثمانية على محبة الله ورسوله وجهاد في سبيله. فدلت الآية على أن محبة هؤلاء وإن كانت من غير محبة العبادة إذا فُضلت على محبة الله صارت سببًا للعقوبة. ومن هنا نعرف أن الإنسان إذا كان يهمل أوامر الله لأوامر والده؛ فهو يحب أباه أكثر من ربه.

---

(١) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١١)، و العينة: أن يبيع شيئًا من غيره بثمن مؤجل، ويسلمه إلى المشتري، ثم يشتريه قبل قبض الثمن بثمن أقل من ذلك القدر يدفعه نقدًا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فهذا مع التواطؤ يبطل البيعين، لأنه حيلة.

وعن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» أخرجاه[١].

قال المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ: وعن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» أخرجاه.

أي: البخاري، ومسلم. قوله: «**لا يؤمن أحدكم**» أي: الإيمان الواجب، والمراد كماله، حتى يكون الرسول أحب إلى العبد من ولده ووالده والناس أجمعين. بل ولا يحصل هذا الكمال إلا بأن يكون الرسول أحب إليه من نفسه؛ كما في الحديث: أن عمر قال: لأنت يا رسول الله أحبُّ إليَّ من كل شيء إلا نفسي، فقال: «**والذي نفسي بيده، حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك**» فقال له عمر: فإنك الآن أحب إليَّ من نفسي، فقال: «**الآن يا عمر**»[٢]. رواه البخاري. فمن قال: إن المنفي

وما في القلوب وإن كان لا يعلمه إلا الله، لكن له شاهد في الجوارح، ولذا يروى عن الحسن رحمه الله أنه قال: «ما أسرَّ أحد سريرة إلا أظهرها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه»؛ فالجوارح مرآة القلب.

فإن قيل: المحبة في القلب ولا يستطيع الإنسان أن يملكها.

ولهذا يروى عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «**اللهم إن هذا قَسمي فيما أملك؛ فلا تلمني فيما لا أملك**»[٣].

وكيف للإنسان أن يحب شيئًا وهو يبغضه، وهل هذا إلا من محاولات جعل الممتنع ممكنًا؟

أجيب: أن هذا إيراد ليس بوارد؛ فالإنسان قد تنقلب محبته لشيء كراهة وبالعكس، إما لسبب ظاهر أو لإرادة صادقة.

فمثلاً: لك صديق تحبه فيسرق منك وينتهك حرمتك، فتكرهه لهذا السبب، أو لإرادة صادقة، كرجل يحب شرب الدخان، فصار عنده إرادة صادقة وعزيمة ثابتة، فكره الدخان، فأقلع عنه.

وقال عمر رضي الله عنه للنبي ﷺ: «إنك لأحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي» قال النبي ﷺ: «**لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك**». قال: الآن والله لأنت أحب إلى من نفسي. فقال النبي ﷺ: «**الآن يا عمر**»[٤]؛ فقد ازدادت محبة عمر رضي الله عنه للنبي ﷺ.

وأقره النبي ﷺ على أن الحب قد يتغير.

وربما تسمع عن شخص كلامًا وأنت تحبه فتكرهه، ثم يتبين لك أن هذا الكلام كذب؛ فتعود محبتك إياه.

قوله في حديث أنس: «لا يؤمن»: هذا نفي للإيمان، ونفي الإيمان تارة يراد به نفي الكمال الواجب، وتارة يراد به نفي الوجود؛ أي: نفي الأصل.

والمنفي في هذا الحديث هو كمال الإيمان الواجب؛ إلا إذا خلا القلب من محبة الرسول ﷺ

---

(١) صحيح: رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).
(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٦٣٢).
(٣) ضعيف: رواه أبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠)، والنسائي (٣٩٤٣)، وابن ماجه (١٩٧١)، وأحمد (٢٤٥٨٧)، وضعفه العلامة الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٤٥٩٣)، وغاية المرام (٢٣٠).
(٤) صحيح: رواه البخاري (٦٦٣٢)، وأحمد (١٧٥٨٦، ١٨٤٨٢، ٢١٩٩٧).

. . . .

هو الكمال، فإن أراد الكمال الواجب الذي يُذمُّ تاركه ويعرَّض للعقوبة، فقد صدق. وإن أراد أن المنفي الكمال المُستحب، فهذا لم يقع قط في كلام اللَّه ورسوله ﷺ. قاله شيخ الإسلام.

فمن ادعىٰ محبة النبي ﷺ بدون متابعة، وتقديم قوله علىٰ قول غيره فقد كَذَب؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٤٧]. فنفى الإيمان عمن تولىٰ عن طاعة الرسول ﷺ، لكن كل مسلم يكون محبًا بقدر ما معه من الإسلام، وكل مسلم لابد أن يكون مؤمنًا وإن لم يكن مؤمنًا الإيمان المطلق؛ لأن ذلك لا يحصل إلا لخواص المؤمنين.

قال شيخ الإسلام: وعامةُ الناس إذا أسلموا بعد كُفْر، أو وُلِدوا علىٰ الإسلام والتزموا شرائعه، وكانوا من أهل الطاعة للَّه ورسوله، فهم مسلمون ومعهم إيمان مُجْمل. لكن دخول حقيقة الإيمان إلىٰ قلوبهم يحصل شيئًا فشيئًا، إن أعطاهم اللَّه ذلك، وإلا فكثير من الناس لا يصلون إلىٰ اليقين، ولا إلىٰ الجهاد. ولو شُكّكوا لشكوا، ولو أُمروا بالجهاد لما جاهدوا؛ إذ ليس عندهم من علم اليقين ما يدرأُ الريب، ولا عندهم من قوة الحب للَّه ورسوله ما يُقدِّمونه علىٰ الأهل والمال. فهؤلاء إن عوفوا من المحنة، وماتوا دخلوا الجنة، وإن ابتلوا بمن يُدخل عليهم شبهات تُوجب ريبتهم، فإن لم يُنعم اللَّه عليهم بما يُزيل الريب، وإلا صاروا مُرتابين، وانتقلوا إلىٰ نوع من النفاق. انتهىٰ.

وفي الحديث: أن الأعمال من الإيمان؛ لأن المحبة عمل القلب.

إطلاقًا؛ فلا شك أن هذا نفي لأصل الإيمان.

قوله: «من ولده»: يشمل الذكر والأنثىٰ، وبدأ بمحبة الولد؛ لأن تعلق القلب به أشد من تعلقه بأبيه غالبًا.

قوله: «ووالده»: يشمل أباه، وجده وإن علا، وأمه، وجدته وإن علت.

قوله: «والناس أجمعين»: يشمل إخوته وأعمامه وأبناءهم وأصحابه ونفسه؛ لأنه من الناس؛ فلا يتم الإيمان حتىٰ يكون الرسول أحب إليه من جميع المخلوقين. وإذا كان هذا في محبة رسول الله ﷺ؛ فكيف بمحبة الله تعالىٰ؟!! ومحبة رسول الله ﷺ تكون لأمور:

الأول: أنه رسول الله، وإذا كان الله أحب إليك من كل شيء؛ فرسوله أحب إليك من كل مخلوق.

الثاني: لِمَا قام به من عبادة الله وتبليغ رسالته.

الثالث: لِما آتاه الله من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

الرابع: أنه سبب هدايتك وتعليمك وتوجيهك.

الخامس: لصبره علىٰ الأذىٰ في تبليغ الرسالة.

السادس: لبذل جهده بالمال والنفس لإعلاء كلمة الله.

ويستفاد من هذا الحديث ما يلي:

١ ـ وجوب تقديم محبة الرسول ﷺ علىٰ محبة النفس.

٢ ـ فداء الرسول ﷺ بالنفس والمال؛ لأنه يجب أن تقدم محبته علىٰ نفسك ومالك.

....

وفيه: أن محبة الرسول ﷺ واجبة، تابعة لمحبة اللّه ولأجله، تزيد بزيادة محبة اللّه في قلب المؤمن وتنقص بنقصها. وكل من كان محبًا للّه فإنما يُحب في اللّه ولأجله، كما يُحبُّ الإيمان والعمل الصالح. وهذه المحبة ليس فيها شيء من شوائب الشرك، كالاعتماد عليه ورجائه في حصول مرغوب منه أو دفع مرهوب. وما كان فيها ذلك، فمحبة مع اللّه؛ لما فيها من التعلق على غيره، والرغبة إليه من دون اللّه. فبهذا يحصل التمييز بين المحبة في اللّه ولأجله ـ التي هي من كمال التوحيد ـ وبين المحبة مع اللّه التي هي محبة الأنداد من دون اللّه؛ لما يتعلق بقلوب المُشركين من الإلهية، التي لا تجوز إلا للّه وحده لا شريك له.

---

٣ ـ أنه يجب على الإنسان أن ينصر سنة رسول الله ﷺ ويبذل لذلك نفسه وماله وكل طاقته؛ لأن ذلك من كمال محبة رسول الله ﷺ، ولذلك قال بعض أهل العلم في قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]؛ أي: مبغضك، قالوا: وكذلك من أبغض شريعته ﷺ؛ فهومقطوع لا خير فيه.

٤ ـ جواز المحبة التي للشفقة والإكرام والتعظيم؛ لقوله ﷺ «أحب إليه من ولده ووالده...»؛ فأثبت أصل المحبة، وهذا أمرٌ طبيعي لا ينكره أحد.

٥ ـ وجوب تقديم قول الرسول ﷺ على قول كل الناس؛ لأن من لازم كونه أحب من كل أحد أن يكون قوله مقدمًا على كل أحد من الناس؛ حتى على نفسك، فمثلاً: أنت تقول شيئًا وتهواه وتفعله، فيأتي إليك رجل ويقول لك: هذا يخالف قول الرسول ﷺ، فإذا كان الرسول أحب إليك من نفسك؛ فأنت تنتصر للرسول أكثر مما تنتصر لنفسك، وتردّ على نفسك بقول الرسول ﷺ؛ فتدع ما تهواه من أجل طاعة الرسول ﷺ، وهذا عنوان تقديم محبته على محبة النفس، ولهذا قال بعضهم:

تعصي الإله وأنت تزعُم حبَّهَ ... هذا لعَمري في القياس بديعُ
لو كان حُبُّك صادقًا لأطعتَه ... إن المحبَّ لمن يحبُّ مُطيع

إذًا يؤخذ من هذا الحديث وجوب تقديم قول الرسول ﷺ على قول كل الناس حتى على قول أبي بكر وعمر وعثمان، وعلى قول الأئمة الأربعة ومن بعدهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. لكن إذا وجدنا حديثًا يخالف الأحاديث الأخرى الصحيحة أو مخالفًا لقول أهل العلم وجمهور الأمة؛ فالواجب التثبت والتأني في الأمر؛ لأن اتباع الشذوذ يؤدي إلى الشذوذ. ولهذا إذا رأيت حديثًا يخالف ما عليه أكثر الأمة أو يخالف الأحاديث الصحيحة التي كالجبال في رسوِّها؛ فلا تتعجل في قبوله، بل يجب عليك أن تراجع وتطالع في سنده حتى يتبين لك الأمر، فإذا تبين؛ فإنه لا بأس أن يُخصصَ الأقوى بأضعف منه إذا كان حجة؛ فالمهم التثبت في الأمر، وهذه القاعدة تنفعك في كثير من الأقوال التي ظهرت أخيرًا، وتركها الأقدمون وصارت محل نقاش بين كثير؛ فإنه يجب اتباع هذه القاعدة، ويقال: أين الناس من هذه الأحاديث؟ ولو كانت هذه الأحاديث من شريعة الله؛ لكانت منقولة باقية معلومة مثل ما ذكر أن الإنسان إذا لم يطف طواف الإفاضة قبل أن تغرب الشمس يوم العيد؛ فإنه يعود محرمًا،

ولهما عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث مَنْ كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يُقذف في النار».

قال المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ: ولهما عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث مَنْ كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يُقذف في النار».

وفي رواية: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى» إلى آخره.

قوله: (ولهما عنه). أي: البخاري ومسلم، عن أنس.

قوله: «ثلاث» أي: ثلاث خصال.

قوله: «من كن فيه» أي: وجدت فيه تامة.

فإن هذا الحديث[1] وإن كان ظاهر سنده الصحة؛ لكنه ضعيف وشاذ، ولهذا لم يُذكر أنه عمل به إلا رجل أو رجلان من التابعين، وإلا؛ فالأمة على خلافه؛ فمثل هذه الأحاديث يجب أن يتحرى الإنسان فيها ويتثبت، ولا نقول: إنها لا يمكن أن تكون صحيحة.

مناسبة هذا الحديث للباب:

مناسبة هذا الحديث ظاهرة؛ إذ محبة الرسول ﷺ من محبة الله، ولأنه إذا كان لا يكمل الإيمان حتى يكون الرسول ﷺ أحب إلى الإنسان من نفسه والناس أجمعين؛ فمحبة الله أولى وأعظم.

قوله في حديث أنس الثاني: «ثلاث من كن فيه»: أي: ثلاث خصال، و «كن» بمعنى وجدن فيه. وإعراب **«ثلاث»**: مبتدأ، وجاز الابتداء بها؛ لأنها مفيدة على حد قول ابن مالك:

ولا يجوز الابتداء بالنكرة ... ما لم تفد.....

وقوله: «من كنَّ فيه»: «من»: شرطية، و**«كنَّ»**: أصلها كان؛ فتكون فعلاً ماضيًا ناسخًا، والنون اسمها، و **«فيه»**: خبرها.

قوله: «وجد بهن»: وَجَدَ: فعل ماضٍ في محل جزم جواب الشرط، والجملة من فعل الشرط وجوابه في محل رفع خبر المبتدأ.

وقوله: «وجد بهن حلاوة الإيمان»: الباء للسببية، وحلاوة: مفعول وجد، وحلاوة الإيمان: ما يجده الإنسان في نفسه وقلبه من الطمأنينة والراحة والانشراح، وليست مُدركة باللعاب والفم؛

---

(١) رواه أبو داود (١٩٩٩)، وقال شيخ الإسلام ابن القيم الجوزية في تعليقاته على سنن أبي داود: هذا الحديث يرويه ابن إسحاق عن أبي عبيدة بن عبد الله بن زمعة عن أبيه وعن أمه زينب بنت أبي سلمة يحدثانه عن أم سلمة، . . . وهذا يدل على أن الحديث محفوظ فإن أبا عبيدة رواه عن أبيه وعن أمه وعن أم قيس وقد استشكله الناس، قال البيهقي: وهذا حكم لا أعلم أحدًا من الفقهاء يقول به. اهـ، والحديث صححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١/٢٢٥٨).

. . . .

قوله: «وجد بهن حلاوة الإيمان» الحلاوة هنا: هي التي يُعبَّر عنها بالذوق؛ لما يحصل به من لذة القلب، ونعيمه وسروره وغذائه، وهو شيء محسوس يجده أهل الإيمان في قلوبهم.

قال السيوطي في (التوشيح): وجد حلاوة الإيمان. فيه: استعارة تخييلية. شبَّه رغبة المؤمن في الإيمان بشيء حلو، وأثبت له لازم ذلك الشيء، وأضافه إليه.

وقال النووي: معنىٰ حلاوة الإيمان: استلذاذ الطاعات وتحمُّل المشاق، وإيثار ذلك علىٰ أغراض الدنيا، ومحبة العبد للَّه بفعل طاعته وترك مخالفته، وكذلك الرسول ﷺ.

قال يحيىٰ بن معاذ: حقيقة الحب في اللَّه: أن لا يزيد بالبر، ولا ينقص بالجفاء.

قوله: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» يعني بالسِّوىٰ: ما يحبُّه الإنسان بطبعه، كمحبة الولد والمال والأزواج ونحوها، فتكون: أحب هنا علىٰ بابها.

[وقال الخطابي: والمراد بالمحبة هنا: حُبُّ الاختيار لا حب الطبع. كذا قال].

وأما المحبة الشركية ـ التي قد تقدم بيانها ـ فقليلها وكثيرها ينافي محبة اللَّه ورسوله. وفي بعض الأحاديث: «أحبوا الله بكل قلوبكم».

فمن علامات محبة اللَّه ورسوله: أن يحب ما يحبه اللَّه ويكره ما يكرهه اللَّه، ويؤثر مرضاته علىٰ ما سواه، ويسعىٰ في ما يرضيه ما استطاع، [ويبعد عما حرمه ويكرهه أشد الكراهة]، ويتابع رسوله ويمتثل أمره ويترك نهيه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. فمن آثر أمر غيره علىٰ أمره، وخالف ما نهىٰ عنه، فذلك عَلَمٌ علىٰ عدم محبة اللَّه ورسوله؛ فإن محبة الرسول من لوازم محبة اللَّه. فمن أحب اللَّه وأطاعه أحب الرسول وأطاعه، ومن لا فلا؛ كما في آية المحنة ونظائرها، واللَّه المستعان.

قال شيخ الإسلام: أخبر النبي ﷺ أن هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ لأن وجود الحلاوة للشيء يتبع المحبة له. فمن أحب شيئًا واشتهاه، إذا حصل له مراده، فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك، واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذي هو المحبوب والمشتهىٰ. قال: فحلاوة الإيمان المتضمنة للّذة والفرح، تتبع كمال محبة العبد للَّه. وذلك بثلاثة أمور: تكميل هذه المحبة، وتفريغها، ودفع ضدها. فتكميلها: أن يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما؛ [فإن محبة اللَّه ورسوله لا يُكتفىٰ فيها بأصل الحب، بل لابد أن يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما].

فالمقصود بالحلاوة هنا الحلاوة القلبية.

الخصلة الأولى من الخصال الواردة في الحديث: قوله: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»: الرسول محمد ﷺ، وكذا جميع الرسل تجب محبتهم.

قوله: «أحبَّ إليه مما سواهما»: أي: أحب إليه من الدنيا كلها ونفسه وولده ووالده وزوجه وكل شيء سواهما، فإن قيل: لماذا جاء الحديث بالواو «الله ورسوله» وجاء الخبر لهما جميعًا «أحب إليه مما سواهما». فالجواب: لأن محبة الرسول ﷺ من محبة الله، ولهذا جُعل قوله: أشهد أن لا إله إلا الله

وفي روايه: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى....» إلى آخره[١].

قلت: ومحبة اللَّه تعالىٰ تستلزم محبة طاعته؛ فإنه يحب من عبده أن يطيعه والمحبُّ يحب ما يحبه محبوبه ولابد.

ومن لوازم محبة اللَّه أيضًا: محبة أهل طاعته، كمحبة أنبيائه ورسله والصالحين من عباده. فمحبة ما يحبه اللَّه، ومن يحبه اللَّه من كمال الإيمان؛ كما في حديث ابن عباس الآتي.

قال: وتفريغها: أن يحب المرء لا يحبه إلا للَّه، قال: ودفع ضدها: أن يكره ضد الإيمان، كما يكره أن يُقذف في النار. انتهىٰ.

قوله: «أحب إليه مما سواهما» فيه جمع ضمير الرب-سبحانه وتعالىٰ-وضمير رسوله ﷺ، وفيه قولان.

أحدهما: أنه ثنىٰ الضمير هنا، إيماءً إلىٰ أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين. لا كل واحدة، فإنها وحدها لاغية. وأمر بالإفراد في حديث الخطيب[٢]، إشعاراً بأن كل واحد من العصيانين مستقل باستلزام الغواية؛ إذ العطف في تقدير التكرير، والأصل استقلال كل من المعطوفين في الحكم.

الثاني: حملُ حديث الخطيب علىٰ الأدب والأولىٰ، وهذا علىٰ الجواز.

وجواب ثالث: وهو أن هذا ورد علىٰ الأصل، وحديث الخطيب ناقل فيكون أرجح.

قوله: «كما يكره أن يُقذف في النار» أي: يستوي عنده الأمران. وفيه: رد علىٰ الغلاة الذين يتوهمون أن صدور الذنب من العبد نقص في حقه مطلقًا، وإن تاب منه.

والصواب: أنه إن لم يتب كان نقصًا، وإن تاب فلا؛ ولهذا كان المهاجرون والأنصار أفضل هذه الأمة، مع كونهم

وأن محمداً رسول الله ركنًا واحدًا؛ لأن الإخلاص لا يتم إلا بالمتابعة التي جاءت عن طريق النبي ﷺ.

الخصلة الثانية: قوله: «وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله»: قوله: «وأن يحب المرء» يشمل الرجل والمرأة.

قوله: «لا يحبه إلا لله»: اللام للتعليل؛ أي: من أجل الله؛ لأنه قائم بطاعة الله-عز وجل-، وحب الإنسان للمرء له أسباب كثيرة: يحبه للدنيا ويحبه للقرابة، ويحبه للزمالة، ويحب المرء زوجته للاستمتاع، ويحب من أحسن إليه، لكن إذا أحببت هذا المرء لله؛ فإن ذلك من أسباب وجود حلاوة الإيمان.

الخصلة الثالثة: قوله: «وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»: هذه الصورة في كافر أسلم؛ فهو يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار، وإنما

---

(١) صحيح: رواه البخاري (١٦، ٢١، ٦٠٤١، ٦٩٤١)، ومسلم (٤٣).

(٢) وذلك ما رواه مسلم وأبو داود والنسائي من حديث عدي بن حاتم: (أن خطيبًا خطب عند النبي ﷺ فقال: من يطع الله تعالى ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى. فقال له ﷺ: «بئس الخطيب أنت.قل: من يعص الله تعالى ورسوله فقد غوى».

قال النووي: سبب الإنكار عليه أن الخطبة شأنها البسط والإيضاح، واجتناب الإشارات والرموز. قال: ولهذا ثبت أن رسول الله كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا لتفهم عنه، قال: وإنما ثنى الضمير في قوله: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» لأنه ليس خطبة وعظ وإنما هو تعليم حكم، فكلما قل لفظه كان أقرب إلى حفظه بخلاف الخطبة. اهـ

أقول: ولعلها حادثة حال لها ظروفها التي اقتضت أن يقول رسول الله ﷺ ذلك والله أعلم. (ق).

وعن ابن عباس، قال: من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تُنال ولاية الله بذلك. ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن

في الأصل كفاراً، فهداهم الله إلى الإسلام. والإسلام يمحو ما قبله وكذلك الهجرة، كما صح الحديث بذلك.

وفي روايه: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى....» إلى آخره.

قوله: وفي رواية: «لا يجد أحد»: هذه الرواية أخرجها البخاري في الأدب من (صحيحه). ولفظه: **«لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله، وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، وحتى أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»**.

وقد تقدم أن المحبة هنا: عبارة عما يجده المؤمن من اللذة والبهجة والسرور، والإجلال والهيبة، ولوازم ذلك، قال الشاعر:

أهابك إجلالاً. وما بك قدرة علَيَّ، ولكن ملءُ عين حبيبُها

قال المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ: وعن ابن عباس، قال: من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تُنال ولاية الله بذلك. ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه، حتى

ومن تفريعها وتكميلها الحب في الله والبغض في الله فيحب العبد ما يحبه الله من الأعمال والأشخاص ويبغض ما يبغضه الله من الأشخاص والأعمال، ويوالي أولياءه ويعادي أعداءه، وبذلك يكمل إيمان العبد وتوحيده.

أما اتخاذ أنداد من الخلق يحبهم كحب الله ويقدم طاعتهم على طاعة الله ويلهج بذكرهم ودعائهم فهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، وصاحب هذا الشرك قد انقطع قلبه من ولاية العزيز الحميد، وتعلق بغيره ممن لا يملك له شيئًا، وهذا السبب الواهي الذي تعلق به المشركون سينقطع يوم القيامة أحوج ما يكون العبد لعمله وستنقلب هذه المودة والموالاة بغضًا وعداوة.

ذكر هذه الصورة؛ لأن الكافر يألف ما كان عليه أولاً؛ فربما يرجع إليه، بخلاف من لا يعرف الكفر أصلاً.

فمن كره العَود في الكفر كما يكره القذف في النار؛ فإن هذا من أسباب وجود حلاوة الإيمان.

قوله: «وفي روايه: لا يجد أحد حلاوة الإيمان»: أتى المؤلف بهذه الرواية؛ لأن انتفاء وجدان حلاوة الإيمان بالنسبة للرواية الأولى عن طريق المفهوم، وهذه عن طريق المنطوق، ودلالة المنطوق أقوى من دلالة المفهوم.

قوله في أثر ابن عباس رضي الله عنهما: «من أحب في الله»: من: شرطية، وفعل الشرط أحب، وجوابه جملة: **«فإنما تنال ولاية الله بذلك»**.

و «في»: يحتمل أن تكون للظرفية؛ لأن الأصل فيها الظرفية، ويحتمل أن تكون للسببية؛ لأن «في» تأتي أحيانًا للسببية؛ كما في قوله ﷺ: **«دخلت امرأة النار في هرة»**[1]؛ أي: بسبب هرة.

وقوله: «في الله»: أي: من أجله، إذا قلنا: إن في للسببية، وأما إذا قلنا: إنها للظرفية؛ فالمعنى: من أحب في ذات الله، أي: في دينه وشرعه لا لعرض الدنيا.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٦١٩)، وابن ماجه (٤٢٥٦)، وأحمد (٧٤٩٤، ٢٧٨٧٠، ١٠٢٠٦).

كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كـذلك. وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمـر الـدنيـا، وذلك لا يُجـدي عـلى أهله شيـئًـا. رواه ابن جـرير[١].

يكون كذلك. وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يُجدي على أهله شيئًا. رواه ابن جرير.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، الجملة الأولى منه فقط.

قوله: (من أحب في اللَّه) أي: أحب أهل الإيمان باللَّه وطاعته؛ من أجل ذلك.

قوله: (وأبغض في اللَّه) أي: أبغض من كفر باللَّه وأشرك به، وفَسَق عن طاعته؛ لأجل ما فعلوه مما يسخط اللَّه، وإن كانوا أقرب الناس إليه، كما قال تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢].

قوله: (ووالى في اللَّه) هذا والذي قبله، من لوازم محبة العبد للَّه تعالى. فمن أحب اللَّه أحب فيه، ووالى أولياءه، وعادى أهل معصيته وأبغضهم، وجاهد أعداءه ونصر أنصاره. وكلما قويت محبة العبد للَّه في قلبه قويت هذه الأعمال المرتبة عليها، وبكمالها يكمل توحيد العبد، ويكون ضعفها على قدر ضعف محبة العبد لربه؛ فمقلٌّ، ومستكثر، ومحروم!

قوله: (فإنما تنال ولاية اللَّه بذلك) أي: تولِّيه لعبده. ووَلاية: بفتح الواو لا غير، أي: الأخوة[٢] والمحبة والنُّصرة، وبالكسر الإمارة، والمراد هنا الأول.

ولأحمد، والطبراني، عن النبي ﷺ قال: «**لا يجدُ العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله، فإذا أحب لله وأبغض لله، فقد استحق الوَلاية لله**»[٣].

وفي حديث آخر: «**أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله عز وجل**» رواه الطبراني[٤].

قوله: «**وأبغض في الله**»: البُغض الكُره؛ أي: أبغض في ذات الله إذا رأى من يعصي الله كرهه. وفرق بين «في» التي للسببية و«في» التي للظرفية؛ فالسببية الحامل له على المحبة أو البغضاء هو الله، والظرفية موضع الحب أو الكراهة هو في ذات الله ـ عز وجل ـ؛ فيبغض من أبغضه الله، ويحب من أحبه.

قوله: «**ووالى في الله**»: الموالاة: هي المحبة والنصرة وما أشبه ذلك.

قوله: «**وعادى في الله**»: المعاداة ضد الموالاة؛ أي: يبتعد عنهم ويبغضهم ويكرههم في الله.

قوله: «**فإنما تنال ولاية الله بذلك**»: هذا جواب الشرط؛ أي: يدرك الإنسان ولاية الله ويصل إليها؛ لأنه جعل محبته وبغضه وولايته ومعاداته لله.

قوله: «**ولاية**» يجوز في الواو وجهان: الفتح والكسر، قيل: معناهما واحد، وقيل: بالفتح بمعنى

---

(١) ضعيف: عزاه ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٤) إلى ابن جرير، ورواه العدني في الإيمان (١/ ١٢٨)، وفي سنده ليث بن أبي سليم، ضعيف.

(٢) لعل كلمة (الأخوة) زائدة أو مبدلة عن كلمة أخرى تناسب المقام. (ق).

(٣) رواه أحمد في المسند (٣/ ٤٣٠) وفي إسناده رشدين بن سعد وهو ضعيف.

(٤) صحيح: صححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢٥٣٩).

. . . .

قوله: (ولـن يجد عبـد طعم الإيمان) إلىٰ آخره. أي: لا يحصل له ذوق الإيمان ولذته وسروره وإن كثرت صلاته وصومه، حتىٰ يكون كذلك، أي: حتىٰ يحب في اللّه، ويبغض في اللّه، ويعادي في اللّه، ويوالي في اللّه. وفي حديث أبي أمامة، مرفوعًا: «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»(١). رواه أبو داود.

قوله: (وقـد صارت عامة مـؤاخاة الناس على أمر الدنيـا، وذلك لا يجدي على أهله شيـئًا)

النصرة، قال تعالىٰ: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وبالكسر بمعنىٰ الولاية علىٰ الشيء.

قوله: «بذلك»: الباء للسببية، والمشار إليه الحب في الله والبغض في الله، والموالاة فيه والمعاداة فيه.

وهذا الأثر موقوف، لكنه بمعنىٰ المرفوع؛ لأن ترتيب الجزاء علىٰ العمل لا يكون إلا بتوقيف، إلا أن الأثر ضعيف.

فمعنىٰ الحديث: أن الإنسان لا يجد طعم الإيمان وحلاوته ولذته حتىٰ يكون كذلك، ولو كثرت صلاته وصومه، وكيف يستطيع عاقل فضلاً عن مؤمن أن يوالي أعداء الله، فيرىٰ أعداء الله يشركون به ويكفرون به ويصفونه بالنقائص والعيوب، ثم يواليهم ويحبهم؟! فهذا لو صلىٰ وقام الليل كله وصام الدهر كله؛ فإنه لا يمكن أن ينال طعم الإيمان، فلابد أن يكون قلبك مملوءً بمحبة الله وموالاته، ويكون مملوءً ببغض أعداء الله ومعاداتهم، وقال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ:

أتُحبّ أعداء الحبيب وتَدّعي حبًّا لـه مـا ذاك في إمكـان

وقال الإمام أحمد رحمه الله: «إذا رأيتُ النصراني أُغمض عيني؛ كراهة أن أرىٰ بعيني عدوَ الله». هذا الذي يجد طعم الإيمان، أما - والعياذ بالله - الذي يرىٰ أن اليهود أو النصارىٰ علىٰ دينٍ مرضي ومقبول عند الله بعد بعثة النبي ﷺ؛ فهو خارج عن الإسلام، مكذب بقول الله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ولكثرة اليهود والنصارىٰ والوثنيين صار في هذه المسألة خطر علىٰ المجتمع، وأصبح كثير من الناس الآن لا يفرق بين مسلم وكافر، ولا يدري أن غير المسلم عدو لله - عز وجل -، بل هو عدو له أيضًا، لقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١]؛ فهم أعداء لنا ولو تظاهروا بالصداقة، قال الله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

فالآن أصبحنا في محنة وخطر عظيم؛ لأنه يخشىٰ علىٰ أبنائنا وأبناء قومنا أن يركنوا إلىٰ هؤلاء ويوادوهم ويحبوهم، ولذلك يجب أن تُخلَّص هذه البلاد بالذات منهم، فهذه البلاد قال فيها الرسول ﷺ: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلمًا»(٢)، وقال: «أخرجوا

---

(١) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٣٨٠). (٢) صحيح: رواه مسلم (١٧٦٧).

. . . .

أي: لا ينفعهم بل يضرهم؛ كما قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. فإذا كانت البلوى قد عمت بهذا في زمن ابن عباس في خير القرون، فما زاد الأمر بعد ذلك إلا شدة. حتى وقعت الموالاة: على الشرك، والبدع، والفسوق، والعصيان. وقد وقع ما أخبر به ﷺ، بقوله: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ»[(١)(٢)]. وقد كان الصحابة رضي الله عنهم في عهد

اليهود والنصارى من جزيرة العرب»[(٣)]، وقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»[(٤)]، وهذا كله من أجل أن لا يشتبه الأمر على الناس ويختلط أولياء الله بأعدائه.

قوله: «وقد صار عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئًا»:

وقوله: «عامة»: أي: أغلبية.

وقوله: «مؤاخاة الناس»: أي: مودتهم ومصاحبتهم. أي: أكثر مودة الناس ومصاحبتهم على أمر الدنيا، وهذا قاله ابن عباس، وهو بعيد العهد منا قريب العهد من النبوة، فإذا كان الناس قد تغيروا في زمنه؛ فما بالك بالناس اليوم؟ فقد صارت مؤاخاة الناس - إلا النادر - على أمر الدنيا، بل صار أعظم من ذلك، يبيعون دينهم بدنياهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]، ولما كان غالب ما يحمل على الخيانة هو المال وحب الدنيا أعقبها بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

ويستفاد من أثر ابن عباس رضي الله عنهما: أن لله تعالى أولياء، وهو ثابت بنص القرآن، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥]؛ فلله أولياء يتولون أمره ويقيمون دينه، وهو يتولاهم بالمعونة والتسديد والحفظ والتوفيق، والميزان لهذه الولاية قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

قال شيخ الإسلام[(٥)]: «من كان مؤمنًا تقيًا كان لله وليًا»، والولاية سبق أنها النصرة والتأييد والإعانة.

والولاية تنقسم إلى: ولاية من الله للعبد، وولاية من العبد لله؛ فمن الأولى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ومن الثانية قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا.....﴾ [المائدة: ٥٦]. والولاية التي من الله تنقسم إلى عامة وخاصة؛ فالولاية العامة هي الولاية على العباد

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه. والترمذي وابن ماجه عن ابن مسعود. وقد شرحه الحافظ ابن رجب شرحًا نفيسًا سماه (كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة) طبع مرارًا. (ق).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٤٥).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٧٦٧)، وأبو داود (٣٠٣٠)، والترمذي (١٦٠٦، ١٦٠٧)، وأحمد (٢٠١، ٢١٥).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٥٣، ٣١٦٨، ٤٤٣١)، ومسلم (١٦٣٧)، وأبو داود (٣٠٢٩)، وأحمد (١٩٣٦).

(٥) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى فصل حكم الاتحادية ومن اعتذر عنهم وقال: فكل من كان مؤمنًا تقيًا كان لله وليًا. وهم على درجتين: السابقون المقربون، وأصحاب اليمين المقتصدون. اهـ.

وقال ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] قال: المودة.

نبيهم ﷺ، وعهد أبي بكر وعمر [يؤثر بعضهم بعضًا على نفسه، محبةً في الله وتقربًا إليه]؛ كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وعن ابن عمر، قال: لقد رأيتنا على عهد رسول الله ﷺ، وما منا أحد يرى أنه أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم. رواه ابن ماجه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقال ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] قال: المودة.

هذا الأثر رواه عبد بن حُميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه.

قوله: (قال: المودة)، أي: التي كانت في الدنيا، خانتهم أحوج ما كانوا إليها، وتبرأ بعضهم من بعض؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

قال العلامة ابن القيم ـ في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]. فهؤلاء المتبعون كانوا على الهُدى، وأتباعهم ادَّعوا أنهم على طريقهم ومنهاجهم وهم مخالفون لهم سالكون غير طريقهم. ويزعمون أن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم، فيتبرءون منهم يوم القيامة؛ فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله.

بالتدبير والتصريف، وهذه تشمل المؤمن والكافر وجميع الخلق؛ فالله هو الذي يتولى عباده بالتدبير والتصريف والسلطان وغير ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]. والولاية الخاصة: أن يتولى الله العبد بعنايته وتوفيقه وهدايته، وهذه خاصة بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٣].

قوله: «وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]:

قوله: «المودة» يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ الأسباب: جمع سَبَبٍ، وهو كل ما يُتوصَّل به إلى شيء. وفي اصطلاح الأصوليين: ما يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم؛ فكل ما يوصل إلى شيء؛ فهو سبب، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ [الحج: ١٥]، ومنه سُمِّي الحبل سببًا؛ لأن الإنسان يتوصل به إلى استخراج الماء من البئر.

وقوله: «قال: المودة»: هذا الأثر ضعفه بعضهم، لكن معناه صحيح؛ فإن جميع الأسباب التي يتعلق بها المشركون لتنجيهم تتقطع بهم، ومنها محبتهم لأصنامهم وتعظيمهم إياها؛ فإنها لا تنفعهم، ولعل ابن عباس رضي الله عنهما أخذ ذلك من سياق الآيات؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة. الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: وجوب محبته ﷺ على النفس والأهل والمال.

وهذا حال كل من اتخذ من دون اللَّه وليجةً وأولياء، يوالي لهم ويُعادي لهم، ويرضىٰ لهم، ويغضب لهم. فإن أعماله كلها باطلة، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تعبه فيها ونَصَبه؛ إذ لم يجرد موالاته ومعاداته، ومحبته وبغضه، وانتصاره وإيثاره للَّه ورسوله. فأبطل اللَّه عز وجل ذلك العمل كله، وقطع تلك الأسباب. فينقطع يوم القيامة كل سبب ووصلة ووسيلة ومودة كانت لغير اللَّه، ولا يبقىٰ إلا السبب الواصل بين العبد وربه. وهو حظُّه من الهجرة إليه وإلىٰ رسوله، وتجريده عبادته وحده ولوازمها: من الحب والبغض، والعطاء والمنع، والموالاة والمعاداة، والتقريب والإبعاد، وتجريد متابعة رسوله ﷺ تجريداً محضًا، بريئًا من شوائب الالتفات إلىٰ غيره، فضلاً عن الشرك بينه وبين غيره، فضلاً عن تقديم قول غيره عليه. فهذا السبب هو الذي لا ينقطع بصاحبه، وهذه هي النسبة التي بين العبد وبين ربه، وهي نسبة العبودية [المحضة]. وهي آخيتُه التي يجول ما يجول وإليها مرجعه، ولا تتحقق إلا بتجريد متابعة الرسل ـ صلوات اللَّه وسلامه عليهم ـ؛ إذ هذه العبودية إنما جاءت علىٰ ألسنتهم، وما عُرفت إلا بهم، ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم.

وقد قال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. فهذه هي الأعمال التي كانت في الدنيا علىٰ غير سنة رسله وطريقتهم، ولغير وجهه، يجعلها اللَّه هباءً منثوراً، لا ينتفع منها صاحبها بشيء أصلاً. وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة، أن يرىٰ سعيه ضائعًا، وقد سعد أهل السعي النافع بسعيهم. انتهىٰ ملخصًا.

يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ثم قال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]. وبه تعرف أن مراده المودة الشركية، فأما المودة الإيمانية كمودة الله تعالىٰ ومودة ما يحبه من الأعمال والأشخاص؛ فإنها نافعة موصلة للمراد، قال الله تعالىٰ: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. الآية.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة: وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾. وسبق ذلك.

الثانية: تفسير آية براءة: وهي قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ...﴾ الآية، وسبق تفسيرها.

الثالثة: وجوب محبته ﷺ على النفس والأهل والمال: وفي نسخة: «وتقديمها على النفس والأهل والمال». ولعل الصواب: وجوب تقديم محبته كما هو مقتضىٰ الحديث، وأيضًا قوله: «على النفس» يدل علىٰ أنها قد سقطت كلمة تقديم أو وتقديمها، وتؤخذ من حديث أنس السابق ومن قوله

الرابعة: أنَّ نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام.

الخامسة: أنَّ للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها.

السادسة: أعمال القلب الأربع التي لا تنال ولاية الله إلا بِهَا، ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بِهَا.

واعلم أن أنواع المحبة ثلاثة أقسام: الأول: محبة الله التي هي أصل الإيمان والتوحيد.

الثاني: المحبة في الله وهي محبة أنبياء الله ورسله وأتباعهم ومحبة ما يحبه الله من الأعمال والأزمنة والأمكنة وغيرهم وهذه تابعة لمحبة الله ومكملة لها.

الثالث: محبة مع الله وهي محبة المشركين لآلهتهم وأندادهم من شجر وحجر وبشر وملك وغيرها وهي أصل الشرك وأساسه.

تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ.... أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ فذكر الأقارب والأموال.

الرابعة: أن نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام: سبق أن المحبة كسبية، وذكرنا في ذلك حديث عمر رضي الله عنه لما قال للرسول ﷺ: «والله إنك لأحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال له: «ومن نفسك». فقال: الآن، أنت أحب إليَّ من نفسي»[1].

وقوله: «الآن» يدل على حدوث هذه المحبة، وهذا أمر ظاهر، وفيه أيضاً أن نفي الإيمان المذكور في قوله: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده...»[2] لا يدل على الخروج من الإسلام؛ لقوله في الحديث الآخر: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان»[3]؛ لأن حلاوة الإيمان أمر زائد على أصله؛ أي: إن الدليل مركب من الدليلين.

ونفي الشيء له ثلاث حالات: فالأصل أنه نفي للوجود، وذلك مثل: «لا إيمان لعابد صنم». فإن منع مانع من نفي الوجود، فهو نفي للصحة، مثل: «لا صلاة بغير وضوء»، فإن منع مانع من نفي الصحة؛ فهو نفي للكمال، مثل: «لا صلاة بحضرة طعام»؛ فقوله: «لا يؤمن أحدكم» نفي للكمال الواجب لا المستحب، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[4]: «لا ينفي الشيء إلا لانتفاء واجب فيه ما لم يمنع من ذلك مانع».

الخامسة: أن للإيمان حلاوة وقد يجدها الإنسان وقد لا يجدها: تؤخذ من قوله: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان»، وهذا دليل انتفاء الحلاوة إذا انتفت هذه الأشياء.

السادسة: أعمال القلب الأربعة التي لا تنال ولاية الله إلا بها، ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها: وهي: الحب في الله، والبغض في الله، والولاء في الله، والعداء في الله.

لا تنال ولاية الله إلا بها، فلو صلى الإنسان وصام ووالى أعداء الله؛ فإنه لا ينال ولاية الله، قال ابن القيم:

---

(١) صحيح: وقد تقدم. (٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

(٤) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى في شرح حديث إنما الأعمال بالنيات.

السابعة: فهم الصحابي للواقع: أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا.

الثامنة: تفسير: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾.

التاسعة: أن من المشركين من يحب الله حبًا شديداً.

العاشرة: الوعيد على من كان الثمانية[1] أحب إليه من دينه.

الحادية عشرة: أنَّ من اتخذ نداً تُسَاوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر.

. . . .

- -

وهنا قسم رابع وهو المحبة الطبيعية التي تتبع ما يلائم العبد ويوافقه من طعام وشراب ونكاح ولباس وعشرة وغيرها، وهذه إذا كانت مباحة فإن أعانت على محبة الله وطاعته دخلت في باب العبادات، وإن صدت عن ذلك وتوسل بها إلى ما لا يحبه الله دخلت في المنهيات، وإلا بقيت من أقسام المباحات والله أعلم.

أتُحبُّ أعداء الحبيب وتَدَّعي حُبًّا له مَا ذاكَ في إمكَانِ

وهذا لا يقبله حتى الصبيان أن توالي من عاداهم.

وقوله: «ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها» مأخوذة من قول ابن عباس: «ولن يجد عبد طعم الإيمان...» إلخ.

السابعة: فهم الصحابي للواقع أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا: الصحابي يعني به ابن عباس رضي الله عنهما، وقوله: «إن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا»، هذا في زمنه؛ فكيف بزمننا؟!

الثامنة: تفسير قوله: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾: فسرها بالمودة، وتفسير الصحابي إذا كانت الآية من صيغ العموم تفسير بالمثال؛ لأن العبرة في نصوص الكتاب والسنة بعموماتها، فإذا ذكر فرد من أفراد هذا العموم؛ فإنما يقصد به التمثيل، أي: مثل المودة، لكن حتى الأسباب الأخرى التي يتقربون بها إلى الله وليست بصحيحة؛ فإنها تنقطع بهم ولا ينالون منها خيراً.

التاسعة: أن من المشركين من يحب الله حبًا شديداً: تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾، وهم يحبون الأصنام حبًا شديدًا، وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾؛ فأشد: اسم تفضيل يدل على الاشتراك بالمعنى مع الزيادة؛ فقد اشتركوا في شدة الحب، وزاد المؤمنون بكونهم أشد حبًا لله من هؤلاء لأصنامهم.

العاشرة: الوعيد على من كان الثمانية أحب إليه من دينه: الثمانية هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾.

والوعيد في قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾، فأفاد المؤلف رحمه الله تعالى أن الأمر هنا للوعيد.

الحادية عشرة: أن من اتخذ ندًا تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر:

لقوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾، ثم بيَّنَ في سياق الآيات أنهم مشركون شركًا أكبر، بدليل ما لهم من العذاب.

---

(١) هي الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن. (ق).

٣١- باب قول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب قوله الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

الخوفُ من أفضل مقامات الدين[وأجلِّها] ، وأجمع أنواع العبادة التي يجب إخلاصها للَّه تعالى.

قال اللَّه تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير.

والخوف من حيث هو، ثلاثة أقسام: أحدها: خوف السر، وهو أن يخاف من غير اللَّه، من وثن أو طاغوت أن يصيبه بما يكره؛ كما قال تعالى عن قوم هود، إنهم قالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ

باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٥]

هذا الباب عقده المصنف-رحمه الله-لوجوب تعلق الخوف والخشية بالله وحده والنهي عن تعلقه بالمخلوقين وبيان أنه لا يتم التوحيد إلا بذلك. ولا بد في هذا الموضع من تفصيل يتضح به الأمر ويزول الاشتباه.

مناسبة الباب لما قبله:

أن المؤلف رحمه الله أعقب باب المحبة بباب الخوف؛ لأن العبادة ترتكز على شيئين: المحبة، والخوف. فبالمحبة يكون امتثال الأمر، وبالخوف يكون اجتناب النهي، وإن كان تارك المعصية يطلب الوصول إلى الله، ولكن هذا من لازم ترك المعصية، وليس هو الأساس.

فلو سألت من لا يزني لماذا؟ لقال: خوفًا من الله.

ولو سألت الذي يصلي؛ لقال: طمعًا في ثواب الله ومحبة له.

وكل منهما ملازم للآخر؛ فالخائف والمطيع يريدان النجاة من عذاب الله والوصول إلى رحمته.

وهل الأفضل للإنسان أن يُغلِّب جانب الخوف أو يُغلِّب جانب الرجاء؟

اُختُلِفَ في ذلك: فقيل: ينبغي أن يغلب جانب الخوف؛ ليحمله ذلك على اجتناب المعصية ثم فعل الطاعة. وقيل: يغلب جانب الرجاء؛ ليكون متفائلاً، والرسول ﷺ كان يعجبه الفأل[1].

وقيل في فعل الطاعة: يغلِّب جانب الرجاء؛ فالذي منّ عليه بفعل هذه الطاعة سيَمنّ عليه بالقبول، ولهذا قال بعض السلف: إذا وفقك الله للدعاء؛ فانتظر الإجابة؛ لأن الله يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]؛ وفي فعل المعصية يغلِّب جانب الخوف؛ لأجل أن يمنعه منها ثم إذا خاف من العقوبة تاب.

وهذا أقرب شيء، ولكن ليس بذاك القرب الكامل؛ لأن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ أي: يخافون أن لا يقبل منهم، لكن قد يقال بأن هذه الآية يعارضها

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (٣٥٣٦)، وأحمد (٢٤٤٦١)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٤٩٨٥).

. . . .

قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤، ٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦] وهذا هو الواقع عن عُبَّاد القبور ونحوها من الأوثان، يخافونها ويخوِّفون بها أهل التوحيد إذا أنكروا عبادتها وأمروا بإخلاص العبادة للَّه، وهذا ينافي التوحيد.

الثاني: أن يترك الإنسان ما يجب عليه، خوفًا من بعض الناس. فهذا مُحرَّم، وهو نوع من الشرك باللَّه المنافي لكمال التوحيد، وهذا هو سبب نزول هذه الآية، كما قال تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٣ـ١٧٥].

أحاديث أخرىٰ؛ كقوله ﷺ في الحديث القدسي عن ربه: «**أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني**»(١).

وقيل: في حال المرض يغلِّب جانب الرجاء، وفي حال الصحة يغلب جانب الخوف؛ فهذه أربعة أقوال.

وقال الإمام أحمد: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا؛ فأيهما غلب هلك صاحبه؛ أي: يجعلهما كجناحي الطائر، والجناحان للطائر إذا لم يكونا متساويين سقط.

وخوف الله تعالىٰ درجات؛ فمن الناس من يغلو في خوفه، ومنهم من يفرط، ومنهم من يعتدل في خوفه. والخوف العدل هو الذي يَرُدّ عن محارم الله فقط، وإن زدت علىٰ هذا؛ فإنه يوصلك إلىٰ اليأس من روح الله.

ومن الناس من يفرط في خوفه بحيث لا يردعه عما نهىٰ الله عنه.

والخوف أقسام:

الأول: خوف العبادة والتذلل والتعظيم والخضوع، وهو ما يسمىٰ بخوف السر.

وهذا لا يصلح إلا لله ـ سبحانه ـ، فمن أشرك فيه مع الله غيره؛ فهو مشرك شركًا أكبر، وذلك مثل: من يخاف من الأصنام أو الأموات، أو من يزعمونهم أولياء ويعتقدون نفعهم وضرهم؛ كما يفعله بعض عُبَّاد القبور: يخاف من صاحب القبر أكثر مما يخاف الله.

الثاني: الخوف الطبيعي والجبلِّي؛ فهذا في الأصل مباح؛ لقوله تعالىٰ عن موسىٰ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١]، وقوله عنه أيضًا: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣]، لكن إن حمل علىٰ ترك واجب أو فعل محرم؛ فهو محرم، وإن استلزم شيئًا مباحًا كان مباحًا، فمثلاً من خاف من شيء لا يؤثر عليه وحمله هذا الخوف علىٰ ترك صلاة الجماعة مع وجوبها، فهذا الخوف محرم، والواجب عليه أن لا يتأثر به.

وإن هدده إنسان علىٰ فعل محرم، فخافه وهو لا يستطيع أن ينفذ ما هدده به؛ فهذا خوف محرم لأنه يؤدي إلىٰ فعل محرم بلا عذر، وإن رأىٰ نارًا ثم هرب منها ونجا بنفسه؛ فهذا خوف مباح، وقد يكون واجبًا إذا كان يتوصل به إلىٰ إنقاذ نفسه.

وهناك ما يسمىٰ بالوهم وليس بخوف، مثل أن يرىٰ ظل شجرة تهتز، فيظن أن هذا عدو يتهدده، فهذا

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

. . . .

وفي الحديث: «إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ما منعك إذ رأيتَ المنكر أن لا تغيره؟ فيقول: ربِّ خشيتُ الناس. فيقول: إياي كُنتَ أحقّ أن تخشى»[1][2].

الثالث: الخوف الطبيعي، وهو الخوف من عدو أو سبع أو غير ذلك، فهذا لا يُذم؛ كما قال تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١].

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: يخوفكم أولياءه ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وهذا نهي من الله تعالى للمؤمنين أن يخافوا غيره، وأمر لهم أن يقصروا خوفهم على الله تعالى، فلا يخافون إلا إياه.

وهذا هو الإخلاص الذي أمر الله به عباده، ورضيه منهم. فإذا أخلصوا له الخوف، وجميع العبادة: أعطاهم ما يرجون، وأمَّنهم من مخاوف الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦].

قال العلامة ابن القيم: ومن كيد عدو الله: أن يخوف المؤمنين من جنده وأوليائهم؛ لئلا يجاهدوهم، ولا يأمروهم بمعروف، ولا ينهوهم عن منكر.

وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه، ونهانا أن نخافه.

قال: والمعنى عند جميع المفسرين: يخوفكم بأوليائه.

قال قتادة: يعظمهم في صدوركم.

فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفُه منهم. فدلت هذه الآية على أن إخلاص الخوف من شروط كمال الإيمان.

لا ينبغي للمؤمن أن يكون كذلك، بل يطارد هذه الأوهام؛ لأنه لا حقيقه لها، وإذا لم تطاردها؛ فإنها تهلكك.

مناسبة الخوف للتوحيد: أن من أقسام الخوف ما يكون شركًا منافيًا للتوحيد.

وقد ذكر المؤلف فيه ثلاث آيات:

أولها ما جعلها ترجمة للباب، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾:

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ﴾: صيغة حصر، والمشار إليه التخويف من المشركين. ﴿ذَلِكُمُ﴾: ذا: مبتدأ، و﴿الشَّيْطَانُ﴾: يحتمل أن يكون خبر المبتدأ، وجملة ﴿يُخَوِّفُ﴾ حال من الشيطان.

ويحتمل أن يكون ﴿الشَّيْطَانُ﴾ صفة لـ ﴿ذَلِكُمُ﴾. أو عطف بيان، و ﴿يُخَوِّفُ﴾: خبر المبتدأ، والمعنى: ما هذا التخويف الذي حصل إلا من شيطان يخوف أولياءه.

---

(١) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٩٢٩).

(٢) رواه ابن ماجه عن أبي سعيد بلفظ: «لا يحقر أحدكم نفسه» قالوا: يا رسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: «يرى أمر الله فيه مقال ثم لا يقول فيه فيقول الله يوم القيامة ما منعك أن تقول في كذا: كذا وكذا؟ فيقول: خشيت الناس. فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى» ذكره ابن كثير عند تفسير قول الله تعالى في سورة «المائدة»: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨] الآيات. (ق).

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨].

و﴿يُخَوِّفُ﴾ تنصب مفعولين، الأول محذوف تقديره: يخوفكم، والمفعول الثاني: ﴿أَوْلِيَاءَهُ﴾.

ومعنىٰ يخوفكم؛ أي: يوقع الخوف في قلوبكم منهم، و﴿ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: أنصاره الذين ينصرون الفحشاء والمنكر؛ لأن الشيطان يأمر بذلك؛ فكل من نصر الفحشاء والمنكر؛ فهو من أولياء الشيطان، ثم قد يكون النصر في الشرك وما ينافي التوحيد؛ فيكون عظيمًا وقد يكون دون ذلك.

وقوله: ﴿ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ من ذلك ما وقع في الآية التي قبلها، حيث قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وذلك ليصدوهم عن واجب من واجبات الدين، وهو الجهاد، فيخوفونهم بذلك، وكذلك ما يحصل في نفس من أراد أن يأمر بالمعروف أو ينهىٰ عن المنكر، فيُخوِّفه الشيطان ليصده عن هذا العمل، وكذلك ما يقع في قلب الداعية.

والحاصل: أن الشيطان يخوف كل من أراد أن يقوم بواجب، فإذا ألقىٰ الشيطان في نفسك الخوف؛ فالواجب عليك أن تعلم أن الإقدام علىٰ كلمة الحق ليس هو الذي يدني الأجل، وليس السكوت والجبن هو الذي يبعد الأجل؛ فكم من داعية صدع بالحق ومات علىٰ فراشه؟! وكم من جبان قتل في بيته؟!

وانظر إلىٰ خالد بن الوليد، كان شجاعًا مقدامًا ومات علىٰ فراشه، وما دام الإنسان قائمًا بأمر الله؛ فليثق بأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وحزب الله هم الغالبون.

قوله: ﴿ فَلا تَخَافُوهُمْ﴾: لا ناهية، والهاء ضمير يعود علىٰ أولياء الشيطان، وهذا النهي للتحريم بلا شك؛ أي: بل امضوا فيما أمرتكم به وفيما أوجبته عليكم من الجهاد، ولا تخافوا هؤلاء، وإذا كان الله مع الإنسان؛ فإنه لا يغلبه أحد، لكن نحتاج في الحقيقة إلىٰ صدق النية والإخلاص والتوكل التام.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وعُلم من هذه الآية أن للشيطان وساوس يلقيها في قلب ابن آدم منها التخويف من أعدائه.

وهذا ما وقع فيه كثير من الناس، وهو الخوف من أعداء الله فكانوا فريسة لهم، وإلا لو اتكلوا علىٰ الله وخافوه قبل كل شيء لخافهم الناس.

ولهذا قيل في المثل: من خاف الله خافه كل شيء، ومن اتقىٰ الله اتقاه كل شيء، ومن خاف من غير الله خاف من كل شيء.

ويفهم من الآية أن الخوف من الشيطان وأوليائه منافٍ للإيمان، فإن كان الخوف يؤدي إلىٰ الشرك؛ فهو منافٍ لأصله، وإلا؛ فهو مناف لكماله.

الآية الثانية قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ﴾: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، والمراد بالعمارة العِمَارة

. . . .

أخبر تعالىٰ أن مساجد اللَّه لا يعمرها إلا أهل الإيمان باللَّه واليوم الآخر، الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا بجوارحهم، وأخلصوا له الخشية دون من سواه.

فأثبت لهم عمارة المساجد بعد أن نفاها عن المشركين؛ لأن عمارة المساجد بالطاعة والعمل الصالح، والمشرك وإن عمل فعمله: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]، أو: ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨] وما كان كذلك فالعدم خير منه، فلا تكون المساجد عامرة إلا بالإيمان الذي معظمه التوحيد، مع العمل الصالح الخالص من شوائب الشرك والبدع. وذلك كله داخل في مسمىٰ الإيمان المطلق، عند أهل السنة والجماعة.

قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ قال ابن عطية: يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة، ولا محالة أن الإنسان يخشىٰ المحاذير الدنيوية. وينبغي أن يخشىٰ في ذلك كله قضاء اللَّه وتصريفه.

المعنوية، وهي عمارتها بالصلاة والذكر وقراءة القرآن ونحوها، وكذلك الحسية بالبناء الحسي؛ فإن عمارتها به حقيقة لا تكون إلا ممن ذكرهم الله؛ لأن من يعمرها وهو لم يؤمن بالله واليوم الآخر لم يعمرها حقيقةً؛ لعدم انتفاعه بهذه العمارة؛ فالعمارة النافعة الحسية والمعنوية من الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، ولهذا لما افتخر المشركون بعمارة المسجد الحرام؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، وأضاف سبحانه المساجد إلىٰ نفسه تشريفًا؛ لأنها موضع عبادته.

قوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾: ﴿مَنْ﴾: فاعل يعمر، والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور، وهي:

- الإيمان بوجوده. - وربوبيته.
- وألوهيته. - وأسمائه وصفاته.

واليوم الآخر: هو يوم القيامة، وسُمِّي بذلك؛ لأنه لا يوم بعده.

قال شيخ الإسلام: ويدخل في الإيمان بالله واليوم الآخر كل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت مثل فتنة القبر و عذابه ونعيمه[1].

لأن حقيقة الأمر أن الإنسان إذا مات قامت قيامته وارتحل إلىٰ دار الجزاء.

ويقرن الله الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر كثيرًا؛ لأن الإيمان باليوم الآخر يحمل الإنسان إلىٰ الامتثال، فإنه إذا آمن أن هناك بعثًا وجزاءً؛ حمله ذلك علىٰ العمل لذلك اليوم، ولكن من لا يؤمن باليوم الآخر لا يعمل؛ إذ كيف يعمل لشيء وهو لا يؤمن به؟!

قوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ﴾: أي: أتىٰ بها علىٰ وجه قويم لا نقص فيه، والإقامة نوعان:

إقامة واجبة، وهي التي يقتصر فيها علىٰ فعل الواجب من الشروط والأركان والواجبات.

وإقامة مستحبة: وهي التي يزيد فيها علىٰ فعل ما يجب فيأتي بالواجب والمستحب.

قوله: ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾: ﴿وآتى﴾ تنصب مفعولين: الأول هنا الزكاة.

---

(١) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى فصل: ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ.

. . . .

قال ابن القيم رحمه الله: الخوف عبودية القلب، فلا يصلح إلا لله، كالذل والإنابة والمحبة والتوكل والرجاء، وغيرها من عبودية القلب.

قوله: ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ : قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: يقول: إن أولئك هم المهتدون؛ وكل ﴿عَسَىٰ﴾ في القرآن فهي واجبة[1].

وفي الحديث: «**إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان**» قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. رواه أحمد، والترمذي، والحاكم.

والثاني: محذوف تقديره مستحقها.

والزكاة: هي المال الذي أوجبه الشارع في الأموال الزكوية وتختلف مقاديرها حسب ما تقتضيه حكمة الله - عز وجل -.

قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ : في هذه الآية حصر طريقة الإثبات والنفي.

﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾ نفي، ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ إثبات، والمعنى: إن خشيته انحصرت في الله - عز وجل -؛ فلا يخشى غيره.

والخشية نوع من الخوف، لكنها أخص منه، والفرق بينهما:

١ - أن الخشية تكون مع العلم بالمخشي وحاله، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، والخوف قد يكون من الجاهل.

٢ - أن الخشية تكون بسبب عظمة المخشي، بخلاف الخوف؛ فقد يكون من ضعف الخائف لا من قوة المخوف.

قوله: ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ :

قال ابن عباس: «عسى من الله واجبة»، وجاءت بصيغة الترجي؛ لئلا يأخذ الإنسان الغرور بأنه حصل على هذا الوصف، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٨، ٩٩]؛ فالله لا يكلف نفسًا إلا وسعها؛ فالذين لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً جديرون بالعفو.

الشاهد من الآية: قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ :

ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، ومن علامات صدق الإيمان أن لا يخشى إلا الله في كل ما يقول ويفعل.

ومن أراد أن يصحح هذا المسير؛ فليتأمل قول الرسول ﷺ: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن**

---

(١) قال ابن كثير: قال ابن عباس: كقوله لنبيه ﷺ ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] وهي الشفاعة. وقال محمد بن إسحاق بن يسار: وعسى في القرآن من الله حق. (ق).

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ الآية [العنكبوت: ١٠].

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ الآية [العنكبوت: ١٠].

قال ابن كثير: يقول تعالىٰ مخبراً عن صفات قوم من المكذبين الذين يدَّعون الإيمان بألسنتهم، ولم يثبت في قلوبهم: إنهم إذا جاءتهم محنةٌ وفتنة في الدنيا، اعتقدوا أنها من نقمة اللَّه بهم، فارتدوا عن الإسلام.

قال ابن عباس: يعني: فتنته، أن يرتد عن دينه إذا أُوذي في اللَّه.

وقال ابن القيم: الناس إذا أُرسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم: آمنا، وإما أن لا يقول ذلك، بل يستمر علىٰ السيئات والكفر. فمن قال: آمنا، امتحنه ربه وابتلاه وفَتَنه. والفتنة: الابتلاء والاختبار، ليتبين الصادق من الكاذب. ومن لم يقل: آمنا. فلا يحسب أنه يُعجزُ اللَّه ويفوته ويسبقه. فمن آمن بالرسل وأطاعهم عاداه أعداؤهم وآذوه، فابُتلي بما يؤلمه. ومن يؤمن بهم ولم يُطعهم، عُوقب في الدنيا والآخرة، وحصل له ما يؤلمه، وكان هذا الألم أعظم وأدوم من ألم أتباعهم. فلابد من حصول الألم لكل نفس آمنت، أو رغبت عن الإيمان. لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداءً، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة. والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداءً، ثم يصير في الألم الدائم. والإنسان لا بد أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصورات. فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، وإن لم يوافقهم آذوه وعذَّبوه، وإن وافقهم حصل له العذاب تارة منهم وتارة من غيرهم. كمن عنده دين وتُقَىٰ حلَّ بين قوم فُجّار ظلمة، ولا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم أو سكوته عنهم. فإن وافقهم أو سكت عنهم سلم من شرهم في الابتداء، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذىٰ أضعاف ما كان يخافه ابتداءً لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سلم منهم فلابد أن يُهان ويعاقب علىٰ يد غيرهم.

فالحزم كل الحزم في الأخذ بما قالت أم المؤمنين عائشة رضي اللَّه عنها لمعاوية رضي اللَّه عنه: «من أرضىٰ

ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»[1].

الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، و﴿وَمِنَ﴾ تبعيضية.

وقوله: ﴿مَن يَقُولُ﴾: ﴿مَن﴾ مبتدأ مؤخر، والمراد بهؤلاء: من لا يصل الإيمان إلىٰ قرارة قلبه؛ فيقول: آمنا بالله، لكنه إيمان متطرف؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ [الحج: ١١]، ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي: علىٰ طرف. فإذا امتحنه الله بما يُقدرُ عليه من إيذاء الأعداء في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله.

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٤، ٢٧٥٨، ٢٨٠٠)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧٩٥٧).

. . . .

الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن أرضىٰ الناس بسخط الله لم يُغنوا عنه من الله شيئًا»(١)(٢).

فمن هداه الله وألهمه رُشده، ووقاه شر نفسه، امتنع من الموافقة علىٰ فعل المحرم، وصبر علىٰ عداوتهم، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة؛ كما كانت للرسل وأتباعهم.

ثم أخبر عن حال الداخل في الإيمان بلا بصيرة، وأنه إذا أُوذي في الله جعل فتنة الناس له، وهي أذاهم ونيلهم إياه بالمكروه، وهو الألم الذي لابد أن ينال الرسل وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك - في فراره منه وتركه السبب الذي يناله به - كعذاب الله الذي فر منه المؤمنون بالإيمان.

فالمؤمنون لكمال بصيرتهم، فرُّوا من ألم عذاب الله إلىٰ الإيمان، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المُفارق عن قُرب.

وهذا من ضعف بصيرته، فرَّ من ألم أعداء الرسل إلىٰ موافقتهم ومتابعتهم.

ففر من ألم عذابهم إلىٰ ألم عذاب الله، فجعل ألم فتنة الناس - في الفرار منه - بمنزلة عذاب الله. وغُبن كل الغبن؛ إذ استجار من الرَّمضاء بالنار، وفر من ألم ساعة إلىٰ ألم الأبد، وإذا نصر الله جنده وأولياءه، قال: إني كنت معكم، والله أعلم بما انطوىٰ عليه صدره من النفاق. انتهىٰ.

وفي الآية: ردٌّ علىٰ المرجئة والكرَّامية، ووجهه: أنه لم ينفع هؤلاء قولهم: آمنا بالله. مع عدم صبرهم علىٰ أذىٰ من عاداهم في الله، فلا ينفع القول والتصديق بدون العمل، فلا يصدق الإيمان

قوله: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾: ﴿فِي﴾: للسببية؛ أي: بسبب الإيمان بالله وإقامة دينه.

ويجوز أن تكون ﴿فِي﴾ للظرفية علىٰ تقدير: «فإذا أوذي في شرع الله»؛ أي: إيذاء في هذا الشرع الذي تمسك به.

قوله: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾: ﴿جَعَلَ﴾: صيَّر، و المراد بالفتنة هنا الإيذاء، وسُمي فتنة؛ لأن الإنسان يفتتن به، فيصد عن سبيل الله؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠]، وأضاف الفتنة إلىٰ الناس من باب إضافة المصدر إلىٰ فاعله.

قوله: ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾: ومعلوم أن الإنسان يفر من عذاب الله، فيوافق أمره؛ فهذا يجعل فتنة الناس كعذاب الله؛ فيفر من إيذائهم بموافقة أهوائهم وأمرهم جعلاً لهذه الفتنة كالعذاب؛ فحينئذ يكون قد خاف من هؤلاء كخوفه من الله؛ لأنه جعل إيذائهم كعذاب الله، ففر منه بموافقة أمرهم؛ فالآية موافقة للترجمة.

وفي هذه الآية من الحكمة العظيمة، وهي ابتلاء الله للعبد لأجل أن يمحص إيمانه، وذلك علىٰ قسمين:

الأول: ما يقدره الله نفسه علىٰ العبد؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]، وقوله تعالىٰ:

---

(١) رواه الترمذي عن عائشة عن النبي ﷺ وسيأتي. (ق).

(٢) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٢٣١١).

. . . .

الشرعي على الإنسان إلا باجتماع الثلاثة: التصديق بالقلب وعمله، والقول باللسان، والعمل بالأركان.

وهذا قول أهل السنة والجماعة، سلفًا وخلفًا. والله سبحانه أعلم.

وفيه: الخوف من مداهنة الخلق، والمعصوم من عصمه الله.

﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦].

الثاني: ما يقدره الله على أيدي الخلق من الإيذاء امتحانًا واختبارًا، وذلك كالآية التي ذكر المؤلف. وبعض الناس إذا أصابته مصائب لا يصبر، فيكفر ويرتد أحيانًا ـ والعياذ بالله ـ وأحيانًا يكفر بما خالف فيه أمر الله ـ عز وجل ـ في موقفه في تلك المصيبة، وكثير من الناس ينقص إيمانه بسبب المصائب نقصًا عظيمًا؛ فليكن المسلم على حذر، فالله حكيم يمتحن عباده بما يتبين به تحقق الإيمان، قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١].

قوله: «الآية»: أي: إلى آخر الآية، وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ١٠].

كانوا يدعون أن ما يحصل لهم من الإيذاء بسبب الإيمان، فإذا انتصر المسلمون قالوا: نحن معكم نريد أن يصيبنا مثل ما أصابكم من غنيمة وغيرها.

وقوله: ﴿ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾: قيل في مثل هذا السياق: إن الواو عاطفة على محذوف يُقدَّر بحسب ما يقتضيه السياق.

وقيل: إنها عاطفة على ما سبقها على تقدير أن الهمزة بعدها؛ أي: وأليس الله.

قوله: ﴿ أَعْلَمَ ﴾ مجرور بالفتحة؛ لأنه ممنوع من الصرف للوصفية ووزن الفعل.

فالله أعلم بما في صدور العالمين، أي بما في صدور الجميع؛ فالله أعلم بما في نفسك منك، وأعلم بما في نفس غيرك؛ لأن علم الله عام.

وكلمة ﴿ أَعْلَمَ ﴾ اسم تفضيل وقال بعض المفسرين ولا سيما المتأخرون منهم: (أعلم) بمعنى عالم، و ذلك فرارًا من أن يقع التفضيل بين الخالق والمخلوق، وهذا التفسير الذي ذهبوا إليه كما أنه خلاف اللفظ؛ ففيه فساد المعنى؛ لأنك إذا قلت: أعلم بمعنى عالم، فإن كلمة عالم تكون للإنسان وتكون لله، ولا تدل على التفاضل؛ فالله عالم والإنسان عالم.

وأما تحريف اللفظ؛ فهو ظاهر، حيث حرَّفوا اسم التفضيل الدال على ثبوت المعنى وزيادة إلى اسم فاعل لا يدل على ذلك.

والصواب أن ﴿ أَعْلَمَ ﴾ على بابها، وأنها اسم تفضيل، وإذا كانت اسم تفضيل؛ فهي دالة دلالة واضحة على عدم تماثل علم الخالق وعلم المخلوق، وأن علم الخالق أكمل.

وقوله: ﴿ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾: المراد بالعالمين: كل من سوى الله؛ لأنهم علم على خالقهم، فجميع المخلوقات دالة على كمال الله وقدرته وربوبيته.

قال المصنف رحمه الله تعالى: عن أبي سعيد مرفوعًا: «إن من ضَعَف اليقين: أن ترضى الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تَذُمَّهم على ما لم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره»[١].

قال المصنف رحمه الله تعالى: عن أبي سعيد مرفوعًا: «إن من ضَعَف اليقين: أن ترضى الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تَذُمَّهم على ما لم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره».

هذا الحديث رواه أبو نعيم في (الحلية)، والبيهقي. وأعله محمد بن مروان السُّدي، وقال: ضعيف. وفي إسناده أيضًا: عطية العوفي، ذكره الذهبي في (الضعفاء). وموسى بن بلال، قال الأزدي: ساقط.

وتمام الحديث: «وإن الله بحكمته جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط». والحديث وإن كان في إسناده من ذُكر، فمعناه صحيح.

قوله: «إن من ضعف اليقين» الضعيف: يُضمُّ ويحرك، ضد القوة، ضعف ككرم ونصر، ضعفًا، وضعفة، وضعافية، فهو ضعيف وضعوف وضعفان، والجمع: ضعاف وضعفاء وضعفة وضَعْفى وضعافى. أو الضَّعف ـ بالفتح ـ في الرأي، وبالضم في البدن، فهي ضعيفة وضعوف. واليقين: المراد به الإيمان كله؛ كما قال ابن مسعود: اليقين الإيمان كله، والصبر نصف الإيمان[٢]. رواه الطبراني بسند

اعلم أن الخوف والخشية تارة يقع عبادة وتارة يقع طبيعة وعادة، وذلك بحسب أسبابه ومتعلقاته، فإن كان الخوف والخشية خوف تأله وتعبد وتقرب بذلك الخوف إلى من يخافه وكان يدعو إلى طاعة باطنة وخوف سري يزجر عن معصية من يخافه كان تعلقه بالله من أعظم واجبات الإيمان، وتعلقه بغير الله من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، لأنه أشرك في هذه العبادة التي هي من أعظم واجبات القلب غير الله مع الله، وربما زاد خوفه من غير الله على خوفه لله، وأيضًا فمن خشي الله وحده على هذا الوجه فهو مخلص موحد، ومن خشي غيره فقد جعله لله ندًا في الخشية كمن جعل لله ندًا في المحبة وذلك كمن يخشى من صاحب القبر أن يوقع به مكروهًا أو يغضب عليه فيسلبه نعمة أو نحو ذلك مما هو واقع من عباد القبور.

والله أعلم بنفسك منك ومن غيرك؛ لعموم الآية.

وفي الآية تحذير من أن يقول الإنسان خلاف ما في قلبه، ولهذا لما تخلف كعب بن مالك في غزوة تبوك قال للرسول ﷺ حين رجع: «إني قد أوتيت جدلاً، ولو جلست إلى غيرك من ملوك الدنيا؛ لخرجت منهم بعذر، لكن لا أقول شيئًا تعذرني فيه فيفضحني الله فيه»[٣].

---

(١) موضوع: ذكره العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (١٤٨٢).

(٢) صحيح: رواه البخاري معلقًا في كتاب الإيمان باب بني الإسلام على خمس موقوفًا على ابن مسعود وقال الحافظ في الفتح (١/ ٤٨): ووصله الطبراني بسند صحيح.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

. . . .

صحيح ، وأبو نعيم في (الحلية)، والبيهقي في (الزهد) من حديثه مرفوعًا .

قال : ويدخل في ذلك تحقيق الإيمان بالقدر السابق ؛ كما في حديث ابن عباس مرفوعًا : «**فإن استطعت أن تعمل بالرضا في اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً**»[1]، وفي رواية : قلت : يا رسول الله كيف أصنع باليقين؟ قال : «**أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك**»[2] .

قوله: «أن تُرضي الناس بسخط الله» أي: تؤثر رضاهم على رضا الله، بأن توافقهم على ترك ما أمر الله به، وفعل ما نهى عنه؛ استجلابًا لرضاهم.

وهذا ينافي قوة اليقين، وكمال الإيمان في إيثار ما يُرضي الله على ما تهواه النفوس، والصبر على مخالفة هواها؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ [الاحزاب: ٣٩] . وذلك إذا لم يقم بقلبه من إعظام الله وإجلاله وهيبته، ما يمنعه من استجلاب رضا المخلوق بما يجلب له سخط خالقه وربه ومليكه، الذي يتصرف في القلوب ويفرِّج الكروب، ويغفر الذنوب. وبهذا الاعتبار يدخل في نوع من الشرك؛ لأنه آثر رضا المخلوق على رضا الله، وتقرب إليه بما يسخط الله، ولا يسلم من هذا إلا من سلمه الله، ووفقه لمعرفته، ومعرفة ما يجوز على الله من إثبات صفاته على ما يليق بجلاله، وتنزيهه تعالى عن كل ما يُنافي كماله، ومعرفة توحيده في ربوبيته وإلهيته، وبالله التوفيق.

قوله: «وأن تحمدهم على رزق الله» أي: على ما وصل إليك على أيديهم، بأن تضيفه إليهم

الشاهد من الآية:

قوله: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾؛ فخاف الناس مثل خوف الله تعالى.

قوله في حديث أبي سعيد: «إن من ضعف اليقين»: «من»: للتبعيض، والضعف عكس القوة، ويقال: ضَعفٌ أو ضُعف، وكلاهما بمعنى واحد؛ أي: من علامة ضعف اليقين.

قوله: «أن ترضي الناس بسخط الله»: «أن ترضي»: اسم إن مؤخر، وخبرها مقدم: «من ضعف اليقين»، والتقدير: إن إرضاء الناس بسخط الله من ضعف اليقين.

قوله: «بسخط الله»: الباء للعوض، يعني: أي تجعل عوض إرضاء الناس سخط الله، فتستبدل هذا بهذا؛ فهذا من ضعف اليقين. واليقين أعلى درجات الإيمان، وقد يراد به العلم، كما تقول: تيقنت هذا الشيء، أي: علمته يقينًا لا يعتريه الشك، فمن ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله؛ إذ أنك خفت الناس أكثر مما تخاف الله، وهذا مما ابتليت به الأمة الإسلامية اليوم؛ فتجد الإنسان يجيء إلى شخص فيمدحه، وقد يكون خاليًا من هذا المدح، ولا يُبين ما فيه من عيوب، وهذا من النفاق وليس من النصح والمحبة، بل النصح أن تبين له عيوبه ليتلافاها ويحترز منها، ولا بأس أن تذكر له محامده تشجيعًا إذا أُمِن في ذلك من الغرور.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٤١) وفي إسناده ضعف شديد لوجود القداح عبد الله بن ميمون قال عنه البخاري: ذاهب الحديث، وقال أبو زرعة: واهي الحديث، وقال أبو حاتم الرازي والنسائي: منكر الحديث، وقال الترمذي: منكر الحديث، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يُتابع عليه.

(٢) صحيح بشواهده: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٢٤٣٩).

. . . .

وتحمدهم عليه؛ فإن المتفضل في الحقيقة هو اللّٰه وحده، الذي قدره لك وأوصله إليك، وإذا أراد أمرًا قيَّض له أسبابًا. ولا ينافي هذا حديث: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»[(١)(٢)]؛ لأن شكرهم إنما هو في الدعاء لهم، لكون اللّٰه ساقه على أيديهم، فتدعو لهم أو تكافئهم، لحديث: «مَنْ صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»[(٣)(٤)] فإضافة الصَّنيعة إليهم لكونهم صاروا سببًا في إيصال المعروف إليك، والذي قدره وساقه هو اللّٰه وحده.

قوله: «وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله» لأنه لم يقدر لك ما طلبته على أيديهم، فلو قُدِّر لك لساقته المقادير إليك. فمن علم أن المتفرد بالعطاء والمنع هو اللّٰه وحده، وأنه الذي يرزق العبد بسبب وبلا سبب، ومن حيث لا يحتسب، لم يمدح مخلوقًا على رزق، ولم يذمه على منع، ويفوِّض أمره

قوله: «وأن تحمدهم على رزق الله»: الحمدُ وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم، ولكنه هنا ليس بشرط المحبة والتعظيم؛ لأنه يشمل المدح. و«رزق الله»: عطاء الله؛ أي: إذا أعطوك شيئًا حمدتهم ونسيت المُسبِّب وهو الله، والمعنى: أن تجعل الحمد كله لهم متناسيًا بذلك المسبب، وهو الله؛ فالذي أعطاك سبب فقط، والمعطي هو الله، ولهذا قال النبي ﷺ «إنما أنا قاسم، والله يعطي»[(٥)] أما إن كان في قلبك أن الله هو الذي منَّ عليك بسياق هذا الرزق، ثم شكرت الذي أعطاك؛ فليس هذا داخلاً في الحديث، بل هو من الشرع؛ لقوله ﷺ «من صنع إليكم معروفًا؛ فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئو به؛ فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»[(٦)].

إذن الحديث ليس على ظاهره من كل وجه؛ فالمراد بالحمد: أن تحمدهم الحمد المطلق ناسيًا المُسبِّب وهو الله-عز وجل-، وهذا من ضعف اليقين، كأنك نسيت المنعم الأصلي، وهو الله -عز وجل-، الذي له النعمة الأولى، وهو سفه أيضًا؛ لأن حقيقة الأمر أن الذي أعطاك هو الله، فالبشر الذي أعطاك هذا الرزق لم يخلق ما أعطاك، فالله هو الذي خلق ما بيده، وهو الذي عطف قلبه حتى أعطاك، أرأيت لو أن إنسانًا له طفل، فأعطى طفله ألف درهم وقال له: أعطها فلانًا، فالذي أخذ الدراهم يحمد الأب؛ لأنه لو حمد الطفل فقط لَعُدَّ هذا سفهًا؛ لأن الطفل ليس إلا مُرسَلاً فقط، وعلى هذا؛ فنقول: إنك إذا حمدتهم ناسيًا بذلك ما يجب لله من الحمد والثناء؛ فهذا هو الذي من ضعف اليقين، أما إذا حمدتهم على أنهم سبب من الأسباب، وأن الحمد كله لله-عز وجل-؛ فهذا حق، وليس من ضعف اليقين.

قوله: «وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله»: هذه عكس الأولى؛ فمثلاً: لو أن إنسانًا جاء إلى شخص يوزع دراهم، فلم يعطه، فسبه وشتمه؛ فهذا من الخطأ؛ لأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم

---

(١) رواه أبو داود والترمذي - وقال: حسن صحيح - وابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه.(ق).

(٢) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٤١٦).

(٣) رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح. كذا في كشف الخفاء.(ق).

(٤) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح أبي داود (١٤٦٨).

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (٧١) ومواضع، ومسلم (١٠٣٧، ٢١٣٣).

(٦) صحيح: رواه أبو داود (٥١٠٩)، والنسائي (٢٥٦٧)، وأحمد (٥٣٤٢)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الإرواء (١٦١٧).

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس، رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله،

إلى اللَّه، ويعتمد عليه في أمور دينه ودنياه.

وقد قرر هذا المعنى بقوله في الحديث: **«إن رزق الله لا يجرُّه حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره»**؛ كما قال تعالى: ﴿**مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [فاطر: ٢].

قال شيخ الإسلام: اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر اللَّه وما وعد اللَّه أهل طاعته، ويتضمن اليقين بقدر اللَّه وخلقه وتدبيره. فإذا أرضيتهم بسخط اللَّه لم تكن موقنًا لا بوعده ولا برزقه، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك: إما ميل إلى ما في أيدي الناس، فيترك القيام فيهم بأمر اللَّه لما يرجوه منهم. وإما ضعف تصديقه بما وعد اللَّه أهل طاعته، من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة. فإنك إذا أرضيت اللَّه، نصرك ورزقك وكفاك مؤونتهم. وإرضاؤهم بما يَسخَطُه إنما يكون خوفًا منهم ورجاءً لهم، وذلك من ضعف اليقين. وإذا لم يُقدَّر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك، فالأمر في ذلك إلى اللَّه لا لهم؛ فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فإذا ذممتهم على ما لم يُقدَّر كان ذلك من ضعف يقينك. فلا تَخَفهم ولا ترجهم، ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك. ولكن من حَمِدَه اللَّه ورسوله فهو المحمود، ومن ذمَّه اللَّه ورسوله منهم فهو المذموم. ولما قال بعض وفد بني تميم: أي محمد، أعطني! فإن حَمْدي زين، وذَمِّي شين، قال ﷺ: **«ذاك الله»**[1] انتهى.

ودل الحديث على أن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأعمال من مسمى الإيمان.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «من

يكن. لكن من قَصّر بواجب عليه، فيُذَم لأجل أنه قصر بالواجب لا لأجل أنه لم يعط؛ فلا يذم من حيث القدر؛ لأن الله لو قدر ذلك لوجدت الأسباب التي يصل بها إليك هذا العطاء.

وقوله: «ما لم يؤتك»: علامة جزمه حذف الياء، والمفعول الثاني محذوف؛ لأنه فضلة، والتقدير: ما لم يؤتكه.

قوله: «إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره»: هذا تعليل؛ لقوله: **«أن تحمدهم وأن تذمهم»**. و**«رزق الله»**: عطاؤه، لكن حرص الحريص من سببه بلا شك، فإذا بحث عن الرزق وفَعَلَ الأسباب؛ فإنه يكون فعل الأسباب الموجبة للرزق، لكن ليس المعنى أن هذا السبب موجب مستقل، وإنما الذي يرزق هو الله تعالى، وكم من إنسان يفعل أسبابًا كثيرة للرزق ولا يرزق، وكم من إنسان يفعل أسبابًا قليلة فيرزق، وكم من إنسان يأتيه الرزق بدون سعي، كما لو وجد ركازًا في الأرض أو مات له قريب غني يرثه، أو ما أشبه ذلك.

وقوله: «ولا يرده كراهية كاره»: أي: أن رزق الله إذا قُدّر للعبد؛ فلن يمنعه عنه كراهية كاره؛ فكم من إنسان حسده الناس، وحاولوا منع رزق الله فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً.

قوله في حديث عائشة رضي الله عنها: «من التمس رضا الله بسخط الناس»: **«التمس»**:

---

(١) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (٢٦٠٦).

سَخطَ الله عليه وأسخط عليه الناس»[1] رواه ابن حبان في (صحيحه).

التمس رضا الله بسخط الناس، رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، سَخطَ الله عليه وأسخط عليه الناس» رواه ابن حبان في (صحيحه).

هذا الحديث: رواه ابن حبان بهذا اللفظ، ورواه الترمذي عن رجل من أهل المدينة، قال: كتب معاوية، إلى عائشة: أن اكتبي لي كتابًا توصيني فيه، ولا تُكثري عليَّ، فكتبت عائشة إلى معاوية: سلام عليك، أما بعد: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكَلَه الله إلى الناس» والسلام عليك. ورواه أبو نعيم.

قوله: «من التمس»: أي: طلب.

قال شيخ الإسلام: وكتبت عائشة إلى معاوية، وروي أنها رفعته: «من أرضا اللّه بسخط الناس كفاه اللّه مؤونة الناس، ومن أرضى الناس بسخط اللّه لم يُغنوا عنه من اللّه شيئًا» هذا لفظ المرفوع.

ولفظ الموقوف: من أرضى اللّه بسخط الناس رضي اللّه عنه وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناس بسخط اللّه عاد حامدُه من الناس له ذامًا. وهذا من أعظم الفقه في الدين؛ فإن من أرضى اللّه بسخطهم كان قد اتقاه، وكان عبده الصالح، واللّه يتولى الصالحين، واللّه كافٍ عبده ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] واللّه يكفيه مؤونة الناس بلا ريب!

وأما كون الناس كلهم يرضون عنه، فقد لا يحصل ذلك، لكن يرضون عنه إذا سَلِموا من الأغراض، وإذا تبين لهم العاقبة.

«ومن أرضى الناس بسخط الله لم يُغنوا عنه من الله شيئًا» كالظالم الذي يَعضُّ على يديه. وأما كون حامده ينقلب ذامًا، فهذا يقع كثيرًا، ويحصل في العاقبة. فإن العاقبة للتقوى، لا تحصل ابتداءً عند أهوائهم. انتهى.

وقد أحسن من قال:

طلب، ومنه قوله ﷺ في ليلة القدر: «التمسوها في العشر»[2].

وقوله: «رضا الله»: أي: أسباب رضاه.

وقوله: «بسخط الله»: الباء للعِوض؛ أي: إنه طلب ما يرضي الله ولو سخط الناس به بدلاً من هذا الرضا، وجواب الشرط: «رضي الله عنه وأرضى عنه الناس».

قوله: «رضي الله عنه وأرضى عنه الناس»: هذا ظاهر، فإذا التمس العبد رضا ربه بنية صادقة رضي الله عنه؛ ـ لأنه أكرم من عبده ـ وأرضى عنه الناس، ـ وذلك بما يلقي في قلوبهم من الرضا عنه ومحبته ـ؛ لأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

قوله: «ومن التمس رضا الناس بسخط الله»: «التمس»: طلب؛ أي: طلب ما يرضي الناس، ولو كان يسخط الله؛ فنتيجة ذلك أن يعامل بنقيض قصده، لهذا قال: «سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»؛ فألقى في قلوبهم سخطه وكراهيته.

---

(١) صحيح: رواه ابن حبان (٢٧٦)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٠٩٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠١٥)، ومسلم (١١٦٥)، وأبو داود (١٣٨٥)، وأحمد (٤٤٨٥) ومواضع.

. . . .

إذا صح منك الودُّ يا غاية المُنى ... فكلُّ الذي فوق التراب تُراب

قال ابن رجب: فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب، فكيف يقدِّم طاعةَ من هو تراب على طاعة رب الأرباب؟ أم كيف يُرضي التراب بسخط الملك الوهاب؟ إن هذا لشيء عجاب.

وفي الحديث: عقوبة من خاف الناس وآثر رضاهم على الله، وأن العقوبة قد تكون في الدين. عياذًا بالله من ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٧].

وإن كان الخوف طبيعيًّا كمن يخشى من عدو أو سبع أو حية أو نحو ذلك مما يخشى ضرره الظاهري: فهذا النوع ليس عبادة وقد يوجد من كثير من المؤمنين ولا ينافي الإيمان، وهذا إذا كان خوفًا محققًا قد انعقدت أسبابه فليس بمذموم، وإن كان هذا خوفًا وهميًّا كالخوف الذي ليس له سبب أصلاً أو له سبب ضعيف، فهذا مذموم يدخل صاحبه في وصف الجبناء وقد تعوذ ﷺ من الجبن فهو من الأخلاق الرذيلة، ولهذا كان الإيمان التام والتوكل والشجاعة تدفع هذا النوع، حتى أن خواص المؤمنين وأقوياءهم تنقلب المخاوف في حقهم أمنًا وطمأنينة لقوة إيمانهم وشجاعتهم الشجاعة القلبية، وكمال توكلهم، ولهذا أتبعه بهذا الباب:

مناسبة الحديث للترجمة:

قوله: «ومن التمس رضا الناس بسخط الله»؛ أي: خوفًا منهم حتى يرضوا عنه؛ فقد خوفهم على مخافة الله تعالى.

فيستفاد من الحديث ما يلي:

١ - وجوب طلب ما يرضي الله وإن سخط الناس؛ لأن الله هو الذي ينفع ويضر.

٢ - أنه لا يجوز أن يلتمس ما يسخط الله من أجل إرضاء الناس كائنًا من كان.

٣ - إثبات الرضا والسخط لله على وجه الحقيقة، لكن بلا مماثلة للمخلوقين؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، وأما أهل التعطيل؛ فأنكروا حقيقة ذلك، قالوا: لأن الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام، وهذا لا يليق بالله، وهذا خطأ؛ لأنهم قاسوا سخط الله أو غضبه بغضب المخلوق، فنرد عليهم بأمرين: بالمنع، ثم النقض:

فالمنع: أن نمنع أن يكون معنى الغضب المضاف إلى الله - عز وجل - كغضب المخلوقين.

والنقض: فنقول للأشاعرة: أنتم أثبتم لله - عز وجل - الإرادة، وهي ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة، والرب عز وجل لا يليق به ذلك، فإذا قالوا: هذه إرادة المخلوق.

نقول: والغضب الذي ذكرتم هو غضب المخلوق.

وكل إنسان أبطل ظواهر النصوص بأقيسة عقلية: فهذه الأقيسة باطلة لوجوه:

الأول: أنها تبطل دلالة النصوص، وهذا يقتضي أن تكون هي الحق، ومدلول النصوص باطل، وهذا ممتنع.

الثاني: أنه تقوّلٌ على الله بغير علم؛ لأن الذي يبطل ظاهر النص يُؤوله إلى معنى آخر؛ فيقال له: ما الذي أدراك أن الله أراد هذا المعنى دون ظاهر النص؟ ففيه تقوّلٌ على الله في النفي والإثبات في

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران. **الثانية: تفسير آية براءة.**

الثالثة: تفسير آية العنكبوت. **الرابعة: أنَّ اليقين يَضعَفُ ويقوى.**

الخامسة: علامة ضعفه، ومن ذلك هذه الثلاث.

السادسة: أنَّ إخلاص الخوف لله من الفرائض.

السابعة: ذكر ثواب من فعله. **الثامنة: ذكر عقاب من تركه.**

نفي الظاهر، وفي إثبات ما لم يدل عليه دليل.

الثالث: أن فيه جناية على النصوص، حيث اعتقد أنها دالة على التشبيه، لأنه لم يعطل إلا لهذا السبب؛ فيكون ما فهم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كفرًا أو ضلالاً.

الرابع: أن فيها طعنًا بالرسول ﷺ وخلفائه الراشدين؛ لأننا نقول: هذه المعاني التي صرفتم النصوص إليها هل الرسول ﷺ وخلفاؤه يعلمون بها أم لا؟ فإن قالوا: لا يعلمون فقد اتهموهم بالقصور، وإن قالوا: يعلمون ولم يبينوها؛ فقد اتهموهم بالتقصير.

فلا تستوحش من نص دل على صفة أن تثبتها، لكن يجب عليك أن تجتنب أمرين هما: التمثيل والتكييف؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]. فإذا أثبت الله لنفسه وجهًا أو يدين؛ فلا تستوحش من إثبات ذلك؛ لأن الذي أخبر به عن نفسه أعلم بنفسه من غيره وأصدق قيلاً وأحسن حديثًا، وهو يريد لخلقه الهداية، وإذا أثبت رسوله ذلك له؛ فلا تستوحش من إثباته؛ لأنه ﷺ:

- أصدق الخلق. - وأعلمهم بما يقول عن الله.
- وأبلغهم نطقًا وفصاحةً. - وأنصح الخلق للخلق.

فمن أنكر صفة أثبتها الله لنفسه أو أثبتها له رسوله، وقال: هذا تقشعر منه الجلود وتنكره القلوب؛ فيقال: هذا لا ينكره إلا إنسان في قلبه مرض، أما الذين آمنوا؛ فلا تنكره قلوبهم، بل تؤمن به وتطمئن إليه، ونحن لم نُكَلَّف إلا بما بَلَغنا، والله يريد لعباده البيان والهدى. قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]؛ فهو لا يريد أن يعمي عليهم الأمر، فيقول: إنه يغضب وهو لا يغضب، ويقول: إنه يهرول وهو لا يهرول، هذا خلاف البيان.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران: وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] وسبق.

الثانية: تفسير آية براءة: وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨]، وسبق.

الثالثة: تفسير آية العنكبوت: وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ

٣٢ـ باب قول الله تعالى:
﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب قول الله تعالى: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣].

قال أبو السعادات: يقال: توكَّل بالأمر: إذا ضمن القيام به، ووكَّلتُ أمري إلىٰ فلان: إذا اعتمدت عليه، ووكَّل فلانٌ فلانًا: إذا استكفاه أمرَه ثقةً بكفايته، أو عجزًا عن القيام بأمر نفسه. انتهىٰ.

وأراد المصنف بهذه الترجمة بالآية: بيان أن التوكل فريضة يجب إخلاصه للّٰه تعالىٰ؛ فإن تقديم المعمول يُفيد الحصر، أي: وعلىٰ اللّٰه فتوكلوا لا علىٰ غيره، فهو من أجمع أنواع العبادة وأعظمها، لما ينشأُ عنه من الأعمال الصالحة. فإنه إذا اعتمد علىٰ اللّٰه في جميع أموره الدينية والدنيوية، دون كل ما

جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ [العنكبوت: ١٠]، وقد تكلمنا علىٰ تفسيرها فيما سبق.

الرابعة: أن اليقين يضعف ويقوى: تؤخذ من الحديث: «إن من ضعف اليقين..» الحديث.

الخامسة: علامة ضعفه، ومن ذلك هذه الثلاث: وهي: أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم علىٰ رزق الله، وأن تذمهم علىٰ ما لم يؤتك الله.

السادسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض: وتؤخذ من قوله في الحديث: «من التمس...» الحديث، ووجهه ترتيب العقوبة علىٰ من قدَّم رضا الناس علىٰ رضي الله تعالىٰ.

السابعة: ذكر ثواب من فعله: وهو رضا الله عنه، وأنه يرضي عنه الناس، وهو العاقبة الحميدة.

الثامنة: ذكر عقاب من تركه: وهو أن يسخط الله عليه ويسخط عليه الناس، ولا ينال مقصوده.

وخلاصة الباب: أنه يجب علىٰ المرء أن يجعل الخوف من الله فوق كل خوف، وأن لا يبالي بأحد في شريعة الله تعالىٰ، وأن يعلم أن من التمس رضا الله تعالىٰ وإن سخط الناس عليه؛ فالعاقبة له، وإن التمس رضا الناس وتعلق بهم وأسخط الله؛ انقلبت عليه الأحوال، ولم ينل مقصوده، بل حصل له عكس مقصوده، وهو أن يسخط الله عليه ويسخط عليه الناس.

❊ ❊ ❊

مناسبة هذا الباب لما قبله:

هي أن الإنسان إذا أفرد الله ـ سبحانه ـ بالتوكل؛ فإنه يعتمد عليه في حصول مطلوبه وزوال مكروهه، ولا يعتمد علىٰ غيره. والتوكل: هو الاعتماد علىٰ الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ في حصول المطلوب، ودفع المكروه، مع الثقة به وفعل الأسباب المأذون فيها، وهذا أقرب تعريف له، ولابد من أمرين:

الأول: أن يكون الاعتماد علىٰ الله اعتمادًا صادقًا حقيقيًا.

الثاني: فعل الأسباب المأذون فيها. فمن جعل أكثر اعتماده علىٰ الأسباب؛ نقص توكله علىٰ الله، ويكون قادحًا في كفاية الله؛ فكأنه جعل السبب وحده هو العمدة فيما يصبو إليه من حصول المطلوب وزوال المكروه. ومن جعل اعتماده علىٰ الله ملغيًا للأسباب؛ فقد طعن في حكمة الله؛ لأن

. . . .

سواه، صح إخلاصه ومعاملته مع اللَّه تعالىٰ. فهو من أعظم منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فلا يحصل كمالُ التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل على اللَّه؛ كما في هذه الآية، وكما قال تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وقوله: ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل: ٩]، والآيات في الأمر به كثيرة جداً.

قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب.

وقال ابن القيم في معنى الآية المترجم بها: فجعل التوكل على اللَّه شرطًا في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] فجعل دليل صحة الإسلام التوكل، وكلما قوي توكل العبد كان إيمانه أقوىٰ، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفًا كان دليلاً على ضعف الإيمان ولابد. واللَّه تبارك وتعالىٰ يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والتقوىٰ، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والهداية.

فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس؛ فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته؛ وأعماله إلا على ساق التوكل.

الله جعل لكل شيء سببًا، فمن اعتمد على الله اعتمادًا مجردًا؛ كان قادحًا في حكمة الله؛ لأن الله حكيم، يربط الأسباب بِمُسَبَّباتها، كمن يعتمد على الله في حصول الولد وهو لا يتزوج.

والنبي ﷺ أعظم المتوكلين، ومع ذلك كان يأخذ بالأسباب؛ فكان يأخذ الزاد في السفر، ولما خرج إلىٰ أُحد ظاهر بين درعين؛ أي: لبس درعين اثنين[1]، ولما خرج مهاجرًا أخذ من يدله الطريق، ولم يقل سأذهب مهاجرًا وأتوكل على الله، ولن أصطحب معي من يدلني الطريق، وكان ﷺ يتقي الحر والبرد، ولم ينقص ذلك من توكله. ويذكر عن عمر رضي الله عنه أن قَدِم ناس من أهل اليمن إلىٰ الحج بلا زاد، فجيء بهم إلىٰ عمر، فسألهم، فقالوا: نحن المتوكلون على الله.

فقال: لستم المتوكلين، بل أنتم المتواكلون.

والتوكل نصف الدين، ولهذا نقول في صلاتنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فنطلب من الله العَون اعتمادًا عليه سبحانه بأنه سيعيننا على عبادته. وقال تعالىٰ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وقال تعالىٰ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. ولا يمكن تحقيق العبادة إلا بالتوكل؛ لأن الإنسان لو وُكِل إلىٰ نفسه وُكِل إلىٰ ضعف وعجز، ولم يتمكن من القيام بالعبادة؛ فهو حين يعبد الله يشعر أنه متوكل على الله، فينال بذلك أجر العبادة وأجر التوكل، ولكن الغالب عندنا ضعف التوكل، وأننا لا نشعر حين نقوم بالعبادة أو العادة بالتوكل على الله والاعتماد عليه في أن ننال هذا الفعل، بل نعتمد في الغالب على

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٢٥٩٠)، وابن ماجه (٢٨٠٦)، وأحمد (١٥٢٩٥)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود، وحسنه في تخريج فقه السيرة ص (٢٥١).

. . . .

قال شيخ الإسلام: وما رجا أحد مخلوقًا أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه؛ فإنه مشرك: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

قال الشارح: قلت: لكن التوكل على [غير] اللَّه قسمان:

أحدهما: التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا اللَّه، كالذي يتوكل على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم: من نصر أو حفظ أو رزق أو شفاعة، فهذا شرك أكبر.

الثاني: التوكل في الأسباب الظاهرة، كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما أقدره اللَّه تعالى عليه: من رزق، أو دفع أذى ونحو ذلك، فهو نوع شرك أصغر.

والوكالة الجائزة: هي توكيل الإنسان في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه، لكن ليس له أن يعتمد عليه في حصول ما وكله عليه، بل يتوكل على اللَّه في تيسير أمره الذي يطلبه بنفسه أو نائبه، وذلك من جملة الأسباب التي يجوز فعلها، ولا يعتمد عليها، بل يعتمد على المسبب الذي أوجد السبب والمسبب.

الأسباب الظاهرة وننسى ما وراء ذلك؛ فيفوتنا ثواب عظيم، وهو ثواب التوكل، كما أننا لا نُوفَّق إلى حصول المقصود كما هو الغالب، سواء حصل لنا عوارض توجب انقطاعها، أو عوارض توجب نقصها.

والتوكل ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توكل عبادة وخضوع، وهو الاعتماد المطلق على من توكل عليه، بحيث يعتقد أن بيده جلب النفع ودفع الضر؛ فيعتمد عليه اعتمادًا كاملاً، مع شعوره بافتقاره إليه؛ فهذا يجب إخلاصه لله تعالى، ومن صرفه لغير الله؛ فهو مشرك شركًا أكبر؛ كالذين يعتمدون على الصالحين من الأموات والغائبين، وهذا لا يكون إلا ممن يعتقد أن لهؤلاء تصرفًا خفيًا في الكون، فيعتمد عليهم في جلب المنافع ودفع المضار.

الثاني: الاعتماد على شخص في رزقه ومعاشه وغير ذلك، وهذا من الشرك الأصغر، وقال بعضهم: من الشرك الخفي، مثل اعتماد كثير من الناس على وظيفته في حصول رزقه، ولهذا تجد الإنسان يشعر من نفسه أنه معتمد على هذا اعتماد افتقار؛ فتجد في نفسه من المحاباة لمن يكون هذا الرزق عنده ما هو ظاهر؛ فهو لم يعتقد أنه مجرد سبب، بل جعله فوق السبب.

الثالث: أن يعتمد على شخص فيما فوض إليه التصرف فيه، كما لو وكَّلت شخصًا في بيع شيء أو شرائه، وهذا لا شيء فيه؛ لأنه اعتمد عليه وهو يشعر أن المنزلة العليا له فوقه؛ لأنه جعله نائبًا عنه، وقد وكل النبي ﷺ علي بن أبي طالب أن يذبح ما بقي من هديه، ووكل أبا هريرة على الصدقة[1]، ووكل عروة بن الجعد أن يشتري له أضحية[2]، وهذا بخلاف القسم الثالث؛ لأنه يشعر بالحاجة إلى ذلك، ويرى اعتماده على المُتوكَّل عليه اعتماد افتقار.

ومما سبق يتبين أن التوكل من أعلى المقامات، وأنه يجب على الإنسان أن يكون مصطحبًا له في جميع شؤونه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولا يكون للمعطلة أن يتوكلوا على الله ولا للمعتزلة القدرية»؛ لأن المعطلة

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٢٧٥، ٥٠١٠).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٣٦٤٣)، وأبو داود (٣٣٨٤)، والترمذي (١٢٥٨)، وابن ماجه (٢٤٠٢)، وأحمد (١٨٨٦٧).

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

قال ابن عباس في الآية: المنافقون، لا يدخل في قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون على الله، ولا يصلُّون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم. فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأدوا فرائضه[1]. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

يعتقدون انتفاء الصفات عن الله تعالى، والإنسان لا يعتمد إلا على من كان كامل الصفات المستحقة لأنه يعتمد عليه.

وكذلك القدرية؛ لأنهم يقولون: إن العبد مستقل بعمله، والله ليس له تصرف في أعمال العباد.

ومن ثمَّ نعرف أن طريق السلف هو خير الطرق، وبه تكمل جميع العبادات وتتم به جميع أحوال العابدين.

وقد ذكر المؤلف في هذا الباب أربع آيات، أولها ما جعله ترجمة للباب، وهي قوله تعالى: ﴿وعلى الله فتوكلوا﴾.

﴿على الله﴾ متعلقة بقوله: (توكلوا) وتقديم المعمول يدل على الحصر؛ أي: على الله لا على غيره. ﴿فتوكلوا﴾؛ أي: اعتمدوا.

والفاء لتحسين اللفظ وليست عاطفة؛ لأن في الجملة حرف عطف وهو الواو، ولا يمكن أن نعطف الجملة بعاطفين، فتكون لتحسين اللفظ؛ كقوله تعالى: ﴿بل الله فاعبد﴾ والتقدير: «بل الله اعبد».

قوله: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾: ﴿إن﴾: شرطية، وفعل الشرط ﴿كنتم﴾، وجوابه قيل: إنه محذوف دل عليه ما قبله، وتقدير الكلام: إن كنتم مؤمنين فتوكلوا، وقيل: إنه في مثل هذا التركيب لا يحتاج إلى جواب اكتفاء بما سبق؛ فيكون ما سبق كأنه فعل معلق بهذا الشيء، وهذا أرجح، لأن الأصل عدم الحذف.

وقول أصحاب موسى في هذه الآية تفيد أن التوكل من الإيمان ومن مقتضياته، كما لو قلت: إن كنت كريمًا فأكرم الضيف، فيقتضي أن إكرام الضيف من الكرم. وهذه الآية تقتضي انتفاء كمال الإيمان بانتفاء التوكل على الله؛ إلا إن حصل اعتماد كُلي على غير الله؛ فهو شرك أكبر ينتفي له الإيمان كله.

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾: ﴿إنما﴾: أداة حصر، والحصر هو إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما عداه، والمعنى، ما المؤمنون إلا هؤلاء. وذكر الله في هذه الآية وما بعدها خمسة أوصاف:

أحدها: قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: خافت لما فيها من تعظيم الله تعالى، مثال ذلك: رجل هَمَّ بمعصية، فذكر الله أو ذُكِّر به، وقيل له: اتق الله. فإن كان مؤمنًا؛ فإنه سيخاف، وهذا هو علامة الإيمان.

---

(١) تمامه عند ابن جرير ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢] يقول: تصديقًا. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾. يقول: لا يرجون غيره. (ق).

. . . .

ووَجَلُ القلب من اللَّه يستلزم القيام بفعل ما أمر به، وترك ما نهىٰ عنه.

قال السدي: ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ هو الرجل يريد أن يظلم، أو قال يَهِمّ بمعصية، فيقال له: اتقِ اللّه، فيجل قلبه[1]، رواه ابن أبي شيبة وابن جرير.

قوله: ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ استدل الصحابة والتابعون ومن تبعهم من أهل السنة، بهذه الآية ونظائرها علىٰ زيادة الإيمان ونقصانه.

قال عُمير بن حبيب، الصحابي: إن الإيمان يزيد وينقص. فقيل له: وما زيادته ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا اللّه وخشيناه، فذلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيَّعنا، فذلك نقصانه. رواه ابن سعد.

وقال مجاهد: الإيمان يزيد وينقص، وهو قول وعمل. رواه ابن أبي حاتم. وحكىٰ الإجماع علىٰ ذلك الشافعي، وأحمد، وأبو عبيد، وغيرهم.

وقوله: ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي: يعتمدون عليه بقلوبهم، مفوِّضين إليه أمورهم. فلا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يرغبون إلا إليه، يعلمون أن ما شاء اللّه كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده، والمعبود وحده لا شريك له.

وفي الآية: وصف المؤمنين حقًا بثلاث مقامات من مقامات الإحسان، وهي: الخوف، وزيادة الإيمان، والتوكل علىٰ اللّه وحده. وهذه المقامات تقتضي كمال الإيمان، وحصول أعماله الباطنة

الوصف الثاني: قوله: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾؛ أي: تصديقًا وامتثالاً، وفي هذا دليل علىٰ أن الإنسان قد ينتفع بقراءة غيره أكثر مما ينتفع بقراءة نفسه كما أمر الرسول ﷺ عبد الله بن مسعود أن يقرأ عليه، فقال: كيف أقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال: «إني أحب أن أسمعه من غيري». فقرأ عليه من سورة «النساء» حتىٰ بلغ قوله تعالىٰ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]. قال: «حسبك». فنظرت؛ فإذا عيناه تذرفان[2].

الوصف الثالث: قوله: ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾؛ أي: يعتمدون علىٰ الله لا علىٰ غيره، وهم مع ذلك يعملون بالأسباب، وهذا هو الشاهد.

الوصف الرابع: قوله: ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾؛ أي: يأتون بها مستقيمة كاملة، والصلاة: اسم جنس تشمل الفرائض والنوافل.

الوصف الخامس: قوله: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾: (من) للتبعيض، فيكون الله يمدح من أنفق بعض ماله لا كله، أو تكون لبيان الجنس؛ فيشمل الثناء من أنفق البعض ومن أنفق الكل، والصواب: أنها لبيان الجنس، وأن من أنفق الكل يدخل في الثناء إذا توكل علىٰ الله تعالىٰ في أن يرزقه وأهله كما فعله أبو بكر، أما إن كان أهله في حاجة أو كان المُنْفَقُ عليه ليس بحاجة ماسة تستلزم إنفاق المال

---

(١) عند ابن جرير: هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية، أحسبه قال: فينزع عنه. (ق).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٥٨٢، ٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠).

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

والظاهرة. مثال ذلك: الصلاة، فمن أقام الصلاة وحافظ عليها، وأدىٰ الزكاة كما أمره اللَّه، استلزم ذلك العمل بما يقدر عليه من الواجبات، وترك جميع المحرمات؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]

قال ابن القيم: أي: اللَّه وحده كافيك وكافي أتباعك، فلا تحتاجون معه إلىٰ أحد. وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية. وقيل: المعنىٰ: حسبُك اللَّه، وحسبك المؤمنون.

قال ابن القيم: وهذا خطأ محض، لا يجوز حمل الآية عليه؛ فإن الحسب والكفاية للَّه وحده، كالتوكل والتقوىٰ والعبادة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

ففرق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعباده، وأثنىٰ علىٰ أهل التوحيد من عباده حيث أفردوه بالحسب، فقال تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. ولم يقولوا: حسبنا اللَّه

كله[1]؛ فلا ينبغي أن ينفق ماله كله.

الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾: المراد به الرسول ﷺ يخاطب الله رسوله بوصف النبوة أحيانًا وبوصف الرسالة أحيانًا، فحينما يأمره أن يبلغ يناديه بوصف الرسالة، وأما في الأحكام الخاصة؛ فالغالب أن يناديه بوصف النبوة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١].

و ﴿النَّبِيُّ﴾. فعيل بمعنىٰ مفعَل بفتح العين ومفعِل بكسرها؛ أي: منبأ، ومنبئ؛ فالرسول ﷺ منبأ من قبل الله، ومنبئ لعباد الله.

قوله: ﴿حَسْبَكَ اللَّهُ﴾: أي: كافيك، والحسب: الكافي، ومنه قوله: أعطي درهما فحسب، وحسب خبر مقدم، والله مبتدأ مؤخر، والمعنىٰ: ما الله إلا حسبك، ويجوز العكس؛ أي: أن تكون حسب مبتدأ والله خبره، ويكون المعنىٰ ما حسبك إلا الله، وهذا أرجح.

قوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]. ﴿مَنِ﴾: اسم موصول مبنية علىٰ السكون، وفي

---

(١) حسن: رواه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٦٠٢١) من حديث عمر بن الخطاب بلفظ: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: أمرنا رسول الله ﷺ يومًا أن نتصدق فوافق ذلك مالاً عندي فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا فجئت بنصف مالي فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك» قلت مثله قال: وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك» قال: أبقيت لهم الله ورسوله قلت: لا أسابقك إلى شيء أبدًا.

. . . .

ورسوله، ونظير هذا قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]. فتأمل كيف جعل الإيتاء للَّه والرسول، وجعل الحسب له وحده، فلم يقل: حسبنا اللَّه ورسوله، بل جعله خالص حقه؛ كما قال: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ فجعل الرغبة إليه وحده، كما قال: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٨] فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب للَّه وحده؛ كما أن العبادة والتقوىٰ والسجود والنذر والحلف لا يكون إلا له سبحانه وتعالىٰ. انتهىٰ.

وبهذا يتبين مطابقة الآية للترجمة؛ فإذا كان هو الكافي لعبده، وجب ألا يتوكل إلا عليه. ومتىٰ التفت بقلبه إلىٰ سواه، وُكِل إلىٰ من التفت إليه؛ كما في الحديث: «مَنْ تَعَلَّق شيئًا وُكل إليه»[1].

عطفها رأيان لأهل العلم: قيل: حسبك الله، وحسبك من اتبعك من المؤمنين؛ فـ﴿مَنِ﴾ معطوفة علىٰ الله لأنه أقرب، ولو كان العطف علىٰ الكاف في حسبك؛ لَوَجب إعادة الجار، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]؛ فالله أيد رسوله بالمؤمنين، فيكونون حسبًا له هنا كما كان الله حسبًا له. وهذا ضعيف، والجواب عنه من وجوه:

أولاً: قولهم: عطف عليه لكونه أقرب ليس بصحيح؛ فقد يكون العطف علىٰ شيء سابق، حتىٰ إن النَّحويين قالوا: إذا تعددت المعطوفات يكون العطف علىٰ الأول.

ثانيًا: قولهم: لو عطف علىٰ الكاف لوجب إعادة الجار، والصحيح أنه ليس بلازم قال ابن مالك: إذ قد أتىٰ في النظم والنثر الصحيح مثبتًا.

ثالثًا: استدلالهم بقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ فالتأييد لهم غير كونهم حسبه؛ لأن معنىٰ كونهم حسبه أن يعتمد عليهم، ومعنىٰ كونهم يؤيدونه أي ينصرونه مع استقلاله بنفسه، وبينهما فرق.

رابعًا: أن الله ـ سبحانه ـ حينما يذكر الحسب يخلصه لنفسه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٥٩]؛ فَفَرَّق بين الحسب والإيتاء، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]، فكما أن التوكل علىٰ غير الله لا يجوز؛ فكذلك الحسب لا يمكن أن يكون غير الله حسبًا، فلو كان؛ لجاز التوكل عليه، ولكن الحسب هو الله، وهو الذي عليه يتوكل المتوكلون.

خامسًا: أن في قوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ ما يمنع أن يكون الصحابة حسبًا للرسول ﷺ، وذلك لأنهم تابعون؛ فكيف يكون التابع حسبًا للمتبوع؟! هذا لا يستقيم أبدًا؛ فالصواب أنه معطوف علىٰ الكاف في قوله: ﴿حَسْبَكَ﴾؛ أي: وحسب من اتبعك من المؤمنين، فتوكلوا عليه جميعًا أنت ومن اتبعك.

الآية الرابعة قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾: جملة شرطية تفيد بمنطوقها أن من يتوكل علىٰ الله، فإن الله يكفيه مهماته وييسر له أمره؛ فالله حسبه ولو حصل له بعض الأذية، فإن الله يكفيه الأذىٰ، والرسول ﷺ سيد المتوكلين، ومع ذلك يصيبه الأذىٰ ولا تحصل له المضرة؛ لأن الله حسبه؛ فالنتيجة لمن اعتمد علىٰ الله أن يكفيه ربه المؤونة. والآية تفيد بمفهومها أن من توكل علىٰ غير

---

(١) ضعيف: وقد تقدم تخريجه.

وقـوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]

قال ابن القيم: أي: كافيه. ومن كان اللَّه كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدو، ولا يضره إلا أذىٰ لابد منه، كالحر والبرد والجوع والعطش. وأما أن يضره بما يبلغ به مراده، فلا يكون أبدًا. وفرق بين الأذىٰ الذي هو في الظاهر إيذاء، وفي الحقيقة إحسان وإضرار بنفسه، وبين الضر الذي يتشفىٰ به منه.

قال بعض السلف: جعل اللَّه لكل عمل جزاءً من نفسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ولم يقل: فله كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال. بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد علىٰ اللَّه حق توكله، وكادته السموات والأرض ومن فيهن، لجعل له مخرجًا، وكفاه ونصره. انتهىٰ.

وفي أثر رواه أحمد في (الزهد)، عن وهب بن منبه، قال: قال اللَّه عز وجل في بعض كتبه: «بعزتي، إنه من اعتصم بي فكادته السموات بمن فيهن والأرضون بمن فيهن، فإني أجعل له من ذلك مخرجًا. ومن لم يعتصم بي، فإني أقطع يديه من أسباب السماء، وأخسف من تحت قدميه الأرض، فأجعله في الهواء، ثم أكِلُه إلىٰ نفسه، كفىٰ بي لعبدي مآلاً، إذا كان عبدي في طاعتي أعطيه قبل أن يسألني، وأستجيب له قبل أن يدعوني، فأنا أعلم بحاجته التي ترفق به منه»(١).

وفي الآية: دليل علىٰ فضل التوكل، وأنه أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار؛ لأن اللَّه علَّق الجملة الأخيرة علىٰ الأولىٰ تعليق الجزاء علىٰ الشرط، فيمتنع أن يكون وجود الشرط كعدمه؛ لأنه تعالىٰ رتب الحكم علىٰ الوصف المناسب له، فعُلم أن توكله هو سبب كون اللَّه حسبًا له. وفيه: تنبيه علىٰ القيام بالأسباب مع التوكل؛ لأنه تعالىٰ ذكر التقوىٰ، ثم ذكر التوكل، كما قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١] فجعل التوكل مع التقوىٰ، الذي هو قيام بالأسباب

باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الآية [المائدة: ٢٣]

التوكل علىٰ الله من أعظم واجبات التوحيد والإيمان وبحسب قوة توكل العبد علىٰ الله يقوىٰ إيمانه، ويتم توحيده والعبد مضطر إلىٰ التوكل علىٰ الله والاستعانة به في كل ما يريد فعله أو تركه من أمور دينه أو دنياه. وحقيقة التوكل علىٰ الله أن يعلم العبد أن الأمر كله لله وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه هو النافع الضار المعطي المانع، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فبعد هذا العلم يعتمد بقلبه علىٰ ربه في جلب مصالح دينه ودنياه، وفي دفع المضار، ويثق غاية الوثوق بربه في حصول مطلوبه وهو مع هذا باذل جهده في فعل الأسباب النافعة، فمتىٰ استدام العبد هذا العلم وهذا الاعتماد والثقة فهو المتوكل علىٰ الله حقيقة، وليبشر بكفاية الله له ووعده للمتوكلين، ومتىٰ علق ذلك بغير الله فهو مشرك، ومن توكل علىٰ غير الله وتعلق به وكل إليه وخاب أمله.

الله خُذلَ؛ لأن غير الله لا يكون حسبًا كما تقدَّم، فمن توكل علىٰ غير الله تخلىٰ الله عنه، وصار موكولاً إلىٰ هذا الشيء ولم يحصل له مقصوده، وابتعد عن الله بمقدار توكله علىٰ غير الله.

---

(١) لعل هذا من قبيل الإسرائيليات التي كان ينقلها وهب بن منبه رحمه الله.

وعن ابن عباس، قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم ﷺ حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(١) [آل عمران: ١٧٣] **رواه البخاري والنسائي .**

المأمور بها، فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض، وإن كان مشوبًا بنوع من التوكل.

فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزًا، ولا عجزه توكلاً، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التي لا يتم المقصود إلا بها كلها، ذكره ابن القيم بمعناه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن ابن عباس، قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم ﷺ حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(١) [آل عمران: ١٧٣] رواه البخاري.

قوله: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾، أي: كافينا، فلا نتوكل إلا عليه؛ قال تعالى: **﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].**

قوله: ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾: **أي: نعم الموكول إليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨] ومخصوص نعم، محذوف تقديره: هو.**

قال ابن القيم: هو حسبُ من توكّل عليه وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمِّن خوف الخائف، ويجير المستجير. فمن تولاه واستنصر به وتوكّل عليه، وانقطع بكليته إليه، تولاه وحفظه وحرسه وصانه. ومن خافه واتقاه، أمنه مما يخاف ويحذر، ويجلب إليه ما يحتاج إليه من المنافع.

قوله: (قالها إبراهيم ﷺ حين أُلقي في النار). قال تعالى: **﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٠].**

قوله: (وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: **﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾**. وذلك بعد مُنصرف قريش والأحزاب من أُحد: بلغه أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكرَّة عليهم، فخرج النبي ﷺ في سبعين راكبًا حتى انتهى إلى حمراء الأسد، فألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان. فرجع إلى مكة بمن معه، ومر به ركب من عبد القيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة. قال: فهل أنتم مبلغون محمدًا عني رسالة؟ قالوا: نعم. قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم. فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد،

قوله في أثر ابن عباس رضي الله عنهما: «قالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾.

وهذا في نص القرآن لما انصرف أبو سفيان من أُحد أراد أن يرجع إلى النبي ﷺ وأصحابه ليقضي عليهم بزعمه، فلقي ركبًا، فقال لهم: إلى أين تذهبون؟ قالوا: نذهب إلى المدينة. فقال: بلِّغوا محمدًا وأصحابه أنا راجعون إليهم فقاضون عليهم. فجاء الركب إلى المدينة، فبلغوهم؛ فقال رسول الله ﷺ ومن معه:

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٥٦٣).

. . . .

فأخبروه بالذي قال أبو سفيان. فقال: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

ففي هاتين القصتين فضل هذه الكلمة العظيمة وأنها قول الخليلين عليهما الصلاة والسلام في الشدائد. وجاء في الحديث: «إذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل».

حسبنا الله ونعم الوكيل، وخرجوا في نحو سبعين راكبًا، حتى بلغوا حمراء الأسد، ثم إن أبا سفيان تراجع عن رأيه وانصرف إلى مكة، وهذا من كفاية الله لرسوله وللمؤمنين؛ حيث اعتمدوا عليه تعالى.

قوله: ﴿قَالَ لَهُمُ النَّاس﴾ أي: الركب.

قوله: ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾ أي: أبا سفيان ومن معه، وكلمة الناس هنا يمثل بها الأصوليون للعام الذي أريد به الخصوص.

قوله: ﴿حَسْبُنَا﴾ أي: كافينا، وهي مبتدأ والله خبره.

قوله: ﴿نِعْمَ الْوَكِيلُ﴾: ﴿نعم﴾: فعل ماضٍ: ﴿الوكيل﴾: فاعل، والمخصوص محذوف تقديره: هو؛ أي: الله. والوكيل: المعتمد عليه سبحانه، والله ـ سبحانه ـ يطلق عليه اسم الوكيل، وهو أيضًا مُوكِّل، والوكيل في مثل قوله تعالى: ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [النساء: ٨١]، وأما الموكل: ففي مثل قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]. وليس المراد بالتوكيل هنا إنابة الغير فيما يحتاج إلى الاستنابة فيه؛ فليس توكيله سبحانه من حاجة له، بل المراد بالتوكيل الاستخلاف في الأرض لينظر كيف يعملون. وقول ابن عباس رضي الله عنهما: «إن إبراهيم قالها حين ألقي في النار» قول لا مجال للرأي فيه؛ فيكون له حكم الرفع. وابن عباس ممن يروي عن بني إسرائيل؛ فيحتمل أنه أخذه منهم، ولكن جزمه بهذا، وقرنه لما قاله الرسول ﷺ مما يبعد أن يكون أخذه من بني إسرائيل.

الشاهد من الآية: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾؛ حيث جعلوا حسبهم الله وحده.

(تنبيه): قولنا: «وابن عباس ممن يروي عن بني إسرائيل» قول مشهور عند علماء المصطلح، لكن فيه نظر؛ فإن ابن عباس رضي الله عنهما ممن ينكر الأخذ عن بني إسرائيل؛ ففي «صحيح البخاري» (٥ / ٢٩١ ـ فتح) أنه قال: «يا معشر المسلمين! كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله تقرؤونه لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بَدَّلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب؟! فقالوا: هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً؛ أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟! ولا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم»[1].

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٦٨٥، ٧٣٦٣، ٧٥٢٢، ٧٥٢٣).

فيه مسائل:

الأولى: أن التوكل من الفرائض.

الثانية: أنه من شروط الإيمان.

الثالثة: تفسير آية الأنفال.

الرابعة: تفسير الآية في آخرها.

الخامسة: تفسير آية الطلاق.

السادسة: عظم شأن هذه الكلمة، وأنَّهَا قول إبراهيم ومحمد ﷺ في الشدائد.

....

فيه مسائل:

الأولى: أن التوكل من الفرائض: ووجهه أن الله عَلَّق الإيمان بالتوكل في قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وسبق تفسيرها.

الثانية: أنه من شروط الإيمان. تؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وسبق تفسيرها.

الثالثة: تفسير آية الأنفال: وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾ الآية [الأنفال: ٢]، والمراد بالإيمان هنا الإيمان الكامل، وإلا؛ فالإنسان يكون مؤمنًا وإن لم يتصف بهذه الصفات، لكن معه مطلق الإيمان، وقد سبق تفسير ذلك.

الرابعة: تفسير الآية في آخرها؛ أي: آخر الأنفال: وهي قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤] أي: حَسْبُك وحسب من اتبعك من المؤمنين، وهذا هو الراجح علىٰ ما سبق.

الخامسة: تفسير آية الطلاق: وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾. وقد سبق تفسيرها.

السادسة: عظم شأن هذه الكلمة، وأنها قول إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ في الشدائد: يعني قول: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

❊ ❊ ❊

٣٣ـ باب قول الله تعالى:
﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

قال المصنف رحمه اللَّه تعالى: باب قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

قصد المصنف رحمه اللَّه تعالى بهذه الآية: التنبيه على أن الأمن من مكر اللَّه من أعظم الذنوب، وأنه ينافي كمال التوحيد، كما أن القنوط من رحمة اللَّه كذلك. وذلك يرشد إلى أن المؤمن يسير إلى اللَّه بين الخوف والرجاء؛ كما دل على ذلك الكتاب والسنة، وأرشد إليه السلف والأئمة.

ومعنى الآية: أن اللَّه تبارك وتعالى لما ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسل، بين أن الذي حملهم على ذلك، هو الأمن من مكر اللَّه، وعدم الخوف منه، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩] أي: الهالكون.

باب قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩]

مقصود الترجمة أنه يجب على العبد أن يكون خائفًا من الله، راجيًا له، راغبًا راهبًا، إن نظر إلى ذنوبه وعدل الله وشدة عقابه، خشي ربه وخافه، وإن نظر إلى فضله العام والخاص وعفوه الشامل رجا وطمع، إن وفق لطاعة رجا من ربه تمام النعمة بقبولها، وخاف من ردها بتقصيره في حقها. وإن ابتلي بمعصية رجا من ربه قبول توبته ومحوها وخشي بسبب ضعف التوبة والالتفات للذنب أن يعاقب عليها، وعند النعم والمسار يرجو الله دوامها والزيادة منها والتوفيق لشكرها، ويخشى بإخلاله بالشكر من سلبها، وعند المكاره والمصائب يرجو الله دفعها، وينتظر الفرج بحلها، ويرجو أيضًا أن يثيبه الله عليها حين يقوم بوظيفة الصبر، ويخشى من اجتماع المصيبتين: فوات الأجر المحبوب وحصول الأمر المكروه إذا لم يوفق للقيام بالصبر الواجب.

وفي الباب مسائل غير ما ذكره المؤلف.

منها: زيادة الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

ومنها: أنه عند الشدائد ينبغي للإنسان أن يعتمد على الله مع فعل الأسباب؛ لأن الرسول ﷺ وأصحابه قالوا ذلك عندما قيل لهم: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، ولكنهم فَوَّضوا الأمر إلى الله، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

ومنها: أن اتباع النبي ﷺ مع الإيمان سبب لكفاية الله للعبد.

هذا الباب اشتمل على موضعين:

الأول: الأمن من مكر الله. والثاني: القنوط من رحمة الله، كلاهما طرفا نقيض.

واستدل المؤلف للأول بقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا﴾. الضمير يعود على أهل القرى؛ لأن ما قبلها قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩].

. . . .

وذلك أنهم أمنوا مكر اللّه؛ لما استدرجهم بالسراء والنعيم، فاستبعدوا أن يكون ذلك مكرًا.

قال الحسن: من وسَّع اللّه عليه، فلم ير أنه يمكر به، فلا رأي له!.

وقال قتادة: بَغتَ القوم أمر اللّه، وما أخذ اللّه قومًا قط إلا عند سَلْوتهم وغرتهم ونعمتهم. فلا تغتروا باللّه.

وفي الحديث: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا وهو مقيم على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج»[1]. رواه أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم.

فقوله: ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ يدل على كمال الأمن لأنهم في بلادهم، وأن الخائف لا ينام، وقوله: ﴿ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يدل أيضًا على كمال الأمن والرخاء وعدم الضيق؛ لأنه لو كان عندهم ضيق في العيش لذهبوا يطلبون الرزق والعيش وما صاروا في الضحى - في رابعة النهار - يلعبون.

والاستفهامات هنا كلها للإنكار والتعجب من حال هؤلاء؛ فهم نائمون وفي رغد، ومقيمون على معاصي الله وعلى اللهو، ذاكرون لترفهم، غافلون عن ذكر خالقهم؛ فهم في الليل نوم، وفي النهار لعب، فبين الله - عز وجل - أن هذا من مكره بهم، ولهذا قال: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾، ثم ختم الآية بقوله: ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فالذي يَمُنُّ الله عليه بالنعم والرغد والترف وهو مقيم على معصيته يظن أنه رابح وهو في الحقيقة خاسر. فإذا أنعم الله عليك من كل ناحية: أطعمك من جوع، وآمنك من خوف، وكساك من عري؛ فلا تظن أنك رابح وأنت مقيم على معصية الله، بل أنت خاسر؛ لأن هذا من مكر الله بك.

وقوله: ﴿إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾: الاستثناء للحصر، وذلك لأن ما قبله مُفَرَّغ له؛ فالقوم فاعل، والخاسرون صفتهم.

وفي قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ دليل على أن لله مكرًا، والمكر هو: التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يشعر، ومنه ما جاء في الحديث: «الحرب خدعة».

فإن قيل: كيف يوصف الله بالمكر مع أن ظاهره أنه مذموم؟

قيل: إن المكر في محله محمود يدل على قوة الماكر، وأنه غالب على خصمه، ولذلك لا يوصف الله به على الإطلاق.

فلا يجوز أن تقول: إن الله ماكر، وإنما تذكر هذه الصفة في مقام تكون فيه مدحًا، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]، ومثل قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩]، ولا تنفي عنه هذه الصفة على سبيل الإطلاق، بل إنها في المقام التي تكون مدحًا يوصف بها وفي المقام التي لا تكون مدحًا لا يوصف بها.

وكذلك لا يُسمَّى الله بها؛ فلا يقال: إن من أسماء الله الماكر.

وأما الخيانة؛ فلا يوصف الله بها مطلقًا لأنها ذم بكل حال؛ إذ إنها مكر في موضع الائتمان، وهو مذموم، قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: ٧١]، ولم يقل: فخانهم.

---

(١) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٤١٣).

وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

وقال إسماعيل بن رافع: من الأمن من مكر اللَّه: إقامة العبد على الذنب، يتمنى على اللَّه المغفرة. رواه ابن أبي حاتم. وهذا هو تفسير المكر في قول بعض السلف: يستدرجهم اللَّه بالنعم إذا عصوه، ويُملي لهم، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر. وهذا هو معنى المكر والخديعة ونحو ذلك. ذكره ابن جرير بمعناه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

[القنوط: استبعاد الفرج، واليأس منه، وهو يقابل الأمن عن مكر الله وكلاهما ذنب عظيم]. وتقدم ما فيه؛ لمنافاته لكمال التوحيد.

وذكر المصنف رحمه الله: هذه الآية مع التي قبلها؛ تنبيهًا على أن لا يجوز لمن خاف الله أن يقنط من رحمته، بل يكون خائفًا راجيًا؛ يخاف ذنوبه، ويعمل بطاعة الله، ويرجو رحمته؛ كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ

وأما الخداع؛ فهو كالمكر يوصف الله به حيث يكون مدحًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، والمكر من الصفات الفعلية؛ لأنها تتعلق بمشيئة الله ـ سبحانه ـ.

ويستفاد من هذه الآية:

١ ـ الحذر من النعم التي يجلبها الله للعبد لئلا تكون استدراجًا؛ لأن كل نعمة فلله عليك وظيفة شكرها، وهي القيام بطاعة المُنعم، فإذا لم تقم بها مع توافر النعم؛ فاعلم أن هذا من مكر الله.

٢ ـ تحريم الأمن من مكر الله، وذلك لوجهين:

الأول: أن الجملة بصيغة الاستفهام الدال على الإنكار والتعجب.

الثاني: قوله تعالى: ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

الموضوع الثاني مما اشتمل عليه هذا الباب القنوط من رحمة الله.

واستدل المؤلف له بقوله تعالى: ﴿مَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ﴾:

﴿مَن﴾: اسم استفهام؛ لأن الفعل بعدها مرفوع، ثم إنها لم يكن لها جواب، والقنوط: أشد اليأس؛ لأن الإنسان يقنط ويُبعد الرجاء والأمل، بحيث يستبعد حصول مطلوبه أو كشف مكروبه.

قوله: ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ﴾: هذه رحمة مضافة إلى الفاعل ومفعولها محذوف، والتقدير (من رحمة ربه إياه).

قوله: ﴿إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾: إلا: أداة حصر؛ لأن الاستفهام في قوله: ﴿مَن يَقْنَطُ﴾ مراد به النفي، و﴿الضَّالُّونَ﴾ فاعل يقنط.

والمعنى لا يقنط من رحمة الله إلا الضالون، والضال: فاقد الهداية، التائه الذي لا يدري ما يجب لله سبحانه، مع أنه سبحانه قريب الغير، ولهذا جاء في الحديث: «**عجب ربنا من قنوط عباده، وقرب غيره؛ ينظر إليكم أزلين قنطين، فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب**»[1].

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (١٨١)، وأحمد (١٥٧٥٤، ١٥٧٦٨)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٢٨١٠) بدون آخره.

. . . .

هو قانتٌ آناء اللَّيْلِ ساجداً وقائماً يحذرُ الآخرة ويرجو رحمة ربِّه﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالىٰ: ﴿إنَّ الَّذين آمنوا والَّذين هاجروا وجاهدوا في سبيل اللَّه أُولئك يرجون رحمت اللَّه واللَّهُ غفورٌ رَّحيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

فالرجاء مع المعصية وترك الطاعة غرور من الشيطان؛ ليوقع العبد في المخاوف في ترك الأسباب المنجية من المهالك. بخلاف حال أهل الإيمان الذين أخذوا بأسباب النجاة خوفًا من اللَّه، وهربًا من عقابه، وطمعًا في المغفرة، والرجاء لثوابه.

والمعنى: أن اللَّه تعالىٰ حكىٰ قولَ خليله إبراهيم عليه السلام، لما بشرته الملائكة بابنه إسحاق: ﴿قال أبشَّرتموني علىٰ أن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فبم تبشِّرون﴾ [الحجر: ٥٤]؛ لأن العادة أن الرجل إذا كبر سنه وسن زوجته، استبعد أن يولد له منها. واللَّه علىٰ كل شيء قدير، فقالت الملائكة: ﴿بشَّرْناك بالْحقِّ﴾ الذي لا ريب فيه؛ فإن اللَّه إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون ﴿فلا تكن مِّن الْقانطين﴾ أي: من الآيسين، فقال عليه السلام: ﴿ومن يقْنطُ من رَّحْمة ربِّه إلاَّ الضَّالُّون﴾ فإنه يعلم من قدرة اللَّه وحكمته ما هو أبلغ من ذلك وأعظم؛ لكنه-واللَّه أعلم-قال ذلك علىٰ وجه التعجب.

قوله: ﴿إلاَّ الضَّالُّون﴾ قال بعضهم: إلا المخطئون طريق الصواب، أو إلا الكافرون؛ كقوله: ﴿إنَّه

وأما معنىٰ الآية؛ فإن إبراهيم عليه السلام لما بشرته الملائكة بغلام عليم قال لهم: ﴿قال أبشَّرتموني علىٰ أن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فبم تبشِّرون (٥٤) قالوا بشَّرْناك بالْحقِّ فلا تكن مِّن الْقانطين (٥٥) قال ومن يقْنطُ من رَّحْمة ربِّه إلاَّ الضَّالُّون﴾ [الحجر: ٥٤-٥٦].

فالقنوط من رحمة الله لا يجوز؛ لأنه سوء ظن بالله-عز وجل-وذلك من وجهين:

الأول: أنه طعن في قدرته سبحانه؛ لأن من علم أن الله علىٰ كل شيء قدير لم يستبعد شيئًا علىٰ قدرة الله.

الثاني: أنه طعن في رحمته سبحانه؛ لأن من علم أن الله رحيم لا يستبعد أن يرحمه الله-سبحانه-، ولهذا كان القانط من رحمة الله ضالاً.

ولا ينبغي للإنسان إذا وقع في كربة أن يستبعد حصول مطلوبه أو كشف مكروبه، وكم من إنسان وقع في كربة وظن أن لا نجاة منها، فنجَّاه الله-سبحانه-: إما بعمل صالح سابق مثل ما وقع ليونس عليه السلام، قال تعالىٰ: ﴿فلولا أنَّه كان من الْمسبِّحين (١٤٣) للبث في بطنه إلىٰ يوم يبْعثون﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، أو بعمل لاحق، وذلك كدعاء الرسول ﷺ يوم بدر[1]، وليلة الأحزاب[2]، وكذلك أصحاب الغار[3]. وتبيَّن مما سبق أن المؤلف رحمه الله أراد أن يجمع الإنسان في سيره إلىٰ الله تعالىٰ بين الخوف فلا يأمن مكر الله، وبين الرجاء فلا يقنط من رحمته؛ فالأمن من مكر الله ثلمٌ في جانب الخوف، والقنوط من رحمته ثلمٌ في جانب الرجاء.

قوله: في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر»: جمع كبيرة، والمراد بها: كبائر الذنوب، وهذا السؤال يدل علىٰ أن الذنوب تنقسم إلىٰ صغائر وكبائر، وقد دلَّ علىٰ ذلك القرآن، قال تعالىٰ: ﴿إن تجْتنبوا كبائر ما تنْهون عنْه نكفِّرْ عنكمْ سيِّئاتكمْ﴾ [النساء: ٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿الَّذين

---

(١) **صحيح:** رواه البخاري (٢٩١٥) ومواضع من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: قال النبي ﷺ يوم بدر: «**اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد**» فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك فخرج وهو يقول: «**سيهزم الجمع ويولون الدبر**»..

(٢) **متفق عليه:** رواه البخاري (٢٩٣٣) ومواضع، ومسلم (١٧٤٢)، وأبو داود (٢٦٣١)، والترمذي (١٦٧٨)،» وابن ماجه (٢٧٩٦)، وأحمد (١٨٦٢٨) ومواضع.

(٣) **صحيح:** وقد تقدم.

وعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ سُئل عن الكبائر فقال: «الشركُ بالله، واليأس من رَوْحِ الله، والأمن من مكر الله»(١).

لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ سُئل عن الكبائر فقال: «الشركُ بالله، واليأس من رَوْحِ الله، والأمن من مكر الله»: هذا الحديث رواه البزار، وابن أبي حاتم، من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة، عن ابن عباس. ورجاله ثقات، إلا شبيب بن بشر. فقال ابن معين: ثقة. وليّنه أبو حاتم. وقال ابن كثير: في إسناده نظر، والأشبه أن يكون موقوفًا.

قوله: «الشرك بالله» هو أكبر الكبائر.

فالمؤمن الموحد في كل أحواله ملازم للخوف والرجاء، وهذا هو الواجب وهو النافع وبه تحصل السعادة، ويخشى على العبد من خلقين رذيلين: أحدهما: أن يستولي عليه الخوف حتى يقنط من رحمة الله وروحه.

الثاني: أن يتجارى به الرجاء حتى يأمن مكر الله وعقوبته، فمتى بلغت به الحال إلى هذا فقد ضيع واجب الخوف والرجاء اللذين هما من أكبر أصول التوحيد، وواجبات الإيمان.

يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ [النجم: ٣٢]، والكبائر ليست على درجة واحدة؛ فبعضها أكبر من بعض.

واختلف العلماء: هل هي معدودة أو محدودة؟ فقال بعض أهل العلم: إنها معدودة، وصار يعددها ويتتبع النصوص الواردة في ذلك. وقيل: إنها محدودة، وقد حدَّها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله؛ فقال: «كل ما رُتِّب عليه عقوبة خاصة، سواء كانت في الدنيا أو الآخرة، وسواء كانت بفوات محبوب أو بحصول مكروه»، وهذا واسع جدًا يشمل ذنوبًا كثيرة.

ووجه ما قاله: أن المعاصي قسمان:

قسم نهي عنه فقط ولم يذكر عليه وعيد؛ فعقوبة هذا تأتي بالمعنى العام للعقوبات، وهذه المعصية مكفرة بفعل الطاعات؛ كقوله ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»(٢)، و كذلك ما ورد في العمرة إلى العمرة(٣)، والوضوء من تكفير الخطايا(٤)؛ فهذه من الصغائر. وقسم رُتِّب عليه عقوبة خاصة؛ كاللعن، أو الغضب، أو التبرؤ من فاعله، أو الحد في الدنيا، أو نفي الإيمان، وما أشبه ذلك؛ فهذه كبيرة تختلف في مراتبها. والسائل في هذا الحديث إنما قصده معرفة الكبائر ليجتنبها، خلافًا لحال كثير من الناس اليوم حيث يسأل ليعلم فقط، ولذلك نقصت بركة علمهم.

قوله: «الشرك بالله»: ظاهر الإطلاق: أن المراد به الشرك الأصغر والأكبر، وهو الظاهر؛ لأن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر، قال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليّ من أن أحلف بغيره

---

(١) صحيح موقوفًا: رواه الطبَراني (٩/ ١٥٦) موقوفًا عن ابن مسعود، (١٢/ ٢٥٣) عن ابن عباس موقوفًا، قال ابن حجر في الفتح (١٢/ ١٨٣): موقوف، وقال ابن كثير (١/ ٤٨٥): وفي إسناده نظر، - أي مرفوعًا- والأشبه أن يكون موقوفًا، وروي عن ابن مسعود ونَحوه . ثُم قال: وهو صحيح إليه بلا شك. وحسنه الألباني رحِمه الله في صحيح الجامع (٤٦٠٣).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٣٣). (٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٦٠)، ومسلم (٢٢٩).

وعن ابن مسعود، قال: أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من رَوْح الله[١]. رواه عبد الرزاق.

قال ابن القيم رحمه الله: الشرك بالله هضم للربوبية، وتنقُّص للإلهية، وسوء ظن برب العالمين. انتهى.

ولقد صدق ونصح؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ولهذا لا يغفره الله إلا بالتوبة منه.

قوله: «واليأس من رَوْح الله» أي: قطع الرجاء والأمل من الله، فيما يخافه ويرجوه؛ وذلك إساءة ظن بالله، وجهل به وبسعة رحمته وجوده ومغفرته.

قوله: «والأمن من مكر الله» أي: من استدراجه للعبد، وسلبه ما أعطاه من الإيمان، نعوذ بالله من ذلك. وذلك جهل بالله وبقدرته، وثقة بالنفس وعجب بها.

واعلم أن هذا الحديث لم يُرد به حَصْر الكبائر في الثلاث، بل الكبائر كثيرة. وهذه الثلاث من أكبر الكبائر المذكورة في الكتاب والسنة، وضابطها:

ما قاله المحققون من العلماء: كل ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب. زاد شيخ الإسلام ابن تيمية: أو نفي الإيمان. قلتُ: ومَنْ بريء منه رسول الله ﷺ، أو قال: ليس منا من فعل كذا وكذا. وعن ابن عباس: هي إلى سبعمائة أقرب إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن ابن مسعود، قال: أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من رَوْح الله. رواه عبد الرزاق.

صادقًا»، وذلك لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب، فدل على أن الشرك من الكبائر مطلقًا.

والشرك بالله يتضمن الشرك بربوبيته، أو بألوهيته، أو بأسمائه وصفاته.

قوله: «اليأس من روح الله»: اليأس: فقدُ الرجاء، والروح بفتح الراء قريب من معنى الرحمة، وهو الفرج والتنفيس، واليأس من روح الله من كبائر الذنوب لنتائجه السيئة.

قوله: «الأمن من مكر الله»: بأن يعصي الله مع استدراجه بالنعم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

وظاهر هذا الحديث: الحصر، وليس كذلك: لأن هناك كبائر غير هذه، ولكن الرسول ﷺ يجيب كل سائل بما يناسب حاله؛ فلعله رأى هذا السائل عنده شيء من الأمن من مكر الله أو اليأس من روح الله، فأراد أن يبين له ذلك، وهذه مسألة ينبغي أن يفطن لها الإنسان فيما يأتي من النصوص الشرعية مما ظاهره التعارض، فيحمل كل واحد منها على الحال المناسبة ليحصل التآلف بين النصوص الشرعية.

قوله في أثر ابن مسعود «الإشراك بالله»: هذا أكبر الكبائر، لأنه انتهاك لأعظم الحقوق، وهو حق الله تعالى الذي أوجدَك وأعدَّك وأمدَّك؛ فلا أحد أكبر عليك نعمةً من الله تعالى.

قوله: «الأمن من مكر الله»: سبق شرحه.

---

(١) راجع التخريج السابق.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الأعراف. الثانية: تفسير آية الحجر.

الثالثة: شدة الوعيد فيمن أمِنَ مكر الله. الرابعة: شدة الوعيد في القنوط.

ورواه ابن جرير، بأسانيد صحاح، عن ابن مسعود.

قوله: (أكبر الكبائر: الإشراك بالله). أي: في ربوبيته أو عبادته. وهذا بالإجماع.

قوله: (والقنوط من رحمة الله). قال أبو السعادات: هو أشد اليأس.

وفيه: التنبيه على الجمع بين الرجاء والخوف، فإذا خاف فلا يقنط ولا ييأس، بل يرجو رحمة الله. وكان السلف يستحبون أن يقوي في الصحة الخوف، وفي المرض الرجاء، وهذه طريقة أبي سليمان الداراني وغيره.

قال: وينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإذا غلب الرجاءُ الخوفَ فسد القلب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]، وقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠، ٦١]، وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ

وللقنوط من رحمة الله واليأس من روحه سببان محذوران:

أحدهما: أن يسرف العبد على نفسه ويتجرأ على المحارم فيصر عليها ويصمم على الإقامة على المعصية ويقطع طمعه من رحمة الله لأجل أنه مقيم على الأسباب التي تمنع الرحمة فلا يزال كذلك حتى يصير له هذا وصفًا وخُلقًا لازمًا، وهذا غاية ما يريده الشيطان من العبد، ومتى وصل إلى هذا الحد لم يرج له خير إلا بتوبة نصوح وإقلاع قوي. الثاني: أن يقوى خوف العبد بما جنت يداه من الجرائم ويضعف علمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة ويظن بجهله أن الله لا يغفر له ولا يرحمه ولو تاب وأناب، وتضعف إرادته، فييأس من الرحمة، وهذا من المحاذير الضارة الناشئة من ضعف علم العبد بربه وما له من الحقوق، ومن ضعف النفس وعجزها ومهانتها فلو عرف هذا ربه ولم يخلد إلى الكسل: لعلم أن أدنى سعي يوصله إلى ربه وإلى رحمته وجوده وكرمه. وللأمن من مكر الله أيضًا سببان مهلكان: أحدهما: إعراض العبد عن الدين وغفلته عن معرفة ربه وما له من الحقوق، وتهاونه بذلك فلا يزال معرضًا غافلاً مقصراً عن الواجبات، منهمكًا في المحرمات حتى يضمحل خوف الله من قلبه ولا يبقى في قلبه من الإيمان شيء؛ لأن الإيمان يحمل على خوف الله وخوف عقابه الدنيوي والأخروي.

قوله: «القنوط من رحمة الله واليأس من روح الله»: المراد بالقنوط: أن يستبعد رحمة الله ويستبعد حصول المطلوب، والمراد باليأس هنا أن يستبعد الإنسان زوال المكروه، وإنما قلنا ذلك؛ لئلا يحصل تكرار في كلام ابن مسعود.

والخلاصة: أن السائر إلى الله يعتريه شيئان يُعوِّقانه عن ربه، وهما الأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، فإذا أصيب بالضراء أو فات عليه ما يحب؛ تجده إن لم يتداركه ربه يستولي عليه القنوط ويستبعد الفرج ولا يسعى لأسبابه، وأما الأمن من مكر الله؛ فتجد الإنسان مقيمًا على المعاصي مع توافر النعم عليه، ويرى أنه على حق فيستمر في باطله، فلا شك أن هذا استدراج.

٣٤ـ باب
من الإيمان بالله: الصبر على أقدار الله

سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ الآية [الزمر: ٩]، قدَّم الحذر على الرجاء في هذه الآية.

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب من الإيمان بالله: الصبر على أقدار الله.

قال الإمام أحمد رحمه الله: ذكر الله الصبر في تسعين موضعًا من كتابه. وفي الحديث الصحيح: «الصبر ضياء»[(١)]. رواه أحمد، ومسلم. وللبخاري، ومسلم، مرفوعًا: «**ما أُعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر**»[(٢)].

قال عمر: وجدنا خيرَ عيشنا بالصبر[(٣)]. رواه البخاري. قال علي: إن الصبر من الإيمان، بمنزلة الرأس من الجسد. ثم

السبب الثاني: أن يكون العبد عابداً جاهلاً معجبًا بنفسه مغروراً بعمله، فلا يزال به جهله حتى يدل بعمله ويزول الخوف عنه ويرى أن له عند الله المقامات العالية فيصير آمنًا من مكر الله متكلاً على نفسه الضعيفة المهينة، ومن هنا يخذل ويحال بينه وبين التوفيق، إذ هو الذي جنى على نفسه، فبهذا التفصيل تعرف منافاة هذه الأمور للتوحيد.

باب من الإيمان الصبر على أقدار الله

أما الصبر على طاعة الله والصبر عن معصيته فهو ظاهر لكل أحد أنهما من الإيمان، بل هما أساسه وفرعه فإن الإيمان كله صبر على ما يحبه الله ويرضاه ويقرب إليه وصبر عن محارم الله.

فيه مسائل:

الأولى: **تفسير آية الأعراف**: وهي قوله تعالى: ﴿**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [الأعراف: ٩٩] وقد سبق تفسيرها.

الثانية: **تفسير آية الحجر**: وهي قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ**﴾ وقد سبق تفسيرها.

الثالثة: **شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله**: وذلك بأنه من أكبر الكبائر؛ كما في الآية والحديث، وتؤخذ من الآية الأولى، والحديثين.

الرابعة: **شدة الوعيد من القنوط**: تؤخذ من الآية الثانية والحديثين.

«**الصبر**»: في اللغة: الحَبس، ومنه قولهم: «قتل صبراً»؛ أي: محبوسًا مأسوراً.

وفي الاصطلاح: حبس النفس على أشياء وعن أشياء، وهو ثلاثة أقسام:

الأول: الصبر على طاعة الله؛ كما قال تعالى: ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا**﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً ۝٢٣ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ**﴾ [الإنسان: ٢٣، ٢٤]، وهذا من الصبر على الأوامر؛ لأنه إنما نزل عليه القرآن ليُبلغه؛ فيكون مأموراً بالصبر على الطاعة، وقال تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾ [الكهف: ٢٨]، وهذا صبر على طاعة الله.

الثاني: الصبر عن معصية الله؛ كصبر يوسف عليه السلام عن إجابة امرأة العزيز حيث دعته إلى نفسها في مكانة لها فيها العزة والقوة والسلطان عليه، ومع ذلك صبر وقال: ﴿**رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي**

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٢٣). (٢) صحيح: رواه البخاري (١٤٦٩، ٦٤٧٠)، ومسلم (١٠٥٣).

(٣) رواه البخاري معلقًا بصيغة الجزم في كتاب الرقاق باب الصبر عن محارم الله وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وقوله الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

رفع صوته، فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له. واشتقاقه: من صَبَرَ: إذا حَبس ومنع. والصبر حبس النفس عن الجزع، وحبسُ اللسان عن التشكي والتسخط، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب، ونحوهما. ذكره ابن القيم.

واعلم أن الصبر ثلاثة أقسام: صبر على ما أمر اللَّه به، وصبر عما نهى عنه، وصبر على ما قدره اللَّه من المصائب.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقوله الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

وأول الآية: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [قال ابن عباس: بأمر اللَّه. يعني عن قدره

إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]؛ فهذا صبر عن معصية الله.

الثالث: الصبر على أقدار الله، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، فيدخل في هذه الآية حكم الله القدري، ومنه قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]؛ لأن هذا صبر على تبليغ الرسالة وعلى أذى قومه، ومنه قوله ﷺ لرسول إحدى بناته: «مرها؛ فلتصبر ولتحتسب»[1].

إذًا الصبر ثلاثة أنواع، أعلاها الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله، ثم الصبر على أقدار الله. وهذا الترتيب من حيث هو لا باعتبار من يتعلق به، وإلا؛ فقد يكون الصبر على المعصية أشق على الإنسان من الصبر على الطاعة إذا فُتن الإنسان مثلاً بامرأة جميلة تدعوه إلى نفسها في مكان خال لا يطلع عليه إلا الله وهو رجل شاب ذو شهوة؛ فالصبر عن هذه المعصية أشق ما يكون على النفوس، قد يصلي الإنسان مائة ركعة وتكون أهون عليه من هذا. وقد يصاب الإنسان بمصيبة يكون الصبر عليها أشق من الصبر على الطاعة؛ فقد يموت له مثلاً قريب أو صديق أو عزيز عليه جدًا، فتجده يتحمل من الصبر على هذه المصيبة مشقة عظيمة. وبهذا يندفع الإيراد الذي يورده بعض الناس ويقول: إن هذا الترتيب فيه نظر؛ إذ بعض المعاصي يكون الصبر عليها أشق من بعض الطاعات، وكذلك بعض الأقدار يكون الصبر عليها أشق؛ فنقول: نحن نذكر المراتب من حيث هي بقطع النظر عن الصابر. وكان الصبر على الطاعة أعلى؛ لأنه يتضمن إلزامًا وفعلاً، فتلزم نفسك الصلاة فتصلي، والصوم فتصوم، والحج فتحج... ففيه إلزام وفعل وحركة فيها نوع من المشقة والتعب، ثم الصبر عن المعصية لأن فيه كفًا فقط؛ أي: إلزامًا للنفس بالترك، أما الصبر على الأقدار؛ فلأن سببه ليس باختيار العبد، فليس فعلا ولا تركًا، وإنما هو من قدر الله المحض.

وخصَّ المؤلف رحمه الله في هذا الباب الصبر على أقدار الله؛ لأنه مما يتعلق بتوحيد الربوبية؛ لأن تدبير الخلق والتقدير عليهم من متقضيات ربوبية الله تعالى.

قوله: «على أقدار الله»: جمع قَدَر، وتطلق على المقدور وعلى فعل المقدر، وهو الله تعالى، أما بالنسبة لفعل المقدر؛ فيجب على الإنسان الرضا به والصبر، وبالنسبة للمقدور؛ فيجب عليه الصبر ويستحب له الرضا.

مثال ذلك: قدر الله على سيارة شخص أن تحترق، فكون الله قدَّر أن تحترق. هذا قدر يجب على الإنسان أن يرضى به؛ لأنه من تمام الرضا بالله ربًا.

وأما بالنسبة للمقدور الذي هو احتراق السيارة؛ فالصبر عليه واجب، والرضا به مستحب وليس بواجب على القول الراجح.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٨٤) ومواضع، ومسلم (٩٢٣).

قال عَلْقَمَةُ: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويُسلم.

وفي (صحيح مسلم)، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت»[1].

ومشيئته] . أي: بمشيئته وإرادته وحكمته؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وقال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ أي: من أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقَدَره فصبر واحتسب جازاه الله بهدايته قلبه التي هي أصل كل سعادة، وخير في الدنيا والآخرة وقد يخلف الله عليه في الدنيا ما كان أخذه، أو خيراً منه.

قوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تنبيه على أن ذلك إنما يصدر عن علمه المتضمن لحكمته. وذلك يوجب الصبر والرضا.

قال المصنف رحمه الله تعالى: قال عَلْقَمَةُ: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويُسلم. هذا الأثر، رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

وعلقمة: هو ابن قيس بن عبد الله النخعي الكوفي. وُلِد في حياة النبي ﷺ، وسمع من أبي بكر، وعمر وعثمان، وعلي، وسعد، وابن مسعود، وعائشة، وغيرهم وهو من كبار التابعين، وعلمائهم وثقاتهم. مات بعد الستين.

والمقدور قد يكون طاعات، وقد يكون معاصي، وقد يكون من أفعال الله المحضة؛ فالطاعات يجب الرضا بها، والمعاصي لا يجوز الرضا بها من حيث هي مقدور، أما من حيث كونها قدر الله؛ فيجب الرضا بتقدير الله بكل حال.

ولهذا قال ابن القيم:

فلذاك نرضى بالقضاء ونسخطُ الـ ـمقضي حين يكون بالعصيان

فمن نظر بعين القضاء والقدر إلى رجل يعمل معصية؛ فعليه الرضا لأن الله هو الذي قدّر هذا، وله الحكمة في تقديره، وإذا نظر إلى فعله؛ فلا يجوز له أن يرضى به لأنه معصية، وهذا هو الفرق بين القدر والمقدور.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ﴾: ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم، وفعل الشرط ﴿يُؤْمِن﴾، وجوابه ﴿يَهْدِ﴾ والمراد بالإيمان بالله هنا الإيمان بقدره.

قوله: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾: يرزقه الطمأنينة، وهذا يدل على أن الإيمان يتعلق بالقلب، فإذا اهتدى القلب اهتدت الجوارح؛ لقوله ﷺ: «إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[2].

قوله: «قال علقمة»: هو من أكابر التابعين. هو الرجل تصيبه المصيبة... إلخ.

وتفسير علقمة هذا من لازم الإيمان؛ لأن من آمن بالله علم أن التقدير من الله، فيرضى ويُسلِّم.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٦٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)، وأبو داود (٣٣٢٩)، والترمذي (١٢٠٥)، والنسائي(٤٤٥٣) ومواضع، وابن ماجه (٣٩٨٤)، وأحمد (١٧٨٨٣).

قوله: (هو الرجل تصيبه المصيبة). إلىٰ آخره. هذا الأثر رواه الأعمش، عن أبي ظبيان، قال: كنا عند علقمة، فقُرئ عليه هذه الآية: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ فقال: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند اللَّه، فيرضىٰ ويسلم. هذا سياق ابن جرير، وفي هذا دليل: علىٰ أن الأعمال من مسمىٰ الإيمان.

قال سعيد بن جبير: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يعني يسترجع، يقول: إنا للَّه وإنا إليه راجعون.

وفي الآية: بيان أن الصبر سبب لهداية القلب، وأنها من ثواب الصابر.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وفي (صحيح مسلم)، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت».

أي: هما بالناس كفر؛ حيث كانتا من أعمال الجاهلية. وهما قائمتان بالناس، ولا يسلم منهما إلا من سلَّمه اللَّه، ورزقه علمًا وإيمانًا يستضيء به.

لكن ليس من قام به شعبة من شعب الكفر، يصير كافرًا الكفر المطلق. كما أنه ليس من قام به شعبة من شعب الإيمان، يصير مؤمنًا الإيمان المطلق.

وفرقٌ بين الكفر المعرَّف باللام؛ كما في قوله: «ليس بين العبد وبين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة»[(1)(2)] وبين كفر مُنْكر في الإثبات.

قوله: «الطعن في النسب» أي: عيبه، ويدخل فيه أن يقال: هذا ليس ابن فلان، مع ثبوت نسبه شرعًا.

قوله: «والنياحة على الميت» أي: رفع الصوت بالندب، وتعداد فضائله لما فيه من التسخط علىٰ القدر، المنافي للصبر، كقول النائحة: واعضداه، واناصراه، ونحو ذلك. وفيه: دليل علىٰ أن الصبر واجب، وأن من الكفر ما لا ينقل عن الملة.

قال المصنف رحمه الله تعالى: ولهما عن ابن مسعود، مرفوعًا: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية».

فإذا علم أن المصيبة من الله اطمأن القلب وارتاح، ولهذا كان من أكبر الراحة والطمأنينة الإيمان بالقضاء والقدر.

قوله في حديث أبي هريرة: «اثنتان» مبتدأ، وسوَّغ الابتداء به التقسيم أو أنه مفيد للخصوص.

قوله: «بهم كفر»: الباء يحتمل أن تكون بمعنىٰ «من»؛ أي: هما منهم كفر، ويحتمل أن تكون بمعنىٰ «في»؛ أي: هما فيهم كفر.

قوله: «كفر»: أي: هاتان الخصلتان كفر ولا يلزم من وجود خصلتين من الكفر في المؤمن أن يكون كافرًا، كما لا يلزم من وجود خصلتين في الكافر من خصال الإيمان؛ كالحياء، والشجاعة، والكرم؛ أن يكون مؤمنًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: بخلاف قول رسول الله ﷺ: «بين الرجل والشرك والكفر ترك الصلاة»[(3)] فإنه هنا أتىٰ بأل الدالة علىٰ الحقيقة؛ فالمراد بالكفر هنا الكفر المخرج عن الملة، بخلاف مجيء «كفر» نكرة؛ فلا يدل علىٰ الخروج عن الإسلام.

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن جابر بن عبدالله بألفاظ متقاربة. (ق). (٢) صحيح: رواه مسلم (٨٢).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٨٢)، وأبو داود (٤٦٧٨)، والترمذي (٢٦١٨، ٢٦٢٠)، وابن ماجه (١٠٧٨)، وأحمد (١٤٥٦١، ١٤٧٦٢)، والدارمي (١٢٣٣).

ولهما عن ابن مسعود، مرفوعًا: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»[1].

هذا من نصوص الوعيد. وقد جاء عن سفيان الثوري، وأحمد: كراهة تأويلها؛ ليكون أوقع في

فإن الدين يدور على ثلاثة أصول: تصديق خبر الله ورسوله وامتثال أمر الله ورسوله، واجتناب نهيهما، فالصبر على أقدار الله المؤلمة داخل في هذا العموم ولكن خص بالذكر لشدة الحاجة إلى معرفته والعمل به، فإن العبد متى علم أن المصيبة بإذن الله وأن لله أتم الحكمة في تقديرها وله النعمة السابغة في تقديرها على العبد، رضي بقضاء الله وسلم لأمره وصبر على المكاره تقربًا إلى الله ورجاء لثوابه وخوفًا من عقابه واغتنامًا لأفضل الأخلاق، فاطمأن قلبه وقوي إيمانه وتوحيده.

قوله: «الطعن في النسب»: أي: العيب فيه أو نفيه؛ فهذا عمل من أعمال الكفر.

قوله: «النياحة على الميت»: أي: أن يبكي الإنسان على الميت بكاء على صفة نوح الحمام؛ لأن هذا يدل على التضجر وعدم الصبر، فهو مناف للصبر الواجب، وهذه الجملة هي الشاهد للباب.

والناس حال المصيبة على مراتب أربع:

الأولى: التسخط، وهو إما أن يكون بالقلب كأن يسخط على ربه ويغضب على قدر الله عليه، وقد يؤدي إلى الكفر.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]، وقد يكون باللسان؛ كالدعاء بالويل والثبور وما أشبه ذلك، وقد يكون بالجوارح؛ كلطم الخدود، وشق الجيوب، ونتف الشعور، وما أشبه ذلك.

الثاني: الصبر، وهو كما قال الشاعر:

الصَّبر مثل اسمه مُرٌّ مذاقته ... لكن عواقبه أحلى من العسل

فيرى الإنسان أن هذا الشيء ثقيل عليه ويكرهه، لكنه يتحمله ويتصبر، وليس وقوعه وعدمه سواء عنده، بل يكره هذا ولكن إيمانه يحميه من السخط.

الثالثة: الرضا، وهو أعلى من ذلك، وهو أن يكون الأمران عنده سواء بالنسبة لقضاء الله وقدره وإن كان قد يحزن من المصيبة؛ لأنه رجل يسبح في القضاء والقدر، أينما ينزل به القضاء والقدر فهو نازل به على سهل أو جبل، إن أصيب بنعمة أو أصيب بضدها؛ فالكل عنده سواء، لا لأن قلبه ميت؛ بل لتمام رضاه بربه -سبحانه وتعالى- يتقلب في تصرفات الرب -عز وجل-، ولكنها عنده سواء، إذ إنه ينظر إليها باعتبارها قضاء لربه، وهذا الفرق بين الرضا والصبر.

الرابعة: الشكر، وهو أعلى المراتب، وذلك أن يشكر الله على ما أصابه من مصيبة، وذلك يكون في عباد الله الشاكرين حين يرى أن هناك مصائب أعظم منها، وأن مصائب الدنيا أهون من مصائب الدين، وأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وأن هذه المصيبة سبب لتكفير سيئاته، وربما لزيادة حسناته شكر الله على ذلك.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (١٢٩٧، ١٢٩٨، ٣٥١٩)، ومسلم (١٠٣).

. . . .

النفوس، وأبلغ في الزجر، وهو يدل على أن ذلك ينافي كمال الإيمان الواجب.

قوله: «من ضرب الخدود» قال الحافظ: خُصَّ الخدُّ لكونه الغالب، وإلا فضرب بقية الوجه مثله.

قوله: «وشق الجيوب» هو الذي يدخل فيه الرأس من الثوب وذلك من عادة أهل الجاهلية؛ حزنًا على الميت.

قوله: «ودعا بدعوى الجاهلية»:

قال شيخ الإسلام: هو ندب الميت.

وقال غيره: هو الدعاء بالويل والثبور.

وقال ابن القيم: الدعاء بدعوى الجاهلية، كالدعاء بالقبائل والعصبية، ومثله التعصُّب إلى المذاهب والطوائف والمشايخ، وتفضيل بعض على بعض، يدعو إلى ذلك، ويوالي عليه ويعادي. فكل هذا من دعوى الجاهلية.

وعن ابن ماجه ـ وصححه ابن حبان ـ عن أبي أمامة: أن رسول اللَّه ﷺ لعن الخامشة وجهها،

قال النبي ﷺ: «ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا شيء إلا كفّر له بها، حتى الشوكة يشاكها»(١).

كما أنه قد يزداد إيمان المرء بذلك.

قوله في حديث ابن مسعود: «مرفوعًا»: أي: إلى النبي ﷺ.

قوله: «من ضرب الخدود»: العموم يراد به الخصوص؛ أي: من أجل المصيبة.

قوله: «من شق الجيوب»: هو طوق القميص الذي يدخل منه الرأس، وذلك عند المصيبة تَسَخُّطًا وعدم تحمل لما وقع عليه.

قوله: «ودعا بدعوى الجاهلية»: دعوى مضاف والجاهلية مضاف إليه، وتنازع هنا أمران:

الأول: صيغة العموم (دعوى الجاهلية)؛ لأنه مفرد مضاف فيعم.

الثاني: القرينة؛ لأن ضرب الخدود وشق الجيوب يفعلان عند المصيبة فيكون دعا بدعوى الجاهلية عند المصيبة، مثل قولهم: وا ويلاه! وا انقطاع ظهراه!

والأولى أن ترجح صيغة العموم، والقرينة لا تخصصه، فيكون المقصود بالدعوى كل دعوى منشؤها الجهل.

وذكر هذه الأصناف الثلاثة؛ لأنها غالبًا ما تكون عند المصائب، وإلا؛ فمثله هدم البيوت، وكسر الأواني، وتخريب الطعام، ونحوه مما يفعله بعض الناس عند المصيبة.

وهذه الثلاثة من الكبائر؛ لأن النبي ﷺ تبرأ من فاعلها.

ولا يدخل في الحديث ضرب الخد في الحياة العادية؛ مثل: ضرب الأب لابنه، لكن يكره الضرب

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٤٠، ٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٢، ٢٥٧٤).

وعن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه، حتى يوافى به يوم القيامة»[١].

والشاقة جيبها، والداعية بالويل والثبور[٢].

وهذا يدل على أن هذه الأمور من الكبائر، وقد يُعفى عن الشيء اليسير من ذلك إذا كان صدقًا، وليس على وجه النوح والتسخط. نص عليه أحمد رحمه الله؛ لما وقع لأبي بكر وفاطمة رضي الله عنهما، لما توفي رسول الله ﷺ.

وليس في هذه الأحاديث ما يدل على النهي عن البكاء؛ لما في الصحيح: أن رسول الله ﷺ لما مات ابنه إبراهيم، قال: **«تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يُرضي الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون»**[٣][٤].

وفي (الصحيحين) عن أُسامة بن زيد: أن رسول الله ﷺ انطلق إلى إحدى بناته[٥] ولها صبي في الموت، فرُفع إليه ونفسُه تقعقع كأنها شن. ففاضت عيناه، فقال سعد: ما هذا يا رسول الله؟! قال: **«هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»**[٦].

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه، حتى يوافى به يوم القيامة».

على الوجه للنهي عنه، وكذلك شق الجيب لأمر غير المصيبة.

قوله في حديث أنس: «إذا أراد الله بعبده الخير»: الله يريد بعبده الخير والشر، ولكن الشرَّ المراد لله تعالى ليس مراداً لذاته بدليل قول النبي ﷺ: **«والشر ليس إليك»**[٧]، ومن أراد الشر لذاته كان إليه، ولكن الله يريد الشر لحكمة، وحينئذ يكون خيراً باعتبار ما يتضمنه من الحكمة.

قوله: «عجل له بالعقوبة في الدنيا»: العقوبة: مؤاخذة المجرم بذنبه، وسميت بذلك؛ لأنها تعقب الذنب، ولكنها لا تقال إلا في المؤاخذة على الشر.

وقوله: «عجل له بالعقوبة في الدنيا»: كان ذلك خيراً من تأخيرها للآخرة؛ لأنه يزول وينتهي، ولهذا قال النبي ﷺ للمتلاعنين: **«إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة»**[٨].

وهناك خير أولى من ذلك وهو العفو عن الذنب، وهذا أعلى؛ لأن الله إذا لم يعاقبه في الدنيا ولا

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٩٦)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣٠٨).

(٢) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٢١٤٧).

(٣) رواه البخاري وغيره.(ق).

(٤) صحيح: رواه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٢٣١٥).

(٥) هي زينب كما في صحيح البخاري.(ق).

(٦) صحيح: رواه البخاري (١٢٨٤) ومواضع، ومسلم (٩٢٣).

(٧) صحيح: رواه مسلم (٧٧١)، وأبو داود (٧٦٠)، والترمذي (٣٤٢٢)، والنسائي (٨٩٧)، وأحمد (٨٠٥)، والدارمي (١٢٣٨).

(٨) صحيح: رواه مسلم (١٤٩٣)، وأبو داود (٢٢٥٦)، والترمذي (١٢٠٢، ٣١٧٨)، والنسائي (٣٤٧٣)، وأحمد (٢١٣٢) ومواضع.

. . . .

هذا الحديث: رواه الترمذي، والحاكم وحسنه الترمذي . وأخرجه الطبراني، والحاكم، عن عبد الله ابن مغفل ، وأخرجه ابن عدي، عن أبي هريرة ، والطبراني عن عمار بن ياسر .

قوله: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا» أي: يصب البلاء والمصائب عليه؛ لما فرط من الذنوب منه، فيخرج منها وليس عليه ذنب يوافى به يوم القيامة.

قال شيخ الإسلام: المصائب نعمة؛ لأنها مكفرات للذنوب، وتدعو إلى الصبر، فيُثاب عليها. وتقتضي الإنابة إلى الله والذل له، والإعراض عن الخلق، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة.

فنفس البلاء يكفر الله به الخطايا، وهذا من أعظم النعم. فالمصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق، إلا أن يدخل صاحبها بسببها في أعظم مما كان قبل ذلك، فتكون شراً عليه من جهة ما أصابه في دينه؛ فإن من الناس من إذا ابتلي بفقر أو مرض أو جوع ، حصل له من النفاق والجزع ومرض القلب، أو الكفر الظاهر أو ترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ما يوجب له ضرراً في دينه، فهذا كانت العافية خيراً له من جهة ما أورثته المصيبة [لا من جهة نفس المصيبة] كما أن من أوجبت له المصيبة صبراً وطاعة، كانت في حقه نعمة دينية، فهي بعينها فعل الرب عز وجل رحمة للخلق. والله تبارك وتعالى محمود عليها. فمن ابتلي فرُزق الصبر، كان الصبر نعمة عليه في دينه، وحصل له بعدما كفر من خطاياه رحمة، وحصل له بثنائه على ربه صلاة ربه عليه، قال جل ذكره: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧] وحصل له غفران السيئات، ورفع الدرجات. فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك. انتهى ملخصاً .

قوله: «وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه» أي: أخر عنه العقوبة بذنبه «حتى يوافي به يوم القيامة» هو بضم الياء وكسر الفاء منصوبًا بحتى، مبنيًا للفاعل. قال العَزيزي : أي: لا يجازيه بذنبه في الدنيا حتى يجيء في الآخرة مستوفر الذنوب وافيها، فيستوفي ما يستحقه من العقاب . وهذه الجملة

في الآخرة؛ فهذا هو الخير كله، ولكن الرسول جعل تعجيل العقوبة خيراً باعتبار أن تأخر العقوبة إلى الآخرة أشد؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٧].

والعقوبة أنواع كثيرة:

منها: ما يتعلق بالدِّين، وهي أشدها؛ لأن العقوبات الحسية قد يتنبه لها الإنسان، أما هذه؛ فلا يتنبه لها إلا من وفَّقه الله، وذلك كما لو خفت المعصية في نظر العاصي، فهذه عقوبة دينية تجعله يستهين بها، وكذلك التهاون بترك الواجب، وعدم الغيرة على حرمات الله، وعدم القيام بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كل ذلك من المصائب، ودليله قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩] .

ومنها: العقوبة بالنفس، وذلك كالأمراض العضوية والنفسية.

ومنها: العقوبة بالأهل؛ كفقدانهم، أو أمراض تصيبهم.

....

هي آخر الحديث. فأما قوله: وقال النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء» إلى آخره، فهو أول حديث آخر؛ لكن لما رواهما الترمذي بإسناد واحد، وصحابي واحد جعلهما المصنف كحديث واحد.
وفيه: التنبيه على حسن الرجاء، وحسن الظن بالله فيما يقتضيه لك؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ومنها: العقوبة بالمال؛ كنقصه أو تلفه وغير ذلك.

قوله: «وإذا أراد بعبده الشر، أمسك عنه بذنبه»: «أمسك عنه»؛ أي: ترك عقوبته.

والإمساك فعل من أفعال الله، وليس معناه تعطيل الله عن الفعل، بل هو لم يزل ولا يزال فعالاً لما يريد، لكنه يمسك عن الفعل في شيء ما لحكمه بالغة، ففعله حكمة وإمساكه حكمة.

قوله: «حتى يوافي به يوم القيامة»: أي: يوافيه الله به: أي: يجازيه به يوم القيامة، وهو الذي يقوم فيه الناس من قبورهم لله رب العالمين. وسمي بيوم القيامة لثلاثة أسباب:

١ - قيام الناس من قبورهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦].

٢ - قيام الأشهاد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]

٣ - قيام العدل؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

والغرض من سياق المؤلف لهذا الحديث: تسلية الإنسان إذا أصيب بالمصائب لئلا يجزع، فإن ذلك قد يكون خيراً، وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فيحمد الله أنه لم يؤخر عقوبته إلى الآخرة.

وعلى فرض أن أحداً لم يأت بخطيئة وأصابته مصيبة؛ فنقول له: إن هذا من باب امتحان الإنسان على الصبر، ورفع درجاته باحتساب الأجر، لكن لا يجوز للإنسان إذا أصيب بمصيبة، وهو يرى أنه لم يخطئ أن يقول: أنا لم أخطئ؛ فهذه تزكية، فلو فرضنا أن أحداً لم يصب ذنباً وأصيب بمصيبة؛ فإن هذه المصيبة لا تلاقي ذنباً تكفره لكنها تلاقي قلباً تمحصه؛ فيبتلي الله الإنسان بالمصائب لينظر هل يصبر أو لا؟ ولهذا كان أخشى الناس لله - عز وجل - وأتقاهم محمد ﷺ، يوعك كما يوعك رجلان منا[1]، وذلك لينال أعلى درجات الصبر فينال مرتبة الصابرين على أعلى وجوهها، ولذلك شدد عليه ﷺ عند النزع، ومع هذه الشدة كان ثابت القلب، ودخل عليه عبد الرحمن بن أبي بكر وهو يستاك، فأمدَّه بصره (يعني: ينظر إليه)، فعرفت عائشة رضي الله عنها أنه يريد السواك، فقالت: آخذه لك؟ فأشار برأسه نعم. فأخذت السواك وقضمته وألانته للرسول ﷺ، فأعطته إياه، فاستن به، قالت عائشة: ما رأيته استن استناناً أحسن منه، ثم رفع يده وقال: «في الرفيق الأعلى»[2].

فانظر إلى هذا الثبات واليقين والصبر العظيم مع هذه الشدة العظيمة، كل هذا لأجل أن يصل الرسول ﷺ أعلى درجات الصابرين، صبر لله، وصبر بالله، وصبر في الله حتى نال أعلى الدرجات.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٤٨، ٥٦٦٠، ٥٦٦٧)، ومسلم (٢٥٧١). (٢) صحيح: رواه البخاري (٤٤٣٨).

وقال النبي ﷺ: «إن عِظَمَ الجـزاء مع عِظَمِ البـلاء، وإن الله إذا أحب قومًـا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سَخِطَ فله السخط»[1] حسنه الترمذي.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقال النبي ﷺ: «إن عظَم الجزاء مع عظَم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سَخطَ فلَه السخط» حسنَه الترمذي.

قال الترمذي: حدثنا قتيبة، حدثنا الليث، عن يزيدَ بن أبي حبيب، عن سعد بن سنان، عن أنس، وذكر الحديث السابق. ثم قال: وبهذا الإسناد، عن النبي ﷺ، قال: **«إن عظم الجزاء»** الحديث. ثم قال: وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. ورواه ابن ماجه، ورواه الإمام أحمد، عن محمود ابن لَبيد، رفعه: **«إذا أحب الله قومًا ابتلاهم، فمَن صبر فله الصبر، ومن جَزِع فله الجَزَع»** قال المنذري: رواته ثقات.

قوله: «إن عظَم الجزاء» بكسر العين وفتح الظاء فيها. ويجوز ضمُّها مع سكون الظاء. أي: من كان ابتلاؤه أعظَم كيفية وكمية. وقد يحتج بهذا الحديث من يقول: إن المصائب يُثاب عليها مع تكفير الخطايا. ورجح ابن القيم: أن ثوابها تكفير الخطايا فقط، إلا إذا كانت سببًا لعمل صالح، كالصبر والرضا والتوبة والاستغفار، فإنه حينئذ يُثاب على ما تولَّد منه. وعلى هذا يُقال في معنى الحديث: إن عظم الجزاء مع عظم البلاء إذا صبر واحتسب.

قوله: «وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم» ولهذا ورد في حديث سعد: سُئل النبي ﷺ: أي الناس

فمن أصيب بمصيبة، فحدثته نفسه أن مصائبه أعظم من معائبه؛ فإنه يُدلُّ على ربه بعمله ويُمنُّ عليه به؛ فليحذر هذا.

ومن ذلك يتضح لنا أمران:

١ ـ أن إصابة الإنسان بالمصائب تعتبر تكفيرًا لسيئاته وتعجيلاً للعقوبة في الدنيا، وهذا خير من تأخيرها له في الآخرة.

٢ ـ قد تكون المصائب أكبر من المعائب ليصل المرء بصبره أعلى درجات الصابرين، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

قوله: وقال النبي ﷺ: هذا الحديث رواه الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ ـ فصحابيُّه صحابي الحديث الذي قبله ـ: **«إن عظم الجزاء من عظم البلاء»**.

أي: يتقابل عظم الجزاء مع البلاء، فكلما كان البلاء أشد وصبر الإنسان صار الجزاء أعظم؛ لأن الله عدل لا يجزي المحسن بأقل من إحسانه، فليس الجزاء على الشوكة يشاكها كالجزاء على الكسر إذا كسر، وهذا دليل على كمال عدل الله، وأنه لا يظلم أحدًا، وفيه تسلية المصاب.

قوله: «وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم»: أي: اختبرهم بما يُقدِّر عليهم من الأمور الدنيوية؛ كالأمراض، وفقدان الأهل، أو بما يكلفهم به من الأمور الشرعية، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ

---

(١) حسن: رواه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١)، وحسنه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢١١٠).

. . . .

أشد بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل؛ يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة»[1]. رواه الدارمي، وابن ماجه، والترمذي وصححه.

وهذا الحديث ونحوه: من أدلة التوحيد، فإذا عرف العبد أن الأنبياء والأولياء يصيبهم البلاء في أنفسهم، الذي هو في الحقيقة رحمة [ولا يدفعه عنهم إلا اللّه]، عرف أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا دفعًا، فلأن لا يملكونه لغيرهم أولىٰ وأحرىٰ. فيحرم قصدهم، والرغبة إليهم في قضاء حاجة أو تفريج كربة. وفي وقوع الابتلاء بالأنبياء والصالحين، من الأسرار والحكم والمصالح في العاقبة ما لا يُحصىٰ.

قوله: «فمن رضي فله الرضا» أي: من اللّه تعالىٰ. والرضا قد وصف اللّه به نفسه في مواضع من كتابه، كقوله: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨].

ومذهب السلف وأتباعهم من أهل السنة: إثبات الصفات التي وصف اللّه بها نفسه، ووصفه بها رسوله ﷺ [علىٰ ما يليق بجلاله وعظمته] إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل. فإذا رضي اللّه تعالىٰ عنه حصل له كل خير، وسلم من كل شر.

والرضا: هو أن يُسلم العبد أمره إلىٰ اللّه، ويُحسن الظن به، ويرغب في ثوابه. وقد يجد لذلك راحة وانبساطًا؛ محبة للّه وثقة به؛ كما قال ابن مسعود رضي اللّه عنه: إن اللّه ـ بقسطه وعدله ـ جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط.

الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٣، ٢٤]، فذكره الله بالنعمة وأمره بالصبر؛ لأن هذا الذي نُزل عليه تكليف يكلف به.

كذلك من الابتلاء الصبر عن محارم الله، كما في الحديث: «ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال؛ فقال: إني أخاف الله»؛ فهذا جزاؤه أن الله يظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

قوله: «فمن رضي؛ فله الرضى، ومن سخط؛ فله السخط»: «من»: شرطية، والجواب: «فله الرضا»؛ أي: فله الرضا من الله، وإذا رضي الله عن شخص أرضىٰ الناس عنه جميعًا، والمراد بالرضا؛ الرضا بقضاء الله من حيث إنه قضاء الله، وهذا واجب بدليل قوله: «ومن سخط» فقابل الرضا بالسخط، وهو عدم الصبر علىٰ ما يكون من المصائب القدرية الكونية.

ولم يقل هنا «فعليه السخط» مع أن مقتضىٰ السياق أن يقول فعليه؛ كقوله تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]. فقال بعض العلماء: إن اللام بمعنىٰ علىٰ؛ كقوله تعالىٰ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]؛ أي: عليهم اللعنة. وقال آخرون: إن اللام علىٰ ما هي عليه، فتكون للاستحقاق؛ أي: صار عليه السخط باستحقاقه له، فتكون أبلغ من

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٩٩٢).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية التغابن.

قوله: «ومن سخط» هو بكسر الخاء.

قال أبو السعادات: السخط: الكراهية للشيء وعدم الرضا به. أي: من سخط على الله فيما دبره، فله السخط من الله، وكفى بذلك عقوبة. وقد يستدل به على وجوب الرضا. وهو اختيار ابن عقيل. واختار القاضي عدم الوجوب، ورجحه شيخ الإسلام، وابن القيم.

قال شيخ الإسلام: ولم يجيء الأمر [به كما جاء الأمر] بالصبر. وإنما جاء الثناء على أصحابه.

قال: وأما ما يُروى: من لم يصبر على بلائي ولم يرض بقضائي، فليتخذ ربًا سواي.

فهذا إسرائيلي، لم يصح عن النبي ﷺ.

قال شيخ الإسلام: وأعلى من ذلك - أي من الرضا - أن يشكر الله على المصيبة، لما يرى من إنعام الله عليه بها. انتهى. والله أعلم.

«على»؛ كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾؛ أي: حقَّت عليهم باستحقاقهم لها، وهذا أصح.

ويستفاد من الحديث:

إثبات المحبة والسخط والرضا لله - عز و جل - وهي من الصفات الفعلية لتعلقها بمشيئة الله تعالى؛ لأن (إذا) في قوله: «إذا أحب قومًا» للمستقبل، فالحب يحدث، فهو من الصفات الفعلية.

والله تعالى يحب العبد عند وجود سبب المحبة، ويبغضه عند وجود سبب البغض، وعلى هذا؛ فقد يكون هذا الشخص في يوم من الأيام محبوبًا إلى الله وفي آخر مُبغضًا إلى الله؛ لأن الحكم يدور مع علته.

وأما الأعمال؛ فلم يزل الله يحب الخير والعدل والإحسان ونحوها، وأهل التأويل ينكرون هذه الصفات، فيُؤوِّلون المحبة والرضا بالثواب أو إرادته، والسخط بالعقوبة أو إرادتها، قالوا: لأن إثبات هذه الصفات يقتضي النقص ومشابهة المخلوقين. والصواب ثبوتها لله - عز وجل - على الوجه اللائق به كسائر الصفات التي يثبتها من يقول بالتأويل. ويجب في كل صفة أثبتها الله لنفسه أمران:

١ - إثباتها على حقيقتها وظاهرها.

٢ - الحذر من التمثيل أو التكييف.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية التغابن: وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، وقد فسرها علقمة كما سبق تفسيرًا مناسبًا للباب.

الثانية: أن هذا من الإيمان بالله: المشار إليه بقوله: (هذا) هو الصبر على أقدار الله.

الثالثة: الطعن في النسب: وهو عيبه، وهو من الكفر، لكنه لا يُخرج من الملة.

الثانية: أنَّ هذا من الإيمان بالله.

الثالثة: الطعن في النسب.

الرابعة: شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية.

الخامسة: علامة إرادة الله بعبده الخير.

السادسة: إرادة الله به الشر.

السابعة: علامة الله للعبد.

الثامنة: تحريم السخط.

التاسعة: ثواب الرضى بالبلاء.

. . . .

الرابعة: شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود، أو شق الجيوب، أو دعا بدعوى الجاهلية: لأن النبي ﷺ تبرأ منه.

الخامسة: علامة إرادة الله بعبده الخير: وهو أن يُعجل له الله العقوبة في الدنيا.

السادسة: إرادة الله به الشر: أي: علامة إرادة الله به الشر، وهو أن يؤخر له العقوبة في الآخرة.

السابعة: علامة حب الله للعبد: وهي الابتلاء.

الثامنة: تحريم السخط: يعني: مما يبتلى به العبد؛ لقوله ﷺ «ومن سخط؛ فله السخط»، وهذا وعيد.

التاسعة: ثواب الرضا بالبلاء: وهو رضا الله عن العبد؛ لقوله ﷺ: «من رضي؛ فله الرضا».

* * *

٣٥- باب ما جاء في الرياء

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب ما جاء في الرياء: **أي: من النهي والتحذير. قال الحافظ: هو مشتق من الرؤية، والمراد به: إظهار العبادة؛ لقصد رؤية الناس لها، فيحمدون صاحبها. والفرق بينه وبين السُّمعة: أن الرياء لما يُرى من العمل، كالصلاة. والسمعة لما يُسمع كالقراءة والوعظ والذكر. ويدخل في ذلك التحدُّث بما عمله.**

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾: **أي: ليس لي من الربوبية ولا**

باب ما جاء في الرياء.. ثم قال: باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

(باب ما جاء في الرياء ثم قال: باب: من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا) **اعلم أن الإخلاص لله أساس الدين وروح التوحيد والعبادة وهو أن يقصد العبد بعمله كله وجه الله وثوابه وفضله فيقوم بأصول الإيمان الستة وشرائع الإسلام الخمس وحقائق الإيمان التي هي الإحسان وبحقوق الله وحقوق عباده مكملاً لها قاصداً بها وجه الله والدار الآخرة، لا يريد بذلك رياءً ولا سمعة ولا رياسة ولا دنيا وبذلك يتم إيمانه وتوحيده.**

المؤلف رحمه الله تعالى أطلق الترجمة؛ فلم يفصح بحكمه لأجل أن يحكم الإنسان بنفسه على الرياء ما جاء فيه.

تعريف الرياء: مصدر راءى يرائي؛ **أي: عمل عملاً ليراه الناس، ويقال مراءاة كما يقال: جاهد جهاداً ومجاهدة، ويدخل في ذلك من عمل العمل ليسمعه الناس ويقال له مسمِّع، وفي الحديث عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «من راءى راءى الله به، ومن سمَّع سمَّع الله به»[1].**

والرياء خلق ذميم، وهو من صفات المنافقين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]. **والرياء يُبحث في مقامين:**

المقام الأول: **في حكمه. فنقول: الرياء من الشرك الأصغر؛ لأن الإنسان قصد بعبادته غير الله، وقد يصل إلى الأكبر، وقد مثَّل ابن القيم للشرك الأصغر؛ فقال: «مثل يسير الرياء» وهذا يدل على أن كثير الرياء قد يصل إلى الأكبر.**

المقام الثاني: **في حكم العبادة إذا خالطها الرياء، وهو على ثلاثة أوجه:**

الأول: **أن يكون الباعث على العبادة مراءاة الناس من الأصل، كمن قام يصلي من أجل مراءاة الناس ولم يقصد وجه الله؛ فهذا شرك والعبادة باطلة.**

الثاني: **أن يكون مشاركًا للعبادة في أثنائها بمعنى أن يكون الحامل له في أول أمره الإخلاص لله ثم يطرأ**

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٩٩، ٧١٥٢)، ومسلم (٢٩٨٦)، والترمذي (١٠٩٧)، وأحمد (١٩٩٤٣).

. . . .

من الإلهية شيء، بل ذلك كله للَّه وحده لا شريك له، أوحاه إليّ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي: يخافه: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

قوله: ﴿أَحَدًا﴾ نكرة في سياق النهي تعم، وهذا العموم يتناول الأنبياء والملائكة، والصالحين والأولياء، وغيرهم.

قال شيخ الإسلام: أما اللقاء: فقد فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة، وقالوا: لقاء اللَّه، يتضمن رؤيته سبحانه وتعالىٰ يوم القيامة. وذكر الأدلة علىٰ ذلك.

قال ابن القيم في الآية: أي: كما أنه إله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده لا شريك له. فكما تفرد بالإلهية، يجب أن يفرد بالعبودية، فالعمل الصالح: هو الخالص من الرياء، المقيد بالسنة. انتهىٰ.

وفي الآية دليل علىٰ أن أصل الدين الذي بعث اللَّه به رسوله ﷺ والمرسلين قبله، هو إفراد اللَّه تعالىٰ بأنواع

في أثناء العبادة. فإن كانت العبادة لا ينبني آخرها علىٰ أولها؛ فأولها صحيح بكل حال، والباطل آخرها.

مثال ذلك: رجل عنده مائة ريال قد أعدها للصدقة فتصدق بخمسين مخلصًا وراءىٰ في الخمسين الباقية؛ فالأولىٰ حكمها صحيح، والثانية باطلة. أما إذا كانت العبادة ينبني آخرها علىٰ أولها؛ فهي علىٰ حالين:

أ ـ أن يدافع الرياء ولا يسكن إليه، بل يعرض عنه ويكرهه؛ فإنه لا يؤثر عليه شيئًا؛ لقول النبي ﷺ: «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدَّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم»[١].

مثال ذلك: رجل قام يصلي ركعتين مخلصًا لله، وفي الركعة الثانية أحس بالرياء فصار يدافعه؛ فإن ذلك لا يضره ولا يؤثر علىٰ صلاته شيئًا.

ب ـ أن يطمئن إلىٰ هذا الرياء ولا يدافعه، فحينئذ تبطل جميع العبادة؛ لأن آخرها مبني علىٰ أولها ومرتبط به.

مثال ذلك: رجل قام يصلي ركعتين مخلصًا لله، وفي الركعة الثانية طرأ عليه الرياء لإحساسه بشخص ينظر إليه، فاطمأن لذلك ونزع إليه؛ فتبطل صلاته كلها لارتباط بعضها ببعض.

الثالث: ما يطرأ بعد انتهاء العبادة؛ فإنه لا يؤثر عليها شيئًا، اللهم إلا أن يكون فيه عدوان؛ كالمنِّ والأذىٰ بالصدقة، فإن هذا العدوان يكون إثمه مقابلاً لأجر الصدقة فيبطلها؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وليس من الرياء أن يفرح الإنسان بعلم الناس بعبادته؛ لأن هذا إنما طرأ بعد الفراغ من العبادة. وليس من الرياء أيضًا أن يفرح الإنسان بفعل الطاعة في نفسه، بل ذلك دليل علىٰ إيمانه، قال النبي ﷺ «من سرَّته حسناته وساءته سيئاته؛ فذلك المؤمن»[٢]، وقد سئل النبي ﷺ عن ذلك؛ فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»[٣].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٢٦٩، ٦٦٦٤)، ومسلم (١٢٧).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢١٦٥)، وأحمد (١١٥)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢٥٤٦).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٤٢)، وابن ماجه (٤٢٢٥)، وأحمد (٢٠٨٧٢، ٢٠٩٦٦).

. . . .

العبادة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

والمخالف لهذا الأصل من هذه الأمة أقسام: إما طاغوت ينازع اللَّه في ربوبيته وإلهيته، ويدعو الناس إلىٰ عبادته، أو طاغوت يدعو الناس إلىٰ عبادة الأوثان، أو مشرك يدعو غير اللَّه، ويتقرب إليه بأنواع العبادة أو بعضها، أو شاكٌّ في التوحيد: أهو أقرب حق، أم يجوز أن يجعل للَّه شريكًا في عبادته؟ أو جاهل يعتقد أن الشرك دين يقرب إلىٰ اللَّه تعالىٰ. وهذا هو الغالب علىٰ أكثر العوام؛ لجهلهم وتقليدهم مَن قبلهم؛ لما اشتدت غُرْبَة الدين، ونُسي العلم بدين المرسلين.

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾: يأمر الله نبيه أن يقول للناس: إنما أنا بشر مثلكم، وهو قصر النبي ﷺ علىٰ البشرية، وأنه ليس ربًا ولا ملكًا وأكد هذه البشرية بقوله: ﴿مِّثْلُكُمْ﴾، فذكر المثل من باب تحقيق البشرية.

قوله: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾: الوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١]. وفي الشرع: إعلام الله بالشرع.
والوحي: هو الفرق بيننا وبينه ﷺ؛ فهو متميز بالوحي كغيره من الأنبياء والرسل.

قوله: ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾: هذه الجملة في تأويل مصدر نائب فاعل: ﴿يُوحَىٰ﴾، وفيها حصر طريقه ﴿أَنَّمَا﴾؛ فيكون معناها: ما إلهكم إلا إله واحد، وهو الله، فإذا ثبت ذلك؛ فإنه لا يليق بك أن تشرك معه غيره في العبادة التي هي خالص حقه، ولذلك قال تعالىٰ بعد هذا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

فقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ المراد بالرجاء: الطلب والأمل؛ أي: من كان يُؤمِّل أن يلقىٰ ربه، والمراد باللقيا هنا الملاقاة الخاصة؛ لأن اللقيا علىٰ نوعين:

الأول: عامة لكل إنسان، قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، ولذلك قال مُفرِّعًا علىٰ ذلك: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ⑦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧، ٨] ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ [الانشقاق: ١٠].

الثاني: الخاصة بالمؤمنين، وهو لقاء الرضا والنعيم كما في هذه الآية، وتتضمن رؤيته تبارك وتعالىٰ، كما ذكر بعض أهل العلم.

فقوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، والأمر للإرشاد؛ أي: من كان يريد أن يلقىٰ الله علىٰ الوجه الذي يرضاه سبحانه؛ فليعمل عملاً صالحًا.

والعمل الصالح: ما كان خالصًا صوابًا. وهذا وجه الشاهد من الآية.

فالخالص: ما قُصد به وجه الله، والدليل علىٰ ذلك قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»[1].

والصواب: ما كان علىٰ شريعة الله، والدليل علىٰ ذلك قوله ﷺ: «من عمل عملاً ليس

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

وعن أبي هريرة، مرفوعًا: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَنْ عَمِل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشِرْكَه»[1]. رواه مسلم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن أبي هريرة مرفوعًا: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَنْ عَمِل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشِرْكَه». رواه مسلم.

قوله: «من عَمِل عملاً أشرك معي فيه غيري»: أي: مَن قصد بعمله غيري من المخلوقين، تركته وشِرْكَه.

ولابن ماجه: «فأنا منه بريء وهو للذي أشرك» قال الطيبي: الضمير المنصوب في قوله: «تركته» يجوز أن يرجع إلى العمل.

قال ابن رجب[2]: واعلم أن العمل لغير الله أقسام: فتارةً يكون رياءً محضًا كحال المنافقين؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]

ومن أعظم ما ينافي هذا مراءاة الناس والعمل لأجل مدحهم وتعظيمهم أو العمل لأجل الدنيا، فهذا يقدح في الإخلاص والتوحيد.

واعلم أن الرياء فيه تفصيل: فإن كان الحامل للعبد على العمل قصد مراءاة الناس واستمر على هذا القصد الفاسد فعمله حابط وهو شرك أصغر ويخشى أن يتذرع به إلى الشرك الأكبر، وإن كان الحامل للعبد على العمل إرادة وجه الله مع إرادة مراءاة الناس ولم يقلع عن الرياء بعمله فظاهر النصوص أيضًا بطلان هذا العمل.

عليه أمرنا؛ فهو رد»[3].

ولهذا قال العلماء: هذان الحديثان ميزان الأعمال؛ فالأول: ميزان الأعمال الباطنة، والثاني: ميزان الأعمال الظاهرة.

قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾: لا: ناهية، والمراد بالنهي الإرشاد.

قوله: ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾: خَصَّ العبادة لأنها خالص حق الله، ولذلك أتى بكلمة «رب» إشارة إلى العلة، فكما أن ربك خلقك ولا يشاركه أحدٌ في خلقك؛ فيجب أن تكون العبادة له وحده، ولذلك لم يقل: (لا يشرك بعبادة الله)، فذكر الرب من باب التعليل؛ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١].

وقوله: ﴿أَحَدًا﴾ نكرة في سياق النهي؛ فتكون عامة لكل أحد.

والشاهد من الآية: أن الرياء من الشرك، فيكون داخلاً في النهي عنه.

وفي هذه الآية دليل على ملاقاة الله تعالى، وقد استدلَّ بها بعض أهل العلم في ثبوت رؤية الله؛ لأن الملاقاة معناها المواجهة. وفيها دليل على أن الرسول ﷺ بشر لا يستحق أن يعبد؛ لأنه حصر حاله بالبشرية، كما حصر الألوهية بالله.

قوله في حديث أبي هريرة: «قال الله تعالى»: هذا الحديث يرويه النبي ﷺ عن ربه، ويسمى هذا النوع بالحديث القدسي.

قوله: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك»: قوله: «أغنى»: اسم تفضيل، وليست فعلاً ماضيًا، ولهذا أضيفت إلى

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٨٥). (٢) في شرح حديث «إنما الأعمال بالنيات» من جامع العلوم والحكم. (ق).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٧١٨، ٢٩٨٥)، ورواه البخاري تعليقًا في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ...، ورواه البخاري (٢٦٩٧) بلفظ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد».

. . . .

وهذا الرياء المحض، لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام. وقد يصدر في الصدقة الواجبة أو الحج، وغيرهما من الأعمال الظاهرة، أو التي يتعدىٰ نفعُها؛ فإن الإخلاص فيها عزيز.

وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من اللّٰه والعقوبة. وتارةً يكون العمل للّٰه، ويشاركه الرياء. فإن شاركه من أصله، فالنصوص الصحيحة تدل علىٰ بطلانه. ـ وذكر أحاديث تدل علىٰ ذلك ـ منها: هذا الحديث، وحديث شداد بن أوس مرفوعًا: «**مَنْ صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك، وإن اللّٰه عز وجل يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بي، فمن أشرك بي شيئًا فإن جدَّة عمله وقليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به. أنا عنه غني**»[1]. رواه أحمد. ـ وذكر أحاديث في المعنىٰ ـ ثم قال: فإن خالط نية الجهاد مثلاً نية غير الرياء، مثل أخذ أجرة للخدمة، أو أخذ شيء من الغنيمة، أو التجارة، نقص بذلك أجر جهادهم، ولم يبطل بالكلية.

قال ابن رجب: وقال الإمام أحمد: التاجر والمستأجر والمكاري، أجرهم علىٰ قدر ما يخلص من نياتهم في غزواتهم، ولا يكونون مثل من جاهد بنفسه وماله، لا يخلط به غيره.

وقال أيضًا ـ فيمن يأخذ جُعلاً على الجهاد ـ: إذا لم يخرج لأجل الدراهم، فلا بأس. كأنه خرج لدينه، فإن أُعطي شيئًا أخذه.

ورُوي عن عبد اللّٰه بن عمرو، قال: إذا أجمع أحدكم علىٰ الغزو، فعوَّضه اللّٰه رزقًا، فلا بأس بذلك. وأما إن أحدكم إن أُعطي دراهم غزا، وإن لم يعط دراهم لم يغز، فلا خير في ذلك[2].

- -

وإن كان الحامل للعبد علىٰ العمل وجه الله وحده ولكن عرض له الرياء في أثناء عمله فإن دفعه وخلص إخلاصه لله لم يضره، وإن ساكنه واطمأن إليه نقص العمل وحصل لصاحبه من ضعف الإيمان والإخلاص بحسب ما قام في قلبه من الرياء وتقاوم العمل لله وما خالطه من شائبة الرياء، والرياء آفة عظيمة ويحتاج إلىٰ علاج شديد وتمرين النفس علىٰ الإخلاص ومجاهدتها في مدافعة خواطر الرياء والأغراض الضارة والاستعانة بالله علىٰ دفعها لعل الله يخلص إيمان العبد ويحقق توحيده.

الشركاء. يعني: إذا كان بعض الشركاء يستغني عن شركته مع غيره؛ فالله أغنىٰ الشركاء عن المشاركة. فالله لا يقبل عملاً له فيه شرك أبداً، ولا يقبل إلا العمل الخالص له وحده، فكما أنه الخالق وحده؛ فكيف تصرف شيئًا من حقه إلىٰ غيره؟! فهذا ليس عدلاً، ولهذا قال الله عن لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، فالله الذي خلقك وأعدَّك إعداداً كاملاً بكل مصالحك وأملك بما تحتاج إليه، ثم تذهب وتصرف شيئًا من حقه إلىٰ غيره؟! فلا شك أن هذا من أظلم الظلم.

قوله: «عملاً»: نكرة في سياق الشرط؛ فتعم أي عمل من صلاة، أو صيام أو حج، أو جهاد، أو غيره.

قوله: «تركته وشركه»: أي: لم أثبه علىٰ عمله الذي أشرك فيه. وقد يصل هذا الشرك إلىٰ حد

---

(١) ضعيف: رواه أحمد (٤/ ١٢٥)، وفي سنده شهر بن حوشب، وهو ضعيف، والحديث ضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (١٧٤٩).

(٢) ذكره ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم (١/ ١٧).

وعن أبي سعيد، مرفوعًا: «ألا أخبركم بما هو أخْوَفُ عليكم عندي من المسيح الدَّجَّال؟» قالوا: بلى، قال: «الشرك الخفي: يقوم الرجل فيُصلي فيُزَيِّنُ صلاته؛ لما يرى من نظر رجل»[1]. رواه أحمد.

وروي عن مُجاهد، أنه قال: ـ في حج الجمَّال وحج الأجير، وحج التاجر ـ: هو تامٌّ لا يُنقص من أجورهم شيء. أي: لأن قصدهم الأصلي، كان هو الحج دون التكسب.

قال: وأما إن كان أصل العمل لله، ثم طرأ عليه نية الرياء: فإن كان خاطرًا ثم دفعه، فلا يضره بغير خلاف. وإن استرسل معه، فهل يُحبط عمله أم لا، ويجازي على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف، قد حكاه الإمام أحمد، وابن جرير، ورجَّحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يُجازىٰ بنيته الأولىٰ، وهو مروي عن الحسن وغيره. فأما إذا عمل العمل لله خالصًا ثم ألقىٰ الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين بذلك، ففرح بفضل الله ورحمته، واستبشر بذلك، لم يضره بذلك.

وفي هذا المعنىٰ: جاء حديث أبي ذر، عن النبي ﷺ أنه سُئل عن الرجل، يعمل العمل من الخير يُحمدُه الناس عليه، فقال: «**تلك عاجلُ بشرى المؤمن**»[2]. رواه مسلم انتهىٰ ملخصًا.

قلتُ: وتمام هذا المقام يتبين في شرح حديث أبي سعيد، إن شاء الله تعالىٰ.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن أبي سعيد، مرفوعًا: «ألا أخبركم بما هو أخْوَفُ عليكم عندي من المسيح الدَّجَّال؟» قالوا: بلى، قال: «الشرك الخفي: يقوم الرجل فيُصلي فيُزَيِّنُ صلاته؛ لما يرى من نظر رجل». رواه أحمد.

وروىٰ ابن خزيمة في (صحيحه)، عن محمود بن لَبيد، قال: خرج رسول الله ﷺ فقال: «**أيها الناس، إياكم وشرك السرائر**» قالوا: يا رسول الله وما شرك السرائر؟ قال: «**يقوم الرجل فيصلي فيُزَيِّنُ صلاته جاهدًا لما يرى من نظر الرجل إليه، فذلك شرك السرائر**»[3].

الكفر، فيترك الله جميع أعماله؛ لأن الشرك يحبط الأعمال إذا مات عليه.

والمراد بشركه: عمله الذي أشرك فيه، وليس المراد شريكه؛ لأن الشريك الذي أشرك به مع الله قد لا يتركه، كمن أشرك نبيًا أو وليًا؛ فإن الله لا يترك ذلك النبي والولي.

ويستفاد من هذا الحديث:

١ ـ بيان غنىٰ الله تعالىٰ؛ لقوله: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك**».

٢ ـ بيان عظم حق الله وأنه لا يجوز لأحد أن يشرك أحدًا مع الله في حقه.

٣ ـ بطلان العمل الذي صاحبه الرياء؛ لقوله: «**تركته وشركه**».

٤ ـ تحريم الرياء؛ لأن ترك الإنسان وعمله وعدم قبوله يدل علىٰ الغضب، وما أوجب الغضب؛ فهو مُحَرَّم.

٥ ـ أن صفات الأفعال لا حصر لها؛ لأنها متعلقة بفعل الله، ولم يزل الله ولا يزال فعالاً.

---

(١) حسن: رواه ابن ماجه (٤٢٠٤)، وأحمد (٣/ ٣٠)، وحسنه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢٦٠٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٤٢).

(٣) رواه ابن خزيمة في صحيحه (٢/ ٦٧)، والبيهقي في الكبرى (٢/ ٢٩٠)، وشعب الإيمان (٣/ ١٤٤، ١٤٥).

قوله: (عن أبي سعيد). هو الخدري. وتقدم.

قوله: «الشرك الخفي» سمَّاه خفيًا؛ لأن صاحبه يُظهر أن عمله للَّه، وقد قصد غيره، أو شرَّكه فيه بتزيين صلاته لأجله. وعن شداد بن أوس، قال: كنا نعدُّ الرياء على عهد رسول اللَّه ﷺ الشرك الأصغر[1]. رواه ابن أبي الدنيا في كتاب (الإخلاص)، وابن جرير في (التهذيب)، والطبراني، والحاكم وصححه.

قال ابن القيم: وأما الشرك الأصغر، فكيسير الرياء، والتصنُّع للمخلوق، والحلف بغير اللَّه، وقول الرجل للرجل: ما شاء اللَّه وشئت، وهذا من اللَّه ومنك، وأنا باللَّه وبك، وما لي إلا اللَّه وأنت، وأنا متوكل على اللَّه وعليك، ولولا اللَّه وأنت لم يكن كذا وكذا. وقد يكون هذا شركًا أكبر، بحسب حال قائله ومقصده. انتهى. ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله، وكذلك المتابعة؛ كما قال الفُضيل بن عياض رحمه اللَّه تعالى، في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢] قال: أخلصُه وأصوبه. قيل: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، فالخالص ما كان للَّه، والصواب ما كان على السنة.

وفي الحديث من الفوائد: شفقة النبي ﷺ على أمته ونصحه لهم، وأن الرياء أخوف على

قوله في حديث أبي سعيد: «ألا»: أداة عرض، والغرض منها تنبيه المُخاطب؛ فهو أبلغ من عدم الإتيان بها.

قوله: «بما هو»: ما: اسم موصول بمعنى الذي.

قوله: «أخوف عليكم عندي»: أي عند الرسول ﷺ لأنه ﷺ من رحمته بالمؤمنين يخاف عليهم كل الفتن، وأعظم فتنة في الأرض هي فتنة المسيح الدجال، لكن خوف النبي ﷺ من فتنة هذا الشرك الخفي أشد من خوفه من فتنة المسيح الدجال، وإنما كان كذلك؛ لأن التخلص منه صعب جداً، ولذلك قال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص»، وقال النبي ﷺ: **«أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه»**[2]، ولا يكفي مجرد اللفظ بها، بل لابد من إخلاص وأعمال يتعبد بها الإنسان لله ـ عز وجل ـ.

قوله: «المسيح الدجال»: المسيح؛ أي: ممسوح العين اليمنى، فذكر النبي ﷺ عيبين في الدجال:

أحدهما حسي: وهو أن الدجال أعور العين اليمنى؛ كما قال النبي ﷺ: **«إن الله لا يخفى عليكم، إنه ليس بأعور وإن الدجال أعور العين اليمنى»**[3].

والثاني معنوي: وهو الدجال؛ فهو صيغة مبالغة، أو يقال بأنه نسبه إلى وصفه الملازم له وهو الدَّجل والكذب والتمويه، وهو رجل من بني آدم، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بحكمته يخرجه ليفتن الناس به، وفتنته عظيمة؛ إذ ما في الدنيا منذ خلق آدم إلى أن تقوم الساعة فتنة أشد من فتنة الدجال والمسيح الدجال ثبتت به الأحاديث واشتهرت حتى كان من المعلوم بالضرورة؛ لأن النبي ﷺ أمر أمته أن يتعوذوا بالله منه في كل صلاة، وقد حاول بعض الناس إنكاره وقالوا: ما ورد من صفته متناقض

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (١/ ٧٠)، والكبير (٧/ ٢٨٩).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٩٩، ٦٥٧٠)، وأحمد (٨٦٤١).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٧٤٠٧)، ومسلم (١٦٩).

. . . .

الصالحين من فتنة المسيح الدجال. فإذا كان النبي ﷺ يخافه على سادات الأولياء مع قوة إيمانهم وعلمهم، فغيرهم ممن هو دونَهم بأضعاف أولى بالخوف من الشرك، أصغره وأكبره.

ولا يمكن أن يصدق به، لكن هؤلاء يقيسون الأحاديث بعقولهم وأهوائهم وقدرة الله بقدرتهم، ويقولون: كيف يكون اليوم الواحد عن سنة والشمس لها نظام لا تتعداه؟ وهذا لا شك جهل منهم بالله؛ فالذي جعل هذا النظام هو الله وهو القادر على أن يُغيِّره متى شاء؛ فيوم القيامة تُكَوَّر الشمس، وتَتَكدَّر النجوم، وتُكشط السماء، كل ذلك بكلمة «كن» ورَدّ هذه الأحاديث بمثل هذه التعاليل دليل على ضعف الإيمان وعدم تقدير الله حق قدره، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

فالذي نؤمن به أنه سيخرج في آخر الزمان، ويحصل منه كل ما ثبت عن رسول الله ﷺ.

ونؤمن أن الله على كل شيء قدير، وأنه قادر على أن يبعث على الناس من يفتنهم عن دينهم ليتميز المؤمن من الكافر والخبيث من الطيب مثل ما ابتلى الله بني إسرائيل بالحيتان يوم سبتهم شُرَّعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ومثل ما ابتلى الله المؤمنين بأن أرسل عليهم الصيد وهم حُرُم، تناله أيديهم ورماحهم ليعلم الله من يخافه بالغيب، وقد يبتلي الله أفراد الناس بأشياء يمتحنهم بها، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١].

قوله: «الشرك الخفي»: الشرك قسمان خفي وجلي: فالجَلي: ما كان بالقول مثل الحلف بغير الله أو قول ما شاء الله وشئت، أو بالفعل مثل الانحناء لغير الله تعظيمًا. والخفي: ما كان في القلب، مثل الرياء؛ لأنه لا يبين؛ إذ لا يعلم ما في القلوب إلا الله، ويُسمى أيضًا «شرك السرائر»، وهذا هو الذي بيَّنه الله بقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]؛ لأن الحساب يوم القيامة على السرائر، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩، ١٠]. وفي الحديث الصحيح فيمن كان يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله: أنه «يلقى في النار حتى تَندلقَ أقتاب بطنه[1]، فيدور عليها كما يدور الحمار برحاه[2]، فيجتمع عليه أهل النار، فيسألونه، فيخبرهم أنه كان يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله»[3].

قوله: «يقوم الرجل، فيصلي، فيزين صلاته»: يتساوى في ذلك الرجل والمرأة، والتخصيص هنا يسمى مفهوم اللَّقب، أي أن الحكم يُعلَّق بما هو أشرف، لا لقصد التخصيص ولكن لضرب المثل.

وقوله: «فيزين صلاته»: أي: يحسنها بالطمأنينة، ورفع اليدين عند التكبير، ونحو ذلك.

قوله: «لما يرى من نظر رجل إليه»: «ما» موصولة، وحذف العائد؛ أي: للذي يراه من نظر رجل، وهذه هي العلة لتحسين الصلاة، فقد زيَّن صلاته ليراه هذا الرجل فيمدحه بلسانه أو يُعظمه بقلبه، وهذا شرك.

---

(١) أقتاب بطنه: أمعاؤه وأحشاؤه. (٢) الرحى: آلة تطحن الحبوب.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الكهف.

الثانية: الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله.

الثالثة: ذكر السبب الموجب لذلك، وهو كمال الغنى.

الرابعة: أنَّ من الأسباب، أنَّه تعالى خير الشركاء.

الخامسة: خوف النبي ﷺ على أصحابه من الرياء.

السادسة: أنَّه فسر ذلك بأن يصلي المرء لله، لكن يزينها لما يرى من نظر رجل إليه.

وأما العمل لأجل الدنيا وتحصيل أعراضها وأغراضها فإن كانت إرادة العبد كلها لهذا القصد ولم يكن له إرادة لوجه الله والدار الآخرة: فهذا ليس له في الآخرة من نصيب وهذا العمل على هذا الوصف لا يصدر من مؤمن، فإن المؤمن ولو كان ضعيف الإيمان لابد أن يريد الله والدار الآخرة وأما من عمل العمل لوجه الله ولأجل الدنيا، والقصدان متساويان أو متقاربان فهذا وإن كان مؤمنًا فإنه ناقص الإيمان والتوحيد والإخلاص وعمله ناقص لفقده كمال الإخلاص.

فيه مسائل: الأولى: تفسير آية الكهف: وسبق الكلام عليها.

الثانية: الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله: وذلك لقوله: «تركته وشركه». وصار عظيمًا؛ لأنه ضاع على العامل خسارًا؛ وفحوى الحديث تدل على غضب الله ـ عز وجل ـ من ذلك.

الثالثة: ذكر السبب الموجب لذلك، وهو كمال الغنى: يعني: الموجب للرد هو كمال غنى الله ـ عز وجل ـ عن كل عمل فيه شرك، وهو غني عن كل عمل، لكن العمل الصالح يقبله ويثيب عليه.

الرابعة: أن من الأسباب أنه تعالى خير الشركاء: أي: من أسباب رد العمل إذا أشرك فيه العامل مع الله أحدًا، أن الله خير الشركاء، فلا ينازع من جَعَل شريكًا له فيه.

الخامسة: خوف النبي ﷺ على أصحابه من الرياء: وذلك لقوله ﷺ: **«ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال»**[1].

وإذا كان يخاف ذلك على أصحابه؛ فالخوف على من بعدهم من ذلك من باب أولى.

السادسة: أنه فسر ذلك بأن يصلي المرء لله، لكن يزينها لما يرى من نظر رجل إليه: وهذا التفسير ينطبق تمامًا على الرياء؛ فيكون أخوف علينا عند رسوله ﷺ من المسيح الدجال. ولم يذكر المؤلف مسألة خوف النبي ﷺ على أمته من المسيح الدجال؛ لأن المقام في الرياء لا فيما يخافه النبي ﷺ على أمته.

قوله: «من الشرك»: «من» للتبعيض؛ أي: بعض الشرك.

قوله: «الدنيا»: مفعول بإرادة؛ لأن إرادة مصدر مضاف إلى فاعله، وإذا أردت أن تعرف المصدر إن كان مضافًا إلى فاعله أو مفعوله؛ فحوله إلى فعل مضارع مقرون بأن، فإن قلنا: باب من الشرك أن يريد

---

(١) حسن: رواه ابن ماجه (٤٢٠٤)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢٦٠٧).

٣٦ـ باب
من الشرك: إرادة الإنسان بعمله الدنيا

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب من الشرك: إرادة الإنسان بعمله الدنيا.

فإنْ قيل: فما الفرق بين هذه الترجمة، وبين ترجمة الباب قبله؟

قلتُ: بينهما عموم وخصوص مطلق، يجتمعان في مادة، وهو إذا أراد الإنسان بعمله التزيُّن عند الناس والتصنع لهم والثناء، فهذا رياء كما تقدم بيانه، كحال المنافقين. وهو أيضًا إرادة للدنيا بالتصنع عند الناس، وطلب المدحة منهم والإكرام.

ويفارقه الرياء، بكونه عَمِلَ عملاً صالحًا، أراد به عَرَضًا من الدنيا، كمن يُجاهد ليأخذ مالاً؛ كما في الحديث: «تعس عبد الدينار»[1] أو يُجاهد للمغنم، أو غير ذلك من الأمور التي ذكرها شيخُنا عن ابن عباس، وغيره من المفسرين في معنى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود: ١٥].

وأراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة وما بعدها: أن العمل لأجل الدنيا، شرك يُنافي كمال

وأما من عمل لله وحده وأخلص في عمله إخلاصًا تامًا ولكنه يأخذ على عمله جعلاً ومعلومًا يستعين به على العمل والدين كالجعالات التي تجعل على أعمال الخير وكالمجاهد الذي يترتب على جهاده غنيمة أو رزق وكالأوقاف التي تجعل على المساجد والمدارس والوظائف الدينية لمن يقوم بها فهذا لا يضر أخذه في إيمان العبد وتوحيده لكونه لم يرد بعمله الدنيا وإنما أراد الدين وقصد أن يكون ما حصل له معينًا له على قيام الدين.

الإنسان بعمله الدنيا؛ فالإنسان فاعل، وعلى هذا؛ فإرادة مصدر مضاف إلى فاعله، والدنيا مفعول به.

وعنوان الباب له ثلاثة احتمالات:

الأول: أن يكون مكرراً مع ما قبله، وهذا بعيد أن يكتب المؤلف ترجمتين متتابعتين لمعنى واحد.

الثاني: أن يكون الباب الذي قبله أخص من هذا الباب؛ لأنه خاص في الرياء، وهذا أعم، وهذا محتمل.

الثالث: أن يكون هذا الباب نوعًا مستقلاً عن الباب الذي قبله، وهذا هو الظاهر؛ لأن الإنسان في الباب السابق يعمل رياء يريد أن يمدح في العبادة؛ فيقال: هو عابد، ولا يريد النفع المادي.

وفي هذا الباب لا يريد أن يمدح بعبادته ولا يريد المراءاة، بل يعبد الله مخلصًا له، ولكنه يريد شيئًا من الدنيا؛ كالمال، والمرتبة، والصحة في نفسه وأهله وولده وما أشبه ذلك؛ فهو يريد بعمله نفعًا في الدنيا، غافلاً عن ثواب الآخرة.

أمثلة تبين كيفية إرادة الإنسان بعمله الدنيا:

١ ـ أن يريد المال؛ كمن أذَّن ليأخذ راتب المؤذن، أو حج ليأخذ المال.

٢ ـ أن يريد المرتبة؛ كمن تعلم في كلية ليأخذ الشهادة فترتفع مرتبته.

٣ ـ أن يريد دفع الأذى والأمراض والآفات عنه؛ كمن تعبد لله كي يجزيه الله بهذا في الدنيا بمحبة الخلق له ودفع السوء عنه وما أشبه ذلك.

---

(١) صحيح: وسيأتي تخريجه.

. . . .

التوحيد الواجب، ويحبط الأعمال. وهو أعظم من الرياء؛ لأن مريد الدنيا قد تغلب إرادته تلك على كثير من عمله، وأما الرياء فقد يعرض له في عمل دون عمل، ولا يسترسل معه، والمؤمن يكون حذراً من هذا وهذا.

---

٤ ـ أن يتعبد لله لصرف وجوه الناس إليه بالمحبة والتقدير. وهناك أمثلة كثيرة.

تنبيه: فإن قيل: هل يدخل فيه من يتعلمون في الكليات أو غيرها يريدون شهادة أو مرتبة بتعلمهم؟

والجواب: إنهم يدخلون في ذلك إذا لم يريدوا غرضًا شرعيًا، فنقول لهم:

أولاً: لا تقصدوا بذلك المرتبة الدنيوية، بل اتخذوا هذه الشهادات وسيلة للعمل في الحقول النافعة للخلق؛ لأن الأعمال في الوقت الحاضر مبنية على الشهادات، والناس لا يستطيعون الوصول إلى منفعة الخلق إلا بهذه الوسيلة، وبذلك تكون النية سليمة.

ثانيًا: أن من أراد العلم لذاته قد لا يجده إلاَّ في الكليات؛ فيدخل الكلية أو نحوها لهذا الغرض؛ وأما بالنسبة للمرتبة؛ فإنها لا تهمه.

ثالثًا: أن الإنسان إذا أراد بعمله الحسنيين ـ حسنى الدنيا وحسنى الآخرة ـ؛ فلا شيء عليه؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]؛ فرغبه في التقوى بذكر المخرج من كل ضيق والرزق من حيث لا يحتسب.

فإن قيل: من أراد بعمله الدنيا كيف يقال إنه مخلص مع أنه أراد المال مثلاً؟

أجيب: إنه أخلص العبادة ولم يرد بها الخلق إطلاقًا، فلم يقصد مراءاة الناس ومدحهم، بل قصد أمرًا ماديًا؛ فإخلاصه ليس كاملاً؛ لأن فيه شركًا، ولكن ليس كشرك الرياء يريد أن يمدح بالتقرب إلى الله، وهذا لم يرد مدح الناس بذلك؛ بل أراد شيئًا دنيًا غيره.

ولا مانع أن يدعو الإنسان في صلاته ويطلب أن يرزقه الله المال، ولكن لا يصلي من أجل هذا الشيء؛ فهذه مرتبة دنيئة. أما طلب الخير في الدنيا بأسبابه الدنيوية، كالبيع، والشراء، والزراعة؛ فهذا لا شيء فيه، والأصل أن لا نجعل في العبادات نصيبًا من الدنيا، وقد سبق البحث في حكم العبادة إذا خالطها الرياء في باب الرياء.

ملاحظة: بعض الناس عندما يتكلمون على فوائد العبادات يحولونها إلى فوائد دنيوية.

فمثلاً يقولون: في الصلاة رياضة وإفادة للأعصاب، وفي الصيام فائدة إزالة الرطوبة وترتيب الوجبات، والمفروض ألا نجعل الفوائد الدنيوية هي الأصل؛ لأن الله لم يذكر ذلك في كتابه، بل ذكر أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. وعن الصوم أنه سبب للتقوى؛ فالفوائد الدينية في العبادات هي الأصل والدنيوية ثانوية، لكن عندما نتكلم عند عامة الناس؛ فإننا نخاطبهم بالنواحي الدينية، وعندما نتكلم عند من لا يقتنع إلا بشيء مادي؛ فإننا نخاطبه بالنواحي الدينية والدنيوية، ولكل مقام مقال.

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ⑮ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ⑮ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

قال ابن عباس: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: ثوابها ﴿وَزِينَتَهَا﴾ أي: مالها ﴿نُوَفِّ﴾ نوفر لهم ثواب أعمالهم، بالصحة والسرور في المال والأهل والولد ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ لا ينقصون. ثم نسختها ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ الآية [الإسراء: ١٨] رواه النحاس في (ناسخه).

قوله: ثم نسختها، أي: قيَّدتها، فلم تبق الآية على إطلاقها[1].

وقال قتادة: يقول: من كانت الدنيا همّه وطلبته ونيته، جازاه اللّه بحسناته في الدنيا ثم يُفضي إلى

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾: أي: البقاء في الدنيا.

قوله: ﴿وَزِينَتَهَا﴾: أي: المال، والبنين، والنساء، والحرث، والأنعام، والخيل المسومة؛ كما قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤].

قوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾: فعل مضارع معتل الآخر مجزوم بحذف حرف العلة ـ الياء ـ؛ لأنه جواب الشرط. والمعنى: أنهم يُعطون ما يريدون في الدنيا، ومن ذلك الكفار لا يسعون إلا للدنيا وزينتها، فعجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

ولهذا لما بكى عمر حين رأى النبي ﷺ قد أثَّر في جنبه الفراش، فقال: «ما يبكيك؟». قال: يا رسول الله! كسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من نعيم وأنت على هذه الحال، فقال رسول الله ﷺ: «أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم»، وفي الحقيقة هي ضرر عليهم؛ لأنهم إذا انتقلوا من دار النعيم إلى الجحيم، صار عليهم أشد وأعظم في فقد ما متعوا به في الدنيا.

---

(١) من العجيب جداً دعوى النسخ(*). فإن الآيتين في معنى واحد. وتفسير النسخ بتقييد مطلقها-يعني بالمشيئة- كذلك غير واضح، والظاهر أنها تثبت رواية عن ابن عباس ﷺ. (ق).

(*) قوله: (من العجيب جداً دعوى النسخ) إلخ. أقول ليس في ذلك ما يتعجب منه لأن معنى النسخ عند السلف أوسع منه عند الفقهاء لأن السلف يطلقون النسخ على تقييد المطلق وتخصيص العام لكونهما غير المعنى المفهوم من النص المطلق والنص العام، ومعلوم أن آية هود مطلقة ظاهرها أن مريد الدنيا بأعماله يعطى مراده، وآية الإسراء بينت أنه لا يعطى من ذلك إلا ما شاء الله وإن ذلك لا يحصل إلا لمن أراده الله، فاتضح من ذلك أن طالب الدنيا بأعماله قد يعطى مراده إذا شاء الله ذلك، وقد يعمل ولا يحصل له ما أراد لأن الله سبحانه لم يشأ ذلك، وهذا واضح جداً، والله أعلم. (ز).

. . . .

الآخرة وليس له حسنة يُعطى بها جزاءً. وأما المؤمن فيُجازى بحسناته في الدنيا، ويُثاب عليها في الآخرة. ذكره ابن جرير بسنده. ثم ساق حديث أبي هريرة، عن ابن المبارك، عن حيوة بن شُريح، قال: حدثني الوليد بن أبي الوليد أبو عثمان، أن عقبة بن مسلم حدثه، أن شُفَيَّ بن ماتع الأصبحي حدثه: أنه دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة، فدنوتُ منه حتى قعدتُ بين يديه، وهو يُحدِّثُ الناس! فلما سكت وخلا. قلتُ: أنشُدك بحق وبحق لما حدثتني حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ، عقَلته وعلمته. فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدِّثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ في البيت، ما فيه أحد غيري وغيره، ثم نَشَغَ أبو هريرة نَشْغَة[1]، ثم أفاق، فقال: لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت، ما فيه أحد غيري وغيره، ثم نَشَغ أبو هريرة نَشْغَة أخرى، ثم مال خارًا على وجهه، واشتد به طويلاً! ثم أفاق، فقال: حدثني رسول الله ﷺ: **«أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة، نزل إلى أهل القيامة ليقضي بينهم، وكل أمة جاثية. فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل قُتل في سبيل الله، ورجل كثير المال. فيقول الله للقارئ: ألم أُعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا رب، قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنتُ أقوم آناء الليل وآناء النهار. فيقول الله له: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت! ويقول الله له: بل أردت أن يُقال فلان قارئ، فقد قيل ذلك!**

ويُؤتى بصاحب المال، فيقول الله له: ألم أُوسِّع عليك حتى لم أدعْك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب، قال: فما عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصلُ الرحم وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يُقال فلان جواد، فقد قيل ذلك!

قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾: البَخسُ: النقص؛ أي: لا ينقصون مما يجازون فيه؛ لأن الله عدل لا يظلم، فيعطون ما أرادوه.

قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾: المشار إليه الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها.

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ﴾: فيه حصر طريقة النفي والإثبات، وهذا يعني أنهم لن يدخلوا الجنة؛ لأن الذي ليس له إلا النار محروم من الجنة والعياذ بالله.

قوله: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾: الحُبوط: الزوال؛ أي: زال عنهم ما صنعوا في الدنيا.

قوله: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: ﴿وَبَاطِلٌ﴾: خبر مقدم لأجل مراعاة الفواصل في الآيات والمبتدأ «ما» في قوله: ﴿مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ فأثبت الله أنه ليس لهؤلاء إلا النار، وأن ما صنعوا في الدنيا قد حبط، وأن أعمالهم باطلة. وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ مخصوصة بقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨]. فإن قيل: لماذا لا نجعل آية «هود» حاكمة على آية «الإسراء» ويكون الله توعد من يريد العاجلة في الدنيا أن يجعل له ما يشاء لمن يريد؟ ثم وعد أن يعطيه ما يشاء؟

---

(١) نشغ: بفتح النون والشين المعجمة وبعدها غين معجمة؛ أي شهق حتى كاد يغشى عليه أسفًا وخوفًا.(ق).

. . . .

ويُوتى بالـذي قُتل في سبيل الله، فيقال له: فبماذا قُتلت؟ فيقول: أُمرت بالجهاد في سبيلك، فقاتلتُ حتى قُتلت، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يُقال: فلان جريء، وقد قيل ذلك! ...». ثم ضرب رسول اللَّه ﷺ على رُكبتي، فقال: «يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسعَّر بهم النار يوم القيامة»(١)(٢).

وقد سُئل شيخُنا المصنف رحمه اللَّه تعالى، عن هذه الآية؟ فأجاب بما حاصله: ذُكر عن السلف فيها أنواع مما يفعله الناس اليوم، ولا يعرفون معناه.

فمن ذلك: العمل الصالح، الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه اللَّه: من صدقة وصلاة، وصلة وإحسان إلى الناس، وترك ظلم، ونحو ذلك مما يفعله الإنسان أو يتركه خالصًا للَّه. لكنه لا يُريد ثوابه في الآخرة، إنما يريد أن يجازيه اللَّه بحفظ ماله وتنميته، أو حفظ أهله وعياله، أو إدامة النعم عليهم، ولا همة له في طلب الجنة والهرب من النار. فهذا يُعطى ثواب عمله في الدنيا، وليس له في الآخرة نصيب. وهذا النوع ذكره ابن عباس.

النوع الثاني: وهو أكبر من الأول، وأخوف، وهو الذي ذكره مجاهد في الآية: أنها نزلت فيه،

أجيب: إن هذا المعنى لا يستقيم لأمرين:

أولاً: القاعدة الشرعية في النصوص أن الأخص مُقدَّم على الأعم، وآية «هود» عامة؛ لأن كل من أراد الحياة الدنيا وزينتها وفي إليه العمل وأعطي ما أراد أن يعطى، أما آية «الإسراء»؛ فهي خاصة: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]، ولا يمكن أن يُحكم بالأعم على الأخص.

الثاني: أن الواقع يشهد على ما تدل عليه آية «الإسراء»، لأن في فقراء الكفار من هو أفقر من فقراء المسلمين؛ فيكون عموم آية «هود» مخصوصًا بآية «الإسراء»؛ فالأمر موكول إلى مشيئة الله وفيمن يريده.

واختلف فيمن نزلت فيه آية هود:

١ - قيل: نزلت في الكفار؛ لأن الكافر لا يريد إلا الحياة الدنيا، ويدل لها سياقها والجزاء المُرتَّب على هذا، وعليه يكون وجه مناسبتها للترجمة أنه إذا كان عمل الكافرين يراد به الدنيا، فكل من شاركهم في شيء من ذلك؛ ففيه شيء من شركهم وكفرهم.

---

(١) تمام الحديث عند ابن جرير وغيره: (قال أبو عثمان ابن أبي الوليد: فأخبرني عقبة أن شفيا هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا. قال أبو عثمان وحدثني العلاء بن أبي حكيم: أنه كان سيافًا لمعاوية-قال: فدخل عليه رجل فحدثه بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية: وقد فعل بهؤلاء هذا؟ فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديدًا حتى ظننا أنه هلك، وقلنا: قد جاء هذا الرجل بشر ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه فقال: صدق الله ورسوله ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦] قال المنذري: ورواه ابن خزيمة في صحيحه (ق).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٨٢)، وابن خزيمة (٤/ ١١٦) وابن حبان (٢/ ١٣٧)، والحاكم (١/ ٥٧٩) والطبري في التفسير (١٢/ ١٣)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٧١٣).

في (الصحيح) عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: « تعس عبدُ الدينار، تَعس عبدُ الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أُعطي رضي، وإنَ لم يُعط سَخِط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انْتقش. طوبى لعبد

وهو أن يعمل أعمالاً صالحة ونيته رياءُ الناس، لا طلب ثواب الآخرة.

النوع الثالث: أن يعمل أعمالاً صالحة قصد بها مالاً، مثلَ أن يحج لمال يأخذه لا للّه، أو يهاجر لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، أو يجاهد لأجل المغنم.

فقد ذكر أيضًا هذا النوع في تفسير هذه الآية، وكما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكسبهم أو رياستهم، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد، كما هو واقع كثيراً.

النوع الرابع: أن يعمل بطاعة اللّه، مُخلصًا في ذلك للّه وحده لا شريك له، لكنه على عمل يُكفِّره كفراً يخرجه عن الإسلام، مثل اليهود والنصارى، إذا عبدوا اللّه، أو تصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه اللّه والدار الآخرة. ومثل كثير من هذه الأمة، الذين فيهم كفر أو شرك أكبر، يخرجهم من الإسلام بالكلية، إذا أطاعوا اللّه طاعة خالصة يريدون بها ثواب اللّه في الدار الآخرة، لكنهم على أعمال تُخرجهم من الإسلام، وتمنع قبول أعمالهم. فهذا النوع أيضًا قد ذُكر في هذه الآية، عن أنس ابن مالك وغيره، وكان السلف يخافون منها. قال بعضهم: لو أعلم أن اللّه تقبل مني سجدة واحدة لتمنيت الموت؛ لأن اللّه يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] . ثم قال: بقي أن يُقال: إذا عمل الرجل الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج ابتغاء وجه اللّه، طالبًا ثواب الآخرة، ثم بعد ذلك عمل أعمالاً قاصداً بها الدنيا، مثل أن يحج فرضه للّه، ثم يحج بعده لأجل الدنيا، كما هو واقع، فهو لما غلب عليه منهما. وقد قال بعضهم: القرآن كثيراً ما يذكر أهل

---

٢ ـ وقيل: نزلت في المرائين؛ لأنهم لا يعملون إلا للدنيا؛ فلا ينفعهم يوم القيامة.

٣ ـ وقيل: نزلت فيمن يريد مالاً بعمله الصالح.

والسياق يدلُّ للقول الأول؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

تنبيه: اقتصر المؤلف رحمه الله على الإشارة إلى تكميل الآية الأولى، وزدنا الآية التالية سهواً وعسى أن يكون خيراً.

قوله: «وفي «الصحيح» عن أبي هريرة»: سبق الكلام على قول المؤلف: «وفي «الصحيح» في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

قوله: «تعس»: بفتح العين أو كسرها؛ أي: خاب وهلك.

قوله: «عبد الدينار»: الدينار: هو النقد من الذهب، والدينار الإسلامي زنته مثقال، وسماه عبد الدينار؛ لأنه تعلق به تعلق العبد بالرب فكان أكبر همه، وقدمه على طاعة ربه، ويقال في عبد الدرهم ما يقال في عبد الدينار، والدرهم هو النقد من الفضة، وزنة الدرهم الإسلامي سبعة أعشار المثقال، فكل

. . . .

الجنة الخُلَّص وأهل النار الخلَّص، ويسكت عن صاحب الشائبتين، وهو هذا وأمثاله. انتهى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: في (الصحيح) عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «تعس عبدُ الدينار، تَعس عبدُ الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أُعطي رضي، وإن لم يُعط سَخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انْتقش. طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رَأسه، مغبرة قدماه. إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع»[1].

قوله: (في الصحيح) أي: (صحيح البخاري).

قوله: «تَعسَ» هو بكسر العين، ويجوز الفتح، أي: سقط، والمراد هنا: هلك. قاله الحافظ. وقال في موضَع آخر: وهو ضدُّ سَعِد أي: شقي.

وقال أبو السعادات: يقال تعس يتعس. أي: عَثَر وانكبَّ لوجهه. وهو دعاء عليه بالهلاك.

قوله: «عبدُ الدِّينار» هو المعروف من الذهب، كالمثقال في الوزن، زنتُه: درهم وثُمن درهم.

قوله: «تَعسَ عبدُ الدرهم» وهو من الفضة، قدَّره الفقهاء بالشعير وزنًا، وعندنا منه درهم من ضَرْب بني أُميَة، وهو زنة خمسين حبة شعير وخُمسا حبة.

سماه عبدًا له؛ لكونه هو المقصود بعمله. فكل من توجَّه بقصده لغير اللَّه، فقد جعله شريكًا للَّه في عبوديته، كما هو حال الأكثر.

عشرة دراهم سبعة مثاقيل. وقد أراد المؤلف بهذا الحديث أن يتبين أن من الناس من يعبد الدنيا؛ أي: يتذلل لها ويخضع لها، وتكون مناه وغايته، فيغضب إذا فقدت ويرضى إذا وجدت، ولهذا سمّى النبي ﷺ من هذا شأنه عبدًا لها، وهذا من يعنى بجمع المال من الذهب والفضة؛ فيكون مريدًا بعمله الدنيا.

قوله: «تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة»: وهذا من يعني بمظهره وأثاثه؛ لأن الخميصة كساء جميل والخميلة فراش وثير، ليس له هَمٌّ إلا هذا الأمر، فإن كان عابدًا لهذه الأمور لأنه صرف لها جهوده، وهمته؛ فكيف بمن أراد بالعمل الصالح شيئًا من الدنيا فجعل الدين وسيلة للدنيا؛ فهذا أعظم.

قوله: «إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط»: يحتمل أن يكون المعطي هو الله فيكون الإعطاء قدريًا؛ أي: إن قدر الله له الرزق والعطاء رضي وانشرح صدره، وإن مُنع وحرم المال سخط بقلبه وقوله، كأن يقول: لماذا كنت فقيرًا وهذا غنيًا؟ وما أشبه ذلك، فيكون ساخطًا على قضاء الله وقدره لأن الله منعه. والله - سبحانه وتعالى - يعطي ويمنع لحكمة، ويعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن يحب. والواجب على المؤمن أن يرضى بقضاء الله وقدره؛ إن أعطي شكر، وإن منع صبر.

ويحتمل أن يراد بالإعطاء هنا الإعطاء الشرعي؛ أي: إن أعطي من مال يستحقه من الأموال الشرعية رضي، وإن لم يعط سخط، وكلا المعنيين حق، وهما يدلان على أن هذا الرجل لا يرضى إلا للمال ولا يسخط إلا له، ولهذا سمَّاه الرسول ﷺ عبدًا له.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٨٨٧، ٦٤٣٥).

....

قوله: «تعس عبد الخميصة» قال أبو السعادات: هي ثوب خز أو صوف معلم، وقيل: لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء معلمة؛ وتجمع على خمائص. والخميلة ـ بفتح الخاء المعجمة ـ قال أبو السعادات: ذات الخَمَل ـ ثياب لها خَمَل من أي شيء كان.

قوله: «تعس وانتكس» قال الحافظ: هو بالمهملة، أي: عاوده المرض. وقال أبو السعادات: أي: على رأسه، وهو دعاء عليه بالخيبة.

قال الطيبي: فيه الترقي بالدعاء عليه؛ لأنه إذا تعس، انكبَّ على وجهه. فإذا انتكس، انقلب على رأسه بعد أن سقط.

قوله: «وإذا شيك» أي: أصابته شوكة.

«فلا انتقش» أي: فلا يقدر على إخراجها بالمنقاش. قاله أبو السعادات.

والمراد: أن من كانت هذه حاله [فإنه يستحق أن يدعى عليه بما يسوؤه في العواقب، ومن كانت هذه حاله] فلابد أن يجد أثر هذه الدعوات، من الوقوع فيما يضره في عاجل دنياه وآجل أخراه.

قال شيخ الإسلام: فسماه النبي ﷺ عبد الدينار والدرهم، وعبد القطيفة وعبد الخميصة، وذكر فيه ما هو دعاء بلفظ الخبر، وهو قوله: «**تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش**» وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح؛ لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه.

وهذا حال من عبد المال، وقد وصف ذلك بأنه: «**إن أُعطي رضي، وإن مُنع سَخطَ**»؛ كما قال تعالى: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ**﴾ [التوبة: ٥٨]. فرضاهم لغير الله، وسخطُهم لغير الله. وهكذا حال من كان متعلقًا برياسة أو بصورة، ونحو ذلك من أهواء نفسه. إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط. فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له؛ إذ الرق والعبودية في الحقيقة: هو رِقُّ القلب وعبوديته، فما استرقَّ القلبَ واستعبده فهو عبده.

ـ إلى أن قال ـ: وهكذا أيضًا طالب المال، فإن ذلك يستعبده ويسترقُّه، وهذه الأمور نوعان:

قوله: «تعس وانتكس»: تعس؛ أي: خاب وهلك، وانتكس؛ أي: انتكست عليه الأمور بحيث لا تتيسر له، فكلما أراد شيئًا انقلبت عليه الأمور خلاف ما يريد، ولهذا قال:

قوله: «وإذا شيك فلا انتقش»: أي: إذا أصابته شوكة؛ فلا يستطيع أن يزيل ما يؤذيه عن نفسه. وهذه الجُمل الثلاثة يحتمل أن تكون خبرًا منه ﷺ عن حال هذا الرجل، وأنه في تعاسة وانتكاس وعدم خلاص من الأذى، ويحتمل أن يكون من باب الدعاء على من هذه حاله؛ لأنه لا يهتم إلا للدنيا، فدعا عليه أن يهلك، وأن لا يصيب من الدنيا شيئًا، وأن لا يتمكن من إزالة ما يؤذيه، وقد يصل إلى الشرك عندما يصده ذلك عن طاعة الله حتى أصبح لا يرضى إلا للمال ولا يسخط إلا له.

قوله: «طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله»: هذا عكس الأول؛ فهو لا يهتم للدنيا، وإنما يهتم للآخرة؛ فهو في استعداد دائم للجهاد في سبيل الله.

. . . .

فمنها: ما يحتاج إليه العبد، كما يحتاج إلىٰ طعامه وشرابه، ومنكحه ومسكنه، ونحو ذلك. فهذا يطلبه من اللَّه، ويرغب إليه فيه، فيكون المال عنده يستعمله في حاجته: بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه، من غير أن يستعبده فيكون هلوعًا!

ومنها: ما لا يحتاج إليه العبد، فهذا ينبغي أن لا يعلِّق قلبه بها. فإذا تعلَّق قلبُه بها، صار مُستعبدًا لها [وربما صار مستعبدًا و] معتمدًا علىٰ غير اللَّه فيها. فلا يبقىٰ معه حقيقة العبودية للَّه، ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من العبادة لغير اللَّه، وشعبة من التوكل علىٰ غير اللَّه.

وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ: **«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة»** وهذا هو عبدٌ لهذه الأمور، ولو طلبها من اللَّه؛ فإن اللَّه إذا أعطاه إياها رضي، وإن منعه إياها سخط.

وإنما عبدُ اللَّه: مَن يُرضيه ما يُرضي اللَّه، ويُسخطه ما يسخط اللَّه، ويُحِبُّ ما أحبه اللَّه ورسوله، ويبغض ما أبغض اللَّه ورسوله، ويوالي أولياء اللَّه، ويعادي أعداء اللَّه، فهذا الذي استكمل الإيمان. انتهىٰ ملخصًا.

قوله: «طُوبى لعبد» قال أبو السعادات: طوبىٰ، اسم الجنة، وقيل: هي شجرة فيها. ويؤيِّد هذا: ما رویٰ ابنُ وهب ـ بسنده ـ عن أبي سعيد، قال رجل: يا رسول اللَّه وما طوبىٰ؟ قال: **«شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»**[١].

ورواه الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسىٰ، سمعت عبد اللَّه بن لَهيعة، حدثنا دَرَّاج أبو السمح، أن أبا الهيثم[٢] حدثه، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول اللَّه ﷺ: أن رجلاً قال: يا رسول اللَّه، طُوبىٰ لمن رآك وآمن بك. قال: **«طوبى لمن رآني وآمن بي، ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني»** قال له رجل: وما طوبىٰ؟ قال: **«شجرة في الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»**[٣]. وله شواهد في (الصحيحين) وغيرهما.

وقد رویٰ ابن جرير، عن وهب بن مُنبِّه هاهنا أثرًا غريبًا عجيبًا. قال وهب رحمه اللَّه تعالىٰ: إن في الجنة شجرة يقال لها: طُوبىٰ، يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها: زهْرُها رياطٌ، وورقُها بُرود[٤]، وقضبانها عَنْبر، وبطحاؤها ياقوت، وترابها كافور، وَوَحْلها مسك.

و «طوبىٰ» فُعلَىٰ من الطيب، وهي اسم تفضيل، فأطيب للمذكر وطوبىٰ للمؤنث، والمعنىٰ: أطيب حال تكون لهذا الرجل، وقيل: إن طوبىٰ شجرة في الجنة، والأول أعم؛ كما قالوا في ويل:

---

(١) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٩٨٥).

(٢) ابن لهيعة وأبو الهيثم ضعيفان. كما صرح بذلك الإمامان أحمد وأبوداود. وقد روى البخاري ومسلم من حديث سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: **«إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»**(ق).

(٣) حسن بشواهده: رواه أحمد (٣/ ٧١)، وحسنه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣٩١٨) بشواهده.

(٤) الرياط: جمع ريطة - بفتح الراء المهملة - ثوب كالملاءة. قيل: كل ثوب رقيق لين. والبُرد: كالعباء(*). (ق).

(*) قوله: (والبُرد كالعباءة) فيه نظر، والصواب أن البرد لا يشبه العباءة بل هو نوع آخر، قال في القاموس ما نصه: (البُرد بالضم: ثوب مخطط جمعه أبراد وأبرد وبرود، وأكسية يلتحف بها الواحدة بالهاء) انتهى (ز).

يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل، وهي مجلس لأهل الجنة. فبينما هم في مجلسهم، إذ أتتهم الملائكة من ربهم يقودون نُجُبًا مزمومة بسلاسل من ذهب، وجوهها كالمصابيح من حسنها، ووبَرها كخز المِرعزىٰ من لينه، عليها رحال ألواحها من ياقوت، ودفوفها من ذهب، وثيابها من سُندس وإستبرق، فينيخونها، ويقولون: إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلِّموا عليه، قال: فيركبونها. قال: فهي أسرع من الطائر، وأوطأ من الفراش. نُجبًا من غير مهنة، يسير الراكب إلىٰ جنب أخيه وهو يكلمه ويُناجيه، لا تصيب أذن راحلة منها أذن صاحبتها، ولا تركُ راحلةٍ ترك الأخرىٰ، حتىٰ إن الشجرة لتنتحي عن طريقهم؛ لئلا تُفرّق بين الرجل وأخيه. قال: فيأتون إلىٰ الرحمن الرحيم، فيسفرُ لهم عن وجهه الكريم حتىٰ ينظروا إليه، فإذا رأوه قالوا: اللهم أنت السلام ومنك السلام، وحق لك الجلال والإكرام، قال: فيقول تبارك وتعالىٰ عند ذلك: أنا السلام ومني السلام، وعليكم حقَّت رحمتي ومحبتي، مرحبًا بعبادي الذين خشوني بالغيب وأطاعوا أمري.

قال: فيقولون: ربنا إنا لم نعبدك حق عبادتك، ولم نقدِّرك حق قدرك، فأذن لنا بالسجود قدَّامك. قال: فيقول اللّه تعالىٰ: إنها ليست بدار نَصَب ولا عبادة، ولكنها دار ملك ونعيم، وإني قد رفعت عنكم نصب العبادة، فسلوني ما شئتم، فإن لكل رجل منكم أمنيته. فيسألونه حتىٰ إن أقصرهم أمنية ليقول: ربي، تنافس أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوا، رب فآتني مثل كل شيء كانوا فيه من يوم خلقتها إلىٰ أن انتهت الدنيا، فيقول اللّه تعالىٰ: لقد قصرت بك [اليوم] أمنيتُك، ولقد سألت دون منزلتك. هذا لك مني [وسأتحفك بمنزلتي]؛ لأنه ليس في عطائي نكد ولا قِصر يد.

قال: ثم يقول: اعرضوا علىٰ عبادي ما لم تبلغ أمانيهم، ولم يخطر علىٰ بال. قال: فيَعرضون عليهم حتىٰ تقصر بهم أمانيُّهم [١] التي في أنفسهم، فيكون فيما يَعرضون عليهم: براذين مُقرَّنة علىٰ كل أربعةٍ منها سرير من ياقوتة واحدة علىٰ كل سرير منها قُبة من ذهب مُفرغة، في كل قبة منها فرش من فرش الجنة مُظاهرة، في كل قبة منها جاريتان من الحور العين. علىٰ كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة، وليس في الجنة لون إلا وهو فيهما، ولا ريح طيب إلا قد عبق بهما. ينفُذ ضوء وجوههما غلظ القبة، حتىٰ يظن من يراهما أنهما دون القبة. يُرىٰ مخُّهما من فوق سوقهما كالسلك الأبيض في ياقوتة حمراء، يريان له من الفضل علىٰ صاحبته كفضل الشمس علىٰ الحجارة أو أفضل. ويرىٰ لهما مثل ذلك. ثم يدخل إليهما فيحييانه ويقبلانه ويعانقانه، ويقولان له: واللّه ما ظننا أن اللّه يخلُق مثلك، ثم يأمر اللّه تعالىٰ الملائكة فيسيرون بهم صفًا في الجنة، حتىٰ ينتهي كل رجل منهم إلىٰ منزلته التي أُعدَّت له [٢].

كلمة وعيد، وقيل: وادٍ في جهنم، والأول أعم.

---

(١) في ابن جرير: (حتى يقضوهم أمانيهم) وفي ابن كثير: (حتى تقصر بهم أمانيهم). (ق).

(٢) قلت: ونكارة المتن واضحة، وهو يُشبه الإسرائيليات خاصة وأنه من كلام وهب الذي كان يَهوديًا فأسلم، فالكلام أشبه بمروياتهم لا بكلام الرسول الكريم ﷺ. وكان الأولى عدم إيراده، خاصة وقد نبه على ذلك ابن كثير رحمه الله في تفسيره.

. . . .

وقد روىٰ هذا الأثر ابن أبي حاتم بسنده، عن وهب بن مُنبِّه، وزاد: فانظروا إلىٰ مواهب ربِّكم الذي وهب لكم، فإذا بقباب في الرفيق الأعلىٰ، وغُرف مبنية من الدر والمرجان، وأبوابها من ذهب، وسررها من ياقوت، وفرشها من سندس وإستبرق، ومنابرها من نور. يفور من أبوابها وعراصها نور مثل شعاع الشمس، عنده مثل الكوكب الدري في النهار المضيء.

وإذا بقصور شامخة في أعلىٰ عليين، من الياقوت يزهوها نورُها، فلولا أنه مسخر إذا لالتمع الأبصار. فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض، فهو مفروش بالحرير الأبيض. وما كان منها من الياقوت الأخضر، فهو مفروش بالسندس الأخضر، وما كان منها من الياقوت الأصفر، فهو مفروش بالأرجوان الأصفر. مُبوَّبة بالزمرد الأخضر، والذهب الأحمر، والفضة البيضاء، قوائمها وأركانها من الجوهر، وشُرَفُها قباب من لؤلؤ، وبروجها غرف من المرجان.

فلما انصرفوا إلىٰ ما أعطاهم ربُّهم، قُرِّبت لهم براذين من ياقوت أبيض، منفوخ فيها الروح تحتها الولدان المخلَّدون، بيد كل وليد منهم حَكَمة برذون من تلك البراذين، ولُجُمها وأعنتها من فضة بيضاء منظومة بالدر والياقوت، سروجها سرر موضونة مفروشة بالسندس والإستبرق.

فانطلقت بهم تلك البراذين تزفُّ بهم، ينظروا رياض الجنة، فلما انتهوا إلىٰ منازلهم وجدوا الملائكة قعوداً علىٰ منابر من نور؛ ينتظرونهم ليزوروهم ويصافحوهم ويهنئوهم كرامة ربهم. فلما دخلوا قصورَهم وجدوا فيها جميع ما تطاول به عليهم وما سألوا وتمنوا، وإذا علىٰ كل باب قصر من تلك القصور أربعة جنان: جنتان ذواتا أفنان، وجنتان مُدْهامتَّان، وفيهما عينان نضاختان، وفيهما من كل فاكهة زوجان، وحور مقصورات في الخيام.

فلما تبوءوا منازلهم، واستقروا قرارهم، قال لهم ربهم: فَهَل وجدتُّم ما وعد ربكم حقًّا؟ قالوا: نعم وربنا. قال: هل رضيتم ثواب ربكم؟ قالوا: ربنا رضينا فارضَ عنا، قال: فبرضاي عنكم أحللتكم داري ونظرتم إلىٰ وجهي، فعند ذلك قالوا: ﴿الْحَمْدُ للَّه الَّذي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِه لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥][١]، وهذا سياق غريب، وأثر عجيب، ولبعضه شواهد في (الصحيحين) [٢].

وقال خالد بن مَعْدان: إن في الجنة شجرة يُقال لها: طُوبىٰ، ضروع كلها، تُرضع صبيان أهل الجنة، وإن سقط المرأة يكون في نهر من أنهار الجنة يتقلَّبُ فيه حتىٰ تقوم القيامة، فيُبعث ابن أربعين سنة رواه ابن أبي حاتم.

. . . .

(١) انظر التخريج السابق.

(٢) قال روى هذا الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: ٢٩] وقال ابن كثير: إنه سياق غريب وأثر عجيب. اهـ. وظاهر عليه صبغة الإسرائيليات الملفقة. وكم لوهب بن منبه وكعب الأحبار من هذه الخرافات والآثار السخيفة التي تمجها الفطر السليمة وقد فتن الناس بهذه الإسرائيليات وفسدت بها عقائد كثير منهم ولا حول ولا قوة إلا بالله. (ق).

آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه. إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع».

قوله: «آخذ بعنان فرسه في سبيل الله» أي: في جهاد المشركين.

قوله: «أشعث» مجرور بالفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف للوصف ووزن الفعل، و«رأسه» مرفوع على الفاعلية، وهو طائر الشعر، أشغله الجهاد في سبيل اللَّه، عن التنعيم بالادِّهان وتسريح الشعر.

قوله: «مغبرَّة قدماه» هو بالجر، صفة ثانية لعبد.

قوله: «إن كان في الحراسة» هو بكسر الحاء، أي: حماية الجيش عن أن يهجم العدوُّ عليهم.

قوله: «كان في الحراسة» أي: غير مقصِّرٍ فيها ولا غافل، وهذا اللفظ يُستعمل في حق من قام بالأمر على وجه الكمال.

قوله: «وإن كان في السَّاقة كان في الساقة» أي: في مؤخِّرة الجيش، أي: يُقلِّب نفسَه في مصالح الجهاد. فكلُّ مقام يقوم فيه إن كان ليلاً أو نهارًا؛ رغبة في رضا اللَّه، وطلبًا لثوابه ومحبةً لطاعته.

قال ابن الجوزي: وهو خامل الذكر، لا يقصد السموَّ.

وقال الخلخالي: المعنى: ائتماره لما أُمر، وإقامته حيث أُقيم. لا يُفقد من مكانه، وإنما ذكر الحراسة والساقة لأنهما أشد مشقة. انتهى. وفيه: فضل الحراسة في سبيل اللَّه.

وقوله: «آخذ بعنان فرسه»: أي: ممسك بمقود فرسه الذي يقاتل عليه.

قوله: «في سبيل الله»: ضابطه أن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا لا للحمية أو الوطنية أو ما أشبه ذلك، لكن إن قاتل وطنية وقصد حماية وطنه لكونه بلداً إسلاميًا يجب الذود عنه؛ فهو في سبيل الله، وكذلك من قاتل دفاعًا عن نفسه أو ماله أو أهله؛ فإن النبي ﷺ قال: «من قتل دون ذلك؛ فهو شهيد»(١)، فأما من قاتل للوطنية المحضة؛ فليس في سبيل الله لأن هذا قتال عصبية يستوي فيه المؤمن والكافر، فإن الكافر يقاتل من أجل وطنه.

قوله: «أشعث رأسه، مغبرة قدماه»: أي: رأسه أشعث من الغبار في سبيل الله، فهو لا يهتم بحاله ولا بدنه مادام هذا الأمر ناتجًا عن طاعة الله -عز وجل-، وقدماه مغبرة من السير في سبيل الله، وهذا دليل على أن أهم شيء عنده هو الجهاد في سبيل الله، أما أن يكون شعره أو ثوبه أو فراشه نظيفًا؛ فليس له هم فيه.

قوله: «إن كان في الحراسة فهو في الحراسة، وإن كان في الساقة فهو في الساقة»: الحراسة والساقة ليست من مقدَّم الجيش؛ فالحراسة أن يحرس الإنسان الجيش، والساقة أن يكون في مؤخرته، وللجملتين معنيان:

---

(١) ثبت ذلك من حديث سعيد بن زيد عند أصحاب السنن بلفظ: «من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد ومن قتل دون دينه فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد»، والحديث رواه أبو داود (٤٧٧٢)، والترمذي (١٤٢١)، والنسائي (٤٠٩٥)، وابن ماجه (٢٥٨٠).

. . . .

قوله: «إن استأذن لم يُؤذن له» أي: إذا استأذن على الأُمراء ونحوهم، لم يأذنوا له؛ لأنه لا جاه له عندهم ولا منزلة؛ لأنه ليس من طلابها، وإنما يطلب ما عند اللّه، لا يقصد بعمله سواه.

قوله: «وإنْ شَفَعَ» بفتح أوله وثانيه.

قوله: «لم يشفَّع» بفتح الفاء مشددة. يعني: لو ألجأته الحال إلى أن يشفع في أمر يحبُّه اللّه ورسوله، لم تقبل شفاعته عند الأمراء ونحوهم!

وروى الإمام أحمد، ومسلم، عن أبي هريرة، مرفوعًا: «**رُبَّ أشعث مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرَّه**»(١).

قال الحافظ: فيه ترك حبِّ الرياسة والشهرة، وفضل الخمول والتواضع. انتهى.

وروى الإمام أحمد أيضًا، عن مصعب بن ثابت، أن عبد اللّه بن الزبير، قال: قال عثمان ـ وهو يخطب على منبره ـ: إني محدِّثكم حديثًا سمعته من رسول اللّه ﷺ، لم يكن يمنعني أن أُحدِّثكم به إلا الضن بكم. سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «**حَرَسُ ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يُقام ليلُها ويصام نهارها**»(٢).

أحدهما: أنه لا يبالي أين وضع، إن قيل له: احرس؛ حرس. وإن قيل له: كن في الساقة؛ كان فيها، فلا يطلب مرتبة أعلى من هذا المحل كمقدم الجيش مثلاً.

الثاني: إن كان في الحراسة أدى حقها، وكذا إن كان في الساقة، والحديث الصالح لمعنيين، يحمل عليهما جميعًا إذا لم يكن بينهما تعارض، ولا تعارض هنا.

قوله: «إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع»: أي: هو عند الناس ليس له جاه ولا شرف، حتى إنه إن استأذن لم يؤذن له، وهكذا عند أهل السلطة ليس له مرتبة؛ فإن شفع لم يُشفَّع، ولكنه وجيه عند الله وله المنزلة العالية؛ لأنه يقاتل في سبيله.

والشفاعة: هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.

والاستئذان: طلب الإذن بالشيء.

والحديث قَسَّم الناس إلى قسمين:

الأول: ليس له هم إلاَّ الدنيا؛ إما لتحصيل المال، أو لتجميل الحال؛ فقد استعبدت قلبه حتى أشغلته عن ذكر الله وعبادته.

الثاني: أكبر هَمِّه الآخرة؛ فهو يسعى لها في أعلى ما يكون مشقة وهو الجهاد في سبيل الله، ومع ذلك أدى ما يجب عليه من جميع الوجوه.

ويستفاد من الحديث:

١ ـ أن الناس قسمان كما سبق.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢٢، ٢٨٥٤).

(٢) ضعيف: رواه أحمد (١/ ٦١، ٦٤)، وضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٢٧٠٤).

وروىٰ الحافظ ابن عساكر ـ في ترجمة عبد اللَّه بن المبارك ـ قال عبد اللَّه بن محمد، قاضي نَصيبين: حدثني محمد بن إبراهيم بن أبي سُكينة، أنه أملىٰ عليه عبد اللَّه بن المبارك هذه الأبيات بطَرسوس، وودعه الخروج. وأنفذها معه إلىٰ الفُضيل بن عياض، في سنة سبع وسبعين ومائة. قال:

يا عابدَ الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك في العبادة تلعبُ
من كان يخضب خدَّه بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضَّبُ
أو كان يتعب خيله في باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريحُ العبير لكم، ونحن عبيرُنا ... رَهَجُ السنابك والغُبارُ الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا ... قولٌ صحيح صادق لا يُكذب
لا يستوي وغبار خيل اللَّه في ... أنف امرئ ودخان نار تلهَب
هذا كتاب اللَّه ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يَكذب

قال: فلقيتُ الفُضيل بن عياض بكتابه في المسجد الحرام، فلما قرأ ذرفت عيناه، فقال: صدق أبوعبد الرحمن ونصحني، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قلتُ: نعم، قال لي: اكتب هذا الحديث، وأملىٰ عليّ الفضيل بن عياض: حدثنا منصور بن المعتمر: عن أبي صالح، عن أبي هريرة، أن رجلاً قال: يا رسول اللَّه، علمني عملاً أنال به ثواب المجاهدين في سبيل اللَّه، فقال: «**هل تستطيع أن تصلي فلا تفتر، وتصوم فلا تفطر؟**» فقال: يا رسول اللَّه أنا أضعف من أن أستطيع ذلك، ثم قال النبي ﷺ: «**فوالذي نفسي بيده لو طُوِّقت ذلك ما بلغت فضل المجاهدين في سبيل الله. أما علمت أن فرس المجاهد لَيستَنُّ في طِوله فيكتب له بذلك حسنات؟**»[1][2].

٢ ـ أن الذي ليس له همٌّ إلاَّ الدنيا قد تتقلب عليه الأمور، ولا يستطيع الخلاص من أدنىٰ أذية وهي الشوكة، بخلاف الحازم الذي لا تهمه الدنيا، بل أراد الآخرة ولم ينس نصيبه من الدنيا، وقنع بما قدره الله له.

٣ ـ أنه ينبغي لمن جاهد في سبيل الله ألاّ تكون همه المراتب، بل يكون همه القيام بما يجب عليه؛ إما في الحراسة، أو الساقة، أو القلب، أو الجنب؛ حسب المصلحة.

٤ ـ أن دنو مرتبة الإنسان عند الناس لا يستلزم منه دنو مرتبته عند الله ـ عز وجل ـ، فهذا الرجل الذي إن شفع لم يُشفَّع وإن استأذن لم يؤذن له قال فيه الرسول ﷺ: «**طوبى له**».

ولم يقل: إن سأل لم يُعط، بل لا تهمه الدنيا حتىٰ يسأل عنها، لكن يهمه الخير فيشفع للناس ويستأذن للدخول علىٰ ذوي السلطة للمصالح العامة.

فيه مسائل: الأولى: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة: وهذا من الشرك؛ لأنه جعل عمل الآخرة وسيلة لعمل الدنيا، فيطغىٰ علىٰ قلبه حب الدنيا حتىٰ يقدمها علىٰ الآخرة، والحزم

---

(١) روى البخاري حديث سؤال الرجل هذا عن أبي هريرة ﷺ. وفيه: فقال أبو هريرة ﷺ: (فإن فرس المجاهد ليستن يمرح في طوله فيكتب له حسنات) والطول: الحبل. والاستنان: العدو، وروى مسلم مثله قريبًا منه في فضل الجهاد في سبيل الله. (ق).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٧٨٥).

فيه مسائل:

الأولى: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة.

الثانية: تفسير آية هود.

الثالثة: تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميصة.

الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أُعطي رضيَ، وإن لم يعط سخط.

الخامسة: قوله: «تَعِسَ وانتكسَ».

السادسة: قوله: «وإذا شيك فلا انتقش».

السابعة: الثناء على المجاهد والموصوف بتلك الصفات.

ولهذا جعل الله في الأموال الشرعية كالزكوات وأموال الفيء وغيرها جزءًا كبيرًا لمن يقوم بالوظائف الدينية والدنيوية النافعة كما قد عرف تفاصيل ذلك، فهذا التفصيل يبين لك حكم هذه المسألة كبيرة الشأن ويوجب لك أن تنزل الأمور منازلها والله أعلم.

والإخلاص أن يجعل عمل الدنيا للآخرة.

الثانية: تفسير آية هود: وقد سبق ذلك.

الثالثة: تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميصة: وهذه العبودية لا تدخل في الشرك ما لم يصل بها إلى حد الشرك، ولكنها نوع آخر يخل بالإخلاص؛ لأنه جعل في قلبه محبة زاحمت محبة الله ـ عز وجل ـ ومحبة أعمال الآخرة.

الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط: هذا تفسير لقولهﷺ : «عبد الدينار، عبد الدرهم، عبد الخميصة، عبد الخميلة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط»، وهذه علامة عبوديته لهذه الأشياء أن يكون رضاه وسخطه تابعًا لهذه الأشياء.

الخامسة: قوله: «تعس وانتكس».

السادسة: قوله: «إذا شيك فلا انتقش»: يحتمل أن تكون الجمل الثلاث خبرًا أو دعاءً، وسبق شرح ذلك.

السابعة: الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات: فقوله في الحديث: «طوبى لعبد...» يدل على الثناء عليه، وأنه هو الذي يستحق أن يمدح لا أصحاب الدراهم والدنانير وأصحاب الفرش والمراتب.

* * *

٣٧ـ باب
مَن أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله، فقد اتخذهم أربابًا من دون الله

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب مَن أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحلَّ الله أو تحليل ما حرم الله، فقد اتخذهم أربابًا من دون الله.

لقول اللّه تعالىٰ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وتقدم تفسير هذا في أصل المصنف، لما ذكر حديث عدي بن حاتم رضي اللّه عنه.

قوله: «من أطاع العلماء»: «من» يحتمل أن تكون شرطية، بدليل قوله: «فقد اتخذهم»؛ لأنها جواب الشرط، ويحتمل أن تكون موصولة؛ أي: «باب الذي أطاع العلماء».

وقوله: «فقد اتخذهم»: خبر المبتدأ، وقرنت بالفاء؛ لأن الاسم الموصول كالشرط في العموم، وعلىٰ الأول تقرأ «بابٌ» بالتنوين، وعلىٰ الثاني بدون تنوين، والأول أحسن.

والمراد بالعلماء: العلماء بشرع الله، وبالأمراء: أولو الأمر المُنفِّذون له، وهذان الصنفان هم المذكوران في قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]؛ فجعل الله طاعته مستقلة، وطاعة رسوله مستقلة، وطاعة أولي الأمر تابعة، ولهذا لم يكرر الفعل ﴿أَطِيعُوا﴾ فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ وأولو الأمر هم أولو الشأن، وهم العلماء، لأنه يستند إليهم في أمر الشرع والعلم به، والأمراء؛ لأنه يستند إليهم في تنفيذ الشرع وإمضائه، وإذا استقام العلماء والأمراء استقامت الأمور، وبفسادهم تفسد الأمور؛ لأن العلماء أهل الإرشاد والدلالة، والأمراء أهل الإلزام والتنفيذ.

قوله: «في تحريم ما أحل الله»: أي: في جعله حرامًا؛ أي: عقيدة أو عملاً.

«أو تحليل ما حرم الله»: أي: في جعله حلالاً عقيدة أو عملاً؛ فتحريم ما أحل الله لا ينقص درجة في الإثم عن تحليل ما حرم الله، وكثير من ذوي الغيرة من الناس تجدهم يميلون إلىٰ تحريم ما أحل الله أكثر من تحليل الحرام، بعكس المتهاونين، وكلاهما خطأ، ومع ذلك؛ فإن تحليل الحرام فيما الأصل فيه الحِل أهون من تحريم الحلال؛ لأن تحليل الحرام إذا لم يَتبيَّن تحريمه فهو مبني علىٰ الأصل، وهو الحل، ورحمة الله ـ سبحانه ـ سبقت غضبه، فلا يمكن أن نُحرِّم إلا ما تبين تحريمه، ولأنه أضيق وأشد، والأصل أن تبقىٰ الأمور علىٰ الحل والسعة حتىٰ يتبين التحريم.

أما في العبادات فيُشدَّد؛ لأن الأصل المنع والتحريم حتىٰ يُبينه الشرع كما قيل:

والأصل في الأشياء حِلٌّ وامنعِ ... عبادةً إلاّ بإذن الشارع

وقال ابن عباس: يُوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء؛ أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون قال أبو بكر وعمر؟!

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقال ابن عباس: يُوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء؛ أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون قال أبو بكر وعمر؟!

قوله: (يوشك) بضم أوله وكسر الشين المُعجمة، أي: يقرب ويسرع.

وهذا القول من ابن عباس رضي الله عنهما، جواب لمن قال له: إن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما لا يريان التمتع بالعمرة إلى الحج، ويريان أن إفراد الحج أفضل، أو ما هو معنى هذا. وكان ابن عباس يرى أن التمتع بالعمرة إلى الحج واجب، ويقول: إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط، فقد حلَّ من عمرته شاء أم أبى؛ لحديث سُراقة بن مالك، حين أمرهم النبي ﷺ أن يجعلوها عمرة، ويُحلُّوا إذا طافوا

قوله: «أربابًا»، جمع رب، وهو المتصرف المالك.

والتصرف نوعان: تصرف قدري، وتصرف شرعي. فمن أطاع العلماء في مخالفة أمر الله ورسوله؛ فقد اتخذهم أربابًا من دون الله باعتبار التصرف الشرعي؛ لأنه اعتبرهم مُشرعين واعتبر تشريعهم شرعًا يعمل به، وبالعكس الأمراء.

قول ابن عباس: **«حجارة من السماء»**: أي: من فوق تنزل عليكم عقوبة لكم، ونزول الحجارة من السماء ليس بالأمر المستحيل، بل هو ممكن، قال تعالى في أصحاب الفيل: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الفيل: ٣-٤]، وقال تعالى في قوم لوط: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤]. والحَاصبُ: الحجارة تحصبهم من السماء.

قوله: «أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟!»: أبو بكر وعمر أفضل هذه الأمة وأقربها إلى الصواب، قال النبي ﷺ: **«إن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا»**(١). رواه مسلم، وروى عنه ﷺ أنه قال: **«اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»**(٢)، وقال ﷺ: **«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنَّواجذ»**(٣)، ولم يعرف عن أبي بكر أنه خالف نصًا في رأيه، فإذا كان قول أبي بكر وعمر إذا عارض الإنسان بقولهما قول الرسول ﷺ، فإنه يوشك أن تنزل عليه حجارة من السماء؛ فما بالك بمن يعارض قوله ﷺ بمن هو دون أبي بكر وعمر؟! والفرق بين ذلك كما بين السماء والأرض؛ فيكون هذا أقرب للعقوبة. وفي الأثر التحذير عن التقليد الأعمى والتعصب المذهبي الذي ليس مبنيًا على أساس سليم.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٦٨١)، وأحمد (٢٢٠٤٠).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٣٦٦٢)، وابن ماجه (٩٧)، وأحمد (٢٢٧٣٤، ٢٢٧٦٥، ٢٢٩١٠)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٢٣٣).

(٣) صحيح: رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد (١٦٦٩٢)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢٥٤٩)، والسلسلة الصحيحة (٢٧٣٥).

. . . .

بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة، فقال سراقة: يا رسول الله، ألعامنا هذا أم للأبد؟ قال: «**بل للأبد**»(١) والحديث في (الصحيحين). وحينئذ فلا عُذر لمن استُفتي: أن ينظر في مذاهب العلماء، وما استدلَّ به كل إمام، ويأخذ من أقوالهم ما دلَّ عليه الدليل، إذا كان له ملَكة يقتدر بها على ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾ [النساء: ٥٩].

وللبخاري، ومسلم، وغيرهما: أن النبي ﷺ قال: «**لو استقبلتُ من أمري ما استدبرت ما أهديت، ولولا أن معي الهدي لأحللت**»(٢)(٣) هذا لفظ البخاري، في حديث عائشة.

ولفظه في حديث جابر: «**افعلوا ما أمرتكم، فلولا أني سُقت الهدي لفعلت مثل الذي أمرتكم**»(٤) في عدة أحاديث تؤيد قولَ ابن عباس.

وبالجملة: فلهذا قال ابن عباس ـ لما عارضوا الحديث برأي أبي بكر وعمر ـ: يوشك أن تنزل عليهم حجارة من السماء. الحديث.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ، لم يكن له أن يدعها لقول أحد.

وقال الإمام مالك رحمه الله تعالى: ما منا إلا رادٌّ ومردود عليه، إلا صاحب هذا القبر ﷺ. وكلام الأئمة في هذا المعنى كثير.

وما زال العلماء رحمهم الله يجتهدون في الوقائع: فمن أصاب منهم فله أجران، ومن أخطأ فله أجر؛ كما في الحديث(٥).

لكن إذا استبان لهم الدليل، أخذوا به وتركوا اجتهادهم. وأما إذا لم يبلغهم الحديث، أو لم يثبت عن النبي ﷺ عندهم فيه حديث، أو ثبت وله معارض أو مُخصِّص ونحو ذلك. فحينئذ، يسوغ للإمام أن يجتهد.

وفي عهد الأئمة الأربعة، إنما طلبوا الأحاديث ممن هي عنده، باللقي والسماع، ويسافر الرجل في طلب الحديث إلى الأمصار عدة سنين.

وبعض الناس يرتكب خطأً فاحشًا إذا قيل له: قال رسول الله ﷺ، قال: لكن في الكتاب الفلاني كذا وكذا؛ فعليه أن يتقي الله الذي قال في كتابه: ﴿**وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [القصص: ٦٥]، ولم يقل ماذا أجبتم فلانًا وفلانًا، أما صاحب الكتاب، فإنه إن عُلم أنه يحب الخير ويريد الحق؛ فإنه يدعى له بالمغفرة والرحمة إذا أخطأ، ولا يقال: إنه معصوم، يُعارض بقوله قول الرسول ﷺ.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (١٦٥١) ومواضع، ومسلم (١٢٤٠).

(٢) قال ذلك حين أمرهم في حجة الوداع أن يفسخوا حجهم إلى العمرة، ليكونوا متمتعين. ووجدوا في أنفسهم من ذلك لقرب ذهابهم إلى منى، وقصر المدة التي يقيمونها في مكة متمتعين بنسائهم حتى قالوا: نذهب إلى منى ومذاكيرنا تقطر منيًا انظر زاد المعاد في حجة الرسول ﷺ (ق).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٧٢٢٩)، ومسلم (١٢١١).

(٤) صحيح: وقد تقدم تخريجه.

(٥) «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا أخطأ فله أجر**»(ق).

وقال الإمام أحمد: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحَّته، ويذهبون إلى رأي سفيان.

ثم اعتنى الأئمة بالتصانيف، ودوَّنوا الأحاديث ورووها بأسانيدها، وبيَّنوا صحيحها من حسنها من ضعيفها. والفقهاء صنَّفوا في كل مذهب، وذكروا حجج المجتهدين. فسهل الأمر على طالب العلم، وكل إمام يذكر الحكم بدليله عنده.

وفي كلام ابن عباس رضي اللَّه عنهما، ما يدلُّ على أن من بلغه الدليل فلم يأخذ به ـ تقليداً لإمامه ـ فإنه يجب الإنكار عليه بالتغليظ؛ لمخالفته الدليل.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عمرو البزار، حدثنا زياد بن أيوب، حدثنا أبو عبيدة الحداد، عن مالك بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: ليس منا أحد إلا يؤخذ من قوله ويدع، غير النبي ﷺ.

وعلى هذا: فيجب الإنكار على من ترك الدليل لقول أحد من العلماء، كائناً من كان. ونصوص الأئمة على هذا، وأنه لا يسوغ التقليد إلا في مسائل الاجتهاد التي لا دليل فيها يُرجع إليه من كتاب ولا سنة. فهذا هو الذي عناه بعض العلماء بقوله: لا إنكار في مسائل الاجتهاد.

وأما ما خالف الكتاب والسنة: فيجب الردُّ عليه؛ كما قال ابن عباس، والشافعي، ومالك، وأحمد. وذلك مجمع عليه، كما تقدم في كلام الإمام الشافعي رحمه اللَّه تعالى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: **وقال الإمام أحمد: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحَّته، يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [النور: ٦٣] **أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك. لعله إذا ردَّ بعض قوله، أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.** هذا الكلام من الإمام أحمد، رواه عنه الفضل بن زياد، وأبو طالب. قال الفضل، عن أحمد: نظرت في المصحف، فوجدت طاعة الرسول ﷺ في ثلاث وثلاثين موضعًا، ثم جعل يتلو ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. فذكر من قوله: الفتنة: الشرك، إلى قوله: فيهلك. ثم جعل يتلو هذه الآية ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. وقال

قول أحمد رحمه الله: «**عجبت**»: **العجب نوعان:**

الأول: عجب استحسان؛ كما في حديث عائشة رضي الله عنها: «كان الرسول ﷺ يعجبه التيامن في تَنَعّله وتَرَجله وطهوره وفي شأنه كله»[1].

الثاني: عجب إنكار؛ كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢]، والعجب في كلام الإمام أحمد هنا عجب إنكار.

قوله: «**الإسناد**»: المراد به هنا رجال السند لا نسبة الحديث إلى راويه؛ أي: عرفوا صحة الحديث بمعرفة رجاله.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٦٨)، ومسلم (٢٦٨).

. . . .

أبو طالب - عن أحمد - وقيل له: إن قومًا يدَّعون الحديث، ويذهبون إلىٰ رأي سفيان وغيره، [فقال: أعجب لقوم سمعوا الحديث، وعرفوا الإسناد وصحته يدَعونه، ويذهبون إلىٰ رأي سفيان وغيره] ، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الكفر. قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، فيدعون الحديث عن رسول اللَّه ﷺ، وتغلبُهم أهواؤهم إلىٰ الرأي، ذكر ذلك عنه شيخ الإسلام.

قوله: (عرفوا الإسناد). أي: إسناد الحديث وصحته، فإذا صح إسناد الحديث، فهو صحيح عند أهل الحديث وغيرهم من العلماء.

وسفيان: هو الثوري، الإمام الزاهد، العابد الثقة الفقيه، وكان له أصحاب يأخذون عنه. ومذهبه مشهور، يذكره العلماء في الكتب التي يُذكر فيها مذاهب الأئمة، كـ: (التمهيد) لابن عبد البر، و(الاستذكار) له، وكتاب (الإشراف على مذاهب الأشراف) لابن المنذر، و(المحلىٰ) لابن حزم، و(المغني) لأبي محمد عبد اللَّه بن أحمد بن قُدَامة الحنبلي، وغير هؤلاء.

فقول الإمام أحمد رحمه اللَّه: (عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته) إلىٰ آخره. إنكار منه لذلك، وأنه يؤول إلىٰ زيغ القلوب، الذي يكون به المرء كافرًا. وقد عمَّت البلوىٰ بهذا المنكر، وخصوصًا ممن ينتسب إلىٰ العلم. نصبوا الحبائل في الصد عن الأخذ بالكتاب والسنة، وصدوا الناس عن مُتابعة النبي ﷺ وتعظيم أمره ونهيه. فمن ذلك قولهم: لا يستدل بالكتاب والسنة إلا المجتهد، والاجتهاد قد انقطع[1]، ويقول: هذا الذي قلَّدته أعلم منك بالحديث وبناسخه ومنسوخه، ونحو ذلك من الأقوال، التي غايتها ترك متابعة الرسول ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوىٰ، والاعتماد علىٰ قول من يجوز عليه الخطأ. وغيره من الأئمة يخالفه ويمنع قوله بدليل، فما من إمام إلا والذي معه بعض العلم لا كله. فالواجب علىٰ كل مكلف، إذا بلغه الدليل من كتاب اللَّه وسنة رسوله وفهم معنىٰ ذلك: أن ينتهي إليه ويعمل به، وإن خالفه من خالفه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]. وقد تقدم حكاية الإجماع علىٰ ذلك؛ وبيان أن المقلد ليس من أهل العلم، وقد حكىٰ أيضًا أبو عمر بن عبد البر وغيره الإجماع علىٰ ذلك. قلتُ: ولا يخالف في ذلك إلا جهال المقلدة، لجهلهم بالكتاب والسنة، ورغبتهم عنهما، وهؤلاء وإن ظنوا أنهم اتبعوا الأئمة، فإنهم في الحقيقة قد خالفوهم، واتبعوا غير سبيلهم؛ كما قدَّمنا من قول مالك، والشافعي، وأحمد. لكن في كلام أحمد رحمه اللَّه إشارة إلىٰ أن

قوله: «يذهبون إلى رأي سفيان»: أي: سفيان الثوري؛ لأنه صاحب المذهب المشهور وله أتباع

---

(١) في قرة العيون: وقد أخطأوا في ذلك. وقد استدل الإمام أحمد رحمه الله بقوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» إن الاجتهاد لا ينقطع. (ق).

. . . .

التقليد قبل بلوغ الحجة لا يُذم، وإنما يُنكر على من بلغته الحجة وخالفها، لقول إمام من الأئمة؛ وذلك إنما نشأ عن الإعراض عن تدبُّر كتاب الله وسنة رسوله، والإقبال على كتب من تأخر، والاستغناء بها عن الوحيين. وهذا يشبه ما وقع من أهل الكتاب، الذين قال الله فيهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، كما سيأتي بيان ذلك، في حديث عدي بن حاتم.

فيجب على من نصح نفسه: إذا قرأ كتب العلماء ونظر فيها، وعرف أقوالهم، فليعرضها على ما في الكتاب والسنة؛ فإن كل مجتهد من العلماء ومن تبعه وانتسب إلى مذهبه، لابد أن يذكر دليله.

والحق في المسألة واحد، والأئمة مثابون على اجتهادهم. فالمنصف يجعل النظر في كلامهم وتأمُّله، طريقًا إلى معرفة المسائل واستحضارها ذهنًا، وتمييزًا للصواب من الخطأ بالأدلة التي ذكرها المستدلون، ويتعرَّف بذلك من هو أسعد بالدليل من العلماء فيتبعه. والأدلة على هذا الأصل في كتاب الله أكثر من أن تحصر، وفي السنة كذلك؛ كما أخرج أبو داود بسنده، عن أُناس من أصحاب معاذ: أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذًا إلى اليمن، قال: «**كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟**» قال: أقضي بكتاب الله، قال: «**فإن لم تجد في كتاب الله؟**» قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: «**فإن لم تجد في سنة رسول الله ﷺ ولا في كتاب الله؟**» قال: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول الله ﷺ صدره، وقال: «**الحمد لله الذي وفَّق رسولَ رسول الله لما يُرضي رسولَ الله**» وساق بسنده، عن الحارث بن عمر، عن أُناس من أصحاب معاذ، عن معاذ بن جبل: أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن ـ بمعناه[1]. والأئمة رحمهم الله، لم يُقصِّروا في البيان، بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانت السنة؛ لعلمهم أن من العلم شيئًا لم يعلموه، وقد يبلغ غيرَهم، وذلك كثير، كما لا يخفى على من نظر في أقوال العلماء.

قال أبو حنيفة: إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة رضي الله عنهم فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين فنحن رجالٌ وهم رجالٌ! وقال: إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالفه، فاتركوا قولي لكتاب الله. قيل: إذا كان قول الرسول ﷺ يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لخبر رسول الله ﷺ. وقيل: إذا كان قول الصحابة يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لقول الصحابة.

وقال الربيع: سمعتُ الشافعي يقول: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ، فخذوا سنة رسول الله ﷺ ودعوا ما قلت. وقال: إذا صح الحديث بما يخالف قولي، فاضربوا بقولي الحائط!

وقال مالك: كل أحد يؤخذ من قوله ويترك، إلا رسول الله ﷺ. وتقدم له مثل ذلك، فلا عذر لمقلِّد بعد هذا. ولو استقصينا كلام العلماء في هذا لخرج بنا عما قصدناه من الاختصار، وفيما ذكرناه كفاية لطالب الهُدى[2].

لكنهم انقرضوا؛ فهم يذهبون إلى رأي سفيان وهو من الفقهاء ويتركون ما جاء به الحديث!

قوله: والله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ﴾: الفاء عاطفة، واللام للأمر، ولهذا سكنت وجزم الفعل بها، لكن حرك بالكسر؛ لالتقاء الساكنين.

---

(١) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٣٧٣٧).

(٢) في قرة العيون: فعلى من اشتغل بمصنفات أهل مذهبه أن ينظر في أقوال المخالفين وما استدلوا به متبعًا للدليل مع من كان معه. وبالله التوفيق. (ق).

والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك. لعله إذا ردَّ بعض قوله، أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

قوله: (لعله إذا ردَّ بعض قوله ـ أي: قول الرسول ﷺ ـ أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك). نبَّه رحمه الله أن رد قول الرسول ﷺ سبب لزيغ القلب، وذلك هو الهلاك في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[الصف: ٥].

قال شيخ الإسلام ـ في معنى قول الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ ـ:

فإذا كان المخالف عن أمره قد حُذِّرَ من الكفر والشرك، أو من العذاب الأليم، دلَّ على أنه قد يكون مُفضيًا إلى الكفر والعذاب الأليم. ومعلوم أن إفضاءه إلى العذاب هو مجرد فعل المعصية، فإفضاؤه إلى الكفر إنما هو لما يقترن به من الاستخفاف في حق الآمر؛ كما فعل إبليس لعنه الله. انتهى.

وقال أبو جعفر بن جرير: عن الضحاك ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ قال:

باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه فقد اتخذهم أربابًا

باب قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ٦٠]

ووجه ما ذكره المصنف ظاهر فإن الرب والإله هو الذي له الحكم القدري، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وهو الذي يؤله ويعبد وحده لا شريك له، ويطاع طاعة مطلقة فلا يعصى بحيث تكون الطاعات كلها تبعًا لطاعته، فإذا اتخذ العبد العلماء والأمراء على هذا الوجه وجعل طاعتهم هي الأصل وطاعة الله ورسوله تبعًا لها فقد اتخذهم أربابًا من دون الله يتألههم ويتحاكم إليهم ويقدم حكمهم على حكم الله ورسوله فهذا هو الكفر بعينه فإن الحكم كله لله كما أن العبادة كلها لله.

قوله: ﴿عَنْ أَمْرِهِ﴾: الضمير يعود للرسول ﷺ؛ بدليل أول الآية، قال تعالى: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: ٦٣]. فإن قيل: لماذا عُدي الفعل بـ ﴿عَنْ﴾ مع أن ﴿يخالف﴾ يتعدى بنفسه؟

أجيب: أن الفعل ضُمِّن معنى الإعراض؛ أي: يعرضون عن أمره زهدًا فيه وعدم مبالاة به.

و ﴿أَمْرِهِ﴾: واحد الأوامر وليس واحد الأمور؛ لأن الأمر هو الذي يخالف فيه، وهو مفرد مضاف؛ فيعم جميع الأوامر.

﴿فِتْنَةٌ﴾: الفتنة فسرها الإمام أحمد بالشرك، وعلى هذا يكون الوعيد بأحد أمرين: إما الشرك، وإما العذاب الأليم.

قوله في حديث عدي بن حاتم: ﴿اتَّخَذُوا﴾: الضمير يعود للنصارى؛ لأن اليهود لم يتخذوا المسيح ابن مريم إلهًا، بل ادعوا أنه ابن زانية وحاولوا قتله، وادعوا أنهم قتلوه، ويحتمل أن يعود الضمير لليهود والنصارى جميعًا ويختص النصارى باتخاذ المسيح ابن مريم، وهذا هو المتبادر من السياق مع الآية التي قبلها.

قوله: ﴿أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ﴾: الأحبار: جمع حبر، وحِبر بفتح الحاء وكسرها؛ وهو العالم الواسع العلم، والرهبان: جمع راهب، وهو العابد الزاهد.

عن عدي بن حاتم: أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

يُطبع على قلبه فلا يؤمن أن يُظهر الكفر بلسانه فتُضرب عُنقه.

قال أبو جعفر: أُدخلت ﴿عَنْ﴾؛ لأن معنى الكلام: فليحذر الذين يلوذون عن أمره، ويُدبرون عنه معرضين.

قوله: ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ﴾ في عاجل الدنيا عذاب من اللَّه مُوجع؛ على خلافهم أمر رسول اللَّه ﷺ.

قال المصنف رحمه الله تعالى: عن عدي بن حاتم: أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، فقلت: إنا لسنا نعبدهم، قال: «أليس يُحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرمونه، ويحلُّون ما حرم الله فتحلونه»، فقلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم»[1]. رواه أحمد، والترمذي وحسنه.

هذا الحديث قد رُوي من طُرق: فرواه ابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي.

قوله: (عن عدي بن حاتم)، أي: الطائي المشهور، وحاتم هو ابن عبد اللَّه بن سعد بن الحشرج -بفتح الحاء المهملة- المشهور بالسخاء والكرم. قدم عديّ على رسول اللَّه ﷺ في شعبان سنة تسع من الهجرة فأسلم. وعاش مائة وعشرين سنة.

وفي الحديث: دليل على أن طاعة الأحبار والرهبان في معصية اللَّه عبادة لهم من دون اللَّه، ومن

قوله: ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾: أي: مشاركين لله -عز وجل- في التشريع؛ لأنهم يحلون ما حرم الله فيحله هؤلاء الأتباع، ويحرمون ما أحل الله فيحرمه الأتباع.

قوله: ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾: أي: اتخذوه إلهًا مع الله، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾، والعبادة: التذلل والخضوع، واتباع الأوامر، واجتناب النواهي.

قوله: ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾: هو الله -عز وجل-، وإله؛ أي: مألوه معبود مطاع، وليس بمعنى آله؛ أي: قادر على الاختراع، فإن هذا المعنى فاسد ذهب إليه المتكلمون أو عامتهم؛ فيكون معنى: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ على هذا القول: لا رب إلا الله، وهذا ليس بالتوحيد المطلوب بهذه الكلمة؛ إذ لو كان كذلك لكان المشركون الذين قاتلهم رسول الله ﷺ موحدين؛ لأنهم يقولون: لا رب إلا الله، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧]، وهذه إحدى القراءتين، وهي سبعية.

قوله: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: «سبحان»: اسم مصدر، وهي معمول أو مفعول لفعل محذوف وجوبًا تقديره يسبح سبحانًا؛ أي: تسبيحًا؛ لأن اسم المصدر بمعنى المصدر؛ فسبحان: مفعول مطلق عاملها محذوف وجوبًا وهي ملازمة للإضافة: إما إلى مُضمر؛ كما في الآية: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أو إلى مُظهر؛ كما في

---

(١) حسن: رواه الترمذي (٣٠٩٥)، والطبري (١٠/ ١١٤)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٦)، والطبراني في الكبير (١٧/ ١٢)، وقال الترمذي: . . وغطيف - أحد رواته- ليس بمعروف في الحديث، والحديث حسنه الألباني رحمه الله بشواهده.

فقلت: إنا لسنا نعبدهم، قال: «أليس يُحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرمونه، ويحلُّون ما حرم الله فتحلونه»، فقلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم». رواه أحمد، والترمذي وحسنه.

الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] ويُظهر ذلك؛ قوله تعالىٰ: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]. وهذا قد وقع في كثير من الناس مع من قلدوهم، لعدم اعتبارهم الدليل إذا خالف المقلد، وهو من هذا الشرك.

﴿سبحان الله﴾. والتسبيح: التنزيه؛ أي: تنزيه الله عن كل نقص، ولا يحتاج أن نقول: ومماثلة المخلوقين؛ لأن المماثلة نقص، ولكن إذا قلناها؛ فذلك من باب زيادة الإيضاح حتىٰ لا يُظن أن تمثيل الخالق بالمخلوق في الكمال من باب الكمال، فيكون المعنىٰ: تنزيه الله عن كل ما لا يليق به من نقص أو مماثلة المخلوقين.

قوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي: مما سواه من المسيح ابن مريم والأحبار والرهبان؛ فهو متنزه عن كل شرك وعن كل مشرك به.

وقوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: هذا من البلاغة في القرآن؛ لأنها جاءت محتملة أن تكون «ما» مصدرية، فيكون المعنىٰ عن شركهم، أو موصولة، ويكون المعنىٰ: سبحان الله عما يشركون به، وهي صالحة للأمرين؛ فتكون شاملة لهما لأن الصحيح جواز استعمال المُشترَك في معنييه إذا لم يكن بينهما تعارض، فيكون التنزيه عن الشرك وعن المشرك به.

قوله: «إنا لسنا نعبدهم»: أي: لا نعبد الأحبار والرهبان، ولا نسجد لهم ولا نركع ولا نذبح ولا ننذر لهم، وهذا صحيح بالنسبة للأحبار والرهبان بدليل قوله: **«أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟!»**. فإن هذا الوصف لا ينطبق علىٰ عيسىٰ أبدًا؛ لأنه رسول الله، فما أحله؛ فقد أحله الله، وما حرمه؛ فقد حرمه الله، وقد حاول بعض الناس أن يُعل الحديث لهذا المعنىٰ مع ضعف سنده، والحديث حسنه الترمذي والألباني وآخرون وضعفه آخرون.

ويجاب عن التعليل المذكور بأن قول عدي: «لسنا نعبدهم» يعود علىٰ الأحبار والرهبان، أما عيسىٰ ابن مريم؛ فالمعروف أنهم يعبدونه. ويدأ بتحريم الحلال؛ لأنه أعظم من تحليل الحرام، وكلاهما محرم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦].

قوله: «فتلك عبادتهم»: ووجه كونها عبادة: أن من معنىٰ العبادة الطاعة، وطاعة غير الله عبادة للمطاع، ولكن بشرط أن تكون في غير طاعة الله، أما إذا كانت في طاعة الله؛ فهي عبادة لله؛ لأنك أطعت غير الله في طاعة الله، كما لو أمرك أبوك بالصلاة فصليت؛ فلا تكون قد عبدت أباك بطاعتك له، ولكن عبدت الله؛ لأنك أطعت غير الله في طاعة الله؛ ولأن أمر غير الله بطاعة الله وامتثال أمره هو امتثال لأمر الله.

ويستفاد من الحديث:

١ ـ أن الطاعة بمعنىٰ العبادة عبودية مقيدة.

....

ومنهم من يغلو في ذلك، واعتقد أن الأخذ بالدليل ـ والحالة هذه ـ يُكره، أو يحرم؛ فعظُمت الفتنة. ويقول: هم أعلم منا بالأدلة، ولا يأخذ بالدليل إلا المجتهد. وربما تفوَّهوا بذم من يعمل بالدليل، ولا ريب أن هذا من غُربة الإسلام، كما قال شيخنا رحمه الله تعالىٰ في المسائل:

فتغيرت الأحوال، وآلت إلىٰ هذه الغاية. فصار عند الأكثر، عبادة الرهبان: هي أفضل الأعمال، ويسمُّونها ولاية، وعبادة الأحبار: هي العلم والفقه. ثم تغيَّرت الحال إلىٰ أن عُبد من ليس من

---

٢ ـ أن الطاعة في مخالفة شرع الله من عبادة المطاع، أما في عبادة الله؛ فهي عبادة الله.

٣ ـ أن اتباع العلماء والعباد في مخالفة شرع الله من اتخاذهم أربابًا.

واعلم أن اتباع العلماء أو الأمراء في تحليل ما حرم الله أو العكس ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

الأول: أن يتابعهم في ذلك راضيًا بقولهم، مُقدمًا له، ساخطًا لحكم الله؛ فهو كافر لأنه كره ما أنزل الله، فأحبط الله عمله، ولا تحبط الأعمال إلا بالكفر، فكل من كره ما أنزل الله؛ فهو كافر.

الثاني: أن يتابعهم في ذلك راضيًا في حكم الله وعالمًا بأنه أمثل وأصلح للعباد والبلاد، ولكن لهوىٰ في نفسه اختاره، كأن يريد مثلاً وظيفة؛ فهذا لا يكفر، ولكنه فاسق وله حكم غيره من العصاة.

الثالث: أن يتابعهم جاهلاً، فيظن أن ذلك حكم الله؛ فينقسم إلىٰ قسمين:

أ ـ أن يمكنه أن يعرف الحق بنفسه؛ فهو مفرط أو مقصر، فهو آثم؛ لأن الله أمر بسؤال أهل العلم عند عدم العلم.

ب ـ أن لا يكون عالمًا ولا يمكنه التَّعلم فيتابعهم تقليدًا ويظن أن هذا هو الحق؛ فهذا لا شيء عليه لأنه فعل ما أمر به وكان معذورًا بذلك، ولذلك ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن من أفتى بغير علم؛ فإنما إثمه على من أفتاه»[1]، لو قلنا: بإثمه بخطأ غيره؛ للزم من ذلك الحرج والمشقة، ولم يثق الناس بأحد لاحتمال خطئه. فإن قيل: لماذا لا يكفر أهل القسم الثاني؟

أجيب: إننا لو قلنا بكفرهم لزم من ذلك تكفير كل صاحب معصية يعرف أنه عاص لله ويعلم أنه حكم الله.

فائدة: وصف الله الحاكمين بغير ما أنزل الله بثلاثة أوصاف:

١ ـ قال تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

٢ ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

٣ ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

واختلف أهل العلم في ذلك: فقيل: إن هذه الأوصاف لموصوف واحد؛ لأن الكافر ظالم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وفاسق؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠]؛

---

(١) حسن: رواه أبو داود (٣٦٥٧)، وابن ماجه (٥٣)، وأحمد (٨٠٦٧) ومواضع، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٠٦٨)، والمشكاة (٢٤٢).

. . . .

الصالحين، وعُبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين. وأما طاعة الأمراء ومتابعتهم، فيما يُخالف ما شرعه الله ورسوله: فقد عمت به البلوى قديمًا وحديثًا، في أكثر الولاة بعد الخلفاء الراشدين وهلُمَّ جرًا. وقد قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]. وعن زياد بن حُدير، قال: قال لي عمر: هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت: لا. قال: يهدمه زَلَّةُ العالم، وجدال المنافق بالكتاب والسنة وحكم الأئمة المُضلين. رواه الدارمي.

جعلنا الله وإياكم من الذين يهدون بالحق، وبه يعدلون.

أي: كفروا. وقيل: إنها لموصوفين مُتعدِّدين، وإنها على حسب الحكم، وهذا هو الراجح.

فيكون كافرًا في ثلاثة أحوال:

أ- إذا اعتقد جواز الحكم بغير ما أنزل الله، بدليل قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، فكل ما خالف حكم الله؛ فهو من حكم الجاهلية، بدليل الإجماع القطعي على أنه لا يجوز الحكم بغير ما أنزل الله فالمحل والمبيح للحكم بغير ما أنزل الله مخالف لإجماع المسلمين القطعي، وهذا كافر مرتد، وذلك كمن اعتقد حلّ الزنا أو الخمر أو تحريم الخبز أو اللبن.

ب- إذا اعتقد أن حكم غير الله مثل حكم الله.

ج- إذا اعتقد أن حكم غير الله أحسن من حكم الله. بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]؛ فتضمنت الآية أن حكم الله أحسن الأحكام، بدليل قوله تعالى مقررًا ذلك: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، فإذا كان الله أحسن الحاكمين أحكامًا وهو أحكم الحاكمين- فمن ادَّعى أن حكم غير الله مثل حكم الله أو أحسن فهو كافر لأنه مكذب للقرآن.

ويكون ظالمًا: إذا اعتقد أن الحكم بما أنزل الله أحسن الأحكام، وأنه أنفع للعباد والبلاد، وأنه الواجب تطبيقه، ولكن حمله البغض والحقد للمحكوم عليه حتى حكم بغير ما أنزل الله؛ فهو ظالم.

ويكون فاسقًا: إذا كان حكمه بغير ما أنزل الله لهوى في نفسه مع اعتقاده أن حكم الله هو الحق، لكن حكم بغيره لهوى في نفسه؛ أي: محبة لما حكم به لا كراهة لحكم الله ولا ليضر أحدًا به، مثل: أن يحكم لشخص لرِشوة رُشي إياها، أو لكونه قريبًا أو صديقًا، أو يطلب من ورائه حاجة، وما أشبه ذلك مع اعتقاده بأن حكم الله هو الأمثل والواجب اتباعه؛ فهذا فاسق، وإن كان أيضًا ظالمًا؛ لكن وصف الفسق في حقه أولى من وصف الظلم. أما بالنسبة لمن وضع قوانين تشريعية مع علمه بحكم الله وبمخالفة هذه القوانين لحكم الله؛ فهذا قد بدل الشريعة بهذه القوانين، فهو كافر لأنه لم يرغب بهذا القانون عن شريعة الله إلا وهو يعتقد أنه خير للعباد والبلاد من شريعة الله، وعندما نقول بأنه كافر؛ فنعني بذلك أن هذا الفعل يوصل إلى الكفر. ولكن قد يكون الواضع له معذورًا، مثل أن يغرر به كأن يقال: إن هذا لا يخالف الإسلام، أو هذا من المصالح المرسلة، أو هذا مما رده الإسلام إلى

. . . .

. . . .

الناس. فيوجد بعض العلماء وإن كانوا مخطئين يقولون: إن مسألة المعاملات لا تعلق لها بالشرع، بل ترجع إلىٰ ما يصلح الاقتصاد في كل زمان بحسبه، فإذا اقتضىٰ الحال أن نضع بنوكًا للربا أو ضرائب علىٰ الناس؛ فهذا لا شيء فيه. وهذا لا شك في خطئه؛ فإن كانوا مجتهدين غفر الله لهم، وإلا؛ فهم علىٰ خطر عظيم، واللائق بهؤلاء أن يُلقَّبوا بأنهم من علماء الدولة لا علماء الملة.

ومما لا شك فيه أن الشرع جاء بتنظيم العبادات التي بين الإنسان وربه والمعاملات التي بين الإنسان مع الخلق في العقود والأنكحة والمواريث وغيرها؛ فالشرع كامل من جميع الوجوه، قال تعالىٰ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]. وكيف يقال: إن المعاملات لا تعلق لها بالشرع وأطول آية في القرآن نزلت في المعاملات، ولولا نظام الشرع في المعاملات لفسد الناس؟! وأنا لا أقول: نأخذ بكل ما قاله الفقهاء؛ لأنهم قد يصيبون وقد يخطئون، بل يجب أن نأخذ بكل ما قاله الله ورسوله ﷺ، ولا يوجد حال من الأحوال تقع بين الناس إلا في كتاب الله وسنة رسوله ما يزيل إشكالها ويحلها، ولكن الخطأ إما نقص العلم أو الفهم، وهذا قصور، أو نقص التدبر وهذا تقصير.

أما إذا وفق الإنسان بالعلم والفهم وبذل الجهد في الوصول إلىٰ الحق؛ فلابد أن يصل إليه حتىٰ في المعاملات، قال تعالىٰ ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال تعالىٰ: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، فكل شيء يحتاجه الإنسان في دينه أو دنياه؛ فإن القرآن بينه بيانًا شافيًا.

ومن سنَّ قوانين تخالف الشريعة وادَّعىٰ أنها من المصالح المرسلة؛ فهو كاذب في دعواه؛ لأن المصالح المرسلة والمقيدة إن اعتبرها الشرع ودل عليها فهي حق ومن الشرع، وإن لم يعتبرها؛ فليست مصالح، ولا يمكن أن تكون كذلك، ولهذا كان الصواب أنه ليس هناك دليل يسمىٰ بالمصالح المرسلة، بل ما اعتبره الشرع؛ فهو مصلحة، وما نفاه؛ فليس بمصلحة، وما سكت عنه؛ فهو عفو.

والمصالح المرسلة تَوَسَّع فيها كثير من الناس؛ فأدخل فيها بعض المسائل المنكرة من البدع وغيرها؛ كعيد ميلاد الرسول، فزعموا أن فيه شحذًا للهمم وتنشيطًا للناس لأنهم نسوا ذكر رسول الله ﷺ، وهذا باطل؛ لأن جميع المسلمين في كل صلاة يشهدون أن محمدًا عبده ورسوله ويصلون عليه، والذي لا يَحيَىٰ قلبه بهذا وهو يصلي بين يدي ربه كيف يحيي قلبه بساعة يُؤتىٰ فيها بالقصائد الباطلة التي فيها من الغلو ما ينكره رسول الله ﷺ؟! فهذه مفسدة وليست بمصلحة. فالمصالح المرسلة وإن وضعها بعض أهل العلم المجتهدين الكبار؛ فلا شك أن مرادهم نصر الله ورسوله، ولكن استخدمت هذه المصالح في غير ما أراده أولئك العلماء وتوسع فيها؛ وعليه؛ فإنها تقاس بالمعيار الصحيح، فإن اعتبرها الشرع قبلت، وإلا؛ فكما قال الإمام مالك: «كل أحد يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر»[1].

وهناك قواعد كليات تطبق عليها الجزئيات.

(١) انظر رسالة المصالح المرسلة للشنقيطي رحمه الله ط ابن تيمية.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير سورة النور.

الثانية: تفسيرة آية براءة.

والواجب على كل أحد أن لا يتخذ غير الله حكمًا وأن يرد ما تنازع فيه الناس إلى الله ورسوله وبذلك يكون دين العبد كله لله وتوحيده خالصًا لوجه الله، وكل من حاكم إلى غير حكم الله ورسوله فقد تحاكم إلى الطاغوت وإن زعم أنه مؤمن فهو كاذب، فالإيمان لا يصح ولا يتم إلا بتحكيم الله ورسوله في أصول الدين وفروعه وفي كل الحقوق كما ذكره المصنف في الباب الآخر، فمن تحاكم إلى غير الله ورسوله فقد اتخذ ذلك ربًّا وقد حاكم إلى الطاغوت.

وليعلم أنه يجب على الإنسان أن يتقي ربه في جميع الأحكام؛ فلا يتسرع في البتِّ بها خصوصًا في التكفير الذي صار بعض أهل الغيرة والعاطفة يطلقونه بدون تفكير ولا رويَّة، مع أن الإنسان إذا كفَّر شخصًا ولم يكن الشخص أهلاً له؛ عاد ذلك إلى قائله، وتكفير الشخص يترتب عليه أحكام كثيرة؛ فيكون مباح الدم والمال، ويترتب عليه جميع أحكام الكفر. وكما لا يجوز أن نطلق الكفر على شخص معين حتى يتبين شروط التكفير في حقه يجب أن لا نجبُن عن تكفير من كفَّره الله ورسوله، ولكن يجب أن نفرق بين المُعيَّن وغير المُعيَّن؛ فالمعيَّن يحتاج الحكم بتكفيره إلى أمرين:

١ ـ ثبوت أن هذه الخصلة التي قام بها مما يقتضي الكفر.

٢ ـ انطباق شروط التكفير عليه، وأهمها العلم بأن هذا مكفِّر، فإن كان جاهلاً فإنه لا يكفر.

ولهذا ذكر العلماء أن من شروط إقامة الحد أن يكون عالمًا بالتحريم، وهذا وهو إقامة حد وليس بكفر، والتحرز من التكفير أولى وأحرى. قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، ولابد مع توفر الشروط من عدم الموانع، فلو قام الشخص بما يقتضي الكفر إكراهًا أو ذهولاً لم يكفر؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]؛ ولقول الرجل الذي وجد دابته في مهلكه: «**اللهم! أنت عبدي وأنا ربك؛ أخطأ من شدة الفرح**»[1]، فلم يؤاخذ بذلك.

قوله: «فيه مسائل»:

الأولى: تفسير آية النور: وهي قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وسبق تفسيرها.

الثانية: تفسير آية براءة: وهي قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٣١] وقد سبق ذلك.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٧).

الثالثة: التنبيه على معنى العبادة التي أنكرها عدي.

الرابعة: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر، وتمثيل أحمد بسفيان.

الخامسة: تَغَيُّر الأحوال إلى هذه الغاية، حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، وتسمى الولاية، وعبادة الأحبار: هي العلم والفقه، ثم تغير الحال إلى أن عُبِدَ من دون الله من ليس من الصالحين، وَعُبِدَ بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.

. . . .

الثالثة: التنبيه على معنى العبادة التي أنكرها عدي: لأن العبادة هي التعبد لهم بالطاعة، والتذلل لهم بالركوع والسجود والنذر وما أشبهه، لكن بيَّن ﷺ المراد من عبادتهم بأنها طاعتهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال.

الرابعة: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر وتمثيل أحمد بسفيان: أي: إذا كان أبو بكر وعمر لا يمكن أن يُعارض قول النبي ﷺ بقولهما؛ فما بالك بمن عارض قول النبي ﷺ بقول من دونهما؟! فهو أشد وأقبح. وكذلك مثل الإمام أحمد بسفيان الثوري وأنكر على من أخذ برأيه وترك ما صح به الإسناد عن رسول الله ﷺ، واستدل بقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ الآية.

الخامسة: تحول الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال... إلخ: يقول المؤلف رحمه الله تعالى: تغيرت الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال؛ وهذا لا شك أنه أشد من معارضة قول الرسول ﷺ بقول أبي بكر وعمر، ثم قال: «ثم تغيرت الأحوال إلى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين»؛ أي: يركع ويسجد له، ويعظم تعظيم الرب، ويوصف بما لا يستحق، وهذا يوجد عند كثير من الشعراء الذين يمدحون الملوك والوزراء وهم لا يستحقون أن يكونوا بمنزلة أبي بكر وعمر. ثم قال: «وعبد بالمعنى الثاني»: وهو الطاعة والاتباع من هو من الجاهلين؛ فأطيع الجاهل في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحلَّ الله، كما يوجد في بعض النظم والقوانين فصاروا يعبدون بهذا المعنى، فيطاعون في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله.

وهذا في زمان المؤلف؛ فكيف بزماننا؟! وقد قال النبي ﷺ فيما رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «**لا يأتي زمان على الناس إلا وما بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم**»[1]، وقال النبي ﷺ للصحابة: «**ومن يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا**»[2]، وعصر الصحابة أقرب إلى الهدى من عصر من بعدهم. والناس لا يُحسُّون بالتغير؛ لأن الأمور تأتي رويدًا رويدًا، ولو غاب أحد مدة طويلة ثم جاء؛ لوجد التغير الكثير المزعج ـ نسأل الله السلامة ـ. فعلينا الحذر، وأن

(١) صحيح: رواه البخاري (٧٠٦٨)، والترمذي (٢٢٠٦)، وأحمد (١١٩٣٨) ومواضع.

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٤)، وأحمد (١٦٦٩٢)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٩٣٧).

٣٨ـ باب قول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٠ ـ ٦٢].

قال العماد ابن كثير: والآية ذامَّةٌ لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هاهنا.

نعلم أن شرع الله يجب أن يُحمىٰ وأن يصان، ولا يطاع أحد في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحلَّ الله أبدًا مهما كانت منزلته، وأن الواجب أن نكون عبادًا لله ـ عز وجل ـ تذللاً وتعبدًا وطاعة.

هذا الباب له صلة قوية بما قبله؛ لأن ما قبله فيه حكم من أطاع العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله، وهذا فيه الإنكار على من أراد التحاكم إلى غير الله ورسوله، وقد ذكر الشيخ رحمه الله فيه أربع آيات:

الآية الأولى ما جعلها ترجمة للباب، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: الاستفهام يراد به التقرير والتعجب من حالهم، والخطاب للنبي ﷺ.

قوله: ﴿الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾: هذا يُعين أن يكون الخطاب للنبي ﷺ هنا، ولم يقل الذين آمنوا؛ لأنهم لم يؤمنوا، بل يزعمون ذلك وهم كاذبون. والذي أنزل إلى النبي ﷺ الكتاب والحكمة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣].

قال المفسرون: الحكمة السُّنة[1]، وهم يزعمون أنهم آمنوا بذلك، لكن أفعالهم تكذب أقوالهم، حيث يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت لا إلى الله ورسوله.

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٣/ ٢٧٤، ٤/ ١٦٣)، وذكره القرطبي في تفسيره (٢/ ١٣١) من طريق سعيد عن قتادة، ورواه ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٢٣) عن أبي مالك، وذكره الحافظ ابن حجر في مقدمة الفتح (١/ ١٠٧) من طريق قتادة.

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٠-٦٢].

وتقدم ما ذكره العلامة ابن القيم رحمه اللَّه في حده للطاغوت، وأنه كل ما تجاوز به العبد حده: من معبود أو متبوع أو مطاع. فكل من تحاكم إلى غير كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، فقد حاكم إلى الطاغوت الذي أمر اللَّه تعالى عباده المؤمنين أن يكفروا به. فإن التحاكم ليس إلا إلى كتاب اللَّه وسنة رسوله، ومن كان يحكم بهما. فمن تحاكم إلى غيرهما: فقد تجاوز به حده، وخرج عما شرعه اللَّه ورسوله، وأنزله منزلة لا يستحقها.

وكذلك من عبد شيئًا دون اللَّه فإنما عبدَ الطاغوت، فإن كان المعبود صالحًا صارت عبادة العابد له راجعة إلى الشيطان الذي أمره بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨-٣٠]، وكقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

وإن كان ممن يدعو إلى عبادة نفسه، أو كان شجرًا أو حجرًا أو قبرًا، أو غير ذلك مما كان يتخذه المشركون لهم أصنامًا على صور الصالحين أو الملائكة أو غير ذلك، فهي من الطاغوت الذي أمر اللَّه تعالى عباده أن يكفروا بعبادته، ويتبرؤوا منه، ومن عبادة كل معبود سوى اللَّه كائنًا من كان. وهذا كله من عمل الشيطان وتسويله، فهو الذي دعا إلى كل باطل وزينه لمن فعله، وهذا ينافي التوحيد الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا اللَّه.

قوله: ﴿إِلَى الطَّاغُوتِ﴾: صيغة مبالغة من الطغيان؛ ففيه اعتداء وبغي، والمراد به هنا كل حكم خالف حكم الله ورسوله، وكل حاكم يحكم بغير ما أنزل الله على رسوله، أما الطاغوت بالمعنى الأعم؛ فقد حدَّه ابن القيم بأنه: «كل ما تجاوز العبد به حده من معبود أو متبوع أو مطاع»، وقد تقدَّم الكلام عليه في أول كتاب التوحيد.

قوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾: أي: أمرهم الله بالكفر بالطاغوت أمرًا ليس فيه لبس ولا خفاء، فمن أراد التحاكم إليه؛ فهذه الإرادة على بصيرة؛ إذ الأمر قد بين لهم.

قوله: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾: جنس يشمل شياطين الإنس والجن.

قوله: ﴿أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا﴾: أي: يوقعهم في الضلال البعيد عن الحق، ولكن لا يلزم من ذلك أن ينقلهم إلى الباطل مرة واحدة، ولكن بالتدريج.

فقوله: ﴿بَعِيدًا﴾: أي: ليس قريبًا، ولكن بالتدريج شيئًا فشيئًا حتى يوقعهم في الضلال البعيد.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾: أي: قال لهم الناس: أقبلوا: ﴿إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من القرآن ﴿وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ نفسه في حياته وسنته بعد وفاته، والمراد هنا الرسول ﷺ نفسه في حياته.

. . . .

فالتوحيد: هو الكفر بكل طاغوت عبده العابدون من دون اللَّه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤] وكل من عبد غير اللَّه فقد جاوز به حدَّه، وأعطاه من العبادة ما لا يستحقه.

قال الإمام مالك: الطاغوت: ما عُبد من دون اللَّه.

وكذلك من دعا إلىٰ تحكيم غير اللَّه تعالىٰ ورسوله: فقد ترك ما جاء به الرسول ﷺ ورغب عنه، وجعل للَّه شريكًا في الطاعة، وخالف ما جاء به الرسول ﷺ فيما أمره اللَّه تعالىٰ به في قوله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩] وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فمن خالف ما أمر اللَّه به رسولَه ﷺ: بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل اللَّه، أو طلب ذلك اتباعًا لما يهواه ويُريده، فقد خلع ربقة الإسلام والإيمان من عُنقه. وإن زعم أنه مؤمن.

فإن اللَّه تعالىٰ أنكر علىٰ من أراد ذلك، وأكذبهم في زعمهم الإيمان؛ لما في ضمن قوله: ﴿يَزْعُمُونَ﴾ من نفي إيمانهم، فإن ﴿يَزْعُمُونَ﴾ إنما يقال غالبًا لمن ادَّعىٰ دعوىٰ هو فيها كاذب لمخالفته لموجبها، وعمله بما ينافيها. يحقق هذا قوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾؛ لأن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد، كما في آية البقرة. فإذا لم يحصِّل هذا الركن لم يكن موحِّدًا.

قوله: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾: الرؤية هنا روية حال لا رؤية بصر، بدليل قوله: ﴿تَعَالَوْا﴾؛ فهي تدل علىٰ أنهم ليسوا حاضرين عنده.

والمعنىٰ: كأنما تشاهدهم.

وقوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾: يعرضون عنك إعراضًا.

وقوله: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ﴾: إظهار في موضع الإضمار لثلاث فوائد:

الأولىٰ: أن هؤلاء الذين يزعمون الإيمان كانوا منافقين.

الثانية: أن هذا لا يصدر إلا من منافق؛ لأن المؤمن حقًا لابد أن ينقاد لأمر الله ورسوله بدون صدود.

الثالثة: التنبيه؛ لأن الكلام إذا كان علىٰ نسق واحد قد يغفل الإنسان عنه، فإذا تغير؛ حصل له انتباه.

وقوله: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ﴾ جواب «إذا» وكلمة «صد» تستعمل لازمة؛ أي: يوصف بها الشخص ولا يتعداه إلىٰ غيره، ومصدرها صدود؛ كما في هذه الآية، ومتعدية؛ أي: صد غيره، ومصدرها صد؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الفتح: ٢٥].

وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾: الاستفهام هنا يراد به التعجب؛ أي: كيف حالهم إذا أصابتهم مصيبة، والمصيبة هنا

. . . .

والتوحيد هو أساس الإيمان، الذي تصلح به جميع الأعمال وتفسد بعدمه. كما أن ذلك بيِّن في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وذلك أن التحاكم إلى الطاغوت إيمان به.

وقوله: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ يبيِّن تعالى في هذه الآية: أن التحاكم إلى الطاغوت مما يأمر به الشيطان ويزيِّنه لمن أطاعه، ويبين أن ذلك مما أضل به الشيطان من أضله. وأكده بالمصدر، ووصفه بالبعد، فدلَّ على أن ذلك من أعظم الضلال وأبعده عن الهُدى.

ففي هذه الآية أربعة أمور:

الأول: أنه من إرادة الشيطان. الثاني: أنه ضلال.

الثالث: تأكيده بالمصدر. الرابع: وصفه بالبعد عن سبيل الحق والهدى.

فسبحان اللَّه! ما أعظمَ هذا القرآن وما أبلغه، وما أدله على أنه كلام رب العالمين، أوحاه إلى رسوله الكريم، وبلغه عبده الصادق الأمين. صلوات اللَّه وسلامه عليهما أجمعين.

تشمل المصيبة الشرعية والدنيوية لعدم تضاد المعنيين.

فالدنيوية مثل: الفقر، والجدب، وما أشبه ذلك، فيأتون يشكون إلى النبي ﷺ، فيقولون: أصابتنا هذه المصائب ونحن ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق.

والشرعية: إذا أظهر الله رسوله على أمرهم؛ خافوا وقالوا: يا رسول الله! ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق.

وقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: الباء: هنا للسببية و﴿ما﴾ اسم موصول، و﴿قدمت﴾ صلته، والعائد محذوف تقديره بما قدمته أيديهم، وفي اللغة العربية يطلق هذا التعبير باليد ويراد به نفس الفاعل؛ أي: بما قدموه من الأعمال السيئة.

وقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾: ﴿إن﴾ بمعنى: «ما»؛ أي: ما أردنا إلا إحسانًا بكوننا نسلم من الفضيحة والعار، وتوفيقًا بين المؤمنين والكافرين أو بين طريق الكفر وطريق الإيمان؛ أي: نمشي معكم ونمشي مع الكفار، وهذه حال المنافقين؛ فهم قالوا: أردنا أن نحسن المنهج والمسلك مع هؤلاء وهؤلاء ونوفق بين الطرفين.

قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾: توعدهم الله بأنه يعلم ما في قلوبهم من النفاق والمكر والخداع؛ فالله علاَّم الغيوب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦]، بل الله أعلم منك بما فيك، قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وهذا من أعظم ما يكون من العلم والخبرة أن الله يحول بين المرء وقلبه، ولهذا قيل لأعرابي: «بم عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم، وصرف الهمم».

فالإنسان يعزم على الشيء ثم لا يدري إلا وعزيمته منتقضة بدون سبب ظاهر.

قوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾: وهذا من أبلغ ما يكون من الإهانة والاحتقار.

....

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾بين تعالىٰ أن هذه صفة المنافقين، وأن من فعل ذلك أو طلبه، وإن زعم أنه مؤمن فإنه في غاية البُعد من الإيمان.

قال العلامة ابن القيم:هذا دليل علىٰ أن من دُعي إلىٰ تحكيم الكتاب والسنة فأبىٰ، أنه من المنافقين.

قوله: ﴿يَصُدُّونَ﴾لازم. وهو بمعنىٰ يُعرضون؛ لأن مصدره، صدودًا. فما أكثر من اتصف بهذا الوصف، خصوصًا ممن يدَّعي العلم. فإنهم صدُّوا عما توجبه الأدلة من كتاب اللَّه وسنة رسوله إلىٰ أقوال من يُخطئ كثيرًا، ممن ينتسب إلىٰ الأئمة الأربعة:

في تقليدهم من لا يجوز تقليده، واعتمادهم علىٰ قول من لا يجوز الاعتماد علىٰ قوله، ويجعلون قوله المخالف لنص الكتاب والسنة وقواعد الشريعة هو المعتمد عندهم، الذي لا تصح الفتوىٰ إلا به. فصار المتبع للرسول ﷺ بين أولئك غريبًا، كما تقدم التنبيه علىٰ هذا في الباب الذي قبل هذا.

فتدبَّر هذه الآيات وما بعدها، يتبين لك ما وقع فيه غالب الناس من الإعراض عن الحق وترك العمل به في أكثر الوقائع. واللَّه المستعان.

قوله: ﴿وَعِظْهُمْ﴾: أي: ذكِّرهم وخوِّفهم، لكن لا تجعلهم أكبر همك؛ فلا تخافهم، وقم بما يجب عليك من الموعظة لتقوم عليهم الحجة.

قوله: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾: اختلف المفسرون فيها علىٰ ثلاثة أقوال:

الأول:أن الجار والمجرور في أنفسهم متعلق ببليغ؛ أي: قل لهم قولاً بليغًا في أنفسهم؛ أي: يبلغ في أنفسهم مبلغًا مُؤثِّرًا.

الثاني:أن المعنىٰ: انصحهم سرًا في أنفسهم.

الثالث:أن المعنىٰ: قل لهم في أنفسهم (أي: في شأنهم وحالهم) قولاً بليغًا في قلوبهم يؤثر عليها، والصحيح أن الآية تشمل المعاني الثلاثة؛ لأن اللفظ صالح لها جميعًا؛ ولا منافاة بينها، وهذه قاعدة في التفسير ينبغي التنبه لها، وهي أن المعاني المحتملة للآية والتي قال بها أهل العلم إذا كانت الآية تحتملها وليس بينها تعارض: فإنه يؤخذ بجميع المعاني.

وبلاغة القول تكون في أمور:

الأول:هيئة المتكلم بأن يكون إلقاؤه علىٰ وجه مؤثر.

وكان النبي ﷺإذا خطب؛ احمرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه حتىٰ كأنه منذر جيشًا، يقول: «صبَّحكم ومسَّاكم»[١].

الثاني:أن تكون ألفاظه جَزلة مترابطة محددة الموضوع.

الثالث:أن يبلغ من الفصاحة غايتها بحسب الإمكان، بأن يكون كلامه: سليم التركيب، موافقًا للغة العربية، مطابقًا لمقتضىٰ الحال.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٦٧).

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]. قال أبو العالية في الآية: يعني: لا تعصوا في الأرض؛ لأن من عصىٰ الله في الأرض، أو أمر بمعصية الله: فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء إنما هو بطاعة الله ورسوله. وقد أخبر تعالىٰ عن إخوة يوسف عليه السلام، في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٠-٧٣] فدلت الآية علىٰ أن كل معصية فساد في الأرض.

ومناسبة الآية للترجمة: أن التحاكم إلىٰ غير الله ورسوله من أعمال المنافقين، وهو من الفساد في الأرض. وفي الآية: التنبيه علىٰ عدم الاغترار [بأقوال أهل الأهواء وإن زخرفوها بالدعوىٰ. وفيها: التحذير من الاغترار] بالرأي، ما لم يقم علىٰ صحته دليل من كتاب الله وسنة رسوله. فما أكثر من يُصدِّق بالكذب ويُكذِّب بالصدق إذ جاءه، وهذا من الفساد في الأرض، ويترتب عليه من الفساد أمور كثيرة تخرج صاحبها من الحق وتدخله في الباطل. نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة. فتدبَّر تجد ذلك في حال الأكثر: إلا من عصمه الله، ومَنَّ عليه بقوة داعي

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن هذه تنطبق تمامًا علىٰ أهل التحريف والتأويل في صفات الله؛ لأن هؤلاء يقولون: إنهم يؤمنون بالله ورسوله، وإذا قيل لهم تعالوا إلىٰ ما أنزل الله وإلىٰ الرسول؛ يعرضون ويصدون، ويقولون: نذهب إلىٰ فلان وفلان، وإذا اعترض عليهم؛ قالوا: نريد الإحسان والتوفيق، وأن نجمع بين دلالة العقل ودلالة السمع»، ذكره -رحمه الله- في «الفتوىٰ الحموية».

الآية الثانية قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾: الإفساد في الأرض نوعان:

الأول: إفساد حسي مادي، وذلك مثل هدم البيوت وإفساد الطرق وما أشبه ذلك.

الثاني: إفساد معنوي، وذلك بالمعاصي؛ فهي من أكبر الفساد في الأرض، قال تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورىٰ: ٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٥-٦٦].

قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾: وهذه دعوىٰ من أبطل الدعاوىٰ، حيث قالوا: ما حالنا وما شأننا إلا الإصلاح. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦].

الإيمان، وأعطاه عقلاً كاملاً عند ورود الشهوات، وبصراً ناقداً عند ورود الشبهات. وذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء واللّه ذو الفضل العظيم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال أبو بكر بن عيَّاش - في الآية -: إن اللّه بعث محمداً ﷺ إلى أهل الأرض وهم في فساد، فأصلحهم اللّه بمحمد ﷺ. فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد ﷺ فهو من المفسدين في الأرض.

وقال ابن القيم: قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي، والدعاء إلى غير طاعة اللّه، بعد إصلاح اللّه إياها ببعث الرسل، وبيان الشريعة، والدعاء إلى طاعة اللّه، فإن عبادة غير اللّه والدعوة إلى غيره والشرك به: أعظم فساد في الأرض. بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره. فالشرك والدعوة إلى غير اللّه وإقامة معبود غيره، ومطاع متبع غير رسول اللّه ﷺ: هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا بأن يكون اللّه وحده هو المعبود المطاع، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا. وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة.

ومن تدبَّر أحوال العالم: وجد كل صلاح في الأرض، فسببه توحيد اللّه وعبادته وطاعة رسوله. وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه: مخالفة رسوله، والدعوة إلى غير اللّه ورسوله. انتهى.

ووجهُ مطابقة هذه الآية للترجمة: أن التحاكم إلى غير اللّه ورسوله من أعظم ما يُفسد الأرض من المعاصي، فلا صلاح لها إلا بتحكيم كتاب اللّه وسنة رسوله، وهو سبيل المؤمنين؛ كما قال تعالى:

﴿أَلَا﴾: أداة استفتاح، والجملة مؤكدة بأربع مؤكدات، وهي: ﴿أَلَا﴾، و (إن)، وضمير الفصل ﴿هُم﴾، والجملة الاسمية؛ فالله قابل حصرهم بأعظم منه فهؤلاء الذين يفسدون في الأرض ويدَّعون الإصلاح هم المفسدون حقيقة لا غيرهم.

ومناسبة الآية للباب ظاهرة: وذلك أن التحاكم إلى غير ما أنزل الله من أكبر أسباب الفساد في الأرض.

الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾: يشمل الفساد المادي والمعنوي كما سبق.

قوله: ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾: من قِبل المصلحين، ومن ذلك الوقوف ضد دعوة أهل العلم، والوقوف ضد دعوة السلف، وضد من ينادي بأن يكون الحكم بما في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ من باب تأكيد اللوم والتوبيخ؛ إذ كيف يفسد الصالح وهذا غاية ما يكون من الوقاحة والخبث والشر؟ فالإفساد بعد الإصلاح أعظم وأشد من أن يمضي الإنسان في فساده قبل الإصلاح، وإن كان المطلوب هو الإصلاح بعد الفساد.

ومناسبة الآية للباب: أن التحاكم إلى ما أنزل الله هو الإصلاح، وأن التحاكم إلى غيره هو الإفساد.

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

قال ابن كثير: يُنكر تعالىٰ، علىٰ من خرج عن حكم اللَّه تعالىٰ المشتمل علىٰ كل خير، والنهي عن كل شر، وعدَل إلىٰ ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة اللَّه؛ كما كان أهل الجاهلية يحكمون بها من الجهالات والضلالات، كما يحكم بها التتار من السياسات المأخوذة عن جنكز خان الذي وضع لهم كتابًا مجموعًا من أحكام أقيسة من شرائع شتَّىٰ. وفيها كثير من الأحكام أخذها عن مجرد نظره، وصار في بنيه شرعًا يقدِّمونه علىٰ الحكم بكتاب اللَّه وسنة رسوله. ومن فعل ذلك: فهو كافر يجب قتاله حتىٰ يرجع إلىٰ حكم اللَّه ورسوله، فلا يحكم بسواه في قليل ولا كثير[1].

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ استفهام إنكار، أي: لا حُكم أحسن من حكمه تعالىٰ. وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشارك، أي: ومن أعدل

الآية الرابعة قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾: الاستفهام للتوبيخ، و (حكم): مفعول مقدم لـ ﴿يبغون﴾، وقُدّم لإفادة الحصر، والمعنىٰ: أفلا يبغون إلا حكم الجاهلية.

و ﴿يبغون﴾: يطلبون، والإضافة في قوله: (حكم الجاهلية) تحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون المعنىٰ: أفحكم أهل الجاهلية الذين سبقوا الرسالة يبغون، فيريدون أن يعيدوا هذه الأمة إلىٰ طريق الجاهلية التي أحكامها معروفة، ومنها: البحائر، والسوائب، وقتل الأولاد.

ثانيها: أن يكون ا لمعنىٰ: أفحكم الجهل الذي لا يبنىٰ علىٰ العلم يبغون، سواء كانت عليه الجاهلية السابقة أم لم تكن، وهذا أعم. والإضافة للجاهلية تقتضي التقبيح والتنفير. وكل حكم يخالف حكم الله؛ فهو جهل وجهالة. فإن كان مع العلم بالشرع؛ فهو جهالة، وإن كان مع خفاء الشرع؛ فهو جهل، والجهالة هي العمل بالخطأ سفهًا لا جهلاً، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧]، وأما من يعمل السوء بجهل فلا ذنب عليه، لكن عليه أن يتعلم.

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾: ﴿من﴾: اسم استفهام بمعنىٰ النفي؛ أي: لا أحد أحسن من الله حكمًا، وهذا النفي مُشرب معنىٰ التحدي، فهو أبلغ من قول: «لا أحسن من الله حكمًا»؛ لأنه متضمن للنفي وزيادة.

قوله: ﴿حُكْمًا﴾: تمييز؛ لأنه بعد اسم التفضيل، وهو مبهم، فبيَّن هذا التمييز المبهم وميزه.

---

(١) ومثل هذا وشر منه من اتخذ من كلام الفرنجة قوانين يتحاكم إليها في الدماء والفروج والأموال، ويقدمها على ما علم وتبين له من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فهو بلا شك كافر مرتد إذا أصر عليها ولم يرجع إلى الحكم بما أنزل الله. ولا ينفعه أي اسم تسمى به، ولا أيّ عمل من ظواهر أعمال الصلاة والصيام ونحوها.(ق).

عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئتُ به»[1] قال النووي:

من اللّه حكمًا لمن عقل عن اللّه شرعه، وآمن وأيقن أن اللّه تعالىٰ: أحكم الحاكمين، وأرحم بعباده من الوالدة بولدها، العليم بمصالح عباده القادر علىٰ كل شيء، الحكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره؟ وفي الآية: التحذير من حكم الجاهلية، واختياره علىٰ حكم اللّه ورسوله. فمن فعل ذلك فقد أعرض عن الأحسن، وهو الحق، إلىٰ ضده من الباطل.

قال المصنف رحمه الله تعالى: عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئتُ به» قال النووي: حديث صحيح، رُوِّيناه في كتاب (الحجة) بإسناد صحيح. هذا الحديث: رواه الشيخ أبو الفتح، نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي في كتاب (الحجة علىٰ تارك المحجة)، بإسناد صحيح، كما قاله المصنف، عن النووي.

ورواه الطبراني، وأبو بكر بن عاصم، والحافظ أبو نُعيم في (الأربعين) التي شرط لها أن تكون من صحاح الأخبار، وشاهده في القرآن: قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ

والحكم هنا يشمل الكوني والشرعي. فإن قيل: يوجد في الأحكام الكونية ما هو ضار مثل الزلازل والفيضانات وغيرها؛ فأين الحُسن في ذلك؟

أجيب: أن الغايات المحمودة في هذه الأمورة تجعلها حسنة، كما يضرب الإنسان ولده تربية له، فيعد هذا الضرب فعلاً حسنًا؛ فكذلك الله يصيب بعض الناس بهذه المصائب لتربيتهم، قال تعالىٰ في القرية التي قلب الله أهلها قردة خاسئين: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦]، وهذا الحسن في حكم الله ليس بينًا لكل أحد، كما قال تعالىٰ: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ وكلما ازداد العبد يقينًا وإيمانًا ازداد معرفة بحسن أحكام الله، وكلما نقص إيمانه ويقينه ازداد جهلاً بحسن أحكام الله، ولذلك تجد أهل العلم الراسخين فيه إذا جاءت الآيات المتشابهات بينوا وجه ذلك بأكمل بيان ولا يرون في ذلك تناقضًا، وعلىٰ هذا؛ فإنه يتبين قوة الإيمان واليقين بحسب ما حصل للإنسان من معرفته بحسن أحكام الله الكونية الشرعية.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾: خبر لا يدخله الكذب ولا النسخ إطلاقًا، ولذلك هدىٰ الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فجمعوا بين المتشابهات والمختلفات من النصوص، وقالوا: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، وعرفوا حسن أحكام الله تعالىٰ، وأنها أحسن الأحكام وأنفعها للعباد وأقومها لمصالح الخلق في المعاش والمعاد؛ فلم يرضوا عنها بديلاً.

قوله في حديث عبد الله بن عمرو: «لا يؤمن أحدكم»: أي: إيمانًا كاملاً.

---

(١) ضعيف: ذكر طرقه الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله في كلامه على الحديث في كتابه جامع العلوم والحكم، وضعفه. فراجعه للمزيد.

حـديث صحـيح، رُوِّيناه في كتـاب (الحجـة) بإسناد صحـيح.

بَيْنَهُمْ﴾ الآية [النساء: ٦٥]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠]، ونحو هذه الآيات.

قوله: «لا يؤمن أحدكم»: لا يكون من أهل كمال الإيمان الواجب الذي وعد الله أهله عليه بدخول الجنة والنجاة من النار، وقد يكون في درجة أهل الإساءة والمعاصي من أهل الإسلام.

قوله: «حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به» الهوى: بالقصر، أي: ما يهواه وتحبُّه نفسه وتميل إليه.

فإن كان الذي يحبه وتميل إليه نفسه ويعمل به تابعًا لما جاء به الرسول ﷺ لا يخرج عنه إلا ما يخالفه، فهذه صفة أهل الإيمان المطلق. وإن كان بخلاف ذلك، أو في بعض أحواله أو أكثرها. انتفى عنه من الإيمان كماله الواجب؛ كما في حديث أبي هريرة: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»[(١)(٢)] يعني أنه بالمعصية ينتفي عنه كمال الإيمان الواجب، وينزل عنه في درجة الإسلام. وينقص إيمانه، فلا يُطلق عليه الإيمان إلا بقيد المعصية أو الفسوق، فيقال: مؤمن عاصٍ، أو يقال: مؤمن بإيمانه فاسق بمعصيته، فيكون معه مطلق الإيمان الذي لا يصح إسلامه إلا به[(٣)]؛ كما قال تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]. والأدلة على ما عليه سلف الأمة وأئمتها ـ

إلا إذا كان لا يهوى ما جاء به النبي ﷺ بالكلية؛ فإنه ينتفي عنه الإيمان بالكلية، لأنه إذا كره ما أنزل الله؛ فقد حبط عمله لكفره، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩]

قوله: «حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»: الهوى بالقصر هو: الميل، وبالمد هو: الريح، والمراد الأول. و «حتى»: للغاية، والذي جاء به النبي ﷺ هو القرآن والسنة. وإذا كان هواه تبعًا لما جاء به النبي ﷺ؛ لزم من ذلك أن يوافقه تصديقًا بالأخبار، وامتثالاً للأوامر، واجتنابًا للنواهي.

واعلم أن أكثر ما يطلق الهوى على هوى الضلال لا على هوى الإيمان، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤]، وغيرها من الآيات الدالة على ذم من اتبع هواه، ولكن إذا كان الهوى تبعًا لما جاء به النبي ﷺ؛ كان محمودًا، وهو من كمال الإيمان.

---

(١) رواه البخاري ومسلم (ق). (٢) صحيح: رواه البخاري (٢٤٧٥) ومواضع، ومسلم (٥٧).

(٣) في قرة العيون: وهذا التوحيد الذي لا يشوبه شرك ولا كفر. وهذا هو الذي يذهب إليه أهل السنة والجماعة خلافًا للخوارج والمعتزلة، فإن الخوارج يكفرون بالذنوب والمعتزلون لا يطلقون عليه الإيمان ويقولون بتخليده في النار، وكلا الطائفتين ابتدع في الدين وترك ما دل عليه الكتاب والسنة، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] فقيد مغفرة ما دون الشرك بالمشيئة وتواترت الأحاديث بما يحقق ما ذهب إليه أهل السنة. فقد أخرج البخاري وغيره عن أنس عن النبي ﷺ قال: «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير؛ ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير»(ق).

. . . .

أن الإيمان قول وعمل ونية يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية - من كتاب اللَّه وسنة رسوله أكثر من أن تحصر. فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة، وقول النبي ﷺ لوفد عبد القيس: «آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ شهادة أن لا إله إلا الله»(١) الحديث، وهو في (الصحيحين)، و(السنن).

والدليل على أن الإيمان يزيد: قوله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١]، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، خلافًا لمن قال: إن الإيمان هو القول، وهم المُرجئة، ومن قال: إن الإيمان هو التصديق، كالأشاعرة.

ومن المعلوم عقلاً وشرعًا: أن نية الحق تصديق، والعمل به تصديق، وقول الحق تصديق. فليس مع أهل البدع ما ينافي قول أهل السنة والجماعة. ولله الحمد والمنة.

قال اللَّه تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [البقرة: ١٧٧] أي: فيما عملوا به في هذه الآية من الأعمال الظاهرة والباطنة. وشاهده في كلام العرب، قولهم: حملةٌ صادقة.

وقد سمَّى اللَّه تعالى الهوى المخالف لما جاء به الرسول ﷺ إلهًا، فقال: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]، قال بعض المفسرين: لا يهوى شيئًا إلا ركبه.

قال ابن رجب: أما معنى الحديث: فهو أن الإنسان لا يكون مؤمنًا كامل الإيمان الواجب حتى تكون محبته تابعةً لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي وغيرها. فيحبُّ ما أُمر به، ويكره ما نُهي عنه. وقد ورد القرآن بمثل هذا المعنى في غير موضع، وذمَّ سبحانه من كره ما أحبه اللَّه، أو أحب ما كرهه اللَّه؛ كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨]. فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه اللَّه، محبةً توجب له الإتيان بما أوجب عليه منه. فإن زادت المحبة حتى أتى بما نُدب إليه منه، كان ذلك فضلاً. وأن يكره ما يكرهه اللَّه كراهةً توجب له الكفَّ عما حرم عليه منه، فإن زادت الكراهة حتى أوجبت الكفَّ عما كرهه تنزيهًا، كان

وقد سبق بيان أن من اعتقد أن حكم غير الله مساوٍ لحكم الله، أو أحسن، أو أنه يجوز التحاكم إلى غير الله؛ فهو كافر. وأما من لم يكن هواه تبعًا لما جاء به النبي ﷺ، فإن كان كارهًا له؛ فهو كافر، وإن لم يكن كارهًا ولكن آثر محبة الدنيا على ذلك؛ فليس بكافر، لكن يكون ناقص الإيمان.

قوله: «قال النووي: حديث صحيح»: صححه النووي وغيره، وضعفه جماعة من أهل العلم، منهم ابن رجب في كتابه «جامع العلوم والحكم»، ولكن معناه صحيح.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧).

وقال الشعبي: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد؛ لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة. وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود؛ لعلمه أنهم يأخذون الرشوة. فاتفقا أن يأتيا كاهنًا في جُهينة فيتحاكما إليه، فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية.

ذلك فضلاً. فمن أحب اللَّه ورسوله محبةً صادقة من قلبه، أوجب ذلك له أن يحب بقلبه: ما يُحبه اللَّه ورسوله، ويكره ما يكره اللَّه ورسوله، فيرضى بما يرضى به اللَّه ورسوله، ويسخط ما يُسخط اللَّه ورسوله، ويعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض. فإن عمل بجوارحه شيئًا يخالف ذلك، بأن ارتكب بعض ما يكرهه اللَّه ورسوله، وترك ما يحبه اللَّه ورسوله - مع وجوبه والقدرة عليه - دل ذلك على نقص محبته الواجبة، فعليه أن يتوب من ذلك ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة التي هي ركن العبادة إذا كملت. فجميع المعاصي تنشأ من تقديم هوى النفس على محبة اللَّه ورسوله.

وقد وصف اللَّه المشركين باتباع الهوى في مواضع من كتابه، فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾. [القصص: ٥٠]، وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع؛ ولهذا سُمي أهلها أهل الأهواء. وكذلك المعاصي، إنما تقع من تقديم الهوى على محبة اللَّه ومحبة ما يحبه اللَّه. وكذلك حب الأشخاص: الواجب فيه أن يكون تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ، فيجب على المؤمن محبة من يحبه اللَّه من الملائكة والرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين عمومًا؛ ولهذا كان من علامات وجود حلاوة الإيمان: أن يحب المرء لا يحبه إلا للَّه[1]. فتحرم موالاة أعداء اللَّه ومن يكرهه اللَّه عمومًا، وبهذا يكون الدين كله للَّه وحده. ومن أحب للَّه وأبغض للَّه، وأعطى للَّه ومنع للَّه: فقد استكمل الإيمان. ومن كان حبه وبغضه وعطاؤه ومنعه لهوى نفسه: كان ذلك نقصًا في إيمانه الواجب. فيجب التوبة من ذلك. انتهى ملخصًا.

ومناسبة الحديث للترجمة: بيان الفرق بين أهل الإيمان وأهل النفاق والمعاصي، في أقوالهم وأفعالهم وإراداتهم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقال الشعبي: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد؛ عرف أنه لا يأخذ الرشوة. وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود؛ لعلمه أنهم يأخذون الرشوة. فاتفقا أن يأتيا كاهنًا في جُهينة فيتحاكما إليه، فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ [النساء: ٦٠] الآية.

قوله في أثر الشعبي: «وقال الشعبي»: أي: في تفسير الآية.

قوله: «رجل من المنافقين»: هو من يظهر الإسلام ويبطن الكفر، ويسمى منافقًا من النَّافقاء،

---

(١) لما روى البخاري وغيره: «ثلاث من كن فيه، وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما؛ وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله. وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه؛ كما يكره أن يقذف في النار». (ق).

وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي ﷺ، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف. ثم ترافعا إلى عمر بن الخطاب، فذكر له أحدهما القصة. فقال

وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي ﷺ، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف. ثم ترافعا إلى عمر بن الخطاب، فذكر له أحدهما القصة. فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ: أكذلك؟ قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله.

قوله: (وقال الشعبي). هو عامر بن شراحيل الكوفي، عالم أهل زمانه، وكان حافظًا علامة ذا فنون. كان يقول: ما كتبت سوداء في بيضاء[1]. وأدرك خلقًا من الصحابة، وعاش بضعًا وثمانين سنة. قاله الذهبي.

وفيما قاله الشعبي ما يُبين أن المنافق يكون أشد كراهة لحكم اللَّه ورسوله من اليهود والنصارىٰ. ويكون أشد عداوة منهم لأهل الإيمان؛ كما هو الواقع في هذه الأزمنة وقبلها: من إعانة العدو على المسلمين، وحرصهم على إطفاء نور الإسلام والإيمان. ومن تدبَّر ما في التاريخ وما وقع منهم في الوقائع عرف أن هذا حال المنافقين قديمًا وحديثًا، وقد حذَّر اللَّه نبيه ﷺ من طاعتهم والقرب منهم، وحضه على جهادهم في مواضع من كتابه؛ قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩]. وفي قصة عمر، وقتله المنافق الذي طلب التحاكم إلىٰ كعب بن الأشرف اليهودي: دليل علىٰ قتل من أظهر الكفر والنفاق.

وهي جُحر اليربوع، واليربوع له جحر له باب وله نافِقاء ـ أي يحفر إلىٰ الأرض خندقًا حتىٰ يصل منتهىٰ جحره ثم يحفر إلىٰ أعلىٰ، فإذا بقي شيء قليل بحيث يتمكن من دفعه برأسه توقف ـ فإذا جحِر عليه من الباب خرج من النافقاء.

قوله: «ورجلٍ من اليهود»: اليهود هم المنتسبون إلىٰ دين موسىٰ عليه السلام، وسُمُّوا بذلك إما من قوله: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: رجعنا، أو نسبة إلىٰ أبيهم يهوذا، ولكن بعد التعريب صار بالدال.

قوله: «إلى محمد»: أي: النبي ﷺ، ولم يذكره بوصف الرسالة؛ لأنهم لا يؤمنون برسالته، ويزعمون أن النبي الموعود به سيأتي.

قوله: «عرف أنه لا يأخذ الرشوة»: تعليل لطلب التحاكم إلىٰ النبي ﷺ.

والرشوة: مُثلثة الراء؛ فيجوز الرِّشوة، والرَّشوة، والرُّشوة وهي: المال المدفوع للتوصل إلىٰ شيء.

قال أهل العلم: «لا تكون محرمة إلا إذا أراد الإنسان أن يتوصل بها إلىٰ باطل أو دفع حق، أما من بذلها ليتوصل بها إلىٰ حق له مُنع منه أو ليدفع بها باطلاً عن نفسه؛ فليست حرامًا علىٰ الباذل، أما علىٰ آخذها؛ فحرام».

قوله: «فاتفقا أن يأتيا كاهنًا في جهينة»: كأنه صار بينهما خلاف، وأبىٰ المنافق أن يتحاكما إلىٰ النبي ﷺ.

---

(١) لشدة حفظه واستغنائه به عن الكتابة.(ق).

للذي لم يرض برسول الله ﷺ: أكذلك؟ قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله.

وكان كعب بن الأشرف هذا شديد العداوة للنبي ﷺ والأذى له، وإظهار عداوته. فانتقض به عهده، وحل به قتله. وروى مسلم في (صحيحه)، عن عمرو: سمعت جابراً يقول: قال رسول الله ﷺ: **«من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله»** قال محمد بن مسلمة: يا رسول الله أتحب أن أقتله؟ قال: **«نعم»** قال: ائذن لي فلأقل، قال: **«قل»**.

فأتاه فقال له، وذكر ما بينهم، وقال: إن الرجل قد أراد صدقة، وقد عنّانا. فلما سمعه، قال: وأيضاً والله لتملُّنَّه، قال: إنا قد اتبعناه الآن، ونكره أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير أمره، قال: وقد أردت أن تُسلفني سلفًا. قال: فما ترهنّني؟ قال: ما تُريده؟ قال: ترهنوني نساءكم؟ قال: أنت أجمل العرب، أنرهنك نساءنا؟ قال: ترهنوني أولادكم؟ قال: يُسبُّ ابن أحدنا، فيقال: رُهن في وَسْقين من تمر. ولكن نرهنك اللأمة - يعني السلاح - قال: نعم. وواعده أن يأتيه بالحارث، وأبي عبس ابن جبر، وعبّاد بن بشر. قال: فجاءوا، فدعوه ليلاً فنزل إليهم، قال سفيان: قال غيرُ عمرو: قالت له امرأته: إني لأسمع صوتًا كأنه صوت دم، قال: إنما هذا محمد بن مسلمة، ورضيعه، وأبو نائلة[1]؛ إن الكريم لو دُعي إلى طعنة ليلاً لأجاب. قال محمد: إني إذا جاء فسوف أمدُّ يدي إلى رأسه، فإذا استمكنت منه فدونكم. قال: فلما نزل، نزل وهو متوشّح. فقالوا: نجد منك ريح الطيب، قال: نعم، تحتي فلانة أعطر نساء العرب. قال: فتأذن لي أن أشم منه؟ قال: نعم فشُمَّ! فتناوله فشم، ثم قال: أتأذن لي أن أعود؟ قال: فاستمكن من رأسه. ثم قال: دونكم، قال: فقتلوه[2].

في قصة عُمر: بيان أن المنافق المغموص بالنفاق إذا أظهر نفاقه قُتل، كما في (الصحيحين)، وغيرهما: أن النبي ﷺ إنما ترك قتلَ من أظهر نفاقه منهم، تأليفًا للناس؛ فإنه قال: **«لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»**[3] صلوات الله وسلامه عليه.

والكاهن: من يدَّعي علم الغيب في المستقبل، وكان للعرب كهان تنزل عليهم الشياطين بخبر السماء، فيقولون: سيحدث كذا وكذا، فربما أصابوا مرة من المرات، وربما أخطأوا، فإذا أصابوا ادَّعوا علم الغيب، فكان العرب يتحاكمون إليهم؛ فنزل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية [النساء: ٦٠].

قوله: «وقيل»: ذكر هذه القصة بصيغة التمريض، لكن ذكر في «تيسير العزيز الحميد» أنها رويت من طرق متعددة، وأنها مشهورة متداولة بين السلف والخلف تداولاً يغني عن الإسناد، ولها طرق كثيرة ولا يضرها ضعف إسنادها. اهـ.

قوله: «رجلين»: هما مبهمان؛ فيحتمل أن يكونا من المسلمين المؤمنين، ويحتمل أن يكونا من المنافقين، ويحتمل غير ذلك.

---

(١) قال النووي هكذا هو في جميع النسخ، قال القاضي رحمه الله: قال لنا شيخنا القاضي الشهيد: صوابه أن يقال: إنما هو محمد ورضيعه أبو نائلة. وكذا ذكر أهل السير أن أبا نائلة كان رضيعًا لمحمد بن مسلمة. ووقع في صحيح البخاري: «ورضيعي أبو نائلة». (ق).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٥١٠)، ومسلم (١٨٠١). (٣) صحيح: رواه البخاري (٣٥١٨)، ومسلم (٢٥٨٤).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت.

الثانية: تفسير آية البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾.

الثالثة: تفسير آية الأعراف: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها﴾.

الرابعة: تفسير ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

الخامسة: ما قاله الشعبي في سبب نزول الآية الأولى.

السادسة: تفسير الإيمان الصادق والكاذب. السابعة: قصة عمر مع المنافق.

الثامنة: كون الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ.

قوله: «إلى كعب بن الأشرف»: وهو رجل من زعماء بني النضير.

قوله: «أكذلك»: خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: أكذلك الأمر.

قوله: «فضربه بالسيف»: الضارب عمر. وهذه القصة والتي قبلها تدل على أن من لم يرض بحكم رسول الله ﷺ كافرًا يجب قتله، ولهذا قتله عمر رضي الله عنه. فإن قيل: كيف يقتله عمر رضي الله عنه والأمر إلى الإمام وهو النبي ﷺ. أجيب: إن الظاهر أن عمر لم يملك نفسه لقوة غَيرته فقتله؛ لأنه عرف أن هذا ردة عن الإسلام، وقد قال النبي ﷺ: «من بَدَّل دينه فاقتلوه»[1].

فيه مسائل:

الأولى: «تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت»: وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ٦٠].

وقوله: «وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت»: أي: أن الطاغوت مشتق من الطغيان، وإذا كان كذلك؛ فيشمل كل ما تجاوز به العبد حده من متبوع أو معبود أو مطاع؛ فالأصنام والأمراء والحكام الذين يُحلّون الحرام ويحرمون الحلال طواغيت.

الثانية: تفسير آية البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾. الآية: ففيها دليل على أن النفاق فساد في الأرض؛ لأنها في سياق المنافقين، والفساد يشمل جميع المعاصي.

الثالثة: تفسير آية الأعراف: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها﴾: وقد سبق.

الرابعة: تفسير: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾: وقد سبق ذلك، وقد بيَّنَّا أن المراد بحكم الجاهلية كل ما خالف الشرع، وأضيف للجاهلية للتنفير منه وبيان قبحه، وأنه مبني على الجهل والضلال.

الخامسة: ما قاله الشعبي في سبب نزول الآية الأولى: وقد سبق.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٠١٧، ٦٩٢٢)، وأبو داود (٤٣٥١)، والترمذي (١٤٥٨)، والنسائي (٤٠٥٩) ومواضع، وابن ماجه (٢٥٣٥).

٣٩ـ باب
من جحد شيئاً من الأسماء والصفات

وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات، وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

سببُ نزول الآية معلوم مذكور في كُتب التفسير وغيرها، وهو أن مشركي قريش جحدوا اسم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عناداً.

قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، والرحمن: اسمه وصفته، دلَّ هذا الاسم على أن الرحمة وصفُه سبحانه؛ وهي من صفات الكمال.

فإذا كان المشركون جحدوا اسمًا من أسمائه تعالى، وهو من الأسماء التي دلت على كماله سبحانه وبحمده: فجحود معنى هذا الاسم ونحوه من الأسماء يكون كذلك. فإن جَهْم بن صفوان ومن تبعه: يزعُمون أنها لا تدل على صفة قائمة بالله تعالى. وتبعهم على ذلك طوائف من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم؛ فلهذا كفرهم كثيرون من أهل السنة؛ قال ابن القيم رحمه الله تعالى.

ولقد تقلَّد كفرَهم خمسون في ... عشر من العلماء في البلدان

واللالكائيُّ الإمام حكاه عنـ ... ـهم بل حكاه قبله الطبراني

فإن هؤلاء الجهمية، ومن وافقهم على التعطيل: جحدوا ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله

السادسة: تفسير الإيمان الصادق والكاذب: فالإيمان الصادق يستلزم الإذعان التام والقبول والتسليم لحكم الله ورسوله، والإيمان الكاذب بخلاف ذلك.

السابعة: قصة عمر مع المنافق: حيث جعل عدوله عن الترافع إلى النبي ﷺ مبيحًا لقتله لردته، وأقدم على قتله لقوة غيرته فلم يملك نفسه.

الثامنة: كون الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ: وهذا واضح من الحديث.

* * *

الجَحْدُ: الإنكار. والإنكار نوعان:

الأول: إنكار تكذيب، وهذا كفر بلا شك، فلو أن أحدًا أنكر اسمًا من أسماء الله أو صفة من صفاته الثابتة في الكتاب والسنة، مثل أن يقول: ليس لله يد، أو أن الله لم يستو على عرشه، أو ليس له عين؛ فهو كافر بإجماع المسلمين؛ لأن تكذيب خبر الله ورسوله كفر مخرج عن الملة بالإجماع.

الثاني: إنكار تأويل، وهو أن لا ينكرها ولكن يتأولها إلى معنى يخالف ظاهرها، وهذا نوعان.

١ ـ أن يكون للتأويل مُسَوِّغ في اللغة العربية؛ فهذا لا يوجب الكفر.

. . . .

من صفات كماله ونعوت جلاله، وبنوا هذا التعطيل على أصل باطل أصلوه من عند أنفسهم، فقالوا: هذه الصفات هي صفات الأجسام، فيلزم من إثباتها أن يكون اللَّه جسمًا. هذا منشأ ضلال عقولهم، لم يفهموا من صفات اللَّه إلا ما فهموه من خصائص صفات المخلوقين. فشبَّهوا اللَّه في ابتداء رأيهم الفاسد بخلقه، ثم عطَّلوه من صفات كماله، وشبَّهوه بالناقصات والجمادات والمعدومات. فشبهوا أولاً، وعطلوا ثانيًا، وشبَّهوا ثالثًا بكل ناقص أو معدوم. فتركوا ما دلَّ عليه الكتاب والسنة، من إثبات ما وصف اللَّه به نفسه ووصفه به رسوله على ما يليق بجلاله وعظمته. هذا هو الذي عليه سلف الأمة وأئمتها؛ فإنهم أثبتوا للَّه ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل؛ فإن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يُحتذىٰ حذوه. فكما أن هؤلاء المعطِّلة يُثبتون للَّه ذاتًا لا تشبه الذوات، فأهل السنة يقولون ذلك، ويثبتون ما وصف اللَّه به نفسه، ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله، لا تُشْبه صفات خلقه. فإنهم آمنوا بكتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، ولم يتناقضوا. وأولئك المعطِّلة: كفروا بما في الكتاب والسنة من ذلك، فتناقضوا. فبطل قولُ المعطِّلين بالعقل والنقل - وللَّه الحمد والمنة - وإجماع أهل السنة من الصحابة والتابعين وتابعيهم وأئمة المسلمين.

وقد صنَّف العلماء رحمهم اللَّه تعالىٰ في الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم، في إبطال هذه البدع وما فيها من التناقض والتهافتُ: كالإمام أحمد رحمه اللَّه تعالىٰ في

---

٢ - أن لا يكون له مُسوِّغ في اللغة العربية؛ فهذا حكمه الكفر؛ لأنه إذا لم يكن له مسوغ صار في الحقيقة تكذيبًا، مثل أن يقول: المراد بقوله تعالىٰ: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر: ١٤]، تجري بأراضينا؛ فهذا كافر لأنه نفاها نفيًا مطلقًا، فهو مكذِّب.

ولو قال في قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] المراد بيديه: السماوات والأرض؛ فهو كفر أيضًا؛ لأنه لا مسوغ له في اللغة العربية، ولا هو مقتضىٰ الحقيقة الشرعية؛ فهو مُنكر ومُكذِّب، لكن إن قال: المراد باليد النعمة أو القوة؛ فلا يكفر؛ لأن اليد في اللغة تطلق بمعنىٰ النعمة.

قال الشاعر:

وكَم لظلام الليل عندكَ من يَد ... تُحدث أنَّ المانَويَّة تكذبُ

فقوله: «من يد»: أي: من نعمة؛ لأن المانوية: يقولون: إن الظلمة لا تخلق الخير، وإنما تخلق الشر.

قوله: «من الأسماء»: جمع اسم واختلف في اشتقاقه.

فقيل من السمو وهو الارتفاع ووجه هذا أن المسمىٰ يرتفع باسمه ويتبين ويظهر.

وقيل: من السِّمة وهي العلامة، ووجهه: أنه علامة علىٰ مسماه، والراجح أنه مشتق من كليهما.

والمراد بالأسماء هنا أسماء الله - عز وجل -، وبالصفات صفات الله - عز وجل - والفرق بين الاسم والصفة أن الاسم ما تسمىٰ به الله والصفة ما اتصف به.

وفي صحيح البخاري قال علي: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكذَّب الله ورسوله؟»[1].

رده المشهور ، و(كتاب السنة) لابنه عبد الله ، وصاحب (الحَيدة) عبد العزيز الكناني في ردِّه على بشر المرِّيسي . و(كتاب السنة) لأبي عبد اللَّه المروَزي ، وردُّ عثمان بن سعيد على الكافر العنيد وهو بشر المريسي ، و(كتاب التوحيد) لإمام الأئمة محمد بن خُزيمة الشافعي ، و(كتاب السنة) لأبي بكر الخلال، وأبي عثمان الصابوني الشافعي ، وشيخ الإسلام الأنصاري ، وأبي عمر بن عبد البر النمري، وخلقٍ كثير من أصحاب الأئمة الأربعة وأتباعهم، وأهل الحديث.

ومن متأخريهم: أبو محمد عبد اللَّه بن أحمد بن قدامة، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وأصحابه وغيرهم. فلله الحمد والمنة على بقاء السنة وأهلها، مع تفرُّق الأهواء وتشعُّب الآراء. واللَّه أعلم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وفي (صحيح البخاري)، قال علي: حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتُريدون أن يُكذَّب الله ورسوله:

علي: هو أمير المؤمنين أبو الحسن، علي بن أبي طالب، وأحدُ الخلفاء الراشدين. وسبب هذا القول-واللَّه أعلم-ما حدث في خلافته من كثرة إقبال الناس على الحديث، وكثرة القُصَّاص وأهل الوعظ، فيأتون في قصصهم بأحاديث لا تعرف من هذا القبيل[2]. فربما استنكرها بعض الناس وردها، وقد يكون لبعضها أصل أو معنى صحيح، فيقع بعض المفاسد لذلك. فأرشدهم أمير المؤمنين رضي اللَّه عنه إلى أنهم لا يحدثون عامة الناس إلا بما هو معروف، ينفع الناس في أصل دينهم وأحكامه، من بيان الحلال والحرام الذي كلِّفوا به علماً وعملاً، دون ما يُشغل عن ذلك، مما قد يؤدي إلى رد الحق وعدم قبوله، فيُفضي بهم إلى التكذيب، لاسيما مع اختلاف الناس في وقته، وكثرة خوضهم وجدلهم.

وقد كان شيخنا المصنف رحمه اللَّه لا يُحب أن يقرأ على الناس إلا ما ينفعهم في أصل دينهم وعبادتهم ومعاملاتهم الذي لا غنى لهم عن معرفته، وينهاهم عن القراءة في مثل كتب ابن الجوزي: كـ(المنعش)، و(المرعش)، و(التبصرة)، لما في ذلك من الإعراض عما هو أوجب وأنفع، وفيها ما اللَّه به أعلم مما لا ينبغي اعتقاده، والمعصوم من عصمه الله.

البحث في أسماء الله:

المبحث الأول:

أن أسماء الله أعلام وأوصاف، وليست أعلامًا محضة؛ فهي من حيث دلالتها على ذات الله تعالى أعلام، ومن حيث دلالتها على الصفة التي يتضمنها هذا الاسم أوصاف، بخلاف أسمائنا؛

---

(١) صحيح: رواه البخاري (١٢٧).

(٢) وقد كان هؤلاء القُصاص لعدم تحريهم الصدق سببًا في وضع كثير من الأحاديث على رسول الله ﷺ ذكرها أئمة الجرح والتعديل وحذروا الناس منها ودونوا دواوين الصحاح والسنن والمسانيد فلا ينبغي لأحد اليوم أن ينسب إلى النبي ﷺ حديثًا إلا بذكر من خرجه، وخير وأولى: أن يشفعه ببيان درجته من الصحة أو الضعف؛ إذا كان في غير الصحيحين. (ق).

وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس:

وقد كان أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ينهى القُصَّاص عن القَصَص؛ لما في قصصهم من الغرائب والتساهل في النقل وغير ذلك، ويقول: لا يقص إلا أمير أو مأمور.

وكلٌّ هذا محافظة على لزوم الثبات على الصراط المستقيم علماً وعملاً ونية وقصداً، وترك كل ما كان وسيلة إلى الخروج عنه من البدع ووسائلها، والله الموفق للصواب، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس: أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثًا عن النبي ﷺ في الصفات، استنكاراً لذلك! فقال: ما فَرَقُ هؤلاء؟ يجدون رقَّةً عند مُحكَمه، ويَهلَكون عند مُتشابهه. انتهى[1].

قوله: (وروى عبد الرزاق). هو ابن همام الصنعاني المحدِّث، مُحدِّث اليمن صاحب التصانيف، أكثر الرواية عن مَعمر بن راشد صاحب الزهري. وهو شيخ عبد الرزاق، يروي عنه كثيراً.

ومعمر -بفتح الميمين وسكون العين- أبو عروة بن أبي عمرو، راشد الأزدي الحرّاني ثم اليماني، أحدُ الأعلام من أصحاب محمد بن شهاب الزهري، يروي عنه كثيراً.

قوله: (عن ابن طاوس). هو عبد الله بن طاوس اليماني. قال معمر: كان من أعلم الناس بالعربية. وقال ابن عيينة: مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

قوله: (عن أبيه) هو طاوس بن كَيسان الجَنَدي -بفتح الجيم والنون- الإمام العَلَم، قيل: اسمُه ذكوان، قاله ابن الجوزي.

قلت: وهو من أئمة التفسير، ومن أوعية العلم. قال في (تهذيب الكمال): عن الوليد المُوقَّري، عن الزهري، قال: قدمتُ على عبد الملك بن مروان، فقال: من أين قدمت يا زهري؟ قال: قلتُ: من مكة، قال: من خلَّفت يسودها وأهلَها؟ قلتُ: عطاء بن أبي رباح، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلتُ: من الموالي، قلت: فَبِمَ سادهم؟ قال: قلت: بالديانة والرواية. قال: إن أهل الديانة والرواية لينبغي أن يسودوا. قال: فمن

فالإنسان يسمي ابنه محمداً وعليًا دون أن يلحظ معنى الصفة، فقد يكون اسمه عليًا وهو من أوضع الناس، أو عبد الله وهو من أكفر الناس، بخلاف أسماء الله؛ لأنها متضمنة للمعاني؛ فالله هو العلي لعلو ذاته وصفاته، والعزيز يدل على العزة، والحكيم يدل على الحكمة، وهكذا.

ودلالة الاسم على الصفة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: دلالة مطابقة، وهي دلالته على جميع معناه المحيط به.

الثاني: دلالة تَضَمُّن، وهي دلالته على جزء معناه.

الثالث: دلالة التزام، وهي دلالته على أمر خارج لازم.

مثال ذلك: الخالق يدل على ذات الله وحده، وعلى صفة الخالق وحدها دلالة تضمن، ويدل على ذات الله وعلى صفة الخلق فيه دلالة مطابقة، ويدل على العلم والقدرة دلالة الالتزام.

---

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٢٠٨٩٥).

أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثًا عن النبي ﷺ في الصفات، استنكاراً لذلك! فقال: «ما فَرَقُ هؤلاء؟ يجدون رقَّةً عند مُحكَمه، ويَهلَكون عند مُتشابهه». انتهى.

يسود أهل اليمن؟ قلت: طاوس بن كيْسان، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي. قال: فبم سادهم؟ قلت: بما ساد به عطاءٌ، قال: إنه لينبغي ذلك، قال: فمن يسود مصر؟ قلت: يزيد بن أبي حبيب، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي، قال: فمن يسود أهل الشام؟ قلت: مكحول. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي، عبدٌ نوبي أعتقته امرأة من هُذيل، قال: فمن يسود أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي، قال: فمن يسود أهل خراسان؟ قال: قلت: الضحاك بن مُزاحم، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي. قال: فمن يسود أهل البصرة؟ قال: قلت: الحسن البصري، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي، قال: ويلك، ومن يسود أهل الكوفة؟ قال: قلتُ: إبراهيم النخعي، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من العرب، قال: ويلك يا زهري، فرَّجت عني، والله لتسودن الموالي على العرب في هذا البلد، حتى يُخطب لها على المنابر والعرب تحتها. قال: قلتُ: يا أمير المؤمنين، إنما هو دين. من حفظه ساد ومن ضيَّعه سقط[1].

قوله: (عن ابن عباس). قد تقدم، وهو حَبْرُ الأمة وتَرجمان القرآن، ودعا له النبي ﷺ، وقال: **«اللهم فقِّهه في الدين، وعلِّمه التأويل»**[2] وروى عنه أصحابه أئمة التفسير، كمجاهد، وسعيد بن جُبير، وعطاء بن أبي رباح، وطاوس، وغيرهم.

باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات

أصل الإيمان وقاعدته التي ينبني عليها هو الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته، وكلما قوي علم العبد بذلك وإيمانه به وتعبد لله بذلك قوي توحيده، فإذا علم أن الله متوحد بصفات الكمال متفرد بالعظمة والجلال والجمال ليس له في كماله مثيل، أوجب له ذلك أن يعرف ويتحقق أنه هو الإله الحق وأن إلهية ما سواه باطلة، فمن جحد شيئًا من أسماء الله وصفاته فقد أتى بما يناقض التوحيد وينافيه، وذلك من شعب الكفر.

كما قال الله تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ [الطلاق: ١٢]؛ فَعَلمنا القدرة من كونه خلق السماوات والأرض، وعلمنا العلم من ذلك أيضًا؛ لأن الخلق لابد فيه من علم، فمن لا يعلم لا يخلق، وكيف يخلق شيئًا لا يعلمه؟!

المبحث الثاني: أن أسماء الله مترادفة متباينة، المترادف: ما اختلف لفظه واتفق معناه؛ والمُتَباين: ما اختلف لفظه ومعناه؛ فأسماء الله مترادفة باعتبار دلالتها على ذات الله ـ عز وجل ـ؛ لأنها تدل على مسمى واحد، فالسميع، البصير، العزيز، الحكيم؛ كلها تدل على شيء واحد هو الله، ومتباينة باعتبار معانيها؛ لأن معنى الحكيم غير معنى السميع وغير معنى البصير وهكذا.

---

(١) ذكره المباركفوري في التحفة (١/ ٦٣)، والحافظ المزي في تهذيب الكمال (٢٠/ ٨٢) وفي إسناده الموقري قال عنه أحمد بن حنبل: له مناكير، وقال يحيى بن معين: ليس بشيء وقال مرة: كذاب، وقال علي بن المديني: ضعيف لا يكتب حديثه.

(٢) صحيح: وقد تقدم تخريجه.

قوله: (ما فَرَقُ هؤلاء). يستفهم من أصحابه، يشير إلىٰ أُناس ممن يحضر مجلسه من عامة الناس، فإذا سمعوا شيئًا من محكم القرآن ومعناه، حصل معهم فَرَق. أي: خوف، فإذا سَمعوا شيئًا من أحاديث الصفات انتفضوا كالمنكرين له، فلم يحصل منهم الإيمان الواجب الذي أوجبه اللّٰه تعالىٰ علىٰ عباده المؤمنين[1].

المبحث الثالث: أسماء الله ليست محصورة بعدد معين، والدليل علىٰ ذلك قوله ﷺ في حديث ابن مسعود الحديث الصحيح المشهور: «**اللهم! إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك.... ـ إلىٰ أن قال ـ أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**»[2]، وما استأثر الله في علم الغيب لا يمكن أن يُعلم به، وما ليس بمعلوم ليس بمحصور.

وأما قوله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة**»[3]؛ فليس معناه أنه ليس له إلا هذه الأسماء، لكن معناه أن من أحصىٰ من أسمائه هذه التسعة والتسعين فإنه يدخل الجنة، فقوله: «**من أحصاها**» تكميل للجملة الأولىٰ، وليست استئنافية منفصلة، ونظير هذا قول القائل: عندي مائة فرس أعددتها للجهاد في سبيل الله؛ فليس معناه أنه ليس عنده إلا هذه المائة؛ بل معناه أن هذه المائة مُعَدَّة لهذا الشيء.

المبحث الرابع: الاسم من أسماء الله يدل علىٰ الذات وعلىٰ المعنىٰ كما سبق؛ فيجب علينا أن نؤمن به اسمًا من الأسماء، ونؤمن بما تَضَمَّنه من الصفة، ونؤمن بما تَدُل عليه هذه الصفة من الأثر والحُكم إن كان الاسم متعديًا؛ فمثلاً: السميع نؤمن بأن من أسمائه تعالىٰ السميع، وأنه دال علىٰ صفة السمع، وأن لهذا السمع حكمًا وأثرًا وهو أنه يسمع به، كما قال تعالىٰ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: 1]، أما إن كان الاسم غير متعد؛ كالعظيم، والحي، والجليل؛ فنثبت الاسم والصفة، ولا حكم له يتعدىٰ إليه.

المبحث الخامس: هل أسماء الله تعالىٰ غيره، أو أسماء الله هي الله؟

إن أريد بالاسم اللفظ الدال علىٰ المسمىٰ؛ فهي غير الله ـ عز وجل ـ، وإن أريد بالاسم مدلول ذلك اللفظ؛ فهي المسمىٰ. فمثلاً: الذي خلق السماوات والأرض هو الله؛ فالاسم هنا هو المُسمَّىٰ، فليست «اللام ـ والهاء» هي التي خلقت السماوات والأرض، وإذا قيل: اكتب باسم الله، فكتبت بسم الله؛ فالمراد به الاسم دون المسمىٰ، وإذا قيل: اضرب زيدًا. فضربت زيدًا المكتوب في الورقة لم تكن ممتثلاً؛ لأن المقصود المسمىٰ وإذا قيل: اكتب زيد قائم، فالمراد الاسم الذي هو غير المسمىٰ.

البحث في صفات الله:

المبحث الأول: تنقسم صفات الله إلىٰ ثلاثة أقسام:

الأول: ذاتية ويقال معنوية. الثاني: فعلية.

---

(1) قال الشيخ رحمه الله في قرة عيون الموحدين: وقد ظهر من البدع في زمن ابن عباس بدعة القدرية كما في صحيح مسلم وغيره. فقتل من دعاتهم غيلان. قتله هشام بن عبد الملك لما أصر على قوله بنفي القدر. ثم بعد ذلك أظهر الجعد بن درهم بدعة الجهمية، فقتله خالد بن عبد الله القسري يوم الأضحى بعد صلاة العيد بمكة. اهـ. (ق).

(2) صحيح: رواه أحمد (٣٧٠٤)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٩٩).

(3) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٣٦، ٧٣٩٢)، ومسلم (٢٦٧٧).

. . . .

قال الذهبي: حدَّث وكيع-عن إسرائيل-بحديث: إذا جلس الربُّ على الكرسي. فاقشعر رجلٌ عند وكيع. فغضب وكيع، وقال: أدركنا الأعمش وسفيان يحدِّثون بهذه الأحاديث ولا يُنكرونها. أخرجه عبد اللَّه في (كتاب الرَّد على الجهمية). وربما حصل معهم من عدم تلقِّيه بالقبول تركُ ما وجب من الإيمان به، فتُشبه حالهم حال من قال اللَّه فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]. فلا يسلم من الكفر إلا من عمل بما وجب عليه في ذلك، من الإيمان بكتاب اللَّه كله واليقين؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

فهؤلاء الذين ذكرهم ابن عباس-رضي اللَّه عنهما-تركوا ما وجب عليهم من الإيمان بما لم يعرفوا معناه من القرآن، وهو حقٌ لا يرتاب فيه مؤمن. وبعضُهم يفهم منه غيرَ المراد من المعنى الذي أراد الله، فيحملُه على غير معناه؛ كما جرى لأهل البدع، كالخوارج والرافضة والقدرية، ونحوهم ممن

الثالث: خبرية.

فالصفات الذاتية: هي الملازمة لذات الله، والتي لم يزل ولا يزال متصفًا بها، مثل: السمع والبصر وهي معنوية؛ لأن هذه الصفات معاني.

والفعلية: هي التي تتعلق بمشيئته إن شاء فعلها وإن لم يشأ لم يفعلها، مثل: النزول إلى السماء الدنيا، والاستواء على العرش، والكلام من حيث آحاده، والخلق من حيث آحاده، لا من حيث الأصل؛ فأصل الكلام صفة ذاتية، وكذلك الخلق.

والخبرية: هي أبعاض وأجزاء بالنسبة لنا، أما بالنسبة لله؛ فلا يقال هكذا، بل يقال: صفات خبرية ثبت بها الخبر من الكتاب والسنة، وهي ليست معنىً ولا فعلاً، مثل: الوجه، والعين، والساق، واليد.

المبحث الثاني: الصفات أوسع من الأسماء؛ لأن كل اسم متضمن لصفة، وليس كل صفة تكون اسمًا، وهناك صفات كثيرة تطلق على الله وليست من أسمائه؛ فيوصف الله بالكلام والإرادة، ولا يسمى بالمتكلم أو المريد.

المبحث الثالث: أن كل ما وصف الله به نفسه؛ فهو حق على حقيقته، لكن ينزه عن التمثيل والتكييف، أما التمثيل، فلقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤]، والتعبير بنفي التمثيل أحسن من التعبير بنفي التشبيه؛ لوجوه ثلاثة:

أحدها: أن التمثيل هو الذي جاء به القرآن وهو منفي مطلقًا، بخلاف التشبيه؛ فلم يأت القرآن بنفيه.

الثاني: أن نفي التشبيه على الإطلاق لا يصح؛ لأن كل موجودين فلابد أن يكون بينهما قدرٌ مشترك يشتبهان فيه ويتميز كل واحد بما يختص به؛ فـ«الحياة» مثلاً وصف ثابت في الخالق والمخلوق، فبينهما قدر مشترك، ولكن حياة الخالق تليق به وحياة المخلوق تليق به.

. . . .

يتأول بعض آيات القرآن على بدعته. وقد وقع منهم ما وقع، من الابتداع والخروج عن الصراط المستقيم. فإن الواقع من أهل البدع، وتحريفهم لمعنى الآيات يُبيِّن معنى قول ابن عباس.

وسببُ هذه البدع جهلُ أهلها وقصورهم في الفهم، وعدمُ أخذ العلوم الشرعية على وجهها وتلقيها من أهلها العارفين لمعناها، الذين وفَّقهم اللَّه تعالى: لمعرفة المُراد، والتوفيق بين النصوص، والقطع بأن بعضها لا يخالف بعضًا، وردِّ المتشابه إلى المُحكَم، وهذه طريقة أهل السنة والجماعة في كل زمان ومكان. فلله الحمد لا نُحصي ثناءً عليه.

ذكر ما ورد عن علماء السلف في المتشابه:

قال في (الدر المنثور): أخرج الحاكم ـ وصححه ـ عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: **«كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد، فنزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زجر، وأمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال. فأحلُّوا حلاله، وحرِّموا حرامه، وافعلوا ما أُمرتم به، وانتهوا عما نُهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمُحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا: آمنا به كل من عند ربنا»**[1].

قال: وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ**﴾، قال: طلب القوم التأويل، فأخطأوا التأويل وأصابوا الفتنة، وطلبوا ما تشابه منه، فهلكوا بين ذلك.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿**آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ**﴾ قال: من هنا: ﴿**قُلْ تَعَالَوْا**﴾ [الانعام: ١٥١ ـ ١٥٣] إلى ثلاث آيات، ومن هنا: ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ**﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٦]. إلى ثلاث آيات بعدها وأخرج ابن جرير، من طريق أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مُرَّة، عن ابن مسعود وناس من الصحابة: المُحكمات: الناسخات التي يُعمل بهن. والمُتشابهات: المنسوخات. وأخرج عبد بن حُميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن إسحاق ابن سُويد:

الثالث: أن الناس اختلفوا في مسمى التشبيه، حتى جعل بعضهم إثبات الصفات التي أثبتها الله لنفسه تشبيهًا، فإذا قلنا من غير تشبيه؛ فَهِمَ هذا البعض من هذا القول نفي الصفات التي أثبتها الله لنفسه.

وأما التكييف؛ فلا يجوز أن نُكَيِّف صفات الله، فمن كيَّف صفة من الصفات؛ فهو كاذب عاص، كاذب لأنه قال بما لا علم عنده فيه، عاصٍ؛ لأنه واقع فيما نهى الله عنه وحرَّمه في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**﴾ [الاعراف: ٣٣]، ولأنه لا يمكن إدراك الكيفية؛ لقوله تعالى: ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**﴾ [طه: ١١٠]، قوله: ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ**﴾ [الانعام: ١٠٣]. وسواء كان التكييف باللسان تعبيرًا أو بالجنان تقديرًا أو بالبنان تحريرًا، ولهذا قال مالك رحمه الله حين سُئل عن كيفية الاستواء: «الكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة»، وليس معنى هذا أن لا نعتقد أن لها كيفية، بل لها كيفية ولكنها ليست معلومة لنا؛ لأن ما ليس له كيفية ليس بموجود؛ فالاستواء والنزول واليد والوجه

---

(١) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٥٨٧).

ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر: الرحمن. أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

أن يحيى بن يَعْمُر، وأبا فاختة تراجعا هذه الآية: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فقال أبو فاختة: هن فواتح السور، منها يُستخرج القرآن ﴿الم ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: ١، ٢] منها استُخرجت البقرة، و﴿الم ۝١ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١، ٢] منها استُخرجت آلُ عمران، وقال: يحيى: هن اللاتي فيهن الفرائض، والأمر والنهي والحلال، والحدود وعماد الدين[١]. وأخرج ابن جرير، عن محمد بن جعفر بن الزبير، قال: الـ ﴿مُحْكَمَاتٌ﴾ حجة الرب وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس فيها تصريف ولا تحريف عما وضعت عليه ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ في الصدق، لهن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى اللّه فيهن العباد، كما ابتلاهم في الحلال والحرام، لا يُصرفن إلى الباطل، ولا يحرفن عن الحق.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حيَّان: إنما قال: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾؛ لأنه ليس من أهل دين لا يرضى بهن ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ يعني فيما بلغنا ﴿الم﴾ و﴿المص﴾ و﴿المر﴾.

قلت: وليس في هذه الآثار ونحوها ما يُشعر بأن أسماء اللّه تعالى وصفاته من المتشابه، وما قاله النفاة: من أنها من المتشابه، دعوى بلا برهان.

قال المصنف رحمه الله تعالى: ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر: الرحمن. أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

روى ابن جرير، عن قتادة: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ ذُكر لنا أن نبي اللّه ﷺ زمن الحُديبية حين صالح قريشًا، كتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله». فقال مشركو قريش[٢]: لئن كنت رسول اللّه ثم قاتلناك لقد ظلمناك! ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، فقال أصحاب رسول اللّه ﷺ: دعنا يا رسول اللّه نقاتلهم، فقال: «لا. ولكن اكتبوا كما يُريدون، إني

والعين لها كيفية، لكننا لا نعلمها؛ ففرق بين أن نثبت كيفية معينة ولو تقديراً وبين أن نؤمن بأن لها كيفية غير معلومة، وهذا هو الواجب؛ فنقول: لها كيفية، لكن غير معلومة.

فإن قيل: كيف يُتصوَّر أن نعتقد للشيء كيفية ونحن لا نعلمها؟

أجيب: إنه متصور؛ فالواحد منا يعتقد أن لهذا القصر كيفية من داخله، ولكن لا يعلم هذه الكيفية إلا إذا شاهدها، أو شاهد نظيرها، أو أخبره شخص صادق عنها.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾: ﴿وَهُمْ﴾: أي: كفار قريش.

﴿يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾: المراد: أنهم يكفرون بهذا الاسم لا بالمسمى، فهم يُقرُّون به، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

---

(١) تمام الأثر عند ابن جرير (وضرب لذلك مثلاً. فقال: أم القرى مكة. وأم خراسان مرو. وأم المسافرين: الذي يجعلون إليه أمرهم. ويعني بهم في سفرهم. قال: فذاك أمهم). (ق).

(٢) الذي كان يقول ذلك. هو سهيل بن عمرو الذي ندبته قريش ليتولى عنها عقد هذا الصلح مع رسول الله ﷺ. (ق).

. . . .

محمد بن عبد الله». فلما كتب الكاتب: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قالت قُريش: أما الرحمن فلا نعرفه - وكان أهل الجاهلية يكتبون: باسمك اللهم - فقال أصحابه: يا رسول اللّه دعنا نقاتلهم! قال: **«لا. ولكن اكتبوا كما يريدون»**.

وروى أيضًا، عن مجاهد قال: قوله: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ الآية [الرعد: ٣٠]. قال: هذا لما كاتب رسول اللّه ﷺ قريشًا في الحديبية؛ كتب: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قالوا: لا تكتب الرحمن، وما ندري ما الرحمن؟ ولا نكتب إلا: باسمك اللهم. قال: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾. وروي أيضًا، عن ابن عباس، قال: كان النبي ﷺ يدعو ساجدًا: يا رحمن يا رحيم. فقال المشركون: هذا يزعم أنه يدعو واحدًا، وهو يدعو مثنى مثنى. فأنزل الله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠].

وفي حديث سهيل بن عمرو: «لما أراد النبي ﷺ أن يكتب الصلح في غزوة الحديبية قال للكاتب: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، قال سهيل: أما الرحمن؛ فوالله ما أدري ما هي ولكن اكتب باسمك اللهم»، وهذه من الأمثلة التي يراد بها الاسم دون المسمى.

وقد قال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ أي: بأي اسم من أسمائه تدعونه، فإن له الأسماء الحسنى فكل أسمائه حسنى فادعوا بما شئتم من الأسماء، ويراد بهذه الآية الإنكار على قريش وفي الآية دليل على أن من أنكر اسمًا من أسمائه تعالى فإنه يكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠]، ولأنه مكذب لله ولرسوله، وهذا كفر، وهذا وجه استشهاد المؤلف بهذه الآية.

قوله: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾: خبر ﴿لا﴾ النافية للجنس محذوف، والتقدير: لا إله حق إلا هو، وأما الإله الباطل؛ فكثير.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠].

قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: عليه وحده؛ لأن تقديم المعمول يدل على الحصر، فإذا قلت مثلاً: «ضربت زيدًا»؛ فإنه يدل على أنك ضربته، ولكن لا يدل على أنك لم تضرب غيره، وإذا قلت: «زيدًا ضربت» دلت على أنك ضربت زيدًا ولم تضرب غيره، وسبق معنى التوكل وأحكامه.

قوله: ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾: أي: إلى الله، و﴿مَتَابِ﴾ أصلها متابي، فحذفت الياء تخفيفًا، والمتاب بمعنى التوبة؛ فهو مصدر ميمي؛ أي: و إليه توبتي.

والتوبة: هي الرجوع إلى الله تعالى من المعصية إلى الطاعة، ولها شروط خمسة:

١ - الإخلاص لله تعالى بأن لا يحمل الإنسان على التوبة مراعاة أحد أو محاباته أو شيء من الدنيا.

٢ - أن تكون في وقت قبول التوبة، وذلك قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل حضور الموت.

٣ - الندم على ما مضى من فعله، وذلك بأن يشعر بالتحسر على ما سبق ويتمنى أنه لم يكن.

. . . .

. . . .

٤ ـ الإقلاع عن الذنب، وعلىٰ هذا، فإذا كانت التوبة من مظالم الخلق؛ فلابد من رد المظالم إلىٰ أهلها أو استحلالهم منها.

٥ ـ العزم علىٰ عدم العودة، والتوبة التي لا تكون إلا لله هي توبة العبادة؛ كما في الآية السابقة، وأما التوبة التي بمعنىٰ الرجوع؛ فإنها تكون له ولغيره، ومنه قول عائشة حين جاء النبي ﷺ فوجد نَمرُقة فيها صور، فوقف بالباب ولم يدخل، وقالت: «أتوب إلىٰ الله ورسوله، ماذا أذنبت؟»[1] فليس المراد بالتوبة هنا توبة العبادة؛ لأن توبة العبادة لا تكون للرسول ﷺ ولا لغيره من الخلق بل لله وحده، ولكن هذه توبة رجوع، ومن ذلك أيضًا حين يضرب الإنسان ابنه لسوء أدبه؛ يقول الابن: أتوب.

قوله في أثر علي رضي الله عنه: «حدِّثوا الناس»: أي: كلموهم بالمواعظ وغير المواعظ.

قوله: «بما يعرفون»: أي: بما يمكن أن يعرفوه وتبلغه عقولهم حتىٰ لا يُفتنوا، ولهذا جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه؛ قال: «إنك لن تُحدِّث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[2]، ولهذا كان من الحكمة في الدعوة ألا تباغت الناس بما لا يمكنهم إدراكه، بل تدعوهم رويدًا رويدًا حتىٰ تستقر عقولهم، وليس معنىٰ «بما يعرفون»؛ أي: بما يعرفونه من قبل؛ لأن الذي يعرفونه من قبل يكون التحديث به من تحصيل الحاصل.

قوله: «أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟!»: الاستفهام للإنكار؛ أي: أتريدون إذا حدثتم الناس بما لا يعرفون أن يكذب الله ورسوله، لأنك إذا قلت: قال الله وقال رسوله: كذا وكذا، قالوا: هذا كذب إذا كانت عقولهم لا تبلغه، وهم لا يكذبون الله ورسوله، ولكن يكذبونك بحديث تنسبه إلىٰ الله ورسوله؛ فيكونون مكذبين لله ورسوله، لا مباشرة ولكن بواسطة الناقل.

فإن قيل: هل ندع الحديث بما لا تبلغه عقول الناس وإن كانوا محتاجين لذلك؟

أجيب: لا ندعه، ولكن نحدثهم عن طريق تبلغه عقولهم، وذلك بأن ننقلهم رويدًا رويدًا حتىٰ يتقبلوا هذا الحديث ويطمئنوا إليه، ولا ندع ما لا تبلغه عقولهم ونقول: هذا شيء مستنكر لا نتكلم به.

ومثل ذلك العمل بالسنة التي لا يعتادها الناس ويستنكرونها؛ فإننا نعمل بها ولكن بعد أن نخبرهم بها؛ حتىٰ تقبلها نفوسهم ويطمئنوا إليها.

ويستفاد من هذا الأثر أهمية الحكمة في الدعوة إلىٰ الله ـ عز وجل ـ، وأنه يجب علىٰ الداعية أن ينظر في عقول المدعوين وينزل كل إنسان منزلته.

مناسبة هذا الأثر لباب الصفات:

مناسبته ظاهرة؛ لأن بعض الصفات لا تحتملها أفهام العامة فيمكن إذا حدثتهم بها كان لذلك أثر سيئ عليهم؛ كحديث النزول إلىٰ السماء الدنيا مع ثبوت العلو، فلو حَدَّثت العامي بأنه نفسه ينزل إلىٰ السماء

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٢١٠٥، ٥١٨١، ٥٩٦١).

(٢) رواه مسلم في مقدمته.

. . . .

. . . .

الدنيا مع علوه على عرشه؛ فقد يفهم أنه إذا نزل؛ صارت السماوات فوقه وصار العرش خاليًا منه، وحينئذٍ لابد في هذا من حديث تبلغه عقولهم فتبين لهم أن الله ـ عز وجل ـ ينزل نزولاً لا يماثل نزول المخلوقين مع علوه على عرشه، وأنه لكمال فضله ورحمته يقول: «من يدعوني فأستجيب له...». الحديث.

والعامي يكفيه أن يتصور مطلق المعنى، وأن المراد بذلك بيان فضل الله ـ عز وجل ـ في هذه الساعة من الليل.

قوله في أثر ابن عباس: «انتفض»: أي: اهتَزَّ جسمه، والرجل مُبهم، والصفة التي حُدِّث بها لم تُبَيَّن، وبيان ذلك ليس مهمًا، وهذا الرجل انتفض استنكاراً لهذه الصفة لا تعظيمًا لله، وهذا أمر عظيم صعب؛ لأن الواجب على المرء إذا صح عنده شيء عن الله ورسوله أن يقر به ويصدق ليكون طريقه طريق الراسخين في العلم حتى وإن لم يسمعه من قبل أو يتصوره.

قوله: «ما فرق»: فيها: ثلاث روايات:

١ ـ «فَرَقُ»؛ بفتح الراء، وضم القاف. ٢ ـ «فَرَّقَ»؛ بفتح الراء مشددة، وفتح القاف.

٣ ـ «فَرَقَ»؛ بفتح الراء مخففة، وفتح القاف.

فعلى رواية: «فَرَقُ» تكون «ما» استفهامية مبتدأ، و «فرق»: خبر المبتدأ؛ أي: ما خوف هؤلاء من إثبات الصفة التي تُليت عليهم وبلغتهم، لماذا لا يثبتونها لله ـ عز وجل ـ كما أثبتها الله لنفسه وأثبتها له رسوله؟ وهذا ينصَبُّ تمامًا على أهل التعطيل والتحريف الذين ينكرون الصفات، فما الذي يُخوفهم من إثباتها والله تعالى قد أثبتها لنفسه؟

وعلى رواية: «فَرَّقَ» أو «فَرَقَ» تكون فعلاً ماضيًا بمعنى ما فرقهم، كقوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ [الإسراء: ١٠٦]؛ أي: فرقناه، و «ما» يحتمل أن تكون نافية، والمعنى: ما فرق هؤلاء بين الحق والباطل، فجعلوا هذا من المتشابه وأنكروه ولم يحملوه على المحكم، ويحتمل أن تكون استفهامية والمعنى: أي شيء فرقهم فجعلهم يؤمنون بالمُحكَمِ ويهلكون عند المتشابه؟

قوله: «يجدون رقة عند محكمه»: الرقة: اللين والقبول، و «محكمه» أي: محكم القرآن.

قوله: «ويهلكون عند متشابهه»: أي: متشابه القرآن.

والمحكم الذي اتضح معناه وتبين، والمتشابه هو الذي يخفى معناه، فلا يعلمه الناس، وهذا إذا جمع بين المحكم والمتشابه، وأما إذا ذكر المحكم مفردًا دون المتشابه، فمعناه المتقن الذي ليس فيه خلل: لا كذب في أخباره، ولا جور في أحكامه، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقد ذكر الله الإحكام في القرآن دون المتشابه، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: ١].

وإذا ذكر المتشابه دون المحكم صار المعنى أنه يشبه بعضه بعضًا في جودته وكماله، ويصدق بعضه

. . . .

. . . .

بعضًا ولا يتناقض، قال تعالىٰ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، والتشابه نوعان: تشابه نسبي، وتشابه مطلق.

والفرق بينهما: أن المطلق يخفىٰ علىٰ كل أحد، والنسبي يخفىٰ علىٰ أحد دون أحد، وبناءً علىٰ هذا التقسيم ينبني الوقف علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]، فعلىٰ الوقف علىٰ: ﴿إِلاَّ اللَّهُ﴾ يكون المراد بالمتشابه المتشابه المطلق، وعلىٰ الوصل: ﴿إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ يكون المراد بالمتشابه المتشابه النسبي، وللسلف في ذلك قولان:

القول الأول: الوقف علىٰ ﴿إِلاَّ اللَّهُ﴾، وعليه أكثر السلف، وعلىٰ هذا فالمراد بالمتشابه المتشابه المطلق الذي لا يعلمه إلا الله، وذلك مثل كيفية وحقائق صفات الله، وحقائق ما أخبر الله به من نعيم الجنة وعذاب النار، قال الله تعالىٰ في نعيم الجنة: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، أي: لا تعلم حقائق ذلك، ولذلك قال ابن عباس: «ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء».

والقول الثاني: الوصل؛ فيقرأ: ﴿إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ وعلىٰ هذا فالمراد بالمتشابه النسبي، وهذا يعلمه الراسخون في العلم ويكون عند غيرهم متشابهًا، ولهذا يروىٰ عن ابن عباس أنه قال: «أنا من الراسخين في العلم الذي يعلمون تأويله» ولم يقل هذا مدحًا لنفسه أو ثناء عليها، ولكن ليعلم الناس أنه ليس في كتاب الله شيء لا يعرف معناه؛ فالقرآن معانيه كلها بينة، لكن بعض القرآن يشتبه علىٰ ناس دون آخرين حتىٰ العلماء الراسخون في العلم يختلفون في معنىٰ القرآن، وهذا يدل علىٰ أنه خفي علىٰ بعضهم، والصواب بلا شك مع أحدهم إذا كان اختلافهم اختلاف تضاد لا تنوع، أما إذا كانت الآية تحتمل المعنيين جميعًا بلا منافاة ولا مرجح لأحدهما؛ فإنها تحمل عليهما جميعًا.

وبعض أهل العلم يظنون أن في القرآن ما لا يمكن الوصول إلىٰ معناه؛ فيكون من المتشابه المطلق، ويحملون آيات الصفات علىٰ ذلك، وهذا من الخطأ العظيم؛ إذ ليس من المعقول أن يقول تعالىٰ: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، ثم تستثنىٰ آيات الصفات وهي أعظم وأشرف موضوعًا وأكثر من آيات الأحكام، ولو قلنا بهذا القول، لكان مقتضاه أن أشرف ما في القرآن موضوعًا يكون خفيًّا، ويكون معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾؛ أي: آيات الأحكام فقط، وهذا غير معقول، بل جميع القرآن يفهم معناه؛ إذ لا يمكن أن تكون هذه الأمة من رسول الله ﷺ إلىٰ آخرها لا تفهم معنىٰ القرآن، وعلىٰ رأيهم يكون الرسول ﷺ وأبو بكر وعمر وجميع الصحابة يقرءون آيات الصفات وهم لا يفهمون معناها، بل هي عندهم بمنزلة الحروف الهجائية أ، ب، ت. . . .

والصواب أنه ليس في القرآن شيء متشابه علىٰ جميع الناس من حيث المعنىٰ، ولكن الخطأ في الفهم. فقد يقصر الفهم عن إدراك المعنىٰ أو يفهمه علىٰ معنىٰ خطأ، وأما بالنسبة للحقائق، فما أخبر الله به من أمر الغيب، فمتشابهة علىٰ جميع الناس.

فيه مسائل:

الأولى: عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات.

الثانية: تفسير آية الرعد. الثالثة: ترك التحديث بما لا يفهم السامع.

الرابعة: ذكر العلة أنه يُفضي إلى تكذيب الله ورسوله، ولو لم يتعمد المنكر.

الخامسة: كلام ابن عباس لمن استنكر شيئًا من ذلك، وأنه أهلكه.

....

قوله: «ولما سمعت قريش رسول الله يذكر الرحمن»: أصل ذلك أن سهيل بن عمرو أحد الذين أرسلتهم قريش لمفاوضة النبي ﷺ في صلح الحديبية، وأمر النبي ﷺ أن يكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال: «أما الرحمن؛ فلا والله ما أدري ما هي، وقالوا: إننا لا نعرف رحمانًا إلا رحمن اليمامة. فأنكروا الاسم دون المسمى فأنزل الله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾؛ أي: بهذا الاسم من أسماء الله. وفي الآية دليل على أن من أنكر اسمًا من أسماء الله الثابتة في الكتاب أو السنة؛ فهو كافر لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾.

وقوله: «ولما سمعت قريش»: الظاهر-والله أعلم-أنه من باب العام الذي أريد به الخاص، وليس كل قريش تنكر ذلك، بل طائفة منهم، ولكن إذا أقرت الأمة الطائفة على ذلك ولم تنكر، صح أن ينسب لهم جميعًا، بل إن الله نسب إلى اليهود في زمن النبي ﷺ ما فعله أسلافهم في زمن موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]، وهذا لم يكن في عهد المخاطبين.

قوله: فيه مسائل:

الأولى: عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات: عدم بمعنى انتفاء؛ أي: انتفاء الإيمان بسبب جحد شيء من الأسماء والصفات، وسبق التفصيل في ذلك.

الثانية: تفسير آية الرعد: وهي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ وسبق تفسيرها.

الثالثة: ترك التحديث بما لا يفهم السامع: وهذا ليس على إطلاقه، وقد سبق التفصيل فيه عند شرح الأثر.

الرابعة: ذكر العلة أنه يفضي إلى تكذيب الله ورسوله ولو لم يتعمد المنكر: وهي أن الذي لا يبلغ عقله ما حدث به يفضي به التحديث إلى تكذيب الله ورسوله، فيكذب ويقول: هذا غير ممكن، وهذا يوجد من بعض الناس في أشياء كثيرة مما أخبر به النبي ﷺ مما يكون يوم القيامة، كما أخبر النبي ﷺ: «**إن الأرض يوم القيامة تكون خُبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته**»[1]، وما أشبه ذلك، وكما أن الصراط أحد من السيف وأدق من الشعرة وغير هذه الأمور، لو حدثنا بها إنسانًا عاميًا لأوشك أن ينكر، لكن يجب أن تُبيَّن له بالتدريج حتى يتمكن من عقلها مثل ما نُعلم الصبي شيئًا فشيئًا.

وقوله: «ولو لم يتعمد المنكر»: أي: ولو لم يقصد المُنكِر تكذيب الله ورسوله، ولكن كذب نسبة هذا الشيء إلى الله ورسوله، وهذا يعود بالتالي إلى رد خبر الله ورسوله.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٢٠)، ومسلم (٢٧٩٢).

٤٠ـ باب قول الله تعالى:

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ الآية [النحل: ٨٣].

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣].

وقال ابن جرير: **فإن أهل التأويل اختلفوا في المعنيّ بالنعمة. فذكر عن سفيان، عن السدي: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ قال: محمد ﷺ. وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنهم يعرفون أن ما عدّد الله تعالى ذكره في هذه السورة من النعم من عند الله، وأن الله هو المنعم عليهم بذلك، ولكنهم ينكرون ذلك، فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم.**

باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]

الواجب على الخلق إضافة النعم إلى الله قولاً واعترافًا كما تقدم وبذلك يتم التوحيد، فمن أنكر نعم الله بقلبه ولسانه فذلك كافر ليس معه من الدين شيء.

الخامسة: كلام ابن عباس لمن استنكر شيئًا من ذلك وأنه أهلكه: **وذلك قوله: «ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقة ـ أي لينًا ـ عند محكمه فيقبلونه ويهلكون عند متشابهه فينكرونه؟».**

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ﴾: **أي: يدركون بحواسهم أن النعمة من عند الله.**

قوله: ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ﴾: **واحدة والمراد بها الجمع، فهي ليست واحدة، بل هي لا تحصى، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والقاعدة الأصولية: أن المفرد المضاف يعم، والنعمة تكون بجلب المحبوبات، وتطلق أحيانًا على رفع المكروهات.**

قوله: ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾: **أي: ينكرون إضافتها إلى الله لكونهم يضيفونها إلى السبب متناسين المسبب الذي هو الله ـ سبحانه ـ، وليس المعنى أنهم ينكرون هذه النعمة، مثل أن يقولوا: ما جاءنا مطر أو ولد أو صحة، ولكن ينكرونها بإضافتها إلى غير الله، متناسين الذي خلق السبب فوُجد به المسبَّب.**

قوله: «الآية»: **أي: إلى آخر الآية، وهي منصوبة بفعل محذوف تقديره أكمل الآية.**

قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾: **أي: الذين كفروا بالله ـ عز وجل ـ.**

وقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ﴾ **بعد قوله** ﴿يعرفون﴾ **الجملة الأولى أضافها إلى الكل، والثانية أضافها إلى الأكثر، وذلك لأن منهم من هو عاميّ لا يعرف ولا يفهم، ولكن أكثرهم يعرفون ثم يكفرون.**

مناسبة هذا الباب للتوحيد:

أن من أضاف نعمة الخالق إلى غيره، فقد جعل معه شريكًا في الربوبية؛ لأنه أضافها إلى السبب على أنه فاعل، هذا من وجه، ومن وجه آخر: أنه لم يقم بالشكر الذي هو عبادة من العبادات، وترك الشكر مناف للتوحيد؛ لأن الواجب أن يشكر الخالق المنعم ـ سبحانه وتعالى ـ فصارت لها صلة بتوحيد الربوبية وبتوحيد العبادة؛ فمن حيث إضافتها إلى السبب على أنه فاعل هذا إخلال بتوحيد الربوبية، ومن حيث ترك القيام بالشكر الذي هو العبادة هذا إخلال بتوحيد الألوهية.

قوله: «قال مجاهد»: **هو إمام المفسرين في التابعين، عرض المصحف على ابن عباس رضي الله**

قـال مـجـاهـد ـ مـا معـنـاه ـ: هو قـول الرجل: هذا مـالي، ورثتـه عن آبائي.

قال مجاهد ـ ما معناه ـ: هو قول الرجل: هذا مالي، ورثته عن آبائي. وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان لم يكن كذا. وقال ابن قتيبة: يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا.

ذكر المصنف رحمه الله تعالى: ما ذكر بعض العلماء في معناها.

وأخرج، عن مجاهد: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾، قال: هي المساكن والأنعام وما يُرزقون منها، والسرابيل من الحديد والثياب. تعرف هذا كفار قريش ثم تنكره، بأن تقول: هذا كان لآبائنا فورثنا إياه. وقال آخرون: معنى ذلك أن الكفار إذا قيل لهم: من رزقكم؟ أقروا بأن الله هو الذي رزقهم، ثم ينكرون ذلك بقولهم: رزقنا ذلك بشفاعة آلهتنا.

عنهما يوقفه عند كل آية ويسأله عن تفسيرها، وقال سفيان الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. أي: كافيك، ومع هذا فليس معصومًا عن الخطأ.

قوله: «ما معناه»: أي: كلامًا معناه، وعلى هذا فـ «ما»: نكرة موصوفة، وفيه أن الشيخ رحمه الله لم ينقله بلفظه.

قوله: «هو قول الرجل»: هذا من باب التغليب والتشريف؛ لأن الرجل أشرف من المرأة وأحق بتوجيه الخطاب إليه منها، وإلا فالحكم واحد.

قوله: «هذا مالي ورثته عن آبائي»: ظاهر هذه الكلمة أنه لا شيء فيها، فلو قال لك واحد: من أين لك هذا البيت؟ قلت ورثته عن آبائي، فليس فيه شيء لأنه خبر محض. لكن مراد مجاهد أن يضيف القائل تملكه للمال إلى السبب الذي هو الإرث متناسيًا المسَبِّب الذي هو الله، فبتقدير الله ـ عز وجل ـ أنعم على آبائك وملكوا هذا البيت، وبشرع الله ـ عز وجل ـ انتقل هذا البيت إلى ملكك عن طريق الإرث، فكيف تتناسى المسبب للأسباب القدرية والشرعية فتضيف الأمر إلى ملك آبائك وإرثك إياه بعدهم؟! فمن هنا صار هذا القول نوعًا من كفر النعمة. أما إذا كان قصد الإنسان مجرد الخبر كما سبق، فلا شيء في ذلك، ولهذا ثبت أن النبي ﷺ قيل له يوم الفتح: «أتنزل في دارك غدًا؟ فقال: «وهل ترك لنا عقيل من دار أو رباع؟»[1] فبين ﷺ أن هذه الدور انتقلت إلى عقيل بالإرث. فتبين أن هناك فرقًا بين إضافة الملك إلى الإنسان على سبيل الخبر وبين إضافته إلى سببه متناسيًا المسبب وهو الله ـ عز وجل ـ.

قوله: «وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان لم يكن كذا»: وهذا القول من قائله فيه تفصيل إن أراد به الخبر وكان الخبر صدقًا مطابقًا للواقع، فهذا لا بأس به، وإن أراد بها السبب فلذلك ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون سببًا خفيًا لا تأثير له إطلاقًا، كأن يقول: لولا الولي الفلاني ما حصل كذا وكذا، فهذا شرك أكبر؛ لأنه يعتقد بهذا القول أن لهذا الولي تصرفًا في الكون مع أنه ميت، فهو تصرف سري خفي.

الثانية: أن يضيفه إلى سبب صحيح ثابت شرعًا أو حسًا، فهذا جائز بشرط أن لا يعتقد أن السبب

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٥٨، ٤٢٨٣)، ومسلم (١٣٥١)، وأبو داود (٢٠١٠، ٢٩١٠)، وابن ماجه (٢٧٣٠، ٢٩٤٢).

وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان لم يكن كذا.

وقال ابن قتيبة: يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا.

وذكر المصنف رحمه اللَّه مثل هذا عن ابن قُتيبة. وهو أبو محمد، عبد اللَّه ابن مُسلم بن قُتيبة الدِّينوري، قاضي مصر[١]، النحوي اللغوي، صاحب المصنفات البديعة المفيدة المحتوية على علوم جمة؛ اشتغل ببغداد، وسمع الحديث على إسحاق ابن راهَوْيه وطبقته. توفي سنة ستٍ وسبعين ومائتين.

وقال آخرون: ما ذكره المصنف، عن عون بن عبد اللَّه بن عتبة بن مسعود الهُذلي - أبو عبد اللَّه الكوفي الزاهد. [روى]: عن أبيه، وعائشة، وابن عباس. وعنه قتادة وأبو الزبير، والزهري. وثقه أحمد، وابن معين. قال البخاري: مات بعد العشرين ومائة - ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ قال: إنكارهم إياها: أن يقول الرجل: لولا فلان ما كان كذا وكذا، ولولا فلان ما أصبت كذا وكذا.

مؤثر بنفسه، وأن لا يتناسى المنعم بذلك.

الثالثة: أن يضيفه إلى سبب ظاهر، لكن لم يثبت كونه سببًا لا شرعًا ولا حسًّا، فهذا نوع من الشرك الأصغر، وذلك مثل: التولة، والقلائد التي يقال: إنها تمنع العين، وما أشبه ذلك؛ لأنه أثبت سببًا لم يجعله الله سببًا، فكان مشاركًا لله في إثبات الأسباب.

ويدل لهذا التفصيل أنه ثبت إضافة (لولا) إلى السبب وحده بقول النبي ﷺ في عمه أبي طالب: **«لولا أنا، لكان في الدرك الأسفل من النار»**[٢]، ولا شك أن النبي ﷺ أبعد الناس عن الشرك، وأخلص الناس توحيدًا لله تعالى، فأضاف النبي ﷺ الشيء إلى سببه، لكنه شرعي حقيقي؛ فإنه أذن له بالشفاعة لعمه بأن يخفف عنه، فكان في ضحضاح من النار، عليه نعلان يغلي منهما دماغه لا يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا؛ لأنه لو يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا هان عليه بالتسلي، كما قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يكون مثل أخي ولكن ... أسلي النفس عنه بالتأسي

وابن القيم - رحمه الله - وإن كان قول العالم ليس بحجة لكن يستأنس به - قال في القصيدة الميمية يمدح الصحابة:

أولئك أتباع النبي وحزبه ... ولولا همو ما كان في الأرض مسلم

ولولا همو كادت تميد بأهلها ... ولكن رواسيها وأوتادها هم

ولولا همو كانت ظلامًا بأهلها ... ولكن همو فيها بدور وأنجم

فأضاف (لولا) إلى سبب صحيح.

قوله: «**وقال ابن قتيبة: يقولون هذا بشفاعة آلهتنا**»: هؤلاء أخبث ممن سبقهم؛ لأنهم مشركون يعبدون غير الله، ثم يقولون: إن هذه النعم حصلت بشفاعة آلهتهم، فالعزى مثلاً شفعت عند الله

---

(١) لعله قاضي الدينور؛ فإنه لم يتول القضاء إلا فيها. (ق).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٨٨٣، ٦٢٠٨)، ومسلم (٢٠٩)، وأحمد (١٧٧١، ١٧٧٧).

وقال أبو العباس ـ بعد حديث زيد بن خـالد، الذي فيه: أن الله تعالى قال: «أصبح من عبادي مـؤمن بي وكافر»[1] الحديث. وقد تقدم. وهـذا كثير في الكتـاب والسنة، يذم سبـحانه من يُضـيفُ إنعـامَـه إلى غيـره ويُشـرك به.

واختـار ابن جرير القول الأول، واختـار غيـره أن الآية تعم ما ذكره العلماء في معناها. وهو الصواب. والله أعلم.

قوله: (قال مـجاهد): هو شيخ التفسير، الإمام الرباني، مجاهد بن جَبْر المكي، مولى بني مـخزوم، يقـول: عـرضتُ القرآن على ابن عبـاس ثلاث مرات، أوقـفه عند كل آية، وأسأله: فيم نزلت؟ وكيف معناها؟ توفي سنة اثنتين ومائة. وله ثلاث وثمانون سنة.

قال المصنف رحـمه الله تعالى: وقال أبو العـباس ـ بعد حديث زيد بن خـالد، الذي فيه: أن الله تعـالى قال: «أصبـح من عـبادي مـؤمن بي وكافـر» الحـديث، وقـد تقدم. وهذا كـثيـر في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يُضيفُ إنعامَه إلى غيره ويُشرك به.

قال بعض السلف: هو كـقولهم: كانت الريح طيِّـبة، والملاح حاذقًا، ونحـو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير.

أن ينزل المطر، قال فهؤلاء أثبتوا سببًا من أبطل الأسباب؛ لأن الله ـ عز وجل ـ لا يقبل شفاعة آلهتهم، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ [طه: ١٠٩]، والله ـ عز وجل ـ لا يأذن لهذه الأصنام بالشفاعة؛ فهذا أبطل من الذي قبله لأن فيه محذورين:

١ ـ الشرك بهذه الأصنام.

٢ ـ إثبات سبب غير صحيح.

قوله: «وقال أبو العباس»: هو شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية.

قوله: «وهذا كثير في الكتاب والسنة يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره...»: وذلك مثل الاستسقاء بالأنواء، وإنما كان هذا مذمومًا؛ لأنه لو أتى إليك عبد فلان بهدية من سيده فشكرت العبد دون السيد، كان هذا سوء أدب مع السيد وكفرانًا لنعمته، وأقبح من هذا لو أضفت النعمة إلى السبب دون الخالق؛ لما يأتي:

١ ـ أن ـ الخالق ـ لهذه الأسباب هو الله، فكان الواجب أن يشكر وتضاف النعمة إليه.

٢ ـ أن السبب قد لا يؤثر؛ كما ثبت في «صحيح مسلم» أنه ﷺ قال: «ليس السَّنَة أن لا تمطروا، بل السَّنَة أن تمطروا ثم لا تُنبت الأرض»[2].

٣ ـ أن السبب قد يكون له مانع يمنع من تأثيره، وبهذا عرف ضعف إضافة الشيء إلى سببه دون الالتفات إلى المسبب ـ جل وعلا ـ.

---

(١) صحيح: وقد تقدم تخريجه.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٠٤)، وأحمد (٨٤٨٨).

قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيِّبة، والملاح حاذقًا، ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير معرفة النعمة وإنكارها. الثانية: معرفة أن هذا جار على ألسنة كثير.

الثالثة: تسمية هذا الكلام إنكارًا للنعمة. الرابعة: اجتماع الضدين في القلب.

قوله: (وقال أبو العباس): هو شيخ الإسلام، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، الإمام الجليل.

قوله: (بعد حديث زيد بن خالد). قد تقدم في باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء.

قال: (وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به).

قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقًا. ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير). انتهى. وكلام شيخ الإسلام يدل على أن حكم هذه الآية عام فيمن نسب النِّعَم إلى غير الله الذي أنعم بها، وأسند أسبابها إلى غيره؛ كما هو مذكور في كلام المفسرين المذكور بعضه هنا.

ومن أقر بقلبه أن النعم كلها من الله وحده وهو بلسانه تارة يضيفها إلى الله، وتارة يضيفها إلى نفسه وعمله وإلى سعي غيره كما هو جار على ألسنة كثير من الناس، فهذا يجب على العبد أن يتوب منه، وأن لا يضيف النعم إلا إلى موليها وأن يجاهد نفسه على ذلك، ولا يتحقق الإيمان والتوحيد إلا بإضافة النعم إلى الله قولاً واعترافًا، فإن الشكر الذي هو رأس الإيمان مبني على ثلاثة أركان: اعتراف القلب بنعم الله كلها عليه وعلى غيره والتحدث بها والثناء على الله بها والاستعانة بها على طاعة المنعم وعبادته والله أعلم.

قوله: «كانت الريح طيبة»: هذا في السفن الشراعية التي تجري بالريح. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ [يونس: ٢٢]، فكانوا إذا طاب سير السفينة قالوا: كانت الريح طيبة، وكان الملاح ـ هو قائد السفينة ـ حاذقًا، أي: مجيدًا للقيادة.

فيضيفون الشيء إلى سببه وينسون الخالق ـ جل وعلا ـ.

فيه مسائل: الأولى: تفسير معرفة النعمة وإنكارها: وسبق ذلك.

الثانية: معرفة أن هذا جار على ألسنة كثيرة: وذلك مثل قول بعضهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقًا، وما أشبه ذلك.

الثالثة: تسمية هذا الكلام إنكارًا للنعمة: يعني: إنكارًا لتفضل الله تعالى بها وليس إنكارًا لوجودها؛ لأنهم يعرفونها ويحسون بوجودها.

الرابعة: اجتماع الضدين في القلب: وهذا من قوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣] فجمع بين المعرفة والإنكار، وهذا كما يجتمع في الشخص الواحد خصلة إيمان وخصلة كفر وخصلة فسوق وخصلة عدالة.

قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: لما ذكر سبحانه ما يقر به هؤلاء من أفعاله التي لم

٤١ـ باب قول الله تعالى:

﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢].

قال شيخنا رحمه اللّه تعالى: وفيه اجتماع الضدين في القلب، وتسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة.

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب قول الله تعالى: ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢].

الند: المثل والنظير. وجَعْلُ الند لله: هو صرف أنواع العبادة ـ أو شيء منها ـ لغير الله، كحال عَبَدة الأوثان الذين يعتقدون فيمن دعوه ورجوه أنه ينفعهم ويدفع عنهم، ويشفع لهم.

وهذه الآية في سياق قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

قال العماد ابن كثير في (تفسيره): قال أبو العالية: ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ أي: عُدلاء شركاء. وهكذا قال الربيع بن أنس، وقتادة، والسدي، وأبو مالك، وإسماعيل بن أبي خالد.

وقال ابن عباس: ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: لا تشركوا باللّه شيئًا من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره. وقد علمتم أن الذي يدعوكم الرسول إليه من توحيده هو الحق الذي لا شريك فيه. وكذلك قال قتادة.

وعن قتادة، ومجاهد: ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ قال: أكفاء من الرجال تُطيعونهم في معصية الله.

وقال ابنُ زيد: الأنداد: الآلهة التي جعلوها معه وجعلوا لها مثل ما جعلوا له.

وعن ابن عباس: ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ قال: أشباهًا.

يفعلها غيره: ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١ـ٢٢]، فكل من أقر بذلك لزمه أن لا يعبد إلا المقر له؛ لأنه لا يستحق العبادة من لا يفعل ذلك، ولا ينبغي أن يعبد إلا من فعل ذلك، ولذلك أتى بالفاء الدالة على التفريع والسبب، أي: فبسبب ذلك لا تجعلوا لله أندادًا.

و(لا) هذه ناهية، أي: فلا تجعلوا له أندادًا في العبادة، كما أنكم لم تجعلوا له أندادًا في الربوبية، وأيضًا لا تجعلوا له أندادًا في أسمائه وصفاته؛ لأنهم قد يصفون غير الله بأوصاف الله ـ عز وجل ـ؛ كاشتقاق العزى من العزيز، وتسميتهم رحمن اليمامة.

قوله: ﴿ أَندَادًا ﴾ : جمع ند، وهو الشبيه والنظير، والمراد هنا: أندادًا في العبادة.

قوله: ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ : الجملة في موضع نصب حال من فاعل ﴿ تَجْعَلُوا ﴾ أي: والحال أنكم تعلمون، والمعنى: وأنتم تعلمون أنه لا أنداد له ـ يعني: في الربوبية ـ؛ لأن هذا محط التقبيح من هؤلاء أنهم يجعلون له أندادًا وهم يعلمون أنه لا أنداد له في الربوبية، أما في الألوهية فيجعلون له أندادًا، قالوا للنبي

. . . .

وقال مُجاهد: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال: تعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل.

وذكر حديثًا في معنى هذه الآية الكريمة: وهو ما في (مسند الإمام أحمد)، عن الحارث الأشعري: أن نبي اللّه ﷺ قال: «إن الله أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات: أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وأنه كاد يُبطئ بها. فقال له عيسى عليه السلام: إنك قد أُمرت بخمس كلمات: أن تعمل بهن، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن. فإما أن تبلغهن، وإما أن أبلغهن، فقال: يا أخي، إني خشيت إن سبقتني أن أُعذب أو يُخسف بي. قال: فجمع يحيى بن زكريا بني إسرائيل في بيت المقدس، حتى امتلأ المسجد فقُعد على الشُرف. فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله أمرني بخمس كلمات: أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن:

أُولاهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، فإن مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذهب أو ورَق، فجعل يعمل ويؤدي غَلَّته إلى غير سيده، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم، فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا.

وآمركم بالصلاة، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت، فإذا صليتم فلا تلتفتوا.

وآمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك. وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

وآمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال لهم: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم؟ فجعل يفتدي نفسه بالقليل والكثير حتى فك نفسه.

وآمركم بذكر الله تعالى كثيرًا، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعًا في أثره، فأتى حصنًا حصينًا فتحصن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله».

قال: وقال رسول اللّه ﷺ: «وأنا آمركم بخمس، الله أمرني بهن: الجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله. فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثى[1] جهنم». قالوا: يا رسول اللّه وإن صلى وصام؟ فقال: «وإن صلى وصام،

ﷺ: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، ويقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك»، وهذا من سفههم؛ فإنه إذا صار مملوكًا، فكيف يكون شريكًا، ولهذا أنكر الله عليهم في قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ إذ الأنداد بالمعنى العام ـ بقطع النظر عن كونه يخاطب أقوامًا يقرون بالربوبية ـ يشمل الأنداد في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

قوله: «وقال ابن عباس في الآية»: أي: في تفسيرها.

قوله: «هو الشرك»: هذا تفسير بالمراد؛ لأن التفسير تفسيران:

١ ـ تفسير بالمراد، وهو المقصود بسياق الجملة بقطع النظر عن مفرداتها.

٢ ـ تفسير بالمعنى، وهو الذي يسمى تفسير الكلمات؛ فعندنا الآن وجهان للتفسير:

---

(١) الجثا: بضم الجيم وفتح الثاء المثلثة مقصورًا- جمع جثو بضم الجيم- وهو الشيء المجموع. قال ابن الأثير: وتروى هذه الكلمة (جثى) بضم الجيم وكسر الثاء وتشديد الياء جمع جاث: هو الذي يجلس على ركبتيه. (ق).

وقال ابن عباس، في الآية: الأنداد: هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظُلمة الليل. وهو أن تقول: والله وحياتُك يا فُلانة، وحياتي، وتقول: لولا كُليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البَطُّ في الدار لأتانا اللصوص. وقولُ الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها فلان. هذا كله به شرك. رواه ابن أبي حاتم.

وزعم أنه مسلم، فادعوا المسلمين بأسمائهم. بل بما سماهم الله عز وجل: المسلمين المؤمنين، عباد الله»[1] .

هذا حديث حسن، والشاهد منه في هذه الآية، قوله: «وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تُشركوا به شيئًا».

وهذه الآية دالة على توحيد اللّه تعالى بالعبادة، وحده لا شريك له.

وقد استدل بها كثير من المفسرين على وجود الصانع، وهي دالة على ذلك بطريق الأولى. والآيات في القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جداً.

وسُئل أبو نواس عن ذلك؟ فأنشد:

تأمل في نبات الأرض، وانظر ... إلى آثار ما صنع المليكُ
عيون من لجين فاترات ... بأحداق هي الذهب السبيكُ
على قُضُب الزبرجد شاهدات ... بأن اللّه ليس له شريكُ

وقال ابن المعتز:

فيا عجبا، كيف يُعصى الإلـ ... ـه أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقال ابن عباس، في الآية: الأنداد: هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظُلمة الليل. وهو أن تقول: والله وحياتُك يا فُلانة، وحياتي،

أحدهما: التفسير اللفظي وهو تفسير الكلمات، وهذا يقال فيه: معناه كذا وكذا.

والثاني: التفسير بالمراد، فيقال: المراد بكذا وكذا، والأخير هنا هو المراد. فإذا قلنا: الأنداد الأشباه والنظراء، فهو تفسير بالمعنى، وإذا قلنا: الأنداد الشركاء أو الشرك، فهو تفسير بالمراد، يقول رضي الله عنه: «الأنداد هو الشرك»، فإذاً الند الشريك المشارك لله ـ سبحانه وتعالى ـ فيما يختص به.

قوله: «دبيب»: أي: أثر دبيب النمل، وليس فعل النمل.

قوله: «على صفاة»: هي الصخرة الملساء.

قوله: «سوداء»: وليس على بيضاء؛ إذ لو كان على بيضاء، لبان أثر السير أكثر.

قوله: «في ظلمة الليل»: وهذا أبلغ ما يكون في الخفاء.

---

(١) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٣٦٩٤)، وصحيح الجامع (١٧٢٤).

....

ويقول: لولا كُليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البطّ في الدار لأتانا اللصوص. وقولُ الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها فلان. هذا كله به شرك. رواه ابن أبي حاتم. بيَّن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذا كله من الشرك، وهو الواقع اليوم على ألسن كثير ممن لا يعرف التوحيد ولا الشرك. فتنبه لهذه الأمور، فإنها من المنكر العظيم، الذي يجب النهي عنه والتغليظ فيه؛ لكونه أكبر من الكبائر.

وهذا من ابن عباس رضي الله عنهما تنبيه بالأدنى من الشرك على الأعلى.

فإذا كان الشرك في قلوب بني آدم أخفى من هذا، فنسأل الله أن يعين على التخلص منه، ولهذا قال بعض السلف: «ما عالجت نفسي معالجتها على الإخلاص»، ويروى عن النبي ﷺ أنه لما قال مثل هذا. قيل له: كيف نتخلص منه؟ قال: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم»[(١)].

قوله: «والله وحياتك»: فيها نوعان من الشرك:

الأول: الحلف بغير الله.

الثاني: الإشراك مع الله بقوله: والله وحياتك، فضمها إلى الله بالواو المقتضية للتسوية فيها نوع من الشرك، والقسم بغير الله إن اعتقد الحالف أن المقسم به بمنزلة الله في العظمة فهو شرك أكبر، وإلا فهو شرك أصغر.

قوله: «وحياتي»: فيه حلف بغير الله فهو شرك.

قوله: «لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص»: كليبة تصغير كلب، والكلب ينتفع به للصيد وحراسة الماشية والحرث.

وقوله: «لولا كليبة هذا» يكون فيه شرك إذا نظر إلى السبب دون المسبب، وهو الله -عز وجل-، أما الاعتماد على السبب الشرعي أو الحسي المعلوم، فقد تقدم أنه لا بأس به، وأن النبي ﷺ قال: «لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»[(٢)]، لكن قد يقع في قلب الإنسان إذا قال: لولا كذا لحصل كذا أو ما كان كذا، قد يقع في قلبه شيء من الشرك بالاعتماد على السبب بدون نظر إلى المسبب، وهو الله -عز وجل-.

قوله: «لولا البط في الدار لأتى اللصوص»: البط طائر معروف، وإذا دخل اللص البيت وفيه بط، فإنه يصرخ، فينتبه أهل البيت ثم يجتنبه اللصوص.

قوله: «وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت»: فيه شرك؛ لأنه أشرك غير الله مع الله بالواو، فإن اعتقد أنه يساوي الله -عز وجل- في التدبير والمشيئة، فهو شرك أكبر، وإن لم يعتقد ذلك واعتقد أن الله -سبحانه وتعالى- فوق كل شيء، فهو شرك أصغر، وكذلك قوله: «لولا الله وفلان».

---

(١) حسن: رواه أحمد (١٩١٠٩)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الترغيب والترهيب (٣٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٨٨٣، ٦٢٠٨)، ومسلم (٢٠٩)، وأحمد (١٧٧١، ١٧٧٧).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر، أو أشرك»(١). رواه الترمذي، وحسنه، وصححه الحاكم(٢).

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر، أو أشرك». رواه الترمذي، وحسنه، وصححه الحاكم.

قوله: «فقد كفر أو أشرك» يُحتمل أن يكون شكًا من الراوي. ويحتمل أن تكون أو بمعنى الواو، فيكون قد كفر أو أشرك. ويكون من الكفر الذي هو دون الكفر الأكبر، كما هو من الشرك الأصغر. وورد مثل هذا عن ابن مسعود بهذا اللفظ.

باب قول الله تعالى: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]

الترجمة السابقة على قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥] الآية، يقصد بها الشرك الأكبر بأن يجعل لله ندًا في العبادة والحب والخوف والرجاء وغيرها من العبادات.

وهذه الترجمة المراد بها الشرك الأصغر كالشرك في الألفاظ كالحلف بغير الله وكالتشريك بين الله وبين خلقه في الألفاظ كلولا الله وفلان وهذا بالله وبك وكإضافة الأشياء ووقوعها لغير الله كلولا الحارس لأتانا اللصوص، ولولا الدواء الفلاني لهلكت، ولولا حذق فلان في المكسب الفلاني لما حصل، فكل هذا ينافي التوحيد.

قوله: «هذا كله شرك»: المشار إليه ما سبق، وهو شرك أكبر أو أصغر حسب ما يكون في قلب الشخص من نوع هذا التشريك.

قوله: «وعن عمر»: صوابه عن ابن عمر، نبه عليه الشارح.

قوله في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «من حلف بغير الله»: «من»: شرطية، فتكون للعموم.

قوله: «أو أشرك»: شك من الراوي، والظاهر أن صواب الحديث «أشرك».

وقوله: «من حلف بغير الله»: يشمل كل محلوف به سوى الله، سواء بالكعبة أو الرسول ﷺ أو السماء أو غير ذلك، ولا يشمل الحلف بصفات الله؛ لأن الصفة تابعة للموصوف؛ وعلى هذا فيجوز أن تقول: وعزة الله لأفعلن كذا.

قوله: «بغير الله»: ليس المراد بغير هذا الاسم، بل المراد بغير المسمى بهذا الاسم، فإذا حلف بالله

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وابن حبان (٤٣٥٨)، وأحمد(٢/ ٦٩، ٨٦) وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٢٠٤).

(٢) وذلك لأن حقيقة اليمين والقصد منه: إنما هو تأكيد الحالف قوله بالقسم بالمحلوف به الذي يقدر أن ينتقم منه ويعاقبه إن كان كاذبًا. ولذلك ترى أكثر العامة يحلفون بالله كذبًا غير مبالين. فإذا استحلفوا بمن يعظمونه من الموتى والأولياء ويعتقدون له السر والتصرف تكعكعوا وصدقوا وإن كان في ذلك ذهاب بعض ما يحرصون عليه من منفعة، يضحون بها خوفًا من عقاب وانتقام وتصرف ذلك الولي فيهم. ويؤكدون اعتقادهم هذا بحكايات مكذوبة يذيعها سدنة هذه المعابد الوثنية لجر النفع المادي باعتقاد العامة في أوليائهم. فيحكون أن رجلاً سرق سمكة مملحة؛ وأكلها فاستحلفه المسروق منه بالله فأقسم ثلاث مرات بأنه لم يأخذها ولم يرها فلم يحصل له شيء. فاستحلفه بأحمد البدوي. فما كاد يلفظ الاسم حتى سبقت السمكة من بطنه ولفظها. وذلك منهم اعتقاد أن البدوي أغير وأعز وأقدر من الله الحي القيوم العزيز الحكيم. قبحهم الله وأخزاهم. (ق).

. . . .

. . . .

أو بالرحمن أو بالسميع، فهو حلف بالله.

والحلف: تأكيد الشيء بذكر مُعَظَّم بصيغة مخصوصة بالباء أو التاء أو الواو.

وحروف القسم ثلاثة: الباء، والتاء، والواو.

والباء: أعمها؛ لأنها تدخل على الظاهر والمضمر وعلى اسم الله وغيره، ويذكر معها فعل القسم ويحذف، فيذكر معها فعل القسم كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، ويحذف مثل قولك: بالله لأفعلن، وتدخل على المضمر مثل قولك: الله عظيم أحلف به لأفعلن، وعلى الظاهر كما في الآية وعلى غير لفظ الجلالة، مثل قولك: بالسميع لأفعلن، وأما الواو فإنه لا يذكر معها فعل القسم، ولا تدخل على الضمير، ويحلف بها مع كل اسم، وأما التاء فإنه لا يذكر معها فعل القسم وتختص بالله ورب، قال ابن مالك: «والتاء لله ورب».

والحلف بغير الله شرك أكبر إن اعتقد أن المحلوف به مساو لله تعالى في التعظيم والعظمة وإلا فهو شرك أصغر.

وهل يغفر الله الشرك الأصغر؟

قال بعض العلماء: إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ١١٦] أي: الشرك الأكبر: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ يعني: الشرك الأصغر والكبائر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: إن الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغرًا؛ لأن قوله: ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ مصدر مؤول، فهو نكرة في سياق النفي، فيعم الأصغر والأكبر، والتقدير: لا يغفر شركًا به أو إشراكًا به. وأما قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١]، وقوله: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١]، وقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١]، وما أشبه ذلك من المخلوقات التي أقسم الله بها، فالجواب عنه من وجهين:

الأول: أن هذا من فعل الله والله لا يُسأل عما يفعل، وله أن يقسم سبحانه بما شاء من خلقه، وهو سائل غير مسئول وحاكم غير محكوم عليه.

الثاني: أن قسم الله بهذه الآيات دليل على تعظيمها ورفع شأنها متضمنًا للثناء على الله ـ عز وجل ـ بما تقتضيه من الدلالة على عظمته.

وأما نحن فلا نقسم بغير الله أو صفاته؛ لأننا منهيون عن ذلك.

وأما ما ثبت في «صحيح مسلم» من قوله ﷺ: «**أفلح وأبيه إن صدق**»[2].

---

(١) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى فصل في كل من تاب من أي ذنب كان فإن الله يتوب عليه فقال رحمه الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾، وهذا في حق من لم يتب، فالشرك لا يغفره الله، وما دون الشرك أمره إلى الله إن شاء عاقب عليه، وإن شاء عفا عنه. ومن الشرك أن يدعو العبد غير الله، كمن يستغيث في المخاوف والأمراض والفاقات بالأموات، والغائبين. فيقول: يا سيدي الشيخ فلان، لشيخ ميت أو غائب، فيستغيث به، ويستوصيه، ويطلب منه ما يطلب من الله من النصر والعافية فإن هذا من الشرك الذي حرمه الله ورسوله باتفاق المسلمين. اهـ.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١١)، وأبو داود (٣٩١، ٣٢٥٢)، والدارمي (١٥٧٨).

....

....

فالجواب عنه من وجوه:

الأول: أن بعض العلماء أنكر هذه اللفظة، وقال: إنها لم تثبت في الحديث؛ لأنها مناقضة للتوحيد، وما كان كذلك، فلا تصح نسبته إلىٰ رسول الله ﷺ، فيكون باطلاً.

الثاني: أنها تصحيف من الرواة، والأصل: «أفلح والله إن صدق». وكانوا في السابق لا يشكلون الكلمات، و «أبيه» تشبه «الله» إذا حذفت النقط السفلىٰ.

الثالث: أن هذا مما يجري علىٰ الألسنة بغير قصد، وقد قال تعالىٰ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩]، وهذا لم ينو فلا يؤاخذ.

الرابع: أنه وقع من النبي ﷺ وهو أبعد الناس عن الشرك، فيكون من خصائصه، وأما غيره فهم منهيون عنه؛ لأنهم لا يساوون النبي ﷺ في الإخلاص والتوحيد.

الخامس: أنه علىٰ حذف مضاف، والتقدير: «أفلح ورب أبيه».

السادس: أن هذا منسوخ، وأن النهي هو الناقل من الأصل، وهذا أقرب الوجوه.

ولو قال قائل: نحن نقلب عليكم الأمر، ونقول: إن المنسوخ هو النهي؛ لأنهم لما كانوا حديثي عهد بشرك نهوا أن يشركوا به كما نهي الناس حين كانوا حديثي عهد بشرك عن زيارة القبور ثم أذن لهم فيها؟[١].

فالجواب عنه: إن هذا اليمين كان جاريًا علىٰ ألسنتهم، فتركوا حتىٰ استقر الإيمان في نفوسهم ثم نهوا عنه، ونظيره إقرارهم علىٰ شرب الخمر أولاً ثم أمروا باجتنابه. أما بالنسبة للوجه الأول فضعيف؛ لأن الحديث ثابت، وما دام يمكن حمله علىٰ وجه صحيح، فإنه لايجوز إنكاره.

وأما الوجه الثاني: فبعيد وإن أمكن؛ فلا يمكن في قوله ﷺ لما سئل: أي الصدقة أفضل؟ فقال: «أما وأبيك لتنبئنه»[٢].

وأما الوجه الثالث: فغير صحيح؛ لأن النهي وارد مع أنه كان يجري علىٰ ألسنتهم كما جرىٰ علىٰ لسان سعد فنهاه النبي ﷺ[٣]، ولو صح هذا لصح أن يقال لمن فعل شركًا اعتاده لا ينهىٰ؛ لأن هذا من عادته، وهذا باطل.

وأما الرابع: فدعوىٰ التخصيص تحتاج إلىٰ دليل، وإلا فالأصل التأسي به.

وأما الخامس: فضعيف؛ لأن الأصل عدم الحذف، ولأن الحذف هنا يستلزم فهمًا باطلاً، ولا يمكن أن يتكلم الرسول ﷺ بما يستلزم ذلك بدون بيان المراد، وعلىٰ هذا يكون أقربها الوجه السادس لأنه منسوخ، ولا نجزم بذلك لعدم العلم بالتاريخ، ولهذا قلنا أقربها والله أعلم، وإن كان النووي رحمه الله ارتضىٰ أن هذا مما يجري علىٰ اللسان بدون قصد، لكن هذا ضعيف لا يمكن القول به، ثم

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٧٧). (٢) صحيح: رواه مسلم (١٠٣٢)، وأحمد (٧١١٩).

(٣) ضعيف: رواه النسائي (٣٧٧٧)، وابن ماجه (٢٠٩٧)، وأحمد (١٥٩٣)، وضعفه العلامة الألباني رحمه الله في ضعيف سنن النسائي، وضعيف سنن ابن ماجه.

قال ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذبًا أحبُّ إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا[1].

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقال ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذبًا أحبُّ إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا.

ومن المعلوم أن الحلف باللّه كاذبًا من الكبائر، لكن الشرك أكبر من الكبائر وإن كان أصغر؛ كما تقدم بيان ذلك. فإذا كان هذا حال الشرك الأصغر، فكيف بالشرك الأكبر الموجب للخلود في النار؟ كدعوة غير اللّه والاستغاثة به، والرغبة إليه، وإنزال حوائجه به، كما هو حال الأكثر من هذه الأمة في هذه الأزمان وما قبلها: من تعظيم القبور، واتخاذها أوثانًا والبناء عليها، واتخاذها مساجد، وبناء المشاهد باسم الميت لعبادة مَن بُنيت باسمه، وتعظيمه، والإقبال عليه بالقلوب والأقوال والأعمال.

وقد عظُمت البلوىٰ بهذا الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، وتركوا ما دل عليه القرآن العظيم من النهي عن هذا الشرك وما يوصل إليه.

قال اللّه تعالىٰ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧].

رأيت بعضهم جزم بشذوذها لانفراد مسلم بها عن البخاري مع مخالفة راويها للثقات، فالله أعلم.

قوله: في أثر ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذبًا»: اللام: لام الابتداء، و «أن» مصدرية، فيكون قوله: «أن أحلف» مؤولاً بمصدر مبتدأ تقديره لحلفي بالله.

قوله: «أحب إليَّ»: خبر المبتدأ، ونظير ذلك في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤]

قوله: «كاذبًا»: حال من فاعل أحلف.

قوله: «أحب إليّ»: هذا من باب التفضيل الذي ليس فيه شيء من الجانبين، وهذا نادر في الكلام؛ لأن التفضيل في الأصل يكون فيه المعنىٰ ثابتًا في المفضل وفي المفضل عليه، وأحيانًا في المفضل دون المفضل عليه، وأحيانًا لا يوجد في الجانبين، فابن مسعود رضي الله عنه لا يحب لا هذا ولا هذا، ولكن الحلف بالله كاذبًا أهون عليه من الحلف بغيره صادقًا، فالحف كاذبًا بالله محرم من وجهين:

١ ـ أنه كذب، والكذب محرم لذاته.

٢ ـ أن هذا الكذب قُرن باليمين، واليمين تعظيم لله ـ عز وجل ـ فإذا كان علىٰ كذب صار فيه شيء من تنقص لله ـ عز و جل ـ حيث جعل اسمه مؤكدًا لأمر كذب، ولذلك كان الحلف بالله كاذبًا عند بعض أهل العلم من اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار.

وأما الحلف بغير الله صادقًا فهو محرم من وجه واحد وهو الشرك، لكن سيئة الشرك أعظم من

---

(١) ذكره ابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ٧٩)، وعبد الرزاق في مصنفه (٨/ ٧٦٩)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٨٣).

. . . .

كفرهم تعالىٰ بدعوتهم مَن كانوا يدعونه من دونه في الدار الدنيا؛ وقد قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۝٢٠ قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢٠، ٢١]

وهؤلاء المشركون عكسوا الأمر. فخالفوا ما بلغ به الأمة، وأخبر به عن نفسه ﷺ، فعاملوه بما نهاهم عنه:

من الشرك بالله، والتعلُّق علىٰ غير الله؛ حتىٰ قال قائلهم:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به	سواك عند حلول الحادث العَمم
إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي	فضلاً؛ وإلا فقل: يا زلة القدم
فإن من جودك الدنيا وضرتّها	ومن علومك علم اللوح والقلم

فانظر إلىٰ هذا الجهل العظيم، حيث اعتقد أنه لا نجاة له إلا بعياذه ولياذه بغير الله.

وانظر إلىٰ هذا الإطراء العظيم، الذي تجاوز الحد في الإطراء؛ الذي نهىٰ عنه ﷺ بقوله: «لا تُطروني كما أطرت النصارى ابنَ مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»[(١)] رواه مالك وغيره[(٢)].

وقد قال تعالىٰ: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]. فانظر إلىٰ هذه المعارضة العظيمة للكتاب والسنة، والمحادَّة للَّه ورسوله، وهذا الذي يقوله هذا الشاعر[(٣)] هو الذي في نفوس كثير، خصوصًا ممن يدَّعي العلم والمعرفة، ورأوا قراءة هذه المنظومة ونحوها لذلك وتعظيمها من القُربات، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون.

سيئة الكذب. وأعظم من سيئة الحلف بالله كاذبًا، وأعظم من اليمين الغموس إذا قلنا: إن الحلف بالله كاذبًا من اليمين الغموس؛ لأن الشرك لا يغفر.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ١١٦]، وما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب إلا لإبطال الشرك، فهو أعظم الذنوب، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وسئل النبي ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»[(٤)]، والشرك متضمن للكذب، فإن الذي جعل غير الله شريكًا لله كاذب، بل من أكذب الكاذبين؛ لأن الله لا شريك له.

---

(١) صحيح: وقد تقدم تخريجه.

(٢) رواه البخاري عن ابن عباس عن عمر في باب قول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦] من كتاب أحاديث الأنبياء وفي كتاب الحدود في باب رجم الحبلى في الزنا إذا أحصنت. قال الحافظ في الفتح (ج٦ص٣١٤) تقول: أطريت فلانًا. مدحته فأفرطت في مدحه. (ق).

(٣) هو البوصيري في قصيدته المشهورة بالبردة؛ التي هي عند الناس بمنزلة القرآن وربما عظمها بعضهم أكثر. فإنه يواظب على قراءتها أكثر مما يواظب على قراءة القرآن. (ق).

(٤) صحيح: وقد تقدم.

وعن حُذيفة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»[(١)] رواه أبو داود بسند صحيح.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن حُذيفة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان» رواه أبو داود بسند صحيح: وذلك لأن المعطوف بالواو يكون مساويًا للمعطوف عليه؛ لكونها إنما وضعت لمطلق الجمع فلا تقتضي ترتيبًا ولا تعقيبًا. وتسوية المخلوق بالخالق شرك، إن كان في الأصغر ـ مثل هذا ـ فهو أصغر، وإن كان في الأكبر فهو أكبر؛ كما قال تعالى عنهم في الدار الآخرة: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]. بخلاف المعطوف بـ: ثم. فإن المعطوف بها يكون متراخيًا عن المعطوف عليه بمُهلة. فلا محذور؛ لكونه صار تابعًا.

قوله في حديث حذيفة رضي الله عنه: «لا تقولوا»: «لا»: ناهية، ولهذا جُزم الفعل بعدها بحذف النون.

قوله: «ما شاء الله وشاء فلان»: والعلة في ذلك أن الواو تقتضي تسوية المعطوف بالمعطوف عليه، فيكون القائل: ما شاء الله وشئت مُسَوِّيًا مشيئة الله بمشيئة المخلوق، وهذا شرك، ثم إن اعتقد أن المخلوق أعظم من الخالق، أو أنه مساو له فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنه أقل فهو شرك أصغر.

قوله: «ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»: لما نهى عن اللفظ المحرم بين اللفظ المباح؛ لأن «ثم» للترتيب والتراخي، فتفيد أن المعطوف أقل مرتبة من المعطوف عليه.

أما بالنسبة لقوله: «ما شاء الله فشاء فلان»: فالحكم فيها أنها مرتبة بين مرتبة (الواو) ومرتبة (ثم)، فهي تختلف عن (ثم) بأن (ثم) للتراخي والفاء للتعقيب، وتوافق (ثم) بأنها للترتيب، فالظاهر أنها جائزة، ولكن التعبير بـ (ثم) أولى؛ لأنه اللفظ الذي أرشد إليه النبي ﷺ، ولأنه أبين في إظهار الفرق بين الخالق والمخلوق.

ويستفاد من هذا الحديث:

١ ـ إثبات المشيئة للعبد؛ لقوله: «ثم شاء فلان»، فيكون فيه رد على الجبرية حيث قالوا: إن العبد لا مشيئة له ولا اختيار.

٢ ـ أنه ينبغي لمن سد على الناس بابًا محرمًا أن يفتح لهم الباب المباح؛ لقوله: «ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]، لما نهاهم عن قول راعنا قال: ﴿وَقُولُوا انظُرْنَا﴾، وكذلك النبي ﷺ لما جيء له بتمر جيد وأخبره الآتي به أنه أخذ الصاع بالصاعين والصاعين بالثلاثة، قال: «لا تفعل، ولكن بع الجمع بالدراهم، ثم اشتر

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤٩٨٠)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧٤٠٦).

وعن إبراهيم النخعي: أنه يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك. ويجوز أن يقول: بالله ثم بك، قال: ويقول: لولا الله ثم فلان، ولا يقول: لولا الله وفلان.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن إبراهيم النخعي: أنه يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك. ويجوز أن يقول: بالله ثم بك، قال: ويقول: لولا الله ثم فلان، ولا يقول: لولا الله وفلان: قد تقدم الفرق بين ما يجوز وبين ما لا يجوز من ذلك. وهذا إنما هو في الحي الحاضر الذي له قدرة وسبب في الشيء، وهو الذي يجري في حقه مثل ذلك. وأما في حق الأموات الذين لا إحساس لهم بمن يدعوهم، ولا قدرة لهم على نفع ولا ضر.

فلا يُقال في حقهم شيء من ذلك؛ فلا يجوز التعلُّق عليه بشيء ما، بوجهٍ من الوجوه. والقرآن يبين ذلك، ويُنادي بأنه يجعلهم آلهةً إذا سُئلوا شيئًا من ذلك، أو رغب إليهم أحد بقوله أو عمله الباطن أو الظاهر. فمن تدبَّر القرآن ورُزق فهمه، صار على بصيرة من دينه. وبالله التوفيق.

والعلم لا يؤخذ قَسْرًا، وإنما يؤخذ بأسباب ذُكر بعضها في قوله:

أخي، لن تنال العلم إلا بستة ... سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء، وحرص، واجتهاد، وبلغة ... وإرشاد أستاذ، وطول زمان

وأعظم من هذه الستة: من رَزقه اللَّه تعالى الفهم والحفظ، وأتعب نفسه في تحصيله. فهو الموفَّق لمن شاء من عباده؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾[النساء: ١١٣].

ولقد أحسن العلامة ابن القيم رحمه اللَّه تعالى، حيثُ قال:

بالدراهم جنيبًا»[(١)] أي: تمرًا جيدًا. فأرشده إلى الطريق المباح حين نهاه عن الطريق المحرم.

وفي هذا الحديث فائدتان عظيمتان:

الأولى: بيان كمال الشريعة وشمولها، حيث لم تسد على الناس بابًا إلا فتحت لهم ما هو خير منه.

والثانية: التسهيل على الناس ورفع الحرج عنهم، فعامل الناس بهذا ما استطعت كلما سددت عليهم بابًا ممنوعًا، فافتح لهم من المباح ما يغني عنه ما استطعت إلى ذلك سبيلاً حتى لا يقعوا في الحرج.

قوله: «عن إبراهيم النخعي»: من فقهاء التابعين، لكنه قليل البضاعة في الحديث، كما ذكر ذلك حماد بن زيد.

قوله: «يكره أعوذ بالله وبك»: العياذ: الاعتصام بالمستعاذ به عن المكروه، واللياذ بالشخص: هو اللجوء إليه لطلب المحبوب، قال الشاعر:

يا من ألوذ به فيما أأمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ... ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

وهذان البيتان يخاطب بهما رجلاً، لكن كما قال بعضهم: هذا القول لا ينبغي أن يكون إلا لله.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٢٠٢، ٢٣٠٣، ٤٢٤٧)، ومسلم (١٥٩٣)، والنسائي (٤٥٥٣)، ومالك في موطئه (١٣١٤، ١٣١٥).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة في الأنداد.

الثانية: أنَّ الصحابة ﷺ يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنَّهَا تعم الأصغر.

والجهل داءٌ قاتل وشفاؤه — أمران في التركيب مُتفقان
نصٌّ من القرآن، أو من سنة — وطبيب ذاك العالم الرباني
والعلم أقسام ثلاث، ما لها — من رابع، والحق ذو تبيان
علم بأوصاف الإله وفعله — وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهي الذي هو دينه — وجزاؤه يوم المعاد الثاني
والكل في القرآن والسنن التي — جاءت عن المبعوث بالقرآن
والله ما قال امرؤ متحذلق — بسواهما إلا من الهذيان

والواجب أن تضاف الأمور ووقوعها ونفع الأسباب إلى إرادة الله، وإلى الله ابتداء ويذكر مع ذلك مرتبة السبب ونفعه فيقول لولا الله ثم كذا ليعلم أن الأسباب مربوطة بقضاء الله وقدره، فلا يتم توحيد العبد حتى لا يجعل لله ندًّا في قلبه وقوله وفعله.

وقوله: «أعوذ بالله وبك»: هذا محرم؛ لأنه جمع بين الله والمخلوق بحرف يقتضي التسوية وهو الواو. ويجوز بالله ثم بك؛ لأن «ثم» تدل على الترتيب والتراخي، فإن قيل: سبق أن من الشرك الاستعاذة بغير الله، وعلى هذا يكون قوله: أعوذ بالله ثم بك محرمًا.

أجيب: أن الاستعاذة بمن يقدر على أن يعيذك جائزة؛ لقوله ﷺ في «صحيح مسلم» وغيره: «من وجد ملجأ فليعذ به»[(١)]، لكن لو قال: أعوذ بالله ثم بفلان. وهو ميت فهذا شرك أكبر؛ لأنه لا يقدر على أن يعيذك، وأما استدلال الإمام أحمد على أن القرآن غير مخلوق بقوله ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»[(٢)]، ثم قال رحمه الله: والاستعاذة لا تكون بمخلوق، فيحمل كلامه على أن الاستعاذة بكلام لا تكون بكلام مخلوق، بل بكلام غير مخلوق، وهو كلام الله، والكلام تابع للمتكلم به، إن كان مخلوقًا فهو مخلوق، وإن كان غير مخلوق فهو غير مخلوق.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة في الأنداد: وقد سبق.

الثانية: أن الصحابة يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر: لأن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ نازلة في الأكبر؛ لأن المخاطَب بها هم المشركون، وابن عباس فسرها بما يقتضي الشرك الأصغر؛ لأن الند يشمل النظير المساوي على سبيل الإطلاق أو في بعض الأمور.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٠٢، ٧٠٨١، ٧٠٨٢)، ومسلم (٢٨٨٦)، وأحمد (٧٧٣٧، ٧٧٣٨).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠٨).

الثالثة: أنَّ الحلف بغير الله شرك.

الرابعة: أنَّه إذا حلف بغير الله صادقًا، فهو أكبر من اليمين الغموس.

الخامسة: الفرق بين الواو وثُمَّ في اللفظ.

. . . .

الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك: لحديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقًا، فهو أكبر من اليمين الغموس: واليمين الغموس عند الحنابلة أن يحلف بالله كاذبًا، وقال بعض العلماء ـ وهو الصحيح ـ: أن يحلف بالله كاذبًا ليقتطع بها مال امرئ مسلم.

الخامسة: الفرق بين الواو وثم في اللفظ: لأن الواو تقتضي المساواة، فتكون شركًا، وثم تقتضي الترتيب والتراخي، فلا تكون شركًا.

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

أن الاقتناع بالحلف بالله من تعظيم الله؛ لأن الحالف أكد ما حلف عليه بالتعظيم باليمين وهو تعظيم المحلوف به، فيكون من تعظيم المحلوف به أن يصدق ذلك الحالف، وعلى هذا يكون عدم الاقتناع بالحلف بالله فيه شيء من نقص تعظيم الله، وهذا ينافي كمال التوحيد، والاقتناع بالحلف بالله لا يخلو من أمرين:

الأول: أن يكون ذلك من الناحية الشرعية؛ فإنه يجب الرضا بالحلف بالله فيما إذا توجهت اليمين على المدعى عليه فحلف، فيجب الرضا بهذا اليمين بمقتضى الحكم الشرعي

الثاني: أن يكون ذلك من الناحية الحسية، فإن كان الحالف موضع صدق وثقة، فإنك ترضى بيمينه، وإن كان غير ذلك، فلك أن ترفض الرضا بيمينه، ولهذا لما قال النبي ﷺ لحويصة ومحيصة: «تبرئكم يهود بخمسين يمينًا». قالوا: كيف نرضى يا رسول الله بأيمان اليهود؟»[1]، فأقرهم النبي ﷺ على ذلك.

* * *

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣١٧٣، ٦١٤٢)، ومسلم (١٦٦٩).

٤٢ـ باب
ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم، من حلَف بالله فليصْدُق، ومن حُلف له بالله فليرضَ، ومن لم يرضَ فليس من الله»[1] رواه ابن ماجه بسند حسن.

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله.

عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم، من حلَف بالله فليصْدُق، ومن حُلف له بالله فليرضَ، ومن لم يرضَ فليس من الله» رواه ابن ماجه بسند حسن.

قوله: «لا تحلفوا بآبائكم» تقدم النهي عن الحلف بغير الله عموماً.

قوله: «من حلف بالله فليصدق» هذا مما أوجبه الله على عباده، وحضَّهم عليه في كتابه؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقال: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقال: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ [محمد: ٢١]. وهو حال أهل البر؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ

باب من لم يقنع في الحلف بالله

ويراد بهذا إذا توجهت اليمين على خصمك وهو معروف بالصدق أو ظاهره الخير والعدالة فإنه يتعين عليك الرضا والقناعة بيمينه، لأنه ليس عندك يقين يعارض صدقه وما كان عليه المسلمون من تعظيم ربهم وإجلاله يوجب عليك أن ترضى بالحلف بالله وكذلك لو بذلت له اليمين بالله فلم يرض إلا بالحلف بالطلاق أو دعاء الخصم على نفسه بالعقوبات، فهو داخل في الوعيد لأن ذلك سوء أدب وترك لتعظيم الله، واستدراك على حكم الله ورسوله.

قوله في الحديث: «لا تحلفوا»: «لا»: ناهية، ولهذا جُزم الفعل بعدها بحذف النون، و«آباؤكم»: جمع أب، ويشمل الأب والجد وإن علا، فلا يجوز الحلف بهم؛ لأنه شرك، وقد سبق بيانه.

قوله: «من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض»: هنا أمران:

الأمر الأول: للحالف: فقد أمر أن يكون صادقًا، والصدق: هو الإخبار بما يطابق الواقع، وضده الكذب، وهو: الإخبار بما يخالف الواقع، فقوله: **«من حلف بالله فليصدق»** أي: فليكن صادقًا في يمينه، وهل يشترط أن يكون مطابقًا للواقع أو يكفي الظن؟

الجواب: يكفي الظن، فله أن يحلف على ما يغلب على ظنه، كقول الرجل للنبي ﷺ: والله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر مني، فأقره النبي ﷺ.

الثاني: للمحلوف له: فقد أمر أن يرضى بيمين الحالف له. فإذا قرنت هذين الأمرين بعضهما ببعض، فإن الأمر الثاني ينزل على ما إذا كان الحالف صادقًا؛ لأن الحديث جمع أمرين: أمرًا موجهًا للحالف، وأمرًا موجهًا للمحلوف له، فإذا كان الحالف صادقًا وجب على المحلوف له الرضا. فإن قيل: إن كان صادقًا فإننا نصدقه وإن لم يحلف؟ أجيب: أن اليمين تزيده توكيداً.

---

(١) حسن: رواه ابن ماجه (٢١٠١)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧٢٤٧).

. . . .

أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقوله: «من حُلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله»، أما إذا لم يكن له بحكم الشريعة على خصمه إلا اليمين فأحلَفَه، فلا ريب أنه يجب عليه الرضا. وأما إذا كان فيما يجري بين الناس، مما قد يقع في الاعتذارات من بعضهم لبعض ونحو ذلك. فهذا من حق المسلم على المسلم: أن يقبل منه إذا حلف له معتذراً، أو متبرئًا من تُهمة. ومن حقه عليه: أن يُحسن به الظن إذا لم يتبين خلافُه؛ كما في الأثر عن عمر: ولا تظُنَّنْ بكلمةٍ خرجت من أخيك شرًا وأنت تجدُ لها من الخير محملاً. وفيه: من التواضع والأُلفة والمحبة، وغير ذلك من المصالح التي يحبها اللّه ما لا يخفى على من له فهم؛ وذلك من أسباب اجتماع القلوب على طاعة الله. ثم إنه يدخل في حُسن الخُلق الذي هو أثقل ما يوضع في ميزان العبد؛ كما في الحديث[(١)(٢)] وهو من مكارم الأخلاق.

فتأمل أيها الناصح لنفسه ما يصلحك مع اللّه تعالى: من القيام بحقوقه وحقوق عباده، وإدخال السرور على المسلمين، وترك الانقباض عنهم والترفع عليهم؛ فإن فيه من الضرر ما لا يخطر بالبال ولا يدور بالخيال. وبسط هذه الأمور وذكر ما ورد فيها مذكور في كتب الأدب وغيرها. فمن رُزق ذلك، والعمل بما ينبغي العمل به منه، وترك ما يجب تركه من ذلك: دل على وفور دينه، وكمال عقله، واللّه الموفق والمُعين لعبده الضعيف المسكين. واللّه أعلم.

قوله: «ومن لم يرض فليس من الله»: أي: من لم يرض بالحلف بالله إذا حلف له، فليس من الله، وهذا تبرؤ منه يدل على أن عدم الرضا من كبائر الذنوب، ولكن لابد من ملاحظة ما سبق، وقد أشرنا أن في حديث القسامة دليلاً على أنه إذا كان الحالف غير ثقة، فلك أن ترفض الرضا به؛ لأنه غير ثقة، فلو أن أحدًا حلف لك، وقال: والله إن هذه الحقيبة من خشب. وهي من جلد، فيجوز أن لا ترضى به؛ لأنك قاطع بكذبه، والشرع لا يأمر بشيء يخالف الحس والواقع، بل لا يأمر إلا بشيء يستحسنه العقل ويشهد له بالصحة والحسن، وإن كان العقل لا يدرك أحيانًا مدى حسن هذا الشيء الذي أمر به الشرع، ولكن ليعلم علم اليقين أن الشرع لا يأمر إلا بما هو حسن؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، فإذا اشتبه عليك حسن شيء من أحكام الشرع، فاتهم نفسك بالقصور أو بالتقصير، أما أن تتهم الشرع، فهذا لا يمكن، وما صح عن الله ورسوله، فهو حق وهو أحسن الأحكام.

---

(١) رواه الترمذي-وقال: حسن صحيح - وابن حبان، عن أبي الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء» ورواه أبو داود مختصراً.(ق).

(٢) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٨٧٦)، والإرواء (٩٤١).

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الحلف بالآباء.

الثانية: الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى.

الثالثة: وعيد من لم يرض.

....

وأما من عرف منه الفجور والكذب وحلف على ما تيقن كذبه فيه فإنه لا يدخل تكذيبه في الوعيد للعلم بكذبه، وأنه ليس في قلبه من تعظيم الله ما يطمئن الناس إلى يمينه، فتعين إخراج هذا النوع من الوعيد لأن حالته متيقنة والله أعلم.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الحلف بالآباء: لقوله: «لا تحلفوا بآبائكم» والنهي للتحريم.

الثانية: الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى: لقوله: «ومن حلف له بالله فليرض» وسبق التفصيل في ذلك.

الثالثة: وعيد من لم يرض: لقوله: «ومن لم يرض فليس من الله».

الرابعة: ولم يذكرها المؤلف: أمر الحالف أن يصدق لأن الصدق واجب في غير اليمين، فكيف باليمين؟! وقد سبق أن من حلف على يمين كاذبة أنه آثم، وقال بعض العلماء: إنها اليمين الغموس. وأما بالنسبة للمحلوف له، فهل يلزمه أن يُصَدِّق أم لا؟

المسألة لا تخلو من أحوال خمس:

الأولى: أن يعلم كذبه، فلا أحد يقول: إنه يلزمه تصديقه.

الثانية: أن يترجح كذبه، فكذلك لا يلزم تصديقه.

الثالثة: أن يتساوى الأمران، فهذا يجب تصديقه.

الرابعة: أن يترجح صدقه، فيجب أن يصدق.

الخامسة: أن يعلم صدقه، فيجب أن يصدقه.

وهذا في الأمور الحسية، أما الأمور الشرعية في باب التحاكم، فيجب أن يرضى باليمين ويلتزم بمقتضاها؛ لأن هذا من باب الرضا بالحكم الشرعي، وهو واجب.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن قوله: (ما شاء الله وشئت) من الشرك الأكبر أو الأصغر؛ لأنه إن اعتقد أن المعطوف مساو لله، فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنه دونه لكن أشرك به في اللفظ فهو أصغر، وقد ذكر بعض أهل العلم: أن من جملة ضوابط الشرك الأصغر أن ما كان وسيلة للأكبر فهو أصغر.

❊ ❊ ❊

٤٣- باب قول: ما شاء الله وشئت

عن قُتَيلة: أن يهوديًا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تُشركون؛ تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: وربِّ الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت[1]. رواه النسائي وصححه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب قول: ما شاء الله وشئت، عن قُتَيلة: أن يهوديًا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تُشركون؛ تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: وربِّ الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت. رواه النسائي وصححه.

قوله: (عن قُتيلة). -بمثناة مصغَّرة- بنت صيفي الأنصارية، صحابية مهاجرة، لها حديث في (سنن النسائي)، وهو المذكور في الباب. ورواه عنها عبد الله بن يسار الجُعفي. وفيه: قبول الحق ممن جاء به كائنًا من كان. وفيه: بيان النهي عن الحلف بالكعبة، مع أنها بيتُ الله التي حجُّها وقصدها بالحج والعمرة فريضة. وهذا يبين أن النهي عن الشرك بالله عام، لا يصلح منه شيء لا لملك مقرَّب ولا لنبي مرسل، ولا للكعبة التي هي بيت الله في أرضه. وأنت ترىٰ ما وقع من الناس اليوم، من الحلف بالكعبة وسؤالها ما لا يقدر عليه إلا الله. ومن المعلوم أن الكعبة لا تضر ولا تنفع، وإنما شرع الله لعباده الطواف بها والعبادة عندها، وجعلها للأمة قبلة. فالطواف بها مشروع، والحلف بها ودعاؤها ممنوع. فَمَيِّز أيها المكلف بين ما يُشرع وما يمنع، وإن خالفك من خالفك من جهلة الناس الذين هم كالأنعام، بل هم أضلُّ سبيلاً.

قوله: (إنكم تُشركون؛ تقولون ما شاء الله وشئت)، والعبد وإن كان له مشيئة فمشيئته تابعة لمشيئة الله، ولا قدرة له علىٰ أن يشاء شيئًا إلا إذا كان الله قد شاءه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝٢٩ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٢٩، ٣٠]. وفي هذه الآيات والحديث: الردُّ علىٰ القدرية والمعتزلة نفاة القدر، الذين يُثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أراد الله تعالىٰ من العبد وشاءه.

باب قول ما شاء الله وشئت

(قول: ما شاء الله وشئت): هذه الترجمة داخلة في الترجمة السابقة ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢].

قوله: «أن يهوديًا»: اليهودي: هو المنتسب إلىٰ شريعة موسىٰ عليه السلام، وسموا بذلك من قوله تعالىٰ: ﴿إنا هدنا إليك﴾ أي: رجعنا، أو لأن جدهم اسمه يهوذا بن يعقوب، فتكون النسبة من أجل النسب، وفي الأول تكون النسبة من أجل العمل، ولا يبعد أن تكون من الاثنين جميعًا.

قوله: «إنكم تشركون»: أي: تقعون في الشرك أيها المسلمون.

قوله: «ما شاء الله وشئت»: الشرك هنا أنه جعل المعطوف مساويًا للمعطوف عليه، هو الله -عز وجل- حيث كان العطف بالواو المفيدة للتسوية.

---

(١) صحيح: رواه النسائي (٣٧٧٣)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٢١٤).

وله أيضًا، عن ابن عباس[١]: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، قال: «أجعلتني لله ندًا، بل ما شاء الله وحده»[٢].

وسيأتي ما يُبطل قولهم - في باب ما جاء في مُنكري القَدَر - إن شاء الله - وأنهم مجوس هذه الأمة.

وأما أهل السنة والجماعة فتمسكوا بالكتاب والسنة في هذا الباب وغيره، واعتقدوا أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة اللّه في كل شيء، مما يوافق ما شرعه اللّه وما يخالفه: من أفعال العباد وأقوالهم. فالكلُّ بمشيئته وإرادته، فما وافق شرعه رضيه وأحبه، وما خالفه كرهه من العبد؛ كما قال تعالىٰ: ﴿**إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ**﴾ [الزمر: ٧]. وفيه: بيان أن الحلف بالكعبة شرك؛ فإن النبي ﷺ أقر اليهودي علىٰ قوله: إنكم تشركون.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وله أيضًا، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، قال: «أجعلتني للّه ندًا، بل ما شاء الله وحده».

قوله: «والكعبة»: الشرك هنا أنه حلف بغير الله، ولم ينكر النبي ﷺ ما قال اليهودي، بل أمر بتصحيح هذا الكلام، فأمرهم إذا حلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، فيكون القسم بالله.

وأمرهم أن يقولوا: ما شاء الله، ثم شئت، فيكون الترتيب بثم بين مشيئة الله ومشيئة المخلوق، وبذلك يكون الترتيب صحيحًا، أما الأول فلأن الحلف صار بالله، وأما الثاني فلأنه جعل بلفظ يتبين به تأخر مشيئة العبد عن مشيئة الله، وأنه لا مساواة بينهما.

ويستفاد من الحديث:

١ - أن النبي ﷺ لم ينكر علىٰ اليهودي - مع أن ظاهر قصده الذم واللوم للنبي ﷺ وأصحابه -؛ لأن ما قاله حق.

٢ - مشروعية الرجوع إلىٰ الحق وإن كان من نبه عليه ليس من أهل الحق.

٣ - أنه ينبغي أن يغير الشيء إلىٰ شيء قريب منه؛ لأن النبي ﷺ أمرهم أن يقولوا: **«ورب الكعبة»**، ولم يقل: احلفوا بالله، وأمرهم أن يقولوا: **«ما شاء الله، ثم شئت»**.

إشكال وجوابه: وهو أن يقال: كيف لم ينبه علىٰ هذا العمل إلا هذا اليهودي؟

وجوابه: أنه يمكن أن الرسول ﷺ لم يسمعه ولم يعلم به.

ولكن يقال: بأن الله يعلم، فكيف يقرهم؟

فيبقىٰ الإشكال، لكن يجاب: إن هذا من الشرك الأصغر دون الأكبر، فتكون الحكمة هي ابتلاء هؤلاء اليهود الذين انتقدوا المسلمين بهذه اللفظة مع أنهم يشركون شركًا أكبر ولا يرون عيبهم.

---

(١) قال ابن كثير: (ج١ص١٠٤) وقال سفيان بن سعيد الثوري عن الأجلح -عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس- وساقه. رواه ابن مردويه وأخرجه النسائي وابن ماجه من حديث عيسى بن يونس عن الأجلح عنه. وهذا كله صيانة وحماية لجناب التوحيد. والله أعلم. (ق).

(٢) صحيح: رواه النسائي في الكبرى (٦/ ٢٤٥)، وأحمد (١/ ٢١٤).

ولابن ماجه [1]: عن الطُّفيل ـ أخي عائشة لأُمِّها ـ قال: رأيت كأني أتيت على نفر من

هذا يُقرِّر ما تقدَّم: من أن هذا شرك؛ لوجود التسوية في العطف بالواو.

وقوله: «أجعلتني لله ندًا؟» فيه: بيان أن من سوَّىٰ العبد باللَّه ولو في الشرك الأصغر فقد جعله ندًا لله، شاء أم أبىٰ. خلافًا لما يقوله الجاهلون بما يختص باللَّه تعالىٰ من عبادته، وما يجب النهي عنه من الشرك بنوعيه. ومن يُرد اللَّه به خيرًا يفقهه في الدين.

قال المصنف رحمه الله تعالى: ولابن ماجه: عن الطُّفيل ـ أخي عائشة لأُمِّها ـ قال: رأيت

قوله في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رجلاً قال للنبي ﷺ»: الظاهر أنه قاله للنبي ﷺ تعظيمًا، وأنه جعل الأمر مفوضًا لمشيئة الله ومشيئة رسوله.

قوله: «أجعلتني لله ندًا؟!»: الاستفهام للإنكار، وقد ضمن معنىٰ التعجب، ومن جعل للخالق ندًا فقد أتىٰ شيئًا عجابًا.

والند: هو النظير والمساوي، أي: أجعلتني لله مساويًا في هذا الأمر؟!

قوله: «بل ما شاء الله وحده»: أرشده النبي ﷺ إلىٰ ما يقطع عنه الشرك، ولم يرشده إلىٰ أن يقول ما شاء الله ثم شئت حتىٰ يقطع عنه كل ذريعة عن الشرك وإن بعدت.

يستفاد من الحديث:

١ ـ أن تعظيم النبي ﷺ بلفظ يقتضي مساواته للخالق شرك، فإن كان يعتقد المساواة فهو شرك أكبر، وإن كان يعتقد أنه دون ذلك فهو أصغر، وإذا كان هذا شركًا فكيف بمن يجعل حق الخالق للرسول ﷺ؟! هذا أعظم؛ لأنه ﷺ ليس له شيء من خصائص الربوبية، بل يلبس الدرع، ويحمل السلاح، ويجوع، ويتألم، ويمرض، ويعطش كبقية الناس، ولكن الله فضَّله علىٰ البشر بما أوحىٰ إليه من هذا الشرع العظيم، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فهو بشر، وأكد هذه البشرية بقوله: ﴿مِّثْلُكُمْ﴾، ثم جاء التمييز بينه وبين بقية البشر بقوله تعالىٰ: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، ولا شك أن الله أعطاه من الأخلاق الفاضلة التي بها الكمالات من كل وجه: أعطاه من الصبر العظيم، وأعطاه من الكرم ومن الجود، لكنها كلها في حدود البشرية، أما أن تصل إلىٰ خصائص الربوبية، فهذا أمر لا يمكن، ومن ادعىٰ ذلك فقد كفر بمحمد ﷺ وكفر بمن أرسله. فالمهم أننا لا نغلو في الرسول عليه الصلاة والسلام فننزله في منزلة هو ينكرها، ولا نهضم حقه الذي يجب علينا فنعطيه ما يجب له، ونسأل الله أن يعيننا علىٰ القيام بحقه، ولكننا لا ننزله منزلة الرب ـ عز وجل ـ.

٢ ـ إنكار المنكر وإن كان في أمر يتعلق بالمنكر؛ لقوله ﷺ: «**أجعلتني لله ندًا؟!**» مع أنه فعل ذلك تعظيمًا للنبي ﷺ وعلىٰ هذا إذا انحنىٰ لك شخص عند السلام، فالواجب عليك الإنكار.

---

(١) قال ابن كثير في التفسير: (ج١ص١٠٤) وقال حماد بن سلمة: حدثنا عبد الملك بن عمير عن ربعي بن حراش عن الطفيل بن سخبرة أخي عائشة لأمها -وساقه- ثم قال: هكذا رواه ابن مردويه في تفسير الآية. وأخرجه ابن ماجه من وجه آخر عن عبد الملك بن عمير به بنحوه. (ق).

اليهـود، قلتُ: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكـم تقولون: عُزيرٌ ابن اللـه. قالوا: وأنتم لأنتم القـوم، لولا أنكم تقولون: مـا شـاء الله وشاء مـحمـد. ثم مررتُ بنفـر من النصـارى، فقلتُ: إنكم لأنتم القـوم، لولا أنكم تقـولون: المسيح ابن الله. قـالوا: وأنتم لأنتم القوم، لولا أنكم تقـولون: ما شاء الله وشاء مـحمد. فلما أصبحت، أخبـرتُ بها من أخبـرت. ثم أتيتُ النبي ﷺ فأخـبرته، فقـال: «هل أخبـرتَ بها أحدًا؟» قلتُ: نعم. قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بهـا من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمةً كان يمنعني كـذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقـولوا: ما شاء الله وشاء مـحمد، ولكن قولوا: مـا شاء الله وحده»(١).

كأني أتيت على نفر من اليهود، قلتُ: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: عُزيرٌ ابن الله. قالوا: وأنتم لأنتم القوم، لولا أنـكم تقولون: ما شـاء الله وشاء محـمد. ثم مررتُ بنفـر من النصارى، فقلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله. قالوا: وأنتم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شـاء الله وشاء محمد. فلمـا أصبحت، أخبرتُ بهـا من أخبرت. ثم أتيتُ النبي ﷺ فأخبـرته، فقال: «هل أخبرتَ بها أحـدًا؟» قلتُ: نعم. قال: فحمد الله وأثنى عليـه، ثم قال: «أما بعد، فإن طفـيلاً رأى رؤيا أخبر بها مـن أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمةً كـان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده».

قوله: (عن الطفيل أخي عـائشة لأمها): هو الطُّفَيل بن عبد اللَّه بن سَخْبرة، أخو عائشة لأمها، صحابي له حديث عند ابن مـاجه، وهو ما ذكره المصنف في الباب. وهذه الرؤيا حق، أقرَّها رسول اللَّه ﷺ وعمل بمقتضاها، فنهاهم أن يقولوا: مـا شاء اللَّه وشاء محمد، وأمرهم أن يقولوا: مـا شاء اللَّه وحده. وهذا الحديث والذي قبله: أمرَهم فيه أن يقولوا: ما شاء اللَّه وحده؛ ولا ريب أن هذا أكمل في

---

٣ ـ أن من حسن الدعوة إلىٰ الله ـ عز وجل ـ أن تذكر ما يباح إذا ذكرت مـا يحرم؛ لأنه ﷺ لما منعه من قول: «ما شاء الله وشئت» أرشده إلىٰ الجائز، وهو قوله: «بل ما شاء الله وحده».

قوله في حديث الطفيل: «رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود»: أي: رؤيا في المنام.

وقوله: «كأن»: اسمها الياء، وجملة «أتيت» خبرها.

وقوله: «على نفر»: من الثلاثة إلىٰ التسعة، واليهود أتباع موسىٰ.

قوله: «لأنتم القوم»: كلمة مدح، كقولك: هؤلاء هم الرجال.

وقوله: «عزير هو»: رجل صالح ادعىٰ اليهود أنه ابن الله، وهذا من كـذبهم، وهو كفر صريح، واليهود لهم مثالب كثيرة، لكن خصت هذه؛ لأنها من أعظمها وأشهرها عندهم.

قوله: «ما شاء الله وشاء محمد»: هذا شرك أصغر؛ لأن الصحابة الذين قالوا هذا ولا شك أنهم

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٧٢)، والطبراني في الكبير (٨/ ٣٢٤).

. . . .

الإخلاص وأبعد عن الشرك، من أن يقولوا: ثم شاء فلان؛ لأن فيه التصريح بالتوحيد، المنافي للتنديد من كل وجه. فالبصير يختار لنفسه أعلىٰ مراتب الكمال في مقام التوحيد والإخلاص.

وقوله: «كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها»: ورد في بعض الطُرق: أنه كان يمنعه الحياء منهم[1]. وبعد هذا الحديث الذي حدَّثه به الطفيل عن رؤياه، خطبهم ﷺ فنهىٰ عن ذلك نهيًا بليغًا.

فمازال ﷺ يبلغهم حتىٰ أكمل اللّه له الدين وأتم له به النعمة، وبلغ البلاغ المبين، صلوات اللّه وسلامه عليه وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

لا يعتقدون أن مشيئة الرسول ﷺ مساوية لمشيئة الله، فانتقدوا عليهم تسوية مشيئة الرسول ﷺ بمشيئة الله - عز وجل - باللفظ مع عظم ما قاله هؤلاء اليهود في حق الله - جل وعلا -.

قوله: «تقولون: المسيح ابن الله»: هو عيسىٰ ابن مريم، وسمي مسيحًا بمعنىٰ ماسح، فهو فعيل بمعنىٰ فاعل؛ لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا بريء بإذن الله؛ كالأكمه والأبرص. والشيطان لعب بالنصارىٰ، فقالوا: هو ابن الله؛ لأنه أتىٰ بدون أب ولا سيما إذا كان في الإنجيل؛ كما في القرآن: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] قالوا: هو جزء من الله؛ لأن الله أضافه إليه، والجزء هو الابن. والروح علىٰ الراجح عند أهل السنة: ذات لطيفة تدخل الجسم وتحل فيه كما يحل الماء في الطين اليابس، ولهذا يقبضها الملك عند الموت وتكفن ويصعد بها ويراها الإنسان عند موته، فالصحيح أنها ذات وإن كان بعض الناس يقول: إنها صفة، ولكنه ليس كذلك، والحياة صحيح أنها صفة لكن الروح ذات، إذًا نقول لهؤلاء النصارىٰ: إن الله أضاف روح عيسىٰ إليه كما أضاف البيت والمساجد والناقة إليه وما أشبه ذلك علىٰ سبيل التشريف والتعظيم، ولا شك أن المضاف إلىٰ الله يكتسب شرفًا وعظمة، حتىٰ إن بعض الشعراء يقول في معشوقته:

لا تدعني إلا بيا عبدها ... فإنه أشرف أسمائي

قوله: «فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت»: المقصود بهذه العبارة الإبهام؛ كقوله تعالىٰ: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]، والإبهام قد يكون للتعظيم كما في الآية المذكورة، وقد يكون للتحقير حسب السياق، وقد يراد به معنىٰ آخر.

قوله: «هل أخبرت بها أحدًا؟»: سأل النبي ﷺ هذا السؤال؛ لأنه لو قال: لم أخبر أحدًا، فالمتوقع أن الرسول عليه الصلاة والسلام سيقول له: لا تخبر أحدًا، هذا هو الظاهر، ثم يبين له الحكم

---

(١) لعل الذي كان يمنعه ﷺ أنه لم يكن الله أوحى إليه فيها شيئًا. فلما أوحى إليه بلغه أما الحياء في تبليغ الأوامر والنواهي (*)، فهذا ما لا يليق برسول الله ﷺ والله أعلم. (ق).

(*) قوله: (أما الحياء في تبليغ الأوامر والنواهي) إلخ. أقول هذا كلام جيد، والجواب عن الرواية التي ذكرها الشارح وهي قوله: (ورد في بعض الطرق أنه كان يمنعه الحياء منهم) أن يقال: إن صحت هذه الرواية فمعنى ذلك أنه كان عليه الصلاة والسلام يستحي منهم أن ينهاهم عن شيء لم يوح إليه أن ينهى عنه، كما أمرهم ﷺ بالتماس ليلة القدر في السبع الأواخر من رمضان لما تواطأت رؤياهم على أنها في السبع الأواخر وكان ذلك سببًا لشرعية مزيد الاجتهاد في السبع المذكورة. (ز).

. . . .

وفيه معنى قوله ﷺ: **«الرؤيا الصالحة جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»**[(١)(٢)].

قلت: وإن كانت رؤيا منام فهي وحي، يثبت بها ما يثبت بالوحي أمراً ونهياً. والله أعلم.

عليه الصلاة والسلام، لكن لما قال: إنه أخبر بها، صار لابد من بيانها للناس عموماً؛ لأن الشيء إذا انتشر يجب أن يعلن عنه، بخلاف إذا كان خاصاً، فهذا يخبر به من وصله الخبر.

قوله: «**فحمد الله**»: الحمد: وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم.

قوله: «**وأثنى عليه**»: أي: مرر ذلك الوصف.

قوله: «**أما بعد**»: سبق أنها بمعنى مهما يكن من شيء بعد. أي: بعد ما ذكرت، فكذا وكذا.

قوله: «**يمنعني كذا وكذا**»: أي: يمنعه الحياء كما في رواية أخرى، ولكن ليس الحياء من إنكار الباطل، ولكن من أن ينهى عنها دون أن يأمره الله بذلك، هذا الذي يجب أن تحمل عليه هذه اللفظة إن كانت محفوظة: أن الحياء الذي يمنعه ليس الحياء من الإنكار؛ لأن الرسول ﷺ لا يستحي من الحق، ولكن الحياء من أن ينكر شيئاً قد درج على الألسنة وألفه الناس قبل أن يؤمر بالإنكار، مثل الخمر بقي الناس يشربونها حتى حُرمت في سورة «المائدة»، فالرسول ﷺ لما لم يؤمر بالنهي عنها سكت، ولما حصل التنبيه على ذلك بإنكار هؤلاء اليهود والنصارى رأى ﷺ أنه لابد من إنكارها لدخول اللوم على المسلمين بالنطق بها.

قوله: «**قولوا ما شاء الله وحده**»: نهاهم عن الممنوع، وبين لهم الجائز.

فيه مسائل:

الأولى: معرفة اليهود بالشرك الأصغر: لقوله: «إنكم لتشركون».

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٩٨٧) ومواضع، ومسلم (٢٢٦٤).

(٢) هذا الحديث إنما يخبر به النبي ﷺ عما كان يرى قبل النبوة (*) وهو يتحنث في غار حراء من الرؤيا التي كانت تجيء مثل فلق الصبح. وذلك في الدور الذي كان يهيئه الله فيه لتلقي الوحي. وكان ذلك الدور ستة أشهر. وهي بالنسبة إلى مدة النبوة الثلاثة والعشرين سنة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة. والله أعلم.

(*) قوله: (هذا الحديث إنما يخبر به النبي ﷺ عما كان يرى قبل النبوة) إلخ. يريد الشيخ حامد رحمه الله بهذا الكلام أن قول النبي ﷺ عن الرؤيا الصالحة أنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، إنه خبر عما قد وقع ومضى، وليس الأمر كذلك بل الروايات الواردة في هذا البيان تدل على أن مراد النبي ﷺ، الخبر عن جنس الرؤيا في الماضي والمستقبل وأنها تفيد وتحصل بها البشرى وأن فائدتها جزء من أجزاء النبوة المتضمنة الإخبار عن المغيبات، ولهذا اختلفت ألفاظ الروايات في ذلك ففي بعضها جزء من خمس وأربعين جزءاً، وفي بعضها جزء من ستة وأربعين جزءاً وفي بعضها جزء من سبعين جزءاً، وفي بعضها غير ذلك ولو كان المراد ما قاله الشيخ حامد لم تتنوع العبارات عنها، ووجه التنوع والله أعلم أن الرؤيا الصالحة في حد ذاتها تختلف بحسب صلاح الرائي وما يكتشف رؤياه من القرائن والشواهد، الدالة على صدق الرؤيا وقد نص العلماء على ما ذكرناه قال النووي رحمه الله في شرح مسلم ما نصه: (قال القاضي أشار الطبري إلى أن هذا الاختلاف راجع إلى اختلاف حال الرائي فالمرء الصالح تكون رؤياه جزء من ستة وأربعين جزءاً والفاسق جزء من سبعين جزءاً، وقيل: المراد أن الخفي منها جزء من سبعين والجلي جزء من ستة وأربعين) ثم نقل الخطابي عن بعض أهل العلم نحو ما قاله الشيخ حامد، ثم نقل عن المازري ما نصه: (وقيل: المراد أن المنامات شبهاً مما حصل له وميز به من النبوة بجزء من ستة وأربعين) انتهى. والله أعلم. (ز).

فيه مسائل:

الأولى: معرفة اليهود بالشرك الأصغر. الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوى.

الثالثة: قوله ﷺ: «أجعلتني لله ندًا؟» فكيف بمن قال:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك والبيتين بعده.

....

الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوى: أي: إذا كان له هوى فهم شيئًا. وإن كان هو يرتكب مثله أو أشد منه؛ فاليهود ـ مثلاً ـ أنكروا على المسلمين قولهم: «ما شاء الله وشئت»، وهم يقولون أعظم من هذا، يقولون: عزير ابن الله، ويصفون الله تعالى بالنقائص والعيوب. ومن ذلك بعض المقلدين يفهم النصوص على ما يوافق هواه، فتجده يحمل النصوص من الدلالات ما لا تحتمل. كذلك أيضًا بعض العصريين يحملون النصوص ما لا تحتمله حتى توافق ما اكتشفه العلم الحديث في الطب والفلك وغير ذلك، كل هذا من الأمور التي لا يحمد الإنسان عليها، فالإنسان يجب أن يفهم النصوص على ما هي عليه، ثم يكون فهمه تابعًا لها، لا أن يُخضع النصوص لفهمه أو لما يعتقده. ولهذا يقولون: استدل ثم اعتقد، ولا تعتقد ثم تستدل؛ لأنك إذا اعتقدت ثم استدللت ربما يحملك اعتقادك على أن تُحرف النصوص إلى ما تعتقده كما هو ظاهر في جميع الملل والمذاهب المخالفة لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام؛ تجدهم يحرفون هذه النصوص لتوافق ما هم عليه، والحاصل أن الإنسان إذا كان له هوى، فإنه يحمل النصوص ما لا تحتمله من أجل أن توافق هواه.

الثالثة: قوله ﷺ «أجعلتني لله ندًا؟!»: فكيف بمن قال:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك ....

والبيتين بعده؟!

قوله: «أجعلتني لله ندًا»: هو قوله: «ما شاء الله وشئت».

وقوله: «فكيف بمن قال: يا أكرم الخلق...» يشير رحمه الله إلى بيتين للبوصيري في البردة ـ القصيدة المشهورة ـ يقول:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن آخذًا يوم المعاد يدي عفوًا وإلا فقل يا زلة القدم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

وهذا غاية الكفر والغلو؛ فلم يجعل لله شيئًا، والنبي ﷺ شرفه بكونه عبد الله ورسوله، لا لمجرد كونه محمد بن عبد الله.

الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر: لقوله: «يمنعني كذا وكذا»؛ لأنه لو كان من الشرك الأكبر ما منعه شيء من إنكاره.

الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي: تؤخذ من حديث الطفيل، ولقوله ﷺ: «الرؤيا

الرابعة: أنَّ هذا ليس من الشرك الأكبر، لقوله: «يمنعني كذا وكذا».
الخامسة: أنَّ الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي.
السادسة: أنَّهَا قد تكون سببًا لشرع بعض الأحكام.

باب من سب الدهر فقد سب الله

وهذا واقع كثيراً في الجاهلية وتبعهم على هذا كثير من الفساق والمجان والحمقى إذا جرت تصاريف الدهر على خلاف مرادهم جعلوا يسبون الدهر والوقت وربما لعنوه. وهذا ناشئ من ضعف الدين ومن الحمق والجهل العظيم، فإن الدهر ليس عنده من الأمر شيء فإنه مدبر مصرف والتصاريف الواقعة فيه تدبير العزيز الحكيم، ففي الحقيقة يقع العيب والسب على مدبره.

الصالحة جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة»، وهذا موافق للواقع بالنسبة للوحي الذي أوحي إلى النبي ﷺ؛ لأن أول الوحي كان بالرؤيا الصالحة من ربيع الأول إلى رمضان، وهذا ستة أشهر، فإذا نسبت هذا إلى بقية زمن الوحي، كان جزء من ستة وأربعين جزء؛ لأن الوحي كان ثلاثًا وعشرين سنة وستة أشهر مقدمة للوحي الأتم. والرؤيا الصالحة: هي التي تتضمن الصلاح، وتأتي منظمة وليست بأضغاث أحلام. أما أضغاث الأحلام فإنها مشوشة غير منظمة، وذلك مثل التي قصها رجل على النبي ﷺ قال: إني رأيت رأسي قد قطع، وإني جعلت أشتد وراءه سعيًا. فقال النبي ﷺ: «**لا تحدث الناس بتلاعب الشيطان بك في منامك**»[1]، والغالب أن المَرَائيَ المكروهة من الشيطان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٠]، ولذلك أرشد النبي ﷺ لمن رأى ما يكره أن يتفل عن يساره، أو ينفث ثلاث مرات، وأن يقول: **أعوذ بالله من شر الشيطان ومن شر ما رأيت، وأن يتحول إلى الجانب الآخر، وأن لا يخبر أحدًا**»، وفي رواية: «**أمره أن يتوضأ وأن يصلي**»[2].

السادسة: أنها قد تكون سببًا لشرع بعض الأحكام: من ذلك رؤيا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه يذبح ابنه، وهذا الحديث، وكذلك أثبت النبي ﷺ رؤيا عبد الله بن زيد في الأذان، وقال النبي ﷺ: «**إنها رؤيا حق**»[3]، وأبو بكر رضي الله عنه أثبت رؤيا من رأى ثابت بن قيس بن شماس، فقال للذي رآه: إنكم ستجدون درعي تحت برمة، وعندها فرس يستن. فلما أصبح الرجل ذهب إلى خالد بن الوليد وأخبره، فذهبوا إلى المكان ورأوا الدرع تحت البرمة عندها الفرس، فنفذ أبو بكر وصيته؛ لوجود القرائن التي تدل على صدقها، لكن لو دلت على ما يخالف الشريعة، فلا عبرة بها، ولا يلتفت إليها؛ لأنها ليست رؤيا صالحة.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٢٦٨). (٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٦١).
(٣) حسن: رواه أبو داود (٤٩٩)، والترمذي (١٨٩)، وأحمد (١٦٠٤٢، ١٦٠٤٣)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في الإرواء (٢٤٦).

٤٤ـ باب
من سَبَّ الدهر فقد آذى الله

وقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب من سَبَّ الدهر فقد آذى الله:

وقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

قال العماد ابن كثير في (تفسيره): يُخبر تعالى عن دَهْرية الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾. ما ثمَّ إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثمَّ معاد ولا قيامة. وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم يُنكرون البداءة والرَّجعة.

وتقوله الفلاسفة الدهرية [الدَّورية]، المنكرون للصانع، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه.

وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول؛ ولهذا قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ قال سبحانه: ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ أي: يتوهَّمون ويتخيَّلون.

السب: الشتم، والتقبيح، والذم، وما أشبه ذلك.

الدهر: هو الزمان والوقت.

وسب الدهر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يقصد الخبر المحض دون اللوم؛ فهذا جائز، مثل أن يقول: تعبنا من شدة حر هذا اليوم أو برده، وما أشبه ذلك؛ لأن الأعمال بالنيات، ومثل هذا اللفظ صالح لمجرد الخبر، ومنه قول لوط عليه الصلاة والسلام: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧].

الثاني: أن يسب الدهر على أنه هو الفاعل، كأن يعتقد بسبه الدهر أن الدهر هو الذي يُقلب الأمور إلى الخير والشر فهذا شرك أكبر؛ لأنه اعتقد أن مع الله خالقًا؛ لأنه نسب الحوادث إلى غير الله، وكل من اعتقد أن مع الله خالقًا؛ فهو كافر كما أن من اعتقد أن مع الله إلهًا يستحق أن يعبد؛ فإنه كافر.

الثالث: أن يسب الدهر لا لاعتقاده أنه هو الفاعل، بل يعتقد أن الله هو الفاعل، لكن يسبه؛ لأنه محل لهذا الأمر المكروه عنده؛ فهذا محرم، ولا يصل إلى درجة الشرك، وهو من السفه في العقل والضلال في الدين؛ لأن حقيقة سبه تعود إلى الله ـ سبحانه ـ؛ لأن الله تعالى هو الذي يصرف الدهر ويكون فيه ما أراد من خير أو شر، فليس الدهر فاعلاً، وليس هذا السب يكفر؛ لأنه لم يسب الله تعالى مباشرة.

. . . .

. . . .

قوله: «فقد آذى الله»: لا يلزم من الأذية الضرر؛ فالإنسان يتأذى بسماع القبيح أو مشاهدته، ولكنه لا يتضرر بذلك، ويتأذى بالرائحة الكريهة كالبصل والثوم ولا يتضرر بذلك، ولهذا أثبت الله الأذية في القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وفي الحديث القدسي: «يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار»[1]. ونفى عن نفسه أن يضره شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وفي الحديث القدسي: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني»[2]، رواه مسلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾: المراد بذلك المشركون الموافقون للدُّهرية ـ بضم الدال على الصحيح عند النسبة؛ لأنه مما تغير فيه الحركة ـ، والمعنى وما الحياة والوجود إلا هذا؛ فليس هناك آخرة، بل يموت بعض ويحيا آخرون، هذا يموت فيدفن وهذا يولد فيحيا. ويقولون: إنها أرحام تدفع وأرض تبلع ولا شيء سوى هذا.

قوله: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾: أي: ليس هلاكنا بأمر الله وقدره، بل بطول السنين لمن طالت مدته، والأمراض والهموم والغموم لمن قصرت مدته، فالمهلك لهم هو الدهر.

قوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾: ﴿ما﴾: نافية، و ﴿علم﴾: مبتدأ خبره مقدم ﴿لهم﴾، وأكد بمن فيكون للعموم: أي ما لهم علم لا قليل ولا كثير، بل العلم واليقين بخلاف قولهم.

قوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾: ﴿إن﴾: هنا نافية لوقوع ﴿إلا﴾ بعدها؛ أي ما هم إلا يظنون. الظن هنا بمعنى الوهم، فليس ظنهم مبنيًا على دليل يجعل الشيء مظنونًا، بل هم مجرد وهم لا حقيقة له؛ فلا حجة لهم إطلاقًا.

وفي هذا دليل على أن الظن يستعمل بمعنى الوهم، وأيضًا يستعمل بمعنى العلم واليقين كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦].

والرد على قولهم بما يلي:

أولاً: قولهم: ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾.

وهذا يرده المنقول والمعقول:

أما المنقول؛ فالكتاب والسنة تدل على ثبوت الآخرة ووجوب الإيمان باليوم الآخر وأن للعباد حياة أخرى سوى هذه الحياة الدنيا، والكتب السماوية الأخرى تقرر ذلك وتؤكده.

وأما المعقول؛ فإن الله فرض على الناس الإسلام والدعوة إليه والجهاد لإعلاء كلمة الله، مع ما

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٨٢٦، ٧٤٩١)، ومسلم (٢٢٤٦)، وأبو داود (٥٢٧٤)، وأحمد (٧٢٠٤).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧).

في الصحيح: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: «يؤذيني ابن آدم، يَسُبُّ الدهر وأنا الدهر، أُقَلِّبُ الليل والنهار»[1]، وفي رواية: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر»[2].

في الصحيح: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: يُؤذيني ابن آدم، يَسُبُّ الدهر وأنا الدهر، أُقَلِّبُ الليل والنهار»، وفي رواية: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر».

فأما الحديث الذي أخرجه صاحبا (الصحيح)، وأبو داود، والنسائي، من رواية سُفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيِّب، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يَسُبُّ الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أُقلب الليل والنهار»**[3]. وفي رواية: **«لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»**. وفي رواية: **«لا يقل ابن آدم: يا خيبة الدهر، فإني أنا الدهر، أُرسل الليل والنهار، فإذا شئتُ قبضتهما»**[4][5].

في ذلك من استباحة الدماء والأموال والنساء والذرية، فمن غير المعقول أن يكون الناس بعد ذلك ترابًا لا بعث ولا حياة ولا ثواب ولا عقاب، وحكمة الله تأبىٰ هذا.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]؛ أي: الذي أنزل عليك القرآن وفرض العمل به والدعوة إليه لابد أن يردك إلىٰ معاد تجازىٰ عليه ويجازىٰ عليه كل من بلغته الدعوة.

ثانيًا: قولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾، أي: إلا مرور الزمن.

وهذا يرده المنقول والمحسوس:

فأما المنقول؛ فالكتاب والسنة تدل علىٰ أن الإحياء والإماتة بيد الله - عز وجل - كما قال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يونس: ٥٦]، وقال عن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وأما المحسوس، فإننا نعلم من يبقىٰ سنين طويلة علىٰ قيد الحياة، كنوح عليه السلام وغيره ولم يهلكه الدهر، ونشاهد أطفالاً يموتون في الشهر الأول من ولادتهم، وشبابًا يموتون في قوة شبابهم؛ فليس الدهر هو الذي يميتهم.

مناسبة الآية للباب:

إن في الآية نسبة الحوادث إلىٰ الدهر، ومن نسبها إلىٰ الدهر؛ فسوف يَسُبُّ الدهر إذا وقع فيه ما يكرهه.

قوله: «وفي الصحيح» عن أبي هريرة... إلى آخره»: هذا الحديث يسمىٰ الحديث القدسي أو الإلهي أو الرباني، وهو كل ما يرويه النبي ﷺ عن ربه - عز وجل - وسبق الكلام عليه في باب فضل

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٨٢٦، ٧٤٩١)، ومسلم (٢٢٤٦).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦١٨٢)، ومسلم (٢٢٤٦، ٢٢٤٧). (٣) في ابن كثير: «أقلب ليله ونهاره».(ق).

(٤) هذه الرواية ليست في نسخ ابن كثير المطبوعة بأيدينا. وهي في تفسير البغوي.(ق).

(٥) صحيح: رواه مسلم (٢٢٤٦).

. . . .

قال في (شرح السنة): حديثٌ متفق على صحته، أخرجاه من طريق مَعْمر، من أوجه عن أبي هريرة، قال: ومعناه أن العرب كانت من شأنها ذم الدهر وسبُّه عند النوازل؛ لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره، فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر. فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها، فكان مرجع سبها إلى الله عز وجل؛ إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يصفونها، فنُهوا عن سب الدهر. انتهى باختصار.

وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جدًا، بهذا الطريق[1]. قال: كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، وهو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا، فقال الله في كتابه: ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ**﴾ ويسبُّون الدهر، فقال الله عز وجل: «**يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار**».

التوحيد وما يكفر من الذنوب.

قوله: «**قال الله تعالى**»: تعالى من العلو، وجاءت بهذه الصيغة للدلالة على تَرَفُّعه - جل وعلا - عن كل نقص وسفل؛ فهو متعال بذاته وصفاته، وهي أبلغ من كلمة علا؛ لأنها تحمل معنى التَّرفُّع والتَّنزُّه عما يقوله المعتدون علوًا كبيرًا

قوله: «يؤذيني ابن آدم»: أي: يلحق بي الأذى؛ فالأذية لله ثابتة ويجب علينا إثباتها؛ لأن الله أثبتها لنفسه، فلسنا أعلم من الله بالله، ولكنها ليست كأذية المخلوق بدليل قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: ١١] وقدم النفي في هذه الآية على الإثبات لأجل أن يرد الإثبات على قلب خال من توهم المماثلة، ويكون الإثبات حينئذ على الوجه اللائق به تعالى، وأنه لا يماثل في صفاته كما لا يماثل في ذاته، وكل ما وصف الله به نفسه، فليس فيه احتمال للتمثيل؛ إذ لو كان احتمال التمثيل جائزًا في كلامه سبحانه وكلام رسوله فيما وصف به نفسه؛ لكان احتمال الكفر جائزًا في كلامه سبحانه وكلام رسوله.

قوله: «ابن آدم»: شامل للذكور والإناث، وآدم هو أبو البشر، خلقه الله تعالى من طين وسواه ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة وعَلَّمَه الأسماء كلها. واعلم أنه من المؤسف أنه يوجد فكرة مضلة كافرة، وهي أن الآدميين نشؤوا من قرد لا من طين، ثم تطور الأمر بهم حتى صاروا على هذا الوصف، ويمكن على مر السنين أن يتطوروا حتى يصيروا ملائكة، وهذا القول لا شك أنه كفر وتكذيب صريح للقرآن؛ فيجب علينا أن ننكره إنكارًا بالغًا، وأن لا نقره في كتب المدارس، فمن زعم هذه الفكرة يقال له: بل أنت قرد في صورة إنسان، ومثلك كما قال الشاعر:

إذا ما ذكرنا آدمًا وفعاله ... وتزويجه بنتيه بابنيه في الخنا

---

(١) أي من طريق سفيان بن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**كان أهل الجاهلية....**» إلخ. (ق).

. . . .

وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن منصور، عن شُريح بن النعمان، عن ابن عيينة، مثله.
ثم روى: عن يونس، عن ابن وهب، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**يقول الله تعالى: يسب ابن آدم الدهر، وأنا الدهر، بيدي الليل والنهار**» وأخرجه صاحب الصحيح، والنسائي من حديث يونس بن يزيد به.

وقال محمد بن إسحاق، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله عز وجل: استقرضتُ عبدي فلم يعطني، وسبني عبدي، يقول: وا دهراه، وأنا الدهر**». قال الشافعي، وأبو عبيد، وغيرُهما من الأئمة، في تفسير قوله: «**لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر**»: كانت العربُ في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو ملامة، قالوا: يا خيبة الدهر، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله. فكأنهم إنما سبوا الله سبحانه؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة. فلهذا نهي عن سب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله هو الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال. هذا أحسن ما قيل في تفسيره - وهو المراد - والله أعلم.

علمنا بأن الخلق من نسل فاجـــر وأن جميع الناس من عنصر الزنا

وأجابه بعض العلماء، فقال: أنت الآن أقررت أنك ولد زنا، وإقرارك على نفسك مقبول وعلى غيرك غير مقبول، ومثلك كما قال الشاعر:

كذلك إقرار الفتى لازم لـــه وفي غيره لغو كما جاء شرعنا

ولكن أنا في الحقيقة يؤلمني أن يوجد هذا بين أيدي شبابنا، فبعض الناس أخذوا به على أنه محتمل، والواقع أنه لا يحتمل سوى البطلان والكذب والدس على المسلمين بالتشكيك بما أخبرهم الله به عن خلق آدم وبنيه. وأيضًا مما يحذر عنه كلمة (فكر إسلامي): إذ معنى هذا أننا جعلنا الإسلام عبارة عن أفكار قابلة للأخذ والرد، وهذا خطر عظيم أدخله علينا أعداء الإسلام من حيث لا نشعر، والإسلام شرع من عند الله وليس فكرًا لمخلوق.

قوله: «يسب الدهر»: الجملة تعليل للأذية أو تفسير لها؛ أي بكونه يسب الدهر؛ أي: يشتمه ويُقبحه ويلومه وربما يلعنه - والعياذ بالله - يؤذي الله.

والدهر: هو الزمن والوقت، وقد سبق بيان أقسام سب الدهر.

قوله: «وأنا الدهر»: أي: مدبر الدهر ومُصرفه، قال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ولقوله في الحديث: «**أقلب الليل والنهار**»، والليل والنهار هما الدهر. ولا يقال بأن الله هو الدهر، ومن قال ذلك؛ فقد جعل الخالق مخلوقًا والمقلب بفتح اللام مقلِّبًا بكسر اللام.

فإن قيل: أليس المجاز ممنوعًا في كلام الله وكلام رسوله وفي اللغة؟.

أجيب: إن الكلمة حقيقة في معناها الذي دل عليه السياق والقرائن، وهنا في الكلام محذوف تقديره: وأنا مقلب الدهر؛ لأنه فسره بقوله: «**أقلب الليل والنهار**»، والليل والنهار هما الدهر؛ ولأن العقل لا يمكن أن

. . . .

وقد غَلِطَ ابنُ حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية ، في عَدِّهم الدهر من الأسماء الحسنىٰ ؛ أخذاً من هذا الحديث . انتهىٰ .

وقد تبين معناه في الحديث ، بقوله : «**أُقلب الليل والنهار**» وتقليبُه تصرفه تعالىٰ فيه بما يحبه الناس ويكرهونه . وفي هذا الحديث زيادة لم يذكرها المصنف رحمه الله ، وهي قوله : «**بيدي الأمر**» .

قوله: وفي رواية: «**لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر**»: ومعنىٰ هذه الرواية: هو ما صرَّح به في الحديث، من قوله: «**وأنا الدهر، أُقلِّبُ الليل والنهار**» يعني: أن ما يجري فيه من خير وشر بإرادة اللّٰه وتدبيره بعلم منه تعالىٰ وحكمة، لا يشاركه في ذلك غيره، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. فالواجب عند ذلك حمدُه في الحالتين، وحُسنُ الظن به سبحانه وبحمده، والرجوع إليه بالتوبة والإنابة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿**وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [الأعراف: ١٦٨]، وقال: ﴿**وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ونسبةُ الفعل إلىٰ الدهر ، ومسبته كثيرٌ في أشعار المولَّدين ، كابن المُعتز ، والمتنبي ، وغيرهما .

يجعل الخالق الفاعل هو المخلوق المفعول، المقلِّب هو المقلَّب، وبهذا عرف خطأ من قال: إن الدهر من أسماء الله، كابن حزم رحمه الله؛ فإنه قال: «إن الدهر من أسماء الله»، وهذا غفلة عن مدلول هذا الحديث، وغفلة عن الأصل في الأسماء فأما مدلول الحديث؛ فإن القائلين بذلك لم يريدوا أن الذي يهلكهم هو الله، وإنما أرادوا مرور الزمن؛ فالدهر هو الزمن في مرادهم، وأما الأصل في الأسماء: فالأصل في أسماء الله أن تكون حسنىٰ؛ أي: بالغة في الحسن أكمله؛ فلابد أن تشتمل علىٰ وصف ومعنىٰ هو أحسن ما يكون من الأوصاف والمعاني في دلالة هذه الكلمة، ولهذا لا تجد في أسماء الله تعالىٰ اسمًا جامدًا أبدًا، لأن الاسم الجامد ليس فيه معنىٰ أحسن أو غير أحسن، لكن أسماء الله كلها حسنىٰ: فيلزم من ذلك بأن تكون دالة علىٰ معانٍ والدهر اسم من أسماء الزمن ليس فيه معنىٰ إلا أنه اسم زمن، وعلىٰ هذا؛ فينتفي أن يكون لله تعالىٰ لوجهين:

الأول: أن سياق الحديث يأباه غاية الإباء.

الثاني: أن أسماء الله حسنىٰ، والدهر اسم جامد لا يحمل معنىٰ إلا أنه اسم للأوقات.

فلا يحمل المعنىٰ الذي يوصف بأنه أحسن، وحينئذ فليس من أسماء الله تعالىٰ، بل إنه الزمن، ولكن مقلب الزمن هو الله، ولهذا قال: «**أقلب الليل والنهار**».

قوله: «**أقلب الليل والنهار**»: أي: ذواتهما وما يحدث فيهما؛ فالليل والنهار يُقلبان من طول إلىٰ قصر إلىٰ تساو، والحوادث تتقلب فيه في الساعة وفي اليوم وفي الأسبوع وفي السنة.

قال تعالىٰ: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [آل عمران: ٢٦].

وهذا أمر ظاهر، وهذا التقليب له حكمة قد تظهر لنا وقد لا تظهر؛ لأن حكمة الله أعظم من أن تحيط بها عقولنا، ومجرد ظهور سلطان الله ـ عز وجل ـ وتمام قدرته هو من حكمة الله لأجل أن يخشىٰ الإنسان صاحب هذا السلطان والقدرة، فيتضرع ويلجأ إليه.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الدهر. الثانية: تسميته أذى لله.

الثالثة: التأمل في قوله: «فإنَّ الله هو الدهر».

الرابعة: أنَّه قد يكون سابًا، ولو لَمْ يقصد بقلبه.

وليس منه وصفُ السنين بالشدة ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ [يوسف: ٤٨].

قال بعض الشعراء:

إن الليالي من الزمان مهولة ... تُطوَى وتُنشر بينها الأعمار

فقصارهن مع الهموم طويلة ... وطوالهن مع السرور قصار

وقول أبي تمام:

أعوام وصل كاد يُنسى طيبها ... ذكر النوى، فكأنها أيام

ثم انبرت أيّام هجر أعقبت ... نحوي أسًى، فكأنها أعوام

ثم انقضت تلك السنون وأهلها ... فكأنها وكأنهم أحلام

وكما أنه نقص في الدين فهو نقص في العقل، فيه تزداد المصائب ويعظم وقعها ويغلق باب الصبر الواجب، وهذا مناف للتوحيد. أما المؤمن فإنه يعلم أن التصاريف واقعة بقضاء الله وقدره وحكمته فلا يتعرض لعيب ما لم يعبه الله ولا رسوله بل يرضى بتدبير الله ويسلم لأمره وبذلك يتم توحيده وطمأنيته.

قوله: «وفي رواية: لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر»: وفائدة هذه الرواية أن فيها التصريح في النهي عن سب الدهر.

قوله: «فإن الله هو الدهر»:وفي نسخة: «فإن الدهر هو الله».

والصواب: «**فإن الله هو الدهر**».

وقوله: «فإن الله هو الدهر»؛ أي: فإن الله هو مدبر الدهر ومصرفه، وهذا تعليل للنهي، ومن بلاغة كلام الله ورسوله قرن الحكم بالعلة لبيان الحكمة وزيادة الطمأنينة، ولأجل أن تتعدى العلة إلى غيرها فيما إذا كان المعلل حكمًا، فهذه ثلاث فوائد في قرن العلة بالحكم.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الدهر:لقوله: «**لا تسبوا الدهر**».

الثانية: تسميته أذى لله:تؤخذ من قوله: «**يؤذيني ابن آدم**».

الثالثة: التأمل في قوله: «فإن الله هو الدهر». فإذا تأملنا فيه وجدنا أن معناه أن الله مقلب الدهر ومصرفه وليس معناه أن الله هو الدهر، وقد سبق بيان ذلك.

الرابعة: أنه قد يكون سابًا ولو لم يقصد بقلبه:تؤخذ من قوله: «**يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر**»، ولم يذكر قصدًا ولو عبر الشيخ بقوله: أنه قد يكون مؤذيًا لله وإن لم يقصده، لكان أوضح وأصح؛ لأن الله صرح بقوله: «**يسب الدهر**»، والفعل لا يضاف إلا لمن قصده.

وقد فات على الشيخ رحمه الله بعض المسائل، منها: تفسير آية الجاثية، وقد سبق ذلك.

٤٥ ـ باب
التسمي بقاضي القضاة ونحوه

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه.
ذكر المصنف رحمه اللّه هذه الترجمة: إشارة إلى النهي عن التسمي بقاضي القضاة، قياسًا على ما في حديث الباب؛ لكونه يُشبه في المعنى فيُنهى عنه.

باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه
وباب احترام أسماء الله وتغيير الاسم لذلك

وهاتان الترجمتان من فروع الباب السابق، وهو أنه يجب أن لا يجعل لله ند في النيات والأقوال والأفعال، فلا يسمى أحد باسم فيه نوع مشاركة لله في أسمائه وصفاته كقاضي القضاة وملك الملوك ونحوها، وحاكم الحكام، أو بأبي الحكم ونحوه.

قوله: «باب التسمي بقاضي القضاة»: أي: وضع الشخص لنفسه هذا الاسم، أو رضاه به من غيره.
قوله: «قاضي القضاة»: قاضي: بمعنى حاكم، والقضاة؛ أي: الحكام، و «أل» للعموم.
والمعنى: التسمي بحاكم الحُكَّام ونحوه، مثل ملك الأملاك، وسلطان السلاطين، وما أشبه ذلك، مما يدل على النفوذ والسلطان؛ لأن القاضي جمع بين الإلزام والإفتاء، بخلاف المفتي؛ فهو لا يلزم، ولهذا قالوا: القاضي جمع بين الشهادة والإلزام والإفتاء؛ فهو يشهد أن هذا الحكم حكم الله، وأن الحق للمحكوم له على المحكوم عليه، ويفتي؛ أي يخبر عن حكم الله وشرعه، ويُلزم الخصمين بما حكم به.
مناسبة الباب لكتاب التوحيد:
إن من تسمى بهذا الاسم؛ فقد جعل نفسه شريكًا مع الله فيما لا يستحقه إلا الله؛ لأنه لا أحد يستحق أن يكون قاضي القضاة أو حاكم الحكام أو ملك الأملاك إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ فالله هو القاضي فوق كل قاضٍ، وهو الذي له الحكم، ويُرجع إليه الأمر كله كما ذكر الله ذلك في القرآن.
وقد تقدم أن قضاء الله ينقسم إلى قسمين:
١ ـ قضاء كوني. ٢ ـ قضاء شرعي.
والقضاء الكوني لابد من وقوعه، ويكون فيما أحب وفيما كرهه، قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤]؛ فهذا قضاء كوني متعلق بما يكرهه الله؛ لأن الفساد في الأرض لا يحبه الله، والله لا يحب المفسدين، وهذا القضاء الكوني لابد أن يقع ولا معارض له إطلاقًا.
وأما النوع الثاني من القضاء، وهو القضاء الشرعي؛ فمثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، والقضاء الشرعي لا يلزم منه وقوع المقضي، فقد يقع وقد لا يقع، ولكنه يتعلق فيما يحبه الله، وقد سبق الكلام على ذلك. فإن قلت: إذا أضفنا القضاة وحصرناها بطائفة معينة، أو ببلد معين، أو بزمان معين، مثل أن يقال: قاضي القضاة في الفقه، أو قاضي قضاة المملكة العربية السعودية، أو قاضي قضاة مصر أو الشام، أو ما أشبه ذلك؛ هل يجوز هذا؟
فالجواب: أن هذا جائز؛ لأنه مقيَّد، ومعلوم أن قضاء الله لا يتقيد، فحينئذ لا يكون فيه مشاركة

. . . .

. . . .

لله ـ عز وجل ـ على أنه لا ينبغي أيضًا أن يتسمى الإنسان بذلك أو يُسمَّى به وإن كان جائزًا؛ لأن النفس قد تصعب السيطرة عليها فيما إذا شعر الإنسان بأنه موصوف بقاضي قضاة الناحية الفلانية، فقد يأخذه الإعجاب بالنفس والغرور حتى لا يقبل الحق إذا خالف قوله، وهذه مسألة عظيمة لها خطرها إذا وصلت بالإنسان إلى الإعجاب بالرأي بحيث يرى أن رأيه مفروض على من سواه؛ فإن هذا خطر عظيم، فمع القول بأن ذلك جائز لا ينبغي أن يقبله اسمًا لنفسه أو وصفًا له، ولا أن يتسمى به.

إذا قُيِّد بزمان أو مكان ونحوهما؛ قلنا: إنه جائز، ولكن الأفضل ألاَّ يفعل، لكن إن قُيد بفن من الفنون؛ هل يكون جائزًا؟

مقتضى التقييد أن يكون جائزًا، لكن إن قُيِّد بالفقه بأن قيل (عالم العلماء في الفقه)، وقلنا: إن الفقه يشمل أصول الدين وفروعه على حد قول الرسول ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**»[1]؛ صار فيه عموم واسع، ومعنى هذا أن مرجع الناس كلهم في الشرع إليه؛ فهذا في نفسي منه شيء، والأولى التنزه عنه. وأما إن قُيد بقبيلة؛ فهو جائز، لكن يجب مع الجواز مراعاة جانب الموصوف أن لا يغتر ويعجب بنفسه، ولهذا قال النبي ﷺ للمادح: «**قطعت عنق صاحبك**»[2].

وأما التسمي بـ (شيخ الإسلام)؛ مثل أن يقال: شيخ الإسلام ابن تيمية، أو شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، أي أنه الشيخ المطلق الذي يرجع إليه الإسلام؛ فهذا لا يصح؛ إذ إن أبا بكر رضي الله عنه أحق بهذا الوصف؛ لأنه أفضل الخلق بعد النبيين، ولكن إذا قصد بهذا الوصف أنه جدَّد في الإسلام وحصل له أثر طيب في الدفاع عنه؛ فلا بأس بإطلاقه. وأما بالنسبة للتسمي بـ (الإمام)؛ فهو أهون بكثير من التسمي بـ (شيخ الإسلام)؛ لأن النبي ﷺ سمى إمام المسجد إمامًا ولو لم يكن عنده إلا اثنان. لكن ينبغي أن ينبه أنه لا يتسامح في إطلاق كلمة إمام إلا على من كان قدوة وله أتباع؛ كالإمام أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم ممن له أثر في الإسلام؛ لأن وصف الإنسان بما لا يستحق هضم للأمة؛ لأن الإنسان إذا تصور أن هذا إمام وهذا إمام هان الإمام الحق في عينه، قال الشاعر:

ألم تـر أن السيف ينقص قـــدره ... إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

ومن ذلك أيضًا: (آية الله، حجة الله، حجة الإسلام)؛ فإنها ألقاب حادثة لا تنبغي لأنه لا حجة لله على عباده إلا الرسل.

وأما آية الله، فإن أريد به المعنى الأعم، فلا مدح فيه لأن كل شيء آية لله، كما قيل:

وفـي كـل شيء لـه آيــة ... تـدل علـى أنـه واحــد

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧١، ٣١١٦، ٧٣١٢)، ومسلم (١٠٣٧)، والترمذي (٢٦٤٥)، وابن ماجه (٢٢٠، ٢٢١)، ومالك في موطئه (١٦٦٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٦٢، ٦٠٦١)، ومسلم (٣٠٠٠)، وأبو داود (٤٨٠٥)، وابن ماجه (٣٧٤٤).

في الصحيح: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله»[(١)(٢)].

قال سُفيان: مثلُ شاهان شاه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: في الصحيح: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن أخنع اسم عند الله رجل تسمَّى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله».

قال سُفيان: مثلُ شاهان شاه.

لأن هذا اللفظ إنما يصدق على اللّه تعالى. فهو مَلِكُ الأملاك، لا ملك أعظم ولا أكبر منه، مالك الملك ذو الجلال و الإكرام. وكل ملك يؤتيه اللّه من يشاء من عباده فهو عارية يُسرع ردها إلى المعير، وهو الله. ينزع الملك من ملكه تارة، وينزع الملك منه تارة[(٣)] فيصير لا حقيقة له سوى اسم زال مسماه.

وإن أريد المعنى الأخص؛ أي: أن هذا الرجل آية خارقة؛ فهذا في الغالب يكون مبالغًا فيه، والعبارة السليمة أن يقال: عالم مفتٍ، قاضٍ، حاكم، إمام لمن كان مستحقًا لذلك.

قوله: «في الصحيح» انظر الكلام عليها (ج١ / ١٢٢).

قوله: «إن أخنع اسم»: أي: أوضع اسم، والمراد بالاسم المسمى فأوضع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك؛ لأنه جعل نفسه في مرتبة عليا، فالملوك أعلى طبقات البشر من حيث السلطة؛ فجعل مرتبته فوق مرتبتهم، وهذا لا يكون إلا لله ـ عز وجل ـ، ولهذا عوقب بنقيض قصده؛ فصار أوضع اسم عند الله إذ قصده أن يتعاظم حتى على الملوك، فأهين، ولهذا كان أحبُّ اسم عند الله ما دل على التذلل والخضوع. مثل: عبد الله وعبد الرحمن، وأبغض اسم عند الله ما دل على الجبروت والسلطة والتعظيم.

قوله: «لا مالك إلا الله»: أي: لا مالك على الحقيقة الملك المطلق إلا الله تعالى.

وأيضًا لا مَلِكَ إلا الله ـ عز وجل ـ، ولهذا جاءت آية الفاتحة بقراءتين: (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، لكي يجمع بين الملك وتمام السلطان؛ فهو ـ سبحانه ـ ملك مالك، ملك ذو سلطة وعظمة وقول نافذ، ومالك متصرف مدبر لجميع مملكته.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي. قال العزيزي في الشرح الكبير: وفي الباب غيره أيضًا، وفي قرة العيون: لأن هذا اللفظ إنما يصدق على الله فهو ملك الأملاك، لأنه هو الملك في الحقيقة له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير يتصرف في الملوك وغيرهم بمشيئته وإرادته كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦] الآية، فلا ينبغي أن يعظم المخلوق بما يشبه ما يعظم به الخالق جل وعلا، وما كان مثل ذلك فينهى عنه كالذي ترجم به المصنف؛ لأنه لا يصدق هذا المعنى إلا على الله، فلا يصلح أن يسمى به المخلوق، لأن كل لفظ يقتضى التعظيم والكمال لا يكون إلا له تعالى وتقدس دون غيره. (ق).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (٦٢٠٢)، ومسلم (٢١٤٣).

(٣) قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]. (ق).

. . . .

وأما رب العالمين فملكه دائم كامل لا انتهاء له، بيده القسط يخفضه ويرفعه، يحفظ على عباده أعمالهم بعلمه سبحانه، وما تكتبه الحفظة عليهم. فيُجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؛ كما ورد في الحديث: «**اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله**».

قوله: (قال سفيان ـ يعني ابن عيينة ـ مثل شاهان شاه)[1]. عند العجم. عبارة عن ملك

فالله له الخلق والملك والتدبير؛ فلا خالق إلا الله، ولا مدبر إلا الله، ولا مالك إلا الله، قال تعالى: ﴿**هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**﴾ [فاطر: ٣]؛ فالاستفهام بمعنى النفي، وقد أشرب

---

(١) قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (ج١٢ ص ٤٣): في حوادث سنة ٤٢٩: وفي رمضان منها لقب جلال الدولة - السلجوقي - شاهنشاه الأعظم، ملك الملوك بأمر الخليفة القائم بالله. وخطب له بذلك على المنابر فنفرت العامة من ذلك، ورموا الخطباء بالآجر، ووقعت فتنة شديدة بسبب ذلك، واستفتوا القضاة والفقهاء في ذلك، فأفتى أبو عبد الله الصيمري - الشافعي - أن هذه الأسماء يعتبر فيها القصد والنية. وقد قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا**﴾ [البقرة: ٢٤٧] وقال: ﴿**وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ**﴾[الكهف: ٧٩] وإذا كان في الأرض ملوك جاز أن يكون بعضهم فوق بعض وأعظم من بعض، وليس في ذلك ما يوجب النكير؛ والمماثلة بين الخالق والمخلوقين.

وكتب القاضي أبو الطيب الطبري: «إن إطلاق (ملك الملوك) جائز ويكون معناه ملك ملوك الأرض وإذا جاز أن يقال كافي الكفاة وقاضي القضاة جاز أن يقال: ملك الملوك، وإذا كان في اللفظ ما يدل على أن المراد به ملك الأرض زالت الشبهة. ومنه قولهم: اللهم أصلح الملك، فيصرف الكلام إلى المخلوقين».

وكتب التميمي الحنبلي نحو ذلك.

وأما الماوردي صاحب الحاوي الكبير فقد نقل عنه أنه أجاز ذلك أيضًا، والمشهور عنه ما نقله ابن الجوزي والشيخ أبو المنصور بن الصلاح في أدب المفتي أنه منع من ذلك وأصر على المنع منه، مع صحبته للملك جلال الدولة، وكثرة تردداه عليه ووجاهته عنده، وأنه امتنع من الحضور في مجلسه حتى استدعاه جلال الدولة في يوم عيد، فلما دخل عليه دخل وهو وجل خائف أن يوقع به مكروهًا، فلما واجهه قال له جلال الدولة: قد علمت أنه إنما منعك من موافقة الذين جوزوا ذلك مع صحبتك إياي ووجاهتك عندي: دينك واتباعك الحق وأن الحق آثر عندك من كل أحد ولو حابيت أحدًا من الناس لحابيتني وقد زادك ذلك عندي صحبة ومحبة وعلو مكانة. قال ابن كثير: والذي حمل القاضي الماوردي على ذلك المنع هو اتباع السنة التي وردت بها الأحاديث الصحيحة من غير وجه. قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان بن عيينة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: «**أخنع اسم عند الله يوم القيامة رجل تسمى بملك الأملاك**» قال الزهري: سألت أبا عمرة الشيباني عن «أخنع اسم» قال: «**أوضع**» وقد رواه البخاري عن علي ابن المديني عن ابن عيينة. وأخرجه مسلم من طريق همام عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «**أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل تسمى ملك الأملاك، لا ملك إلا الله عز وجل**»، وقال الإمام أحمد: حدثني محمد بن جعفر، حدثنا عوف عن خلاس عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله: «**اشتد غضب الله على من قتله نبي، واشتد غضب الله على رجل تسمى بملك الأملاك، لا ملك إلا الله عز وجل**». اهـ.

وقال العزيزي في الشرح الكبير: أي سمى نفسه، أو سماه غيره فرضي به وأقره ونحوه وما في معناه شاهان شاه، والعجم تقدم المضاف إليه على المضاف، وألحق به ملك شاه. قيل: وإذا امتنع التسمي بما ذكر فباسم من له هذا الوصف كالله والجبار والرحمن أولى.

قال القرطبي: وحاصل الحديث أن من تسمى بهذا الاسم انتهى من الكبر إلى الغاية التي لا تنبغي لمخلوق، =

وفي رواية: «أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه»[(١)].

الأملاك، ولهذا مثَّل به سفيان؛ لأنه عبارة عنه بلغة العجم.
قال المصنف رحمه الله تعالى: وفي رواية: «أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثُه».

معنى التحدي، أي إن وجدتموه فهاتوه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٦] فيها توكيد وحصر، وهذا دليل انفراده بالخلق، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣]؛ فـ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يشمل كل من يُدعى من دون الله ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾، وهذا على سبيل المبالغة؛ وما كان على سبيل المبالغة؛ فلا مفهوم له كثرة أو قلة. وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]. وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦]. وهذا دليل انفراده بالملك، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]. وقال تعالى:

= وأنه قد تعاطى ما هو خاص بالإله الحق لما ثبت في الفطرة أنه لا مالك لجميع الخلائق إلا الله، فلا يصدق هذا الاسم إلا بالحقيقة عليه سبحانه وتعالى، فعوقب على ذلك من الإذلال والاسترذال بما لم يعاقب به مخلوق، والمالك من له الملك، والملك أمدح، والمالك أخص. وكلاهما واجب لله تعالى.

وقال الطيبي: قوله: «لا مالك إلا الله» استئناف لبيان تعليل تحريم التسمية، فنفى جنس الملاك بالكلية، لأن المالك الحقيقي ليس إلا هو، ومالكية الغير مستردة إلى مالك الملوك، فمن تسمى بذلك نازع الله سبحانه وتعالى في رداء كبريائه، واستنكف أن يكون عبده، لأن وصف المالكية مختص بالله عز وجل لا يتجاوزه، والمملوكية بالعبد لا تتجاوزه. فمن تعدى طوره فله الخزي في الدنيا والعار، وفي الآخرة الإلقاء في النار. اهـ.

ومن العجائب التي لا تخطر بالبال ما نقله ابن بزيزة عن بعض شيوخه أن أبا العتاهية - الشاعر المشهور - كان له ابنتان سمى إحداهما الله، وسمى الأخرى الرحمن، وهذا من أعظم القبائح، وأشد الجرائم والفضائح. وقيل: إنه تاب.

وألحق بعض المتأخرين بملك الأملاك: حاكم الحكام. وقد شدد الزمخشري النكير عليه فقال في التفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] رب غريق في الجهل والجور من متقلدي الحكومة في زمننا قد لقب أقضى القضاة ومعناه أحكم الحاكمين، فاعتبر واستعبر. اهـ، واعترضه ابن المنير بأن خبر «أقضاكم عليّ» يؤخذ منه جواز أن يقال لأعدل القضاة وأعلمهم في زمنه «قاضي القضاة»، وورد عليه وشنع العلم العراقي منتصرًا للزمخشري. ومن النوادر: أن العز بن جماعة رأى أباه في النوم، فسأله عن حاله فقال: ما كان عليّ أضر من هذا الاسم، فنهى الموثقين أن يكتبوا له في الأسجال: قاضي القضاة، بل قاضي المسلمين.

وقال ابن القيم: وتحرم التسمية بسيد الناس، وسيدة الكل، كما تحرم بسيد ولد آدم، فإن ذا ليس لأحد إلا للرسول ﷺ اهـ.

قال أبو طاهر - غفر الله لهما -: ولعله يلحق بذلك ما تعارف عليه الناس في بعض البلدان الإسلامية: كصاحب العزة؛ وصاحب الجلالة ونحو ذلك، وكل هذه الألقاب إنما شاعت في الناس من وقت دخول الأعاجم وتمكن دولتهم في البلاد الإسلامية، وأنهم لم يكن لهم من العدل والدين والاستقامة والعلم والفضل ما يتزينون به عند الله والناس، بل لعله كان لهم ضد ذلك، فخشوا أن يسقطوا من أعين العامة فاخترعوا لهم تلك الأسماء والألقاب ما يلقى في نفوسهم الوهم والتعظيم المتكلف والتبجيل المصطنع. ولقد كان السلف الصالح ﷺ يدعون بعضهم بعضًا بأسمائهم أو بوظائفهم، وقلوبهم مملوءة من المحبة والتوقير والإجلال لعلمائهم وأمرائهم، لما لهم من العلم والفضل والعدل والبر والإحسان التي جملهم الله بها، نسأل الله أن يعيد للناس هذا فهو أنفع وأصلح مما هم عليه اليوم من هذه المداهنات والتملقات المتكلفة بالباطل. (ق).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٤٣).

قـــــــولـه: «أخـــنـع» يـعـنــي: أوضـع.

قوله: «أخنع» يعني: أوضع.

«أغيظ»، وهو مثل الغضب. فيكون بغيضًا إلى الله. مغضوبًا عليه[1]، والله أعلم.

قوله: «وأخـبثه»، وهو يدل أيضًا على أن هذا خبيث عند الله. فاجتمعت في حقه هذه الأمور؛ لتعاظمه في نفسه، وتعظيم الناس له بهذه الكلمة التي هي من أعظم التعظيم. فتعظمه في نفسه وتعظيم الناس له بما ليس له بأهل، وضعه عند اللّه يوم القيامة. فصار أخبث الخلق وأبغضهم إلى اللّه وأحقرهم؛ لأن الخبيث البغيض عند اللّه يكون يوم القيامة أحقر الخلق وأخبثهم، لتعاظمه على خلق اللّه بنعم الله.

قوله: (أخنع، يعني أوضع)[2]. هذا هو معنى أخنع، فيُفيد ما ذكرنا في معنى أغيظ، أنه يكون حقيرًا بغيضًا عند الله. وفيه: التحذير من كل ما فيه تعاظم؛ كما أخرج أبو داود، عن أبي مجلز، قال: خرج معاوية على ابن الزبير، وابن عامر. فقام ابن عامر، وجلس ابن الزبير، فقال معاوية لابن عامر: اجلس، فإني سمعت رسول اللّه ﷺيقول: «**من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار**»[3]أخرجه الترمذي أيضًا، وقال: حسن.

وعن أبي أُمامة رضي اللّه عنه، قال: خرج علينا رسول اللّه ﷺ متكئًا على عصا، فقُمنا إليه، فقال: «**لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، يعظم بعضُهم بعضًا**»[4] رواه أبو داود.

وقوله: «أغـيظ رجل» هذا من الصفات التي تُمرُّ كما جاءت، وليس شيء مما ورد في الكتاب

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨-٨٩].

قوله: «قال سفيان (هو ابن عيينة): مثل شاهان شاه»: وهذا باللغة الفارسية؛ فشاهان: جمع بمعنى أملاك، وشاه مفرد بمعنى ملك، والتقدير أملاك ملك؛ أي: ملك لكنهم في اللغة الفارسية يقدمون المضاف إليه على المضاف.

قوله: وفي رواية: «**أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه**»: أغيظ: من الغيظ وهو الغضب؛ أي: إن أغضب شيء عند الله-عز و جل-وأخبثه هو هذا الاسم، وإذا كان سببًا لغضب الله وخبيثًا؛ فإنه من الكبائر.

وقوله: «أغيظ»: فيه إثبات الغيظ لله-عز وجل-؛ فهي صفة تليق بالله-عز وجل-كغيرها من الصفات، والظاهر أنها أشد من الغضب.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن التسمي بملك الأملاك: وتؤخذ من قول الرسول ﷺ: «إن أخنع اسم عند

---

(١) ويؤيده «اشتد غضب الله على من زعم أنه ملك الأملاك» أخرجه الطبراني. (ق).

(٢) «أخنع» بفتح الهمزة والنون بينهما معجمة ساكنة أي: أدخلها في الخنوع، وهو الذل والضعة والهوان، ذكره الزمخشري. وفي رواية «أخنى» من الخنا بمعنى الفحش في القول، ويحتمل أن يكون من قولهم: أخنى عليه الدهر أي: أهلكه، وذكر أبو عبيد أنه ورد بلفظ «أنخع» بتقديم النون على الخاء المعجمة وهو بمعنى أهلك قال ابن بطال: وإذا كان الاسم أذل الأسماء كان من تسمى به أشد ذلاً يوم القيامة أي: أشدهم ذلاً وصغارًا. وفي قرة العيون: وهذا من الصفات التي تمر كما جاءت من غير تحريف ولا تأويل، ولا تشبيه ولا تمثيل، والله أعلم. (ق).

(٣) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٣٥٧).

(٤) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (٢٤٦).

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن التسمي بملك الأملاك.

الثانية: إن ما في معناه مثله، كما قال سفيان.

الثالثة: التفطن للتغليظ في هذا ونحوه، مع القطع بأنَّ القلب لَمْ يقصد معناه.

الرابعة: التفَطُّن أنَّ هذا لإجلال الله سبحانه.

والسنة إلا ويجب اتباع الكتاب والسنة في ذلك وإثباته على وجه يليق بجلال اللّٰه وعظمته تعالى، إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل، كما تقدم. والباب كله واحد، وهذا هو قول أهل السنة والجماعة، من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من الفرقة الناجية من الثلاث والسبعين فرقة.

وهذا التفرق والاختلاف إنما حدث في أواخر القرن الثالث وما بعده، كما لا يخفى على من له معرفة بما وقع في الأمة من التفرق والاختلاف والخروج عن الصراط المستقيم واللّٰه المستعان.

وكل هذا حفظ للتوحيد ولأسماء الله وصفاته، ودفع لوسائل الشرك حتى في الألفاظ التي يخشى أن يتدرج منها إلى أن يظن مشاركة أحد لله في شيء من خصائصه وحقوقه.

الله ـ عز وجل ـ رجل تسمى ملك الأملاك»، والمؤلف يقول: النهي عن التسمي... والنهي شرعًا لا يستفاد من الصيغة المعينة المعروفة فحسب، بل إذا ورد الذم عليه، أو سب فاعله، أو ما أشبه ذلك؛ فهو متضمن للنهي وزيادة.

الثانية: أن ما في معناه مثله كما قال سفيان: والذي في معناه: قاضي القضاة، وحاكم الحكام، وشاهان شاه في الفارسية.

الثالثة: التفطن للتغليظ في هذا ونحوه، مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه: أي: لم يقصد أنه ملك الأملاك أو قاضي القضاة؛ لعلمه أن هناك من هو أبلغ ملكًا وأحكم قضاءً.

وإذا سمينا شخصًا بقاضي القضاة أو حاكم الحكام وهو ليس كذلك، بل هو من أجهل القضاة ومن أضعف الحكام؛ جمعنا بين أمرين بين الكذب، والوقوع في اللفظ المنهي عنه، وأما إذا كان أعلم أهل زمانه، أو أعلم أهل مكانه، ويرجع القضاة إليه؛ فهذا وإن كان القول مطابقًا للواقع لكنه منهي عنه، مع أن القلب لم يقصد معناه.

الرابعة: التفطن أن هذا لأجل الله ـ سبحانه ـ: يؤخذ من قوله: **«لا مالك إلا الله»**؛ فالرسول ﷺ أشار إلى العلة، وهي: **«لا مالك إلا الله»**؛ فكيف تقول: ملك الأملاك وهو لا مالك إلا الله ـ عز وجل ـ؟!

الفرق بين ملك ومالك: ليس كل ملك مالكًا، وليس كل مالك ملكًا؛ فقد يكون الإنسان ملكًا، ولكنه لا يكون بيده التدبير، وقد يكون الإنسان مالكًا ويتصرف فيما يملكه فقط؛ فالملكُ من ملك السلطة المطلقة، لكن قد يملك التصرف فيكون ملكًا مالكًا، وقد لا يملك وليس بمالكٍ، أما المالك؛

. . . .

. . . .

فهو الذي له التصرف بشيء معين؛ كمالك البيت، ومالك السيارة وما أشبه ذلك؛ فهذا ليس بملك؛ يعني: ليس له سلطة عامة.

ويستفاد من الحديث أيضًا:

١ - إثبات صفة الغيظ لله - عز وجل - وأنه يتفاضل لقوله: «**أغيظ**»، وهو اسم تفضيل.

٢ - حكمة الرسول ﷺ في التعليم

لأنه لما بيَّن أن هذا أخنع اسم وأغيظه أشار إلى العلة، وهو: «**لا مالك إلا الله**»، وهذا من أحسن التعليم والتعبير، ولهذا ينبغي لكل إنسان يعلم الناس أن يقرن الأحكام بما تطئمن إليه النفوس من أدلة شرعية أو علل مرعية.

قال ابن القيم:

العلمُ مَعرفةُ الهُدى بدليله ... ما ذاك والتَّقليد يستويان

فالعلمَ أن تربط الأحكام بأدلتها الأثرية أو النظرية؛ فالأثرية ما كان من كتاب وسنة أو إجماع، والنظرية: العقلية؛ أي: العلل المرعية التي يعتبرها الشرع.

أسماء الله - عز وجل - هي: التي سمَّى بها نفسه أو سمَّاه بها رسولُه ﷺ.

وقد سبق لنا الكلام فيها في مباحث كثيرة، منها:

هل أسماءالله مترادفةأو متباينة؟

وقلنا: باعتبار دلالتها على الذات مترادفة؛ لأنها تدل على ذات واحدة، وهو الله - عز وجل - وباعتبار دلالتها على المعنى والصفة التي تحملها متباينة، وإن كان بعضها قد يدل على ما تضمنَّه الآخر من باب دلالة اللزوم؛ فمثلاً (الخلاَّق) يتضمن الدلالة على العلم المستفاد من اسم العليم، لكنه بالالتزام، وعلى القدرة المستفادة من اسم القدير، لكن بالالتزام.

الثاني: هل أسماء الله مشتقة أو جامدة (يعني: هل المراد بها الدلالة على الذات فقط، أو على الذات والصفة)؟

الجواب: على الذات والصفة، أما أسماؤنا نحن؛ فيراد بها الدلالة على الذات فقط، فقد يُسمَّى محمداً وهو من أشد الناس ذمًا، وقد يسمى عبد الله وهو من أفجر عباد الله.

أما أسماء الله - عز وجل - وأسماء الرسول ﷺ، وأسماء القرآن، وأسماء اليوم الآخر، وما أشبه ذلك؛ فإنها أسماء متضمنة للأوصاف.

الثالث: أسماء الله بعضها معلوم لنا وبعضها غير معلوم بدليل قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح في دعاء الكرب: «**أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم ربيع**

. . . .

. . . .

قلبي...»[(١)]. ومعلوم أن ما استأثر الله بعلمه لا يعلمه أحد.

الرابع: أسماء الله؛ هل هي محصورة بعدد معين؟

والجواب: غير محصورة، وقد سبق الكلام على ذلك، والجواب عن قوله ﷺ: **«إن لله تسعة وتسعين اسمًا، من أحصاها دخل الجنة»**[(٢)].

الخامس: أن هذه التسعة والتسعين غير معينة، بل موكولة لنا لنبحث حتى نحصل على التسعة والتسعين، وهذا من حكمة إبهامها؛ لأجل البحث حتى نصل إلى هذه الغاية، ولهذا نظائر، منها: أن الله أخفى ليلة القدر، وساعة الإجابة يوم الجمعة، وساعة الإجابة في الليل؛ ليجتهد الناس في الطلب.

السادس: معنى إحصاء هذه التسعة والتسعين التي يترتب عليه دخول الجنة ليس معنى ذلك أن تكتب في رقاع ثم تكرر حتى تحفظ فقط، ولكن معنى ذلك:

أولاً: الإحاطة بها لفظًا. ثانيًا: فهمها معنًى.

ثالثًا: التعبد لله بمقتضاها، ولذلك وجهان:

الوجه الأول: أن تدعو الله بها، لقوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ [الأعراف: ١٨٠] بأن تجعلها وسيلة إلى مطلوبك، فتختار الاسم المناسب لمطلوبك، فعند سؤال المغفرة تقول: يا غفور! وليس من المناسب أن تقول: يا شديد العقاب! اغفر لي، بل هذا يشبه الاستهزاء، بل تقول: أجرني من عقابك.

الوجه الثاني: أن تتعرض في عبادتك لما تقتضيه هذه الأسماء؛ فمقتضى الرحيم الرحمة، فاعمل العمل الصالح الذي يكون جالبًا لرحمة الله، ومقتضى الغفور المغفرة، إذًا افعل ما يكون سببًا في مغفرة ذنوبك، هذا هو معنى إحصائها، فإذا كان كذلك؛ فهو جدير لأن يكون ثمنًا لدخول الجنة، وهذا الثمن ليس على وجه المقابلة، ولكن على وجه السبب؛ لأن الأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة وليست بدلاً، ولهذا ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قوله: **«لن يدخل الجنة أحد بعمله** قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! **قال: ولا أنا؛ إلا أن يتغمدني الله برحمته»**[(٣)].

فلا تغتر يا أخي بعملك، ولا تعجب فتقول: أنا عملت بكذا وكذا وسوف أدخل الجنة، قال تعالى: ﴿**يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ**﴾ [الحجرات: ١٧]، هذا باعتبار ما نراه نحن نحو أعمالنا؛ فيجب أن نرى لله المنة والفضل علينا، لكن باعتبار الجزاء، قال تعالى: ﴿**هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ**﴾ [الرحمن: ٦٠]؛ فتؤمن بأن الله تعالى يجزي الإحسان بالإحسان.

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٣٧٠٤)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٩٩).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٧٣٦، ٧٣٩٢)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٥٦٧٣، ٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).

٤٦ـ باب
احترام أسماء الله تعالى، وتغيير الاسم لأجل ذلك

عن أبي شريح: أنه كان يُكنى أبا الحكم. فقال له النبي ﷺ: «إن الله هو الحَكَم وإليه الحُكم» فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمتُ بينهم، فرضي كلا الفريقين. فقال: «ما أحسن هذا. فما لك من الولد؟» قلت: شريح ومسلم وعبد الله. قال: «فمن أكبرهم؟» قلت: شريح، قال: «فأنت أبو شريح»[1] رواه أبو داود، وغيره.

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب احترام أسماء الله تعالى، وتغيير الاسم لأجل ذلك.

عن أبي شريح: أنه كان يُكنى أبا الحكم. فقال له النبي ﷺ: «إن الله هو الحَكَم وإليه الحُكم» فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمتُ بينهم، فرضي كلا الفريقين. فقال: «ما أحسن هذا. فما لك من الولد؟» قلت: شريح ومسلم وعبد الله. قال: «فمن أكبرهم؟» قلت: شريح، قال: «فأنت أبو شريح» رواه أبو داود، وغيره.

قوله: (عن أبي شريح)، قال: في (خلاصة التذهيب): هو أبو شريح الخُزاعي، اسمه خويلد بن

السابع: أسماء الله ـ عز وجل ـ ودلالتها على الذات والصفة جميعًا دلالة مطابقة، ودلالتها على الذات وحدها أو على الصفة وحدها دلالة تضمُّن، ودلالتها على أمر خارج دلالة التزام.

مثال ذلك: (الخلاق) دلَّ على الذات، وهو الرب ـ عز وجل ـ، وعلى الصفة وهي الخلق جميعًا دلالة مطابقة، ودل على الذات وحدها أو على الصفة وحدها دلالة تضمن، ودلَّ على القدرة والعلم دلالة التزام.

الثامن: أسماء الله ـ عز وجل ـ لا يتم الإيمان بها إلا بثلاثة أمور إذا كان الاسم مُتَعَدِّيًا: الإيمان بالاسم اسمًا لله، والإيمان بما تضمنه من صفة، وما تضمنه من أثر وحُكم؛ فالعليم مثلاً لا يتم الإيمان به حتى نؤمن بأن العليم من أسماء الله، ونؤمن بما تضمنه من صفة العلم، ونؤمن بالحكم المرتب على ذلك، وهو أنه يعلم كل شيء، وإذا كان الاسم غير متعد؛ فنؤمن بأنه من أسماء الله وبما يتضمنه من صفة.

التاسع: أن من أسماء الله ما يختص به؛ مثل الله، الرحمن، رب العالمين، وما أشبه ذلك، ومنها ما لا يختص به، مثل: الرحيم، السميع، العليم، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، وقال تعالى عن النبي ﷺ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]

* * *

قوله: «باب احترام أسماء الله»: أي: وجوب احترام أسماء الله؛ لأن احترامها احترام لله ـ عز وجل ـ ومن تعظيم الله ـ عز وجل ـ؛ فلا يسمى أحد باسم مختص بالله، وأسماء الله تنقسم إلى قسمين:

---

(١) صحيح: رواه النسائي (٥٣٨٧)، وأبو داود (٤٩٥٥)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٨٤٥).

. . . .

عمرو[١]، أسلم يوم الفتح، له عشرون حديثًا، واتفقا على حديثين وانفرد البخاري بحديث، وروى عنه: أبو سعيد المقبُري، ونافع بن جُبير، وطائفة. قال ابن سعد: مات بالمدينة سنة ثمان وستين. وقال الشارح: اسمه هانئ بن يزيد الكندي، قال الحافظ: وقيل: الحارث الضبابي، قاله المِزِّي.

قوله: (يكنى)، الكنية: ما صُدِّر بأبٍ أو أم ونحو ذلك، واللقب ما ليس كذلك[٢]، كزين العابدين ونحوه.

وقول النبي ﷺ: «إن الله هو الحَكَم وإليه الحُكم» فهو سبحانه الحَكَم في الدنيا والآخرة؛ يحكم بين خلقه في الدنيا بوحيه الذي أنزله على أنبيائه ورسله، وما من قضية إلا ولله فيه حكمٌ مما أنزل على نبيه من الكتاب والحكمة. وقد يسر الله معرفة أكثر ذلك لأكثر العلماء من هذه الأمة؛ فإنها لا تجتمع على ضلالة، فإن العلماء وإن اختلفوا في بعض الأحكام فلابد أن يكون المصيب فيهم واحدًا.

فمن رزقه الله تعالى قوة الفهم، وأعطاه ملكةً يقتدر بها على فهم الصواب من أقوال العلماء، يسر له ذلك بفضله ومنِّه عليه، وإحسانه إليه. فما أجلها من عطية، فنسأل الله من فضله.

وقوله: «وإليه الحُكم في الدنيا والآخرة» كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

فالحكم إلى الله: هو الحُكم إلى كتابه، والحكم إلى رسوله: هو الحكم إليه في حياته، وإلى سنته بعد وفاته[٣].

وقد قال ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن، قال له: «بمَ تحكم؟» قال: بكتاب الله. قال: «فإن لم تجد؟» قال بسنة رسول الله ﷺ. قال: «فإن لم تجد؟» قال: أجتهد رأيي. فقال: «الحمد الله الذي وفّق

الأول: ما لا يصح إلا لله؛ فهذا لا يُسمَّى به غيره، وإن سُمِّي وجب تغييره؛ مثل: الله، الرحمن، رب العالمين، وما أشبه ذلك.

الثاني: ما يصح أن يوصف به غير الله؛ مثل: الرحيم، والسميع، والبصير، فإن لوحظت الصفة منع من التسمي به، وإن لم تلاحظ جاز التسمي به على أنه عَلَمٌ محض.

قوله: «عن أبي شريح»: هو هانئ بن يزيد الكندي، جاء وافدًا إلى النبي ﷺ مع قومه.

قوله: «إن الله هو الحَكَم وإليه الحكم»: «هو الحَكَمُ»؛ أي: المستحق أن يكون حاكمًا على عباده، حاكمًا بالفعل، يدل له قوله: «وإليه الحكم».

---

(١) وبهامش الخلاصة: وقيل: عمرو بن خويلد وقيل: هانئ بن عمرو، وقيل: خويلد بن شريح بن عمرو، كذا في الكنى كتاب ابن الملقن وجامع الأصول. (ق).

(٢) في كتب العربية: اللقب: ما أشعر بمدح أو ذم، كزين العابدين ونحوه. (ق).

(٣) يعني رد الحكم إلى الله: رد الحكم إلى كتابه، ورد الحكم إلى الرسول ﷺ: ورد الحكم إليه في حياته، ثم رده إلى سنته بعد وفاته ﷺ. (ق).

. . . .

رسولَ رسـول الله لما يرضـي رسـول الله» (١).

فمعاذ من أَجلِّ علماء الصحابة بالأحكام ومعرفة الحلال والحرام، ومعرفة أحكام الكتاب والسنة؛ ولهذا ساغ له الاجتهاد إذا لم يجد للقضية حُكمًا في كتاب اللّه ولا في سنة رسوله. بخلاف ما يقع اليوم وقبله من أهل التفريط في الأحكام، ممن يجهل حكم اللّه في كتابه وفي سنة رسوله، فيظن أن الاجتهاد يسوغ له مع الجهل بأحكام الكتاب والسنة، وهيهات!! (٢).

وأما يوم القيامة فلا يحكم بين الخلق إلا الله، إذا نزل لفصل القضاء بين العباد، فيحكم بين خلقه بعلمه، وهو الذي لا يخفىٰ عليه خافية من أعمال خلقه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٤٠].

والحكم يوم القيامة إنما هو بالحسنات والسيئات، فيؤخذ للمظلوم من الظالم، من حسناته بقدر ظلامته إن كان له حسنات. وإن لم يكن له حسنات أُخذ من سيئات المظلوم، فطُرح علىٰ سيئات الظالم، لا يزيد علىٰ هذا مثقال ذرة، ولا ينقص هذا عن حقه بمثقال ذرة.

وقوله: «وإليه الحكم»: الخبر فيه جار ومجرور مقدم، وتقديم الخبر يفيد الحصر، وعلىٰ هذا يكون الحكم راجعًا إلىٰ الله وحده.

وحكم الله ينقسم إلىٰ قسمين:

الأول: كوني، وهذا لا راد له؛ فلا يستطيع أحد أن يرده، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿**فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**﴾ [يوسف: ٨٠].

الثاني: شرعي، وينقسم الناس فيه إلىٰ قسمين: مؤمن وكافر؛ فمن رضيه وحكم به فهو مؤمن، ومن لم يرض به ولم يحكم به فهو كافر، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ**﴾ [الشورىٰ: ١٠].

وأما قوله: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ**﴾ [التين: ٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [المائدة: ٥٠]، فهو يشمل الكوني والشرعي، وإن كان ظاهر الآية الثانية أن المراد الحكم الشرعي؛ لأنه في سياق الحكم الشرعي، والشرعي يكون تابعًا للمحبة والرضا والكراهة والسخط، والكوني عام في كل شيء. وفي الحديث دليل علىٰ أن من أسمائه تعالىٰ: (الحكم).

وأما بالنسبة للعدل؛ فقد ورد عن بعض الصحابة أنه قال: «إن الله حَكَمٌ عدلٌ» (٣) ولا أعرف فيه

---

(١) ضعيف، وقد تقدم تخريجه.

(٢) بخلاف الصنف الآخر: الذي يعنون بأقوال الناس وآرائهم فيحفظونها متونًا وشروحًا مهما كانت معقدة وطويلة، ثم يقدمونها في العبادات والأحكام بين يدي الله ورسوله، فإنا لله وإنا إليه راجعون، لهذا حرم الناس من خير وهدى وعز وسلطان بهذا العزل لكتاب الله وسنة رسوله عن وظيفتهما. (ق)

(٣) رواه البيهقي في سننه الكبرى (١٠/ ٢١٠) من حديث معاذ بن جبل، ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٩١) من كلام محمد بن سيرين.

. . . .

قوله: «فإن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين،»: فقال: «ما أحسن هذا» فالمعنى - والله أعلم - أن أبا شريح لما عرف منه قومه أنه صاحب إنصاف وتحر للعدل بينهم، ومعرفة ما يرضيهم من الجانبين، صار عندهم مرضيًا. وهذا هو الصلح؛ لأن مداره على الرضى لا على إلزام، ولا على أحكام الكهان وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، ولا على الاستناد إلى أوضاع الجاهلية: من أحكام كبرائهم وأسلافهم، التي تخالف حكم الكتاب والسنة. كما قد يقع اليوم كثيرًا، كحال الطواغيت الذين لا يلتفتون إلى حكم الله ولا إلى حكم رسوله. وإنما المعتمد عندهم ما حكموا به بأهوائهم وآرائهم[1]. وقد يلتحق بهذا بعض المقلدة لمن لا يسغ تقليده، فيعتمد على تقليده ويترك ما هو الصواب، الموافق لأصول السنة والكتاب. والله المستعان.

وقوله: «فما لك من الولد؟» قال: شريح، ومسلم، وعبد الله، قال: «فمن أكبرهم؟» قلت: شريح، قال: «فأنت أبو شريح» فيه: تقديم الأكبر في الكنية وغيرها غالبًا. وجاء هذا المعنى في غير ما حديث. والله أعلم.

حديثًا مرفوعًا، ولكن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، لا شك أنه متضمن للعدل، بل هو متضمن للعدل وزيادة.

قوله: «فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني»: هذا جواب عن سؤال الرسول ﷺ له؛ لأن الرسول ﷺ سأله: لماذا يكنونك بهذه الكنية؟

والكنية: ما صدر بأب أو أم، وقال بعضهم: أو أخ أو عم أو خال.

وقد تكون للمدح؛ كما في الحديث، وقد تكون للذم؛ كأبي جهل، وقد تكون لمصاحبة الشيء؛ مثل أبي هريرة، وقد تكون مجرد علم، كأبي بكر وأبي العباس ابن تيمية؛ إذ ليس له ولد.

قوله: «ما أحسن هذا»: الإشارة تعود إلى إصلاحه بين قومه لا إلى تسميته بهذا الاسم؛ لأن النبي ﷺ غيره.

---

(١) في قرة العيون: وأما ما يحكم به الجهلة من الأعراب، ونحوهم من سوالف آبائهم وأهوائهم فليس من هذا الباب لما فيه من النهي الشديد والخروج عن حكم الله ورسوله إلى ما يخالفه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وهذا كثير، فمن الناس من يحكم بين الخصمين برأيه وهواه، ومنهم من يتبع في ذلك سلفه ويحكم بما كانوا يحكمون به، وهذا كفر إذا استقر وغلب على من تصدى لذلك ممن يرجع الناس إليه إذا اختلفوا. اهـ

والنص الصحيح في إبطال حكم السوالف من حكام البدو غير المتدينين هو قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] وأبو شريح كان من قضاة الجاهلية قبل الإسلام، ولذلك كنوه بـ«بأبي الحكم»، فأنكرها عليه النبي ﷺ وغيرها، ولفظ «الحكم» بفتحتين لا ينهى عنه في الإسلام لقوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٣٥] وذلك لأنه يحكم بما شرعه الله من صلح وإصلاح وقد أذن الله للمؤمنين بأن يحكموا بين الناس بالعدل. (ق).

فيه مسائل:

الأولى: احترام أسماء الله وصفاته، ولو لَمْ يقصد معناه.

الثانية: تغيير الاسم لأجل ذلك.

الثالثة: اختيار أكبر الأبناء للكُنية.

. . . .

قوله: «شريح ومسلم وعبد الله»: الظاهر: أنه ليس له إلا الثلاثة؛ لأن الولد في اللغة العربية يشمل الذَّكَر والأنثىٰ، فلو كان عنده بنات لعدهن.

قوله: «فأنت أبو شريح»: غيّره النبي ﷺ؛ لأمرين:

الأول: أن الحكم هو الله، فإذا قيل: يا أبا الحكم! كأنه قيل: يا أبا الله!

الثاني: أن هذا الاسم الذي جعل كنية لهذا الرجل لوحظ فيه معنىٰ الصفة وهي الحكم، فصار بذلك مطابقًا لاسم الله، وليس لمجرد العَلَمية المحضة، بل للعلمية المتضمنة للمعنىٰ، وبهذا يكون مشاركًا لله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ في ذلك، ولهذا كنّاه النبي ﷺ بما ينبغي أن يُكنّىٰ به.

فيه مسائل:

الأولى: احترام أسماء الله وصفاته ولو لم يقصد معناه: قوله: «**ولو لم يقصد معناه**» هذا في النفس منه شيء؛ لأنه إذا لم يقصد معناه؛ فهو جائز، إلا إذا سُمِّي بما لا يصح إلا لله، مثل: الله، الرحمن، رب العالمين، وما أشبهه؛ فهذه لا تطلق إلا على الله مهما كان، وأما ما لا يختص بالله؛ فإنه يسمَّىٰ به غير الله إذا لم يلاحظ معنىٰ الصفة، بل كان المقصود مجرد العلمية فقط؛ لأنه لا يكون مطابقًا لاسم الله، ولذلك كان في الصحابة من اسمه «الحكم» ولم يغيره النبي ﷺ؛ لأنه لم يقصد إلا العَلَمية، وفي الصحابة من اسمه «حكيم» وأقره النبي ﷺ.

فالذي يحترم من أسمائه تعالىٰ ما يختص به، أو ما يقصد به ملاحظة الصفة.

الثانية: تغيير الاسم لأجل ذلك: وقد سبق الكلام عليه.

الثالثة: اختيار أكبر الأبناء للكنية: تؤخذ من سؤال النبي ﷺ: «**فمن أكبرهم؟ قال: شريح. قال: فأنت أبو شريح**». ولا يؤخذ من الحديث استحباب التكني؛ لأن النبي ﷺ أراد أن يغير كنيته إلىٰ كنية مباحة ولم يأمره النبي ﷺ أن يُكنّىٰ ابتداءً.

ويستفاد من الحديث ما يلي:

١ ـ أنه ينبغي لأهل الوعظ والإرشاد والنصح إذا أغلقوا بابًا محرمًا أن يبينوا للناس المباح، وقد سبق تقرير ذلك.

٢ ـ أن الحكم لله؛ لقوله ﷺ: «**وإليه الحكم**»، أما الكوني؛ فلا نزاع فيه بين أحد من الخلق ولا يعارض الله أحد في أحكامه الكونية.

. . . .

. . . .

وأما الشرعي؛ فهو محك الفتنة والامتحان والاختبار، فمن شرع للناس شرعًا سوىٰ شرع الله ورأىٰ أنه أحسن من شرع الله وأنفع للعباد، أو أنه مساوٍ لشرع الله، أو أنه يجوز ترك شرع الله إليه؛ فإنه كافر؛ لأنه جعل نفسه ندًا لله ـ عز وجل ـ سواء في العبادات أو المعاملات.

والدليل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ [المائدة: ٥٠]؛ فدلت الآية علىٰ أنه لا أحد أحسن من حكم الله ولا مساوٍ لحكم الله؛ لأن أحسن اسم تفضيل: معناه لا يوجد شيء في درجته، ومن زعم ذلك؛ فقد كذَّب الله ـ عز وجل ـ وقال تعالىٰ: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [المائدة: ٤٤]، وهذا دليل علىٰ أنه لا يجوز العدول عن شرع الله إلىٰ غيره، وأنه كفر.

فإن قيل: قال الله تعالىٰ: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [المائدة: ٤٧].

قلنا: قال الله تعالىٰ: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا** ﴾ [النساء: ٦٠، ٦١]، وهذا دليل علىٰ كفرهم؛ لأنه قال: «يزعمون أنهم آمنوا»، وهذا إنكار لإيمانهم، فظاهر الآية أنهم يزعمون بلا صدق ولا حق.

فقوله ﷺ: «**وإليه الحكم**» يدل علىٰ أن من جعل الحكم لغير الله، فقد أشرك.

فائدة:

يجب علىٰ طالب العلم أن يعرف الفرق بين التشريع الذي يجعل نظامًا يمشي عليه ويستبدل به القرآن، وبين أن يحكم في قضية معينة بغير ما أنزل الله، فهذا قد يكون كفرًا أو فسقًا أو ظلمًا.

فيكون كفرًا إذا اعتقد أنه أحسن من حكم الشرع أو مماثل له.

ويكون فسقًا إذا كان لهوىٰ في نفس الحاكم.

ويكون ظلمًا إذا أراد مضرة المحكوم عليه، وظهور الظلم في هذه أبين من ظهوره في الثانية، وظهور الفسق في الثانية أبين من ظهوره في الثالثة.

٣ ـ تغيير الاسم إلىٰ ما هو أحسن إذا تضمن أمرًا لا ينبغي، كما غيَّر النبي ﷺ بعض الأسماء المباحة، ولا يحتاج ذلك إلىٰ إعادة العقيقة كما يتوهمه بعض العامة.

* * *

٤٧ـ باب
من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول.
أي: فقد كفر.

باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

(من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول) أي: فإن هذا مناف للإيمان بالكلية، ومخرج من الدين، لأن أصل الدين: الإيمان بالله وكتبه ورسله، ومن الإيمان تعظيم ذلك.

هذه الترجمة فيها شيء من الغموض، والظاهر أن المراد من هزل بشيء فيه ذكر الله مثل الأحكام الشرعية، أو هزل بالقرآن أو هزل بالرسول ﷺ، فيكون معطوفًا على قوله بشيء.

والمراد بالرسول هنا: اسم الجنس، فيشمل جميع الرسل، وليس المراد محمداً ﷺ؛ فـ (أل) للجنس وليست للعهد.

قوله: «من هزل»: سخر واستهزأ ورآه لعبًا ليس جداً. ومن هزل بالله أو بآياته الكونية أو الشرعية أو برسله، فهو كافر؛ لأن منافاة الاستهزاء للإيمان منافاة عظيمة. كيف يسخر ويستهزئ بأمر يؤمن به؟! فالمؤمن بالشيء لابد أن يعظمه وأن يكون في قلبه من تعظيمه ما يليق به.

والكفر كفران: كفر إعراض، وكفر معارضة، والمستهزئ كافر كفر معارضة، فهو أعظم ممن يسجد لصنم فقط، وهذه المسألة خطيرة جدًا، ورب كلمة أوقعت بصاحبها البلاء بل والهلاك وهو لا يشعر، فقد يتكلم الإنسان بالكلمة من سخط الله ـ عز وجل ـ لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار.

فمن استهزأ بالصلاة ـ ولو نافلة ـ، أو بالزكاة، أو الصوم، أو الحج، فهو كافر بإجماع المسلمين، كذلك من استهزأ بالآيات الكونية بأن قال مثلاً: إن وجود الحر في أيام الشتاء سفه، أو قال: إن وجود البرد في أيام الصيف سفه، فهذا كفر مخرج عن الملة؛ لأن الرب ـ عز وجل ـ كل أفعاله مبنية على الحكمة وقد لا نستطيع بلوغها بل لا نستطيع بلوغها.

ثم اعلم أن العلماء اختلفوا فيمن سب الله أو رسوله أو كتابه: هل تقبل توبته؟ على قولين:

القول الأول: أنها لا تقبل، وهو المشهور عند الحنابلة، بل يقتل كافرًا، ولا يُصلى عليه، ولا يُدعى له بالرحمة، ويدفن في محل بعيد عن قبور المسلمين، ولو قال: إنه تاب أو إنه أخطأ؛ لأنهم يقولون: إن هذه الردة أمرها عظيم وكبير لا تنفع فيها التوبة.

وقال بعض أهل العلم: إنها تقبل إذا علمنا صدق توبته إلى الله، وأقر على نفسه بالخطأ، ووصف الله تعالى بما يستحق من صفات التعظيم، وذلك لعموم الأدلة الدالة على قبول التوبة؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، ومن الكفار من يسبون الله، ومع ذلك تقبل توبتهم.

وهذا هو الصحيح، إلا أن سابَّ الرسول ﷺ تقبل توبته ويجب قتله، بخلاف من سب الله؛ فإنها تقبل توبته ولا يقتل، لا لأن حق الله دون حق الرسول ﷺ، بل لأن الله أخبرنا بعفوه عن حقه إذا تاب العبد إليه بأنه يغفر الذنوب جميعًا، أما سابّ الرسول ﷺ؛ فإنه يتعلق به أمران:

وقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

الأول: أمر شرعي لكونه رسول الله ﷺ، ومن هذا الوجه تقبل توبته إذا تاب.

الثاني: أمر شخصي لكونه من المرسلين، ومن هذا الوجه يجب قتله لحقه ﷺ ويقتل بعد توبته على أنه مسلم، فإذا قتل غسلناه وكفناه وصلينا عليه ودفناه مع المسلمين. وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد ألف كتابًا في ذلك اسمه: «الصارم المسلول في حكم قتل ساب الرسول»، أو: «الصارم المسلول على شاتم الرسول»، وذلك لأنه استهان بحق الرسول ﷺ، وكذا لو قذفه؛ فإنه يقتل ولا يجلد.

فإن قيل: أليس قد ثبت أن من الناس من سب الرسول ﷺ وقبل منه وأطلقه؟

أجيب: بلى، هذا صحيح، لكن هذا في حياته ﷺ، وقد أسقط حقه أما بعد موته فلا ندري فننفذ ما نراه واجبًا في حق من سبه ﷺ.

فإن قيل: احتمال كونه يعفو عنه أو لا يعفو موجب للتوقف؟

أجيب: إنه لا يوجب التوقف؛ لأن المفسدة حصلت بالسب وارتفاع أثر هذا السب غير معلوم، والأصل بقاؤه.

فإن قيل: أليس الغالب أن الرسول ﷺ عفا عمن سبه؟

أجيب: بلى، وربما كان في حياة الرسول ﷺ إذا عفا قد تحصل المصلحة ويكون في ذلك تأليف، كما أنه ﷺ يعلم أعيان المنافقين ولم يقتلهم؛ لئلا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، لكن الآن لو علمنا أحدًا بعينه من المنافقين لقتلناه.

قال ابن القيم: إن عدم قتل المنافق المعلوم إنما هو في حياة الرسول ﷺ فقط.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾: الخطاب للنبي؛ أي: سألت هؤلاء الذين يخوضون ويلعبون بالاستهزاء بالله وكتابه ورسوله والصحابة.

قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾: جواب القسم، قال ابن مالك:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم   جواب ما أخرت فهو ملتزم

ولهذا جاءت اللام التي تقترن بجواب القسم دون الفاء التي تقع في جواب الشرط.

قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ أي: المسؤولون.

قوله: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾: أي: ما لنا قصد، ولكننا نخوض ونلعب، واللعب يقصد به الهزء وأما الخوض، فهو كلام عائم لا زمام له. هذا إذا وصف بذلك القول، وأما إذا لم يوصف به القول؛ فإنه يكون الخوض في الكلام واللعب في الجوارح.

. . . .

. . . .

وقوله: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾: ﴿إِنَّمَا﴾ : أداة حصر؛ أي: ما شأننا وحالنا إلا أننا نخوض ونلعب.

قوله: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾: الاستفهام للإنكار والتعجب، فينكر عليهم أن يستهزئوا بهذه الأمور العظيمة، ويتعجب كيف يكون أحق الحق محلاً للسخرية؟

قوله: ﴿أَبِاللَّهِ﴾. أي: بذاته وصفاته، ﴿وَآيَاتِهِ﴾: جمع آية، ويشمل:

الآيات الشرعية؛ كالاستهزاء بالقرآن، بأن يقال: هذا أساطير الأولين ـ والعياذ بالله ـ، أو يستهزئ بشيء من الشرائع؛ كالصلاة والزكاة والصوم والحج.

والآيات الكونية؛ كأن يسخر بما قدَّره الله تعالى، كيف يأتي هذا في هذا الوقت؟ كيف يخرج هذا الثمر من هذا الشيء؟ كيف يخلق هذا الذي يضر الناس ويقتلهم؟ استهزاءً وسخرية.

قوله: ﴿وَرَسُولِهِ﴾: المراد هنا محمد ﷺ.

قوله: ﴿لا تَعْتَذِرُوا﴾: المراد بالنهي التيئيس؛ أي: انههم عن الاعتذار تيئيسًا لهم بقبول أعذراهم.

قوله: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾: أي: بالاستهزاء وهم لم يكونوا منافقين خالصين بل مؤمنين، ولكن إيمانهم ضعيف، ولهذا لم يمنعهم من الاستهزاء بالله وآياته ورسوله.

قوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾:

﴿نَّعْفُ﴾: ضمير الجمع للتعظيم، أي: الله ـ عز وجل ـ.

وقوله: ﴿عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ﴾: قال بعض أهل العلم: هؤلاء حضروا وصار عندهم كراهية لهذا الشيء، لكنهم داهنوا فصاروا في حكمهم لجلوسهم إليه، لكنهم أخف لما في قلوبهم من الكراهة، ولهذا عفا الله عنهم وهداهم للإيمان وتابوا.

قوله: ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾: هذا جواب الشرط، أي: لا يمكن أن نعفو عن الجميع، بل إن عفونا عن طائفة، فلابد أن نعذب الآخرين.

قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾: الباء للسببية، أي: بسبب كونهم مجرمين بالاستهزاء وعندهم جرم ـ والعياذ بالله ـ فلا يمكن أن يوفقوا للتوبة حتى يُعفى عنهم.

ويستفاد من الآيتين:

١ ـ بيان علم الله ـ عز وجل ـ بما سيكون؛ لقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ﴾، وهذا مستقبل؛ فالله عالم ما كان وما سيكون، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: ١٢٣].

٢ ـ أن الرسول ﷺ يحكم بما أنزل الله إليه حيث أمره أن يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ﴾.

٣ ـ أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله من أعظم الكفر؛ بدليل الاستفهام والتوبيخ.

٤ ـ أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله أعظم استهزاء وقبحًا؛ لقوله: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ﴾، وتقديم المتعلق يدل على الحصر كأنه ما بقي إلا أن يتسهزئوا بهؤلاء الذين ليسوا محلاً للاستهزاء، بل أحق الحق هؤلاء الثلاثة.

عن ابن عمر، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة ـ دخل حديث بعضهم في بعض ـ أنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قُرَّائنا هؤلاء أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسُنا، ولا أجبن عند اللقاء، يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القُراء. فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ. فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه. فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ، وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب؛ نقطع به عنا الطريق. قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلِّقًا بنِسْعة ناقة رسول الله ﷺ وإن الحجارة تنكبُ رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض

عن ابن عمر، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة ـ دخل حديث بعضهم في بعض ـ أنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قُرَّائنا هؤلاء أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسُنا، ولا أجبن عند اللقاء، يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القُراء. فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ. فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه. فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ، وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب؛ نقطع به عنا الطريق. قال ابن عمر: كأني أنظر إليه

ومن المعلوم أن الاستهزاء والهزل بشيء من هذه أشد من الكفر المجرد، لأن هذا كفر وزيادة احتقار وازدراء، فإن الكفار نوعان: معرضون ومعارضون، فالمعارض المحارب لله ورسوله، القادح بالله وبدينه ورسوله أغلظ كفرًا وأعظم فسادًا، والهازل بشيء منها من هذا النوع.

---

٥ ـ أن المستهزئ بالله يكفر؛ لقوله: ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

٦ ـ استعمال الغلظة في محلها، وإلا فالأصل أن من جاء يعتذر يرحم، لكنه هنا ليس أهلاً للرحمة.

٧ـ قبول توبة المستهزئ بالله؛ لقوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ﴾، وهذا أمر قد وقع، فإن من هؤلاء من عفي عنه وهُدي للإسلام وتاب وتاب الله عليه، وهذا دليل للقول الراجح أن المستهزئ بالله تقبل توبته، لكن لابد من دليل بيّن على صدق توبته؛ لأن كفره من أشد الكفر أو هو أشد الكفر، فليس مثل كفر الإعراض أو الجحد.

وهؤلاء الذين حضروا السب مثل الذين سبوا، قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠] وهم يستطيعون المفارقة، والنبي ﷺ امتثل أمر الله بتبليغهم، حتى إن الرجل الذي جاء يعتذر صار يقول له: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، ولا يزيد على هذا أبدًا مع إمكان أن يزيده توبيخًا وتقريعًا.

قوله: «عن ابن عمر»: هو عبد الله.

«ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة».

والثلاثة تابعيون؛ فالرواية عن ابن عمر مرفوعة، وعن الثلاثة الآخرين مرسلة.

ونلعب. فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]. ما يلتفتُ إليه، وما يزيده عليه.

متعلِّقًا بنسْعة ناقة رسول الله ﷺ وإن الحجارة تنكبُ رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب. فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]. ما يلتفتُ إليه، وما يزيده عليه.

قال العماد ابن كثير رحمه اللَّه في (تفسيره): قال أبو مَعْشر المدني، عن محمد بن كعب القُرظي، وغيره، قالوا: قال رجل من المنافقين: ما أرىٰ قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونًا[1]، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء. فرُفع ذلك إلىٰ رسول اللَّه ﷺ، وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول اللَّه إنما كنا نخوض ونلعب، فقال: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]، وإن رجليه ليسفعان[2] الحجارة، وما يلتفت إليه رسول اللَّه ﷺ وهو متعلِّقٌ بنسْعَة[3] ناقة رسول اللَّه ﷺ.

وقال عبد اللَّه بن وهب: أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عبد اللَّه بن عمر، قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يومًا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول اللَّه ﷺ، فبلغ ذلك رسول اللَّه ﷺ ونزل القرآن. قال عبد اللَّه بن عمر: وأنا رأيته متعلقًا بحقب ناقة رسول اللَّه ﷺ تَنكُبه الحجارة، وهو

قوله: «دخل حديث بعضهم في بعض»: أي: إن هذا الحديث مجموع من كلامهم، وهذا يفعله بعض أئمة الرواة كالزهري وغيره، فيحدثه جماعة بشأن قصة من القصص كحديث الإفك مثلاً، فيجمعون هذا ويجعلونه في حديث واحد، ويشيرون إلىٰ هذا، فيقولون: دخل حديث بعضهم في بعض، أو يقول: حدثني بعضهم بكذا وبعضهم بكذا، وما أشبه ذلك.

قوله: «في غزوة تبوك»: تبوك في أطراف الشام، وكانت هذه الغزوة في رجب حين طابت الثمار، وكان مع الرسول ﷺ في هذه الغزوة نحو ثلاثين ألفًا، ولما خرجوا رجع عبد الله بن أبي بنحو نصف المعسكر، حتىٰ قيل: إنه لا يُدرىٰ أي الجيشين أكثر: الذين رجعوا، أو الذين ذهبوا؟ مما يدل علىٰ وفرة النفاق في تلك السنة، وكانت في السنة التاسعة، وسببها أنه قيل للنبي ﷺ: إن قومًا من الروم ومن متنصرة العرب يجمعون له، فأراد أن يغزوهم ﷺ إظهارًا للقوة وإيمانًا بنصر الله -عز وجل-.

---

(١) في تفسير ابن كثير وتفسير ابن جرير: «ما أرى قرّاءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونًا». (ق).

(٢) سفع الطائر ضريبته - كمنع - لطمها بجناحيه، وسفح فلان فلانًا لطمه وضربه، والمعنى أن الحجارة تضرب رجليه من سرعة المسير وأنه مشغول عن ذلك. (ق).

(٣) النسعة - بكسر النون وسكون المهملة، سير مضفور يجعل زمامًا للبعير وغيره (*). (ق).

(*) قوله: (النسعة بكسر النون وسكون المهملة سير مضفور يجعل زمامًا للبعير وغيره) أقول في قوله: يجعل زمامًا للبعير نظر والصواب أن النسعة حبل يشد به الرحل ولا يطلق على الزمام. قال في القاموس: (النسع بالكسر: سير ينسج عريضًا على هيئة أعنة النعال، يشد به الرحال والقطعة منه نسعة، وسمي نسعًا لطوله. انتهى المقصود. (ز)

. . . .

يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾. وقد رواه الليث، عن هشام ابن سعد، بنحو من هذا.

قال ابن إسحاق: وقد كان جماعة من المنافقين، منهم: وديعة بن ثابت، أخو بني أمية بن زيد بن عمرو ابن عوف، ورجل من أشجع، حليف لبني سلمة، يقال له: مَخْشي بن حُمَيِّر، يشيرون إلىٰ رسول اللَّه ﷺ وهو منطلق إلىٰ تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ واللَّه لكأنا بكم غدًا مقرَّنين في الحبال؛ إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين. فقال مَخشي بن حُمير: واللَّه لوددت أني أُقاضي علىٰ أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وإنا نتفلَّت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه.

وقال رسول اللَّه ﷺ ـ فيما بلغني ـ لعمار بن ياسر: «**أدرك القوم فإنهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا: فإن أنكروا، فقل: بلى قُلتم كذا وكذا**» فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم. فأتوا رسول اللَّه ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت ـ ورسول اللَّه ﷺ واقف علىٰ راحلته ـ فجعل يقول وهو آخذ بحَقَبِها: يا رسول الله،

قوله: «ما رأينا»: تحتمل أن تكون بصرية، وتحتمل أن تكون علمية قلبية.

قوله: «مثل قرائنا»: المفعول الأول، والمراد بهم الرسول ﷺ وأصحابه.

قوله: «أرغب بطونًا»: المفعول الثاني؛ أي: أوسع، وإنما كانت الرغبة هنا بمعنىٰ السعة؛ لأنه كلما اتسع البطن رغب الإنسان في الأكل.

قوله: «ولا أكذب ألسنًا»: الكذب: هو الإخبار بخلاف الواقع، والألسن: جمع لسان، والمراد: ولا أكذب قولاً، واللسان يطلق علىٰ القول كثيراً في اللغة العربية؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]؛ أي: بلغتهم.

قوله: «ولا أجبن عند اللقاء»: الجبن: هو خور في النفس يمنع المرء من الإقدام علىٰ ما يكره، فهو خلق نفسي ذميم، ولهذا كان النبي ﷺ يستعيذ منه لما يحصل فيه من الإحجام عما ينبغي الإقدام إليه، فلهذا كان صفة ذميمة، وهذه الأوصاف تنطبق علىٰ المنافقين لا علىٰ المؤمنين، فالمؤمن يأكل بمعي واحد: ثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنَفَسه، والكافر يأكل بسبعة أمعاء. والمؤمن أصدق الناس لسانًا ولاسيما النبي ﷺ وأصحابه؛ فإن الله وصفهم بالصدق في قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

والمنافقون أكذب الناس؛ كما قال الله فيهم: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، وجعل النبي ﷺ الكذب من علامات النفاق[1]، والمنافقون من أجبن الناس، قال تعالىٰ: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، فلو سمعوا أحدًا ينشد ضالته؛ لقالوا: عدو، عدو، وهم أحب

---

(١) ثبت ذلك من حديث أبي هريرة بلفظ: «**آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان**» والحديث رواه البخاري (٣٣) ومواضع، ومسلم (٥٩)، وثبت أيضًا من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص بلفظ: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا اؤتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر**» والحديث رواه البخاري (٣٤، ٣١٧٨)، ومسلم (٥٨).

. . . .

إنما كنا نخوض ونلعب، فقال مَخْشي بن حُمَيِّر: يا رسول اللَّه قعد بي اسمي واسم أبي، فكأن الذي عناه - أي بقوله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ - في هذه الآية: مخشي بن حمير، فسُمِّي: عبد الرحمن، وسأل اللَّه أن يُقتل شهيداً لا يُعلم بمكانه، فقُتل يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر.

وقال عكرمة في تفسير هذه الآية: كان رجل ممن - إن شاء اللَّه - عفا عنه، يقول: اللهم إني أسمع آيةً أنا أُعْنَىٰ بها، تقشعر منها الجلود ويجبُ منها القلب. اللهم فاجعل وفاتي قتلاً في سبيلك، لا يقول أحد: أنا غسَّلت، أنا كفنت، أنا دفنت، قال: فأُصيب يوم اليمامة، فما أحد من المسلمين إلا وقد وجد غيره.

قوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي: بهذا المقال الذي استهزءتم به ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ أي: لا يُعفىٰ عن جميعكم، ولابد من عذاب بعضكم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي: مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة، انتهىٰ.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وقد أمره اللَّه أن يقول: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ وقول من يقول: إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم: لا يصح؛ لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر، فلا يقال: قد كفرتم بعد إيمانكم؛ فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر، وإن أُريد أنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان، فهم لم يُظهروا للناس إلا لخواصهم، وهم مع خواصهم مازالوا كذلك، ولا يدل اللفظ علىٰ أنهم ما زالوا منافقين.

الناس للدنيا؛ إذ أصل نفاقهم من أجل الدنيا ومن أجل أن تحمىٰ دماؤهم وأموالهم وأعراضهم.

قوله: «كذبت»: أي: أخبرت بخلاف الواقع، وفي ذلك دليل علىٰ تكذيب الكذب مهما كان الأمر، وأن السكوت عليه لا يجوز.

قوله: «ولكنك منافق»: لأنه لا يطلق هذه الأوصاف علىٰ رسول الله ﷺ وأصحابه رجل تسمىٰ بالإسلام إلا منافق، وبهذا يعرف أن من يسب أصحاب رسول الله ﷺ، أنه كافر؛ لأن الطعن فيهم طعن في الله ورسوله وشريعته. فيكون طعنًا في الله؛ لأنه طعن في حكمته، حيث اختار لأفضل خلقه أسوأ خلقه. وطعنًا في الرسول ﷺ؛ لأنهم أصحابه، والمرء علىٰ دين خليله، والإنسان يُستدل علىٰ صلاحه أو فساده أو سوء أخلاقه أو صلاحها بالقرين. وطعنًا في الشريعة؛ لأنهم الواسطة بيننا وبين الرسول ﷺ في نقل الشريعة، وإذا كانوا بهذه المثابة، فلا يوثق بهذه الشريعة.

قوله: «فوجد القرآن قد سبقه»: أي: بالوحي من الله تعالىٰ، والله عليم بما يفعلون وبما يريدون وبما يبيتون، قال تعالىٰ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨].

قوله: «وقد ارتحل وركب ناقته»: الظاهر أن هذا من باب عطف التفسير؛ لأن ركوب الناقة هو الارتحال.

قوله: «كأني أنظر إليه»: كأن إذا دخلت علىٰ مشتق، فهي للتوقع، وإذا دخلت علىٰ جامد، فهي للتشبيه، وهنا دخلت علىٰ جامد، والمعنىٰ: كأنه الآن أمامي من شدة يقيني به.

فيه مسائل:

الأولى: وهي العظيمة ـ أنَّ من هَزَلَ بِهَذَا فهو كافر.

وقال رحمه اللَّه في موضع آخر: فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم، مع قولهم: إنا تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له، بل إنما كنا نخوض ونلعب.

وبيَّن أن الاستهزاء بآيات اللَّه كفر، ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدراً بهذا الكلام، ولو كان الإيمان في قلبه منعه أن يتكلم بهذا الكلام. والقرآن يبين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه؛ كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٤٧، ٥١] نفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول، وأخبر أن المؤمنين إذا دُعوا إلى اللَّه ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا، فبيَّن أن هذا من لوازم الإيمان. انتهى.

وفيه: بيان أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها، أو عمل يعمل به[1]. وأشدها خطراً إرادات القلوب، فهي كالبحر الذي لا ساحل له، ويُفيد الخوف من النفاق الأكبر؛ فإن اللَّه تعالى أثبت لهؤلاء إيمانًا قبل أن يقولوا ما قالوه، كما قال ابن أبي مُليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب رسول اللَّه ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه.

نسأل اللَّه السلامة والعفو والعافية في الدنيا والآخرة.

قوله: «بنسعة»: هي الحزام الذي يربط به الرحل.

قوله: «والحجارة تنكب رجليه»: أي: يمشي والحجارة تضرب رجليه وكأنه ـ والله أعلم ـ يمشي بسرعة، ولكنه لا يحس في تلك الحال؛ لأنه يريد أن يعتذر.

قوله: «وما يزيده عليه»: أي: لا يزيده على ما ذكر من توبيخ امتثالاً لأمر الله ـ عز وجل، وكفى بالقول الذي أرشد الله إليه نكاية وتوبيخًا.

فيه مسائل:

الأولى ـ وهي العظيمة ـ: أن من هزل بهذا فهو كافر: المشار إليه: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ﴾.

---

(١) ومن هذا الباب الاستهزاء بالعلم وأهله؛ وعدم احترامهم لأجله(*). (ق).

(*) قوله: (ومن هذا الباب الاستهزاء بالعلم وأهله؛ وعدم احترامهم لأجله) أقول هذا القول فيه إجمال، والصواب التفصيل فإن كان الاستهزاء بالعلم الشرعي أو بالعلماء لأجله فلا شك أن ذلك ردة عن الإسلام، لأنه تنقص لما عظمه الله واستخفاف به، وفي ضمن ذلك احتقاره والتكذيب به، أما إن كان الاستهزاء بالعلماء يرجع إلى أمر آخر كالملابس أو حرص بعضهم على الدنيا أو اعتيادهم خلاف ما عليه الناس من العوائد التي لا تعلق بها بالشرع أو لما يشبه ذلك، فهذا وأشباهه لا يكون ردة عن الإسلام لأنه لا يرجع إلى الدين وإنما يرجع إلى أمور أخرى، والله سبحانه وتعالى أعلم. (ز)

الثانية: أنَّ هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائنًا من كان.

الثالثة: الفرقُ بين النميمة وبين النصيحة لله ولرسوله.

الرابعة: الفرقُ بين العفو الذي يحبه الله، وبين الغلظة على أعداء الله.

الخامسة: أنَّ من الأعذار ما لا ينبغي أن يُقبَلَ.

. . . .

الثانية: أن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائنًا من كان: أي: سواء كان منافقًا أو غير منافق ثم استهزأ؛ فإنه يكفر كائنًا من كان.

الثالثة: الفرق بين النميمة والنصيحة لله ولرسوله: النميمة: من نَمَّ الحديث؛ أي: نقله ونسبه إلى غيره، وهي نقل كلام الغير للغير بقصد الإفساد، وهي من أكبر الذنوب، قال ﷺ: **«لا يدخل الجنة نمام»**[1]، وأخبر عن رجل يُعَذَّبُ في قبره؛ لأنه كان يمشي بالنميمة[2]، وأما النصيحة لله ورسوله؛ فلا يقصد بها ذلك، وإنما يقصد بها احترام شعائر الله -عز وجل- وإقامة حدوده وحفظ شريعته، وعوف بن مالك نقل كلام هذا الرجل؛ لأجل أن يقام عليه الحد أو ما يجب أن يقام عليه وليس قصده مجرد النميمة. ومن ذلك لو أن رجلاً اعتمد على شخص ووثق به، وهذا الشخص يكشف سره ويستهزئ به في المجالس، فإنك إذا أخبرت هذا الرجل بذلك، فليس هذا من النميمة، بل من النصحية.

الرابعة: الفرق بين العفو الذي يحبه الله وبين الغلظة على أعداء الله: العفو الذي يحبه الله: هو الذي فيه إصلاح؛ لأن الله اشترط ذلك في العفو فقال: ﴿**مَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ**﴾ [الشورى: ٤٠]؛ أي: كان عفوه مشتملاً على الإصلاح، وقال بعضهم: أي أصلح الود بينه وبين من أساء إليه، وهذا تفسير قاصر، والصواب أن المراد به أصلح في عفوه؛ أي: كان في عفوه إصلاح.

فمن كان عفوه إفسادًا لا إصلاحًا؛ فإنه آثم بهذا العفو، ووجه ذلك من الآية ظاهر؛ لأن الله قال: ﴿**عَفَا وَأَصْلَحَ**﴾، ولأن العفو إحسان والفساد إساءة، ودفع الإساءة أولى، بل العفو حينئذ محرم. والنبي ﷺ غلَّظ على هذا الرجل لكونه ﷺ لم يلتفت إليه، ولا يزيد على هذا الكلام الذي أمره الله به مع أن الحجارة تنكب رجل الرجل، ولم يرحمه النبي ﷺ ولم يرق له، ولكل مقام مقال؛ فينبغي أن يكون الإنسان شديدًا في موضع الشدة، لينًا في موضع اللين، لكن أعداء الله -عز وجل- الأصل في معاملتهم الشدة، قال تعالى في وصف الرسول ﷺ وأصحابه: ﴿**أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾، وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ [التحريم: ٩]، ذكرها الله في سورتين من القرآن مما يدل على أنها من أهم ما يكون، لكن استعمال اللين أحيانًا للدعوة والتأليف قد يكون مستحسنًا.

الخامسة: أن من الاعتذار ما لا ينبغي أن يقبل: فالأصل في الاعتذار أن يقبل لا سيما إذا كان المعتذر محسنًا، لكن حصلت منه هفوة، فإن علم أنه اعتذار باطل؛ فإنه لا يقبل.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٥)، وأحمد (٢٢٨١٤) ومواضع، ورواه البخاري (٦٠٥٦) بلفظ: **«لا يدخل الجنة قتات»**.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢١٦) ومواضع، ومسلم (٢٩٢).

٤٨ـ باب قول الله تعالى:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ [فصلت: ٥٠]

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب قول الله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [فصلت: ٥٠].

ذكر المصنف رحمه اللّٰه تعالىٰ عن ابن عباس، وغيره من المفسرين ـ في معنىٰ هذه الآية وما بعدها ـ ما يكفي في المعنىٰ ويشفي.

مناسبة الباب لـ «كتاب التوحيد»: أن الإنسان إذا أضاف النعمة إلىٰ عمله وكسبه، ففيه نوع من الإشراك بالربوبية، وإذا أضافها إلىٰ الله لكنه زعم أنه مستحق لذلك وأن ما أعطاه الله ليس محض تفضل، لكن لأنه أهل ففيه نوع من التعلّي والترفع في جانب العبودية.

وقد ذكر الشيخ فيه آيتين:

الآية الأولىٰ: ما ترجم به المؤلف، وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ ﴾: الضمير يعود علىٰ الإنسان، والمراد به الجنس. وقيل: المراد به الكافر.

والظاهر أن المراد به الجنس؛ إلا أنه يمنع من هذه الحال الإيمان، فلا يقول ذلك المؤمن، ، قال تعالىٰ في أول الآية: ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ [فصلت: ٤٧ـ٤٩]، هذه حال الإنسان من حيث هو إنسان، لكن الإيمان يمنع الخصال السيئة المذكورة.

قوله: ﴿ مِّنَّا ﴾: أضافه الله إليه؛ لوضوح كونها من الله، ولتمام منته بها.

قوله: ﴿ مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾: أي: أنه لم يذق الرحمة من أول أمره، بل أصيب بضراء؛ كالفقر وفقد الأولاد وغير ذلك، ثم أذاقه بعد ذلك الرحمة حتىٰ يحس بها وتكون لذتها والسرور بها أعظم مثل الذائق للطعام بعد الجوع.

قوله: ﴿ مَسَّتْهُ ﴾: أي: أصابته وأثرت فيه.

قوله: ﴿ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾: هذا كفر بنعمة الله وإعجاب بالنفس، واللام في قوله: ﴿ لَيَقُولَنَّ ﴾ واقعة في جواب القسم المقدر قبل اللام في قوله: ﴿ لَئِنْ أَذَقْنَاهُ ﴾.

قوله: ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾: بعد أن انغمس في الدنيا نسي الآخرة، بخلاف المؤمن إذا أصابته الضراء لجأ إلى الله، ثم كشفها، ثم وجد بعد ذلك لذة وسروراً يشكر الله علىٰ ذلك، أما هذا فقد نسي الآخرة وكفر بها.

قوله: ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾: (إن): شرطية وتأتي فيما يمكن وقوعه وفيما لا يمكن وقوعه؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر: ٦٥]، والمعنىٰ: علىٰ فرض أن أرجع إلىٰ الله إن لي عنده للحسنىٰ.

قال مُجاهد: هذا بعملي، وأنا محقوق به. وقال ابن عباس: يُريد من عندي.

قال المصنف رحمه الله تعالى: قال مُجاهد: هذا بعملي، وأنا محقوق به. وقال ابن عباس: يُريد من عندي. وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨].

قال قتادة: على علم مني بوجوه المكاسب. وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل. وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف.

وليس فيما ذكروه اختلاف، وإنما هي أفراد المعنى.

قال العماد ابن كثير رحمه الله ـ في معنى قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩]. يُخبر أن الإنسان في حال الضر يضرع إلى الله عز وجل، ويُنيب إليه ويدعوه، ثم إذا خوَّله نعمةً منه طغى وبغى و﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: لما يعلم الله استحقاقي له، ولولا أني عند الله خصيص لما خوَّلني هذا[1]. قال الله عز وجل: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾[2] أي: ليس الأمر كما زعم، بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصي؟ مع علمنا المتقدم بذلك ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي: اختبار ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلهذا يقولون ما يقولون، ويدَّعون ما يدَّعون ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: هذه المقالة، وزعم هذا الزعم، وادَّعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: فما صح قولهم، ولا نفعهم جمعُهم وما كانوا يكسبون؛ كما قال تعالى مخبراً عن قارون: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٦-٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] انتهى.

باب قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ [فصلت: ٥٠]

مقصود هذه الترجمة أن كل من زعم أن ما أوتيه من النعم والرزق فهو بكده وحذقه وفطنته، أو أنه مستحق لذلك لما يظن له على الله من الحق، فإن هذا مناف للتوحيد لأن المؤمن حقًّا من يعترف بنعم الله الظاهرة والباطنة ويثني على الله بها، ويضيفها إلى فضله وإحسانه، ويستعين بها على طاعته، ولا يرى له حقًّا على الله، وإنما الحق كله لله، وأنه عبد محض من جميع الوجوه، فبهذا يتحقق الإيمان والتوحيد، وبضده يتحقق كفران النعم، والعجب بالنفس، والإدلال الذي هو من أعظم العيوب.

والحسنى: اسم تفضيل؛ أي: الذي هو أحسن من هذا، واللام للتوكيد.

قوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾: أي: فلننبأن هذا الإنسان، وأظهر في مقام الإضمار من أجل الحكم على هذا القائل بالكفر ولأجل أن يشمله الوعيد وغيره.

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: في القرآن آيتان: آية قال الله فيها: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، الثانية: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]،

---

(١) في تفسير ابن كثير زيادة: قال قتادة: «على علم عندي: على خير عندي».(ق).

(٢) في ابن كثير: «مع علمنا بذلك فهي فتنة».(ق).

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨].

قال قتادة: على علم مني بوجوه المكاسب. وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل. وهذا معنى قول مجاهد: وأوتيته على شرف.

. . . .

والظاهر من تفسير المؤلف أنه يريد الآية الثانية.

قوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: في معناه أقوال:

الأول: قال قتادة: على علم مني بوجوه المكاسب، فيكون العلم عائدًا على الإنسان؛ أي: إنني عالم بوجوه المكاسب ولا فضل لأحد عليَّ فيما أوتيته، وإنما الفضل لي، وعليه يكون هذا كفرًا بنعمة الله وإعجابًا بالنفس.

الثاني: قال آخرون: على علم من الله أني له أهل؛ فيكون بذلك مدلا على الله، وأنه أهل ومستحق لأن ينعم الله عليه، والعلم هنا عائد على الله؛ أي: أوتيت هذا الشيء على علم من الله أني مستحق له وأهل له.

الثالث: قول مجاهد: «أوتيته على شرف»، وهو من معنى القول الثاني، فصار معنى الآية يدور على وجهين:

الوجه الأول: أن هذا إنكار أن يكون ما أصابه من النعمة من فضل الله، بل زعم أنها من كسب يده وعلمه ومهارته.

الوجه الثاني: أنه أنكر أن يكون لله الفضل عليه، وكأنه هو الذي له الفضل على الله؛ لأن الله أعطاه ذلك لكونه أهلاً لهذه النعمة.

فيكون على كلا الأمرين غير شاكر لله - عز وجل - والحقيقة أن كل ما نؤتاه من النعم فهو من الله؛ فهو الذي يسرها حتى حصلنا عليها، بل كل ما نحصل عليه من علم أو قدرة أو إرادة فمن الله؛ فالواجب علينا أن نضيف هذه النعم إلى الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، حتى ولو حصلت لك هذه النعمة بعلمك أو مهارتك، فالذي أعطاك هذا العلم أو المهارة هو الله - عز وجل - ثم إن المهارة أو العلم قد لا يكون سببًا لحصول الرزق؛ فكم من إنسان عالم أو ماهر حاذق ومع ذلك لا يوفق بل يكون عاطلاً؟!

وشكر النعمة له ثلاثة أركان:

١ - الاعتراف بها في القلب. ٢ - الثناء على الله باللسان.

٣ - العمل بالجوارح بما يرضي المنعم.

فمن كان عنده شعور في داخل نفسه أنه هو السبب لمهارته وجودته وحذقه، فهذا لم يشكر النعمة، وكذلك لو أضاف النعمة بلسانه إلى غير الله أو عمل بمعصية الله في جوارحه، فليس بشاكر لله تعالى.

وعن أبي هريرة، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى. فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم مَلَكًا. فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحبُّ إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، ويُذهب عني الذي قد قذرني الناس به. قال: فمسحه فذهب عنه قذرُه، فأُعطي لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا. قال: أي المال أحبُّ إليك؟ قال: الإبل أو البقر ـ شك إسحاق ـ فأُعطي ناقةً عُشراء، فقال: بارك الله لك فيها. قال: فأتى الأقرع، فقال: أيُّ شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به. فمسحه، فذهب عنه، وأُعطي شعرًا حسنًا. قال: أي المال أحبُّ إليك؟ قال: البقر أو الإبل، فأُعطي بقرة حاملاً. فقال: بارك الله لك فيها. فأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحبُّ إليك؟ قال: أن يرد الله عليَّ بصري، فأُبصر به الناس. فمسحه، فردَّ الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأُعطي شاةً والدًا، فأُنتج هذان، وولَّد هذا. فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم. قال: ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري هذا، فلا بلاغ لي اليوم إلا

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن أبي هريرة، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى. فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم مَلَكًا. فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحبُّ إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به. قال: فمسحه فذهب عنه قذرُه، فأُعطي لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا. قال: أي المال أحبُّ إليك؟ قال: الإبل أو البقر ـ شك إسحاق ـ فأُعطي ناقةً عُشراء، فقال: بارك الله لك فيها. قال: فأتى الأقرع، فقال: أيُّ شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به. فمسحه، فذهب عنه، وأُعطي شعرًا حسنًا. قال: أي المال أحبُّ إليك؟ قال: البقرة أو الإبل، فأُعطي بقرة حاملاً. فقال: بارك الله لك فيها. فأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحبُّ إليك؟ قال: أن يرد الله عليَّ بصري، فأُبصر به الناس. فمسحه، فردَّ الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأُعطي شاةً والدًا، فأُنتج هذان، وولَّد هذا. فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم. قال: ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري هذا، فلا بلاغ لي اليوم إلا

. . . .

بالله ثم بك، أسـألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحـسن والمال بعيـرًا أتبلَّغ به في سفـري، فقـال: الحقوق كـثيـرة! فقال لـه: كأني أعرفك، ألم تكـن أبرص يقذرُك الناس، فقيـرًا، فأعطاك الله المال؟ فـقال: إنما ورثتُ هذا المال كابرًا عن كـابر، قال: إن كنت كاذبًا فصـيرك الله إلى ما كنت. قال: وأتى الأقـرع في صورته وهيئتـه، فقال له مثل ما قال لهـذا، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال له: إن كنت كـاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت، قال: فأتى الأعمى في صورته وهيئـته، فقال: رجل مسكين، وابن سبيل. قد انقطعت بي الحـبال في سفـري. فلا بلاغ لي اليوم إلا بالـله ثم بك. أسألك بالذي رد عليك بصرك شاةً أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فرد الله عليَّ بصري، فخذ ما شـئت، ودع ما شئت، فوالله لا أجهَدُك اليوم بشيء أخـذته لله. فقال: أمسك مـالك، فإنما ابتُـليتم، فـقـد رضي الله عنك، وسـخط على صاحـبيك» أخرجـاه[1].

بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمـال بعيرًا أتبلَّغ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرة! فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرُك الناس، فقيرًا، فأعطاك الله المال؟ فقال: إنما ورثتُ هذا المال كـابرًا عن كابر، قال: إن كنت كاذبًا فصـيرك الله إلى ما كنت. قال: وأتى الأقرع في صـورته وهيئته، فقال له مـثل ما قال لهذا، ورد عليه مـثل ما رد عليه هذا، فقال له: إن كنت كاذبًا فـصيرك الله إلى ما كنت، قال: فأتى الأعمى في صورته وهيـئته، فقال: رجل مسكين، وابن سبيل. قد انقطعت بي الحبال في سفري. فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك. أسألك بالذي رد عليك بـصرك شاةً أتبلغ بهـا في سفري، فـقال: قد كنت أعـمى فرد الله عليَّ بصري، فخـذ ما شئت، ودع ما شئت، فـوالله لا أجهَدُك اليوم بشيء أخذته لله. فـقال: أمسك مالك، فإنما ابتُليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك» أخرجاه.

(أخرجاه). أي: البخاري ومسلم.

والناقة العُشراء ـ بضم العين وفتح الشين وبالمد ـ هي الحامل.

قوله: «وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن ثلاثة من بنـي إسرائيل»: جـميع القـصص الواردة في القرآن وصحيح السنة ليس المقصود منها مجرد الخبر، بل يقصد منها العبرة والعظة مع مـا تكسب النفس من الراحة والسرور، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

قوله: «من بني إسرائيل»: في محل نصب نعت لـ «ثلاثة»، وبنو إسرائيل هم ذرية يعقـوب بن إسحاق بن إبراهيم.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).

. . . .

قوله: «أُنتج» وفي رواية: «فنتَّج» معناه: تولَّى نتاجها، والناتج للناقة كالقابلة للمرأة.

قوله: «أبرص»: أي: في جلده برص، والبرص داء معروف، وهو من الأمراض المستعصية التي لا يمكن علاجها بالكلية، وربما توصلوا أخيراً إلى عدم انتشارها وتوسعها في الجلد، لكن رفعها لا يمكن، ولهذا جعلها الله آية لعيسى، قال تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

قوله: «أقرع»: من ليس على رأسه شعر.

قوله: «أعمى»: من فقد البصر.

قوله: «فأراد الله» وفي بعض النسخ: «أراد الله»: فعلى إثبات الفاء يكون خبر (إن) محذوفًا دل عليه السياق تقديره: إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أنعم الله عليهم فأراد الله أن يبتليهم.

ولا يمكن أن يكون «أبرص وأقرع وأعمى» خبراً؛ لأنها بدل، وعلى حذف الفاء يكون الخبر جملة: «أراد الله»، والإرادة هنا كونية.

قوله: «يبتليهم»: أي يختبرهم؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

قوله: «ملكًا»: أحد الملائكة: هم عالم غيبي خلقهم الله من نور وجعلهم قائمين بطاعة الله، لا يأكلون، ولا يشربون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، لهم أشكال وأعمال ووظائف مذكورة في الكتاب والسنة، ويجب الإيمان بهم، وهو أحد أركان الإيمان الستة.

قال أهل اللغة: وأصل الـ (ملك) مأخوذ من الألوكة، وهي الرسالة، وعلى هذا يكون أصله مألك، فصار فيه إعلال قلبي، فصار ملأك، ثم نقلت حركة الهمزة إلى اللام الساكنة وحذفت الهمزة تخفيفًا، فصار ملك، ولهذا في الجمع تأتي الهمزة: ملائكة.

قوله: «ويذهب»: يجوز فيه الرفع والنصب، والرفع أولى.

قوله: «قذرني»: أي: استقذرني وكرهوا مخالطتي من أجله.

وقوله: «به»: الباء للسببية؛ أي: بسببه.

قوله: «فمسحه»: ليتبين أن لكل شيء سببًا، وبرئ بإذن الله ـ عز وجل ـ «فذهب عنه قذره»: بدأ بذهاب القذر قبل اللون الحسن والجلد الحسن؛ لأنه يبدأ بزوال المكروه قبل حصول المطلوب، كما يقال: التخلية قبل التحلية.

قوله: «قال: الإبل أو البقر ـ شك إسحاق ـ»: والظاهر: أنه الإبل كما يفيده السياق، وإسحاق أحد رواة الحديث.

قوله: «عشراء»: قيل: هي الحامل مطلقًا، وقال في «القاموس»: هي التي بلغ حملها عشرة أشهر أو ثمانية، سخرها الله ـ عز وجل ـ وذللها ولعلها كانت قريبة من الملك فأعطاه إياها.

قوله: «بارك الله لك فيها»: يحتمل أن لفظه لفظ الخبر ومعناه الدعاء، وهو الأقرب؛ لأنه أسلم

. . . .

قوله: «ولَّد هذا» هو بتشديد اللام، أي: تولَّى ولادتها، وهو بمعنى: «أُنتج» في الناقة. فالمولد والناتج والقابلة بمعنى واحد، لكن هذا للحيوان، وذلك لغيره.

وقوله: «انقطعت بي الحبال» هو بالحاء المهملة والباء الموحَّدة، أي الأسباب.

من التقدير، ويحتمل أنه خبر محض، كأنه قال: هذه ناقة عشراء مبارك لك فيها ويكون المعنى على تقدير (قد)؛ أي: قد بارك الله لك فيها.

قوله: «فأتى الأقرع»: وهو الرجل الثاني في الحديث.

قوله: «فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن»: ولم يكتف بمجرد الشعر، بل طلب شعرًا حسنًا.

قوله: «الذي قذرني الناس به»: أي: القرع؛ لأنه إذا كان أقرع كرهه الناس واستقذروه، وهذا يدل على أنهم لا يُغَطُّون رؤوسهم بالعمائم ونحوها، وقد يقال يمكن أن يكون عليه عمامة يبدو بعض الرأس من جوانبها فيكرهه الناس مما بدا منها.

قوله: «فذهب عنه قذره»: يقال في تقديم ذهاب القذر ما سبق، وهذه نعمة من الله ـ عز وجل ـ أن يستجاب للإنسان.

قوله: «البقر أو الإبل»: الشك من إسحاق، وسياق الحديث يدل على أنه أعطي البقر.

قوله: «فأتى الأعمى»: هذا هو الرجل الثالث في هذه القصة.

قوله: «فأبصر به الناس»: لم يطلب بصرًا حسنًا كما طلبه صاحباه، وإنما طلب بصرًا يبصر به الناس فقط مما يدل على قناعته بالكفاية.

قوله: «فرد الله إليه بصره»: الظاهر أن بصره الذي كان معه من قبل هو ما يبصر به الناس فقط.

قوله: «قال: الغنم»: هذا يدل على زهده كما يدل على أنه صاحب سكينة وتواضع؛ لأن السكينة في أصحاب الغنم.

قوله: «شاة والدًا»: قيل: إن المعنى قريبة الولادة، ويؤيده أن صاحبيه أعطيا أنثى حاملاً، ولما يأتي من قوله: «**فأنتج هذان وولد هذا**»، والشيء قد يسمى بالاسم القريب؛ فقد يعبر عن الشيء حاصلاً وهو لم يحصل، لكنه قريب الحصول.

قوله: «فأنتج هذان»: بالضم، وفيه رواية بالفتح: «**فأنتج**»، وفي رواية: «**فنتج هذان**».

والأصل في اللغة في مادة (نتج): أنها مبنية للمفعول والإشارة إلى صاحب الإبل والبقر، و«**أنتج**»؛ أي: حصل لهما نتاج الإبل والبقر.

قوله: «وولد هذا»: أي: صار لشاته أولاد، قالوا: والمنتج من أنتج، والناتج من نتج، والمولد من ولد، ومن تولى توليد النساء يقال له: القابلة، ومن تولى توليد غير النساء يقال له: منتج أو ناتج أو مولد.

قوله: «فكان لهذا واد من الإبل»: مقتضى السياق أن يقول: فكان لذلك؛ لأنه أبعد المذكورين،

. . . .

. . . .

لكنه استعمل الإشارة للقريب في مكان البعيد، وهذا جائز، وكذا العكس.

قوله: «في صورته وهيئته»: الصورة في الجسم، والهيئة في الشكل واللباس، وهذا هو الفرق بينهما.

قوله: «رجل مسكين»: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أنا رجل مسكين، والمسكين: الفقير، وسمي الفقير مسكينًا؛ لأن الفقر أسكنه وأذله، والغني في الغالب يكون عنده قوة وحركة.

قوله: «وابن سبيل»: أي: مسافر سمي بذلك لملازمته للطريق، ولهذا سمي طير الماء ابن الماء لملازمته له غالبًا، فكل شيء يلازم شيئًا؛ فإنه يصح أن يضاف إليه بلفظ البنوة.

قوله: «انقطعت بي الحبال في سفري»: الحبال الأسباب؛ فالحبل يطلق على السبب وبالعكس، قال تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ [الحج: ١٥]، ولأن الحبل سبب يتوصل به الإنسان إلى مقصوده كالرشاء يتوصل به الإنسان إلى الماء الذي في البئر.

قوله: «فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك»: «لا»: نافية للجنس، والبلاغ بمعنى الوصول، ومنه تبليغ الرسالة؛ أي: إيصالها إلى المرسل إليه، والمعنى: لا شيء يوصلني إلى أهلي إلا بالله ثم بك؛ فالمسألة فيها ضرورة.

قوله: «أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن»: السؤال هنا ليس سؤال استخبار بل سؤال استجداء؛ لأن «سأل» تأتي بمعنى استجدى وبمعنى استخبر، تقول: سألته عن فلان؛ أي: استخبرته، وسألته مالاً؛ أي: استجديته واستعطيته، وإنما قال: «**أسألك بالذي أعطاك**»، ولم يقل: أسألك بالله؛ لأجل أن يذكره بنعمة الله عليه؛ ففيه إغراء له على الإعانة لهذا المسكين؛ لأنه جمع بين أمرين: كونه مسكينًا، وكونه ابن سبيل؛ ففيه سببان يقتضيان الإعطاء.

وقوله: «بعيرًا»: يدل على أن الأبرص أعطي الإبل، وتعبير إسحاق «الإبل أو البقر» من باب ورعه.

قوله: «أتبلغ به في سفري»: أي: ليس أطيب الإبل وإنما يوصلني إلى أهلي فقط.

قوله: «الحقوق كثيرة»: أي: هذا المال الذي عندي متعلق به حقوق كثيرة، ليس حقك أنت فقط، وتناسى - والعياذ بالله - أن الله هو الذي منَّ عليه بالجلد الحسن واللون الحسن والمال.

قوله: «كأني أعرفك»: كأن هنا للتحقيق لا للتشبيه؛ لأنها إذا دخلت على جامد فهي للتشبيه، وإذا دخلت على مشتق؛ فهي للتحقيق أو للظن والحسبان، والمعنى: أني أعرفك معرفة تامة.

قوله: «ألم تكن أبرص يقذرك الناس»: ذكَّره الملك بنعمة الله عليه، وعرَّفه بما فيه من العيب السابق حتى يعرف قدر النعمة، والاستفهام للتقرير لدخوله على «لم»؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١].

قوله: «كابرًا عن كابر»: أنكر أن المال من الله، لكنه لم يستطع أن ينكر البرص.

و «**كابرًا**» منصوبة على نزع الخافض؛ أي: من كابر؛ أي: ممن يكبرني وهو الأب، عن كابر له

. . . .

وقوله: «لا أجهَدُك» معناه: لا أشق عليك في رد شيء تأخذه، أو تطلبه من مالي، ذكره النووي.

وهو الجد، وقيل: المراد الكبر المعنوي؛ أي: إننا شرفاء وسادة وفي نعمة من الأصل، وليس هذا المال مما تجدد، واللفظ يحتمل المعنيين جميعًا.

قوله: «إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت»: «إن»: شرطية ولها مقابل، يعني: وإن كنت صادقًا فأبقى الله عليك النعمة.

فإن قيل: كيف يأتي بـ «إن» الشرطية الدالة على الاحتمال مع أنه يعرف أنه كاذب؟

أجيب: إن هذا من باب التنزل مع الخصم، والمعنى: إن كنت كما ذكرت عن نفسك؛ فأبقى الله عليك هذه النعمة، وإن كنت كاذبًا وأنك لم ترثه كابرًا عن كابر؛ فصيرك الله إلى ما كنت من البرص والفقر، ولم يقل: «إلى ما أقول»؛ لأنه كان على ذلك بلا شك.

والتنزل مع الخصم يرد كثيرًا في الأمور المتيقنة؛ كقوله تعالى: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، ومعلوم أنه لا نسبة، وأن الله خير مما يشركون، ولكن هذا من باب محاجة الخصم لإدحاض حجته.

قوله: «وأتى الأقرع في صورته»: الفاعل الملك، وهنا قال: «في صورته» فقط وفي الأول قال: «في صورته وهيئته»؛ فالظاهر أنه تصرف من الرواة، وإلا فالغالب أن الصورة قريبة من الهيئة، وإن كانت الصورة تكون خلقة، والهيئة تكون تصنعًا في اللباس ونحوه، وقد جاء في رواية البخاري: «في صورته وهيئته».

قوله: «فقال له مثل ما قال لهذا»: المشار إليه الأبرص.

قوله: «فرد عليه»: أي: الأقرع.

قوله: «مثل ما رد عليه هذا»: أي: الأبرص.

فكلا الرجلين ـ والعياذ بالله ـ غير شاكر لنعمة الله ولا معترف بها و لا راحم لهذا المسكين الذي انقطع به السفر.

قوله: «فصيرك الله إلى ما كنت عليه»: أي: ردك الله إلى ما كنت عليه من القرع الذي يقذرك الناس به والفقر.

قوله: «فرد الله إليَّ بصري»: اعترف بنعمة الله، وهذا أحد أركان الشكر، والركن الثاني: العمل بالجوارح في طاعة المنعم، والركن الثالث: الاعتراف بالنعمة في القلب، قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

قوله: «فوالله؛ لا أجهدك بشيء أخذته لله»: الجهد: المشقة، والمعنى: لا أشق عليك بمنع ولا منة، واعترافه بلسانه مطابق لما في قلبه؛ فيكون دالاً على الشكر بالقلب بالتضمن.

قوله: «خذ ما شئت ودع ما شئت»: هذا من باب الشكر بالجوارح، فيكون هذا الأعمى قد أتم أركان الشكر.

. . . .

وهذا حديث عظيم، وفيه مُعتبر: فإن الأولين جحدا نعمة الله، فما أقرّا للّه بنعمة، ولا نسبا النعمة إلى المُنعم بها، ولا أديا حق اللّه فيها بنعمه، فحلّ عليهما السخط.

وأما الأعمى: فاعترف بنعمة الله، ونسبها إلى من أنعم عليه بها، وأدّى حق اللّه فيها. فاستحق الرضا من اللّه بقيامه بشكر النعمة، لما أتى بأركان الشكر الثلاثة التي لا يقوم الشكر إلا بها، وهي: الإقرار بالنعمة، ونسبتُها إلى المُنعم، وبذلُها فيما يحب.

قوله: «لله»: اللام للاختصاص، والمعنى: لأجل الله، وهذا ظاهر في إخلاصه لله، فكل ما تأخذه لله فأنا لا أمنعك منه ولا أردك.

قوله: «إنما ابتليتم»: أي: اختبرتم، والذي ابتلاهم هو الله تعالى، وظاهر الحديث أن قصتهم مشهورة معلومة بين الناس؛ لأن قوله: **«إنما ابتليتم»** يدل على أن عنده علمًا بما جرى لصاحبيه، وغالبًا أن مثل هذه القصة تكون مشهورة بين الناس.

قوله: «فقد رضي الله عنك»: يعني: لأنك شكرت نعمة الله بالقلب واللسان والجوارح.

قوله: «وسخط على صاحبيك»: لأنهما كفرا نعمة الله ـ سبحانه ـ وأنكرا أن يكون الله منّ عليهما بالشفاء والمال.

وفي هذا الحديث من العبر شيء كثير، منها:

١ ـ أن الرسول ﷺ يقص علينا أنباء بني إسرائيل؛ لأجل الاعتبار والاتعاظ بما جرى، وهو أحد الأدلة لمن قال: إن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه، ولا شك أن هذه قاعدة صحيحة.

٢ ـ بيان قدرة الله ـ عز وجل ـ بإبراء الأبرص والأقرع والأعمى من هذه العيوب التي فيهم بمجرد مسح الملك لهم.

٣ ـ أن الملائكة يتشكلون حتى يكونوا على صورة البشر؛ لقوله: **«فأتى الأبرص في صورته»**، وكذلك الأقرع والأعمى، لكن هذا ـ والله أعلم ـ ليس إليهم وإنما يتشكلون بأمر الله تعالى.

٤ ـ أن الملائكة أجسام وليسوا أرواحًا أو معاني أو قوى فقط.

٥ ـ حرص الرواة على نقل الحديث بلفظه.

٦ ـ أن الإنسان لا يلزمه الرضا بقضاء الله ـ أي بالمقضي ـ؛ لأن هؤلاء الذين أصيبوا قالوا: أحب إلينا كذا وكذا، وهذا يدل على عدم الرضا.

وللإنسان عند المصائب أربع مقامات:

- جزع، وهو محرم.
- صبر، وهو واجب.
- رضا، وهو مستحب.
- شكر، وهو أحسن وأطيب.

وهنا إشكال، وهو كيف يشكر الإنسان ربه على المصيبة وهي لا تلائمه؟

أجيب: أن الإنسان إذا آمن بما يترتب على هذه المصيبة من الأجر العظيم عرف أنها تكون بذلك نعمة، والنعمة تشكر.

. . . .

قال العلامة ابن القيم[1]: أصل الشكر: هو الاعتراف بإنعام المُنعم، علىٰ وجه الخضوع له والذل والمحبة. فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلاً بها، لم يشكرها. ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها، لم يشكرها أيضًا. ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه بها، فقد كفرها. ومن عرف النعمة والمنعم، وأقر بها ولم يجحدها، ولكن لم يخضع له ويحبه ويرض به وعنه، لم يشكرها أيضًا. ومن عرفها وعرف المنعم وأقر بها، وخضع للمنعم بها، وأحبه ورضي به وعنه، واستعملها في محابه وطاعته، فهذا هو الشاكر لها. فلابد في الشكر من علم القلب، وعمل يتبع العلم، وهو الميل إلىٰ المنعم ومحبته والخضوع له.

قوله: «قد قذرني الناس» بكراهة رؤيته وقربه منهم.

وأما قوله ﷺ: «**فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فعليه السخط**»[2]، فالمراد بالرضا هنا الصبر، أو الرضا بأصل القضاء الذي هو فعل الله، فهذا يجب الرضا به؛ لأن الله ـ عز وجل ـ حكيم، ففرق بين فعل الله والمقضي.

والمقضي ينقسم إلىٰ: مصائب لا يلزم الرضا بها، وإلىٰ أحكام شرعية يجب الرضا بها.

٧ ـ جواز الدعاء المعلق؛ لقوله: «**إن كنت كاذبًا، فصيرك الله إلى ما كنت**»، وفي القرآن الكريم قال الله تعالىٰ: ﴿**وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ**﴾ [النور: ٧]، ﴿**وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ [النور: ٩]، وفي دعاء الاستخارة: «**اللهم إن كنت تعلم..**» إلخ.

٨ ـ جواز التنزل مع الخصم فيما لا يقر به الخصم المتنزل؛ لأجل إفحام الخصم؛ لأن الملك يعلم أنه كاذب، ولكن بناء علىٰ قوله: إن هذا ما حصل، وإن المال ورثه كابرًا عن كابر، وقد سبق بيان وروده في القرآن، ومنه أيضًا قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ [سبأ: ٢٤]، ومعلوم أن الرسول ﷺ وأصحابه علىٰ هدىٰ وأولئك علىٰ ضلال، ولكن هذا من باب التنزل معهم من باب العدل.

٩ ـ أن بركة الله لا نهاية لها، ولهذا كان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم.

١٠ ـ هل يستفاد منه أن دعاء الملائكة مستجاب أو أن هذه قضية عين؟

الظاهر أنه قضية عين، وإلا لكان الرجل إذا دعا لأخيه بظهر الغيب، وقال الملك: آمين ولك بمثله، علمنا أن الدعاء قد استجيب.

١١ ـ بيان أن شكر كل نعمة بحسبها؛ فشكر نعمة المال أن يبذل في سبيل الله، وشكر نعمة العلم أن يبذل لمن سأله بلسان الحال أو المقال، والشكر الأعم أن يقوم بطاعة المنعم في كل شيء. ونظير هذا ما مر أن التوبة من كل ذنب بحسبه، لكن لا يستحق الإنسان وصف التوبة المطلق إلا إذا تاب من جميع الذنوب.

١٢ ـ جواز التمثيل، وهو أن يتمثل الإنسان بحال ليس هو عليها في الحقيقة، مثل أن يأتي بصورة مسكين وهو غني وما أشبه ذلك إذا كان فيه مصلحة وأراد أن يختبر إنسانًا بمثل هذا، فله ذلك.

---

(١) في مدارج السالكين (ج ٢ ص ١٣٥ - ١٤٤). (ق).

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٤٤٥٦)، والترمذي (٢٣٩٦)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٤٦).

. . . .

. . . .

١٣ ـ أن الابتلاء قد يكون عامًا وظاهرًا يؤخذ من قوله: «**فإنما ابتليتم**»، وقصتهم مشهورة كما سبق.

١٤ ـ فضيلة الورع والزهد، وأنه قد يجر صاحبه إلى ما تحمد عقباه؛ لأن الأعمى كان زاهدًا في الدنيا، فكان شاكرًا لنعمة الله.

١٥ ـ ثبوت الإرث في الأمم السابقة؛ لقوله: «**ورثته كابرًا عن كابر**».

١٦ ـ أن من صفات الله ـ عز وجل ـ الرضا والسخط والإرادة، وأهل السنة والجماعة يثبتونها على المعنى اللائق بالله على أنها حقيقة.

وإرادة الله نوعان: كونية، وشرعية:

والفرق بينهما أن الكونية يلزم فيها وقوع المراد ولا يلزم أن يكون محبوبًا لله، فإذا أراد الله شيئًا قال له كن فيكون.

وأما الشرعية: فإنه لا يلزم فيها وقوع المراد ويلزم أن يكون محبوبًا لله، ولهذا نقول: الإرادة الشرعية بمعنى المحبة والكونية بمعنى المشيئة، فإن قيل: هل الله يريد الخير والشر كونًا أو شرعًا؟

أجيب: إن الخير إذا وقع، فهو مراد لله كونًا وشرعًا، وإذا لم يقع فهو مراد لله شرعًا فقط، وأما الشر فإذا وقع فهو مراد لله كونًا لا شرعًا، وإذا لم يقع فهو غير مرادٍ كونًا ولا شرعًا، واعلم أن الشر لا ينسب إلى فعل الله ـ سبحانه ـ ولكن إلى مخلوقات الله، فكل فعل الله تعالى خير؛ لأنه صادر عن حكمة ورحمة، ولهذا قال النبي ﷺ: «**الخير بيديك والشر ليس إليك**»، وأما مخلوقات الله ففيها خير وشر.

وإثبات صفة الرضا لله ـ سبحانه ـ لا يقتضي انتفاء صفة الحكمة، بخلاف رضا المخلوق، فقد تنتفي معه الحكمة، فإن الإنسان إذا رضي عن شخص مثلاً فإن عاطفته قد تحمله على أن يرضى عنه في كل شيء ولا يضبط نفسه في معاملته لشدة رضاه عنه، قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدي المساويا

لكن رضا الله مقرون بالحكمة، كما أن غضب الخالق ليس كغضب المخلوق، فلا تنتفي الحكمة مع غضب الخالق، بخلاف غضب المخلوق، فقد يخرجه عن الحكمة فيتصرف بما لا يليق لشدة غضبه.

ومن فسر الرضا بالثواب أو إرادته، فتفسيره مردود عليه، فإنه إذا قيل: إن معنى «رضي» أي: أراد أن يثيب، فمقتضاه أنه لا يرضى، ولو قالوا: لا يرضى لكفروا؛ لأنهم نفوها نفي جحود، لكن أولوها تأويلاً يستلزم جواز نفي الرضا؛ لأن المجاز معناه نفي الحقيقة، وهذا أمر خطير جدًا.

ولهذا بين شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم[1]: أنه لا مجاز في القرآن ولا في اللغة، خلافًا لمن قال: كل شيء في اللغة مجاز.

١٧ ـ أن الصحبة تطلق على المشاكلة في شيء من الأشياء ولا يلزم منها المقارنة؛ لقوله: «**وسخط**

(١) لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله رسالة مفيدة جدًا في هذا الباب بعنوان الرسالة المدنية في الحقيقة والمجاز والصفات.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية.

الثانية: ما معنى: ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾.

الثالثة: ما معنى قوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

الرابعة: ما في هذه القصة العجيبة من العِبَر العظيمة.

على صاحبيك»؛ فالصاحب هنا: من يشبه حاله في أن الله أنعم عليه بعد البؤس.

١٨ - اختبار الله - عز وجل - بما أنعم عليهم به.

١٩ - أن التذكير قد يكون بالأقوال أو الأفعال أو الهيئات.

٢٠ - أنه يجوز للإنسان أن ينسب لنفسه شيئًا لم يكن؛ من أجل الاختبار؛ لقول الملك: إنه فقير وابن سبيل.

٢١ - أن هذه القصة كانت معروفة مشهورة؛ لقوله: «**فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك**».

فيه مسائل:

الأولى تفسير الآية: وهي قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي**﴾، وقد سبق أن الضمير في قوله: ﴿**أَذَقْنَاهُ**﴾ يعود على الإنسان باعتبار الجنس.

الثانية: ما معنى: ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾: اللام للاستحقاق، والمعنى: إني حقيق به وجدير به.

الثالثة: ما معنى قوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: وقد سبق بيان ذلك.

الرابعة: ما في هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة: وقد سبق ذكر عبر كثيرة منها، وهذا ليس استيعابًا، ومن ذلك الفرق بين الأبرص والأقرع والأعمى؛ فإن الأبرص والأقرع جَحَدَا نعمة الله - عز وجل - والأعمى اعترف بنعمة الله، عندما طلب الملك من الأعمى المساعدة، قال: «خذ ما شئت»، فدل هذا على جوده وإخلاصه؛ لأنه قال: «فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله - عز وجل» بخلاف الأبرص والأقرع حيث كانا أشحاء بُخَلاءً منكرين نعمة الله - عز وجل -.

* * *

٤٩ - باب قول الله تعالى:

﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٠].

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٠].

قال الإمام أحمد رحمه الله ـ في معنى هذه الآية ـ: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عمر بن إبراهيم، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سَمُرة، عن النبي ﷺ قال: «**لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سَمِّيه عبد الحارث؛ فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش. فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره**»(١).

وهكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن بشار، بُندار، عن عبد الصمد بن عبد الوارث، به.

ورواه الترمذي ـ في تفسير هذه الآية ـ عن محمد بن المثنى، عن عبد الصمد، به، وقال: هذا حديث حسن غريب؛ لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم. ورواه بعضُهم عن عبد الصمد ولم يرفعه.

ورواه الحاكم في (مستدركه)، من حديث عبد الصمد، مرفوعًا، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في (تفسيره)، عن أبي زُرعة الرازي، عن هلال بن فيّاض، عن عمر بن إبراهيم، به مرفوعًا(٢).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا سهل بن يوسف، عن عمرو، عن الحسن ﴿ **جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا** ﴾ قال: كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم.

وحدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة، قال: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولادًا فهوّدوا ونَصَّروا. وهذا إسناد صحيح عن الحسن رحمه الله.

---

(١) ضعيف: رواه الترمذي (٣٠٧٧)، والطَبَراني في الكبير (٧/ ٢١٥)، وضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٤٧٦٩).

(٢) قال الحافظ ابن كثير: والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري. وقد وثقه ابن معين: ولكن قال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به. ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعًا، فالله أعلم.

الثاني: أنه قد روى من قول سمرة نفسه، وليس مرفوعًا، كما قال ابن جرير.

الثالث: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا. فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعًا لما عدل عنه - ثم ساق ابن كثير الروايات عن الحسن، بمثل ما روى ابن جرير عنه ثم قال: هذه أسانيد صحيحة عن الحسن: أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية. ولو كان هذا الحديث عنده محفوظًا عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره، ولا سيما مع تقواه وورعه. فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه عن بعض أهل الكتاب من آمن منهم، مثل كعب أو وهب بن منبه أو غيرهما كما سيأتي بيانه إن شاء الله، إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع. والله أعلم. اهـ.

وقال الإمام أبو محمد بن حزم في كتاب الفصل في الملل والنّحل: وهذا الذي نسبوه إلى آدم من أنه سمى ابنه عبد الحارث خرافة موضوعة مكذوبة من تأليف من لا دين له ولا حياء، لم يصح سندها قط، وإنما نزلت الآية في المشركين على ظاهرها. اهـ. (ق).

. . . .

قال العماد ابن كثير في (تفسيره): وأما الآثار: فقال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمةَ، عن ابن عباس، قال: كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فتُعبِّدهم لله، وتُسمِّيه: عبد اللَّه وعبيد اللَّه ونحو ذلك، فيصيبهم الموت؛ فأتاها إبليس وآدمَ فقال: أما إنكما لو تسميانه بغير الذي تسميانه به لعاش، فولدت له رجلاً فسمَّاه عبد الحارث، ففيه أنزل الله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلىٰ آخر الآية [الأعراف: ١٨٩].

وقال العوفي، عن ابن عباس: فأتاهما الشيطان فقال: هل تدريان ما يولد لكما؟ أم هل تدريان ما يكون: أبهيمة أم لا؟ وزين لهما الباطل؛ إنه غويٌّ مبين. وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بي لم يخرج سويًا، ومات كما مات الأول. فسمَّيا ولدهما عبدالحارث، فذلك قول اللَّه تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وذكر مثله: عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. ورواه ابن أبي حاتم.

وقد تلقَّىٰ هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه: كمجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومن الطبقة الثانية: قتادة، والسدي، وجماعة من الخلف. ومن المفسرين ومن المتأخرين، جماعات لا يحصون كثرة.

قال العماد ابن كثير: وكأن أصله ـ واللَّه أعلم ـ مأخوذ من أهل الكتاب[1].

قلتُ: وهذا بعيد جداً.

قوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا﴾: الضمير يعود علىٰ ما سبق، ولهذا ينبغي أن يكون الشرح من قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ.....﴾ فيها قولان:

الأول: أن المراد بالنفس الواحدة: العين الواحدة، أي: من شخص معين، وهو آدم عليه السلام، وقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ﴿مِنْ﴾ للتبعيض؛ لأن حواء خُلقت من ضلع آدم.

الثاني: أن المراد بالنفس الجنس، وجعل من هذا الجنس زوجه، ولم يجعل زوجه من جنس البقر أو الضأن، والنفس قد يراد بها الجنس؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] أي: من جنسهم.

قوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾: سكون الرجل إلىٰ زوجته ظاهر من أمرين.

---

(١) قال ابن كثير: وهذه الآثار يظهر عليها - والله أعلم - أنها من آثار أهل الكتاب، أما نحن فعلى مذهب الحسن البصري في هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المشركون من ذريته، ولهذا قال: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠].

فائدة: قال شيخنا العلامة الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ - أطال الله حياته لنفع المسلمين - أما قوله تعالى في آخر الآية: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠] فليس المراد به آدم وحواء، لأن الكلام قد تم قبله، وهذا ابتداء كلام مستأنف، وإنما المراد به المشركون، وما ساقه الشارح رحمه الله في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠] هو القول المعتمد الذي يدل عليه ظاهر القرآن. اهـ. (ق).

. . . .

. . . .

أولاً: لأن بينهما من المودة والرحمة ما يقتضي الأنس والاطمئنان والاستقرار.

ثانيًا: سكون من حيث الشهوة، وهذا سكون خاص لا يوجد له نظير حتى بين الأم وابنها.

وقوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾: تعليل لكونها من جنسه أو من النفس المعينة:

قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾: أي: جامعها، وعبارة القرآن والسنة التكنية عن الجماع، قال تعالى: ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء: ٤٣]، وقال: ﴿اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢١]، كأن الاستحياء من ذكره بصريح اسمه أمر فطري، ولأن الطباع السليمة تكره أن تذكر هذا الشيء باسمه إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، فإنه قد يصرح به؛ كما في قوله ﷺ لماعز وقد أقرَّ عنده بالزنى: «أَنِكْتَها» لا يكني؛ لأن الحاجة هنا داعية للتصريح حتى يتبين الأمر جليًّا، ولأن الحدود تدرأ بالشبهات.

وتشبيه علو الرجل المرأة بالغشيان أمر ظاهر، كما أن الليل يستر الأرض بظلامه، قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١]، وعبر بقوله: ﴿تَغَشَّاهَا﴾ ولم يقل: غشيها؛ لأن تَغَشَّىٰ أبلغ، وفيه شيء من المعالجة، ولهذا جاء في الحديث: «إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها»، والجلوس بين شعبها الأربع هذا غشيان، و «جهدها» هذا تغشّي.

قوله: ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا﴾: الحمل في أوله خفيف: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة.

قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾: المرور بالشيء تجاوزه من غير تعب ولا إعياء، والمعنى: تجاوزت هذا الحمل الخفيف من غير تعب ولا إعياء.

قوله: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾: الإثقال في آخر الحمل.

قوله: ﴿دَّعَوَا اللَّهَ﴾: ولم يقل: دعيا؛ لأن الفعل واوي، فعاد إلى أصله.

قوله: ﴿اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾: أتى بالألوهية والربوبية؛ لأن الدعاء يتعلق به جانبان:

الأول: جانب الألوهية من جهة العبد أنه داع، والدعاء عبادة.

الثاني: جانب الربوبية؛ لأن في الدعاء تحصيلاً للمطلوب، وهذا يكون متعلقًا بالله من حيث الربوبية.

والظاهر أنهما قالا: اللهم ربنا، ويحتمل أن يكون بصيغة أخرى.

قوله: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا﴾: أي: أعطيتنا.

وقوله: ﴿صَالِحًا﴾: هل المراد صلاح البدن أو المراد صلاح الدين؟ أي: لئن آتيتنا بشراً سويًا ليس فيه عاهة ولا نقص، أو صالحًا بالدين، فيكون تقيًا قائمًا بالواجبات؟

الجواب: يشمل الأمرين جميعًا، وكثير من المفسرين لم يذكر إلا الأمر الأول، وهو الصلاح البدني، لكن لا مانع من أن يكون شاملاً للأمرين جميعًا.

قوله: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾: أي: من القائمين بشكرك على هذا الولد الصالح.

. . . .

. . . .

والجملة هنا جواب قسم وشرط، قسم متقدم وشرط متأخر، والجواب فيه للقسم ولهذا جاء مقرونًا باللام: لنكونن.

قوله: ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا ﴾: هنا حصل المطلوب، لكن النتيجة بالعكس؛ فلم يحصل الشكر الذي وعدا الله به، بل جعلا له شركاء فيما آتاهما.

قوله: ﴿ جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾: الذين يرجحون أن المراد بالصلاح صلاح البدن يقولون إنه قال: ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ ﴾.

والجواب متعقب للشرط وهذا يدل على أن الشرك منهما حصل حين الإتيان وهو صغير، ومثل هذا لا يعرف أصلح في دينه في المستقبل أم لا يصلح؟ ولهذا كان أكثر المفسرين على أن المراد بالصلاح الصلاح البدني. فمعاهدة الإنسان ربه أن يفعل العبادة مقابل تفضل الله عليه بالنعمة الغالب أنه لا يفي بها، ففي سورة التوبة قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [التوبة: ٧٥، ٧٦]، وفي هذه الآية قال تعالى: ﴿ لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ ﴾، فكانا من المشركين لا من الشاكرين، وبهذا نعرف الحكمة من نهي النبي ﷺ عن النذر؛ لأن النذر معاهدة مع الله عز وجل - ولهذا نهى النبي ﷺ عن النذر وقال: «إنه لا يأتي بخير، وإنما يُستخرج به من البخيل»، وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى تحريم النذر، وظاهر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أنه يميل إلى تحريم النذر؛ لأن رسول الله ﷺ نهى عنه ونفى أن يأتي بخير.

إذًا ما الذي نستفيد من أمر نهى عنه الرسول ﷺ وقال: «إنه لا يأتي بخير»؟

الجواب: لا نستفيد إلا المشقة على أنفسنا وإلزام أنفسنا بما نحن منه في عافية، ولهذا فالقول بتحريم النذر قول قوي جدًا، ولا يعرف مقدار وزن هذا القول إلا من عرف أسئلة الناس وكثرتها ورأى أنهم يذهبون إلى كل عالم لعلهم يجدون خلاصًا مما نذروا.

قوله: ﴿ جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾: هذا الولد الذي آتاهما الله - عز وجل - كان واحدًا، فكيف جعلا في هذا الولد الواحد شركًا بل شركاء؟

نقول: هذا على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يعتقدا أن الذي أتى بهذا الولد هو الولي الفلاني أو الصالح الفلاني؛ فهذا شرك أكبر؛ لأنهما أضافا الخلق إلى غير الله.

ومن هذا أيضًا ما يوجد عند بعض الأمم الإسلامية الآن، فتجد المرأة التي لا يأتيها الولد تأتي إلى قبر الولي الفلاني، كما يزعمون أنه ولي الله - والله أعلم بولايته - فتقول: يا سيدي فلان، أعطني الولد.

الوجه الثاني: أن يضيف سلامة المولود ووقايته إلى الأطباء وإرشاداتهم وإلى القوابل وما أشبه ذلك، فيقولون

قال ابن حزم: اتفقوا على تحريم كل اسم مُعـبَّد لغير الله، كعبد عمـرو، وعبـد الكعبـة، وما أشـبه ذلك. حـاشَى عبـد المطلب.

قـال المصنف رحمـه الله تعالى: قال ابن حزم: اتفقـوا على تحريم كل اسم مُعبَّـدٍ لغير الله، كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك. حاشى عبد المطلب:

ابن حزم: هـو عالم الأندلس، أبو محمد، علي بن أحمد بـن سعيد بن حزم القرطبي الظاهري. صاحب التصانيف، توفي سنة ست وخمسين وأربعمائة. وله اثنتان وسبعون سنة.

مثلاً: سَلِمَ هذا الولد من الطلق؛ لأن القابلة امرأة متقنة جيدة، فهنا أضاف النعمة إلىٰ غير الله، وهذا نوع من الشرك ولا يصل إلىٰ حد الشرك الأكبر؛ لأنه أضاف النعمة إلىٰ السبب ونسي المسبب وهو الله ـ عز وجل.

الوجه الثالث: أن لا يشرك من ناحية الربوبية، بل يؤمن أن هذا الولد خرج سالمًا بفضل الله ورحمته، ولكن يشرك من ناحية العبودية، فيقدم محبته علىٰ محبة الله ورسوله ويلهيه عن طاعة الله ورسوله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥]، فكيف تجعل هذا الولد ندًا لله في المحبة وربما قدمت محبته علىٰ محبة الله، والله هو المتفضل عليك به؟!

ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا﴾، ففيه نقد لاذع أن يجعل في هذا الولد شريكًا مع الله، مع أن الله هو المتفضل به، ثم قال: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: ترفع وتقدس عما يشركون به من هذه الأصنام وغيرها.

فالآية صريحة وواضحة دالة علىٰ أن قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: من جنس واحد، وليس فيها تعرض لآدم وحواء بوجه من الوجوه، ويكون السياق فيها جاريًا علىٰ الأسلوب العربي الفصيح الذي له نظير في القرآن؛ كقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] أي: من جنسهم، وبهذا التفسير الواضح البين يسلم الإنسان من إشكالات كثيرة.

أما علىٰ القول الثاني بأن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: آدم ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] أي: حواء، فيكون معنىٰ الآية خلقكم من آدم وحواء.

فلما جامع آدم حواء حملت حملاً خفيفًا، فمرت به، فلما أثقلت دعوا ـ أي آدم وحواء ـ الله ربهما: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ فأشرك آدم وحواء بالله، لكن يقولون: إشراك طاعة لا إشراك عبادة ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا التفسير منطبق علىٰ المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وسنبين ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ وجه ضعفه وبطلانه.

وهناك قول ثالث: أن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: آدم وحواء ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ انتقل من العين إلىٰ النوع، أي: من آدم إلىٰ النوع الذي هو جنس بني آدم، أي: فلما تَغَشَّىٰ الإنسان الذي تسلسل من آدم وحواء زوجته.... إلىٰ آخره، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالجمع ولم يقل عما يشركان، ونظير ذلك في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥] أي: جعلنا الشهب الخارجة منها رجومًا للشياطين وليست المصابيح نفسها،

. . . .

وعبد المطلب هذا: هو جدُّ رسول اللَّه ﷺ، وهو ابن هاشم بن عبد مناف بن قُصي بن كلاب بن مُرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النَّضر بن كنانة بن خزيمة بن مُدركة بن إلياس بن مُضر بن نزار بن مَعدّ ابن عدنان، وما فوق عدنان مختلف فيه. ولا ريب أنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام.

حكى رحمه الله: اتفاق العلماء على تحريم كل ما عُبِّد لغير الله؛ لأنه شرك في الربوبية والإلهية؛ لأن الخلق كلَّهم ملك للَّه وعبيد له، استعبدهم لعبادته وحده، وتوحيده في ربوبيته وإلهيته: فمنهم من عبد اللَّه وحده في ربوبيته وإلهيته، ومنهم من أشرك به في إلهيته وأقرَّ له بربوبيته وأسمائه وصفاته. وأحكامه القدرية جارية عليهم ولابُدَّ، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ [مريم: ٩٣]، فهذه هي العبودية العامة. وأما العبودية الخاصة فإنها تختص بأهل الإخلاص والطاعة؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، ونحوها.

قوله: (حاشى عبد المطلب)، هذا استثناء من العموم المستفاد من كل. وذلك أن تسميته بهذا الاسم لا محذور فيه؛ لأن أصله من عبودية الرق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ⁽¹²⁾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣] أي: جعلناه بالنوع، فأول الآية في آدم وحواء، ثم صار الكلام من العين إلى النوع.

وهذا التفسير له وجه، وفيه تنزيه آدم وحواء من الشرك، لكن فيه شيء من الركاكة لتشتت الضمائر.

وأما قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فجمع؛ لأن المراد بالمثنى اثنان من هذا الجنس، فصح أن يعود الضمير إليهما مجموعًا؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩] ولم يقل: اقتتلتا؛ لأن الطائفتين جماعة.

قوله: «اتفقوا»: أي: أجمعوا، والإجماع أحد الأدلة الشرعية التي تثبت بها الأحكام، والأدلة هي: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس.

قوله: «وما أشبه ذلك»: مثل: عبد الحسين، وعبد الرسول، وعبد المسيح، وعبد علي.

وأما قوله ﷺ: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم...**»[(1)] الحديث، فهذا وصف وليس عَلَمًا، فشبه المنهمك بمحبة هذه الأشياء المقدم لها على ما يرضي الله بالعابد لها، كقولك: عابد الدينار، فهو وصف، فلا يعارض الإجماع.

قوله: «حاشا عبد المطلب»: حاشا الاستثنائة إذا دخلت عليها (ما) وجب نصب ما بعدها، وإلا جاز فيه النصب والجر.

وبالنسبة لعبد المطلب مستثنى من الإجماع على تحريمه، فهو مختلف فيه، فقال بعض أهل العلم: لا يمكن أن نقول بالتحريم والرسول ﷺ قال:

«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»[(2)]

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٨٨٧، ٦٤٣٥)، وابن ماجه (٤١٣٥، ٤١٣٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٦٤) ومواضع، ومسلم (١٧٧٦)، والترمذي (١٦٨٨)، وأحمد (١٨٠٠٠) ومواضع.

. . . .

وذلك أن المطلب أخو هاشم قدم المدينة، وكان ابن أخيه شيبة هذا قد نشأ في أخواله بني النجار من الخزرج؛ لأن هاشمًا تزوج فيهم امرأة، فجاءت منه بهذا الابن. فلما شبَّ في أخواله وبلغ سن التمييز، سافر به عمه المطلب إلىٰ مكة بلد أبيه وعشيرته[(١)]. فقدم به مكة وهو رديفه، فرآه أهل مكة وقد تغيَّر لونُه بالسفر، فحسبوه عبدًا للمطلب، فقالوا: هذا عبد المطلب. فعَلق به هذا الاسم وركبه، فصار لا يذكر ولا يُدعىٰ إلا به[(٢)]، فلم يبق للأصل معنىٰ مقصود. وقد قال النبي ﷺ: **«أنا ابن عبد المطلب»**[(٣)]. وقد صار معظمًا في قريش والعرب، فهو سيِّدُ قريش وأشرفُهم في جاهليته، وهو الذي حفر زمزم وصارت له وفي ذريته من بعده.

وعبد الله: والد رسول اللَّه ﷺ أحد بني عبد المطلب، وتوفي في حياة أبيه؛ قال الحافظ صلاح الدين العُلائي في كتابه (الدرة السنية في مولد خير البرية): كان سنُّ أبيه عبد اللَّه حين حملت منه آمنة برسول اللَّه ﷺ نحو ثمانية عشر عامًا، ثم ذهب إلىٰ المدينة ليمتار منها تمرًا لأهله، فمات بها عند أخواله بني النجار، والنبي ﷺ حملٌ علىٰ الصحيح. انتهىٰ.

قلت: وصار النبي ﷺ لما وضعته أُمُّه في كفالة جده عبد المطلب.

قال الحافظ الذهبي: وتوفي أبوه عبد اللَّه وللنبي ﷺ ثمانية وعشرون شهرًا، وقيل: أقل من ذلك، وقيل: وهو حمل. توفي بالمدينة، وكان قد قدمها ليمتار بها تمرًا، وقيل: قد مرَّ بها راجعًا من الشام، وعاش خمسة وعشرين سنة.

قال الواقدي: وذلك أثبت الأقاويل في سنِّه ووفاته.

فالنبي ﷺ لا يفعل حرامًا، فيجوز أن يُعبَّد للمطلب إلا إذا وجد ناسخ، وهذا تقرير ابن حزم رحمه الله، ولكن الصواب تحريم التعبد للمطلب، فلا يجوز لأحد أن يسمي ابنه عبد المطلب، وأما قوله ﷺ: **«أنا ابن عبد المطلب»** فهو من باب الإخبار وليس من باب الإنشاء، فالنبي ﷺ أخبر أن له جدًا اسمه عبد المطلب، ولم يرد عنه ﷺ أنه سمىٰ عبد المطلب، أو أنه أمر أحد صحابته بذلك، ولا أنه أقر أحدًا علىٰ تسميته عبد المطلب، والكلام في الحكم لا في الإخبار، وفرق بين الإخبار وبين الإنشاء والإقرار، ولهذا قال النبي ﷺ: **«إنما بنو هاشم وبنو عبد مناف شيء واحد»**[(٤)] ولا يجوز التسمي بعبد مناف.

---

(١) وكانت أمه سلمى قد شرط أبوها عمرو بن يزيد الخزرجي النجاري على هاشم أن تلد عنده بالمدينة. فولدت له شيبة. ومات هاشم في الشام، فبقى شيبة بالمدينة عند أخواله بني عدي بن النجار سبع سنين حتى ذهب عمه المطلب إليه وأحضره إلى مكة. (ق).

(٢) واسمه العلم: شيبة الحمد. (ق).

(٣) رواه البخاري ومسلم عن البراء بن عازب - وسأله رجل من قيس: أفررتم عن رسول الله يوم حنين؟ فقال: «لكن رسول الله لم يفر كانت هوازن رماة وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم فاستقبلتنا بالسهام. ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء وإن أبا سفيان آخذ بزمامها يقول: **«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب، اللهم نزل نصرك»** وكنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله ﷺ وإن الشجاع الذي يحاذي به». (ق).

(٤) صحيح: رواه البخاري (٣١٤٠، ٣٥٠٣، ٤٢٢٩)، وأبو داود (٢٩٧٨، ٢٩٨٠)، والنسائي (٤١٣٧)، وابن ماجه (١٣٠٣)، وأحمد (١٦٢٩٩).

وعن ابن عباس في الآية، قال: لما تَغشَّاها آدم حملت، فأتاهما إبليسُ. فقال: إني صاحبُكما الذي أخرجتكما من الجنة، لتطيعانني أو لأجعلنَّ له قَرْني أيِّلٍ، فيخرج من بطنك فيشقه. ولأفعلنَّ ولأفعلنَّ، يخوِّفهما. سمِّياه عبد الحارث. فأبيا أن يُطيعاه، فخرج ميتًا. ثم حملت، فأتاهما. فقال مثل قوله. فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتًا، ثم حملت فأتاهما، فذكر لهما. فأدركهما حُبُّ الولد، فسمياه عبدالحارث، فذلك قولُه: ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ رواه ابن أبي حاتم.

وتُوفيت أُمُّه آمنة بالأبواء، وهي راجعة به ﷺ إلى مكة من زيارة أخوال أبيه بني عدي بن النجار، وهو يومئذ ابنُ ست سنين ومائة يوم. وقيل: ابن أربع سنين.

فلما ماتت أُمُّه حملته أمُّ أيمن مولاته إلى جده، فكان في كفالته إلى أن تُوفي جدُّه، وللنبي ﷺ ثمان سنين، فأوصى به إلى عمه أبي طالب. انتهى كلام الحافظ.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن ابن عباس في الآية، قال: لما تَغشَّاها آدم حملت، فأتاهما إبليسُ. فقال: إني صاحبُكما الذي أخرجتكما من الجنة، لَتُطيعانني أو لأجعلنَّ له قَرْني أيِّل، فيخرج من بطنك فيشقه. ولأفعلنَّ ولأفعلنَّ، يخوِّفهما. سمِّياه عبد الحارث. فأبيا أن يُطيعاه، فخرج ميتًا. ثم حملت، فأتاهما. فقال مثل قوله. فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتًا، ثم حملت فأتاهما، فذكر لهما.

فأدركهما حُبُّ الولد، فسمياه عبد الحارث، فذلك قولُه: ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ رواه ابن أبي حاتم.

قد قدَّمنا نظيره عن ابن عباس في المعنى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وله بسند صحيح، عن قتادة، قال: شُركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته. وله بسند صحيح، عن مجاهد ـ في قوله: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا﴾ قال: أشفقا أن لا يكون إنسانًا. وذُكر معناه عن الحسن، وسعيد، وغيرهما.

وقد قال العلماء: إن حاكي الكفر ليس بكافر؛ فالرسول ﷺ يتكلم عن شيء قد وقع وانتهى ومضى فالصواب أنه لا يجوز أن يُعبّد لغير الله مطلقًا لا بعبد المطلب ولا غيره، وعليه فيكون التعبيد لغير الله من الشرك.

قوله: «إبليس»: على وزن إفعيل، فقيل: من أبلس إذا يئس؛ لأنه يئس من رحمة الله تعالى.

قوله: «لتطيعانني»: جملة قسمية، أي: والله لتطيعاني.

قوله: «إيل»: هو ذكر الأوعال.

قوله: «سمياه عبد الحارث»: اختار هذا الاسم؛ لأنه اسمه، فأراد أن يعبداه لنفسه.

قوله: «فخرج ميتًا»: لم يحصل التهديد الأول، ويجوز أن يكون من جملة: «**ولأفعلن**»، ولأنه قال: «**ولأخرجنه ميتًا**».

قوله: «شركاء في طاعته»: أي: أطاعاه فيما أمرهما به، لا في العبادة لكن عبّدا الولد لغير الله، وفرق بين الطاعة

وله بسند صحيح، عن قتادة، قال: شُركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته.

وله بسند صحيح، عن مجاهد ـ في قوله: ﴿لَئِن آتَيْتَنَا صَالِحًا﴾ قال: أشفقا أن لا يكون إنسانًا. وذُكر معناه عن الحسن، وسعيد، وغيرهما (١).

قال شيخُنا رحمه الله: إن هذا الشرك في مجرد تسمية، لم تُقصد حقيقتها. وهو محمل حسن، يُبين أن ما وقع من الأبوين، من تسميتهما ابنهما عبد الحارث: إنما هو مجرد تسمية، لم يقصدا تعبيده لغير الله. وهذا معنىٰ قول قتادة: شُركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته.

باب قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠]

مقصود الترجمة أن من أنعم الله عليهم بالأولاد، وكمل الله لهم النعمة بهم بأن جعلهم صالحين في أبدانهم، وتمام ذلك أن يصلحوا في دينهم، فعليهم أن يشكروا الله علىٰ إنعامه، وألا يعبدوا أولادهم لغير الله، أو يضيفوا النعم لغير الله، فإن ذلك كفران للنعم مناف للتوحيد.

والعبادة، فلو أن أحدًا أطاع شخصًا في معصية لله لم يجعله شريكًا مع الله في العبادة، لكن أطاعه في معصية الله.

قوله: «أشفقا أن لا يكون إنسانًا»: أي: خاف آدم وحواء أن يكون حيوانًا أو جنيًا أو غير ذلك.

قوله: «وذكر معناه عن الحسن»: لكن الصحيح أن الحسن رحمه الله قال: إن المراد بالآية غير آدم وحواء، وإن المراد بها المشركون من بني آدم كما ذكر ذلك ابن كثير رحمه الله في «تفسيره» وقال: «أما نحن، فعلىٰ مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته» اهـ.

وهذه القصة باطلة من وجوه:

الوجه الأول: أنه ليس في ذلك خبر صحيح عن النبي ﷺ، وهذا من الأخبار التي لا تُتلقىٰ إلا بالوحي، وقد قال ابن حزم عن هذه القصة: إنها رواية خرافة مكذوبة موضوعة.

الوجه الثاني: أنه لو كانت هذه القصة في آدم وحواء، لكان حالهما إما أن يتوبا من الشرك أو يموتا عليه، فإن قلنا: ماتا عليه، كان ذلك أعظم من قول بعض الزنادقة:

إذا ما ذكرنا آدمًا وفعاله ... وتزويجه بنتيه بابنيه بالخنا

علمنا بأن الخلق من نسل فاجر ... وأن جميع الناس من عنصر الزنا

فمن جوّز موت أحد من الأنبياء علىٰ الشرك فقد أعظم الفرية، وإن كان تابا من الشرك؛ فلا يليق بحكمة الله وعدله ورحمته أن يذكر خطأهما ولا يذكر توبتهما منه، فيمتنع غاية الامتناع أن يذكر الله الخطيئة من آدم وحواء وقد تابا، ولم يذكر توبتهما، والله تعالىٰ إذا ذكر خطيئة بعض أنبيائه ورسله ذكر توبتهم منها كما في قصة آدم نفسه حين أكل من الشجرة وزوجه وتابا من ذلك.

---

(١) قلت: وهذه القصة ظاهرها أنَّها من الإسرائيليات، وإلا فقد صح عن ابن عباس وغيره أن القرون الأولَى من بني آدم كانت على التوحيد، وكذلك كان لابد من آدم أن يكون أكثر تيقظًا من إبليس بعد ما أصابه ما أصابه من الخروج من الجنة وما بعده. والله أعلم.

فيه مسائل:

الأولى: تحريم كل اسم معبَّد لغير الله[1].

. . . .

الوجه الثالث: أن الأنبياء معصومون من الشرك باتفاق العلماء.

الوجه الرابع: أنه ثبت في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلىٰ آدم يطلبون منه الشفاعة، فيعتذر بأكله من الشجرة[2] وهو معصية، ولو وقع منه الشرك؛ لكان اعتذاره به أقوىٰ وأولىٰ وأحرىٰ.

الوجه الخامس: أن في هذه القصة أن الشيطان جاء إليهما وقال: «**أنا صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة**»، وهذا لا يقوله من يريد الإغواء، وإنما يأتي بشيء يقرب قبول قوله، فإذا قال: «**أنا صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة**» فسيعلمان علم اليقين أنه عدو لهما، فلا يقبلان منه صرفًا ولا عدلاً.

الوجه السادس: أن في قوله في هذه القصة: «**لأجعلن له قرني إيل**»: إما أن يصدقا أن ذلك ممكن في حقه، فهذا شرك في الربوبية؛ لأنه لا يقدر علىٰ ذلك إلا الله، أو لا يصدقا، فلا يمكن أن يقبلا قوله وهما يعلمان أن ذلك غير ممكن في حقه.

الوجه السابع: قوله تعالىٰ: ﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ بضمير الجمع، ولو كان آدم وحواء لقال: عما يشركان.

فهذه الوجوه تدل علىٰ أن هذه القصة باطلة من أساسها، وأنه لا يجوز أن يعتقد في آدم وحواء أن يقع منهما شرك بأي حال من الأحوال، والأنبياء منزهون عن الشرك مبرؤون منه باتفاق أهل العلم، وعلىٰ هذا فيكون تفسير الآية كما أسلفنا أنها عائدة إلىٰ بني آدم الذين أشركوا شركًا حقيقيًا، فإن منهم مشركًا ومنهم موحدًا.

فيه مسائل:

الأولى: تحريم كل اسم معبد لغير الله: تؤخذ من الإجماع علىٰ ذلك، والإجماع الأصل الثالث من الأصول التي يعتمد عليها في الدين، والصحيح أنه ممكن وأنه حجة إذا حصل؛ لقوله تعالىٰ: ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾ [النساء: ٥٩]، و (إن) هذه شرطية لا تدل علىٰ وقوع التنازع، بل إن فُرِض ووقع، فالمرد إلىٰ الله ورسوله، فعلم منه أننا إذا أجمعنا فهو حجة.

لكن ادعاء الإجماع يحتاج إلىٰ بينة، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الإجماع الذي ينضبط ما كان عليه السلف الصالح؛ إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة، ولما قيل للإمام أحمد: إن فلانًا يقول: أجمعوا علىٰ كذا، أنكر ذلك وقال: وما يدريه لعلهم اختلفوا، فمن ادعىٰ الإجماع فهو كاذب.

ولعل الإمام أحمد قال ذلك؛ لأن المعتزلة وأهل التعطيل كانوا يتذرعون إلىٰ إثبات تعطيلهم

---

(١) كتسمية عبد علي وعبد الحسين وغلام الحسين، وعبد النبي وعبد الرسول. (ق).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

الثانية: تفسير الآية.

الثالثة: أنَّ هذا الشرك في مجرد تسمية لَم تقصد حقيقتها.

الرابعة: أنَّ هِبَة الله للرجل البنت السوية من النعم.

الخامسة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة، والشرك في العبادة.

. . . .

وشبههم بالإجماع، فيقولون: هذا إجماع المحققين، وما أشبه ذلك.

وقد سبق أن الصحيح أنه لا يجوز التعبيد للمطلب، وأن قول الرسول ﷺ: «**أنا ابن عبد المطلب**»[1] أنه من قبيل الإخبار وليس إقراراً ولا إنشاء، والإنسان له أن ينتسب إلىٰ أبيه وإن كان معبداً لغير الله، وقد قال النبي ﷺ: «**يا بني عبد مناف**»[2]، وهذا تعبيد لغير الله لكنه من باب الإخبار.

الثانية: تفسير الآية: يعني قوله تعالىٰ: ﴿**فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا**﴾ الآية، وسبق تفسيرها.

الثالثة: أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها: وهذا بناء علىٰ ما ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية، والصواب: أن هذا الشرك حق حقيقة، وأنه شرك من إشراك بني آدم لا من آدم وحواء، ولهذا قال تعالىٰ في الآية نفسها: ﴿**أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ**﴾ فهذا الشرك الحقيقي الواقع من بني آدم.

الرابعة: أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم: هذا بناء علىٰ ثبوت القصة، وأن المراد بقوله: ﴿**صَالِحًا**﴾ أي: بشراً سوياً، وأتىٰ المؤلف بالبنت دون الولد؛ لأن بعض الناس يرون أن هبة البنت من النقم، قال تعالىٰ: ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]، وإلا فهبة الولد الذكر السوي من باب النعم أيضًا، بل هو أكبر نعمة من هبة الأنثىٰ، وإن كانت هبة البنت بها أجر عظيم فيمن كفلها ورباها وقام عليها.

الخامسة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة: وقبل ذلك نبين الفرق بين الطاعة وبين العبادة، فالطاعة إذا كانت منسوبة لله، فلا فرق بينها وبين العبادة، فإن عبادة الله طاعته.

وأما الطاعة المنسوبة لغير الله، فإنها غير العبادة، فنحن نطيع الرسول ﷺ لكن لا نعبده، والإنسان قد يطيع ملكًا من ملوك الدنيا وهو يكرهه.

فالشرك بالطاعة: أنني أطعته لا حبًا وتعظيمًا وذلاً كما أحب الله وأتذلل له وأعظمه، ولكن طاعته اتباع لأمره فقط، هذا هو الفرق.

وبناء علىٰ القصة، فإن آدم وحواء أطاعا الشيطان ولم يعبداه عبادة، وهذا مبني علىٰ صحة القصة.

هذا الباب يتعلق بتوحيد الأسماء والصفات، ؛ لأن هذا الكتاب جامع لأنواع التوحيد الثلاثة:

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٦٤) ومواضع، ومسلم (١٧٧٦)، والترمذي (١٦٨٨)، وأحمد (١٨٠٠٠) ومواضع.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٥٣، ٣٥٢٧، ٤٧٧١)، ومسلم (٢٠٤، ٢٠٨)، وأبو داود (١٨٩٤)، والترمذي (٣١٨٦، ٨٦٨)، والنسائي (٢٩٢٤)، وابن ماجه (١٢٥٤).

٥٠ ـ باب قول الله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾[1] [الأعراف: ١٨١]

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب قول الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨١] ذكر ابنُ أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾: يُشركون. وعنه: سمُّوا اللات من الإله، والعُزَّى من العزيز. وعن الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها.

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن للَّه تسعةً وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، مَن أحصاها دخل الجنة، وهو وترٌ يحب الوتر**»[2] أخرجاه في (الصحيحين)، من حديث سُفيان بن عُيينة. ورواه البخاري، عن أبي اليمان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عنه.

وأخرجه [الترمذي عن] الجوزجاني، عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن شُعيب بسنده، مثله.

باب قول الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]

أصل التوحيد إثبات ما أثبته الله لنفسه: أو أثبته له رسوله من الأسماء الحسنىٰ: ومعرفة ما احتوت عليه من المعاني الجليلة، والمعارف الجميلة، والتعبد لله بها ودعاؤه بها.

توحيد العبادة، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

وتوحيد الأسماء والصفات: هو إفراد الله ـ عز وجل ـ بما ثبت له من صفات الكمال علىٰ وجه الحقيقة، بلا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل. لأنك إذا عطلت لم تثبت، وإن مثلت لم توحد، والتوحيد مركب من إثبات ونفي، أي: إثبات الحكم للموحد ونفيه عما عداه، فمثلاً إذا قلت: زيد قائم، لم توحده بالقيام، وإذا قلت: زيد غير قائم، لم تثبت له القيام، وإذا قلت: لا قائم إلا زيد، وحدته بالقيام.

وإذا قلت: لا إله إلا الله، وحدته بالألوهية، وإذا أثبت لله الأسماء والصفات دون أن يماثله أحد، فهذا هو توحيد الأسماء والصفات، وإن نفيتها عنه فهذا تعطيل، وإن مثلت فهذا إشراك.

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾: طريق التوحيد هنا تقديم الخبر لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، ففي الآية توحيد الأسماء لله.

وقوله: ﴿ الْحُسْنَىٰ ﴾: مؤنث أحسن، فهي اسم تفضيل، ومعنىٰ الحسنىٰ أي: البالغة في الحسن أكمله؛ لأن اسم التفضيل يدل علىٰ هذا، والتفضيل هنا مطلق؛ لأن اسم التفضيل قد يكون مطلقًا

---

(١) في قرة عيون الموحدين: أراد رحمه الله بهذه الترجمة الرد على من يتوسل بالأموات، وأن المشروع هو التوسل بالأسماء الحسنى والصفات العليا، والأعمال الصالحة. (ق).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (٢٧٣٦، ٧٣٩٢)، ومسلم (٢٦٧٧).

. . . .

وزاد بعد قوله: «يُحب الوتر: هو الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعزّ، المذل، السميع، البصير، الحَكَمَ، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المُقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المُجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الوليّ، الحميد، المحصي، المبدئ، المُعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدِّم، المؤخِّر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المُتعالي، البرّ، التواب، المنتقم، العفوّ، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المعطي، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور»[1].

ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب، وقد رُوي من غير وجه عن أبي هريرة، ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث.

مثل: زيد الأفضل، وقد يكون مقيداً مثل: زيد أفضل من عمرو.

وهنا التفضيل مطلق؛ لأنه قال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾.

فأسماء الله تعالى بالغة في الحسن أكمله من كل وجه، ليس فيها نقص لا فرضًا ولا احتمالاً.

وما يُخبر به عن الله أوسع مما يسمى به الله؛ لأن الله يخبر عنه بالشيء، ويخبر عنه بالمتكلم والمريد، مع أن الشيء لا يتضمن مدحًا والمتكلم والمريد يتضمنان مدحًا من وجه وغير مدح من وجه، ولا يسمى الله بذلك؛ فلا يسمى بالشيء ولا بالمتكلم ولا بالمريد، لكن يخبر بذلك عنه.

وقد سبق لنا مباحث قيمة في أسماء الله تعالى:

الأول: هل أسماء الله تعالى أعلام أو أوصاف؟ الثاني: هل أسماء الله مترادفة أو متباينة؟

الثالث: هل أسماء الله هي الله أو غيره؟ الرابع: أسماء الله توقيفية.

الخامس: أسماء الله غير محصورة بعدد معين[2].

السادس: أسماء الله إذا كانت متعدية، فإنه يجب أن تؤمن بالاسم والصفة وبالحكم الذي يسمى أحيانًا بالأثر، وإن كانت غير متعدية، فإنه يجب أن تؤمن بالاسم والصفة.

---

(١) ضعيف: رواه ابن ماجه (٣٨٦١)، والترمذي (٣٥٠٧)، وقال الترمذي: وليس له إسناد صحيح. وضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٩٤٦).

(٢) ودليله حديث عبد الله بن مسعود بلفظ: «ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحدا من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجا قال فقيل يا رسول الله ألا نتعلمها فقال بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها» فهناك أسماء لم يعلمها أحد قد اختص بها تبارك وتعالى في علم الغيب عنده والحديث رواه أحمد (٤٠٣٧)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٩٩).

. . . .

[والذي عوَّل عليه جماعة من الحفاظ: أن سرد الأسماء في هذا الحديث] مدرج فيه. وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم، وعبد الملك الصنعاني، عن زُهير بن محمد: أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك. أي: إنهم جمعوها من القرآن؛ كما رُوي عن جعفر بن محمد، وسفيان، وأبي زيد اللغوي. والله أعلم.

هذا ما ذكره العماد ابن كثير في (تفسيره). ثم قال: ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة في تسعة وتسعين؛ بدليل ما رواه أحمد، عن يزيد بن هارون، عن فُضيل بن مرزوق، عن أبي سلمة الجُهني، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «**ما أصاب أحداً قط همّ ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدُك ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك. أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي. إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحًا**» فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلمها؟ فقال: «**بلى. ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها**»، وقد أخرجه أبو حاتم بن حبان في (صحيحه)[1].

السابع: إحصاء أسماء الله معناه:

١ - الإحاطة بها لفظًا ومعنًى.

٢ - دعاء الله بها؛ لقوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾، وذلك بأن تجعلها وسيلة لك عند الدعاء، فتقول: يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، وما أشبه ذلك.

٣ - أن تتعبد لله بمقتضاها، فإذا علمت أنه رحيم تتعرض لرحمته، وإذا علمت أنه غفور تتعرض لمغفرته، وإذا علمت أنه سميع اتقيت القول الذي يغضبه، وإذا علمت أنه بصير اجتنبت الفعل الذي لا يرضاه.

قوله: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾: الدعاء هو السؤال، والدعاء قد يكون بلسان المقال، مثل: اللهم اغفر لي يا غفور وهكذا، أو بلسان الحال وذلك بالتعبد له، ولهذا قال العلماء: إن الدعاء دعاء مسألة ودعاء عبادة؛ لأن حقيقة الأمر أن المتعبد يرجو بلسان حاله رحمة الله ويخاف عقابه.

والأمر بدعاء الله بها يتضمن الأمر بمعرفتها؛ لأنه لا يمكن دعاء الله بها إلا بعد معرفتها.

وهذا خلافًا لما قاله بعض المداهنين في وقتنا الحاضر: إن البحث في الأسماء والصفات لا فائدة فيه ولا حاجة إليه.

أيريدون أن يعبدوا شيئًا لا أسماء له ولا صفات؟!

أم يريدون أن يداهنوا هؤلاء المحرفين حتى لا يحصل جدل ولا مناظرة معهم؟!

وهذا مبدأ خطير أن يقال للناس: لا تبحثوا في الأسماء والصفات، مع أن الله أمرنا بدعائه بها، والأمر للوجوب، ويقتضي وجوب علمنا بأسماء الله، ومعلوم أيضًا أننا لا نعلمها أسماء مجردة عن المعاني، بل لابد أن لها معاني فلابد أن نبحث فيها؛ لأن علمها ألفاظًا مجردة لا فائدة فيه، وإن قدر

---

(١) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٩٩).

وقال العوفي، عن ابن عباس - في قوله تعالىٰ: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ - قال: إلحاد الملحدين: أن دعوا اللات في أسماء اللّه.

وقال ابن جريج، عن مجاهد ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قال: اشتقوا اللات من الله، واشتقوا العُزَّىٰ من العزيز.

أن فيه فائدة بالتعبد باللفظ، فإنه لا يحصل به كمال الفائدة.

واعلم أن دعاء الله بأسمائه له معنيان:

الأول: دعاء العبادة: وذلك بأن تتعبد لله بما تقتضيه تلك الأسماء، ويطلق على الدعاء عبادة، قال تعالىٰ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠]، ولم يقل: عن دعائي، فدل علىٰ أن الدعاء عبادة.

فمثلاً: الرحيم يدل علىٰ الرحمة، وحينئذ تتطلع إلىٰ أسباب الرحمة وتفعلها.

والغفور يدل علىٰ المغفرة، وحينئذ تتعرض لمغفرة الله - عز وجل - بكثرة التوبة والاستغفار كذلك وما أشبه ذلك.

والقريب: يقتضي أن تتعرض إلىٰ القرب منه بالصلاة وغيرها، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

والسميع: يقتضي أن تتعبد لله بمقتضىٰ السمع، بحيث لا تسمع الله قولاً يغضبه ولا يرضاه منك.

والبصير: يقتضي أن تتعبد لله بمقتضىٰ ذلك البصر بحيث لا يرىٰ منك فعلاً يكرهه منك.

الثاني: دعاء المسألة، وهو أن تقدمها بين يدي سؤالك متوسلاً بها إلىٰ الله تعالىٰ.

مثلاً: يا حي، يا قيوم، اغفر لي وارحمني، وقال ﷺ: «**فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»[1]، والإنسان إذا دعا وعلل، فقد أثنىٰ علىٰ ربه بهذا الاسم طالبًا أن يكون سببًا للإجابة، والتوسل بصفة المدعو المحبوبة له سبب للإجابة، فالثناء علىٰ الله بأسمائه من أسباب الإجابة.

قوله تعالىٰ: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾: ﴿وَذَرُوا﴾: اتركوا، ﴿الَّذِينَ﴾: مفعول به، وجملة يلحدون صلة الموصول. ثم توعدهم بقوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وهو الإلحاد؛ أي: سيجزون جزاءه المطابق للعمل تمامًا، ولهذا يعبر الله تعالىٰ بالعمل عن الجزاء إشارة للعدل، وأنه لا يجزي الإنسان إلا بقدر عمله.

والمعنىٰ: ذروهم؛ أي: لا تسلكوا مسلكهم ولا طريقهم؛ فإنهم علىٰ ضلال وعدوان، وليس المعنىٰ عدم مناصحتهم وبيان الحق لهم؛ إذ لا يترك الظالم علىٰ ظلمه، ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿وَذَرُوا﴾ تهديداً للملحدين.

والإلحاد: مأخوذ من اللحد، وهو الميل، لحد وألحد بمعنىٰ مال، ومنه سمي الحفر بالقبر لحداً؛ لأنه مائل إلىٰ جهة القبلة.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٨٣٤، ٦٣٢٦)، ومسلم (٢٧٠٥)، والترمذي (٣٥٣١)، والنسائي (١٣٠٢)، وابن ماجه (٣٨٣٥)، وأحمد (٨، ٢٩).

. . . .

وقال قتادة: يُلحدون: يُشركون. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الإلحاد: التكذيب.

وأصل الإلحاد في كلام العرب: العدل عن القصد، والميلُ والجور والانحراف، ومنه اللحد في القبر؛ لانحرافه إلىٰ جهة القبلة عن سمت الحفر.

قال ابن القيم رحمه الله:

وحقيقة الإلحاد فيها الميلُ بالـ ... إشراك والتعطيل والنكران

وأسماء الرب تعالىٰ كلُّها أسماء وأوصاف تعرَّف بها تعالىٰ إلىٰ عباده، ودلَّت علىٰ كماله جل وعلا.

وقال رحمه اللّٰه تعالىٰ: فالإلحاد: إما بجحدها وإنكارها، وإما بجحد معانيها وتعطيلها، وإما بتحريفها عن الصواب، وإخراجها عن الحق بالتأويلات.

وإما بجعلها أسماء لهذه المخلوقات كإلحاد أهل الاتحاد؛ فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون، محمودها ومذمومها. حتىٰ قال زعيمهم: هو المسمَّىٰ بمعنىٰ كل اسم ممدوح عقلاً وشرعًا وعرفًا. وبكل اسم مذموم عقلاً وشرعًا وعرفًا. تعالىٰ اللّٰه عما يقولون علوًا كبيرًا. انتهىٰ.

قلت: والذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة ـ متقدمهم ومتأخرهم ـ: إثبات الصفات التي وصف اللّٰه بها نفسه، ووصفه بها رسوله ﷺ علىٰ ما يليق بجلال اللّٰه وعظمته، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل؛ كما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

والإلحاد في أسماء الله: الميل بها عما يجب فيها، وهو أنواع:

الأول: أن ينكر شيئًا من الأسماء أو مما دلت عليه من الصفات أو الأحكام، ووجه كونه إلحادًا أنه مال بها عما يجب لها؛ إذ الواجب إثباتها وإثبات ما تتضمنه من الصفات والأحكام.

الثاني: أن يثبت لله أسماء لم يسم الله بها نفسه؛ كقول الفلاسفة في الله: إنه علة فاعلة في هذا الكون تفعل، وهذا الكون معلول لها، وليس هناك إله. وبعضهم يسميه العقل الفعال، فالذي يدير هذا الكون هو العقل الفعال، وكذلك النصارىٰ يسمون الله أبًا وهذا إلحاد.

الثالث: أن يجعلها دالة علىٰ التشبيه، فيقول: الله سميع بصير قدير، والإنسان سميع بصير قدير، اتفقت هذه الأسماء، فيلزم أن تتفق المسميات، ويكون الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ مماثلاً للخلق، فيتدرج بتوافق الأسماء إلىٰ التوافق بالصفات. ووجه الإلحاد: أن أسماءه دالة علىٰ معان لائقة بالله لا يمكن أن تكون مشابهة لما تدل عليه من المعاني في المخلوق.

الرابع: أن يشتق من هذه الأسماء أسماء للأصنام؛ كتسمية اللات من الإله أو من الله، والعزىٰ من العزيز، ومناة من المنان حتىٰ يلقوا عليها شيئًا من الألوهية ليبرروا ما هم عليه.

واعلم أن التعبير بنفي التمثيل أحسن من التعبير بنفي التشبيه؛ لوجوه ثلاثة:

١ ـ أنه هو الذي نفاه الله في القرآن؛ فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

٢ ـ أنه ما من شيئين موجودين إلا وبينهما تشابه من بعض الوجوه، واشتراك في المعنىٰ من بعض الوجوه.

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾: يشركون. وعنه: سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز، وعن الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها.

وأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، يحتذى حذوه ومثاله. وكما أنه يجب العلم بأن للَّه ذاتًا حقيقة لا تُشبه شيئًا من ذوات المخلوقين. فله صفات حقيقة لا تشبه شيئًا من صفات المخلوقين، فمن جحد شيئًا مما وصف اللَّه به نفسه أو وصفه به رسوله، أو تأوَّله على غير ما ظهر من معناه: فهو جهميٌّ، قد اتبع غير سبيل المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وقال العلامة أيضًا: فائدة جليلة: ما يجري صفةً أو خبرًا على الرب تبارك وتعالى، أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات، كقولك: ذات، وموجود.

الثاني: ما يرجع إلى صفات معنوية: كالعليم، والقدير، والسميع، والبصير.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله: كالخالق والرازق.

الرابع: التنزيه المحض، ولابد من تضمُّنه ثبوتًا، إذ لا كمال في العدم المحض، كالقدوس، والسلام.

الخامس: - ولم يذكره أكثر الناس -: وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة، بل دال على معان، نحو المجيد، العظيم، الصمد؛ فإن المجيد: من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدلُّ على هذا. فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة، فمنه: استَمْجدَ المَرْخُ

فمثلاً: الخالق والمخلوق اشتركا في معنى الوجود، لكن وجود هذا يخصه ووجود هذا يخصه، وكذلك العلم والسمع والبصر ونحوها اشترك فيها الخالق والمخلوق في أصل المعنى، ويتميز كل واحد منهما بما يختص به.

٣ - أن الناس اختلفوا في معنى التشبيه حتى جعل بعضهم إثبات الصفات تشبيهاً، فيكون معنى بلا تشبيه، أي: بلا إثبات صفات على اصطلاحهم.

قوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لم يقل سيجزون العقاب إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل، وهذا وعيد، وهو كقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١]، وليس المعنى أن الله - عز وجل - مشغول الآن وسيخلفه الفراغ فيما بعد.

قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾: العمل يطلق على القول والفعل، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، وهذا يكون في الأفعال والأقوال.

قول ابن عباس: «يشركون»: تفسير للإلحاد، ويتضمن الإشراك بها من جهتين:

١ - أن يجعلوها دالة على المماثلة.

٢ - أو يشتقوا منها أسماء للأصنام؛ كما في الرواية الثانية عن ابن عباس التي ذكرها المؤلف، فمن جعلها دالة على المماثلة؛ فقد أشرك لأنه جعل لله مثيلاً، ومن أخذ منها أسماء لأصنامه، فقد أشرك لأنه جعل مسميات هذه الأسماء مشاركة لله - عز وجل.

وقوله: «وعنه»: أي: ابن عباس.

. . . .

والعَفَارُ[(١)]، وأمجد الناقة: علفها، ومنه: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ صفة للعرش، لسعته وعظمته وشرفه.

وتأمَّل كيف جاء هذا الاسم مقترنًا بطلب الصلاة من اللَّه على رسوله، كما علَّمناه ﷺ: بأنه في مقام طلب المزيد والتعرُّض لسعة العطاء، وكثرته ودوامه. فأتى في هذا المطلوب باسم يقتضيه، كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، فهو راجع إلى التوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه، ومنه الحديث الذي في (المسند) والترمذي: «**أَلِظُّوا بياذا الجلال والإكرام**»[(٢)]، ومنه: «**اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام**»[(٣)].

فهذا سؤال له وتوسل إليه بحمده، وأنه: لا إله إلا هو المنان. فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته، وما أحق ذلك بالإجابة، وأعظمه موقعًا عند المسئول. وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد.

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدرٌ زائد على مفرديهما، نحو: الغني الحميد، الغفور القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن؛ فإن الغنى صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر. فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذلك الغفور القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم. فتأمله، فإنه من أشرف المعارف.

قوله: «سموا اللات من الإله...»: وهذا أحد نوعي الإشراك بها أن يشتق منها أسماء للأصنام.

تنبيه: هنا كلمة تقولها النساء عندنا وهي: (وعِزّالي)، فما هو المقصود بها؟

الجواب: المقصود أنها من التعزية، أي: أنها تطلب الصبر والتقوية وليست تندب العزى التي هي الصنم؛ لأنها قد لا تعرف أن هناك صنمًا اسمه العزى ولا يخطر ببالها هذا، وبعض الناس قال: يجب إنكارها؛ لأن ظاهر اللفظ أنها تندب العزى، وهذا شرك، ولكن نقول: لو كان هذا هو المقصود لوجب الإنكار، لكنا نعلم علم اليقين أن هذا غير مقصود، بل يقصد بهذا اللفظ التَّقوي والصبر والثبات على هذه المصيبة.

قوله: «عن الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها»: هذا أحد أنواع الإلحاد، وهو أن يسمى الله بما لم يسم به نفسه، ومن زاد فيها فقد ألحد؛ لأن الواجب فيها الوقوف على ما جاء به السمع.

تتمة: جاءت النصوص بالوعيد على الإلحاد في آيات الله تعالى كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا**﴾ [فصلت: ٤٠]، فقوله: ﴿**لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا**﴾ فيها تهديد؛ لأن المعنى سنعاقبهم، والجملة مؤكدة بإن.

وآيات الله تنقسم إلى قسمين:

١ - آيات كونية: وهي كل المخلوقات من السموات والأرض والنجوم والجبال والشجر والدواب

---

(١) المرخ - شجر سريع الورى والاشتعال. والعفار - كسحاب: شجر يتخذ منه الزناد، والمراد: كثرت النار، ويضرب المثل للكثرة. (ق).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٣٥٢٤، ٣٥٢٥)، وضعفه، ورواه أحمد (٤/ ١٧٧)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٢٥٠) بشواهده.

(٣) صحيح: رواه أبو داود (١٤٩٥)، وابن ماجه (٣٨٥٨)، والترمذي (٣٥٤٤)، والنسائي (١٣٠٠)، وابن حبان (٨٩٣)، وأحمد (٣/ ١٢٠، ٢٤٥)، والحديث صححه الألباني رحمه الله.

فيه مسائل:

الأولى: إثبات الأسماء. الثانية: كونها حسنى.

الثالثة: الأمر بدعائه بهَا. الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين.

الخامسة: تفسير الإلحَاد فيها. السادسة: وعيد من ألحد.

فكل مطلب يطلبه العبد من ربه من أمور دينه ودنياه: فليتوسل إليه باسم مناسب له من أسماء الله الحسنىٰ: فمن دعاه لحصول رزق فليسأله باسمه الرزاق، ولحصول رحمة ومغفرة فباسمه الرحيم الرحمن البر الكريم العفو الغفور التواب ونحو ذلك.

وأفضل من ذلك أن يدعوه بأسمائه وصفاته دعاء العبادة، وذلك باستحضار معاني الأسماء الحسنىٰ وتحصيلها في القلوب حتىٰ تتأثر القلوب بآثارها ومقتضياتها، وتمتلئ بأجل المعارف. فمثلاً أسماء العظمة والكبرياء والمجد والجلال والهيبة تملأ القلوب تعظيمًا لله وإجلالاً له. وأسماء الجمال والبر والإحسان والرحمة والجود تملأ القلب محبة لله، وشوقًا له وحمدًا له وشكرًا. وأسماء العز والحكمة والعلم والقدرة تملأ القلب خضوعًا لله وخشوعًا وانكساراً بين يديه وأسماء العلم والخبرة والإحاطة والمراقبة والمشاهدة تملأ القلب مراقبة لله في الحركات والسكنات، وحراسة للخواطر عن الأفكار الردية، والإرادات الفاسدة. وأسماء الغنىٰ واللطف تملأ القلب افتقاراً واضطراراً إليه والتفاتًا إليه كل وقت في كل حال.

وغير ذلك، قال الشاعر:

فواعجبا كيف يعصى الإله ... أو كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

والإلحاد في الآيات الكونية ثلاثة أنواع:

١ ـ اعتقاد أن أحداً سوىٰ الله منفرد بها أو ببعضها. ٢ ـ اعتقاد أن أحدًا مشارك لله فيها.

٣ ـ اعتقاد أن لله فيها معينًا في إيجادها وخلقها وتدبيرها.

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، ظهير أي: معين.

وكل ما يخل بتوحيد الربوبية، فإنه داخل في الإلحاد في الآيات الكونية.

٢ ـ آيات شرعية: وهو ما جاءت به الرسل من الوحي كالقرآن، قال تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

والإلحاد في الآيات الشرعية ثلاثة أنواع:

١ ـ تكذيبها فيما يتعلق بالأخبار. ٢ ـ مخالفتها فيما يتعلق بالأحكام.

٣ ـ التحريف في الأخبار والأحكام، والإلحاد في الآيات الكونية والشرعية حرام.

ومنه ما يكون كفراً؛ كتكذيبها، فمن كَذَّب شيئًا مع اعتقاده أن الله ورسوله أخبرا به فهو كافر.

ومنه ما يكون معصية من الكبائر، كقتل النفس والزنا.

ومنه ما يكون معصية من الصغائر؛ كالنظر لأجنبية لشهوة. قال الله تعالىٰ في الحَرَم: ﴿وَمَن يُرِدْ

٥١ـ باب
لا يقال: السلام على الله

. . . .

فهذه المعارف التي تحصل للقلوب بسبب معرفة العبد بأسمائه وصفاته وتعبده بها لله لا يحصل العبد في الدنيا أجل ولا أفضل ولا أكمل منها، وهي أفضل العطايا من الله لعبده، وهي روح التوحيد وروحه، ومن انفتح له هذا الباب انفتح له باب التوحيد الخاص والإيمان الكامل، الذي لا يحصل إلا للكمل من الموحدين. وإثبات الأسماء والصفات هو الأصل لهذا المطلب الأعلى.

فيه بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، فسمى الله المعاصي والظلم إلحادًا؛ لأنها ميل عما يجب أن يكون عليه الإنسان؛ إذ الواجب عليه السير على صراط الله تعالى، ومن خالف فقد ألحد.

فيه مسائل: الأولى: إثبات الأسماء: يعني لله تعالى، وتؤخذ من قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ﴾، وهذا خبر متضمن لمدلوله من ثبوت الأسماء لله، وفي الجملة حصر لتقديم الخبر، والحصر باعتبار كونها حسنى لا باعتبار الأسماء. وأنكر الجهمية وغلاة المعتزلة ثبوت الأسماء لله تعالى.

الثانية: كونها حسنى: أي: بلغت في الحسن أكمله؛ لأن «حسنى» مؤنث أحسن، وهي اسم تفضيل.

الثالثة: الأمر بدعائه بها: والدعاء نوعان: دعاء مسألة، ودعاء عبادة، وكلاهما مأمور فيه أن يدعى الله بهذه الأسماء الحسنى، وسبق تفصيل ذلك.

الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين: أي: ترك سبيلهم، وليس المعنى أن لا ندعوهم ولا نبين لهم، والآية تتضمن أيضًا التهديد.

الخامسة: تفسير الإلحاد فيها: وقد سبق بيان أنواعه.

السادسة: وعيد من ألحد: وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

❊ ❊ ❊

هذه الترجمة أتى بها المؤلف بصيغة النفي، وهو محتمل للكراهة والتحريم، لكن استدلاله بالحديث يقتضي أنه للتحريم وهو كذلك.

والسلام له عدة معان:

١ ـ التحية؛ كما يقال: سلم على فلان؛ أي: حياه بالسلام.

٢ ـ السلامة من النقص والآفات؛ كقولنا: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته».

٣ ـ السلام: اسم من أسماء الله تعالى، قال تعالى: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ [الحشر: ٢٣].

قوله: «لا يقال: السلام على الله»: أي: لا تقل: السلام عليك يا رب؛ لما يلي:

أ ـ أن مثل هذا الدعاء يوهم النقص في حقه، فتدعو الله أن يسلم نفسه من ذلك، إذ لا يدعى لشيء بالسلام من شيء إلا إذا كان قابلاً أن يتصف به، والله ـ سبحانه ـ منزه عن صفات النقص.

ب ـ إذا دعوت الله أن يسلم نفسه؛ فقد خالفت الحقيقة؛ لأن الله يدعى ولا يدعى له، فهو غني

في الصحيح، عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة، قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان، فقال النبي ﷺ: «لا تقولوا: السلام على الله، فإن الله هو السلام»(١).

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب لا يقال: السلام على الله.

في الصحيح، عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة، قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان، فقال النبي ﷺ: «لا تقولوا: السلام على الله، فإن الله هو السلام».

هذا الحديث: رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من حديث شَقيق بن سلمة، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: كنا إذا جلسنا مع النبي ﷺ في الصلاة، قُلنا: السلام على الله قبل عباده، السلام على فلان وفلان. الحديث، وفي آخره ذِكْرُ التشهد الأخير. ورواه الترمذي، من حديث الأسود بن يزيد، عن ابن مسعود، وذكر في الحديث سبب النهي عن ذلك؛ بقوله: **«فإن الله هو السلام»**. وقد كان النبي ﷺ إذا انصرف من الصلاة المكتوبة استغفر ثلاثًا، وقال: **«اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»**(٢).

وفي الحديث: إن هذا هو تحية أهل الجنة لربهم تبارك وتعالى(٣). وفي التنزيل: ما يدلُّ على أن الرب تبارك وتعالى يُسلِّم عليهم في الجنة؛ كما قال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

وأما الإلحاد في أسماء الله وصفاته فإنه ينافي هذا المقصد العظيم أعظم منافاة، والإلحاد أنواع: إما أن ينفي الملحد معانيها كما تفعله الجهمية ومن تبعهم، وإما بتشبيهها بصفات المخلوقين كما يفعله المشبهة من الرافضة وغيرهم، وإما بتسمية المخلوقين بها كما يفعله المشركون حيث سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، فاشتقوا لها من أسماء الله الحسنى فشبهوها بالله، ثم جعلوا لها من حقوق العبادة ما هو من حقوق الله الخاصة، فحقيقة الإلحاد في أسماء الله هو الميل بها عن مقصودها لفظًا أو معنى، تصريحًا أو تأويلاً أو تحريفًا. وكل ذلك مناف للتوحيد والإيمان.

عنا، لكن يثني عليه بصفات الكمال مثل غفور، سميع، عليم. . .

ومناسبة الباب لتوحيد الصفات ظاهرة، لأن صفاته عليا كاملة كما أن أسماءه حسنى، والدليل على أن صفاته عليا قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧]. والمثل الأعلى: الوصف الأكمل، فإذا قلنا: السلام على الله أوهم ذلك أن الله ـ سبحانه ـ قد يلحقه النقص، وهذا ينافي كمال صفاته.

ومناسبة هذا الباب لما قبله ظاهرة؛ لأن موضوع الباب الذي قبله إثبات الأسماء الحسنى لله المتضمنة لصفاته، وموضوع هذا الباب سلامة صفاته من كل نقص، وهذا يتضمن كمالها؛ إذ لا يتم الكمال إلا بإثبات صفات الكمال ونفي ما يضادها، فإنك لو قلت: زيد فاضل أثبت له الفضل، وجاز أن يلحقه نقص، وإذا قلت: زيد فاضل ولم يسلك شيئًا من طرق السفول، فالآن أثبت له الفضل المطلق في هذه الصفة. والرب ـ سبحانه وتعالى ـ يتصف بصفات الكمال، ولكنه إذا ذكر ما يضاد تلك الصفة صار ذلك أكمل، ولهذا أعقب

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٨٣١) ومواضع، ومسلم (٤٠٢). (٢) صحيح: رواه مسلم (٥٩١، ٥٩٢).
(٣) انظر ما رواه أحمد (٣/ ٣٨١).

. . . .

ومعنى قوله: «إن الله هو السلام»: أنه تعالى سالم من كل نقص، ومن كل تمثيل. فهو الموصوف بكل كمال، المنزَّه عن كل عيب ونقص.

قال في (البدائع): السلام اسم مصدر، وهو من ألفاظ الدعاء، يتضمن الإنشاء والإخبار. فجهة الخبرية فيه لا تُناقض الجهة الإنشائية، وهو معنى السلام المطلوب عند التحية، وفيه قولان مشهوران:

الأول: أن اللَّه عز وجل هو السلام، ومعنى الكلام: نزلت بركتُه عليكم، ونحو هذا؛ فاختير في هذا المعنى من أسمائه عز وجل اسم السلام دون غيره من الأسماء.

الثاني: أن السلام مصدر بمعنى السلامة، وهو المطلوب المدعو به عند التحية، ومن حُجة أصحاب هذا القول: أنه يأتي منكرًا، فيقول المسلم: سلام عليكم، ولو كان اسمًا من أسماء اللَّه لم يُستعمل كذلك، ومن حجتهم: أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى، وإنما المقصود منه: الإيذان بالسلامة خبراً ودعاءً.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: وفصل الخطاب، أن يُقال: الحق في مجموع القولين، فكل منهما بعض الحق، والصواب في مجموعهما. وإنما يتبين ذلك بقاعدة، وهي: أن حق من دعا اللَّه بأسمائه الحُسنى أن يَسأل في كل مطلوب ويتوسل بالاسم المقتضي لذلك المطلوب، المناسب لحصوله، حتى إن الداعي متشفع إلى اللَّه تعالى، متوسل إليه به. فإذا قال: رب اغفر لي وتُب عليّ إنك أنت التواب الغفور، فقد سأله أمرين وتوسَّل إليه باسمين من أسمائه مُقتضيين لحصول مطلوبه.

وقال ﷺ لأبي بكر رضي اللَّه عنه، وقد سأله ما يدعو به: **«قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»**[1] . فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهم عند الرجل، أتى بلفظها بصيغة اسم من أسماء اللَّه وهو السلام، الذي تُطلب منه السلامة. فتضمن لفظ السلام معنيين:

أحدهما: ذكر الله. والثاني: طلب السلامة، وهو مقصود المسلم.

وقد تضمن سلام عليكم: اسمًا من أسماء اللَّه تعالى، وطلب السلامة منه. فتأمل هذه الفائدة.

وحقيقته: البراءة والخلاص، والنجاة من الشرور والعيوب. وعلى هذا المعنى تدور تصاريفه، فمن ذلك قولك: سلَّمك الله، ومنه دعاء المؤمنين على الصراط رب سلم سلم[2]. ومنه سَلِم الشيء لفلان، أي: خلص له وحده؛ قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩].

أي: خالصًا له وحده، لا يملكه معه غيره. ومنه السِّلْم ضد الحرب؛ لأن كل واحد من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر، ولهذا بُني فيه على المفاعلة، فقيل: المسالمة مثل المشاركة. ومنه: القلبُ السليم، وهو النقيُّ من الدَّغَل والعيب. وحقيقته: الذي قد سلَّم للَّه وحده، فخلص من دَغَل الشرك وغلِّه، ودغل الذنوب والمخالفات، بل هو المستقيم

المؤلف رحمه الله الباب السابق بهذا الباب إشارة إلى أن الأسماء الحسنى والصفات العلى لا يلحقها نقص.

والسلام اسم ثبوتي سلبي:

فسلبي: أي أنه يراد به نفي كل نقص أو عيب يتصوره الذهن أو يتخيله العقل، فلا يلحقه نقص في

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٧٣٨٧)، ومسلم (٢٧٠٥). (٢) صحيح: رواه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير السلام الثانية: أنَّه تحية. الثالثة: أنَّهَا لا تصلح لله.

الرابعة: العلة في ذلك. الخامسة: تعليمهم التحية التي تصلح لله.

على صدق حبه، وحسن معاملته. وهذا هو الذي ضمن له النجاة من عذابه، والفوز بكرامته. ومنه أُخذ الإسلام، فإنه من هذه المادة؛ لأنه الاستسلام والانقياد للَّه والتخلص من شوائب الشرك، فسلم لربه وخلص له. كالعبد الذي سلَّم لمولاه، ليس فيه شركاء متشاكسون. ولهذا ضرب سبحانه هذين المثلين للمسلم الخالص لربه، وللمشرك به.

باب لا يقال السلام على الله

(لا يقال: السلام على الله) وقد بين ﷺ هذا المعنىٰ بقوله: «إن الله هو السلام» فهو تعالىٰ السلام السالم من كل عيب ونقص، وعن مماثلة أحد من خلقه له، وهو المسلم لعباده من الآفات والبليات، فالعباد لن يبلغوا ضره فيضروه، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، بل هم الفقراء إليه، المحتاجون إليه في جميع أحوالهم، وهو الغني الحميد.

ذاته أو صفاته أو أفعاله أو أحكامه.

وثبوتي: أي يراد به ثبوت هذا الاسم له، والصفة التي تضمنها وهي السلامة.

قوله: «في «الصحيح»: هذا أعم من أن يكون ثابتًا في «الصحيحين»، أو أحدهما، أو غيرهما، وهذا الحديث المذكور في «الصحيحين».

قوله: «كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة»: الغالب أن المعية مع النبي ﷺ في الصلاة لا تكون إلا في الفرائض؛ لأنها هي التي يشرع لها صلاة الجماعة، ومشروعية صلاة الجماعة في غير الفرائض قليلة؛ كالاستسقاء.

قوله: «قلنا: السلام على الله من عباده»: أي: يطلبون السلامة لله من الآفات، يسألون الله أن يسلم نفسه من الآفات، أو أن اسم السلام علىٰ الله من عباده؛ لأن قول الإنسان السلام عليكم خبر بمعنىٰ الدعاء، وله معنيان:

١ ـ اسم السلام عليك؛ أي: عليك بركاته باسمه.

٢ ـ السلام من الله عليك؛ فهو سلام بمعنىٰ تسليم، ككلام بمعنىٰ تكليم.

قوله: «السلام على فلان وفلان»: أي: جبريل وميكائيل، وكلمة فلان يُكنىٰ بها عن الشخص، وهي مصروفة؛ لأنها ليست علمًا ولا صفة؛ كصفوان في قوله تعالىٰ: ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقد جاء في لفظ آخر: «السلام على جبريل وميكال»[(١)] كانوا يقولون هكذا في السلام.

فقال النبي ﷺ: «لا تقولوا: السلام على الله؛ فإن الله هو السلام».

وهذا نهي تحريم، والسلام لا يحتاج إلىٰ سلام، هو نفسه ـ عز وجل ـ سلام سالم من كل نقص ومن كل عيب. وفيه دليل علىٰ جواز السلام علىٰ الملائكة؛ لأن النبي ﷺ لم ينه عنه، ولأنه عليه الصلاة والسلام لما أخبر عائشة أن جبريل يسلم عليها قالت: «عليه السلام»[(٢)].

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٨٣١، ٦٢٣٠)، والنسائي (١١٦٨، ١١٦٩، ١٢٧٧)، وأحمد (٣٦١٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢١٧، ٣٣٦٤، ٦٢٤٩)، ومسلم (٢٤٤٧).

٥٢ـ باب
قول: اللهم اغفر لي إن شئت

في الصحيح، عن أبي هريرة: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «لا يقولن أحدُكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليَعزم المسألة؛ فإن اللَّه لا مُكره له»[(١)].

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت:

يعني: أن ذلك لا يجوز، لورود النهي عنه في حديث الباب.

قال المصنف رحمه الله تعالى: في الصحيح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن

باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت

الأمور كلها وإن كانت بمشيئة الله وإرادته، فالمطالب الدينية كسؤال الرحمة والمغفرة، والمطالب الدنيوية المعينة على الدين كسؤال العافية والرزق وتوابع ذلك، قد أمر العبد أن يسألها من ربه طلبًا ملحًا جازمًا، وهذا الطلب عين العبودية ومخها، ولا يتم ذلك إلا بالطلب الجازم الذي ليس فيه تعليق بالمشيئة، لأنه مأمور به، وهو خير محض لا ضرر فيه، والله تعالى لا يتعاظمه شيء.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير السلام: فبالنسبة لكونه اسمًا من أسماء الله معناه السالم من كل نقص وعيب، وبالنسبة لكونه تحية له معنيان:

الأول: تقدير مضاف، أي: اسم السلام عليك، أي: اسم الله الذي هو السلام عليك.

الثاني: أن السلام بمعنى التسليم اسم مصدر كالكلام بمعنى التكليم، أي: تخبر خبرًا يراد به الدعاء، أي: اسأل الله أن يسلمك تسليمًا.

الثانية: أنه تحية: وسبق ذلك.

الثالثة: أنها لا تصلح لله: وإذا كانت لا تصلح له كانت حرامًا.

الرابعة: العلة في ذلك: وهي أن الله هو السلام، وقد سبق بيانها.

الخامسة: تعليمهم التحية التي تصلح لله: تؤخذ من تكملة الحديث: **«فإذا صلى أحدكم فليقل: التحيات لله...»**، وفيه حسن تعليم الرسول ﷺ من وجهين:

الأول: أنه حينما نهاهم علل النهي. وفي ذلك فوائد:

١ ـ طمأنينة الإنسان إلى الحكم إذا قرن بالعلة.

٢ ـ بيان سمو الشريعة الإسلامية وأن أوامرها ونواهيها مقرونة بالحكمة؛ لأن العلة حكمة.

٣ ـ القياس على ما شارك الحكم المعلل بتلك العلة.

الثاني: أنه حين نهاهم عن ذلك بين لهم ما يباح لهم؛ فيؤخذ منه أن المتكلم إذا ذكر ما ينهى عنه

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٣).

ولمسلم: «وليُعـظِّم الرَّغبة، فـإن اللَّه لا يتعاظَـمه شيء أعطاه».

أحدُكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليَعزم المسألة ؛ فإن الله لا مُكره له» .

ولمسلم: «وليُعـظِّم الرَّغبة، فـإن اللَّه لا يتعاظَـمه شيء أعطاه»: بخلاف العبد؛ فإنه قد يعطي السائل مسألته لحاجته إليه، أو لخوفه منه أو رجائه، فيعطيه مسألته وهو كاره. فاللائق بالسائل للمخلوق أن يُعلِّق حصول حاجته على مشيئة المسئول، مخافة أن يُعطيه وهو كاره. بخلاف رب العالمين تعالى، فإنه لا يليق به ذلك؛ لكمال غناه عن جميع خلقه، وكمال جوده وكرمه، وكلُّهم فقير إليه، مُحتاج لا يستغني عن ربه طرفة عين، وعطاؤه كلام. وفي الحديث: «**يمين اللَّه ملأى، لا يغيضها نفقة، سحَّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يمينه، وفي يده الأخرى القسط يخفضه ويرفعه**»[1][2] يعطي تعالى لحكمة، ويمنعُ لحكمة، وهو الحكيم الخبير.

وبهذا يظهر الفرق بين هذا وبين سؤال بعض المطالب المعينة التي لا يتحقق مصلحتها ومنفعتها، ولا يجزم أن حصولها خير للعبد. فالعبد يسأل ربه ويعلقه على اختيار ربه له أصلح الأمرين، كالدعاء المأثور: «**اللهم أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي**» وكدعاء الاستخارة.

فليذكر ما يقوم مقامه مما هو مباح، ولهذا شواهد كثيرة من القرآن والسنة سبق شيء منها. ويستفاد من الحديث: أنه لا يجوز الإقرار على المحرم؛ لقوله: «**لا تقولوا: السلام على الله**»، وهذا واجب على كل مسلم، ويجب على العلماء بيان الأمور الشرعية لئلا يستمر الناس فيما لا يجوز ويرون أنه جائز، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ**﴾ [آل عمران: ١٨٧].

❊ ❊ ❊

قوله: «باب قوله: اللهم اغـفر لي إن شئت»: عقد المؤلف هذا الباب لما تضمنه هذا الحديث من كمال سلطان الله وكمال جوده وفضله، وذلك من صفات الكمال.

قوله: «اللهم»: معناه: يا الله. لكن لكثرة الاستعمال حذفت يا النداء وعُوض عنها الميم، وجعل العوض في الآخرة تيمنًا بالابتداء بذكر الله.

قوله: «اغفر لي»: المغفرة: ستر الذنب مع التجاوز عنه؛ لأنها مشتقة من المغفر، وهو ما يستر به الرأس للوقاية من السهام وهذا لا يكون إلا بشيء ساتر واق، ويدل له قول الله ـ عز وجل ـ للعبد المؤمن حينما يخلو به ويقرره بذنوبه يوم القيامة: «**قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»[3].

قوله: «إن شئت»: أي: إن شئت أن تغفر لي فاغفر، وإن شئت فلا تغفر.

---

(١) رواه البخاري في عدة مواضع من الجامع ومسلم عن أبي هريرة وفيه زيادة «**وكان عرشه على الماء**» بعد «**خلق السموات والأرض**» وفي تفسير سورة هود من البخاري أول الحديث «**أنفق أنفق عليك**»، وقال: «**يد الله ملأى**» -الحديث قال الحافظ في الفتح: وترد رواية: «**يمين الله**» على من فسر اليد هنا بالنعمة، وأبعد منه فسرها بالخزائن. اهـ. ومعنى: «**يغيضها**» ينقصها، يقال: غاض الماء إذا نقص، ومعنى «**سحاء**» أي: دائمة الصب والعطاء الكبير. (ق).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٧٤١٩)، ومسلم (٩٩٣).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨)، وابن ماجه (١٨٣)، وأحمد (٥٤١٣، ٥٧٩١).

. . . .

فاللائق بمن سأل أن يعزم المسألة ، فإن اللَّه تعالىٰ لا يُعطي عبده شيئًا عن كراهة ، ولا عن عظم مسألة .

وقد قال بعض الشعراء فيمن يمدحه :

ويعظم في عين الصغير صغارُها ... ويصغر في عين العظيم العظائم

وأما هذا : بالنسبة إلىٰ ما في نفوس أرباب الدنيا ، وإلا فإن العبد يُعطي تارة ويمنع أكثر ، ويُعطي كرهًا والبخل عليه أغلب ؛ وبالنسبة إلىٰ حاله هذه فليس عطاؤه بعظيم . وأما ما يعطيه اللَّه عباده فهو دائم مستمر ، يجود بالنوال قبل السؤال . من حيث وضعت النطفة في الرحم ؛ فنعمه علىٰ الجنين في بطن أُمه دارَّة ، يربيه أحسن تربية ، فإذا وضعت أُمُّه عطف عليه والديه ، وربَّاه بنعمه حتىٰ يبلغ أشده . يتقلب في نعم اللَّه مدة حياته ، فإذا كانت حياته علىٰ الإيمان والتقوىٰ : ازدادت نعم اللَّه تعالىٰ عليه إذا توفاه ، أضعاف أضعاف ما كان عليه في الدنيا من النعم التي لا يقدِّر قدرها إلا اللَّه ، مما أعده اللَّه تعالىٰ لعباده المؤمنين المتقين . وكل ما يناله العبد في الدنيا من النعم ، وإن كان بعضها علىٰ يد مخلوق ، فهو بإذن اللَّه وإرادته وإحسانه إلىٰ عبده . فإن اللَّه تعالىٰ هو المحمود علىٰ النعم كلِّها ، فهو الذي شاءها وقدَّرها ، وأجراها عن كرمه وجوده وفضله . فله النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ

قوله : «في «الصحيح»» : سبق الكلام علىٰ مثل هذه العبارة في كلام المؤلف ، والمراد هنا الحديث الصحيح ؛ لأن الحديث في «الصحيحين» كليهما .

قوله ﷺ : «لا يقل أحدكم» : لا : ناهية بدليل جزم الفعل بعدها .

قوله : «اللهم اغفر لي ، اللهم ارحمني» : ففي الجملة الأولىٰ : «اغفر لي» النجاة من المكروه ، وفي الثانية : «ارحمني» الوصول إلىٰ المطلوب ؛ فيكون هذا الدعاء شاملاً لكل ما فيه حصول المطلوب وزوال المكروه .

قوله : «ليعزم المسألة» : اللام لام الأمر ، ومعنىٰ عزم المسألة : أن لا يكون في تردد بل يعزم بدون تردد ولا تعليق . و «المسألة» السؤال أي : ليعزم في سؤاله فلا يكون مترددًا بقوله : إن شئت .

قوله : «فإن الله لا مكره له» : تعليل للنهي عن قول : «اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت» ؛ أي : لا أحد يكرهه علىٰ ما يريد فيمنعه منه ، أو ما لا يريد فيلزمه بفعله ؛ لأن الأمر كله لله وحده . والمحظور في هذا التعليق من وجوه ثلاثة :

الأول : أنه يشعر بأن الله له مكره علىٰ الشيء ، وأن وراءه من يستطيع أن يمنعه ، فكأن الداعي بهذه الكيفية يقول : أنا لا أكرهك ، إن شئت فاغفر وإن شئت فلا تغفر .

الثاني : أن قول القائل : «إن شئت» كأنه يرىٰ أن هذا أمر عظيم علىٰ الله فقد لا يشاؤه لكونه عظيمًا عنده ، ونظير ذلك أن تقول لشخص من الناس - والمثال للصورة بالصورة لا للحقيقة بالحقيقة - : أعطني مليون ريال إن شئت ، فإنك إذا قلت له ذلك ؛ ربما يكون الشيء عظيمًا يتثاقله ، فقولك : إن شئت ؛ لأجل أن تُهون عليه المسألة ؛ فالله - عز وجل - لا يحتاج أن تقول له : إن شئت ؛ لأنه - سبحانه وتعالىٰ - لا يتعاظمه شيء أعطاه ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : «وليعظم الرغبة ؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه» [1] .

---

(١) صحيح : رواه مسلم (٢٦٧٩) .

. . . .

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]. وقد يمنع تعالى عبده إذا سأله؛ لحكمة وعلم بما يُصلح عبده من العطاء والمنع. وقد يؤخِّر ما سأله عبده لوقته المقدَّر، أو ليُعطيه أكثر، فتبارك اللَّه ربُّ العالمين.

فافهم هذا الفرق اللطيف البديع بين طلب الأمور النافعة المعلوم نفعها وعدم ضررها، وأن الداعي يجزم بطلبها ولا يعلقها، وبين طلب الأمور التي لا يدري العبد عن عواقبها، ولا رجحان نفعها على ضررها، فالداعي يعلقها على اختيار ربه الذي أحاط بكل شيء علمًا وقدرة ورحمة ولطفًا.

«وليعظم الرغبة»: أي: ليسأل ما شاء من قليل وكثير ولا يقل: هذا كثير لا أسأل الله إياه، ولهذا قال: «**فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**»؛ أي: لا يكون الشيء عظيمًا عنده حتى يمنعه ويبخل به - سبحانه وتعالى - كل شيء يعطيه، فإنه ليس عظيمًا عنده؛ فالله - عز وجل - يبعث الخلق بكلمة واحدة وهذا أمر عظيم، لكنه يسير عليه، قال تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]. وليس بعظيم؛ فكل ما يعطيه الله - عز وجل - لأحد من خلقه فليس بعظيم يتعاظمه؛ أي: لا يكون الشيء عظيمًا عنده حتى لا يعطيه، بل كل شيء عنده هين.

الثالث: أنه يشعر بأن الطالب مستغن عن الله، كأنه يقول: إن شئت فافعل، وإن شئت فلا تفعل فأنا لا يهمني، ولهذا قال: «**وليعظم الرغبة**»؛ أي: يسأل برغبة عظيمة، والتعليق ينافي ذلك؛ لأن المعلق للشيء المطلوب يشعر تعليقه بأنه تعليق مستغن عنه، والإنسان ينبغي أن يدعو الله تعالى وهو يشعر أنه مفتقر إليه غاية الافتقار، وأن الله قادر على أن يعطيه ما سأل، وأن الله ليس يعظم عليه شيء، بل هو هين عليه، إذًا من آداب الدعاء أن لا يدعو بهذه الصيغة، بل يجزم فيقول: اللهم اغفر لي، اللهم ارحمني، اللهم وفقني، وما أشبه ذلك، وهل يجزم بالإجابة؟

الجواب: إذا كان الأمر عائدًا إلى قدرة الله؛ فهذا يجب أن تجزم بأن الله قادر على ذلك، قال الله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. أما من حيث دعاؤك أنت باعتبار ما عندك من الموانع، أو عدم توافر الأسباب؛ فإنك قد تتردد في الإجابة، ومع ذلك ينبغي أن تحسن الظن بالله؛ لأن الله - عز وجل - قال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؛ فالذي وفقك لدعائه أولاً سيَمُنّ عليك بالإجابة آخرًا، لا سيما إذا أتى الإنسان بأسباب الإجابة وتجنب الموانع، ومن الموانع الاعتداء في الدعاء، كأن يدعو بإثم أو قطيعة رحم.

ومنها أن يدعو بما لا يمكن شرعًا أو قدرًا: فشرعًا كأن يقول: اللهم اجعلني نبيًا. وقدرًا بأن يدعو الله تعالى بأن يجمع بين النقيضين، وهذا أمر لا يمكن؛ فالاعتداء بالدعاء مانع من إجابته، وهو مُحرم، لقول تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وهو أشبه ما يكون بالاستهزاء بالله - سبحانه.

مناسبة الباب للتوحيد: من وجهين:

١ - من جهة الربوبية: فإن من أتى بما يشعر بأن الله له مكره لم يقم بتمام ربوبيته تعالى؛ لأن من تمام الربوبية أنه لا مكره له، بل إنه لا يسأل عما يفعل، كما قال تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. وكذلك فيه نقص من ناحية الربوبية من جهة أخرى، وهو أن الله يتعاظم الأشياء التي يعطيها، فكان فيه قدح في جوده وكرمه.

٢ - من ناحية العبد: فإنه يشعر باستغنائه عن ربه، وهذا نقص في توحيد الإنسان، سواء من جهة الألوهية أو الربوبية أو الأسماء والصفات، ولهذا ذكره المصنف في الباب الذي يتعلق بالأسماء والصفات.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الاستثناء في الدعاء. الثانية: بيان العلة في ذلك.

الثالثة: قوله: «ليعزم المسألة». الرابعة: إعظام الرغبة. الخامسة: التعليل لهذا الأمر.

قوله: ولمسلم: «وليُعظِّم الرَّغبة» أي: في سؤاله لربه حاجته؛ فإنه يُعطي العظائم كرمًا وجوداً وإحسانًا.

«فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»، أي: ليس شيء عنده يعظم، وإن عظم في نفس المخلوق؛ [لأن سائل المخلوق] لا يسأله إلا ما يهون عليه بذله، بخلاف رب العالمين، فإن عطاءه كلام: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]؛ فسبحان من لا يقدِّر الخلقُ قدْرَه، لا إله غيره، ولا رب سواه.

فإن قلت: ما الجواب عما ورد في دعاء الاستخارة: «اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم أرضني به»(١)، وكذا ما ورد في الحديث المشهور: «اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»(٢)؟

فالجواب: إنني لم أعلق هذا بالمشيئة، ما قلت: فاقدره لي إن شئت، لكن لا أعلم أن هذا خير لي أو شر والله يعلم؛ فأقول: إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي فاقدره لي، فالتعليق فيه لأمر مجهول عندي لا أعلم هل هو خير لي أو لا؟ وكذا بالنسبة للحديث الآخر؛ لأن الإنسان لا يعلم هل طول حياته خير أو شر؟ ولهذا كره أهل العلم أن تقول للشخص: أطال الله بقاءك؛ لأن طول البقاء لا يعلم؛ فقد يكون خيراً، وقد يكون شراً، ولكن يقال: أطال الله بقاءك على طاعته وما أشبه ذلك حتى يكون الدعاء خيراً بكل حال، وعلى هذا فلا يكون في حديث الباب معارضة لحديث الاستخارة ولا حديث: «اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي»؛ لأن الدعاء مجزوم به وليس معلقًا بالمشيئة، والنهي إنما هو عما كان معلقًا بالمشيئة. لكن لو قال: اللهم اغفر لي إن أردت وليس إن شئت، فالحكم واحد؛ لأن الإرادة هنا كونية، فهي بمعنى المشيئة، فالخلاف باللفظ لا يعتبر مؤثراً بالحكم.

فيه مسائل: **الأولى: النهي عن الاستثناء في الدعاء:** والمراد بالاستثناء هنا الشرط، فإن الشرط يسمى استثناء بدليل قوله ﷺ لضباعة بنت الزبير: «حجي واشترطي؛ فإن لك على ربك ما استثنيت»(٣)، ووجهه أنك إذا قلت: أكرم زيداً إن أكرمك، فهو كقولك: أكرم زيداً إلا ألا يكرمك، فهو بمعنى الاستثناء في الحقيقة.

الثانية: بيان العلة في ذلك: وقد سبق أنها ثلاث علل:

١ - أنها تشعر بأن الله له مكره، والأمر ليس كذلك.

٢ - أنها تشعر بأن هذا أمر عظيم على الله يثقل عليه ويعجز عنه، والأمر ليس كذلك.

٣ - أنها تشعر باستغناء الإنسان عن الله، وهذا غير لائق وليس من الأدب.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (١١٦٦، ٦٣٨٢)، وأبو داود (١٥٣٨)، والترمذي (٤٨٠)، والنسائي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (١٣٨٣)، وأحمد (١٤٢٩٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٧١، ٦٣٥١)، ومسلم (٢٦٨٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٨٩)، ومسلم (١٢٠٧)، والنسائي (٢٧٦٨)، وأحمد (٢٤٧٨٠، ٢٥١٣١).

٥٣ـ باب لا يقول: عبدي وأمتي

في الصحيح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولنَّ أحدكم: أطعم ربَّك، وضِّئْ ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغُلامي»(١).

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب لا يقول: عبدي وأمتي:

في الصحيح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولنَّ أحدكم: أطعم ربَّك، وضِّئ ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغُلامي».

قوله: (باب لا يقول: عبدي وأمتي): ذَكَر الحديث الذي في الصحيح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يقولنَّ أحدكم: أطعم ربَّك، وضئ ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغُلامي»**.

باب لا يقل عبدي وأمتي

وهذا على وجه الاستحباب أن يعدل العبد عن قول عبدي وأمتي إلى فتاي وفتاتي، تحفظًا عن اللفظ الذي فيه إيهام ومحذور ولو على وجه بعيد، وليس حراماً وإنما الأدب كمال التحفظ بالألفاظ الطيبة التي لا توهم محذوراً بوجه، فإن الأدب في الألفاظ دليل على كمال الإخلاص خصوصاً هذه الألفاظ التي هي أمس بهذا المقام.

الثالثة: قوله: «ليعزم المسألة»: تفيد أنك إذا سألت فاعزم ولا تتردد.

الرابعة: إعظام الرغبة: لقوله ﷺ: «وليُعظم الرغبة»: أي: ليسأل ما بدا له فلا شيء عزيز أو ممتنع على الله.

الخامسة: التعليل لهذا الأمر: يستفاد من قوله: **«فإن الله لا يتعاظمه شيء، أو لا مكره له»** وقوله: **«وليعظم الرغبة»**، وفي هذا حسن تعليم الرسول ﷺ؛ فإنه إذا ذكر شيئًا قرنه بعلته.

وفي ذكر علة الحكم فوائد: الأولى: بيان سمو هذه الشريعة، وأنه ما من شيء تحكم به إلا وله علة وحكمة.

الثانية: زيادة طمأنينة الإنسان؛ لأنه إذا فهم العلة مع الحكم اطمأن، ولهذا لما سئل ﷺ عن بيع الرطب بالتمر لم يقل حلال أو حرام، بل قال: **«أينقص إذا جف؟»**(٢). قالوا: نعم. فنهى عنه. «والرجل الذي قال: إن امرأتي ولدت غلامًا أسود ـ لم يقل الولد لك ـ، بل قال: **«هل لك من إبل؟»** قال: نعم. قال: **«ما ألوانها؟»** قال: حمر. قال: **«هل فيها من أوْرَق»** ـ الأورق: الأشهب الذي بين البياض والسواد ـ؟ قال: نعم. قال: **«من أين؟»** قال: لعله نزعه عرق. قال: **«لعل ابنك نزعه عرق»**(٣)، فاطمأن، وعرف الحكم، وأن هذا هو الواقع، فقرن الحكم بالعلة يوجب الطمأنينة ومحبة الشريعة والرغبة فيها.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩).

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٣٣٥٩)، والترمذي (١٢٢٥) وابن ماجه (٢٢٦٤)، وأحمد (١٥٤٧) ومواضع، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الإرواء (١٣٥٢).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٣٠٥، ٦٨٤٧)، ومسلم (١٥٠٠)، وأبو داود (٢٢٦٠)، والنسائي (٣٤٧٨) ومواضع، وابن ماجه (٢٠٠٣).

. . . .

هذه الألفاظ المنهي عنها: وإن كانت تطلق لغة، فالنبي ﷺ نهىٰ عنها تحقيقًا للتوحيد، [وسدًا لذرائع الشرك]؛ لما فيها من التشريك في اللفظ؛ لأن اللَّه تعالىٰ هو رب العباد جميعهم. فإذا أُطلق علىٰ غيره شاركه في هذا الاسم، فيُنهىٰ عنه لذلك؛ وإن لم يقصد بذلك التشريك في الربوبية التي

الثالثة: القياس إذا كانت المسألة في حكم من الأحكام، فيلحق بها ما شاركها في العلة.

هذه الترجمة تحتمل كراهة هذا القول وتحريمه، وقد اختلف العلماء في ذلك، وسيأتي التفصيل فيه.

قوله: «في «الصحيح»»: سبق التنبيه علىٰ مثل هذه العبارة في كلام المؤلف، وهذا الحديث في «الصحيحين»، فيكون المراد بقوله: «في الصحيح» أي: في الحديث الصحيح، ولعله أراد «صحيح البخاري»؛ لأن هذا لفظه، أما لفظ مسلم، فيختلف عنه.

قوله ﷺ: «لا يقل»: الجملة نهي.

«عبدي» أي: للغلام. و «أمتي» أي: للجارية.

والحكم في ذلك ينقسم إلى قسمين: الأول: أن يضيفه إلىٰ غيره، مثل أن يقول: عبد فلان أو أمة فلان، فهذا جائز، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، وقال النبي ﷺ: «ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة»[(١)].

الثاني: أن يضيفه إلىٰ نفسه، وله صورتان:

الأولىٰ: أن يكون بصيغة الخبر، مثل: أطعمت عبدي، كسوت عبدي، أعتقت عبدي، فإن قاله في غيبة العبد أو الأمة، فلا بأس به، وإن قاله في حضرة العبد أو الأمة، فإن ترتب عليه مفسدة تتعلق بالعبد أو السيد منع، وإلا فلا؛ لأن قائل ذلك لا يقصد العبودية التي هي الذل، وإنما يقصد أنه مملوك.

الثانية: أن يكون بصيغة النداء، فيقول السيد: يا عبدي، هات كذا، فهذا منهي عنه، وقد اختلف العلماء في النهي: هل هو للكراهة أو التحريم؟ والراجح التفصيل في ذلك، وأقل أحواله الكراهة.

قوله ﷺ: «لا يقل أحدكم: أطعم ربك...» إلخ: أي: لا يقل أحدكم لعبد غيره، ويحتمل أن يشمل قول السيد لعبده حيث يضع الظاهر موضع المضمر تعاظمًا. واعلم أن إضافة الرب إلىٰ غير الله تعالىٰ تنقسم إلىٰ أقسام:

القسم الأول: أن تكون الإضافة إلىٰ ضمير المخاطب، مثل: أطعم ربك، وضئ ربك، فيكره ذلك للنهي عنه؛ لأن فيه محذورين:

١ ـ من جهة الصيغة: لأنه يوهم معنىً فاسدًا بالنسبة لكلمة رب؛ لأن الرب من أسمائه سبحانه، وهو سبحانه يطعِم ولا يطعَم، وإن كان بلا شك أن الرب هنا غير رب العالمين الذي يطعِم ولا يطعَم، ولكن من باب الأدب في اللفظ.

٢ ـ من جهة المعنى: لأنه يشعر العبد أو الأمة بالذل؛ لأنه إذا كان السيد ربًا كان العبد أو الأمة مربوبًا.

القسم الثاني: أن تكون الإضافة إلىٰ ضمير الغائب، فهذا لا بأس به، كقوله ﷺ في حديث أشراط الساعة: «أن تلد الأمة ربها»[(٢)]، وأما لفظ: «ربتها»[(٣)]، فلا إشكال فيه لوجود تاء التأنيث، فلا اشتراك مع

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٦٣، ١٤٦٤)، ومسلم (٩٨٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩). (٣) متفق عليه: رواه البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (٨).

. . . .

هي وصف اللّه تعالىٰ، وإنما المعنىٰ أن هذا مالك له؛ فيطلق عليه هذا اللفظ بهذا الاعتبار. فالنهي عنه حسمًا لمادة التشريك بين الخالق والمخلوق، وتحقيقًا للتوحيد وبُعدًا عن الشرك حتىٰ في اللفظ.

وهذا من أحسن مقاصد الشريعة؛ لما فيه من تعظيم الرب تعالىٰ، وبُعده عن مشابهة المخلوقين. فأرشدهم ﷺ إلىٰ ما يقوم مقام هذه الألفاظ، وهو قوله: سيدي ومولاي وكذلك قوله: «**ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي**» لأن العبيد عبيد اللّه والإماء إماء اللّه؛ قال تعالىٰ: ﴿**إن كلُّ من في السَّموَات والأرْضِ إلاَّ آتي الرَّحْمَنِ عَبْدًا**﴾ [مريم: ٩٣]، ففي إطلاق هاتين الكلمتين علىٰ غير اللّه تشريك في اللفظ، فنهاهم عن ذلك تعظيمًا للّه تعالىٰ، وأدبًا وإبعادًا عن الشرك، وتحقيقًا للتوحيد، وأرشده إلىٰ أن يقول: «**فتاي وفتاتي وغلامي**».

وهذا من باب حماية المصطفىٰ ﷺ جناب التوحيد، فقد بلغ ﷺ أُمَّته كل ما فيه نفع، ونهاهم عن كل ما فيه نقص في الدين. فلا خير إلا دلهم عليه، خصوصًا في تحقيق التوحيد، ولا شر إلا حذرهم عنه صلوات اللّه وسلامه عليه، خصوصًا ما يُقرِّب من الشرك لفظًا وإن لم يُقصد. وباللّه التوفيق.

الله في اللفظ؛ لأن الله لا يقال له إلا رب، وفي حديث الضالة ـ وهو متفق عليه ـ: «**حتى يجدها ربها**»[(١)]، وقال بعض أهل العلم: إن حديث الضالة في بهيمة لا تتعبد ولا تتذلل؛ فليست كالإنسان، والصحيح عدم الفارق؛ لأن البهيمة تعبد الله عبادة خاصة، قال تعالىٰ: ﴿**يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ**﴾، وقال في الناس ﴿**وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ**﴾، ليس جميعهم ﴿**وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ**﴾ [الحج: ١٨]، وعلىٰ هذا فيجوز أن تقول: أطعم الرقيق ربه، ونحوه.

القسم الثالث: أن تكون الإضافة إلىٰ ضمير المتكلم، بأن يقول العبد: هذا ربي، فهل يجوز هذا؟

قد يقول قائل: إن هذا جائز؛ لأن هذا من العبد لسيده، وقد قال تعالىٰ عن صاحب يوسف: ﴿**إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ**﴾ [يوسف: ٢٣] أي: سيدي، ولأن المحذور من قول: ﴿**رَبِّي**﴾ هو إذلال العبد، وهذا منتف؛ لأنه هو بنفسه يقول: هذا ربي.

القسم الرابع: أن يضاف إلىٰ الاسم الظاهر، فيقال: هذا رب الغلام، فظاهر الحديث الجواز، وهو كذلك ما لم يوجد محذور فيمنع، كما لو ظن السامع أن السيد رب حقيقي خالق ونحو ذلك.

قوله: «وليقل: سيدي ومولاي»: المتوقع أن يقول: وليقل سيلك ومولاك؛ لأن مقتضىٰ الحال أن يرشد إلىٰ ما يكون بدلاً عن اللفظ المنهي عنه بما يطابقه، وهنا ورد النهي بلفظ الخطاب، والإرشاد بلفظ التكلم، وليقل: «**سيدي ومولاي**»، ففهم المؤلف رحمه الله ـ كما سيأتي في المسائل ـ أن فيه إشارة إلىٰ أنه إذا كان الغير قد نهي أن يقول للعبد: أطعم ربك؛ فالعبد من باب أولىٰ أن ينهىٰ عن قول: أطعمت ربي، وضأت ربي، بل يقول: سيدي ومولاي. وأما إذا قلنا بأن أطعم ربك خاص بمن يخاطب العبد لما فيه من إذلال العبد بخلاف ما إذا قال هو بنفسه: أطعمت ربي، فإنه ينتفي الإذلال؛ فإنه يقال: إن الرسول ﷺ لما وجه الخطاب لمن يخاطب العبد وجّه الخطاب إلىٰ العبد نفسه، فقال: «**وليقل: سيدي ومولاي**»، أي: بدلاً من قوله: أطعمت ربي، وضأت ربي.

وقوله: «**سيدي**»: السيادة في الأصل علو المنزلة؛ لأنها من السؤدد والشرف والجاه وما أشبه ذلك.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٢٨، ٢٤٣٨)، ومسلم (١٧٢٢).

. . . .

. . . .

والسيد يطلق على معان، منها: المالك، والزوج، والشريف المطاع. وسيدي هنا مضافة إلى ياء المتكلم وليست على وجه الإطلاق. فالسيد على وجه الإطلاق لا يقال إلا لله ـ عز وجل ـ قال ﷺ: «السيد الله»[1].

وأما السيد مضافة؛ فإنها تكون لغير الله، قال تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥].

وقال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة»[2]، والفقهاء يقولون: إذا قال السيد لعبده، أي: سيد العبد لعبده.

تنبيه: اشتهر عند بعض الناس إطلاق السيدة على المرأة، فيقولون مثلا: هذا خاص بالرجال، وهذا خاص بالسيدات، وهذا قلب للحقائق؛ لأن السادة هم الرجال، قال تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾، وقال: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]، وقال ﷺ: «إن النساء عوان عندكم»[3] أي: بمنزلة الأسير، وقال في الرجل: «راع في أهله ومسئول عن رعيته»[4] فالصواب أن يقال للواحدة امرأة وللجماعة منهن نساء.

قوله: «ومولاي»: أي: وليقل مولاي، والولاية تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ولاية مطلقة، وهذه لله ـ عز وجل ـ لا تصلح لغيره كالسيادة المطلقة.

وولاية الله نوعان: النوع الأول: عامة: وهي الشاملة لكل أحد، قال الله تعالى: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠]، فجعل له ولاية على هؤلاء المفترين، وهذه ولاية عامة.

النوع الثاني: خاصة بالمؤمنين: قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]، وهذه ولاية خاصة. ومقتضى السياق أن يقال: وليس مولى الكافرين، لكن قال: ﴿لا مَوْلَى لَهُمْ﴾ أي: لا مولى للكافرين ولا أوليائهم الذين يتخذونهم آلهة من دون الله موالي لهم؛ لأنهم يوم القيامة يتبرؤون منهم.

القسم الثاني: ولاية مقيدة مضافة، فهذه تكون لغير الله، ولها في اللغة معان كثيرة، منها: الناصر، والمتولي للأمور، والسيد، والعتيق. قال تعالى: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم: ٤]، وقال ﷺ فيما يروى عنه: «من كنت مولاه فعلي مولاه»[5]، وقال ﷺ: «إنما الولاء لمن أعتق»[6]. ويقال للسلطان: ولي الأمر، وللعتيق: مولى فلانَ لمن أعتقه، وعليه يعرف أنه لا وجه لاستنكار بعض الناس لمن خاطب ملكًا بقوله: مولاي؛ لأن المراد بمولاي أي متولي أمري، ولا شك أن رئيس الدولة يتولى أمورها، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

قوله ﷺ: «ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي»: هذا خطاب للسيد أن لا يقول: عبدي وأمتي لمملوكه

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤٨٠٦)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٤٩٠٠).

(٢) صحيح: وقد تقدم كثيراً.

(٣) صحيح: رواه الترمذي (١١٦٣، ٣٠٨٧)، وابن ماجه (١٨٥١)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الإرواء (٢١٥٦)، وصحيح الجامع (٧٨٨٠).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٨٩٣، ٢٧٥١)، ومسلم (١٨٢٩).

(٥) صحيح: رواه الترمذي (٣٧١٣)، وابن ماجه (١٢١)، وأحمد (٦٤٢)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٤٠٨٩).

(٦) متفق عليه: رواه البخاري (٤٥٦) ومواضع، ومسلم (١٥٠٤).

. . . .

. . . .

ومملوكته؛ لأننا جميعًا عباد الله، ونساؤنا إماء لله، قال النبي ﷺ: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**»[(١)].

فالسيد منهي أن يقول ذلك؛ لأنه إذا قال: عبدي وأمتي، فقد تشبه بالله - عز وجل - ولو من حيث ظاهر اللفظ؛ لأن الله - عز وجل - يخاطب عباده بقوله: عبدي؛ كما في الحديث: «**عبدي استطعمتك فلم تطعمني...**»[(٢)] وما أشبه ذلك. وإن كان السيد يريد بقوله: «**عبدي**» أي: مملوكي، فالنهي من باب التنزه عن اللفظ الذي يوهم الإشراك، وقد سبق بيان حكم ذلك.

وقوله: «وأمتي»: الأمة: الأنثىٰ من المملوكات، وتسمىٰ الجارية. والعلة من النهي: أن فيه إشعارًا بالعبودية، وكل هذا من باب حماية التوحيد والبعد عن التشريك حتىٰ في اللفظ. ولهذا ذهب بعض أهل العلم ومنهم شيخنا عبد الرحمن السعدي رحمه الله إلىٰ أن النهي في الحديث ليس علىٰ سبيل التحريم، وأنه علىٰ سبيل الأدب والأفضل والأكمل، وقد سبق بيان حكم ذلك مفصلاً.

قوله: «وليقل: فتاي وفتاتي»: مثله جاريتي وغلامي، فلا بأس به.

وفي هذا الحديث من الفوائد:

١ - حسن تعليم الرسول ﷺ، حيث إنه إذا نهىٰ عن شيء فتح للناس ما يباح لهم، فقال: «**لا يقل: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي**»، وهذه كما هي طريقة النبي ﷺ، فهي طريقة القرآن أيضًا، قال تعالىٰ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا** ﴾ [البقرة: ١٠٤].

وهكذا ينبغي أيضًا لأهل العلم وأهل الدعوة إذا سدوا علىٰ الناس بابًا محرمًا أن يفتحوا لهم الباب المباح حتىٰ لا يضيقوا علىٰ الناس ويسدوا الطرق أمامهم؛ لأن في ذلك فائدتين عظيمتين:

الأولى: تسهيل ترك المحرم علىٰ هؤلاء؛ لأنهم إذا عرفوا أن هناك بدلاً عنه هان عليهم تركه.

الثانية: بيان أن الدين الإسلامي فيه سعة، وأن كل ما يحتاج إليه الناس، فإن الدين الإسلامي يسعه، فلا يحكم علىٰ الناس أن لا يتكلموا بشيء أو لا يفعلوا شيئًا إلا وفتح لهم ما يغني عنه.

وهذا من كمال الشريعة الإسلامية.

٢ - أن الأمر يأتي للإباحة؛ لقوله: «**وليقل: سيدي ومولاي**».

وقد قال العلماء: إن الأمر إذا أتىٰ في مقابلة شيء ممنوع صار للإباحة، وهنا جاء الأمر في مقابلة شيء ممنوع، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿ **وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا** ﴾ [المائدة: ٢].

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن قول: عبدي وأمتي: تؤخذ من قوله: «**ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي**» وقد

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٩٠٠)، ومسلم (٤٤٢)، وأبو داود (٥٦٥، ٥٦٦)، وابن ماجه (١٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٩).

فيه مسائل:

الأولى: النهيُ عن قول: عبدي وأَمَتي.

الثانية: لا يقول العبد: ربِّي، ولا يقال له: أطْعِمَ ربَّكَ.

الثالثة: تعليم الأول قول: فتاي، وفتاتي، وغلامي.

الرابعة: تعليم الثاني قول: سيدي ومولاي.

الخامسة: التنبيه للمراد، وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ.

. . . .

سبق بيان ذلك.

الثانية: لا يقول العبد: ربي، ولا يقال له: أطعم ربك: تؤخذ من الحديث، وقد سبق بيان ذلك.

الثالثة: تعليم الأول (وهو السيد) قول: فتاي وفتاتي وغلامي.

الرابعة: تعليم الثاني (وهو العبد) قول: سيدي ومولاي.

الخامسة: التنبيه للمراد، وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ: وقد سبق ذلك.

وفي الباب مسائل أخرىٰ لكن هذه المسائل هي المقصود.

* * *

٥٤ـ باب لا يُرَدُّ من سأل بالله

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب لا يُردُّ من سأل بالله:

باب لا يرد من سأل بالله
وباب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

الباب الأول خطاب للمسئول، وأنه إذا أدلى على الإنسان أحد بحاجة وتوسل إليه بأعظم الوسائل، وهو السؤال بالله، أن يجيبه احترامًا وتعظيمًا لحق الله، وأداء لحق أخيه حيث أدلى بهذا السبب الأعظم.

قوله: «باب لا يرد»: **«لا»**: نافية بدليل رفع المضارع بعدها، والنفي يحتمل أن يكون للكراهة، وأن يكون للتحريم.

وقوله: «من سأل بالله»: أي: من سأل غيره بالله. والسؤال بالله ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: السؤال بالله بالصيغة، مثل أن يقول: أسألك بالله كما تقدم في حديث الثلاثة حيث قال المَلَك: **«أسألك بالذي أعطاك الجلد الحسن واللون الحسن بعيرًا»**[١].

الثاني: السؤال بشرع الله ـ عز وجل ـ أي: يسأل سؤالاً يبيحه الشرع؛ كسؤال الفقير من الصدقة، والسؤال عن مسألة من العلم، وما شابه ذلك.

وحكم من رد من سأل بالله الكراهة أو التحريم حسب حال المسئول والسائل، وهنا عدة مسائل:

المسألة الأولى: هل يجوز للإنسان أن يسأل بالله أم لا؟

وهذه المسألة لم يتطرق إليها المؤلف رحمه الله، فنقول أولاً: السؤال من حيث هو مكروه ولا ينبغي للإنسان أن يسأل أحدًا شيئًا إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، ولهذا كان مما بايع النبي ﷺ أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئًا، حتى إن عصا أحدهم ليسقط منه وهو على راحلته، فلا يقول لأحد: ناولنيه، بل ينزل ويأخذه[٢]. والمعنى يقتضيه؛ لأنك إذا أعززت نفسك ولم تذلها لسؤال الناس بقيت محترمًا عند الناس، وصار لك منعة من أن تذل وجهك لأحد؛ لأن من أذل وجهه لأحد، فإنه ربما يحتاجه ذلك الأحد لأمر يكره أن يعطيه إياه، ولكنه إذا سأله اضطر إلى أن يجيبه، ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه قال: **«ازهد فيما عند الناس يحبك الناس»**[٣]، فالسؤال أصلاً مكروه أو محرم إلا لحاجة أو ضرورة. فسؤال المال محرم، فلا يجوز أن يسأل من أحد مالاً إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك، وقال الفقهاء رحمهم الله في باب الزكاة: «إن من أبيح له أخذ شيء أبيح له سؤاله»، ولكن فيما قالوه نظر؛ فإن الرسول ﷺ حذر من السؤال وقال: **«إن الإنسان لا يزال يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وما في وجهه مزعة لحم»**[٤]، وهذا يدل على التحريم إلا للضرورة.

وأما سؤال المعونة بالجاه أو المعونة بالبدن، فهذه مكروهة، إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه (١٨٣٧)، وأحمد (٢١٨٨٠) ومواضع من حديث ثوبان، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الترغيب والترهيب (٨١٣).

(٣) صحيح: رواه ابن ماجه (٤١٠٢)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٩٢٢).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٧٥)، ومسلم (١٠٤٠).

عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تُروا أنكم قد كافأتموه»(١). رواه أبو داود، والنسائي بسند صحيح.

عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تُروا أنكم قد كافأتموه». رواه أبو داود، والنسائي بسند صحيح.

والباب الثاني خطاب للسائل، وأن عليه أن يحترم أسماء الله وصفاته، وأن لا يسأل شيئًا من المطالب الدنيوية بوجه الله، بل لا يسأل بوجهه إلا أهم المطالب وأعظم المقاصد وهي الجنة بما فيها من النعيم المقيم، ورضا الرب والنظر إلى وجهه الكريم والتلذذ بخطابه، فهذا المطلب الأسنى هو الذي يسأل بوجه الله، وأما المطالب الدنيوية، والأمور الدنيئة وإن كان العبد لا يسألها إلا من ربه فإنه لا يُسأل بوجهه.

وأما إجابة السائل، فهو موضوع بابنا هذا، ولا يخلو السائل من أحد أمرين:

الأول: أن يسأل سؤالاً مجردًا، كأن يقول مثلاً: يا فلان أعطني كذا وكذا، فإن كان مما أباحه الشارع له فإنك تعطيه؛ كالفقير يسأل شيئًا من الزكاة.

الثاني: أن يسأل بالله، فهذا تجيبه وإن لم يكن مستحقًا؛ لأنه سأل بعظيم، فإجابته من تعظيم هذا العظيم، لكن لو سأل إثمًا أو كان في إجابته ضرر على المسئول؛ فإنه لا يجاب.

مثال الأول: أن يسألك بالله نقودًا ليشتري بها محرمًا كالخمر.

ومثال الثاني: أن يسألك بالله أن تخبره عما في سرك وما تفعله مع أهلك، فهذا لا يجاب؛ لأن في الأول إعانة على الإثم، وإجابته في الثاني ضرر على المسئول.

قوله ﷺ: **«من سأل بالله»: «مَنْ»**: شرطية للعموم.

قوله: **«فأعطوه»**: الأمر هنا للوجوب ما لم يتضمن السؤال إثمًا أو ضررًا على المسئول؛ لأن في إعطائه إجابةً لحاجته وتعظيمًا لله ـ عز وجل ـ الذي سأل به.

ولا يشترط أن يكون سؤاله بلفظ الجلالة بل بكل اسم يختص بالله، كما قال المَلَك الذي جاء إلى الأبرص والأقرع والأعمى: **«أسألك بالذي أعطاك كذا وكذا»**(٢).

قوله: **«ومن استعاذ بالله فأعيذوه»**: أي قال: أعوذ بالله منك؛ فإنه يجب عليك أن تعيذه؛ لأنه استعاذ بعظيم ولهذا لما قالت ابنة الجون للرسول ﷺ: أعوذ بالله منك، قال لها: **«لقد عذت بعظيم ـ أو معاذ ـ، الحقي بأهلك»**(٣).

لكن يستثنى من ذلك لو استعاذ من أمر واجب عليه، فلا تعذه، مثل أن تلزمه بصلاة الجماعة، فقال: أعوذ بالله منك.

---

(١) صحيح: رواه النسائي (٢٥٦٧)، وأبو داود (١٦٧٢، ٥١٠٩)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٠٢١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣٦٤، ٤٤١٨، ٥٢٥٤)، ومسلم (٢٧٦٩).

. . . .

ظاهر الحديث النهي عن رد السائل إذا سأله بالله، لكن هذا العموم يحتاج إلىٰ تفصيل، بحسب ما ورد في الكتاب والسنة. فيجب إذا سأل السائل ما له فيه حق كبيت المال [أن يُجاب]، فيُعطىٰ منه علىٰ قدر حاجته [وما يستحقه]، وكذلك إذا سأل المحتاج مَن في ماله فضل فيجب أن يعطيه ما يدفع، علىٰ حسب حاله ومسألته.

وأما إذا سأل من لا فضل عنده، فيُستحب أن يُعطيه علىٰ قدر حال المسئول ما لا يضره ولا يضر عائلته، وإن كان مضطرًا وجب أن يعطيه ما يدفع ضرورته. ومقام الإنفاق من أشرف مقامات الدين، وتفاوت الناس فيه بحسب ما جبلوا عليه من الكرم والجود، وضدِّهما من البخل والشح. فالأول محمود في الكتاب والسنة، والثاني مذموم فيهما. وقد حثَّ الله تعالىٰ عباده علىٰ الإنفاق؛ لعظم نفعه وتعدِّيه، وكثرة ثوابه، قال تعالىٰ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٢٦٧، ٢٦٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ **وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ** ﴾ [الحديد: ٧]. وذلك الإنفاق في خصال البر المذكورة في قوله: ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فذكره بعد ذكر أصول الإيمان، وقبل ذكر الصلاة. وذلك ـ والله أعلم ـ لتعدي نفعه.

وذكره تعالىٰ في الأعمال التي أمر بها عباده، وتعبدهم بها ووعدهم عليها الأجر العظيم؛ قال تعالىٰ: ﴿ **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وكذلك لو ألزمته بالإقلاع عن أمر محرم، فاستعاذ بالله منك؛ فلا تعذه لما فيه من التعاون علىٰ الإثم والعدوان، ولأن الله لا يعيذ عاصيًا، بل العاصي يستحق العقوبة لا الانتصار له وإعاذته. وكذلك من استعاذ بملجأ صحيح يقتضي الشرع أن يعيذه ـ وإن لم يقل أستعيذ بالله ـ، فإنه يجب عليك أن تعيذه كما قال أهل العلم: لو جنىٰ أحد جناية ثم لجأ إلىٰ الحرم، فإنه لا يقام عليه الحد ولا القصاص في الحرم، ولكنه يضيق عليه، فلا يبايع، ولا يشترىٰ منه، ولا يؤجر حتىٰ يخرج. بخلاف من انتهك حرمة الحرم بأن فعل الجناية في نفس الحرم، فإن الحرم لا يعيذه؛ لأنه انتهك حرمة الحرم.

قوله: «ومن دعاكم فأجيبوه»: «مَنْ»: شرطية للعموم، والظاهر أن المراد بالدعوة هنا الدعوة للإكرام، وليس المقصود بالدعوة هنا النداء. وظاهر الحديث وجوب إجابة الدعوة في كل دعوة، وهو مذهب الظاهرية. وجمهور أهل العلم: أنها مستحبة إلا دعوة العُرس، فإنها واجبة لقوله ﷺ فيها: «**شر الطعام طعام الوليمة، يدعى إليها من يأباها ويمنعها من يأتيها، ومن لم يجب فقد عصى الله ورسوله**»[1]. وسواء قيل بالوجوب أو الاستحباب، فإنه يشترط لذلك شروط:

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥١٧٧)، ومسلم (١٤٣٢)، وأبو داود (٣٧٤٢)، وابن ماجه (١٩١٣)، وأحمد (٧٢٣٧).

. . . .

وكان النبي ﷺ يحث أصحابه على الصدقة حتى النساء؛ نُصحًا للأمة وحثًا لهم على ما ينفعهم عاجلاً وآجلاً. وقد أثنى اللَّه سبحانه على الأنصار رضي اللَّه عنهم بالإيثار، فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، والإيثار من أفضل خصال المؤمن كما تُفيده هذه الآية الكريمة، وقد قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨، ٩].

والآيات والأحاديث في فضل الصدقة كثيرة جدًا، ومن كان سعيه للدار الآخرة رغب في هذا ورغّب، وباللَّه التوفيق.

قوله: «ومن دعاكم فأجيبوه»: هذا من حقوق المسلمين بعضهم على بعض: إجابة دعوة المسلم، وتلك من أسباب الأُلفة والمحبة بين المسلمين.

---

١ - أن يكون الداعي ممن لا يجب هجره أو يسن.

٢ - ألا يكون هناك منكر في مكان الدعوة، فإن كان هناك منكر، فإن أمكنه إزالته، وجب عليه الحضور لسببين:

- إجابة الدعوة. - وتغيير المنكر.

وإن كان لا يمكنه إزالته حرم عليه الحضور؛ لأن حضوره يستلزم إثمه، وما استلزم الإثم فهو إثم.

٣ - أن يكون الداعي مسلمًا، وإلا لم تجب الإجابة؛ لقوله ﷺ: **«حق المسلم على المسلم ست....»**. وذكر منها: **«إذا دعاك فأجبه»**[1]. قالوا: وهذا مقيد للعموم الوارد.

٤ - أن لا يكون كسبه حرامًا؛ لأن إجابته تستلزم أن تأكل طعامًا حرامًا، وهذا لا يجوز، وبه قال بعض أهل العلم.

وقال آخرون: ما كان محرمًا لكسبه، فإنما إثمه على الكاسب لا على من أخذه بطريق مباح من الكاسب، بخلاف ما كام محرمًا لعينه، كالخمر والمغصوب ونحوهما، وهذا القول وجيه قوي، بدليل أن الرسول ﷺ اشترى من يهودي طعامًا لأهله[2]، وأكل من الشاة التي أهدتها له اليهودية بخيبر[3]، وأجاب دعوة اليهودي، ومن المعلوم أن اليهود معظمهم يأخذون الربا ويأكلون السحت، وربما يقوي هذا القول قوله ﷺ في اللحم الذي تصدق به على بريرة: **«هو لها صدقة ولنا منها هدية»**[4].

وعلى القول الأول؛ فإن الكراهة تقوى وتضعف حسب كثرة المال الحرام، وقلته، فكلما كان الحرام أكثر كانت الكراهة أشد، وكلما قل كانت الكراهة أقل.

٥ - أن لا تتضمن الإجابة إسقاط واجب أو ما هو أوجب منها، فإن تضمنت ذلك حرمت الإجابة.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٦٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٢٥٢، ٢٥٠٩)، ومسلم (١٦٠٣)، وابن ماجه (٢٤٣٦)، وأحمد (٢٤٧٤٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦١٧)، ومسلم (٢١٩٠)، وأبو داود (٤٥٠٨)، وأحمد (١٢٨٧٢).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٩٣)، ومسلم (١٠٧٥)، وأبو داود (١٦٥٦)، والنسائي (٢٦١٤)، وأحمد (٢٤٨٩٨)، والدارمي (٢٢٨٩).

. . . .

قوله: «ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه»: ندبهم ﷺ على المكافأة على المعروف، فإن المكافأة على المعروف من المروءة التي يحبها الله تعالى ورسوله، كما دل عليه هذا الحديث، ولا يُهمل المكافأة على المعروف إلا اللئيم من الناس، وبعض اللئام يكافئ على الإحسان بالإساءة، كما يقع ذلك كثيرًا من بعضهم. نسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

بخلاف حال أهل التقوى والإيمان، فإنهم يدفعون بالحسنة السيئة؛ طاعة لله ومحبة لما يحبه لهم ويرضاه؛ كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨]، وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]، وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة.

قوله: «فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له»: أرشدهم ﷺ إلى أن الدعاء في حق من لم يجد المكافأة مكافأة للمعروف، فيدعو له بحسب معروفه.

قوله: «حتى تُروا -بضم التاء، أي: تظنوا- أنكم قد كافأتموه»: ويُحتمل أنها مفتوحة بمعنى: تعلموا؛ ويؤيده ما في (سُنن أبي داود)، في حديث ابن عمر: «حتى تعلموا» فتعين الثاني للتصريح به. وفيه: «ومن سألكم بالله فأجيبوه» أي: إلى ما سأل. فيكون بمعنى: أعطوه! وعند أبي داود -في

٦- أن لا تتضمن ضررًا على المجيب، مثل أن تحتاج إجابة الدعوة إلى سفر أو مفارقة أهله المحتاجين إلى وجوده بينهم.

مسألة: هل إجابة الدعوة حق لله أو للآدمي؟

الجواب: حق للآدمي، ولهذا لو طلبت من الداعي أن يقيلك فقبل، فلا إثم عليك، لكنها واجبة بأمر الله -عز وجل- ولهذا ينبغي أن تلاحظ أن إجابتك طاعة لله وقيام بحق أخيك، لكن لصاحبها أن يسقطها كما أن له أن لا يدعوك أيضًا، ولكن إذا أقالك حياء منك وخجلاً من غير اقتناع؛ فإنه لا ينبغي أن تدع الإجابة.

مسألة: هل بطاقات الدعوة التي توزع كالدعوة بالمشافهة؟

الجواب: البطاقات ترسل إلى الناس ولا يدري لمن ذهبت إليه، فيمكن أن تقول: إنها تشبه دعوة الجَفَلَى فلا تجب الإجابة، أما إذا علم أو غلب على الظن أن الذي أرسلت إليه مقصود بعينه؛ فإن لها حكم الدعوة بالمشافهة.

قوله: «من صنع إليكم معروفًا فكافئوه»: المعروف: الإحسان، فمن أحسن إليك بهدية أو غيرها فكافئه، فإذا أحسن إليك بإنجاز معاملة وكان عمله زائدًا عن الواجب عليه، فكافئه، وهكذا، لكن إذا كان كبير الشأن ولم تجر العادة بمكافأته، فلا يمكن أن تكافئه، كالملك والرئيس... مثلاً إذا أعطاك هدية، فمثل هذا يدعى له؛ لأنك لو كافأته لرأى أن في ذلك غضًا من حقه فتكون مسيئًا له، والنبي ﷺ أراد أن تكافئه لإحسانه.

وللمكافأة فائدتان:

١- تشجيع ذوي المعروف على فعل المعروف.

٢- أن الإنسان يكسر بها الذل الذي حصل له بصنع المعروف إليه؛ لأن من صنع إليك معروفًا فلابد أن يكون في نفسك رقة له، فإذا رددت إليه معروفه زال عنك ذلك، ولهذا قال النبي ﷺ: «اليد

فيه مسائل:

الأولى: إعاذة من استعاذ بالله. الثانية: إعطاء من سأل بالله.

الثالثة: إجابة الدعوة. الرابعة: المكافأة على الصنيعة.

الخامسة: أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه.

السادسة: قوله: حتَّى ترون أنكم قد كافأتموه.

رواية أبي نَهيك - عن ابن عباس: «**من سألكم بوجه اللَّه فأعطوه**» [١]، وفي رواية عُبيد اللَّه القواريري لهذا الحديث: «**ومن سألكم باللَّه**» كما في حديث ابن عمر.

قال المصنف رحمه اللَّه تعالى: باب لا يُسأل بوجه اللَّه إلا الجنة:

عن جابر، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا يُسأل بوجه اللَّه إلا الجنة». رواه أبو داود.

العليا خير من اليد السفلى» [٢]، واليد العليا هي يد المعطي، وهذه فائدة عظيمة لمن صُنع له معروف؛ لئلا يرىٰ لأحد عليه منة إلا الله - عز وجل - لكن بعض الناس يكون كريمًا جدًا، فإذا كافأته بدل هديته أعطاك أكثر مما أعطيته، فهذا لا يريد مكافأة، ولكن يدعو له؛ لقوله ﷺ: «**فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له**»، وكذلك الفقير إذا لم يجد مكافأة الغني، فإنه يدعو له. ويكون الدعاء بعد الإهداء مباشرة؛ لأنه من باب المسارعة إلىٰ أمر الرسول ﷺ، ولأن به سرور صانع المعروف.

قوله: «حتى تَروا أنكم قد كافأتموه»: «**تروا**» بفتح التاء بمعنىٰ تعلموا، وتجوز بالضم بمعنىٰ تظنوا، أي حتىٰ تعلموا أو يغلب علىٰ ظنكم أنكم قد كافأتموه، ثم أمسكوا.

فيه مسائل:

الأولى: إعاذة من استعاذ بالله: وسبق أن من استعاذ بالله وجبت إعاذته، إلا أن يستعيذ عن شيء واجب فعلاً أو تركًا، فإنه يعاذ.

الثانية: إعطاء من سأل بالله: وسبق التفصيل فيه.

الثالثة: إجابة الدعوة: وسبق كذلك التفصيل فيها.

الرابعة: المكافأة على الصنيعة: أي: علىٰ صنيعة من صنع إليك معروفًا، وسبق التفصيل في ذلك.

الخامسة: أن الدعاء مكافأة لمن لا يقدر إلا عليه: وسبق أنه مكافأة في ذلك وفيما إذا كان الصانع لا يُكافأ مثله عادة.

السادسة: قوله: «حتى تروا أنكم قد كافأتموه»: أي: أنه لا يقصر في الدعاء، بل يدعو له حتىٰ يعلم أو يغلب علىٰ ظنه أنه قد كافأه.

وفيه مسائل أخرىٰ، لكن ما ذكره المؤلف هو المقصود.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٥١٠٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٢٨) ومواضع، ومسلم (١٠٣٣).

٥٥ ـ باب
لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة

عن جابر، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا يُسأل بوجه اللَّه إلا الجنة»[1]. رواه أبو داود.

قوله: (باب لا يُسأل بوجه اللَّه إلا الجنة): ذكر فيه حديث جابر ـ رواه أبو داود، عن جابر ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«لا يُسأل بوجه اللَّه إلا الجنة»**.

وهنا سؤال: وهو أنه قد ورد في دعاء النبي ﷺ عند مُنصرفه من الطائف، حين كذَّبه أهل الطائف ومن في الطائف من أهل مكة، فدعا ﷺ بالدعاء المأثور: **«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس. أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربي، إلى مَن تكلُني؟ إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدو ملَّكته أمري؟ إن لم يك بك غضب عليَّ فلا أُبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي»** وفي آخره: **«أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلُح عليه أمر الدنيا والآخرة: أن يَحُلَّ عليَّ غضبُك، أو ينزل بي سخطك. لك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه»**[2][3]، والحديث المروي في الأذكار: **«اللهم أنت أحقُّ من ذُكر، وأحق من عُبد ـ وفي آخره ـ أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له السموات والأرض»**.

وفي حديث آخر: **«أعوذ بوجه اللَّه الكريم، وباسم اللَّه العظيم، وبكلماته التامة، من شر السامة واللامة، ومن شر ما خلقت أي رب، ومن شر هذا اليوم ومن شر ما بعده ومن شر الدنيا والآخرة»** وأمثال ذلك في الأحاديث المرفوعة بالأسانيد الصحيحة أو الحسان.

فالجواب: أن ما ورد من ذلك فهو في سؤال ما يُقرِّب إلى الجنة، أو ما يمنعه من الأعمال التي تمنعه من الجنة، فيكون قد سأل بوجه اللَّه وبنور وجهه ما يُقرِّبُ إلى الجنة؛ كما في الحديث الصحيح: **«اللهم إني أسألك الجنة وما يقرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما يقرب إليها من قول أو عمل»**[4]. بخلاف ما يختصُّ بالدنيا، كسؤاله المال والرزق والسعة في المعيشة رغبةً في الدنيا، مع قطع النظر عن كونه أراد بذلك ما يعينه على عمل الآخرة. فلا ريب أن الحديث يدلُّ على المنع من أن

مناسبة هذا الباب للتوحيد:

أن فيه تعظيم وجه الله ـ عز وجل ـ بحيث لا يُسأل به إلا الجنة.

قوله: «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة»: اختلف في المراد بذلك على قولين:

---

(١) ضعيف: رواه أبو داود (١٦٧١)، وضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٦٣٥١).

(٢) رواه ابن إسحاق والطبراني عن عبد الله بن جعفر. (ق).

(٣) ضعيف: رواه الضياء في المختارة (٩/ ١٨١)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٦٨)، وقال ابن عدي في الكامل للضعفاء (٦/ ١١٢): وهذا حديث أبي صالح الراسبي، لَم نسمع أن أحدًا حدَّث بهذا الحديث غيره، ولَم نكتبه إلا عنه. اهـ . وضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (١١٨٢).

(٤) صحيح: صحيح الجامع (١٢٧٦، ٤٠٤٧).

. . . .

يسأل حوائج دنياه بوجه اللَّه . وعلىٰ هذا: فلا تعارض بين الأحاديث، كما لا يخفىٰ. واللَّه أعلم.

وحديث الباب: من جملة الأدلة المتواترة في الكتاب والسنة علىٰ إثبات الوجه للَّه تعالىٰ؛ فإنه صفة كمال، وسلبُه غاية النقص والتشبيه بالناقصات، كسلبهم جميع الصفات أو بعضها. فوقعوا في أعظم مما فرُّوا منه، تعالىٰ اللَّه عما يقولون علواً كبيراً. وطريقة أهل السنة والجماعة سلفًا وخلفًا: الإيمان بما وصف اللَّه به نفسه في كتابه، ووصفه به رسوله ﷺ في سُنَّته، علىٰ ما يليق بجلال اللَّه وعظمته. فيثبتون ما أثبته لنفسه في كتابه وأثبته له رسوله ﷺ، وينفون عنه مشابهة المخلوق؛ فكما أن ذات الرب تعالىٰ لا تُشبه الذوات، فصفاته كذلك لا تشبه الصفات، فمن نفاها فقد سلبه الكمال.

القول الأول: أن المراد: لا تسألوا أحداً من المخلوقين بوجه الله، فإذا أردت أن تسأل أحداً من المخلوقين، فلا تسأله بوجه الله؛ لأنه لا يسأل بوجه الله إلا الجنة، والخلق لا يقدرون علىٰ إعطاء الجنة، فإذًا لا يسألون بوجه الله مطلقًا، ويظهر أن المؤلف يرىٰ هذا الرأي في شرح الحديث، ولذلك أعقبه بقوله: «**باب لا يرد من سأل بالله**».

القول الثاني: أنك إذا سألت الله، فإن سألت الجنة وما يستلزم دخولها، فلا حرج أن تسأل بوجه الله ، وإن سألت شيئًا من أمور الدنيا، فلا تسأله بوجه الله؛ لأن وجه الله أعظم من أن يسأل به لشيء من أمور الدنيا. فأمور الآخرة تسأل بوجه الله؛ كقولك مثلاً: أسألك بوجهك أن تنجيني من النار، «والنبي ﷺ استعاذ بوجه الله لما نزل قوله تعالىٰ: ﴿**قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ**﴾ قال: **أعوذ بوجهك**: ﴿**أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ**﴾ قال: **أعوذ بوجهك**: ﴿**أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ**﴾ [الأنعام: ٦٥] قال: **هذه أهون أو أيسر**»(١).

ولو قيل: إنه يشمل المعنيين جميعًا؛ لكان له وجه.

وقوله: «**بوجه الله**»: فيه إثبات الوجه لله ـ عز وجل ـ وهو ثابت بالقرآن والسنة وإجماع السلف؛ فالقرآن في قوله تعالىٰ: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿**وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ**﴾ [الرعد: ٢٢] والسنة كما في الحديث السابق: «**أعوذ بوجهك**».

واختلف في هذا الوجه الذي أضافه الله إلىٰ نفسه: هل هو وجه حقيقي، أو أنه وجه يعبر به عن الذات وليس لله وجه بل له ذات، أو أنه يعبر به عن الشيء الذي يراد به وجهه وليس هو الوجه الحقيقي، أو أنه يعبر به عن الجهة، أو أنه يُعبَّر به عن الثواب؟ فيه خلاف، لكن هدىٰ الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فقالوا: إنه وجه حقيقي؛ لأن الله تعالىٰ قال: ﴿**وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن: ٢٧]، ولما أراد غير ذاته؛ قال: ﴿**تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن: ٧٨] فـ﴿**ذِي**﴾ صفة لرب وليست صفة لاسم، و﴿**ذُو**﴾ صفة لوجه وليست صفة لرب،

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٦٢٨، ٧٣١٣، ٧٤٠٦)، وأبو داود (٥٠٥٢)، والترمذي (٣٠٦٥)، وأحمد (١٣٩٠٤).

. . . .

. . . .

فإذا كان الوجه موصوفًا بالجلال والإكرام؛ فلا يمكن أن يراد به الثواب أو الجهة أو الذات وحدها؛ لأن الوجه غير الذات. وقال أهل التعطيل: إن الوجه عبارة عن الذات أو الجهة أو الثواب، قالوا: ولو أثبتنا لله وجهًا حقيقيًا للزم أن يكون جسمًا، والأجسام متماثلة، ويلزم من ذلك إثبات المثل لله - عز وجل -، والله تعالىٰ يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وإثبات المثل تكذيب للقرآن، وأنتم يا أهل السنة تقولون: إن من اعتقد أن لله مثيلاً فيما يختص به فهو كافر؛ فنقول لهم:

أولاً: ما تعنون بالجسم الذي فررتم منه؛ أتعنون به المُرَكَّب من عظام وأعصاب ولحم ودم بحيث يفتقر كل جزء منه إلىٰ الآخر؟ إن أردتم ذلك؛ فنحن نوافقكم أن الله ليس علىٰ هذا الوجه ولا يمكن أن يكون كذلك، وإن أردتم بالجسم الذات الحقيقية المتصفة بصفات الكمال؛ فلا محذور في ذلك، والله تعالىٰ وصف نفسه بأنه أحد صمد، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١، ٢]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الصَّمَد: الذي لا جوف له.

ثانيًا: قولكم: إن الأجسام متماثلة قضية من أكذب القضايا؛ فهل جسم الدُّب مثل جسم النملة؟ فبينهما تباين عظيم في الحجم والرقة واللين وغير ذلك. فإذا بطلت هذه الحجة بطلت النتيجة وهي استلزام مماثلة الله لخلقه. ونحن نشاهد البشر لا يتفقون في الوجوه؛ فلا تجد اثنين متماثلين من كل وجه ولو كانا توأمين، بل قالوا: إن عروق الرجل واليد غير متماثلة من شخص إلىٰ آخر.

ويلاحظ أن التعبير بنفي المماثلة أولىٰ من التعبير بنفي المشابهة؛ لأنه اللفظ الذي جاء به القرآن، ولأنه ما من شيئين موجودين إلا ويشتبهان من وجه ويفترقان من وجه آخر؛ فنفي مطلق المشابهة لا يصح، وقد تقدم. وأما حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن الله خلق آدم على صورته**»(١)، ووجه الله لا يماثل أوجه المخلوقين؛ فيجاب عنه:

أولاً: أنه لا يراد به صورة تماثل صورة الرب - عز وجل - بإجماع المسلمين والعقلاء؛ لأن الله - عز وجل - وسع كرسيه السموات والأرض، والسموات والأرضون كلها بالنسبة للكرسي - موضع القدمين - كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، وفضل العرش علىٰ الكرسي كفضل الفلاة علىٰ هذه الحلقة؛ فما ظنك برب العالمين؟ فلا أحد يحيط به وصفًا ولا تخييلاً، ومن هذا وصفه لا يمكن أن يكون علىٰ صورة آدم ستون ذراعًا، وإنما يراد به أحد معنيين:

الأول: أن الله خلق آدم علىٰ صورة اختارها وجعلها أحسن صورة في الوجه، وعلىٰ هذا؛ فلا ينبغي أن يقبح أو يضرب لأنه لما أضافه إلىٰ نفسه اقتضىٰ من الإكرام ما لا ينبغي معه أن يقبح أو أن يضرب.

الثاني: أن الله خلق آدم علىٰ صورة الله - عز و جل - ولا يلزم من ذلك المماثلة بدليل قوله ﷺ: «**إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أضوأ كوكب من**

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٢٢٧)، ومسلم (٢٨٤١).

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب.

الثانية: إثباتُ صفة الوجه.

. . . .

السماء»(١)، ولا يلزم أن يكون على صورة نفس القمر؛ لأن القمر أكبر من أهل الجنة، وأهل الجنة يدخلونها طول أحدهم ستون ذراعًا، وعرضه سبعة أذرع كما في بعض الأحاديث.

وقال بعض أهل العلم: على صورته؛ أي: صورة آدم؛ أي: أن الله خلق آدم أول أمره على هذه الصورة، وليس كبنيه يتدرج في الإنشاء نطفة ثم علقة ثم مضغة.

لكن الإمام أحمد رحمه الله أنكر هذا التأويل، وقال: هذا تأويل الجهمية، ولأنه يفقد الحديث معناه، وأيضًا يعارضه اللفظ الآخر المُفسر للضمير وهو بلفظ: «**على صورة الرحمن**».

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب: تؤخذ من حديث الباب، وهذا الحديث ضعَّفه بعض أهل العلم، لكن على تقدير صحته؛ فإنه من الأدب أن لا تسأل بوجه الله إلا ما كان من أمر الآخرة: الفوز بالجنة، أو النجاة من النار.

الثانية: إثبات صفة الوجه: وقد سبق الكلام عليه.

* * *

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٤٦، ٣٢٥٤)، ومسلم (٢٨٣٤)، والترمذي (٢٥٣٥)، وابن ماجه (٤٣٣٣).

٥٦ـ باب ما جاء في اللو

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب ما جاء في اللو: أي: من النهي عند الأمور المكروهة، كالمصائب إذا جرىٰ بها القدر؛ لما فيه من الإشعار بعدم الصبر والأسىٰ علىٰ ما فات، مما لا يمكن استدراكه. فالواجب التسليم للقدر، والقيام بالعبودية الواجبة، وهو الصبر علىٰ ما أصاب العبد مما

باب ما جاء في اللو

اعلم أن استعمال العبد للفظة «لو» يقع على قسمين: مذموم ومحمود:

أما المذموم: فكأن يقع منه أو عليه أمر لا يحبه فيقول: لو أني فعلت كذا لكان كذا، فهذا من عمل الشيطان، لأن فيه محذورين: أحدهما: أنها تفتح عليه باب الندم والسخط والحزن الذي ينبغي له إغلاقه وليس فيها نفع. الثاني: أن في ذلك سوء أدب علىٰ الله وعلىٰ قدره، فإن الأمور كلها، والحوادث دقيقها وجليلها بقضاء الله وقدره، وما وقع من الأمور فلا بد من وقوعه، ولا يمكن رده. فكان في قوله: لو كان كذا أو لو فعلت كذا كان كذا، نوع اعتراض ونوع ضعف إيمان بقضاء الله وقدره.

قوله: «في اللو»: دخلت «أل» علىٰ «لو» وهي لا تدخل إلا علىٰ الأسماء، قال ابن مالك:

بالجَرِّ والتَّنوينِ والنِّدا وأل ... ومُسْندٍ للاسم تمييزٌ حَصَل

لأن المقصود بها اللفظ؛ أي: باب ما جاء في هذا اللفظ. والمؤلف رحمه الله جعل الترجمة مفتوحة ولم يجزم بشيء؛ لأن «لو» تستعمل علىٰ عدة أوجه:

الوجه الأول: أن تستعمل في الاعتراض علىٰ الشرع، وهذا مُحَرَّم، قال الله تعالىٰ: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ في غزوة أحد حينما تخلف أثناء الطريق عبد الله بن أبيّ في نحو ثلث الجيش، فلما استشهد من المسلمين سبعون رجلاً اعترض المنافقون علىٰ تشريع الرسول ﷺ وقالوا: لو أطاعونا ورجعوا كما رجعنا ما قتلوا، فرأينا خير من شرع محمد، وهذا محرم وقد يصل إلىٰ الكفر.

الثاني: أن تستعمل في الاعتراض علىٰ القدر، وهذا محرم أيضًا، قال الله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٥٦]؛ أي: لو أنهم بقوا ما قتلوا؛ فهم يعترضون علىٰ قدر الله.

الثالث: أن تستعمل للندم والتحسر، وهذا محرم أيضًا؛ لأن كل شيء يفتح الندم عليك فإنه منهي عنه؛ لأن الندم يكسب النفس حزنًا وانقباضًا، والله يريد منا أن نكون في انشراح وانبساط، قال ﷺ: **«احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء؛ فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان»**[1].

مثال ذلك: رجل حرص أن يشتري شيئًا يظن أن فيه ربحًا فخسر، فقال: لو أني ما اشتريته ما حصل لي خسارة؛ فهذا ندم وتحسر، ويقع كثيرًا، وقد نهي عنه.

الرابع: أن تستعمل في الاحتجاج بالقدر علىٰ المعصية؛ كقول المشركين: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]،

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٤)، وابن ماجه (٧٩، ٤١٦٨)، وأحمد (٨٥٧٣).

وقوله الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

يكره. والإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان الستة. وأدخل المصنف رحمه الله أداة التعريف على لو - وهذه في المقام لا تفيد تعريفًا كنظائرها - لأن المراد هذا اللفظ، كما قال الشاعر:

رأيت الوليد بن اليزيد مباركًا ... شديدًا بأعباء الخلافة كاهله

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقوله الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]: قاله بعض المنافقين يوم أحد؛ لخوفهم وجزعهم وخورهم.

قال ابن إسحاق: فحدثني يحيى بن عبَّاد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير، قال: قال الزبير: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم، فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره، قال:

ولا ريب أن هذين الأمرين المحذورين لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد إلا بتركهما.

وأما المحمود من ذلك: فأن يقولها العبد تمنيًا للخير، أو تعليمًا للعلم والخير كقوله ﷺ **«لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي ولأهللت بالعمرة»** وقوله في الرجل المتمني للخير: **«لو أن لي مثل مال فلان لعملت فيه مثل عمل فلان»** و **«لو صبر أخي موسى لقص الله علينا من نبئهما»**، أي في قصته مع الخضر.

وقولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]، وهذا باطل.

الخامس: أن تستعمل في التمني، وحكمه حسب المتمني: إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًا فشر، وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ في قصة النفر الأربعة قال أحدهم: **«لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان»**؛ فهذا تمنى خيرًا؛ وقال الثاني: **«لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان»**؛ فهذا تمنى شرًا، فقال النبي ﷺ في الأول: **«فهو بنيته؛ فأجرهما سواء»**، وقال في الثاني: **«فهو بنيته، فوزرهما سواء»** (١).

السادس أن تستعمل في الخبر المحض. وهذا جائز، مثل: لو حضرت الدرس لاستفدت، ومنه قوله ﷺ **«لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي ولأحللت معكم»** (٢)؛ فأخبر النبي ﷺ أنه لو علم أن هذا الأمر سيكون من الصحابة ما ساق الهدي ولأحل، وهذا هو الظاهر لي.

وبعضهم قال: إنه من باب التمني، كأنه قال: ليتني استقبلت من أمري ما استدبرت حتى لا أسوق الهدي. لكن الظاهر: أنه خبر لما رأى من أصحابه، والنبي ﷺ لا يتمنى شيئًا قدر الله خلافه.

وقد ذكر المؤلف في هذا الباب آيتين:

الآية الأولى قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾: الضمير للمنافقين.

قوله: ﴿مَا قُتِلْنَا﴾: أي: ما قتل بعضنا؛ لأنهم لم يقتلوا كلهم، ولأن المقتول لا يقول.

قوله: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ﴾: ﴿لَوْ﴾: شرطية، وفعل الشرط: ﴿كَانَ﴾، وجوابه: ﴿مَّا قُتِلْنَا﴾. ولم يقترن الجواب باللام؛ لأن الأفصح إذا كان الجواب منفيًا عدم الاقتران، فقولك: لو جاء زيد ما جاء

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وأحمد (١٧٥٧٠)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣٠٢٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧٢٢٩)، ومسلم (١٢١١)، ولفظ البخاري: «وددنا أن موسى كان صبر فقص الله علينا ...».

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨]

فواللَّه إني لأسمع قول مُعتِّب بن قُشير، ما أسمعه إلا كالحُلم: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا هاهنا. فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل اللَّه عز وجل: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ لقول معتب. رواه ابن أبي حاتم.

قال اللَّه: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي: هذا قدر مقدَّر من اللَّه عز وجل، وحكم حتم لازم، لا محيد عنه ولا مناص منه.

قال المصنف رحمه اللَّه تعالى: وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨].

قال العماد ابن كثير: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ أي: لو سمعوا من مشورتنا عليهم بالقعود وعدم الخروج، ما قُتلوا مع من قتل. قال اللَّه تعالىٰ: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: إذا كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت، فينبغي لكم أن لا تموتوا، والموت لابد آت إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين.

قال مجاهد، عن جابر بن عبد اللَّه: نزلت هذه الآية في عبد اللَّه بن أُبي وأصحابه، يعني: أنه هو الذي قال ذلك. وأخرج البيهقي، عن أنس: أن أبا طلحة قال: غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أُحد، فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، ويسقط وآخذه. قال: والطائفة الأخرىٰ-المنافقون-ليس لها هم إلا أنفسهم، أجبن قوم، وأرعبه، وأخذله للحق: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]؛ إنما هم أهل ريب وشك باللَّه عز وجل.

قوله: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعني: لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.

قال شيخ الإسلام رحمه اللَّه: لما ذكر ما وقع من عبد اللَّه بن أُبي في غزوة أحد، قال: فلما انخزل يوم أحد، وقال: يَدَع رأيي ورأيه، ويأخذ برأي الصبيان؟-أو كما قال-انخزل معه خلق كثير، كان كثير منهم لم ينافق قبل ذلك. فأولئك كانوا مسلمين، وكان معهم إيمان هو الضوء الذي ضرب اللَّه به المثل. فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق ماتوا على

عمرو أفصح من قولك: لو جاء زيد لما جاء عمرو، وقد ورد قليلاً اقترانها مع النفي؛ كقول الشاعر:

ولَو نُعطَى الخيَارَ لَمَا افترقنا ... ولكن لا خيارَ مع الليالي

قوله: ﴿هَا هُنَا﴾: أي: في أحد.

قوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾: هذا رد عليهم؛ فلا يمكن أن يتخلفوا عما أراد الله بهم.

وقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾: هذا من الاعتراض على الشرع؛ لأنهم عتبوا على الرسول ﷺ حيث خرج بدون موافقتهم، ويمكن اعتراضًا على القدر أيضًا؛ أي: لو كان لنا من حسن التدبير والرأي شيء ما خرجنا فقُتل.

قوله: ﴿وَقَعَدُوا﴾: الواو إما أن تكون عاطفة والجملة معطوفة على: ﴿قَالُوا﴾، ويكون وصف هؤلاء بأمرين:

- بالاعتراض على القدر بقولهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.
- وبالجبن عن تنفيذ الشرع: «الجهاد» بقولهم: ﴿وَقَعَدُوا﴾، أو تكون الواو للحال والجملة حالية على تقدير «قد»؛ أي: والحال أنهم قد قعدوا؛ ففيه توبيخ لهم حيث قالوا مع قعودهم، ولو كان فيهم

في الصحيح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «احرص على ما ينفعُك، واستعن بالله ولا تعجزن. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان»[1].

الإسلام، ولم يكونوا من المؤمنين حقًا الذين امتُحنوا فثبتوا، ولا من المنافقين حقًا الذين ارتدوا عن الإيمان بالمحنة.

وهذا حال كثير من المسلمين في زماننا أو أكثرهم، إذا ابتُلوا بالمحنة التي يتضعضع فيها أهل الإيمان، ينقص إيمانهم كثيرًا، [وينافق كثير] منهم، ومنهم من يُظهر الردة إذا كان العدوُّ غالبًا.

وقد رأينا من هذا - ورأى غيرنا من هذا - ما فيه عبرة. وإذا كانت العافية أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين. وهم مؤمنون بالرسل باطنًا وظاهرًا، لكن إيمانًا لا يثبت على المحنة. ولهذا يكثر في هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك المحارم، وهؤلاء من الذين قالوا آمنا، فقيل لهم: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] أي: الإيمان المطلق الذي أهله هم المؤمنون حقًا؛ فإن هذا هو الإيمان إذا أُطلق في كتاب اللَّه تعالى، كما دل عليه الكتاب والسنة، فلم يحصل لهم ريب عند المحن التي تقلقل [الإيمان] في القلوب. انتهى.

قوله: وقد رأينا من هذا - ورأى غيرنا من هذا - ما فيه عبرة.

قلت: ونحن كذلك، رأينا من ذلك ما فيه عبرة عند غلبة العدو، من إعانتهم العدوَّ على المسلمين، والطعن في الدين وإظهار العداوة والشماتة، وبذل الجد في إطفاء نور الإسلام وذهاب أهله، وغير ذلك مما يطول ذكره. واللَّه المستعان.

قال المصنف رحمه الله تعالى: في الصحيح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «احرص على ما ينفعُك، واستعن بالله ولا تعجزن. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان».

قوله: (في الصحيح) أي: صحيح مسلم (عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «احرص...» الحديث:

خير لخرجوا مع الناس، ولكن فيهم الاعتراض على المؤمنين وعلى قضاء الله وقدره.

قوله: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾: قيل: في النسب لا في الدين، وقيل: في الدين ظاهرًا؛ لأن المنافقين يتظاهرون بالإسلام، ولو قيل: إنه شامل للأمرين؛ لكان صحيحًا.

قوله: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾: هذا غير صحيح، ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وإن كنتم قاعدين؛ فلا تستطيعون أيضًا أن تدرؤوا عن أنفسكم الموت. فهذه الآية والتي قبلها تدل على أن الإنسان محكوم بقدر الله كما أنه يجب أن يكون محكومًا بشرع الله.

مناسبة الباب للتوحيد:

أن من جملة أقسام (لو) الاعتراض على القدر، ومن اعترض على القدر؛ فإنه لم يرض بالله ربًّا، ومن لم يرض بالله ربًّا؛ فإنه لم يحقق توحيد الربوبية.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٤).

. . . .

اختصر المصنف هذا الحديث، وتمامه: عن النبي ﷺ، أنه قال: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. احرص على ما ينفعك**» أي: في معاشك ومعادك.

والواجب أن ترضىٰ بالله ربًّا، ولا يمكن أن تستريح إلا إذا رضيت بالله ربًّا تمام الرضا، وكأن لك أجنحة تميل بها حيث مال القدر، ولهذا قال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر؛ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر؛ فكان خيرًا له**»[1]، ومهما كان؛ فالأمر سيكون علىٰ ما كان، فلو خرجت مثلاً في سَفَر ثم أصبت في حادث؛ فلا تقل: لو أني ما خرجت في السفر ما أصبت؛ لأن هذا مقدر لابد منه.

قوله: «وفي الصحيح»: أي: «صحيح مسلم»، وانظر ما سبق في: باب تفسير التوحيد: والمؤلف رحمه الله حذف منه جملة، وأتىٰ بما هو مناسب للباب، والمحذوف قوله: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير**»[2].

شرح الحديث:

قوله: «القوي»: أي: في إيمانه وما يقتضيه إيمانه، ففي إيمانه؛ يعني: ما يحل في قلبه من اليقين الصادق الذي لا يعتريه شك، وفيما يقتضيه؛ يعني: العمل الصالح من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحزم في العبادات وما أشبه ذلك.

وهل يدخل في ذلك قوة البدن؟

الجواب: لا يدخل في ذلك قوة البدن إلا إذا كان في قوة بدنه ما يزيد إيمانه أو يزيد ما يقتضيه؛ لأن «القوي» وصف عائد علىٰ موصوف وهو المؤمن؛ فالمراد: القوي في إيمانه أو ما يقتضيه، ولا شك أن قوة البدن نعمة، إن استعملت في الخير فخير، وإن استعملت في الشر فشر.

قوله: «خير وأحب إلى الله»: خير في تأثيره وآثاره؛ فهو ينفع ويُقتدىٰ به، وأحب إلىٰ الله باعتبار الثواب.

قوله: «من المؤمن الضعيف»: وذلك في الإيمان فيما يقتضيه لا في قوة البدن.

قوله: «وفي كل خير»: أي: في كل من القوي والضعيف خير، وهذا النوع من التذييل يسمىٰ عند البلاغيين بالاحتراس حتىٰ لا يظن أنه لا خير في الضعيف.

فإن قيل: إن الخيرية معلومة في قوله: «خير وأحب»؛ لأن الأصل في اسم التفضيل اتفاق المفضل والمفضل عليه في أصل الوصف؟

فالجواب: أنه قد يخرج عن الأصل؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٢٤] مع أن أهل النار لا خير في مستقرهم.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٩٩)، وأحمد (١٨٤٥٥) ومواضع.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٤)، وابن ماجه (٧٩، ٤١٦٨)، وأحمد (٨٥٧٣).

. . . .

والمراد: الحرص على فعل الأسباب التي تنفع العبد في دُنياه وأُخراه، مما شرعه اللّه تعالىٰ لعباده من الأسباب الواجبة والمستحبة والمباحة. ويكون العبد في حال فعله السبب مُستعينًا باللّه وحده دون كل ما سواه؛ ليتم له سببه وينفعه. فيكون اعتماده على اللّه تعالىٰ في ذلك؛ لأنه تعالىٰ هو الذي خلق السبب والمسبب، ولا ينفعه سبب إلا إذا نفعه اللّه به، فيكون اعتماده في فعل السبب على اللّه تعالىٰ. ففعل السبب سنة، والتوكل على اللّه توحيد، فإذا جمع بينهما: تم له مراده.

كذلك الإنسان إذا سمع هذه الجملة: «**خير وأحب**» صار في نفسه انتقاص للمؤمن المفضل عليه.

فإذا قيل: «**وفي كل خير**» رفع من شأنه، ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿**لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ**﴾ [الحديد: ١٠].

قوله: «احرص على ما ينفعك»: الحرص: بذل الجهد لنيل ما ينفع من أمر الدين أو الدنيا.

وأفعال العباد بحسب السَّبر والتَّقسيم لا تخلو من أربع حالات:

١ - نافعة، وهذه مأمور بها. ٢ - ضارة، وهذه محذر منها. ٣ - فيها نفع وضرر.

٤ - لا نفع فيها ولا ضرر، وهذه لا يتعلق بها أمر ولا نهي، لكن الغالب أن لا تقع إلا وسيلة إلىٰ ما فيه أمر أو نهي، فتأخذ حكم الغاية؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد.

فالأمر لا يخلو من نفع أو ضرر؛ إما لذاته أو لغيره، فحديثنا العام قد لا يكون فيه نفع ولا ضرر، لكن قد يتكلم الإنسان ويتحدث لأجل إدخال السرور على غيره فيكون نفعًا، ولا يمكن أن تجد شيئًا من الأمور والحوادث ليس فيه نفع ولا ضرر؛ إما ذاتي أو عارض، وإنما ذكرناه لأجل تمام السبر والتقسيم.

والعاقل يشح بوقته أن يصرفه فيما لا نفع فيه ولا ضرر، قال النبي ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليقل خيرًا أو ليصمت**»[1].

واتصال هذه الجملة بما قبلها ظاهر جدًا؛ لأن من القوة الحرص على ما ينفع.

و «**ما**»: اسم موصول بفعل (ينفع)، والاسم يحول بصلته إلىٰ اسم فاعل، كأنه قال: احرص على النافع، وإنما قلت ذلك لأجل أن أقول: إن النبي ﷺ أمرنا بالحرص على النافع، ومعناه أن نقدم الأنفع على النافع؛ لأن الأنفع مشتمل على أصل النفع وعلى الزيادة، وهذه الزيادة لابد أن نحرص عليها؛ لأن الحكم إذا علق بوصف كان تأكد ذلك الحكم بحسب ما يشتمل عليه تأكد ذلك الوصف.

فإذا قلت: أنا أكره الفاسقين كان كل من كان أشد في الفسق إليك أكره؛ فنقدم الأنفع على النافع لوجهين:

١ - أنه مشتمل على النفع وزيادة.

٢ - أن الحكم إذا عُلِّق بوصف كان تأكد ذلك الحكم بحسب تأكد ذلك الوصف وقوته.

ويؤخذ من الحديث وجوب الابتعاد عن الضار؛ لأن الابتعاد عنه انتفاع وسلامة لقوله: «**احرص على ما ينفعك**».

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠١٨) ومواضع، ومسلم (٤٧، ٤٨).

. . . .

قوله: «ولا تعجزن» النون نون التوكيد الخفيفة، نهاه ﷺ عن العجز وذمَّه، والعجز مذموم شرعًا وعقلاً.
وفي الحديث: «الكيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني»[1][2].

قوله: «واستعن بالله»: الواو تقتضي الجمع؛ فتكون الاستعانة مقرونة بالحرص، والحرص سابق على الفعل؛ فلابد أن تكون الاستعانة مقارنة للفعل من أوله.

والاستعانة: طلب العون بلسان المقال؛ كقولك: «اللهم أعني»، أو: «لا حول ولا قوة إلا بالله» عند شروعك بالفعل. أو بلسان الحال، وهي أن تشعر بقلبك أنك محتاج إلى ربك ـ عز وجل ـ أن يعينك على هذا الفعل، وأنه إن وكلك إلى نفسك وكلك إلى ضعف وعجز وعورة.

أو طلب العون بهما جميعًا، والغالب أن من استعان بلسان المقال؛ فقد استعان بلسان الحال.

ولو احتاج الإنسان إلى الاستعانة بالمخلوق كحمل صندوق مثلاً؛ فهذا جائز، ولكن لا تشعر نفسك أنها كاستعانتك بالخالق، وإنما عليك أن تشعر أنها كمعونة بعض أعضائك لبعض، وكما لو عجزت عن حمل شيء بيد واحدة؛ فإنك تستعين على حمله باليد الأخرى وعلى هذا؛ فالاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه كالاستعانة ببعض أعضائك، فلا تنافي قوله ﷺ: «استعن بالله».

قوله: «ولا تعجزَنْ»: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الخفيفة، و «لا»: ناهية، والمعنى: لا تفعل فعل العاجز من التكاسل وعدم الحزم والعزيمة، وليس المعنى: لا يصيبك عجز؛ لأن العجز عن الشيء غير التعاجز؛ فالعجز بغير اختيار الإنسان؛ لأن ذلك لا طاقة له به، فلا يتَوجَّه عليه نهي، ولهذا قال النبي ﷺ: «صل قائمًا، فإن لم تستطع؛ فقاعدًا، فإن لم تستطع؛ فعلى جنب»[3].

فإذا اجتمع الحرص وعدم التكاسل؛ اجتمع في هذا صدق النية بالحرص والعزيمة بعدم التكاسل.

لأن بعض الناس يحرص على ما ينفعه ويشرع فيه، ثم يتعاجز ويتكاسل ويدعه، وهذا خلاف ما أمر به الرسول ﷺ، فما دمت عرفت أن هذا نافع؛ فلا تدعه، لأنك إذا عجَّزت نفسك خسرت العمل الذي عملت ثم عوَّدت نفسك التكاسل والتَّدني من حال النشاط والقوة إلى حال العجز والكسل، وكم من إنسان بدأ العمل ـ ولاسيما النافع ـ ثم أتاه الشيطان فثبطه؟! لكن إذا ظهر في أثناء العمل أنه ضار؛ فيجب عليه الرجوع عنه؛ لأن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل.

وذُكر في ترجمة الكسائي أنه بدأ في طلب علم النحو ثم صعب عليه، فوجد نملة تحمل طعامًا تريد

---

(١) رواه أحمد والترمذي وحسنه والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري وتعقبه الذهبي بأن فيه ابن أبي مريم وهو واه. وهذا من حديث شداد بن أوس. وهو عندهم بدون كلمة «الأماني».(ق).

(٢) ضعِيف: ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٥٢٨٩)، والروض (٣٥٦).

(٣) صحيح: رواه البخاري (١١١٧)، وأبو داود (٩٥١)، والترمذي (٣٧١)، والنسائي (١٦٦٠)، وابن ماجه (١٢٣١)، وأحمد (١٩٣٨٦).

. . . .

فأرشده في هذا الحديث إذا أصابه ما يكره، فلا يقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن يقول: قدر اللَّه وما شاء فعل، أي: هذا قدر اللَّه، والواجب التسليم للقدر، والرضا به، واحتساب الثواب عليه.

أن تصعد به حائطًا، كلما صعدت قليلاً سقطت، وهكذا حتى صعدت؛ فأخذ درسًا من ذلك، فكابد حتى صار إمامًا في النحو.

قوله: «إن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا»: هذه هي المرتبة الرابعة مما ذكر في هذا الحديث العظيم إذا حصل خلاف المقصود.

فالمرتبة الأولى: الحرص على ما ينفع. والمرتبة الثانية: الاستعانة بالله.

والمرتبة الثالثة: المُضي في الأمر والاستمرار فيه وعدم التعاجز.

وهذه المراتب إليك.

والمرتبة الرابعة: إذا حصل خلاف المقصود؛ فهذه ليست إليك، وإنما هي بقدر الله، ولهذا قال: «وإن أصابك....» فَفَوِّض الأمر إلى الله تعالى.

قوله: «وإن أصابك شيء»: أي: مما لا تحبه ولا تريده ومما يعوقك عن الوصول إلى مرامك فيما شرعت فيه من نفع. فمن خالفه القدر ولم يأت على مطلوبه لا يخلو من حالين:

الأول: أن يقول: لو لم أفعل ما حصل كذا.

الثاني: أن يقول: لو فعلت كذا لأمر لم يفعله لكان كذا.

مثال الأول قول القائل: لو لم أسافر ما فاتني الربح.

ومثال الثاني أن يقول: لو سافرت لربحت.

وذكر النبي ﷺ الثاني دون الأول؛ لأن هذا الإنسان عامل فاعل؛ فهو يقول: لو أني فعلت الفعل الفلاني دون هذا الفعل لَحَصَّلت مطلوبي، بخلاف الإنسان الذي لم يفعل وكان موقفه سلبيًا من الأعمال.

قوله: «كذا»: كناية عن مبهم، وهي مفعول لفعلت.

قوله: «لكان كذا»: فاعل كان، والجملة جواب لو.

قوله: «قَدَرَ الله»: خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هذا قدر الله.

وقدر بمعنى مقدور؛ لأن قدر الله يطلق على التقدير الذي هو فعل الله، ويطلق على المقدور الذي وقع بتقدير الله، وهو المراد هنا؛ لأن القائل يتحدث عن شيء وعليه، فقدر الله مقدوره، ولا مُقَدَّر إلا بتقدير؛ لأن المفعول نتيجة الفعل.

والمعنى: إن هذا الذي وقع قدر الله وليس إليّ، أما الذي إليّ فقد بذلت ما أراه نافعًا كما أمرت، وهذا فيه التسليم التام لقضاء الله - عز وجل - وأن الإنسان إذا فعل ما أمر به على الوجه الشرعي؛ فإنه لا يلام على شيء، ويُفوِّض الأمر إلى الله.

قوله: «وما شاء فعل»: جملة مصدرة بـ «ما» الشرطية، و «شاء»: فعل الشرط، وجوابه:

. . . .

قوله: «فإن لو تفتح عمل الشيطان» أي: لما فيها من التأسف على ما فات والتحسُّر ولوم القدر، وذلك ينافي الصبر والرضا. والصبر واجب، والإيمان بالقدر فرض؛ قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

وقال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعًا من القرآن.

قال شيخ الإسلام ـ وذكر حديث الباب بتمامه ـ ثم قال في معناه: لا تعجز عن مأمور، ولا تجزع من مقدور. ومن الناس مَن يجمع كلا الشرين؛ فأمر النبيﷺ بالحرص على النافع والاستعانة بالله.

والأمر يقتضي الوجوب، وإلا فالاستحباب. ونهى عن العجز، وقال: «إن الله يلوم على العجز»[1] والعاجز ضدُّ: ﴿الَّذِينَ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ فالأمر بالصبر والنهي عن الجزع مأمور به في مواضع كثيرة؛ وذلك لأن الإنسان بين أمرين: أمر أُمِر بفعله فعليه أن يفعله ويحرص عليه، ويستعين الله ولا يعجز. وأمر أُصيب به من غير فعله، فعليه أن يصبر عليه ولا يجزع منه.

ولهذا قال بعض العُقلاء ـ ابن المقفَّع أو غيره ـ الأمور أمران: أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه، وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه.

«فعل»؛ أي: ما شاء الله أن يفعله فَعَلَه؛ لأن الله لا راد لقضائه ولا مُعقِّب لحكمه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

وقد سبق ذكر قاعدة، وهي أن كل فعل لله تعالى مُعلَّق بالمشيئة، فإنه مقرون بالحكمة، وليس شيء من فعله معلقًا بالمشيئة المجردة؛ لأن الله لا يُشَرِّع ولا يفعل إلا لحكمة، وبهذا التقرير نفهم أن المشيئة يلزم منها وقوع المشاء، ولهذا كان المسلمون يقولون: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وأما الإرادة ووقوع المراد؛ ففيه تفصيل:

فالإرادة الشرعية لا يلزم منها قوع المراد، وهي التي بمعنى المحبة، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧] بمعنى يحب، ولو كانت بمعنى يشاء لتاب الله على جميع الناس.

والإرادة الكونية يلزم منها وقوع المراد؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

قوله: «فإن لو تفتح عمل الشيطان»: «لو»: اسم إن قصد لفظها؛ أي: فإن هذا اللفظ يفتح عمل الشيطان. وعمله: ما يلقيه في قلب الإنسان من الحسرة والندم والحزن؛ فإن الشيطان يحب ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٠]، حتى في المنام يريه أحلامًا مخيفة ليُعكِّر عليه صفوه ويُشَوِّش فكره، وحينئذ لا يتفرغ للعبادة على ما ينبغي، ولهذا نهى

---

(١) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٥٢٨٩)، والروض (٣٥٦)، والسلسلة الضعيفة (٥٣١٩).

. . . .

وهذا في جميع الأمور، لكن عند المؤمن: الذي فيه حيلة هو ما أمر اللَّه به، وأحبه له؛ فإن اللَّه لم يأمره إلا بما فيه حيلة له، إذ لا يكلف اللَّه نفسًا إلا وسعها، وقد أمره بكل خير له فيه حيلة. وما لا حيلة فيه هو ما أُصيب به من غير فعله. واسم الحسنات والسيئات يتناول قسمين:

فالأفعال: مثل قوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ومثل قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]، ومثل قوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، ومثل قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ [البقرة: ٨١]؛ إلى آيات كثيرة من هذا الجنس.

والقسم الثاني: ما يجري على العبد بغير فعله من النعم والمصائب؛ كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، والآية قبلها، فالحسنة في هاتين الآيتين: النعم. والسيئة: المصائب، وهذا هو الثاني من القسمين.

وأظنُّ شيخ الإسلام ذكره في هذا الموضع، ولعل الناسخ أسقطه. واللَّه أعلم.

ثم قال رحمه اللَّه تعالى: فإن الإنسان ليس مأمورًا أن ينظر إلى القدر عندما يؤمر به من الأفعال، ولكن عندما يجري عليه من المصائب التي لا حيلة له في دفعها. فما أصابك بفعل الآدميين أو بغير فعلهم فاصبر عليه، وارض وسلِّم؛ قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، ولهذا قال آدم لموسى: «أتلومني على أمر قدَّره اللَّه عليَّ قبل أن أُخلق بأربعين سنة؟ فحج آدمُ موسى» لأن موسى قال له: «لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟»[1] فلامه على المصيبة

النبي ﷺ عن الصلاة حال تشوش الفكر؛ فقال ﷺ: «لا صلاة بحضرة طعام، ولا وهو يدافعه الأخبثان»[2].

فإذا رضي الإنسان بالله ربًا، وقال: هذا قضاء الله وقدره، وأنه لابد أن يقع؛ اطمأنت نفسه وانشرح صدره.

ويستفاد من الحديث:

١ ـ إثبات المحبة لله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: «خير وأحب».

٢ ـ اختلاف الناس في قوة الإيمان وضعفه؛ لقوله: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف».

٣ ـ زيادة الإيمان ونقصانه؛ لأن القوة زيادة والضعف نقص، وهذا هو القول الصحيح الذي عليه عامة أهل السنة.

وقال بعض أهل السنة: يزيد ولا ينقص؛ لأن النقص لم يرد في القرآن، قال تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

والراجح القول الأول؛ لأنه من لازم ثبوت الزيادة ثبوت النقص عن الزائد، وعلى هذا يكون القرآن دالاً على ثبوت نقص الإيمان بطريق اللزوم، كما أن السنة جاءت به صريحة في قوله ﷺ: «ما

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن عمر بن الخطاب. (ق).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٥٦٠)، وأبو داود (٨٩)، وأحمد (٢٣٦٤٦).

. . . .

التي حصلت بسبب فعله، لا لأجل كونها ذنبًا. وأما كونه لأجل الذنب - كما يظنه طوائف من الناس - فليس مرادًا بالحديث؛ فإن آدم عليه السلام كان قد تاب من الذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ولا يجوز لوم التائب باتفاق الناس. انتهىٰ.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: فتضمن هذا الحديث الشريف أصولاً عظيمة من أصول الإيمان.

أحدها: أن الله سبحانه موصوف بالمحبة، وأنه يحب حقيقة.

الثاني: أنه يحب مقتضىٰ أسمائه وصفاته وما يوافقها، فهو القوي ويحب المؤمن القوي، وهو وتر يحب الوتر، وجميل يحب الجمال، وعليم يحب العلماء، ونظيف يحب النظافة، ومؤمن يحب المؤمنين، ومحسن يحب المحسنين، وصابر يحب الصابرين، وشاكر يحب الشاكرين.

ومنها: أن محبته للمؤمنين تتفاضل، فيحبُّ بعضهم أكثر من بعض.

ومنها: أن سعادة الإنسان في حرصه علىٰ ما ينفعه في معاشه ومعاده، والحرص: هو بذل الجهد واستفراغ الوسع. فإذا صادف ما ينتفع به الحرص كان حرصُه محمودًا، وكماله كلُّه في مجموع هذين الأمرين: أن يكون حريصًا، وأن يكون حرصُه علىٰ ما ينتفع به. فإن حرص علىٰ ما لا ينفعه، أو فعل

رأيت من ناقصات عقل ودين أذهبَ للُبِّ الرجل الحازم من إحداكن»[1]؛ يعني: النساء.

والإيمان يزيد بالكمية والكيفية؛ فزيادة الأعمال الظاهرة زيادة كمية، وزيادة الأعمال الباطنة كاليقين زيادة كيفية، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]. والإنسان إذا أخبره ثقة بخبر، ثم جاء آخر فأخبره نفس الخبر؛ زاد يقينه، ولهذا قال أهل العلم: إن المتواتر يفيد العلم اليقيني، وهذا دليل علىٰ تفاوت القلوب بالتصديق، وأما الأعمال؛ فظاهر، فمن صلىٰ أربع ركعات أزيد من صلىٰ ركعتين.

٤ - أن المؤمن وإن ضعف إيمانه فيه خير؛ لقوله: «**وفي كل خير**».

٥ - أن الشريعة جاءت بتكميل المصالح وتحقيقها؛ لقوله: «**احرص على ما ينفعك**»، فإذا امتثل المؤمن أمر الرسول ﷺ فهو عبادة وإن كان ذلك النافع أمرًا دنيويًا.

٦ - أنه لا ينبغي للعاقل أن يمضي جهده فيما لا ينفع؛ لقوله: «**احرص على ما ينفعك**».

٧ - أنه ينبغي للإنسان الصبر والمصابرة؛ لقوله: «**ولا تعجزن**».

٨ - أن ما لا قدرة للإنسان فيه فله أن يحتج عليه بالقدر؛ لقوله: «**ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل**»، وأما الذي يمكنك؛ فليس لك أن تحتج فيه بالقدر.

وأما محاجة آدم وموسىٰ حيث لام موسىٰ آدم عليهما الصلاة والسلام، وقال له: «**لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال: أتلومني على شيء قد كتبه الله علي**»[2]؛ فهذا احتجاج بالقدر.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٤، ١٤٦٢)، ومسلم (٨٠).

(٢) حسن: رواه أبو داود (٤٧٠٢)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢٢٣٨).

. . . .

ما ينفعه بغير حرص: فاته من الكمال بقدر ما فاته من ذلك، فالخير كله في الحرص على ما ينفع.

ولما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة اللّه ومشيئته وتوفيقه؛ أمره أن يستعين باللّه ليجتمع له مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإن حرصه على ما ينفعه عبادة للّه تعالى، ولا يتم إلا بمعونته، فأمره أن يعبده وأن يستعين به. فالحريص على ما ينفعه المستعين باللّه، ضدُّ العاجز. فهذا إرشاد له قبل وقوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله، وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أَزِمَّة الأمور بيده، ومصدرها منه، ومورِدها إليه. فإن فاته ما لم يُقدَّر له، فله حالتان: عجز، وهو مفتاح عمل الشيطان؛ فيُلقيه العجز إلى لو. ولا فائدة في لو هاهنا. بل هي مفتاح اللوم والعجز والسخط والأسف والحزن، وذلك كله من عمل الشيطان، فنهاه ﷺ عن افتتاح عمله بهذا الافتتاح، وأمره بالحالة الثانية، وهي: النظر إلى القدر وملاحظته، وأنه لو قُدِّر، لم يفته ولم يغلبه عليه أحد. فلم يبق له هاهنا أنفع من شهود القدر، ومشيئة الرب النافذة التي توجب وجود المقدور، وإن انتفت امتنع وجوده؛ ولهذا قال: «**فإن غلبك أمر فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر اللّه وما شاء فعل**» فأرشده إلى ما ينفعه في الحالتين: حالة حصول مطلوبه، وحالة فواته. فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغني عنه العبد أبدًا، بل هو أشد ضرورة إليه، وهو يتضمن إثبات القدر، والكسب والاختيار، والقيام بالعبودية ظاهرًا وباطنًا في حالة حصول المطلوب وعدمه، وباللّه التوفيق. انتهى.

فالقدرية الذين ينكرون القدر يُكذِّبون هذا الحديث؛ لأن من عادة أهل البدع أن ما خالف بدعتهم إن أمكن تكذيبه كَذَّبوه، وإلا حرَّفوه، ولكن هذا الحديث ثابت في «الصحيحين» وغيرهما.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[1]: إن هذا من باب الاحتجاج بالقدر على المصائب لا على المعائب؛ فموسى لم يحتج على آدم بالمعصية التي هي سبب الخروج، بل احتج بالخروج نفسه.

معناه: أن فعلك صار سببًا لخروجنا، وإلا؛ فإن موسى عليه الصلاة والسلام أبعد من أن يلوم أباه على ذنب تاب منه واجتباه ربه وهداه، وهذا ينطبق على الحديث.

وذهب ابن القيم ـ رحمه الله ـ إلى وجه آخر في تخريج هذا الحديث، وهو أن آدم احتج بالقدر بعد أن مضى وتاب من فعله، وليس كحال الذين يحتجون على أن يبقوا في المعصية ويستمروا عليها؛ فالمشركون لما قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] كَذَّبهم الله؛ لأنهم لا يحتجون على شيء مضى ويقولون: تبنا إلى الله؛ ولكن يحتجون على البقاء في الشرك.

٩ ـ أن للشيطان تأثيرًا على بني آدم؛ لقوله: «**فإن لو تفتح عمل الشيطان**» وهذا لا شك فيه، ولهذا قال النبي ﷺ: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»[2].

---

(١) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى فصل وسلف الأمة وأئمتها متفقون على أن العباد مأمورون بما أمرهم الله به منهيون عما نهاهم الله عنه.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٣٨) ومواضع، ومسلم (٢١٧٤، ٢١٧٥).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران. الثانية: النهي الصريح عن قول: لو، إذا أصابك شيء.
الثالثة: تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان. الرابعة: الإرشاد إلى الكلام الحسن.
الخامسة: الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله. السادسة: النهي عن ضد ذلك، وهو العجز.

وكما أن (لو) إذا قالها متمنيًا للخير فهو محمود، فإذا قالها متمنيًا للشر فهو مذموم، فاستعمال (لو) تكون بحسب الحال الحامل عليها: إن حمل عليها الضجر والحزن وضعف الإيمان بالقضاء والقدر، أو تمني الشر كان مذمومًا، وإن حمل عليها الرغبة في الخير والإرشاد والتعليم كان محمودًا، ولهذا جعل المصنف الترجمة محتملة للأمرين.

فقال بعض أهل العلم: إن هذا يعني الوساوس التي يلقيها في القلب فتجري في العروق.

وظاهر الحديث: أن الشيطان نفسه يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم، وهذا ليس ببعيد علىٰ قدرة الله ـ عز وجل ـ كما أن الروح تجري مجرىٰ الدم، وهي جسم، إذا قبضت تُكفَّن وتُحنَّط وتصعد بها الملائكة إلىٰ السماء.

ومن نعمة الله أن للشيطان ما يضاده، وهي لَمّة المَلَك؛ فإن للشيطان في قلب ابن آدم لمة وللملك لمة، ومن وفِّق غلبت عنده لمة الملك لمة الشيطان، فهما دائمًا يتصارعان نفس مطمئنة ونفس أمارة ونفس لوامة، وهذه وصف للنفسين جميعًا.

١٠ ـ حسن تعليم النبي ﷺ حين قرن النهي عن قول «لو» ببيان علته؛ لتتبين حكمة الشريعة، ويزداد المؤمن إيمانًا وامتثالاً.

فيه مسائل: الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران: وهما:

الأولى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

الثانية: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ أي: ما أخرجنا وما قُتلنا.

ولكن الله تعالىٰ أبطل ذلك بقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾.

والآية الأخرىٰ: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾. فأبطل الله دعواهم هذه بقوله: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾. أي: إن كنتم صادقين في البقاء وأن عدم الخروج مانع من القتل؛ فادرؤوا عن أنفسكم الموت، فإنهم لن يسلموا من الموت، بل لابد أن يموتوا، ولكن لو أطاعوهم وتركوا الجهاد؛ لكانوا علىٰ ضلال مبين.

الثانية: النهي الصريح عن قول «لو» إذا أصابك شيء: لقول الرسول ﷺ: **«فإن أصابك شيء؛ فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا»**.

الثالثة: تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان: فالنهي عن قول «لو» علتها أنها تفتح عمل الشيطان وهو الوسوسة، فيتحسر الإنسان بذلك ويندم ويحزن.

الرابعة: الإرشاد إلى الكلام الحسن: لقوله: **«ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل»**.

الخامسة: الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله: لقوله ﷺ: **«احرص على ما ينفعك واستعن بالله»**.

السادسة: النهي عن ضد ذلك، وهو العجز: لقوله: **«ولا تعجزن»**، فإن قال قائل: العجز ليس

٥٧ـ باب النهي عن سبّ الريح

عن أُبيٍّ بن كعب، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «لا تسبُّوا الريح. فإذا رأيتم ما تكرهون، فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أُمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أُمرت به»(١). صححه الترمذي.

قال المصنف رحمه اللَّه تعالى: باب النهي عن سبِّ الريح:

عن أُبيٍّ بن كعب، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «لا تسبُّوا الريح. فإذا رأيتم ما تكرهون، فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أُمرت به». صححه الترمذي.

لأنها إنما تهب عن إيجاد اللَّه تعالى، وخلقه لها وأمره؛ لأنه هو الذي أوجدها وأمرها. فمسبَّتها مسبةٌ للفاعل، وهو اللَّه سبحانه؛ كما تقدم في النهي عن سب الدهر. وهذا يُشبهه، ولا يفعله إلا أهل الجهل باللَّه ودينه، وبما

باب النهي عن سب الريح

وهذا نظير ما سبق في سب الدهر إلا أن ذلك الباب عام في سب جميع حوادث الدهر، هذا خاص بالريح. ومع تحريمه فإنه حمق وضعف في العقل والرأي، فإن الريح مصرفة مدبرة بتدبير الله وتسخيره، فالساب لها يقع سبه على من صرفها، ولولا أن المتكلم بسب الريح لا يخطر هذا المعنى في قلبه غالبًا لكان الأمر أفظع من ذلك، ولكن لا يكاد يخطر بقلب مسلم.

باختيار الإنسان، فالإنسان قد يصاب بمرض فيعجز؛ فكيف نهى النبي ﷺ عن أمر لا قدرة للإنسان عليه؟

أجيب: بأن المقصود بالعجز هنا التهاون والكسل عن فعل الشيء؛ لأنه هو الذي في مقدور الإنسان.

❊ ❊ ❊

المؤلف رحمه الله أطلق النهي ولم يفصح: هل المراد به التحريم أو الكراهة، وسيتبين إن شاء الله من الحديث.

قوله: «الريح»: الهواء الذي يُصرِّفه الله ـ عز وجل ـ، وجمعه رياح.

وأصولها أربعة: الشمال، والجنوب، والشرق، والغرب.

وما بينهما يسمى النكباء؛ لأنها ناكبة عن الاستقامة في الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب.

وتصريفها من آيات الله ـ عز وجل ـ؛ فأحيانًا تكون شديدة تقلع الأشجار وتهدم البيوت وتدفن الزروع ويحصل معها فيضانات عظيمة، وأحيانًا تكون هادئة، وأحيانًا تكون باردة، وأحيانًا حارة، وأحيانًا عالية، وأحيانًا نازلة؛ كل هذا بقضاء الله وقدره، ولو أن الخلق اجتمعوا كلهم على أن يصرفوا الريح عن جهتها التي جعلها الله عليها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ولو اجتمعت جميع المكائن العالمية النَّفاثة لتوجد هذه الريح الشديدة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ولكن الله ـ عز وجل ـ بقدرته يصرفها كيف يشاء وعلى ما يريد؛ فهل يحق للمسلم أن يسب هذه الريح؟

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٢٥٢)، وابن ماجه (٣٧٢٧)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧٣١٥).

. . . .

شرعه لعباده. فنهى ﷺ أهل الإيمان عما يقوله أهل الجهل والجفاء، وأرشدهم إلى ما يحب أن يُقال عند هبوب الرياح، فقال: «إذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها، وخير ما أُمرت به» يعني: إذا رأيتم ما تكرهون من الريح إذا هبَّت، فارجعوا إلى ربكم بالتوحيد، وقولوا: «اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها، وخير ما أُمرت به. ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشرِّ ما أُمرت به».

ففي هذا عبودية لله، وطاعة له ولرسوله، واستدفاع للشرور به، وتعرُّض لفضله ونعمته. وهذه حال أهل التوحيد والإيمان، خلافًا لحال أهل الفسوق والعصيان، الذين حُرموا ذوق طعم التوحيد الذي هو حقيقة الإيمان.

الجواب: لا؛ لأن هذه الريح مُسَخَّرة مدبرة، وكما أن الشمس أحيانًا تضر بإحراقها بعض الأشجار، ومع ذلك لا يجوز لأحد أن يسبها؛ فكذلك الريح، ولهذا قال: «لا تسبوا الريح».

«لا»: ناهية، والفعل مجزوم بحذف النون، والواو فاعل، والريح مفعول به.

والسَّب: الشتم، والعيب، والقدح، واللعن، وما أشبه ذلك، وإنما نهى عن سبها؛ لأن سب المخلوق سبٌّ لخالقه، فلو وجدت قصراً مبنيًا وفيه عيب، فسببته؛ فهذا السب ينصب على من بناه، وكذلك سب الريح؛ لأنها مدبرة مسخرة على ما تقتضيه حكمة الله ـ عز وجل ـ. ولكن إذا كانت الريح مزعجة؛ فقد أرشد النبي ﷺ إلى ما يقال حينئذ في قوله: «ولكن قولوا: اللهم! إنا نسألك...» إلخ[1].

قوله: «من خير هذه الريح»: الريح نفسها فيها خير وشر؛ فقد تكون عاصفة تقلع الأشجار وتهدم الديار وتفيض البحار والأنهار، وقد تكون هادئة تبرد الجو وتكسب النشاط.

قوله: «وخير ما فيها»: أي: ما تحمله؛ لأنها قد تحمل خيراً؛ كتلقيح الثمار، وقد تحمل رائحة طيبة الشم، وقد تحمل شراً؛ كإزالة لقاح الثمار، وأمراض تضر الإنسان والبهائم.

قوله: «وخير ما أمرت به»: مثل إثارة السحاب وسوقه إلى حيث شاء الله.

قوله: «ونعوذ بك»: أي: نعتصم ونلجأ.

قوله: «من شر هذه الريح»: أي: شرها بنفسها؛ كقلع الأشجار، ودفن الزروع، وهدم البيوت.

قوله: «وشر ما فيها»: أي: ما تحمله من الأشياء الضارة؛ كالأنتان، والقاذورات، والأوبئة، وغيرها.

قوله: «وشر ما أمرت به»: كالإهلاك والتدمير، قال تعالى في ريح عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وتيبيس الأرض من الأمطار، ودفن الزروع، وطمس الآثار والطرق؛ فقد تؤمر بشر لحكمة بالغة قد نعجز عن إدراكها.

وقوله: «ما أمرت به»: هذا الأمر حقيقي؛ أي: يأمرها الله أن تهب ويأمرها أن تتوقف، وكل شيء من المخلوقات فيه إدراك بالنسبة إلى أمر الله.

قال الله تعالى للأرض والسماء: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وقال للقلم:

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٢٥٢)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧٣١٥)، والسلسلة الصحيحة (٢٧٥٦).

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الريح.

الثانية: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره.

الثالثة: الإرشاد إلى أنَّها مأمورة.

الرابعة: أنَّهَا قد تؤمر بخير، وقد تؤمر بشر.

. . . .

«اكتب. قال: ربي وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى قيام الساعة»[1].

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الريح: وهذا النهي للتحريم؛ لأن سبها سب لمن خلقها وأرسلها.

الثانية: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره: أي: منها، وهو أن يقول: «اللهم! إني أسألك من خيرها....» الحديث، مع فعل الأسباب الحسية أيضًا؛ كالاتقاء من شرها بالجدران أو الجبال ونحوها.

الثالثة: الإرشاد إلى أنها مأمورة: لقوله: «ما أمرت به».

الرابعة: أنها قد تؤمر بخير وقد تؤمر بشر: لقوله: «خير ما أمرت به، وشر ما أمرت به».

والحاصل: أنه يجب على الإنسان أن لا يعترض على قضاء الله وقدره، وأن لا يسبه، وأن يكون مستسلمًا لأمره الكوني كما يجب أن يكون مستسلمًا لأمره الشرعي؛ لأن هذه المخلوقات لا تملك أن تفعل شيئًا إلا بأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

❊ ❊ ❊

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤٧٠٠)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود.

٥٨ـ بـاب قول الله تعالى:

﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قوله: باب قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ الآية.

هذه الآية ذكرها الله تعالى في سياق قوله تعالى في ذكر وقعة أُحد: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ يعني: أهل الإيمان والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن الله تعالى ينصر رسوله ﷺ، وينجز له مأموله، ولهذا قال: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعني: لا يغشاهم النعاس، من القلق والجزع والخوف: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ

باب قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]

وذلك أنه لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد حتى يعتقد جميع ما أخبر الله به من أسمائه وصفاته وكماله، وتصديقه بكل ما أخبر به وأنه يفعله وما وعد به من نصر الدين، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل، فاعتقاد هذا من الإيمان وطمأنينة القلب بذلك من الإيمان وكل ظن ينافي ذلك فإنه من ظنون الجاهلية المنافية للتوحيد؛ لأنها سوء ظن بالله: ونفي لكماله وتكذيب لخبره، وشك في وعده. والله أعلم.

ذكر المؤلف في هذا الباب آيتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ﴾: الضمير يعود على المنافقين، والأصل في الظن: أنه الاحتمال الراجح، وقد يطلق على اليقين؛ كما في قوله تعالى: ﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم﴾؛ أي: يتيقنون، وضد الراجح المرجوح، ويسمى وهماً.

قوله: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾: و ﴿الْجَاهِلِيَّةِ﴾: الحال الجاهلية، والمعنى: يظنون بالله ظن الملة الجاهلية التي لا يعرف الظان فيها قدر الله وعظمته، فهو ظن باطل مبني على الجهل.

والظن بالله ـ عز وجل ـ على نوعين:

الأول: أن يظن بالله خيراً. الثاني: أن يظن بالله شراً.

والأول له متعلقان:

١ ـ متعلق بالنسبة لما يفعله في هذا الكون؛ فهذا يجب عليك أن تحسن الظن بالله ـ عز وجل ـ فيما يفعله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذا الكون، وأن تعتقد أن ما فعله إما هو لحكمة بالغة قد تصل العقول إليها وقد لا تصل، وبهذا يتبين عظمة الله وحكمته في تقديره؛ فلا يظن أن الله إذا فعل شيئًا في

. . . .

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾. [الفتح: ١٢] وهكذا هؤلاء: اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة، ظنوا أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله. وهذا شأن أهل الريب والشك، إذا حصل أمرٌ من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الأمور الشنيعة. عن ابن جُريج، قال: قيل لعبد الله بن أُبي: قُتل بنو الخزرج اليوم؟ قال: وهل لنا من الأمر من شيء.

الكون فعله لإرادة سيئة، حتى الحوادث والنكبات لم يحدثها الله لإرادة السوء المتعلق بفعله، أما المتعلق بغيره بأن يحدث ما يريد به أن يسوء هذا الغير؛ فهذا واقع؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧].

٢ ـ متعلق بالنسبة لما يفعله بك؛ فهذا يجب أن تظن بالله أحسن الظن، لكن بشرط أن يوجد لديك السبب الذي يوجب الظن الحسن، وهو أن تعبد الله على مقتضى شريعته مع الإخلاص، فإذا فعلت ذلك؛ فعليك أن تظن أن الله يقبل منك ولا تسيء الظن بالله بأن تعتقد أنه لن يقبل منك، وكذلك إذا تاب الإنسان من الذنب؛ فيحسن الظن بالله أنه يقبل منه، ولا يسيء الظن بالله بأن يعتقد أنه لا يقبل منه. وأما إن كان الإنسان مُفرِّطًا في الواجبات فاعلاً للمحرمات، وظن بالله ظنًا حسنًا؛ فهذا هو ظن المتهاون المتهالك في الأماني الباطلة، بل هو من سوء الظن بالله؛ إذ إن حكمة الله تأبى مثل ذلك.

النوع الثاني: وهو أن يظن بالله سوء، مثل أن يظن في فعله سفهًا أو ظلمًا أو نحو ذلك؛ فإنه من أعظم المحرمات وأقبح الذنوب كما ظن هؤلاء المنافقون وغيرهم ممن ظن بالله غير الحق.

قوله: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾: مرادهم بذلك أمران:

الأول: رفع اللوم عن أنفسهم. الثاني: الاعتراض على القدر.

وقوله: ﴿لَّنَا﴾: خبر مقدم.

وقوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة المقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر.

وقوله: ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾: أي: فإذا كان كذلك؛ فلا وجه لاحتجاجكم على قضاء الله وقدره، فالله ـ عز وجل ـ يفعل ما يشاء من النصر والخذلان.

وقوله: ﴿إِنَّ الْأَمْرَ﴾ واحد الأمور لا واحد الأوامر؛ أي: الشأن كل الشأن الذي يتعلق بأفعال الله وأفعال المخلوقين كله لله ـ سبحانه ـ؛ فهو الذي يقدر الذل والعز والخير والشر، لكن الشر في مفعولاته لا في فعله.

قوله: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾: أي: ما لا يظهرون لك، فمن شأن المنافقين عدم الصراحة والصدق؛ فيخفي في نفسه ما لا يبديه لغيره؛ لأنه يرى من جبنه وخوفه أنه لو أخبر بالحق لكان فيه هلاكه، فهو يخفي الكفر والفسوق والعصيان.

قوله: ﴿مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ أي: في أُحد، والمراد بمن «قتل»: من استشهد من المسلمين في أُحد؛ لأن عبدالله بن أُبيّ رجع بنحو ثلث الجيش في غزوة أحد، وقال: إن محمداً يعصيني ويطيع الصغار والشُّبان.

قوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾: هذا رد لقولهم: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا. وهذا الاحتجاج لا حقيقة له؛ لأنه إذا كتب القتل على أحد؛

وقوله: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦]

وقوله: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

قوله: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ قال ابن جرير في (تفسيره): ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ الظانين بالله أنه لن ينصرك وأهل الإيمان بك على أعدائك، ولن يُظهر كلمته، فيجعلها العُليا على كلمة الكافرين به، وذلك كان السوء من ظنونهم التي ذكرها الله في هذا الموضع.

يقول تعالى ذكره: على المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات الذين ظنوا هذا الظن: دائرة السوء. يعني: دائرة العذاب تدور عليهم به.

واختلفت القُرَّاءُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء الكوفة: ﴿دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ بفتح السين. وقرأ بعض قراء البصرة: (دائِرَةُ السُّوءِ) بضم السين. وكان الفرَّاءُ يقول: الفتح أفشى في السين. وقلَّ ما تقول العرب: (دائِرَةُ السُّوءِ) بضم السين.

لم ينفعه تحصنه في بيته، بل لابد أن يخرج إلى مكان موته، والكتابة قسمان:

١ ـ كتابة شرعية: وهذا لا يلزم منها وقوع المكتوب، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

٢ ـ كتابة كونية: وهذه يلزم منها وقوع المكتوب كما في هذه الآية، ومثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١].

قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾: أي: يختبر ما في صدوركم من الإيمان بقضاء الله وقدره والإيمان بحكمته، فيختبر ما في قلب العبد بما يقدره عليه من الأمور المكروهة؛ حتى يتبين من استسلم لقضاء الله وقدره وحكمته ممن لم يكن كذلك.

قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾: أي: إذا حصل الابتلاء فقوبل بالصبر؛ صار في ذلك تمحيص لما في القلب؛ أي: تطهير له وإزالة لما يكون قد علق به من بعض الأمور التي لا تنبغي.

وقد حصل الابتلاء والتمحيص في غزوة أحد بدليل أن الصحابة لما ندبهم الرسول ﷺ حين قيل له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، خرجوا إلى حمراء الأسد ولم يجدوا غزواً فرجعوا، ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: جملة خبرية فيها إثبات أن الله عليم بذات الصدور؛ أي: بصاحبة الصدور، والمراد بها القلوب.

. . . .

قوله: ﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يقول: ونالهم بغضب منه ﴿ وَلَعَنَهُمْ ﴾ يقول: وأبعدهم، فأقصاهم من رحمته [﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ﴾ يقول:] وأعد لهم جهنم يصلونها يوم القيامة ﴿ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ يقول: وساءت جهنم منزلاً يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات.

وقال العماد ابن كثير: ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾: أي: يتهمون اللَّه في حُكمه، ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾.

وذكر في معنى الآية الأخرىٰ، نحواً مما ذكره ابن جرير رحمهما اللَّه تعالىٰ.

قوله: (قال ابن القيم رحمه اللَّه تعالىٰ): الذي ذكره المصنف في المتن قدَّمته؛ لاندراجه في كلامه الذي سقته من أوله إلىٰ آخره.

كما قال تعالىٰ: ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]؛ فالله لا يخفىٰ عليه شيء فيعلم ما في قلب العبد وما ليس في قلبه متىٰ يكون وكيف يكون.

الآية الثانية قوله تعالىٰ: ﴿ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾: المراد بهم: المنافقون والمشركون، قال تعالىٰ: ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ [الفتح: ٦]، أي: ظن العيب، وهو كقوله فيما سبق: ﴿ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ومنه ما نقله المؤلف عن ابن القيم رحمهما الله: أنهم يظنون أن أمر الرسول ﷺ سيضمحل، وأنه لا يمكن أن يعود، وما أشبه ذلك.

قوله: ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾: أي: أن السوء محيط بهم جميعًا من كل جانب كما تحيط الدائرة بما في جوفها، وكذلك تدور عليهم دوائر السوء، فهم وإن ظنوا أنه تعالىٰ تَخَلَّىٰ عن رسوله وأن أمره سيضمحل؛ فإن الواقع خلاف ظنهم، ودائرة السوء راجعة عليهم.

قوله: ﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾: الغضب من صفات الله الفعلية التي تتعلق بمشيئته ويترتب عليه الانتقام، وأهل التعطيل قالوا: إن الله لا يغضب حقيقة.

فمنهم من قال: المراد بغضبه الانتقام.

ومنهم من قال: المراد إرادة الانتقام. قالوا: لأن الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام، ولهذا قال النبي ﷺ: «إنه جمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم»(١).

فيجاب عن ذلك: بأن هذا هو غضب الإنسان، ولا يلزم من التوافق في اللفظ التوافق في المثلية والكيفية، قال تعالىٰ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورىٰ: ١١]، ويدل علىٰ أن الغضب ليس هو الانتقام قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥].

---

(١) ضعيف: رواه الترمذي (٢١٩١)، وأحمد (١١١٩٣)، وضعفه العلامة الألباني رحمه الله في ضعيف الترغيب والترهيب (١٦٤١).

قال ابن القيم في الآية الأولى: فُسِّر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وفُسِّر بأن ما أصابه لم يكن بقدر اللَّه وحكمته. ففُسِّر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله، وأن يُظهره اللَّه على الدين كله. وهذا هو ظن السوء الذي ظن المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن السوء؛ لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق.

قال ابن القيم في الآية الأولى: فُسِّر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وفُسِّر بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته. ففُسِّر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله، وأن يُظهره الله على الدين كله.
وهذا هو ظن السوء الذي ظن المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن

فـ ﴿آسَفُونَا﴾: بمعنى أغضبونا ﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾؛ فجعل الانتقام مرتبًا على الغضب، فدل على أنه غيره.

وقوله: ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾: اللَّعن: الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾: أي: هيأها لهم وجعلها سكنًا لهم ومستقرًا.

قوله: ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾: أي: مرجعًا يصار إليه.

و﴿مَصِيرًا﴾: تمييز، والفاعل مستتر؛ أيَ: ساءت النار مصيرًا يصيرون إليه.

قوله: «قال ابن القيم»: هو محمد ابن قيم الجوزية، أحد تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية الكبار الملازمين له رحمهما الله، وقد ذكره في «زاد المعاد» عقيب غزوة أحد تحت بحث الحكم والغايات المحمودة التي كانت فيها.

قوله: «في الآية الأولى»: يعني قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، فسر بأن الله لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل؛ أي: يزول، وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته، يؤخذ هذا التفسير من قولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾؛ ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله ﷺ وأن يظهره الله على الدين كله.

ففسر بما يكون طعنًا في الربوبية وطعنًا في الأسماء والصفات؛ فالطعن في القدر طعن في ربوبية الله عز وجل؛ لأن من تمام ربوبيته ـ عز وجل ـ أن نؤمن بأن كل ما جرى في الكون فإنه بقضاء الله وقدره، والطعن في الأسماء والصفات تَضَمَّنَه الطعن في أفعاله وحكمته، حيث ظننّا أن الله تعالى لا ينصر رسوله وسوف يضمحل أمره؛ لأنه إذا ظن الإنسان هذا الظن بالله؛ فمعنى ذلك أن إرسال الرسول عليه الصلاة والسلام عبث وسفه؛ فما الفائدة من أن يُرسَلَ رسول ويؤمر بالقتال وإتلاف الأموال والأنفس، ثم تكون النتيجة أن يضمحل أمره وينسى؟ فهذا بعيد.

ولا سيما رسول الله ﷺ الذي هو خاتم النبيين؛ فإن الله تعالى قد أذن بأن شريعته سوف تبقى إلى يوم القيامة.

فمن ظن أنه يُديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحلُّ معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجرَّدة. فذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار.

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يَسْلَمُ من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته، وموجب حكمته وحمده. فليعتَن اللبيب الناصحُ لنفسه بهذا، وليتُب إلى الله وليَستَغفره من ظنه بربه ظنَّ السوء.

ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنُّتًا على القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا. فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك: هل أنت سالم؟!

فإن تَنْجُ منها تَنجُ من ذي عظيمة وإلا فإني لا إخالُك ناجيًا

السوء؛ لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق. فمن ظن أنه يُديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحلُّ معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجرَّدة. فذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار.

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يَسْلَمُ من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته، وموجب حكمته وحمده. فليَعْتَن اللبيب الناصحُ لنفسه بهذا، وليتُب إلى الله وليَسْتَغفره من ظنه بربه ظنَّ السوء.

ولو فتشت من فتشت لرَأيت عنده تعنُّتًا على القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا. فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك: هل أنت سالم؟!

فإن تَنْجُ منها تَنْجُ من ذي عظيمة وإلا فإني لا إخالُك ناجيًا

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في الكلام على ما تضمنته وقعة أُحد[1]: وقد فسِّر هذا

قال ابن القيم رحمه الله: «وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح».

وخلاصة ما ذكر ابن القيم في تفسير ظن السوء ثلاثة أمور:

الأول: أن يظن أن الله يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق؛ فهذا هو ظن المشركين والمنافقين في سورة الفتح، قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢].

الثاني: أن ينكر أن يكون ما جرى بقضاء الله وقدره؛ لأنه يتضمن أن يكون في ملكه سبحانه ما لا يريد، مع أن كل ما يكون في ملكه فهو بإرادته.

---

(١) زاد المعاد (ج ٢ ص ١٠٣ - ١٠٦) وقد بسط القول في ذلك أيضًا في إغاثة اللهفان. (ق)

. . . .

الظن الذي لا يليق بالله سبحانه: بأنه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، [وأنه يُسلمه للقتل]. وفُسِّر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضاء الله وقدره، ولا حِكمة له فيه. ففُسِّر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله ﷺ، ويظهره على الدين كله.

هذا هو ظن السوء [الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح، حيث يقول: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ] عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦]. وإنما كان هذا ظن السوء، وظن الجاهلية ـ وهو المنسوب إلى أهل الجهل ـ وظنُّ غير الحق؛ لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى، وذاته المبرَّأة من كل عيب وسوء، وخلاف ما يليق بحكمته وحمده، وتفرده بالإلهية، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يُخلفه، وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم، ولجنده بأنهم هم الغالبون. فمن ظن به أنه لا ينصر رسوله ولا يُتم أمره، ولا يؤيده ويؤيد حزبه ويعليهم ويظفرهم بأعدائهم ويظهرهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يُديل الشرك على التوحيد، [والباطل على الحق] إدالة مستقرة، يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالاً لا يقوم بعده أبدًا: فقد ظن به السوء، ونسبه إلى خلاف ما يليق بجلاله وكماله وصفاته ونعوته؛ فإن حمده وعزته [وحكمته] وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يُذلَّ حزبه وجنده، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه، المشركين به العادلين به.

فمن ظن به ذلك: [فما عرفه، ولا عرف أسماءه ولا عرف صفاته وكماله، وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره]، فما عرفه و لا عرف ربوبيته وملكه وعظمته، وكذلك من أنكر أن يكون قَدَّر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة بالغة، وغاية محمودة يستحق الحمد عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة

الثالث: أن ينكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليه الحمد؛ لأن هذا يتضمن أن تكون تقديراته لعبًا وسفهًا، ونحن نعلم علم اليقين أن الله لا يُقدِّر شيئًا أو يُشرِّعه إلا لحكمة، قد تكون معلومة لنا وقد تقصر عقولنا عن إدراكها، ولهذا يختلف الناس في علل الأحكام الشرعية اختلافًا كبيرًا بحسب ما عندهم من معرفة حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

ورأى الجهمية والجبرية أن الله يقدر الأشياء لمجرد المشيئة لا لحكمة، قالوا: لأنه لا يسأل عما يفعل، وهذا من أعظم سوء الظن بالله؛ لأن المخلوق إذا تصرف لغير حكمة سُمي سفيهًا؛ فما بالك بالخالق الحكيم؟!

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧]؛ فالظن بأنها خلقت باطلاً لا لحكمة عظيمة ظن الذين كفروا.

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨ـ٣٩] الذي هو ضد الباطل. وهؤلاء قالوا: إن الله خلقهما باطلاً لغير حكمة، قال الله: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: الذين يظنون أن الله خلقهما باطلاً وعبثًا، سفهًا ولعبًا.

والمعتزلة على العكس من ذلك، يقولون: لا يُقدر إلا لحكمة، ويفرضون على الله ما يشاؤون.

. . . .

مجردة عن حكمة، وغاية مطلوبة هي أحب إليه من فواتها، وأن تلك الأسباب المكروهة المُقتضية لها لا يخرج تقديرها عن الحكمة، لإفضائها إلىٰ ما يُحب وإن كانت مكروهة له. فما قدَّرها سُدَىً ولا شاءها عبثًا، ولا خلقها باطلاً: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وأكثر الناس يظنون باللَّه غير الحق، ظن السوء: فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف اللَّه وعرف أسماءه وصفاته، و[عرف] موجب حكمته وحمده.

فمن قنط من رحمته، وأيس من روحه: فقد ظن به ظن السوء. ومن جوَّز عليه أن يُعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم، ويسوي بينهم وبين أعدائه: فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن أنه يترك خلقه سُدَىً معطَّلين عن الأمر والنهي، ولا يرسل إليهم رسله ولا ينزل إليهم كتبه، بل يتركهم هملاً كالأنعام: [فقد ظن به ظن السوء].

ومن ظن أنه لن يجمعهم بعد موتهم للثواب والعقاب، في دار يجازي المحسن فيها بإحسانه والمسيء بإساءته، ويُبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين: فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن أنه يُضيِّع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصًا لوجهه علىٰ امتثال أمره، ويبطله عليه بلا سبب من العبد، وأنه يعاقبه بما لا صُنع له فيه ولا اختيار له ولا قُدرة ولا إرادة له في حصوله، بل يعاقبه علىٰ فعله هو سبحانه به، أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات، التي يؤيد بها أنبياءه ورسله، ويجريها علىٰ أيديهم

وقد ذكر صاحب «مختصر التحرير الفتوحي» رحمه الله[1]: أن في المسألة قولين في المذهب.

ولكن الصواب بلا ريب أنه لا يفعل شيئًا ولا يُقدِّره علىٰ عبده ولا يشرع شيئًا إلا لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد والشكر.

قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]: ﴿ويل﴾: مبتدأ، وساغ الابتداء بالنكرة: للتعظيم، وخبر المبتدأ: ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، والجار والمجرور ﴿مِنَ النَّارِ﴾ بيان لويل، وفي هذا دليل علىٰ أن كلمة ﴿ويل﴾ كلمة وعيد وليست كما قيل: وادٍ في جهنم، ولهذا نقول: ويل لك من البرد، ويل لك من فلان، ويقول المتوجع: ويلاه، وإن كان قد يوجد واد في جهنم اسمه ويل، لكن ويل في مثل هذه الآية كلمة وعيد.

قوله: «وأكثر الناس»: أي: من بني آدم لا من المؤمنين يظنون بالله ظن السوء؛ أي: العيب فيما يختص بهم، كما إذا دعوا الله علىٰ الوجه المشروع يظنون أن الله لا يجيبهم، أو إذا تعبدوا الله بمقتضىٰ شريعته يظنون أن الله لا يقبل منهم، وهذا ظن السوء فيما يختص بهم.

---

(١) هو تقي الدين محمد بن شهاب الدين أحمد بن النجار الفتوحي الحنبلي صاحب منتهى الإرادات ومختصر التحرير، وهو اختصار لكتاب «تحرير المنقول وتهذيب الأصول» للشيخ علاء الدين المرداوي المتوفى ٨٨٥. كشف الظنون (١/ ٣٧٥).

. . . .

يُضلُّون بها عباده، وأنه يحسن منه كل شيء حتى يُعذِّب من أفنى عمره في طاعته، فيخلِّده في الجحيم في أسفل سافلين، ويُنعم من استنفد عمره في عداوته وعداوة رسله ودينه فيرفعه إلى أعلى عليين، وكلا الأمرين في الحسن سواء عنده، ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق، وإلا فالعقل لا يقضي بقبح أحدهما وحُسن الآخر: فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل وتشبيه وتمثيل، وترك الحق لم يخبر به وإنما رمز إليه رموزًا بعيدة، وأشار إليه إشارات مُلغزٍ لم يصرح به، وصرح دائمًا بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد من خلقه أن يُتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه، وتأويله على غير تأويله، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المُستكرهة، والتأويلات [التي هي بالألغاز] والأحاجي[1] أشبه منها بالكشف والبيان، وأحالهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم لا على كتابه. بل أراد منهم أن لا يحملوا كلامه على ما يعرفونه من خطابهم ولُغتهم، مع قُدرته على أن يصرح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به، ويُريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل فلم يفعل، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان: فقد ظن به ظن السوء؛ فإنه إن قال: إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح، الذي عبَّر به هو وسلفه: فقد ظن بقدرته العجز، وإن

قوله: «فيما يفعله بغيرهم»: كما إذا رأوا أن الكفار انتصروا على المسلمين بمعركة من المعارك ظنوا أن الله يديل هؤلاء الكفار على المسلمين دائمًا؛ فالواجب على المسلم أن يحسن الظن بالله مع وجود الأسباب التي تقتضي ذلك.

قوله: «ولا يسلم من ذلك»: أي: من الظن السوء.

قوله: «إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده»: صدق رحمه الله، لا يسلم من ظن السوء إلا من عرف الله -عز وجل- وما له من الحكم والأسرار فيما يقدره ويشرعه، وكذلك عرف أسماءه وصفاته معرفة حقة لا معرفة تحريف وتأويل.

ولهذا حُجب المُحرِّفون والمُؤولون عن معرفة أسماء الله وصفاته؛ فتجد قلوبهم مظلمة غالبًا، تحاول أن تورد الإشكالات والتشكيك والجدل، أما من أبقى أسماء الله وصفاته على ما دلت عليه وسلك في ذلك مذهب السلف؛ فإن قلبه لا يرد عليه مثل هذه الاعتراضات التي تدر على قلوب أولئك المحرفين؛ لأن المحرفين إنما أُتوا من جهة ظنهم بالله ظن السوء، حيث ظنوا أن الكتاب والسنة دل ظاهرهما على التمثيل والتشبيه، فأخذوا يحرفون الكلم عن مواضعه وينكرون ما أثبت الله لنفسه، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن كل معطل ممثل، وكل ممثل معطل.

---

(١) يقال: كلمة محجية: مخالفة المعنى للفظ، وهي إما من معنى الناحية، وتقديرها أنها جاءت من غير حجاها، أو من معنى الفطنة وهي الأحجية والأحجوة، قال صاحب المثل السائر: وأما اللغز والأحجية فإنهما شيء واحد، وهو كل معنى يستخرج بالحدس والحزر لا بدلالة اللفظ عليه حقيقة ولا مجازًا، ولا يفهم منه غرضه. انتهى من هامش الأصل نقلاً عن سر الليال. (ق).

. . . .

قال: إنه قادر ولم يبين، وعدل عن البيان وعن التصريح بالحق إلىٰ ما يُوهم، بل يوقع في الباطل المحال، والاعتقاد الفاسد: فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء.

ومن ظن أنه وسلفَه عبَّروا عن الحق بصريحه، دون اللَّه ورسوله، وأن الهدىٰ والحق في كلامهم وعباراتهم، وأما كلام اللَّه فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه والتمثيل والضلال، وظاهر كلام المُتهوِّكين الحيارىٰ هو الهدىٰ، والحق: فهذا من سوء الظن باللَّه. فكل هؤلاء من الظانين باللَّه ظن السوء، ومن الظانين باللَّه غير الحق ظن الجاهلية. ومن ظن به أنه يكون في مُلكه ما لا يشاء، ولا يقدر علىٰ إيجاده وتكوينه: فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن أنه كان مُعطَّلاً من الأزل إلىٰ الأبد علىٰ أن يفعل، ولا يوصف حينئذ بالقدرة علىٰ الفعل، ثم صار قادراً عليه بعد أن لم يكن قادراً: فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه لا يسمع ولا يبصر، ولا يعلم الموجودات، ولا عدد السموات ولا النجوم، ولا بني آدم وحركاتهم وأفعالهم، ولا يعلم شيئًا من الموجودات في الأعيان: فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه لا سمع له ولا بصر، ولا علم ولا إرادة، ولا كلام يقوم به، وأنه لا يكلم أحدًا من الخلق ولا يتكلم أبدًا، ولا قال، ولا يقول، ولا له أمرٌ ولا نهي يقوم به: فقد ظن به ظن السوء ومن ظن به أنه ليس فوق سمواته، علىٰ عرشه بائنًا من خلقه، وأن نسبة ذاته إلىٰ عرشه كنسبتها إلىٰ أسفل سافلين، وإلىٰ الأمكنة التي يُرغب عن ذكرها، وأنه أسفل كما أنه أعلىٰ، وأن من قال: سبحان ربي الأسفل، كان كمن قال: سبحان ربي الأعلىٰ: فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه. ومن ظن أنه يُحب الكفر والفسوق

أما كون كل معطل ممثلاً؛ فلأنه عطَّل لكونه ظن أن دلالة الكتاب والسنة تقتضي التمثيل، فلما ظن هذا الظن السيء بنصوص الكتاب والسنة أخذ يحرفها ويصرفها عن ظاهرها؛ فمثّل أولاً، وعطّل ثانيًا، ثم إنه إذا عطل صفات الله تعالىٰ خوفًا من تشبيهه بالموجود؛ فقد شبهه بالمعدوم، وأما كون كل ممثل معطلاً؛ فلأن الممثل عطل الله تعالىٰ من كماله الواجب حيث مثله بالمخلوق الناقص، وعطل كل نص يدل علىٰ نفي مماثلة الخالق للمخلوق. وعلىٰ هذا؛ فالذي عرف أسماء الله وصفاته معرفة علىٰ ما جرىٰ عليه سلف هذه الأمة وأئمتها، وعرف موجب حكمة الله؛ أي: مقتضىٰ حكمة الله؛ لا يمكن أن يظن بالله ظن السوء.

وقوله: «موجب»؛ موجب؛ بالفتح: هو المُسَبَّب الناتج عن السبب بمعنىٰ المقتضىٰ، وبالكسر: السبب الذي يقتضي الشيء بمعنىٰ المقتضي، و المراد هنا الأول. فالذي يعرف موجب حكمة الله وما تقتضيه الحكمة؛ فإنه لا يمكن أن يظن بالله ظن السوء أبدًا، ولاحظ الحكمة التي حصلت للمسلمين في هزيمتهم في حنين وفي هزيمتهم في أحد؛ فإن في ذلك حِكَمًا عظيمة ذكرها الله في سورة آل عمران والتوبة؛ فهذه الحكم إذا عرفها الإنسان لا يمكن أن يظن بالله ظن السوء، وأنه أراد أن يخذل رسوله وحزبه، بل كل ما يجريه الله في الكون؛ كمنع الإنبات والفقر؛ فهو لحكمة بالغة قد لا نعلمها، ولا يمكن أن يظن أن الله بخل علىٰ عباده؛ لأنه ـ عز وجل ـ أكرم الأكرمين، وعلىٰ هذا فقس.

قوله: «اللبيب» علىٰ وزن فعيل، ومعناه: ذو اللب، وهو العقل.

. . . .

والعصيان، ويحب الفساد، كما يحب الإيمان والبر والطاعة والإصلاح: فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه لا يحب ولا يرضىٰ، ولا يغضب ولا يسخط، ولا يوالي ولا يعادي، ولا يقرب من أحد من خلقه، ولا يقرب منه أحد، وأن ذوات الشياطين في القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المُفلحين: فقد ظن بالله ظن السوء.

ومن ظن به أنه يُسوِّي بين المتضادين، أو يفرق بين المتساويين من كل وجه، أو يحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها، فيخلد فاعل تلك الطاعات في الجحيم أبد الآبدين بتلك الكبيرة، ويُحبط بها جميع طاعاته ويُخلِّده في العذاب، كما يُخلد من لم يؤمن به طرفة عين، واستنفد ساعات عُمره في مساخطه ومعاداة رسله ودينه: فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أن له ولدًا أو شريكًا، أو أن أحدًا يشفع عنده بدون إذنه، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه، ويتوسلون بهم إليه، ويجعلونهم وسائط بينه وبينهم، فيدعونهم ويخافونهم ويرجونهم فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظن به أنه ينال ما عنده بمعصيته ومخالفته، كما يُنال بطاعته والتقرب إليه: فقد ظن به خلاف حكمته، وخلاف موجب أسمائه وصفاته، وهو من ظن السوء. ومن ظن به أنه إذا ترك شيئًا لأجله لم يعوِّضه خيرًا منه: أو من فعل شيئًا لأجله لم يعطه أفضل منه: فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن به أنه يغضب علىٰ عبده ويعاقبه ويحرمه بغير جُرم ولا سبب من العبد، إلا بمجرد المشيئة ومحض الإرادة: فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن به أنه إذا صدقه في الرغبة والرهبة، وتضرَّع إليه وسأله: واستعان به وتوكَّل عليه أنه يُخيِّبه ولا يعطيه ما سأله: فقد ظن به ظن السوء، وظن به خلاف ما هو أهله.

قوله: «بهذا»: المشار إليه هو الظن بالله -عز وجل-؛ ليعتني بهذا حتىٰ يظن بالله ظن الحق، لا ظن السوء وظن الجاهلية.

قوله: «وليتب إلى الله»: أي: يرجع إليه؛ لأن التوبة الرجوع من المعصية إلىٰ الطاعة.

قوله: «وليستغفره»: أي: يطلب منه المغفرة، واللام في قوله: «فليتب»، وقوله: «وليستغفره» للأمر.

قوله: «تعنتًا على القدر وملامة له»: أي: إذا قَدَّر الله شيئًا لا يلائمه تجده يقول: ينبغي أن ننتصر، ينبغي أن يأتي المطر، ينبغي أن لا نصاب بالجوائح، وأن يوسع لنا في هذا الرزق وهكذا.

قوله: «فمستقل ومستكثر»: «مستقل»: مبتدأ، خبره محذوف. و«مستكثر»: مبتدأ خبره محذوف، والتقدير: فمن الناس مستقل ومنهم مستكثر. ونظير ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]؛ فـ ﴿سَعِيدٌ﴾ مبتدأ خبره محذوف تقديره: ومنهم سعيد، ولا يقال بأن ﴿سَعِيدٌ﴾ معطوف علىٰ شقي؛ لكونه يلزم أن يكون الوصفان لموصوف واحد.

قوله: «وفتش نفسك: هل أنت سالم»: وهذا ينبغي أن يكون في جميع المسائل مما أوجبه الله، فتش عن نفسك: هل أنت سالم من التقصير فيه؟ ومما حرمه الله عليك: هل أنت سالم من الوقوع فيه؟

. . . .

ومن ظن به أنه يثيبه إذا عصاه، كما يثيبه إذا أطاعه وسأله ذلك في دعائه: فقد ظن به خلاف ما تقتضيه حكمته وحمده، وخلاف ما هو أهله وما لا يفعله. ومن ظن به أنه إذا أغضبه وأسخطه وأوضع في معاصيه، ثم اتخذ من دونه أولياء، ودعا من دونه ملكًا أو بشرًا حيًا أو ميتًا يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه، ويخلِّصه من عذابه: [فقد ظن به ظن السوء]. فأكثر الخلق، بل كلُّهم -إلا من شاء اللَّه- يظنون باللَّه غير الحق وظن السوء؛ فإن غالب بني آدم يعتقد أن مبخوس الحق ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما شاء اللَّه [وأعطاه]، ولسان حاله يقول: ظلمني ربي، ومنعني ما أستحقه، ونفسُه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكره، ولا يتجاسر علىٰ التصريح به. ومن فتش نفسه، وتغلغل في معرفة طواياها: رأىٰ ذلك فيها كامنًا كمون النار في الزِّناد، فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما في زناده. ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنُّتًا علىٰ القدر وملامة له، واقتراحًا له خلاف ما جرىٰ به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر. وفتش نفسك: هل أنت سالم.

فإن تنجُ منها تَنْج من ذي عظيمة ... وإلا فإني لا إخالُك ناجيًا

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، وليَتُبْ إلىٰ اللَّه ويستغفره في كل وقت، من ظنِّه بربه ظن السوء. وليظن السَّوءَ بنفسه التي هي مأوىٰ كلِّ سوء، ومنبع كل شر، المركبة علىٰ الجهل والظلم. فهي أولىٰ بظن السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين، الغني الحميد. الذي له الغنىٰ التام، والحمد التام، والحكمة التامة، المنزَّه عن كل سوء في ذاته وصفاته، وأفعاله وأسمائه. فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، وصفاته كذلك، وأفعاله كلُّها حكمة ومصلحة، ورحمة وعدل، وأسماؤه كلها حسنىٰ.

فلا تظنن بربك ظن سوء ... فإن اللَّه أولى بالجميل
ولا تظنن بنفسك قط خيرًا ... فكيف بظالم جان جهول
وقل: يا نفس مأوى كل سوء ... أترجو الخير من ميت بخيل؟
وظُنَّ بنفسك السُّوآى تجدها ... كذاك، وخيرُها كالمستحيل
وما بك من تُقًى فيها وخير ... فتلك مواهب الربِّ الجليل
وليس لها ولا منها، ولكن ... من الرحمن، فاشكر للدليل

قوله: «فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة»: «تنج» الأول فعل الشرط مجزوم بحذف الواو، «تنج» الثانية جوابه مجزوم بحذف الواو.

وقوله: «من ذي عظيمة»: أي: من ذي بلية عظيمة.

وقوله: «وإلا؛ فإني لا إخالك ناجيًا»: التقدير؛ أي: وإلا تنج من هذه البلية؛ فإني لا إخالك ناجيًا.

ومعنىٰ إخالك: أظنك، وهي تنصب مفعولين: الأول هنا الكاف، والثاني ناجيًا.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران.

الثانية: تفسير آية الفتح.

الثالثة: الإخبار بأنَّ ذلك أنواع لا تُحْصَرُ.

الرابعة: أنَّه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسمَاء والصفات، وعرف نفسه.

. . . .

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران: وهي قوله تعالى: ﴿ **يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ** ﴾، وقد سبق، والضمير فيها للمنافقين.

الثانية: تفسير آية الفتح: وهي قوله تعالى: ﴿ **الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ** ﴾، وقد سبق، والضمير فيها للمنافقين.

الثالثة: الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر: أي: ظن السوء، والذي أخبر بذلك ابن القيم رحمه الله، وضابط هذه الأنواع أن يظن بالله ما يليق به.

الرابعة: أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه: أي: لا يسلم من ظن السوء بالله إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده وعرف نفسه ففتش عنها.

والحقيقة أن الإنسان هو محل النقص والسوء.

وأما الرب؛ فهو محل الكمال المطلق الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه.

ولا تَظُنَّنَّ بِربِّك ظَنَّ سَوءٍ فإنَّ الله أَولَى بالجَمِيلِ

مناسبة الباب للتوحيد:

إن ظن السوء ينافي كمال التوحيد، وينافي الإيمان بالأسماء والصفات، لأن الله قال في الأسماء: ﴿ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا** ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فإذا ظن بالله ظن السوء؛ لم تكن الأسماء حسنى، وقال في الصفات: ﴿ **وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ** ﴾ [النحل: ٦٠]، وإذا ظن بالله ظن السوء؛ لم يكن له المثل الأعلى.

* * *

٥٩ـ باب
ما جاء في منكري القدر

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب ما جاء في مُنكري القَدَر:

أي: من الوعيد الشديد، ونحو ذلك.

أخرج أبو داود، عن عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: **«القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»**(١)(٢). وعن عمر مولى غُفْرة (٣)، عن رجل من الأنصار، عن حُذيفة ـ وهو ابن اليمان ـ رضي الله عنهما: قال: قال رسول الله ﷺ: **«لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قَدَر، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوه، وهم شيعة الدجال، وحق على الله أن يُلحقهم بالدجال»**(٤).

باب ما جاء في منكري القدر

قد ثبت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة أن الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فمن لم يؤمن بهذا فإنه ما آمن بالله حقيقة. فعلينا أن نؤمن بجميع مراتب القدر فنؤمن أن الله بكل شيء عليم، وأنه كتب في اللوح المحفوظ جميع ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وأن الأمور كلها بخلقه وقدرته وتدبيره.

ومن تمام الإيمان بالقدر العلم بأن الله لم يجبر العباد على خلاف ما يريدون بل جعلهم مختارين لطاعاتهم ومعاصيهم.

قوله: «منكري»: أصله منكرين ـ جمع مذكر سالم ـ؛ فحذفت النون للإضافة كما يحذف التنوين أيضًا، قال الشاعر:

كَأَنّي تنوينٌ وأنت إضافةٌ ... فأينَ تَراني لا تَحلُ جِوَاري

وقيل: (مكاني) بدل (جواري).

قوله: «القدر»: هو تقدير الله ـ عز وجل ـ للكائنات، وهو سر مكتوم لا يعلمه إلا الله أو من شاء من خلقه.

قال بعض أهل العلم: القدر سر الله ـ عز وجل ـ في خلقه، ولا نعمله إلا بعد وقوعه، سواء كان خيرًا أو شرًا.

والقدر يطلق على معنيين:

الأول: التقدير؛ أي: إرادة الله ـ عز وجل ـ الشيء.

الثاني: المُقَدَّر؛ أي: ما قَدَّره الله ـ عز وجل ـ. والتقدير يكون مصاحبًا للفعل وسابقًا له؛

---

(١) قال في عون المعبود (ج ٤ ص ٣٥٧): قال الخطابي: إنما جعلهم مجوسًا لمضاهاة مذهبهم مذاهب المجوس في قولهم بالأصلين، وهما النور والظلمة، يزعمون أن الخير من فعل النور، والشر من فعل الظلمة، وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله والشر إلى غيره. اهـ. وقال المنذري: هذا منقطع، أبوحازم - سلمة بن دينار - لم يسمع من ابن عمر. وقد روى هذا الحديث من طرق عن ابن عمر، وليس فيها شيء يثبت. اهـ. (ق).

(٢) حسن: صحيح الجامع (٤٤٤٢).

(٣) قال المنذري: عمر مولى غفرة - بضم الغين وسكون الفاء - لا يحتج بحديثه، وهو رجل من الأنصار مجهول، وقد روى من طرق أخرى عن حذيفة، ولا يثبت. (ق).

(٤) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في تخريج شرح الطحاوية (٢٤٢)، والظلال (٣٢٩، ٣٣٨)، والسلسلة الضعيفة (٥٧١٤).

. . . .

. . . .

فالمصاحب للفعل هو الذي يكون به الفعل، والسابق هو الذي قدره الله ـ عز وجل ـ في الأزل.

مثال ذلك: خلق الجنين في بطن الأم فيه تقدير سابق علمي قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وفيه تقدير مقارن للخلق والتكوين، وهذا الذي يكون به الفعل؛ أي: تقدير الله لهذا الشيء عند خلقه. والإيمان بالقدر يتعلق بتوحيد الربوبية خصوصًا، وله تعلق بتوحيد الأسماء والصفات؛ لأنه من صفات الكمال لله ـ عز وجل ـ.

والناس في القدر ثلاث طوائف.

الأولى: الجبرية الجهمية، أثبتوا قدر الله تعالىٰ وغلوا في إثباته حتىٰ سلبوا العبد اختياره وقدرته، وقالوا: ليس للعبد اختيار ولا قدرة في ما يفعله أو يتركه؛ فأكله وشربه ونومه ويقظته وطاعته ومعصيته كلها بغير اختيار منه ولا قدرة، ولا فرق بين أن ينزل من السطح عبر الدرج مختاراً وبين أن يُلقىٰ من السطح مكرهًا.

الطائفة الثانية: القدرية المعتزلة، أثبتوا للعبد اختياراً وقدرة في عمله وغلوا في ذلك حتىٰ نفوا أن يكون لله تعالىٰ في عمل العبد مشيئة أو خلق، ونفي غلاتهم علم الله به قبل وقوعه؛ فأكل العبد وشربه ونومه ويقظته وطاعته ومعصيته كلها واقعة باختياره التام وقدرته التامة وليس لله تعالىٰ في ذلك مشيئة ولا خلق، بل ولا علم قبل وقوعه عند غلاتهم.

استدل الأولون الجبرية:

بقوله تعالىٰ: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، والعبد وفعله من الأشياء.

وبقوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

وبقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]؛ فنفىٰ الله الرمي عن نَبِيِّه حين رمىٰ وأثبته لنفسه.

وبقوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]. ولهم شُبَه أخرىٰ تركناها خوف الإطالة.

والرد علىٰ شبهاتهم بما يلي:

أما قوله تعالىٰ: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فاستدلالهم بها مُعارض بالنصوص الكثيرة التي فيها إثبات إرادة العبد وإضافة عمله إليه وإثابته عليه كرامة أو إهانة، وكلها من عند الله، ولو كان مُجبراً عليها ما كان لإضافة عمله إليه وإثابته عليه فائدة.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ فهو حجة عليهم؛ لأنه أضاف العمل إليهم، وأما كون الله تعالىٰ خالقه؛ فلأن عمل العبد حاصل بإرادته الجازمة وقدرته التامة، والإرادة والقدرة مخلوقان لله ـ عز وجل ـ؛ فكان الحاصل بهما مخلوقًا لله.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾؛ فهو حجة عليهم؛ لأن الله تعالىٰ أضاف الرمي إلىٰ نبيه ﷺ، لكن الرمي في الآية له معنيان:

أحدهما: حذف المرمي، وهو فعل النبي ﷺ الذي أضافه الله إليه.

والثاني: إيصال المرمي إلىٰ أعين الكفار الذين رماهم النبي ﷺ بالتراب يوم بدر فأصاب عين كل

. . . .

. . . .

واحد منهم، وهذا من فعل الله؛ إذ ليس بمقدور النبي ﷺ أن يوصل التراب إلى عين كل واحد منهم.

وأما قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾؛ فَلَعَمر الله؛ إنه لحجة على هؤلاء الجبرية، فقد أبطل الله تعالى حجة هؤلاء المشركين الذين احتجوا بالقدر على شركهم حين قال في الآية نفسها: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وما كان الله ليذيقهم بأسه وهم على حق فيما احتجُّوا به.

ثم نقول: القول بالجبر باطل بالكتاب والسنة والعقل والحس وإجماع السلف، ولا يقول به من قدر الله حق قدره وعرف مقتضى حكمته ورحمته.

فمن أدلة الكتاب: قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]؛ فأثبت للعبد إرادة. وقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]. وقال: ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]. وقال: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١١].

فأثبت للعبد إرادة وقولاً وفعلاً وعملاً.

ومن أدلة السنة: قول النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى»[1]، وقوله: «ما نهيتكم عنه؛ فاجتنبوه وما أمرتكم به؛ فأتوا منه ما استطعتم»[2]. ولهذا إذا أُكره المرء على قول أو فعل وقلبه مطمئن بخلاف ما أكره عليه؛ لم يكن لقوله أو فعله الذي أكره عليه حكم فاعله اختياراً.

وأما إجماع السلف على بطلان القول بالجبر؛ فلم ينقل عن أحد منهم أنه قال به، بل رد من أدرك منهم بدعته موروث معلوم.

وأما دلالة العقل على بطلانه: فلأنه لو كان العبد مُجبراً على عمله؛ لكانت عقوبة العاصي ظلمًا ومثوبة الطائع عبثًا، والله تعالى مُنَزَّه عن هذا وهذا، ولأنه لو كان العبد مجبراً على عمله لم تقم الحجة بإرسال الرسل؛ لأن القدر باق مع إرسال الرسل، وما كان الله ليقيم على العباد حجة مع انتفاء كونها حجة.

وأما دلالة الحس على بطلانه؛ فإن الإنسان يدرك الفرق بين ما فعله باختياره؛ كأكله وشربه وقيامه وقعوده، وبين ما فعله بغير اختياره، كارتعاشه من البرد والخوف ونحو ذلك.

واستدلت الطائفة الثانية (القدرية) بقوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] فأثبت للعبد إرادة، وبقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، ونحوها من النصوص القرآنية والنبوية الدالة على أن للعبد إرادة، وأنه هو العامل الكاسب الراكع الساجد ونحو ذلك. والرد عليهم من وجوه:

الأول: أن الآيات والأحاديث التي استدلوا بها نوعان:

نوع مقيد لإرادة العبد وعمله بأنه بمشيئة الله؛ كقوله تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧). (٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

. . . .

. . . .

تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، وقوله: ﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا (٢٩) وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما﴾ [الإنسان: ٢٩، ٣٠]، وكقوله تعالى في العمل: ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ [البقرة: ٢٥٣].

والنوع الثاني: مطلق؛ كقوله تعالى: ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقوله: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ [الكهف: ٢٩]، وقوله: ﴿من كان يريد العاجلة﴾ إلى قوله: ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩].

وهذا النوع المطلق يحمل على المُقيَّد كما هو معلوم عند أهل العلم.

الثاني: أن إثبات استقلال العبد بعمله مع كونه مملوكًا لله تعالى يقتضي إثبات شيء في مُلك الله لا يريده الله، هذا نوع إشراك به، ولهذا سمَّى النبي ﷺ القدرية مجوس هذه الأمة.

الثالث: أن نقول لهم: هل تُقرُّون بأن الله تعالى عالم بما سيقع من أفعال العباد؟ فسيقول غير الغلاة منهم: نعم، نقر بذلك، فنقول: هل وقع فعله على وفق علم الله أو على خلافه؟ فإن قالوا: على وفقه؛ قلنا إذن قد أراده، وإن قالوا: على خلافه؛ فقد أنكروا علمه، وقد قال الأئمة رحمهم الله في القدرية: ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به؛ خصُموا، وأن أنكروه؛ كفروا.

وهاتان الطائفتان - الجبرية والقدرية - ضالتان طريق الحق؛ لأنهما بين مفرط غال ومفرط مقصر؛ فالجبرية غلوا في إثبات القدر وقصَّروا في إرادة العبد وقدرته، والقدرية غلوا في إثبات إرادة العبد وقدرته وقصروا في القدر. ولهذا كان الأسعد بالدليل والأوفق للحكمة والتعليل هم:

الطائفة الثالثة: أهل السنة والجماعة؛ الطائفة الوسط، الذين جمعوا بين الأدلة وسلكوا في طريقهم خير ملة؛ فأمنوا بقضاء الله وقدره، وبأن للعبد اختياراً وقدرة؛ فكل ما كان في الكون من حركة أو سكون أو وجود أو عدم؛ فإنه كائن بعلم الله تعالى ومشيئته، وكل ما كان في الكون فمخلوق لله تعالى، لا خالق إلا الله ولا مدبر للخلق إلا الله - عز وجل -، وآمنوا بأن للعبد مشيئة وقدرة، لكن مشيئته مربوطة بمشيئة الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم (٢٨) وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩] إذا شاء العبد شيئًا وفعله؛ علمنا أن مشيئة الله تعالى قد سبقت تلك المشيئة. وهؤلاء هم الذين جمعوا بين الدليل المنقول والمعقول؛ فأدلتهم على إثبات القدر هي أدلة المثبتين له من الجبرية، لكنهم استدلوا بها على وجه العدل والجمع بينها وبين الأدلة التي استدل بها نفاة القدر. وأدلتهم على إثبات مشيئة العبد وقدرته هي أدلة المثبتين لذلك من القدرية، لكنهم استدلوا بها على وجه العدل والجمع بينها وبين الأدلة التي استدل بها نفاة مشيئة العبد وقدرته. وبهذا نعرف أن كلاً من الجبرية والقدرية نظروا إلى النصوص بعين الأعور الذي لا يبصر إلا من جانب واحد؛ فهدى الله أهل السنة والجماعة لما اختلف فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

. . . .

. . . .

حكاية: مما يحكى أن القاضي عبد الجبار الهمذاني المعتزلي دخل على الصاحب بن عباد وكان معتزليًا أيضًا، وكان عنده الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني، فقال عبد الجبار على الفور: سبحان من تنزَّه عن الفحشاء! فقال أبو إسحاق فوراً: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء! فقال عبد الجبار وفهم أنه قد عرف مراده: أيريد ربنا أن يعصى؟ فقال أبو إسحاق: أيعصى ربنا قهراً؟ فقال له عبدالجبار: أرأيت إن منعني الهدى وقضى عليَّ بالردى؛ أحسن إليَّ أم أساء؟ فقال له أبو إسحاق: إن كان منعك ما هو لك؛ فقد أساء، وإن كان منعك ما هو له، فيختص برحمته من يشاء. فانصرف الحاضرون وهم يقولون: والله؛ ليس عن هذا جواب. اهـ.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية[1] رحمه الله أن أهل السنة والجماعة وسط بين فرق المبتدعة في خمسة أصول ذكرها في «العقيدة الواسطية»؛ فلتُراجع هناك.

مراتب القدر: وهي أربع يجب الإيمان بها كلها:

المرتبة الأولى: العلم، وذلك بأن تؤمن بأن الله تعالى علم كل شيء جملة وتفصيلاً، فعلم ما كان وما يكون، فكل شيء معلوم لله، سواء كان دقيقًا أم جليلاً من أفعاله أو أفعال خلقه.

ودليل ذلك في الكتاب كثير، منها: قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]؛ فالأوراق التي تتساقط ميتة أي ورقة كانت صغيرة أو كبيرة في بر أو بحر؛ فإن الله تعالى يعلمها؛ والورقة التي تخلق يعلمها من باب أولى. ولاحظ سعة علم الله ـ عز وجل ـ وإحاطته، فلو فرض أنه في ليلة مظلمة ليس فيها قمر وفيها سحاب متراكم ممطر وحبة في قاع البحر المائج العميق؛ فهذه ظلمات متعددة؛ ظلما الطبقة الأرضية، وظلمة البحر، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، وظلمة الأمواج، وظلمة الليل؛ فكل هذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ﴾، ثم جاء العموم المطلق: ﴿وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾، ولا كتابة إلا بعد علم.

ففي هذه الآية إثبات العلم وإثبات الكتابة.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]؛ ففي الآية أيضًا إثبات العلم وإثبات الكتابة.

المرتبة الثانية: الكتابة، وقد دلت عليها الآيتان السابقتان.

المرتبة الثالثة: المشيئة، وهي عامة، ما من شيء في السماوات والأرض إلا وهو كائن بإرادة الله ومشيئته؛ فلا يكون في ملكه ما لا يريد أبدًا، سواء كان ذلك فيما يفعله بنفسه أو يفعله المخلوق، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا

---

(١) انظر شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد بن صالح بن عثيمين ص (٤٢٨) وما بعدها.

. . . .

. . . .

فعلوه﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم﴾ [البقرة: ٢٥٣] الآية.

المرتبة الرابعة: الخلق؛ فما من شيء في السماوات ولا في الأرض إلا الله خالقه ومالكه ومدبره وذو سلطانه، قال تعالىٰ: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] وهذا العموم لا مُخصِّص له، حتىٰ فعل المخلوق مخلوق لله؛ لأن فعل المخلوق من صفاته، وهو وصفاته مخلوقان، ولأن فعله ناتج عن أمرين:

١ ـ إرادة جازمة. ٢ ـ قدرة تامة.

والله هو الذي يخلق في الإنسان الإرادة الجازمة والقدرة التامة، ولهذا قيل لأعرابي: بم عرفت ربك؟ قال: بنقص العزائم، وصرف الهمم.

والعبد يتعلق بفعله شيئان:

١ ـ خلق، وهذا يتعلق بالله.

٢ ـ مباشرة، وهذا يتعلق بالعبد وينسب إليه، قال تعالىٰ: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، ولولا نسبة الفعل إلىٰ العبد ما كان للثناء علىٰ المؤمن المطيع وإثابته فائدة، وكذلك عقوبة العاصي وتوبيخه.

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بجميع هذه المراتب الأربع، وقد جمعت في بيت:

علمٌ كتابةُ مولانا مشيئتُهُ وخَلْقُه وهو إيجادٌ وتكوينُ

وهناك تقديرات أخرىٰ نسبية: منها: تقدير عمري: حين يبلغ الجنين في بطن أمه أربعة أشهر يرسل إليه الملك؛ فينفخ فيه الروح، ويكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد[1]. ومنها: التقدير الحولي: وهو الذي يكون في ليلة القدر، يكتب فيها ما يكون في السنة، قال الله تعالىٰ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]. ومنها: التقدير اليومي: كما ذكره بعض أهل العلم واستدل له بقوله تعالىٰ: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]؛ فهو كل يوم يغني فقيراً، ويفقر غنيًا، ويوجد معدومًا، ويعدم موجوداً، ويبسط الرزق ويَقدِرُه، وينشئ السحاب والمطر، وغير ذلك.

فإن قيل: هل الإيمان بالقدر ينافي ما علم بالضرورة من أن الإنسان يفعل الشيء باختياره؟

الجواب: لا ينافيه؛ لأن ما يفعله الإنسان باختياره من قدر الله؛ كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أقبل علىٰ الشام، قالوا له: إن في الشام طاعونًا يفتك بالناس، فجمع الصحابة وشاورهم. فقال بعضهم: نرجع. فعزم علىٰ الرجوع، فجاء أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح، فقال: يا أمير المؤمنين! أفراراً من قدر الله؟ فأجاب عمر: نفر من قدر الله إلىٰ قدر الله[2]. يعني: أن

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٠٨) ومواضع، ومسلم (٢٦٤٣)، والترمذي (٢١٣٧)، وابن ماجه (٧٦)، وأحمد (٣٦١٧) ومواضع.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩).

. . . .

. . . .

مضينا في السفر بقدر الله ورجوعنا بقدر الله، ثم ضرب له مثلاً، قال: أرأيت لو كان لك إبل فهبطت واديًا له شعبتان إحداهما خصبة والأخرىٰ جدبة؛ أليس إن رعيت الخصبة فبقدر الله، وإن رعيت الجدبة فبقدر الله. وقال أيضًا: أرأيت لو رعىٰ الجدبة وترك الخصبة، أكنت معجزه؟ قال: نعم. قال: فَسِرِ إذن. ومعنىٰ معجزه: ناسبًا إياه إلىٰ العجز. فالإنسان وإن كان يفعل؛ فإنما يفعل بقدر الله. فإن قيل: إذا تقرر ذلك؛ لزم أن يكون العاصي معذوراً بمعصيته؛ لأنه عصىٰ بقدر الله؟

أجيب: إن احتجاج العاصي بالقدر باطل بالشرع والنظر.

أما بطلانه بالشرع: فقد قال الله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]. فهم قالوا هذا علىٰ سبيل الاحتجاج بالقدر علىٰ معصية الله، فرد الله عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾، ولو كانت حجتهم صحيحة ما أذاقهم الله بأسه، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وهذا دليل واضح علىٰ بطلان احتجاجهم بالقدر علىٰ معصية الله، وقال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]؛ فأبطل الله الحجة علىٰ الناس بإرسال الرسل، ولو كان القدر حجة ما انتفت بإرسال الرسل؛ لأن القدر باق حتىٰ مع إرسال الرسل، وهذا يدل علىٰ بطلان احتجاج العاصي علىٰ معصيته بقدر الله.

وأما بطلانه بالنظر؛ فنقول: لو فرض أنه نشر في جريدة ما عن وظيفة مرتبها كذا وكذا، ووظيفة أخرىٰ أقل منها؛ فإنك سوف تطلب الأعلىٰ، فإن لم يكن طلبت الأخرىٰ، فإذا لم يحصل له شيء منها؛ فإنه يلوم نفسه علىٰ تفريطه بعدم المسارعة إليها مع أول الناس. وعندنا وظائف دينية الصلوات الخمس كفارة لما بينها، وهي كنهر علىٰ باب أحدنا يغتسل منه في كل يوم خمس مرات، وصلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة؛ فلماذا تترك هذه الوظائف وتحتج بالقدر وتذهب إلىٰ الوظائف الدنيوية الرفيعة؛ فكيف لا تحتج بالقدر فيما يتعلق بأمور الدنيا وتحتج به فيما يتعلق بأمور الآخرة؟!

مثال آخر: رجل قال: عسىٰ ربي أن يرزقني بولد صالح عالم عابد، وهو لم يتزوج، فنقول: تزوج حتىٰ يأتيك. فقال: لا؛ فلا يمكن أن يأتيه الولد، لكن إذا تزوج؛ فإن الله بمشيئته قد يرزقه الولد المطلوب. وكذلك من يسأل الله الفوز بالجنة والنجاة من النار، ولا يعمل لذلك؛ فلا يمكن أن ينجو من النار ويفوز بالجنة لأنه لم يعمل لذلك. فبطل الاحتجاج بالقدر علىٰ معاصي الله بالأثر والنظر، ولهذا قال النبي ﷺ كلمة جامعة مانعة نافعة: «ما منكم من أحد إلا وقد كُتبَ مقعده من الجنة ومقعده من النار» قالوا: يا رسول الله! أفلا ندع العمل ونتكل؟ قال: «اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له»[1]؛ فالنبي ﷺ أعطانا كلمة واحدة، فقال: «اعملوا...»، وهذا فعل أمر، «فكل ميسر لما خلق له».

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧)، والترمذي (٢١٣٦)، وابن ماجه (٧٨).

قال ابن عمر: والذي نفس ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبًا، ثم أنفقه في سبيل اللَّه ما قَبِله اللَّه منه، حتى يؤمن بالقدر. ثم استدل بقول النبي ﷺ: «الإيمان أن تؤمن باللَّه وملائكته، وكُتُبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره». رواه مسلم[1].

قال المصنف رحمه الله تعالى: قال ابن عمر: والذي نفس ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبًا، ثم أنفقه في سبيل الله ما قَبِله الله منه، حتى يؤمن بالقدر. ثم استدل بقول النبي ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكُتُبه ورسلَه واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره». رواه مسلم.

حديث ابن عمر هذا: أخرجه مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، عن يحيىٰ ابن يَعْمَر، قال: كان أول من تكلم في القدر بالبصرة معبد الجُهني، فانطلقت أنا وحُميد بن عبد الرحمن الحميري حاجّين، أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول اللَّه ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر؟ فوَفّق اللَّه لنا عبد اللَّه بن عمر داخلاً المسجد، فاكتنَفْتُه أنا وصاحبي، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إليّ، فقلت: أبا عبد الرحمن، إنه قد ظهر قبلنا أناس يقرؤون القرآن، ويتقفَّرون العلم[2]، يزعمون أن لا قَدَر وأن الأمر أُنف . فقال فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني

وللإيمان بالقدر فوائد عظيمة، منها:

١ ـ أنه من تمام توحيد الربوبية.

٢ ـ أنه يوجب صدق الاعتماد على الله ـ عز وجل ـ؛ لأنك إذا علمت أن كل شيء بقضاء الله وقدره صدق اعتمادك على الله.

٣ ـ أنه يوجب للقلب الطمأنينة، إذا علمت أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك؛ اطمأننت بما يصيبك بعد فعل الأسباب النافعة.

٤ ـ منع إعجاب المرء بعمله إذا عمل عملاً يشكر عليه؛ لأن الله هو الذي منَّ عليه وقَدَّره له، قال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣]؛ أي: فرح بطر وإعجاب بالنفس.

٥ ـ عدم حزنه على ما أصابه؛ لأنه من ربه، فهو صادر عن رحمة وحكمة.

٦ ـ أن الإنسان يفعل الأسباب؛ لأنه يؤمن بحكمة الله ـ عز وجل ـ، وأنه لا يقدر الأشياء إلا مربوطة بأسبابها.

قوله: «**والذي نفس ابن عمر بيده**»: الصيغة هنا قسم، جوابه: جملة «**لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبًا، ثم أنفقه في سبيل الله؛ ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر**».

وابن عمر ـ رضي الله عنه وعن أبيه ـ ذكر حكمهم بالنسبة لقبول عملهم ولم يقل هم كفار، لكن حكمه بأن إنفاقهم في سبيل الله لا يقبل يستلزم الحكم بكفرهم، وإنما قال ابن عمر ذلك جوابًا على ما

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٨). (٢) يقال: اقتفرت الأثر، أي تتبعته وقفوته. فمعنى يتقفرون العلم أي: يتطلبونه.(ق).

. . . .

بريء منهم، وأنهم برآء مني، والذي يحلفُ به عبد اللّه بن عمر، لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه ما قبله اللّه منه، حتىٰ يؤمن بالقدر. ثم قال: حدثني عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه، قال: بينما نحن عند رسول اللّه ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر لا يُرىٰ عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد. حتىٰ جلس إلىٰ النبي ﷺ فأسند رُكبتيه إلىٰ ركبتيه، ووضع كفيه علىٰ فخذيه. وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام، قال رسول اللّه ﷺ: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه، وتُقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً**» قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويُصدِّقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: «**أن تؤمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**» قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: «**أن تعبد اللّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» قال: فأخبرني عن الساعة، قال: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**» قال: فأخبرني عن أماراتها، قال: «**أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحُفاة العُراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان**». قال: فانطلق. فلبثتُ ثلاثًا - وفي رواية مسلم: مليًا - ثم قال: «**يا عمر، أتدري من السائل؟**». قلت: اللّه ورسوله أعلم، قال: «**فإنه جبريل أتاكم يُعلِّمكم دينكم**»[1].

نقل إليه من أن ناسًا من البصرة يقولون: إن الله - عز وجل - لم يقدر فعل العبد وإن الأمر أُنف، وأنه لا يعلم بأفعال العبد حتىٰ يعملها وتقع منه؛ فابن عمر حكم بكفرهم اللازم من قوله: «**ما قبله الله منه حتىٰ يؤمن بالقدر**»، والذي لا تقبل منه النفقات هو الكافر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿**وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ**﴾ [التوبة: ٥٤]، ثم استدل ابن عمر بقول النبي ﷺ: «**الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»؛ فتؤمن بالجميع، فإن كفرت بواحد من هذه الستة؛ فأنت كافر بالجميع لأن الإيمان كل لا يتجزأ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿**وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا**﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]. ووجه استدلال ابن عمر: أن النبي ﷺ جعل الإيمان مبنيًا علىٰ هذه الأركان الستة، وإذا فات ركن من الأركان؛ سقط البنيان، فإذا أنكر الإنسان شيئًا واحدًا من هذه الأركان الستة؛ صار كافرًا، وإذا كان كافرًا؛ فإن الله لا يقبل منه.

قوله: «أن تؤمن بالله»: والإيمان بالله - عز وجل - يتضمن أربعة أمور:

١ - الإيمان بوجوده.
٢ - وبربوبيته.
٣ - وبألوهيته.
٤ - وبأسمائه وصفاته.

فمن أنكر وجود الله؛ فليس بمؤمن، ومن أقر بوجوده وأنه رب كل شيء، لكنه أنكر أسماءه وصفاته، أو أنكر أن يكون مختصًا بها؛ فهو غير مؤمن بالله.

قوله: «وملائكته»: والإيمان بالملائكة يتضمن أربعة أمور:

---

(١) انظر التخريج السابق.

. . . .

ففي هذا الحديث: أن الإيمان بالقدر، من أصول الإيمان الستة المذكورة. فمن لم يُؤمن بالقدر خيره وشره، فقد ترك أصلاً من أصول الدين وجحده، فيُشبه من قال الله فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥].

---

١ - الإيمان بوجودهم. ٢ - الإيمان باسم من علمنا اسمه منهم.
٣ - الإيمان بأفعالهم. ٤ - الإيمان بصفاتهم.

فممّن علمنا صفاته جبريل عليه السلام، علمناه على خلقته التي خلق عليها له ستمائة جناح، قد سد الأفق، كما أخبرنا رسول الله ﷺ، وهذا يدل على عظمته، وأنه كبير جدًا؛ فهو فوق ما نتصور، ومع ذلك يأتي أحيانًا بصورة بشر؛ فأتى مرة بصورة دحيةَ الكلبي، وأتى مرة بصورة رجل شديد سواد الشعر شديد بياض الثياب لا يرى عليه أثر سفر ولا يعرفه من الصحابة أحد، فجلس إلى النبي ﷺ جلسة المتعلم المتأدب[1].

قوله: «وكتبه»: أي: الكتب التي أنزلها على رسله.

والإيمان بالكتب يتضمن ما يلي:

١ - الإيمان بأنها حق من عند الله. ٢ - تصديق أخبارها.

٣ - التزام أحكامها ما لم تنسخ، وعلى هذا؛ فلا يلزمنا أن نلتزم بأحكام الكتب السابقة؛ لأنها كلها منسوخة بالقرآن، إلا ما أقره القرآن.

وكذلك لا يلزمنا العمل بما نسخ في القرآن؛ لأن القرآن فيه أشياء منسوخة.

٤ - الإيمان بما علمناه مُعينًا منها؛ مثل: التوراة، والإنجيل، والقرآن، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى.

٥ - الإيمان بأن كل رسول أرسله الله معه كتاب؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال عيسى: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ [مريم: ٣٠]، وقال عن يحيى كذلك.

تنبيه: الكتب التي بأيدي اليهود والنصارى اليوم قد دخلها التحريف والكتمان؛ فلا يوثق بها، والمراد بما سبق الإيمان بأصل الكتب.

قوله: «ورسله»: هم الذين أوحى الله إليهم وأرسلهم إلى الخلق ليبُلغوا شريعة الله.

والإيمان بالرسل يتضمن ما يلي:

١ - أن نؤمن بأنهم حق صادقون مصدقون.

٢ - أن نؤمن بما صح عنهم من الأخبار، وبما ثبت عنهم من الأحكام؛ ما لم تنسخ.

٣ - أن نؤمن بأعيان من علمنا أعيانهم، وما لم نعلمه؛ فنؤمن بهم على سبيل الإجمال، ونعلم أنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير، وأن الله - سبحانه وتعالى - أرسل لكل أمة رسولاً تقوم به الحجة عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٨) وجلسة المتعلم المتأدب هي أن يضع يديه على ركبتيه كما فعل جبريل عليه السلام مع النبي ﷺ، فقد ذكر عمر أنه أسند ركبتيه إلى ركبتي النبي ﷺ ووضع يديه على ركبتيه.

. . . .

. . . .

والبشر إذا لم يأتهم رسول يبين لهم فهم معذورون؛ لأنهم يقولون: يا ربنا! ما أرسلت إلينا رسولاً؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤]؛ فلابد من رسول يهدي به الله الخلق.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩] يدل على أنه فيه فترة ليس فيها رسول؛ فهل قامت عليهم الحجة؟

الجواب: إن الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام طويلة، وقد قامت عليهم الحجة؛ لأن فيها بقايا؛ كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في «صحيحه»: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم؛ إلا بقايا من أهل الكتاب**»، وكما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦].

قوله: «واليوم الآخر»: أي: اليوم النهائي الأبدي الذي لا يوم بعده، وهو يوم القيامة الكبرى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: يدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، ذكر هذا في «العقيدة الواسطية»، وهو كتاب مختصر؛ لكنه مبارك من أفيد ما كتب في بابه.

وعلى هذا؛ فالإيمان بفتنة القبر وعذابه ونعيمه من الإيمان باليوم الآخر.

والإيمان بالنفخ في الصور وقيام الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلاً بهمًا من الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالموازين والصحف والصراط والحوض والشفاعة والجنة وما فيها من النعيم والنار وما فيها من العذاب الأليم؛ كل هذا من الإيمان باليوم الآخر.

ومنه ما هو معلوم بالقرآن، ومنه ما هو معلوم بالسنة بالتواتر وبالآحاد فكل ما صحت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من أمر اليوم الآخر، فإنه يجب علينا أن نؤمن به.

قوله: «وتؤمن بالقدر خيره وشره»: هنا أعاد الفعل ولم يكتف بواو العطف؛ لأن الإيمان بالقدر مهم، فكأنه مستقل برأسه.

والإيمان بالقدر: هو أن تؤمن بتقدير الله ـ عز وجل ـ للأشياء كلها، سواء ما يتعلق بفعله أو ما يتعلق بفعل غيره، وأن الله ـ عز وجل ـ قدرها وكتبها عنده قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ومعلوم أنه لا كتابة إلا بعد علم، فالعلم سابق على الكتابة، ثم إنه ليس كل معلوم الله ـ سبحانه وتعالى ـ مكتوبًا؛ لأن الذي كُتب إلى يوم القيامة، وهناك أشياء بعد يوم القيامة كثيرة أكثر مما في الدنيا هي معلومة عند الله ـ عز وجل ـ، ولكنه لم يرد في الكتاب والسنة أنها مكتوبة.

وهذا القدر، قال بعض العلماء: إنه سر من أسرار الله، وهو كذلك لم يُطلع الله عليه أحدًا؛ لا ملكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلاً؛ إلا ما أوحاه الله ـ عز وجل ـ إلى رسله أو وقع فعلم به الناس، وإلا؛ فإنه سر مكتوم، قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤]، وإذا قلنا: إنه سر مكتوم؛ فإن هذا القول يقطع

احتجاج العاصي بالقدر على معصيته؛ لأننا نقول لهذا الذي عصى الله ـ عز وجل ـ وقال: هذا مُقدر عليّ: ما الذي أعلمك أنه مقدر عليك حتى أقدمت؛ أفلا كان الأجدر بك أن تُقدر أن الله تعالى قد كتب لك السعادة وتعمل بعمل أهل السعادة لأنك لا تستطيع أن تعلم أن الله كتب عليك الشقاء إلا بعد وقوعه منك؟

قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**﴾ [الصف: ٥]، فالقول بأن القدر سر من أسرار الله مكتوم لا يطلع عليه إلا بعد وقوع المقدور تطمئن له النفس، وينشرح له الصدر، وتنقطع به حجة البطالين.

وقوله: «**خيره وشره**»: الخير: ما يلائم العبد، والشر: ما لا يلائمه.

ومعلوم أن المقدورات خير وشر؛ فالطاعات خير، والمعاصي شر، والغنى خير، والفقر شر، والصحة خير، والمرض شر، وهكذا.

وإذا كان القدر من الله؛ فكيف يقال: الإيمان بالقدر خيره وشره والشر لا ينسب إلى الله؟

فالجواب: أن الشر لا ينسب إلى الله، قال النبي ﷺ: «**والشر ليس إليك**»[1]؛ فلا ينسب إليه الشر لا فعلاً ولا تقديراً ولا حكمًا، بل الشر في مفعولات الله لا في فعله، ففعله كله خير وحكمة، فتقدير الله لهذه الشرور له حكمة عظيمة، وتأمل قوله تعالى: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [الروم: ٤١]؛ تجد أن هذا الفساد الذي ظهر في البر والبحر كان لما يرجى به من العاقبة الحميدة، وهي الرجوع إلى الله ـ عز وجل ـ ويظهر الفرق بين الفعل والمفعول في المثال التالي:

ولدك حينما يشتكي ويحتاج إلى كَيّ تكويه بالنار؛ فالكي شر، لكن الفعل خير؛ لأنك تريد مصلحته، ثم إن ما يقدره الله لا يكون شراً محضًا، بل في محله وزمانه فقط، فإذا أخذ الله الظالم أخذ عزيز مقتدر؛ صار ذلك شراً بالنسبة له، وقد يكون خيراً له من وجه آخر، أما لغيره ممن يتعظ بما صنع الله له؛ فيكون خيراً، قال تعالى في القرية التي اعتدت في السبت: ﴿**فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ [البقرة: ٦٦].

وكذا إذا استمرت النعم على الإنسان حمله ذلك على الأشر والبطر، بل إذا استمرت الحسنات ولم تحصل منه سيئة تكسر من حدة نفسه، فقد يغفل عن التوبة وينساها ويغتر بنفسه ويعجب بعمله.

وكم من إنسان أذنب ذنبًا ثم تذكر واستغفر وصار بعد التوبة خيراً منه قبلها؛ لأنه كلما تذكر معصيته هانت عليه نفسه وحدَّ من عليائها؛ فهذا آدم عليه الصلاة والسلام لم يحصل له الاجتباء والتوبة والهداية إلا بعد أن أكل من الشجرة وحصل منه الندم، وقال: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [الأعراف: ٢٣]؛ فقال تعالى: ﴿**ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ**﴾ [طه: ١٢٢].

والثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فَخُلِّفوا ماذا كانت حالهم بعد المعصية وبعد المصيبة التي أصابتهم؛ حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وصار ينكرهم الناس

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٧١)، وأبو داود (٧٦٠)، والترمذي (٣٤٢٢)، والنسائي (٧٩٨)، وأحمد (٨٠٥)، والدارمي (١٢٣٨).

. . . .

. . . .

حتىٰ أقاربهم ـ صار قريبه يشاهده وكأنه أجنبي منه ـ ومن شدة ما في نفسه تَنَكَّرت نفسه عليه؛ فبعد هذا الضيق العظيم صار لهم بعد التوبة فرح ليس له نظير أبدًا، وصارت حالهم أيضًا بعد أن تاب الله عليهم أكمل من قبل، وصار ذكرهم بعد التوبة أكبر من قبل، فقد ذُكروا بأعيانهم، قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]؛ فهذه آيات عظيمة تتلىٰ في محاريب المسلمين ومنابرهم إلىٰ يوم القيامة ويتقرب العبد إلىٰ ربه بقراءة خبرهم واستماعه، وهذا شيء عظيم.

وسواء كان ذلك في الأمور الشرعية أو في الأمور الكونية، ولكن ها هنا أمر يجب معرفته، وهو أن الخيرية والشرية ليست باعتبار قضاء الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ فقضاء الله تعالىٰ كله خير، حتىٰ ما يقضيه الله من شر هو في الواقع خير، وإنما الشر في المقضي، أما قضاء الله نفسه، فهو خير، والدليل قول النبي ﷺ: «الخير بيديك، والشر ليس إليك»(١)، ولم يقل: والشر بيديك؛ فلا ينسب الشر إلىٰ الله أبدًا، فضلاً عن أن يكون بيديه، فلا ينسب الشر إلىٰ الله لا إرادة ولا قضاء؛ فالله لا يريد بقضاء الشر شرًا، لكن الشر يكون في المقضي، وقد يلائم الإنسان وقد لا يلائمه، وقد يكون طاعة وقد يكون معصية؛ فهذا في المقضي، ومع ذلك؛ فهو وإن كان شرًا في محله فهو خير في محل آخر، ولا يمكن أن يكون شرًا محضًا، حتىٰ المقضي وإن كان شرًا ليس شرًا محضًا، بل هو شر من وجه خيرٌ من وجه، أو شر في محل خيرٌ في محل آخر.

ولنضرب لذلك مثلاً: الجدب والفقر شر، لكنهما خير باعتبار ما ينتج عنهما، قال تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]؛ والرجوع إلىٰ الله ـ عز وجل ـ من معصيته إلىٰ طاعته لا شك أنه خير وينتج خيرًا كثيرًا؛ فألم الفقر وألم الجدب وألم المرض وألم فقد الأنفس كله ينقلب إلىٰ لذة إذا كان يعقبه الصلاح، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وكم من أناس طغوا بكثرة المال وزادوا ونسوا الله ـ عز وجل ـ واشتغلوا بالمال، فإذا أصيبوا بفقر؛ رجعوا إلىٰ الله، وعرفوا أنهم ضالون؛ فهذا الشر صار خيرًا باعتبار آخر.

كذلك قطع يد السارق لا شك أنه شر عليه، لكنه خير بالنسبة له وبالنسبة لغيره، أما بالنسبة له؛ فلأن قطعها يسقط عنه العقوبة في الآخرة وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وهو أيضًا خير في غير السارق؛ فإن فيه ردعًا لمن أراد أن يسرق، وفيه أيضًا حفظ للأموال؛ لأن السارق إذا عرف أنه إذا سرق ستقطع يده؛ امتنع من السرقة فصار في ذلك حفظ لأموال الناس، ولهذا قال بعض الزنادقة:

يد بخمس مئين عسجدًا وديت ... ما بالها قطعت في ربع دينار

تناقض ما لنا إلا السكوت له ... ونستجير بمولانا من النار

---

(١) صحيح: وهو السابق.

وعن عُبادة بن الصامت، أنه قال لابنه: يا بُني، إنك لن تجد طَعْمَ الإيمان، حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك؛ سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: إن أول ما خلق اللَّه القلم، فقال له: اكتب، فقال: ربِّ وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة». يا بُني، سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس مني»(١). وفي رواية لأحمد: «إن أول ما خلق اللَّه تعالى القلم، فقال له: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»(٢). وفي رواية لابن وهب، قال رسول اللَّه ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره: أحرقه اللَّه بالنار».

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن عُبادة بن الصامت، أنه قال لابنه: يا بُني، إنك لن تجد طَعْمَ الإيمان، حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: ربِّ وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة». يا بُني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس مني».

وفي رواية لأحمد: «إن أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة».

وفي رواية لابن وهب، قال رسول اللَّه ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره: أحرقه اللَّه بالنار».

قوله: (وعن عبادة)، قد تقدم ذكره في باب فضل التوحيد، وحديثه هذا، رواه أبو داود.

ورواه الإمام أحمد بكماله(٣)، قال: حدثنا الحسن بن سوار، حدثنا ليث، عن معاوية، عن أيوب ابن زياد، حدثني عُبادة بن الوليد بن عبادة، حدثني أبي، قال: دخلت على عُبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه، أوصني واجتهد لي، فقال: أجلسوني. قال: يا بني إنك لن تجد طعم

لكنه أجيب في الرد عليه ردًا مفحمًا، فقيل فيه:

قل للمعري عار أيما عاري ... جهل الفتى وهو من ثوب التقى عاري
يد بخمس مئين عسجدًا وديت ... لكنها قطعت في ربع دينار
حماية النفس أغلاها وأرخصها ... حماية المال فافهم حكمة الباري

قوله في حديث عبادة: «أنه قال لابنه: يا بني!...»إلخ: أفاد حديث عبادة بن الصامت

---

(١) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٩٤)، والظلال (١٠٢- ١٠٧)، وتخريج الطحاوية (٢٣٢).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢١٥٥، ٢٣١٩)، وأبو داود (٤٧٠٠)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢٠١٧).

(٣) المسند (ج ٥ ص ٣١٧)، وهو عند أبي داود أخصر مما عند أحمد ومن طريق جعفر بن مسافر الهزلي أخبرنا يحيى بن حسان، أخبرنا الوليد بن رباح عن إبراهيم بن أبي جميلة، عن أبي حفصة قال: قال عبادة بن الصامت لابنه: ... الحديث. وسكت عنه المنذري. (ق).

. . . .

الإيمان، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله، حتىٰ تؤمن بالقدر خيره وشره، قلت: يا أبتاه وكيف أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»**. يا بني، إن مت ولست على ذلك دخلت النار.

ورواه الترمذي، بسنده المتصل إلىٰ عطاء بن أبي رباح، عن الوليد بن عبادة، عن أبيه، وقال: حسن صحيح غريب. وفي هذا الحديث ونحوه: بيان شمول علم الله تعالىٰ، وإحاطته بما كان وما يكون في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾[1] [الطلاق: ١٢].

رضي الله عنه أنه ينبغي للأب أن يسدي النصائح لأبنائه ولأهله، وأن يختار العبارات الرقيقة التي تلين القلب، حيث قال: **«يا بني!»**، وفي هذا التعبير من اللطافة وجذب القلب ما هو ظاهر.

قوله: «لن تجد طعم الإيمان»: هذا يفيد أن للإيمان طعمًا كما جاءت به السنة، وطعم الإيمان ليس كطعم الأشياء المحسوسة؛ فطعم الأشياء المحسوسة إذا أتىٰ بعدها طعام آخر أزالها، لكن طعم الإيمان يبقىٰ مدة طويلة، حتىٰ إن الإنسان أحيانًا يفعل عبادة في صفاء وحضور قلب وخشوع لله -عز وجل-، فتجده يتطعم بتلك العبادة مدة طويلة؛ فالإيمان له حلاوة وله طعم ولا يدركه إلا من أسبغ الله عليه نعمته بهذه الحلاوة وهذا الطعم.

قوله: «حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك»: قد تقول: ما أصابني لم يكن ليخطئني، هذا تحصيل حاصل؛ لأن الذي أصاب الإنسان أصابه، فلابد أن نعرف معنىٰ هذه العبارة؛ فتحمل هذه العبارة علىٰ أحد معنيين أو عليهما جميعًا:

الأول: أن المعنىٰ: **«ما أصابك»**؛ أي: ما قدر الله أن يصيبك، فَعَبَّر عن التقدير بالإصابة، لأن ما قدر الله سوف يقع، فما قدر الله أن يصيبك لم يكن ليخطئك مهما عملت من أسباب.

الثاني: ما أصابك؛ فلا تفكر أن يكون مخطئًا لك، فلا تقل: لو أنني فعلت كذا ما حصل كذا؛ لأن الذي أصابك الآن لا يمكن أن يخطئك، فكل التقديرات التي تقدرها وتقول: لو أني فعلت كذا ما حصل كذا هي تقديرات يائسة، لا تؤثر شيئًا، وأيًا كان؛ فالمعنىٰ صحيح علىٰ الوجهين، فما قدره الله أن يصيب العبد فلابد أن يصيبه ولا يمكن أن يخطئه، وما وقع مصيبًا للإنسان؛ فإنه لن يمنعه شيء، فإذا آمنت هذا الإيمان ذقت طعم الإيمان؛ لأنك تطمئن وتعلم أن الأمر لابد أن يقع علىٰ ما وقع عليه، ولا يمكن أن يتغير أبدًا.

مثال ذلك: رجل خرج بأولاده للنزهة، فَدَبَّ بعض الأولاد إلىٰ بركة عميقة، فسقط، فغرق، فمات؛ فلا يقول: لو أنني ما خرجت لما مات الولد، بل لابد أن تجري الأمور علىٰ ما جرت عليه، ولا

---

(١) في قرة العيون: والآيات في إثبات القدر كثيرة، وقد استدل العلماء على إثبات القدر بشمول القدرة والعلم، كما في الآية. (ق).

. . . .

وقد قال الإمام أحمد ـ رحمه اللَّه تعالى ـ لما سُئل عن القدر؛ قال: القدر قدرة الرحمن. واستحسن هذا ابن عقيل، من أحمد رحمه اللَّه تعالى.

والمعنى: أنه لا يمتنع عن قُدرة اللَّه شيء. ونفاة القدر قد جحدوا كمال قُدرة اللَّه تعالى، فضلُّوا عن سواء السبيل.

وقد قال بعض السلف: ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خُصموا، وإن جحدوه كفروا.

يمكن أن تتغير؛ فما أصابك لم يكن ليخطئك، فحينئذ يطمئن الإنسان ويرضى، ويعرف أنه لا مفر، وأن كل التقديرات والتخيلات التي تقع في ذهنه كلها من الشيطان؛ فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان، وحينئذ يرضى ويسلم، وقد أشار الله إلى هذا المعنى في قوله: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

فأنت إذا علمت هذا العلم وتيقنته بقلبك؛ ذقت حلاوة الإيمان واطمأننت، واستقر قلبك وعرفت أن الأمر جار على ما هو عليه لا يمكن أن يتغير، ولهذا كثيراً ما يجد الإنسان أن الأمور سارت ليصل إلى هذه المصيبة؛ فتجده يعمل أعمالاً لم يكن من عادته أن يعملها حتى يصل إلى ما أراد الله ـ عز وجل ـ مما يدل على أن الأمور بقضاء الله وقدره.

قوله: «**وما أخطأك لم يكن ليصيبك**»: نقول فيه مثل الأول؛ يعني: ما قدر أن يخطئك فلن يصيبك، فلو أن أحداً سمع بموسم تجارة في بلد ما وسافر بأمواله لهذا الموسم، فلما وصل وجد أن الموسم قد فات؛ نقول له: ما أخطأك من هذا الربح الذي كنت تُعدّ له لم يكن ليصيبك مهما كان ومهما عملت، أو نقول: لم يكن ليصيبك؛ لأن الأمر لابد أن يجري على ما قضاه الله وقدره، وأنت جَرّب نفسك تجد أنك إذا حصلت على هذا اليقين ذقت حلاوة الإيمان.

ثم استدل لما يقول بقوله: «**سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم**».

القلم بالرفع، وروي بالنصب. فعلى رواية الرفع يكون المعنى: أن أول ما خلق الله هو القلم، لكن ليس من كل المخلوقات، كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

وأما على رواية النصب؛ فيكون المعنى: أن الله أمر القلم أن يكتب عند أول خلقه له؛ يعني: خَلَقه ثم أمره أن يكتب، على هذا المعنى لا إشكال فيه، لكن على المعنى الأول الذي هو الرفع: هل المراد أن أول المخلوقات كلها هو القلم؟

الجواب: لا؛ لأننا لو قلنا: إن القلم أول المخلوقات، وإنه أمر بالكتابة عندما خلق، لكننا نعلم ابتداء خلق الله للأشياء، وأن أول بدء خلق الله كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ونحن نعلم أن الله ـ عز وجل ـ خلق أشياء قبل هذه المدة بأزمنة لا يعلمها إلا الله ـ عز وجل ـ؛ لأن الله ـ عز وجل ـ لم يزل ولا يزال خالقًا، وعلى هذا؛ فيكون: إن أول ما خلق الله القلم يحتاج

. . . .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: والناس في باب خلق الرب وأمره، ولِمَ فعل ذلك، على طرفين ووسط: فالقدرية من المعتزلة وغيرهم قصدوا تعظيم الرب تعالى؛ بتنزيهه عما ظنوه قبحًا من الأفعال وظلمًا. فأنكروا عموم قدرته ومشيئته، ولم يجعلوه خالقًا لشيء، ولا أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. بل قالوا: يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشأ. ثم إنهم وضعوا لربهم شريعة فيما يجب عليه ويحرم بالقياس على أنفسهم، وتكلّموا في التقدير والتجويز بهذا القياس الفاسد الذي شبّهوا فيه الخالق بالمخلوق، فضلُّوا وأضلوا!!.

إلى تأويل ليطابق ما علم بالضرورة من أن الله تعالى له مخلوقات قبل هذا الزمن.

قال أهل العلم: وتأويله: إن المعنى: أن أول ما خلق الله القلم بالنسبة لما نشاهده فقط من المخلوقات؛ كالسموات والأرض... فهي أوّلية نسبية، وقد قال ابن القيم في نونيته[1]:

والناس مختلفون في القلم الذي كُتبَ القضاء به من الديان
هل كان قبل العرش أو هو بعده قولان عند أبي العلا الهمذاني
والحق أن العرش قبل لأنه قبل الكتابة كان ذا أركان

قوله: «فقال له: اكتب»: القائل هو الله -عز وجل- يخاطب القلم، والقلم جماد، لكن كل جماد أمام الله مُدرك وعاقل ومريد، والدليل على هذا قوله تعالى في سورة «فصلت»: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ⁽٩⁾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ⁽١٠⁾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾؛ أي: لابد أن تنقادا لأمر الله طوعًا أو كرهًا؛ فكان الجواب: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ٩-١١]، فقد خاطب الله السماوات والأرض وأجابتا ودل قوله: ﴿طَائِعِينَ﴾ على أن لها إرادة وأنها تطيع؛ فكل شيء أمام الله؛ فهو مدرك مريد ويجيب ويمتثل.

قوله: «قال: ربي وماذا أكتب؟»: «ماذا»: اسم استفهام مفعول مقدم، و «أكتب»: فعل مضارع مرفوع بالضمة الظاهرة، هذا إذا ألغيت «ذا»، أما إذا لم تلغ؛ فنقول: «ما»: اسم استفهام مبتدأ، و «ذا»: خبره؛ أي: ما الذي أكتب؟ والعائد على الموصول محذوف تقديره: ما الذي أكتبه؟

وفي هذا دليل على أن الأمر المجمل لا حرج على المأمور في طلب استبانته، وعلى هذا؛ فإننا نقول: إذا كان الأمر مجملاً؛ فإن طلب استبانته لا يكون معصية؛ فالقلم لا شك أنه ممتثل لأمر الله -سبحانه وتعالى-، ومع ذلك قال: «رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»، فكتب المقادير.

فإن قيل: هل القلم يعلم الغيب؟

فالجواب: لا، لكن الله أمره، ولابد أن يمتثل لأمر الله، فكتب هذا القلم الذي يعتبر جمادًا بالنسبة لمفهومنا، كتب كل شيء أمره الله أن يكتبه؛ لأن الله إذا أراد شيئًا قال له: كن؛ فيكون على حسب مراد الله.

و «كل»: من صيغ العموم؛ فتعم كل شيء مما يتعلق بفعل الله، أو بفعل المخلوقين.

---

(١) نونية ابن القيم المسماة «الكافية الشافية في الانتصار للطائفة الناجية» ولها شروح كثيرة منها شرح ابن عيسى وشرح الشيخ السعدي وشرح الدكتور خليل هراس وقد شرحها الشيخ ابن عثيمين رحمهم الله جميعًا.

. . . .

. . . .

وقوله: «حتى تقوم الساعة»: الساعة هي القيامة، وأطلق عليها لفظ الساعة؛ لأن كل شيء عظيم من الدواهي له ساعة؛ يعني: الساعة المعهودة التي تذهل الناس وتحيق بهم وتغشاهم حين تقوم، وذلك عند النفخ في الصور.

قوله: يا بني! سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا»: أي: الإيمان بأن الله كتب مقادير كل شيء.

قوله: «فليس مني»: تبرأ منه الرسول ﷺ لأنه كافر، والرسول ﷺ بريء من كل كافر.

ويستفاد من هذا الحديث:

١ ـ ملاطفة الأبناء بالموعظة، وتؤخذ من قوله: «يا بني!».

٢ ـ أنه ينبغي أن يُلقَّن الأبناء الأحكام بأدلتها. وذلك أنه لم يقل: إن الله كتب. . . وسكت، ولكنه أسند إلى الرسول ﷺ؛ فمثلاً: إذا أردت أن تقول لابنك: سَمِّ الله على الأكل، واحمد الله إذا فرغت؛ فإنك إذا قلت ذلك يحصل به المقصود، لكن إذا قلت: سم الله على الأكل، واحمد الله إذا فرغت؛ لأن النبي ﷺ أمر بالتسمية عند الأكل، وقال: **«إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة ويحمده عليها، ويشرب الشربة ويحمده عليها»**[1]، إذا فعلت ذلك استفدت فائدتين:

الأولى: أن تعوِّد ابنك على اتباع الأدلة.

الثانية: أن تربيه على محبة الرسول عليه الصلاة والسلام، وأن الرسول ﷺ هو الإمام المتبع الذي يجب الأخذ بتوجيهاته، وهذه في الحقيقة كثيراً ما يغفل عنها؛ فأكثر الناس يوجه ابنه إلى الأحكام فقط، لكنه لا يربط هذه التوجيهات بالمصدر الذي هو الكتاب والسنة.

قوله: «وفي رواية لأحمد: إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب...»: هذه الرواية تفيد أمراً زائداً على ما سبق، وهو قوله: **«فجرى في تلك الساعة»**؛ فإنه صريح في أن القلم امتثل، والحديث الأول ليس فيه أنه كتب إلا عن طريق اللزوم بأنه سيكتب امتثالاً لأمر الله تعالى؛ فيستفاد منه ما سبق من كتابة الله ـ سبحانه وتعالى ـ كل شيء إلى قيام الساعة، وهذا مذكور في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ [الحج: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا**﴾؛ أي: من قبل أن نبرأ الخليقة؛ ﴿**إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ [الحديد: ٢٢].

قوله: «إلى يوم القيامة»: هو يوم البعث، وسمي يوم القيامة؛ لقيام أمور ثلاثة فيه:

الأول: قيام الناس من قبورهم لرب العالمين؛ كما قال تعالى: ﴿**لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [المطففين: ٥، ٦].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣٤)، والترمذي (١٨١٦)، وأحمد (١١٥٦٢، ١١٧٥٨).

وفي (المسند)، و(السنن)، عن ابن الديلمي، قال: أتيتُ أُبَيَّ بن كعب، فقلت: في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل اللَّه يُذهبه من قلبي، فقال: لو أنفقت مثل أحد ذهبًا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. ولو مُت على غير هذا لكنت من أهل النار، قال: فأتيت عبد اللَّه بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن

قال المصنف رحمه الله تعالى: وفي (المسند)، و(السنن)، عن ابن الديلمي، قال: أتيتُ أُبَيَّ بن كعب، فقلت: في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله يُذهبه من قلبي، فقال: لو أنفقت مثل أحد ذهبًا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. ولو مُت على غير هذا لكنت من أهل النار، قال:

الثاني: قيام الأشهاد الذين يشهدون للرسل وعلى الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

الثالث: قيام العدل؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

قوله: «وفي رواية لابن وهب»: ظاهره أن هذا في حديث عبادة، وابن وهب أحد حفاظ الحديث.

قوله: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار»: في هذا دليل على أن الإيمان بالقدر واجب ولا يتم الإيمان إلا به، وأما من لم يؤمن به؛ فإنه يحرق بالنار.

وقوله: «أحرقه الله بالنار» بعد قوله: «فمن لم يؤمن» يدل على أن من أنكر أو شكّ فإنه يحرق بالنار؛ لأن لدينا ثلاث مقامات:

الأول: الإيمان والجزم بالقدر بمراتبه الأربع.

الثاني: إنكار ذلك. وهذان واضحان؛ لأن الأول إيمان والثاني كفر.

الثالث: الشك والتردد. فهذا يلحق بالكفر، ولهذا قال: «فمن لم يؤمن»، ودخل في هذا النفي من أنكر ومن شك.

وفي قوله: «أحرقه الله بالنار» دليل على أن عذاب النار محرق، وأن أهلها ليس كما زعم بعض أهل البدع يتكيفون لها حتى لا يحسون لها بألم، بل هم يحسون بألم وتحرق أجسامهم، وقد ثبت في حديث الشفاعة أن الله يخرج من النار من كان من المؤمنين حتى صاروا حُممًا[1]؛ يعني: فحمًا أسود، وقد دل عليه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢]، وفي قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

قوله: «في نفسي شيء من القدر»: لم يفصح عن هذا الشيء، لكن لعله لما حدثت بدعة القدر، وهي أول البدع حدوثًا صار الناس يتشككون فيها ويتكلمون فيها، وإلا؛ فإن الناس قبل حدوث هذه البدعة كانوا على الحق، ولا سيما أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه ذات يوم وهم يتكلمون في

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٦٠)، ومسلم (١٨٣).

ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ[1]. حديث صحيح، رواه الحاكم في (صحيحه).

فأتيت عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ. حديث صحيح، رواه الحاكم في (صحيحه).

قوله: (وفي المسند، وسنن أبي داود، عن ابن الديلمي) وهو أبو بُسر، بالسين المهملة، وبالباء المضمومة. ويقال: أبو بشر، بالشين المعجمة وكسر الباء، وبعضهم صحح الأول. واسمه عبد اللَّه بن فيروز.

ولفظ أبي داود قال: لو أن اللَّه عذب أهل سمواته وأهل أرضه، عذبهم وهو غير ظالم لهم. ولو رحمهم، لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم. ولو أنفقت مثل أُحد ذهبًا ما قبله اللَّه منك حتىٰ تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. ولو مُتَّ علىٰ غير هذا، لكنت من أهل النار. قال: فأتيت عبد اللَّه بن مسعود، فقال مثل ذلك. قال: ثم أتيت حُذيفة ابن اليمان، فقال مثل ذلك. قال: ثم أتيت زيد بن ثابت، قال: فحدثني عن النبي ﷺ مثل ذلك. وأخرجه ابن ماجه[2].

وقال العماد ابن كثير: عن سُفيان، عن منصور، عن ربعي بن خِراش، عن رجل، عن علي ابن أبي طالب، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«لا يؤمن عبدٌ حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأني رسول اللَّه بعثني بالحق، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيره وشره»**[3]. وكذا رواه الترمذي، عن النضر بن شُميل، عن شُعبة، عن منصور به. ورواه من حديث أبي داود الطيالسي، عن شُعبة، عن ربعي، عن علي، فذكره.

القدر، فغضب النبي عليه الصلاة والسلام من ذلك، وأمرهم بأن لا يتنازعوا وأن لا يختلفوا، فكف الناس عن هذا[4]؛ حتىٰ قامت بدعة القدرية وحصل ما حصل من الشُّبه، فلهذا يقول ابن الديلمي: **«في نفسي شيء من القدر...»**.

قوله: «فحدثني بشيء لعل الله أن يذهبه من قلبي»: أي: يذهب هذا الشيء، وهكذا يجب علىٰ الإنسان إذا أصيب بمرض أن يذهب إلىٰ أطباء ذلك المرض، وأطباء مرض القلوب هم العلماء، ولا سيما مثل الصحابة رضي الله عنهم؛ كأبيّ بن كعب؛ فلكل داء طبيب.

قوله: «**لو أنفقت مثل أحد ذهبًا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر**»: هذا يدل علىٰ أن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر؛ لأن الذي لا تقبل منه النفقات هم الكفار، وسبق نحوه عن ابن عمر رضي الله عنهما.

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وأحمد (٥/ ١٨٢، ١٨٥، ١٨٩)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥٢٤٤).

(٢) قال في عون المعبود (ج٤ ص ٣٦٢): فيصير الحديث مرفوعًا. قال المنذري: وفي إسناده أبو سفيان الشيباني وثقه ابن معين وغيره، وتكلم فيه أحمد وغيره. (ق).

(٣) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (١٠٤)، والظلال (١٣٠).

(٤) صحيح: رواه ابن ماجه (٨٥)، وأحمد (٦٦٣٠، ٦٨٠٦)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح سنن ابن ماجه.

. . . .

وقد ثبت في (صحيح مسلم)، من رواية عبد اللَّه بن وهب، وغيره، عن أبي هانئ الخولاني، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد اللَّه بن عمرو، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إن اللَّه كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة - زاد ابنُ وهب - وكان عرشه على الماء»**[1] ورواه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

وكلُّ هذه الأحاديث، وما في معناها: فيها الوعيد الشديد على عدم الإيمان بالقدر، وهي الحجة على نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم، ومن مذهبهم: تخليد أهل المعاصي في النار. وهذا الذي اعتقدوه من أكبر الكبائر، وأعظم المعاصي.

وفي الحقيقة: إذا اعتبرنا إقامة الحجة عليهم بما تواترت به نصوص الكتاب والسنة من إثبات القدر، فقد حكموا على أنفسهم بالخلود في النار إن لم يتوبوا. وهذا لازم لهم على مذهبهم هذا، وقد خالفوا ما تواترت به أدلة الكتاب والسنة من إثبات القدر، وعدم تخليد أهل الكبائر من الموحِّدين في النار[2].

قوله: «حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك»: قد سبق الكلام على هذه الجملة.

قوله: «ولو مت على غير هذا؛ لكنت من أهل النار»: «مُتّ» بالضم؛ لأنها من مات يموت، وفيه لغة أخرى بالكسر «مِت»؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٨] في إحدى القرائتين، وهي على هذه القراءة من مات يميت بالياء.

قوله: «على غير هذا؛ لكنت من أهل النار»: جزم أبي بن كعب رضي الله عنه بأنه إذا مات على غير هذا كان من أهل النار؛ لأن من أنكر القدر فهو كافر، والكافر يكون من أهل النار الذين هم أهلها المخلدون فيها.

وهل هذا الدواء يفيد؟

الجواب: نعم يفيد، وكل مؤمن بالله إذا علم أن منتهى من لم يؤمن بالقدر هو هذا؛ فلابد أن يرتدع، ولابد أن يؤمن بالقدر على ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وقوله: «فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت؛ فكلهم حدثني بمثل ذلك»: المشار إليه الإيمان بالقدر، وأن يعلم الإنسان أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وهؤلاء العلماء الأجلاء كلهم من أهل القرآن.

فأبي بن كعب من أهل القرآن ومن كَتَبَة القرآن، حتى إن الرسول ﷺ دعاه ذات يوم وقرأ عليه سورة: ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ «البينة»، وقال: **«إن الله أمرني أن أقرأها عليك»**، فقال: يا رسول الله! سماني

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٥٣).

(٢) في قرة العيون: وهذا الذي اعتقدوه من أكبر الكبائر وأعظم البدع، وكثير منهم وافقوا الجهمية في نفي صفات الرب تعالى وتقدس. (ق).

فيه مسائل:

الأولى: بيان فرض الإيمان بالقدر. الثانية: بيان كيفية الإيمان به.

....

الله لك. قال: «نعم». فبكى رضي الله عنه بكاء فرح أن الله ـ عز وجل ـ سماه باسمه لنبيه، وأمر نبيه أن يقرأ عليه هذه السورة[١].

وأما عبد الله بن مسعود؛ فقد قال النبي ﷺ: **«من سره أن يقرأ القرآن غضًا كما أنزل؛ فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»**[٢].

وأما زيد بن ثابت؛ فهو أحد كُتاب القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه[٣].

وحذيفة بن اليمان صاحب السر الذي أسرَّ إليه النبي ﷺ بأسماء المنافقين[٤].

والحاصل أن هذا الباب، يدل على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر بمراتبه الأربع.

مسألة: الإيمان بالقدر هل هو متعلق بتوحيد الربوبية، أو بالألوهية، أو بالأسماء والصفات؟

الجواب: تعلقه بالربوبية أكثر من تعلقه بالألوهية والأسماء والصفات، ثم تعلقه بالأسماء والصفات أكثر من تعلقه بالألوهية، وتعلقه بالألوهية أيضًا ظاهر؛ لأن الألوهية بالنسبة لله يسمى توحيد الألوهية، وبالنسبة للعبد يسمى توحيد العبادة، والعبادة فعل العبد؛ فلها تعلق بالقدر، فالإيمان بالقدر له مساس بأقسام التوحيد الثلاثة.

مسألة: هل اختلف الناس في القدر؟

الجواب: نعم، اختلفوا فيه على ثلاث فرق، وقد سبق.

فيه مسائل:

الأول: بيان فرض الإيمان بالقدر: دليله قوله: **«الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»**.

الثانية: بيان كيفية الإيمان: أي: بالقدر، وهو أن تؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

ولم يتكلم المؤلف عن مراتب القدر؛ لأنه لم يذكرها، ونحن ذكرناها وأنها أربع مراتب جُمعت اختصاراً في بيت واحد، وهو قوله:

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٨٠٩، ٤٩٥٩)، ومسلم (٧٩٩)، والترمذي (٣٧٩٢)، وأحمد (١١٩١١) ومواضع.

(٢) حسن: رواه ابن ماجه (١٣٨)، وأحمد (٣٦، ١٧٦)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٢٣٠١).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٤٩٨٦) وهو حديث جمع القرآن وفيه أن أبا بكر ﷺ أرسل لزيد بن ثابت في حضور عمر بن الخطاب وأمره أن يجمع القرآن.

(٤) صحيح: رواه البخاري (٦٢٧٨) وفيه أن أبا الدرداء سأل علقمة ممن أنت قال: من أهل الكوفة قال: أليس فيكم صاحب السر الذي كان لا يعلمه غيره يعني حذيفة.

الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به.

الرابعة: الإخبار بأنَّ أحداً لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به.

الخامسة: ذكر أول ما خلق الله.

السادسة: أنَّه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى قيام الساعة.

علمٌ كتابةُ مولانا مشيئتُهُ وخلقُهُ وهوَ إيجادٌ وتكْوين

والإيمان بهذه المراتب داخل في كيفية الإيمان بالقدر.

الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به: تؤخذ من قول ابن عمر: «**لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبًا ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر**».

ويتفرع منه ما ذكرناه سابقًا بأنه يدل على أن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر؛ لأن الكافر هو الذي لا يقبل منه العمل.

الرابعة: الإخبار أن أحدًا لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به: أي: بالقدر، وهو كذلك؛ لقول عبادة بن الصامت لابنه: يا بني! إنك لن تجد طعم الإيمان... إلخ.

وقد سبق أن الإيمان بالقدر يوجب طمأنينة الإنسان بما قضاه الله -عز وجل- ويستريح؛ لأنه علم أن هذا أمر لابد أن يقع على حسب المقدور، لا يتخلف أبدًا، «**ولا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا؛ لأن لو تفتح عمل الشيطان**»[1]، ولا ترفع شيئًا وقع مهما قلت.

الخامسة: ذكر أول ما خلق الله: ظاهر كلام المؤلف: الميل إلى أن القلم أول مخلوقات الله، ولكن الصحيح خلافه، وأن القلم ليس أول مخلوقات الله؛ لأنه ثبت في «صحيح البخاري»: «**كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر مقادير كل شيء**»[2]. وهذا واضح في الترتيب. ولهذا كان الصواب بلا شك أن خلق القلم بعد خلق العرش، وسبق لنا تخريج الروايتين، وأنه على الرواية التي ظاهرها أن القلم أول ما خلق تحمل على أنه أول ما خلق بالنسبة لما يتعلق بهذا العالم المشاهد؛ فهو قبل خلق السماوات والأرض، فتكون أوّليّته نسبية.

السادسة: أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى يوم قيام الساعة: لقوله في الحديث: «**فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة**».

وفيه أيضًا من الفوائد: توجيه خطاب الله إلى الجماد، وأنه يعقل أمر الله؛ لأن الله وَجَّه الخطاب إلى القلم ففهم واستجاب، لكنه سأل في الأول وقال: «**ماذا أكتب؟**».

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٤)، وابن ماجه (٧٩، ٤١٦٨)، وأحمد (٨٥٧٣).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٣١٩٢، ٧٤١٨).

السابعة: بَرَاءته ﷺ ممن لَمْ يؤمن به.

الثامنة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء.

التاسعة: أنَّ العلماء أجابوه بِمَا يزيل الشبهة، وذلك أنَّهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط.

. . . .

السابعة: براءته ﷺ ممن لم يؤمن به: لقوله: «**من مات على غير هذا؛ فليس مني**» وهذه البراءة مطلقة؛ لأن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر كفرًا مخرجًا عن الملة.

الثامنة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء: لأن ابن الديلمي يقول: «**فأتيت عبد الله ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت**» بعد أن أتى أبي بن كعب؛ فدل هذا على أن من عادة السلف السؤال عما يشتبه عليهم. وفيه أيضًا مسألة ثانية:

وهي جواز سؤال أكثر من عالم للتثبت؛ لأن ابن الديلمي سأل عدة علماء، أما سؤال أكثر من عالم لتتبع الرخص؛ فهذا لا يجوز كما نص على ذلك أهل العلم، وهذا من شأن اليهود؛ فاليهود لما كان في التوراة أن الزاني يرجم إذا كان محصنًا، وكثر الزنا في أشرافهم؛ غيّروا هذا الحد، ولما قدم النبي ﷺ المدينة، وزنا منهم رجل بامرأة قالوا: اذهبوا إلى هذا الرجل لعلكم تجدون عنده شيئًا آخر؛ لأجل أن يتتبعوا الرخص.

التاسعة: أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط: لقول ابن الديلمي: «**كلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ**».

وهذا مزيل للشبهة، فإذا نسب الأمر إلى الله ورسوله؛ زالت الشبهة تمامًا، لكن تزول عن المؤمن، أما غير المؤمن؛ فلا تنفعه؛ فالله -عز وجل- يقول: ﴿**وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ**﴾ [يونس: ١٠١]. وقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ**﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. لكن المؤمن هو الذي تزول شبهته بما جاء عن الله ورسوله؛ كما قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾ [الأحزاب: ٣٦]. ولهذا لما قالت عائشة للمرأة: «**كان يصيبنا ذلك - تعني الحيض - فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نؤمر بقضاء الصلاة**». لم تذهب تعلل، ولكن لا حرج على الإنسان أن يذكر الحكم بعلته لمن لم يؤمن لعله يؤمن، ولهذا يذكر الله -عز وجل- إحياء الموتى ويذكر الأدلة العقلية والحسية على ذلك. فقال في أدلة العقل: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**﴾ [الروم: ٢٧]. فهذه دلالة عقلية؛ فالعقل يؤمن إيمانًا كاملاً بأن من قدر على الابتداء فهو قادر على الإعادة من باب أولى. وذكر أدلة حسية، منها قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ**﴾ [فصلت: ٣٩]. فإذًا لا مانع أن تأتي بالأدلة العقلية أو الحسية من أجل أن تقنع الخصم وتطمئن الموافق.

وفيه دليل رابع: وهو دليل الفطرة؛ فلا مانع أيضًا أن تأتي به للاستدلال على ما تقول من الحق لتلزم

٦٠ـ باب
ما جاء في المصوِّرين

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: ومَن أظلم ممن ذهب يخلقُ كخلقي، فليخلقوا ذرَّة أو ليخلقوا حبةً، أو ليخلقوا شعيرة»[1]. أخرجاه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب ما جاء في المصوِّرين.

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: ومَن أظلم ممن ذهب يخلقُ كخلقي، فليخلقوا ذرَّة أو ليخلقوا حبةً، أو ليخلقوا شعيرة». أخرجاه.

الخصم به وتطمئن الموافق. وما زال العلماء يسلكون هذا المسلك، وقد مر علينا قصة أبي المعالي الجويني مع الهمداني، حيث إن أبا المعالي الجويني ـ غفر الله لنا وله ـ كان يقرر نفي استواء الله على عرشه.

فقال له الهمداني: «دعنا من ذكر العرش؛ فما تقول في هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا: ما قال عارف قط: يا الله! إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو». فصرخ أبو المعالي ولطم على رأسه، وقال: حيرني الهمداني، حيرني الهمداني[2].

فإذًا الأدلة سمعية وعقلية وفطرية وحسية.

وأشدها إقناعًا للمؤمن هو الدليل السمعي؛ لأنه يقف عنده ويعلم أن كل ما خالف دلالة السمع فهو باطل، وإن ظنه صاحبه حقًا.

قوله: «باب ما جاء في المصورين»: يعني: من الوعيد الشديد.

ومناسبة هذا الباب للتوحيد: أن في التصوير خلقًا وإبداعًا يكون به المصور مشاركًا لله في ذلك الخلق والإبداع.

قوله في الحديث: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**»: ينتهي سند هذا الحديث إلى الله ـ عز وجل ـ ويسمى حديثًا قدسيًا، وسبق الكلام عليه في باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب.

قوله: «**ومن أظلم**»: «**من**»: اسم استفهام والمراد به النفي؛ أي: لا أحد أظلم، وإذا جاء النفي بصيغة الاستفهام كان أبلغ من النفي المحض؛ لأنه يكون مشربًا معنى التحدي والتعجيز.

فإن قيل: كيف يجمع بين هذا الحديث وبين قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ١١٤]، وقوله: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**﴾ [الأنعام: ٢١]، وغير ذلك من النصوص؟

فالجواب من وجهين:

الأول: أن المعنى أنها مشتركة في الأظلمية، أي أنها في مستوى واحد في كونها في قمة الظلم.

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٥٩٥٣، ٧٥٥٩)، ومسلم (٢١١١).

(٢) ذكره الحافظ الذهبي في السير (١٨/ ٤٧٥).

. . . .

. . . .

الثانية: أن الأظلمية نسبية، أي أنه لا أحد أظلم من هذا في نوع هذا العمل لا في كل شيء، فيقال مثلاً: من أظلم في مشابهة أحد في صنعه ممن ذهب يخلق كخلق الله، ومن أظلم في منع حق ممن منع مساجد الله، ومن أظلم في افتراء الكذب ممن افترىٰ علىٰ الله كذبًا.

قوله: «يخلق»: حال من فاعل ذهب؛ أي: ممن ذهب خالقًا.

والخلق في اللغة: التقدير، قال الشاعر:

ولأنتَ تَفري ما خَلَقتَ وبعضُ الناس يَخلُق ثُم لا يَفري

تفري؛ أي: تفعل، ما خلقت؛ أي: ما قدرت.

ويطلق الخلق علىٰ الفعل بعد التقدير، وهذا هو الغالب، والخلق بالنسبة للإنسان يكون بعد تأمل ونظر وتقدير، وأما بالنسبة للخالق؛ فإنه لا يحتاج إلىٰ تأمل ونظر لكمال علمه، فالخلق بالنسبة للمصور يكون بمعنىٰ الصنع بعد النظر والتأمل.

قوله: «يخلق كخلقي»: فيه جواز إطلاق الخلق علىٰ غير الله، وقد سبق الكلام علىٰ هذا والجواب عنه في أول الكتاب.

قوله: «فليخلقوا ذرة»: اللام للأمر، والمراد به التحدي والتعجيز، وهذا من باب التحدي في الأمور الكونية، وقوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ [الطور: ٣٤] من باب التحدي في الأمور الشرعية.

والذَّرة: واحدة الذر، وهي النمل الصغار.

وأما من قال: بأن الذرة هي ما تتكون منها القنبلة الذرية فقد أخطأ؛ لأن النبي ﷺ يخاطب الصحابة بلغة العرب وهم لا يعرفون القنبلة الذرية، وذكر الله الذرة لأن فيها روحًا، وهي من أصغر الحيوانات.

قوله: «أو ليخلقوا حبة»: «أو» للتنويع؛ أي: انتقل من التحدي بخلق الحيوان ذي الروح إلىٰ خلق الحبة التي هي أصل الزرع من الشعير وغيره وليس لها روح.

قوله: «أو ليخلقوا شعيرة»: يحتمل أن المراد شجرة الشعير، فيكون في الأول ذكر التحدي بأصل الزرع وهي الحبة، ويحتمل أن المراد الحبة من الشعير ويكون هذا من باب ذكر الخاص بعد العام؛ لأن حبة الشعير أخص من الحب.

أو تكون «أو» شكًا من الراوي.

فالله تحدَّىٰ الخلق إلىٰ يوم القيامة أن يخلقوا ذرة أو يخلقوا حبة أو شعيرة.

فإن قيل: يوجد رز أمريكي مصنوع.

أجيب: إن هذا المصنوع لا ينبت كالطبيعي، ولعل هذا هو السر في قوله: **«أو ليخلقوا حبة»**، ثم قال: **«أو ليخلقوا شعيرة»**؛ لأن الحبة إذا غرست في الأرض فلقها الله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ

. . . .

. . . .

الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾؛ أي: اجتمعوا الخلقه متعاونين عليه وقد هيؤوا كل ما عندهم، ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

قال العلماء: لو أن الذباب وقع علىٰ هذه الأصنام فامتص شيئًا من طيبها ما استطاعوا أن يستنقذوه منه، فيكون الذباب غالبًا لها، ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ﴾ أي: العابد والمعبود، ﴿وَالْمَطْلُوبُ﴾؛ أي: الذباب.

ويستفاد من هذا الحديث، وهو ما ساقه المؤلف من أجله: تحريم التصوير؛ لأن المصور ذهب يخلق كخلق الله ليكون مضاهيًا لله في صنعه، والتصوير له أحوال:

الحال الأولىٰ:

أن يصور الإنسان ما له ظل كما يقولون؛ أي: ما له جسم علىٰ هيكل إنسان أو بعير أو أسد أو ما أشبهها؛ فهذا أجمع العلماء فيما أعلم علىٰ تحريمه، فإن قلت: إذا صور الإنسان لا مضاهاة لخلق الله، ولكن صورَّ عبثًا؛ يعني: صنع من الطين أو من الخشب أو من الأحجار شيئًا علىٰ صورة حيوان وليس قصده أن يضاهي خلق الله، بل قصده العبث أو وضعه لصبي ليُهَدِّئه به؛ فهل يدخل في الحديث؟

فالجواب: نعم، يدخل في الحديث؛ لأنه خلق كخلق الله، ولأن المضاهاة لا يشترط فيها القصد، وهذا هو سر المسألة، فمتىٰ حصلت المضاهاة ثبت حكمها، ولهذا لو أن إنسانًا لبس لبسًا يختص بالكفار ثم قال: أنا لا أقصد التشبه بهم؛ نقول: التشبه منك بهم حاصل أردته أم لم ترده، وكذلك لو أن أحدًا تَشَبَّه بامرأة في لباسها أو في شعرها أو ما أشبه ذلك وقال: ما أردت التشبه؛ قلنا له: قد حصل التشبه، سواء أردته أم لم ترده.

الحال الثانية:

يصور صورة ليس لها جسم بل بالتلوين والتخطيط؛ فهذا مُحرَّم لعموم الحديث، ويدل عليه حديث النُّمْرُقة حيث أقبل النبي إلىٰ بيته، فلما أراد أن يدخل رأىٰ نمرقة فيها تصاوير، فوقف وتأثر، وعرفت الكراهة في وجهه، فقالت عائشة رضي الله عنها: ما أذنبت يا رسول الله؟ فقال: «**إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم**»[1]؛ فالصور بالتلوين كالصور بالتجسيم، وقوله في «صحيح البخاري»: «**إلا رقمًا في ثوب**»[2]؛ إن صحت الرواية هذه؛ فالمراد بالاستثناء ما يحل تصويره من الأشجار ونحوها.

الحال الثالثة:

أن تلتقط الصور التقاطًا بأشعة معينة بدون أي تعديل أو تحسين من الملتقط؛ فهذا محل خلاف بين

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢١٠٥) ومواضع، ومسلم (٢١٠٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٥٨)، ومسلم (٢١٠٦).

. . . .

. . . .

العلماء المعاصرين:

فالقول الأول: أنه تصوير، وإذا كان كذلك؛ فإن حركة هذا الفاعل للآلة يعد تصويرًا؛ إذ لولا تحريكه إياها ما انطبعت هذه الصورة على هذه الورقة، ونحن متفقون على أن هذه صورة؛ فحركته تعتبر تصويرًا، فيكون داخلاً في العموم.

القول الثاني: أنها ليست بتصوير؛ لأن التصوير فعل المُصَوِّر، وهذا الرجل ما صورها في الحقيقة وإنما التقطها بالآلة، والتصوير من صنع الله. ويوضح ذلك لو أدخلت كتابًا في آلة التصوير، ثم خرج من هذه الآلة؛ فإن رسم الحروف من الكاتب الأول لا من المحرك، بدليل أنه قد يشغلها شخص أمي لا يعرف الكتابة إطلاقًا أو أعمى في ظلمة، وهذا القول أقرب؛ لأن المصور بهذه الطريقة لا يعتبر مُبدعًا ولا مُخَطِّطًا، و لكن يبقى النظر: هل يحل هذا الفعل أو لا؟

والجواب: إذا كان لغرض محرم صار حرامًا، وإذا كان لغرض مباح صار مباحًا؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد، وعلى هذا؛ فلو أن شخصًا صور إنسانًا لما يسمونه بالذكرى، سواء كانت هذه الذكرى للتمتع بالنظر إليه أو التلذذ به أو من أجل الحنان والشوق إليه؛ فإن ذلك محرم ولا يجوز لما فيه من اقتناء الصور؛ لأنه لا شك أن هذه صورة ولا أحد ينكر ذلك. وإذا كان لغرض مباح كما يوجد في التابعية والرخصة والجواز وما أشبهه؛ فهذا يكون مباحًا، فإذا ذهب الإنسان الذي يحتاج إلى رخصة إلى هذا المصور الذي تخرج منه الصورة الفورية بدون عمل لا تحميض ولا غيره، وقال: صورني، فصوره؛ فإن هذا المصور لانقول: إنه داخل في الحديث؛ أي: حديث الوعيد على التصوير، أما إذا قال: صورني لغرض آخر غير مباح؛ صار من باب الإعانة على الإثم والعدوان.

الحال الرابعة:

أن يكون التصوير لما لا روح فيه، وهذا على نوعين:

النوع الأول: أن يكون مما يصنعه الآدمي؛ فهذا لا بأس به بالاتفاق؛ لأنه إذا جاز الأصل جازت الصورة؛ مثل أن يصور الإنسان سيارته؛ فهذا يجوز؛ لأن صنع الأصل جائز، فالصورة التي هي فرع من باب أولى.

النوع الثاني: ما لا يصنعه الآدمي وإنما يخلقه الله؛ فهذا نوعان: نوع نامي، ونوع غير نامي، فغير النامي كالجبال، والأودية، والبحار، والأنهار؛ فهذه لا بأس بتصويرها بالاتفاق، أما النوع الذي ينمو؛ فاختلف في ذلك أهل العلم، فجمهور أهل العلم على جواز تصويره لما سيأتي في الأحاديث.

وذهب بعض أهل العلم من السلف والخلف إلى منع تصويره، واستدل بأن هذا من خلق الله ـ عز وجل ـ والحديث عام: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**»؛ ولأن الله ـ عز وجل ـ تحدى هؤلاء بأن يخلقوا حبة أو يخلقوا شعيرة، والحبة أو الشعيرة ليس فيها روح، لكن لا شك أنها نامية، وعلى هذا؛ فيكون تصويرها حرامًا، وقد ذهب إلى هذا مجاهد رحمه الله ـ أعلم

ولهما، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله»[1].

ولهما، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله».

التابعين بالتفسير - وقال: إنه يحرم على الإنسان أن يصور الأشجار، لكن جمهور أهل العلم على الجواز، وهذا الحديث هل يؤيد رأي الجمهور أو يؤيد رأي مجاهد ومن قال بقوله؟

الجواب: يؤيد رأي مجاهد ومن قال بقوله أمران:

أولاً: العموم في قوله: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي».

ثانيًا: قوله: «أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة»، وهذه ليست ذات روح، فظاهر الحديث هذا مع مجاهد ومن يرى رأيه، ولكن الجمهور أجابوا عنه بالأحاديث التالية، وهي أن قوله: «أحيوا ما خلقتم»[2]، وقوله: «كلف أن ينفخ فيها الروح»[3] يدل على أن المراد تصوير ما فيه روح، وأما قوله: «أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة»؛ فذكر على سبيل التحدي؛ أي: أن أولئك المصورين عاجزون حتى عن خلق ما لا روح فيه.

قوله: «أشد»: كلمة أشد اسم تفضيل بمعنى أعظم وأقوى.

قوله: «الناس»: للعموم، والمراد الذين يعذبون.

وقوله: «عذابًا»: تمييز مُبيِّن للمراد بالأشد؛ لأن التمييز كماقال ابن مالك:

اسمٌ بمعنى من مُبينٌ نكرة ... يُنصَبُ تمييزًا بما قد فسَّره

والعذاب يطلق على العقاب ويطلق على ما يؤلم ويؤذي وإن لم يكن عقابًا؛ فمن الأول قوله تعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]؛ أي: العقوبة والنكال؛ لأنه يدخل النار والعياذ بالله؛ كما قال الله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، ومن الثاني قول النبي ﷺ: «السفر قطعة من العذاب»[4]، وقوله: «الميت يعذب بالنياحة عليه»[5].

قوله: «يوم القيامة»: هو اليوم الذي يبعث فيه الناس، وسبق وجه تسميته بذلك.

وقوله: «أشد»: مبتدأ، و«الذين يضاهئون» خبره، ومعنى يضاهئون؛ أي: يشابهون.

«بخلق الله»؛ أي: بمخلوقات الله - سبحانه وتعالى -. والذين يضاهئون بخلق الله هم المصورون؛ فهم يضاهئون بخلق الله سواء كانت هذه المضاهاة جسمية أو وصفية؛ فالجسمية أن يصنع صورة بجسمها، والوصفية أن يصنع صورة ملونة؛ لأن التلوين والتخطيط باليد وصف للخلق، وإن كان الإنسان ما خلق الورقة ولا صنعها لكن وضع فيها هذا التلوين الذي يكون وصفًا لخلق الله - عز وجل -. هذا الحديث يدل على أن المصورين يعذبون، وأنهم أشد الناس عذابًا، وأن الحكمة من ذلك مضاهاتهم خلق الله - عز وجل - وليس الحكمة كما يدعيه كثير من الناس أنهم يصنعونها لتُعبد من دون الله؛ فذلك شيء آخر، فمن صنع

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٩٥٠، ٥٩٥٤، ٦١٠٩)، ومسلم (٢١٠٧، ٢١٠٩).

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٢٢٥، ٧٠٤٢)، ومسلم (٢١١٠).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٨٠٤، ٣٠٠١، ٥٧٢٩)، ومسلم (١٩٢٧).

(٥) صحيح: وقد تقدم.

ولهمـا، عن ابن عبـاس: سمعـت رسول اللّه ﷺ يقول: «كل مـصورٍ في النار، يُجـعل له بكل صـورة صـوَّرهـا نفس يعـذب بهـا فـي جـهنم»[1].

ولهما، عن ابن عباس: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «كل مصورٍ في النار، يُجعل له بكل صورة صوَّرها نفس يعذب بها في جهنم».

باب ما جاء في المصورين

وهذا من فروع الباب السابق أنه لا يحل أن يجعل لله نداً في النيات والأقوال والأفعال. والند هو المشابه ولو بوجه بعيد، فاتخاذ الصور الحيوانية تشبه بخلق الله، وكذب على الخلقة الإلهية، وتمويه وتزوير، فلذلك زجر الشارع عنه.

شيئًا ليعبد من دون الله؛ فإنه حتى ولو لم يصور كما لو أتى بخشبة وقال: اعبدوها؛ فقد دخل في التحريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]؛ لأنه أعان على الإثم والعدوان.

وقوله: «يضاهئون»: هل الفعل يشعر بالنية بمعنى أنه لابد أن يقصد المضاهاة، أو نقول: المضاهاة حاصلة سواء كانت بنية أو بغير نية؟

الجواب: الثاني؛ لأن المضاهاة حصلت سواء نوى أم لم ينو؛ لأن العلة هي المُشَابَهَة، وليست العلة قصد المشابهة، فلو جاء رجل وقال: أنا لا أريد أن أضاهي خلق الله، أنا أصور هذا للذكرى مثلاً وما أشبه ذلك؛ نقول: هذا حرام؛ لأنه متى حصلت المشابهة ثبت الحكم؛ لأن الحكم يدور مع علته كما قلنا فيمن لبس لباسًا خاصًا بالكفار: إنه يحرم عليه هذا اللباس، ولو قال: إنه لم يقصد المشابهة؛ نقول: لكن حصل التشبه؛ فالحكم المقرون بعلة لا يشترط فيه القصد، فمتى وجدت العلة ثبت الحكم.

فيستفاد من الحديث:

١ ـ تحريم التصوير، وأنه من الكبائر؛ لثبوت الوعيد عليه، وأن الحكمة من تحريمه المضاهاة بخلق الله ـ عز وجل ـ.

٢ ـ وجوب احترام جانب الربوبية، وأن لا يطمع أحد في أن يخلق كخلق الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: **«يضاهئون بخلق الله»**، ومن أجل هذا حرم الكبر؛ لأن فيه منازعة للرب ـ عز وجل ـ، وحرم التعاظم على الخلق؛ لأنه فيه منازعة للرب ـ سبحانه وتعالى ـ، وكذلك هذا الذي يضع ما يصنع فيضاهي خلق الله فيه منازعة لله ـ عز وجل ـ في ربوبيته في أفعاله ومخلوقاته ومصنوعاته؛ فيستفاد من هذا الحديث وجوب احترام جانب الربوبية.

قوله: «أشد الناس عذابًا»: فيه إشكال؛ لأن فيهم من هو أشد من المصورين ذنبًا؛ كالمشركين والكفار، فيلزم أن يكونوا أشد عذابًا، وقد أجيب عن ذلك بوجوه:

الأول: أن الحديث على تقدير «من»؛ أي: من أشد الناس عذابًا بدليل أنه قد جاء ما يؤيده بلفظ: **«إن من أشد الناس عذابًا»**.

الثاني: أن الأشدِّية لا تعني أن غيرهم لا يشاركهم، بل يشاركهم غيرهم، قال تعالى: ﴿أَدْخِلُوا

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١١٠).

ولهما، عنه مرفوعًا: «من صوَّر صورةً في الدنيا كُلِّف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ»(١).

ولهما، عنه مرفوعًا: «من صوَّر صورةً في الدنيا كُلِّف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ».

قوله: (باب ما جاء في المصوِّرين): أي: من عظيم عقوبة اللَّه لهم، وعذابه. وقد ذكر النبي ﷺ العلة: وهي المضاهاة بخلق اللَّه؛ لأن اللَّه تعالىٰ له الخلق و الأمر. فهو رب كل شيء ومليكه، وهو خالق كل شيء، وهو الذي صور جميع المخلوقات، وجعل فيها الأرواح التي تحصل بها الحياة، كما قال تعالىٰ: ﴿**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ**﴾ [السجدة: ٧-٩].

آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]؛ ولكن يشكل علىٰ هذا أن المصور فاعل كبيرة فقط؛ فكيف يُسوَّىٰ مع من هو خارج عن الإسلام ومستكبر؟!

الثالث: أن الأشدِّية نسبية، يعني أن الذين يصنعون الأشياء ويبدعونها أشدهم عذابًا الذين يضاهئون بخلق الله، وهذا أقرب.

الرابع: أن هذا من باب الوعيد الذي يطلق لتنفير النفوس عنه، ولم أر من قال بهذا، ولو قيل بهذا؛ لسلمنا من هذه الإيرادات، وعلىٰ كل حال ليس لنا أن نقول إلا كما قال النبي ﷺ: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله**»(٢).

قوله: «ولهما»: أي: للبخاري ومسلم.

قوله: «كل مصور في النار»: «**كل**»: من أعظم ألفاظ العموم، وأصلها من الإكليل، وهو ما يحيط بالشيء، ومنه الكلالة في الميراث للحواشي التي تحيط بالإنسان.

فيشمل من صوَّر الإنسان أو الحيوان أو الأشجار أو البحار، لكن قوله: «**يجعل له بكل صورة صورها نفسًا**» يدل علىٰ أن المراد صورة ذوات النفوس؛ أي: ما فيه روح.

قوله: «يُجعل له بكل صورة صورها نفس»: الحديث في «مسلم» وليس في «الصحيحين»، لكنه بلفظ «**يجعل**» بالبناء للفاعل، وعلىٰ هذا تكون «**نفسًا**» بالنصب، وتمامه: فتعذبه في جهنم.

قوله: «يعذب بها»: كيفية التعذيب ستأتي في الحديث الذي بعده أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ.

وقوله: «كل مصور في النار»: أي: كائن في النار.

وهذه الكينونة عند المعتزلة والخوارج كينونة خلود؛ لأن فاعل الكبيرة عندهم مخلد في النار، وعند المرجئة أن المراد بالمصور الكافر؛ لأن المؤمن عندهم لا يدخل النار أبدًا، وعند أهل السنة والجماعة أنه مستحق لدخول النار يدخلها وقد لا يدخلها، وإن دخلها لم يخلد فيها.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٢٢٥، ٥٩٦٣، ٧٠٤٢)، ومسلم (٢١١٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٥٤)، ومسلم (٢١٠٧).

ولمسلم، عن أبي الهيَّاج، قال: قال لي علي: ألا أبعثُك على ما بعثني عليه رسول اللَّه ﷺ؟ أن لا تَدَع صورةً إلا طمستها، ولا قبراً مُشرِفًا إلا سوَّيته»[1][2].

فالمصوِّرُ لمَّا صور الصورة على شكل ما خلقه اللَّه تعالى من إنسان أو بهيمة، صار مضاهيًا لخلق اللَّه. فصار ما صوَّره عذابًا له يوم القيامة، وكُلِّف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ. فكان أشد الناس عذابًا؛ لأن ذنبه من أكبر الذنوب. فإذا كان هذا فيمن صوَّر صورة على مثال ما خلقه اللَّه تعالى من الحيوان، فكيف بحال من سوَّى المخلوق برب العالمين وشبهه بخلقه، وصرف له شيئًا من العبادة التي خلق اللَّه الخلق ليعبدوه وحده بما لا يستحقه غيره، من كل عمل يُحبه اللَّه من العبد ويرضاه؟

فتسوية المخلوق بالخالق، بصرف حقه لمن لا يستحقه من خلقه، وجعله شريكًا له فيما اختص به تعالى وتقدس: هو أعظم ذنب عُصي اللَّه تعالى به؛ ولهذا أرسل رسله، وأنزل كتبه؛ لبيان هذا الشرك والنهي عنه، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها للَّه تعالى. فنجَّى تعالى رسله ومن أطاعهم، وأهلك من جحد التوحيد، واستمر على الشرك والتنديد. فما أعظمه من ذنب: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

قال المصنف رحمه الله تعالى: ولمسلم، عن أبي الهيَّاج، قال: قال لي علي: ألا أبعثُك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تَدَع صورةً إلا طمستها، ولا قبراً مُشرِفًا إلا سوَّيته».

وقوله: «بكل صورة صورها»: يقتضي أنه لو صور في اليوم عشر صور ولو من نسخة واحدة؛ فإنه يجعل له في النار عشر صور يقال له: انفخ فيها الروح، وظاهر الحديث أنه يبقى في النار مُعذَّبًا حتى تنتهي هذه الصور.

قوله: «كلف»: أي: ألزم، والمكلِّف له هو الله ـ عز و جل ـ.

قوله: «وليس بنافخ»: أي: كُلِّف بأمر لا يتمكن منه زيادة في تعذيبه، وعُذب بهذا العذاب ليذوق جزاء ما عمل، وبهذا تزداد حسرته وأسفه، حيث إنه عذب بما كان في الدنيا يراه راحة له؛ إما باكتساب، أو إرضاء صاحب، أو إبداع صنعة.

قوله: «عن أبي الهياج»: هو من التابعين.

قوله: «قال لي علي»: هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قوله: «ألا أبعثك»: البعث: الإرسال بأمر مهم؛ كالدعوة إلى الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً﴾ [النحل: ٣٦].

قوله: «على ما بعثني»: يحتمل أن تكون «على» على ظاهرها للاستعلاء؛ لأن المبعوث يمشي على

---

(١) في قرة العيون: فهذا ما صح عن النبي ﷺ من إنكار هذه الأمور وإزالتها: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩]، فأكثروا التصوير واستعملوه وأكثروا البناء على القبور وزخرفوها وجعلوها أوثانًا وزعموه دينًا وهو أعظم المنكرات وأكبر السيئات، تعظيمًا للأموات وغلوًا، وعبادة لغير الله بأنواع العبادة التي هي حق الله على عباده. (ق).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٦٩).

قوله: (ولمسلم، عن أبي الهياج). الأسدي، حيان بن حصين.

(قال: قال لي علي). هو أمير المؤمنين، علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قوله: (ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟) أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبرًا مُشرِفًا إلا سويته. فيه: التصريح بأن النبي ﷺ بعث عليًا لذلك. أما الصور: فلمضاهاتها لخلق الله. وأما تسوية القبور: فلما في تعليتها من الفتنة بأربابها وتعظيمها، وهو من ذرائع الشرك ووسائله. فصرف الهمم إلى هذا وأمثاله، من مصالح الدين ومقاصده وواجباته. ولما وقع التساهل في هذه الأمور وقع المحذور، وعظمت الفتنة بأرباب القبور، وصارت محطًا لرحال العابدين المعظِّمين لها. فصرفوا لها جُلَّ العبادة: من الدعاء والاستعانة، والتضرع لها، والذبح لها، والنذور، وغير ذلك من كل شرك محرم محظور.

قال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ[1]: ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور، وما أمر به وما نهى عنه وما كان عليه أصحابه، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم. رأى أحدهما مضادًا للآخر، مناقضًا له، بحيث لا يجتمعان أبدًا.

فنهى رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يُصلُّون عندها وإليها.

ونهى عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد، ويسمُّونها مشاهد؛ مضاهاة لبيوت الله. ونهى عن إيقاد السُّرج عليها، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها.

ونهى أن تُتخذ عيدًا، وهؤلاء يتخذونها أعيادًا ومناسك، ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر. وأمر بتسويتها؛ كما روى مسلم في (صحيحه)، عن أبي الهياج الأسدي ـ فذكر حديث الباب ـ، وحديث ثُمامة بن شُفي، وهو عند مسلم أيضًا، قال: كنا مع فَضالة بن عُبيد بأرض الروم بُرودس، فتُوفي صاحب لنا. فأمر فضالة بقبره فسُوي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها.

ما بُعث عليه، كأنه طريق له، وهذا هو الأولى؛ لأن ما وافق ظاهر اللفظ من المعاني فهو أولى بالاعتبار، ويحتمل أن «على» بمعنى الباء؛ أي: بما بعثني عليه. وقد بعث النبي ﷺ عليًا إلى اليمن بعد قسمة غنائم حنين، وقدم على النبي ﷺ وهو في مكة في حجة الوداع.

قوله: «أن لا تدع»: «أن» مصدرية. «لا»: نافية، «تدع»: منصوب بأن المصدرية وهي بدل بعض من كل من «ما» في قوله: **«على ما بعثني»**؛ لأن النبي ﷺ بعث علي بن أبي طالب بأكثر من ذلك، لكن هذا مما بعثه النبي ﷺ.

قوله: «صورة»: نكرة في سياق النفي فتعم.

وجمهور أهل العلم: أن المحرم هو صور الحيوان فقط، لما ورد في «السنن» من حديث جبريل أن النبي ﷺ قال: **«فمر برأس التمثال يقطع، فيصير كهيئة الشجرة»**[2]، وسبق بيان ذلك قريبًا.

---

(١) في إغاثة اللهفان الجزء الأول. (ق).

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٤١٥٨)، والترمذي (٢٨٠٦)، وأحمد (٧٩٨٥)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٣٥٦).

. . . .

وهؤلاء يُبالغون في مخالفة هذين الحديثين، ويرفعونها من الأرض كالبيت، ويعقدون عليها القباب.

ونهىٰ عن تجصيص القبر والبناء عليه؛ كما روىٰ مسلم في (صحيحه)، عن جابر، قال: نهىٰ رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر، وأن يُقعد عليه، وأن يُبنىٰ عليه[١].

ونهىٰ عن الكتابة عليها؛ كما روىٰ أبو داود في (سننه)، عن جابر: أن رسول الله ﷺ نهىٰ عن تجصيص القبور، وأن يُكتب عليها[٢]. قال الترمذي: حديث حسن صحيح وهؤلاء يتخذون عليها الألواح، ويكتبون عليها القرآن وغيره!

ونهىٰ أن يُزاد عليها غير ترابها؛ كما روىٰ أبو داود، عن جابر أيضًا: نهىٰ أن يُجصص القبر، أو يُكتب عليه، أو يُزاد عليه[٣]. وهؤلاء يزيدون عليه الآجُر والأحجار والجَص[٤]. قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون الآجُر علىٰ قبورهم.

والمقصود: أن هؤلاء المعظمين للقبور المتخذينها أعيادًا، الموقدين عليه السُّرج، الذين يبنون عليها المساجد والقباب: مناقضون لما أمر به رسول الله ﷺ، محادُّون لما جاء به. وأعظمُ ذلك اتخاذُها مساجد، وإيقاد السرج عليها. وهو من الكبائر، وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم، بتحريمه.

قال أبو محمد المقدسي: ولو أُبيح اتخاذ السرج عليها لم يُلعن من فعله، ولأن فيه إفراطًا في تعظيم القبور، أشبه تعظيم الأصنام. قال: ولا يجوز اتخاذ المساجد علىٰ القبور؛ لهذا الخبر، ولأن رسول الله ﷺ قال: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، يحذِّر ما صنعوا[٥].

قوله: «إلا طمستها»: إن كانت ملونة فطمسها بوضع لون آخر يزيل معالمها، وإن كانت تمثالاً فإنه يقطع رأسه؛ كما في حديث جبريل السابق، وإن كانت محفورة فيحفر علىٰ وجهه حتىٰ لا تتبين معالمه؛ فالطمس يختلف، وظاهر الحديث سواء كانت تعبد من دون الله أو لا.

قوله: «ولا قبرًا مشرفًا»: أي: عاليًا.

قوله: «إلا سويته»: له معنيان.

الأول: أي سويته بما حوله من القبور. الثاني: جعلته حسنًا علىٰ ما تقتضيه الشريعة.

قال تعالىٰ: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى: ٢]؛ أي: سَوَّىٰ خلقه أحسن ما يكون، وهذا أحسن، والمعنيان متقاربان. والإشراف له وجوه:

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٧٠).

(٢) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في الإرواء (٧٥٧)، وتحذير الساجد (٤٠).

(٣) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (١٧٠٩).

(٤) اختصر المؤلف كلام ابن القيم وهو على ما يأتي: (ونهى عمر بن عبد العزيز أن يبنى القبر بآجر، وأوصى أن لا يفعل ذلك بقبره وأوصى الأسود بن يزيد أن لا تجعلوا على قبري آجرًا. وأوصى أبو هريرة رضي الله عنه حين حضرته الوفاة أن يضربوا على قبره فسطاطًا. وكره الإمام أحمد أن يضرب على القبر فسطاطًا). اهـ إغاثة اللهفان (ج ١ ص ١٠٣).(ق)

(٥) صحيح: وقد تقدم تخريجه.

. . . .

متفق عليه . ولأن تخصيص القبور يُشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها، والتقرب إليها . وقد رُوِّينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم، والتمسح بها، والصلاة عندها . انتهى .

وقد آلَ الأمر بهؤلاء الضُّلال المشركين إلىٰ أن شرعوا للقبور حجًا، ووضعوا لها مناسك، حتىٰ صنَّف بعض غلاتهم في ذلك كتابًا سماه : (مناسك حج المشاهد)، مضاهاة منه بالقبور للبيت الحرام .

ولا يخفىٰ أن هذا مفارقة لدين الإسلام، ودخول في دين عُبَّاد الأصنام . فانظروا إلىٰ هذا التباين العظيم : بين ما شرعه رسول اللّٰه ﷺ وقصده من النهي عما تقدم ذكره في القبور، وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه .

ولا ريب أن في ذلك من المفاسد ما يُعجَز عن حصره .

فمنها : تعظيمُها الموقع في الافتتان بها . ومنها : اتخاذها أعياداً . ومنها : السفر إليها .

ومنها : مُشابهة عِبادة الأصنام، بما يفعل عندها : من العُكوف عليها والمجاورة عندها وتعليق الستور عليها، وسدانتها . وعُبَّادها يرجِّحون المجاورة عندها علىٰ المجاورة عند المسجد الحرام، ويرون سدانتها أفضل من خدمة المساجد، والويل لقيِّمها ليلة يطفئ القنديل المعلَّق عليها!

ومنها : النذر لها، ولسدنتها .

الأول : أن يكون مشرفًا بكبر الأعلام التي توضع عليه، وتسمىٰ عند الناس (نصائل) أو (نصائب)، ونصائب أصح لغة من نصائل .

الثاني : أن يبني عليه، وهذا من كبائر الذنوب؛ لأن النبي ﷺ : **«لعن المتخذين عليها المساجد والسرج»**[1] .

الثالث : أن تُشرف بالتلوين، وذلك بأن يوضع علىٰ أعلامها ألوان مزخرفة .

الرابع : أن يرفع تراب القبر عما حوله فيكون بيِّنًا ظاهراً . فكل شيء مشرف؛ أي : ظاهر علىٰ غيره متميز عن غيره يجب أن يسوىٰ بغيره؛ لئلا يؤدي ذلك إلىٰ الغلو في القبور والشرك .

ومناسبة ذكر القبر المشرف مع الصور .

أن كلاً منهما قد يتخذ وسيلة إلىٰ الشرك، فإن أصل الشرك في قوم نوح أنهم صوروا صور رجال صالحين، فلما طال عليهم الأمد عبدوها، وكذلك القبور المشرفة قد يزداد فيها الغلو حتىٰ تجعل أوثانًا تعبد من دون الله، وهذا ما وقع في بعض البلاد الإسلامية .

وقد أطال الشارح رحمه الله في هذا الباب في البناء علىٰ القبور، وذلك لأن فتنتها في البلاد الإسلامية قديمة وباقية، ما عدا بلادنا ولله الحمد؛ فإنها سالمة من ذلك، نسأل الله أن يديم عليها وأن يحمي بلاد المسلمين من شرها .

---

(١) ضعيف : رواه أبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، والنسائي (٢٠٤٣)، وابن ماجه (١٥٧٥)، وأحمد (٢٠٣١) ومواضع، وضعفه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (٢٢٥) وقال : ضعيف بهذا السياق والتمام وقد جاء غالب هذا الحديث من طرق أخرى مشروحة في الكتاب ومعلق عليها منها **«لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا من قبور أنبيائهم مساجد»** زاد أحمد في روايته يحرم ذلك على أمته متواتر عنه ﷺ في الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة . اهـ .

. . . .

ومنها: اعتقاد المشركين بها أن بها يُكشف البلاء وينصر على الأعداء، ويستنزل غيث السماء، وتفرج الكروب، وتُقضى الحوائج، وينصر المظلوم، ويجار الخائف إلى غير ذلك.

ومنها: الدخول في لعنة الله ورسوله، باتخاذ المساجد عليها، وإيقاد السُّرج عليها.

ومنها: الشرك الأكبر، الذي يُفعل عندها.

ومنها: إيذاء أصحابها، بما يفعله المشركون بقبورهم. فإنهم يؤذيهم ما يُفعل عند قبورهم، ويكرهونه غاية الكراهية، كما أن المسيح عليه السلام يكره ما يفعل النصارى عند قبره.

وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء والمشايخ، يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم، ويوم القيامة يتبرءون منهم؛ كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ [الفرقان: ١٧، ١٨].

قال الله للمشركين: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾ [الفرقان: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ الآية [المائدة: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

ومنها[1]: إماتة السُّنن، وإحياء البدع.

ومنها[2]: تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله؛ فإن عباد القبور يقصدونها مع التعظيم والاحترام،

عقوبة المصور ما يلي:

١ ـ أنه أشد الناس عذابًا أو من أشدهم عذابًا.

٢ ـ أن الله يجعل له في كل صورة نفسًا يعذب بها في نار جهنم.

٣ ـ أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ.

٤ ـ أنه في النار.

٥ ـ أنه ملعون؛ كما في حديث أبي جُحيفة في «البخاري» وغيره.

فائدتان:

الأولى: «كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ» يقتضي أن المراد التصوير تصوير الجسم كاملاً،

---

(١) اختصر المؤلف من كلام ابن القيم ما يأتي: ومنها مشابهة اليهود والنصارى في اتخاذ المساجد والسرج عليها. ومنها محادة الله ورسوله؛ ومناقضة ما شرعه فيها. ومنها التعب العظيم مع الوزر الكبير والإثم العظيم. (ق).

(٢) زاد في الإغاثة: ومنها أن ذلك يتضمن عمارة المشاهد وخراب المساجد، ودين الله الذي بعث به رسوله بضد ذلك. ولهذا لما كانت الرافضة من أبعد الناس عن العلم والدين عمروا المشاهد وخربوا المساجد. (ق).

. . . .

والخشوع ورقة القلب والعكوف بالهمة على الموتى، ما لا يفعلونه في المساجد، ولا قريبًا منه.

ومنها: أن الذي شرعه الرسول ﷺ، [عند زيارة القبور] : إنما هو تذكُّر الآخرة، والإحسان إلى المزور بالدعاء له والترحم عليه، والاستغفار له و سؤال العافية، فيكون الزائر محسنًا إلى نفسه، وإلى الميت.

فقَلَب هؤلاء المشركون الأمر، وعكسوا الدين. وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت، ودعاءه والدعاء به، وسؤال حوائجهم، واستنزال البركة منه ونصره لهم على الأعداء، ونحو ذلك. فصاروا مسيئين إلى أنفسهم، وإلى الميت. وكان رسول الله ﷺ قد نهى الرجال عن زيارة القبور؛ سدًا للذريعة، فلما تمكن التوحيد في قلوبهم أذن لهم في زيارتها على الوجه الذي شرعه، ونهاهم أن يقولوا هُجرًا. ومن أعظم الهُجر: الشرك عندها، قولاً وفعلاً.

وفي (صحيح مسلم)، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«زوروا القبور، فإنها تذكر الموت»**[1][2].

وعن ابن عباس، قال: مرّ رسول الله ﷺ بقبور المدينة، فأقبل عليهم بوجهه، فقال: **«السلام عليكم يا أهل القبور، يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن بالأثر»**[3][4] رواه أحمد، والترمذي وحسنه.

فهذه الزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ لأمته، وعلّمهم إياها. هل تجد فيها شيئًا مما اعتمده أهل الشرك والبدع؟ أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجه؟! وما أحسن ما قال مالك بن أنس رحمه الله: لن يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، ولكن كلما ضعف تمسُّك الأمم بعهود أنبيائهم، ونقصَ إيمانهم: عوَّضوا عن ذلك، بما أحدثوه من البدع والشرك.

ولقد جرَّد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه، حتى كان أحدهم إذا سلم على النبي ﷺ ثم

وعلى هذا؛ فلو صور الرأس وحده بلا جسم أو الجسم وحده بلا رأس؛ فالظاهر الجواز، ويؤيده ما سبق في الحديث: **«مُر برأس التمثال فليقطع»**، ولم يقل: فليكسر، لكن تصوير الرأس وحده عندي فيه تردد، أما بقية الجسم بلا رأس؛ فهو كالشجرة لا تردد فيه عندي.

الثاني: يؤخذ من حديث علي رضي الله عنه، وهو قوله: **«أن لا تدع صورة إلا طمستها»** أنه لا يجوز اقتناء الصور، وهذا محل تفصيل؛ فإن اقتناء الصور على أقسام.

القسم الأول: أن يقتنيها لتعظيم المصوِّر؛ لكونه ذا سلطان أو جاه أو علم أو عبادة أو أُبُوَّة أو نحو ذلك؛ فهذا حرام بلا شك، ولا تدخل الملائكة بيتًا فيه هذه الصورة؛ لأن تعظيم ذوي السلطة باقتناء صورهم ثلم في جانب الربوبية، وتعظيم ذوي العبادة باقتناء صورهم ثلم في جانب الألوهية.

---

(١) حذف المؤلف رحمه الله من كلام ابن القيم حديث علي عند الإمام أحمد **«إني كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فإنها تذكركم الآخرة»**. (ق).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٧٦).

(٣) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (١٧٦)، وضعيف الجامع (٣٣٧٢)، وأحكام الجنائز (١٩٧).

(٤) حذف المؤلف رحمه الله حديث ابن مسعود: **«كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروا القبور فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة»** رواه ابن ماجه. وحديث أبي سعيد: **«كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإن فيها عبرة»** رواه الإمام أحمد. (ق).

أراد الدعاء استقبل القبلة، وجعل ظهره إلىٰ جدار القبر، ثم دعا [١].

ونصَّ علىٰ ذلك الأئمة الأربعة: أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء، حتىٰ لا يدعو عند القبر؛ فإن الدعاء عبادة. وفي الترمذي، وغيره مرفوعًا: «**الدعاء هو العبادة**»، فجرد السلف العبادة للَّه، ولم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أذن فيه رسول اللَّه ﷺ من الدعاء لأصحابها، والاستغفار لهم، والترحم عليهم.

وأخرج أبو داود، عن أبي هريرة، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلُّوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**»[٢] وإسناده جيد، رواته ثقات مشاهير.

وقوله: «ولا تجعلوا بيوتكم قبورًا» أي: لا تعطلوها عن الصلاة فيها والدعاء والقرآن، فتكون بمنزلة القبور. فأمر بتحري النافلة في البيوت، ونهىٰ عن تحري العبادة عند القبور، وهذا ضدُّ ما عليه المشركون، من النصارىٰ وأشباههم. ثم إن[٣] في تعظيم القبور واتخاذها أعياداً من المفاسد العظيمة التي لا يعلمها إلا اللَّه، ما يغضب لأجله كل من في قلبه وقار للَّه وغيرة علىٰ التوحيد، وتهجين وتقبيح للشرك؛ ولكن: ما لِجُرح بميت إيلام.

فمن المفاسد اتخاذها أعياداً: الصلاة إليها والطواف بها، وتقبيلها واستلامها، وتعفير الخدود علىٰ تُرابها، وعبادة أصحابها والاستغاثة بهم، وسؤالهم النصر والرزق والعافية وقضاء الديون، وتفريج الكُربات، وإغاثة اللهفات، وغيرُ ذلك من أنواع الطلبات، التي كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم.

فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيدًا، وقد نزلوا عن الأكوار والدوابِّ إذا رأوها من كل مكان بعيد. فوضعوا لها الجباه، وقبَّلوا الأرض وكشفوا الرءوس، وارتفعت أصواتهم بالضجيج، وتباكوا حتىٰ تسمع لهم النشيج! ورأوا أنهم قد أربوا في الربح علىٰ الحجيج.

فاستغاثوا بمن لا يُبدئ ولا يعيد، ونادوا ولكن من مكان بعيد. حتىٰ إذا دنوا منها صلوا عند القبر

القسم الثاني: اقتناء الصور للتمتع بالنظر إليها أو التلذذ بها؛ فهذا حرام أيضًا؛ لما فيه من الفتنة المؤدية إلىٰ سفاسف الأخلاق.

القسم الثالث: أن يقتنيها للذكرىٰ حنانًا أو تلطفًا، كالذين يصورون صغار أولادهم لتذكرهم حال الكبر؛ فهذا أيضًا حرام للحوق الوعيد به في قوله ﷺ: «**إن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة**»[٤].

القسم الرابع: أن يقتني الصور لا لرغبة فيها إطلاقًا، ولكنها تأتي تبعًا لغيرها؛ كالتي تكون في المجلات والصحف ولا يقصدها المقتني، وإنما يقصد ما في هذه المجلات والصحف من الأخبار والبحوث العلمية ونحو ذلك؛ فالظاهر أن هذا لا بأس به؛ لأن الصور فيها غير مقصودة، لكن إن

---

(١) قال ابن القيم: فقال سلمة بن وردان: «رأيت أنس بن مالك رضي الله عنه يسلم على النبي ﷺ ثم يسند ظهره إلى جدار القبر ثم يدعو». (ق).

(٢) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في غاية المرام (١٢٥).

(٣) الذي في نسخ إغاثة اللهفان التي بأيدينا المخطوطة والمطبوعة أن قول المؤلف رحمه الله: (ثم إن في تعظيم القبور. . . إلخ) فصل متقدم قبل ما نقله المؤلف هنا. (ق).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٢٤) ومواضع، ومسلم (٢١٠٧).

. . . .

ركعتين، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر ولا أجر من صلىٰ إلىٰ القبلتين.

فتراهم حول القبر ركعًا وسجدًا، يبتغون فضلاً من الميت ورضوانًا، وقد ملئوا أكفَّهم خيبةً وخسرانًا! فلغير اللَّه - بل للشيطان - ما يُراق هناك من العبرات، ويرتفع من الأصوات، ويطلب من الميت من الحاجات، ويُسأل من تفريج الكربات، وإغناء ذوي الفاقات، ومعافاة ذوي العاهات والبليات.

ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين، تشبيهًا له بالبيت الحرام الذي جعله اللَّه مباركًا وهدىٰ للعالمين. ثم أخذوا في التقبيل والاستلام؛ أرأيت الحجر الأسود وما يَفعل به وفدُ البيت الحرام؟! ثم عفَّروا لديه تلك الجباه والخدود، التي يعلم اللَّه أنها لم تُعفر كذلك بين يديه في السجود.

ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحلاق، واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن إذ لم يكن لهم عند اللَّه خلاق.

وقد يُعطىٰ لذلك الوثن القرابين، وكانت صلاتهم ونسكهم وقرباتهم لغير اللَّه رب العالمين. فلو رأيتهم يهنئ بعضهم بعضًا، ويقول: أجزل اللَّه لنا ولكم أجرًا وافرًا وحظًا! فإذا رجعوا، سألهم غلاةُ المتخلِّفين: أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر، بحج المتخلف إلىٰ البيت الحرام.

فيقول: لا، ولا بحجك كل عام!! هذا، ولم نتجاوز فيما حكينا عنهم، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم؛ إذ هي فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال.

وهذا مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح؛ كما تقدم.

وكل من شم أدنىٰ رائحة من العلم والفقه، يعلم أن أهم الأمور: سدُّ الذريعة إلىٰ هذا المحظور،

أمكن طمسها بلا حرج ولا مشقة؛ فهو أولىٰ.

القسم الخامس: أن يقتني الصور علىٰ وجه تكون فيه مُهانة ملقاة في الزبل، أو مفترشة، أو موطوءة؛ فهذا لا بأس به عند جمهور العلماء، وهل يلحق بذلك لباس ما فيه صورة لأن في ذلك امتهانًا للصورة ولا سيما إن كانت الملابس داخلية؟

الجواب: نقول: لا يلحق بذلك، بل لباس ما فيه الصور محرم علىٰ الصغار والكبار، ولا يحلق بالمفروش ونحوه؛ لظهور الفرق بينهما، وقد صرح الفقهاء رحمهم الله بتحريم لباس ما فيه صورة، سواء كان قميصًا أو سراويل أم عمامة أم غيرها.

وقد ظهر أخيرًا ما يسمىٰ بالحفائظ؛ وهي خرقة تلف علىٰ الفرجين للأطفال والحائض لئلا يتسرب النجس إلىٰ الجسم أو الملابس؛ فهل تلحق بما يلبس أو بما يمتهن؟ هي إلىٰ الثاني أقرب، لكن لما كان امتهانًا خفيًا وليس كالمفترش والموطوء صار استحباب التحرز منها أولىٰ.

القسم السادس: أن يلجأ إلىٰ اقتنائها إلجاء؛ كالصور التي تكون في بطاقة إثبات الشخصية والشهادات والدراهم فلا إثم فيه لعدم إمكان التحرز منه، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ [الحج: ٧٨].

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ الشديد في المصورين.

الثانية: التنبيه على العلة، وهو ترك الأدب مع الله؛ لقوله: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي».

الثالثة: التنبيه على قدرته، وعجزهم؛ لقوله: «فليخلقوا ذرة أو حبة أو شعيرة».

الرابعة: التصريح بأنَّهُم أشدُّ النَّاس عذابًا.

الخامسة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفسًا يعذب بهَا المصور في جهنَّم.

السادسة: أنَّه يكلف أن ينفخ فيها الروح. السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت.

وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهىٰ عنه وما يئوول إليه، وأحكم في نهيه عنه وتوعُّده عليه، وأن الخير والهُدَىٰ في اتباعه وطاعته والشر والضلال في معصيته ومخالفته، انتهىٰ كلامه رحمه اللَّه [1].

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ الشديد في المصورين: تؤخذ من قوله: «أشد الناس عذابًا...» الحديث.

الثانية: التنبيه على العلة، وهي ترك الأدب مع الله، تؤخذ من قوله: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي»: فمن ذهب يخلق كخلق الله؛ فهو مسيء للأدب مع الله ـ عز وجل ـ لمحاولته أن يخلق مثل خلق الله تعالىٰ، كما أن من ضاده في شرعه فقد أساء الأدب معه.

الثالثة: التنبيه على قدرته وعجزهم؛ لقوله: «فليخلقوا ذرة أو شعيرة»: لأن الله خلق أكبر من ذلك وهم عجزوا عن خلق الذرة أو الشعيرة.

الرابعة: التصريح بأنهم أشد الناس عذابًا: لقوله: «أشد الناس عذابًا...» الحديث.

الخامسة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفسًا يُعذّب بها المصور في جهنم: لقوله: «يجعل له بكل صورة صورها نفسًا فتعذبه في جهنم».

السادسة: أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح: لقوله: «كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ»، وهذا نوع من التعذيب من أشق العقوبات.

السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت: لقوله: «أن لا تدع صورة إلا طمستها».

ويؤخذ من حديث الباب أيضًا: الجمع بين فتنة التماثيل وفتنة القبور؛ لقوله: «أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»؛ لأن في كل منهما وسيلةً إلىٰ الشرك.

ويؤخذ منه أيضًا: إثبات العذاب يوم القيامة، وأن الجزاء من جنس العمل؛ لأنه يُجعل له بكل صورة صورها نفسًا فتعذبه في جهنم.

ويؤخذ منه: وقوع التكليف في الآخرة بما لا يطاق علىٰ وجه العقوبة.

---

(١) اختصره المؤلف رحمه الله تعالى؛ وتصرف فيه بالتقديم والتأخير على حسب ما بيدنا من نسخ إغاثة اللهفان. والله يرحم الجميع لنا ولهم. (ق).

٦١ـ باب
ما جاء في كثرة الحلف

وقــول الـلّه تعــالى: ﴿وَاحْــفَظُوا أَيْمَــانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

قال المصنف رحمه اللّه تعالى: باب ما جاء في كثرة الحلف: أي: من النهي عنه، والوعيد.
وقول اللّه تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].
قال ابن جرير: لا تتركوها بغير تكفير. وذكر غيرُه من المفسِّرين، عن ابن عباس: يُريد لا تحلفوا. وقال آخرون: احفظوا أيمانكم عن الحِنْث، فلا تحنثوا.

والمصنف، أراد من الآية: المعنى الذي ذكره ابن عباس؛ فإن القولين متلازمان، فيلزم من كثرة الحلف كثرة الحنث، مع ما يدل عليه من الاستخفاف، وعدم التعظيم للّه، وغير ذلك مما ينافي كمال التوحيد الواجب أو عدمه.

باب ما جاء في كثرة الحلف

أصل اليمين إنما شرعت تأكيدًا للأمر المحلوف عليه، وتعظيمًا للخالق، ولهذا وجب أن لا يحلف إلا بالله، وكان الحلف بغيره من الشرك، ومن تمام هذا التعظيم أن لا يحلف بالله إلا صادقًا، ومن تمام هذا التعظيم أن يحترم اسمه العظيم عن كثرة الحلف، فالكذب وكثرة الحلف تنافي التعظيم الذي هو روح التوحيد.

الحَلفُ: هو اليمين والقسم، وهو تأكيد الشيء بذكر مُعَظَّم بصيغة مخصوصة بأحد حروف القسمَ وهي: الباء، والواو، والتاء.

ومناسبة الباب لكتاب التوحيد: أن كثرة الحلف بالله يدل على أنه ليس في قلب الحالف من تعظيم الله ما يقتضي هيبة الحلف بالله، وتعظيم الله تعالى من تمام التوحيد.

قوله: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]. هذه الآية ذكرها الله في سياق كفارة اليمين، وكل يمين لها ابتداء وانتهاء ووسط؛ فالابتداء الحلف، والانتهاء الكفارة، والوسط الحنث، وهو أن يفعل ما حلف على تركه، أو يترك ما حلف على فعله، وعلى هذا كل يمين على شيء ماض فلا حنث فيه، وما لا حنث فيه فلا كفارة فيه، لكن إذا كان صادقًا؛ فقد بر، وإلا؛ فهو آثم؛ لأن الكفارة لا تكون إلا على شيء مُستقبل.

وهل يجوز أن يحلف على ما في ظنه؟

الجواب: نعم، ولذلك أدلة كثيرة، منها قول المُجَامع في نهار رمضان لرسول الله ﷺ: والله؛ ما بين لابَتيها أهل بيت أفقر مني. لكن إن حلف على مستقبل بناء على غلبة الظن ولم يحصل؛ فقيل: تلزمك كفارة، وقيل: لا تلزمك، وهو الصحيح، كما لو حلفت على ماض.

مثاله: فلو قلت: والله؛ ليقدمن زيد غداً، بناء على ظنك، فلم يقدم؛ فالصحيح أنه لا كفارة عليك؛ لأنك حلفت على ما في قلبك وهو حاصل، كأنك تقول: والله؛ إن هذا هو ظني، لكن هل يجوز لك أن تحلف على ما في ظنك؟ سبق ذلك قريبًا.

إذن قوله: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾. بعد أن ذكر اليمين والكفارة والحنث؛ فما المراد بحفظ اليمين:

وعن أبي هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحَلِف منَفّقة للسِّلعة، ممحقة للكسب» أخرجاه[١].

قال المصنف رحمه الله تعالى: عن أبي هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحَلف منْفَقة للسِّلعة، ممحقة للكسب» أخرجاه:

هل هو الابتداء أو الانتهاء أو الوسط؟ أي: هل المراد: لا تكثروا الحلف بالله؟ أو المراد: إذا حلفتم فلا تحنثوا؟ أو المراد: إذا حلفتم فحنثتم فلا تتركوا الكفارة؟

الجواب: المراد كلها؛ فتشمل أحوال اليمين الثلاثة، ولهذا جاء المؤلف بها في هذا الباب؛ لأن من معنى حفظ اليمين عدم كثرة الحلف.

وإليك قاعدة مهمة في هذا: وهي أن النص من قرآن أو سنة إذا كان يحتمل عدة معاني لا ينافي بعضها بعضًا ولا مرجح لأحدها؛ وجب حمله على المعاني كلها.

والمراد بعدم كثرة الحلف: ما كان معقودًا ومقصودًا، أما ما يجري على اللسان بلا قصد، مثل: لا والله؛ وبلى والله؛ في عرض الحديث، فلا مؤاخذة فيه؛ لقوله تعالى: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]. وكذلك من حفظ اليمين عدم الحنث فيها، وهذا فيه تفصيل؛ لأن النبي ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة: «إذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيرًا منها؛ فكفر عن يمينك، وائت الذي هو خير»[٢]، فحفظ اليمين في الحنث أن لا يحنث إلا إذا كان خيرًا، وإلا؛ فالأحسن حفظ اليمين وعدم الحنث.

مثال ذلك: رجل قال: والله؛ لا أكلم فلانًا. وهو من المؤمنين الذين يحرم هجرهم؛ فهذا يجب أن يحنث في يمينه ويكلمه وعليه الكفارة.

مثال آخر: رجل قال: والله؛ لأُعينَنَّ فلانًا على شيء محرم. فهذا يجب الحنث فيه والكفارة ولا يعينه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]. وإذا كان الأمر متساويًا والحنث وعدمه سواء في الإثم؛ فالأفضل حفظ اليمين. كذلك من حفظ اليمين إخراج الكفارة بعد الحنث، والكفارة واجبة فورًا؛ لأن الأصل في الواجبات هو الفورية، وهو قيام بما تقتضيه اليمين.

والكفارة: إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، وهذا على سبيل التخيير، فمن لم يجد؛ فصيام ثلاثة أيام، وفي قراءة ابن مسعود متتابعة.

فحفظ اليمين له ثلاثة معان:

١ ـ حفظها ابتداء، وذلك بعدم كثرة الحلف، وليعلم أن كثرة الحلف تضعف الثقة بالشخص وتوجب الشك في أخباره.

٢ ـ حفظها وسطًا، وذلك بعدم الحنث فيها، إلا ما استثنى كما سبق.

٣ ـ حفظها انتهاء في إخراج الكفارة بعد الحنث.

ويمكن أن يضاف إلى ذلك معنى رابع، وهو أن لا يحلف بغير الله؛ لأن الرسول ﷺ سمى القسم بغير الله حلفًا.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٠٨٧)، ومسلم (١٦٠٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦٢٢) ومواضع، ومسلم (١٦٥٢).

وعن سلمان، أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أُشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيعٍ إلا بيمينه»[1] رواه الطبراني بسند صحيح.

أي: البخاري ومسلم، وأخرجه أبو داود والنسائي.

والمعنى: أنه إذا حلف على سلعته أنه أُعطي فيها كذا وكذا أو أنه اشتراها بكذا وكذا، وقد يظنه المشتري صادقًا فيما حلف عليه فيأخذها بزيادة على قيمتها، والبائع كذاب، وحلف طمعًا في الزيادة، فيكون قد عصى الله تعالى، فيعاقب بمحق البركة.

فإذا ذهبت بركة كسبه دخل عليه من النقص أعظم من تلك الزيادة التي دخلت عليه بسبب حلفه، وربما ذهب ثمن تلك السلعة رأسًا. وما عند الله لا ينال إلا بطاعته، وإن تزخرفت الدنيا للعاصي فعاقبتها اضمحلال وذهاب وعقاب.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن سلمان، أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أُشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه» رواه الطبّراني بسند صحيح.

قوله: «الحلف»: المراد به الحلف الكاذب؛ كما بينته رواية أحمد: «اليمين الكاذبة»[2]، أما الصادقة؛ فليس فيها عقوبة، لكن لا يكثر منها كما سبق.

قوله: «منفقة للسلعة»: أي: ترويج للسلعة، مأخوذ من النفاق وهو مضي الشيء ونفاذه، والحلف على السلعة قد يكون حلفًا على ذاتها أو نوعها أو وصفها أو قيمتها.

الذات: كأن يحلف أنها من المصنع الفلاني المشهور بالجودة وليست منه.

النوع: كأن يحلف أنها من الحديد، وهي من الخشب.

الصفة: كأن يحلف أنها طيبة، وهي رديئة.

القيمة: كأن يحلف أن قيمتها بعشرة، وهي بثمانية.

قوله: «ممحقة للكسب»: أي: متلفة له، والإتلاف يشمل الإتلاف الحسي بأن يسلط الله على ماله شيئًا يتلفه من حرق أو نهب أو مرض يلحق صاحب المال فيتلفه في العلاج، والإتلاف المعنوي بأن ينزع الله البركة من ماله فلا ينتفع به لا دينًا ولا دنيا، وكم من إنسان عنده مال قليل، لكن نفعه الله به ونفع غيره ومن وراءه، وكم من إنسان عنده أموال لكن لم ينتفع بها صار ـ والعياذ بالله ـ بخيلاً يعيش عيش الفقراء وهو غني؛ لأن البركة قد محقت.

قوله: «ثلاثة»: مبتدأ، وسوغ الابتداء بها أنها أفادت التقسيم.

قوله: «لا يكلمهم الله»: التكليم: هو إسماع القول، وأما ما يقدره الإنسان في نفسه؛ يسمى

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في الكبير (٦/٢٤٦)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣٠٧٢) والحديث أصله في مسلم (١٠٦).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٧١٦٦، ٧٢٥١، ٩٠٨٥)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٣٣٦٣).

. . . .

وسلمان: لعله سلمان الفارسي، أبو عبد الله، أسلم مقدم النبي ﷺ المدينة وشهد الخندق، روى عنه: أبو عثمان النهدي، وشرحبيل بن السمط، وغيرهما. قال النبي ﷺ: «**سلمان منا أهل البيت**»[1]، «**إن الله يحب من أصحابي أربعة: علي، وأبو ذر، وسلمان، والمقداد**»[2] أخرجه الترمذي، وابن ماجه.

قال الحسن: كان سلمان أميرًا على ثلاثين ألفًا، يخطب بهم في عباءة يفترش نصفها ويلبس نصفها. توفي في خلافة عثمان، قال أبو عبد الله: سنة ست وثلاثين. عن ثلاثمائة وخمسين سنة، ويُحتمل: أنه سلمان بن عامر بن أوس الضَّبي.

قوله: «**ثلاثة لا يكلمهم الله**»[3] نفي كلام الرب تعالى وتقدس عن هؤلاء العصاة، دليل على أنه يكلم من أطاعه، وأن الكلام صفة من صفات كماله.

والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أظهر شيء وأبينه، وهو الذي عليه أهل السنة والجماعة من المحققين: قيام الأفعال بالله سبحانه، وأن الفعل يقع بمشيئته تعالى وقدرته شيئًا فشيئًا، ولم يزل متصفًا به.

فهو حادث الآحاد، قديم النوع؛ كما يقول ذلك أئمة أصحاب الحديث، وغيرهم من أصحاب الشافعي وأحمد، سائر الطوائف، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾[يس: ٨٢] فأتى بالحروف الدالة على الاستقبال، والأفعال الدالة على الحال والاستقبال أيضًا. وذلك في القرآن كثير.

قال شيخ الإسلام: فإذا قالوا لنا ـ يعني النفاة ـ فهذا يلزم أن تكون الحوادث قائمة به؟ قلنا: ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة؟! ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل.

ولفظ الحوادث مجمل، فقد يراد به الأمراض والنقائص، والله منزه عن ذلك، ولكن يقوم به ما شاء من كلامه وأفعاله ونحو ذلك، مما دل عليه الكتاب والسنة.

كلامًا على سبيل الإطلاق، وإن كان يسمى قولاً بالتقييد بالنفس؛ كقوله تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ**﴾ [المجادلة: ٨]، وقال عمر رضي الله عنه ـ في قصة السقيفة ـ: «**زوّرت في نفسي كلامًا**»[4]؛ أي: قدَّرته.

فالكلام عند الإطلاق لا يكون إلا بحرف وصوت مسموع.

واختلف الناس في كلام الله إلى ثمانية أقوال كما ذكره ابن القيم في «الصواعق المرسلة».

لكن إذا رجعنا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأخذنا منهما عقيدتنا صافية، وقطعنا النظر عن هذه المجادلات لأنه ما أوتي الجدل قوم إلا ضلوا؛ علمنا أن كلام الله حقيقي يسمع، ولكن الصوت

---

(١) ضعيف جدًا: ضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٣٢٧٢).

(٢) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في ضعيف سنن ابن ماجه (٢٨)، وضعيف الجامع (١٥٦٦).

(٣) في قرة العيون: هذا وعيد شديد في حقهم. لأنه قد تواتر أنه تعالى يكلم أهل الإيمان ويكلمونه في عرصات القيامة. والأدلة على ذلك في الكتاب والسنة أظهر شيء وأبينه. وفيه الرد على الجهمية والأشاعرة نفاة صفة الكلام.(ق).

(٤) صحيح: رواه البخاري (٦٨٣٠).

. . . .

والقول الصحيح: قول أهل العلم، الذين يقولون لم يزل متكلمًا إذا شاء؛ كما قال ابن المبارك، وأحمد بن حنبل، وغيرهما من أئمة السنة. انتهى.

قلت: ومعنى قيام الحوادث به تعالى: قدرته عليها، وإيجاده لها بمشيئته وأمره. والله أعلم.

قوله: «ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم» لما عظم ذنبهم عظمت عقوبتهم، فعوقبوا بهذه الثلاث التي هي أعظم العقوبات.

قوله: «أشميط زان» صغره تحقيرًا له[1]؛ وذلك لأن داعي المعصية ضعف في حقه، فدل على أن الحامل له على الزنا: محبة المعصية والفجور، وعدم خوفه من الله. وضعف الداعي إلى المعصية مع

ليس كأصوات المخلوقين، أما ما يسمع من كلام الله؛ فلا شك أنه بحروف يفهمها المُخاطب؛ إذ لو كان يتكلم بحروف لا تشبه الحروف التي يتكلم بها المخاطب لم يفهم كلامه أبدًا، فالحروف التي تسمع هي حروف اللغة التي يخاطب الله بها من يخاطبه، والله ـ عز وجل ـ يخاطب كل أحد بلغته.

ونفي الكلام هنا دليل على إثبات أصله؛ لأنه لما نفاه عن قوم دل على ثبوته لغيرهم.

وبهذه الطريقة استدل بعض أهل العلم على إثبات رؤية الله يوم القيامة للمؤمنين بقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، فما حجب الفجار عن رؤيته إلا وراه الأبرار؛ إذ لو امتنعت الرؤية مطلقًا لكان الفجار والأبرار سواء فيها، وكذلك هنا لو انتفى كلام الله ـ عز وجل ـ عن كل أحد؛ فلا وجه للتخصيص بنفي الكلام عن هؤلاء.

ولا يلزم من كلامه ـ سبحانه ـ أن يكون له آلة كالآدمي، كاللسان، والأسنان، والحلق، وما أشبه ذلك، كما لا يلزم من سماع الله أن يكون له أذن؛ فالأرض مثلاً تسمع وتحدث وليس لها لسان ولا آذن، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤، ٥]، وكذلك الجلد ينطق يوم القيامة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠]، وكذا الأيدي والأرجل، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]؛ فالأيدي والأرجل والألسن والجلود والسمع والأبصار ليس لها لسان ولا شفتان، هذا هو المعلوم لنا.

فإن قيل: إن الله يكلم من هو أعظم منها جرمًا وهم أهل النار؟

فالجواب: إن المراد بنفي الكلام هنا كلام الرضا، أما كلام الغضب والتوبيخ؛ فإن هذا الحديث لا يدل على نفيه.

قوله: «ولا يزكيهم»: التزكية: بمعنى التوثيق والتعديل؛ فيوم القيامة لا يوثقهم، ولا يعدلهم، ولا يشهد عليهم بالإيمان؛ لما فعلوه من هذه الأفعال الخبيثة.

قوله: «ولهم عذاب أليم»: «عذاب»: عقوبة، و «أليم»؛ أي: شديد موجع مؤلم.

---

(١) تصغير أشمط: وهو الذي بشعره شمط أي شيب.(ق).

. . . .

فعلها يوجب تغليظ العقوبة عليه، بخلاف الشاب؛ فإن قوة داعي الشهوة منه قد يغلبه مع خوفه من الله، وقد يرجع على نفسه بالندم، ولومها على المعصية، فينتهي ويراجع. وكذلك العائل المستكبر، ليس له ما يدعوه إلى الكبر؛ لأن الداعي إلى الكبر في الغالب كثرة المال والنعم والرياسة. والعائل الفقير لا داعي له إلى أن يستكبر. فاستكباره مع عدم الداعي إليه، يدل على أن الكبر طبيعة له، كامن في قلبه. فعظمت عقوبته؛ لعدم الداعي إلى هذا الخلق الذميم، الذي هو من أكبر المعاصي.

قوله: «أشيمط»: هو الذي اختلط سواد شعره ببياضه لكبر سنه، وكبير السن قد بردت شهوته، وليس فيه ما يدعوه إلى الزنا، ولكنه زنا مما دل على خبث في إرادته؛ ولأنه عادة قد بلغ أشده واستوى وعرف الحكمة، وملكه عقله أكثر من هواه؛ فالزنا منه غريب؛ إذ ليس عن شهوة ملحة، ولكن عن سوء نية وقصد وضعف إيمان بالله، فصار السبب المقتضي لزناه ضعيفًا، والحكمة التي نالها ببلوغ الأشد كبيرة، وكأن تقدم سنه يستلزم أن يغلب جانب العقل، ولكنه خالف مقتضى ذلك، ولهذا صغره تحقيراً لشأنه، فقال: «**أشيمط**» تصغير أشمط.

قوله: «زان»: صفة لأشيمط، وهو مرفوع بضمة مقدرة على الياء المحذوفة، والحركة التي على النون ليس حركة إعراب. والزنا: فعل الفاحشة في قبل أو دبر، وقد نهى الله عنه وبيَّن أنه فاحشة؛ فقال: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا**﴾ [الإسراء: ٣٢].

قوله: «عائل مستكبر»: أي: فقير: قال تعالى: ﴿**وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ**﴾ [الضحى: ٨]؛ فالمقابلة هنا في قوله: ﴿**فَأَغْنَىٰ**﴾ بينت أن معنى عائلاً: فقيراً.

والاستكبار: الترفع والتعاظم، وهو نوعان:

- استكبار عن الحق بأن يرده أو يترفع عن القيام به.
- واستكبار على الخلق باحتقارهم واستذلالهم؛ كما قال النبي ﷺ: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»(١). فالفقير داعي الاستكبار عنده ضعيف، فيكون استكباره دليلاً على ضعف إيمانه وخبث طويته، ولذلك كانت عقوبته أشد.

قوله: «**ورجل جعل الله بضاعته؛ لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه**»: أي: جعل الحلف بالله بضاعة له، وإنما ساغ التأويل هنا؛ لأن النبي ﷺ هو الذي فسره بذلك، حيث قال: «**لا يشتري إلا بيمينه...**»، وإذا كان المتكلم هو الذي أخرج كلامه عن ظاهره؛ فهو أعلم بمراده، وهذا كما في الحديث القدسي: «**عبدي! استطعمتك فلم تطعمني، استسقيتك فلم تسقني**»؛ فبينه الله - عز وجل - بقوله: «**عبدي فلان جاع فلم تطعمه، استسقاك فلم تسقه**»(٢). فقوله: «**لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه**» استئنافية تفسيرية؛ لقوله: «**جعل الله بضاعته**». ومعناها: أنه كلما اشترى حلف، وكلما باع حلف طلبًا للكسب، واستحق هذه العقوبة؛ لأنه إن كان صادقًا؛ فكثرة

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٩١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٩).

وفي الصحيح، عن عمران بن حصين، قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ أمتي قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم - قال عمران: فلا أدري، أذكر بعد قرنه مرَّتين أو ثلاثًا - ثم إنَّ بعدكم قومٌ يشهدون ولا يُستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السِّمَن»(١).

قوله: «ورجلٌ جعل الله بضاعته»: بنصب الاسم الشريف، أي: الحلف به، جعله بضاعته؛ لملازمته له وغلبته عليه. وهذه أعمالٌ تدل على أنَّ صاحبها إن كان موحِّدًا فتوحيده ضعيف، وأعماله ضعيفة؛ بحسب ما قام بقلبه وظهر على لسانه وعمله من تلك المعاصي العظيمة، على قلة الداعي إليها. نسأل الله السلامة والعافية، ونعوذ بالله من كلِّ عمل لا يحبه ربُّنا ولا يرضاه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وفي الصحيح، عن عمران بن حصين، قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ أمتي قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم - قال عمران: فلا أدري، أذكر بعد قرنه مرَّتين أو ثلاثًا - ثم إنَّ بعدكم قومٌ يشهدون ولا يُستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السِّمَن».

أيمانه تشعر باستخفافه واستهانته باليمين ومخالفته قوله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

وإن كان كاذبًا جمع بين أربعة أمور محذورة:

١ - استهانته باليمين ومخالفته أمر الله بحفظ اليمين.

٢ - كذبه.

٣- أكله المال بالباطل.

٤ - أن يمينه يمين غموس، وقد ثبت عن النبي ﷺ؛ أنه قال: **«من حلف على يمين هو فيها فاجر يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان»**(٢).

وكل ما في هذا الحديث يجب الحذر منه والبعد عنه؛ لأن هذا ما يريده النبي ﷺ من الإخبار به، وإلا؛ فما الفائدة من سماعنا له إذا لم تظهر مقتضيات النصوص على معتقداتنا وأقوالنا وأفعالنا؟ فنحن والجاهل سواء، بل نحن أعظم، ولذلك لا ينبغي أن تمر علينا بلا فائدة فنعرف معناها فقط، بل يجب أن نعرف معناها ونعمل بمقتضاها، ثم يجب علينا أيضًا بوصفنا ممن آتاهم الله العلم أن نُحذر الناس منها لنكون وارثين للرسول ﷺ؛ فالنبي ﷺ كان عالمًا عاملاً داعيًا، أما طالب العلم؛ فإنه ليس وارثًا للرسول عليه الصلاة والسلام حتى يقوم بما قام به من العلم والدعوة، فعلينا أن نُحذر إخواننا المسلمين من هذا العمل الكثير بين الناس، وهو جعل الله بضاعة لهم؛ لا يبيعون إلا بأيمانهم، ولا يشترون إلا بأيمانهم.

مناسبة الحديث للباب:

أن من جعل الله بضاعته؛ فإن الغالب أنه يكثر الحلف بالله - عز وجل -.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٦٥٠)، ومسلم (٢٥٣٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٣٥٧) ومواضع، ومسلم (١٣٨).

. . . .

قوله: «وفي الصحيح» أي: «صحيح مسلم»، وأخرجه أبو داود، والترمذي، ورواه البخاريُّ بلفظ «خيركم»[١].

قوله: «خير أمتي قرني» لفضيلة أهل ذلك القرن: في العلم والإيمان، والأعمال الصالحة التي يتنافس فيها المتنافسون، ويتفاضل فيها العاملون. فغلب الخيرُ فيها وكثر أهله، وقل الشرُّ فيها وأهله، واعتزَّ فيها الإسلام والإيمان، وكثر فيها العلم والعلماء.

«ثم الذين يلونهم» فُضِّلُوا علىٰ من بعدهم: لظهور الإسلام فيهم وكثرة الداعي إليه، والراغب فيه والقائم به، وما ظهر فيه من البدع، أُنكر واستعظم وأُزيل، كبدعة الخوارج والقدرية والرافضة، فهذه البدعُ وإن كانت قد ظهرت، فأهلها في غاية الذُّل والمقت والهوان والقتل، فيمن عاند منهم ولم يتب.

قوله: «فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا؟» هذا شكٌّ من راوي الحديث عمران بن حصين، والمشهور في الروايات: أنَّ القرون المفضَّلة ثلاثةٌ: الثالث دون الأولين في الفضل؛ لكثرة

قوله: «وفي الصحيح»: أي: «الصحيحين»، وانظر: في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

قوله: «خير أمتي قرني»: «خير»: مبتدأ، و«قرني»: خبر. وفي لفظ لهما: «خيركم قرني» وفي حديث ابن مسعود عند البخاري: «خير الناس قرني»[٢]، وهذا هو المراد؛ إذ المراد بالخيرية هنا الخيرية المضافة إلىٰ الناس عمومًا وليس للأمة فقط، ولهذا ثبت عنه ﷺ؛ أنه قال: «بعثت من خير قرون بني آدم». وعليه؛ فالخيرية في القرن الأول خيرية عامة علىٰ جميع الناس وليس علىٰ هذه الأمة فقط.

وأما قوله: «خير أمتي»: فإنه يقال: إن الخيرية إذا كانت مضافة إلىٰ عموم الناس دخل فيها هذه الأمة، لكن إذا خصصناها بهذه الأمة خرج بقية الناس، والأخذ بالعموم الداخل فيه الخاص أولىٰ، وقد يقال: إن معنىٰ اللفظين واحد؛ فإن هذه الأمة خير الأمم، فإذا كان الصحابة خير قرونها لزم أن يكونوا خير الناس.

والقرن مأخوذ من الاقتران، والمراد: الطائفة المقترنون بشيء من الأشياء؛ كالملة، أو السن، أو ما أشبه ذلك.

فمن العلماء من عَرّفه: بالطائفة كما سبق، ومنهم من عرفه بالزمن، وهؤلاء اختلفوا فيه علىٰ أقوال: فمنهم من حده بأربعين، ومنهم من حده بثمانين، ومنهم من حده بمائة، ومنهم من حده بمائة وعشرين سنة. فعلىٰ الأول يكون معنىٰ: «خير أمتي قرني»: خير أمتي الصحابة، سواء بلغوا مائة سنة أم لا، والمعروف أن آخر من مات من الصحابة مات سنة مائة وعشرة أو مائة وعشرين، فإذا قلنا: مائة وعشرين؛ فهذه المدة زائدة علىٰ المائة، وإذا اعتبرناها من البعثة تكون مائة وثلاثًا وثلاثين سنة؛ لأن التقويم مبتدأ من الهجرة، والهجرة كانت بعد البعثة بثلاث عشرة سنة، وهذا القرن الأول، أما التابعون؛ فإن آخرهم مات سنة مائة وثمانين، فيكون بينهم وبين الصحابة ستون سنة، وأما تابعوا التابعين؛ فإن آخرهم مات سنة مائتين وعشرين، وهذا منتهىٰ القرن الثالث.

---

(١) بل رواه باللفظين، فرواية «خير أمتي أهل قرني» في فضائل الصحابة. ورواية «خيركم» في عدة مواضع منه. (ق).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٥٢، ٣٦٥١، ٦٤٢٩)، ومسلم (٢٥٣٣).

. . . .

ظهور البدع فيه، لكنَّ العلماء متوافرون، والإسلامَ فيه ظاهر، والجهاد فيه قائم، ثم ذكر ما وقع بعد الثلاثة، من الجفاء في الدين، وكثرة الأهواء.

فقال: «ثم إنَّ بعدكم قومٌ يشهدون ولا يُستشهدون» لاستخفافهم بأمر الشهادة، وعدم تحريهم للصدق؛ وذلك لقلة دينهم، وضعف إسلامهم.

فقرن الصحابة إن ابتدأته من البعثة صار ثلاثًا وثلاثين ومائة سنة، وإن ابتدأته من الهجرة صار عشرين ومائة سنة.

وقرن التابعين ستون سنة.

وقرن تابع التابعين أربعون سنة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن القرن معتبر بمعظم الناس، فإذا كان معظم الناس الصحابة؛ فالقرن قرنهم، وإذا كان معظم الناس التابعين؛ فالقرن قرنهم، وهكذا.

قوله: «أمتي»: المراد أمة الإجابة؛ لأن أمة الدعوة إذا لم يؤمنوا فليس فيهم خير.

قوله: «فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا»: وإذا كان عمران لا يدري؛ فالأصل أنه ذكر مرتين، فتكون القرون المفضلة ثلاثة، وهذا هو المشهور.

قوله: «ثم إن بعدكم قوم»: وفي رواية البخاري: «ثم إن بعدكم قومًا» بنصب «قومًا»، وهذا لا إشكال فيه، لكن في هذه الرواية برفع «قوم» فيه إشكال؛ لأن «قوم» اسم إن، وقد اختلف العلماء في هذا:

فقيل على لغة ربيعة: الذين لا يقفون على المنصوب بالألف، فلم يثبت الكاتب الألف، فصارت «قوم».

وهذا جواب ليس بسديد؛ لأن الرواية ليست مكتوبة فقط، بل تكتب وتقرأ باللفظ عند أخذ التلاميذ الرواية من المشايخ، ولأن هذا ليس محل وقف.

وقيل: إن «إن» اسمها ضمير الشأن محذوف، إلحاقًا لها بإن المخففة؛ لأن «إن» المخففة تعمل بضمير الشأن، قال الشاعر:

وإن مالك كانت كرام المعادن

فإن المشددة هنا حملت على إن المخففة، فاسمها ضمير الشأن محذوف، وعليه يكون «بعدكم» خبر مقدم، و«قوم» مبتدأ مؤخر، والجملة خبر «إن».

وقيل: «إن» هنا بمعنى نعم؛ فيكون المعنى: ثم نعم بعدكم قوم، وهذا فيه تكلف.

والظاهر: القول الثاني إن صحت الرواية.

قوله: «يشهدون»: أي: يخبرون عما علموه مما شاهدوه أو سمعوه أو لمسوه أو شموه؛ لأن الشهادة إخبار الإنسان بما يعلم، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، ولا يشترط أن تكون بلفظ أشهد على الصحيح، وقد قيل للإمام أحمد: إن فلانًا يقول: «إن العشرة في الجنة ولا أشهد». فقال: إن قاله؛ فقد شهد.

. . . .

قوله: «ويخونون ولا يؤتمنون» يدل على أنَّ الخيانة قد غلبت على كثير منهم، أو أكثرهم.

قوله: «ولا يستشهدون»: فقيل: «**لا يستشهدون**»؛ أي: لا يطلب منهم تحمل الشهادة، فيكون المراد بالذين يشهدون بغير علم فهم شهداء زور.

وقيل: لا يطلب منهم أداء الشهادة؛ فيكون المراد أداء الشهادة قبل أن يُدعى لأدائها، فيكون ذلك دليلاً على تسرعهم في أداء الشهادة وعدم اهتمامهم بها.

ولكن هذا القول يشكل عليه حديث زيد بن خالد الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ قال: «**ألا أخبركم بخير الشهداء: الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها**»[1]؛ فهذا ترغيب في أداء الشهادة قبل أن يسألها بدليل قوله: «**ألا أخبركم بخير الشهداء**»، وظاهره: أنه معارض لحديث عمران؛ فجمع بعض العلماء بينهما بأن المراد بحديث زيد من يشهد بحق لا يعلمه المشهود له.

وجمع بعض العلماء بأن المراد بحديث زيد: من يشهد بشيء من حقوق الله تعالى؛ لأن حقوق الله تعالى ليس لها مُطَالب، فيؤدي الشهادة من غير أن يسألها، فيكون المراد بهم رجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحوهم.

وجمع بعضهم: بأن المراد بحديث زيد بن خالد أنه كناية عن السرعة بأداء الشهادة، فكأنه لشدة إسراعه يؤديها قبل أن يسألها.

وبعض العلماء رجح حديث عمران؛ لأنه في «الصحيحين» على حديث زيد بن خالد؛ لأنه في «مسلم». ولكن إذا أمكن الجمع؛ فلا يجوز الترجيح لأن مقتضاه إلغاء أحد النَّصَّين، والجمع هنا ممكن كما تقدم.

قوله: «يخونون ولا يؤتمنون»: هذا هو الوصف الثاني لهم؛ أي: أنهم أهل خيانة وليسوا أهل أمانة، فلا يأتمنهم الناس، وليس معنى أنه تقع منهم الخيانة بعد الائتمان حتى يقال: لماذا لم يقل: يؤتمنون ويخونون؟ فكأن الخيانة طبيعة لهم؛ فلخيانتهم لا يؤتمنون.

الخيانة: الغدر والخداع في موضع الائتمان، وهي من الصفات المذمومة بكل حال.

وأما المكر والخديعة؛ فهي مذمومة في حال دون حال، فقد تكون محمودة إذا كانت في مقاتلة عدو ماكر خادع لدلالتها على القوة والإيقاع بالعدو من حيث لا يشعر، ولهذا يوصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالمكر والخداع في الحال التي يكون فيها مدحًا، قال تعالى: ﴿**وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿**يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ**﴾ [النساء: ١٤٢].

وأما الخيانة؛ فلا يوصف الله بها أبدًا؛ لأنها ذم بكل حال، ولهذا كان قول العامة خان الله من خان، حرامًا؛ لأنهم وصفوا الله بما لا يصح أن يوصف به، قال الله تعالى: ﴿**وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ**﴾ [الأنفال: ٧١]، ولم يقل: فخانهم.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧١٩)، وأبو داود (٣٥٩٦)، والترمذي (٢٢٩٥)، وابن ماجه (٢٣٦٤).

وفيه، عن ابن مسعود: أنَّ النبي ﷺ قال: خيرُ الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قومٌ تسبق شهادةُ أحدهم يمينه، ويمينُه شهادته».

قوله: «وينذُرون ولا يوفون» أي: لا يؤدُّون ما وجب عليهم، فظهورُ هذه الأعمال الذميمة، يدلُّ على ضعف إسلامهم وعدم إيمانهم.

قوله: «ويظهر فيهم السِّمن» لرغبتهم في الدنيا، ونيل شهواتهم والتنعُم بها وغفلتهم عن الدار الآخرة والعمل لها. وفي حديث أنس: «لا يأتي زمانٌ إلاَّ والذي بعده شرٌّ منه تلقوا ربكم» قال أنس: سمعته من نبيكم ﷺ[1]. فما زال الشرُّ يزيد في الأمة، حتى ظهر الشركُ والبدع في كثير منهم، حتى فيمن ينتسب إلى العلم، ويتصدَّر للتعليم والتصنيف[2].

قال المصنف رحمه الله تعالى: وفيه، عن ابن مسعود: أنَّ النبي ﷺ قال: خيرُ الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قومٌ تسبق شهادةُ أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»[3][4].

قوله: «ولا يؤتمنون»: أي: ليس وأهلاً للأمانة؛ فلا يؤتمنون على الدماء، ولا الأموال، ولا الأعراض، ولا أي شيء، والظاهر أن هذا في القرن الرابع؛ فما بالك بالقرن الخامس عشر؟!

وفي حديث آخر: **«ويفشو بينهم الكذب»**[5].

قوله: «وينذرون ولا يوفون»: هذا هو الوصف الثالث لهم. النذر: إلزام الإنسان نفسه بالشيء، وقد يكون للآدمي، وهذا بمعنى العهد الذي يوقعه الإنسان بينه وبين غيره، وقد يكون لله؛ كنذر العبادة يجب الوفاء به، فهم ينذرون لله ولا يوفِون له، ويعاهدون المخلوق ولا يوفون لا، وهذا من صفات النفاق.

قوله: «ويظهر فيهم السِّمن»: هذا هو الوصف الرابع لهم. **«السمن»**: كثرة الشحم واللحم، وهذا الحديث مشكل؛ لأن ظهور السمن ليس باختيار الإنسان؛ فكيف يكون صفة ذم؟!

قال أهل العلم: المراد أن هؤلاء يعتنون بأسباب السمن من المطاعم والمشارب والترف، فيكون همهم إصلاح أبدانهم وتسمينها. أما السمن الذي لا اختيار للإنسان فيه؛ فلا يذم عليه، كما لا يذم الإنسان على كونه طويلاً أو قصيراً أو أسود أو أبيض، لكن يذم على شيء يكون هو السبب فيه.

قوله: «وفيه»: أي: **«الصحيح»**، وقد سبق الكلام على مثل هذه العبارة من المؤلف رحمه الله.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٧٠٦٨)، والترمذي (٢٢٠٦).

(٢) في قرة العيون: فحدث التفرق والاختلاف في الدين أو حدث الغلو في أهل البيت من بني أمية في المشرق لما كان لهم دولة وبنوا المساجد على القبور وغلوا في أربابها وظهرت دولة القرامطة وظهر فيهم الكفر والإلحاد في شرائع الدين ومذهبهم معروف وظهر فيهم من البدع ما يطول عده وكثر الاختلاف والخوض في أصول الدين، وما زال أهل السنة على الحق ولكن كثرت البدع والأهواء حتى عاد المعروف منكرًا والمنكر معروفًا نشأ على هذا الصغير وهرم عليه الكبير. (ق).

(٣) في قرة العيون: في هذا الحديث أن خير القرون ثلاثة بلا شك. (ق).

(٤) صحيح: رواه البخاري (٢٦٥٢، ٣٦٥١، ٦٤٢٩)، ومسلم (٢٥٣٣).

(٥) صحيح: رواه الترمذي (٢١٦٥)، وابن ماجه (٢٣٦٣)، وأحمد (١١٥)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢٥٤٦).

قال إبراهيم: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد، ونحنُ صغار(١).

قلت: وهذه حال من صرف رغبته إلى الدنيا ونسي المعاد، فخف أمر الشهادة واليمين عنده تحملاً وأداء؛ لقلة خوفه من الله، وعدم مبالاته بذلك. وهذا هو الغالب على الأكثر. والله المستعان. فإذا كان هذا قد وقع في الصدر الأول، ففي ما بعده أكثر بأضعاف. فكن من الناس على حذر.

قال المصنف رحمه الله تعالى: قال إبراهيم: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد، ونحن صغار.

قوله: «قال إبراهيم». هو النخعي. «كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد، ونحن صغار»، وذلك لكثرة علم التابعين، وقوة إيمانهم ومعرفتهم بربهم، وقيامهم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنه من أفضل الجهاد، ولا يقوم الدين إلا به.

وفي هذا: الرغبة في تمرين الصغار على طاعة ربهم، ونهيهم عما يضرهم.

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

قوله: «خير الناس»: دليل على أن قرنه خير الناس؛ فصحابته ﷺ أفضل من الحواريين الذين هم أنصار عيسى، وأفضل من النقباء السبعين الذين اختارهم موسى ﷺ.

قوله: «ثم يجيء قوم»: أي: بعد القرون الثلاثة.

قوله: «تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»: يحتمل ذلك وجهين:

الأول: أنه لقلة الثقة بهم لا يشهدون إلا بيمين؛ فتارة تسبق الشهادة، وتارة تسبق اليمين.

الثاني: أنه كناية عن كون هؤلاء لا يبالون بالشهادة ولا باليمين؛ حتى تكون الشهادة واليمين في حقهم كأنهما متسابقتان. والمعنيان لا يتنافيان؛ فيحمل عليهما الحديث جميعًا.

وقوله: «ثم يجيء قوم»: يدل على أنه ليس كل أصحاب القرن على هذا الوصف؛ لأنه لم يقل: ثم يكون الناس، والفرق واضح. وهذه الأفضلية من حيث العموم والجنس، لا من حيث الأفراد؛ فلا يعني أنه لا يوجد في تابعي التابعين من هو أفضل من التابعين؛ أو لا يوجد في التابعين من هو أعلم من بعض الصحابة، أما فضل الصحبة؛ فلا يناله أحد غير الصحابة ولا أحد يسبقهم فيه، وأما العلم والعبادة؛ فقد يكون فيمن بعد الصحابة من هو أكثر من بعضهم علمًا وعبادة.

تنبيه: ساق المؤلف رحمه الله الحديث بتكرار قوله: «**ثم الذين يلونهم**» ثلاث مرات، وهو في «الصحيحين» بتكرارها مرتين.

قوله: «وقال إبراهيم»: هو إبراهيم النخعي، من التابعين ومن فقهائهم.

قوله: «كانوا يضربوننا على الشهادة ونحن صغار»: في نسخة: «**على الشهادة والعهد**»، والظاهر أن الذي يضربهم ولي أمرهم.

وقوله: «على الشهادة»: أي: يضربوننا عليها إن شهدنا زورًا، أو إذا شهدنا ولم نقم بأدائها ويحتمل أن المراد بذلك ضربهم عن المبادرة باليمين والعهد، وبه فسره ابن عبد البر.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٦٥١).

فيه مسائل:

الأولى: الوصية بحفظ الأيمان.

الثانية: الإخبار بأنَّ الحلف مَنفَقَة للسِّلعة، محقَة للبركة.

الثالثة: الوعيد الشديد فيمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه

الرابعة: التنبيه على أنَّ الذنب يعظم مع قلة الداعي.

الخامسة: ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون.

. . . .

قوله: «والعهد»: أي: إذا تعاهدوا يضربونهم على الوفاء بالعهد.

قوله: «ونحن صغار»: الجملة حالية، وإنما يضربونهم وهم صغار للتأديب.

ويستفاد من كلام إبراهيم أن الصبي تقبل منه الشهادة؛ لأن قوله: «ونحن صغار»؛ أي: لم يبلغوا، وهذا محل خلاف بين أهل العلم. فقال بعضهم: يشترط لأداء الشهادة أن يكون بالغًا، فإذا تحمل وهو صغير؛ لم تقبل منه حتى يبلغ. وقال بعضهم: شهادة الصغار بعضهم على بعض مقبولة تحملاً وأداءً؛ لأن البالغ يندر أن يوجد بين الصغار. وقال بعضهم: تقبل شهادة الصغار بعضهم على بعض إن شهدوا في الحال؛ لأنه بعد التفرق يحتمل النسيان أو التلقين، ولا يسع العمل إلا بهذا، وإلا؛ لضاعت حقوق كثيرة بين الصبيان.

ويستفاد من هذا الأثر جواز ضرب الصبي على الأخلاق إذا لم يتأدب إلا بالضرب.

فيه مسائل:

الأولى: الوصية بحفظ الأيمان: تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، والأمر وصية.

الثانية: الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة: تؤخذ من قوله ﷺ: «الحلف منفقة للسلعة...»[١] إلخ.

الثالثة: الوعيد الشديد لمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه: تؤخذ من قوله ﷺ: «ورجل جعل الله بضاعته؛ لا يشتري إلا بيمينه...»[٢]. إلخ في ضمن الثلاثة الذين لا يكلمهم الله ولا يزكيهم.

الرابعة: التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي: تؤخذ من حديث سلمان، حيث ذكر الأشيمط الزاني والعائل المستكبر، وغلظ في عقوبتهما؛ لأن الداعي إلى فعل المعصية المذكورة ضعيف عندهما.

الخامسة: ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون: لقوله ﷺ: «ورجل جعل الله بضاعته؛ لا يشتري إلا بيمينه....». ولكن هذا ليس على إطلاقه، بل النبي ﷺ حلف ولم يستحلف في مواضع عديدة، بل أمره الله ـ سبحانه ـ أن يحلف في ثلاثة مواضع من القرآن بدون أن يستحلف:

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٨٧)، ومسلم (١٦٠٦)، وأبو داود (٣٣٣٥)، والنسائي (٤٤٦١).

(٢) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣٠٧٢).

السادسة: ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة، أو الأربعة، وذكر ما يحدث بعدهم.

السابعة: ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون.

الثامنة: كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد.

. . . .

في قوله: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي﴾ [يونس: ٥٣].

وفي قوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧].

وفي قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣].

وعليه؛ فإن الحلف إذا دعت الحاجة إليه أو اقتضته المصلحة؛ فإنه جائز، بل قد يكون مندوبًا إليه؛ كحلف النبي ﷺ في قصة المخزومية، حيث قال: **«وايم الله؛ لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»**[١]؛ فقد وقع موقعًا عظيمًا من هؤلاء القوم الذين أهمهم شأن المخزومية وممن يأتي بعدهم.

السادسة: ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة أو الأربعة وذكر ما يحدث بعدهم: تؤخذ من قوله ﷺ: **«خير الناس قرني...»**[٢].

وقوله: «أو الأربعة»: بناءً على ثبوت ذكر الرابع، وأكثر الروايات وأثبتها على حذفه.

وقوله: «وذكر ما يحدث»: لو جعلت هذه مسألة مستقلة؛ لكان أبين وأوضح؛ لأن الإخبار عن شيء مستقبل ووقوعه كما أخبر دليل على رسالته ﷺ.

السابعة: ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون: تؤخذ من حديث عمران، وكذا ذم الذين يخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، والذين يتعاطون أسباب السمن ويغفلون عن سمن القلب بالإيمان والعلم.

الثامنة: كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد: تؤخذ من قول إبراهيم النخعي: «كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد»؛ فيؤخذ منه تعظيم شأن العهد والشهادة وضرب الصغار على ذلك، ويؤخذ منه أيضًا عناية السلف بتربية أولادهم، وأن منهجهم الضرب على تحقيق ذلك استنادًا إلى إرشاد نبيهم ﷺ، حيث أمر بضرب من بلغ عشر سنين على الصلاة، لكن يشترط لجواز الضرب شروط:

الأول: أن يكون الصغير قابلاً للتأديب؛ فلا يضرب من لا يعرف المراد بالضرب.

الثاني: أن يكون التأديب ممن له ولاية عليه.

الثالث: أن لا يسرف في ذلك كمية أو كيفية أو نوعًا أو موضعًا أو غير ذلك.

الرابع: أن يقع من الصغير ما يستحق التأديب عليه.

الخامس: أن يقصد تأديبه لا الانتقام لنفسه، فإن قصد الانتقام؛ لم يكن مؤدبًا، بل منتصرًا.

الذِّمة: العهد، وسُمي بذلك؛ لأنه يلتزم به كما يلتزم صاحب الدَّين بدينه في ذمته.

والله له عهد على عباده: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا.

وللعباد عهد على الله، وهو: أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٧٥، ٤٣٠٤، ٦٧٨٨)، ومسلم (١٦٨٨).

(٢) صحيح: وقد تقدم.

٦٢ ـ باب
ما جاء في ذمة الله وذمة رسوله

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١].

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب ما جاء في ذمة الله وذمة رسوله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١].

قال العماد ابن كثير: وهذا مما يأمر الله تعالى به، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأيمان المؤكدة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ ولا تعارض بين هذا، وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤] وبين قوله: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] أي: لا تتركوها بلا تكفير، وبين قوله ﷺ في «الصحيحين»: **«إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها»** وفي رواية ـ **«وكفرت عن يميني»**[1]، لا تعارض بين هذا كله، وبين الآية المذكورة هنا وهي قوله ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ لأن هذه الأيمان، المراد بها: الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان الواردة على حث أو منع. ولهذا قال مجاهد، في الآية: يعني الحلف، أي: حلف الجاهلية.

يؤيده: ما رواه الإمام أحمد، عن جبير بن مطعم، قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا حلف في**

باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه

المقصود من هذه الترجمة البعد والحذر من التعرض للأحوال التي يخشى منها نقض العهود والإخلال بها بعد ما يجعل للأعداء المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله، فإنه متى وقع النقض في هذه الحال كان انتهاكًا من المسلمين لذمة الله وذمة نبيه، وتركًا لتعظيم الله وارتكابًا لأكبر المفسدتين: كما نبه عليه، وفي ذلك أيضا تهوين للدين والإسلام وتزهيد للكفار به: فإن الوفاء بالعهود خصوصًا المؤكدة بأغلظ المواثيق من محاسن الإسلام الداعية للأعداء المنصفين إلى تفضيله واتباعه.

ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً﴾؛ فهذا عهد الله عليهم، ثم قال: ﴿**لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ [المائدة: ١٢]، وهذا عهدهم على الله.

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، وللنبي ﷺ عهد على الأمة، وهو أن يتبعوه في شريعته ولا يبتدعوا فيها، وللأمة عليه عهد وهو أن يبلغهم ولا يكتمهم شيئًا.

وقد أخبر النبي ﷺ أنه ما من نبي إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على ما هو خير[2].

والمراد بالعهد هنا: ما يكون بين المتعاقدين في العهود كما كان بين النبي ﷺ وأهل مكة في صلح الحديبية.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣١٣٣) ومواضع، ومسلم (١٦٤٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٤٤)، والنسائي (٤١٩١)، وابن ماجه (٣٩٥٦)، وأحمد (٦٧٥٤).

وعن بُريدة، قال: كان رسول الله ﷺ، إذا أمَّر أميراً على جيش أو سريَّة، أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً. فقال: «اغزوا بسم الله، في سبيل الله،

الإسلام، و أيّما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة»(١).

وكذا رواه مسلم. ومعناه: أنَّ الإسلام لا يحتاج معه إلىٰ الحلف، الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإنَّ التمسك بالإسلام، حمايةً وكفاية عمَّا كانوا فيه.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ تهديدٌ ووعيد، لمن نقض الأيمان بعد توكيدها.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن بُريدة، قال: كان رسول الله ﷺ، إذا أمَّر أميراً على جيش أو سريَّة، أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً. فقال: «اغزوا بسم

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا﴾: أمر من الرباعي من أوفىٰ يوفي، والإيفاء إعطاء الشيء تامًّا، ومنه إيفاء المكيال والميزان.

قوله: ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾: يصلح أن يكون من باب إضافة المصدر إلىٰ فاعله أو إلىٰ مفعوله؛ أي: بعهدكم الله، أو بعهد الله إياكم؛ لأن الفعل إذا كان علىٰ وزن فاعل اقتضىٰ المشاركة من الجانبين غالبًا، مثل: قاتل ودافع.

قوله: ﴿إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾: فائدتها التوكيد والتنبيه علىٰ وجوب الوفاء؛ أي: إذا صدر منكم العهد؛ فإنه لا يليق منكم أن تدعوا الوفاء. ثم أكّد ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾. نقض الشيء هو حل إحكامه، وشبّه العهد بالعقدة؛ لأنه عقد بين المتعاهدين.

قوله: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾: توكيد الشيء بمعنىٰ تثبيته، والتوكيد مصدر وكَّد، يقال: وكَّد الأمر وأكده تأكيداً وتوكيداً، والواو أفصح من الهمزة.

قوله: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾: الجملة حالية فائدتها قوة التوبيخ علىٰ نقض العهد واليمين. ووجه جعل الله كفيلاً: أن الإنسان إذا عاهد غيره قال: أعاهدك بالله، أي أنه جعل الله عليه كفيلاً.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾: ختم الله الآية بالعلم تهديداً عن نقض العهد؛ لأن الإنسان إذا علم بأن الله يعلم كل ما يفعل؛ فإنه لا ينقض العهد.

ومناسبة الآية للترجمة واضح جداً؛ لأن الله قال: ﴿أوفوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾، وقال: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾. والعهد: الذمة.

ومناسبة الباب للتوحيد:

أن عدم الوفاء بعهد الله تَنَقُّص له، وهذا مخل بالتوحيد.

قوله: «إذا أمّرَ»: أي: جعله أميراً، والأمير في صدر الإسلام يتولىٰ التنفيذ والحكم والفتوىٰ والإمامة.

قوله: «أو سرية»: هذه ليست للشك، بل للتنويع؛ فإن الجيش ما زاد علىٰ أربعمائة رجل والسرية ما دون ذلك.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٣٠).

قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلُّوا ولا تغـدروا، ولا تُمثِّلوا، ولا تقتلوا وليدًا. وإذا لقيت عدوَّك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصالَ ـ أو خلال ـ فأيَّتهُن ما أجابوك، فاقبل منهم وكفَّ عنهم، ثم ادعـهم إلى الإسلام فـأن أجابوك فـأقبل منهم وكف عنهم ثم ادعـهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين. وأخبـرهم: أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم مـا على المهاجرين. فـإن أبوا أن يتحوَّلوا منها، فـأخبرهم: أنهم يكونون كـأعراب المسلمين، يجري عليـهم حكم الله تعالى، ولا يكون لهم في الغنيـمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. فإن هـم أبوا، فاسألهم الجزية، فإن هم أجـابوك، فاقبل منهم وكفَّ عنهم. فإن هم أبوا، فاستعن بالله، وقـاتلهم. وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمَّة الله وذمَّـه نبيـه. فلا تجعل لهم ذمَّـة الله وذمة نبيـه، ولكن اجعَل لهم ذمَّـتَك وذمة أصحابك، فـإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصـحابكم، أهونُ من أن تخفـروا ذمَّة الله وذمة نبيـه، وإذا حاصـرت أهل حصن، فـأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فـلا تنزلهم، ولكن أنزلهم على حـكمك. فـإنك لا تدري: أتصـيبُ فـيـهم حُكمَ الله أم لا؟» رواه مـسلم[1].

الله، في سبيل الله، قاتلوا من كـفر بالله، اغـزوا ولا تغلُّوا ولا تغدروا، ولا تُمثِّـلوا، ولا تقتلوا وليـدًا. وإذا لقـيت عدوَّك من المشـركين، فـادعـهم إلى ثلاث خصـال ـ أو خـلال ـ فأيَّـتهُن مـا أجابوك، فاقـبل منهم وكفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فأن أجابوك فـأقبل منهم وكف عنهم ثم ادعـهم إلى التحـول من دارهم إلى دار المهاجـرين. وأخبـرهم: أنهم إن فعلوا ذلك فلهـم ما للمهـاجرين، وعليهم مـا على المهاجرين. فـإن أبوا أن يتحوَّلـوا منها، فأخـبرهم: أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهـم حكم الله تعالى، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجـاهدوا مع المسلمين. فإن هم أبوا، فـاسألهم الجـزية، فإن هم أجـابوك، فاقـبل منهم وكفَّ عنهم. فإن هم أبوا، فاسـتعن بالله، وقاتلهم. وإذا حاصرت أهل حـصن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمَّة الله وذمَّه نبـيه. فلا تجعل لهم ذمَّة الله وذمـة نبيه، ولكن اجعِل لهم ذمَّتك وذمـة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم، أهونُ من أن تخفروا ذمَّة الله وذمة نبيه، وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فـلا تنزلهم، ولكن أنزلهم على حكمك. فإنك لا تدري: أتصيبُ فيهم حُكمَ الله أم لا؟» رواه مسلم.

والسرايا ثلاثة أقسام:

أ ـ قسم ينفذ من البلد، وهذا ظاهر، ويقسم ما غنمه قسمة ما غنم الجيش.

ب ـ قسم يُنفذ في ابتداء سفر الجهاد، وذلك بأن يخرج الجيش بكامله ثم يبعث سرية تكون أمامهم.

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (١٧٣١).

. . . .

قوله: (عن بريدة)، هو ابن الحصيب الأسلمي، وهذا الحديث من رواية ابنه سُليمان عنه. قاله في (المفهم).

قوله: (كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية، أوصاه في خاصَّته بتقوى الله تعالى) فيه من الفقه: تأميرُ الأمراء، ووصيَّتهم.

قال الحربي: السرية: الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها. والجيش: ما كان أكثر من ذلك، و تقوىٰ الله: التحرُّز بطاعته من عقوبته.

قلت: وذلك بالعمل بما أمر الله به، والانتهاء عما نهىٰ الله عنه.

قوله: (ومن معه من المسلمين خيرًا) أي: ووصَّاه بمن معه منهم، أن يفعل معهم خيرًا: من الرفق بهم، والإحسان إليهم، وخفضِ الجناح لهم، وترك التعاظم عليهم.

وقوله: «اغزوا باسم الله» أي: اشرعوا في فعل الغزو، مستعينين بالله مخلصين له. قلتُ: فتكون الباء في باسم الله هنا، للاستعانة والتوكل على الله.

ج- قسم ينفذ في الرجعة، وذلك بعد رجوع الجيش. وقد فرّق العلماء بينهما من حيث الغنيمة؛ فلسرية الابتداء الربع بعد الخمس؛ لأن الجيش وراءها، فهو ردء لها وسيلحق بها، ولسرية الرجعة الثلث بعد الخمس؛ لأن الجيش قد ذهب عنها؛ فالخطر عليها أشد. وهذا الذي تعطاه السريتان راجع إلىٰ اجتهاد الإمام: إن شاء أعطىٰ وإن شاء منع حسبما تقتضيه المصلحة.

قوله: «أوصاه»: الوصية: العهد بالشيء إلىٰ غيره علىٰ وجه الاهتمام به.

قوله: «بتقوى الله»: التقوىٰ: هي امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه علىٰ علم وبصيرة، وهي مأخوذة من الوقاية، وهي اتخاذ وقاية من عذاب الله، وذلك لا يكون إلا بفعل الأوامر واجتناب النواهي، وقال بعضهم: التقوىٰ: أن تعمل بطاعة الله علىٰ نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهىٰ عنه الله علىٰ نور من الله تخشىٰ عقاب الله.

وقال بعضهم:

خَلِّ الذنوبَ صغيرها ... وكبيرها ذاك التقى

واعمل كماش فوق أر ... ض الشوك يحذرُ ما يرى

لا تحقرنَّ صغيرةً ... إن الجبال من الحصى

وهذه التعريفات كلها تؤدي معنىٰ واحدًا. وكان الوصية بالتقوىٰ لأمير الجيش؛ لأن الغالب أن الأمير يكون معه تَرَفُّع يخشىٰ منه أن يجانب الصواب من أجله، ولأن تقواه سبب لتقوىٰ من تحت ولايته.

قوله: «وبمن معه من المسلمين خيرًا»: أي: أوصاه أن يعمل بمن معه من المسلمين خيرًا في أمور الدنيا والآخرة؛ فيسلك بهم الأسهل، ويطلب لهم الأخصب إذا كانوا علىٰ إبل أو خيل، ويمنع عنهم الظلم، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، وغير ذلك مما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة.

ويستفاد من هذا الحديث: أنه يجب علىٰ من تولىٰ أمرًا من أمور المسلمين أن يسلك بهم الأخير،

. . . .

وقوله: «قاتلوا من كفر بالله» هذا العموم يشمل جميع أهل الكفر، المحاربين وغيرهم، وقد خُصِّص منهم من له عهدٌ، والرهبان والنسوان، ومَن لم يبلغ الحلم، وقد قال متصلاً به: «ولا تقتلوا وليدًا» وإنما نهىٰ عن قتل الرهبان والنسوان؛ لأنه لا يكون منهم قتال غالبًا، فإن كان منهم قتالٌ أو تدبير قُتلوا.

قلت: وكذلك الذَّراري، والأولاد.

قوله: «ولا تغلُّوا ولا تغدروا ولا تمثِّلوا» الغلول: الأخذ من الغنيمة، من غير قسمتها. والغدر: نقضُ العهد، والتمثيل هنا: التشويه بالقتيل، كقطع أنفه وأُذنه والعبث به، ولا خلاف في تحريم الغلول والغدر، وفي كراهة المُثلة.

بخلاف عمل الإنسان بنفسه؛ فإنه لا يلزم إلا بالواجب.

قوله: «اغزوا باسم الله»: يحتمل أنه أراد أن يعلمهم أن يكونوا دائمًا مستعينين بالله، ويحتمل أنه أراد أن يفتتح الغزو باسم الله. والأول أظهر، والثاني أيضًا محتمل؛ لأن بعث الجيوش من الأمور ذات البال، وكل أمر لا يبدأ فيه باسم الله؛ فهو أبتر.

قوله: «في سبيل الله»: متعلق بـ «اغزوا»، وهو تنبيه من الرسول ﷺ علىٰ حسن النية والقصد؛ لأن الغزاة لهم أغراض، ولكن الغزو النافع الذي تحصل به إحدىٰ الحسنيين ما كان خالصًا لله، وذلك بأن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا لا لحمية أو شجاعة أو ليُرىٰ مكانه أو لطلب دنيا.

فإن قاتل لأجل الوطن: فمن قاتل لأنه وطن إسلامي تجب حمايته وحماية المسلمين فيه؛ فهذه نية إسلامية صحيحة، وإن كان للقومية أو الوطنية فقط؛ فهو حمية وليس في سبيل الله.

وقوله: «في سبيل الله»: تشمل النية والعمل؛ فالنية سبقت.

والعمل: أن يكون الغزو في إطار دينه وشريعته، فيكون حسبما رسمه الشارع.

قوله: «قاتلوا من كفر بالله»: «قاتلوا»: فعل أمر وهو للوجوب، ؛ أي: يجب علينا أن نقاتل من كفر بالله، قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩]، وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، فإذا قاتلنا الذين يلوننا، فأسلموا؛ نقاتل من وراءهم، وهكذا إلىٰ أن نخلص إلىٰ مشارق الأرض ومغاربها. و«من»: اسم موصول، وصلته «كفر»، والاسم الموصول وصلته يفيد العلية؛ أي: لكفره، فنحن لا نقاتل الناس عصبية أو قومية أو وطنية، نقاتلهم لكفرهم لمصلحتهم وهي إنقاذهم من النار. والكفر مداره علىٰ أمرين: الجحود، والاستكبار. أي: الاستكبار عن طاعته، أو الجحود لما يجب قبوله وتصديقه.

قوله: «اغزوا»: تأكيد، وأتىٰ بها ثانية كأنه يقول: لا تحقروا الغزو واغزوا بجد.

قوله: «ولا تَغُلُّوا»: الغلول: أن يكتم شيئًا من الغنيمة فيختص به، وهو من كبائر الذنوب، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١] أي: معذبًا به؛ فهو يعذب بما غلَّ يوم

. . . .

. . . .

القيامة ويُعَزَّر في الدنيا، قال أهل العلم: يعزر الغال بإحراق رحله كله؛ إلا المصحف لحرمته، والسلاح لفائدته، وما فيه روح؛ لأنه لا يجوز تعذيبه بالنار.

قوله: «ولا تغدروا»: الغَدْرُ: الخيانة، وهذا هو الشاهد من الحديث، وهذا إذا عاهدنا؛ فإنه يحرم الغدر، أما الغدر بلا عهد؛ فلنا ذلك لأن الحرب خدعة، وقد ذكر أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه خرج إليه رجل من المشركين ليبارزه، فلما أقبل الرجل على عليّ صاح به عليّ: ما خرجت لأبارز رجلين. فالتفت المشرك يظن أنه جاء أحد من أصحابه ليساعده، فقتله علي رضي الله عنه.

وليعلم أن لنا مع المشركين ثلاث حالات:

الحال الأولى: أنه لا يكون بيننا وبينهم عهد؛ فيجب قتالهم بعد دعوتهم إلى الإسلام وإبائِهِم عنه وعن بذل الجزية، بشرط قدرتنا على ذلك.

الحال الثانية: أن يكون بيننا وبينهم عهد محفوظ يستقيمون فيه؛ فهنا يجب الوفاء لهم بعهدهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]، وقوله: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: ٤].

الحال الثالثة: أن يكون بيننا وبينهم عهد نخاف خيانتهم فيه؛ فهنا يجب أن ننبذ إليهم العهد ونخبرهم أنه لا عهد بيننا وبينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

قوله: «ولا تمثلوا»: التمثيل: التشويه بقطع بعض الأعضاء؛ كالأنف واللسان وغيرهما، وذلك عند أسرهم؛ لأنه لا حاجة إليه؛ لأنه انتقام في غير محله، واختلف العلماء فيما لو كانوا يفعلون بنا ذلك.

فقيل: لا يمثل بهم للعموم، والنبي ﷺ لم يستثن شيئًا، ولأننا إذا مَثَّلنا بواحد منهم؛ فقد يكون لا يرضى بما فعل قومه؛ فكيف نمثل به؟! وقيل: نمثل بهم كما مثلوا بنا؛ لأن هذا العموم مقابل بعموم آخر، وهو قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وإذا لم نمثل بهم مع أنهم يمثلون بنا؛ فقد يفسر هذا بأنه ضعفٌ، وإذا مثلنا بهم في هذه الحال؛ عرفوا أن عندنا قوة ولم يعودوا للتمثيل بنا ثانية.

والظاهر القول الثاني.

فإن قيل: قد نمثل بواحد لم يمثل بنا ولا يرضى بالتمثيل؟

فيقال: إن الأمة الواحدة فعل الواحد منها كفعل الجميع، ولهذا كان الله ـ عز وجل ـ يخاطب اليهود في عهد الرسول ﷺ بأمور جرت في عهد موسى، قال تعالى ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة: ٩٣]، وما أشبه ذلك.

قوله: «ولا تقتلوا وليدًا»: أي: لا تقتلوا صغيرًا؛ لأنه لا يقاتل، ولأنه ربما يُسلم.

. . . .

وقوله: «وإذا لقيت عدوَّك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال، أو خصال» الرواية بأو للشك، وهو من بعض الرواة. ومعنى الخلال والخصال. واحد.

وقوله: «فأيَّتهُنَّ ما أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم» قيَّدناه، عمَّن يوثق بعلمه.

وتقييده بنصب أيتَّهن؛ على أن يعمل فيها أجابوك، لا على إسقاط حرف الجر. وما زائدةٌ. ويكون تقدير الكلام: فإلى أيتهنَّ أجابوك فاقبل منهم. كما تقول: أجبتك إلى كذا أو في كذا. فيُعدَّى إلى الثاني بحروف الجر.

قلت: فيكون في ناصب «أيتَّهن» وجهان: ذكرهما الشارح. الأوَّل: منصوب على الاشتغال. والثاني: على نزع الخافض.

قوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام» كذا وقعت الرواية في جميع نسخ كتاب مسلم «ثم ادعهم» بزيادة ثم، والصوابُ إسقاطها، كما روي في غير (كتاب مسلم)، كـ «مصنف أبي داود»، وكتاب (الأموال) لأبي عُبيد؛ لأن ذلك هو ابتداء تفسير الثلاث الخصال.

وورد في أحاديث أخرى: أنه لا يقتل راهب ولا شيخ فانٍ ولا امرأة إلا أن يقاتلوا، أو يُحرِّضوا على القتال، أو يكون لهم رأي في الحرب، كما قتل دريد بن الصّمة في غزوة ثقيف مع كبره وعماه[1].

واستدل بهذا الحديث أن القتال ليس لأجل أن يسلموا، ولكنه لحماية الإسلام، بدليل أننا لا نقتل هؤلاء، ولو كان من أجل ذلك لقتلناهم إذا لم يسلموا، ورجح شيخ الإسلام هذا القول، وله رسالة في ذلك اسمها «قتال الكفار».

قوله: «وإذا لقيت عدوك»: أي: قابلته أو وجدته، وبدأ بذكر العداوة تهييجًا لقتالهم؛ لأنك إذا علمت أنهم أعداء لك؛ فإن ذلك يدعوك إلى قتالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ**﴾ [الممتحنة: ١]، وهذا أبلغ وأعم من قوله في آية أخرى: ﴿**لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ**﴾ [المائدة: ٥١]، لكن خص في هذه الآية باليهود والنصارى؛ لأن المقام يقتضيه.

والعدو ضد الولي، والولي من يتولى أمورك ويعتني بك بالنصر والدفاع وغير ذلك، والعدو يخذلك ويبتعد عنك ويعتدي عليك ما أمكنه.

قوله: «من المشركين»: يدخل فيه كل الكفار، حتى اليهود والنصارى.

قوله: «خصال أو خلال»: بمعنى واحد، وعليه؛ فـ «أو» للشك في اللفظ، والمعنى لا يتغير.

قوله: «فأيتهن ما أجابوك»: «**أيتهن**»: اسم شرط مبتدأ، «**ما**» : زائدة، وهي تزاد بالشرط تأكيداً للعموم؛ كقوله تعالى: ﴿**أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ**﴾ [الإسراء: ١١٠]، والكاف مفعول به، والعائد إلى اسم الشرط محذوف، والتقدير: فأيتهن ما أجابوك إليه؛ فاقبل منهم وكف عنهم، فلا تقاتلهم.

قوله: «ثم ادعهم»: «ثم»: زائدة؛ كما في رواية أبي داود، ولأنه ليس لها معنى. ويمكن أن

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٣٢٣).

. . . .

وقوله: «ثم ادعهم إلى التحولِ إلى دار المهاجرين» يعني المدينة، وكان هذا في أول الأمر، وقت وجوب الهجرة إلى المدينة على كلِّ من دخل في الإسلام. وهذا يدلُّ على أنَّ الهجرة واجبةٌ على كل من آمن من أهل مكة، وغيرها (١).

قوله: «فإن أبوا أن يتحولوا» يعني: أنَّ من أسلم ولم يُجاهد ولم يهاجر، لا يُعطى من الخُمس ولا من الفيء شيئًا. وقد أخذ الشافعيُّ بالحديث في الأعراب، فلم ير لهم من الفيء شيئًا. وأنَّ لهم الصدقة المأخوذة من أغنيائهم، فتردُّ على فقرائهم. كما أنَّ أهل الجهاد وأجناد المسلمين لا حق لهم في الصدقة عنده، ومصرفُ كلِّ مال في أهله، وسوَّى مالك وأبو حنيفة بين المالين، وجوَّزا صرفهما للضعيف.

يقال: إنها ليست من كلام الرسول ﷺ، بل من كلام الراوي على تقدير: ثم قال ادعهم.

وقوله: «إلى الإسلام»: أي: المتضمن للإيمان؛ لأنه إذا أفرد شمل الإيمان، وإذا اجتمعا افترقا، كما فرق النبي ﷺ بينهما في حديث جبريل.

والإيمان عند أهل السنة تدخل فيه الأعمال، قال ﷺ: **«الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»** (٢)، فإن أجابوا للإسلام؛ فهذا ما يريده المسلمون، فلا يحل لنا أن نقاتلهم، ولهذا قال النبي ﷺ: **«فاقبل منهم»**.

قوله: «ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين»: هذه الجملة تشير إلى أن الذين قوتلوا أهل بادية، فإذا أسلموا؛ طلب منهم أن يتحولوا إلى ديار المهاجرين ليتعلموا دين الله؛ لأن الإنسان في باديته بعيد عن العلم، كما قال تعالى: ﴿**الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ**﴾ [التوبة: ٩٧]، وهذا أصل في توطين البوادي.

وقوله: «إلى دار المهاجرين»: يحتمل أن المراد بها العين؛ أي: المدينة النبوية، ويحتمل أن المراد بها الجنس؛ أي: الدار التي تصلح أن يُهاجر إليها لكونها بلد إسلام، سواء كانت المدينة أو غيرها.

ويقوي الاحتمال الثاني - وهو أن المراد بها الجنس -: أنه لو كان المراد المدينة؛ لكان الرسول ﷺ يعبر عنها باسمها ولا يأتي بالوصف العام، ويقوي الاحتمال الأول: أن دار المهاجرين الأولى هي المدينة، والظاهر الاحتمال الثاني.

قوله: «فإن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين»: وهذا تمام العدل، ولا يقال: إن الحق لصاحب البلد الأصلي؛ فلهم ما للمهاجرين من الغنيمة والفيء، وعليهم ما عليهم من الجهاد والنصرة.

قوله: «ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين»: يعني: إذا لم يتحولوا إلى دار المهاجرين؛ فليس لهم في الغنيمة والفيء شيء.

---

(١) في قرة العيون: وكذلك إذا ظهرت المعاصي في بلدة. نص عليه الفقهاء في كتبهم. اهـ. يعني إذا غلبت المعاصي وأهلها ولم يقدر ولم يجد سبيلاً للإنكار عليهم. أما إذا وجد السبيل لإقامة الحجة. فإن بقاءه يكون واجبًا لتبليغ الدين خصوصًا إذا كان يدعو إلى التوحيد ومحاربة الشرك والبدع ويجد من يسمع له ويصغي إليه وينتفع بدعوته. والله الموفق. (ق).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٣٥).

. . . .

وقوله: «فإن هم أبوا فاسألهم الجزية» فيه: حجة لمالك وأصحابه، والأوزاعي في أخذ الجزية من كلِّ كافرٍ: عربيًا كان أو غيره، كتابيًا كان أو غيره.

وذهب أبو حنيفة إلىٰ أنَّها تؤخذُ من الجميع، إلاَّ من مشركي العرب ومجوسه.

وقال الشافعي: لا تُؤخذ إلا من أهل الكتاب: عربًا كانوا أو عجمًا. وهو قولُ الإمام أحمد في ظاهر مذهبه، وتُؤخذ من المجوس.

قلت: لأن النبي ﷺ أخذها منهم، وقال: «سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب».

وقد اختُلف في القدر المفروض من الجزية، فقال مالك: أربعةُ دنانير علىٰ أهل الذهب، وأربعون درهمًا علىٰ أهل الورق، وهل ينقص منها الضعيف أو لا؟ قولان. وقال الشافعي: فيه دينارٌ علىٰ الغني والفقير. وقال أبو حنيفة والكوفيون: علىٰ الغني ثمانية وأربعون درهمًا، والوسط أربعةٌ وعشرون درهمًا، والفقير اثنا عشر درهمًا، وهو قول أحمد بن حنبل.

والغنيمة: ما أخذ من أموال الكفار بقتال أو ما ألحق به.

والفيء: ما يصرف لبيت المال؛ كخمس الغنيمة، والجزية، والخراج، وغيرها.

وقوله: «إلا أن يجاهدوا مع المسلمين»: يفيد أنهم إن جاهدوا مع المسلمين استحقوا من الغنيمة ما يستحقه غيرهم.

وأما الفيء؛ فاختلف أهل العلم في ذلك:

فعند الإمام أحمد: لهم حق في الفيء مطلقًا، ولهم حق في الغنيمة إن جاهدوا. وقيل: لا حق لهم في الفيء، إنما الفيء يكون لأهل البلدان بدليل الاستثناء، فهو عائد علىٰ الغنيمة؛ إذ ليس من في البلد مستعدًا للجهاد ويتعلم الدين وينشره كأعرابي عند إبله. فإذا أسلموا؛ فلهم ثلاث مراتب:

١ ـ التحول إلىٰ دار المهاجرين، وحينئذ يكون لهم ما للمهاجرين وعليهم ما علىٰ المهاجرين.

٢ ـ البقاء في أماكنهم مع الجهاد؛ فلهم ما للمجاهدين من الغنيمة، وفي الفيء الخلاف.

٣ ـ البقاء في أماكنهم مع ترك الجهاد؛ فليس لهم من الغنيمة والفيء شيء.

قوله: «فإن هم أبوا»: «هم» عند البصريين: توكيد للفاعل المحذوف مع فعل الشرط، والتقدير: فإن أبوا هم، وعند الكوفيين: مبتدأ خبره الجملة بعده. والقاعدة عندنا إذا اختلف النحويون في مسألة: أن نتبع الأسهل، والأسهل هنا إعراب الكوفيين.

قوله: «فاسألهم الجزية»: سؤال عطاء لا سؤال استفهام، والفرق بين سؤال الاستفهام وسؤال العطاء: أن سؤال الاستفهام يتعدىٰ إلىٰ المفعول الثاني بـ «عن»، قال الله تعالىٰ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٤٢]. وقد يكون المفعول الثاني جملة استفهامية؛ كقوله تعالىٰ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ [المائدة: ٤]. وأما سؤال الإعطاء؛ فيتعدىٰ إليه بنفسه؛ كقولك: سألت زيدًا كتابًا.

والجزية: فعلة من جزىٰ يجزي، وظاهر فيها أنها مكافأة علىٰ شيء، وهي عبارة عن مال مدفوع

. . . .

قال يحيىٰ بن يوسف الصرصري الحنبلي:

وقـاتل يـهـوداً والنـصارى وعـصبة الـ ... مجـوس، فإن هم سلَّموا الجزية اصدد
على الأدون اثنا عشـر درهـمًا افرضـن ... وأربـعـة مـن بـعد عـشريـن زيِّـد
لأوسطهم حـالاً، ومـن كـان موسـراً ... ثمـانية مـع أربعـين لتـنقـد
وتسـقط عـن صبيانهم ونـسائهم ... وشيخ لهم فانٍ وأعمـى ومقعـد
وذي الفـقر والمجنـون أو عبد مسـلم ... ومن وجبت منهـم عليـه فيهتـدي

وعند مالكٍ، وكافَّة العلماء: على الرجال الأحرار البالغين والعقلاء، دون غيرهم. وإنَّما تُؤخذ ممن كان تحت قهر المسلمين، لا ممن نأىٰ بداره، ويجب تحويلهم إلىٰ بلاد المسلمين، أو حربهم.

وقوله: «وإذا حاصرت أهل حصن» الكلام إلىٰ آخره، فيه حجةٌ لمن يقول من الفقهاء، وأهل الأصول: إنَّ المصيب في مسائل الاجتهاد واحد. هو المعروفُ من مذهب مالك، وغيره.

ووجه الاستدلال: أنه ﷺ قد نص على أنَّ لله تعالىٰ حُكمًا معينًا في المجتهدات، ومن وافقه فهو المصيب، ومن لم يوافقه مخطئ.

قوله: «وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله» الحديث.

الذِّمة: العهد، وتخفِر: تنقض، يقال: اخفرتَ الرجل: نقضت عهده، وخفرتَه: أجرته.

من غير المسلم عوضًا عن حمايته وإقامته بدارنا.

والذمي معصوم ماله ودمه وذريته مقابل الجزية، قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]؛ أي: يسلموها بأيديهم، لا يقبل أن يرسل بها خادمه أو ابنه، بل لابد أن يأتي بها هو. وقيل: ﴿عَن يَدٍ﴾: عن قوة منكم، والصحيح أنها شاملة للمعنيين. وقيل: ﴿عَن يَدٍ﴾: أن يعطيك إياها فتأخذها بقوة بأن تجريده حتىٰ يتبين له قوتك، وهذا لا حاجة إليه.

وقوله: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾: أي: يجب أن يتصفوا بالذل والهوان عند إعطائها، فلا يعطوها بأبهة وترفع مع خدم وموكب ونحو ذلك، وجعل بعض العلماء من صغارهم أن يطال وقوفهم عند تسلمها منهم.

قوله: «فاستعن بالله وقاتلهم»: بدأ النبي ﷺ بطلب العون من الله؛ لأنه إذا لم يعنك في جهاد أعدائه؛ فإنك مخذول، والجملة جواب الشرط.

قوله: «وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك»: الحصر: التضييق؛ أي: طوقتهم وضيقت عليهم بحيث لا يخرجون من حصنهم ولا يدخل عليهم أحد.

والحصن: كل ما يُتَحصَّنُ به من قصور أو أحواش وغيرها.

قوله: «أرادوك»: أي: طلبوك، وضمَّن الإرادة معنىٰ الطلب، وإلا؛ فإن الأصل أن تتعدىٰ بـ«من»؛ فقال: أرادوا منك.

قوله: «فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه»: الذمة: العهد، فإذا قال أهل الحصن المحاصرون:

. . . .

ومعناه: أنَّه خاف من نقض من لم يعرف حقَّ الوفاء بالعهد، كجهلة الأعراب، فكأنه يقول: إن وقع نقضٌ من متعد، كان نقض عهد الخلق أهون من نقض عهد الله تعالىٰ. والله أعلم.

قوله: وقول نافع: وقد سُئل عن الدعوة قبل القتال[1].

ذكر فيه: أنَّ مذهب مالك، يجمع فيه بين الأحاديث في الدعوة قبل القتال.

قال: وهو أن مالكًا، قال: لا يقاتل الكفار قبل أن يُدعوا، ولا تُلتمس غِرتُّهم. إلا أن يكونوا بلغتهم الدعوة، فيجوز أن تؤخذ غرتّهم. وهذا الذي صار إليه مالك، وهو الصحيح؛ لأن فائدة الدعوة أن يعرف العدوُّ أن المسلمين لا يقاتلون للدنيا ولا للعصبية، وإنما يقاتلون للدين، فإن علموا بذلك، أمكن أن يكون ذلك سببًا مميلاً لهم إلىٰ الانقياد إلىٰ الحق، بخلاف ما إذا جهلوا مقصود المسلمين، فقد يظنون أنهم يقاتلون للممالك وللدنيا، فيزيدون عتواً وبغضًا. والله أعلم.

نريد أن ننزل علىٰ عهد الله ورسوله؛ فإنه لا يجوز أن ينزلهم علىٰ عهد الله ورسوله، وعلَّل النبي ﷺ ذلك بقوله: «**فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون...**».

قوله: «أن تخفروا»: بضم التاء وكسر الفاء: من أخفر الرباعي؛ أي: غدر، وأما خفر يخفر الثلاثي فهي بمعنىٰ أجار، والمُتَعيِّن الأول.

وقوله: «أن تخفروا»: «أن»؛ بفتح الهمزة بدليل رفع «**أهون**» علىٰ أنها خبر، وأن وما دخلت عليها محلها من الإعراب النصب علىٰ أنها بدل اشتمال من اسم «إن»، والتقدير: فإن خفركم ذممكم، والبدل يصح أن يحل محل المُبدل منه، ولهذا قدرتها بما سبق.

قوله: «أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه»: لأن الغدر بذمة الله وذمة نبيه أعظم، وقوله: «**أهون**» من باب اسم التفضيل الذي ليس في المُفَضَّل ولا في المُفَضَّل عليه شيء من هذا المعنىٰ؛ لأن قوله: «**أهون**» يقتضي اشتراك المفضل والمفضل عليه بالهون، والأمر ليس كذلك؛ لأن إخفار الذمم سواء كان لذمة الله وذمة رسوله أو ذمة المجاهدين؛ كله ليس بِهَيِّن، بل هو صعب، لكن الهون هنا نسبي وليس علىٰ حقيقته.

فهنا أرادوا أن ينزلوا علىٰ العهد بدون أن يحكم عليهم بشيء، بل يعاهدون علىٰ حماية أموالهم وأنفسهم ونسائهم وذريتهم فنعطيهم ذلك.

قوله: «وإذا حاصرت»: أي: ضربت حصاراً يمنعهم من الخروج من مكانهم.

«أهل حصن»: أهل بلد أو مكان يَتَحصَّنون به.

«فأرادوك»: طلبوا منك.

«حكم الله»؛ أي: شرع الله.

قوله: «ولكن أنزلهم على حكمك»: فإذا أرادوا أن ينزلوا علىٰ حكم الله؛ فإنهم لا يجابون؛ فإنا لا ندري أنصيب فيهم حكم الله أم لا؟

---

(١) ليس في نسخ المتن التي بأيدينا قول نافع هذا فليحرر. (ق).

. . . .

. . . .

ولهذا قال: «**أنزلهم على حكمك**»؛ ولم يقل: وحكم أصحابك كما قال في الذمة؛ لأن الحكم في الجيش أو السرية للأمير، وأما الذمة والعهد؛ فهي من الجميع، فلا يحل لواحد من الجيش أن ينقض العهد.

وقوله: «لا تدري»: أي: لا تعلم «**أتصيب فيهم حكم الله أم لا**»، وذلك لأن الإنسان قد يخطئ حكم الله تعالىٰ. وهذه المسألة اختلف فيها العلماء:

فقيل: إن أهل الحصن لا يُنزلون علىٰ حكم الله؛ لأن قائد الجيش وإن اجتهد؛ فإنه لا يدري أيصيب فيهم حكم الله أم لا؟ فليس كل مجتهد مصيبًا.

وقيل: بل يُنزلون علىٰ حكم الله، والنهي عن ذلك خاص في عهد النبي ﷺ فقط؛ لأنه العهد الذي يمكن أن يتغير فيه الحكم؛ إذ من الجائز بعد مضي هذا الجيش أن يُغيِّر الله هذا الحكم، وإذا كان كذلك؛ فلا تنزلهم علىٰ حكم الله؛ لأنك لا تدري أتصيب الحكم الجديد أو لا تصيبه؟

أما بعد انقطاع الوحي؛ فينزلون علىٰ حكم الله، واجتهادنا في إصابة حكم الله يعتبر صوابًا إذا لم يتبين خطؤه؛ لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وقد قال تعالىٰ: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ [التغابن: ١٦]، وهذا أصح؛ لأنه يحكم للمجتهد بإصابته الحكم ظاهرًا شرعًا وإن كان قد يخطئ، وإن حصل الاحتراز بأن يقول: ننزلك علىٰ ما نفهم من حكم الله ورسوله؛ فهو أولىٰ؛ لأنك إذا قلت علىٰ ما نفهم صار الأمر واضحًا أن هذا حكم الله بحسب فهمنا، لا بحسب الواقع فيما لو اتضح خلافه.

واخترنا هذه العبارة؛ لأنه قد يتغير الاجتهاد، ويأتي أمير آخر فيحارب هؤلاء أو غيرهم ثم يتغير الحكم؛ فيقول الكفار: إن أحكام المسلمين متناقضة.

ويستفاد من هذا الحديث ما يلي:

١ - تحريم التمثيل، والغلول، والغدر، وقتل الوليد، وقد سبق الكلام عليه.

٢ - يشرع للإمام بعث الجيوش والسرايا.

٣ - لا يجوز القتال قبل الدعوة؛ لأنه جعل القتال آخر مرحلة.

وأما ما ورد في «الصحيح» أن النبي ﷺ أغار علىٰ بني المصطلق وهم غَارُّون[1]؛ فقد أجيب: أن هؤلاء قد بلغتهم الدعوة، ودعوة من بلغتهم الدعوة سنة لا واجبة، ويرجع فيها للمصلحة.

٤ - جواز أخذ الجزية من غير اليهود والنصارىٰ والمجوس؛ لأن أهل الكتاب نص القرآن علىٰ أخذها منهم، والمجوس وردت به السنة، وأما ما عدا هؤلاء؛ فاختلف أهل العلم:

فقيل: لا تأخذ من غير هؤلاء، وقيل: لا تؤخذ من مشركي العرب؛ لأن فيها إذلالاً.

والصحيح أنها تؤخذ من جميع الكفار؛ لعموم قوله ﷺ: «**من كفر بالله**»، ولم يقل: اليهود والنصارىٰ.

٥ - الإشارة إلىٰ أن القتال ليس لإكراه الناس علىٰ أن يدخلوا في الإسلام، ولو كان كذلك ما شرعت

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٥٤١)، ومسلم (١٧٣٠)، وأبو داود (٢٦٣٣)، وأحمد (٤٨٤٢).

. . . .

. . . .

الجزية؛ لأنه على هذا التقدير يجب أن يدخلوا في الدين أو يقاتلوا، وهذا هو الراجح الذي يؤيده القرآن والسنة، وأما قوله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس...**»[1] الحديث؛ فهو عام مخصوص بأدلة الجزية.

٦ ـ عظم العهود، ولا سيما إذا كانت عهداً لله ورسوله.

٧ ـ جواز نزول أهل الحصن على حكم أمير الجيش.

٨ ـ أنه لا يجوز أن ينزلهم على حكم الله؛ إما في عهد الرسول ﷺ، أو مطلقًا حسب الخلاف السابق.

٩ ـ أن المجتهد قد يصيب وقد يخطئ؛ لقوله: «**فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا؟**»، وقال النبي ﷺ: «**إذا حكم الحاكم، فاجتهد، فأصاب؛ فله أجران، وإن أخطأ؛ فله أجر واحد**»، وعليه؛ فهل نقول: إن المجتهد مصيب ولو أخطأ؟

الجواب: قيل: كل مجتهد مصيب.

وقيل: ليس كل مجتهد مصيبًا.

وقيل: كل مجتهد مصيب في الفروع دون الأصول؛ حذراً من أن نُصَوِّب أهل البدع في باب الأصول.

والصحيح أن كل مجتهد مصيب من حيث اجتهاده، أما من حيث موافقته للحق؛ فإنه يخطئ ويصيب، ويدل له قوله ﷺ: «**فاجتهد فأصاب، واجتهد فأخطأ**»؛ فهذا واضح في تقسيم المجتهدين إلى مخطئ ومصيب، وظاهر الحديث والنصوص أنه شامل للفروع والأصول، حيث دلت تلك النصوص على أن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، لكن الخطأ المخالف لإجماع السلف خطأ ولو كان من المجتهدين؛ لأنه لا يمكن أن يكون مصيبًا والسلف غير مصيبين، سواء في علم الأصول والفروع.

على أن شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم أنكروا تقسيم الدين إلى أصول وفروع، وقالا: إن هذا التقسيم محدث بعد عصر الصحابة، ولهذا نجد القائلين بهذا التقسيم يلحقون شيئًا من أكبر أصول الدين بالفروع، مثل الصلاة، وهي ركن من أركان الإسلام، ويخرجون أشياء في العقيدة اختلف فيها السلف، يقولون: إنها من الفروع؛ لأنها ليست من العقيدة، ولكن فرع من فروعها، ونحن نقول: إن أردتم بالأصول ما كان عقيدة؛ فكل الدين أصول؛ لأن العبادات المالية أو البدنية لا يمكن أن تتعبد لله بها إلا أن تعتقد أنها مشروعة؛ فهذه عقيدة سابقة على العمل، ولو لم تعتقد ذلك لم يصح تعبدك لله بها.

والصحيح أن باب الاجتهاد مفتوح فيما سمي بالأصول أو الفروع، لكن ما خرج عن منهج السلف؛ فليس بمقبول مطلقًا.

١٠ ـ أن باب الاجتهاد باقٍ؛ لقوله: «**لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا؟**»، وبهذا يتبين ضعف قول من قال: إن باب الاجتهاد قد انسد، والواجب التقليد للأئمة، وهذا يترتب عليه الإعراض عن الكتاب والسنة إلى آراء الرجال، وهذا خطأ، بل الواجب على من تمكن من أخذ الحكم من الكتاب والسنة أن

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٥) ومواضع، ومسلم (٢٠، ٢١).

فيه مسائل:

الأولى: الفرق بين ذمة الله، وذمة نبيه، وذمة المسلمين.

الثانية: الإرشاد إلى أقل الأمرين خطراً.

....

يأخذه منهما، لكن لكثرة السنن وتفرقها لا ينبغي للإنسان أن يحكم بشيء بمجرد أن يسمع حديثًا في هذا الحكم حتى يتثبت؛ لأن هذا الحكم قد يكون منسوخًا أو مقيدًا أو عامًا وأنت تظنه بخلاف ذلك.

وأما أن نقول: لا تنظر في القرآن والسنة لأنك لست أهلاً للاجتهاد؛ فهذا غير صحيح.

ثم إنه على قولنا: إن باب الاجتهاد مفتوح؛ لا يجوز أبدًا أن تحتقر آراء العلماء السابقين، أو أن تنزل من قدرهم؛ لأن أولئك تعبوا واجتهدوا وليسوا بمعصومين، فكونك تقدح فيهم أو تأخذ المسائل التي يلقونها على أنها نكت تعرضها أمام الناس ليسخروا بهم؛ فهذا أيضًا لا يجوز، وإذا كانت غيبة الإنسان العادي محرمة؛ فكيف بغيبة أهل العلم الذين أفنوا أعمارهم في استخراج المسائل من أدلتها.

ثم يأتي في آخر الزمان من يقول: إن هؤلاء لا يعرفون، وهؤلاء يفرضون المحال ويقولون: كذا وكذا، مع أن أهل العلم فيما يفرضونه من المسائل النادرة قد لا يقصدون الوقوع، ولكن يقصدون تمرين الطالب على تطبيق المسائل على قواعدها وأصولها؟!

١١ ـ فيه إثبات الحكم لله ـ عز وجل ـ وحكم الله ينقسم إلى قسمين:

أ ـ حكم كوني: وهو ما يتعلق بالكون، ولا يمكن لأحد أن يخالفه، ومنه قوله تعالى: ﴿**فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي**﴾ [يوسف: ٨٠].

ب ـ حكم شرعي: وهو ما يتعلق بالشرع والعبادة، وهذا من الناس من يأخذ به ومنهم من لا يأخذ به، ومنه قوله تعالى: ﴿**ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ**﴾ [الممتحنة: ١٠].

فيه مسائل:

الأولى: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المسلمين: لو قال: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وبين ذمة المسلمين؛ لكان أوضح؛ لأنك عندما تقرأ كلامه تظن أن الفروق بين الثلاثة كلها، وليس كذلك؛ فإن ذمة الله وذمة نبيه واحدة، وإنما الفرق بينهما وبين ذمة المسلمين.

والفرق أن جعل ذمة الله وذمة نبيه للمحاصرين محرمة، وجعل ذمة المحاصرين ذمة ـ بكسر الصاد ـ جائزة.

الثانية: الإرشاد إلى أقل الأمرين خطراً: لقوله: «**ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك...**» إلخ.

وهذه قاعدة مهمة، وتقال على وجه آخر وهو:

ارتكاب أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما إذا كان لابد من ارتكاب إحداهما، وقد دل عليها الشرع.

قال تعالى: ﴿**وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ [الأنعام: ١٠٨]؛ فسب آلهة المشركين مطلوب، لكن إذا تضمن سب الله ـ عز وجل ـ صار منهيًا عنه؛ لأن مفسدة سب الله أعظم من مفسدة السكوت عن سب آلهتهم، وإن كان في هذا السكوت شيء من المفسدة، ولكن

الثالثة: قوله: «اغزوا باسم الله في سبيل الله».
الرابعة: قوله: «قاتلوا من كفر بالله».
الخامسة: قوله: «استعن بالله وقاتلهم».
السادسة: الفرق بين حكم الله، وحكم العلماء.
السابعة: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة، بحكم لا يدري: أيوافق حكم الله أم لا؟

....

نسكت لئلا نقع في مفسدة أعظم، وأيضًا العقل دل عليها.

وفيه قاعدة مقابلة، وهي: ترك أولى المصلحتين لنيل أعلاهما، إذا كان لابد من ترك إحداهما، فإذا اجتمعت مصلحتان لا يمكن الأخذ بهما جميعًا؛ فخذ بأعلاهما، وإذا اجتمعت مفسدتان لا يمكن تركهما؛ فخذ بأدناهما.

الثالثة: قوله: «اغزوا باسم الله في سبيل الله»: يستفاد منها وجوب الغزو مع الاستعانة بالله والإخلاص والتمشي على شرعه.

الرابعة: قوله: «قاتلوا من كفر»: يستفاد منها وجوب قتال الكفار، وأن علة قتالهم الكفر، وليس المعنى أنه لا يقاتل إلا من كفر، بل الكفر سبب للقتال؛ فمن منع الزكاة يقاتل، وإذا ترك أهل بلد صلاة العيد قوتلوا، وكذا الأذان والإقامة، مع أنهم لا يكفرون بذلك.

وإذا اقتتلت طائفتان وأبت إحداهما أن تفيء إلى أمر الله؛ قوتلت، فالقتال له أسباب متعددة غير الكفر.

الخامسة: قوله: «استعن بالله وقاتلهم»: يفيد وجوب الاستعانة بالله، وأن لا يعتمد الإنسان على حوله وقُوَّته.

السادسة: الفرق بين حكم الله وحكم العلماء: وفيه فرقان:

١ ـ أن حكم الله مصيب بلا شك، وحكم العلماء قد يصيب وقد لا يصيب.

٢ ـ تنزيل أهل الحصن على حكم الله ممنوع؛ إما في عهد الرسول ﷺ فقط أو مطلقًا، وأما على حكم العلماء ونحوه؛ فهو جائز.

فائدة: لا ينبغي أن يقال لمفتٍ: ما حكم الإسلام في كذا، أو ما رأي الإسلام في كذا؛ فإنه قد يخطئ فلا يصيب حكم الإسلام، ولا يقول مفت: حكم الإسلام كذا؛ لأنه قد يخطئ، ولكن يقيِّد؛ فيقول: حكم الإسلام فيما أرى كذا وكذا إلا فيما هو نص واضح صريح؛ فلا بأس.

مثل أن يقال: ما حكم الإسلام في أكل الميتة؟

فيقول: حكم الإسلام في أكل الميتة أنه حرام.

السابعة: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا؟ وهذا ليس خاصًا بالصحابة، بل حتى من بعدهم؛ فإن له أن يحكم بما يرى أنه حكم عند الحاجة.

٦٣ـ باب
ما جاء في الإقسام على الله

عن جُندب بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجلٌ: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألَّى عليَّ أن لا أغفرَ لفلان؟ إني قد غفرت له، وأحبطتُ عملك» رواه مسلم(١). وفي حديث أبي هريرة: أنَّ القائل رجلٌ عابد، قال أبو هريرة: تكلَّم بكلمة، أوبقت دنياه وآخرته.

قال المصنف رحمه الله تعالى: بابُ ما جاء في الإقسام على الله.

عن جُندب بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجلٌ: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألَّى عليَّ أن لا أغفرَ لفلان؟ إني قد غفرت له، وأحبطتُ عملَك» رواه مسلم.

وفي حديث أبي هريرة: أنَّ القائل رجلٌ عابد، قال أبو هريرة: تكلَّم بكلمة، أوبقت دنياه وآخرته.

قوله: (باب ما جاء في الإقسام على الله). ذكر المصنف فيه حديث جُندب ابن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال رجلٌ: والله لا يغفر الله لفلان. قال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان، أني قد غفرت له، وأحبطت عملك»** رواه مسلم.

قوله: «يتألَّى» يحلف، والأليَّة بالتشديد: الحَلف. وصحَّ من حديث أبي هريرة.

قال البغوي في (شرح السنة): وساق بالسند إلى عكرمة بن عمار ـ قال: دخلتُ مسجد المدينة، فناداني شيخ فقال: يا يمامي، تعال، وما أعرفه، قال: لا تقولن لرجل: والله لا يغفر الله لك أبدًا ولا يدخلك الجنة.

باب الإقسام على الله
وباب لا يستشفع بالله على خلقه

وهذان الأمران من سوء الأدب في حق الله، وهو مناف للتوحيد. أما الإقسام على الله فهو في الغالب من باب العجب بالنفس والإدلال على الله وسوء الأدب معه، ولا يتم الإيمان حتى يسلم من ذلك كله.

الإقسام: مصدر أقسَم يُقسِم إذا حلف.

والحلف له عدة أسماء، وهي: يمين، وأَلية، وحلف، وقَسَم، وكلها بمعنى واحد، قال تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، وقال: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٢٦]؛ أي: يحلفون، وقال: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [النور: ٥٣].

واختلف أهل العلم في ﴿لا﴾ في قوله: ﴿لا أقسم﴾؛ فقيل:

إنها نافية على الأصل، وإن معنى الكلام: لا أقسم بهذا الشيء على المُقسَم به؛ لأن الأمر أوضح

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢١).

. . . .

قلت: ومن أنت يرحمك الله؟ قال: أبو هريرة. قال: فقلتُ: إنَّ هذه كلمة يقولها أحدُنا لأهله إذا غضب، أو لزوجته أو لخادمه، قال: فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ رجلين كانا في بني إسرائيل متحابين، أحدهما مجتهدٌ في العبادة، والآخر؛ كأنه يقول مذنب. فجعل يقول: أقصر عما أنت فيه. قال: فيقول: خلِّني وربي. حتى وجده يومًا على ذنب استعظمه، فقال: اقصر، فقال: خلِّني وربي، أبُعثت عليَّ رقيبًا. فقال: والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة أبدًا. قال: فبعث الله إليهما ملكًا، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عنده. فقال للمذنب: ادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: أتستطيع أن تحظر على عبدي رحمتي؟ قال: لا يارب، قال اذهبوا به إلى النار**» قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده، لتكلَّم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته[١].

ورواه أبو داود في (سننه)، وهذا لفظه: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**كان رجلان في بني إسرائيل متآخيين، فكان أحدهما يُذنب، والآخر مُجتهدٌ في العبادة،**

من أن يحتاج إلى قسم، وهذا فيه تكلف؛ لأن من قرأ الآية عرف أن مدلولها الإثبات لا النفي.

وقيل: إن ﴿لا﴾ زائدة، والتقدير أقسم.

وقيل: إن ﴿لا﴾ للتنبيه، وهذا بمعنى الثاني؛ لأنها من حيث الإعراب زائدة.

وقيل: إنها نافية لشيء مُقدَّر؛ أي: لا صحة لما تزعمون من انتفاء البعث، وهذا في قوله تعالى: ﴿**لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ [القيامة: ١]، فيه شيء من التكلف، والصواب أنها زائدة للتنبيه.

والإقسام على الله: أن تحلف على الله أن يفعل، أو تحلف عليه أن لا يفعل، مثل: والله؛ ليفعلن الله كذا، أو والله، لا يفعل الله كذا.

والقسم على الله ينقسم إلى أقسام: الأول: أن يقسم على ما أخبر الله به ورسوله من نفي أو إثبات؛ فهذا لا بأس به، وهذا دليل على يقينه بما أخبر الله به ورسوله، مثل: والله؛ ليشفعن الله نبيه في الخلق يوم القيامة، ومثل: والله؛ لا يغفر الله لمن أشرك به.

الثاني: أن يقسم على ربه لقوة رجائه وحسن الظن بربه؛ فهذا جائز لإقرار النبي ﷺ ذلك في قصة الربيع بنت النضر عمة أنس بن مالك رضي الله عنهما، «حينما كَسَرت ثنية جارية من الأنصار، فاحتكموا إلى النبي ﷺ، فأمر النبي ﷺ بالقصاص، فعرضوا عليهم الصلح، فأبوا، فقام أنس بن النضر، فقال: أتُكسر ثنية الربيع؟ والله يا رسول الله لا تكسر ثنية الربيع، وهو لا يريد به رد الحكم الشرعي؛ فقال الرسول ﷺ: «**يا أنس! كتاب الله القصاص**»؛ يعني: السن بالسن. قال: والله؛ لا تكسر ثنية الربيع، وغرضه بذلك أنه لقوة ما عنده من التصميم على أن لا تكسر ولو بذل كل غال ورخيص أقسم على ذلك. فلما عرفوا أنه مصمم ألقى الله في قلوب الأنصار العفو فعفوا؛ فقال النبي ﷺ: «**إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره**»[٢]، فهو لقوة رجائه بالله وحسن ظنه أقسم على الله أن لا تكسر ثنية الربيع؛

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤٩٠١)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٤٤٥٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٠٣) ومواضع، ومسلم (١٦٧٥).

فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب، فيقول: أقصر. فوجده يومًا على ذنب، فقال له: أقصر. فقال: خلِّني وربي، أبُعثت عليَّ رقيبًا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الجنة، فقبضت أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالمًا، أو كنت على ما في يدي قادرًا؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار» إلىٰ آخره.

فألقىٰ الله العفو في قلوب هؤلاء الذين صمموا أمام الرسول ﷺ علىٰ القصاص، فعفوا وأخذوا الأرش.

فثناء الرسول ﷺ عليه شهادة بأن الرجل من عباد الله، وأن الله أبر قسمه وليَّن له هذه القلوب، وكيف لا وهو الذي قال: بأنه يجد ريح الجنة دون أحد، ولما استشهد وجد به بضعٌ وثمانون ما بين ضربة بسيف أو طعنة برمح، ولم يعرفه إلا أخته ببنانه [١]، وهي الربيع هذه، رضي الله عن الجميع وعنا معهم.

ويدل أيضًا لهذا القسم قوله ﷺ «**رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره**» [٢].

القسم الثالث: أن يكون الحامل له هو الإعجاب بالنفس، وتَحَجُّر فضل الله ـ عز وجل ـ وسوء الظن به تعالىٰ؛ فهذا محرم، وهو وشيك بأن يحبط الله عمل هذا المُقسم، وهذا القسم هو الذي ساق المؤلف الحديث من أجله.

مناسبة الترجمة لكتاب التوحيد:

أن من تَأَلَّىٰ علىٰ الله ـ عز وجل ـ؛ فقد أساء الأدب معه وتحجر فضله وأساء الظن به، وكل هذا ينافي كمال التوحيد، وربما ينافي أصل التوحيد؛ فالتألي علىٰ من هو عظيم يعتبر تَنَقُّصًا في حقه.

قوله: «قال رجلـ يحتمل أن يكون الرجل الذي ذكر في حديث أبي هريرة الآتي أو غيره ـ **والله؛ لا يغفر الله لفلان»**: هذا يدل علىٰ اليأس من روح الله، واحتقار عباد الله عند هذا القائل، وإعجابه بنفسه.

والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، مأخوذة من المغفَر الذي يُغَطَّىٰ به الرأس عند الحرب، وفيه وقاية وستر.

قوله: «من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان»: «من»: اسم استفهام مبتدأ، «**ذا**»: ملغاة، «**الذي**»: اسم موصول خبر مبتدأ، «**يتألى**»: يحلف، أي: من ذا الذي يتحجر فضلي ونعمتي أن لا أغفر لمن أساء من عبادي، والاستفهام للإنكار.

والحديث ورد مبسوطًا في حديث أبي هريرة أن هذا الرجل كان عابدًا وله صاحب مسرف علىٰ نفسه، وكان يراه علىٰ المعصية، فيقول: أقصر. فوجده يومًا علىٰ ذنب، فقال: أقصر. فقال: خلني وربي؛ أبُعثت عليَّ رقيبًا؟ فقال: والله؛ لا يغفر الله لك. وهذا يدل علىٰ أن المسرف عنده حسن ظن بالله ورجاء له، ولعله كان يفعل الذنب ويتوب فيما بينه وبين ربه؛ لأنه قال: خلني وربي، والإنسان إذا فعل الذنب ثم تاب توبة نصوحًا ثم غلبته عليه نفسه مرة أخرىٰ؛ فإن توبته الأولىٰ صحيحة، فإذا تاب ثانية فتوبته صحيحة؛ لأن من شروط التوبة أن يعزم أن لا يعود، وليس من شروط التوبة أن لا يعود.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٨٠٦، ٤٠٤٨)، ومسلم (١٩٠٣). (٢) **صحيح**: رواه مسلم (٢٦٣٣، ٢٨٥٤).

. . . .

قوله: (وفي حديث أبي هريرة أنَّ القائل رجلٌ عابد) يُشير إلىٰ قوله في هذا الحديث «أحدهما مجتهدٌ في العبادة».

وفي هذه الأحاديث: بيان خطر اللسان، وذلك يفيد التحرزَ من الكلام؛ كما في حديث معاذ، قلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: «**ثكلتك أُمُّك يا معاذ، وهل يَكُبُّ الناس في النار على وجوههم** - أو قال: على مناخرهم - **إلا حصائد ألسنتهم؟**»[1][2] والله أعلم.

وهذا الرجل الذي قد غفر الله له؛ إما أن يكون قد وجدت منه أسباب المغفرة بالتوبة، أو أن ذنبه هذا كان دون الشرك فَتَفَضَّل الله عليه فغفر له، أما لو كان شركًا ومات بدون توبة؛ فإنه لا يغفر له؛ لأن الله يقول: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ**﴾ [النساء: ١١٦].

قوله: «**وأحبطت عملك**»: ظاهر الإضافة في الحديث: أن الله أحبط عمله كله؛ لأن المفرد المضاف الأصل فيه أن يكون عامًا. ووجه إحباط الله عمله على سبيل العموم - حسب فهمنا والعلم عند الله -: أن هذا الرجل كان يتعبد لله وفي نفسه إعجاب بعمله، وإدلال بما عمل على الله كأنه يَمُنّ على الله بعمله، وحينئذٍ يفتقد ركنًا عظيمًا من أركان العبادة؛ لأن العبادة مبنية على الذل والخضوع؛ فلابد أن تكون عبدًا لله - عز وجل - بما تَعَبّدك به وبما بَلَغَك من كلامه، وكثير من الذين يتعبدون لله بما تعبدهم به قد لا يتعبدون بوحيه، قد يصعب عليهم أن يرجعوا عن رأيهم إذا تَبَيَّن لهم الخطأ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويُحَرِّفون النصوص من أجله، والواجب أن تكون لله عبدًا فيما بلغك من وحيه، بحيث تخضع له خضوعًا كاملاً حتىٰ تحقق العبودية.

ويحتمل معنىٰ «**أحبطت عملك**»؛ أي: عملك الذي كنت تفتخر به على هذا الرجل، وهذا أهون؛ لأن العمل إذا حصلت فيه إساءة بطل وحده دون غيره، لكن ظاهر حديث أبي هريرة يمنع هذا الاحتمال، حيث جاء فيه أن الله تعالىٰ قال: «**اذهبوا به إلى النار**». ونظير هذا مما يحتمل العموم والخصوص قوله ﷺ في حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده فيمن منع الزكاة: «**فإنا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا**».

فقوله: «**وشطر ماله**»؛ هل المراد جميع ماله، أو ماله الذي منع زكاته؟

يحتمل الأمرين؛ فمثلاً: إذا كان عنده عشرون من الإبل، فزكاتها أربع شياه، فمنع الزكاة؛ فهل نأخذ عشرًا من الإبل فقط مع الزكاة، أو إذا كان عنده أموال أخرىٰ من بقر وغنم ونقود نأخذ نصف جميع ذلك مع الزكاة؟ اختلف في ذلك:

فقيل: نأخذ نصف ماله الذي وقعت فيه المخالفة. وقيل: نأخذ نصف جميع المال.

والراجح أنه راجع إلىٰ رأي الإمام حسب المصلحة، فإن كان أخذُ نصف المال كله أبلغ في الردع؛ أخذَ نصف المال كله، وإلا؛ أخذ نصف المال الذي حصلت فيه المخالفة.

قوله: «**تكلم بكلمة**»: يعني قوله: والله؛ لا يغفر الله لك.

---

(١) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١١٢٢).

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه. وقال الترمذي: حسن صحيح. وفي قرة العيون: وفيه معنى قوله ﷺ: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه**» (ق).

فيه مسائل: الأولى: التحذير من التألي على الله.
الثانية: كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله. الثالثة: أنَّ الجنة مثل ذلك.
الرابعة: فيه شاهد لقوله: «إنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة»... إلخ.
الخامسة: أنَّ الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه.

وأما الاستشفاع بالله على خلقه فهو تعالى أعظم شأنًا من أن يتوسل به إلى خلقه، لأن رتبة المتوسل به غالبًا دون رتبة المتوسل إليه، وذلك من سوء الأدب مع الله، فيتعين تركه، فإن الشفعاء لا يشفعون عنده إلا بإذنه، وكلهم يخافونه فكيف يعكس الأمر فيجعل هو الشافع وهو الكبير العظيم الذي خضعت له الرقاب وذلت له الكائنات بأسرها.

قوله: «أوبقت»: أي: أهلكت، ومنه حديث: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»(١)؛ أي: المهلكات.

قوله: «دنياه وآخرته»: لأن من حبط عمله؛ فقد خسر الدنيا والآخرة.

أما كونها أوبقت آخرته؛ فالأمر ظاهر؛ لأنه من أهل النار والعياذ بالله، وأما كونها أوبقت دنياه؛ فلأن دنيا الإنسان حقيقة هي ما اكتسب فيها عملاً صالحًا، وإلا؛ فهي خسارة. قال تعالى: ﴿**وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ [العصر: ١ ـ ٣]. وقال: ﴿**قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾ [الزمر: ١٥]. فمن لم يوفق للإيمان والعمل الصالح؛ فقد خسر دنياه حقيقة؛ لأن مآلها للفناء، وكل شيء فانٍ فكأنه لم يوجد، واعتبر هذا بما حصل لك مما سبق من عمرك تجده مَرَّ عليك وكأنه لم يكن، وهذا من حكمة الله ـ عز وجل ـ لئلا يركن إلى الدنيا.

وقوله: «قال أبو هريرة»: يعني في الحديث الذي أشار إليه المؤلف رحمه الله.

فيه مسائل: الأولى: التحذير من التألي على الله: لقوله: «**من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان**»، وكونه أحبط عمله بذلك.

الثانية: كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله.

الثالثة: أن الجنة مثل ذلك: هاتان المسألتان اللتان ذكرهما المؤلف تؤخذان من حبوط عمل المُتَأَلِّي والمغفرة للمسرف على نفسه، ثم أشار إلى حديث رواه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك**»، ويقصد بهما تقريب الجنة أو النار، والشراك: سير النعل الذي يكون بين الإبهام والأصابع.

الرابعة: فيه شاهد لقوله: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة..» إلخ: يشير المؤلف إلى حديث: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يرى أن تبلغ حيث بلغت يهوي بها في النار سبعين خريفًا**»(٢)، أو «**أبعد مما بين المشرق والمغرب**»(٣)، وهذا فيه الحذر من مزلة اللسان، فقد يسبب الهلاك، ولهذا قال النبي ﷺ:

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٦٧، ٦٨٥٧)، ومسلم (٨٩)، وأبو داود (٢٨٧٤)، والنسائي (٣٦٧١).
(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٣١٤)، وابن ماجه (٣٩٧٠)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٦١٨).
(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨).

٦٤ـ باب
لا يستشفع بالله على خلقه

عن جبير بن مطعم، قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، نُهكَت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموالُ، فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله، فقال النبي ﷺ: «سُبحان الله، سبحان الله!» فما زال يسبِّح، حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه. ثم قال: «ويحك» أتدري ما الله؟ إن شأن الله

قال المصنف رحمه الله تعالى: بابٌ لا يُستشفع بالله على خلقه.

عن جبير بن مطعم، قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، نُهكَت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموالُ، فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله، فقال النبي ﷺ: «سُبحان الله، سبحان الله!» فما زال يُسبِّح، حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه. ثم قال: «ويحك» أتدري

«**من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة**»[(١)]، وقال لمعاذ: «**كف عليك هذا ـ يعني لسانك**».

قلت: يا رسول الله! وأنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: «**ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس في النار على وجوههم ـ أو قال: على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم؟!**»[(٢)].

ولا سيما إذا كانت هذه الزلة ممن يقتدىٰ به؛ كما يحدث من دعاة الضلال والعياذ بالله؛ فإن عليه وزره ووزر من تبعه إلىٰ يوم القيامة.

الخامسة: أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه: فإنه قد غفر له بسبب هذا التأنيب، وهذه لم تظهر لي من الحديث ولعلها تؤخذ من قوله: «**قد غفرت له**».

ولا شك أن الإنسان قد يغفر له بشيء هو من أكره الأمور إليه، مثل الجهاد في سبيل الله، قال تعالىٰ: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ**﴾ [البقرة: ٢١٦].

استشفع بالشيء؛ أي: جعله شافعًا له، والشفاعة في الأصل: جعل الفرد شفعًا، وهي التوسط للغير بجلب منفعة له أو دفع مضرة عنه.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن الاستشفاع بالله علىٰ خلقه تنقص لله ـ عز وجل ـ؛ لأنه جعل مرتبة الله أدنىٰ من مرتبة المشفوع إليه؛ إذ لو كان أعلىٰ مرتبة ما احتاج أن يشفع عنده، بل يأمره أمرًا؛ والله ـ عز وجل ـ لا يشفع لأحد

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٤٧٤)، والترمذي (٢٤٠٨)، وأحمد (٢٢٣١٦).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٢١٥١١)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥١٣٦)، والسلسلة الصحيحة (١١٢٢).

أعظمُ من ذلك، إنه لا يُستشفع بالله على أحد»[1]. وذكر الحديث، رواه أبو داود[2].

ما الله؟ إن شأن الله أعظمُ من ذلك، إنه لا يُستشفع بالله على أحد». وذكر الحديث، رواه أبو داود.

قوله: (بابٌ لا يُستشفع بالله على خلقه). وذكر الحديث[3]، وسياقُ أبي داود في (سننه) أتم مما ذكره المصنف رحمه الله، ولفظُه: عن جُبير بن محمد بن جبير بن مُطعم، عن أبيه، عن جده، قال: أتى النبيَّ ﷺ أعرابيٌّ، فقال: يا رسول الله، جُهدت الأنفس، وضاعت العيال ونُهكت الأموال، وهلكت الأنعام، فاستسق الله لنا، فإنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك، فقال النبي ﷺ: «**ويحك! أتدري ما تقول؟**» وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: «**ويحك! إنه لا يُستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك، أتدري ما الله؟ إنَّ عرشه على سمواته لهكذا** ـ وقال بإصبعه مثل القبة عليه ـ **وإنَّه ليئطُّ به أطيط الرَّحل بالراكب**».

من خلقه إلى أحد؛ لأنه أجَلّ وأعظم من أن يكون شافعًا، ولهذا أنكر النبي ﷺ ذلك على الأعرابي، وهذا وجه وضع هذا الباب في كتاب التوحيد.

قوله: «**أعرابي**»: واحد الأعراب، وهم سكان البادية، والغالب على الأعراب الجفاء؛ لأنهم أحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله.

قوله: «**نُهكت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال**»: «**نهكت**»؛ أي ضعفت.

و «**جاع العيال، وهلكت الأموال**»؛ أي: من قلة المطر والخصب، فضعفُ الأنفس بسبب ضعف القوة النفسية والمعنوية التي تحصل فيما إذا لم يكن هناك خصب، وجاع العيال لقلة العيش، وهلكت الأموال؛ لأنها لم تجد ما ترعاه.

قوله: «**فاستسق لنا ربك**» : أي: اطلب من الله أن يسقينا، وهذا لا بأس به؛ لأن طلب الدعاء ممن ترجى إجابته من وسائل إجابة الدعاء.

قوله: «**نستشفع بالله عليك**»: أي: نجعله واسطة بيننا وبينك لتدعو الله لنا، وهذا يقتضي أنه جعل مرتبة الله في مرتبة أدنى من مرتبة الرسول ﷺ.

قوله: «**ونستشفع بك على الله**»: أي: نطلب منك أن تكون شافعًا لنا عند الله، فتدعو الله لنا، وهذا صحيح.

قوله: «**سبحان الله! سبحان الله!**»: قاله ﷺ استعظامًا لهذا القول، وإنكارًا له، وتنزيهًا لله ـ عز وجل ـ عما لا يليق به من جعله شافعًا بين الخلق وبين الرسول ﷺ.

و «**سبحان**»: اسم مصدر منصوب على أنه مفعول مطلق من سبح يسبح تسبيحًا، وإذا جاءت

---

(١) ضعيف: رواه أبو داود (٤٧٢٦)، وضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٦١٣٧).

(٢) في قرة العيون: هذا الحديث رواه أبو داود ورضيه على عادته فيما كان عنده صحيحًا أو حسنًا وسكت عليه. اهـ.
أقول: بل تكلم أبو داود على سنده، فخطأ بعض رواته في سياقه وصوب من قال: إنه روى كتابة من نسخة وهب بن جرير لا تحديثًا، وأن مداره فيها على محمد بن إسحاق عنعنة لا سماعًا. (ق).

(٣) يعني أن المصنف ساق حديث جبير بن مطعم ناسبًا له إلى أبي داود ولكنه اختصره. (ق).

. . . .

قال ابن يسار في حديثه: «إنَّ الله فوق عرشه، وعرشه فوق سمواته».

قال الحافظ الذهبي: رواه أبو داود ـ بإسناد حسن عنده ـ في (الرد على الجهمية)، من حديث محمد بن إسحاق بن يسار[1].

قوله: «ويحك[2] **إنه لا يُستشفع بالله على أحد من خلقه**» فإنه تعالى ربُّ كلِّ شيء ومليكه، والخير كلُّه بيده. لا مانع لما أعطى، ولا مُعطي لما منع، ولا راد لما قضى وما كان الله ليُعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض، إنه كان عليمًا قديرًا.

إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: كُن فيكون. والخلقُ وما في أيديهم مُلكُه يتصرف فيه كيف يشاء، وهو الذي يشفع الشافع إليه، ولهذا أنكر على الأعرابي. قوله هذا، وسبح الله كثيرًا وعظَّمه؛ لأن هذا القول لا يليق بالخالق سبحانه وبحمده، إنَّ شأن الله أعظم من ذلك.

الكلمة بمعنى المصدر وليس فيها حروفه؛ فهي اسم مصدر، مثل: كلام اسم مصدر كلّم والمصدر تكليم، ومثل: سلام اسم مصدر سلّم والمصدر تسليم.

«**وسبحان**»: مفعول مطلق، وهو لازم النصب وحذف العامل أيضًا، فلا يأتي مع الفعل، فلا تقول: سبحت الله سبحانًا إلا نادرًا في الشعر ونحوه.

والتسبيح: تنزيه الله عما لا يليق به من نقص، أو عيب، أو مماثلة للمخلوق، أو ما أشبه ذلك.

وإن شئت أدخل مماثلة المخلوق مع النقص والعيب؛ لأن مماثلة الناقص نقص، بل مقارنة الكامل بالناقص تجعله ناقصًا؛ كما قال الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أنّ السَّيفَ يَنقُصُ قَدرُهُ ... إذا قيلَ إن السيَّف أمضَى منَ العَصَا

قوله: «فما زال»: إذا دخلت «ما» على زال الذي مضارعها يزال؛ صار النفي إثباتًا مفيدًا للاستمرار؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ الآية [الأنبياء: ١٥]، وكقوله تعالى في المضارع: ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

وجملة «**يسبح**»: خبر زال.

قوله: «**حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه**»: أي: عرف أثره في وجوه أصحابه، وأنهم تأثروا بذلك؛ لأنهم عرفوا أنه ﷺ لا يسبح في مثل هذا الموضع ولا يكره إلا لأمر عظيم، ووجه التسبيح هنا أن الرجل ذكر جملة فيها شيء من التَّنقُّص لله تعالى؛ فَسَبَّح النبي ﷺ ربه تنزيهًا له عما تُوهمه هذه الكلمة، ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه في السفر إذا هبطوا واديًا سبحوا؛ تنزيهًا لله تعالى عن السفول الذي كان من صفاتهم، وإذا علوا نَشَزًا كبروا؛ تعظيمًا لله ـ عز وجل ـ[3] وأن

---

(١) يشير بذلك إلى ضعف الحديث لأن محمد بن إسحاق مدلس. وانظر الكلام على الحديث وشروح الأئمة له في عون المعبود (ج٤ص ٣٧٠). (ق).

(٢) في قرة العيون: ويحك كلمة تقال للزجر. قوله: «أتدري ما الله؟» فيه إشارة إلى قلة علمه بعظمة الله وجلاله. (ق).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٢٩٩٣، ٢٩٩٤).

. . . .

وفي هذا الحديث: إثباتُ علوِّ الله علىٰ خلقه، وأنَّ عرشه فوق سمواته، وفيه: تفسيرُ الاستواء بالعلو؛ كما فسَّره الصحابةُ والتابعون والأئمة.

خلافًا للمعطلة: من الجهمية، والمعتزلة، ومن أخذ عنهم كالأشاعرة ونحوهم. ممن ألحد في أسماء الله وصفاته، وصرفها عن المعنىٰ الذي وضعت له ودلَّت عليه، من إثبات صفات الله تعالىٰ، التي دلَّت علىٰ كماله جلَّ وعلا.

كما عليه السلف الصالح والأئمة، ومن تبعهم ممن تمسَّك بالسنة. فإنَّهم أثبتوا ما أثبته الله لنفسه، وأثبته له رسوله من صفات كماله، علىٰ ما يليق بجلاله وعظمته. إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل.

قال العلامة ابن القيِّم في (مفتاح دار السعادة) - بعد كلام سبق فيما يُعرِّفُ العبد بنفسه وبربه من عجائب مخلوقاته - قال بعد ذلك:

والثاني: أن يتجاوز هذا إلىٰ النظر بالبصيرة الباطنة، فتُفتح له أبوابُ السماء، فيجول في أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها. ثم يُفتح له باب بعد باب، حتىٰ ينتهي به سير القلب إلىٰ عرش الرحمن. فينظر سعته وعظمته، وجلاله ومجده ورفعته. يرىٰ السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه، كحلقة ملقاة بأرض فلاة. ويرىٰ الملائكة حافّين من حول العرش، لهم زجلٌ بالتسبيح والتحميد والتقديس والتكبير. والأمرُ ينزل من فوقه بتدبير الممالك والجنود، التي لا يعلمها إلا ربُّها ومليكها.

فينزل الأمرُ بإحياء قومٍ وإماتة آخرين، وإعزاز قومٍ وإذلال آخرين، وإنشاء مُلك وسلب ملك. وتحويل نعمة من محل إلىٰ محل. وقضاء الحاجات، علىٰ اختلافها وتباينها وكثرتها: من جبر كسير، وإغناء فقير، وشفاء مريض، وتفريج كرب، ومغفرة ذنب، وكشف ضرُ، ونصر مظلوم، وهداية حيران، وتعليم

الله تعالىٰ هو الذي له الكبرياء في السموات والأرض.

قوله: «ويحك»: ويح: منصوب بعامل محذوف، تقديره: ألزمك الله ويحك.

وتارة تضاف؛ فيقال: ويحك، وتارة تقطع عن الإضافة؛ فيقال: ويحًا لك، وتارة ترفع علىٰ أنها مبتدأ؛ فيقال: ويحه أو ويحٌ له. وهي وويل وويس كلها متقاربة في المعنىٰ.

ولكن بعض علماء اللغة قال: إن ويح كلمة ترحم، وويل كلمة وعيد.

فمعنىٰ ويحك: إني أترحم لك وأحن عليك.

ومنهم من قال: كل هذه الكلمات تدل علىٰ التحذير. فعلىٰ معنىٰ أن ويح بمعنىٰ الترحم يكون قوله ﷺ تَرَحُّمًا لهذا الرجل الذي تكلم بهذا الكلام، كأنه لم يعرف قدر الله.

قوله: «أتدري ما الله»: المراد بالاستفهام التعظيم؛ أي: شأن الله عظيم، ويحتمل أن المعنىٰ: لا تدري ما الله، بل أنت جاهل به؛ فيكون المراد بالاستفهام النفي.

وقوله: «ما الله»: جملة استفهامية معلقة لـ «تدري» عن العمل؛ لأن درىٰ تنصب مفعولين، لكنها تعلق بالاستفهام عن العمل وتكون الجملة في محل نصب سدَّت مسد مفعولي تدري.

. . . .

جاهل، وردّ آبق، وأمان خائف، وإجارة مستجير، ومدد لضعيف وإغاثة لملهوف، وإعانة لعاجز، وانتقام من ظالم، وكفّ لعدوان. فهي مراسيمُ دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة، تنفذ في أقطار العوالم، لا يشغله سمع شيء منها عن سمع غيره، ولا تغلطه كثرة المسائل والحوائج، على اختلافها وتباينها واتحاد وقتها، ولا تبرم بإلحاح المُلحّين، ولا تنقص ذرّةٌ من خزائنه، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

فحينئذٍ يقوم القلبُ بين يدي الرحمنُ مطرقًا لهيبته، خاشعًا لعظمته عان لعزته. فيسجد بين يدي المَلِك الحق المُبين، سجدةً لا يرفع رأسه منها إلىٰ يوم المزيد. فهذا سفرُ القلب، وهو في وطنه وداره ومحل ملكه، وهذا من أعظم آيات الله، وعجائب صنعه، فيا له من سفر ما أبركه وأروحه، وأعظم ثمرته وربحه، وأجلَّ منفعته وأحسن عاقبته، سفرٌ هو حياة الأرواح، ومفتاح السعادة وغنيمة العقول والألباب، لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب. انتهىٰ كلامه رحمه الله تعالىٰ.

وأمَّا الاستشفاعُ بالرسول ﷺ في حياته، فالمرادُ به: استجلابُ دعائه، وليس خاصًا به ﷺ، بل كلُّ حيٍّ صالح يُرجىٰ أن يُستجاب له، فلا بأس أن يطلب منه أن يدعو للسائل بالمطالب الخاصة أو العامة؛ كما قال النبي ﷺ لعمر لما أراد أن يعتمر من المدينة: «**لا تنسنا يا أخي من صالح دُعائك**»[(١)(٢)].

وأمَّا الميت: فإنما يُشرع في حقه الدعاء له علىٰ جنازته، وعلىٰ قبره وفي غير ذلك. وهذا هو الذي يشرع في حق الميت، وأمَّا دعاؤه: فلم يشرع، بل قد دلَّ الكتابُ والسنة علىٰ النهي عنه، والوعيد عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿**وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ**

قوله: «إن شأن الله أعظم من ذلك»: أي: إن أمر الله وعظمته أعظم مما تصوَّرت حيث جئت بهذا اللفظ.

قوله: «إنه لا يستشفع بالله على أحد»: أي: لا يطلب منه أن يكون شفيعًا إلىٰ أحد، وذلك لكمال عظمته وكبريائه، وهذا الحديث فيه ضعف، ولكن معناه صحيح، وأنه لا يجوز لأحد أن يقول: نستشفع بالله عليك. فإن قيل: أليس قد قال النبي ﷺ: «**من سألكم بالله فأعطوه**»[(٣)]، وهذا دليل علىٰ جواز السؤال بالله؛ إذ لو لم يكن السؤال بالله جائزًا لم يكن إعطاء السائل واجبًا؟

والجواب أن يقال: إن السؤال بالله لا يقتضي أن تكون مرتبة المسئول به أدنىٰ من مرتبة المسئول بخلاف الاستشفاع، بل يدل علىٰ أن مرتبة المسئول به عظيمة، بحيث إذا سئل به أعطىٰ. علىٰ أن بعض العلماء قال: «**من سألكم بالله**»؛ أي: من سألكم سؤالاً بمقتضىٰ شريعة الله فأعطوه، وليس المعنىٰ من قال: أسألك بالله. والمعنىٰ الأول أصح، وقد ورد مثله في قول الملك: «**أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن**»[(٤)].

---

(١) رواه أبو داود وأحمد في المسند (ج١ص٢٩ و ج٢ص٥٩) عن عبدالله بن عمر: (أن عمر استأذن النبي ﷺ في العمرة، فأذن له. فقال: «**يا أخي أشركنا في صالح دعائك؛ ولا تنسنا**» قال عبد الرزاق في حديثه. فقال عمر: «**ما أحب أن لي بها ما طلعت عليه الشمس**» لقوله: يا أخي. (ق).

(٢) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٢٢٤٨). (٣) رواه أحمد (٥٦٧٠، ٥٧٠٩، ١٠٢٧٣).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).

فيه مسائل:

الأولى: إنكاره على من قال: نستشفع بالله عليك.

الثانية: تغيره تغيراً عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة.

الثالثة: أنه لَمْ ينكر عليه قوله: «نستشفع بك على الله».

وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤] فبيَّن تعالى أنَّ دعاء من لا يسمع ولا يستجيب شركٌ، يكفر به المدعوُّ يوم القيامة.

أي: يُنكره، ويعادي من فعله؛ كما في آية الأحقاف: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦] فكلُّ ميتٍ أو غائب، لا يسمع ولا يستجيب ولا ينفع ولا يضر.

والصحابة رضي الله عنهم، لا سيما أهل السوابق منهم كالخلفاء الراشدين، لم يُنقل عن أحد منهم ولا عن غيرهم: أنهم أنزلوا حاجتهم بالنبي ﷺ بعد وفاته، حتى في أوقات الجدب؛ كما وقع لعمر رضي الله عنه لما خرج ليستسقي بالناس، خرج بالعباس عمِّ النبي ﷺ فأمره أن يستسقي؛ لأنه حيٌّ حاضر يدعو ربه[1]، فلو جاز أن يُستسقى بأحدٍ بعد وفاته لاستسقى عمر رضي الله عنه في السابقين الأولين بالنبي ﷺ.

وبهذا يظهر الفرقُ بين الحي والميت؛ لأن المقصود من الحي دعاؤه إذا كان حاضراً. فإنهم في الحقيقة إنما توجهوا إلى الله بطلب الدعاء ممن يدعوه ويتضرَّع إليه، وهم كذلك يدعون ربهم.

فيه مسائل:

الأولى: إنكاره على من قال: «نستشفع بالله عليك»: تؤخذ من قوله: «**سبحان الله! أتدري ما الله**»، وقوله: «**إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه**».

الثانية: تغيره تغيراً عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة: تؤخذ من قوله: «**فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه**»، وكونه يكرر سبحان الله هذا يدل على أنه تغير حتى عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة، وهذا دليل على أن هذه الكلمة كلمة عظيمة منكرة.

الثالثة: أنه لم ينكر عليه قوله: «نستشفع بك على الله»: لأنه قال: لا يستشفع بالله على أحد؛ فأنكر عليه ذلك، وسكت عن قوله: «نستشفع بك على الله»، وهذا يدل على جواز ذلك، وهنا قاعدة وهي: إذا جاء في النصوص ذكر أشياء، فأنكر بعضها وسُكت عن بعض؛ دل على أن ما لم ينكر فهو حق، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ**﴾ فأنكر قوله: ﴿**وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا**﴾ وسكت عن قولهم: ﴿**وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا**﴾؛

---

(١) رواه البخاري. وقد حصل ذلك في عام الرمادة سنة ثمان عشرة، ودام القحط تسعة أشهر. قال الحافظ في الفتح (ج٢ص٣٣٩): وقد بين الزبير بن بكار في الأنساب صفة ما دعا به العباس في هذه الواقعة والوقت الذي وقعت فيه. فأخرج بإسناده أن العباس لما استسقى به عمر قال: (اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة؛ وقد توجه القوم إليك بي لمكاني من نبيك. وهذه أيدينا إليك بالذنوب؛ ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث) فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس.(ق).

الرابعة: التنبيه على تفسير «سبحان الله». الخامسة: أن المسلمين يسألونه الاستقاء.

فمن تعدَّىٰ المشروع إلىٰ ما لا يُشرع، ضل وأضل، فلو كان دعاءُ الميت خيرًا لكان الصحابة إليه أسبقَ وعليه أحرص، وبهم أليق، وبحقه أعلم وأقوم، فمن تمسَّك بكتاب الله نجا، ومن تركه واعتمد علىٰ عقله هلك. وبالله التوفيق.

فدل علىٰ أنها حق، ومثلها عدد أصحاب الكهف، حيث قال عن قول: ﴿ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ وسكت عن قول: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢].

الرابعة: التنبيه على تفسير «سبحان الله!»: لأن قوله: **«إن شأن الله أعظم»** دليل علىٰ أنه مُنزَّه عما ينافي تلك العظمة.

الخامسة: أن المسلمين يسألونه الاستسقاء: وهذا في حال حياته، أما بعد وفاته فلم يكونوا يفعلونه؛ لأنه ﷺ انقطع عمله بنفسه وعبادته.

ولهذا لما حصل الجَدبُ في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه استسقىٰ بالعباس، فقال: «اللهم! إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا»، وتوسلهم بالنبي ﷺ كان بطلبهم الدعاء منه، ولهذا جاء في بعض الروايات: أن عمر كان يأمر العباس فيقوم فيدعو.

وبهذا نعرف أن القصة المروية عن الرجل العتبي الذي كان جالسًا عند قبر النبي ﷺ، فجاء أعرابي، فقال: السلام عليكم يا رسول الله! سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، وإني قد جئت مستغفرًا لذنبي مستشفعًا بك إلىٰ ربي، ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكمُ
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف.

قال العتبي: فغلبتني عيني، فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: يا عتبي! بشر الأعرابي أن الله قد غفر له.

فهذه الرواية باطلة لا صحة لها؛ لأن صاحبها مجهول، وكذلك من رواها عنه مجهولون، ولا يمكن أن تصح؛ لأن الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا﴾، ولم يقل: إذا ظلموا، و «إذ» لما مضىٰ بخلاف «إذا» والصحابة رضي الله عنهم لما لحقهم الجدب في زمن عمر لم يستسقوا بالرسول ﷺ، وإنما استسقوا بالعباس بن عبد المطلب بدعائه وهو حاضر فيهم[1].

ومن فوائد الحديث:

١ ـ أنه ينبغي أن يقدم الإنسان عند الطلب الأوصاف التي تستلزم العطف عليه؛ لقوله: **«نهكت الأنفس»**.

٢ ـ الترحم علىٰ المذنب إذا قلنا: إن «ويح» للترحم.

(١) صحيح: رواه البخاري (١٠١٠، ٣٧١٠).

٦٥- باب
ما جاء في حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك

عن عبد الله بن الشخير[١]، قال: انطلقتُ في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: أنت سيِّدنا، فقال: «السيِّدُ الله تبارك وتعالى»، قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً، فقال: «قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينَّكم الشيطان»[٢]. رواه أبو داود بسند جيد.

وعن أنس، أنَّ ناسًا قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا، وابنَ خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، فقال: «يا أيها الناس، قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمدٌ عبد الله ورسوله، ما أُحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل» رواه النسائي بسند جيد.

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد، وسدِّه طُرقَ الشرك.

عن عبد الله بنِ الشخِّير، قال: انطلقتُ في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: أنت سيِّدنا، فقال: «السيِّدُ الله تبارك وتعالى»، قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً، فقال: «قولوا بقولكم، أو بعضِ قولكم، ولا يستجرينَّكم الشيطان». رواه أبو داود بسند جيد.

وعن أنس، أنَّ ناسًا قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا، وابنَ خيرنا، وسيِّدنا وابن سيدنا، فقال: «يا أيها الناس، قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمدٌ عبد الله ورسوله[٣]، ما أُحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل»[٤] رواه النسائي بسند جيد.

باب ما جاء في حماية المصطفى حمى التوحيد وسده طرق الشرك

تقدم نظير هذه الترجمة وأعادها المصنف اهتمامًا بالمقام، فإن التوحيد لا يتم ولا يحفظ ويحصن إلا باجتناب جميع الطرق المفضية إلى الشرك، والفرق بين البابين أن الأول فيه حماية التوحيد بسد

مناسبة الباب للتوحيد:

لما تكلم المؤلف رحمه الله فيما مضى من كتابه على إثبات التوحيد، وعلى ذكر ما ينافيه أو ينافي

---

(١) قال في أسد الغابة: عبد الله بن الشخير بن عوف بن كعب بن وقدان بن الحريش. العامري ثم الكعبي ثم من بني الحريش وهو بطن من بني عامر بن صعصعة. له صحبة. سكن البصرة-ثم ساق بسنده إلى مطرف ابن عبدالله بن الشخير عن أبيه أنه قال: (قدمت على رسول الله ﷺ في رهط من بني عامر؛ فقالوا: يا رسول الله أنت سيدنا وأنت والدنا وأنت أفضلنا علينا فضلاً، وأنت أطولنا علينا طولاً، وأنت الجفنة الغراء، وأنت وأنت، فقال: **«قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان»**. وقولهم: (أنت الجفنة الغراء) كانت العرب تدعو السيد المطعام (جفنة) لأنه يضعها ويطعم الناس فيها، فسمي باسمها، و(الغراء) البيضاء أي أنها مملوءة بالشحم والدهن؛ قاله أبو السعادات في النهاية. (ق).

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٤٨٠٦)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣٧٠٠).

(٣) رواه مسلم من حديث أبي سعد وأبي هريرة، ورواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان. (ق).

(٤) صحيح: رواه أحمد (٣/ ١٥٣، ٢٤١، ٤/ ٢٥).

. . . .

قوله: (بابُ ما جاء في حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد وسدِّه طرق الشرك) حمايته ﷺ حمى التوحيد، عما يشوبُه من الأقوال والأعمال التي يضمحل معها التوحيد أو ينقص[1]، وهذا كثير في السُّنة الثابتة عنه ﷺ، كقوله: «**لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبدٌ فقولوا: عبد الله ورسوله**»[2] وتقدم، وقوله: «**إنه لا يُستغاث بي، وإنما يستغاث بالله عز وجل**»[3] ونحو ذلك.

ونهى عن التمادح، وشدَّد القول فيه؛ كقوله لمن مدح إنسانًا: «**ويلك قطعت عُنق صاحبك**» والحديث أخرجه أبو داود، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه: أنَّ رجلاً أثنى على رجل عند رسول الله ﷺ، فقال له: «**قطعت عُنق صاحبك ـ ثلاثًا**»[4].

وقال: «**إذا لقيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب**»[5] أخرجه مسلم، والترمذي، وابن ماجه، عن المقداد بن الأسود.

وفي هذه الأحاديث: نهى أن يقولوا: أنت سيدنا، وقال: «**السِّيد الله تبارك وتعالى**»، ونهاهم أن يقولوا: وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً، وقال: «**لا يستجرينَّكم الشيطان**»[6].

- -

الطرق الفعلية، وهذا الباب فيه حمايته وسده بالتأدب والتحفظ بالأقوال، فكل قول يفضي إلى الغلو الذي يخشى منه الوقوع في الشرك فإنه يتعين اجتنابه، ولا يتم التوحيد إلا بتركه.

كماله؛ ذكر ما يحمي هذا التوحيد، وأن الواجب سد طرق الشرك.

قوله: «انطلقت في وفد بني عامر»: الظاهر أن هذا الوفد قدم على النبي ﷺ في العام التاسع؛ لأن الوفود كثرت في ذلك العام، ولذلك يُسمى عام الوفود.

قوله: «أنت سيدنا»: السيد: ذو السُّودد والشرف، والسؤدد معناه: العظمة والفخر وما أشبهه.

وسيد: صفة مشبهة على وزن فيعل، لأن الياء الأولى زائدة.

قوله: «السيد الله»: لم يقل ﷺ: سيدكم كما هو المتوقع، حيث إنه رد على قولهم سيدنا لوجهين:

الوجه الأول: إرادة العموم المستفاد من (أل)؛ لأن (أل) للعموم، والمعنى: أن الذي له السيادة المطلقة هو الله ـ عز وجل ـ، ولكن السيد المضاف يكون سيدًا باعتبار المضاف إليه، مثل: سيد بني فلان، سيد البشر، وما أشبه ذلك.

الوجه الثاني: لئلا يتوهم أنه من جنس المضاف إليه؛ لأن سيد كل شيء من جنسه.

والسيد من أسماء الله تعالى، وهي من معاني الصمد؛ كما فسر ابن عباس الصمد بأنه الكامل في علمه وحلمه وسؤدده وما أشبه ذلك. ولم ينههم ﷺ عن قولهم: «**أنت سيدنا**»، بل أذن لهم بذلك؛

---

(١) في قرة العيون: وقد اشتمل هذا الكتاب - على اختصاره - على أكثر ذلك والنهي عما ينافي التوحيد أو يضعفه؛ يعرف ذلك من تدبره وعرف ما تضمنه بابًا بابًا. (ق).

(٢) صحيح: وقد تقدم تخريجه. (٣) ضعيف: وقد تقدم تخريجه.

(٤) صحيح: رواه البخاري (٢٦٦٢، ٦٠٦١)، ومسلم (٣٠٠٠). (٥) صحيح: رواه مسلم (٣٠٠٢).

(٦) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٤٩٠١)، وإصلاح المساجد (١٠٣).

. . . .

. . . .

والحاصل أن تمام التوحيد بالقيام بشروطه وأركانه ومكملاته ومحققاته: وباجتناب نواقضه ومنقصاته ظاهرًا وباطنًا، قولاً وفعلاً وإرادة واعتقادًا. وقد مضىٰ من التفاصيل ما يوضح ذلك.

فقال: «**قولوا بقولكم أو بعض قولكم**»، لكن نهاهم أن يستجريهم الشيطان فيترقوا من السيادة الخاصة إلىٰ السيادة العامة المطلقة؛ لأن سيدنا سيادة خاصة مضافة، و «السيد» سيادة عامة مطلقة غير مضافة.

قوله: «**تبارك**»: قال العلماء: معنىٰ تبارك؛ أي: كثرت بركاته وخيراته.

ولهذا يقولون: إن هذا الفعل لا يوصف به إلا الله؛ فلا يقال: تبارك فلان؛ لأن هذا الوصف خاص بالله.

وقول العامة: (أنت تباركت علينا) لا يريدون بهذا ما يريدونه بالنسبة إلىٰ الله - عز وجل -، وإنما يريدون أصابتنا بركة من مجيئك، والبركة يصح إضافتها إلىٰ الإنسان إذا كان أهلاً لذلك، قال أسيد بن حضير حين نزلت آية التيمم بسبب عقد عائشة الذي ضاع منها: «**ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر**»[1].

قوله: «**وأفضلنا**»: أي: فضلك أفضل من فضلنا.

قوله: «**وأعظمنا طولاً**»: أي: أعظمنا شرفًا وغنىٰ، والطَّول، الغني، قال تعالىٰ: ﴿**وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ**﴾ [النساء: ٢٥]، ويكون بمعنىٰ العظمة. قال تعالىٰ: ﴿**غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ**﴾ [غافر: ٣]؛ أي: ذي العظمة والغنىٰ.

قوله: «**قولوا بقولكم أو بعض قولكم**»: الأمر للإباحة والإذن كما سبق.

وقوله: «**قولوا بقولكم**»: يعني قولهم: أنت سيدنا أو أنت أفضلنا، وما أشبه ذلك.

وقوله: «**أو بعض قولكم**»: يحتمل أن يكون شكًا من الراوي، وأن يكون من لفظ الحديث؛ أي: اقتصروا علىٰ بعضه.

قوله: «**ولا يستجرينكم الشيطان**»: استجراه بمعنىٰ: جذبه وجعله يجري معه؛ أي: لا يستميلنكم الشيطان ويَجذِبَنَّكم إلىٰ أن تقولوا قولاً منكرًا؛ فأرشدهم ﷺ إلىٰ ما ينبغي أن يفعل، ونهاهم عن الأمر الذي لا ينبغي أن يفعل؛ حماية للتوحيد من النقص أو النقض.

وقال في النهاية: «**لا يستجرينكم الشيطان**»؛ أي: لا يستغلبنكم فيتخذكم جريًا؛ أي: رسولاً ووكيلاً. وعلىٰ التفسيرين؛ فمراد النبي ﷺ حماية التوحيد وسد كل طريق يوصل إلىٰ الشرك، والحماية من المنكر تعظم كلما كان المنكر أعظم وأكبر أو كان الداعي إليه في النفوس أشد.

ولهذا تجد أن باب الشرك حماه النبي عليه الصلاة والسلام حماية بالغة حتىٰ سد كل طريق يمكن أن يكون ذريعة إليه؛ لأنه أعظم الذنوب، وأيضًا باب الزنا حمي حماية عظيمة، حتىٰ منعت المرأة من التبرج وكشف الوجه وخلوتها بالرجل بلا محرم وما أشبه ذلك؛ لئلا يكون ذلك ذريعة إلىٰ الزنا؛ لأن النفوس تطلبه، وفي باب الربا أيضًا حمي الربا بحماية عظيمة، حتىٰ إن الرجل ليعطي الرجل صاعًا طيبًا من البر بصاعين قيمتهما واحدة، ويكون ذلك ربًا محرمًا، مع أنه ليس فيه ظلم.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣٤، ٣٦٧٢، ٤٦٠٧)، ومسلم (٣٦٧)، والنسائي (٣١٠)، وأحمد (٢٤٩٢٧).

. . . .

. . . .

فالشرك قد يكون من الأمور التي لا تدعو إليه النفوس كثيراً لكنه أعظم الظلم؛ فالشيطان يحرص على أن يوصل ابن آدم إلى الشرك بكل وسيلة؛ فحماه النبي ﷺ حماية تامة محكمة حتى لا يدخل الإنسان فيه من حيث لا يشعر، وهذا هو معنى الباب الذي ذكره المؤلف.

تنبيه: جرى شُراح هذا الحديث على أن النبي ﷺ نهاهم عن قول سيدنا؛ فحاولوا الجمع بين هذا الحديث وبين قوله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم**»[1].

وقوله: «**قوموا إلى سيدكم**»:[2] وقوله في الرقيق: «**وليقل سيدي ومولاي**»[3] بواحد من ثلاثة أوجه:

الأول: أن النهي على سبيل الكراهة والأدب، والإباحة على سبيل الجواز.

الثاني: أن النهي حيث يخشى منه المفسدة، وهي التدرج إلى الغلو والإباحة إذا لم يكن هناك محذور.

الثالث: أن النهي بالخطاب؛ أي: أن تخطاب الغير بقولك: أنت سيدي أو سيدنا، بخلاف الغائب؛ لأن المخاطب ربما يكون في نفسه عجب وغلو وترفع، ثم إن فيه شيئًا آخر، وهو خضوع هذا المُتسيِّد له وإذلال نفسه له بخلاف ما إذا جاء من الغير، مثل: «**قوموا إلى سيدكم**»، أو على سبيل الغيبة؛ كقول العبد: قال سيدي ونحو ذلك، لكن هذا يرد عليه إباحته ﷺ للرقيق أن يقول لمالكه: سيدي.

والذي يظهر لي أن لا تعارض أصلا؛ لأن النبي ﷺ أذن لهم أن يقولوا بقولهم، لكن نهاهم أن يستجريهم الشيطان بالغلو مثل (السيد)؛ لأن السيد المطلق هو الله تعالى، وعلى هذا؛ فيجوز أن يقال: سيدنا وسيد بني فلان ونحوه، ولكن بشرط أن يكون المُوَجَّه إليه السيادة أهلاً لذلك، أما إذا لم يكن أهلاً كما لو كان فاسقًا أو زنديقًا؛ فلا يقال له ذلك حتى ولو فرض أنه أعلى منه مرتبة أو جاهًا، وقد جاء في الحديث: «**ولا تقولوا للمنافق سيد؛ فإنكم إذا قلتم ذلك أغضبتم الله**»[4]، فإذا كان أهلاً لذلك وليس هناك محذور؛ فلا بأس به، وأما إن خشي المحذور أو كان غير أهل؛ فلا يجوز.

والمحذور: هو الخشية من الغلو فيه.

قوله: «**قالوا: يا رسول الله!**»: هذا النداء موافق لقوله تعالى: ﴿**لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا**﴾ [النور: ٦٣]؛ أي: لا تنادوه كما ينادي بعضهم بعضًا؛ فتقولوا: يا محمد! ولكن قولوا: يا رسول الله! أو: يا نبي الله!

وفي الآية معنى آخر: أي إذا دعاكم الرسول؛ فلا تجعلوا دعاءه إياكم كدعاء بعضكم بعضًا إن شئتم أجبتم وإن شئتم أبيتم؛ فهو كقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا**

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٢٧٨).

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩)، وأبو داود (٤٩٧٥)، وأحمد (٢٧٤١٤).

(٤) صحيح: رواه أبو داود (٤٩٧٧)، وأحمد (٢٢٤٣٠)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٤٧٨٠).

. . . .

وكذلك قوله، في حديث أنس: أنَّ ناسًا قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا، فقال: «**يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان**» كره ﷺ أن يواجهوه بالمدح، فيُفضي بهم إلى الغلو[١]. وأخبر ﷺ أنَّ مواجهة المادح للممدوح بمدحه - ولو بما فيه - من عمل الشيطان؛ لما تفضي محبةُ المدح إليه من تعاظم الممدوح في نفسه، وذلك يُنافي كمال التوحيد.

فإن العبادة لا تقوم إلاَّ بقُطب رحاها الذي لا تدور إلا عليه، وذلك غايةُ الذل في غاية المحبة. وكمال الذل يقتضي: الخضوع والخشية والاستكانة لله تعالى، وأنَّه لا يرى نفسه إلا في مقام الذم لها، والمعاتبة لها في حق ربه، وكذلك الحبُّ لا تحصل غايته إلا إذا كان يحب ما يحبه الله، ويكره ما يكرهه الله من الأقوال والأعمال والإرادات. ومحبةُ المدح من العبد لنفسه يُخالف ما يحبه الله منه، والمادح يغره من نفسه فيكون آثمًا، فمقامُ العبودية يقتضي كراهية المدح رأسًا، والنهي عنه صيانةٌ لهذا المقام. فمتى أخلص الذل لله، والمحبة له: خلصت أعمالُه وصحت. فمتى أدخل عليها ما يشوبها من هذه الشوائب: دخل على مقام العبودية بالنقص أو الفساد.

وإذا أدَّاه المدحُ إلى التعاظم في نفسه، والإعجاب بها: وقع في أمر عظيم، ينافي العبودية الخاصة؛ كما في الحديث: «**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني شيئًا منهما عذبته**»[٢][٣] وفي الحديث: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرَّة من كبر**»[٤][٥].

يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وعلى المعنى الأول تكون «دعاء» مضافة إلى المفعول، وعلى الثاني تكون مضافة إلى الفاعل.

قوله: «يا خيرنا»: هذا صحيح؛ فهو خيرهم نسبًا ومقامًا وحالاً.

قوله: «وابن خيرنا»: أي: في النسب لا في المقام والحال.

وكذلك يقال في قوله: «**وابن سيدنا**».

قوله: «قولوا بقولكم»: سبق القول فيه.

---

(١) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في غاية المرام (١٢٧).

(٢) رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص (*) بإسناد رجاله رجال الصحيح. (ق).

(*) قوله: (رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص) إلخ.. أقول: وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء**». (ز)

(٣) صحيح: صححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٥٤١)، وعند مسلم (٢٦٢٠) بلفظ: «**العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته**».

(٤) في قرة العيون: فأعلى مراتب العبد هاتان الصفتان: العبودية الخاصة والرسالة. وللنبي ﷺ أكملهما. وقد أخبر الله تعالى أنه وملائكته يصلون عليه. وأثنى عليه بأحسن ثناء وأبلغه، وشرح له صدره ووضع عنه وزره ورفع له ذكره. فلا يذكر في الأذان والتشهد والخطب إلا ذكر معه. صلوات الله وسلامه عليه. (ق).

(٥) صحيح: رواه مسلم (٩١).

. . . .

وهذه الآفة قد تكون محبة المدح سببًا لها، وسُلَّما إليها، والعُجب يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب. وأمَّا المادح، فقد يُفضي به المدح إلىٰ أن يُنزل الممدوح منزلةً لا يستحقها، كما يوجد كثيرًا في أشعارهم، من الغلو الذي نهىٰ عنه الرسول ﷺ وحذر أُمته أن يقع منهم، فقد وقع الكثير منه، حتىٰ صرحوا فيه بالشرك في الربوبية والإلهية والملك، كما تقدَّمت الإشارةُ إلىٰ شيءٍ من ذلك.

والنبيُّ ﷺ لما أكمل الله له مقام العبودية، صار يكره أن يُمدح، صيانةً لهذا المقام، وأرشد الأمة إلىٰ ترك ذلك نُصحًا لهم، وحمايةً لمقام التوحيد عن أن يدخله ما يفسده أو يضعفه، من الشرك ووسائله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩]، ورأوا أنَّ فعل ما نهاهم ﷺ عن فعله قربةٌ من أفضل القربات، وحسنة من أعظم الحسنات.

وأما تسميةُ العبد بالسيد، فاختلف العلماء في ذلك:

قال العلامة ابن القيم في (بدائع الفوائد): اختلف الناسُ في جواز إطلاق السيد علىٰ البشر. فمنعه قومٌ، ونُقل عن مالك؛ واحتجوا بقول النبي ﷺ لما قيل له: يا سيِّدَنا، قال: «السيد الله». وجوَّزه

قوله: «ولا يستهوينكم الشيطان»: أي: لا يستميلَنّكم الشيطان فتَهوَوه وتتبعوا طرقه حتىٰ تبلغوا الغلو، ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ [الأنعام: ٧١].

قوله: «أنا محمد عبد الله ورسوله»: محمد اسمه العلم، وعبد الله ورسوله وصفان له.

وهذان الوصفان أحسن وأبلغ وصف يتصف به الرسول ﷺ، ولذلك وصفه الله تعالىٰ بالعبودية في أعظم المقامات؛ فوصفه بها في مقام إنزال القرآن عليه، قال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، ووصفه بها في مقام الإسراء، قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ [الإسراء: ١]، ووصفه بها في مقام المعراج قال تعالىٰ: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، ووصفه في مقام الدفاع عنه والتحدي، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]. وكذلك بالنسبة للأنبياء؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، وهذه العبودية خاصة، وهي أعلىٰ أنواع الخاصة. والعبودية لله من أجل أوصاف الإنسان؛ لأن الإنسان إما أن يعبد الله أو الشيطان، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١]. قال ابن القيم:

هربوا من الرق الذي خُلقوا له ... فبُلُوا برق النفس والشيطان

وقال الشاعر:

لا تدعُني إلا بيا عبدها ... فإنه أشرف أسمائي

«ورسوله»: أي: المُرسَل من عنده إلىٰ جميع الناس؛ كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. ورسول الله ﷺ في قمة الطبقات الصالحة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ

فيه مسائل:

الأولى: تحذير الناس من الغلو. الثانية: ما ينبغي أن يقول من قيل له: أنت سيدنا.

الثالثة: قوله: «ولا يستجرينكم الشيطان» مع أنَّهم لم يقولوا إلا الحق.

الرابعة: قوله: «ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي».

قومٌ، واحتجوا بقول النبي ﷺ للأنصار «قوموا إلى سيدكم»(١)(٢) وهذا أصحُّ من الحديث الأول.

قال هؤلاء: السيد أحدُ ما يضاف إليه، فلا يقال للتميمي سيِّدُ كندة، ولا يقال: المَلَك سيِّد البشر.

قال: وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على الله هذا الاسم. وفي هذا نظر؛ فإنَّ السيد إذا أُطلق عليه تعالى فهو في منزلة المالك، والمولى والرب، لا بمعنى الذي يُطلق على المخلوق. انتهى.

قلت: فقد صحَّ عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال في معنى قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤] أي: إلهًا وسيداً. وقال في قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ أنَّه السيد، الذي كمُل في جميع أنواع السؤدد. وقال أبو وائل: هو السيد الذي انتهى سؤدده.

وأمَّا استدلالهم بقول النبي ﷺ للأنصار: «قوموا إلى سيدكم» فالظاهر: أنَّ النبي ﷺ لم يواجه سعداً به، فيكون في هذا المقام تفصيل. والله أعلم.

رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، والنبيون فيهم الرسول ﷺ، بل هو أفضلهم، ومن عبارة المؤلف رحمه الله في الرسول ﷺ: «عبد لا يُعبد، ورسول لا يُكذَّب». وقد تَطَرَّف في الرسول ﷺ طائفتان:

- طائفة غلت فيه حتى عبدته، وأعدته للسراء والضراء، وصارت تعبده وتدعوه من دون الله.
- وطائفة كذبته، وزعمت أنه كذاب، ساحر، شاعر، مجنون، كاهن، ونحو ذلك.

وفي قوله: «عبد الله ورسوله» رد على الطائفتين.

قوله: «ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي»: «ما»: نافية، و «أن» وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول أحب؛ أي: ما أحب رِفعتكم إياي فوق منزلتي؛ لا في الألفاظ، ولا في الألقاب، ولا في الأحوال.

قوله: «التي أنزلني الله»: يستفاد منه أن الله تعالى هو الذي يجعل الفضل في عباده، وينزلهم منازلهم.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن التوحيد يجب أن يحمى من كل وجه حتى في الألفاظ؛ ليكون خالصًا من كل شائبة.

فيه مسائل:

الأولى: تحذير الناس من الغلو: تؤخذ من قوله: «ولا يستجرينكم الشيطان». ووجهه: أن الرسول ﷺ

---

(١) قال هذا حين رأى سعد بن معاذ آتيًا على حمار قد أسندوه لأنه كان مريضًا من جرح أصابه من المشركين في الخندق. وقد دعا به رسول الله ﷺ ليحكم في بني قريظة بعد أن حاصرهم وقبلوا أن ينزلوا على حكم سعد، فكان هذا القول منه ﷺ لأنه مريض ولا يستطيع أن ينزل عن الحمار وحده فأمرهم أن يقوموا لينزلوه ولأنه جاء لهذه القضية، فأراد أن يجعل له من التعظيم ما يناسب هذه الواقعة. وكان سعد بن معاذ سيد الأوس ورئيسهم ﷺ.(ق).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٣٠٤٣، ٤١٢١، ٦٢٦٢)، ومسلم (١٧٦٨).

٦٦ـ باب
ما جاء في قول الله تعالى:

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

عن ابن مسعود، قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على

قال المصنف رحمه الله تعالى: بابُ ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

باب قول الله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الأنعام: ٩١]

ختم المصنف، رحمه الله، كتابه بهذه الترجمة، وذكر النصوص الدالة على عظمة الرب العظيم وكبريائه، ومجده وجلاله، وخضوع المخلوقات بأسرها لعزه؛ لأن هذه النعوت العظيمة والأوصاف الكاملة أكبر الأدلة والبراهين على أنه المعبود وحده، المحمود وجده، الذي يجب أن يبذل له غاية الذل والتعظيم، وغاية الحب والتأله، وأنه الحق وما سواه باطل. وهذه حقيقة التوحيد ولبه وروحه، وسر الإخلاص فنسأل الله أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته، والإنابة إليه. إنه جواد كريم.

جعل هذا من استجراء الشيطان، والإنسان يجب عليه أن يحذر كل ما كان من طرق الشيطان.

الثانية: ما ينبغي أن يقول من قيل له: أنت سيدنا: وتؤخذ من قوله: «السيد الله»؛ فينبغي أن يقول من قيل له ذلك: «**السيد الله**».

الثالثة: قوله: «لا يستجرينكم الشيطان» مع أنهم لم يقولوا إلا الحق: ظاهر كلام المؤلف أن هذا من استجراء الشيطان؛ فهذه الكلمة يحتمل أن معناها أن ما قلتم من استجراء الشيطان.

ويحتمل أن المعنى: قولوا بهذا القول، ولكن إياكم أن تغلوا، فإن هذا من استجراء الشيطان، وهذا ظاهر الحديث كما سبق.

الرابعة: قوله: «ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي»: أي: إني أكره أن ترفعوني فوق منزلتي، وهي العبودية والرسالة؛ ففيها تواضعه ﷺ.

قوله: ﴿ وَمَا قَدَرُوا ﴾: الضمير يعود على المشركين.

و ﴿ قَدَرُوا ﴾: عظّموا؛ أي: ما عظموا الله حق تعظيمه حيث أشركوا به ما كان من مخلوقاته.

قوله: ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾: يحتمل أن تكون الواو للحال؛ أي: ما قدروا الله حق قدره في هذه الحال.

ويحتمل أن تكون للاستئناف؛ لبيان عظمة الله ـ عز وجل ـ وهذا أقوى؛ لأنه يعلم هذه الحال وغيرها.

والقبضة: هي ما يقبض باليد، وليس المراد بها المُلك كما قيل، نعم، لو قال: والأرض في

إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع. فيقول أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1]. الآية. متفق عليه.

وفي رواية مسلم: والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن، فيقول: أن الملك، أنا الله[2].

عن ابن مسعود، قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع. فيقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. الآية. متفق عليه.

وفي رواية مسلم: والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن، فيقول: أن الملك، أنا الله.

خاتمة

وهذا آخر التعليق المختصر على كتاب التوحيد وتوضيح مقاصده، وقد حوى من غرر مسائل التوحيد. ومن التقاسيم والتفصيلات النافعة ما لا يستغني عنه الراغبون في هذا الفن الذي هو أصل الأصول وبه تقوم العلوم كلها، والحمد لله على تيسيره ومنته. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

قبضته؛ لكان تفسيرها بالملك محتملاً.

قوله: ﴿جَمِيعًا﴾: حال من الأرض؛ فيشمل بحارها وأنهارها وأشجارها وكل ما فيها، الأرض كلها جميعًا قبضته يوم القيامة، والسماوات على عظمها وسعتها مطويات بيمينه.

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

قوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: هذا تنزيه له عن كل نقص وعيب، ومما ينزه عنه هذه الأنداد، ولهذا قال: ﴿وَتَعَالَى﴾؛ أي: ترفع.

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي: عن كل شرك يشركونه به، سواء جعلوا الخالق كالمخلوق أو العكس.

قوله: «حبر»: الحَبرُ: هو العالم الكثير العلم، والحبر يشابه البحر في اشتقاق الحروف، ولهذا كان العالم أحيانًا يسمى بالحبر وأحيانًا بالبحر.

قوله: «إنا نجد»: أي: في التوراة.

قوله: «فضحك النبي ﷺ»: ولولا ما بعدها لاحتملت أن تكون إنكاراً؛ لأن من حدَّثك بحديث لا تطمئن إليه ضحكت منه، لكنه قال: «تصديقًا لقول الحبر»؛ فكانت إقرارًا لا غير، ويدل لذلك قوله: ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية؛ فهذا يدل على أنه ﷺ أقره واستشهد لقوله بآية من كتاب الله، فضحكه واستشهاده تقرير لقول الحبر، وسبب الضحك هو سروره، حيث جاء في القرآن ما يُصدِّق ما وجده هذا الحبر في كتبه؛ لأنه لا شك أنه إذا جاء ما يصدق القرآن؛ فإن الرسول ﷺ سوف

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٧٤١٤، ٧٤٥١)، ومسلم (٢٧٨٦). (٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٨٦).

وفي رواية للبخاري: يجعل السموات على إصبع، والماء والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع. أخرجاه[١].

وفي رواية للبخاري: يجعل السموات على إصبع، والماء والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع. أخرجاه.

قوله: باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي: من الأحاديث والآثار، في معنى هذه الآية الكريمة.

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى: يقول تعالى: ما قدر المشركون الله حق قدره، حتى عبدوا معه غيره. وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء وكل شيء تحت قهره وقدرته.

قال مجاهد: نزلت في قريش.

قال السدي: ما عظموه حق عظمته. وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره، ما كذبوه.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هم الكفار، الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم. فمن آمن أن الله على كل شيء قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره.

يسر به، وإن كان الرسول ﷺ يعلم علم اليقين أن القرآن من عند الله، لكن تضافر البينات مما يُقوي الشيء، أرأيت أسامة بن زيد وأبوه زيد بن حارثة؟ هل كان عند النبي ﷺ شك في أن أسامة ابنٌ لزيد؟

الجواب: ليس عنده في ذلك شك، ولما مرّ بهما مُجَزِّز المدلجي ـ وهو من أهل القيافة ـ وقد تغطيا بقطيفة لم يبد منهما إلا أقدامهما، فنظر إلى أقدامهما، فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض، فسُر النبي ﷺ سروراً عظيماً حتى دخل على عائشة مسروراً تبرق أسارير وجهه، وقال: «**ألم تري إلى مجزز المدلجي نظر إلى أسامة بن زيد وإلى زيد فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض**»[٢]؛ فالمهم أن الرسول ﷺ دخل تبرق أسارير وجهه؛ لأن في ذلك تأييداً للحق، وكان المشركون يقدحون في أسامة بن زيد وأبيه لاختلاف ألوانهما، فكان أسامة أسود شديد السواد وأبوه زيد أبيض من القطن، لكن الأمر ليس كما قالوا، بل هم كاذبون في ذلك، واختلاف اللون لا يوجب شبهة إلا لذي هوى؛ فلعل المخالف في اللون نزعه عرق.

قوله: «إصبع»: واحدة الأصابع، وهي مثلثة الأول والثالث؛ ففيها تسع لغات، والعاشر أُصبُوع، وفي هذا يقول الناظم:

وهمزَ أنملة ثلِّثْ وثالثة ... التِّسع في أُصبُع واختم بِأُصبُوعِ

قوله: «أنا الملك»: هذه الجملة تفيد الحصر؛ لأنها اسمية معرّفة الجزئين؛ ففي ذلك اليوم لا ملك لأحد، قال تعالى: ﴿**يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾ [غافر: ١٦]، وكل الناس الملوك منهم والمملوكون على حد سواء يحشرون حفاة عراة غرلاً، وبهذا يظهر ملكوت الله ـ عز وجل ـ في ذلك اليوم ظهوراً بيِّناً؛ لأنه ـ سبحانه ـ ينادي: لمن الملك اليوم؛ فلا يجيبه أحد، فيجيب نفسه: ﴿**لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾.

وقوله: «**المَلِك**»: أي: ذو السلطان، وليس مجرد المتصرف، بل هو المتصرف فيما يملك على وجه

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٨١١، ٧٤١٥، ٧٥١٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٧٣١، ٦٧٧٠، ٦٧٧١)، ومسلم (١٤٥٩)، وأبو داود (٢٢٦٧)، والترمذي (٢١٢٩)، وابن ماجه (٢٣٤٩)، وأحمد (٢٣٥٧٩، ٢٥٣٦٧).

. . . .

وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية، الطريق فيها وفي أمثالها: من مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف. وذكر حديث ابن مسعود، كما ذكره المصنف رحمه الله في هذا الباب قال: ورواه البخاري في «صحيحه» في غير موضع، ومسلم، والإمام أحمد، والترمذي، والنسائي. كلهم من حديث سليمان ابن مهران هو الأعمش، عن إبراهيم، عن عبيدة عن ابن مسعود، بنحوه.

[قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله]، قال: جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبي ﷺ، فقال: يا أبا القاسم، أبلغك أن الله يحمل الخلائق على إصبع، والسموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، قال: وأنزل الله عزوجل: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾ الآية. وهكذا رواه البخاري، ومسلم والنسائي، من طرق عن الأعمش به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسين بن حسن الأشقر، حدثنا أبو كدينة[1]، عن عطاء، عن أبي الضحى، عن ابن عباس، قال: مر يهودي برسول الله ﷺ وهو جالس، فقال: كيف تقول يا أبا القاسم يوم يجعل الله السموات على ذه - وأشار بالسبابة - والأرض على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه؟ كل ذلك يشير بإصبعه. فأنزل الله عز وجل: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾ وكذا رواه الترمذي في «التفسير»، بسنده عن أبي الضحى مسلم بن صبيح، به. وقال: حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

ثم قال البخاري: حدثنا سعيد بن عفير، حدثنا الليث، حدثني عبد الرحمن بن خالد ابن مسافر، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن: أن أبا هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يقبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه، فيقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟**» تفرد به من هذا الوجه، رواه مسلم من وجه آخر[2].

وقال البخاري في موضع آخر: حدثنا مقدم بن محمد، حدثنا عمي القاسم بن يحيى، عن

السلطة والعلو، وأما «**المالك**» فدون ذلك، ولهذا يمتدح نفسه تعالى بأنه الملك، وقوله تعالى: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ [الفاتحة: ٤]، فيها قراءتان: «**ملك، ومالك**»؛ ليتبين بذلك أنه ملك مالك.

فَمُلك الله تعالى متضمن لكمال السلطان والتدبير والملك، بخلاف غيره؛ فإن من ملوك الدنيا من يكون ملكًا لا يملك التصرف، ومنهم المالك وليس بملك.

قوله: «حتى بدت نواجذه»: أي: ظهرت، ونواجذ: جمع ناجذ، وهو أقصى الأضراس.

وهذا الضحك من النبي ﷺ تقرير لقول الحبر، ولهذا قال ابن مسعود «**تصديقًا لقول الحبر**»، ولو كان منكرًا ما ضحك الرسول ﷺ ولا استشهد بالآية، ولقال له: كذبت كما كذب الذين ادعوا أن الذي يزني لا يرجم، ولكنه ضحك تصديقًا لقول الحبر وسرورًا بأن ما ذكره موافقٌ لما جاء به القرآن الذي أوحي إلى محمد ﷺ.

قوله: ثم قرأ: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ**﴾ [الزمر: ٦٧] الآية.

---

(١) اسمه يحيى بن المهلب البجلي الكوفي قال الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب: صدوق من السابعة روى له الترمذي والنسائي أيضًا. (ق).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٤٨١٢، ٦٥١٩، ٧٣٨٢)، ومسلم (٢٧٨٧).

. . . .

عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين، وتكون السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك**» تفرد به أيضًا من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجه آخر(١).

وقد رواه الإمام أحمد من طريق آخر، بلفظ أبسط من هذا السياق وأطول، فقال: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أنبأنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن عبيد الله بن مقسم، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية يومًا على المنبر ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾؛ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها، يقبل بها ويدبر «**يمجد الرب نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم**» فرجف برسول الله ﷺ المنبر، حتى قلنا: ليخرن به(٢). انتهى.

هذا معنى الآية التي لا تحتمل غيره، وأن السماوات مطويات كطي السجل للكتب بيمينه؛ أي: يده تبارك وتعالى؛ لأن ذلك تفسيره ﷺ، وتفسيره في الدرجة الثانية من حيث الترتيب، لكنه كالقرآن في الدرجة الأولى من حيث القبول والحجة.

وأما تفسير أهل التحريف؛ فيقول بعضهم: «**قبضته**»؛ أي: في قبضته وملكه وتصرفه، وهو خطأ؛ لأن الملك والتصرف كائن يوم القيامة وقبله.

وقول بعضهم: «**السماوات مطويات**»؛ أي: تالفة وهالكة؛ كما تقول: انطوى ذكر فلان؛ أي: زال ذكره.

«**بيمينه**»؛ أي: بقسمه؛ لأنه قال تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ**﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]؛ فجعلوا المراد باليمين القسم. . إلى غير ذلك من الخرافات التي يلجأ إليها أهل التحريف، وهذا لظنهم الفاسد بالله، حيث زعموا أن إثبات مثل هذه الصفات يستلزم التمثيل، فصاروا ينكرون ما أثبته الله لنفسه وما أثبته رسوله وسلف الأمة بشبهات يدعونها حججًا.

فيقال لهم: هل أنتم أعلم بالله من الله؟

إن قالوا: نعم؛ كفروا، وإن قالوا: لا؛ قلنا: هل أنتم أفصح في التعبير عن المعاني من الله؟

إن قالوا: نعم؛ كفروا، وإن قالوا: لا؛ خُصموا، وقلنا لهم: إن الله بيّن ذلك أبلغ بيان بأن الأرض جميعًا قبضته يوم القيامة، والرسول ﷺ أقر الحبر على ما ذكر فيما يطابق الآية، وهل أنتم أنصح من الرسول ﷺ لعباد الله؟ فسيقولون: لا.

فإذا كان كلامه تعالى أفصح الكلام، وأصدقه، وأبينه، وأعلم بما يقول؛ لزم علينا أن نقول مثل ما قال عن نفسه، ولسنا بمذنبين، بل الذنب على من صرف كلامه عن حقيقته التي أراده الله بها.

ومن فوائد الحديث: إثبات الأصابع لله ـ عز وجل ـ لإقراره ﷺ هذا الحبر على ما قال.

والإصبع إصبع حقيقي يليق بالله ـ عز وجل ـ؛ كاليد، وليس المراد بقوله: «**على إصبع**» سهولة التصرف في السماوات والأرض؛ كما يقوله أهل التحريف، بل هذا خطأ مخالف لظاهر اللفظ والتقسيم، ولأنه ﷺ أثبت ذلك بإقراره، ولقوله ﷺ: «**إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن**»(٣).

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٧٤١٢)، ومسلم (٢٧٨٨).

(٢) رواه أحمد في المسند (٢/ ٧٢)، والنسائي في السنن الكبرى (٤/ ٤٠٢).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٥٤)، وأحمد (٦٥٣٣، ٦٥٧٣).

. . . .

. . . .

وقوله: «بين أصبعين»: لا يلزم من البينية المماسة، ألا ترىٰ قوله تعالىٰ: ﴿والسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، والسحاب لا يمس الأرض ولا السماء وهو بينهما.

وتقول: عنيزة بين الزلفىٰ والرس، ولا يلزم أن تكون متصلة بهما، وتقول: شعبان بين ذي القعدة وجمادىٰ، ولا يلزم أن يكون مواليًا له. فَتبيّن أن البينية لا تستلزم الاتصال في الزمان أو المكان.

وكما ثبت عنه ﷺ: أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ يكون قبل وجه المصلي[1]، ولا يلزم من المقابلة أن يكون بينه وبين الجدار أو السترة التي يصلي إليها؛ فهو قبل وجهه وإن كان علىٰ عرشه.

ومثال ذلك: الشمس حين تكون في الأفق عند الشروق أو الغروب؛ فإن من الممكن أن تكون قبل وجهك وهي في العلو. فتبين بهذا أن هؤلاء المحرفين علىٰ ضلال، وأن من قال: إن طريقتهم أعلم وأحكم؛ فقد ضل. ومن المشهور عندهم قولهم: طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم، وهذا القول علىٰ ما فيه من التناقض قد يوصل إلىٰ الكفر؛ فهو:

أولاً: فيه تناقض؛ لأنهم قالوا: طريقة السلف أسلم، ولا يعقل أن تكون الطريقة أسلم وغيرها أعلم وأحكم؛ لأن الأسلم يستلزم أن يكون أعلم وأحكم، فلا سلامة إلا بعلم بأسباب السلامة والحكمة في سلوك هذه الأسباب.

ثانيًا: أين العلم والحكمة من التحريفِ والتعطيل؟

ثالثًا: يلزم منه أن يكون هؤلاء الخالفون أعلم بالله من رسوله ﷺ وأصحابه؛ لأن طريقة السلف هي طريقة النبي ﷺ وأصحابه.

رابعًا: أنها قد تصل إلىٰ الكفر؛ لأنها تستلزم تجهيل النبي ﷺ وتسفيهه؛ فتجهيله ضد العلم، وتسفيهه ضد الحكمة، وهذا خطر عظيم. فهذه العبارة باطلة حتىٰ وإن أرادوا بها معنىٰ صحيحًا؛ لأن هؤلاء بحثوا وتعمقوا وخاضوا في أشياء كان السلف لم يتكلموا فيها؛ فإن خوضهم في هذه الأشياء هو الذي ضرهم وأوصلهم إلىٰ الحيرة والشك. وصدق النبي ﷺ حين قال: «**هلك المتنطعون**»[2]، فلو أنهم بقوا علىٰ ما كان عليه السلف الصالح ولم يتنطعوا؛ لما وصلوا إلىٰ هذا الشك والحيرة والتحريف، حتىٰ إن بعض أئمة أهل الكلام كان يتمنىٰ أن يموت علىٰ عقيدة أمه العجوز التي لا تعرف هذا الضلال.

ويقول بعضهم: ها أنا أموت علىٰ عقيدة عجائز نيسابور. وهذا من شدة ما وجدوا من الشك والقلق والحيرة، ولا تظن أن العقيدة الفاسدة يمكن أن يعيش الإنسان عليها أبدًا، لا يمكن أن يعيش الإنسان إلا علىٰ عقيدة سليمة، وإلا ابتلي بالشك والقلق والحيرة. وقد قال بعضهم: أكثر الناس شكًا عند الموت أهل الكلام، وما بالك ـ والعياذ بالله ـ بالشك عند الموت، يختم للإنسان بضد الإيمان.

لكن لو أخذنا العقيدة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ بسهولة وبما جرىٰ عليه السلف.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٠٦)، ومسلم (٥٤٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٧٠)، وأبو داود (٤٦٠٨)، وأحمد (٣٦٤٧).

. . . .

. . . .

ونقول كما قال الرازي وهو من علمائهم ورؤسائهم: رأيت أقرب الطرق طريقة القرآن: أقرأ في الإثبات: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]؛ يعني: فأثبت، وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي؛ لأنه قبل هذا الكلام، قال: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية؛ فما رأيتها تروي غليلاً ولا تشفي عليلاً، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن.

والحاصل أن هؤلاء المنكرين لما جاء في الكتاب والسنة من صفات الله ـ عز وجل ـ اعتماداً على هذا الظن الفاسد أنها تقتضي التمثيل قد ضلوا ضلالاً مبينًا. فالصحابة رضي الله عنهم هل ناقشوا الرسول ﷺ في هذا، والذي نكاد نشهد به إن لم نشهد به أنه حين يمر عليهم مثل هذا الحديث يقبلونه على حقيقته، لكن يعلمون أن الله لا مثل له؛ فيجمعون بين الإثبات وبين النفي.

إذًا موقفنا من هذا الحديث الذي فيه إثبات الأصابع لله ـ عز وجل ـ أن نقر به ونقبله، وأن لا نقتصر علىٰ مجرد إمراره بدون معنىٰ فنكون بمنزلة الأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني.

بل نقرؤه ونقول: المراد به أصبع حقيقي يجعل الله عليه هذه الأشياء الكبيرة، ولكن لا يجوز أبدًا أن نتخيل بأفهامنا أو أن نقول بألسنتنا: إنه مثل أصابعنا، بل نقول: الله أعلم بكيفية هذه الأصابع. فكما أننا لا نعلم ذاته المقدسة؛ فكذلك لا نعلم كيفية صفاته، بل نكل علمها إلىٰ الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ.

قوله: «ثم يهزهن»: أي: هزًا خفيفًا؛ ليبين للعباد في ذلك الموقف العظيم عظمته وقدرته، وكان الرسول ﷺ يقرأ هذه الآية ويقبض يده ويبسطها يقول «يهزهن»؛ فصار المنبر يتحرك ويهتز لأنه ﷺ كان يتكلم بهذا الكلام وقلبه مملوء بتعظيم الله تعالىٰ.

فإن قلت: هل نهز أيدينا كما فعل النبي ﷺ؟

فالجواب: إن هذا يختلف بحسب ما يترتب عليه؛ فليس كل من شاهد أو سمع يتقبل ذهنه ذلك بغير أن يشعر بالتمثيل؛ فينبغي أن نكف لأن هذا ليس بواجب حتىٰ نقول: يجب علينا أن نبلغ كما بلغ الرسول ﷺ بالقول والفعل، أما إذا كنا نتكلم مع طلبة علم أو مع إنسان مكابر ينفي هذا ويريد أن يحول المعنىٰ إلىٰ غير الحقيقة؛ فحينئذ نفعل كما فعل الرسول ﷺ. فلو قال قائل: إن الله سميع بصير، لكن قال: سميع بلا سمع وبصير بلا بصر، مع أن الرسول عليه الصلاة والسلام حين قرأ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨] وضع إبهامه علىٰ أذنه والتي تليها علىٰ عينه وأبوهريرة حين حدث به كذلك [١]، فهذا الإنسان الذي يقول: إن الله سميع بلا سمع بصير بلا بصر نقول له هكذا. وكذلك الذي ينكر حقيقة اليد ويقول: إن الله لا يقبض السماوات بيمينه، وأن معنىٰ قبضته؛ أي: في تصرفه؛ فهذا نقول له كما فعل الرسول ﷺ.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤٧٢٨)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود، وصححه في قصة المسيح الدجال ص (٦٤).

ولمسلم، عن ابن عمر مرفوعًا: «يطوي الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟أين المتكبرون؟» [١].

وروي: عن ابن عباس، قال: ما السموات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: حدثني أبي، قال: قال رسول الله ﷺ «ما السموات السبع في الكرسي، إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس».

قال: وقال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺيقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض» [٢].

قال المصنف رحمه الله تعالى: ولمسلم، عن ابن عمر مرفوعًا: «يطوي الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟أين المتكبرون؟».

وروي: عن ابن عباس، قال: ما السموات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: حدثني أبي، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السموات السبع في الكرسي، إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس».

قال: وقال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من

فالمقام ليس بالأمر السهل، بل هو أمر صعب ودقيق للغاية؛ فإنه يخشى من أن يقع أحد في محذور كان بإمكانك أن تمسك عنه، وهذا هو فعل الرسول في جميع تصرفاته إذا تأملتها، حتى الأمور العملية قد يؤجلها إذا خاف من فتنة أو من شيء أشد ضرراً؛ كما أخَّر بناء الكعبة على قواعد إبراهيم خوفًا من أن يكون فتنة لقريش الذين أسلموا حديثًا [٣].

قوله: «والماء والثرى على إصبع»:هذا لا ينافي قوله: «الأرضين على إصبع»؛ لأنه يقال: «الماء والثرى على إصبع»؛ أي: الأرض كلها على إصبع، ويراد بالإصبع الجنس، وإلا لتناقض مع معنى الحديث الذي قبله: «الشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع»؛ إذ النكرة إذا كرّرت بلفظ النكرة، فالثاني غير الأول غالبًا، وإذا كررت بلفظ المعرفة؛ فالثاني هو الأول غالبًا، فيقال: الماء والثرى كناية عن الأرض كلها، أو إن الماء والثرى على إصبع وسكت عن الباقي؛ إما اختصاراً أو اقتصاراً.

(١) صحيح:رواه مسلم (٢٧٨٨). (٢)رواه الطبري في التفسير (٣/ ١٠).
(٣) متفق عليه:رواه البخاري (١٢٦) ومواضع، ومسلم (١٣٣٣).

وعن ابن مسعود، قال: بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء. والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم. أخرجه ابن مهدي، عن حماد بن سلمة،عن عاصم، عن زر، عن عبد الله. ورواه بنحوه المسعودي، عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله.

قاله الحافظ الذهبي، قال: وله طرق.

وعن العباس بن عبد المطلب، قال: قال رسول الله ﷺ «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر. بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم»[1] . أخرجه أبو داود وغيره.

حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض».

وعن ابن مسعود، قال: بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء. والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم. أخرجه ابن مهدي، عن حماد بن سلمة،عن عاصم، عن زر، عن عبد الله. ورواه بنحوه المسعودي، عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله.

قاله الحافظ الذهبي، قال: وله طرق.

وعن العباس بن عبد المطلب، قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر. بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم» . أخرجه أبو داود وغيره.

قوله: «ولمسلم عن ابن عمر». الحديث. كذا في رواية مسلم. وقال الحميدي: وهي أتم، وهي عند مسلم من حديث سالم، عن أبيه.

قوله: «ولمسلم عن ابن عمر مرفوعًا: «يطوي الله السماوات...»»: سبق معنى هذا الحديث، وأن المراد بالطي الطي الحقيقي.

قوله: «ثم يقول: أنا الملك»: يقول ذلك ثناء على نفسه ـ سبحانه ـ وتنبيهًا على عظمته الكاملة

---

(١) ضعيف: ضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٦٠٩٣).

. . . .

وأخرجه البخاري، من حديث عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، قال: **«إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين، وتكون السماء بيمينه»** وأخرجه مسلم، من حديث عبيد الله بن مقسم.

وعلى ملكه الكامل، وهو السلطان؛ فهو مالك ذو سلطان، وهذه الجملة كلا جزأيها معرفة، وإذا كان المبتدأ والخبر كلاهما معرفة؛ فإن ذلك من طرق الحصر؛ أي: أنا الذي لي الملكية المطلقة والسلطان التام لا ينازعني فيهما أحد.

قوله: «أين الجبارون؟»: الاستفهام للتحدي، فيقول: أين الملوك الذين كانوا في الدنيا لهم السلطة والتجبر والتكبر على عباد الله؟ وفي ذلك الوقت يحشرون أمثال الذر يطأهم الناس بأقدامهم.

قوله: «يطوي الأرضين السبع»: أشار الله في القرآن إلى أن الأرضين سبع، ولم يرد العدد صريحًا في القرآن، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، والمماثلة هنا لا تصح إلا في العدد؛ لأن الكيفية تتعذر المماثلة فيها، وأما السُّنَّة؛ فقد صرحت بعدة أحاديث بأنها سبع.

قوله: «ثم يأخذهن بشماله»: كلمة (شمال) اختلف فيها الرواة؛ فمنهم من أثبتها، ومنهم من أسقطها، وقد حكموا على من أثبتها بالشذوذ؛ لأنه خالف ثقتين في روايتها عن ابن عمر.

ومنهم من قال: إن ناقلها ثقة، ولكنه قالها من تصرفه.

وأصل هذه التخطئة هو ما ثبت في «صحيح مسلم»: أن الرسول ﷺ قال: **«المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين»**[١]، وهذا يقتضي أنه ليس هنا يد يمين ويد شمال.

ولكن إذا كانت لفظة «شمال» محفوظة، فهي عندي لا تنافي «كلتا يديه يمين»؛ لأن المعنى أن اليد الأخرى ليس كيد االشمال بالنسبة للمخلوق ناقصة عن اليد اليمنى، فقال: **«كلتا يديه يمين»**؛ أي: ليس فيها نقص، ويؤيد هذا قوله في حديث آدم: **«اخترت يمين ربي وكلتا يديه يمين مباركة»**[٢]، فلما كان الوهم يذهب إلى أن إثبات الشمال؛ يعني: النقص في هذه اليد دون الأخرى؛ قال: **«كلتا يديه يمين»**، ويؤيده أيضًا قوله: **«المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن»**؛ فإن المقصود بيان فضلهم ومرتبتهم، وأنهم على يمين الرحمن - سبحانه -.

وعلى كلٍّ؛ فإن يديه - سبحانه - اثنتان بلا شك، وكل واحدة غير الأخرى، وإذا وصفنا اليد الأخرى بالشمال، فليس المراد أنها أقل قوة من اليد اليمنى، بل كلتا يديه يمين.

والواجب علينا أن نقول: إن ثبتت عن رسول الله ﷺ؛ فنحن نؤمن بها، ولا منافاة بينها وبين قوله: **«كلتا يديه يمين»** كما سبق، وإن لم تثبت؛ فلن نقول بها.

قوله: «في كف الرحمن»: فيه إثبات الكف لله تعالى.

قوله: «إلا كخردلة»: هي حبة نبات صغيرة جدًا، يضرب بها المثل في الصغر والقلة، وهذا يدل

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٢٧)، والنسائي (٥٣٧٩)، وأحمد (٦٤٤٩) ومواضع.
(٢) صحيح: وقد تقدم.

. . . .

. . . .

علىٰ عظمته ـ سبحانه ـ، وأنه ـ سبحانه ـ لا يحيط به شيء، والأمر أعظم من هذا التمثيل التقريبي؛ لأنه تعالىٰ لا تدركه الأبصار، ولا تحيط به الأفهام.

قوله: «قال ابن جرير»: هو المُفسِّر المشهور رحمه الله، وله تفسير أثري يعتمد فيه علىٰ الآثار، لكن آفته أنه لم يمحص هذه الاثار، وأتىٰ بالصحيح والضعيف وما دون الضعيف أيضًا، وكأنه رحمه الله أراد أن يقيد هذا وجعل الحكم بالصحة والضعف موكولاً إلىٰ القارئ، وربما كان يريد أن يرجع إليه مرة ثانية ويمحصه، ولكن لم يتيسر ذلك.

قوله: «**ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في فلاة من الأرض**»: الكرسي: موضع قدمي الله تعالىٰ، هكذا قال ابن عباس رضي الله عنهما، والدراهم: جمع درهم، وهو النقد من الفضة، والترس: شيء من جلد أو خشب يحمل عند القتال يُتقىٰ به السيف والرمح ونحوهما.

قوله: «**ما الكرسي في العرش**»: أي: بالنسبة إليه، والعرش هو المخلوق العظيم الذي استوىٰ عليه الرحمن ولا يقدر قدره إلا الله ـ عز وجل ـ والمراد بالحلقة حلقة الدرع، وهي صغيرة وليست بشيء بالنسبة إلىٰ فلاة الأرض.

وهذا الحديث يدل علىٰ عظمته ـ عز وجل ـ فيكون مناسبًا لتفسير الآية التي جعلها المؤلف ترجمة للباب.

قوله: «وعن ابن مسعود...»: هذا الحديث موقوف علىٰ ابن مسعود، لكنه من الأشياء التي لا مجال للرأي فيها، فيكون له حكم الرفع؛ لأن ابن مسعود رضي الله عنه لم يُعرف بالأخذ عن الإسرائيليات.

قوله: «**بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام**»: وعلىٰ هذا تكون المسافة بين السماء الدنيا والماء أربعة آلاف سنة وفي حديث آخر: «**إن كثف كل سماء خمسمائة عام**»، وعلىٰ هذا يكون بين السماء الدنيا والماء سبعة آلاف وخمسمائة، وإن صح الحديث؛ فمعناه أن علو الله ـ عز وجل ـ بعيد جدًا.

فإن قيل: يرد علىٰ هذا ما ذكره المعاصرون اليوم من أن بيننا وبين بعض النجوم والمجرات مسافات عظيمة؟

يقال في الجواب: إنه إذا صحت الأحاديث عن رسول الله ﷺ فإنا نضرب بما عارضها عرض الحائط، لكن إذا قُدر أننا رأينا الشيء بأعيننا، وأدركنا بأبصارنا وحواسنا؛ ففي هذه الحال يجب أن نسلك أحد أمرين:

الأول: محاولة الجمع بين النص والواقع إن أمكن الجمع بينهما بأي طريق من طرق الجمع.

الثاني: إن لم يمكن الجمع تَبيَّن ضعف الحديث؛ لأنه لا يمكن للأحاديث الصحيحة أن تخالف شيئًا حسيًا واقعًا أبدًا؛ كما قال شيخ الإسلام في كتابه «العقل والنقل»: «لا يمكن للدليلين القطعيين أن يتعارضا أبدًا؛ لأن تعارضهما يقتضي إما رفع النقيضين أو جمع النقيضين، وهذا مستحيل، فإن ظُنَّ التعارض بينهما؛ فإما أن لا يكون تعارض ويكون الخطأ من الفهم، وإما أن يكون أحدهما ظنيًا والآخر قطعيًا».

فإذا جاء الأمر الواقع الذي لا إشكال فيه مخالفًا لظاهر شيء من الكتاب أو السنة؛ فإن ظاهر

. . . .

. . . .

الكتاب يُؤوَّل حتى يكون مطابقًا للواقع، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦]؛ أي: في السماوات.

والآية الثانية أشد إشكالاً من الآية الأولى؛ لأن الآية الأولى يمكن أن نقول: المراد بالسماء العلو، ولكن الآية الثانية هي المشكلة جدًا، والمعلوم بالحس المشاهد أن القمر ليس في السماء نفسها، بل هو في فلك بين السماء والأرض.

والجواب أن يقال: إن كان القرآن يدل على أن القمر مُرصَّع في السماء كما يرصع المسمار في الخشبة دلالة قطعية؛ فإن قولهم: إننا وصلنا القمر ليس صحيحًا، بل وصلوا جُرمًا في الجو ظنوه القمر.

لكن القرآن ليس صريحًا في ذلك، وليست دلالته قطعية في أن القمر مرصع في السماء؛ فآية الفرقان قال الله فيها: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]، فيمكن أن يكون المراد بالسماء العلو؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [البقرة: ٢٢]، والماء ينزل من السحاب المسخر بين السماء والأرض، كما قال الله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وهذا التأويل للآية قريب.

وأما قوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾؛ فيمكن فيها التأويل أيضًا بأن يقال: المراد لقوله: ﴿فِيهِنَّ﴾: في جهتهن، وجهة السماوات العلو، وحينئذ يمكن الجمع بين الآيات والواقع.

قوله: «والله فوق العرش»: هذا نص صريح بإثبات علو الله تعالى علواً ذاتيًا، وعلو الله ينقسم إلى قسمين:

أ ـ علو الصفة، وهذا لا ينكره أحد ينتسب للإسلام، والمراد به كمال صفات الله؛ كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

ب ـ علو الذات؛ وهذا أنكره بعض المنتسبين للإسلام؛ فيقولون: كل العلو الوارد المضاف إلى الله المراد به علو الصفة، فيقولون في قوله ﷺ: «**والله فوق العرش**»؛ أي: في القوة والسيطرة والسلطان، وليس فوقه بذاته.

ولا شك أن هذا تحريف في النصوص وتعطيل في الصفات.

والذين أنكروا علو الله بذاته انقسموا إلى قسمين:

أ ـ من قال: إن الله بذاته في كل مكان، وهذا لا شك ضلال مقتض للكفر.

ب ـ من قال: إنه لا فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا متصل بالخلق ولا منفصل عن الخلق، وهذا إنكار محض لوجود الله والعياذ بالله، ولهذا قال بعض العلماء: لو قيل لنا: صفوا العدم؛ ما وجدنا أبلغ من هذا الوصف.

. . . .

. . . .

ففروا من شيء دلت عليه النصوص والعقول والفطر إلىٰ شيء تنكره النصوص والعقول والفطر.

قوله: «لا يخفى عليه شيء من أعمالكم»: يشمل أعمال القلوب وأعمال الجوارح المرئي منها والمسموع، وذلك لعموم علمه وسعته، وإنما أتىٰ بذلك بعد ذكر علوه لِيُبيِّن أن علوه لا يمنع علمه بأعمالنا، وهو إشارة واضحة إلىٰ علو ذاته تبارك وتعالىٰ.

قوله: «العباس»: يقال: العباس، وعباس، و (أل) هنا لا تفيد التعريف؛ لأن عباس معرفة لكونه علمًا، لكنها للمح الأصل؛ كما يقال: الفضل لفضله، والعباس لعبوسه علىٰ الأعداء، قال ابن مالك:

وبعض الأعلام عليه دخلا للمح ما قد كان عنه نُقلا

قوله: «هل تدرون»: «هل»: استفهامية يراد بها أمران:

أ- التشويق لما سيذكر.

ب- التنبيه إلىٰ ما سيلقيه عليهم، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، هذا تنبيه وتشويق إلىٰ شيء من آيات الله الكونية.

وقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠] هذا تنبيه وتشويق علىٰ شيء من آيات الله الشرعية وهو الإيمان والعمل الصالح.

وقوله: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف: ١٠٣] تنبيه وتحذير.

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٦٠] تنبيه وتحذير.

واختلاف هذه المعاني بحسب القرائن والسياق، وإلا؛ فالأصل في الاستفهام أنه طلب العلم بالشيء.

قوله: «كم»: استفهامية.

قوله: «قلنا: الله ورسوله أعلم»: جاء العطف بالواو؛ لأن علم الرسول من علم الله؛ فهو الذي يُعلِّمه بما لا يدركه البشر.

وكذلك في المسائل الشرعية يقال: الله ورسوله أعلم؛ لأنه ﷺ أعلم الخلق بشرع الله، وعلمه من علم الله، وما قاله ﷺ في الشرع فهو كقول الله، وليس هذا كقوله: «ما شاء الله وشئت»[(١)]؛ لأن هذا في باب القدر والمشيئة، ولا يمكن أن يُجعل الرسول ﷺ مشاركًا لله في ذلك، بل يقال: ما شاء الله، ثم يعطف بـ (ثم)، والضابط في ذلك أن الأمور الشرعية يصح فيها العطف بالواو، وأما الكونية؛ فلا.

ومن هنا نعرف خطأ وجهل من يكتب علىٰ بعض الأعمال: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ١٠٥] بعد موت الرسول ﷺ وتعذُّر رؤيته فالله يرىٰ، ولكن رسوله لا يرىٰ، فلا تجوز كتابته لأنه كذبٌ عليه ﷺ.

قوله: «خمسمائة سنة»: الميم الثانية في خمس مئة مكسورة والألف لا ينطق بها.

---

(١) صحيح: رواه النسائي (٣٧٧٣)، وابن ماجه (٢١١٧)، وأحمد (١٨٤٢) ومواضع، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٣٦).

. . . .

. . . .

قوله: «وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض»: وذلك خمسمائة سنة.

قوله: «والله تعالى فوق ذلك»: هذا دليل على العلو العظيم لله ـ عز وجل ـ وأنه ـ سبحانه ـ فوق كل شيء ولا يحيط به شيء من مخلوقاته، لا السماوات ولا غيرها، وعليه؛ فإنه ـ سبحانه ـ لا يوصف بأنه في جهة تحيط به؛ لأن ما فوق السماوات والعرش عدم، ليس هناك شيء حتى يقال: إن الله أحاط به شيء من مخلوقاته.

ولهذا جاء في بعض كتب أهل الكلام يقولون: لا يجوز أن يوصف الله بأنه في جهة مطلقًا، وينكرون العلو ظنًا منهم أن إثبات الجهة يستلزم الحصر.

وليس كذلك؛ لأننا نعلم أن ما فوق العرش عدم لا مخلوقات فيه، ما ثمَّ إلا الله، ولا يحيط به شيء من مخلوقاته أبدًا.

فالجهة إثباتها لله فيه تفصيل، أما إطلاق لفظها نفيًا وإثباتًا فلا نقول به؛ لأنه لم يرد أن الله في جهة، ولا أنه ليس في جهة، ولكن نُفصل؛ فنقول: إن الله في جهة العلو؛ لأن الرسول ﷺ قال للجارية: «**أين الله؟**».

وأين يُستفهم بها عن المكان؛ فقالت: في السماء.

فأثبتت ذلك، فأقرها النبي ﷺ عليه، وقال: «**أعتقها؛ فإنها مؤمنة**»[1].

وأهل التحريف يقولون: «أين» بمعنى «من»؛ أي: من الله؟ قالت: في السماء؛ أي: هو من في السماء، وينكرون العلو.

وقد رد عليهم ابن القيم رحمه الله في كتبه ومنها «النونية» وقال لهم: اللغة العربية لا تأتي فيها «أين» بمعنى «من»، وفرقٌ بين «أين»، و «من».

فالجهة لله ليست جهة سفل، وذلك لوجوب العلو له فطرة وعقلاً وسمعًا، وليست جهة علو تحيط به؛ لأنه تعالى وسع كرسيه السموات والأرض، وهو موضع قدميه؛ فكيف يحيط به تعالى شيء من مخلوقاته؟!

فهو في جهة علو لا تحيط به، ولا يمكن أن يقال: إن شيئًا يحيط به؛ لأننا نقول: إن ما فوق العرش عدم ليس ثم إلا الله ـ سبحانه ـ ولهذا قال: «**والله تعالى فوق ذلك**».

قوله: «**وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم**».

وقوله: «**أعمال**»: إن قرنت بالأقوال صار المراد بها: أعمال الجوارح، والأقوال للسان، وإن أفردت شملت أعمال الجوارح وأقوال اللسان وأعمال القلوب، وهي هنا مفردة؛ فتشمل كل ما يتعلق باللسان أو القلب أو الجوارح، بل أبلغ من ذلك أنه لا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم في المستقبل؛ فهو يعلم ما يكون فضلاً عما كان، قال تعالى: ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ**﴾ [طه: ١١٠]؛ أي: ما يستقبلونه وما مضى عليهم.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٣٧).

. . . .

قلت: وهذه الأحاديث وما في معناها، تدل على عظمة الله وعظيم قدرته وعظم مخلوقاته. وقد تعرف سبحانه وتعالى إلى عباده بصفاته، وعجائب مخلوقاته.

وكلها تعرف وتدل على كماله وأنه هو المعبود وحده، لا شريك له في ربوبيته وإلهيته[1]. وتدل على إثبات الصفات على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل. وهذا هو الذي دل عليه نصوص

ولما قال فرعون لموسى: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ﴾؛ أي: ما شأنها؟ قال: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾؛ أي: محفوظة ﴿لاَّ يَضِلُّ رَبِّي﴾: لا يجهل ﴿وَلا يَنسَى﴾ [طه: ٥١، ٥٢]، لا يذهل عمَّا مضى - سبحانه وتعالى -.

والنبي ﷺ صدَّر هذا الأمر بـ «هل» الدالة على التشويق والتنبيه من أجل أن يثبت عقيدة عظيمة، وهو أنه تعالى فوق كل شيء بذاته، وأنه محيط بكل شيء علمًا؛ لقوله: «وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم»، فإذا علمنا ذلك، أوجب لنا تعظيمه والحذر من مخالفته؛ لأنه فوقنا فهو عالٍ علينا، وأمره محيط بنا.

وفي الحديث صفتان لله: ثبوتية: وهي العلو المستفاد من قوله: «والله فوق ذلك».

وسلبية: المستفادة من قوله: «ليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم»، ولا يوجد في صفات الله - عز وجل - صفة سلبية محضة، بل صفاته السلبية التي هي النفي متضمنة لثبوت ضدها على وجه الكمال، فينفى عنه الخفاء لكمال علمه، ويُنفى عنه اللغوب لكمال قوته، وينفى عنه العجز لكمال قدرته، وما أشبه ذلك.

فإذا نفى الله عن نفسه شيئًا من الصفات؛ فالمراد انتفاء تلك الصفة عنه لكمال ضدها؛ كما قال تعالى: ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، السنة: النعاس، والنوم: الإغفاء العميق، وذلك لكمال حياته وقيوميته؛ إذ لو كان ناقص الحياة لاحتاج إلى النوم؛ ولو نام ما كان قيومًا على خلقه؛ لأنه حين ينام لا يكون هناك من يقوم عليهم، ولهذا كان أهل الجنة لا ينامون لكمال حياتهم؛ ولأن النوم في الجنة يذهب عليهم وقت بلا فرح ولا سرور ولا لذة؛ لأن السرور فيها دائم، ولأن النوم هو الوفاة الصغرى، والجنة لا موت فيها. وليس في صفات الله نفي محض؛ لأن النفي المحض عدم لا ثناء فيه ولا كمال، بل هو لا شيء، ولأن النفي أحيانًا يرد لكون المحلّ غير قابل له، مثل قولك: الجدار لا يظلم.

وقد يكون نفي الذم ذمًا، كما في قول:

قُبيلة لا يغدرون بذمة ... ولا يظلمون الناس حبَّة خردل

فنفي الغدر عنهم والظلم ليس مدحًا، بل هو ذم يُنبئ عن عجزهم وضعفهم.

وقال آخر:

لكنَّ قومي وإن كانوا ذَوِي حسب ... ليسوا من الشَّر في شَيء وإن هَانَا

يجزُون من ظُلم أهل الظّلم مغفرةً ... ومن إساءة أهل السوءِ إحسانَا

---

(١) في قرة العيون: وأن العبادة لا تصلح إلا له سبحانه وبحمده؛ ولا يصلح منها شيء لملك مقرب ولا لنبي مرسل ولا لمن دونهما. (ق).

. . . .

الكتاب والسنة، وعليه سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان، واقتفى آثارهم على الإسلام والإيمان.

وتأمل ما في هذه الأحاديث الصحيحة، من تعظيم النبي ﷺ ربه بذكر صفات كماله على ما يليق بعظمته وجلاله، وتصديقه اليهود فيما أخبروا به عن الله من الصفات التي تدل على عظمته.

وتأمل ما فيها من إثبات علو الله على عرشه، ولم يقل النبي ﷺ في شيء منها: إن ظاهرها غير مراد، أو إنها تدل على تشبيه صفات الله بصفات خلقه. فلو كان هذا حقًا بلغه أمينه أمته؛ فإن الله أكمل له الدين وأتم به النعمة، فبلغ البلاغ المبين. صلوات الله وسلامه عليه، وعلى أصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين.

وتلقى الصحابة رضي الله عنهم عن نبيهم ﷺ ما وصف به ربه، من صفات كماله ونعوت جلاله. فآمنوا به، وآمنوا بكتاب الله وما تضمنه من صفات ربهم جل وعلا؛ كما قال تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

وكذلك التابعون لهم بإحسان وتابعوهم، والأئمة من المحدثين والفقهاء: كلهم وصفوا الله بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ. ولم يجحدوا شيئًا من الصفات، ولا قال أحد منهم: إن ظاهرها غير مراد، ولا إنه يلزم من إثباتها التشبيه. بل أنكروا على من قال ذلك غاية الإنكار، وصنفوا في رد هذه الشبهات المصنفات الكبار المعروفة، الموجودة بأيدي أهل السنة والجماعة.

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله: وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله ﷺ، وكلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة مملوء بما هو نص، أو ظاهر: أن الله تعالى فوق كل شيء، وأنه فوق العرش فوق السموات، مستو على عرشه، مثل قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨] وقوله تعالى: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٣، ٤].

وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]

وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣]؛ فذكر التوحيدين في هذه الآية.

. . . .

. . . .

وقوله تعالىٰ: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ۝٤ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٤، ٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ۝٥٨ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨، ٥٩].

وقوله تعالىٰ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٤، ٥].

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] فذكر عموم قدرته، وعموم إحاطته وعموم رؤيته.

قوله: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

وقوله تعالىٰ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجاثية: ٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۝٣٦ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]. انتهىٰ كلامه رحمه الله.

قلت: وقد ذكر الأئمة رحمهم الله تعالىٰ ـ فيما صنفوه في الرد علىٰ نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ونحوهم أقوال الصحابة والتابعين:

فمن ذلك: ما رواه الحافظ الذهبي في كتاب «العلو»، وغيره ـ بالأسانيد الصحيحة ـ عن أم سلمة زوج النبي ﷺ، أنها قالت في قوله تعالىٰ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ قالت: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر. رواه ابن المنذر، واللالكائي، وغيرهما بأسانيد صحاح.

قال: وثبت عن سفيان بن عيينة، أنه قال: لما سئل ربيعة ابن أبي عبد الرحمن: كيف الاستواء؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق.

وقال ابن وهب: كنا عند مالك، فدخل رجل، فقال: يا أبا عبد الله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ كيف استوىٰ؟ فأطرق مالك، وأخذته الرحضاء، وقال: الرحمن على العرش استوىٰ، كما وصف نفسه، ولا يقال: كيف؟ وكيف عنه مرفوع. وأنت صاحب بدعة، أخرجوه. رواه البيهقي بإسناد صحيح، عن ابن وهب.

ورواه عن يحيىٰ أيضًا، ولفظه، قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

. . . .

. . . .

قال الذهبي: فانظر إليهم، كيف أثبتوا الاستواء لله، وأخبروا أنه معلوم لا يحتاج لفظه إلى تفسير، ونفوا عنه الكيفية.

قال البخاري في «صحيحه»: قال مجاهد ﴿ اسْتَوَىٰ﴾ علا على العرش[1].

قال إسحاق بن راهويه: سمعت غير واحد من المفسرين، يقول ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ أي: ارتفع.

وقال محمد بن جرير الطبري، في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ أي علا وارتفع.

وشواهده في أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم، فمن ذلك: قول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

شهدت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا

وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا

وتحمله ملائكة شداد ... ملائكة الإله مسومينا

وروى الدارمي، والحاكم، والبيهقي بأصح إسناد، إلى علي بن الحسن بن شقيق، قال: سمعت ابن المبارك يقول: نعرف ربنا بأنه فوق سبع سمواته، على العرش استوى، بائن من خلقه. لا نقول كما قالت الجهمية.

قال الدارمي: حدثنا حسن بن الصباح البزار، حدثنا علي بن الحسن بن شقيق، عن ابن المبارك: قيل له: كيف نعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق السماء السابعة، على العرش بائن من خلقه.

وقد تقدم قول الأوزاعي: كنا ـ والتابعون متوافرون ـ نقول: إن الله تعالى ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة.

وقال أبو عمر الطلمنكي في كتاب «الأصول»: أجمع المسلمون من أهل السنة، على أن الله استوى على عرشه بذاته.

وقال في هذا الكتاب أيضًا: أجمع أهل السنة، على أن الله تعالى استوى على عرشه على الحقيقة، لا على المجاز. ثم ساق بسنده، عن مالك، قوله: الله في السماء، وعلمه في كل مكان.

ثم قال في هذا الكتاب: أجمع المسلمون من أهل السنة، أن معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ ونحو ذلك من القرآن: أن ذلك علمه، أن الله فوق السموات بذاته، مستو على عرشه كيف شاء. وهذا لفظه في كتابه.

وهذا كثير في كلام الصحابة، والتابعين والأئمة: أثبتوا ما أثبته الله في كتابه وعلى لسان رسوله على الحقيقة، على ما يليق بجلال الله وعظمته، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين. ولم يمثلوا ولم يكيفوا، على ما ذكرنا ذلك عنهم في هذا الباب.

. . . .

(١) رواه البخاري معلقًا في كتاب التوحيد باب وكان عرشه على الماء.

. . . .

وقال الحافظ الذهبي: وأول وقت سمعت مقالة من أنكر أن الله تعالىٰ فوق العرش: هو الجعد بن درهم، وكذلك أنكر جميع الصفات. فقتله خالد بن عبدالله القسري، وقصته مشهورة.

وأخذ عنه هذه المقالة: الجهم بن صفوان، إمام الجهمية. فأظهرها واحتج لها بالشبهات، وكان ذلك في آخر عصر التابعين. فأنكر مقالته أئمة العصر، مثل الأوزاعي، وأبي حنيفة، ومالك، والليث ابن سعد، والثوري، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، ومن بعدهم من أئمة الهدىٰ.

فقال الأوزاعي، إمام أهل الشام علىٰ رأس الخمسين ومائة عند ظهور هذه المقالة: ما أخبرنا عبد الواسع الأبهري بسنده، إلىٰ أبي بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني محمد بن علي الجوهري ـ ببغداد ـ حدثنا إبراهيم بن الهيثم، حدثنا محمد بن كثير المصيصي، سمعت الأوزاعي يقول: كنا ـ والتابعون متوافرون ـ نقول: إن الله فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته.

أخرجه البيهقي في «الصفات»، ورواته ثقات.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ: لله أسماء وصفات، لا يسع أحد ردها.

ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل.

ونثبت هذه الصفات، وننفي عنه التشبيه؛ كما نفىٰ عن نفسه، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١] انتهىٰ من «فتح الباري».

قوله: «وعن العباس بن عبد المطلب»، وساقه المصنف مختصراً، والذي في «سنن أبي داود»: عن العباس بن عبد المطلب، قال: كنت في البطحاء، في عصابة فيهم رسول الله ﷺ. فمرت بهم سحابة، فنظر إليها، فقال: **«ما تسمون هذه؟»** قالوا: السحاب، قال: **«والمزن»**. قالوا: والمزن، قال: **«والعنان»** قالوا: والعنان ـ قال أبو داود: لم أتقن العنان جيداً ـ قال: **«هل تدرون ما بعد بين السماء والأرض؟»** قالوا لا ندري، قال: **«إن بعد ما بينهما إما واحدة، أو اثنتان، أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك»** حتىٰ عدد سبع سموات. **«ثم فوق السابعة بحر، بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء. ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء. ثم على ظهورهم العرش، بين أسفله وأعلاه، كما بين سماء إلى سماء. ثم الله تبارك وتعالى، فوق ذلك»**. وأخرجه الترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب، وقال الحافظ الذهبي: رواه أبو داود بإسناد حسن(١).

. . . .

(١) في إسناده الوليد بن أبي ثور لا يحتج بحديثه. وقد ساقه أبو داود من غير طريق الوليد. وقال العلامة ابن القيم في تهذيب سنن أبي داود: أما رد الحديث بالوليد بن أبي ثور ففاسد، فإن الوليد لم ينفرد به بل تابعه عليه إبراهيم بن طهمان كلاهما عن سماك. ومن طريقه رواه أبو داود. ورواه أيضًا عمرو بن أبي قيس عن سماك. ومن حديثه رواه الترمذي عن عبد بن حميد أخبرنا عبدالرحمن بن سعد بن عمرو بن أبي قيس. اهـ. ورواه ابن ماجه من حديث الوليد بن أبي ثور عن سماك. وأي ذنب للوليد في هذا؛ وأي تعلق به؟ وإنما ذنبه روايته ما يخالف قول الجهمية وهي علته المؤثرة عند القوم. اهـ. (ق).

. . . .

وروىٰ الترمذي نحوه، من حديث أبي هريرة، وفيه «**بعد ما بين سماء إلى سماء خمسمائة عام**»[١] ولا منافاة بينهما؛ لأن تقدير ذلك بخمسمائة عام، هو علىٰ سير القافلة مثلاً، ونيف وسبعون سنة علىٰ سير البريد. لأنه يصح أن يقال: بيننا وبين مصر عشرون يومًا باعتبار سير العادة، وثلاثة أيام سير البريد. وروىٰ شريك بعض هذا الحديث، عن سماك فوقفه، هذا آخر كلامه[٢].

قلت: في التصريح بأن الله فوق عرشه، كما تقدم من الآيات المحكمات والأحاديث الصحيحة، وفي كلام السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم.

وهذا الحديث له شواهد في «الصحيحين» وغيرهما، ولا عبرة بقول من ضعفه؛ لكثرة شواهده التي يستحيل دفعها، وصرفها عن ظواهرها.

وهذا الحديث كأمثاله: يدل علىٰ عظمة الله وكماله، وعظيم مخلوقاته، وأنه المتصف بصفات الكمال التي وصف بها نفسه في كتابه، ووصفه بها رسوله ﷺ.

وعلىٰ كمال قدرته، وأنه هو المعبود وحده لا شريك له، دون كل ما سواه.

وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وصلىٰ الله علىٰ سيدالمرسلين وإمام المتقين، نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين. تم كتاب «فتح المجيد» بعون الملك الحميد.

. . . .

(١) ضعيف: ضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٦٠٩٤).

(٢) في قرة العيون: قلت وهذا الحديث له شواهد في الصحيحين وغيرهما مع ما يدل عليه صريح القرآن فلا عبرة بقول من ضعفه.

وقد ابتدأ المصنف رحمه الله تعالى هذا المصنف العظيم ببيان توحيد الإلهية لأن أكثر الأمة ممن تأخر قد جهلوا هذا التوحيد؛ وأتوا بما ينافيه من الشرك والتنديد، فقام ببيان التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونهوهم عما كانوا عليه من الشرك المنافي لهذا التوحيد. فالدعوة إلى ذلك هي أهم الأمور وأوجبها لمن وفقه الله لفهمه، وأعطاه القدرة على الدعوة إليه، والجهاد لمن خالفه ممن أشرك بالله في عبادته؛ فقرر هذا التوحيد كما ترى في هذه الأبواب؛ ثم ختم كتابه بتوحيد الأسماء والصفات لأن أكثر العامة ليس لهم التفات إلى هذا العلم الذي خاض فيه من ينتسب إلى العلم. وأما من ينتسب إلى العلم فهم أخذوا عمن خاض في هذه العلوم، وأحسنوا الظن بأهل الكلام، وظنوا أنهم على شيء، فقبلوا ما وجدوه عنهم، فأقروا مذهب الجهمية، وألحدوا في توحيد الأسماء والصفات. وخالفوا ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وما عليه سلف الأمة وأئمة الحديث والتفسير من المتقدمين وما زال أهل السنة متمسكين بذلك لكنهم قلوا. فهدى الله هذا الإمام إلى معرفة أنواع التوحيد فقررها بأدلتها، فلله الحمد على توفيقه وهدايته إلى الحق حين اشتدت غربة الإسلام فضل عنه من ضل من أهل القرى والأمصار. وغيرهم. وبالله التوفيق.

فقد اجتمع في هذا المصنف أنواع التوحيد الثلاثة التي أشار إليها العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى بقوله:

والعلم أقسام ثلاث ما لها ... من رابع والحق ذو تبيان

علم بأوصاف الإله وفعله ... وكذلك الأسماء للرحمن

والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثاني

وصلى الله على سيد المرسلين، وإمام المتقين، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.(ق).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

الثانية: إنَّ هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ لم ينكروها ولم يتأولوها.

الثالثة: أنَّ الحبر لما ذكر للنبي ﷺ، صدَّقه، ونزل القرآن بتقرير ذلك.

الرابعة: وقوع الضحك من رسول الله ﷺ لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم.

الخامسة: التصريح بذكر اليدين، وأنَّ السموات في اليد اليمنى، والأرضين في الأخرى.

السادسة: التصريح بتسميتها الشمال.

السابعة: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك.

. . . .

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: وقد تقدم من حديث ابن مسعود، حيث أقر النبي ﷺ الحبر على أن الله يجعل السماوات على إصبع . . . إلخ.

الثانية: أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ لم ينكروها ولم يتأولوها: كأنه يقول: إن اليهود خير من أولئك المحرفين لها؛ لأنهم لم يُكذِّبوها ولم يتأولوها، وجاء قوم من هذه الأمة؛ فقالوا: ليس لله أصابع، وإن المراد بها القدرة؛ فكأنه يقول: اليهود خير منهم في هذا وأعرف بالله.

الثالثة: أن الحبر لما ذكر للنبي ﷺ صدقه، ونزل القرآن بتقرير ذلك: ظاهر كلام المؤلف بقوله: «ونزل القرآن أنه بعد كلام الحبر، وليس كذلك؛ لأنه في حديث ابن مسعود قال: ثم قرأ قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

وهذا يدل على أن الآية نزلت من قبل، لكن مراد المؤلف أن القرآن قد نزل بتقرير ذلك.

الرابعة: وقوع الضحك من الرسول ﷺ لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم: ففيه دليل على جواز الضحك في تقرير الأشياء؛ لأن الضحك يدل على الرضا وعدم الكراهية.

الخامسة: التصريح بذكر اليدين، وأن السماوات في اليد اليمنى والأرضين في الأخرى: وقد ثبتت اليدان لله تعالى بالكتاب والسنة وإجماع السلف.

وقوله: «في الأخرى» لا يعني أنه ينفي ذكر الشمال لما ذكره في المسألة التالية وهي:

السادسة: التصريح بتسميتها الشمال: وقد سبق الكلام على ذلك.

السابعة: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك: ووجه ذكرهم أنه إذا كان لهم تَجَبر وتَكَبر الآن؛ فليقوموا بذلك.

الثامنة: قوله: كخردلة في كفِّ أحدكم.

التاسعة: عظم الكرسي بالنسبة إلى السماء.

العاشرة: عظم العرش بالنسبة إلى الكرسي.

الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسي والماء.

الثانية عشرة: كم بين كل سماء إلى سماء.

الثالثة عشرة: كم بين السماء السابعة والكرسي.

الرابعة عشرة: كم بين الكرسي والماء.

الخامسة عشرة: أن العرش فوق الماء.

الثامنة: قوله: «كخردلة في كف أحدكم»: يعني بذلك قوله: **«ما السماوات السبع والأرضين السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في كف أحدكم»**[1].

وفيه صحة إطلاق الكف على يد الله عز وجل ـ وبيان صغر المخلوقات بالنسبة للخالق.

التاسعة: عظم الكرسي بالنسبة إلى السماء: حيث ذكر أنها بالنسبة للكرسي كدراهم سبعة ألقيت في ترس.

العاشرة: عظم العرش بالنسبة إلى الكرسي: لأنه جعل الكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض بالنسبة للعرش.

الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسي والماء: ولم أر من قال: إن العرش هو الماء، لكن هناك من قال: إن العرش هو الكرسي؛ لحديث: **«إن الله يضع كرسيه يوم القيامة»**[2]، وظنوا أن هذا الكرسي هو العرش.

وكذلك زعم بعض الناس أن الكرسي هو العلم؛ فقالوا في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ أي: علمه.

والصواب: أن الكرسي موضع القدمين، والعرش هو الذي استوى عليه الرحمن ـ سبحانه ـ، والعلم صفة في العالم يدرك بها المعلوم.

الثانية عشرة: كم بين كل سماء إلى سماء؟ وهو خمسمائة عام.

الثالثة عشرة: كم بين السماء السابعة والكرسي؟ وهو خمسمائة عام.

الرابعة عشرة: كم بين الكرسي والماء؟ وهو خمسمائة عام.

الخامسة عشرة: أن العرش فوق الماء: وهي ظاهرة.

---

(١) لم أقف عليه. (٢) لم أقف عليه.

السادسة عشرة: أن الله فوق العرش.

السابعة عشرة: كم بين السماء والأرض.

الثامنة عشرة: كثف كل سماء خمسمائة عام.

التاسعة عشرة: أنَّ البحر الذي فوق السموات، بين أسفله وأعلاه مسيرة خمسمائة عام.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

. . . .

السادسة عشرة: أن الله فوق العرش: وهي ظاهرة.

السابعة عشرة: كم بين السماء والأرض؟ وهو خمسمائة عام.

الثامنة عشرة: كثف كل سماء خمسمائة سنة.

التاسعة عشرة: أن البحر الذي فوق السموات بين أسفله وأعلاه خمسمائه سنة: وقد سبق الكلام على جميع هذه المسائل بأدلتها.

ويستفاد من أحاديث الباب:

١ ـ أن الله لا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم.

٢ ـ التحذير من مخالفة الله ـ عز وجل ـ.

والله أعلم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وأسأل الله أن يختم لنا ولكم بالتوحيد؛ آمين.

* * *

أنظر قناة التيلغرام 👇

(تحميل كتب ورسائل علمية)





تحميل كتب و رسائل علمية

channel publik

Info

t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah

Tautan Undangan

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

* * *